يا كل العالم لماذا أتيت

عبدالله القصيمي



ص.ب 113/5752

E-mail:arabdiffusion@hotmail.com
arabdiffusion@hotmail.co.uk

www.alintishar.com

بيروت - لبنان

هاتف:١٦٥٩١٤٨ - ٩٦١ فاكس: ١٦٥٩١٥٠ - ٩٦١

ISBN 978-9953-507-35 -4

الطبعة الثانية 2008

فهرس المحتويات

يا كلّ العالم من أين أتيت؟

لا تحسب هذا دعوة إلى التشاؤم أو إلى الموت بالاختيار، فأنت لن تتشاءم أو تموت بالقراءة أو بالدعوة أو بالإقناع والحوار أو حتى بالاقتناع. ولكنها دعوة إلى رؤية الذات وقراءتها ومحاورتها.. ما أقسى وأصعب ذلك، أي التخاطب والتحاور مع الذات وقراءتها ورؤيتها.. حتى الآلهة هل استطاعت أو تستطيع أن ترى أو تقرأ أو تحاور أو تخاطب أو تفهم ذاتها؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو فعلت ذلك؟ هل نتمنى أن تكون قد استطاعت وفعلت ذلك؟ إنها أي الآلهة لم تر ولن ترى ذنباً أو خطأً من ذنوبها وأخطائها التي هي كل الذنوب والأخطاء، وترى بكل القسوة والمحاسبة كل ذنوب وأخطاء كل الآخرين التي هي كلها ذنوبها وأخطاؤها هي بلا منافس أو مشارك.. لقد علمتك آلهتك ألا ترى نفسك ووجودك مهما استطعت أو أردت أن ترى كل شيء بل أن ترى ما ليس شيئاً!

هل تستطيع يا كل العالم أن تسأل هذا السؤال أو تسمعه أو تقرأه أو تفسره أو تفهمه أو تحاسب أو تحاكم وجودك وكل كينوناتك وحضاراتك وإبداعاتك وعبقرياتك وآلهتك وأديانك وأنبيائك به دون أن تصرخ بكل لغاتك وحسراتك وانفجاعاتك: لا، لا.. لا أريد ولا أقبل ولا أستطيع أن أسأل أو أقرأ أو أرى أو أفهم أو أفسر أو أحاسب أو أحاكم أو أخاصم أو حتى أحاور نفسي أو وجودي أو بدايتي أو نهايتي أو حوافزي أو أهدافي أو أي تفسير من تفاسير وجودي.. إن ذاتي ووجودي هما كل أعدائي.. كل أسلحة وجيوش ومراكز أعدائي. وإن في رؤيتي لذاتي ووجودي كل عذابي وانفجاعي وهواني وهزائمي وفضائحي. إني لا أستطيع أن أرضى أو أقبل أو أعايش أو أسالم شيئاً من وجودي أو كينوناتي إلّا بأن أجيء وأظل أعمى أصم أخرس فاقداً كل لغات التعبير المتسائل المحاسب المحاكم المشترط النابض.. نعم، يا كل العالم هذا السؤال المرهب الفاجع الهازم الفاضح الطارد المذل لكل شيء والذي هو أكبر وأذكى وأقوى من كل شيء.. من كل وجود ومن تفاسير وأخلاق ومعاني كل وجود وموجود..

... هذا السؤال الذي قد يقال إن الآلهة لم تبتكر الأديان والأنبياء إلّا لكي توظفهم للصرف والإلهاء عنه، أي لو كانت أو إن كانت أي الآلهة قد فطنت إليه.. إلى هذا السؤال. وكذلك جاءت النظم والمذاهب والتعاليم للصد عنه مفترضة قد فطنت إليه، وهذا افتراض صعب مثل افتراضه في الآلهة. إن الآلهة والمذاهب والتعاليم والنظم لا تخاف أو تقاوم مثلما تخاف وتقاوم الأسئلة الصادقة الباسلة المحاسبة المحاكمة لأنه لا يعريها أو يفضحها أو يقهرها ويسقطها مثل هذه الأسئلة..!

هذا السؤال الذي يقول والذي يجب أن يقول والذي كيف أمكن وحدث ألا يقول؟ هذا السؤال الذي يقول بكل اللغات التي لم يعرفها أو يتكلمها أحد من البشر أو من غير البشر أو حتى من

الآلهة، مع أن المفروض والواجب أن يكون هو السؤال الأول والحروف الأولى في كل اللغات، بل واللغة الأولى من كل اللغات بل أن يكون هو السبب المعلم لكل اللغات، هذا السؤال الذي لو قرأته وعرفته الشموس لغابت عنها كل أمجادها..!

.. الذي يقول دون أن يقول أو يجرؤ أن يقول أو يقال.. أليس أصدق وأقوى وأذكى وأتقى وأجهر الأقوال هي الأقوال التي لا تقال ولا يجرأ أو يستطاع أن تقال أو تقول.. التي لم تعرف أو تجرؤ أو تستطع أن تقولها حتى الآلهة، هل استطاع أو عرف أو أراد أي إله أن يقول أي قول ذكي أو صادق أو جميل أو نافع أو مهذب؟ نعم، أعني السؤال الذي يقول أو يطلب أو ينبغي أو يجب أن يقول:

يا كل العالم من أين جئت ولماذا جئت أو جيء بك كما جئت بالصيغ والأساليب والأحجام والذوات والصفات والسلالات وفي الزمان والمكان والبدايات والنهايات التي جئت محكوماً بها مفروضة عليك بكل ضروراتها واحتياجاتها وظروفها وآلهتها وأديانها وعبودياتها وأحقادها وعداواتها وانقساماتها وتمزقاتها وحتمياتها وأخطائها وخطاياها وبكل آلامها وعاهاتها.. بكل ملائكتها وأبالستها وإيمانها وزندقاتها.. دون أن تدري أو توافق أو تستشار أو تختار أو حتى تشارك أو تحضر أو ترى أو يختار لك بين أكوان وعوالم وأشتات الاحتمالات أكثرها ملائمة وراحة لك، أو أقلها تعذيباً وإذلالاً وتحقيراً وتشويهاً وفضحاً وهزيمة وتضليلاً وتجويعاً وصدمات لأشواقك وآمالك وتطلعاتك بل ولآلهتك وأنبيائك وأديانك وتعاليمك وقراءاتك وفلسفاتك وتفاسيرك ولكل صيغ ومعاني وجودك وحياتك؟ كيف اختار لك وجودك، من اختاره إن كان وجودك باختيار وهل يقبل أو يعقل أو يغفر أن يكون باختيار أو أن يكون بلا اختيار؟ ولو وجد المختار فمن اختاره ولماذا اختاره ليجيء مختاراً كما جاء؟

.. يا كل العالم أتحسب أنك تربح من مجيئك بممارساتك اليومية اللذيذة الفرحة النزقة الضاحكة النشوى الفاضحة المعرية المذلّة لأعضائك المستعبدة المفسّرة لها كل التفاسير الأليمة الصغيرة الرديئة؟ لا.. حدق بقسوة لتجد أنه لا ربح لك في أي شيء من ذلك.

.. إن هذه الممارسات المحسوبة والمزعومة كل السعادة والبهجة والمرح ليست إلّا رفضاً ومقاومة للنقيض وإعلاناً عنه وتداوياً وهرباً منه ومحاولة للتخفيف من قسوته، بل ليست أي هذه الممارسات السعيدة إلّا نقيضها جاءت في صيغ ولغات أخرى..!

إن هذه الممارسات ليست إلّا أقسى أساليب استعباد وإذلال وجودك لأعضائك واستعباد وإذلال أعضائك لك.. لكل معانيك.. إنها ليست لذة بل مقاومة للعذاب.. إنها ليست إلّا بعض أساليب مقاومة وجودك لكينونات مجيئك. ليست إلّا هرباً من مجيئك كما جئت وشتماً له وغيظاً منه.

إنها إعلان عن ورطتك بوجودك وعن ورطة وجودك بك..! حتى عبقرياتك وإبداعاتك وابتكاراتك الخلّاقة إنها ليست إلّا احتجاجاً على قبح وافتضاح وآلام وآثام وضياع مجيئك ومحاولة للتداوي والتخفيف من ذلك والستر عليه والتضليل والصرف عنه والتجميل لقبحه وبؤسه..!

إن كل عبقرياتك وإبداعاتك ليست إلّا محاولة لتغطية وستر كل القبح أو لتخفيف وتخدير كل الألم والعذاب.. إنها إذن في كل الحسابات والتفاسير والرؤى ليست ربحاً أو عطاء ولكنها شيء من

المقاومة والدفاع والتهوين أي عبقرياتك وإبداعاتك وابتكاراتك الخلّاقة العظيمة..!

شيء من المقاومة والدفاع والتهوين من بشاعة وورطة مجيئك، هل يوجد ما يشكى أو يبكى أو يخجل منه لولا مجيئك؟ هل يمكن ذلك؟ إن المدافع لن يكون رابحاً أو آخذاً أو معطى مهما انتصر..! إن كل عبقرياتك وإنجازاتك الهائلة المذهلة لا تساوي إلّا تسديد أو محاولة تسديد بعض احتياجات ومجاعات وجودك أو إلّا التخفيف أو محاولة التخفيف من آلام وعار وقبح وعجز وجودك أو من كآبته وعبثه وفراغه من المعاني.. إذن ماذا تساوي عبقرياتك وإنجازاتك الصاعدة بك فوق النجوم؟ ماذا تساوي محاسبة بوجودك ومحاسباً بها وجودك؟ إن كل ما تفعله وأعظم ما تفعله لن يكون إلّا تداوياً أو محاولة للتداوي من أدواء وآلام وأخطاء وتفاهات وجودك أي مجيئك أو المجيء بك كما جئت.. إن كل أفكارك وتخطيطاتك وخطواتك واهتماماتك وقفزاتك ليست إلّا مقاومة لوجودك.. إلّا تداوياً من مجيئك.. مما فرض عليك وأوقعه بك وجودك أي مجيئك كما جئت.. إلّا تكفيراً عن ذنوب مجيئك.. إن جميع آلهتك كما تقول وتروي أنت لم تستطع أو تقبل أو ترد أن تغفر كل ذنوب مجيئك، ولهذا أعدت للانتقام منك الجحيم بكل ما فيه من أهوال الحساب والعقاب والعذاب كما تقول لك أديانك ونبواتك وتعاليمك.. هل عرفت ذلك؟ كيف لم تعرفه؟ لو كانت آلهتك راضية عن مجيئك هل تقاسي لتبتكر الجحيم؟

أليس ابتكار الجحيم للتعذيب به أي لتعذيبك به تدليلاً واعترافاً وإعلاناً بأن آلهتك لا تستطيع أو لا تقبل أو تريد أن تغفر كل أخطاء وخطايا وقبح ودمامات وتشوّهات مجيئك؟ أليس الجحيم بكل أهواله أحد التفاسير لضخامة ذنوب مجيئك؟ لقد تحولت آثام مجيئك إلى أقسى التعذيب لآلهتك.. إلى أقسى الغيظ والإغضاب والإذلال والهزائم لهم.. لهذا ابتكروا لك الجحيم بكل جنونه!

.. يا كل العالم أتحسب أنك تتعامل أو تستطيع أن تتعامل مع أي شيء من الحرية التي تتحدث عنها بكل الإعجاب والكبرياء والدوام والحماس والصهيل فلسفاتك وتعاليمك ومذاهبك وقياداتك وزعاماتك وسذاجاتك؟

كيف لم تعرف يا كل العالم إن قمة حريتك هي حضيض عبوديتك؟.. إنك منذ الحبل بك.. منذ وضعك بذرة إلى ولادتك.. إلى نهايتك مسترق مستعبد كل صيغ وتفاسير ومعاني الاسترقاق والاستعباد في كل تصرفاتك ونياتك واتجاهاتك بلا أي أمل في حريتك أو تحريرك أو إعتاقك.. إنك حبلاً وولادة وطفولة وشباباً ورجولة وكهولة وشيخوخة ونهاية تتنقل من عبودية إلى عبودية بلا مخرج من ذلك..!

.. لهذا ما أعظم وأسذج خطأً من قال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»..! فاقد كل الرؤية والصدق والفهم من قال هذه القولة!.

.. أي معنى من معاني الحرية يولد بها أي مولود؟ إنه يولد محكوماً بكل صيغ ومعاني الاستعباد محروماً من كل صيغ وأسباب ومعاني الحرية إلّا حرية البكاء والتألّم والرهبة وإلّا حرية إفراز فضلاته على نفسه وعلى فراشه وعلى أحضان والدته وعلى كل ما حوله.. وهل هو حر في شيء من ذلك؟ إن

كل الأغلال والقيود تولد مع كل مولود.. إن كل العبوديات تولد مع الولادة.. لحظة الولادة. إن كل العبوديات تلدها الولادة!.

.. انظر يا كل العالم كيف وكم أنت مستعبد استعباداً ذاتياً مهما كانت قسوة أو خفة استعبادك خارجياً.. مهما كنت أو حسبت أو بدوت أو ظننت نفسك غير مستعبد خارجياً بل حراً كل الحرية خارجياً؟ كلا. إن كل موجود مستعبد كل الاستعباد ذاتياً وخارجياً.. إن كل أفعالك ومواقفك وتعبيراتك ووظائفك مستعبدة كل الاستعباد لنياتك وحساباتك وأفكارك وأهوائك وانفعالاتك واحتياجاتك ومجاعاتك ولعرضك لذاتك ومخاوفك وطاقاتك وإن ذاتياتك هذه مستعبدة كل الاستعباد لأعضائك ولوظائف وأوامر ومطالب وأخلاق أعضائك ولقوتها وضعفها آمرة مستبدّة حاكمة متحكمة بلا مخالف أو منافس أو منازع أو معارض..

وإن أعضاءك بكل ممارساتها وشهواتها وحماقاتها وبذاءاتها وطغيانها واستبدادها وكبريائها لمستعبدة كل الاستعباد لذاتك، وإن ذاتك مستعبدة لذاتك.. لوجودك.. لمجيئك.. لصيغة مجيئك.. وإن وجودك ومجيئك مستعبدان لمجيء ووجود هذا الوجود المستعبد استعباداً ذاتياً مطلقاً.. استعباداً لا أمل في الإنقاذ منه أو في تخفيفه.. ووجودك ومجيئك مستعبدان استعباداً ذاتياً وخارجياً دون أن يوجد أو يحتمل أو ينتظر أن يوجد أي منقذ لك أو للكون أو لأي شيء من العبودية الذاتية أو من العبودية الخارجية.. إنه لا منقذ لك من ذلك إلّا فقدك لذاتك ووجودك بكل صيغهما وتفاسيرهما أي ذاتك ووجودك!.

.. ولكن من فاعل هذا الاستعباد؟ هل فاعله غير من فعل به؟ إنها قضية قد تكون بلا مثيل مع أنها كل المثيل.. مع أنها كل القضايا..!.. يقول المؤمن: الإله هو الفاعل لكل شيء والفاعل بكل شيء، ولكن من الذي يفعل بالإله أفعاله؟

.. إنه بهذا التفسير وهذه الرؤية اللذين هما كل التفسير والرؤية لا حرية لأي وجود ولا لأي موجود ولا مع أي وجود أو موجود. فإما لا وجود وإما لا حرية..

إن الوجود هو كل الاستعباد ولا استعباد بلا وجود..! وكلما عظم الموجود أو الوجود عظمت عبوديته، فما يدعى ويحسب حرية ليس إلّا كل تفاسير ومعاني العبودية، ولهذا فإن عبوديات الآلهة هي أقسى وأشمل العبوديات.. عبودياتها الذاتية وعبودياتها الوظيفية..!

.. إن حريتك التي تدعيها وتعلمها وتعلنها وتفاخر بها وتتعامل بها في أعلى مستوياتها أي وتراها كذلك لن تساوي في تفاسيرها ورؤيتها المحدقة المحاسبة أكثر من حريتك في أن تمرض وتشيخ وتولد وتموت وتحزن وتضعف وتخاف وتظمأ وتجوع وتصاب بالأشواق والانفعالات الجنسية وبالوظائف الجنسية، إن حريتك هذه لن تكون أكثر من حرية الإله في ألا يكون إلهاً عابداً عاشقاً مادحاً لنفسه أو في ألا يكون قاتلاً مشوّهاً ضارباً باطشاً هادماً لما صنع وشاد وبنى.. مهدداً متوعداً..!

آه يا كل العالم حتى عقلك وتفكيرك.. حتى عقلك وتفكيرك أعظم وأقوى وأذكى وأنبل وأصدق ما فيك كما يقال ويعتقد ليسا حرين ولا يمكن أن يكونا حرين.. حرين في أن يكونا أو في

ألا يكونا.. أو في أن يكونا قويين أو ضعيفين.. ذكيين أو غبيين.. صادقين أو كاذبين.. مخلصين أو منافقين.. متجهين في هذا الاتجاه أو في الاتجاه الآخر أو المضاد..

هل عقلك وتفكيرك حران في أن يتخلقا فيك أو لا يتخلقا وهل أنت حر في أن تقبلهما أو ترفضهما أو تصوغهما أو تحدد طاقاتهما؟ حتى عقلك وتفكيرك يا كل العالم..!

إنهما أي عقلك وتفكيرك محكومان مستعبدان بلا إنقاذ أو تخفيف مهما زعما وأعلنا وحسبا حرين حاكمين متحكمين.. إن استعبادهما وإذلالهما لأقسى وأشمل إذلال واستعباد. إنه لا يوجد مستعبد ومذل ومحكوم مثل عقل الإنسان وتفكيره. هل يستطاع إحصاء المستعبدين لهما؟

.. إنهما يتكونان كما تتكون الذات والأعضاء وكما تتكون أوصافها وأحجامها وطاقاتها أي الذات والأعضاء وينبتان كما ينبت الشعر ثم يتحولان إلى موظفين خاضعين لكل صيغ ومعاني الاسترقاق والتسخير والهوان والطاعة..

.. إنهما أي عقلك وتفكيرك يا كل العالم لو أرادا ألا يوجدا أو ألا يوجدا كما وجدا لما حدث ذلك.. لما استطاعا ذلك..

إنهما لا يملكان أي قدر أو نوع من الحرية الذاتية في رؤيتهما أو سلوكهما!. لماذا يفكر الإنسان ويعقل بأساليب لا تملكها الكائنات الأخرى؟

أليس هذا اضطراراً لا اختياراً؟ أليس الاختلاف أو التفاوت في هذا مثل الاختلاف أو التفاوت في كينونة الذوات؟

أليس العقل والتفكير تكوينياً وتكوناً ذاتياً جبرياً وليسا طلباً أو اكتساباً أو تخطيطاً حراً؟ أليسا تخلقاً وليسا خلقاً مخططاً مدبّراً؟

.. إن كل شيء فيك مستعبد استعباداً تكوينياً ذاتياً. فالجماد والنبات والحيوان وكل شيء مستعبد هذا الاستعباد. وأقسى صيغ ومعاني هذا الاستعباد هو استعباد الإنسان وإن كان المعتقد والبادي للرؤية غير المحدقة خلاف ذلك..! فالإنسان مستعبد لذاته أكثر وأقسى من استعباد النبات والحيوان لذاته!. هل يمكن أن يكون حراً أي قدر أو نوع من الحرية من لا يستطيع أن يكون حراً في ألا يجوع أو يظمأ أو يخاف أو يحب أو يكره أو يريد أو يرضى أو يغضب أو يحزن أو يشيخ أو يموت أو في ألا يستفرغ فضلات طعامه وشرابه بالأساليب التي بها يستفرغها في الأوقات التي يضطر إلى استفراغها فيها في الأماكن التي يستفرغها فيها؟!

الكائن المستعبد لأعضاء الاستفراغ فيه كيف يمكن أن يملك أي قدر من الحرية أو أن يحسب شيئاً من ذلك بل هل مثله استعباداً؟ بل كيف يمكن أن يتحدث عن أي شيء من الحرية؟ إن حرية الموجود في كل معانيها وتعبيراتها ليست إلّا كل الطاعة الشاملة المنفذة لقهر عبوديته له.. إن المطيع مطيع لاستعباده!. أنت موجود إذن لن يمكن أن تكون حراً!.

إن الموجود لا يستطيع أن يكون حراً أمام استعباد ذاته له، واستعباد وجوده لذاته، واستعباد الوجود وكل وجود لوجوده، واستعباد وجوده لوجوده..

.. إن الوجود هو كل العبودية، وإن كل العبودية هي كل الوجود. فلا عبودية بلا وجود ولا وجود بلا عبودية!.

ـ نعم، إن الموجود هذا لا يستطيع أن يكون حراً بأي معنى من معاني الحرية إلّا بقدر ما يستطيع الإله أن يكون حراً في ألا يكون إلهاً أو في ألا يكون مستعبداً ومطيعاً خاضعاً لأوصاف وشهوات ونزوات وحماقات وطغيان وهوان وحرمان ومجاعات وهزائم وحسرات الألوهية والآلهة. ما أقسى وأدوم عبودية الآلهة لألوهياتها!. أليست كل العبوديات متولدة من عبوديات الآلهة لذاتها؟

إن كل ما يزعم ويرى ويعلن كل صيغ وتفاسير وتعبيرات الحرية ليس إلّا أقسى وأقوى وكل المعاني والتفاسير والصيغ والتعبيرات لأشمل العبوديات..

إن كل كلمات العبودية صادقة ولا صدق لأية كلمة من كلمات الحرية بهذه التفاسير والرؤية!.

۞ ۞ ۞

.. نعم، يا كل العالم من أين جئت ولماذا جئت وجئت كما جئت بالصيغ التي بها جئت دون كل الصيغ الأخرى؟ هل الصيغ التي بها جئت هي أجمل أو أذكى أو أقوى أو أكرم أو أنظف أو أنفع أو أعظم أو أتقى أو أشرف أو أنبل الصيغ أم هي كل الصيغ التي يمكن تصوّرها وتقبّلها والتعامل بها ومعها والتي يمكن أن تكون وإلّا فلماذا جاءت أو جيء بها دون كل الصيغ الأخرى؟ هل في هذا إرادة لكل التعذيب والتحقير أم لكل التكريم والإسعاد؟ أليس هذا سؤالاً يجب أن يسأله كل أحد بكل اللهفة والحماس والغضب والحيرة والانفجاع بل أن يهتف ويصلي ويغني بل ويناضل ويقاتل به كل أحد؟

فهل وجد أو يمكن أن يوجد من يوجّه إليه هذا السؤال الذي هو كل الأسئلة وأعظم من كل الأسئلة بل من يحاسب ويحاكم به أمام كل المحاكم والشرائع والأديان والمذاهب والنظم والقوانين والأخلاق والعقول لأن ما حدث هنا هو خروج وعدوان على كل ذلك وإهانة وتحقير وتشويه وتصغير وتسفيه وتعذيب له؟

يا كل العالم ما أعظم وأروع ابتكاراتك واختراعاتك وإنجازاتك ولكن ما أصغر وأخسر وأقبح وأسفه وأتفه وأرذل مجيئك ووجودك وحياتك وممارساتك ونياتك وشهواتك ومجاعاتك وعلاقاتك وسفاهاتك واحتياجاتك وضروراتك وعداواتك ومخاصماتك وبداياتك ونهاياتك وذهابك وبقائك.. وذهابك بعد مجيئك..!

.. ما أعظم وأكبر وأكثر ما فعلت وتفعل ولكن ما أصغر وأتفه وأردأ حوافزه وأهدافه وبداياته ونهاياته وأسبابه..

.. ما أضخم العمل ولكن ما أصغر وأقبح المعنى!.

.. إن إنسانك يا كل العالم مبدع خلاق، ولكن من يستهلك إبداعه وخلقه ويتعامل ويقوى ويحيا به؟ إن ذلك هي ممارساته ومجاعاته وضروراته وحماقاته وذنوبه وأخطاؤه وفضائحه وقبائحه

وهمومه وآلامه وكل ما في وجوده وحياته من عبث وعبودية وهوان وصغار وتفاهات وويلات ونهايات قبيحة أليمة ذليلة..! إن أتعس من فيك هو أعظم من فيك.. هو الإنسان..!

.. إنه يصعد فوق النجوم أو فوق الكون كله ولكن معانيه هذه تصعد معه.. تصعد فوقه.. تتصاعد بصعوده!. ولكن معانيه هذه تظل هي كل معانيه فوق التراب وفوق النجوم..!

.. إن كل ما يفعله ويبدعه لن يكون إلّا تنويعاً وتضخيماً وتقوية وتعلية لسجونه وقيوده وأغلاله ليتعاظم ويتصاعد قهرها واستعبادها وتسخيرها وإرهاقها لكل معانيه وخطواته واهتماماته التي لن تعظّم أو تجمّل أو تكرّم أو تعقّل أو تنبل تفاسيرها أو حوافزها أو أهدافها أو نهاياتها مهما كبرت وعظمت وتعاظمت أساليبها ومظاهرها وتكاليفها وممارساتها ومعارضها واستعراضاتها.. مهما تعالت أصوات طبولها ودفوفها..!

كائن يجاء به مكرهاً بل مقذوفاً به إلى وجوده وذاته وعالمه من حيث لا يدري ولا يريد ولا يختار أو يختار له أي شيء من أوصاف ذاته أو وجوده أو عالمه أو زمانه أو مكانه دون أن يجد لمجيئه أو للمجيء به أي هدف أو غاية أو منطق يفسّره أو يفهمه أو يقتنع به أو يرضاه..

.. يجاء به بل يقذف بل يبصق محكوماً عليه بلا أي أمل في الإنقاذ بأن يكون محتاجاً بكل القسوة والشمول والديمومة والصيغ والتفاسير إلى الغذاء والماء والكساء والأمان والحب والعلاقات الكثيرة المتنوعة وإلى الوطن والسكن والانتماء والنوم والفرح والضحك والكبرياء والفخر والرضا عن النفس والإعجاب بها وإلى الانتصار والتفوّق على الخصوم والأعداء والمهاجمين المحاربين وإلى عرض الذات والإعلان عنها والمباهاة بها في كل الأسواق..!

.. يجاء به كذلك كما يجاء به مهدداً أبداً وبكل الأساليب واللغات بالحرمان من كل ذلك.. بكل نقيض ذلك..!

مهدداً في كل لحظات وجوده بالنقيض المؤلم الفاجع الفاضح المهين.. فيجيء محكوماً عليه بأن يناضل ويشقى ويهون ويتملّق ويكذب ويفتضح ويرذل ويتلوّث ويخون ويحقر ويقتل كل معانيه وصيغه ولو أحياناً محاولاً تسديد وإشباع احتياجاته هذه المفروضة عليه والاستجابة والطاعة لها أو لشيء منها محاصراً بكل الاحتمالات الأليمة الفاجعة الفاضحة.

.. معاقباً ومبتلى ومتورّطاً كل أنواع العقاب والتورّط والابتلاء بتعامله مع احتياجاته هذه المحكوم بها عليه إلى أن يبلى ويعجز ويسقط كله بضربة واحدة أو جزءاً، جزءاً بضربات عديدة متتابعة متوقعة دائماً دون أن يعرف إلى أين هو ذاهب أو ملقى به إلّا بقدر ما عرف ويعرف من أين جاء أو جيء به ولماذا جاء وجيء به..!.. فيجيء ليكون كما يكون.. كما لا بدّ أن يكون لا كما يبتغي أو يريد أن يكون.!

هذا الكائن هل يمكن أن يكون رابحاً أو مستفيداً من وجوده ومجيئه مهما كانت وجاءت صيغ وكينونات وجوده ومجيئه.. مهما كان ضخامة وقوة وسلطاناً وسعادة وترفاً وبل هل يمكن إلّا أن

يكون خاسراً ومعذباً ومقهوراً ومشوّهاً ومفضوحاً كل الخسران والتعذيب والقهر والتشويه والفضح بل ومعتدى عليه كل ألوان العدوان مهما كانت حظوظه كل الحظوظ الممكنة؟

.. هذا الكائن أليس هو أنت يا كل العالم معروضاً عرضاً مخففاً ومغطياً من قسوته وتعاسته وقبحه ومن أهواله وويلاته موهوباً شيئاً من المزايا المفقودة فيه؟

هل قرأت نفسك يا كل العالم ولو مرة واحدة قراءة لم تتعلّمها من أميك؟

.. وأعود لأقول: لست بهذا أدعوك إلى التشاؤم أو إلى أن تتخلص من وجودك الذي عشته وعايشته.

.. من وجودك الذي بصقك وبصقت فيه بأقبح الأساليب دون أن تراه أو تعرفه أو تحاسبه أو حتى تقرأه.. فأنا لا أريد أو أنتظر لك ذلك أو أدعوك إليه.. وأنت لن تفعله مهما دعيت إليه وعلمته لأنك لا تفعل إلّا ما تكره على فعله إكراهاً ذاتياً. بل أنت لا تفهم ولا تعقل ولا ترضى إلّا ما تكره ذاتياً على أن تفهمه وتعقله وترضاه.. إلّا ما تكره ذاتك عليه ذاتك..!

حتى الفهم والعقل والتقبّل النفسي لا يكون إلّا بإكراه الذات للذات.. حتى الحب إنك لا تحب مختاراً أو كريماً بل خاضعاً لطغيان أعضائك.! ولكني تحت إكراه ذاتي ووجودي لذاتي ووجودي أردت بهذا يا كل العالم أن أقرأ عليك ولك شيئاً من تفاسير وجودك ومجيئك وذاتك وكينوناتك والتي لا تفسير لها مهما كانت وزعمت تفاسيرها كل التفاسير..!

.. أن أقرأ لك وعليك ذلك بكل قسوة الصدق والرؤية والانفجاع.. قراءة لم يقرأها أحد من قرائك أو يرضها إله من آلهتك.!

.. لقد كان كل قرائك يقرؤون لك وعليك ويقرؤونك ضد كل تفاسير وأخلاق وأهداف القراءة.. كانوا يقرؤون هذه القراءة ليحموك من أن تقرأ أو تفهم أو تفسّر أو تسائل أو ترى نفسك ووجودك. وكان آلهتك وأنبياؤك وعباقرتك وفلاسفتك وقادتك ومعلموك وأذكياؤك هم أساتذة هذه القراءة.!

إن هداتك أو المزعومين والمعلنين كل هداتك هم كل ضلالك ومضليك أو هم أقوى هؤلاء..!

ماذا كان يمكن أن يكون وجودك لو لم يأت إليك من زعموا هداتك؟

.. هل الذين ابتكروا لك القراءة أرادوا ودبّروا أن يحرموك من كل معاني القراءة؟

هل هم خبثاء وماكرون كل هذا الخبث وكل هذا المكر؟

هل هم كأنبيائك الذين جاؤوا إليك ليشغلوك بالإله وبرؤيته وبتفسيره وفهمه وقراءته وعبادته وبالصلاة والتمجيد والامتداح والرقص والغناء والمغازلة له والتحديق فيه عن كل شيء.. عن كل رؤية وقراءة وفهم واهتمام وتساؤل واندهاش وانفجاع ومقاومة ورفض... عن كل صعود إلى السماء لئلا تصل إلى مخبئه فتراه أي الإله فتصدم وتفجع وتراع، أو فلا تجد هناك أحداً وحينئذٍ ترجع إلى ذاتك ووجودك لتتخاطب وتتحاور وتتعامل معهما وتحدق فيهما وتسائلهما وتحاسبهما وتحاكمهما وتقرأهما

أو يحسبون أي أنبياؤك أنك حينئذٍ لا بدّ أن تفعل ذلك أو قد تفعله وهم لا يريدون أن تفعله بل ويذعرون ويفجعون من احتمال وتصوّر فعلك له؟ أليست كل وظائف أنبيائك أن يغلقوا بل يحطموا كل أجهزة الرؤية والفهم والتفكير والمساءلة والمحاسبة والبسالة العقلية والأخلاقية والنفسية؟

لماذا جاء كل أنبيائك كذلك؟ أعن تقوى بلهاء أم عن خبث ولؤم أليم شرير؟ هل هم عملاء لقوة شريرة معادية لك مجهولة المكان والأوصاف والأهداف؟

.. إن أنبياءك وكل معلميك يطالبونك بأن ترى وتسمع وتقرأ وتسأل وتتكلم لتصدق وتؤمن وتطيع وتصلي وتتعبّد لا لتفهم أو تحاور أو تحاسب أو ترفض أو تقاوم أو تحترم أي معنى من معانيك أو أية حاسة من حواسك أو عاطفة من عواطفك العذراء.!

إنهم أخطر أعدائك أو من أخطر أعدائك جاؤوا إليك مزعومين وزاعمين أنهم كل أصدقائك وأوليائك وأحبائك ومنقذيك وواهبيك وصانعيك.. هجموا عليك متسللين من كهوف الظلام ومتخلقين من أشواك العذاب مزعومين متفجرين ومصنوعين مخلوقين من قلوب وضمائر وأخلاق وسمو وسموات الآلهة.. صاعدين من حضيض الحضيض مزعومين ومعلنين ومعلمين هابطين من سماء السموات..!

قادمين بالعداوات والأحقاد والمخاصمات واللعنات والحروب والبغضاء مزعومين ومعلنين قادمين بالمحبة والسلام والصداقات والتحيات والمعانقات والمصافحات والمصالحات والبشريات..!.. ما أقبح وأفجع وأخسر وأردأ هبات السماء للأرض.. إنها لم تهبها ولا تهبها غير التشويه والإفساد والتضليل والتعجيز والإرهاب العقلي والنفسي والتصوّري والعاطفي والأخلاقي..!

ماذا يا كل العالم لو أن كائناً لم يتخلق منك ولا فيك سقط أو أسقط عليك بأسلوب الفجأة فرأى وقرأ وفسّر وفهم وجودك وحياتك بكل ما تخلق فيهما وشوههما وعاقبهما وأفسدهما وأهانهما وضللهما من آلهة وأرباب وأنبياء وزعماء وقادة وعقائد ومذاهب وأديان وتعاليم وشرائع وسلالات وقوميات وانتماءات ووطنيات وأوطان وبدايات ونهايات وعلاقات وتوقعات واحتمالات ويقينيات.

.. بكل معاملاتك وممارساتك لهما ومعاملاتهما وممارساتهما لك الخاصة والعامة.. الدائمة واليومية والشهرية والسنوية والأقل والأسرع من ذلك أي حياتك ووجودك.. بكل حوافز وأهداف وتفاسير ونتائج وعواقب وبدايات ونهايات وأخلاق وأساليب وفواجع وفضائح ومهانات ومكاسب وخسائر ذلك.. بكل قباحاته ووقاحاته وهمومه وآثامه وآلامه؟

نعم، يا كل العالم ماذا لو حدث ذلك؟ هل يستطاع حينئذٍ تصوّر فجيعة وذعر وحزن ورثاء وعذاب هذا الكائن بك ولك ومنك وفيك؟. إنك لكل العذاب والفجيعة لكل عين وعقل وأخلاق تراك أو تفهمك أو تفسّرك أو تقرؤك أو تحاسبك من خارجك أي تخلقت خارجك لو حدث ذلك.

آه يا كل العالم.. كم أفجع وأصدم وأراع وأهزم بمساءلاتي وقراءاتي ومحاوراتي ومخاطباتي لك وبمحاولاتي أن أفهمك أو أعقلك أو أفسّرك أو أن أجد فيك شيئاً كما أريد وأطالب أن أجده..!.. كم يشقى من لا يستطيع أن يسعد إلّا بأن يفهمك ويعقلك وكذا من يحاول أن يفهمك ويعقلك!.

.. أعظم وأقوى وأعقل وأعلم وأكرم شيء أو كائن فيك هل هو حر أو يستطيع أن يكون حراً في ألا يكون أو في ألا يكون كما كان ويكون، أو في ألا يجوع ويظمأ، أو في ألا يذل ويخضع لظمئه وجوعه، أو في ألا يضعف ويعجز ويخاف ويهون ويهزم، أو في ألا يريد ما لا ينبغي أو يرضى أن يريد، أو في ألا يحسد أو يبغض أو ينافس أو يغار أو يحقد أو يخاصم، أو في ألا يحب أو يطيع ذاته ويستمسك بها مهما وجب الهرب منها أو في ألا يصلي راكعاً ساجداً عابداً لها ولكل ما يتخلق فيها من أوثان وطغاة، إنه إذا عصى ذاته فليس إلّا مطيعاً خاضعاً لذاته، أو في ألا يعيش أو يسير أو يرى أو يقرأ في الظلام، أو في ألا يعتقد أو يحترم أو يناصر أو يحالف أو يمتدح إلا ما يفهم ويعقل ويرضى، أو في ألا يؤمن ويتعبد ويتضرّع ويدعو ويستغيث ويصوم ويحج إلّا إذا رأى أو وجد أو عقل أو فهم أو رضي أو أحب أو جرب فأعجب أو قابل أو حاور أو سمع أو لمس الإله الذي يفعل له وبه ومعه ذلك، أو في ألا يقاتل أو يعادي إلّا من يجب أن يقاتل ويعادي وإلّا من فهم لماذا يقاتله ويعاديه، أو في ألا تختزن أحشاؤه وأعضاؤه ونفسه وكل معاني ذاته تلك الفضلات أو في ألا يستفرغ تلك الفضلات بالأساليب واللغات والوقاحات والمذلات التي بها يستفرغها.. في ألا تحبل ذاته بتلك الفضلات البذيئة ثم تلدها بكل الإذلال والتشويه والتحقير له..؟

نعم، يا كل العالم هذا الأقوى والأعقل الأعلم الأكرم الأعظم فيك هل هو حر أو يستطيع أن يكون حراً في أي شيء من ذلك أو في أي شيء آخر؟

أو هل يمكن أن يكون أو أن يحسب رابحاً أو مستفيداً أو سعيداً أو عزيزاً أو شريفاً أو نظيفاً أو حتى تقياً متديناً أو مفسّراً بأي معنى جميل أو كريم أو عظيم أو ذكي أو منطقي في أية كينونة من كينوناته أو خطوة من خطواته أو ممارسة من ممارساته أو نية من نياته أو تخطيط من تخطيطاته في أية صيغة أو طور من صيغ وأطوار وجوده؟!.

.. إذن كيف ابتكرت يا كل العالم هذه الكلمات ونطقت بها.. كلمات حرية وتحرير وتحرر وأحرار ومجد وبسالة وعظمة وانتصار وربح وكبرياء وإباء وسعادة وكرامة ورفض وحظوظ ونظافة وعزة وشرف والتزام وأخلاق وإيمان وتقوى وغيرها من الكلمات الهاتفة المغنية المحلقة المسكتة المغلقة للعيون والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق عن أن ترى أو تقرأ أو تفهم أو تسأل أو تحاسب أو تغضب أو ترفض أو تدهش أو تفجع؟ لقد استطاع أنبياؤك ودعاتك وطغاتك وكل معلميك أن يصنعوا من الكلمات أفتك الأسلحة ليسكتوا ويقتلوا بها كل معانيك.! وهل استطاعت هذه الكلمات الهاتف بها كل لسان ومنبر ومحراب وقلم.

هل استطاعت أن تغطي أو تخفي أو تجمل أو تغفر ما لا يستطاع تغطيته أو إخفاؤه أو تجميله أو غفرانه؟ إنه لم يصنع أو يعرف أو يستعمل جهاز لتغطية وتجميل كل القبح والفحش مثل الكلمات!. إنها أشهر سلاح لقهر الذكاء والعقل والكرامة والحرية..!

.. إنك يا كل العالم حتى في أعلى وأعظم وأسعد مستوياتك وكينوناتك وممارساتك لست إلّا

مسدداً ودافعاً لحسابات واحتياجات ومجاعات والتزامات وهموم قد فرضت عليك بكل القهر والتسخير، أو محاولاً لتسديدها ودفعها دون أن تكون قد أذنبت أو أخطأت أو تاجرت أو ضاربت أو اقترضت أو أخذت أو قبضت شيئاً أو أصبت أحداً بأي خسران، إن سرورك ليس إلّا فراراً من الحزن وتعويضاً عنه، وإن ضحكاتك ليست إلّا فراراً من البكاء وتعويضاً عنه، وإن غناءك ليس إلّا فراراً من الأنين والآهات وتعويضاً عنها، وإن شبعك وارتواءك ليسا إلّا فراراً من الجوع والظمأ وتعويضاً عنهما، وإن حبك أو عشقك أو غرامك المنقذ ليس إلّا فراراً من الحرمان ومن الاختزان أو الامتلاء الجنسي المحتاج إلى الاستفراغ والتفريغ.. إنه ليس إلّا عملية استفراغ وتفريغ بذيء أليم فاضح..! بل إن النقيض الأول ليس إلّا نقيضه الثاني جاء بصيغ ولغات وتعبيرات أخرى. إن كل اللذات وممارساتها المجنونة ليست إلّا أساليب صارخة من أساليب تفريغ الآلام.. تفريغ الذات منها.

.. ولهذا فإن الذين لا يصابون بهذا لا يصابون بنقيضه.. فالذين لا يبكون ولا يحزنون ولا يئنون ولا يتأوهون ولا يضحكون ولا يسرّون ولا يغنون، والذين لا يهبطون لا يصعدون، والذين لا يكفرون ويرفضون لا يؤمنون ولا يقبلون..!

.. هل الذين لا يخافون يحتاجون إلى الأمن أو إلى مشاعر الأمن أو يبحثون عن الأمن أو يصنعون أسبابه؟ هل الذين لا يقاسون من الضعف والخطأ والعجز في الرؤية والتفكير والضمير والأخلاق يستطيعون أن يروا الإله أو يقرؤوه أو يفهموه أو يفسروه أو يجدوه في أي مكان أو شيء من هذا الكون أو يبحثون عنه؟ هل يحتاج المؤمن بذكاء الإله وبعقله وكرامته إلى ترويع وإذلال وتشويه نفسه به وبعبادته؟

.. ولكن المشكلة أو القضية أو العقدة أو المأساة هي هذا السؤال الحزين الفاجع الضائع القائل: من الذي فرض عليك ذلك، ولماذا فرضه، وهل يستفيد منه، وهل وجد أو يمكن أن يوجد أي هذا الفارض، وبأي تفسير يمكن تفسيره إن وجد وهل يستحق حينئذٍ الشكر أم العقاب.. شكرك أم عقابك؟ ثم هذا الفارض عليك المفترض هل أصبح بعد أن رآك وقرأك وعرفك راضياً عن نفسه معجباً بها لأنه فعلك وفعلك كما فعلك أم أصبح يتغذى بالندم والألم وبالغيظ والاشمئزاز من كل معانيه وقدراته وخطواته وتخطيطاته دون أن يستطيع أو يعرف كيف يتراجع وهل يتراجع؟ وهل يعني هذا يا كل العالم أنك قد أصبحت عقاباً أبدياً له.. لمن فرض عليك أن تكون وأن تكون كما كنت.. عقاباً أقسى من العقاب الذي أراده وخطّطه وأعدّه وصنعه أنبياؤك لك لتخلد في عذابه وأهواله؟

ضع في تصورك يا كل العالم كائناً ضخم الذات والعضلات والقدرات والضربات ضئيل التفكير والتدبير والضمير خاطىء التخطيط والحسابات والرؤى والرغبات والشهوات.. هذا الكائن المطالب بأن تضعه في تصوّرك يتورط ويتهوّر ليصنعك ويخرجك يا كل العالم لتجيء كما جئت ليكون محكوماً عليه بأن يعايشك ويساكنك ويراك ويقرأك ويفهمك ويصادمك ويسمعك كل أوقاته بلا خلاص أو راحة، محاسباً نفسه ومحاسباً بأنه وحده هو كل المسؤولين عنك.. لتكون كل آلامك وآثامك ونقائصك كل غذائه المادي والمعنوي..!

... هذا الكائن هل يمكن تصور عذاب مثل عذابه مثل أنواع وألوان وأساليب عذابه، أي إن لم يكن إلهاً أو كائناً عربياً..

إن لم يكن إلهاً أو كائناً صاغه الفكر العربي أو الخيال العربي أو النبوة العربية لأن الصياغة العربية لن تفشر بالحسابات المحسوبة؟ لأن ما يفعله ويعتقده ويتصوره ويقوله الإنسان العربي معفى من كل محاسبة..!

.. أيهما أحق بأن يكون أقسى عذاباً وانفجاعاً وترويعاً وكآبة: من أصيب بشيء من القبح أو التشوّه أو الظلم أو البلادة أو الهوان أو الخسران أو العجز أو المرض أو السخف أو الهزائم أو التحقير أم من أصاب ويصيب بكل ذلك وفرض عليه بأن يساكن ويعايش ويصادق ويعمل ويعامل ويرى ويقرأ كل ذلك كل أوقاته ويكون وحده المسؤول عن كل ذلك والمحاكم المحاسب المتهم المشتوم بكل ذلك؟

هل تكفي كل المحاسبات والمحاكمات والاتهامات والشتائم عقاباً وجزاء وتأديباً لمثل هذا الكائن المفترض وقصاصاً منه؟ وهل تكفي كل الأنات والآهات والدموع وكل لغات ومعاني الرثاء صراخاً وحزناً عليه وله ومن أجله؟

❀ ❀ ❀

يا كل العالم هل تعلم أو كيف لا تعلم أن دفاعك عن وجودك وأن صياغتك وتضخيمك وتصعيدك وتمجيدك له وفخرك به إنما يعني أنك تفعل ذلك لهذا الفرض عليك الذي يعني بل الذي لا يعني إلّا كل الاسترقاق لك بكل صيغه وتفاسيره ومنطقه وشموله وديمومته وقسوته وإذلاله بلا أي ربح أو جزاء أو نفع أو مجد أو خيار أو حرية لك أو لمن أوقعه بك؟

.. وهل تعلم أو كيف لا تعلم أن إيمانك بإلهك أو بآلهتك ودفاعك عنها وعبادتك وتمجيدك وتفاسيرك لها ورضاك عنها إنما يعني أنك تفعل كل ذلك لمن يستعبد ويذل ويقهر ويحطّم ويشوّه ويسرق ويفسد ويلعن ويرهب من داخلك ومن خارجك كل عقلك وتفكيرك ورؤاك وأخلاقك وقدراتك وتطلّعاتك وتحديقاتك وتحليقاتك وكل معانيك بكل الجبروت والوحشية والوقاحة والسفه.. تفعله لمن تعتقد وتعلن أنه المدبّر والفاعل لكل آلامك وأخطائك وأعدائك؟! تفعل ذلك لمن يحرم عليك ذاتك ويسحبك من ذاتك ويحتل ذاتك بكل وحوشه.. بكل ذاته.. بكل قباحاتها ووقاحاتها وحماقاتها ونزواتها وتقلّباتها وشهواتها وبكل جشعها وغرورها وثقلها وأثقالها...

.. بكل أنبيائها ورقبائها وجواسيسها وزبانيتها وملائكتها وأبالستها.. بكل تعاليمهم وأديانهم وإملائهم وإرهابهم ووعيدهم وطغيانهم وبذاواتهم ومشاحناتهم ومخاصماتهم وعداواتهم وتصادماتهم وملاعناتهم محولة ذاتك وكل معانيك إلى ميدان أليم دائم لكل ذلك؟ إن ذاتك هي المكان الذي تتخلق فيه الآلهة لتستفرغ فيه كل بؤسها وبأسها.

نعم، ذواتك ومعانيك يا كل العالم هي الميدان الكوني الدائم لكل هذه الشرور والآثام والآلام

التي تقاسي كل الكلمات بل التي تموت وتحترق كل الكلمات رهبة وانفجاعاً وتأثماً من الحديث عنها، أي لو كان الكلام لم يروض ليصبح بلا أي قدر من الكرامة أو الأخلاق أو العواطف أو الإباء أو الفهم أو البسالة.

.. لو لم يهن ويصغر ويبح أي الكلام حتى ليذهب النبي العربي والشاعر العربي والمفكر العربي والمعلم العربي والشيخ العربي والسلطان العربي يتكلمونه كما يتكلمونه بلا أي قيد أو شرط أو اعتراض..

.. إنه لا يوجد ولن يوجد جهاز أو شيء مثل الكلام بلا أية حماية من أن يستفرغ فيه وعليه وبه كل المستفرغين لكل القبح واللؤم والفحش والفضح والهوان والعار والبلادة والجهالة والوقاحة والقباحة وكل ألوان الخسة والنذالة والخداع والكذب والنفاق.!

إن الكلام هو الشيء الذي يستطيع كل أحد أن يعتدي عليه كل ألوان الاعتداء وأن يعتدي به على كل شيء وعلى كل أحد دون أن تستطاع الحماية منه ومن عدوانه بأي شيء.. بأي قانون أو دين أو تعاليم أو تشريع أو قوة أو سلطة بل دون أن تراد هذه الحماية أو يفكر فيها..!

إن أخطر وأردأ ما في هذه القضية أن الكبار جداً أو من يعدون كباراً جداً هم أقسى وأقوى وأخطر عدواناً على الكلام وبالكلام من الصغار والعاديين.. إن هؤلاء الكبار هم أقوى وأطغى وأكثر المعلمين والمبتكرين للعدوان على الكلام وبالكلام..!

.. أليس عدوان الآلهة والأنبياء وحوارييهم ومعلميهم ومفسّريهم وكتّابهم وخلفائهم والرواة عنهم وكذا عدوان القادة والزعماء ـ أليس عدوان هؤلاء بالكلام وعلى الكلام عدواناً لا يماثله أي عدوان في ضخامة وخطورة وديمومة نتائجه المدمرة المفسدة المضللة الخاسرة؟

إنك يا كل العالم لم تعاد أو تذل أو تقهر أو ترهب أو تطارد أو تحارب حريتك وتفكيرك وعقلك وكرامتك وبسالتك وحياتك بل وتديّنك وصفاءك وتقواك ومواهبك وأشواقك وحبّك وكل معانيك مثلما فعلت بها كل ذلك حينما ابتكرت الآلهة بكل زحوفها ودفوفها وجيوشها ومواكبها وأهوالها المؤلفة من أنبياء ورقباء وجواسيس ومخبرين ومن ملائكة وأبالسة ومعلمين ومن أديان وعبادات واعتقادات ومن أهوال حساب وعقاب وجنات ونيران ومن توقعات وانتظارات وتهديدات ووعود تسحق النفوس والعقول بل والوجود لقد فعلت بنفسك كل هذا بلا أي ثمن أو ربح أو جزاء مقبوض أو منتظر. إن كل أعدائك لن يفعلوا بك ما فعلته بنفسك حين ابتكرت آلهتك وفسّرتهم وتصوّرتهم وتعلمتهم كما فعلت.!

إن كل شيء أليم وقبيح ومذل ومفسد ومشوّه ليصغر ويهون ويغفر في كل تفاسيره وحساباته أمام احتلال الآلهة للنفوس والعقول والرؤى والعلاقات والتصرّفات كما حدث أي بالأساليب والتفاسير التي جاءت بها الأديان والنبوات..! لقد كان ابتكار الآلهة بكل أجهزتها ووظائفها أقسى عقاب لعلك أردت أن تعاقب به وجودك ثأراً وانتقاماً أو انفعالاً ضائعاً غير منطقي أوقعته بك ضربات الألم والغيظ، أو أردت أن تعاقب به نفسك لأنها تقبّلت وتتقبّل وجودها وكينونتها بكل صيغهما تحت كل الظروف

ات والحالات. وهل يوجد من يعاقب نفسك غيرك أو من يعاقبك غير نفسك ،
راعات والتعاليم غير ذلك؟

أو لعل وجودك هو الذي ألهمك ذلك أي ابتكار الآلهة راغباً أي وجودك ف
ن عذابك وإذلالك لأسباب لن يوجد من يستطيع أن يفهمها أو يقبلها أو يرضاها
ن ويعتقدون أنهم وجدوا هذه الأسباب وفهموها وتقبّلوها ورضوها بل وعبدوها وت
بها وبتفاسيرها. إن تفسير ما لا تفسير له بل ما هو ضد كل التفاسير قد تحو
داسات.

إنه لا توجد ولن توجد قدرة مثل قدرتك يا كل العالم على أن تجد أجمل التف
كل ما لا تفسير له ولكل ما تفاسيره أقبح وأغبى التفاسير..!

من أعظم مواهبك هذه الموهبة.. موهبة القدرة والجرأة على تفسير ما لا تفسي
ن وما تفسيره أقبح وأغبى التفاسير بأجمل وأذكى التفاسير.. إن موهبتك التفسير
ل القبائح والفضائح والآثام والآلام والأخطاء والمظالم والشرور والأمراض والعاهات
، بأنها تدبير وتخطيط وإرادة وحكمة ورحمة وعبقرية وسعادة أعظم إله.!

وقد جاء أنبياؤك وأذكياؤك ومن يعدون عباقرتك ليكونوا كل المفسّرين لما لا ت
سد كل التفاسير، وكل المفسّرين أذكى وأجمل التفاسير لما كل تفاسيره أغبى وأ
سير.. ألم تر كيف فسّروا كل قبح وإثم وألم ودمار بأنه أجمل وأنبل وأعظم عر
ريمي للإله؟ هل يمكن لولا أنبياؤك وأذكياؤك وحكماؤك وعباقرتك هؤلاء أن يوج
. يقول إن هذا الوجود بكل ما فيه ومن فيه: هو كل الحكمة والرحمة والعظم
العبقرية والمستطاع والممكن والمراد والمقبول والمرضي المسعد المفرح وإنه أي
فيه هو تدبير وتخطيط وإرادة وشهوة وسعادة وقدرة وعبقرية وشاعرية وفنون وأم
صداقة وعطية وهدية وفرح وسلوى وملهى وعرض واستعراض وموكب أعظم وأ
أنبل وأرحم وأحكم إله؟

نعم، هل كان ذلك ممكناً لولا أنبياؤك وأذكياؤك وحكماؤك وعباقرتك؟

ن لقد جاء أذكياؤك وحكماؤك وعباقرتك يا كل العالم ليكونوا أشهر وأقوى وأر

تنكر أو ترفض أو تحتج أو تقاوم أو تتحرك أو حتى تغضب أو لا تستسلم كل الاستسلام ملقية بكل أسلحتها بل مصبحة بلا أية أسلحة، أي أسلحة معنوية..! إنه تنويم لكل القوى المعنوية يراد به ألا تكون له صحوة..! إن عمليات الفقء لعيون كل معانيك لمن أضخم وأقسى عملياتك ضد نفسك.!

إن صنّاع التفاسير المزوّرة لك من أنبياء ومعلمين هم أعظم أبطال صنّاع الاستعباد لكل معانيك بل ولخطواتك والفاقئين لكل رؤى عقلك وفكرك وقلبك وضميرك وأخلاقك وتساؤلاتك..

.. يا كل العالم هل أنا حر في أن أقتنع أو في ألا أقتنع حين اقتنعت بما اقتنعت به في هذه القضية وأيضاً في غيرها؟ هل أنا حر حين اقتنعت في ألا أقتنع وحين لم أقتنع في أن أقتنع؟ هل يحتمل أو يعقل ذلك؟

وحين أعلنت اقتناعي وعرضته هل كنت حراً في ألا أقوله وأكتبه وأعلنه؟ ولو لم أقله وأكتبه وأعلنه فهل أنا حر في أن أفعل ذلك أو في ألا أفعله؟ تعالي يا كل العقول.. تعالي.. تعالي. أرجوك. أدعوك.

.. لو كنت حراً في هذا ونقيضه فلماذا أفعل هذا دون هذا؟ ألست لحظة فعلي لهذا لا أكون حراً في أن أفعل نقيضه بل ولا أكون حراً في فعلي لما فعلت لحظة فعلي له وهل أفعل ما أفعله أو أقوله أو أعتقده إلّا حين تتجمع في وعلي كل شروط وأسباب وحوافز وقوى فعلي أو قولي أو اعتقادي له؟ وحين تتجمع هذه الشروط والأسباب والحوافز والقوى علي وفي هل يمكن أن أكون حراً في ألا أخضع وأستجيب لها إلّا كحريتي في ألا أكون موجوداً حين وجودي أو في ألا يكون وجودي داخل ذاتي أو في ألا تكون ذاتي هي ذاتي أو في أن أخرج من ذاتي إلى ذات أخرى أو إلى ذات كائن آخر مخالف تكوين ذاته لتكوين ذوات الكائن الذي فرض علي الانتماء إليه وفرض عليه أن أكون وأحسب منه..! أو في أن يكون الإله الموجود غير موجود..!؟

.. وكما أني لست حراً في أن أفعل أو أقول أو أعلن أو أعتقد ما لا أفعله أو أقوله أو أعلنه أو أعتقده، فإني كذلك لست حراً في فعلي أو قولي أو إعلاني أو اعتقادي لما أفعل أو أقول أو أعلن وأعتقد بل أنا في ذلك ملزم ومحكوم علي به مثل إلزامي ومثل الحكم علي بأن أريد وأحب وأكره وأخاف وأحزن وأقبل وأرفض وأجوع وأتعب وأنام وأتثاءب وأعطس ومثل أن تتكون الفضلات المكروهة المستحي منها داخل جسدي ومثل استفراغه لها.. مثل إلزامي بأن أريد وجودي وأدافع عنه مهما لعنت تفاسيره وأهدافه.!

.. إني لأبدو وأحسب وكذا كل أحد حراً كل الحرية فيما أفعل وأقول وأعتقد وألتزم أي في الرؤية والتفاسير المعلمة المقررة المعلنة المخطوب بها.. إن حريتي هذه لن تكون إلّا مثل حرية الإله الموجود في ألّا يكون موجوداً أو في أن ينتحر.!

إن الطفولة في أحد أطوارها قد ترى الشمس والقمر والنجوم والسحاب والأنهار حرة في حركاتها كما يرى الأنبياء والمعلمون وكل المؤمنين الإله حراً في إراداته وأفعاله وكينوناته وأخلاقه..!

أما في الرؤى والتفاسير الأخرى التي لم ترها أو تقرأها أو تعرفها أو تسمع بها المنابر أو

المحاريب أو التعاليم فإن حريتي في ذلك وكذا حرية كل أحد ليست إلّا كحرية الشموس والنجوم والسحاب والأنهار والبحار والزلازل والبراكين والأشجار والنباتات والبذور في أن تتحرك وتغيب وتطلع وتقترب وتبعد وتنبت وتنمو وتورق وتزهر وفي ألا تفعل ذلك. حتماً ستجد الرؤية غير الرائية فروقاً بين هذا وهذا. إنها فروق في الصورة لا في الذات.!

.. وكحرية الإله في أن يوجد ويبقى ويريد ويفعل ويتغير ويغير ويتنازل عن ألوهيته وعن أوصافه وأخلاقه وكبريائه وعن عشقه لنفسه ورضاه عنها وفي أن يكون ويفعل النقيض وفي أن يكون أعظم وأذكى مما كان..!

.. هل يستطيع الإله أن يكون غير ما كان؟ إذن كيف يحسب أو يكون حراً؟

.. وكحريتك يا كل العالم في أن تكون وفي ألا تكون وفي أن تكون غير ما كنت أي صيغاً وكينونات أخرى..!

كيف يكون حراً في أي شيء من إراداته أو تصرفاته من لم يكن حراً في مجيئه أو صياغته؟

.. إنه الاستعباد الذاتي والخارجي الكوني التكويني لكل وجود وموجود وليس الاستعباد القدري المدبر الإلهي الديني المنزل المراد من فوق ووراء كل شيء كما تقول أديانك..!

إن هذه الجبرية في فعل وكينونة كل موجود لم يفرضها أي إله بل كل إله محكوم بهذه الجبرية مثل كل كائن بل أقسى..!

.. إنها لقضية كبيرة وحادة ومثيرة جداً..

أليست تقول في أحد تفاسيرها: إن أي كائن حي بل وأي موجود لو كان حراً في أن يعتقد ويقتنع ويقول ويفعل وفي ألا يكون شيئاً من ذلك لما أمكن أن يعتقد أو يقول أو يفعل أي شيء أو يقتنع بأي شيء أو يكون له موقف من أي شيء..!

حتماً سيقال هنا بكل الحماس والنشوة والاقتناع المتكبر إن الحر هذه الحرية يقول ويعتقد ويقتنع ويفعل ويصوغ مواقفه بالاختيار والموازنة والمحاسبة والمقارنة والإرادة.. ولكن كيف تأتي أو تتكون هذه أي الإرادة والاختيار والمقارنة والموازنة والمحاسبة؟ أليست تأتي وتتكون ملزمة حاكمة متحكمة وإلّا لما أمكن أن تفعل شيئاً..

إنها ليست حرة في مجيئها وإن من جاءت إليه لن يكون حراً في الأخذ بها ولا في رفضها وإلّا لما فعل شيئاً..

إن من أخذ بأحد الاختيارات أو المقارنات أو الموازنات أو المحاسبات فلن يكون حراً في أخذه بها وحين أخذه بها ولا في إرادته لها..!

إن المريد لا يريد لأنه يريد.. لأنه يريد ما يريد ولكنه يريد ويريد ما يريد لأنه لا يستطيع إلّا يريد لهذا فإنه يريد ما يكرهه ويفضحه ويخجله ويذله ويحقره ويعيره.. أجل، حتى الإرادة إنها بلا إرادة.. إن كل مريد لم يرد إرادته، وإرادته لم ترد نفسها.. لقد فرضت عليها نفسها ثم فرضت نفسها

على مريدها. إن الإرادة لأقسى طغيان واستعباد للمريد..! فإذا كان كل من يقول ويعتقد ويقتنع ويرضى ويفعل بالإرادة لا يريد إرادته ولا يختارها ولا يصوغها أو يوجهها أو يستوردها أو يقترضها أو يعرف مكانها أو كيف تجيء وإنما تفرض عليه فرضاً وتفرض عليها نفسها فرضاً، فكيف استطاعت وجرؤت أية لغة أن تنطق أو تتخاطب بكلمة حرية أو تؤلف حروفها؟ ولكن هل ينتظر من اللغات الدقة أو الصدق؟ هل كشفك وكشف عيوبك ونقائصك يا كل العالم مثل لغاتك؟

إنه الأخذ بالظاهر وبالأسهل وبالرؤية غير الرائية وغير المحاسبة.. إنه تلقين لا تعليم أو تفهيم. إنه قراءة في المعابد لا دراسة في المجامع أو الجامعات أو المعاهد أو المختبرات..!

إنها تعاليم نبي لا رؤية مفكر أو عالم أو راءٍ قارىءٍ لما يرى.!

.. إننا أمام قضية تحتاج إلى شيء من التحديق لا إلى كل التحديق..!

هل وجد من يستطيع أن يحدق كل التحديق أو من يحدق فيه كل التحديق؟

.. ولعله مما قد يعد عجيباً وإن لم يكن أو يفترض أن يكون عجيباً أن أكبر القضايا وأكثرها وضوحاً وقرباً إلى الافهام هي أغمض القضايا وأعسرها على الفهم بل وأكثرها ابتعاداً عنه وتعجيزاً وتضليلاً له..! لقد أصبح ما لا يستطاع العجز عن فهمه هو الذي لا يستطاع ولا يراد فهمه.

.. وقد يكون أو لا بدّ أن يكون التفسير لذلك: إنها قضايا يراد الهرب من فهمها ومن تفسيرها كما يجب أن يكون تفسيرها، بل يراد العجز والتعجيز عن هذا الفهم والتفسير لها لأن ذلك أي فهمها وتفسيرها بلا هرب أو تزوير وتحريف يحرج ويرهق ويخجل ويشوّه ويذل ويسحب من الأشياء ومن النفس ضخامة وحماسة وحرارة الرضا عنها والإعجاب والانخداع والفرح والمباهاة بها..

وهذه أشياء لا بدّ منها لمن يريد أن يحيا.. لمن حكم عليه بالحياة متعاملاً مع وجوده ومع الوجود الذي ألقي إليه وفيه دون أن يعرف لذلك أي سبب أو تفسير أو منطق أو ضرورة أو منفعة أو مصلحة أو جمال أو إرضاء أو محاباة لأي شيء أو لأي أحد أو استجابة لأي دعاء أو استغاثة أو طلب أو شوق أو حنين أو دموع متقاطرة هاتفة: النجدة.. النجدة..!

.. حتى الإله لقد ألقي إلى وجوده وفي وجوده دون أن يدري لماذا. لماذا..

.. لهذا جاء مزورو ومبتدعو أجمل وأتقى وأذكى التفاسير لأقبح وأوقح وأغبى وأفجر وأنذل الأشياء هم أقوى وأبقى وأشرس وأشهر المذلين المستعبدين الشاتمين المضلين المفسدين المحطمين المعادين المحاربين الملوثين لعقلك وتفكيرك ورؤاك وأخلاقك وعواطفك وعلاقاتك وتاريخك بل ولخطواتك وعضلاتك بل ولصفائك وتقواك وتديّنك وإيمانك..

لقد جاء معلموك الإيمان والتديّن أقوى المفسدين لإيمانك وتديّنك.!

أي جاؤوا أنبياءك وهداتك وقديسيك ومعلميك يا كل العالم. إن أقسى أهوالك جاءتك وتجيئك ممن زعموا كل أوليائك أي كل آلهتك وأنبيائك؟ أي لهذا جاء أضخم وأقوى وأردأ وأفسد وأبلد المزوّرين

لك وعليك وفيك ومنك هم كل وسطائك ورسلك إلى السماء وكل وسطاء ورسل السماء إليك..

لهذا جاءت علاقاتك بالسماء وعلاقات السماء بك هي أغبى وأجهل وأخطر وأضل وأفسد العلاقات بين أي شيء وشيء.. هي أخسر العلاقات بكل التفاسير..! لهذا جاءت علاقات الآلهة ساكنة السماء وعلاقات الإنسان ساكن الأرض علاقات متواجهة مشحونة بكل الذعر والتوجّس والشك والكآبة والقلق والكذب والنفاق والأنانية والهوان والوعيد والتهديد والخسران بلا أي ربح أو فهم أو تفاهم أو تلاقٍ أو تراء أو ثقة أو محبة أو مصالحة أو مصافحة أو حتى مهادنة..! بلا أية منفعة لأي من العدوين المزعومين أعظم وأصدق صديقين..!

.. إنها الحرب الدائمة القبيحة الأليمة الشريرة بكل صيغ الحروب ومعانيها وتفاسيرها وبذاءاتها وهمجياتها تؤججها العلاقات بين الآلهة ساكنة السماء والإنسان ساكن الأرض..

.. تؤججها هذه العلاقات التي ابتكرها وصاغها لك أنبياؤك وهداتك وقديسوك ومعلموك يا كل العالم.. ولكن من ابتكر وصاغ لك وفيك هؤلاء؟

من الصانع للمرض المسؤول عنه: الجسم الذي مرض أم المرض الذي أصاب الجسم فأمرضه؟ هل أنا هنا يا كل العالم أخاطبك هل يمكن ذلك أم أخاطب نفسي أم أخاطب الضياع أم أنا ألقي بأثقال نفسي دون أن أكون مخاطباً أحداً أو شيئاً أو ناوياً أو معتقداً ذلك؟

.. إني هنا ودائماً أتحدث باللغة العربية فقط؟ وهل يمكن أن يكون أو يحسب من يتكلم باللسان العربي مخاطباً أحداً أو شيئاً؟ بل هل يمكن أن يعد متكلماً أي الإنسان العربي مهما كانت بلاغته الصاهلة الزائرة العاوية ومهما كان تحدي قرآنه لكل من يتكلمون ولكل من يحولون الجماد إلى أذكى وأبلغ المتكلمين..!؟

إن طور الكلام طور يحرمه الدين والعقل والخلق العربي والحضارة العربية..!

.. هل العربي يخاطب أم يمازح ويهازل ويغازل وينافق ويخادع ويكذب عليه ويسخر منه ويزجر وينهر ويؤمر ويطالب بأن يسمع ويصدق ويؤمن ويتعبّد ويحدث ويتحدث عن أمجاد وعبقريات تراثه ومقابره وعن قسوة وطغيان واستبداد ووحشية إلهه وعن عالمية وكونية وأبدية وخاتمية وإعجازات ومعجزات وبداوات نبيه وعن ضخامة وتفوق وثنيات وصنميات كعبته وكهوفه ومغاراته ومزاراته؟

إن العرب ليتفوقون على كل العالم بأوثانهم ووثنياتهم مهما أعلنوا توحيدهم..!

.. نعم، إن العربي ليس كائناً يخاطب أو يخاطب أو يتخاطب، ولكنه الكائن الذي يقال له اسمع واقرأ واحفظ لتؤمن وتطيع وتستسلم وتتعبّد لا لتفكر أو تفهم أو تحاور أو تسائل أو تحاسب أو تعارض أو لتقول: لماذا، أو كيف أو حتى تتذكر أنها توجد كلمتا: لماذا وكيف..! هل يمكن أن يقبل العربي أي شيء مما قبل ويقبل لو كان قد بلغ طور من يسأل: لماذا وكيف؟ إن العربي قد أدخل على لغته كلمتي: لماذا وكيف ليتعامل بهما لغوياً لا فكرياً أو منطقياً أو علمياً أو ليقاوم بهما معانيهما الفكرية والمنطقية والعلمية أو ليضعهما دائماً في غير مكانهما..!

إن أسئلة العربي ليست إلّا أبطالاً ومقاومة للأسئلة ونهياً عنها وتشويهاً لها. ما أقسى عذاب وضياع وانفجاع من يخاطب ويتخاطب بلغة قوم لا يوجد فيهم من يخاطبون أو يتخاطبون بشيء من لغات التخاطب أو من معانيها..! إن لغات التخاطب لغات قليلة وصعبة جداً. إنها لغات ما أقل من يتكلمونها. وإن قومي واحزناه لمن أول من يعجزون عن التكلّم والتخاطب بها.!

ولعل ابتكار اللغات هو من أعظم ما عوقب به الإنسان أو ما عاقب به الإنسان نفسه إذ ينطق ويتعامل بها كل من كانت لهم لغة وكل من يستطيعون أن يتعلموا أية لغة.. إنه عقاب وخداع وليس عقاباً فقط. إنه لا بدّ أن يصعب حينئذٍ التمييز بين من بلغوا طور الكلام وبين من لم يبلغوا هذا الطور بل ويصعب أكثر أن يعرف من لم يبلغوا هذا الطور أنهم لم يبلغوه..! وهذا يجعل التمييز بين الكلام وبين ما ليس كلاماً صعباً، صعباً. وكم من الخطورة والتضليل في العجز عن هذا التمييز بين هؤلاء وهؤلاء وبين هذا وهذا؟

ما أخطر أن يتكلم وأن يحسب متكلماً كائن لم يبلغ طور الكلام.!

ولكن هل كان يمكن أن يصعد الإنسان إلى أية سماء من سمواته لولا ابتكاره للغاته أو لولا ولادته للغاته؟ بل وهل كان ممكناً ألا يبتكر أو ألّا يلد لغاته؟

لقد كان مجيئه لغوياً محتوماً حين بلغ طور تكوينه الذاتي وكينونته الذاتية. إن نتائج الكينونة إلزام لا اختيار كالكينونة نفسها.! لقد كان الأفضل والأنفع بل والإنقاذ ألا يتكلم اللغات وألا يستطيع تكلمها إلّا من بلغوا طور من يتكلمون..!

إن في هذه القضية ثلاثة أطوار أو نماذج..

طور من لم يبلغوا طور الكائن اللغوي، وطور من بلغوا طور الكائن اللغوي دون أن يبلغوا طور المتكلم.. والطور الثالث طور الكائن اللغوي المتكلم..

وأخطر وأردأ وأقبح هذه الأطوار هو الطور الوسط.. طور اللغوي الذي لم يصعد إلى طور المتكلم..!

أما الطور الثالث فهو الطور الخلاق..

فيا ليت الطور الثاني.. الطور الوسط لم يوجد.. يا ليته لم يكن..!

ليت الذين لم يبلغوا طور المتكلمين لم يبلغوا طور اللغويين المحسوبين متكلمين دون أن يكونوا.. إن القضية قضية أطوار تكوينية ذاتية إلزامية وليست قضية تعليم أو محاولة تطوير أو دعوة للتطور والكينونة الجيدة المطلوبة..

إن دعوة اللغوي الذي لم يبلغ طور المتكلم ليكون متكلماً تساوي دعوة الكائن الذي لم يبلغ طور الكائن اللغوي ليكون كائناً لغوياً.. إنها تساوي دعوة الكائن الصامت أي الجماد ليكون كائناً مصوتاً صاهلاً أو زائراً أو ناعباً أو مغرداً..

إن الدعوة والتعليم لا يوجدان الكائن أو يصوغان وجوده وإنما يتعاملان مع خصائص وطاقات وجوده..

❀ ❀ ❀

اغفر لي أو اعذرني أو تلطف في غضبك علي وتعجبك مني فإني لا أخاطبك بهذا ولا من أتكلم لغتهم يا كل العالم.. عظيم أساي وانفجاعي لأني أخشى بعد تجاربي الحزينة ألا يبلغ قومي طور المخاطبة لا مصدرين لها ولا مستقبلين..!

.. ولكني بما قلت وأقول هنا إنما أحاول بغير تخطيط أو تدبير أو منطق بل أو ذكاء أن أفرغ نفسي المثقلة.. المثقلة جداً من بعض أثقالها..!

ولكن لماذا أطلب الغفران منك؟ أليس ذلك تعبّداً بلا أي جزاء؟

آه.. ما أحوج النفوس.. ما أحوجها إلى التفريغ والاستفراغ بلا أي منطق أو حساب أو وقار أو حتى التزام أو استحياء..!

ما أحوجها إلى التفريغ والاستفراغ مهما كان الاستقبال لذلك والتفسير له..!

هل وجد أو يمكن أن يوجد من يستطيعون الكف عن هذا الاستفراغ والتفريغ بكل الأساليب لتراكمات وشحنات النفس؟

أليس الإله وكل إله هو أشهر وأبشع وأفظع المفرغين والمستفرغين لهذه الشحنات والتراكمات بكل الأساليب الفاقدة لكل الذكاء والوقار والشهامة؟ هل يمكن تفسير أو فهم أفعال الإله أو أوامره أو نواهيه أو تشريعاته أو طلباته أو تحليله أو تحريمه أو أي شيء من رغباته أو معاقباته أو ضرباته أو غضباته أو مبارزاته أو تحدياته أو تهديداته أو صرخاته أو إنذاراته أو أي شيء من أقواله أو معاملاته أو تصرفاته أو مفاخراته أو مخاصماته أو ملاعناته أو عداواته أو كآباته.

ـ نعم، هل يمكن فهم أو تفسير أي شيء من ذلك إلّا بأنه أقسى وأفجع وأقبح عمليات تفريغ واستفراغ الإله لما يموج ويصخب ويتصارع في نفسه من أثقال وآلام وضياع وهموم وهزائم وخسران وتعاسة؟

هل تتجمع كل الانفعالات الفاجعة الفادحة مثلما تتجمّع في نفس الإله؟

لو لم يكن الإله مصاباً بهذه الآفة أخطر وأقسى إصابة أي آفة الحكم عليه باستفراغ وتفريغ نفسه هل كان يمكن حينئذٍ أن يريد أو يدبّر أو يخلق ما يكره ويرفض ويحرم ويستبشع ويستقذر وينهى عنه وما يغضبه ويغيظه ويسبّه ويشوّهه ويذلّه ويتحداه ويسرق منه كل أمجاده وانتصاراته وجماله وسعادته ورضاه عن نفسه؟ هل كان يمكن حينئذٍ أن يفعل بنفسه شيئاً مما فعله بها؟ هل فعل أحد بنفسه مثل الذي فعله الإله بنفسه من تحقير وتعيير وتشويه وهزائم وفضائح؟ هل عادى أحد نفسه مثلما عادى الإله نفسه؟

أو هل كان يمكن حينئذٍ أن يقتل أي الإله أو يهدم أو يخفض ما خلق وبنى ورفع أو يأمر بذلك أو أن يصيب بالهرم أو العجز أو التشوّه أو البله أو الجنون أو المرض أي كائن خططه وأراده وصنعه وصاغه شاباً قوياً سوياً جميلاً معافى ذكياً عاقلاً فرحاً سعيداً؟ هل فعل أحد شيئاً من هذا الذي فعله الإله كله بكل المباهاة؟ إذن أليس الوجود كله هو عطاء إصابة الإله بهذه الآفة؟ إذن ما أعظمه من وجود وعطاء وما أعظم تفاسيره وحوافزه ونتائجه..!

لتصل له يا كل العالم بكل صيغك ومعانيك شاكراً متعبّداً مسروراً مغروراً..!

إذن هل يوجد متهم بكل الأخطاء والخطايا غير الإله ومتهمون له بكل الأخطاء والخطايا غير المؤمنين به؟

لهذا هل يوجد من يستحق البراءة مثل الإله أو من يستحقون كل العقاب مثل المؤمنين به لضخامة اتهامهم له لإلقائهم به داخل أوحال وآثام كل هذا الوجود ليكون كل مريديه ومدبريه ومخططيه وعاشقيه وفاعليه وكل الفاعلين الفاسقين به؟

كيف لم تعرف هذا يا كل العالم؟ عارك كل العار.. كل العار..!

كيف لم يعرف أنبياؤك وأتقياؤك وعباقرتك وكل مؤمنيك ومتدينيك أنهم هم وحدهم الشاتمون المحقرون المشوّهون للآلهة المستحقون لكل عقاب الآلهة لأنهم هم المتهمون لها بكل شيء قبيح وأليم وفاضح؟

.. كيف يا كل العالم لم تصر مستخدماً كل وسائلك وطاقاتك العلمية والفكرية والفنية والعملية على أن تلقى من أوجدك.. من زعمت أنه أوجدك إن كان يوجد هذا الموجد لكي تسائله وتحاوره وتحاسبه وتحاكمه بل وتحاصره وتقبض عليه لتفهم منه لماذا أوجدك وأوجدك بالصيغ والكينونات التي بها أوجدك..؟

ما الأسباب.. ما الأهداف.. ما الحوافز.. ما الأغراض.. ما الغايات.. ما الحسابات.. ما المصلحة أو المنفعة أو الضرورة أو الأخلاق أو التقوى أو المنطق أو المسرة أو المحبة أو الجمال في ذلك؟ هل التفسير أنه لم يعرف أو يتصور صيغاً وكينونات أخرى أو أنه لا يستطيع أو يريد غير ما فعل؟

.. وأيضاً لكي تراه وتفهمه وتصححه وتصلحه وتطالبه بأن يكون أفضل وأعقل وأعظم وأعلم مما كان.. ولكي تريه أخطاءه ونقائصه، ولكي تعرض عليه وتفسّر له ما في تكوينه وصياغته لك من نقص وضعف وهوان وقبح وفحش وآلام وآثام وعبث وسفه وظلم وخروج على كل المعقول والمقبول والمطلوب والمنتظر.. إنهما تكوين وصياغة لا يطاقان ولا يقبلان ولا يعقلان ولا يغفران ولكن خضوع الذات للذات وديمومة الممارسة قتلا كل الرؤية والفهم والرفض والمحاسبة والمقاومة.!

.. ولكي تفرض عليه أو تتضرّع إليه ليتراجع عن صياغاته لك التي أوقعها بك وأوقعك بها ليصوغك من جديد صياغات أخرى جديدة أنبل وأفضل وأذكى وأعقل سوءاً ورداءة وقبحاً مما فعل..

أليس قد جمع في صياغاته لك كل الأخطاء والخطايا والتشويه والتعذيب؟

.. ولكي تعلمه أو حتى تسمعه وتعرض وتقرأ عليه كل ما لديك من علوم وفنون وأفكار وأخلاق وحضارات وقوانين وتقدم ناصحاً واعظاً بل وآمراً له بأن يأخذ به ويستفيد منه.. أليس قد أصبح متخلفاً كل التخلف أمام إبداعاتك وخطواتك؟ ألا يكون قد أصيب بكل الأمراض النفسية والعصبية انفجاعاً بتفوقك عليه؟

.. وأيضاً لكي تطالبه بالاعتذار والاستغفار والتوبة والتعويض عن كل ما فعل بك بل وعن كل

ما فعل بنفسه.. أو لكي تعزله عن وظائفه وتسقطه من فوق عرشه إن لم تجد بديلاً عن ذلك.. لكي تفعل هذا العزل وهذا الإسقاط ولو إعلاناً وقانوناً فقط إن لم تستطعه بالفعل والتنفيذ..!

هل يوجد من يستحق الإسقاط والعزل مثل صاحب هذا الكون إن كان له صاحب؟

نعم، يا كل العالم كيف لم تفعل ذلك بل أو تفكر فيه أو تتحدث عنه؟. مخلوق يقاسي أقسى المعاناة وكل المقاساة من كل صيغ وظروف وتاريخ ومكان وبداية ونهاية وكل تفاسير ومعاني خلقه وإيجاده وبقائه كيف لا يفعل ولم يفعل كل شيء ليلقى من خلقه وفعل به كل ذلك لكي يحاسبه ويحاكمه ويعاقبه أو حتى يفاوضه ويرجوه ويغيره؟

كم أنت يا كل العالم فاجع، فاجع لكل من يراك أو يقرؤك أو يفسرك أو يحاسبك أو يسائلك أو يحاكمك بشيء من التحديق بعينيه أو بعقله أو بقلبه أو بضميره أو بأخلاقه أو بعواطفه أو حتى بتدينه وتقواه اللذين لم يتعلمهما من الأنبياء والأديان والكتب المنزلة..!

إنه لا مفسد ومشوّه للتقوى والتدين والإيمان مثل الأنبياء والأديان والكتب المنزلة..

.. ولهذا فإن أي شيء لم يحرم ويمنع ويعاقب مثلما حرم ومنع وعاقب كل أنبيائك وقادتك وزعمائك وكل هداتك ومعلميك التحديق بكل أنواعه في كل شيء وفي أي شيء. إن آلهتك لم تتفق على شيء مثل إتفاقها على التوظيف لتحريم ومقاومة التحديق فيها أو في أي شيء..!

ولعل المنهي الممنوع عن التحديق ومن التحديق لم يكن محتاجاً إلى هذا النهي وهذا المنع لأن ذاته تنهى ذاته عن ذلك وتمنعها منه لكي تستطيع فهم وتقبّل ومعايشة ما لا يستطاع فهمه أو تقبّله أو معايشته، وتستطيع الرضا عما لا يمكن الرضا عنه والإعجاب بما لا يمكن الإعجاب به، بل ولكي تستطيع تحويله إلى تخطيط وعبقرية وأخلاق وصناعة ونعمة أعظم إله..!

سوف أجرؤ هنا يا كل العالم على أن أصعقك بإنذار لم تسمعه قط ولن تسمعه أبداً من مشوّهيك ومفسديك ومرهبيك ومذليك ومضلليك بإنذاراتهم الكونية الغيبية المتوعدة المهددة المحاصرة لك بكل الأهوال الآتية المنتظرة والمكتوبة في السماء...

إنك لم تخدع نفسك أو تروعها مثلما فعلت بها منذراً لها بعقاب السماء.!

نعم، علي أن أصعقك بإنذار سوف يحطّم أو يجب أن يحطم كل تعاليمك ومقرراتك ومعتقداتك ودياناتك التي سجن فيها أنبياؤك ومعلموك عقلك وقلبك ورؤاك وضميرك وأخلاقك وتطلّعاتك وتحديقاتك بل وخطواتك وكل معانيك الجميلة الذكية الصافية المشرقة أو التي يحتمل ويرجى ويطلب أن تكون كذلك في كل تاريخك المقروء المكتوب المعروف.. إنه لم يوجد سجانون لكل معاني الإنسان في سجون أبدية مثل أنبيائه ومعلميه أو غيرهم..!

ولكن ماذا يقول إنذاري هذا المصوغ بكل هذا الإرهاب والتضخيم والتهاويل؟

يقول: لقد علّمك كل معلميك ولا يزالون وسوف يظلون يعلمونك: إن إله هذا الوجود قد شيّد وأعدّ وخلّد كل الجحيم بكل أهواله التي رواها أو وصفها وصوّرها سيد الأنبياء وناسخهم محمد النبي

العربي لكي يعذّب ويعاقب به كل من أنكروه.. كل من أنكروا واستبشعوا ورفضوا أن يكون هو مريد ومخطط وخالق هذا الوجود بكل شروره وآثامه وآلامه وفضائحه ومظالمه وقبحه وفسوقه وكفره تنزيهاً وتبرئة له من ذلك..

وإنه أي إله هذا الوجود أو المزعوم إلهه قد شيّد وأعدّ وزرع وغرس وسقى وخلّد الفردوس الذي رواه ووصفه واستفرغه وتغزّل به النبي العربي سيد الأنبياء وملغيهم ومطاردهم ليكون أي هذا الفردوس بعض الجزاء والشكر والتكريم والتمجيد لمن قالوا وآمنوا وعلموا أن كل هذا الوجود وكل وجود وكل شيء ليس إلّا استفراغ قلب وعقل وحب وحكمة ورحمة وسرور وأخلاق وعبقرية إله هذا الكون وكل كون أو من زعم وأعلن إلهه، دون أن يشعروا أو يعلموا أو يقاسوا من ضخامة وبلادة ونذالة وفجور وزندقة وقسوة اتهامهم وتلويثهم وتحقيرهم وتشويههم له وعدوانهم عليه..!

لقد جاء هؤلاء المعلمون أردأ وأسوأ وأخطر وأغبى وأجهل معلمين.!

إنه لا أخسر ولا أقبح حظاً ممن جاؤوا ليكونوا أنبياءه ودعاته ومفسريه.!

.. والإنذار الذي قد صممت على أن أصعقك به يا كل العالم هو أن الذي لا بدّ أن يفعله الإله إن وجد هو عكس ذلك حتماً.. هو أن يضع في الجحيم كل من آمنوا وأعلنوا بأنه هو الفاعل لكل شيء والمتهم المتورّط الملوّث المتلوث بكل شيء والمستوي بكل الفرح والكبرياء والمباهاة وعبادة الذات فوق كل ما يصنع أقسى وأفجع الأنات والآهات والصرخات والويلات واللعنات من قبحه وفحشه وأن يضع في الفردوس كل من أنكروه ونفوا وجوده لينزهوه ويبرئوه وينظّفوه ويحموه من كل ما ترفضه كل العقول والقلوب والأخلاق والتقوى المبثوث المغروس في كل شيء من هذا الوجود..

سيقول هذا الإله إن وجد: أيها المؤمنون بي لقد ألقيتم فوقي كل الأوحال والآثام والآلام والأخطاء والخطايا وألقيتموني فيها لهذا لكم الجحيم كل الجحيم بكل أهواله. إنه أعدل عقاب.! ويقول لمنكريه لقد نفيتم وجودي لكي أكون بريئاً من كل ذلك لهذا وجب أن تذهبوا إلى الفردوس إنه بعض ما تستحقون من الجزاء والشكر والاعتراف بجميلكم وتكريمكم لي أن تذهبوا إلى الفردوس مستقبلين بأحر الترحيب والتهاني والأغاني منشدة لها حورياته وغلمانه بكل ما في قلوبهم وأعضائهم وقلوبهن وأعضائهن من شوق ومحبة وحرمان..

وسيقول لقد خلقت هذا الكون كما جاء غلطة أو خدعة أو لتفاسير أخرى وكان الواجب والمفروض أن يفهم ذلك الجميع وأن يبرئني من ذلك الجميع. كيف لم يعرف الجميع أني إنما خلقت هذا الكون الفاحش ممتحناً لأعرف من يقبل اتهامي به ومن يصرّ على تبرئتي منه ارتفاعاً بي؟

.. لهذا وجب أن أعاقب بأقسى العقاب وكل العقاب من عجزوا عن فهم ذلك أو رفضوا فهمه وأن أثيب بكل الثواب وأعظم الثواب كل من فهموا ذلك وعبروا عن فهمهم له..

فالذين نفوني قد اشترطوا لوجودي كل الشروط الجيدة والعظيمة فلم يجدوها أو لم يجدوا شيئاً منها ففرضت عليهم تقواهم وصدقهم واحترامهم لي أي للصورة التي تصوّروني بها أن ينكروا وجودي..

.. أما الذين آمنوا بي.. بوجودي فلم يشترطوا لي أية شروط جيدة أو عظيمة فوجدوني كل شيء وأي شيء وداخل كل شيء وأي شيء والمسؤول عن كل كائن وكينونة فكانت إساءاتهم وذنوبهم عظيمة وشنيعة وفظيعة!

كيف لم يعرفوا ذلك؟ كيف أمكن أن يتجمع فيهم كل هذا التبلّد والبلادة؟ كيف لم يفطنوا إلى ضخامة بلادتهم وتبلّدهم؟ إنه مهما كان هذا التفسير للإله قاسياً وفاجعاً فإنه أكثر التفاسير رحمة به وإشفاقاً عليه وتجميلاً ومجاملة له ودفاعاً عنه وأفضلها وأنبلها رؤية وتصوّراً وتصويراً له. إن هذا التفسير لما سوف يحدث هو أعظم اكتشاف يجب أن يفطن إليه المؤمنون بالإله ويعملوا بما يعني..!

.. إن الإله أو صانع هذا الكون إن كان له صانع هو الكائن الذي لا بدّ أن يشقى ويفجع ويعجز ويهزم ويخيب ويفتضح كل مفسّريه لو حاولوا أن يجدوا له أي تفسير كريم أو نبيل أو مقبول أو معقول أو محترم أو ليس كل القبح والفحش والهمجية والوحشية والعدوانية والبلادة والنذالة والهوان له ولكل مفسّريه ومعامليه وقارئيه ومتصوّريه.! إنه المعجز لكل من أرادوا أن يجدوا فيه أي شيء يرضي أو يقبل أو يغفر أو يفسّر.!

.. إن التفاسير لم تكذب أو تهن أو تصغر أو تجهل أو تفتضح مثلما حدث لها كل ذلك حينما فرض أو طلب أو قبل أو أريد أن تكون للآلهة تفاسير أي لمن أراد هذا الوجود فخططه وصاغه وخلقه ليجيء كما جاء..!

كيف قبل أي شيء أن يكون له تفسير بعد أن أصبح لخالق هذا الوجود تفسير؟

إنه لا يوجد ولن يوجد محقّرون ومصغّرون وسابّون للإله مثل من وضعوه فوق هذا الكون ثم ذهبوا يفسّرونه بأجمل وأتقى التفاسير وبكل التفاسير..!

.. إن التفسير الجديد التقي الصادق الوحيد لكل إله ولأي إله هو أن يقال: إنه لم يحضر، لم يحضر، ولن يحضر، ولن يحضر لهذا فلن يفسّر بأي تفسير لأن أحداً ما، لأن أي أحد لم يره أو يعرفه أو يعامله أو يخاطبه أو يقرأه أو يجده في أي شيء أو في أي مكان، ولأنه لن يحدث أي شيء من ذلك..!

إنه لا إنقاذ للإله من أقبح سجن.. سجن الوجود والسجن فيه ومن الغرق في كل الأوحال.. أوحال هذا الوجود وأوحال التعامل به ومعه ومعايشته ومواطنته ـ إنه لا إنقاذ له من ذلك إلّا بنفي حضوره.. بالنفي الأبدي لحضوره ولاحتمال حضوره..!

إن الإله هو الكائن الفريد الذي يهينه ويسبّه ويشوّهه كل من يعتقدون ويعلنون أنهم يرضونه ويمتدحونه ويجمّلونه.! أقسى العار والافتضاح والهجاء لمن يستطيعون أو يقبلون جهل ذلك.. إن كل الجهل وأي جهل لا يساوي شيئاً من جهل من يجهلون ذلك.. من يجهلون أن الإيمان بالإله وبأنه المريد والفاعل لكل شيء هو كل السب والهجاء والتشويه له.!

.. إن كل ما فيك أو أكثر ما فيك يا كل العالم لفاجع كل معاني الفجيعة وأساليبها ومستوياتها..!

وقد تهون وتصغر كل الفواجع أمام الفجيعة بهذا المثل أو النموذج الواحد الذي رأيناه وتعذبنا به

كلنا دون أن يراه منا أحد..! إنسان واحد ولدته وصاغته آلامك وتشوّهاتك وهمومك وضياعك وعجزك عن أن تعرف ماذا أنت ولماذا أنت ومن أين وإلى أين وكيف ومتى..!

هذا الإنسان الواحد يهجم عليك بكل الغرور والادعاء والفحش زاعماً معلناً أن صاحب هذا الوجود وكل وجود قد صبّ وحقن واستفرغ فيه كل معانيه وأنه قد سلّطه وأمره عليك ليكون مستعبداً كل الدهر لكل صيغك ووجودك وحياتك وكل معانيك.. لكل عقلك وفكرك وعلمك وقلبك وضميرك وأخلاقك وقوانينك وشرائعك ورؤاك وعلاقاتك وخطواتك وصلواتك وتعبداتك بل ولكل عواطفك ووساوسك.. مملياً وملقياً عليك كتاباً خالداً خلود ضياعك وآلامك وآثامك وحماقاتك وورطاتك ووثنياتك ليكون تخليداً وترسيخاً وتجديداً وتأجيجاً وتحريضاً لاستعبادك.. لاستعباد كل صيغك وتفاسيرك ومعانيك لتظل أبداً تقرؤه وتحفظه وتفسّره وتفاخر به وتدعو إليه وتنفق عليه وتتعلّمه وتصلي وتقاتل وتعادي به وله وتغني لكل آلهتك وتسكرهم وتسحرهم وتخدعهم وتقيم لهم الأعراس بقراءتك له، وتجد فيه كل شيء وكل ما لن يكون شيئاً.. كل ما يمكن أن يعلم أو يكتشف أو يبتكر أو ينفع أو يراد أو ينصر أو يقال أو يهب القوة أو المجد أو الجمال أو التقوى أو العبقرية أو التفوق أو الإعجاز في كل شيء وكل ما ليس كذلك وكل ما هو ضد ذلك.. لتجد في حروفه كل أسرار كل الأشياء..!

لتذهب تتحدى به كل شيء وكل أحد وتفسّر وتحاسب وتحاكم وتقرأ وترى وتقيس به وعليه كل شيء وكل أحد في كل أزمنتك وأمكنتك وتاريخك وظروفك ولغاتك وكينوناتك وحضاراتك..

ليصبح تحريرك من هذا الإنسان وهذا الكتاب كل المستحيل وكل الكفر والعصيان والإجرام أو محاولة تحريرك..! هل عرفت هذا الإنسان وهذا الكتاب؟ ما حدود فجيعتك بمعرفتك لذلك؟ هل يقبل أن يكون لفجيعتك حينئذٍ حدود؟ هل خسر شيء بشيء مثلما خسرت بهذا الإنسان وهذا الكتاب؟ لا بدّ أن تقول بل ويجب أن تقول كل الرؤى والتفاسير والمحاولات الفكرية: إنك يا كل العالم محمي من الانفجاع ومعقم محصن ضد الانفجاع بأية فجيعة لأن كل وجودك وحياتك وممارساتك ومواجهاتك ومعاملاتك فواجع، فواجع كل الفواجع ولا شيء غير الفواجع..!

أليس تكرار وشمول وديمومة وضخامة الفواجع.

ـ أليس ذلك يحمي من الانفجاع ويعقم ضده؟ أليست الرؤية الدائمة للقبح الدائم الشامل الذي لا شيء غيره تحمي حتماً من الانفجاع بقبحه بل وتحمي من رؤيته؟ هل يستطيع أن يرى أو يعرف أو يتصور قبح الظلام من لم ير أو يعرف أو يتخيل أو يتعلم أو يعلم إلّا الظلام وإلّا مزايا وتقوى وعبقريات الظلام وخالق الظلام؟ أليس الذي حمى الإله أو الآلهة من أن ترى قبح ما ترى أو من الانفجاع بقبح ما ترى رؤيتها ومواجهتها ومعايشتها ومواطنتها ومساكنتها الدائمة لذلك وحرمانها الدائم من أن ترى أو تعرف أو تتصوّر النقيض الآخر الجيد أو أن تسمع أو تقرأ عنه؟ هل وجد أو يمكن أن يوجد راء ومواجه أو مساكن معايش فاعل لكل القبح بكل الفرح والرضا والسعادة والإعجاب بالنفس مثل الآلهة أو غير الآلهة؟ كيف حدث ذلك؟ كيف؟ وأبداً كيف؟ كيف؟ إن الشيء الخارج على كل التفاسير والحسابات يتحول إلى أعظم مقبول ومعقول وجمال وتقوى بل وإلى جمال إلّه بالإلف الطويل

له.. بالمواجهات والممارسات والمعايشات الطويلة له. لقد تحوّل الوجود إلى ذلك بهذا القانون. ماذا لو أن الإله قد خرج فجأة من ظلماته فرأى وواجه وقرأ وفسّر وعرف نفسه والأكوان التي أرادها وخططها وصنعها واستلقى فوقها وكان لم يكن قد طوّع وروّض وشوّه وأفسد وأخضع كل معانيه الجيدة أو التي يفترض ويطلب ويطالب أن تكون جيدة أي على مستوى معاني الإله.

ـ نعم، ولم يكن قد فعل كل ذلك بنفسه وبمعانيه برؤيته ومواجهته ومعايشته ومساكنته وممارسته الأزلية الأبدية لنفسه ولكل ما أراد ودبّر وقرّر وصنع أي لكل شيء في هذا الوجود؟ هل يمكن حينئذٍ أن توجد فجيعة مثل فجيعة الإله بنفسه وبكل ما أراد وخطط وخلق؟ هل يستطاع حينئذٍ تصوّر ما لا بدّ أن يفعله بنفسه وبما أراد وخطط وخلق ليكون شيئاً من التكفير والتعويض والاستغفار والإصلاح والتصحيح والتوبة؟

إن جميع التصوّرات القاسية المعاقبة لا تستطيع أن تكون التصور الكافي لما لا بدّ أن يحدث حينئذٍ أي لما لا بدّ أن يوقعه بنفسه وبكل ما أراد ودبّر وخطّط وأوجد..! إن كل عقاب وقع أو يجب أن يقع لن يكون حينئذٍ إلّا شيئاً من العقاب الذي يجب أن يعاقب به الإله نفسه أو الذي لا بدّ أن يعاقب به نفسه..!

نعم، نحن خير أمة
أخرجت للناس ولكن لماذا؟

نحن أمة أخرجت لا خرجت، والمعنى أن هناك قوة إلهية أو كونية حكيمة عظيمة رحيمة دبّرت أن تخرجنا للناس لإسعادهم وإنقاذهم وتعليمهم وقيادتهم، لقد أخرجنا بتخطيط وحساب ولم نخرج كما يخرج الناس الآخرون وكما يخرج كل شيء.. إنه لفرق عظيم بين خروج الشيء وإخراجه بتخطيط وتدبير وحساب.. إننا أعظم إخراج أخرجه أعظم مخرج لأعظم هدف..!

.. وأيضاً نحن لم نخرج في الناس أو مع الناس ولكن أخرجنا للناس أي من أجلهم لنكون لهم كل القيادة والهداية والعطاء بكل معانيه وصيغه.

.. العطاء الحضاري والعلمي والأخلاقي والديني والإنساني والجمالي بكل تفاسيره. أليس ذلك هو الذي حدث؟

.. إذن نحن أمة خلقت وجاءت للناس ولم تخلق أو تجيء في الناس أو مع الناس أو إلى الناس أو مثل الناس، أو لنفسها..!

هكذا قال كتاب الكون كله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.. حتى لأنفسنا لم نخرج لأنفسنا وإنما أخرجنا للناس بكل تفاسير كلمة: «للناس».. ومن بعض تفاسير كوننا خير أمة أخرجت للناس:

أولاً:

كان الإله يتكلم إلى كل نبي بلغته ولغة قومه ثم يستمر يتكلم إلى كل الأنبياء بلغات شعوبهم متنقلاً من نبي إلى نبي ومن لغة إلى لغة دون أن يقاسي من أي حرج أو تأثم أو ذنب أو مذلة أو مذمة أو تنازل عن مكانته أو كبريائه أو عليائه ولكنه أي الإله حينما تكلم بلغتنا العربية إلى نبيّنا العربي توقف عن الكلام بأية لغة أخرى وتوقف عن مخاطبة الأرض ومخاطبة الإنسان وأغلق أبواب السماء لئلا ينطلق منها أي صوت من أصواته أو يتنزل منها أي رسول من رسله حاملاً وحيه بأية لغة غير اللغة العربية. إن ذلك لو حدث لأشنع الأخطاء والخطايا.. لقد استفرغ كل مجده اللغوي والبياني والبلاغي والعلمي والفني والجمالي وبلغ وأطلق كل إعجازه بكل صيغه ومعانيه حين تكلم اللغة العربية في رسالته إلى نبيّنا العربي محمد وفي قرآنه العربي.. فالقرآن ورسالة النبي هما آخر كلام الإله وتحدثه إلى الأرض وأهلها فلا وحي بعد اليوم وأي زاعم أو مزعوم نبياً بعد محمد فلن يكون إلّا دجالاً كذاباً يجب الخلاص منه..!

.. الإله لا يجرؤ ولا يريد أن يتكلم بأية لغة بعد أن تكلم بلغتنا العربية.. إذن ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟ لقد أصبح غريقاً إعجاباً وانبهاراً باللغة العربية وعشقاً لها وفي غرقه هذا أصبح عاجزاً ورافضاً أن يتكلم بأية لغة أخرى.. لقد اختار أن يصيب نفسه بعاهة الخرس لئلا يتكلم بأية لغة أخرى غير العربية..

ثانياً:

كان تعدّد الأديان مباحاً مشروعاً واقعاً.. كل أمة لها دينها وطريقها إلى اللّه ولغتها في مخاطبته وتفسيرها ورؤيتها له.. تنحته من صخورها وترابها صائغة له على مقاساتها ومقاييسها النفسية والعقلية والاجتماعية والتاريخية والتعليمية والعلمية واللغوية بل والصحية والمرضية والجاهلية والأمية والبدوية.. صائغة له من همومها وآلامها وعجزها وورطاتها..!

.. لا يحاول أي دين من الأديان أن يلغي أو ينسخ أو يسقط الأديان الأخرى، إنها أسلوب من تعديد وإكثار الأبواب والطرق الموصلة إلى اللّه. وهذا أفضل وأنفع وأكثر تيسيراً من أن يكون الطريق أو الباب إليه واحداً أي إلى اللّه.. كانت كل الأبواب والطرق تؤدي إلى اللّه، وكان تعدّد شعارات وأزياء ولغات وأسماء المعابد منتسبة إلى عديد الأديان ـ كان ذلك يملؤه سعادة وفرحاً وفخراً وكبراً.. حتى جاء الدين العربي.. دين الإسلام فسحره وقهره وبهره فرأى ألا يشاركه أو يعاصره أو يعايشه أو يجيء أو يكون بعده أو معه أي دين آخر فأمره أن يلغي وينسخ كل الأديان الأخرى وأن يعلن كل الباقين عليها ضلالاً كفاراً ملزمين بأن يدخلوا فيه أي في الدين العربي الإسلامي فأصبح هو الدين الذي تشترى به الجنة وتباع باتباعه النار..! إذن ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟

ثالثاً:

كانت أرحام المواهب الإنسانية خصبة وقادرة على أن تلد الأنبياء تباعاً وباستمرار، وكانت في الزمن الواحد تلد العديد منهم بلا عجز أو معاناة أو شكوى أو رفض، ولم يكن أحد يتوقع أو يتمنى أن تتوقف عن ذلك أي أرحام المواهب الإنسانية. وكانت الحاجة إلى هذه الولادة الدائمة تبدو حادة ومستمرة وغير قابلة للاستغناء أو الرفض أو التبديل أو التحديد للتناسل..! كانت أي ولادة الأنبياء المستمرة المتتابعة هي كل وسائل المواصلات والتفاوض والتخاطب والتشاور وتلقي الأوامر والتعاليم والعلم وتبادل الحب والمصافحة والمعانقة والبكاء والشكوى والعلاقات المتواجهة مع السماء..! إنه لو كان كل شيء محتملاً في حساب الإنسان وحساب حاجاته وتوقعاته في ذلك الزمان لبقي شيء واحد لن يكون محتملاً أو متوقعاً هو أن تتوقف إرادة الإله أو حكمته أو رحمته أو حاجته وضرورته أو قدرة أرحام المواهب الإنسانية عن ولادتهم أي ولادة الأنبياء..

ولكن حينما حبلت أي أرحام المواهب الإنسانية بالنبي العربي وولدته أثقلتها وبهرتها ضخامة وعظمة وجمال وشمول وقوة معانيه وامتصت وسحبت منها كل طاقات الخصوبة ومعانيها والأشواق والاحتياج إليها والإرادة لها فأعلنت أنها لن تحبل بأي نبي آخر بعد النبي العربي محمد فأعلنه كتاب

العرب القرآن خاتم الأنبياء وقال هو معبراً عما قررته أرحام المواهب الإنسانية وعما أصابها: «لا نبي بعدي».. «لا نبي بعدي».

إذن ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟

لقد جمعت أي أرحام المواهب والطاقات الإنسانية في النبي العربي كل معاني النبوة وولدتها فيه بولادتها له فلم يبق فيها شيء تحبل به وتلده أي من معاني النبوة. لهذا كان محتوماً أن يعلن عقم أرحام المواهب الإنسانية عن أن تلد أي نبي بعد النبي العربي.. وقد أعلن عن هذا العقم من هو سببه أو من هو فاعله وموقعه أي النبي العربي.. ولا بدّ أن يكون قد قاسى تفكيره وضميره وأخلاقه وطاقات التحمّل فيه من تجمع كل معاني النبوة فيه، لقد سحب وامتص وشرب من مواهب الإنسان وطاقاته كل احتمالات الحبل بأي نبي وولادته في كل الزمن الذي جاء بعده وفي كل الزمن الذي بقي والذي سوف يجيء أي في كل الأبد.. كيف يطيق أي ضمير أو فكر أو قلب أو أخلاق كل هذا؟ هل يطيقه إلّا النبي العربي والإنسان العربي والإله العربي الذي أراد ودبّر وفعل كل ذلك بل وأعلنه سعيداً فخوراً مباهياً؟

ما أصعب أن تسرق كل معاني النبوة من كل مواهب الإنسان.!

رابعاً:

نبينا وديننا وكتابنا المقدس هي وحدها الصحيحة اليوم وإلى الأبد، والمفروضة اليوم وإلى الأبد على كل البشر، والمصححة لكل الأنبياء والأديان والكتب المقدسة، وهي وحدها كل التخاطب والعلاقات بين الإله وكل البشر اليوم وإلى الأبد، وهي وحدها الطريق إلى الله وإلى جواره في فردوسه منذ جاءت وإلى الأبد، وهي وحدها المحاسبة والمحاكمة والمعاقبة والمثيبة والمعلمة والهادية والمخاطبة نيابة عن الإله لكل البشر منذ وجدت وحتى الأبد، وهي وحدها التي كتبت ببعض حروفها وبيانها وإعجازها كل حقائق الكون وقوانينه وأسراره وكل معارف الإنسان واكتشافاته وكينوناته منذ الأزل حتى نهاية الأبد.. منذ بدأ الإله العمل حتى يتوقف عن العمل..! في كتابنا أي قرآننا كل ما كان وما سوف يكون بل وما لن يكون من معارف وأسرار وحقائق وأحداث في هذا الكون وفي كل كون وأيضاً ما في ضمير الإله ونياته وقدراته وتاريخه من ذلك ولكن أي شيء من ذلك لن يعرف فيه أي في قرآننا أو يعرف منه، بل لن يوجد فيه إلّا بعد أن يعرفه ويكتشفه ويعلنه الآخرون أي أعداؤه وغير المؤمنين به..!

وهذه إحدى معجزات قرآننا: إن أي كشف أو معرفة من اكتشافاته ومعارفه لن تكتشف أو تعرف بل أو توجد فيه إلّا بعد أن يعرفها ويكتشفها ويعلنها من لم يقرؤوه أو يعرفوه أو يروه أو حتى يسمعوا به أو عنه. ولعل كل معجزات قرآننا من هذا النوع.!

.. من مزايا قرآننا أنه لا يكتشف معجزاته العلمية إلّا الكافرون به..!

إذن ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟

خامساً:

نحن وحدنا الذين ورثوا حجارة موضوعاً بعضها فوق بعض موضوعة فوق أمثالها من الحجارة في ضمير وقلب صحراء لا يتخلق فيها قلب ولا ضمير ولا شيء من معاني القلب والضمير.. تسمى بيتاً أي هذه الحجارة مفروضاً على كل الناس منذ اليوم وإلى الأبد أن يؤمنوا به أي بهذا البيت وبالدين الذي جاء به وألا يصلوا إلّا متوجهين إليه لا إلى اللّه في سمواته وأن يحجوا إليه ويطوفوا به ويقبلوه بأفواههم وقلوبهم وعقائدهم وقاماتهم وأن يحلقوا شعورهم ويخلعوا ملابسهم وكراماتهم ووقارهم ورصاناتهم وعقولهم وذكاءهم أمامه وتحته وأن يذبحوا له الحيوانات ويتقرّبوا إليه بدمائها وروثها وثغائها ورغائها، وأن يرموا أنفسهم وهاماتهم وقاماتهم وعيونهم ووجوههم وأيديهم وكل معانيهم بالحجارة مسددة إلى ذكاء الإله المعبود بها..

.. مفروضاً على كل الناس أي القادرين منذ اليوم وإلى الأبد أن يفعلوا كل ذلك وإلّا كانوا خارجين على الإله عاصين مغضبين مهينين له مستحقين كل غضبه ولعناته وحسابه وعقابه وجحيمه..!

لهذا كنا خير أمة أخرجت للناس..

سادساً:

نحن وحدنا منذ اليوم وإلى الأبد المفسّرون الواصفون المعلمون للإله ولأوامره ونواهيه ولأخلاقه ونياته وأسراره ولرضاه وغضبه وحبه وبغضه ولإرادته وكرهه ولما فعل ولما سوف يفعل ويريد أن يفعل بل ولتاريخه ومستقبله ولتعامله مع نفسه ومع كل شيء وكيف يحيا ويكون ويقضي ويشغل وقته ويرى وجهه وذاته ويعجب بجماله وقوته وصحته وسلطانه وبطشه ووحدانيته الحزينة.

ـ نعم، نحن وحدنا هؤلاء المفسّرون الواصفون المعلمون لكل هذا أي بديننا ونبينا وقرآننا لأن جميع الديانات والأنبياء والكتب المقدسة الأخرى أصبحت باطلة كاذبة أو محرفة أو ملغاة منسوخة بمجيء نبينا وديننا وقرآننا.

لهذا كنا خير أمة أخرجت للناس..!

وأيضاً لهذا ظللنا وسوف نظل وحدنا إلى نهاية العالم المتفاوضين مع الإله في كل شيء نيابة عن كل البشر في كل ما يحب ويكره.. في كل ما يريد ويرفض..!

.. في كل ما يسعده ويشقيه..!

سابعاً:

الأمم تنال حياتها ورخاء حياتها واحتياجات حياتها وجمال حياتها ومستقبل حياتها وقوة حياتها بعقولها وعلومها وعضلاتها وحماسها وبكل صيغ النضال المتعب المخيف المشحون بكل المخاطر والمغامرات والمصادمات بل وبالخروج على كل تفاسير الكرامة والكبرياء والنظافة والأخلاق والعزة والشرف أي ولو أحياناً..

لقد تركت أي سائر الأمم لتنحت وتصوغ حياتها ووجودها وبقاءها من أقسى وأشرس الصخور المدفونة تحت أعتى الرمال المصممة بأغبى وأجهل وأقبح القلوب والعقول والرؤى.. المرادة المقدرة بأردأ الآلهة إرادة وتقديراً وعضلات. المحاصرة بكل المناقضات والمعوقات والمشوهات.. أما نحن فقد حمينا من ذلك أي من صناعة الحياة بكل ما يلزم لذلك من أهوال ونضال وعبقريات وحروب مع الطبيعة ومع النفس ومع المنافسين. لقد وضعت لنا الحياة من خارج أنفسنا وفي خارجها تحت مضاجعنا وخيامنا ومعابدنا وخمولنا واسترخائنا وعجزنا وانبطاحنا على الأرض منتظرين حضور آلهتنا لتفعل لنا كل ما هي عاجزة وغائبة ومشغولة عنه وناسية له وجاهلة به..!

وجاء الآخرون كالمسخرين المستعبدين ليفتشوا ويبحثوا عنها أي عن حياتنا ليضعوها في أيدينا وجيوبنا وخزائننا وعلى موائدنا بل وفي أفواهنا وعلى أجسادنا كأنما هم خدم مطيعون متعبدون أو متصدقون محسنون. لقد جاء إلينا هؤلاء الآخرون! ماذا كنا نستطيع أن نكون لو لم يجيئوا إلينا؟

.. لقد جاءت لنا الحياة أو أعطينا الحياة كذلك دون الآخرين رثاء لعجزنا وتعويضاً عنه وستراً لبشاعته ورحمة به وبنا بعد اليأس من انتصارنا عليه أي على عجزنا أو كان ذلك أي مجيء حياتنا إلينا وإعطاؤنا إياها كما جاءت وكما أعطيناها توكيداً وتثبيتاً له أي لعجزنا على افتراض أن عجزنا يحتاج إلى توكيد وتثبيت..! ولعل ذلك فرار من رؤيتنا ملزمين بأن نصنع حياتنا بأنفسنا..!

.. لقد تعاونت الطبيعة والآلهة لكي تفعل لنا وبنا ذلك. لقد تعذبتا أي الآلهة والطبيعة لكي تستطيعا ذلك وتفعلاه خارجتين على كل أخلاقهما وقوانينهما وعبثهما وضلالهما وفحشهما الدائم.. لقد خرجت الآلهة على كل أخلاقها ومنطقها وعدلها ووقارها ونظامها احتراماً وإراحة وإسعاداً لنا أو إشفاقاً علينا ورحمة ورفقاً بنا. لقد جاء الإله ضعيفاً جداً أمام إرادة الإشفاق علينا أو المحاباة لنا.!

لهذا نحن خير أمة أخرجت للناس..!

ثامناً:

هل وجد أو يمكن أن يوجد أو يقبل أن يوجد شعب في تعداد شعبنا له لغة واحدة ودين واحد وتاريخ ومصير واحد ومزاعم وآمال ودعاوى وشعارات وأفكار واحدة بل وأحقاد وعداوات ولعنات واتهامات وبغضاء واحدة وأعداء محددون لا يتغيرون وهم كل البشر..

ثم يكون له من تعدد وأعداد دوله وقياداته وزعاماته وانقساماته وخصوماته ومنافساته ومنازعاته ومبارزاته ومؤامراته ومشاتماته ودسائسه ومكائده أي بعضه ضد بعض مثل ما لشعبنا أو شيء مما لشعبنا من ذلك؟

كم لشعبنا الواحد من دولة ووطن وحكومة وحكم وحاكم وقائد وقيادة وزعيم وزعامة وبطل وثوري ومناضل وانتماء ومذهب ومن أعداء وأصدقاء وجيوش وحرس ومن حدود بين دوله وأوطانه وقياداته وزعاماته وحكامه ومذاهبه وانتماءاته ورإياته.. محروسة ومغلقة أي حدوده بالجيوش والحرس وبالمخاوف والأحقاد والعداوات والتهديدات والبغضاء والتحرّش والتربّص والكيد وبكل الشرور

المشحونة بها كل القلوب والعقول والنظرات والنيات والتمنيات بل والكلمات والمخاطبات بل والقبلات والمصافحات والمعانقات واللقاءات.. والاجتماعات والمؤتمرات بل والمصالحات والابتسامات والتهنئات والمعايدات والزيارات بل والصلوات.. حتى الصلوات يحولونها إلى بغضاء وأحقاد وعداوات ونيات وتمنيات ودعوات شريرة خبيثة قبيحة.. حتى الصلوات يتمنونها صلوات على جثث من يسمونهم أشقاءهم..!

نعم، هل وجد أو يمكن أو يقبل أو يستطاع أن يوجد شعب غير شعبنا له هذه الأعداد من الدول والأوطان والحكّام والزعماء والقادة ليصاب بكل هذه الآثام والقبائح والفضائح والشرور والهزائم والبلادات والجهالات والمخاصمات والعداوات والملاعنات وبكل الافتضاح العالمي الكوني التاريخي الأبدي؟

كم في هذا التعدّد أي في شعبنا من خسران وتكاليف ومخاطر وتعويق وآثام وآلام وهموم وضياع وتمزّق وافتضاح وتقبيح وتشويه وتلويث للنفوس والأخلاق ولكل شيء حتى للحروف والورق والأقلام..! كم فيه من لعنات وإهانات لكل شيء وكل أحد..!

.. إن قوانين وأخلاق وطاقات الأشياء لعاجزة أن تصنع ما صنعت لشعبنا أي في هذه القضية.. قضية التعدّد. شعبنا شعب توحيد كما نقول ولكنه متعدد هذا التعدّد..!

لهذا ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟

تاسعاً:

كان الأنبياء يتخلقون من هموم الشعوب وآلامها وآمالها وأشواقها ومشاكلها وضياعها وحيرتها بل ومن آثامها وضلالها ليحاولوا هدايتها وإصلاحها وتعزيتها وتعليمها الدين والأخلاق والسلام والحب والصداقة والمصافحة باليد والقلب والفكر والضمير والوجه حتى للخصوم والأعداء...

وتعليمها المحبة في الناس وللناس والسلام في الأرض وعلى الأرض..

.. وأيضاً لكي يخرجوا بشعوبهم إنقاذاً لهم من عتو فراعنتهم ليقودوهم إلى أوطان لهم يعيشون فيها أحراراً بلا فراعنة ولا هامانات..

.. ولم يكونوا أي الأنبياء يجيئون ليقودوا جيوشاً مقاتلة ليغزوا ويفتحوا ويحتلوا أوطاناً أو كل الأوطان الأخرى ليغنموا أموالها وأرضها ويقتلوا رجالها ويحولوا أطفالها إلى أرقاء ونساءها إلى إماء.. إلى سرر وفرش بلا أي حقوق أو شروط لهن. لقد كانوا أنبياء فقط لا صناع حروب وجيوش.. كانوا تحريراً للمستعبدين لا استعباداً للأحرار..!

أما نبيّنا فقد جاء بسلوكه ودعوته وتعليمه ودينه غازياً فاتحاً محتلاً مسترقاً غانماً للأموال والأرض محوّلاً النساء المغزوين المحتلين المغلوبين إلى إماء مملوكات ليصبحن سرراً وفرشاً للاستمتاع الفاسق الفاحش البذيء المهين القبيح الوقح..

لتصبح أعراضهن وأجسادهن تملك وتغتصب بالنهب والسلب..!

.. لقد حوّل أي نبيّنا قومه من منتجين أي من زراع وصنّاع ورعاة وتجار وعمال بالأيدي وشعراء وحالمين وجيران مسالمين مصادقين وموادين ومواطنين بكل التسامح والأخوة والمساواة وبكل تفاسير الحرية مع كل الأديان والطوائف والجنسيات الأخرى بل ومع من لا يدينون بأي دين أو يؤمنون بأي إله أو مذهب أو عقيدة أو شيء..

لقد كانت المساواة الدينية مطلقة ولم يكونوا يفضّلون ديناً على دين أو اعتقاداً على اعتقاد أو إلهاً على إله. لقد كانوا حضارة سلوكية في بداوة حضارية.. لقد كانوا في جاهلية تتعامل برؤى أو بأخلاق علمية..!

إنهم لم يكونوا يقاسون أو يواجهون أو حتى يخافون أي تسلّط أو طغيان لاهوتي أو سلطاني أو حكومي..

.. حتى أوثانهم وأصنامهم لم تكن في حسابهم أكثر من صور ولوحات فنية وآثار أو من أطلال وديار وذكريات يزورونها ويقفون أمامها ينشدون أشعارهم ويغنونها ويغنون لها وبها بصداقة لا بتأليه أو رهبة.

.. لقد كانت ألواناً من الأغاني والذكريات والفنون الشعبية ولم تكن شيئاً من جبروت الآلهة وقبحها وإرهابها وفحشها وكآبتها، هل يستطيع الشعراء الفنانون بعواطفهم أو ضمائرهم أو قلوبهم أو عقولهم أو أخلاقهم أن يعايشوا بأي معنى من معانيهم أي معنى من معاني الآلهة؟ إن الإنسان لا يقبح مثلما يقبح حين يختزن في نفسه إلهاً بأي معنى من معاني الإله.

... نعم، لقد حوّل نبيّنا قومه هؤلاء من معانيهم وأخلاقهم وقيمهم هذه ليجعلهم غزاة فاتحين محتلين مسترقين مستعبدين نهّابين سلّابين مغتصبين للأموال والأرض والأطفال والنساء مدمّرين مسقطين للدول والعروش ولكل أمجاد وكرامات وأبراج وكبرياء التاريخ ليجعلهم وباء عالمياً بعد أن كانوا غناء صحراوياً.

.. ليتحوّل كل شيء إلى رعايا ورقيق وهوان وعجز وجهالة مؤلّهة معلمة مفروضة..

هل يجيء أحد لتأليه الجهالة؟ نعم، بعض الأنبياء..!

.. ليتحول كل شيء قد كان إلى ذكريات وقراءات وروايات حزينة أليمة.. إلى أطلال ومقابر تاريخية.. ليصبح كل شيء منابر ومحاريب وكتباً مقدسة تلعن وتشوّه وتحقّر كل شيء قد كان وكل شيء جيد قد يكون، ليتحول كل شيء إلى عداوات وأحقاد وحروب وخراب وإلى خلفاء وأئمة يتناطحون برؤوس وقرون كل الثيران..!

.. إنها لقصة التاريخ المتفرّدة أو إحدى قصصه العجيبة النادرة أن يأتي نبي إلى قوم كانوا ينتجون حياتهم صناعة وزراعة وتجارة وتأليفاً وتوليداً وجمعاً وخلقاً وتربية للحيوانات المأكولة والمركوبة والمحمول عليها والمؤدية لأنواع الخدمات والأغراض والأعمال الكثيرة المريحة النافعة..

وكانوا أصدقاء وموادين ومسالمين ومعايشين لكل الآخرين بكل الصفاء والتسامح والعلاقات والعواطف الشاعرية الفنية الغنائية.

.. أن يأتي إلى هؤلاء القوم فيسحبهم من هذه المزايا أو يسحب منهم هذه المزايا ليحوّلهم إلى غزاة وقساة معادين مبغضين فاتحين مهاجمين شاتمين لكل الآخرين سابين سالبين لأموال وأرض وأطفال ونساء كل الأوطان التي يحتلون ليتوقفوا عن كل إنتاج وليطعموا حياتهم مما يسبون ويسلبون ويغتصبون.. ليصبحوا خلفاء وأمراء وولاة طغاة عصاة مخرّبين مفسدين ضالين مضلين متأخرين مؤخرين متعادين متقاتلين متنازعين متنافسين على الغنائم والأوطان والشعوب التي غنموها وفتحوها واسترقوها وأذلّوها وأفقروها وحطّموها وأخّروها.. ليتحول ذلك إلى كل الدمار والعذاب والضياع والفساد للغزاة والمغزوين، هل وجد منتصرون تحولوا إلى كل المنهزمين مثلنا في هذه القضية؟ أليس نبيّنا قد فعل ذلك ونحن فعلناه؟ وهل يمكن أن يفعله غيرنا وغير نبيّنا؟ هل يستطيع غيرنا أن يكون مثلنا أو غير نبيّنا أن يكون مثل نبيّنا في هذه القضية أو في غيرها لهذا ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟

عاشراً:

كنا ولا زلنا وسوف نظلّ محتاجين إلى حماة يهبوننا كل أنواع الحماية بل ويساعدوننا كل أنواع المساعدة.. يحموننا من كل الآخرين ومن أنفسنا أي بعضنا من بعض ويساعدون عجزنا لئلا يكون عجزاً مطلقاً بلا حدود.. إننا عاجزون بلا أي قدر من القدرة على حماية أنفسنا من الخارج أو على حماية أنفسنا من أنفسنا أي حماية بعضنا من بعض..

ما أعظم حاجتنا إلى حماية بعضنا من بعض..!

.. وعوامل الإغراء بالعدوان علينا أو بمعاملتنا المعاملة التي يعامل بها أمثالنا عوامل كثيرة وقوية. إننا كل الإغراء والإغواء بلا أية مناعة ذاتية..!

إذن ما الحل أو ما العلاج لوجود أو إيجاد هذه الحماية والمساعدة؟ القضية كانت صعبة ومؤلمة ومحيرة وعصية جداً.. لا بدّ من إنقاذ ومنقذ..

هنا تدخلت الآلهة أو الطبيعة أو كلتاهما بمحاباة أو بحنان ولكن باهتمام وذكاء لنجد هذه الحماية وهذه المساعدة، لقد كانت حماية ومساعدة بلا مثيل.. ولعل الطبيعة والآلهة لا تخترقان وتتخطيان حدودهما وتخرجان على تفسيهما وتقاليدهما مثلما تفعلان حينما تريدان الحماية والمساعدة لنا خروجاً على كل القوانين والمنطق.. أليستا قد فعلتا ولا تزالان وسوف تظلان تفعلان ذلك من أجلنا؟ أليست كل حياتنا ووجودنا وتاريخنا بكل ما كان فيه وفيها إنما جاءت كذلك أي بكل هذا الخروج على كل القوانين والمنطق؟ هل فينا أو كان فينا شيء لم يكن كل هذا الخروج على كل ذلك؟ أليست كل انتصاراتنا وهزائمنا.. قوتنا وضعفنا.. غنانا وفقرنا.. صعودنا وهبوطنا.. مجيئنا وذهابنا.. تقوانا وفسوقنا.. إيماننا وخروجنا على الإيمان ـ أليس كل ذلك خروجاً على كل التفاسير.. على كل تفاسير الآلهة والطبيعة؟

.. نعم، ما الذي فعلته الآلهة والطبيعة في هذه القضية لتصنعا لنا الحماية والمساعدة؟ لقد فعلتا ذلك بإتقان وقوة وبراعة وإن كان بكل التخطي لحدود الوقار والتقوى والتهذيب والجمال والحكمة.. لقد كانتا عاشقتين لنا بكل القسوة.. وهل ينتظر من العاشق كل هذا العشق ألا يصاب بكل الاهتزاز؟

.. لقد قسمنا العالم القادر على أن يفعل هذه الحماية والمساعدة إلى دول وكتل ومذاهب ونظم وشعارات وتجمعات تتجمع فيها كل الأخطار والمخاوف والعداوات والمنافسات الرهيبة القبيحة المهددة أبداً بالموت والخراب الشامل بل وبكل معاني الجنون.!

لعل العالم لا يهدّده شيء مثلما تهدده أخطار هذا التقسيم..

.. لقد فعلنا أي الطبيعة والآلهة ذلك من أجلنا.. من أجل حمايتنا ومساعدتنا..!

لقد جنتنا على كل العالم أعظم جناية من أجلنا.!

لقد حوّلنا كل العالم إلى كون متفجر ومشحون بكل الاحتمالات المهددة المدمرة البذيئة الغبية الموقعة به كل أنواع الخسران والذعر لكي تحققا لنا كل أسباب الحماية والمساعدة..!

إنها محاباة لنا تحولت إلى أقسى عقاب لكل العالم..!

إنه بهذا التقسيم والتمزيق للعالم ليصبح دولاً وكتلاً وتجمعات وتحالفات وانتماءات متناطحة متنافسة متعادية أصبح أي كل العالم متهافتاً علينا حماية ومساعدة ومغازلة وتدليلاً وتقرّباً وتذلّلاً وطاعة وتمجيداً وامتداحاً. لقد افتضح، افتضح العالم.!

لقد أصبح مستعداً لأن يبايعنا على كل ما نريد أن يبايعنا عليه بلا محاسبة أو محاورة أو معارضة أو تأثم أو استحياء أو شروط.. إنه لمستعد أن ينتقل من دينه إلى ديننا لو طلبنا أو قبلنا منه ذلك..!

.. وكم هو طلب بليد وتقبل بليد.!

وكم نحن معادون لأنفسنا لو طلبنا أو قبلنا من العالم ذلك..!

.. ولكن لعلنا لم نطلب ولن نطلب ذلك منه خشية أن يدخل معنا الفردوس الذي هو لنا ويجب أن يكون لنا وحدنا لأنه إذا دخله معنا فقد يصبح منافساً خطيراً لنا فيه..!

وهذه قضية خطيرة جداً يجب أن نفطن إليها جميعاً بكل الحماس والحرارة والحذر والذعر..

.. لهذا كم هم أغبياء وعميان وغافلون عن هذه الحقيقة من يحاولون أو يقبلون أو يريدون أن يدخل الآخرون أو أحد منهم في ديننا. إن ذلك لأبشع خطر يهددنا في فردوسنا..

إننا يجب أن نكون وحدنا في الفردوس وإلا فلا مستقبل لنا فيه.

.. لقد أصبحنا بفضل هذا التقسيم والانقسام العالمي نحتمي بهؤلاء من هؤلاء ومن أنفسنا أي بعضنا من بعض ومن كل شيء وكل أحد ونتوزع بين هؤلاء وهؤلاء لنوهب حماية الجميع ومساعدة الجميع، ونهدّد هؤلاء بهؤلاء بل ونلعن ونحقر هؤلاء محتمين بهؤلاء ومنتمين إليهم بل ونهدد من يهبوننا كل حمايتهم ومساعدتهم بأن نتركهم ونرفضهم بكل الإذلال لهم والكبرياء والتعالي عليهم متحولين إلى خصومهم ليهبونا بكل السخاء والفرح والفخر كل ما يستطيعون بل كل ما نريد من حماية ومساعدة بكل أساليب التدلّل والإملاء والفرض عليهم والتخويف لهم.. بل لقد أصبحنا بتعدد دولنا وأوطاننا وانتماءاتنا وزعاماتنا نعادي ونلعن ونهدّد الجميع وننال حماية ومساعدة ورضا وولاء

الجميع أي من الدول والكتل المتناقضة المتعادية المتنافسة.. لهذا لقد أصبح أصغر وأجهل وأغبى وأبذأ زعيم ثوري معتوه فينا يستطيع أن يصبح أعظم بطل شجاع مناضل وأصبح يستطيع أن يعادي ويهدد ويشتم الجميع وأن ينال حماية ومساعدة وثناء وولاء الجميع متنقلاً بين الدول والكتل المتناقضة المتنافسة على شراء أحقر وأذل الزعماء والقادة والحكام.. شراء ولائهم وانتمائهم..

لقد أصبح التنافس قاسياً وغالياً جداً على شراء أصغر وأحقر وأضعف وأجهل الزعماء والحكّام..!

.. لقد أصبحنا نحن الأقوياء العظماء المكرّمين الآمرين المطاعين الحاكمين الممجدين وأصبح من يهبوننا كل الحماية والعون وكل شيء هم الضعفاء الأذلاء المهانين المأمورين المطيعين المحكومين المذمومين المشتومين تحت أسباب هذا التقسيم والانقسام اللذين أرادتهما ودبّرتهما وفعلتهما الآلهة والطبيعة من أجلنا.. من أجل حمايتنا وتدليلنا وإعطائنا كل ما لا نستطيعه أو نعرفه أو حتى نعرف كيف نعامله أو نتعامل به أو معه.. لقد بالغت الآلهة والطبيعة في إهانة العالم القوي وفي إذلاله من أجلنا فشكراً لهما..!

.. ولا تقبل الإساءة إلى كرم وحنان وعطف ومحاباة الآلهة والطبيعة في معاملتهما لنا ليكون ممكناً الزعم أن ما فعلتاه في هذه القضية كان من أجل غيرنا أو من أجلنا وأجل غيرنا، بل لقد كان من أجلنا وحدنا.. والآخرون الذين شملتهم هذه الحماية والمساعدة وهم كثيرون لم يكن في حساب أو قصد الآلهة أو الطبيعة أن تشملاهم وإنما جاءهم ذلك عرضاً وتبعاً. لقد كنا وحدنا في حساب ونيات الآلهة والطبيعة في هذه القضية..!

ولعلهما أي الآلهة والطبيعة لم تفكرا في أن ما صنعتاه وتصنعانه لنا قد ينال الآخرين بشيء من منافعه لأننا نحن كل من في رؤى واهتمامات وهموم وحسابات الآلهة والطبيعة لهذا جعلتا ديننا ونبينا وتعاليمنا وأخلاقنا وكتابنا المقدس خاتم الأديان والأنبياء والتعاليم والأخلاق والكتب المقدسة المنزّلة والمصححة الحاكمة الناسخة الملغية لها المغنية عنها البديلة لها.. أي لأننا حينما جئنا ذهب كل أحد وكل شيء أي غيرنا من أفكار وقلوب وضمائر وتصوّرات الآلهة لتكون فيها وحدنا ولتكون لنا وحدنا. والطبيعة لا بدّ أن تكون خاضعة للآلهة ومقتدية بها وفاعلة فعلها في هذه القضية وفي كل القضايا الأخرى.. إن أفكار الآلهة ونفوسها وكل معانيها لم تصب بكل الازدحام والعجز والإعياء والحيرة مثلما أصيبت بكل ذلك متعاملة معنا عاملة مفكرة مخططة لنا ومن أجلنا، مشغولة بنا ولنا..!

لهذا هل يمكن الخلاف في أننا خير أمة أخرجت للناس؟

❀ ❀ ❀

وهذه الخيرية العالمية بل الكونية التي وهبناها أو خصصنا بها لم تكن بثمن دفعناه ولا بثمن سوف ندفعه أو نحن مطالبون بدفعه ومنتظرون لدفعه.. إنها أي هذه الخيرية هبة واهب أو ضربة ضارب لا يدري الفرق ولا يريد أن يدري الفرق بين ضرب ووهب ولا بين أخذ وأعطى أو أمات وأحيى أو أحب وأبغض أو أعز وأذل أو خلق العبقري وخلق الأبله أو صاغ أجمل وجه وصاغ في

مواجهته أقبح وجه. إنه لا يفهم الفرق بين معانيه هو.. إن الآلهة والطبيعة اللتين خصتانا بهذه الخيرية مصابتان بالأمية الأزلية الأبدية التي لا تعالج ولا يجدي فيها العلاج.. بالأمية الشاملة ليست فقط أمية القراءة والكتابة بل وبأمية القلب والعقل والضمير والأخلاق والرؤية والحساب والمحاسبة وبأمية الفعل والترك والاختيار..! إنهما أي الآلهة والطبيعة لا تفعلان أو تتركان... لا تحرمان أو تعطيان أو تختاران بثمن أو انتظاراً لثمن أو باستحقاق أو بأي منطق أو لأي غرض أو احتياج أو ضرورة أو حباً أو رحمة أو تدبيراً أو تخطيطاً أو تجمّلاً أو بحثاً عن الجمال أو الفرح أو السعادة أو الكرامة أو الرضا أو الإرضاء.. إنهما لا تعطيان حين تعطيان ولا تحرمان حين تحرمان..!

ما الثمن الذي دفعه أو الذي تنتظران وتطالبان أن يدفعه العبقري أو الجميل جداً أو القوي جداً أو المتفوق جداً أو السوي السليم جداً لأنهما صنعتاه كذلك؟ وما الثمن الذي دفعه أو الذي لم يدفعه أو الذي تنتظران وتطالبان أن يدفعه أو الذي تخافان أو تتوقعان ألا يدفعه أو أن يدفعه الأبله أو الدميم جداً أو المشوّه جداً أو المريض الضعيف جداً أو المتخلف جداً لأنهما صنعتاه كذلك أو لهذا صنعتاه كذلك؟

أو ما الذنب الذي جناه أو الخطر الذي خشيتاه لو لم يجيء كما جاء؟

وما الثمن الذي دفعته الكواكب المضيئة والمركزية المتبوعة للكواكب الأخرى التي جاءت مظلمة وتابعة ومحكومة وما الثمن الذي لم تدفعه ولم يرد أن تدفعه الكواكب الأخرى التي لم تجيء مضيئة أو مركزية أو متبوعة.. لهذا صنعتا أي الآلهة والطبيعة هذين النوعين من الكواكب كما صنعتهما؟

بأي حساب أو ثمن منتظر قسمتا النوعين على نفسيهما؟

.. إن المنطق والحوافز والأسباب والأخلاق والحسابات والعضلات التي صاغت بها هذا الشيء أو الكائن في هذا الحجم أو الضخامة أو اللون أو القيمة أو التفوّق أو الجمال أو الكمال أي التي صاغته بها الآلهة والطبيعة هي التي صاغتا به النقيض نقيضاً، وإنهما أي الآلهة والطبيعة لن تكونا خارجتين على شيء من معانيهما هذه وإنهما لن تتصورا أنهما قد خرجتا شيئاً من هذا الخروج لو أنهما فعلتا بكل نقيض ما فعلتاه بالنقيض الآخر.. لو أنهما فعلتا بكل شيء نقيض ما فعلتاه به.. وأنهما لو خلقتا الشيطان ملاكاً أو نبياً وخلقتا الملاك أو النبي شيطاناً لما تغير شيء من نظامهما أو منطقهما أو سلوكهما أو ذكائهما أو أخلاقهما.. كيف لو حوكمتا لأنهما لم تفعلا ذلك؟

ماذا لو أنهما صاغتا سكان الفردوس ليكونوا سكاناً للجحيم وسكان الجحيم ليكونوا سكاناً للفردوس؟ هل يتغير حينئذٍ شيء؟ لماذا لم تفعلا ذلك؟ هل يمكن أن يوجد لذلك تفسير؟ قد يقال إنها الحيرة والورطة والضربات والخطوات بلا رؤية أو قصد أو هدف أو فهم أو أي معنى..!

إن كل ما تفعله الآلهة والطبيعة لن يكون بأي حساب أو تخطيط، وإن كل ما يحسب ويزعم بحساب وتخطيط لن يكون إلّا خروجاً على كل تخطيط وحساب بل وإهانة لكل ما يزعم ويحسب ويرى أرقى وأذكى أساليب وصيغ الحساب والتخطيط.. بأي حساب وتخطيط يكون أي شيء؟ إنه ما

من صيغة كينونة إلّا ولا بدّ أن تصرعها كل التساؤلات حتى ولو لم يوجه إليها إلّا أقلها وأخفها وأضعفها وأرحمها وأكثرها إشفاقاً واستحياء..! إن كل كائن وكل كينونة إنما توجدان وتبقيان وتقبلان لأنهما لا تحكمان أو تحاكمان أو تقرآن أو تريان بأية مساءلة أو محاسبة..!

حتى الآلهة لقد قبلت نفسها وكينونتها لأنها بلا مساءلة.!

.. إن كل الأسئلة ليست أسئلة عن منطق الأشياء بل عن علاقاتنا بالأشياء.. إنها أسئلة يراد بها الاقتناع لا المحاكمة أو المحاسبة أو الفهم الصعب.. إنه لا شيء يرفضه كل شيء وكل أحد مثل الأسئلة التي يراد بها المحاكمة والمحاسبة والفهم الفاجع..!

ماذا يمكن أن يقول الجواب أو الأجوبة لهذا السؤال أو الأسئلة لو قالت: لماذا لم تصنع الآلهة أو الطبيعة هذا الوجود في صياغات أخرى؟ هل هي عاجزة أو جاهلة أن تفعل ذلك أو أن تريده؟ هل كانت رؤاها وتصوّراتها عاجزة أو رافضة أن ترى أو تتخيّل أو تتمنى أو تعشق غير الصيغة التي حدثت؟

هل كان خيالها ضيّقاً كل هذا الضيق؟

هل عشقت هذه الصيغة أم أكرهت عليها أم خافت من أية صيغة أخرى.. خافت أن تقاومها أو تحاسبها أو تحاكمها أو تفضحها أو ترفضها أو أن تراها أو تتعامل أو تتكافأ معها؟

هل استفرغتها استفراغاً ولم تردها أو تخططها أو تخلقها.؟

هل ارتشت أو أجرت أي الآلهة أو الطبيعة أو طلب منها بكل الرجاء والبكاء والتضرّع لكي تختار الصيغة التي وجدت دون كل الصيغ الأخرى؟ كيف رأتها أو عرفتها أو حتى تصوّرتها قبل أن توجد لتختارها؟

كيف يمكن ويكون اختيار صيغة من الصيغ من بين كل إمكانات واحتمالات كل الصيغ قبل أن توجد.. قبل أن توجد أية صيغة أو يوجد أي شيء ودون أن تكون ضرورة أو احتياجاً أو إلزاماً أو على مقاس شيء أو لحساب شيء؟

كيف يمكن اختيار صيغة البداية.. البداية المطلقة؟

كيف يهتدي التفكير أو التصوّر أو الاختيار إلى هذه الصيغة أو إلى أية صيغة أخرى بلا مقارنة أو مقايسة أو موازنة أو مماثلة أو محاسبة وبلا سابقة أي بدءاً؟ هل يستطيع أي إله بل كل الآلهة مجتمعة أن تواجه سؤالاً واحداً من هذه الأسئلة أو تتصور مهما كان غرورها وبلاهتها وكبرياؤها وغفلتها أنها قد تجد أي جواب عنه أي عن سؤال واحد من هذه الأسئلة حتى ولو تجمعت كل العقول المؤمنة وغير المؤمنة لتساعدها وتشجعها على أن تجد هذا الجواب عن هذا السؤال الواحد؟

ماذا لو أن هذا الوجود لم يوجد أو وجد وزال ونسيت الآلهة صيغته التي كان بها ثم تجمعت متعاونة متشاورة أي الآلهة الجيدة الذكية والرديئة الغبية التقدمية التحررية والرجعية الاستبدادية.. لكي تصنع وجوداً؟ هل يقول حينئذٍ أي احتمال من الاحتمالات إنها قد تصنعه مثل هذا الوجود الذي وجد

أو شبيهاً به في أية صيغة من صيغه بل أو فيه أي كائن أو كينونة من كائناته أو كينوناته؟

ثم ماذا لو أن هذا الوجود الموجود قد خلقه إله ما ثم وجد أو جاء إله آخر لم ير هذا الوجود وأراد أن يخلق وجوداً فخلقه؟ أليس محتوماً حينئذٍ أن يكون التباعد والتناقض والتضاد والاختلاف بين الوجودين أكثر مما بين كل الوجود وكل طاقات الخيال من تباعد وتناقض واختلاف وتضاد، بل أكثر مما بين ذات وأوصاف الإله كما وجد وبين ذاته وأوصافه كما يجب وينبغي أن يوجد.

ما أبعد ذات وصفات الإله الذي وجد عن ذات وصفات الإله الذي ينبغي ويطلب أن يوجد..!

هل يوجد بعيد عن الأوصاف التي يجب أن يتصف بها ويطالب أن يتصف بها مثل الإله؟

.. ولكن هل يمكن تصوّر بعد كالبعد بين الإله الذي وجد والإله الذي يطلب ويفترض ويجب أن يوجد أي لو كان مقبولاً أن يوجد؟ وهل يمكن أن يتقرب من هذا البعد بعد ما بين الكون الذي وجد والكون الذي كان ينبغي ويعقل ويقبل ويرضى ويغفر أن يوجد أو بعد ما بين الإنسان والوجود فكرة والإنسان والوجود كينونة وقيمة؟

أليس البعد بين الإنسان والوجود فكرة ومنطقاً والإنسان والوجود كينونة ومعنى أكثر من البعد بين النبي معلماً ومصلياً وواقفاً فوق المنبر والنبي عائشاً ومتعاملاً معاملاً ومخاطباً لسرير نومه أم لعل العكس هو الصحيح؟

ما أقسى وأقبح تفاسير بل وصيغ ومرأى كل الأشياء في تحديقات ومحاسبات العقول والعيون المحدقة.. وهل وجدت أو يمكن أن توجد هذه العقول أو العيون أي المحدقة؟

ماذا يكون قد كان لو كانت قد وجدت؟

بل هل وجدت أو يمكن أن توجد العقول أو العيون المحايدة أي في رؤيتها ومحاسبتها لكل الأشياء؟ أليس محتوماً أن تكون دائماً مزورة لا محايدة ولا محدقة صادقة في ذلك، أي في رؤاها ومحاسباتها ومعاملاتها لكل شيء وفي تعاملها به ومعه ومخاطبتها له؟

هل يستطيع الكائن أن يكون محايداً من نفسه أو مما يعايش ويعامل؟

.. إن العقل أو الفكر الإنساني هو أعظم مزوّر في هذا الوجود وكذلك العيون الإنسانية..! لقد تصاعد وظلّ يتصاعد أي العقل أو الفكر الإنساني في تزويره حتى زور الآلهة.. زور وجودها وكل أوصافها وأخلاقها حتى صنع لها في تزويره لها كل تاريخها الماضي والحاضر والمقبل الذي أرهق وأذلّ وأضلّ وأفسد وشوّه وعوّق وبلد وسرق حياة الإنسان وحوّلها إلى خصومات وعداوات وملاعنات وأحقاد وحروب كافرة فاجرة وإلى حواجز وحدود متواجهة متبارزة مشحونة ومحروسة بكل المخاوف والمخاطر والبغضاء والكآبات..!

هل يوجد تزوير كتزوير الآلهة؟ إذن هل يوجد ذنب مثل تزوير الآلهة؟ إذن هل يوجد مذنب مثل العقل أو الفكر الإنساني الذي زوّر الآلهة؟ ويجب أن يفهم هذا الاتهام للعقل فهماً لا يتناقض مع ما سوف يأتي في فهمه وتفسيره ومحاكمته.. قد يكون العقل مزوّراً ومزوّراً به قبل أن يصبح مزوّراً أو

لهذا أصبح مزوّراً.. قد يكون مظلوماً في ظلمه ومحكوماً في كونه حاكماً أو في صيغته حاكماً ومقوداً في صيغة قائد.. في مظهر وملابس قائد..!

إنها لقضية معقدة وغامضة حتى على المحدقين المبصرين فكيف على العميان الأميين؟

أليس كل ظالم مظلوماً، وكل خالق مخلوقاً، وكل قائد مقوداً، وكل والد مولوداً، وكل واهب موهوباً، وكل ضارب مضروباً، وكل حاكم محكوماً؟

أليس كل كائن مكوّناً متكوّناً مصنوعة به كينونته وتكوينه؟

.. إنه لا موجود يكون الشيء دون نقيضه. حتى الإله هل يمكن أن يكون أي معنى دون أن يكون نقيضه؟ إنه أي الإله لن يكون معبوداً دون أن يكون عابداً أو يكون خالقاً دون أن يكون مخلوقاً، أو يكون مزعجاً مخيفاً دون أن يكون مخافاً مزعجاً أو يكون مهدداً دون أن يكون مهدداً أو يكون متملقاً متضرّعاً إليه دون أن يكون متملقاً متضرعاً أو يكون مرشياً دون أن يكون راشياً أو يكون هازماً دون أن يكون مهزوماً أو يكون مذلاً دون أن يكون مذلاً أو يكون كبيراً جداً دون أن يكون صغيراً جداً أو يكون موقعاً للعقاب دون أن يكون موقعاً به العقاب أو يكون فرحاً دون أن يكون حزناً؟

هل وجد أو يوجد موقع به العقاب والأسى والغيظ والهزائم مثل الإله؟ هل يوجد من يستحق كل الرثاء لعنف عذابه وقسوة ظروفه ومواجهاته مثل الإله؟

.. نعم، لو لم يصب الإنسان بتخلق العقل فيه هل كان يمكن أن يزور لنفسه الآلهة الساحقة المذلة المشوّهة المقبحة لكل حياته ووجوده ولكل معانيه وعلاقاته ورؤاه وتمنياته وأحلامه؟ ولعل هذا التزوير هو أضخم آثام وجنايات العقل أو الجنايات على العقل والجنايات به..

أليس العقل مجنياً عليه وبه وجانياً، جانياً؟

هل يوجد إثم أو جناية أو جريمة مثل أن يزور الإنسان لنفسه وعلى نفسه ما يفسد ويشوّه ويعوق ويضلّل ويبلد ويخدع ويخسر ويعادي ويحارب ويقتل به فكره وقلبه وضميره وحبه ورؤاه وهدوءه ووقاره وأخلاقه وتهذيبه وصفاءه وصلاته وعلاقاته؟ أليس كل هذا بعض ما يفعله الإنسان بنفسه بتزوير عقله للآلهة أو باضطراره لعقله إلى تزويرها.. بتحويله لعقله إلى أشهر مزوّر؟ هل وجد من فعل التزوير وفعل به التزوير مثل العقل؟

.. هل تستطيع كل عطايا ومنافع ومزايا العقل أن تكون تكفيراً أو تعويضاً عن الآثام والآلام والأوهام والخسائر الهائلة الشاملة المشوّهة المفسدة المضللة لكل شيء التي أغرق ويغرق وسوف يظل يغرق بها كل شيء تزويره للآلهة.. لوجودها وأوصافها وأخلاقها ولاحتلالها بكل جبروتها وطغيانها ووحشيتها وثقلها لكل العقول والقلوب والعيون والضمائر والتصوّرات والعواطف والمشاعر واللغات والنيات والحرمات.

.. لكل مكان وبيت وسرير ومخبأ.. داخل كل غطاء وثوب وجلد وحجاب وقبر.. من وراء كل جدار وحواجز وحصون وحدود وحراسة.. بكل الشراسة والديمومة والوقاحة والبذاءة والصفاقة.. بالتخلي عن كل صيغ وتفاسير الاستحياء والتهذيب والوقار والاحترام والستر والاستتار.. بكل معاني

العدوانية على كل شيء حتى على الأعراض المضروبة عليها كل الأحجبة والحراسات. هل يوجد أو يتصور احتلال في قبح ووحشية وعدوانية وشمول وإرهاب وثقل ووقاحة احتلال الإله لذات الإنسان.. لنفسه.. لكل معانيه.. لكل علومه وتعاليمه وأفكاره وعقله ونياته وهمساته وخاطراته وحبه وبغضه في كل نومه ويقظته.. في استتاره وتعريه؟ أو هل يوجد عاجز عن الرؤية أو رافض للرؤية أو مخطىء في الرؤية أو مزوّر مزيف للرؤية كالعيون المبصرة؟

أو هل يوجد عاجز عن التفكير أو رافض للتفكير أو مخطىء في التفكير أو مزوّر مزيف للتفكير كالعقول المفكرة أو كالأفكار العاقلة؟

أو هل يبتكر ويحكم ويتوج أقوى وأفدح وأصعب الغباء مثل أقوى وأذكى الذكاء؟ هل أوجد أشنع وأفتك وأغبى الغباء إلّا أفتك وأذكى الذكاء؟

أو هل يوجد خارج على كل معاني الألوهية مثل الإله؟ أو خارج على كل معاني الرحمة والعدل مثل الموصوف بأنه أرحم الراحمين وأعدل العادلين؟ أو خارج على كل معاني العقل مثل المزعوم بأنه الواهب لكل العقول الخالق لكل العقلاء؟ أو خارج على كل الأديان وعلى كل التديّن والتقوى مثل مشرّع ومنزّل ومعلّم الأديان والتديّن والتقوى؟

أو هل يوجد مستحق لكل الحساب والعقاب وللتعذيب في الجحيم مثل المتوعّد بالحساب والعقاب وبالتعذيب في الجحيم؟ هل يستطيع كل سكان الجحيم أن يكونوا شيئاً من أوصافه أو أخلاقه أو أخطائه أو خطاياه؟ أو هل يوجد من يحتاج إلى أن يتعلم كل شيء مثل من يزعم أنه العليم بكل شيء والمعلم لكل شيء مثل من لا يستطيع أن يتعلم أو يعلم شيئاً؟ أو هل يوجد خارج على كل منطق وعلى كل معقول مثل ما يحسب كل العقل والمنطق وكل تفاسير ومستويات العقل والمنطق؟

أو هل يوجد ما يزعم أنه الموجود والمرئي في كل شيء دون أن يجده أو يراه أحد في أي شيء أو يستطيع أن يراه أو يجده مثل أوصاف الإله وأفعاله وأخلاقه وتدبيره أو في أي أوصاف أو أفعال أو أخلاق أو تدبير؟ هل يوجد مفقود مثل فقد من يزعم أنه كل الوجود؟ هل عجزت كل العيون عن الرؤية مثل عجزها عن رؤية من يزعم أنه كل الأضواء؟

.. أو هل يوجد أو حدث أن وجد أن مؤمناً آمن لأنه وجد أو رأى أو سمع أو عرف أو فهم أو قرأ الإله في أي حدث أو شيء أو مكان أو كينونة أو في أي موقف شهامة أو حب أو نخوة أو رحمة أو إنقاذ أو إغاثة أو استجابة أو إصلاح أو صلح أو سلام أو فض اشتباك أو خصام أو عداوة أو عدوان أو موقف مصحح أو حاكم أو حاسم أو فاصل أو مانع أو مدافع أو فاعل أو حام أو ناصر أو هازم في أي زمان أو مكان أو حالة حين يجب وينتظر أن يكون كل ذلك في كل الأزمنة والأمكنة والحالات؟ هل يوجد مفقود كل الفقد من يعتقد ويزعم موجوداً كل الوجود؟

أو هل وجد أو يوجد أو قد يوجد جد ليس كل تفاسير العبث أو جاد ليس كل تفاسير العابث أو عابث أو عبث ليسا كل منطق وقيم وحوافز وأخلاق ونهايات الجد والجادين أي المحسوب جداً والمحسوبين جادين؟

أو هل يوجد أو هل وجد منطق ليس تفاسير ورؤى ومعاملة واستسلاماً وتعبّداً لكائنات وكينونات وجود وجد قبل أن يوجد أي منطق وأي متحدث عن أي منطق.

.. لكائنات وكينونات وجود خارج كل شيء فيه على كل منطق يمكن أن يكون معقولاً أو مقبولاً أو مغفوراً أو مفهوماً أو حتى متصوّراً أو مفترضاً؟

۞ ۞ ۞

نعم، هل يوجد خارج على المنطق وكاذب عليه وبه ومزوّر له مثل المنطق.. مثل المنطق الذي تفسّر به كل الكائنات والكينونات. يفسّر به وجودها وصيغها وأهدافها وحوافزها وأسبابها وبداياتها ونهاياتها والتعامل بها ومعها وفيها ممجدة مؤلّهة التفاسير والتدبير والتقدير؟ هل يوجد مزوّر للعقل وعليه وبه مثل العقل أو معتدٍ على العقل أو معتدى به مثل العقل.

.. هل يوجد محتاج إلى المنطق مثل المنطق أو إلى العقل مثل العقل أو إلى الذكاء مثل الذكاء أو إلى التفسير مثل التفسير لأي شيء ولكل شيء؟ هل يوجد محتاج إلى أن يكون له معنى لأنه بلا أي معنى مثل الوجود.. مثل منطق الوجود.. مثل المنطق الذي وجد وحسب وصيغ وفسّر وقبل به الوجود.. وجود الوجود بكل كائناته وكينوناته؟ هل يوجد محتاج إلى أن يكون له منطق أو تفسير أو معنى أو ثمن أو وظيفة أو عمل مثل الإله.. مثل كل إله؟

.. إن منطق كل شيء وأي شيء مأخوذ من نفسه الشيء وصانع صائغ له الشيء نفسه..

.. أما الشيء.. الموجود والوجود فلم يؤخذ من أي منطق.. ولم يصغه أو يصنعه أو يخططه أو حتى يتعامل به أو معه أو يعرفه أي منطق.. ولهذا فإن كل الكائنات والكينونات تجيء وتكون بلا أي حساب أو تقدير أو تفسير. ولو أن كل شيء جاء وكان غير ما جاء وكان أو نقيضه أو لم يجيء ويكن البتة لما تغير أو اختلف أو فسد أو أهين أو ظلم أو حتى غضب أو صدم أو تحير أو تعجب أي منطق حتى ولا منطق الإله.!

إن حشرة الذباب أو الصراصير أو البراغيث أو القمل أو النمل أو أية حشرة لو أنها جاءت كائناً آخر أو كينونة أخرى أو لم تجيء أو تكن البتة لما كان في ذلك خروج على أي منطق ولا موافقة أو إرضاء لأي منطق لأنه لا منطق في مجيء الشيء وصيغة كينونته ولا في فقده.!

كذلك لا موافقة ولا إرضاء لأي منطق كما لا خروج على أي منطق ولا إغضاب له لو أن أي كائن آخر كالإنسان أو كأي نوع حيواني أو فلكي أو كوني أو غير ذلك جاء وتكون كينونات وكائنات أخرى أو لم يجيء ويكن البتة لأنه لا منطق خارج الشيء.. خارج وجوده ليكون ممكناً الخروج عليه أي على المنطق أو الإغضاب له أو الموافقة والإرضاء له أي بمجيء أي كائن أو وجود في أية كينونة..!

.. ولو أن أي منطق مهما كانت ضخامته وحكمته أو ضآلته وسفاهته كان هو الواضع والمخطط والصانع للكائنات والكينونات لما جاء أي كائن ولا أية كينونة كما جاءت وكما جاء..

حتى الآلهة هل كان يمكن أن تجيء كما جاءت أو شيئاً مما جاءت لو أنها صممت وخططت وأريدت وفعلت وصيغت وأخرجت بأي منطق أو بمشورة أو تقليد أي منطق؟ إنه لا شيء خارج على حسابات ومستويات كل منطق مثل كينونات الآلهة.!

إنه لو كان لكينونات الآلهة مكوّن لما وجد مثله غباء وعدواناً.!

.. إن الكينونة التي كانتها كل الآلهة أو التي زعمت وعلمت وصوّرت وتصوّرت لها لهي كل التشويه والتصغير والتحقير والتعذيب والإهانة لها بل والإذلال والاستهزاء بها بل وكل المحاسبة والمعاقبة والتوريط والاستعباد لها أي للآلهة..!

إنه لا أحد يحق له القصاص ممن أوجدوه أو تصوّروه مثل الإله.. كل إله!

.. إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد أي منطق وإنما توجد قوانين ذاتية آلية في الأشياء تسمى ويسمى فهمها والتعامل معها وبها منطقاً..!

إن منطق الشيء أو الوجود عائشاً وقوياً وكبيراً وعظيماً وجميلاً وصحيحاً سوياً هو منطقه حين يكون أو لو كان نقيض كل ذلك.. إن منطق أصغر وأردأ وأقبح وأقذر وأضرّ كائن هو منطق أضخم وأعظم وأجمل وأنظف وأنفع وأكرم كائن.. إنه في الحالتين كينونة بلا منطق بل وضد كل منطق مفسّر محاسب!

إن أضخم مجموعة شمسية أو كونية لم تصمّم أو تخطّط أو تصنع بمنطق أذكى أو أتقى أو أقوى أو أعلم أو أشرف أو أسمى من المنطق الذي صممت وخططت به أصغر وأوقح وأنذل حشرة وخلقت به..!

وإن كل الأمراض والعاهات والدمامات قد صممت وخططت وصنعت وأريدت بالمنطق الذي صممت وخططت وأريدت وصنعت به كل الصحة والقوة والجمال.. بكل ذكائه أو بكل غبائه.. بكل خسته أو بكل نبله.. بكل ألوهيته أو بكل آليته.. أو بفقده لكل معنى وتفسير وقصد وحافز وهدف..!

إن المنطق الذي صاغ وصيغ به أردأ وأصغر وأقبح وأوقح وأغبى شيء هو المنطق الذي صاغ وصيغ به أعظم وأكبر إله..!

إن سجود المنطق للإله سجود لأقبح وأصغر حشرة!

إن المنطق الذي وجد ورأى في هذا الوجود أضخم وأعقل وأتقى إله، ورأى ووجد في هذا الإله كل الجمال والحب والنبل والرحمة والقوة والشهامة والعبقرية والذكاء هو المنطق الذي وجد ورأى كل تفاسير وأخلاق ومنطق ووظائف هذا الإله في كل شيء.. في كل كائن وكينونة.. في كل حشرة وقبح وعاهة وتشوّه وألم ومرض وخطأ وخطيئة ونقيصة وعار وعيب وظلم وفساد وعدوان وطغيان بل وفسوق وكفر وغواية وضلال. إن المنطق الذي شكر الإله.. لأنه هدى هو المنطق الذي شكر الإله لأنه أغوى وأضل..!

.. إنه لا يوجد ولن يوجد منطق يقول ويرى أن أي شيء في هذا الوجود منطقي ومعقول ثم لا

يقول ويرى أن كل شيء فيه أي في الوجود منطقي ومعقول.. وهل يمكن أن يكون منطقاً أو شيئاً من المنطق أو ليس خارجاً على كل منطق، المنطق الذي يقول أو يرى أن كل هذا الوجود بكل كائناته وكينوناته منطقي ومعقول؟

إنه لمحكوم على المنطق أن يقول ويرى أن كل هذا الوجود معقول ومنطقي أو أنه كله خروج على كل المنطق والعقل اللذين لم يوجدا ولن يوجدا فيه ولا في أي شيء..!

إنها لقضية قاتلة وطاردة لكل ما يزعم منطقاً وعقلاً..!

ولقد ظل الفكر الإنساني في كل تاريخه مسحوقاً ومهزوماً وضالاً ضائعاً صغيراً فاقداً نفسه أمام هذه القضية.. لقد ظلّ عاجزاً أو خائفاً من اقتحام أسوارها مع أنها بلا أي أسوار. وإن كانوا قد اقتحموها فبشيء من تحديقهم وذهولهم لا بخطوات أقدامهم.!

❀ ❀ ❀

بعد هذا الحديث الطويل السعيد الفرح عن التفاسير والمزايا لإخراجنا خير أمة أخرجت للناس لا بدّ من الحديث عن التبعات الكثيرة الصعبة لهذا الإخراج المفرق المحرج المخجل الصادم بضخامة محاباته بل وبافتضاح تفاسير من حابانا هذه المحاباة الفاجعة لكل العقول والأخلاق المفكرة المحاسبة أي لو وجدت..!

إنها محاباة فيها كل الإذلال والترويع للعقول والأخلاق.!

.. لقد أوقعنا وأوقع نفسه في أقسى وأضخم ورطة من اختارنا هذا الاختيار وأخرجنا هذا الإخراج. لقد حوّلنا إلى عرض عالمي كوني تاريخي أبدي صارخ معلن بكل الأساليب واللغات والألوان والأزياء والصور لنا ولنفسه..!

إن هذا العرض لا بدّ أن يفرض علينا التكافؤ معه بكل صيغنا ومعانينا أي بأن نكون متفوّقين في كل شيء على كل العالم الذي أخرجنا إليه وله ومن أجله لنقوده ونعلمه ونهديه ونضعه في ضمير الإله وقلبه وعينيه..

.. ولنهبه بكل الضخامة والسخاء والقوة والنبل والشمول كل ما تعنيه تفاسير إخراجنا له ومن أجله واختيارنا عليه اللذين فعلتهما بنا ولنا القوة الفاعلة لهذا الوجود ولكل شيء..

.. لنهبه كل ما تعنيه معاني اختيارنا وإخراجنا لنكون إلى نهاية العالم كل الأديان والنبوات والتعاليم والأخلاق والكتب المقدسة وكل العلم الإلهي واللغة الإلهية والمتخاطبين مع الإله..

.. لنكون كل المصححين والمعلمين والمفسرين والحافظين الحامين الناصرين المجملين المعظمين لكل ذلك.. لنكون بديننا ونبينا وكتابنا المقدس وبخلفائنا الراشدين كل تفاسير الإله والكون وكل شيء وكل علم الغيب والنبوءات عن كل ما وقع وكل ما سوف يقع وعن كل ما علم وعن كل ما سوف يعلم.. لنكون كل الفرح والسعادة والمجد والتقوى لهذا الوجود ولصاحبه..

.. لتكون كل علوم ومعارف واكتشافات وابتكارات البشر شيئاً من تفاسير ونبوءات كتابنا المقدس ورؤى ووحي نبينا الملغي الناسخ لكل الأنبياء الذين كانوا قبله والقاتل المكذب لكل من يجيئون بعده أي من الأنبياء والمعلمين والرائين للإله أو للكون أو لأي شيء بعيون غير عينيه أو القارئين له بلغة ليست لغته..

.. لنكون كل قادة الإله والقادة إليه وكل المتحدثين عنه ومعه والمتلقين عنه ومنه كل الزمن الحاضر وكل الزمن الآتي الباقي.

.. لنكون كل ذلك بل أكثر من ذلك.. لنكون كل العيون والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق التي يرى ويعقل ويفهم ويتعامل ويتعاطف ويتحاب ويتقي الله بها كل العالم أي التي يجب ويطلب أن تكون لكل العالم ذلك وأن يراها كل العالم بالإيمان والتعامل والالتزام..!

إذن هل يستحيل مثل ما يجب ويطلب أن نكون؟

أما إذا لم نتكافأ كل التكافؤ وأعظم التكافؤ مع هذا الاختيار وهذا الإخراج لنا فلا بدّ أن نتحوّل إلى أقسى هجاء واتهام وتحقير وتسفيه وإهانة لأنفسنا ولمن حابانا بهذا الاختيار وهذا الإخراج.. هل رأينا أو عرفنا أو قرأنا أننا قد تحولنا إلى ذلك؟

ما أقسى وأعظم الحساب والعقاب اللذين يجب أن يتلقاهما من حاباناه هذه المحاباة إن كان أو لو كان يوجد من يحاسب ويعاقب..

وما أقسى وأعظم وأطول المحاسبة والمعاقبة اللتين يجب أن نحاسب ونعاقب بهما أنفسنا على خذلاننا وفضحنا وإعلاننا عن أخطاء وضلال وجهالة من اختصنا بهذه المحاباة..!

إن كل الأحزان والدموع والمراثي لا تكفي رثاء لأخطاء وهزائم ونكسات من اختارنا وأخرجنا هذا الاختيار وهذا الإخراج لنكون كل الإعلان عن مجده وجماله وذكائه وعدله وقوته وتقواه وانتصاراته لنكون كل العرض وأجمل وأضخم العرض لذلك أي فيما يفترض ويجب..!

ماذا كانت أو كيف كانت آمال وتمنيات وتوقعات وتصورات وحسابات وظنون من فعل بنا ولنا ذلك، وما الجزاء أو الأجر أو الثواب الذي كان ينتظره منا وما الذي وجده وكسبه؟ ماذا كان إدراكه لفجيعته وإحساسه بها؟

هل خدع وضلّ في هذه القضية عن قصد أم عن غفلة؟ وأيهما أكثر تشويهاً وتعذيباً له؟ عاجزة كل العقول عن فهم ذلك بل وعن فهم غيره. إنها لو استطاعت كل العقول فهم كل شيء لظلّت عاجزة عن فهم مريد ومخطط وفاعل هذا الوجود.. كيف جاء ولماذا جاء وبأية حسابات جاء وجاء كما جاء وكيف جاءت فكرته وصورته وتصوّره؟ كيف؟ أية قوة هذه القوة التي جعلت البشر يرون ويفهمون ويعقلون ما لا يستطاع أو يمكن أن يرى أو يفهم أو يعقل؟

إذن هل جاء تكوين الإنسان أعظم وأقوى تكوين أم أردأ وأضعف تكوين؟

كيف أمكن أن يتحول هذا السؤال إلى سؤال أي إلى سؤال منطوق به؟

أليست أقوى الأسئلة أسئلة يهاب النطق بها؟

كم هو فاجع أن يكون من الصدق أن يقال: ما أصغر أكبر ما في هذه الحياة والوجود..

أليس الكبير جداً صغيراً جداً في كل تفاسيره ونهاياته؟

.. كم يجب الإشفاق على نبيّنا الذي حمل فتحمل وتقبل وتجرأ أن يلغي وينسخ ويقتل كل الأنبياء والنبوات الذين والتي كانوا وكانت قبله ليكون وحده إلى نهاية الزمن كل الأنبياء وكل النبوات لكل البشر وكل المبلغين والمتحدثين عن الله إلى كل البشر..؟

.. وكم يجب الإشفاق على كتابنا المقدس الذي ألغى وأبطل كل الكتب المقدسة ليكون وحده كل كلام الإله وكل لغته ومخاطبته ومراسلته وكل عقله وعلمه وفكره وهمّه واهتمامه بل وكل بلاغته وفصاحته وكل إعجازه ومفاخره الإنشائية وكل رضاه وغضبه وحسابه وعقابه وتهديده ووعيده..

.. ولتختزن في حروفه وألفاظه وزئيره وصراخه وشتائمه وتحدياته كل الأحداث والعلوم والمبتكرات والكائنات والكينونات التي كانت والتي سوف تكون حتى الفاجعة والفاضحة والقبيحة والرديئة والأثيمة والمدمّرة المهينة منها..

بل حتى التي لم تكن ولن تكون والتي كل القبح والإثم والفساد والعار والفظاعة والمستحيل في أن تكون.. ليكون أي كتابنا المقدّس كل ذلك كل الزمن.. ليظل كل الزمن مطلوباً أن يقول ويعلم كل شيء ويشفي ويعالج من كل شيء وينبيء ويحدّث عن كل شيء..!

.. وكم يجب الإشفاق على ديننا الذي نفى وقاتل وقتل كل الأديان ليكون وحده إلى نهاية الزمن كل الدين والتعاليم والعلم والعقل والهدى والرؤية والقراءة والعبادة وكل التفسير والتصوير والتصوّر والمخاطبة والمعاملة للإله وكل الطريق والدليل إليه والمعلم كل شيء لكل البشر..

.. ليكون وحده المسؤول عن كل ذلك وعن كل شيء.. عن كل هداية البشر وصلاحهم وصحتهم ومعرفتهم وقوتهم ورقيهم وعلومهم وتعليمهم وجمالهم الإنساني الشامل الدائم بل وعن جمال أجسادهم وعن شفائهم من الأمراض وعن إطعامهم وإروائهم وسقي أرضهم وإخصابها..!؟

ليكون وحده كل تفاسير الإله والوجود وكل أخلاقهما ومجدهما..

وكم يجب علينا أن نشفق على أنفسنا لأنه حكم علينا بأن نختار هذا الاختيار ونخرج هذا الإخراج..

إننا أبداً يجب أن نكون في موقف الإشفاق لا الإعجاب من أنفسنا.

ما أعظم استحقاقنا للإشفاق لضخامة ما نقاسي ونعلن من الإعجاب بأنفسنا.

لقد فضحنا وعذبنا وهجينا واستهزيء بنا بنيات وأساليب وإعلان التمجيد والتكريم والتعظيم والامتداح والإسعاد والتفضيل لنا..

لقد علقنا على المشانق من ظن وزعم أنه يرفعنا، ورفعنا فوق جميع الصلبان من زعم وظنّ أنه

GO
Book reader

.. لتكون كل علوم ومعارف واكتشافات وابتكارات البشر شيئاً من تفاسير ونبوءات كتابنا المقدس ورؤى ووحي نبينا الملغي الناسخ لكل الأنبياء الذين كانوا قبله والقاتل المكذب لكل من يجيئون بعده أي من الأنبياء والمعلمين والرائين للإله أو للكون أو لأي شيء بعيون غير عينيه أو القارئين له بلغة ليست لغته..

.. لنكون كل قادة الإله والقادة إليه وكل المتحدثين عنه ومعه والمتلقين عنه ومنه كل الزمن الحاضر وكل الزمن الآتي الباقي.

.. لنكون كل ذلك بل أكثر من ذلك.. لنكون كل العيون والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق التي يرى ويعقل ويفهم ويتعامل ويتعاطف ويتحاب ويتقي الله بها كل العالم أي التي يجب ويطلب أن تكون لكل العالم ذلك وأن يراها كل العالم بالإيمان والتعامل والالتزام..!

إذن هل يستحيل مثل ما يجب ويطلب أن نكون؟

أما إذا لم نتكافأ كل التكافؤ وأعظم التكافؤ مع هذا الاختيار وهذا الإخراج لنا فلا بدّ أن نتحوّل إلى أقسى هجاء واتهام وتحقير وتسفيه وإهانة لأنفسنا ولمن حابانا بهذا الاختيار وهذا الإخراج.. هل رأينا أو عرفنا أو قرأنا أننا قد تحولنا إلى ذلك؟

ما أقسى وأعظم الحساب والعقاب اللذين يجب أن يتلقاهما من حاباناه هذه المحاباة إن كان أو لو كان يوجد من يحاسب ويعاقب..

وما أقسى وأعظم وأطول المحاسبة والمعاقبة اللتين يجب أن نحاسب ونعاقب بهما أنفسنا على خذلاننا وفضحنا وإعلاننا عن أخطاء وضلال وجهالة من اختصنا بهذه المحاباة..!

إن كل الأحزان والدموع والمراثي لا تكفي رثاء لأخطاء وهزائم ونكسات من اختارنا وأخرجنا هذا الاختيار وهذا الإخراج لنكون كل الإعلان عن مجده وجماله وذكائه وعدله وقوته وتقواه وانتصاراته لنكون كل العرض وأجمل وأضخم العرض لذلك أي فيما يفترض ويجب..!

ماذا كانت أو كيف كانت آمال وتمنيات وتوقعات وتصورات وحسابات وظنون من فعل بنا ولنا ذلك، وما الجزاء أو الأجر أو الثواب الذي كان ينتظره منا وما الذي وجده وكسبه؟ ماذا كان إدراكه لفجيعته وإحساسه بها؟

هل خدع وضلّ في هذه القضية عن قصد أم عن غفلة؟ وأيهما أكثر تشويهاً وتعذيباً له؟ عاجزة كل العقول عن فهم ذلك بل وعن فهم غيره. إنها لو استطاعت كل العقول فهم كل شيء لظلّت عاجزة عن فهم مريد ومخطط وفاعل هذا الوجود.. كيف جاء ولماذا جاء وبأية حسابات جاء وجاء كما جاء وكيف جاءت فكرته وصورته وتصوّره؟ كيف؟ أية قوة هذه القوة التي جعلت البشر يرون ويفهمون ويعقلون ما لا يستطاع أو يمكن أن يرى أو يفهم أو يعقل؟

إذن هل جاء تكوين الإنسان أعظم وأقوى تكوين أم أردأ وأضعف تكوين؟

كيف أمكن أن يتحول هذا السؤال إلى سؤال أي إلى سؤال منطوق به؟

أليست أقوى الأسئلة أسئلة يهاب النطق بها؟

كم هو فاجع أن يكون من الصدق أن يقال: ما أصغر أكبر ما في هذه الحياة والوجود..

أليس الكبير جداً صغيراً جداً في كل تفاسيره ونهاياته؟

.. كم يجب الإشفاق على نبيّنا الذي حمل فتحمل وتقبل وتجرأ أن يلغي وينسخ ويقتل كل الأنبياء والنبوات الذين والتي كانوا وكانت قبله ليكون وحده إلى نهاية الزمن كل الأنبياء وكل النبوات لكل البشر وكل المبلغين والمتحدثين عن الله إلى كل البشر..؟

.. وكم يجب الإشفاق على كتابنا المقدس الذي ألغى وأبطل كل الكتب المقدسة ليكون وحده كل كلام الإله وكل لغته ومخاطبته ومراسلته وكل عقله وعلمه وفكره وهمّه واهتمامه بل وكل بلاغته وفصاحته وكل إعجازه ومفاخره الإنشائية وكل رضاه وغضبه وحسابه وعقابه وتهديده ووعيده..

.. ولتختزن في حروفه وألفاظه وزئيره وصراخه وشتائمه وتحدياته كل الأحداث والعلوم والمبتكرات والكائنات والكينونات التي كانت والتي سوف تكون حتى الفاجعة والفاضحة والقبيحة والرديئة والأثيمة والمدمّرة المهينة منها..

بل حتى التي لم تكن ولن تكون والتي كل القبح والإثم والفساد والعار والفظاعة والمستحيل في أن تكون.. ليكون أي كتابنا المقدّس كل ذلك كل الزمن.. ليظل كل الزمن مطلوباً أن يقول ويعلم كل شيء ويشفي ويعالج من كل شيء وينبيء ويحدّث عن كل شيء..!

.. وكم يجب الإشفاق على ديننا الذي نفى وقاتل وقتل كل الأديان ليكون وحده إلى نهاية الزمن كل الدين والتعاليم والعلم والعقل والهدى والرؤية والقراءة والعبادة وكل التفسير والتصوير والتصوّر والمخاطبة والمعاملة للإله وكل الطريق والدليل إليه والمعلم كل شيء لكل البشر..

.. ليكون وحده المسؤول عن كل ذلك وعن كل شيء.. عن كل هداية البشر وصلاحهم وصحتهم ومعرفتهم وقوتهم ورقيهم وعلومهم وتعليمهم وجمالهم الإنساني الشامل الدائم بل وعن جمال أجسادهم وعن شفائهم من الأمراض وعن إطعامهم وإروائهم وسقي أرضهم وإخصابها..!؟

ليكون وحده كل تفاسير الإله والوجود وكل أخلاقهما ومجدهما..

وكم يجب علينا أن نشفق على أنفسنا لأنه حكم علينا بأن نختار هذا الاختيار ونخرج هذا الإخراج..

إننا أبداً يجب أن نكون في موقف الإشفاق لا الإعجاب من أنفسنا.

ما أعظم استحقاقنا للإشفاق لضخامة ما نقاسي ونعلن من الإعجاب بأنفسنا.

لقد فضحنا وعذبنا وهجينا واستهزيء بنا بنيات وأساليب وإعلان التمجيد والتكريم والتعظيم والامتداح والإسعاد والتفضيل لنا..

لقد علقنا على المشانق من ظن وزعم أنه يرفعنا، ورفعنا فوق جميع الصلبان من زعم وظنّ أنه

يحولنا إلى كفارة وإنقاذ لكل البشرية من كل أخطائها وخطاياها وضلالها وجهالاتها وزندقاتها ومن كل ضعفها ونقائصها وهمومها وورطاتها وضياعها...

أو من يفترض ويحسب أنه قد ظن ذلك وزعمه..!

❀ ❀ ❀

ولكن هل قبلنا أو رضينا أو اعتقدنا في أنفسنا أو لأنفسنا أو على أنفسنا ذلك أي اختيارنا وإخراجنا هذا الاختيار وهذا الإخراج؟ وإن كنا قد فعلنا ذلك حين لم نكن نجد أو نرى أو نسمع أو نقرأ أو نحفظ أو نعلم أو نتعلم إلّا أنفسنا وقرآننا ونبواتنا وصحراءنا وخطباءنا وشعراءنا وأصواتنا ومحاريبنا ومنابرنا وكعبتنا رافعة لحجرها الأسود...

... حين لم نكن نعلم أن للإله أو للكون أو لأي شيء أية وظيفة أو مجد أو سعادة أو عبقرية غير أن يفكر فينا ويخاطبنا ويعاملنا ويعمل لنا ومن أجلنا ويعلن انتماءنا إليه وانتماءه إلينا ونعايشه ويعايشنا ويحدق فينا ونحدق فيه.

.. حين كنا نعتقد ونعلن ونشعر أن أي شيء وكل شيء لن يساوي شيئاً من مجدنا وجمالنا وكرامتنا وبسالتنا وقوتنا وتقوانا وإيماننا وذكائنا حين نتزاحم بعقولنا وقلوبنا وضمائرنا وأخلاقنا وعيوننا وأيدينا ومناكبنا وبكل أجسامنا على حجر الكعبة الأسود لنقبل ونلمس ونرى ونجد اللّه ونصبح أكبر وأقوى وأعظم من كل العالم.. من كل الكون حين نقبله أي الحجر الأسود ونراه ونلمسه ونجده ونتزاحم ونتدافع عليه...

ـ ولكن ألسنا دائماً كذلك ونرى أنفسنا دائماً كذلك ولم نكن كذلك أو نرى أنفسنا كذلك في فترة من التاريخ فقط؟

ـ نعم، إن كنا قد قبلنا ورضينا واعتقدنا ذلك في أنفسنا ولأنفسنا وعلى أنفسنا أي هذا الاختيار والإخراج لنا حينما كنا تلك الكينونات وحينما كنا نرى أنفسنا والكون والعالم وكل شيء هذه الرؤية أو تلك الرؤية فهل يمكن أن نقبل أو نعتقد أو نرضى ذلك في أنفسنا أو على أنفسنا أو لأنفسنا كل الزمن أو في هذا الزمن الذي تحول كل شيء فيه إلى مرايا ومعارض ترانا منها وبها وفيها كل العيون والعقول والقلوب والأخلاق والضمائر والحسابات والتوقعات مفجوعة مصدومة راثية أو شامتة فرحة بضخامة شماتتها أو غريقة في الذهول والتعجب والحيرة والاستنكار والاشمئزاز والغثيان أو غير مصدقة ما ترى ورافضة أن تصدق أو مغلقة كل منافذ الرؤية لئلا ترانا أو ترى شيئاً منا أو معتقدة أنها حينما ترانا لا ترى بشراً وإنما ترى كائنات أخرى لا تفسّر أو تفهم أو تحاسب بأي نموذج أو منطق من منطق ونماذج الكينونات والكائنات الموجودة أو المتصورة أو الغائبة عن الوجود والتصوّر.

... في هذا الزمن الذي تعاملنا وتخاطبنا وتواجهنا فيه مع إسرائيل.. في هذا الزمن الذي تخلقت فيه إسرائيل من عقولنا وأفكارنا وأخلاقنا وعضلاتنا ومن ديننا وتديننا وتاريخنا ومن قرآننا وكعبتنا ومن كل مقدساتنا وقبورنا المختزنة لكل أبطالنا وعبقرياتنا وقديسينا وغزواتنا وانتصاراتنا الكونية؟ أليست

إسرائيل تخلقت من قرآننا وديننا كما تخلقت من عبقرياتنا وبسالاتنا وعضلاتنا وضرباتنا؟

نعم، إن هذا الاختيار والإخراج لنا لم نرضهما أو نقبلهما أو نعتقدهما فقط.. إنهما لم يكونا عطاء لنا من خارجنا. لم يكونا تعليماً أو تلقياً..!

بل لقد ابتكرناهما وزعمناهما وأعلناهما وعلمناهما لإلهنا ونبيّنا وديننا وكتابنا المقدس، أننا لم نكن متعلمين بل كنا معلمين..!

إنهم أي كتابنا المنزل وديننا وإلهنا حينما يتحدثون عن ذلك ويتعلمونه ويعلمونه ويؤمنون به ويدعون إلى الإيمان به إنما يتحدثون بما حدثناهم ويتعلمون ويعلمون ما علمناهم ويؤمنون ويدعون إلى الإيمان بما أردناهم وأمرناهم أن يؤمنوا به ويدعوا إلى الإيمان به أي في قضية اختيارنا هذا الاختيار وإخراجنا هذا الإخراج وأيضاً في القضايا الأخرى..! إننا إذن نحن الذين اخترنا أنفسنا هذا الاختيار وأخرجناها هذا الإخراج وأعلنا عن ذلك هذا الإعلان ولم نكن فقط راضين أو متقبلين.. أو معتقدين لذلك..

وإن موقفنا من ذلك ورؤيتنا له ودعوتنا إليه وعقيدتنا فيه ومباهاتنا ومجاهرتنا به أزلية أبدية لا يفسدها أو يضعفها أو حتى يحاورها أي تكذيب أو افتضاح لها بل ولا كل تكذيب وكل افتضاح لها..

وقد يكون من الصواب القول بأن إيماننا بأنفسنا وبما اعتقدنا وقلنا وعلمنا وورثنا وروينا يزداد ويزداد إعلاننا عنه ومباهاتنا به ودعوتنا إليه وعرضنا وتفسيرنا له أي لإيماننا بقدر ما يتحول كل شيء إلى أقسى وأشمل تكذيب وفضح له أي لإيماننا هذا. إن إيماننا لا يفتضح ولا يكذب مهما فضحه وكذبه كل شيء..!

.. لعل في عيون ورؤى بعض الكائنات وبعض البشر وأمامهم مرايا تريهم أنفسهم عظيمة وكبيرة وقوية وجميلة بقدر ما تكون ضئيلة وصغيرة وضعيفة ودميمة. إن الرؤية ليست محددة مهما كان الرائي والمرئي محددين.!

.. ولعل الكائن يكبر أي في رؤيته لنفسه بقدر ما يصغر أي في نفسه وفي معانيه وكينوناته..!

.. هل يوجد خادع مثل المرايا التي ترى بها الكائنات ذواتها ووجودها وكينوناتها.. حتى المرايا التي ترى بها الآلهة ذواتها وكينوناتها ووجودها.. حتى المرايا التي ترى بها الحشرات ذواتها وكينوناتها ووجودها؟

لماذا اخترعت المرايا؟ هل اخترعت للرؤية أم لتضليل الرؤية.. لتكون صادقة أم لتكون كاذبة؟ هل وجد أو يوجد أو يمكن أن يوجد مطالب ومرجو بأن يكون كاذباً ومزوّراً مثل المرايا؟ هل يمكن أن يكره أو يرفض أو يلعن أو يعادى شيء مثل المرايا ومثل العيون الناظرة المحدقة فيها حينما تكون صادقة أو لو أمكن أن تكون صادقة؟ ما أقسى وأوقح العيون والمرايا الصادقة، لقد جاء كل الأنبياء والمعلمين ليقاوموا الرؤى الصادقة.

.. إن أي جمال لن يرى بل ولن يكون إلّا مستتراً.. محتجباً عن العيون والقلوب والعقول والضمائر.. لن يرى أو يكون إلّا مغطى بكل الأغطية الكثيفة التي لا تستطاع رؤيته منها..!

لعل الإله لم يحتجب كل هذا الاحتجاب إلّا بهذا التفسير ولهذا التفسير.. لماذا احتجب الإله كل هذا الاحتجاب؟ هل من جواب؟ ولعله أي الإله لم ير كل هذا الجمال ولا شيئاً منه ولن يراه لولا هذا الاحتجاب الكئيب العجيب الكريه السخيف الصانع للغضب والحيرة والذهول الفاجع لكل الأخلاق والعقول والتفاسير.

هذا الاحتجاب الذي ضربه وفرضه على نفسه ليقاسي كل ألوان الوحشة والضياع والكآبة والمحاصرة والحرمان.. ليصبح أشهر مسجون وساجن لنفسه. إنه سجن بلا زمن.. بلا بداية أو نهاية..!

.. إنه لا مسجون في ذاته وفي كهوفه المظلمة التي لن ترى ولن يرى أو يخرج منها أو تفتح أو تدمّر وتزال أو حتى تضاء أو يدرى أين هي مثل الإله.. لهذا رأته العيون كل الجمال والضخامة والعظمة.. ولهذا لم تر العيون سواه مهما رأت كل شيء، لقد رأته كل شيء لأنها لم تره ولن تراه، إنه لن يرى أو يكون كل الجمال إلّا ما لم ير ولن يرى..!

هل وجد مسجون في ظلمات ذاته لم يره ولن يره أحد غير الإله؟

هل وجد ساجن لنفسه في ظلمات وجوده مثل الإله؟ هل ظلام وجوده يحميه من الرؤية؟ كم كان يخاف من أن تراه أية عين. كم كان يخاف أن يفقد كل جماله لو رأته العيون؟ لقد كان يرى ويعلم أن جماله لن يرى إلّا في الظلمة التي لن يرى فيها شيء ولن ترى شيئاً.

لقد عاقب الإله نفسه أقسى وأشمل عقاب خوفاً من أن تراه أية عين..!

إنه لن يمكن تصوّر خوف كخوف الإله من العيون.. حتى من العيون التي لا ترى والتي لو رأت لما فهمت الفرق بين الجمال والدمامة أو بين الضخامة والضآلة أو بين النظام والفوضى أو بين أن ترى وألا ترى أو بين الإله في صيغة إله والإله في صيغة أخرى..!

لقد خلقت العيون لتكون عاجزة عن الرؤية.. عن رؤية ما ترى مهما كانت رائية مبصرة.. مهما كانت قدرة الإبصار فيها ومهما كانت رغبتها في الإبصار وديموميتها في الإبصار؟ أليست كل العيون الرائية المبصرة عاجزة عن الرؤية.. عن رؤية ما ترى مهما رأته؟ بل أليست تزداد عجزاً عن رؤية ما ترى كلما ازدادت وتكررت رؤيتها له؟ أليست الرؤية تمنع الرؤية.. تفسدها.. تميتها. تسحب منها معناها؟ أليس تكرار رؤية الشيء يمنع من رؤيته..؟ لهذا استطاعت العيون معايشة هذا الوجود بل واستطاعت أن تجن إعجاباً وفرحاً به ورضا عنه وتمجيداً وعبادة له بل وصعوداً في تفسير جماله وعبقرياته الحكيمة الرحيمة العظيمة التي استحقت أن تكون عقل وقلب وضمير وتدبير وأخلاق ومجد وفخر أعظم إله..!.. لهذا استطاعت أن ترى في كل قبح وتشوّه وألم وفوضى ووباء أجمل صور الإله..!

.. نعم، لماذا خلقت العيون كذلك؟ ألا يكون التفسير أن الإله خلقها كذلك حيطة وحذراً من احتمال وتوهّم أن تراه أي العيون أو أن يصبح مرئياً؟ إنها حينئذٍ لن تراه مهما رأته بل وتعجز عن رؤيته كلما ازدادت وتكررت رؤيتها له؟ هل يستطيع أي كائن معايشة عينيه لو كانتا تريان ما تريان؟

لماذا العيون لا ترى ما تراه بل وتزداد عجزاً عن رؤيته كلما تكررت وازدادت رؤيتها له؟ لأن الإله خلقها كذلك وأراد لها ذلك لأنه كان مبالغاً في خوفه من أن تراه أية عين إذ قدر أنه قد يظهر دون أن يريد أو يدري خروجاً على كل حساباته واحتياطاته وحينئذٍ يرى ويقع في أقسى ما يخاف ويحذر.. في أقسى وأقبح ورطة.. الإله أصبح مرئياً..!

هل يوجد ما يفجعه ويفضحه ويرهبه مثل هذا؟.

.. أو لعله قدر وحسب أن الإنسان صاحب العبقريات والابتكارات المتفوّقة على عبقرياته وابتكاراته بل الهازمة المذلة لها قد يبتكر جهازاً أو أجهزة تكشفه وتجعله مرئياً..

وحينئذٍ يقع في المصيدة التي لا يخشى مثلها.. لا يعذبه أو يرهبه أو يفضحه مثلها..!

هل يوجد جبان أمام احتمال رؤية العيون له مثل الإله؟

لهذا خلق العيون لا ترى ما تراه بل وتزداد عجزاً عن الرؤية.. عن رؤية ما تراه كلما ازدادت وتكررت رؤيتها له..

خلقها كذلك لئلا تراه لو رأته أي هو، أي الإله، لقد أفسد العيون خوفاً على نفسه وحماية لها كما أفسد العقول والقلوب والضمائر والأخلاق من أجل ذلك أيضاً..

هل يستطيع أي الإله أن يكون أو يبقى أو يرى له أي مجد أو جمال أو عظمة أو سلطان أو حتى وجود أو احترام أو حتى ذكر أو اسم أو افتراض شيء من ذلك لو لم يفسد ويعطّل ويقتل كل العيون والعقول والأفكار والرؤى والقلوب والضمائر والأخلاق والتصوّرات، إنه ليحسب هذه كلها أقسى أعدائه بل يحسبها كل أعدائه..!

لقد حشد كل جيوشه وحرّاسه وأعوانه وأجهزة أعلامه من أديان وأنبياء ومعلمين وكتب مقدسة وأشياء أخرى لإفساد وتعطيل وقتل كل ذلك في الإنسان بل ولتحويله إلى عدو ونقيض ومحارب لنفسه..

لقد جعل كل هذه مناقضة لوظائفها خوفاً منها..!

إنه مهما كان الحديث عنه وإليه ومعه فلن يكون المعنيّ إلّا أنبياءه وأديانه وكتبه المنزلة وتعاليمه وجميع المعلمين والمتحدثين عنه وباسمه..!

إنه أي الإله أسوأ وأشهر مظلوم معتدٍ عليه متهم بكل ما في الوجود من آثام وشرور ومظالم وقبائح وعبث وفوضى وعدوان وحماقات وأخطاء وخطايا وآلام وجنون دون أن يوجد أي منقذ له أو مدافع عنه أو راثٍ له أو حزين من أجله...

.. دون أن توجد أية منظمة دولية أو يدعى إلى وجودها أو يفكر في وجودها لمحاولة إنقاذه من ذلك.

إنه لا يوجد محتاج إلى إنقاذ دولي أي إلى إنقاذ اسمه مثل الإله..!

إن مما يهون من قبح هذه القضية أن كل عدوان عليه أي على الإله وكل اتهام وتشويه وسب وتحقير وتلويث له إنما يكون عدواناً على اسمه واتهاماً وتشويهاً وتحقيراً وتلويثاً وسباً لاسمه لا لذاته ولا على ذاته لأن كل المتعاملين معه إنما يتعاملون مع اسمه لا مع ذاته لأنهم لم يجدوا ولن يجدوا ذاته بل ولن تجد ذاته ذاته..

إن الإله أعظم كائن لا يوجد منه أو فيه إلّا اسمه.!

وهل يمكن تصوّر فضيحة للبشر مثل أن يتعاملوا ويظلوا يتعاملون أضخم وأعظم وأدوم وأشمل وأشهر معاملة مع اسم لا مع ذات.. مع اسم لم يلقوا أو يسمعوا أو يروا أو يجدوا أو يعرفوا أو يلمسوا أو يشموا أو يحسوا له ذاتاً في أي زمان أو مكان أو صيغة. في أي صحراء أو مدينة أو سجن أو معتقل أو ملجأ أو مستشفى أو معبد أو ملهى أو عمل أو موقف...

.. في أي سماء أو أرض.. مقاتلة ومناضلة مع أي جيش أو نظام أو مذهب أو دين...

.. أو حامية لأي مقهور أو مظلوم أو معتدى عليه...

.. أو مستجيبة لأي مستغيث أو لاجيء أو داعٍ متضرّع مؤمن مؤمل منتظر..

.. أو شافية لأي مريض أو مصاب أو عاجز أو مقعد أو مشوّه أو دميم أو ناقص التكوين..

.. أو منقذة أو مؤوية لأي مطارد هارب مذعور ضائع حائر بائس يائس..

.. أو مستمعة لأي صارخ باكٍ آنٍ متأوه...

.. أو رادة على أي منادٍ مخاطب مسائل متلهف...

.. أو مطلّة على أي محدّق في كل شمس ونجم وقملة وذرة ونور وظلمة مؤملاً أن يراها أو يجدها..

.. أو قارئة لأي رسالة يكتبها ويبعثها إليها أي مجنون في شوقه إليها وحبه لها وإيمانه بها..

.. أو مجاوبة عليها بالكتابة أو بالصوت أو برسول..

.. أو كاتبة أية رسالة إلى أية دولة أو منظمة أو جماعة أو فرد بأية لغة يخطها أو بأي خط.

.. أو قاهرة أو حتى زاجرة صادة لأي طاغية جبار مدمّر مخرّب سفّاك للدماء بل أو شاعر هو أو أحد أنها قد تفعل به أي شيء من ذلك..!

.. باسم هذه الذات تشبّ وتوجّه أعتى وأغبى الحروب والعداوات والخصومات والخلافات والمنازعات والملاعنات والأحقاد والبغضاء والعدوان والقتل والاغتصاب والاستعباد والنهب والسلب وكل أساليب الإيذاء والترويع والغزو والاحتلال والإذلال..

دون أن تفعل أي هذه الذات شيئاً للإقناع أو للإفهام أو للتوضيح أو للتوفيق أو للصلح والإصلاح أو للمنع والإنقاذ أو ينتظر منها ذلك.

.. دون أن تصرخ أي هذه الذات ارتياعاً وانفجاعاً وذعراً وحزناً مما يحدث ويقال ويفعل باسمها ومنسوباً إليها ومتهمة به بل ومتقرّباً إليها ومعبودة مرشية به.. دون أن تعلن براءتها من ذلك بأي أسلوب وبكل أسلوب..

.. دون أن ترى، أو ترى دون أن تفجع بما ترى.. بما يفجع كل من يرى ومن لا يرى، أو ترى وتفجع دون أن تحاول تغيير أو تصحيح ما يفجعها ويفجع كل شيء وكل أحد..

.. البشر كانوا ولا يزالون وسوف يظلّون يتعاملون أقسى وأخطر وأقتل وأفجع وأردأ وأنذل معاملاتهم مع اسم وباسم وعلى اسم وطاعة وخضوعاً وتعبّداً لاسم بلا مسمى..

.. بلا مسمى كان موجوداً أو يحتمل أو ينتظر أن يصبح موجوداً بل أو يراد أن يصبح موجوداً..!

هل حدث هذا؟ هل يستطاع تصديقه؟ أيهما أفظع وأقسى: أن يكون هذا قد حدث أو أن يستطاع تصديقه مهما حدث؟

إنه لو كان هذا المسمى أي الإله موجوداً لما كان هناك مثله ولا في التصور تنازلاً عن كرامة وشرف اسمه ليعبث ويتعامل به كل كذاب ودجال وغشاش وضال وجاهل ولص ومخادع ومحتال وفاسد وفاسق وقاتل وطاغية ومغامر وبذيء ووقح وعدواني ولئيم ونذل ـ ليعبث ويتعامل به بكل المجاهرة والمباهاة والمفاخرة والافتضاح المعلن بل المخطوب به المصلى له وبه المحوّل إلى تعاليم تعلم وتدرس وتفسر وتحفظ بل ولتزين بها الشموس والنجوم؟ اسم بلا مسمى تفسّر وتسوغ به كل القبائح والفضائح والشرور والعداوات والجهالات كل الزمن. ألم يحدث كل هذا ولا يزال يحدث وسوف يظل يحدث تحت شعار العمل والتعامل والطاعة والتمجيد لهذا الاسم بلا مسمى؟ هل وجد اسم معبوث مخدوع مكذوب مفسوق مسروق مضلل مفضوح به مثل هذا الاسم بلا مسمى؟

❀ ❀ ❀

.. إننا في هذه الأوقات في هذا العصر الرهيب الفاجع.. الواهب السالب الفاضح.. المنتصر المنهزم.. في هذا العصر نتفجّر حماسة وفخراً وإيماناً وصراخاً داعين ومعلمين وزاعمين ومعلنين بكل الأصوات ومن كل الأجهزة أنه لا نجاة ولا إنقاذ لا في الحاضر ولا في المستقبل للعالم كله لا لعقله ولا لعلمه ولا لروحه ولا لاستقراره أو سلامه أو أخلاقه أو حياته أو سعادته أو حضارته أو حتى لبقائه كما لا طريق له إلى الله ولا إلى مجاورته ومساكنته في فردوسه في الحياة الباقية الأبدية.

ـ نعم، لا شيء من ذلك لكل العالم لا حاضراً ولا مستقبلاً إلّا بطاعتنا واتباعنا وقيادتنا أي إلّا بطاعة واتباع وقيادة نبيّنا ودينا وقرآننا وخلفائنا وفقهائنا وبصيام رمضاننا وبالحج إلى كعبتنا وتقبيل حجرنا الأسود...!

أجل، إننا في هذا العصر الصاعد الهابط.. العالم الجاهل.. الحضاري البدوي نعلن ذلك وندعو إليه ونؤكده ونفسّره ونكرّره ونؤمن ونباهي به ونكتبه ونطبعه على وجوه وجلود الشموس والنجوم ونقرؤه على مسامع من لا بدّ أن يخجلوا ويرثوا لنا أو من لا بدّ أن يتراقصوا شماتة بنا وفرحاً ببلادة وافتضاح رؤيتنا وعرضنا لأنفسنا أو من لا بدّ أن يصدموا أسفاً لأن في البشر نماذج من نماذجنا.. مثل نموذجنا.. لا بدّ أن يصدموا لأن كلمة بشر تصدق علينا كما تصدق عليهم. كم في ذلك من الإزعاج لهم.!

نحن بشر مثل كل البشر. هل يقبل ذلك الآخرون؟

وقد زاد غرورنا المجنون في هذه القضية انضمام بعض المخادعين الكذابين أو المعتوهين البله من الشعوب المعدودة راقية ومتحضرة ومتفوّقة إلينا في ادعائنا هذا..!

لم نكن محتاجين إلى أي مزيد من هذا الجنون أو من أي جنون آخر ليأتي إلينا هؤلاء ليهدوا إلينا مزيداً من ذلك.. إننا أغنياء جداً بهذا الجنون ومنه فلا نحتاج إلى أي متصدق علينا بشيء منه.!

.. إننا محتاجون إلى من يمتصون منا غرورنا المجنون لا إلى من يحركونه ويحرضونه ويفجّرونه ويهتفون له ليزداد جرأة على الفضح لنا..!

هل يمكن أن يكون التفسير لامتداح هؤلاء لنا ولتاريخنا وديننا ولزعمهم أنه لا إنقاذ للبشرية إلّا بذلك أي إلّا بنا، أنهم يريدون بذلك شدنا إلى ماضينا لنبقى فيه كما نحن عاجزين عن أي خطو إلى ما خطوا هم إليه كل خطواتهم؟ قد يكون هذا التفسير البعيد جداً والذي لا نقول به بل ولا نرضاه أقرب من التفاسير الأخرى.. إن التفسير الرديء أفضل من التفسير الأردأ.. إن من أردأ التفاسير للغرور ولامتداح النفس بما ليس فيها أن ذلك قد يكون أو يعني أو يتحول إلى بديل وتعويض وإلهاء عن الكينونات الجيدة المطلوبة وعن الطموح إليها وعن محاولة الصعود إليها، قد يكون ذلك هو أقوى ملهم للغرور.. لهذا فإن الأدنى أكثر غروراً من الأعلى..!

.. وقد يكون الغرور الديني والتعالي الديني هما أخطر وأردأ وأغبى وأقسى وأقتل أنواع الغرور والتعالي... إن الغرور بالإله أبشع غرور.! فكيف بالإله المصاب بالغرور؟

.. والمتحدثون عن الإنقاذ لكل العالم من كل شيء قبيح وأليم ومن كل مشكلة وشكوى وهوان.. عن إنقاذه بنا أي بديننا ونبيّنا وقرآننا وتعاليمنا وبصيامنا وحجنا وصلواتنا وإيماننا ودعواتنا.

- هؤلاء المتحدثون منا ومن الآخرين ألم يرونا ويقرأونا ويفسّرونا بادئين بالخلفاء الأربعة الذين نسميهم بالراشدين والذين مات منهم من الأربعة ثلاثة قتلاً وقد كانت الظروف تقضي بأن يموت كل الأربعة قتلاً..!

لقد كانت فلتة أن الرابع لم يمت قتلاً..

.. بادئين بهؤلاء مارين بمن بعدهم وبالأمويين والعباسيين وبمن بعدهم وبينهم وفيهم وبالأندلسيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والأتراك وبمن قبلهم وبعدهم وبينهم وفيهم وبالأئمة في اليمن وغير اليمن وفي كل زمان ومكان بل وبلا زمان ولا مكان.

ـ نعم، هؤلاء المتحدثون المبشّرون بهذا الإنقاذ ألم يرونا ويقرأونا ويفسّرونا ويعرفوا ماذا فعلنا بأنفسنا وحياتنا منذ بدئنا حتى اليوم؟

هل فعلنا لها شيئاً من هذا الإنقاذ الذي جاءنا به ديننا ونبيّنا وقرآننا وإسلامنا وتعاليمنا وحجنا وصومنا وصلواتنا ودعواتنا وإيماناتنا أم فعلنا بها أي بأنفسنا وحياتنا ولا نزال نفعل وسوف نظل نفعل كل الخراب والدمار والآلام والأهوال والهزائم والإذلال والفقر والضعف والتخلف والجهل والعداوات والمخاصمات والخلافات والأحقاد والبغضاء وكل القبائح والفضائح والفحش والتمزّق والشرور.. وكل ما ليس كذلك فلن يكون إلّا هبة غير مقصودة وهبنا إياها من لم يشرفوا بالإيمان بديننا ونبيّنا وقرآننا وإسلامنا وتعاليمنا وعباداتنا. بل قد تكون هذه المزعومة منقذة أحد أسباب أو تفاسير ما أصابنا ويصيبنا مما يراد ويطلب الإنقاذ منه..

ألم تصنع لنا المزيد، المزيد من الانقسامات المدمّرة القتالة؟

.. لو قيل إن هذا الإنقاذ لم يأت لأننا لم نستمسك ونلتزم بهذه المنقذات لقيل إذن هذه المنقذات لا يستطاع أبداً الاستمساك أو الالتزام بها.. لأننا إذا كنا في كل أطوار وجودنا وتاريخنا قد عجزنا عن الاستمساك والالتزام بها ونحن المقصودون بها أو الواضعون لها فكيف نستطيع ذلك في الحاضر أو المستقبل أو يستطيعه الآخرون؟ لعلها لم توجد تجربة خائبة خاسرة مثل تجربتنا مع هذه التي جاءت كما قيل لإنقاذنا.!

.. أليس القول بأن ديننا ونبيّنا وقرآننا وإسلامنا وتعاليمنا هي المنقذة للبشرية من كل آثامها وآلامها وشرورها وهمومها ومن كل ما تشكو منه يعني القول بأن فقهاءنا وشيوخنا ولابسي العمائم فينا هم المنقذون لكل العالم من كل ذلك لأن هؤلاء هم الذين يعلمون ويفسّرون ويبلغون ويحفظون ويفهمون ديننا وقرآننا ونبوتنا وتعاليمنا وكل ما عندنا مما حسب منقذاً هذا الإنقاذ العالمي الكوني؟ هل وصلت إلينا تفاسير الله وأنبيائه وأديانه إلّا من أفواه لابسي العمائم؟

هل تصدقون..؟ حملة العمائم فينا هم كل الأمل في إنقاذ كل العالم المرجو المطلوب المفقود الذي عجز كل شيء عن تحقيق أي شيء منه في كل الزمان وكل المكان.. إننا مشبعون وغرقى افتضاحاً فهل نحتاج إلى المزيد من ذلك؟ أليس للافتضاح حدود؟ هل يستطاع القول بأن ما جاء لإنقاذنا يستطيع إنقاذ كل العالم دون أن يستطيع إنقاذنا لأننا محصنون ضد كل إنقاذ؟

إنه لو قيل إن هذه التي زعمت منقذة هي بكل التفاسير والأساليب مضادة للإنقاذ لكان ذلك أقرب إلى الصواب من العكس..!

إن كل قراءات التاريخ وقراءات الحاضر تقول إن المجتمع بقدر ما يكون انتماؤه إلى هذه المزعوم منقذاً يكون مجتمعاً أليماً ورديئاً وعاجزاً وبائساً وجاهلاً وفاقداً لكل المزايا الجميلة والقوية بكل تفاسيرها وصيغها ومحتاجاً إلى الإنقاذ لا فاعلاً أو واهباً للإنقاذ أو مرجواً منه الإنقاذ. إن كل الماضي والحاضر يقول ذلك..

إنه لا شيء مما حدث ويحدث يقول غير ذلك مهما قاله القائلون.

.. إن الإنسان بقدر ما ينحاز إلى السماء يفقد مزايا الأرض ويجهلها ويفسدها ويعجز عن تحقيقها وتتفوّق على طاقاته وتتكبّر عليه وتعاف التعامل معه..!

.. إنه بقدر ما ينحاز إلى آلهته يفقد نفسه ويخرج منها ويتناقض ويتصادم ويتعادى معها أي مع نفسه ومع احتمالاتها الجيدة وينساها ويشغل عنها. إنه لا يوجد خصم للإنسان مثل الإله حين يضعه داخل نفسه..!

إنه بقدر ما يسعى إلى موائد السماء ويشغل بالتفكير فيها يفقد موائد الأرض ويعجز عن إعدادها دون أن ينال شيئاً من موائد السماء..!

لهذا كان مستحيلاً في كل العصور وتحت كل الظروف أن يوجد من يتعامل مع الإله كما يؤمن به وكما يقول عنه... أن يوجد من يحدق في السماء بكل رؤيته أو بأكثرها أو بأحرها أو بأقواها حماساً أو شوقاً أو صدقاً أو حباً.!

إن النبي لا يستطيع أن يعصي أوامر الأرض لأعضائه أكثر من أي إنسان.

.. إن السماء هي أقل المعشوقتين أي أقل من الأرض حظاً في حب وشوق وولاء وإخلاص واهتمام وعلاقات عاشقها ولكنها أي السماء أعظم حظاً في المغازلة والامتداح والهتاف والعظات والتعاليم والتفاسير والادعاء المعلن وفي توظيف الأنبياء والأديان والكتب المقدسة للتبليغ والتعليم عنها ولها وبها.. ما أعظم حظوظ الآلهة المنبرية الخطابية وما أقل وأصغر حظوظها النفسية والسلوكية.!

.. إنه لا يتصور أن يوجد من هو خليق بأن يقاسي كل عذاب الغيرة والحسد مثل السماء منافسة لها الأرض على الإنسان.. على كل معانيه ووظائف أعضائه.. إنه لا مهزوم مثل السماء أمام الأرض.!

.. إن جاذبية السماء لم تستطع أن تخوض معركة منافسة على الإنسان مع جاذبية الأرض. حتى آدم وحواء أبوا البشرية ونبيّاها الأولان سحبتهما جاذبية الأرض من جاذبية السماء وجاذبية الإله.!

لقد سقطا إلى الأرض تاركين للإله يبكي حظوظه وتخطيطه..!

۞ ۞ ۞

هذا الاختيار والإخراج لنا ليسا كل ما وهبنا وخصصنا به.. لقد وهبنا وخصصنا بما لا يستطيعه العد والإحصاء..

يقول الكتاب الذي لا كتاب معه أو بعده منذ اليوم وإلى الأبد في تعليمه وتفسيره للإله وللأديان والنبوات والكون والإنسان ولكل شيء، وفي كونه كل الطريق إلى كل الإنقاذ..

يقول هذا الكتاب الذي ألغى كل الكتب التي ألّفتها وكتبتها وأوحتها السماء في كل تاريخها المرهق الأليم الحزين الفاجع الضائع الخاسر: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾..!

لقد جعلنا أمة وسطاً أي الأمة الفاصلة أو المتوسطة بين الحياة الأولى الفانية والحياة الأخرى الباقية أي بين ما كان وكل ما سوف يكون.. بين كل الكينونات القديمة الرديئة وكل الكينونات الجديدة الجيدة.. بين انتظار الإله والارتحال إليه..!

لقد جعلنا آخر الأمم.. الأمة الأخيرة التي لا أمة بعدها ولا أمة معها أي بديننا ونبوتنا وقرآننا وتعاليمنا وأخلاقنا وبقيادتنا وهدايتنا الروحية والنفسية والاعتقادية والأخلاقية والإنقاذية لكل العالم منذ جئنا إلى نهاية الكون أي بلا نهاية، فلا شيء من ذلك يجيء أو يبقى بعدنا أو معنا. لقد مات كل ما كان قبلنا من ذلك ولن يجيء بعد مجيئنا شيء من أمثاله..

.. وأيضاً لقد جعلنا أمة وسطاً أي متوسطة ومصلحة بين كل الأمم.. بين كل خلافاتها وخصوماتها وعداواتها وحروبها الدينية والاعتقادية والفكرية والنفسية والتاريخية والأخلاقية والمذهبية والانتمائية أي بديننا ونبيّنا وقرآننا وتعاليمنا وعباداتنا وأخلاقنا وبقيادتنا الروحية والإنسانية منذ جئنا إلى نهاية ما لا نهاية له..!

والأمة التي لا تقبل أو لا تستطيع أن تقبل أو لا تريد أو لا تعرف أن تقبل توسطنا في ذلك وعلاجنا له هي أمة عاصية للإله وللعقل وللأخلاق ولكل أسباب ووسائل وطرق الإنقاذ لها من كل ما تقاسي وتشكو وتقود نفسها إلى الهلاك والعذاب والضلال في حياتها الأولى الزائلة والثانية الخالدة.. إن العصيان لنا عصيان للإله الذي أراد وقرّر أن نكون كل القادة والمعلمين لكل ما يريد ويطلب ويرضى.

.. هذا بعض معاني كون ديننا ونبيّنا وقرآننا وعباداتنا هي آخر الأديان والنبوات والكتب المقدسة والعبادات والناسخة الملغية لها والمفروضة على كل البشرية في كل ما بقي من الزمن.

.. بعض معاني اختيارنا لأن نكون ونظل كل الزمن الباقي كل لغة الإله وكلامه وكتبه وأديانه ونبواته وتعاليمه وأخلاقه وأوامره ونواهيه وكل المفسرين والمعلمين والرائين والسامعين والقارئين والمتصورين والمصوّرين والكاتبين والراسمين له بعيون وآذان وأقلام وفنون وعقول وأفواه وأيدي خلفائنا وفقهائنا وسلاطيننا ودراويشنا ومجانيننا، وصمّنا وعميانا وأميينا وكذابينا ومنافقينا..!

.. أليس هذا بعض تفاسير كون علاقات الإله بنا هي خاتمة علاقاته بالأرض وبالإنسان وبكل شيء أي معلماً ومخاطباً ومراسلاً ومحاسباً قابلاً أو رافضاً، غاضباً أو راضياً، فرحاً أو حزيناً، معجباً سعيداً بحظوظه أو نافراً منها شقياً بها مقبلاً معانقاً من حوله لجمال ما يحدث ويرى أو عابساً صارخاً في وجوههم لقبح ما يحدث ويرى؟

❀ ❀ ❀

كذلك جعلنا رب هذا الكون أو قوى هذا الكون أو جعلنا أنفسنا أو جعلنا كل ذلك.. جعلنا شهداء أي شهوداً على الناس.. على كل الناس منذ بدايتهم حتى نهايتهم.. شهوداً عليهم في دنياهم وأخراهم.. لنشهد على كل أمة في حياتها الأولى.. أهي متحضرة ومتقدمة وعادلة وحرة وباسلة وعالمة

ومبدعة وذكية وأخلاقية وإنسانية وقوية وتستحق أن نتعامل ونتحاور ونتخاطب ونتعايش معها وأن نراها ونقرأها ونتحدث عنها ونحدث إلهنا وديننا وأدبنا وشعرنا وتاريخنا عنها أم هي نقيض ذلك؟

ما أسعد أو ما أشقى حظوظ كل أمة بشهادتنا لها أو عليها.. بما تقوله شهادتنا عنها..!

لقد اختارنا هذا الوجود ومن فوقه واخترنا أنفسنا لهذه الشهادة.. إذن ما أحسمها وأقواها. إذن كل أمة قد كانت أو هي موجودة لن تفهم أو يجب ألا تفهم إلّا من شهادتنا لها أو عليها..!

لن تكون إلّا الشيء الذي نشهد به لها أو عليها.!

.. لن تكون إلّا رؤيتنا لها ناطقة أو حتى صامتة..

.. أليس هذا شيئاً من التفاسير لقول كتاب هذا الوجود مخاطباً مكلفاً آمراً مخبراً لنا: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾..!؟

هل يستطيع المؤمن بهذا الكتاب أن يرفض هذا التفسير أو أن يشك فيه؟ هل فهم المؤمنون ذلك أو فكروا فيه أو فجعوا أو ذهلوا به؟ ولكن هل المؤمن يفهم ما يؤمن به أو يفكر فيه؟ هل يقرأ ما يقرؤه؟ هل يقرأ ليفهم ويحاسب ما يقرؤه؟ هل يقرأ حين يقرأ أم يصلي؟ هل يقرأ ليعرف ويحاور أم يقرأ ليؤمن ويخضع ويتبلد ويغيب عن عقله لو أو إن كان له عقل؟ هل المؤمن يصاب بالذهول أو الدهشة؟ أليست الدهشة والتعجب تجريحاً وإهانة لإيمان المؤمن؟

.. أليس قول القائل: أنا مؤمن يعني أنا لا أفكر ولا أرى ولا أحاسب ولا أحاور ولا أسائل ولا أريد أن أفهم أو أن أكون صادقاً؟

إن المؤمن مغلقة جميع نوافذه المعنوية.!

⊛ ⊛ ⊛

إننا لو شهدنا أنه لم يحدث في كل التاريخ أن وجدت أية أمة من الأمم سوانا قد ابتكرت أو شادت أو عاشت أو عايشت أو عرفت أو عشقت أي نوع أو قدر من الحضارة أو العلم أو التقدم أو الثقافة أو التفكير أو الديمقراطية أو العدل أو القوة أو الانتصارات أو الرخاء أو الفنون أو الجمال أو العبقرية لوجب أن تقبل وأن تصدق شهادتنا هذه التزاماً بهذا الفرض علينا والتكوين لنا بأن نكون كل الشهود على كل الناس..!

.. ولو وجد من لم يصدق ويتقبل شهادتنا هذه المفترضة فلا بدّ أن يكون عاصياً لهذا الكتاب مستحقاً لكل العقاب.. لقد فرض علينا هذا الوجود بكل ما فيه من آلهة وقوى خفية بأن نكون كل الشهود على الناس.

.. هل رأينا أنفسنا أو قرأناها أو سمعناها أو فهمناها أو حاسبناها أو حاورناها؟ المحتوم أننا لم نفعل شيئاً من ذلك. لهذا قبلنا معايشتها والبقاء فيها والانتماء إليها. ما أقسى وأصعب معاملة ومعايشة النفس أو الذات على من يحدّقون فيها فكيف مساكنتها؟!

هل قرأ أحد منا هذا الكتاب الذي فيه هذه الآية وقرأ هذه الآية؟ وماذا قال حين قرأ ذلك إن كان قد قرأه؟

ولكن هل نحن نقرأ ما نقرأ؟ أين هم الذين يقرؤون ما يقرؤون؟ هل وجدوا؟ هل وجدوا إلّا بقدر ما وجد من يرون ما يبصرون.. من يرون ما يرون؟ هل يمكن أن يوجد جهاز تعذيب لأي كائن مثل عينيه لو كانتا تريان ما تريان أو لو كان يرى ما تريان؟ هل عينا الإله تريان ما تريان؟ هل الإله يرى ما ترى عيناه؟ هل يمكن ذلك؟

أليس محتوماً أن تموت كل العيون احتراقاً وانفجاعاً وانفجاراً وانفقاء واصطداماً وتصادماً بكل ما ترى لو كانت ترى؟ أليس محتوماً ألا تتكون أية عين في أي كائن وألا يقبل أن تتكون فيه لو كانت ترى ما ترى أو لو كان يرى بعقله أو بقلبه أو بضميره أو بعواطفه أو بأخلاقه أو بتدينه وإيمانه وتقواه أو بأي معنى من معانيه المزعومة والمفترضة ما تراه أي العين؟

إنه لا يمكن تصوّر مكان تتجمّع وتتزاحم وتتفجّر فيه وتتصادم به كل الآلام والآثام والدمامات والتشوّهات والأخطاء والفضائح والفواحش والمآسي مثل العيون..!

ومع هذا كم هي عاجزة عن أن ترى شيئاً من هذا.. لهذا لا تقاسيه..!

ماذا لو أن نبياً من الأنبياء جاء ليتحدث عن جمال الإله وعن حكمته ورحمته وعبقريته ويقظته وحماسته ونظامه وعدله وحبه وعن كل كماله المطلق مدللاً ومستدلاً على ذلك بكل ما في هذا الوجود مرئياً ومعاملاً متعاملاً معايشاً مفسّراً.

ـ نعم، ماذا لو جاء هذا النبي وكانت له عينان تريان ما تريان ويرى بهما ما تواجهان؟

هل يقبل حينئذٍ هذا النبي أن يكون نبياً لهذا الإله أو لغيره أو أن يكون متعاملاً معه أو أن تبقى عيناه في مكانهما ليرى بهما ما تريان؟

هل يقبل حينئذٍ أن يكون رائياً أو مرئياً؟

.. إذن هل يمكن أن يوجد فاقدون لكل الرؤية أو محتاجون إلى فقدها مثل الأنبياء الذين يجيئون ليتحدثوا عن الإله وليصفوه عارضين له في معارض هذا الوجود وملتقطين لصوره أي لصور الإله من صوره أي من صور هذا الوجود؟

إنه أي الإله هو الكائن الفريد الذي لا تؤخذ صوره من ذاته.!

هل توجد أية معارض أو صور للإله غير معارض وصور هذا الوجود ليرى بها وفيها معروضاً مصوراً؟ إنها كل معارضه وصوره لهذا هي كل معانيه وتفاسيره وعبقرياته وأخلاقه وتقواه..!

إنه أي الإله لم يجد أي مكان يعرض نفسه فيه غير هذا الوجود.!

إن أي وحش وكل وحش وأية حشرة وكل حشرة وأردأ وأصغر وأقبح حشرة هما إحدى صور الإله وأحد معارضه التي لا يرى أو يوجد إلّا بها وفيها.. فكيف تستطيع أية عين ترى أن ترى صورة الإله في ذات أي وحش أو حشرة أو في ذات أي شيء يتفجّر في أية عين ترى أي لو كانت ترى.

.. يتفجّر قبحاً وفحشاً وإثماً وألماً وبلادة وعاراً وافتضاحاً وأخطاءً وخطايا وعبثاً ونكراً وهزائم ومآتم وأحزاناً وفضائح وتفاهات ومهازل تسمى وتحسب وتزعم مسرات وأمجاداً وأشياء أخرى يصلى ويهتف ويغني ويتعبد بها ولها؟ أليس هذا الوجود وكل وجود إما هذا أو هذا وإما هذا وهذا؟

.. ولكن هل الكائن يرى بعينيه أم عيناه تريان به؟ هل العمى يصيب العينين أم يصيب صاحبهما؟ هل تستطيع العينان أن تريا دون كائن يرى بهما ولكن أليس الكائن يرى دون أن تكون له عينان بل ويتفوّق على عينيه في الرؤية ويخترقهما ويرى ما لا تريان... ما لا تستطيعان أن ترياه بل ويصحح لهما رؤيتهما؟ أليست الفروق في العيون والرؤية وفي القدرة عليها ليست فروقاً في العيون وليست في القدرة على ذلك ولكنها أي الفروق في الرائين؟

إن أصحاب العيون المتساوية في رؤيتها لن يتساووا في رؤيتهم..

لهذا أليس الرائي بلا عينين أنفع وأفضل وأعظم حظاً من الأعمى وفي وجهه أقوى وأحد عينين؟ وقد يكون من التكرار القول بأن الكائن.. بأن كل كائن قد ركبت فيه عينان إنما ركبتا فيه لتحمياه من الرؤية لا لتعذباه بها أي بأن يكون رائياً..!

لهذا أليس أصحاب أقوى العيون هم أهرب الكائنات من الرؤية وأعجزهم عنها وأكثرهم حماية لأنفسهم منها وأقدرهم على هذه الحماية..!

لهذا جاءت الآلهة ذات أقوى وأوسع وأشمل وأوقح وأفسق العيون وأطفاها عدواناً وبذاءة بلا مثيل في هربها من الرؤية وفي عجزها عنها وفي حمايتها لنفسها منها.. لهذا لا ترى شيئاً مما في هذا الكون.. لهذا لا تحاول أن تغيره أو تصححه أو تستره كما لا تحاول أن تهرب أو تتبرّأ منه.. هل يوجد هاجٍ للآلهة مثل من يقول إنها ترى هذا الوجود.. ترى كل شيء فيه وتحدق فيه دائماً دون أن تعرف أو تريد أو تستطيع أن تصوغه صياغات أخرى ولو حماية لنفسها من العار والاشمئزاز والغثيان والافتضاح ومن الغرق في كل التهم والاتهامات التي لا تمكن البراءة أو النجاة منها أمام أية محاكمة مهما كانت محاباتها لها؟

إن الإعلان بأن الآلهة عمياء أو بأنها قد فقأت عيونها لئلا ترى ما لا بدّ أن يرى لأقل هجاء لها وأكثر إشفاقاً عليها وبرأ بها من القول ومن الاعتقاد بأنها مبصرة ترى كل هذا الوجود الذي نرى نحن شيئاً منه دون أن تفعل شيئاً لإصلاحه ودون أن تغرق في الأسى والأحزان والخجل والحسرات على نفسها مما فعلت ومما ترى ومما حكم عليها به معايشة ومواجهة ومعاملة؟ ألا يكون الصواب أن الآلهة عمياء أي كمهاء أي ولدت وخلقت كذلك دون إمكان أي علاج وأن الإعلان والاعتقاد بأنها مبصرة لم يكن ولن يكون إلّا اتهاماً قاسياً وقحاً بذيئاً لها وتشنيعاً فظيعاً عليها ولم يكن ولا يمكن أن يكون ذلك ثناء أو تمجيداً أو امتداحاً لها؟ أليس كل المنطق والتهذيب والأدب والأخلاق تقول ذلك وتقتنع به؟

كم أرفض ويجب أن أرفض أن يكون إلهي الكريم الرحيم الجبّار الجميل المحب للجمال يرى

كل هذه المآسي والآلام والقبائح والفضائح والجرائم التي أرى شيئاً منها فأتمزق ألماً وأسى وانفجاعاً وغضباً وغيظاً واستنكاراً.

ـ أن يكون أي إلهي يرى كل ذلك كل وقته فرحاً مبتسماً راضياً معجباً منشداً نفسه ولنفسه كل أناشيد الامتداح والتمجيد لها أي لنفسه..!

.. كم يجب أن أرفض ذلك وكم أنا رافضه وداعٍ إلى رفضه إشفاقاً عليه أي على إلهي ودفاعاً عنه والتزاماً باحترامي له..!

أنت ترى كل القبح والإثم والظلم يفعل أمامك دون أن تمنعه وأنت كامل القدرة على منعه..

لا، أنت لا ترى ذلك ولا شيئاً منه..!

أي الحالتين أكثر هجاء وذماً لك؟ بل أيهما الهجاء لك وأيهما الدفاع عنك؟

كيف أمكن أن يخفى هذا على أكثر الناس بلاهة وغباء فكيف على من يحسبون عباقرة وعلماء أو حتى عاديين لا عباقرة ولا مجانين؟

.. كائن جيد جداً أو رديء جداً يرى أوقح وأفجر وأقسى أعدائه يفتكون كل أنواع الفتك والإفساد والتضليل والمطاردة كل الأوقات بكل أوليائه وأصدقائه وأحبائه وبأبويه وأبنائه وبكل أهله وأقربيه دون أن يفعل أي شيء للإنقاذ أو للحماية أو للمنع والعقاب أو حتى للزجر وهو مطلق القدرة..!

هل تصدقون أو تقبلون هذا أيها العقلاء أو أنتم أيها المجانين؟

أليس المفروض أو المحتوم أن نتذكر هنا بل ألا نتذكر هنا إلّا الكائن الأعظم الذي يرى هذا ويرى كل شيء دون أن يتحرك فيه للعلاج والتصحيح.. لا فكره ولا قلبه ولا ضميره ولا شهامته ولا رحمته ولا نخوته ولا استبشاعه ولا استحياؤه ولا وظيفته ولا مسؤوليته ولا سأمه ولا قرفه ولا أخلاقه ولا عضلاته ولا أي شيء فيه، بل ثم يظل يقاسي كل وقته كل المقاساة في مطالبتنا ومطالبة كل شيء بأن نتحول ويتحول كل شيء إلى ركوع وسجود دائمين خانعين شكراً وتعبّداً وجزاءً له على ما يرى مما لا يستطاع أن يرى، مما يفجع ويفضح ويهين ويعذب ويصيب بكل الهول والغثيان والاشمئزاز والذهول أن يرى؟

ماذا لو ابتكرت وركبت في الإله والإنسان وفي كل كائن عيون صناعية ترى ما يرى.. تراه رؤية عقلية ومنطقية وفنية وقلبية وأخلاقية وحسابية تفسيرية حوارية سؤالية تساؤلية أو حتى إحدى هذه الرؤى؟ أليس محتوماً أن يحدث حينئذٍ إما الثورة على كل ما يرى لتدميره وإنقاذ العيون منه وإما فقء العيون وإغلاقها وقتلها للإنقاذ من رؤيتها.. من قبح وفحش ودمامة وبشاعة ما يرى وترى؟

ألا يمكن أن تبتكر وتركب هذه العيون؟

متى يحدث ذلك إن كان سوف يحدث؟

وهل من الأفضل أو الأنفع أن يحدث؟

ومن الذين سوف يفعلونه إن كان سوف يفعل؟

أليس محتوماً أن تكون خير أمة أخرجت للناس هي الفاعلة له؟ ألا يكون الصواب إن هذه الأمة سوف تكون هي المقاومة والمانعة له أي لحدوثه لأن من خصائص هذه الأمة.. من خصائصها التي لا يصيبها التغيير مسالمتها وطاعتها المطلقة الدائمة للآلهة وللطبيعة فلا تفكر أو تستطيع أن تثور عليهما بأن تتفوق عليهما أو بأن تغير أو تصحح شيئاً مما تفعلانه أي الآلهة والطبيعة.. شيئاً من أخطائهما أو خطاياهما أو من دماماتهما وتشوهاتهما وعجزهما وبداوتهما وجهالتهما؟ وكل هذه القبائح من فعلهما أي الآلهة والطبيعة.

.. لنقرأ كل تاريخ هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت أي أمتنا لنعرف أنها لم تتفوق قط على الآلهة أو الطبيعة أو تخرج عليهما لتصحح أو تصلح أو تعالج أو تجمل شيئاً مما فعلتاه وتفعلانه وأنها لا يمكن أن تفعل ذلك أبداً.. لأن تقواها وعجزها يمنعانها من فعله بل ومن التفكير فيه.!

لأن إيمانها وعقلها يرفضان ذلك ويعصمانها منه.. إن أمتنا معصومة من أن تفعل لإصلاح وتصحيح ما فعلته وتفعله الآلهة والطبيعة.

.. من أن تفعل أي شيء لذلك.. إن العلم والقدرة زندقة وإن الجهل والعجز إيمان.!

لا.. أمتنا ليست كافرة ولا متمردة لتفعل بالآلهة أو الطبيعة ولكنهما هما اللتان تفعلان بها..

.. إننا أمة مفعولة لا فاعلة.. حتى مع الآخرين هم يفعلوننا ونحن لا نفعلهم وليس مع الآلهة والطبيعة فقط.. يفعلون بنا ولا نفعل بهم..!

إننا أبداً مفعولون لا فاعلون. وهذه أشهر وأعظم وأصل وأخلد مزايانا بل وأتقاها.. إنها أعظم مزايا إيماننا وأعظم هباته..!

.. إننا في هذه المزية كالآلهة، فالآلهة مفعولة ومفعول بها أبداً لا فاعلة. ألسنا نحن كذلك فالآلهة لا تتفوّق علينا في أعظم مزاياها.. إنها لا تجرؤ على أن تخوض معنا أو ضدنا أية معركة مفاخرة أو منافسة.. إن التواضع أو الأدب أو الصدق أو العجز أو الاستحياء لا بدّ أن يزجرها عن التفكير في دخول هذه المعركة المتنافسة أي في أننا أبداً مفعولون ومفعول بنا لا فاعلون..!

إن ذلك لإحدى مفاخرنا لا نقائصنا.. لنقرأ كل تاريخنا لنعرف ذلك..!

ما أصغر وأكذب تأريخنا مصنوعاً ومكتوباً ومقروءاً..!

.. ونعتذر عن الكلمات السابقة التي قد تفهم مناقضة لهذا أي لكون الآلهة أبداً مفعولة ومفعولاً بها ولم تكن ولن تكون فاعلة أبداً وما أردأ الفاعلين بها أي بالآلهة، ما أردأهم..!

.. وكل تفاسير الآلهة تتجمّع في أنها المفعولة المفعول بها دون أن تكون فاعلة بأي قدر أو صيغة أو أسلوب أو حالة أو ظرف..!

.. تتجمّع في أنها المعلنة بأنها الفاعلة لكل شيء دون أن تعامل أو تنتظر على أنها قد تفعل أو فعلت أي شيء ودون أن يبدو أنها قد فعلت أو قد تفعل أي شيء..!

إن الآلهة هي الكائنات التي تخاطب الشموس والنجوم والأطلال والقبور دون أن ينتظر منها بأن تسمع أو تستجيب إلّا كما ينتظر ذلك من الشموس والنجوم والأطلال والقبور..!

لعل أعظم مزاياها أي الآلهة أو أقل أخطارها وأضرارها أنها كذلك أي لا تسمع ولا تستجيب ولا تفعل شيئاً، ما أعظم الأهوال والدمار والذعر والجنون والفوضى لو كانت تسمع وتستجيب وتفعل.. ما الذي سوف يكون حينئذٍ؟ رهيب، رهيب.

.. إن الحياة لا تطاق تحت طغيان طاغية من البشر فكيف تطاق في قبضة إله طاغية يقول للشيء كن فيكون إذا شاء وهو يشاء بلا حساب أو منطق أو قانون أو نظام أو مصلحة أو انضباط؟

.. يشاء بلا حاجة أو ضرورة أو التزام أو وفاء..!

هل يمكن أن يبقى أي شيء أو يطمأن إلى بقائه أو أن يفعل أو أن يخطط أو ينظم أو يراد أو يشاد أو يوضع أو يفتتر أو حتى يخزن أي شيء ويطمأن إليه لو كان يوجد مثل هذا الإله الذي يقول للشيء كن فيكون دون أن يعرف أو يحدّد أو يؤقت متى يقول ذلك ولا لماذا يقوله ولا كيف يقوله ولا لمن يقوله ولا لأي شيء يقوله ولا بأية صيغة يقوله ولا لحساب أو مصلحة من يقوله ولا تحت أي ظروف ولا لأي أسباب يقوله؟..

... يقول ذلك بالأساليب والتفاسير والعشوائية التي بها يمرض ويشوّه ويقتل ويفقر ويهزم ويذل ويقهر ويضعف ويفسد ويضل ويبلد ويحقّر هؤلاء ويفعل نقيض ذلك بالآخرين من أمثالهم..

.. بالأساليب والتفاسير والعشوائية التي بها يصنع هنا أنهاراً وأمطاراً وخصباً وجمالاً ويصنع هناك جفافاً وقحطاً وظمأً وجوعاً ودمامة وخراباً... التي بها يجعل هذا ملاكاً أو نبياً أو قديساً وذاك شيطاناً أو زنديقاً أو فاجراً...!

.. التي بها يجعل العربي عربياً حتى ليعجز خمسون عربياً عن مواجهة يهودي واحد والتي بها يجعل اليهودي يهودياً حتى ليستطيع اليهودي الواحد أن ينتصر على خمسين عربياً تجمعت أضخم قوى الطبيعة في يديه وخزائنه ولمحاباته.. الطبيعة طبيعة وبشراً.. وهل البشر إلّا أقسى وأفجع وأفجر وأكذب وأنذل أساليب وصيغ وأخلاق الطبيعة مهما كانوا أذكاها وأقواها وأعلمها ومهما كانوا كل لغاتها وتعاليمها وأديانها وأنبيائها ومذاهبها وحروبها وعداواتها وخصوماتها وملاعناتها وأحقادها وشياطينها وفراعنتها ولصوصها وكذابيها وضاليها ومضلليها ومزوّريها..

مهما كانوا كل آلامها وآثامها وزندقاتها وهمومها..!

.. انظر إلى نفسك بتحديق وحماس وغضب.. أنت ملقى ومحاصر بين أظفار وأنياب أعتى وأسفه وحش مطلق القدرة والإرادة والتصرّف في كل الزمان والمكان.. يحرك ويشغل أبداً أنيابه وأظفاره ليقتل ويجرح ويشوّه ويحطّم ويعجز ويهدد ويخيف ويسقط ويفسد ويهين ويذل ويهزم..

.. ليضرب ويضرب بلا رؤية أو أسف أو ندم أو توقف.

.. يفعل كل ذلك لأنه لا بدّ أن يحرك ويشغل أظفاره وأنيابه لا لأنه جائع أو خائف أو متعب

أو مهدد أو مظلوم أو مغلوب أو مهان أو معتدى عليه أو منافس أو مبارز أو مشتوم أو لأنه يريد أو يدبر أو يخطط أو يصلح أو يعالج أو يحمي أو يرضي شيئاً أو أحداً.!

انظر هل تطيق أن تحيا حياتك أو كيف تحيا حياتك وأنت كذلك ملقى ومحاصر بين هذه الأنياب والأظفار؟

إنها أظفار وأنياب ليست كل الأنياب والأظفار إلّا بعض هباتها.. بعض ضرباتها..!

انظر، إن هذه هي صيغة حياتك مع إلهك الذي تعلنه وتعلمه وتتعلمه على أنه كذلك دون أن تريده أو تنتظره أو تعامله أو تتعامل معه أو مع حياتك على أنه كذلك أو على أنه شيء من ذلك أو يمكن أن يكون ذلك ودون أن تقبل أن يكون شيئاً من ذلك بل وتحارب لئلا يكون شيئاً منه.. شيئاً مما تعلنه وتعلمه وتتعلمه عنه...

إنها لا توجد ولن توجد في الكون كله مسافة في طول المسافة الفاصلة بين إلهك معلناً عنه ومعلماً متعلماً مفسّراً له وإلهك متعاملاً معه ومعاملاً مريداً منتظراً متوقعاً له ومنه وفيه..!

إن الآلهة لم تبتكر أو توجد وتبق وتنتشر كل هذا الانتشار التاريخي والكوني إلّا لأنها كانت وظلّت وسوف تظل أبداً تعاليم وروايات وقراءات وعظات وأدعية ومدائح وأناشيد ووعيداً ووعوداً وتصورات ولم تتحوّل ولن تتحوّل إلى تعامل ورؤية ومواجهة والتزام وكينونة ومحاسبة ومحاكمة وتنفيذ..!

كانت قصائد مديح يقولها شاعر لا ينوي أو يعني معناها ودون أن يوجد مستمع لها أو مخاطب بها..!

.. لقد كانت أي الآلهة أبداً منابر ومحاريب ومعابد وصلوات وتضرّعات ولغات متشائمة متعادية متنافسة، ولم تكن قط وجوداً فاعلاً معاملاً متعاملاً مقاضياً حاضراً أو حتى غائباً متدخلاً أو مؤثراً في أي شيء..

.. لهذا أذن لها بأن توجد وتبقى وتطغى وتصنع لها أضخم وأغلى وأثقل العروش وأكثرها وأقبحها وأندحها وأغباها تكاليف ومآسي بل وآثاماً وهموماً وفحشاً وعدواناً على كل العقول والقلوب والضمائر والأخلاق والتاريخ والعلاقات وإفساداً وتشويهاً وتضليلاً وتبليداً وإذلالاً لها..!

إن الإنسان في كل تاريخه لم يكذب على نفسه ولنفسه أو ضدها مثلما كذب عليها أو لها أو ضدها في قضية أو قصة الآلهة.. وهل كان كذبه هذا عن ضرورة واحتياج أم عن غفلة وبلادة وخديعة وانخداع؟ وهل أفادته هذه الأكذوبة أم ضرّته أم أفادته وضرّته؟ وأيهما كان أقسى وأكثر: فائدتها أم ضررها أي إن كانت قد أفادته وضرّته؟

لقد أوقعت ولا تزال توقع به كل أنواع الضرر وأقساها وأكثرها وحشية وقبحاً وتعذيباً وجهالة..

.. وهذا شيء تراه وتعرفه وتتعامى منه وتفجع وتروع وتشوّه وتهان وتفقأ به كل العيون والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق بل والتقوى..!

أما فائدتها أو فوائدها أي هذه الأكذوبة فما أصعب وأعصى إثبات ذلك والاقتناع به أي فائدتها

أو فوائدها للحياة مجتمعة وللبشرية مجتمعة لا لأفراد وجماعات الاستغلال والخداع والتسلّط.. إذ قد يقال: وهل يمكن أن يوجد أي شك أو خلاف في ضخامة فوائد هؤلاء الخاصة منها.. ولكن قد تكون فوائد ممزوجة بكل النقيض العاجل أو المؤجل البطيء أي النقيض الضار بالمستغلين المخادعين المتسلّطين ضرراً مرئياً ومعروفاً مقروءاً أو ضرراً متخفياً مجهولاً ولكن موجعاً..!

أليس الاحتياج والاضطرار إلى الخداع والاستغلال وممارسة ذلك وتوقّع أخطاره عذاباً.. كل العذاب؟

هل تكون قصة الإنسان مع آلهته عقاباً يعاقب به نفسه.. يعاقب به ذكاؤه ذكاءه وعقله عقله وموهبته المبدعة موهبته هذه أو يعاقب هو به ذكاءه وعقله وموهبته أو يعاقبه به ذكاؤه وعقله وموهبته لأن تفوّقه هذا قد أعطاه وصعد به وأسعده وأراحه ومجده كثيراً، كثيراً ولكنه أخذ منه وهبط به وفضحه وعذّبه وأشقاه وحيّره وضلّله وأتعبه وأعجزه أكثر وأكثر فتحوّل إلى عقاب؟

إن للتفوق في الكينونة ثمناً لا بدّ أن يدفع. إن التفوق يعاقب نفسه. هل وجد أو يوجد في هذا الكون كائن آخر وجد نفسه في معركة منافسة مع الإنسان على مجد التفوق أو على أشياء أخرى فاحتال هذا الكائن المنافس وتآمر وفكر ودبّر لينتصر أو لينتقم في معركة المنافسة هذه فكانت النتيجة أن أصبح للإنسان آلهة. هذه الآلهة لتحطّمه وتمزّقه وتضلّله وتضعفه وتلهيه وتفسد وتسرق معانيه بمساعدة وتخطيط ماكر من هذا المنافس المتخفي الغامض؟ لقد سقط في أقسى مصيدة.!

هل أراد الإنسان بقصته مع آلهته أن يعاقب حياته على ما فعلت وتفعل به وعلى ما لقي ووجد ورأى ويلقى ويجد ويرى فيها من قبح وفحش وعبث وفوضى وآلام وفضائح وقبائح وهوان وصغائر وتفاهات ونهايات فاجعة سفيهة ذميمة لئيمة بليدة خارجة على كل التفاسير الجميلة والمعقولة.. ولأنها أي حياته جاءته واحتلته دون موافقته أو استئذانه ودون أن يختار أو يرضى صياغتها وصيغها.. لقد سكنت فيه أي حياته لتكون أقسى استعباد بل كل استعباد له..

إن كل استعباد وأي استعباد للإنسان بل ولأي كائن لن يكون إلّا استعباد الحياة له وبسبب استعباد الحياة. إن أي حي لن يكون حراً. لن يكون إلّا مستعبداً كل ألوان وصيغ الاستعباد..

حتى الآلهة لقد تحولت إلى أردأ وأهون مستعبد لأنها أصيبت بالحياة. أي إن كانت كذلك.

إن أشهر ظالم هي الحياة التي تسكن الجسم وأشهر مظلوم هو الجسم الذي تسكنه الحياة..!

.. إنه لو حوكم وعوقب كل المستعبدين ولم يحاكم ويعاقب غيرهم لحوكمت وعوقبت كل الحياة ولم يحاكم ويعاقب غيرها أي لما جاز غير ذلك..

إنها أي الحياة تستعبد وتفرض كل ألوان الاستعباد ولا شيء غيرها يفعل ذلك أو يستطيعه. إن الحياة هي كل العبودية وإن الأحياء هم كل العبيد..

وبقدر ضخامة الحياة تكون ضخامة الاستعباد، فالإنسان مستعبد أكثر من الحشرة وهكذا..

لهذا فالسلطان أو الحاكم مستعبد أكثر من خدمه وأولاده وزوجاته، وقائد الجيش مستعبد أكثر

وأقسى من استعباد أي جندي من جنوده.. والتفاصيل تطول ولكنها لا تخفى..! وقد يخفى هذا على عميان العيون والعقول والقلوب والقراءات والتصوّرات.. وكيف أمكن أن يخفى هذا حتى على هؤلاء؟

كم يقاسي الإله من هوان العبودية والتعبّد ومن هوان ممارسته للتملّق والتضرّع مؤملاً أن يجد من يصدقونه ويطيعونه ويعبدونه ويمدحونه ويتذكرونه ويتحدثون عنه ويهتمون به..!

.. كم حزن وندم وغضب وصرخ وشتم وبكى وشكا وتأرق وتحرّق لأنه لم يجد هؤلاء كما يريد مع عنف وديمومة عبوديته وتعبّده وتملّقه وتخضعه لكي يجدهم..!

لعل البحار والأنهار والأمطار لم تكن إلّا قطرات من دموع تعبّده وتضرّعه وتملّقه لمن يريد منهم أن يكونوا معه لا مع أعدائه ومنافسيه..!

إن كل تعبّد كل المتعبدين لا يساوي تعبّد الإله لعبيده لكي يعبدوه كما يريد أن يعبد وأن يكون وحده المعبود.

.. إنه لا حدود لإرادته أن يعبد وحده لهذا لا حدود لتعبّده ولهوانه في تعبّده وتملّقه لمن يريد منهم أن يعبدوه ويمدحوه ويتملّقوه.. لم يوجد مجنون مفتضح في إرادته لأن يعبد ويمدح ويشكر مثل الإله حتى ليستحق كل الرثاء والإشفاق..

.. ومن النماذج الأليمة البائسة لتضرّعه أي الإله وتعبّده وتملّقه طمعاً في أن يحب ويعبد ويطاع ويمدح ويعترف به ويعلن سلطاناً مستبداً واحداً مطلقاً بلا شريك أو شبيه.

ـ نعم، من نماذجه هذه أن ذهب يكلف عقله وقلبه وضميره وشرفه وأخلاقه وعضلاته بل وخياله وكرامته بأن يصنع الفردوس ويصنع غلمانه وحورياته وخموره وحرّاسه وخدمه وكل أساطيره وتفاهاته وفضائحه وبأن يصنع ويرسل الرسل والأنبياء بكل شروط وأساليب الحراسة والتضخيم والخوارق وبأن يؤلّف وينزّل الكتب المقدسة ويتحوّل إلى أبلغ وأردأ وأفضح وأذلّ شاعر في تأليفها وكتابتها وإنزالها متعبّداً متضرّعاً متملّقاً مفتضحاً.

ـ نعم، أن ذهب بكل الافتضاح والهوان والتحقير والإذلال لنفسه ولكل أجهزته ومعانيه وتاريخه. يفعل كل ذلك محاولاً أن يغري به من قد يرثون ويحزنون لتعبّده وتضرّعه وتودّده وتملّقه فيقبلون ولو إشفاقاً وحناناً ومجاملة بأن يكونوا من أوليائه وأصدقائه وأنصاره ومن حزبه ولو إعلاناً وتعليماً فقط بدون أي التزام بالسلوك أو حتى بالنيات..!

ثم ماذا؟ ثم تكون النتيجة والواقع الدائم ألا يجد أحداً من هؤلاء إلّا ادعاء وإعلاناً وتعاليم وخطباً.. ثم يندر جداً أن يجد من يقبلون أو يستحقون منحته هذه أي فردوسه هذا الذي تعجز بل وتخجل كل الأساطير الخرافية أن تكون شيئاً منه أو من خياله.. إن فردوسه هذا الذي شقي كل الشقاء في صنعه قد يصبح بلا سكان إذ لا يوجد من يستحقونه أو يريدونه.

.. كائن يبني مكاناً يسميه الفردوس يملؤه بالغلمان والحوريات والخمور وبكل أنواع البطالة والتفاهة والضياع والخمول والكسل ويعد له وينفق عليه كل هذه الأجهزة والحراسات والدعايات

والتكاليف بل وينفق عليه كرامته وشرفه وذكاءه إغراءً ورشوة لمن يخاف ويرهب ويتعذّب أن يرفضوه أو يهجروه أو يعادوه أو ينسوه، ويطمع في أن يكونوا من أوليائه وأصدقائه وأعوانه وذاكريه ومتملقيه..؟!

هل يمكن أن يتصور مثل هذا الكائن هواناً ومسكنة وتعبّداً وتضرّعاً وتملّقاً وافتضاحاً وفضحاً للنفس؟ كم يجب الرثاء لهذا الكائن والإشفاق عليه..! ألا يجب أن يرثى له ويشفق عليه لا أن يعبد؟

.. إن أي كائن لم يتعبّد أو يتملّق لغيره بكل الأساليب المهينة الفاضحة المهزومة مثلما فعل الإله..!

.. إن كل أوقاته واهتماماته وهمومه موقوفة ومنفقة على هذا التعبّد والتملّق بل كل أحاديثه ومخاطباته وصرخاته وآهاته وأنّاته وتمنياته وأشواقه موقوفة منفقة على ذلك..!

كائن يتعبّد أذل وأدوم وأبلد التعبّد أملاً في أن يجد من يعبده ولو بأعضائه بلا عقل أو قلب أو ضمير أو فهم أو طهارة أو أي معنى جيد أو شريف..! وهل وجد من يعبد أو يتعبّد بأي معنى من هذه المعاني؟ أليس كل العابدين والمتعبّدين بلا شيء من ذلك؟

.. هل وجد أو يمكن أن يوجد قبح مثل هذا؟ هل جاء أو يمكن أن يجيء ولو في التصوّر متعبّد متملّق ومنفق على تعبده وتملّقه أملاً في أن يجد من يعبده ويتملّقه مثل الإله أو غير الإله؟

.. إن أشهر معبود هو أشهر عابد، وإن أكبر إله هو أصغر عبد..! ما أعجبها وأفجعها من قضية..!

وهل في الوجود شيء لا يصنع أقصى وأقسى التعجّب والانفجاع لو كان قد تخلّق في المواجهين له عيون أو عقول أو قلوب أو ضمائر أو أخلاق ترى أو تقرأ أو تسائل أو تحاسب أو تحاكم أو تريد أو تحاول أن تفهم وتعقل وتقبل وتفسّر؟

⊛ ⊛ ⊛

بعد هذه التحويمات الصاعدة الهابطة في حرائق وآلام وهموم وفواجع الرؤى والتفاسير والمساءلات والمحاسبات بالعقل والقلب والضمير والأخلاق والتمنيات نعود بكل الشوق والحماس إلى قضيتنا.. قضية الحكم علينا أي لنا بأن نكون شهداء... شهوداً على كل الأمم في الحياة الأولى وفي الحياة الثانية الخالدة..!

شهادتنا في الحياة الأولى على الأمم ولها لن تكون أمام محكمة أو محكمين وإنما نعلنها ونطلقها ونبلغها لكل العالم بكل الجهر والفخر ونفرض عليه أن يصدق ويؤمن ويتقبّل راضياً مسروراً.

... نعلن ونذيع ونكتب ذلك كما كنا نفعل وكما نفعل وكما سوف نظل نفعل في كتبنا وخطبنا وتعاليمنا وإذاعاتنا وقراءاتنا وصلواتنا وصحافتنا وفي كل وسائل وأجهزة تعبيرنا شاهدين على كل الأديان والمذاهب والنظم والانتماءات والحضارات والأخلاق والشعوب ـ شاهدين عليها بأنها جيدة أو رديئة..

وعلينا أن نزداد مبالغة في شكرنا لأنفسنا وفي رضانا عنها وفخرنا بها إذ قد ازددنا في هذا العصر إعلاناً عن ذلك وتبليغاً له أي عن جعل رؤيتنا لكل الناس وشهادتنا لهم أو عليهم هما كل الرؤية وكل الشهادة اللتين فرض علينا أن نؤديهما وفرض على كل العالم أن يتقبلهما ويدين بهما ولهما اقتناعاً أو استسلاماً أو اقتناعاً واستسلاماً في كل الأزمنة..!

وعلى العالم أن يلقى المزيد مما يلقى إن لم يستجب لذلك.!

.. لقد مكنتنا الحضارة الجديدة الكافرة الضالة الفاسدة بوسائلها العجيبة من أن يستطيع أصغر عقل وأجهل عقل فينا أن يعلن بأعلى الأصوات وبكل الأصوات أن كل العالم وكل شيء فاسد وخاسر وضال وهالك وأنه لا نجاة ولا سعادة ولا مستقبل له إلاّ بالرجوع إلينا.. إلى ديننا وحضارتنا وأخلاقنا وتاريخنا وإلى خلفائنا وفقهائنا..

ولقد أصبحنا كلنا نعلن هذا الإعلان ونبلغ هذا التبليغ كل الأوقات إلى كل العالم بكل الأساليب، راجين ومنتظرين ومطالبين أن يسمع العالم كله منا وأن يستجيب راضياً فرحاً وإلاّ فمضطراً مكرهاً لأنه لن يجد بديلاً آخر إلاّ الهلاك والضياع والعذاب والفساد الشامل الذي يقاسيه وسوف يظل يقاسيه.!

.. لقد بعثنا لكل البشر إلى نهاية العالم بل الكون كما بعث نبيّنا ووجب على كل البشر أن يؤمنوا بنا ويتبعونا كما وجب عليهم أن يؤمنوا بنبيّنا ويتبعوه في كل الزمن الآتي والباقي لأننا قد حكم علينا أو لنا بأن نكون وحدنا الحاملين لرسالة الإنقاذ لكل البشر كل الزمن..!

.. أليست الأمة التي يعلمها الإله وحدها أو يعلمها دينها أو نبيها أو حتى تعلمها الأقدار الجاهلة العمياء كل التعاليم والعلوم الصحيحة النافعة الأبدية أمة يجب أن تكون المعلمة والقائدة والمنقذة لكل الأمم حتى نهاية الزمن؟

ألسنا نحن هذه الأمة التي وضعها إلهها ودينها ونبيّها وقدرها فوق هذا العرش المرهق المعذّب المورط المزلزل للجالسين والواقفين والصاعدين فوقه... فوق هذا العرش الذي في الصعود فوقه كل التكريم والتفضيل وأيضاً فيه كل التعذيب والإرهاق والإحراج والتكليف والتوريط والتحميل لما لا يطاق بل وكل الافتضاح.!

أليس أصغر معلم وكل معلم فينا يعلن ويعلم بكل الجهر والإيمان والتقوى أننا نحن وحدنا الموضوعون فوق هذا العرش أي بديننا ونبيّنا وقرآننا وبكل تعاليمنا وتاريخنا وتراثنا وخلفائنا وفقهائنا وغزواتنا وفتوحاتنا بل ويعلن ويعلم أن كل من لا يؤمن بذلك فهو خارج على اللّه وعلى كل الأديان والنبوات وسبل الإنقاذ والخلاص؟

أليس أصغر وأجهل معلم فينا يمضغ العالم كله بتعاليمه؟

ألسنا جميعاً نؤمن ونعلن أن على كل البشر أن يتعلموا منا ديننا وقرآننا ونبوتنا وتعاليمنا وعباداتنا وتفاسيرنا وأوصافنا ورؤانا للإله وأن يتبعونا في ذلك حتى نهاية هذه الدنيا وإلا فهم ضالون وفاسدون

وهالكون وجاهلون ومستحقون لكل العذاب والعقاب والمحاكمة في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى وفي كل حياة؟

ألسنا نفعل ذلك بأسلوب ونيات التديّن وإنقاذ البشرية؟

.. لهذا ألسنا جميعاً ملزمين ونؤمن بأننا جميعاً ملزمون بأن نحاول أن ندخل جميع الناس في ديننا وفي الإيمان بقرآننا وأن نعلمهم تعاليمنا وعباداتنا وأخلاقنا المنزلة وجميع عقائدنا وأن نزفّهم إلى فردوسنا وسمواتنا بل وبأن يؤمنوا بالجن والشياطين الذين بهم نؤمن، وأنهم لو آمنوا بكل شيء ندعوهم إليه والتزموا به عملاً وسلوكاً ـ ولكنهم لم يؤمنوا بالشياطين والجن الذين بهم نؤمن والذين ندعوهم إلى الإيمان بهم ـ لكانوا من الضالين الكافرين الهالكين؟ إننا وحدنا دون كل العالم الملزمون بهذه المسؤولية العالمية بل الكونية والمسؤولون عنها المحاسبون عليها المعدون المستعدون المرجون لها.!

.. لقد حكم علينا بأن يكون نبيّنا نبي كل الأنبياء وبأن نكون نحن أنبياء كل الشعوب أو حكم لنا بذلك..!

❀ ❀ ❀

أما شهادتنا على كل الأمم ولها في الحياة الأخرى الدائمة فما أخطرها وأصعبها وأعظمها في أساليبها وحساباتها ونتائجها أي هذه الشهادة.. إنها شهادة أمام الله وأنبيائه وملائكته وكل أجهزته المختلفة وأمام كل العالم.. إنها شهادة قضاتها والمحكومون الحاكمون فيها والمتفذون للحكم فيها هم الله وحده.. كل الله بكل حضوره وحماسه ورهبوته وجبروته وبكل انفعالاته المتضادة..!

وهي شهادة ليست مثل أية شهادة.. إنها لا تحاور أو تحاسب أو تتهم أو يطالب بإلغائها أو تخفيفها أو بالرحمة فيها وإنما تسمع وتنفذ بكل الحسم.. نشهد لهذه الأمة بأنها تستحق رضا الله وحبه والقرب منه لأنها آمنت بديننا ونبيّنا وقرآننا وتعاليمنا وعباداتنا وبأننا خاتم من تتخاطب وتتفاهم وتتعامل معهم السماء بتعاليمها وبالتحدث عن رغباتها وشهواتها وأهوائها وأخلاقها وأسرارها ومسرّاتها وأحزانها أي السماء أي الآلهة.

إننا إلى نهاية العالم كل من تشكو إليهم الآلهة أناتها وآهاتها.!

.. لهذا فلا مكان لها إلّا التخليد في الفردوس أي لهذه الأمة التي شهدنا لها.!

سيستمع أكثر العالم في ذلك الحشد أو الحشر الكوني الذي لن يتكرر إلى شهادتنا لهذه الأمة بأقسى مشاعر الغيرة والحسد والندم واليأس من أن نشهد له مثل هذه الشهادة أو شيئاً منها..!

ثم نشهد على أمة أخرى شهادة مضادة لتجزى وتستقبل جزاء واستقبالاً مضادين أي لتلقى كل أنواع العذاب والهلاك وغضب الإله.

.. وهكذا تتوالى شهاداتنا على كل الأمم ولها تحت أهوال من الذعر واليأس والندم والتمني والضياع تحرق الشموس بلهيبها وتشرب وتجفف وتغرق البحار والأنهار بلهفاتها وزفراتها ولهثاتها ولوعاتها وتفتت وتزيل الصخور والجبال بصرخاتها وهزاتها لنكون في الحقيقة نحن وحدنا القضاة

والمحكمين والحاكمين في هذه القضية على كل العالم ولكل العالم بلا منافس أو مشارك أو مكلف أو مطالب بذلك وليس الإله كما قيل سابقاً.. إنه أي الإله ليس إلّا منفذاً لما نحكم به. سنكون نحن الحاكمين وسيكون الإله هو المنفذ. إنه لن يكون ولا مشاركاً لنا في ذلك.!

.. إننا لن نصبح شهوداً فقط.. إن شهادتنا أي في ذلك اليوم تعني القضاء أي الحكم المحتوم تنفيذه ومنفذوه هم الإله وأجهزته بكل الطاعة والإخلاص والإيمان.!

إننا سنكون المقررين لمصائر كل البشر في ذلك اليوم.!

.. إن كل شيء في ذلك اليوم الذي لن يولد مرة أخرى سيغيب عن رؤى ومسامع وقلوب وعقول وتوقعات واهتمامات ومخاوف وتمنيات وآمال كل العالم سوانا حتى الإله سيغيب.. سنبقى وحدنا كل الوجود وكل موجود في ذلك اليوم في كل حسابات كل العالم خائفاً ومؤملاً راجياً ويائساً..

لأننا وحدنا نحن الذين سوف نحكم عليه أو له.. سوف نضعه في الفردوس مجاوراً للإله وصديقاً له أو في الجحيم مساكناً لإبليس ومعذباً معه أي العالم كله بلا تبديل أو تغيير لهذا أو هذا..

إننا في ذلك اليوم سوف نصوغ العالم صياغة لا تبديل ولا نهاية لها ونقسمه تقسيماً لن يوجد من يحاول أو يستطيع تغييره أو الاعتراض عليه أو مقاومته أو الطعن فيه أو الهرب منه أي بشهادتنا له وعليه.!

❀ ❀ ❀

أليس محتملاً أو محتوماً أن تخطىء أو تكذب شهادتنا هناك جهلاً أو محاباة أو هوى أو رحمة أو إشفاقاً أو حرجاً أو رفضاً أو اشمئزازاً مما سوف يحدث واستقباحاً له وعجزاً عن تقبله أي ما سوف يكون؟ ولكن مهما حدث هذا الخطأ أو الكذب فلا بدّ من تنفيذ الشهادة.. إن الإله لا يتراجع عن قراراته.. أليست كل قراراته تستحق ويجب التراجع عنها دون أن يتراجع أي في كل ما فعله بلا استثناء أي شيء.. إنه لا أحد يجب تراجعه عن كل شيء غير الإله.

.. إن من أشهر قراراته أن يخلق الإنسان ليعبده وليهبه الحب والرضا والفرح والسعادة والمجد والفخر فجاء نقيضاً حاداً شاملاً فاضحاً لكل ذلك. فهل تراجع؟ ومن هذه القرارات قراره بأن يكون ديننا ونبيّنا وكتابنا المقدس مغنياً ومعلماً ومصلحاً هادياً مؤلفاً لكل البشر إلى نهاية هذه الحياة وأن يجعلنا نحن كل القادة والهداة الروحانيين دون أي احتياج إلى أي دين أو نبي أو كتاب مقدس آخر أو إلى أي قادة أو هداة روحانيين آخرين حتى نهاية الوجود..

لم يوجد خطأ فاضح مثل خطأ هذا القرار، فهل فكر أو يفكر في التراجع عنه؟

إن أفجع وأفدح بل وأفضح قراراته قراره بأن يجعل نفسه إلهاً وبأن يكون هذا الوجود بكل ما فيه هو معرض ومكان ومسكن ونتاج وإبداع ألوهيته وكل ملاهيه وملاعبه. كل أعراسه ومآتمه.!

إنه لا عدوان على النفس ولا إهانة لها مثلما فعل الإله بنفسه.!

.. أليس كل شيء يقول راثياً له حزيناً من أجله، مشفقاً عليه مفجوعاً بافتضاحه وعذابه مؤملاً تغطية عاره ـ يقول يجب أن يتراجع عن قراريه هذين.. يجب.. يجب؟

إن أبشع ما في الإله أنه لا يخضع أو يستجيب لما يجب.!

هل عبد الإله بحوافز التعبّد والتعظيم أم بحوافز الرثاء والإشفاق والرحمة؟

.. وفقدان الإله لتحرك فكره وقلبه وضميره ورؤيته وحساباته هو الذي أفقده لموهبة التراجع عن أي شيء قرره أو فعله..

.. وهذا الفقدان لهذا وهذا هو الذي جعل هذا الوجود جامداً صامتاً مستعبداً مقيّداً في ذاته وبذاته لا يتحرك أو يسير أو يتعامل أو يعمل بعقل أو قلب أو ضمير أو رؤية أو حساب أو تخطيط أو تدبير أو أخلاق لا من داخله ولا من خارجه، ولا ينتظر منه أو فيه أي شيء من ذلك حتى بدا ويبدو أبداً كأنه بلا أي قائد أو معلم أو موجّه أو ناصح أو فاعل أو رؤية أو إرادة أو قدرة أو انفعال.. إنه لا يستطيع أن يكون فاعلاً أو مفعولاً مريداً أو مراداً أو مراداً له.. عاقلاً فاهماً أو معقولاً مفهوماً. إنه لا يستطيع أن يكون ذاته التي كانها أو أن يكون أية ذات أخرى أو أي شيء آخر أو أن يكون غير ما كان أو ألا يكون البتة. إنه يكون بالأسلوب والمنطق والقدرة التي بها لا يكون.!

.. إنه يكون ويحيا ويبقى بكل المنطق والإرادة والتخطيط والتفاسير التي بها يفقد ويموت إذا أو لو فقد ومات. إن أي شيء لن يعد خطأً أو خللاً فيه مهما حدث هذا أو نقيضه..

.. إن حركته وتغيره وفعله ليست حركة أو تغيراً أو فعلاً بل سقوط واهتزاز وارتجاف وتصادم..!

إن المولود والمقتول في حسابه عملية واحدة.! إن هذا الوجود لم يوجد أو يصبغ بأي قرار فكيف ينتظر أن يتراجع عن أي قرار أو أن يتراجع عنه بأي قرار أو أن يكون له فاعل يفعل ويصوغ ويدبّر ويخطّط ويتراجع عن ذلك بالقرارات؟

كيف يمكن أن يوجد تراجع عن القرارات إذا لم توجد أية قرارات وإذا لم يوجد أي صانع للقرارات؟ إن القرارات لغة إنسانية وليست لغة كون أو طبيعة أو إله. كل هذا الوجود وكل وجود بلا منطق أو تفسير لهذا بلا أي قرار..!

إذن الإله لا يتراجع عن أي قرار لأنه لم يصنع أي شيء بأي قرار، ولأنه لم يوجد في هذا الوجود ما أوجد وخلق بقرار أو ما يفنى ويزال ويغير بقرار..!

إن الإله هو السلطان الأعظم والكائن المطلق الذي لا يصنع أي قرار ولا يتراجع عن أي قرار..!

إنه لم يوجد أي سلطان سواه كذلك أي بلا قرارات.!

إن الوجود كله كما هو موجود وكما يظل موجوداً لهو كل التدليل الذي لا يحتاج إلى دليل على أن الإله لا يتخذ أي قرار ولا يتراجع عن أي قرار..

وإن جميع من يحيون هذا الوجود وفيه ويتعاملون معه وفيه وبه ليعرفون ذلك ويطمئنون إليه

ويعملون تحت حماية هذا الاطمئنان وهذه المعرفة مهما قالوا وأعلنوا وعلموا وتعلموا غير ذلك بل نقيض ذلك.. إن أي كائن لن يستطيع أن يحيا بعقيدته الدينية لهذا لا يوجد مخروج عليه بكل الشمول مثل الاعتقاد الديني..!

.. إن أي كائن لن يطمئن إلى ذاته أو إلى عمله أو إلى أي شيء أو يثق بذلك لو كان يعتقد صدقاً أن فوق هذا الكون أو في داخله كائناً مطلق القدرة والتصرّف يصدر القرارات المطلقة متى شاء وكيف شاء دون إنذار سابق بل دون أي إنذار لا سابق ولا لاحق..

والذين يعملون ويثقون بأعمالهم وتخطيطاتهم وبأنفسهم وبالوجود الذي يعملون فيه ويتعاملون معه مطمئنين إلى ذلك كل الاطمئنان هم حتماً غير مؤمنين بهذا الكائن المطلق القدرة والمطلق القرارات والمطلق في اتخاذها مهما أعلنوا إيمانهم وقالوا عنه بل ومهما ابتكروا الأديان والنبوات والكتب المقدسة المعلنة عن إيمانهم هذا والداعية إليه والآمرة به. إنه لا خسران بلا أي ربح مثل الأديان والنبوات والمعتقدات الغيبية.!

.. كيف يثق المؤمن المبايع لنبيّه اليوم بأنه أي نبيّه سوف يظل نبياً إلى الغد إذا كان يؤمن بأن إله نبيّه يعمل ويتعامل باتخاذ القرارات أي بأن فوق هذا الكون أو في داخله كائناً مطلق القدرة ومطلق المعاني يصدر القرارات ويتراجع عنها أو يلغيها أو يقفها أو ينسخها أو يصححها أو يغيرها أو يعد لها أو حتى يعاقبها؟

إن كل حياة وأعمال وابتكارات وتخطيطات وحسابات كل البشر المؤمنين وغير المؤمنين قائمة على أنه لا توجد قرارات ولا صانعو قرارات من خارج الشيء والوجود.. من خارج آليته وذاتيته..!

.. إن أي نبي لا يختلف في ذلك عن أي جاحد أي مهما كان محتوماً أن تختلف الأقوال والدعاوي والمعتقدات المعلنة والمعلمة والمشاتمة المخاصمة..

.. إن كل نبي لا يتعامل إلّا مع ذاتية وآلية الأشياء مثل جميع الكافرين والمؤمنين به..!

❀ ❀ ❀

وإذا كانت شهادتنا على العالم وللعالم لا بدّ أن تكذب أو تخطىء أو تكذب وتخطىء فالمرجو والمتمنى أن يفرض الإشفاق والحنان والحب والرحمة والشهامة والمنطق النبيل بأن يكون كذبها وخطؤها لمصلحة الفردوس وانحيازاً إليه ضد الجحيم، بل بأن يفرغا أي كذب وخطأ شهادتنا هذه ـ أن يفرغا الجحيم من كل من كان المفروض أن يكونوا من سكانه لكي يكونوا من سكان الفردوس..

نرجو أن يكون ذلك وكم يجب أن يكون.. إن هذا الخطأ والكذب لو وقعا لهما أعظم وأنبل أساليب ومعاني التقوى بل والصواب..! وإننا لمطالبون ومرجوون أن نفعلهما أي هذا الخطأ والكذب لنجعل الجحيم بلا أي ساكن. هل يمكن تصوّر واجب أعظم من هذا؟ فهل يمكن ألا نفعله؟ وقد يكون الأفضل ألا يكون هناك سكان فردوس ولا سكان جحيم ولا فردوس ولا جحيم.!

.. إذن ليخف أو ليتوقف ذعر المفترضين والمهددين بأن يكونوا من سكان الجحيم وليؤملوا في

شهادتنا كل الكذب والخطأ الشهمين الرحيمين المنتظرين الواجبين العاقلين الذاهبين بهم إلى الفردوس. إننا لا نتافس في الخطأ والكذب فهل نعجز عنهما أو نرفضهما هنا؟

ولكن قد يفسد هذا الاحتمال النبيل ضخامة وأصالة ووحشية حقدنا وبغضنا على كل أحد ولكل أحد واستمتاعنا وإرادتنا لأن نجد كل الآخرين يقاسون كل ألوان العذاب والشر والبؤس، بل ولأن ننزل بهم ذلك..!

إن هذه لإحدى بل لأعظم مواهبنا الأصيلة.. وهذه الموهبة الأليمة الشريرة قد تجعلنا نريد الجحيم لكل أحد حتى لمن يستحقون الفردوس..

لهذا قد نشهد على كل الناس شهادة تخلّدهم جميعاً في كل العذاب.. في كل ما في الجحيم من عذاب وأهوال وشقاء..!

قد نشهد هذه الشهادة حتى على من لم يخلق الفردوس إلّا لهم إن كان قد خلق..!

.. إن مواهب الحقد والبغض والشر فينا قد تجعلنا نشهد على أنبياء الأمم الأخرى بأنهم أول من يستحقون الجحيم فكيف بأممهم وشعوبهم؟

إذن ما أفظع احتمالات خسران العالم كله بنا وبشهادتنا وبجعلنا شهوداً على الناس..!

وهل جعلنا شهوداً على كل الأمم لهذه الأغراض؟ ما أفظع وأقبح أن يكون هذا هو التفسير.!

إن طاقات الحقد والحسد والبغضاء وإرادة كل الشر فينا لكل الآخرين هي أقوى وأشهر وأخلد وآصل وأشمل طاقاتنا. إننا في هذا بلا منافس. فهل لهذا اخترنا لأن نكون وحدنا كل الشهود على كل البشر لكي نلقي بهم جميعاً في الجحيم؟

هل لنا متعة تساوي هذه المتعة؟

إنها حيرة.. حيرة فاجعة..

ما أقبح وأردأ وأفجع كل شيء في رؤى وحسابات من يحدقون في الأشياء ويفسرونها ويحاسبون تفاسيرهم لها. ما أقسى وأدوم عذاب العيون الرائية والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق المحاورة المحاكمة المسائلة.. لهذا ما أقلها وأقل أنبياءها.!

ماذا لو كانت قد تخلقت هذه العيون والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق في صاحب هذا الوجود أو حتى في أصغر وأردأ كائن فيه؟

هل يجد حينئذٍ مكاناً يهرب إليه أو يختبيء فيه لئلا يرى أو يرى أو يتعامل أو يعرف مكانه؟

ولكن أليس قد هرب واختبأ هذا الهرب وهذا الاختباء؟

إنه لا شيء يستحق الرثاء والإشفاق مثل عيني الإله وعقله وقلبه وضميره وأخلاقه وكل معانيه أي لو كان يرى ويفسّر ويحاسب ويحاكم ويتساءل ويفهم ويقرأ ويقبل ويرفض..!

إنه لا أحد مثله يستحق كل ذلك على كل حالاته..!

.. قد تقول كل التفاسير إن طاقاتنا المتفوّقة الأصيلة في حقدها وحسدها وبغضها وإرادتها الشر والعذاب لكل أحد هي التي جعلتنا نتصوّر الجحيم ونتصور أهواله وسكانه ونصفهم ونحدّدهم ونفرح به أي بالجحيم لهم ونعلن عنه ونضخّمه كل التضخيم وأبشعه بل ونحول الحديث عنه إلى تعبّد وإلى تمجيد للإله بكل الديمومة والتكرار وننزل كتاباً مقدّساً ننسبه إلى الإله ليتحدث عن التهديد به أي بالجحيم وعن أهواله وعما سوف يوقع بسكانه..!

.. وإنها أي طاقتنا هذه الحاقدة الحاسدة المبغضة المتمنية المريدة كل الشرور والعذاب لكل الآخرين هي التي جعلتنا نتهم الإله بأنه مريد ومخطط وصانع هذا الجحيم ونذهب نبالغ في شكره وامتداحه وفي الثناء على حكمته ورحمته وشفقته وشهامته وعدله وحبه لأنه صنع هذا الجحيم كما صنعه ووصفه ولأنه شاء وخطّط ودبّر لكل البشر أن يكونوا من سكانه مع استثناءات قد يكون استثناؤها من العبث لقلّتها.. أليس الإله قد صاغ كل البشر صياغة تقضي بأن يكونوا جميعاً من سكان الجحيم؟

.. وإنها أي طاقاتنا هذه النفسية الأليمة الشريرة هي التي جعلتنا نصوغ الإله ونراه ونتمناه ونفسّره هذه الصياغات والتمنيات والتفاسير الفظيعة الرديئة المدمّرة المخرّبة المقاتلة القاتلة السفيهة التي نتعلمها ونعلمها ونحفظها والتي حولناها إلى دين وإلى كتاب مقدس وظفنا لتعليمهما وتحفيظهما وحفظهما ونشرهما وتفسيرهما أضخم الأجهزة وأغلاها وأغباها وأكثرها سوءاً ورداءة وقبحاً وتزويراً..!

إن جميع المصوّرين والمتصوّرين لو تجمعوا من كل العصور ليتصوّروا ويصوّروا ويصوغوا كائناً أو نموذجاً لا مثيل له في تجمع كل البشاعات والتشوّهات والوحشيات فيه لما استطاعوا أن يتصوّروا أو يصوّروا أو يصوغوا مثل الكائن أو النموذج الذي صورناه وتصورناه وصغناه وسميناه ودعوناه إلهاً في تجمّع كل البشاعات والتشوّهات والوحشيات فيه.. لقد كان قبحنا بكل تفاسير القبح النفسي والفكري والقلبي والأخلاقي واللغوي التعبيري هو الذي صاغه هذه الصياغات الظالمة العدوانية الشريرة الجامعة لكل معاني القبح والرداءة والسخافة بل والبلاهة والسفاهة..!

لقد صغناه كما نريده لا كما يعقل أو يجب أو ينبغي أو يقبل.!

.. وقبحنا هذا هو الذي تصور وصور الجحيم بكل أهواله وبشاعاته تحت إملاء مواهبنا في الحقد والحسد والبغضاء وإرادة إيقاع كل الشرور بكل الآخرين بل بكل الكائنات.. إن من صاغنا لم يهبنا بسخاء مثلما وهبنا عواطفنا العدوانية الشريرة..!

وهل يمكن أن نصوغ الجحيم بكل التمني والتصوّر والرغبة والمتعة والشهوة ثم لا نحاول ملأه بكل من نستطيع ملأه به؟ لقد كان خلقنا للجحيم أي تصوراً يعني حتماً رغبتنا المجنونة في أن نملأه بالسكان ولو متخلقين من زهور الورود.

.. لنقرأ ونحفظ ونتذكر ونفسّر ونكرّر دائماً بكل أصواتنا ومعانينا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا..﴾..!

.. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

.. أخرجت للناس.. من أجل الناس لا مع الناس أو في الناس أو مثل الناس بل من أجل الناس وللناس.. كل الناس.. لكي نقتنع ونعلن أن لنا مزايا أخرى عظيمة وكبيرة.. من هذه المزايا أننا لا نفتضح مهما افتضحنا.. مهما كانت فضائحنا كل مزايانا وكل تاريخنا ومجدنا وأعمالنا واهتماماتنا وأشواقنا وعلاقاتنا ولغاتنا ونياتنا وكل إيماننا وتقوانا.. لأن من كل وجودهم وحياتهم وبداياتهم ونهاياتهم وصيغهم وتفاسيرهم واحتمالاتهم افتضاح لن يروا أو يحسبوا مفتضحين مهما افتضحوا..!

❂ ❂ ❂

.. لعل من أفدح أخطاء الطبيعة وخطاياها أنها صاغت الإنسان العربي صياغة جعلته يستطيع أن يتكلم.. أن تكون له لغة ويستطيع أن يتعلم ويتكلم أية لغة أخرى..!

ما أغباها إن لم تكن تدري وأوقحها إن كانت تدري.!

.. إنها لم تصعد بصياغته ليصبح متكلماً كما يتكلم المتكلمون ولم تبقه تحت الطور الذي صاغته به لتحميه من أن يجيء متكلماً كما يتكلم.. صاغته حروفاً ولم تصغه كلاماً..

.. إنها لم تكن به حفية أو برة أو رحيمة بل لقد بدت كأنما تحمل له وعليه كل أسلحة الرغبة في فضحه وتحقيره وتعييره وتشويهه..!

.. إنه لم يوجد ولن يوجد جهاز مصيب بكل التشوّهات وعارض لكل التشوّهات ومعلن عنها مثل صياغة الإنسان العربي متكلماً أي قادراً على أن يكون لغوياً. إن صياغة الإنسان متكلماً دون أن يبلغ طور التفكير لأخطر وأقبح من صياغة أي حيوان متكلماً بل ومن صياغته نبياً أو معلماً..!

.. إنه لا يوجد قبح مثل قبح اللغة متكلماً بها من لم يبلغوا طور التفكير فكيف إذا تحولوا ومحتوم أن يتحولوا أي من لم يبلغوا طور المفكرين إلى واضعي ومعلمي ومفسري ومنزلي وعابدي وخالقي آلهة وأديان ونبوات وتعاليم وكتب مقدسة منزّلة وقيادات روحية وأخلاقية بل وعقلية لا لتقود الإنسان فقط بل ولتقود الحياة والوجود ولتكون الوصي الدائم الفريد على شهوات ورغبات ونيات ونهايات وإرادات وتفاسير وأغراض وأهداف الآلهة والمعبر الفريد عن ذلك؟

التخلّف الحضاري والتخلّف التكويني وأي التخلفين نحن متخلفون

كثير هو الكلام عن التخلّف.. التخلّف المطلق أو المحدد بالتخلف الحضاري أو العلمي أو الثقافي أو الفني أو الفكري أو التطبيقي أو حتى بالتخلف الأخلاقي أو النفسي أو الصحي أو الديني..

وكثيرون هم المتحدثون عن ذلك بكل الحماس أو بشيء من الحماس أو بلا أي قدر من الحماس وإنما يتحدثون عن ذلك تقليداً أو عادة أو لأنهم يرون أنهم لا بدّ أن يتحدثوا هذا الحديث أو لأنهم في مواقف ووظائف من يفترض فيهم وينتظر منهم أن يتحدثوا كذلك حتى وإن لم يريدوا ذلك أو يعرفوا أنه قد يكون له أي نفع أو يرجوا أن يكون له شيء من النفع بل حتى ولو كانوا يتمنون ويريدون ألا يزول هذا التخلّف الذي يتحدثون عنه بأسى ومرارة وبكاء بل حتى ولو كانوا مستعدين لأن يقاتلوا بكل الأسلحة لحماية التخلّف الذي يتحدثون عنه.. لحمايته من أن يزول أو يهزم أو يضعف..!

أليس الكثير من الكلام وظيفة أو عادة أو وضعاً وليس رسالة أو خطة أو نية أو حتى شوقاً أو حباً أو نشاطاً نفسياً أو فكرياً؟

أليس أكثر الكلام بصقاً للنفس على الحياة وعلى الآخرين وعلى كل شيء وليس كلاماً؟

.. حين يتحدث رجل الدين عن جبروت الإله أو عن رحموته أو عما سوف يفعل أو ينزل من نعمة أو نقمة أو عن غضبه ورضاه أو عن جماله أي الإله أو عن حضوره أو عن سرعته في إثابته لمن أطاعه وفي معاقبته لمن عصاه أو عن أي شيء من شؤونه.. شؤون الإله..!

وحين يتحدث أي رجل الدين منذراً مؤكداً بكل التهويل والتهاويل عن الانتقام العاجل الناجز الذي لا بدّ أن يوقعه الإله بكل العصاة والأعداء وبكل الآخرين والمخالفين.

.. أن يوقعه بهم ليكون مرئياً مسموعاً محساً محسوساً أي الانتقام.

ـ نعم، حين يتحدث رجل الدين كذلك فهل يمكن أن يعني أو يريد غير أن يتحدث أو هل يمكن أن يفهم منه غير ذلك؟ أي إن كان المستمعون إليه والسامعون له قد تخلق فيهم شيء من العقل والفهم وكانوا يحترمون رجل الدين هذا..!

إنهم إن لم يفهموه كذلك فلا بدّ من أن يكونوا متهمين له في عقله أو في ذكائه..!

.. وحين يتحدث الزعيم أو الحاكم أو النبي أو القائد العربي عن الأمجاد والانتصارات والابتكارات والمعجزات التي سوف يصنعها لشعبه وللتاريخ وللإنسانية كلها والتي عجز عن صنعها

كل التاريخ وكل من مروا بالتاريخ أو مرّ بهم التاريخ فهل يمكن أن يعني أو يريد بذلك شيئاً غير أن يتحدث أي إن كان يعايش أو يعيش فيه أي قدر من العقل والفهم أو إن لم يكن مصاباً بكل بلادات وعاهات وعمايات الرؤية والقدرة والتجربة والفكر والحس والإحساس والمحاسبة للنفس ولكل شيء؟

أليس كل آلهة العرب وأنبيائهم وزعمائهم وقادتهم وحكّامهم وعلمائهم وفلاسفتهم يتحدثون عن أنفسهم بهذا الأسلوب الشاتم لكل شرف الذكاء؟

.. ما أقل الكلام وأكثر الصمت لو لم يتكلم أو يقبل أو يستطيع أن يتكلم إلّا من يعني شيئاً أو من يريد أن يحقق شيئاً أو من يحقق أو من قد يحقق شيئاً أو ينوي أن يحقق شيئاً أو يحاسب نفسه.. لو لم يتكلم إلّا من يعنون الكلام حين يتكلمون.. أو لو لم يتكلم إلّا من يحسبون متكلمين حين يتكلمون..!

ما أقل هؤلاء.. ما أقلهم..!

.. ما أكثر ما هجا وسبّ وشوّه وعاقب وعذّب وبدّد وضيّع وحقّر وعادى وخاصم وفضح الإنسان نفسه بالكلام الذي لا يعني أو يعطي أي معنى من معاني الكلام أو أية لغة من لغاته. إن الكلام الذي لم يصبح كلاماً هو أغبى وأقوى وأشمل وأقبح أجهزة الفضح والتحقير والتصغير والإساءة..!

ما أعجب ما لا بدّ أن يحدث لو أن البشر قرروا وعرفوا أن يقرّروا ونفذوا ألّا يتكلموا إلّا حين يتكلمون..!

ما أجمل وما أصعب ما لا بدّ أن يحدث حينئذٍ..!

لقد ابتكر الإنسان لنفسه أو تخلقت فيه دون أن يبتكر أساليب كثيرة متنوعة لاستهلاك وإنفاق ذاته وحياته ووجوده فيما لا يعني شيئاً بل فيما يضر كل أنواع الضرر... وكان من أقوى وأقسى وأشهر هذه الأساليب الكلام الذي لا يعني أي كلام، بل الذي يتحوّل إلى عداوات وبذاءات ومخاصمات وفضائح وهموم وإلى حروب أحياناً بل وإلى شغل وملء وإغراق لكل الأجهزة المعبرة..!

ما أفظع ما فعل ويفعل الكلام الذي يقوله من لم يبلغوا طور المتكلمين..!

❀ ❀ ❀

إن الكلام بلا كلام هو أقوى إعلان أو هو كل الإعلان عن وجود وحياة كثير من البشر والمجتمعات.. هل يمكن أن يعرف أحد أن العرب موجودون وأحياء يستهلكون أدوات ومواد الاستهلاك كما يستهلكها الآخرون وإن كان ذلك بمقادير أكثر وبأساليب أردأ.

ـ نعم، هل يمكن أن يعرف أحد أن العرب موجودون وأحياء لولا أنهم يتكلمون هذا الكلام الذي لا يعني أي معنى من معاني الكلام؟

.. لولا أن أنبياءهم وزعماءهم وحكّامهم وقادتهم وأبطالهم بل وعلماءهم وفلاسفتهم ومعلميهم يتكلمون هذا الكلام..

.. لولا أن إلههم يتكلم هذا الكلام بأعلى الأصوات بكل لغات الصراخ وتعبيراته؟

ما أغرب وأردأ هذا.. إن الكلام بلا كلام هو كل الدليل على وجود وحياة كثير من الشعوب وكثير من الناس وكثير من الكائنات.. هل كان يمكن أن يعلم أن الإله العربي موجود بكل جبروته وأوصافه الضخمة داخل كل ذرة من ذرات هذا الوجود لولا هذا الكلام الذي قاله أو الذي قيل إنه قاله.. هذا الكلام الذي يبرأ من كل كلام ويبرأ منه كل كلام؟

هل كان الأفضل أو الأنفع أن يوجد هذا الكلام ليعلم بوجود متكلميه ويعرفوا أم ألا يوجد لئلا يعلم بوجودهم ويعرفوا؟

إن الكلام الذي أصبح كلاماً هو أعلى ما صعد إليه الإنسان وصعد بالإنسان وصاغ له كل حضاراته وكينوناته القوية المتفوقة.. إنه هو كل طاقاته الفاعلة المعبرة المخططة المنظمة.. إنه المركز الذي تتجمّع فيه وتنطلق منه كل شحناته العقلية والعلمية والنفسية والإبداعية..

.. أما الكلام الذي هو ألفاظ الكلام وحروفه دون أن يكون كلاماً.. دون أن يكون منطق الكلام وعقله وذكاءه وأخلاقه فإنه أدنى ما هبط بالإنسان وهبط إليه الإنسان.. إنه هذا الذي تحوّل إلى تراث ثقيل فادح فاضح.. إلى تراث قائله وكتبته ورونه الآلهة والأنبياء والخلفاء والفقهاء والشعراء والشيوخ وكل المتبطلين والمنافقين والبائعين المتاجرين المحتالين وحملوه التاريخ.. وحملوه كل خطوات التاريخ لتلقي به على كل خطواتنا وطرقنا ورؤانا وعلى كل منافذنا ونوافذنا إلى الحياة وإلى كل شيء لتتحول إلى معوقين تعويقاً شاملاً كاملاً كما نحن كائنون اليوم وكما كنا في آبائنا ومع آبائنا منذ كان لنا آباء..!

ألسنا نحن آباءنا ولكن في زمان آخر؟ ألسنا نلد آباءنا كما ولدونا؟

.. وإنه أي هذا الكلام هو هذا الوجود الثقيل الفادح الفاضح الشاغل المالىء لكل الأجهزة والوسائل والأدوات المكتوبة والمقروءة والمسموعة والمرئية الفاجعة الموجعة الشاتمة المخجلة لعيون وآذان وقلوب وعقول وضمائر كل شيء جميل بل وكل شيء غير جميل. إنه اليوم كل عارنا وافتضاحنا المسموع المقروء المرئي المكتوب.!

.. لقد أصبح بكل صيغه وأساليبه المكتوبة والمقروءة والمرئية والمسموعة أردأ وأفظع مستهلك ومهلك لكل احتمالات أن نرى أو نقرأ أو نعرف أو نسأل أو نتساءل أو نستيقظ أو نكون..!

لقد أخذ منا كل احتمالاتنا الجيدة الممكنة المنتظرة أو لقد عبّر عن فقدنا لهذه الاحتمالات دون أن يستطيع أخذها لو وجدت.!

.. أما ما ورثناه عن الآلهة والأنبياء والخلفاء والفقهاء وعن جيوش الشيوخ والمحدثين والمعلمين والماكرين والجاهلين من هذا الكلام الذي هو حروف وألفاظ كلام دون أن يكون كلاماً فقد أصبح هو المعلم المدرّس الأستاذ لكل مدارسنا وجامعاتنا وأساتذتنا وعلومنا وعقولنا والحاكم لها المتحكم فيها بل لقد أصبح هو إياها..!

إننا نجد فيه ونراه ونريده المعلم لكل ما نواجه من حياة وحضارة ومعارف..!

.. لقد أصبح ميراثاً وتراثاً لا يقبل ولا يمكن الخروج عليه أو تخطيه أو تصحيح شيء منه..!

لقد أصبح مقبرة خالدة لكل حياتنا ومعانينا.. لكل رؤانا وطموحنا وأشواقنا وتطلعاتنا وعقولنا وقلوبنا وخطواتنا وأيدينا بل وألسنتنا..!

إنه لا توجد ولم توجد ولن توجد قبور مثل قبورنا.. مثل قبورنا التاريخية في قدرتها على التسلّط والتحكّم والاستعباد وعلى إصدار الأوامر والنواهي المسموعة المطاعة..!

إنه لا يوجد ولم يوجد آمر ناهٍ مطاع مثل قبورنا التاريخية..!

إن أقوى وأعظم ما فينا وما لنا هي قبورنا ومقابرنا التاريخية..

إنها لأعظم أمجادنا بل كل أمجادنا.. إننا لنزعم ذلك ونفخر ونفاخر به بل ونقاتل ونصنع أعظم الانتصارات به.!

إننا لنجد ونرى ونزعم في هذه القبور والمقابر كل التعويض والتكفير عن كل نقائصنا وضعفنا وهواننا وعجزنا وجهلنا وهزائمنا.. عن كل ذنوبنا وعيوبنا بل إننا لنكاد نعجز عن رؤية أي شيء من ذنوبنا وعيوبنا لقوة تحديقنا في هذه القبور والمقابر.. لأن عيوننا مأخوذة أبداً للتحديق في هذه القبور والمقابر..! بل إننا لنكاد نباهي بذنوبنا وعيوبنا لأن لنا كل هذه.. لأن لنا كل هذه القبور والمقابر.. لأن من يملكون كل هذه القبور والمقابر لن تظل عيوبهم وذنوبهم عيوباً ولا ذنوباً بل إنها لا بدّ أن تتحول وأن ترى مفاخر.. أعظم المفاخر لأنها ذنوب وعيوب من يملكون هذه المقابر..!

ولعل الإله لا يغار من أي شيء ينافسه في مجد الاحترام والتمجيد والطاعة مثلما يغار من هذه القبور والمقابر بل وفي مجد الرهبة والإيمان والحب له وبه ومنه..!

لعل الإله لا يجد في عباده ومنهم مثل ما تجد هذه القبور والمقابر منهم وفيهم.. هل يحدث أن ينقذ العرب أي العرب المسلمون أو أن ينقذوا أنفسهم من طغيان وسلطان واستعباد القبور.. قبور ومقابر الآلهة والأنبياء والخلفاء والفقهاء والشيوخ وكل من صنعوا كل هذا التراث الكئيب الأليم الفاجع ولا سيما من يسمون بالمحدثين أصحاب الصحاح؟

.. إن الإنقاذ من ذلك لا يكون بالمواعظ أو التعاليم أو الدعايات ولا بشيء من أساليب الإقناع ولا بكل أساليبه..

وإنما يكون ذلك بالصعود إلى طور تكويني أعلى.. إلى كينونة ذاتية أعظم وأعمق وحينئذٍ يحدث الإنقاذ بلا أي وعظ أو تعليم أو دعاية أو محاولة إقناع..!

إن ذكاء العقل والقدرة على الفهم والرؤية لا تصاغان من الخارج كما لا تهدمان من الخارج..

إنهما يتخلقان ويتكوّنان ولا يخلقان أو يكونان.!

ولو أنهما أي ذكاء العقل والقدرة على الرؤية والفهم صيغا أو هدما من الخارج أي من خارجهما لكانا هما الفاعلين ذلك بنفسيهما بأساليب لن تكون وعظاً ولا نصحاً ولا تعليماً ولا دعاية ولا أي تلقين من أساليب التلقين..!

لقد طال بنا هذا الحديث الاستطرادي وأبعد بنا عن القضية التي نريد التحاور معها وهي قضية التخلف وأنواعه...

.. نعم، المتحدثون تحدثوا ويتحدثون عن كل أنواع التخلّف بكل الإسهاب والإكثار وقد يكون ذلك بكل الحرارة والحماسة أو بشيء من ذلك أو بلا شيء منه. إن الحديث أو التحدّث قد يكون أحياناً أسلوباً من أساليب التثاؤب أي بلا أي حماس أو حرارة أو قصد أو نية أو إرادة.. إنه قد يكون شخير نائم..!

ولكن تخلّفاً خطيراً لعله هو الخالق والمرسخ لكل أنواع التخلّف لم يتحدث ولا يتحدث عنه المتحدثون عن التخلّف وعن أنواعه وأوصافه وأسبابه.. وقد يكون التأدب والإشفاق أو الاستحياء أو الغفلة أو النفاق أو الكبرياء أو الشهامة أو المنفعة والمصلحة أو أشياء أخرى غير ذلك هي التي منعت وتمنع من التحدث عن هذا التخلّف، بل صرفت عن تصوّره وعن التفكير فيه..!

.. حتماً التحدث عنه مزعج ومؤلم بل ومخيف، وقد يكون فيه شيء كثير من التطاول أو من الإذلال والإهانة والتحدي بل والوقاحة.

إن كل الرؤى المحدقة الصادقة المعبرة وقاحة وقسوة وفجيعة وتعذيب وهجاء للمحدق والمحدق فيه. لهذا ما أقلها، أقلها..!

لهذا فإن التحدث عن هذا التخلّف نوع من المغامرة بل المخاطرة النفسية والعقلية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية... والمتحدث عنه لا بدّ أن يقاسي كل أنواع المقاساة بقدر إدراكه لما يعني ذلك، لهذا كان شيئاً صعباً أن يوجد هذا المتحدث..

.. شيء يهاب كل المتحدثين الحديث عنه فلا يتحدثون عنه لقسوته ورهبوته أو يعجزون عن تصوّره لقسوة تصوّره وبعد تفاسيره عن التصوّر.. لقسوة تفاسيره..!

ـ شيء من هذا أو كل هذا شيء منه كم هي قسوة المقاساة ومقادير المقاساة التي لا بدّ أن يقاسيها من يجرؤ على المخاطرة بالحديث عنه..!

❀ ❀ ❀

ولكن ما هذا التخلّف الذي ترتجف وتئن وتتوجع وتتفجّع الكلمات والورق والقلم خوفاً ورهبة من الحديث عنه؟

.. إنه التخلّف التكويني أو الذاتي أو الطبيعي أو النوعي أو السلالي.. لقد وجدت الجرأة للنطق بذلك بل وللحديث عنه.. إذن لا بدّ أن توجد الجرأة على كل شيء مهما كانت الرهبة منه والصدمة والفجيعة في مواجهته والقسوة في تفاسيره والعذاب والحرج في عرضه..!

كيف جاء توزيع أو تقسيم هذا التخلّف وكيف جاءت أساليبه وما صيغه أو نماذجه؟

❀ ❀ ❀

الملائكة وكل سكان السماء متخلفون عن الإله هذا التخلّف.. والبشر وكل الكائنات الأخرى متخلفون عن الملائكة وعن جميع سكان السماء هذا التخلف.. وكل الكائنات الحية التي هي دون البشر متخلفة عنهم هذا التخلف.. وكل الكائنات غير الحية متخلفة عن الكائنات الحية هذا التخلف..!

والآلهة التي وجدت متخلفة هذا التخلف عن الآلهة التي يجب أن توجد..!

هذا تقسيم عام للتخلف. وهذا التخلف المرئي والمعلوم والمعايش المساكن المعامل ليس تخلفاً في رؤى الأكثرين أو في رؤى الجميع وتفاسيرهم وإنما هي درجات أرادتها ورتّبتها ونفّذتها الآلهة أو أفرزتها الطبيعة. ولكنه بالحتم تفاوت تحول إلى أقسى وأقصى أنواع التخلف محاسباً بعضه ببعض مهما كانت وقالت الرؤى والتفاسير.

وتعبير تخلف ومعناه لا يكونان إلّا حين محاسبة شيء بشيء ومقارنته به، والوجود يحتم علينا هذه المحاسبة والمقارنة.! وبهذه المحاسبة والمقارنة لا بدّ أن ترى وأن تكون هذه الأنواع التي ذكرت متخلفاً بعضها عن بعض بكل القسوة وهول التباعد.. وهذا التباعد في التخلف كم فيه من إيذاء وإيلام وعدوان وإذلال..

.. ما أقسى وأفظع ما يفعل تفوق الآلهة أو الإله الواحد على الملائكة وعلى كل شيء ـ ما أقسى وأفظع ما يفعل هذا التفوق بالملائكة وبكل شيء.. وتفوق الملائكة على البشر ما أقسى وأفظع ما يفعل بالبشر.. أليس مما يفعله الملائكة بالبشر لأنهم متفوّقون عليهم أن يقبضوا أرواحهم ويزيلوا مدنهم ويتحولوا إلى أجهزة مخابرات ورقابة وجاسوسية عليهم وأن يصنعوا ويعدوا لهم الجحيم ويسوقوهم إليه ويخلدوهم ويلعنوهم فيه ويحرسوهم فيه لئلا يهربوا منه، وأن يوجدوا له أي للجحيم الوقود الدائم لكي يظل أبداً بلا انطفاء وبلا ضعف في قسوة الحرارة.. بلا أية أزمة في الوقود والحرارة..!

وتفوق البشر على الكائنات الأخرى.. الحيوانية والحشرية وغيرها ما أقسى وأفظع ما يفعل بها، ما أقسى وأفظع ما يفعل كل متفوق بالمتخلف عنه..!

أما التقسيم أو التفسير الثاني للتخلف الذي أريد الحديث عنه فهو تخلف سلالة عن سلالة في النوع الواحد أو الجنس الواحد..!

الحيوانات والحشرات والنباتات أنواع متخلف نوع عن نوع هذا التخلف التكويني أو الذاتي أو الطبيعي..

وكل نوع من هذه الأنواع ينقسم إلى سلالات أو إلى أنواع وأصناف متفاوتة تفاوتاً بعيداً في تكوينها الذاتي الطبيعي أي متفاوتة جودة ورداءة ليبعد ويفتتر بعضها متخلفاً عن بعض تخلفاً تكوينياً ذاتياً طبيعياً قاسياً ومؤذياً جداً..!

وهذا واقع مرئي معروف معترف به لا يختلف ولا يخالف فيه من يختلفون ويخالفون في كل شيء، ولا يرى أحد فيه أية إهانة أو إزعاج أو إحراج أو تثبيط لأي شيء أو لأي كائن، ولا أي عدوان على أي شيء أو على أي كائن، ولا أي خروج على أي شيء من المنطق أو من العدل أو من النظام أو من الجمال، ولا أي نقص أو غباء أو عجز أو ظلم أو فوضى أو انحياز أو محاباة أو وقاحة أو دمامة أو بلاهة أو سفاهة في من أراد ذلك وفعله إن كان يوجد من أراده ودبّره وفعله.. بل إنهم ليرون ذلك ويتعلمونه ويدرسونه ويعلنونه على أنه كل العدل والجمال والنظام والمنطق والذكاء والحب وأسخى العطاء والإحسان إلى من فعل به ذلك..! إنهم لا يرون فيما هو حادث تكوينياً أي خطأ أو خطيئة.!

❀ ❀ ❀

.. كل هذا وليست هذه هي القضية التي نريد الحديث عنها، فهذه القضية لا يخيف ولا يزعج أو يرهب أو يحرج الحديث عنها، بل إن الحديث عنها لن يثير أي اهتمام وقد يرى الحديث عنها أقسى تفاسير السذاجة والبله لأنها لا تحتاج إلى التحدث عنها أو إلى الاستماع إليها لبداهتها.!

هل يثير اهتمام أحد أو رفضه أو حرجه أو استنكاره أو حتى تساؤله أو تعجبه أن يقال إن الخيول أو الأبقار أو الدجاج أو الكلاب أو الصقور أو أي نوع من البقول أو الفواكه متفاوتة جودة ورداءة، قوة وضعفاً تفاوتاً تكوينياً ذاتياً طبيعياً؟ لقد ذكرت هذه القضية الهينة السهلة المسلمة والمتفق عليها لأنتقل أو لأسافر منها إلى القضية الصعبة جداً.. الصعب المرهب المخيف المحرج التحدث عنها والتفكير فيها بل والتصوّر لها فكيف إذن الحكم فيها وعليها.. فكيف بعرضها للحوار والمحاسبة والمناقشة؟

إن صعوبة وخطورة هذه القضية آتية من كونها محاورة للإنسان في نفسه، في ذاته أو ضد نفسه وضد ذاته..!

إن صعوبتها ليست في ذاتها.. ليست صعوبة على الفهم أو العقل أو الرؤية أو الاقتناع الفكري ولكنها صعوبة على الذاتية.. على الأنانية.. على انحياز الإنسان وانحياز كل كائن إلى نفسه حتى إلى أخطائه وخطاياه، حتى الإله، أليس منحازاً إلى أخطائه وخطاياه؟ إن الإنسان لا يريد أو لا يستطيع أن يرى أو يفهم أو يعرف ذنوب أو نقائص أو أخطاء أو قبح أو جهل أو وحشية أو ضعف إلهه أو نبيّه أو دينه أو كتابه المقدس أو تاريخه بالعين التي يرى بها آلهة وأنبياء وأديان وسور وآيات وتواريخ الآخرين أو بالفكر الذي يفهمها به..!

ولعل الحقيقة أنه لا يريد لهذا لا يستطيع.. إن الإرادة رفضاً وقبولاً تتحكم في الرؤية والفهم والتفكير وفي المواقف كلها حتى في مواقف الرؤية والعقل والإيمان والاقتناع..

إن كل الاختلاف أو أكثر الاختلاف بين البشر هو اختلاف إرادة وهوى وليس اختلاف رؤية أو عقل أو اقتناع.. أو هو اختلاف في الإرادة تحوّل إلى اختلاف في الرؤية والفكر والاعتقاد والاقتناع والإيمان.. إن الآلهة والمعتقدات والنظريات والأفكار المطرودة من الأسواق المطاردة فيها ليس محتوماً أو حتى محتملاً أن تكون هي الأردأ أو الأبلد كما أن المنتصرة الراسخة القوية فيها أي في الأسواق

منها أي من الآلهة والمعتقدات والنظريات والأفكار ليس محتوماً أو متوقعاً أو منتظراً أن تكون هي الأفضل أو الأذكى أو الأتقى، قد يكون أردؤها أكثرها انتصاراً ومجداً في الأسواق.!

.. ماذا يمكن أن يحدث لو فهم هذه الحقيقة المؤمنون بآلهتهم وأديانهم ومعتقداتهم وآرائهم ومذاهبهم وانتماءاتهم بكل التعصّب والغرور؟ وكيف لم يفهموها ولماذا لم يفهموها؟

وهل من الأفضل أو الأنفع أو الأقوى أو الأتقى أن يفهموها؟ هل فهم الحقيقة يهب الإنسان من الراحة أو من القوة أو من الجمال أو من المنافع والفوائد أكثر مما يهبه الجهل بها؟.

أليس محتوماً ومطلوباً جداً أن تفهم الآلهة أو الإله الحقيقة لو كان فهمها أفضل أو أنفع من جهلها أي جهل الحقيقة؟

لماذا يصر الإله وكل إله على أن يظل أبداً يجهل الحقيقة التي لا يستطيع أحد جهلها حتى ولو أراد جهلها؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد من يجهل الحقيقة مثل الإله بل هل وجد أو يمكن أن يوجد من يرفض فهم الحقيقة أو من يعاقب ويقاوم من يفهمونها أو يحاولون أو يريدون فهمها مثله.. مثل الإله؟

هل أرسل الإله أنبياءه وملائكته وأنزل كتبه وعلّم أديانه إلّا لكي يحجب الحقيقة ويبعد عنها؟ لقد جنّدهم لذلك بكل رغبته وقوته.!

هل حشد ووظّف كل هؤلاء وكل هذه إلّا لكي يحقق هذا الحجب عن كل الحقائق وهذا الإبعاد عن كل الحقائق؟

ألم يقاس أي الإله كل المقاساة وينفق أضخم وأفدح الإنفاق على خلق وإيجاد الجنة والنار الأسطوريتين لكي يعاقب ويخيف ويهدّد بإحداهما من يعرفون الحقيقة أو يحاولون معرفتها أو يؤمنون ويلتزمون بها أو يدعون إليها أو يدافعون عنها، ولكي يثيب بالأخرى ويعد بها من يجيئون نقيض ذلك؟

لقد اضطر إلى تدبير وإيجاد هذا الثواب والعقاب ليبعد عن معرفة الحقيقة..!

إن الإثابة بالجنة والمعاقبة بالنار والوعد والوعيد بذلك والتفكير فيه مبالغة مهينة لكل مقاييس ونماذج وتصوّرات العقل والمنطق.. إنها مبالغة تسخر من كل وقار واتزان وصدق وتصديق..!

إنها مبالغة عربية.. فهل الإله عربي كما أن الموعود والموعد بها عربي؟

إنها لأقسى هجاء لكل أخلاق وتفاسير الصدق والتصديق.!

.. الجنة والنار بكل أوصافها المذكورة ثواب لقوم وعقاب لقوم آخرين..! هل تصدقون؟ إنكم تصدِّقون ولا تصدِّقون..! إنه مهما صدقت معتقداتكم وآراؤكم وانتماءاتكم وصلواتكم فلن تصدق أعضاؤكم ولا أخلاقكم ولا حياتكم..!

إنها لو صدقت عقولكم لما صدقت قلوبكم، ولو صدقت تقواكم لما صدقت ذنوبكم، ولو صدقت أحلامكم ورؤاكم لما صدقت عيونكم، ولو صدقت تمنياتكم وهتافاتكم وتضرعاتكم وتسبيحاتكم لما صدقت دموعكم وأنّاتكم وآهاتكم..

إنه لو صدق كل شيء فيكم لما صدق أي شيء فيكم..!

إنكم مكذبون مهما كنتم مصدقين، وإنكم لكاذبون مهما بدوتم وكنتم صادقين.. مهما أردتم أن تكونوا صادقين.!

إن أقوى الصدق والتصديق هما في كل تفاسيرهما أقوى الكذب والتكذيب.!

.. إن كل تصديقكم في هذه القضية ولهذه القضية لا يجد فيكم ولن يجد فيكم أي شيء يصدقه. إنه تصديق محاصر بكل دلالات التكذيب ومفسّر بكل تفاسير التكذيب ومعامل بكل معاملات وأعمال التكذيب..! إنه لا يوجد تصديق هو كل التكذيب وفيه كل التكذيب مثل تصديق المؤمن لإيمانه بإلهه ودينه ومعتقداته وبما تقول له وبما تعده وتوعده به أي آلهته وأنبياؤه وأديانه ومعتقداته.!

.. إنه لا يوجد مصدق مهان مفجوع مبارز مقاتل بكل أساليب التكذيب وبكل أسلحة التكذيب مثل الإله.. إنه لا يوجد مصدق ليكذب ومكرم ليهان ومعروف ليجهل وممدوح ليهجى ومطاع ليعصى ومذكور لينسى ومحبوب ليكره ومرضي ليرفض مثل الإله أو غير الإله.. إنه لا يوجد ولن يوجد مخدوع منخدع مثله..

إنه أي الإله هو أشهر وأكبر وأقسى وأردأ خادع لنفسه..!

... إنه لا يوجد غير الإله من هو كل الصدق والتصديق والجمال والذكاء والحكمة والرحمة والحب والعبقرية والقوة غائباً وصامتاً ومضرباً عن العمل وعن التدبير والتفكير وعن الأمر والنهي ومن هو كل الكذب والتكذيب والغباء والدمامة والقسوة والسّفه والبغض والضعف والعجز والعدوان والافتضاح حاضراً ومرئياً وفاعلاً وآمراً ناهياً ومفكراً مدبراً مقروءاً مفسّراً محاسباً..!

لهذا كم هم أعداء للإله من يريدون ويحاولون أن يحضروه ويظهروه وينطقوه ويروه ويحاسبوه ويفسّروه ويعاملوه ويحوّلوه إلى خالق فاعل مفكر مدبّر مريد آمر ناهٍ معامل متعامل..!

وكونهم لا يدرون أنهم أعداء ولا يريدون أن يكونوا أعداء لن ينقذهم من كونهم أقسى الأعداء..!

بل إن هؤلاء هم كل أعدائه أي أعداء الإله.. هل يمكن أن يكون له أعداء غير من جعلوه أو رأوه أو حسبوه أو أعلنوه موجوداً.. موجوداً كما هو موجود أو في أية صيغة أخرى؟

إن الإله هو الكائن الذي لن يكون له أعداء غير من أوجدوه والذي لن يكون له أصدقاء غير من نفوه أو طردوه من الوجود أو قتلوه ليكون غير موجود إن كان قد وجد.. إن قتل الإله إن وجد هو أنبل عملية إنقاذ له من الحكم عليه بأن يظل موجوداً..!

إن الإله موجوداً هو أردأ وأخسر وأشقى موظف وإن وظيفته حينئذٍ هي أردأ وأشقى وأخسر وأقبح وظيفة. إنه أي الإله هو العامل المقاسي المرهق المصدوم بلا أي أجر أو تعويض أو أمل أو سرور..! كيف لم يفهم هذا الأذكياء بل كيف لم يفهم هذا أغبى الأغبياء؟ إن أي عامل أو موظف لن يقبل أن يعمل بالشروط والظروف التي يعمل بها الإله.!

.. إنه لو أمكن افتراض قوة سحرية خارقة تسرق من العقلاء كل عقولهم لوجب أن يفترض أن هذه القوة السحرية الخارقة هي التي سحبت وسرقت من البشر كل عقولهم ورؤاهم في رؤيتهم لآلهتهم وفي إيمانهم بها وتقبلهم وتصوّرهم لها..!

إن البشر لم يفقدوا كل عقولهم وذكائهم وبسالتهم وكبريائهم وإبائهم وصدقهم ونظافتهم إلّا في تعاملهم مع الآلهة تعبّداً وتصديقاً وتفكيراً وتفسيراً وإيماناً وتعليماً ودعاية وتأميلاً وانتظاراً وتخوّفاً وامتداحاً وحباً وتعادياً وتخاصماً وتشاتماً وتقاتلاً من أجلها أي الآلهة وباسمها ودفاعاً عنها وطاعة لأوامرها وتشييداً وتخطيطاً للحدود والسدود تقسيماً لأنواع الإيمان ولأنواع المؤمنين بها ولأنواع تفاسيرهم لها..!

إن إيمان البشر بآلهتهم كما آمنوا بها وكما تعاملوا وتخاطبوا وتواجهوا بإيمانهم بها لهو أقسى سباب وإذلال لكل ما أبدعوا من حضارات وعبقريات وفنون واقتحام وافتتاح لكل سدود وحدود وأبواب الطبيعة العاتية المغلقة المحروسة بأقسى الظلمات والمتاهات والأهوال بأغبى وأجهل وأشرس وأطغى الحراس..!

❀ ❀ ❀

إلى أين أيها القلم أنت ذاهب وشارد بل وهارب؟ إنك أيها القلم المعذب لتبدو كالباحث عن آفاق وصحارى بلا حدود لكي تنطلق إليها وفيها كالهارب الشارد.. كالهارب من شيء تهابه وتخافه..!

.. هل هي الرهبة والهيبة من القضية التي يراد الحديث عنها؟

إنها لقضية يفرض بل ويطلب أن ترهبها وتهابها.. إنها قضية تقول.. تريد أن تقول: هل الطبيعة صارمة وشاملة بلا أية محاباة أو استثناءات في جعلها سلالات النوع الواحد من هذه الكائنات متفاوتة جداً لتجعل بعضها متخلفاً محاسباً ببعضها الآخر أم هي قد استثنت الإنسان من ذلك كرماً وشهامة ونبلاً وحباً أم فلتة وغلطة أم أنانية أرادت بها أن تصنع مخلوقاً واحداً هو الإنسان متميزاً ومتفوّقاً حتى أنه لا يحكم بالقوانين التي تحكم بها كل الكائنات وكل شيء لتفرح وتباهي به ولتثبت أنها تستطيع أن تخرج على نفسها وعلى قوانينها ليعظم رضاها عن نفسها أم هي فعلت ذلك بالإنسان وللإنسان لأسباب أخرى والأسباب الأخرى كثيرة، كثيرة أي جعلت كل سلالاته مستوى واحداً ودرجة واحدة بلا أي تفاوت؟

ليت الطبيعة فعلت ذلك لأي سبب من الأسباب أو بلا أي سبب. ليت الطبيعة تسمع وتفهم «ليت» وتستجيب لها.!

ماذا كان محتوماً أن يكون لو كانت الطبيعة تسمع وتستجيب للأماني والآلام؟

.. ولكنها أي الطبيعة لا تملك أي معنى من هذه المعاني الجيدة.. إنها شريرة ونذلة ووقحة وسفيهة بلا حدود أو مقاييس.. إنها لكذلك وأفظع من كل ذلك وإن لم تكنه بالنية أو التدبير أو الإرادة أو التخطيط. وإنها لهذا لا تستحق المدح ولا الذم وإنما تستحق الفهم أي أن تفهم لكي

يستطاع التعامل معها وبها. إنها ليست بريئة ولا مجرمة مهما فعلت من الجرائم وإنها كذلك ليست محسنة أو متفضلة مهما أعطت وأحسنت وتفضلت..!

إنها تعامل وتصحح وتقرأ وتفسّر وتحاسب ولكنها لا تحاكم ولا تعاقب. إنها مهما عوقبت فلن يكون مراداً عقابها.!

.. إن الطبيعة هي الكائن الذي يفعل كل الأخطاء والخطايا وكل النذالات والبلادات والحماقات دون أن تستحق المحاكمة أو العقاب ودون أن يستطاع ذلك، ومثل الطبيعة في ذلك الإله.. كل إله. إنه في اعتقاد المؤمن به هو المدبّر المريد المخطط الفاعل لكل ما في هذا الوجود الفاجع من سوء وقبح وظلام وضلال وفساد دون أن تستطاع أو تجوز محاسبته أو معاقبته أو حتى نقده..

إنه لشر أنواع الهبوط بالإله والهجاء له أن يحمي ويبرأ من المحاسبة والمحاكمة والمعاقبة مهما كانت كل الأخطاء والخطايا أخطاءه وخطاياه.. إن هذه الحماية والتبرئة ليست تكريماً ولا تمجيداً.. إنها كل التحقير والتهوين والذم..!

إن الكائن يعاتب ويحاكم ويحاسب ويعاقب ويحصى عليه ويحدق في أخطائه وخطاياه بقدر ضخامة مسؤولياته وضخامة مسؤولياته بقدر ضخامته هو وضخامة معانيه وأوصافه وأخلاقه ووظائفه.. إن الكائن يحاسب وتضخم عيوبه بقدر ما يحترم ويعظم.!

إن كل الكائنات تحاسب وتحاكم وتعاقب على أخطائها وخطاياها إلّا الطبيعة والإله والمجانين وقد يقال وأيضاً إلّا الحيوانات والحشرات فإنها مثل الطبيعة والإله والمجانين في ذلك..!

كائن لا يحاكم ولا يحاسب وهو الفاعل لكل شيء. هل مثل هذا تحقيراً؟

.. إنه لا يمكن اتهام الطبيعة أو وصفها بأي قدر من الشهامة أو النبل أو البسالة أو الحب أو الحكمة أو الرؤية أو من الأنانية الذكية المرادة المحسوبة المنظمة لكي يقال إنها بشيء من أوصافها هذه قد وهبت الإنسان هذه المزية أو هذا التمييز أي جعلت سلالاته متساوية ولم تجعل أي سلالة متفوقة على الأخرى كما فعلت بجميع الكائنات وكما جعلت الأفراد من السلالة الواحدة متفاوتين بل كما جعلت فرداً واحداً يفعل ما لا يستطيع أن يفعله شعب كامل.. ما أنذل أو ما أنبل هذا التمييز للفرد الواحد.!

وكذلك لا يمكن اتهام الطبيعة بمحاباتها للإنسان أو بانحيازها إليه لتسعده أو تفرحه أو تمجده وتعظمه وتريحه أكثر وأدوم وأصدق بل لقد خصّت الإنسان بأقسى قسوتها ووحشيتها وبأعنف أساليب ترويعها وتشويهها وتعذيبها وتقبيحها وإذلالها...

كيف وهل فعلت الطبيعة ذلك بالإنسان؟ إنها لأعظم مفاجأة لم يقلها أو يعرفها أحد.!

إنها لم تقس على أي كائن كما قست على الإنسان.. لقد وهبته التفوق العلمي والعقلي

والإبداعي والتكويني وكثيراً من أنواع التفوّق ولكنها لم تحمه ولم ترد أن تحميه بذلك من أهواله.. لقد عاقبته على هذا التفوّق أو كأنما أرادت معاقبته على ذلك فزرعت وركبت وصاغت فيه كل المعاني والنماذج والصيغ والغرائز والأوصاف الفادحة في قبحها وتعذيبها وترويعها وتحطيمها وإذلالها وفي تشويهها لكل شيء..!

لقد حكمت عليه حكماً منفذاً بأن يتعذب كل حياته بأقسى وأوقح وأبشع معاني العذاب.. بأن يحقد ويحسد ويغار وينافس ويبغض ويغتاب وينم ويشاتم ويخاصم ويعادي ويخاف ويشك ويتوجس ويتوقع ويتملق وينافق ويذل ويكذب ويركع ويسجد ويصلي ويتضرع ويبكي ذعراً ونفاقاً وضعفاً وضآلة وخسة وانهزاماً واندحاراً..

.. وبأن يكون قاتلاً مقتولاً.. مستعبداً مستعبداً.. خادعاً مخدوعاً ضالاً مضللاً.. كاذباً مكذوباً..

وبأن تكون له قوميات وجنسيات وسلالات وأوطان وألوان ومذاهب متنافسة متباهية متخاصمة متبارزة متقاتلة.. وبأن يكون له تاريخ معتقل ومستعبد وسارق وشاتم ومثقل لحاضره ومستقبله وباصق على حاضره ومستقبله..!

.. وبأن تكون له أديان ومعتقدات ونبوات وألوهيات ورهبانيات ومشيخات وكنائس ومساجد وكعبات مقسمة مفرقة له صانعة ومبيحة ومشرعة له العداوات والحروب والقتل والسبي والنهب والاسترقاق واغتصاب أعراض الجواري وتحويل النساء الحرات إلى إماء مملوكات..!

ولكي تتحول أي أديانه ومعتقداته ونبواته ورهبانياته ومشيخاته وكنائسه ومساجده وكعباته إلى إذلال وتعويق وسباب لكل معانيه وأخلاقه.. لعقله وفكره وقلبه وضميره ولكل رؤاه واتجاهاته وتصرفاته وقراءاته وتفاسيره وحبه وبغضه وموالاته ومعاداته بل ولغاته..!

إنه لا خسران ولا تشويه ولا مقاساة بلا أي ثمن أو تعويض أو شكر مثل خسران وتشويه ومقاساة الإنسان بآلهته وأنبيائه وأديانه ومعتقداته..!

إن كل طغيان قاهر مذل يعاقب الإنسان من خارجه فقط.. أما داخله.. فكره وقلبه وضميره واعتقاده وتصميمه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه فيظل حراً وقد يكون معادياً متربصاً محارباً متآمراً جداً ضد الطغيان القاهر له من خارج ذاته..! وكم هو قبيح وفاجع أن يستثنى من كل الطغيان طغيان الآلهة والأنبياء والأديان والمعتقدات ليكون طغياناً خارجياً وداخلياً.. طغياناً محيطاً محاصراً مدمراً للنفس والذات من داخلها وخارجها.. وقد يكون الطغيان والتسلّط الداخلي هنا أقسى وأكثر ترويعاً وإذلالاً وكبتاً وتحطيماً ومعايشة ومحاصرة وإرهاباً.. ما أقسى وأقبح وأوقح أن يكون الكائن محاسباً ومحاكماً ومراقباً ومسكوناً ومرئياً من داخله.! ما أقبح وأوقح وأنذل وأبذأ هذا الكائن في الداخل..!

.. كل هذا شيء مما أنزلته الطبيعة بابنها أو بمخلوقها الإنسان.. وكان من أفدح وأخطر ما فعلت به وله أن ألهمته وعلّمته ابتكار الأسلحة وصناعتها بدءاً بالعصا والرمح والسكين والخنجر والسيف وانتهاء بما لا نهاية له..

.. فعلت به وله ذلك وكأنها تعاقبه على تفوقه العقلي والعلمي والشعوري والنفسي والإبداعي والعملي..!

فعلت ذلك وكأنها تكفر وتعتذر عن جعلها له متفوقاً في ذلك.. وكأنها تجازيه بالنقيض وتسحب منه ما قد يحسب محاباة له..!.. فعلت بالإنسان ذلك وكأنها تبالغ جداً في انتقامها من نفسها ومن كل شيء ومن كل أحد، وتبالغ في غضبها على نفسها وعلى كل أحد وكل شيء..!

.. وكأنها تريد أن تدلّل على أن تفوق الإنسان العقلي والعلمي والإبداعي ليس إلّا تفوقاً في الجنون والغباء والسفه وفي إرهاب وتدمير وتعذيب نفسه وحياته وكل شيء أو أنه تحول إلى ذلك.. أليس إنتاج الإنسان للأسلحة لكي يقتل ويقاتل بها نفسه هو كل الجنون والغباء والسفه؟

بعد كل هذه التفاسير لبعض ما خصّت به الطبيعة الإنسان يأتي هذا السؤال: هل يحتمل أن تكون أي الطبيعة قد حابته، أي حابت الإنسان أو انحازت إليه ووهبته المزيد والكثير من عواطفها النبيلة الكريمة الرحيمة أم أنها قد فعلت العكس وخصّته بأقسى قسوتها؟

ماذا لو حوسبت حياة الإنسان بحياة أي كائن من الكائنات التي نعدها ضئيلة وحقيرة ومستقذرة؟ أي الحياتين حينئذٍ سترى أفضل؟ المراد بالأفضل الأكثر سعادة وراحة وبراءة وهناءة وصداقة وأمناً وحباً، والأقل خوفاً وقلقاً وشراً وخبثاً وعداوة وعدواناً وعذاباً وتعذيباً وتلوّثاً وتلويثاً وفساداً وإفساداً وذلاً وإذلالاً وعبودية واستعباداً وقبحاً وتقبيحاً..!

أليس الأفضل في ذلك هو الأفضل في حياته.. هو الأفضل حياة؟ إذن أليست كل حياة.. كل حياة كل الكائنات أفضل وأعظم حظوظاً من حياة الإنسان بهذه التفاسير؟

إن قيمة أي تفوق محسوبة بقيمة عطائه، فهل أعطى تفوق الإنسان حياة الإنسان ما جعلها أسعد أو أتقى أو أنظف أو أنبل أو أرحم أو أبسل أو أكثر حرية أو صدقاً أو عدلاً أو شهامة أو حباً من حياة الكائنات المتخلفة جداً؟

إن التفوق لا يعني دائماً الأفضل أو الأنفع أو الأجمل.. فتفوق الوحوش على الحيوانات الجميلة البريئة المسالمة المريحة لا يعني ذلك.. وتفوق المعتدي على المعتدى عليه لا يعني ذلك.. وتفوق الطغيان والطاغية على الحرية والأحرار لن يعني شيئاً من ذلك، وهكذا تفوق المرض على الصحة، والدمامة أو العاهة على الجمال، والخبث والدهاء على البراءة والصدق، والسلاح الفتّاك على الحياة والعمران، والضلال على الهدى، والظلام على النور..

إن الأشياء تساوي نتائجها ولا تساوي تفوّقها أو تخلّفها، قوتها أو ضعفها، صراخها أو صمتها..

إن غرائز الحقد والحسد والبغض واللؤم والخبث والمكر والكيد والشماتة ـ إن هذه الغرائز وحدها لتكفي للهبوط بحياة الإنسان ولتشويهها لتكون أكثر هبوطاً وتشوّهاً من كل حياة ومن أية حياة، وإنها لتكفي لتكون حياة الإنسان أكثر عذاباً من أية حياة، وليكون تكوين الإنسان أسوأ من أي تكوين، وليكون أكثر دمامة من أي دميم...

وإن خياله الذي ابتكر الجحيم الموصوف والمعلن عنه في الأديان ليعذب به ويخلد في عذابه المخالفون في الدين أو العقيدة أو المذهب أو الرأي...

– إن خياله هذا ليهبط بوقاحة وبلادة نفسه وخياله وبوحشيتهما تحت كل وقاحة وبلادة ووحشية.!

.. الإنسان يعد الجحيم الموصوف لنفسه ويوعدها ويهدّدها به وسوف يعذّبها به.. إذن هل يوجد مثله تخلفاً وشقاء؟ هل يوجد أي كائن يقبل أن يكون مثل الإنسان تفوقاً وتخلّفاً.. سعادة وشقاء.. ذكاء وغباء.. جنوناً وعقلاً؟

الإنسان يبتكر الجحيم ليوعد ويهدّد ويعذّب به نفسه. هل يصدق هذا؟

هل يمكن تصوّر قبح أو بلادة أو تخلف أو شقاء يساوي قبح أو بلادة أو تخلف أو شقاء من يخترع ويخلق الجحيم ليوعد ويهدد ويعذب نفسه به أو ليوعد ويهدد ويعذب به كائناً آخر؟ هل يستطاع تصوّر تخلف أو شقاء أو جنون أو غباء مثل تخلف وغباء وجنون وشقاء من يخترع الآلهة ليرهب ويذل ويهين ويشغل بها نفسه وحياته.. ليصغر ويصغر أمامها ساجداً راكعاً باكياً متضرعاً مصلياً صارخاً دون أن تسمع طالباً مطالباً دون أن تهب أو تستجيب، مادحاً ممجداً دون أن تشكر، آناً متأوهاً دون أن ترحم أو تحزن، منتظراً دون أن تحضر أو تظهر أو تخبر بأنها لن تحضر أو تظهر؟ هل عاقب أو أخاف الإنسان نفسه وحياته مثلما عاقبهما وأخافهما باختراعه للآلهة؟

❁ ❁ ❁

.. لماذا الإنسان دون جميع الكائنات هو الذي يبكي ويتأوه ويئن ويقيم المآتم ويضرب خديه ويلطم ويصفع وجهه وقفاه ويحوّل آهاته وأنينه وبكاءه إلى أناشيد وأغنيات وصلوات؟ أليس ذلك لأنه أكثر عذاباً وشقاءً وأهوالاً من جميع الكائنات التي نعرفها بل ولأنه أكثر افتضاحاً وانهياراً وركوعاً؟

.. أما الضحك فقد يكون أقسى أنواع البكاء بل والإبكاء، قد يكون البكاء الذي يبكي. إنه ضحك على النفس ومن النفس وعلى كل شيء ومن كل شيء.. لعله أي الضحك أقسى أساليب السخرية.. السخرية من كل كينونة تعد دميمة وذميمة ومن كل كينونة تعد جميلة وعظيمة..!

إن البكاء والأنين والأحزان والآهات لأصدق وأدوم وأقوى بل وأنقى تعبيرات الإنسان عن نفسه وعن حياته وعن كل الوجود الذي يواجه ويعايش ويصارع.. إن كل الوجود ليس إلّا دموعاً إما سائلة واقعة وإما متخفية متوقعة آتية..!

❁ ❁ ❁

نعم، إن التفوق قد يعني أو لا بدّ أن يعني المزيد من التخلف ومن الشقاء والآلام والضياع والورطات..!

إن أقوى النماذج لذلك الإنسان والإله.. هذا الحكم على الإنسان قد ذكر التدليل عليه في الصفحات الماضية..

أما الإله فماذا صنع له وفعل به تفوقه الشامل الساحق؟

لقد حوله تفوقه إلى أشهر وأكبر معذب مروع مهان مفجوع بما فعل وخلق مريداً مدبراً له وإلى أردأ متخلف في كل أساليبه في التدبير والتفكير والتصميم والاختراع والخيال والخلق.. والدليل على ذلك كل هذا الوجود الذي نرى ونعرف ونواجه ونقاسي ونشكو منه ونتعذب ونفجع به ونقاوم ونعاني بكل العذاب كل قبح وتشوّهات وآثام إنسانه وحشراته وحيواناته وجماداته وكل كينوناته المخطئة الخاطئة المتناقضة الفوضوية المتشاتمة المتصادمة المتناطحة المتقاتلة الباصقة المتقايئة المتضاجعة المتضاربة المتصافعة الباكية الآنة المتأوهة الصارخة المستفرغة لكل ذلك في كل معاني الإله وعليها.. في أذنيه وعينيه وقلبه وعقله وضميره وأخلاقه وثيابه وعرشه وقفاه وجبهته وطلعته وغيبته..

ـ المستفرغة لكل ذلك على كل شيء وفي كل شيء منه أي من الإله.. إن كل هذا الوجود لطمات يتلقاها الإله على خديه بكل الصبر والاستسلام.. إن كل شيء في هذا الوجود ليس إلّا استفراغاً ينصب كله على كل معاني الإله..!

.. إذن هل يوجد مستقبل لكل القبح والفحش والعفن مستفرغ عليه كل الفحش والقبح والعفن مثل الإله أو غير الإله؟

.. إذن هل يوجد فاعل لنفسه وبنفسه كل الشرور والعذاب والغيظ والتحقير والسوء مثل الإله أو غير الإله؟ إذن هل يوجد من يجب له ويطلب له كل التعليم والتصحيح وكل الرثاء والبكاء مثل الإله أو غير الإله؟

إذن هل يوجد أو وجد أو قد يوجد من صنع له أو قد يصنع له تفوقه الساحق كل أنواع وأقسى أنواع التخلف والعذاب والهوان والافتضاح والفواجع مثل الإله أو غير الإله؟

إذن هل وجد أو يوجد من تطالب كل الشهامات والمروءات والرحمة بإنقاذه من نفسه ووجوده ومن أفعاله وأخلاقه وتصرفاته ومواجهاته وورطاته وبأسائه مثل الإله أو غير الإله؟

إذن هل يوجد ما يجب على الحضارات وعلى الإنسانية كلها أن تفعله مثل إنقاذها للإله من أن يكون أو يحسب أو يزعم موجوداً، ومثل إنقاذها لنفسها من اتهامها له بأنه موجود أو بأنه كان موجوداً أو بأنه قد يوجد أو بأنها قد تأذن له بأن يوجد؟

إذن هل يوجد من يجب عليه أن ينقذ نفسه من نفسه أو من يجب عليه أن يناضل بكل قواه لكي يثبت أنه لم يوجد ولن يوجد في أي مكان من هذا الكون مثل الإله أو غير الإله..

بل لكي يثبت براءته من أن يكون قد رأى أو سمع أو عرف شيئاً من هذا الكون أو قرأ عنه أو حدث عن أي شيء منه أو تصوره أو تصور أنه قد يوجد كما وجد وكما أوجده أي متهماً بأنه أوجده كما وجد؟ هذا الكون بكل ما فيه وبدون أن يستشار أراده ودبره وخلقه الإله ثم غرق في إعجابه ورضاه عن نفسه وفي امتداحه لها لذلك.. من قال هذا؟ هل وجد من قاله؟

❁ ❁ ❁

بعد هذا نستطيع أن نقول: إنه لا يوجد أي احتمال لأن تكون الطبيعة قد حابت الإنسان أو انحازت إليه بجعلها له متفوقاً علمياً وعقلياً وفنياً وتكوينياً وفي أشياء أخرى أو بمجيئه كذلك.. بل إنه لو كان ممكناً أن تحاكم الطبيعة على ما فعلت بالإنسان ووجد من يحاكمونها على ذلك لما كفّت كل العقوبات عقوبة لها جزاء قسوتها عليه.. لقد جعلته أكثر من كل الكائنات هموماً وخوفاً وقلقاً وغيظاً وارتياباً وبؤساً وافتضاحاً وعاراً وذلة وهواناً ومشاكل وأزمات وورطات بل وأمراضاً وآلاماً نفسية وعاطفية وفكرية وأخلاقية واجتماعية وعائلية وقومية وتاريخية ودينية وأشياء أخرى كثيرة أليمة جعلته وصاغته أكثر وأعنف تعاسة وبؤساً وعذاباً من كل الكائنات المرئية المعروفة..!

.. كما جعلته أي الطبيعة أكثر وأقوى وأقسى شروراً وآثاماً وطغياناً وعدواناً وفسوقاً وفساداً وظلماً وقسوة ووحشية ونذالة وخبثاً وبغضاً وحقداً وشماتة واستهزاء وفرحاً بآلام ومصائب ومشاكل وأحزان الآخرين وتعرية وعرضاً لعار وفضائح الآخرين وإعلاناً عن ذلك..

ـ أي جعلته أكثر وأقسى وأقوى في ذلك من كل شيء وكل أحد.. إن أي كائن من هذه الكائنات المهجوة لن يقبل أن يستبدل أخلاق الإنسان وتفوّقه وتصرفاته بأخلاقه وتخلّفه وتصرفاته هو كما لن يقبل أن يستبدل شقاء الإنسان وعذابه وهوانه بعذابه وشقائه وهوانه هو، أو أن يستبدل ألوهيات ونبوات وأديان وتدين وتقوى الإنسان بحيوانيته أو حشريته أو جماديته أو نباتيته هو...!

❀ ❀ ❀

أجل.. الطبيعة لم تحاب الإنسان بل لقد قست عليه أقسى قسوة ولكن دون أن تدري أو تريد.. إنها الكائن الذي يصنع كل الآثام دون أن يكون أو يحسب آثماً. وقد ينافسها ويتفوق عليها في ذلك الإله.!

إذن هل حكمت عليه بقوانينها التي لم يضعها أي واضع.. التي لم يشرّعها أي مشرّع ولا أي قانوني والتي لن يرضاها أو يقتنع بها أحد مهما استسلم لها كل أحد..!

أعني قوانينها التي صنعت فروقاً هائلة وقد تكون أليمة بين سلالات النوع الواحد من مخلوقاتها أي من إفرازاتها واستفراغاتها التي سميت بمخلوقاتها؟ ويراد هنا الفروق التكوينية الذاتية الطبيعية التي لا يستطيع أي شيء أن يزيلها.. لا التعليم ولا التربية ولا الظروف ولا الترغيب ولا الترهيب ولا الجنة ولا النار بالوعد والوعيد بهما.. ولا كل الحضارات والمواجهات الصعبة أو السهلة.. الجيدة أو الرديئة.. كما أن هذه كلها لا تستطيع أن تزيل الفروق في الألوان وفي السمات الذاتية أي الجسدية أو الفروق بين أنواع الكائنات كالفروق التي بين الإبل والأغنام أو بين الصقور والغربان أو بين الخيول والبقر أو بين الشعير والقمح، أو بين الرمان والحنظل أو بين الجن والإنس أو بين الملائكة والآلهة أو بين الإله المقروء في الكون والإله المقروء في تعاليم وروايات الأنبياء، أو بين النبي مرئياً والنبي مروياً.. بين النبي في عيون زوجاته والنبي في آذان أتباعه.. بين النبي أو الشيخ أو المعلم في بيته والشيخ والمعلم والنبي فوق المنبر أو في المحراب أو بين الدين وعوداً وعطاء مكتوباً والدين تطبيقاً واختباراً.. بين الدين قراءة

وتفسيراً والدين دراية وتفكيراً.. أو بين العرب مرويين عن التاريخ وفي التاريخ والعرب مرئيين بالعيون وفي الحياة.. أو بين الناس معتقدين والناس متعاملين.. أو بين المؤمنين أدياناً والمؤمنين أعضاء وشهوات.. أو بين الشيطان ملعوناً ومعلماً عصيانه والشيطان مطاعاً معبوداً..

.. بين الشيطان في الأفواه والخطب والشيطان في النفوس والرغبات.. أو بين الإله مدعواً وممجداً والإله معاملاً ومستجيباً.. بين الإله مؤملاً والإله مجرباً... بين الإله في آهات وأنات قتلاه وجرحاه ومرضاه والإله في مدائح شعرائه وموظفي محاريبه ومنابره... بين الإله مكتوباً على جسد ذبابة أو قملة أو بعوضة أو جرثومة والإله مقروءاً في آيات توراته وإنجيله وقرآنه... بين الإله محارباً بدعوات أنصاره والإله محارباً بأسلحة أعدائه.. مقاتلاً بخناجر أوليائه ومقاتلاً بأفتك أسلحة محاربي وخصوم أوليائه.. بين الإله في أفكار وتصوّرات أذكى المجتمعات والإله في أفواه وتصورات أبلد المجتمعات.

❀ ❀ ❀

ويتعاظم تفاوت سلالات النوع أو الجنس الواحد تقدماً وتخلفاً وتتعاظم الفروق بينها أي بين السلالات بقدر ما يتعاظم النوع أو الجنس.. فالتفاوت بين سلالات أعظم الحيوانات أعظم من التفاوت بين سلالات أدناها، كما أن التفاوت بين سلالات أعظم الفواكه والأشجار والبقول والنبات أضخم من التفاوت بين سلالات أضعفها وأقلّها شأناً..

وهكذا الحكم في كل شيء حتى في أنواع الجمادات.. فالتفاوت بين اللؤلؤ أعظم من التفاوت بين الأحجار..

.. الإنسان أرقى الكائنات المعروفة لنا.. أرقاها تكويناً.. إن تفوقه التكويني على كل الكائنات التي عرفناها تفوق يبهر ويرهب التصور والخيال وكل الحسابات والمقارنات حتى ليعجز التفكير بل ويرفض التفكير أن يقتنع بأنه أي الإنسان ولادة هذا الكون أو استفراغه أو بأن مخطط ومريد وخالق الكون هو مخططه ومريده وخالقه أي إن التفكير ليعجز ويرفض أن يقتنع بذلك أو أن يتصوره لو لم يحكم عليه بالاقتناع به وبرؤيته ومواجهته.. إن الفكر الإنساني محكوم عليه بأن يصدق ما لا يستطيع الاقتناع به..

.. الكون الذي ولد أو بصق أو خلق وصاغ الإنسان كيف أمكن أن يلد أو يبصق أو يخلق ويصوغ ما نجد ونرى ونعرف من حشرات وجراثيم وكائنات صغيرة أليمة غائصة في الأوحال والعذاب والهوان، أو الكون الذي فعل وأوجد هذه كيف أمكن أن يفعل ويوجد الإنسان بأسلوب البصق والولادة أو بأي أسلوب آخر، كيف، كيف.. كم هي مفجوعة ومهزومة: كيف، كيف..

.. إن كلمة «كيف» وكذا «لماذا» مهزومتان أمام هذا الكون وأمام كل شيء أبداً، أبداً..

... إنها لو حكمت أو حكمت كلمتا: كيف ولماذا لما وجد أو لما بقي شيء في هذا الوجود ولا في أي وجود.. إنهما أي «كيف» و«لماذا» لم تستشارا ولم تحترما في أية كينونة أو وجود..!

إن كل من يستعملون كلمات لماذا وكيف أو يتعاملون بها لن يكونوا إلّا عابثين أو لاغين أو

هازئين أو جاهلين إن كانوا يتوجهون بأسئلتهم وتساؤلهم إلى منطق الأشياء.. إلى الأشياء من حيث منطق كينونتها وتفاسير كينوناتها وصيغها ومن حيث حوافز وأهداف وجودها وصيغ وجودها بداية ونهاية.. لو أن الإله يخاطب نفسه بشيء من لماذا وكيف وكان جاداً صادقاً فهل كان يمكن أن يفعل أو يخلق شيئاً؟ حتى وجوده هل كان يمكن حينئذٍ أن يوجد وجوده؟

.. والإنسان الذي هو بكل هذا التفوق التكويني على جميع الكائنات الموجودة في وجودنا كيف يمكن أن يكون التفاوت بين سلالته في التقدم والتخلّف أي التكويني؟؟ كل الحسابات تقول إنه تفاوت لا بدّ أن يكون كبيراً ومثيراً وعظيماً وأيضاً فاجعاً مذلاً..!

.. قد يكون في التفاوت بين آحاده إشارة صارخة واخزة جارحة مؤلمة أو مفرحة إلى ضخامة التفاوت الواقع والمتوقع والمنتظر بين سلالاته...!

.. وهنا أي في هذا السؤال عن التفاوت بين سلالات الإنسان تقدماً وتخلّفاً يوجد كل الخطر والحذر والحرج والهيبة والرهبة والاستحياء والصدمات والمقاساة النفسية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والقومية والإنسانية..!

لهذا جاء ويجيء الحديث والتساؤل عن هذه القضية قليلاً وخافتاً متخفياً أي إن جاء..!

ولا بدّ أن نسارع بلا رؤية أو تدبّر أو حذر أو تبصّر إلى الهجوم على من يغامر لو وجد هذا المغامر بالحديث أو بالتساؤل عن هذه القضية وإلى إغراقه بكل التهم الشريرة وإلى إطلاق كل أسلحة التشنيع عليه. إن إطلاق التهم غذاء روحي لأكثر البشر... إنهم يناصرون آلهتهم وأديانهم ومذاهبهم بتضخيم وتوكيد التهم..!

.. إننا نفعل ذلك بكل الغضب والحماس والهوس.. نفعله وكأننا نصلي للإله ونمجّده وندافع عنه ونبرئه من أقسى وأبشع التهم..

كأننا نخاف عليه أي على الإله من أن يكون قد فعل بنا ذلك.. قد فعل بنا أعظم المظالم والقبائح والفضائح والبلادات والإهانات بكل النزق واللؤم والخبث أو بكل الجهل والغباء..!

هل الإنسان يخاف من الإله أم يخاف عليه وأي الخوفين أقوى وأغبى؟

لقد فعل بنا الإله كل شيء رديء وأليم ومهين وفاجع وموجع وفاضح حتى ولو لم يفعل بنا ذلك..!

.. إن الذين يريدون ويحاولون أن يبرئوا الإله من أي ذنب أو قبح أو ظلم أو سوء أو بشاعة أو رذيلة أو خطأ فاحش إنما يريدون ويحاولون أن يقتلوه.. أن ينفوه.. أن يطردوه ويطاردوه.. أن يعلنوا أنه ليس هو صاحب هذا الكون ولا موجده بل وإنه ليس موجوداً فيه أي في الكون.. إنهم يفعلون ذلك بالإله دون أن يدروا.. بل وهم يرفضون أن يدروا..

إنه لا يمكن تبرئة الإله من أي شيء قبيح وآثم ما لم ينف من هذا الوجود.. ما لم ينف من ذاته.. من وجوده.!

إن الإله موجوداً هو كل هذا الوجود. إذن هل مثله أخطاء وخطايا؟

.. لقد كان المفروض ألا يخفى هذا على أحد حتى ولو تجمع فيه كل غباء هذا الكون بل وكل غباء إله هذا الكون.. كل غباء كل إله..!

أليس غباء الإله هو كل الغباء؟ كيف خفي هذا على أحد؟

إن الإنسان لم يفقد كل ذكائه في فهمه ورؤيته وتفسيره لشيء مثلما فقده في فهمه ورؤيته وتفسيره للإله..!

إن غير موجود لم يعتد على كل معاني الإنسان مثلما اعتدى على كل معانيه الإله أي الذي لم يعاقب بالوجود.. بوجوده..!

إن كائناً غير موجود قد اعتدى على الإنسان اعتداء لن يعتديه أي كائن موجود..

.. إن أي كائن لم يعتد على غيره ويعوقه ويشوّهه بمحاولة فهمه وتفسيره وتمجيده ورؤيته له وإجلاسه له فوق كل شيء وداخل كل شيء حتى فوق أقبح وأبشع وأقذر الأشياء وداخلها مثلما اعتدى الإله على الإنسان ومثلما شوّهه وعوقه بمحاولته فهمه وتفسيره وتمجيده ورؤيته وإجلاسه فوق وداخل كل شيء أي بمحاولة الإنسان أن يفعل ذلك بالإله وللإله..!

❀ ❀ ❀

قد يكون عالم اليوم أقسى وأقوى توكيد للفروق التكوينية الهائلة بين سلالات البشر...

عالم اليوم المنقسم إلى متقدمين تقدماً مذهلاً في كل صيغ التقدم ومعانيه.. وإلى متخلفين تخلفاً مخجلاً مذلاً فاجعاً في كل صيغهم وتفاسيرهم..

.. المتقدمون يظلّون يعجزون العيون الرائية المحدقة فيهم عن اللحاق بهم رؤية محلّقين في كل آفاق وسموات التقدم والابتكار والصعود حتى ليخشى ألا تتسع كل السموات والآفات لخطواتهم وتحليقاتهم الدائمة المتعاظمة المتجددة حتى ليخشى أن يكون الإله قد أصبح في فزع دائم مرهق خوفاً على عرشه من قفزاتهم أن تسقطه أو تدمره أو تغير وضعه متخطية صاعدة فوقه أو أن تزيله من الوجود آخذة له في صعودها الكاسح الماسح..!

بل إنه ليخشى ويتوقع أن يكون الإله قد أصبح يقاسي كل عذاب العجز والهيبة والرهبة والخوف والغيرة والخجل أمام تفوّقهم المتخطي لكل حساباته وقدراته وتخطيطاته بل المتخطي لكل تطلعاته ورؤاه وتحديقاته هو وجميع مستشاريه..!

لقد تخلى أو كاد يتخلى عن جميع وظائفه في هذا الكون أمام سيطرتهم عليه.!

... لقد أراد في عمره المديد أي الإله أن يعلن عن عبقرياته في رؤية الغيب الذي سوف يأتي وأن يعرض هذه العبقريات عرضاً عالمياً أبدياً.. فابتكر الأنبياء ليكونوا هم أجهزة إعلامه وإعلانه وعرضه لهذه العبقريات في رؤية الغيب ومعرفته فلم يستطع ولم يستطيعوا أن يتحدثوا عن قفزة واحدة من

قفزات هؤلاء الخالقين أي الآلهة الحقيقيين. لماذا لم يفعلوا؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يروا أو حتى يتصوّروا شيئاً من ذلك أي الإله وأنبياؤه لم يستطيعوا ذلك..!..

هل يوجد أو يحتمل أن يوجد تفسير غير هذا التفسير؟

.. ما أعظم وأغرب النتائج لو أنهم أي الإله وأنبياءه استطاعوا أن يروا أو يتخيلوا ويعرفوا شيئاً من إبداعات هؤلاء الخالقين واستطاعوا أن يتحدثوا وينبئوا عنها وأن ينزلوها ويكتبوها ويعلنوا عنها ويعدوا بانتظارها.. بحدوثها المحتوم. لقد كان ذلك لو حدث مغنياً عن كل الوعد والوعيد والمواعظ والنصائح والتعاليم والإغراء بالرشوة وبالفردوس وعن التهديد بالجحيم من أجل الإيمان بهم أي بالإله وبالقادمين من عنده يتكلمون لغته ويحملون توقيعاته، ويقرؤون نيابة عنه كتابه وتعاليمه، ويذرفون من عيونهم دموعه، ويطلقون من أفواههم أنات وآهات قلبه وضميره وأخلاقه وهزائمه وبؤسه ويأسه وهمومه المتراكمة المتجددة، ويشتمون ويلعنون ويحقرون ويعادون بل ويقتلون ويقاتلون كل من عداهم وعدا عبيدهم بكل السفه والبذاءة والحقد والبغض والقسوة زاعمين أنهم يفعلون ذلك بلسان وغيرة ونخوة وكبرياء وشرف من جاؤوا من عنده..

.. ويقتلون ويقاتلون ويضربون ويخرّبون ويدمّرون ويشوّهون بعضلاته. ما أعظم وأخطر ما قاتلت عضلاته بغير عضلاته..

.. أليس كل هذا بعض ما يفعله ويجيء به الأنبياء؟ أليست هذه هي وظائفهم.. كل وظائفهم؟

لقد كان عجزهم أي الإله والأنبياء عن أن يروا أو يتصوّروا أو يعرفوا شيئاً من ذلك ليتنبأوا ويخبروا غيباً به أقسى وأقوى إضعاف وهزيمة بل وتكذيب وهجاء وفضح لهم ولما جاؤوا به، هل يستطيع المؤمنون بهم أن يدافعوا أو أن يجدوا تفسيراً لذلك؟

هل يمكن أن يكونوا قد عرفوا ذلك أو حتى تصوروه ثم لم يملأوا الدنيا ويملأوا كل الصحائف والمنابر والمحاريب حديثاً وتنبؤات وتبوءات عنه وبه وتباهياً ومبارزة لكل أحد ولكل شيء بنبوءاتهم وتنبؤاتهم هذه، متحدين لكل الزمن والتاريخ والأحداث والقوانين والطبيعة ولكل القوى والآلهة الأخرى أن تكذبها أو أن تأتي بمثلها أو أن تتنبأ بمثلها؟

أليس التحدي بتفوق الذات على كل شيء وكل أحد هو أحد أخلاق الإله الأليمة؟

أو هل يمكن أن يكونوا آلهة وأنبياء أي أوعية لكل معاني الآلهة ثم يعجزوا عن رؤية أو تصور أو معرفة هذا الذي سوف يصبح كل شيء.. كل الوجود وكل من في الوجود؟

لقد جاء الأنبياء من عند الإله معلماً ملقناً لهم ليمدحوه ويصفوه مثل طفل مسرف في غرارته وسذاجته يطالب بجنون وافتضاح بأن يكون كل المزايا والمدائح الخارقة لكل المقاييس والهازئة المهينة الفاضحة الفاجعة لكل العقول.. بأن يعلن ويعرف ويرتّل ويصلي كل الدهور بأنه كل ذلك. وكان من أعظم شهواته كما روى من علم ولقن وأرسل.

ـ كان من أعظم شهواته أن يوصف بأن كل الغيب الذي كان والذي سوف يكون والذي لن

يكون ليس إلّا تحديقة واحدة وقراءة واحدة من تحديقاته وقراءاته.. بل ليس إلّا إغماضة واحدة وأمية واحدة من إغماضاته وأمياته..

إنه لم يكن يفتح عينيه أو يفارق أميته فيقرأ ويكتب ويحسب أو يتصور ويتخيل لكي يرى ويقرأ ويعرف ويعلن كل الغيب.. ما كان وما سوف يكون وما لن يكون.. نعم، كان مجنوناً في رغبته ومطالبته بأن يعرف ويعلن بأنه عالم كل الغيب..!.. كان يباهي بذلك حتى ليفقد وينسى كل الاستحياء والوقار من عنف ونزق مباهاته به، حتى ليكاد ينسى أنه إله..!

.. كان مجد علم الغيب أعظم ما يسحره ويبهره بل ويفضحه..!

كان يتمنى ويريد أن تعلن عن مجده هذا كل الكائنات، الحشرات والجمادات والحيوانات كما جعلها كلها مسبحة مصلية ساجدة ذاكرة قارئة لكتبه المنزّلة على أنبيائه مفسّرة لها عليمة بها معلنة عنها مبيّنة مؤكدة لإعجازها فاعلة لكل ذلك بشتى الأساليب التي يعرفها المؤمنون الرائون لذاته في كل ذات وفي كل شيء حتى في أقبح وأصغر وأفجع الذوات والسامعون لصوته في كل الأصوات حتى في أنكر الأصوات وأكثرها حزناً وبؤساً وذلة وهواناً والمشاهدون القارئون لجماله حتى في الوجوه التي تهاب وترهب أن تقف أمام المرآة بل التي تتمنى أنها لم توجد أية مرآة في العالم وأن تحطم كل مرآة قد وجدت وأن البشر كل البشر لم يتعلموا التعامل بها أي بالمرآة، لعل المرآة أقوى ما يصنع الفرح والرضا وما يصنع الحزن والغيظ..!

لعلها أقسى مكروه وأقوى محبوب. لعلها أقوى صديق وأقوى عدو..!

.. نعم، كان جنون الإله بأن يعلن عن نفسه عالماً بالغيب جنوناً يصنع الأسى والذهول والغضب بل والاشمئزاز..!

وبضغط هذا الجنون عليه واستجابة لرغبات هذه الطفولة الغريرة المتسلطة على كل تصرفاته وعواطفه فكر فاهتدى أو أراد فاهتدى دون أن يتهم بالتفكير.. فاهتدى إلى أن يبتكر أو يخترع الأنبياء والكتب المنزلة للتحدث عن علمه بالغيب.. عما كان بل وعما لم يكن معتقداً أنه قد كان.. وعما سوف يكون بل وعما لن يكون متصوراً أو مروياً له أنه سوف يكون بل وللتحدث عما لن يكون وعما يستحيل أن يكون...

لقد ذهب بكل المباهاة والنزق والسذاجة والرضا والجرأة يتحدث برواية أنبيائه وكتبه المنزلة عنه.. يتحدث عن بدء الكون وبدء كل شيء وعن نهاية الكون ونهاية كل شيء بأساليب قد يزعم أنها مفصلة ودقيقة وذكية جداً..!

قد تحدث عن أصغر وأضأل وأبأس الحشرات والحيوانات والديدان وعن أخلاقها وأوصافها وعن أديانها وتديّنها وتقواها وعن ضمائرها بل وعن لغاتها وعلاقاتها بعضها ببعض وعن نياتها وعواطفها وعن بداياتها ونهاياتها.. وتحدث عن الجن والأبالسة وعن كل مزاياهم ورذائلهم وكيف كانوا وبدؤوا وكيف ينتهون وإلى أين وماذا يعملون وكيف يعملون وكيف يظهرون ويختفون وعن علاقاتهم بالإنسان وبالإله وبكل شيء..

كان حديثه عن الجن والأبالسة نوعاً من الشعر الذي لم يوجد ولن يوجد.!

.. وتحدث عن يأجوج ومأجوج وعن الجنة والنار وعن سكانهما وعن الحور العين وعن الغلمان فيهما أي في الجنة والنار وعن وظائفهم أي الحور والغلمان وعن عددهم وممارساتهم.. كان حديثه عن الغلمان والحور هجاء لكل ما يفترض في الآلهة من كرامة ونظافة وذكاء وحياء وتقوى..!

.. وتحدث عما سوف يأكلون ويشربون ويجدون ويلاقون ويقاسون ويتكلمون ويعملون أي نزلاء الجنة والنار..

كان في حديثه سخياً سخاء لم يوجد مثله منه في الحياة الدنيا أي عن أهل الجنة.

.. وتحدث وتحدث ولا يزال يتحدث وسوف يظل يتحدث عن علمه بالغيب وعن رؤيته له وعن كل شيء حدث أو سوف يحدث أو لن يحدث، كان حديثه عما لن يحدث أقوى وأكثر من حديثه عما سوف يحدث أو قد يحدث..!

.. من قوة إصرار وتسلّط شهوته هذه عليه لم يكتف بنبي واحد أو بعدد قليل من الأنبياء يرسلهم ليتحدثوا عن ذلك بل لقد ظلّ يصطنعهم أفواجاً، أفواجاً ليتحدثوا بأساليب وأصوات ولغات وحماسات مختلفة ومن سموات مختلفة ليظل الحديث عن أمجاده وطغيانه وجبروته ورهبوته وعن إعجابه بنفسه وحبه لها ووقوفه معها ضد كل شيء وفي كل المواقف وفي كل الاختلافات معها في كل شيء وعن علمه لكل الغيب السالف والآتي والذي لن يأتي.

ـ نعم، ليظل الحديث عن كل ذلك مشتعلاً صارخاً في كل الدهور والأماكن..

لقد كان ممكناً ومعقولاً بل ومطلوباً مفيداً أن يبعث نبياً واحداً فقط ليبلغ ويعلم ويقول ويفسّر كل شيء بأساليب ولغات وبيانات وفصاحات تصلح لكل العصور والعقول والأخلاق والناس. أي إن كان محتوماً أن يكون في هذه الأرض أنبياء وأديان..!

إن ذلك يحمي بل ينقذ من تعدد الأديان والنبوات والأنبياء.. عظيم، عظيم ما في هذا من الفوائد والمنافع والحماية من الشرور ومن الفظائع واللعنات والتكبات والعداوات والمشاحنات والأحقاد والبغضاء والحروب التي صنعها ويصنعها تعدد الأديان والأنبياء بل وتعدد الآلهة لأن تعدد الأديان والأنبياء هو في كل تفاسيره ولغاته ونتائجه لن يكون إلّا تعدداً للآلهة، فإله أي دين ونبي غير إله الدين الآخر والنبي الآخر...

وتعدّد الآلهة يعني تعدد الأحقاد والخلافات والعداوات والأسلحة التي يتخاصم ويتعادى ويتلاعن ويتقابل بها الأعداء.

.. ولكن هذه النعمة والحماية أي أن يكون النبي والدين واحداً لكل البشر لم يتما.. إنهما لم يتما لرغبة الإله المسعورة في أن يظل الحديث عنه وعن أمجاده ومزاياه وعن علمه بالغيب وبكل شيء حديثاً يملأ الحياة ويشغلها ويملأ كل شيء ويشغله دائماً، دائماً.. أن يظل حديثاً متجدداً بكل اللغات والأصوات والأساليب... وقد نقل الإله شيئاً من مزاياه هذه إلى الزعامات والقيادات العربية وخصّ

الثورية منها بالنصيب الأكبر أي والأقبح الأفضح من ذلك..! هل علّمهم أم علّموه أم لا معلم ولا معلم؟

.. إن تعدّد الأديان والأنبياء لإحدى النكبات التي حلّت بالإنسان ولا تزال حالّة به بل ولا تزال تتجدد، تتجدد..!

هل كل الأشياء تموت أو يموت أو يضعف أو يذبل الحماس لها أو تنسى إلّا الآلهة والأديان والأنبياء فهي تتجدد؟ وتجددها اليوم رهيب، رهيب.. لقد كانت تتعادى وتتبارز وتتقاتل بالأيدي والرماح والخناجر والسيوف والأفواه المحاصرة في المنابر والمحاريب وفي الكتابة على الألواح..!

فكيف اليوم؟ فكيف حينما تتعادى وتتقاتل بالشموس والنجوم والأقمار والمجرات وبطاقاتها وأشعتها وعيونها ومن فوقها؟ إن هنالك أمرين لا مثيل لهما في إلحاحهما وفي ضخامة الحاجة إليهما: أن يصبح البشر دولة واحدة وأن يكون لهم دين واحد ونبي واحد وإله أوصافه وأخلاقه واحدة فهل يتحقق ذلك؟

❀ ❀ ❀

... فالإله الذي هو بكل هذا الشره إلى أن يعلن عن نفسه وأن يعلن عنه كل شيء بأنه عالم بكل غيب بل وراء لكل غيب كيف لم يتحدث عن أي شيء من هذا الكون الذي حدث وكان يوماً غيباً، غيباً.. عن هذا الكون الذي هزم وأذل وفضح وغير كونه الذي كان يباهي ويعلن أنه لن يتغير وأنه كل الكمال..!

.. لقد تحدث عن القمل والنمل والذباب والضفادع والصراصير والهداهد والغربان والكلاب وعن أصغر وأحقر الكائنات والأشياء فلماذا لم يتحدث عن أي شيء من هذه الحضارة التي من المحتوم أنها اليوم قد أصبحت كل انبهاره وانزعاجه وهمومه واهتمامه وكل التحدي والتعجيز والغيظ والإذلال والهزيمة له بل وكل التهديد لمستقبله ولعرشه ولكل ما قال وعلم وأنزل وأراد.. لموهبته وقدرته على التخطيط والتصميم والإخراج محاسباً ذلك ومقارناً له بقدرتها أي بقدرة هذه الحضارة.. قدرتها التخطيطية والتصميمية وقدرتها على إخراج ما تخطط وتصمم وتخلق..!

.. ما أقسى المقارنة بين أي تخطيط وتخطيط الإله أي من حيث الحوافز والأهداف والنتائج..

إنها مقارنة تصنع الحرج والفزع والاندحار والهجاء للنفس والاستحياء منها ولها. من النفس ولها..!

هل كفّ عن الحديث عنها والإخبار بها غيرة منها وحسداً لها؟ هل تفوقها الذي سوف يكون حكم عليه بالصمت الحزين المهين أي الصمت عنها؟

ماذا نقول من التفاسير المحتملة لصمت الإله عن الإخبار بهذه الحضارة التي كانت سوف تأتي والتي أتت اليوم أي أتت بدايتها لتتحول إلى ذهول وسؤال لكل التصوّرات والعقول: كيف حدث هذا؟ كيف حدث؟ أم أنه أي الإله صمت عن ذلك هذا الصمت المريب الذي يصعب أو يستحيل أن

يوجد له أي جواب ملائم أملاً في أن يطوّر مواهبه وقدراته لكي يكون حينما تأتي أي هذه الحضارة قادراً على منافستها ومماثلتها ومواجهتها أو على التعامل معها وبها وعلى فهمها، هل يستطيع التعامل معها أو الفهم لها؟ هل استطاع ذلك هو أو من يتعاملون معه؟

وإذا كان هذا حسابه في هذا الصمت فهل نجح في حسابه؟ أم أن التفسير لصمته هذا الذي يحتاج إلى كل الخبراء والعباقرة والمفسّرين لكي يقاسوا في محاولة تفسيره.

ـ نعم، أم أن التفسير لذلك أنه كان في حسابه مع نفسه قد قرّر وصمّم وأمل أن يمنع حدوثها أي حدوث هذه الحضارة بكل قواه وقوى أعوانه فاقتنع أنها لن تأتي لهذا لم يتحدث عنها؟

كيف لم يمنع مجيئها؟ أعجز أم كسل واسترخاء؟

إنها أقوى وأذكى خصومه وأعدائه ومنافسيه..!

لن نحتاج إلى استعارة ذكاء لكي ندرك أن وجود هذه الحضارة بطاقاتها وقيمها العلمية والعقلية والنفسية والأخلاقية وبإبداعاتها وعطاياها المادية والفنية والفكرية والتحررية ليس مما يرضي الإله أو يريحه بل إن ذلك ليصنع له كل الإزعاج والفزع والخطر والإذلال والتهديد بكل ما يخاف منه..!

هل كان يريد إسقاط نفسه وعرشه بها أي بهذه الحضارة يأساً وهرباً منهما أي من نفسه وعرشه ومما يقاسي ويواجه ويرى واحتقاراً ورفضاً لما يأخذ ويجد ويقبض ثمناً لتفاهة وعذاب وتكاليف وجوده، لهذا رأى أن تأتي هذه الحضارة لكي تفرغه من وجوده ومن نفسه؟ هل كان أي الإله يريد الانتحار بهذا الأسلوب؟

هل ذلك كذلك؟

❀ ❀ ❀

هل التفسير لصمته هذا أي عن ذكر هذه الحضارة غيباً بألسنة ونبوات أنبيائه أنه صدم بها حينما رآها وعلمها وشاهد ضخامتها وتفوقها فنياً وعلمياً ومنطقياً بفروق ترفض المقارنة على كل ما فعل ويفعل فأصابته الإغماء والغيبوبة أو بالذهول القاسي الذي جعله يصمت عنها أي عن هذه الحضارة فلا يتنبىء بها كما أنبأ ورغب أن ينبيء عن كل غيب عرفه أو رآه أو تصوره وظنّه..؟

.. هل التفسير أنه تحاور طويلاً، طويلاً مع مواهبه البلاغية البيانية متسائلاً هل تستطيع أي مواهبه البيانية البلاغية أن تتحدث عنها أي عن هذه الحضارة حديثاً لا يتحول إلى كل العار لكل حديث وبيان وبلاغة.. حديثاً يستطيع أي قارىء أو سامع له أن يقول إنه حديث متحدث عن هذه الحضارة.. وبعد التساؤل والتشاور والتحاور الملتهب مع مواهبه البلاغية البيانية قالت له بكل الانهزام والذعر: اصمت أيها الإله.. اصمت فلن أستطيع ولن تستطيع، فاستجاب بمسكنة وغيظ وصمت بل وباستسلام حزين، حزين..!؟

هل التفسير لصمت الإله عن الإنباء بهذه الحضارة على ألسنة أنبيائه وأديانه كون الأعداء هم

الذين سوف يخلقونها ويحيونها ويهبونها ويعلمونها ويصدرونها. وتقوى الإله وتديّنه وعروبته وأصالته تحرم عليه وتحميه من أن يعترف بمزايا الأعداء فكيف يتحدث أو يعلن عنها بل تحرم عليه وتحميه من أن يصدق أنه يمكن أن تكون للأعداء أية مزايا.؟

الأعداء لهم أو قد يكون لهم مزايا؟ هل يطيق هذا إله محمد أو محمد أو قوم محمد..؟

أليس دينه ودين نبيه محمد ودين قومه العرب ودين أتباعه المسلمين وتديّنهم يرفضان بكل الحماس والإيمان أن يكون للأعداء أية مزايا ويصران على إنكار مزاياهم مهما كانت ضخامة مزاياهم بل مهما كانت مزاياهم هي كل المزايا؟ حتى إبليس القاهر لهم بمزاياه يصرّون على إنكار مزاياه وعلى إنكار بسالته وحريته.!

⊛ ⊛ ⊛

آه.. ماذا؟ ماذا لو أن اللّه تنبأ في قرآن محمد بكل التفاصيل عن الصعود إلى القمر.. ذاكراً أسماء النازلين فوق القمر ووطنهم وأعمارهم ودينهم واسم المكان الذي انطلقوا منه وأوصاف السفينة التي أقلتهم وحجمها ووزنها وطولها وعرضها وعدد الأيام والساعات التي استغرقتها الرحلة وتاريخ بدايتها ونهايتها وماذا رأوا ووجدوا هناك وكيف عادوا وفي أية حالة عادوا وماذا كانت العواقب الدولية والعلمية.

ـ نعم، ذاكراً كل ذلك وغيره وكل شيء يتصل بهذه الرحلة؟

.. ماذا لو أن ذلك قد حدث وقرأه العالم بعد الرحلة مسجلاً في قرآن محمد بكل التفاصيل بكل الدقة والصراحة..؟

ما الذي كان محتوماً أن يحدث حينئذٍ؟ ما أعظم ما كان محتوماً أن يحدث.. ما أروعه وأقواه.. أية قوة لا يستطاع فهمها أرادت وأصرّت بل وقاتلت لكي لا يحدث ذلك؟

أليس مما لا بدّ أن يحدث حينئذٍ أن يجن كل العالم إيماناً وإعجاباً بمحمد ودينه وقرآنه وإلهه وقومه، وأن يصبح القرآن هو كتاب كل العالم وأن يتحول أي كل العالم إلى أتباع ورعايا وتلاميذ للعرب ولدينهم ونبيّهم وإلى مسلمين مستسلمين لهم، وأن يبايع أي كل العالم... يبايع العرب قادة وخلفاء وزعماء ومعلمين له بلا أي منافس أو منازع، وأن تلغى كل الأديان وكل الكتب المنزلة وكل الأنبياء ليبقى الإسلام وحده والقرآن وحده ونبوة محمد وحدها..

.. أن يتغير العالم وكل شيء متحولاً إلى الأفضل والأزكى والأطهر وأن يعنف ويقوى الالتزام بالتديّن والتقوى والأخلاق البريئة النظيفة القوية طاعة للدين وللقرآن وللنبي الذي أخبر بهذه الرحلة القمرية الكونية ورآها وقرأها ووصفها قبل حدوثها بأربعة عشر قرناً؟

هل يمكن أن يوجد حينئذٍ من لا يؤمن أو من لا يصبح أتقى الأتقياء افتراضاً.

.. هائلة ورائعة وعظيمة هي النتائج لذلك لو أنه قد حدث..! إن من عطاء ذلك أيضاً أن تموت أو تهون وتضعف الشكوك والخلافات والمنازعات والادعاءات والانتماءات المخربة المتخاصمة المتقاتلة المتشاتمة..!

وأيضاً من عطايا ذلك أن يكون فخر العرب بأنفسهم وأمجادهم فخراً حقيقياً بدل أن يظل أبداً فخراً خطابياً شعرياً وأن يصدق ادعاؤهم الدائم بأنهم قد وهبوا الوجود والحياة والإنسان شيئاً جيداً بدل أن يكونوا دائماً موهوبين كل شيء جيد عندهم.. بأنهم قد وهبوا ولو أخباراً صادقة ونبوءات لا أفعالاً...

حتى الأخبار والرؤى والنبوءات الصادقة الذكية ليت العرب وهبوها..!

إذن لماذا لم يحدث ذلك وله كل هذه المزايا والمنافع؟ هل تعمدت ذلك يا إلهي أي ألا يحدث؟ هل أنت متآمر ضد نفسك وضد العرب وضد كل شيء؟ هل أنت أردأ وأقسى متآمر؟ هل حرمت نفسك من هذا المجد وحرمت كل العالم كذلك لعنف رغبتك في أن تحرم العرب ونبي العرب منه؟

حتى أنت يا إلهي تحسد العرب وتناضل لكي تحرمهم من كل مجد؟

أيها العرب، أيها المسلمون، يا كل البشر اسألوا الإله، أغرقوه بالأسئلة.. قولوا له بأسلوب ونيات المحاسبة والمحاكمة: لماذا لم تفعل ذلك.. لماذا؟ لماذا؟

حاسبوه، حاكموه، أغرقوه، أحرقوه بالمساءلة والمحاسبة..!

كان يستطيع أن يصنع أعظم مجد بأقل تكاليف بل بلا أي تكاليف فلم يصنع.. إذن أية محاسبة ومعاقبة تكفي لمحاسبته ومعاقبته؟

ما أقسى ورطات المؤمنين حينما يسألون هذا السؤال أو يفكرون فيه أو يتحاور ببسالة مع إيمانهم.. هذا السؤال يقول: لماذا لم يفعل الإله ذلك؟ لماذا؟ إنه سؤال لا بدّ أن يسأله أو يجب أن يسأله كل شيء وكل أحد..!

إن من لا يسأل هذا السؤال فلا بدّ أن يكون الله أو أحد غيره قد فعل به شيئاً..!

.. ما أكثر وأقوى وأقسى الأسئلة التي لا بدّ أن يسألها الإنسان وكل شيء موجهة إلى الإله وإلى كل شيء فيه وعنه أي لو لم يرد ويخلق الإله كل شيء صامتاً عن الأسئلة..

ما أعجب الصيغة التي صيغ بها الإنسان.. إنه مهما سأل كل الأسئلة عن كل شيء فإنه يظل بعيداً جداً عن الأسئلة التي يجب أن تكون كل الأسئلة.. عن الأسئلة التي يجب أن تكون موجهة إلى من يجب أن توجه إليه كل الأسئلة..

إنه لو سأل أو مهما سأل الحشرة أو الوحش أو المشوّه أو البليد أو الدميم أو الكافر أو الآثم أو الزلزال أو الموت: لماذا جئت أو لماذا جاء هكذا لما سأل الفاعل لذلك كذلك لماذا فعلت كما فعلت ولا لماذا جئت كما جئت ولا لماذا جاء وفعل كما جاء وكما فعل. إنه يحاسب الخطأ والخطيئة ولا يحاسب المخطىء والخاطىء، ويحاسب من فعل الخطأ والخطيئة ولا يحاسب من فعل به الخطأ والخطيئة.. من فعل به فعل الخطأ والخطيئة. إن من فعل الخطأ والخطيئة مفعول به فعل الخطأ والخطيئة.

إن كل مخطىء وخاطىء ليسا إلّا كائنين قد فعل بهما الخطأ والخطيئة..

.. إن الخاطىء والمخطىء مفعول به قبل أن يكون فاعلاً..!

لقد صمتت صمتاً أبدياً رؤى الإنسان وفكره وأخلاقه ومساءلاته عن أعظم القضايا..

صمتت هذا الصمت تبلّداً أو عجزاً أو رهبة أو يأساً من أن تجد الجواب أو التفسير المقنع المرضي أو فراراً من قبح أو ضعف الجواب أو التفسير الذي قد يقال أو لا بدّ أن يقال..! هل الخطأ أو الغباء هو الذي يصنع ويرسخ عقائد الإنسان واقتناعه وصمت تفكيره وضلال رؤاه وموت رؤاه أم الذي يصنع ذلك هربه إلى العجز والراحة وإلى الكسل والاسترخاء والتوقف عن النشاط والتوهّج الفكري والنفسي.. أليس الإيمان محطة استرخاء وكسل وجلوس؟ أليس الإيمان فراراً من الصراع والنضال العقلي والنفسي بل والأخلاقي والإنساني؟ إذن أليس الإيمان عجزاً وتقصيراً وذنباً لا تقوى؟ هل الإنسان يؤمن لأنه يعرف أم لأنه لا يريد أن يعرف ويخاف أن يعرف ويرفض أن يعرف ويرفض المحاولة لأن يعرف وعاجز أن يعرف؟

هل المؤمن أكثر أو أقوى معرفة أو حباً أو إخلاصاً وطاعة للحق والحقيقة من غير المؤمن؟

هل قلب المؤمن أو مخه أو عواطفه أو حواسه أو أي عضو من أعضائه أكبر حجماً أو أذكى أو أتقى تكويناً من غير المؤمن؟ هل المؤمن يرى الكون ونظامه أو فوضاه أو جماله أو دمامته أو منطقه أو عبثه أذكى أو أقوى مما يراه غير المؤمن؟ هل المؤمن أكثر إنسانية في أي معنى من معانيه أكثر من غير المؤمن؟ إذن لماذا جاء مؤمناً ولم يجىء مثيله مؤمناً؟

هل للمؤمن علاقات سرية بالإله ليس لغير المؤمن شيء منها أو مثلها؟ هل بينهما صفقة توجب أقوى العلاقات؟

هل المؤمن مؤمن لأنه مؤمن أم لأنه غير مؤمن؟ هل المؤمن أذكى أو أتقى أو أصدق إيماناً من أقوى، وأكثر الناس رفضاً وإنكاراً للإيمان؟ هل يمكن أن يكون المؤمن كما هو كائن أو أن يحيا كما يحيا أو أن يعامل الناس ويتعامل معهم كما يعاملهم ويتعامل معهم لو كان مؤمناً؟ إذن هل المؤمن مؤمن أم شعار ولغة مؤمن؟ هل المؤمن مؤمن بأعضائه أكثر من غير المؤمن؟

هل المؤمن يرى العاهة أو الآفة أو الحشرة البائسة أو الدمامة في جمال الإله وفي رحمته وحكمته وعبقريته ومحبته أو يسمع الأنة أو الآهة أو الصرخة الفاجعة الموجعة في أذني الإله.

- نعم، هل المؤمن يرى ذلك أو يسمعه غير ما يراه ويسمعه غير المؤمن؟

هل الإله كشف ذاته وألقى بالحجاب عن وجهه ليراه المؤمن في كل ذاته أكثر مما فعل لمن ليس مؤمناً أو دون أن يفعل ذلك لمن ليس مؤمناً؟

هل الإله قد صاغ قلوب المؤمنين وهو في حالة رضا وسرور ومحبة وذكاء وصاغ قلوب غير المؤمنين وهو في حالة غضب وكآبة وبغض وحقد وعجز وبلادة لهذا جاؤوا متناقضين تناقض الحالتين اللتين صاغتاهم؟

هل أراد الإله أن يكون عادلاً ونبيلاً بأساليب وتفاسير ليست معهودة ولا معقولة بل ولا مقبولة فقسّم البشر إلى فريقين: فريق مؤمن ليكونوا له عبيداً ورعايا وإلى فريق غير مؤمن ليكونوا للشيطان خصمه القوي الباسل العنيد الحر عبيداً ورعايا؟ هل أعجب أي الإله ببسالة الشيطان فقرر أن يقسّم البشر بينه وبينه؟ هل وجد أن البشر يسعدون بطاعتهم للشيطان أكثر من سعادتهم بطاعتهم له فوهبهم هذه السعادة؟

... وقد كان سخياً ونبيلاً جداً أي الإله إذ جعل لخصمه وعدوّه الأكبر النصيب الأوفر في هذه القسمة أو التقسيم، بل لقد كاد يجعل كل البشر محسوبين من نصيب الشيطان ومحوّلين إلى نصيبه متنازلاً عن حقوقه فيهم كرماً وشهامة..!

لقد أصبح من الصعب جداً أن يوجد من وجدوا وظلوا رعايا للإله إذا وضعوا تحت الحساب والمحاسبة الدقيقين الحادين.. أما الشيطان فلن يخاصم في رعاياه ولن يشك في ولائهم له..!

وأنت أيها القارىء إن وجدت وأنا من رعايا ونصيب أي الخصمين نحن: الإله أم الشيطان؟

ولكن أيهما أفضل لنا أن نكون هذا أو هذا؟

ما أضعف أملنا في أن نكون من نصيب الإله وأضعف أمل الإله في أن نكون من نصيبه.!

إنه لا يوجد ولن يوجد ولم يوجد من تنازل ويتنازل تنازل قادر كل القدرة لعدوه عن كل النصر في كل معاركه معه ليكون هو أبداً كل المنهزم ويكون عدوه أبداً كل المنتصر.

ـ أجل، إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد من فعل ويفعل ذلك غير الإله..!

إن تنازل الإله عن الإنسان للشيطان تنازل لا يستطيع أي شيء في هذا الوجود أو في غيره أن يعقله أو يقبله أو يغفره.. أتنازل هو أم هزيمة؟ أيهما؟ والتنازل في هذه القضية ليس خسراناً أو هواناً أو عذاباً للمتنازل فقط بل وللمتنازل عنه أكثر.. أي تفسير أو سر وراء تنازل الإله عنا لإبليس؟

هل سحر الشيطان الإله فجعله يوقّع مسحوراً على وثيقة هذا التنازل؟

.. إن القصة أو الحادثة الفاجعة تقرأ وتفهم هكذا: خلقنا اللّه ماناً علينا مباهياً راضياً عن نفسه معلناً بكل الأجهزة واللغات عن مباهاته بنفسه وبرضاه عنها وعما فعل ثم وهبنا للشيطان..!.. وهبنا له بكل السخاء والتقوى..! ثم ذهب بكل التضرع والاستجداء والتوسّل والعجز يطالب باسترداد ما وهب..!

هذا كل معنى القصة أو الحادثة الكبرى..!

هل يوجد عقل أو قلب أو ضمير أو خلق لا يتفجر بل لا يحترق انفجاعاً وغيظاً واشمئزازاً وذعراً من ذلك؟

اقرأوا القصة أو الحادثة يا أصحاب العقول والضمائر النائمة أو الميتة أو التي لم تخلق.. يا أصحاب العقول والضمائر المدفونة في أردأ التوابيت.. اقرأوها.. اقرأوها..!

اقرأوها بانفجاع.. بكل الانفجاع.. إن الإنسان في مستواه المطلوب أو المقبول أو المفترض هو

كل لغات وتفاسير الانفجاع.. هو الذي يقاسي أبداً من الانفجاع بكل معانيه..

والذين لا ينفجعون مهما واجهوا هل يمكن أن يحسبوا بشراً في معانيهم مهما كانت صيغهم؟ هل يمكن أن يغيروا ويطوّروا؟

أليست بداية الإنسان العظيمة المتطورة هي الانفجاع والاندهاش؟ أليس مما يتميز به الإنسان على من دونه موهبة التعجب والانفجاع والاندهاش؟ أليس مما يتفوق به المتقدم المبدع على المتخلف العاجز الانفجاع والاندهاش والتعجب؟

أليس الانفجاع هو بداية الفعل وسلاحه ورؤيته وتفكيره الجديدين؟ إن موهبة الانفجاع هي موهبة الإنسان التي تنطلق منها جميع مواهبه والتي تحرك جميع مواهبه..!

هل الانفجاع أو الاندهاش أو التعجب بالتعليم أو بالاقتداء أو بالمواجهة لما يفعل ذلك؟ ليت ذلك كذلك؟ ليته ممكن أن يحول ذلك إلى مواد دراسية تدرس وتعلم في المدارس والجامعات والمعاهد أو حتى في المساجد والكنائس والنوادي والمجالس.. إنه حينئذٍ أي الانفجاع والاندهاش والتعجب لا بدّ أن يكون أغلى وأعظم وأنفع ما يدرس ويعلم..!

إن فقد الانفجاع لأقسى فجيعة، إن الانفجاع لأتقى معاني التقوى.. إن الإنسان وحده هو الذي يصاب بالانفجاع دون كل الكائنات الأخرى.. حتى الملائكة إنهم لا يصابون بالانفجاع ولهذا يفعلون كل الفظائع والفضائح والقبائح والجرائم التي يفعلون مطيعين للأوامر دون أن يقاسوا من الانزعاج أو الغضب أو الاستنكار ودون أن يرفضوا أو يعصوا أو حتى يحاوروا أو يسائلوا آمرهم ومسخرهم الذي هو أفظع وأقسى وأطغى آمر ومسخر..!

إن الملائكة لو كانوا يقاسون أي قدر من الانفجاع لما وجد مثلهم ثواراً على رئيسهم ومليكهم وقائدهم وآمرهم..!

والإله لو كان يعرف أو يعيش أي قدر من الانفجاع هل كان يمكن أن يخلق أو يواجه أو يرى أو يعيش هذا الوجود كما خلقه وكما يواجهه ويراه ويعايشه؟

هل كان يمكن أن نرى أو نجد حينئذٍ شيئاً من هذه الآثام والآلام والعبث والقبائح والشرور التي تغطي كل هذا الوجود بل هل كان يمكن حينئذٍ أن يوجد هذا الوجود أو شيء منه؟

إن الإله لا يفجع أو ينفجع بشيء أو من أي شيء لهذا وجد هذا الوجود كما وجد وبقي كما وجد..!

إنه لن يرضى عن هذا الوجود وعن مواجهته ورؤيته وقراءته إلّا من يرى ويقرأ ويواجه ويفهم وينفعل بعقل وقلب وعواطف وأخلاق وعيني حجر..

ويجب هنا الاعتذار إلى الحجر..!

والمراد بالانفجاع الغضب والرفض والاستنكار الموجع المزعج بالقلب والعقل والضمير والأخلاق مما يرى أو يسمع أو يعلم.. فظيع، فظيع ما يرى ويسمع ويعلم..!

.. والذين لا يقاسون أقسى المقاساة هذا الغضب والرفض والاستنكار بالعقل والقلب والضمير والأخلاق هل يمكن أن يناضلوا النضال الصادق العنيف المنتصر لمقاومة وإزالة أي شيء رديء أو لإيجاد وتشييد ونصر أي شيء جيد أو جميل؟

أليس كل شيء جيد وجميل هو عطاء الرفض والغضب والاستنكار بالقلب والعقل والضمير والأخلاق وكذا مقاومة وإزالة وهزيمة كل شيء رديء أو ذميم أو دميم هو عطاء ذلك؟

ليت كل طاقات الانفجاع قد تجمعت في الإله. إنه لا فجيعة ولا انفجاع ولا منفجع لو كان الإله يصاب بالانفجاع، أي إنه حينئذٍ لن يخلق أي شيء فاجع.. أي شيء يوجب الانفجاع أو يصنعه أو يوحي به أو يحرّض عليه أو حتى يعلمه..!

إنه لن يوجد أي منفجع لولا وجود ما يفجع، وإنه لن يوجد ما يفجع لولا وجود الإله الذي لا يفجع..!

إن كل انفجاع لن يكون إلّا انفجاعاً بذات الإله أو بسلوكه وأفعاله، أي إن كل ما يصنع الغضب والغيظ والذعر والاستنكار لن يكون إلّا ذات الإله أو فعله...

.. إلّا ذاته مقروءة ومفسّرة ومتصوّرة ومحاسبة منتظرة فاعلة وإلّا فعله مواجهاً معاملاً مرئياً متحوّلاً إلى هذا الوجود أو إلى أي وجود..!.. إنه لا يوجد فاعل لكل الانفجاع دون أن يقاسي من أي انفجاع غير الإله..!

⊛ ⊛ ⊛

هذا بعض ما يقال عن القسم المتفوق من سلالات الإنسان.. ويعني هنا التفوق التكويني الذي تخلق عنه كل أنواع التفوق وصاغ ووهب كل أنواع التفوق..!

والمتفوقون هذا التفوق لا بدّ أن يتفوقوه مهما كانت الزواجر والنواهي والمثبطات الدينية أو التعليمية أو التاريخية أو الاجتماعية التي يواجهون، كما أن تفوقهم هذا أو أي تفوق أي تكويني لن تخلقه أو تضخمه أو تسرع به المحرّضات أو الأوامر أو الوعود الدينية أو التعليمية أو التاريخية أو الاجتماعية حتى ولا فردوس الأنبياء بكل غلمانه وحورياته وبكل ما فيه محولاً إلى وعد توقّعه وتشهد عليه وبه الآلهة والأنبياء والملائكة وكل سكان السماء. إن الفردوس بكل ما فيه لن يستطيع أن يكون ثمناً لتخلق العبقرية أو حتى الذكاء فيمن لم يخلق عبقرياً ولا ذكياً..!

.. إن تفوقهم هذا ينبت أو يتخلق أو يولد فيهم كما يتخلق وينبت ويولد فيهم لون جلودهم وعيونهم وكل سمات وأوصاف أبدانهم بل كما تتخلق وتنبت وتولد فيهم أعضاؤهم مع اختلاف في التعبير والصيغة وفي أشياء أخرى..

إنه مهما استطيع إرهاب التفوق أو طرده أو مطاردته أو مقاتلته أو اتهامه وسبّه أو وضع كل المعوقات والمثبطات والحواجز والسدود أمامه فإنه لن يستطاع قتله أو إضعافه أو منعه من التخلق والمجيء.. المجيء بأشتات الصور والصيغ والأساليب.. إنه لا يمكن قتله أو موته مهما أمكن بل ووقع

قتل المتفوق وموته، كما لا يمكن إيجاده أي إيجاد التفوق أو المتفوق حتى ولو تحولت كل الآلهة إلى شعراء لامتداحه وإلى متضرعين ومصلين طلباً لمجيئه وإلى إعلانات عن قدومه وللترحيب به..

.. إن التفوق وكذا التخلف لا يخلقان وإنما يتخلقان.. لا يطلبان ولكن يتكونان ويجيئان بلا استئذان من الرضا والتقبل أو من الغضب والرفض.. بلا مبالاة بهذا أو هذا وبلا اهتمام بالنفع أو الضر.. يتكونان ويجيئان بلا أي حسابات من أي نوع وبلا أي تفاسير..!

إن التفوق لا يجيء أو يتخلق لأنه نبيل أو محب أو لأنه نافع، وإن التخلّف لا يجيء أو يتخلق لأنه نذل أو عدو أو شرير أو لأنه ضار وإنما يجيئان كما يجيء الجسم جميلاً أو دميماً.. قوياً أو ضعيفاً.. أسود أو أبيض.. بعاهة أو سوياً سليماً أي بلا نيات جيدة ولا نيات خبيثة رديئة.!

حتى التقوى النفسية والسلوكية والأخلاقية إنها موهبة وليست طاعة لدين أو تعليم أو موعظة وكذا الخروج على هذه التقوى. فمجيء الأديان والنبوات والكتب المنزلة لم يفعل ولن يفعل شيئاً في هذه القضية. إنها ليست إلّا عبثاً وخسراناً وتكاليف بلا أجر أو ثمن أو تعويض وصراخاً بلا أي سامع. إن الإنسان لم يعاقب حياته مثلما عاقبها بها أي بالآلهة والأديان والنبوات والكتب المنزلة..!

.. ولهذا فإن من لا يؤمن بأي دين أو تعاليم أو آلهة قد يكون تقياً هذه التقوى النفسية والأخلاقية والسلوكية وقد يكون خارجاً على هذه التقوى، كما أن المؤمن بأقوى الآلهة والأديان والتعاليم وبها كلها أقوى إيمان وكل إيمان قد يكون ملتزماً بهذه التقوى وقد يكون خارجاً عليها مع الاختلاف في التسبب لاختلاف المواهب الإنسانية النفسية والعقلية والأخلاقية والعاطفية لا للاختلاف في قوة الإيمان والدين أو في ضعفهما..!

.. الدين والإيمان ليسا إلّا لغات لأخلاقنا ومواهبنا الإنسانية..!

وقد يكون من لا يؤمن بأي إله أو دين أو نبي تقياً هذه التقوى أقوى وأصدق من المؤمن بكل الآلهة والأديان والأنبياء لأن مواهبه وطاقاته ورؤاه وحساباته الإنسانية أقوى.. قد جاءت أقوى مما لدى المؤمن من ذلك..! قد يكون ذلك كذلك..!

وقد تكون الأسباب معقولة ومفهومة ومجرّبة ومرئية أي التي تجعل غير المؤمن بالآلهة والأديان والأنبياء أقوى مواهب إنسانية من المؤمن لهذا يجيء أقوى منه في التقوى الإنسانية والنفسية والأخلاقية والسلوكية والعاطفية، كما أنه يجيء أقوى منه في إبداع الحياة وفي صياغتها صياغة أقوى وأذكى وأجمل بل وأتقى وأحكم وأرحم..

وأقوى وأكثر علاجاً لأخطاء الإله وخطاياه وتشوّهاته وتشويهاته وإخفاء لها وتخفيفاً من قبحها وعذابها..

كما أنه أي المبدع غير المؤمن قد يكون أكثر نفعاً للإله من المؤمن لأن إبداعاته تتحول إلى مسلاة وإلى فرح وسعادة وإعجاب ومرح له أي للإله وإلى تعويض عن نقصه فيما فعل وخلق وإلى دعاية جيدة له حين يذهب المؤمنون يدعون بكل المباهاة والتصديق أن الله هو الذي علمه ذلك وهداه إليه، بل وحين يذهبون يدعون ويعلمون بكل الجهر والديمومة أن جميع ابتكاراته واكتشافاته قد

سبق إليها وإلى إعلانها في كتابه المنزل أي الإله ويذهبون يحشدون النصوص من الكتاب المنزل الدالة على ذلك ليحوّلوها إلى أبهر وأقهر المعجزات القاهرة الباهرة لكل العصور والشعوب. أليس هذا حادثاً؟

ألم يحوّلوا كل ما اكتشفه وعرفه غير المؤمنين إلى براهين على صدق الإيمان؟

... وكم هي فضيحة وهزيمة للمؤمن ولإيمانه لو أقيمت مقارنة بين التقوى النفسية والعقلية والسلوكية والأخلاقية والإنسانية التي يتعامل ويلتزم بها ويحياها ملحد مبدع عبقري والتي يتعامل ويلتزم بها ويحياها أحد كبار معلمي الدين والإيمان من شيوخ وأحبار ورهبان بل وخلفاء راشدين وغير راشدين؟

إن جميع مبتكري الأديان ودعاتها ومعلميها من أنبياء وشيوخ ورهبان لم يهبوا الحياة أو البشرية من المزايا والمنافع المادية والمعنوية أو الإنسانية بكل تفاسيرها وصيغها شيئاً مما وهبه لها إنسان واحد كل علاقاته بالأديان إما الإهمال التام أو الرفض العنيف أو الحياد البارد..!

ماذا لو قرأنا أو تصورنا الحياة مفترضين أنه لم يأت إليها ويعمل فيها ويحيها المعدودون بلا دين أو الخارجون عليه أو الناسون أو الناقدون له، وأن المؤمنين من أنبياء وشيوخ وأحبار ورهبان ودعاة ووعاظ ومعلمين ومفسرين للدين وعاملين ملتزمين بطقوسه هم كل من جاؤوا إلى الحياة وكل من عملوا فيها وصاغوها وخططوها ونظّموها وعاشوها.. مفترضين أنه لم يأت إليها إلّا اللّه وملائكته وأنبياؤه والمؤمنون بهم الراوون عنهم؟

هل تستطاع حينئذٍ قراءة الحياة أو تصوّرها؟ هل يستطيع الإله حينئذٍ أن يباهي بخلقه لها أو بإعطائنا إياها أو يجرؤ على أن يمن علينا بها وبمعايشتنا لها وفيها أو يفكر في أن يطالبنا بثمن ذلك أو في أن يزعم أنه هو صانعها أو صاحبها أو أنه يعيش فيها أو فوقها أو أنه يواجهها أو يراها أو يعلم بها؟ نحن هنا نفترض الإله كائناً يقبل ويرفض.. يعجب ويشمئز..!

أليس هذا الافتراض مبالغة كاذبة مسرفة في تقدير الإله؟

بل هل يقبل حينئذٍ أن يعبده أو أن يؤمن به من يحيونها أو ينتموا إليه بأي معنى من معاني الانتماء فكيف يقبل أن يتخاطب معهم بالأنبياء أو بالأديان أو بالملائكة أو بالكتب المنزلة أو بكل ذلك؟

وبكل التفاسير كيف أمكن أن يتخاطب الإله مع من خلق راجياً مؤملاً واعظاً واعداً راشياً متملقاً خائفاً ألا يطاع ويحترم؟

❀ ❀ ❀

لقد طال الحديث عن السلالات الإنسانية المتفوقة أي تفوقاً تكوينياً طبيعياً ذاتياً أي إلزامياً لا يستطاع منعه مهما استطيع إرهابه أو تضليله أو معاقبته أو مطاردته أو إخفاؤه أي موقتاً وبأسلوب ما..!

أما السلالات الإنسانية المتخلفة أعني تخلفاً تكوينياً فكل قوانين الطبيعة وأخلاقها ومنطقها وتجاربها ورؤيتها والرؤية لها تحكم بوجودها وبقسوة وبؤس وجودها بل وباتساع وجودها.. إنها تغطي الوجود والتاريخ..!

إن هذه السلالات موجودة وتهين وتشوّه وتعذّب وتحقر بوجودها كل هذا الوجود وإن كان يصعب ويفجع ويحرج ويؤذي جداً تحديدها وتحديد مكانها وقومها..!

إن المتخلفين شتى أنواع التخلف كثيرون بل هم الأكثرون.. ولكن المشكلة أو الحيرة أو السؤال: هل تخلفهم هذا تخلف تكويني ذاتي طبيعي أم تخلف حضاري علمي مكاني زماني وقتي ظرفي يمكن علاجه وتخطيه كما يمكن علاج وتخطي أمية القراءة والكتابة وكما يمكن علاج الجهل بقيادة السيارة والطيارة وباستعمال كل عطايا ووسائل وأدوات الحضارة وألوانها وفنونها وأزيائها وتعبيراتها أي حتى يستطاع التعامل معها وبها..!

إن التخلف التكويني لا بد أن يتحول إلى كل أنواع التخلف وأن يعني كل أنواع التخلف.. التخلف العقلي والعلمي والثقافي والفكري والفني والأدبي والصناعي والحربي والعاطفي والإنساني بل والأخلاقي والديني والاعتقادي واللغوي التعبيري بل والنفسي ولكن ليس محتوماً أن تعني كل هذه الأنواع من التخلف ـ ليس محتوماً أن تعني التخلف التكويني الذاتي الطبيعي الذي لا يستطاع الخلاص منه.

قد تكون فترة خمول أو خمود أو غيبوبة أو إعياء أو ضياع أو انهيار أو انقهار أو نهاية رحلة أليمة محطمة أو نهاية تاريخ كئيب ذليل مدمر جبان مرسخ كل أسباب ومعاني الجهل والتخلف تحتاج الإفاقة والخلاص منه والتخطي له إلى طاقات طاقات.. وصدمات، صدمات..

أليس الاستيقاظ وفتح العينين من النوم وبعد النوم أحياناً يكون بطيئاً ثقيلاً وأحياناً خفيفاً سريعاً؟

أليس استرداد الصحة يأتي أحياناً قفزاً وأحياناً حبواً؟ أليست عبقرية الفرد تعلن عن نفسها في سن العشرين أحياناً وأحياناً في سن متأخرة عن ذلك؟

أليس كل شيء يجيء سريعاً وأحياناً وأحياناً يجيء بطيئاً؟

إذن كيف يعرف إن كان ينبغي أن يعرف نوع التخلف الذي تقاسي منه أكثر المجتمعات والشعوب والذي يقاسي هو من أكثر المجتمعات والشعوب لأن التخلف يقاسي من المتخلفين كما يقاسي منه المتخلفون.

ـ نعم، كيف يعرف إن كان من الجائز البحث عن معرفته أهو تخلف ثابت أم تخلف زائل؟

يعرف أي يظهر بالتجربة والتحدي وبالمواجهات الصعبة المنافسة والمتحدية والمخيفة والمعلمة المبارزة المحاورة بكل الأساليب المهينة والمجاملة.. الصديقة والعدوة.. المتخلفون تخلفاً زائلاً أي غير تكويني.. غير ذاتي طبيعي يتغيرون بل يقفزون أمام هذه المواجهات على كل المستويات صيغاً وتفاسير.. أزياء وذوات.. نصوصاً ومعاني...!

إن طاقاتهم المحبوسة الصامتة تتفجر وتنطلق بكل الانبهار والحماس والقوة..!

أما المتخلفون تكوينياً طبيعياً ذاتياً فلن تصنع هذه المواجهات ولا أية مواجهات أخرى.. لن تصنع منهم أو فيهم أي شيء جيد، ولن يستطيع التاريخ ولا التجارب أو الهزائم أو المهانات ولا كل

ألوان العذاب والمشاكل والورطات والمقاساة والتهديدات والتحديات أن تصنع منهم أو فيهم هذا الشيء الجيد..

إن الحضارة حينئذٍ قد تصنع ثيابهم ولكنها لن تصنع ذواتهم، أو تصنع لغاتهم دون أن تصنع معانيهم، أو تصنع بيوتهم ووسائل مواصلاتهم دون أن تصنع سكانها والمسافرين عليها، أو تصنع مدارسهم وجامعاتهم دون أن تصنع أساتذتها وطلابها، أو تصنع نظاراتهم دون أن تصنع عيونهم أو رؤية عيونهم، أو تعلمهم القراءة دون أن تعلمهم كيف يقرؤون ولا ماذا يقرؤون، أو تعلمهم أن يخالفوا ويخاصموا ويبارزوا ويتحدوا ويحاربوا ولكنها لا تعلمهم كيف يفعلون ذلك، أو تضع في أيديهم أقوى وأذكى وأحدث الأسلحة دون أن تضع في قلوبهم وعقولهم الجرأة أو الذكاء أو في أيديهم القوة، أو تعلمهم كيف يستهلكون دون أن تستطيع تعليمهم كيف ينتجون، أو تلقنهم الشعارات دون أن تريد أو تستطيع تلقينهم الالتزام بها أو الاحترام أو الفهم لها، أو تعلمهم التكلم بلغات الآخرين دون أن تعلمهم العمل أو التفكير بمواهبهم أو عضلاتهم أو عقولهم، أو تهبهم أماكن وأصواتاً في المنظمات الدولية دون أن تهبهم مكانة أو منطقاً أو احتراماً فيها، أو تحولهم إلى أرقام وتقرؤهم أرقاماً في تعداد العالم ولكنها لا تجد فيهم معنى الأرقام ولا تحولهم إلى معناها ولا تطالبهم بمعناها ولا تنتظر منهم معناها ولا تريد فيهم أو منهم معناها ولا تفسرهم أو تحاسبهم بمعناها..!

إنها تفعل بهم ولهم دون أن تفعلهم..!

بل إن المتخلفين هذا التخلف لا بدّ أن يزدادوا تخلفاً إذا واجهوا حضارات وإنجازات المتفوقين وفرض عليهم التعامل معها وبها ومعايشتها وفهمها والأخذ بها، أو إن تخلفهم حينئذٍ ينكشف ويفتضح ويقاسي ويرهق دون أن يزداد لأنه لا يقبل الازدياد كما لا يقبل النقصان..!

ولكن هل يوجد شيء لا يقبل الزيادة والنقصان؟

إن المتخلف بقدر تخلفه أي تخلفه التكويني يكون عجزه وافتضاحه وهزائمه وورطاته إذا واجه المتفوق وواجه إبداعاته وقدراته وفرض عليه التعامل بها ومعها وفرضت عليه منافستها ومعايشتها بل أو محاكاتها وتقليدها أو حتى مخاطبتها..!

إنها لأقسى مواجهة مواجهة المتخلف تكوينياً للمتفوق تكوينياً..!

إنه لاحتمال أن يزداد المتخلف هذا التخلف بمواجهته لحضارة المتفوق تخلفاً وليس فقط يظهر ويفتضح تخلفه، كما أنه احتمال أن يزداد جهلاً وبلادة وتخبطاً وتورطاً ووقوعاً في الأخطاء والحماقات والقبائح والفضائح بل وأن يزداد عجزاً نفسياً وعقلياً وأخلاقياً وإنسانياً..!

لأنها أي حضارة المتفوق تحمله وتلقي عليه ما لا يستطيع أن يحمل، وتعلمه ما لا يستطيع أن يتعلم، وتلقنه ما لا يستطيع أن يفهم، وتريه ما لا يستطيع أن يرى، وتخاطبه بلغات لا يستطيع إتقانها، وتضعه في طرق لا يستطيع ولا يعرف السير فيها، وتفرض عليه مواجهات ومواقف وأخلاقاً وكينونات لا يستطيع التكافؤ معها، وتلقي به إلى وجود أو إلى كوكب ليس في قدرته أو إرادته أو معرفته أن يعيش فيه أو أن يعايش سكانه بأي قدر من التفاهم أو التلاؤم أو التكافؤ أو التقارب أو التعاون أو

التواد، وتعير وتحقر بكل الأساليب تاريخه وتاريخ كل آبائه بل وتاريخ كل آلهته وأنبيائه..

.. إنها تفعل، تفعل به وتظل أبداً تفعل به.!

وكل هذا لا بدّ أن يتحول إلى أقسى إرهاق وإرهاب وإذلال وتحطيم لكل معانيه. إنها تفرض عليه أن يكون أكبر من حجمه.!

إذن أليس محتوماً أو محتملاً جداً أن يزداد تخلفه تخلفاً كما هو محتوم جداً أن يزداد أي تخلفه افتضاحاً وانكشافاً وإعلاناً عن نفسه؟

إن هذا يعني حتماً أن فرض حضارة المتفوق على المتخلف ومواجهته لها لا بدّ أن تسيء إليه وتشوّهه وتضعفه وتعذبه مهما كانت ضخامة وشهامة عطاياها ومساعداتها ومنافعها وإنقاذها له. إنها هبوط به وخسران له مهما كان صعودها به وأرباحه منها.. إنها لعذاب وتعذيب وإهانة له مهما وهبته من الاستمتاع والأمجاد المكتوبة والمخطوب بها والمعلنة والمسجلة والمعترف بها دولياً..!

إنها تهبه ما لا يستطيع أن يفهم أو يتحمل أو يقبل أو يتكافأ معه.!

وهذا لا بدّ أن يعني أن المسافة بين تفوق المتفوق وتخلف المتخلف أي التكويني الطبيعي الذاتي السلالي لا بدّ أن تزداد اتساعاً وقسوة وإيلاماً بمرور الأيام وبالمواجهة بين الفريقين أي النوعين.. بالمواجهة المستمرة..

إن المتفوق يقفز ويظل يقفز في تفوقه وفي تنوع وتجدد تفوقه، أما المتخلف أي تخلف كينونة وذات وسلالة فيظل في طوره الواحد المتخلف أو يزداد هبوطاً وإعياء وتنوعاً وتجدداً وتجديداً في تخلفه لمواجهاته الصعبة المرهقة المهينة المحيرة المحرجة أي مواجهاته لحضارة المتفوق التي تبهر وتعجز وترهب العيون والعقول والخيال والحسابات لو حاولت متابعتها أو تفسيرها أو رؤيتها أو حتى قراءتها أو معايشتها فكيف التكافؤ أو السير معها.. فكيف التنبؤ بها..؟

لقد عجز كل الأنبياء ومعهم كل آلهتهم وملائكتهم عن الإنباء بها لأنهم عجزوا عن تخيلها وعن رؤيتها..

ماذا لو أنهم استطاعوا تخيلها أو حتى الاحتلام بها؟

ماذا لو رأوها بعيون خيالهم المستيقظ أو بعيون أحلامهم النائمة؟

أليس محتوماً حينئذٍ أن يحولوا كل نبواتهم وكل نصوص كتبهم المنزلة وكل أوصافهم المثنية على آلهتهم إلى أحاديث عنها؟

أليس محتوماً ألا يجدوا حينئذٍ شيئاً يتحدثون عنه غيرها؟

.. إن عيون الآلهة والملائكة والأنبياء عجزت أن ترى أو عجزت ورهبت أن ترى هذه الحضارة لتتنبأ بها.. هذه العيون التي استطاعت وجرؤت أن ترى الغلمان والحوريات على السرر في الفردوس وفي أيديهم الكؤوس الملأى يصبتونها في أفواه الأنبياء والصديقين المتثائبين النائمين على الأرائك المغزولة المنسوجة من شعور آباط وأجفان جواري الفردوس وغلمانه.. النائمين على السرر المختنقة بازدحام وتنافس الغلمان والجواري عليها..!

لقد تخيلوا ورأوا ما لن يكون وما في كينونته كل العار والفحش والقبح لو كان وتحدثوا عن ذلك بكل الابتهاج والمباهاة وعجزوا عن رؤية وتخيل ما لا بدّ أن يكون أي ما كان أي ما أصبح كائناً لهذا صمتوا عنه هذا الصمت الفاضح المكذب لما يزعمون لأنفسهم من نبوات وتنبؤات وعلم ورؤية للغيب بل ومن خيال أو أحلام جيدة أو ذكية..

إن عيون خيالهم ونبوءاتهم وعقولهم ترى ما لا يرى وما لن يرى وتعجز وتعمى عن رؤية ما يرى وما لا بد أن يرى.! إنه لا خيال خارج على كل معاني الخيال وشاتم مفسد مشوّه مكذب لكل خيال مثل خيال الآلهة والأنبياء وخيال المتحدثين عن الآلهة والأنبياء..!

إن خيال الآلهة والأنبياء وحديثهم عنه بأساليب التنبؤات والنبوءات قد أفسد وشوّه وقبح خيال المتحدثين عنهم والمفسرين لهم والمؤمنين بهم..!

ليتهم أي الآلهة والأنبياء تعلموا الخيال والتنبؤ به من أعدائهم.. إن خيالهم والتنبؤ به في كتبهم المنزلة والمحفوظة والمروية والمعلمة قد أصبح ثقلاً ووزراً على الحياة والتاريخ وعلى المؤمنين بهم المصدقين لهم. لقد أصبح علماً يحفظ ويعلم ويدرس ويفسر وتوظف له الوظائف والموظفون وينفق عليه أسخى وأقسى الإنفاق وتفسر به كل علوم ومعارف البشر واكتشافاتهم وابتكاراتهم العلمية والفكرية والأخلاقية والفنية بل والصناعية بل والصعود إلى القمر وإلى الكون الأعلى.. لقد أصبح أي خيال الآلهة والأنبياء ونبوءاتهم المنزلة كل العلوم والعقول والتنبؤات الصادقة..! إن كل ما يحدث من معارف وعلوم واكتشافات وابتكارات وإنجازات.

- نعم، إن كل ما يحدث من ذلك يصبح موجوداً أي بعد أن يحدث.. موجوداً في خيال ونبوءات الآلهة والأنبياء المنزلة المكتوبة المحفوظة أي يصبح موجوداً فيها بعد أن يوجد لا قبل ذلك، أما قبل أن يوجد فلم يجده ولن يجد أحد فيها..!

إن نبوءات الآلهة والأنبياء لا توجد ولا يجدها أو يراها المؤمنون بهم المفسرون لهم إلّا بعد أن يوجدها ويعلنها أعداؤهم.. أعني نبوءاتهم العلمية الكشفية الكونية..! لقد أصبح العلميون المبتكرون الكشفيون غير المؤمنين هم أنبياء الآلهة وأنبياء الأنبياء ونبوات النبوات وأصبحوا المفسرين علمياً وكشفياً وغيبياً للكتب المنزلة المقدسة أي بعلومهم واكتشافاتهم واختراعاتهم وتنبؤاتهم..!

❀ ❀ ❀

والمتفوقون هم الذين يدفعون ثمن وتكاليف تخلف المتخلفين.. هم الذين يزرعون لهم أرضهم، ويشيدون لهم مصانعهم ويصنعون لهم أسلحتهم، ويلجمون ويوجهون ويعقلون ويضبطون لهم أنهارهم، ويكتشفون ويستخرجون ويثمنون لهم ثروات أرضهم الطبيعية، ويصنعون لهم الصحة حامين لهم من الأمراض والأوبئة، ويفرضون لهم وعليهم السلام والاستقرار والاستقلال حامين بعضهم من بعض، ويعالجونهم من أقسى وأقدم القحط والمجاعات المولودة مع ولادة تاريخهم وأربابهم، ويستمعون إلى حماقاتهم وبذاءاتهم وتهديداتهم بكل الصبر والتسامح والوقار، وقد يخسرون أحياناً شيئاً من دماء

أبنائهم من أجل ذلك، ويتحملون خلافاتهم، ويحرسونهم من نتائجها دافعين في ذلك ومن أجله أغلى الأثمان العقلية والنفسية والأخلاقية والوطنية والسياسية الدولية، ويعذبون ويهينون عقولهم وذكاءهم ويروضونها لكي تستطيع التعامل مع عقولهم أي عقول المتخلفين ومع غبائهم وجهالاتهم، ويجعلون أنفسهم مسؤولين عن مجاعات وأمراض ومشاكل المتخلفين الطارئة أو الموسمية أو الدائمة وعن أميتهم وجاهليتهم..!

وقد يتخاصمون ويتعادون ويتقاتلون أي المتفوقون بعضهم ضد بعض دفاعاً عن المتخلفين وحماية لهم..!

نعم، إن المتفوقين يفعلون كل ذلك للمتخلفين وبهم ويفعلون لهم وبهم أشياء أخرى ولا فائدة هنا من البحث عن النيات فالأعمال وكل الأشياء بنتائجها لا بنياتها..

إن كل شيء لا يساوي إلّا نتائجه لا نياته حتى الآلهة لا تساوي إلّا ذلك.!

وتعامل المتفوقين مع أرض المتخلفين وفيها قد يكون هو الثمن الذي يتقاضونه تعويضاً عن خسائرهم وفواجعهم وآلامهم وضياع جهودهم بتعاملهم مع المتخلفين وبمساكنتهم ومواطنتهم لهم في هذا الكوكب وتعويضاً عن عطاياهم ومساعداتهم لهم..!

وتعاملهم مع أرض المتخلفين وبها وعملهم فيها ليس أخذاً منها ولا من أهلها بل عطاء لها ولهم أي ولأهلها. إنه لا يصنع مجد أرض المتخلفين أو يكتشف أسرارها إلّا المتفوقون.!

إن أهلها المتخلفين لا يعرفون ما فيها من طاقات وثروات واحتمالات وما فيها من ممرات وطرق ومراسٍ وموانيء كونية، ولو عرفوا لما فعلوا ولا قدروا. والمتفوقون هم الذين يعرفون ويقدرون ويفعلون..!

والمتخلفون يزعمون ويعتقدون أن المتفوقين يأخذون ويربحون منهم بل وإنهم يؤخرونهم ويفقرونهم ويمرضونهم ويزرعون فيهم الجهل والبلادة والفساد وكل المعاني الشريرة الرديئة القبيحة ويصدونهم ويعوقونهم عن التقدم والقوة والرخاء والفهم والعلم والانتصار بل وعن التديّن والإيمان وعن الطهارة النفسية والعقلية والأخلاقية والإنسانية..!

وقد يزعمون يوماً أنهم هم الذين صاغوهم سوداً إن كانوا سود الجلود.!

وهذا الاعتقاد والزعم هما أحد أساليب المتخلفين في التعبير القبيح عن تخلفهم..!

والانشقاق والانقسام الدولي.. الكلي والجزئي الذي حوّل العالم المتفوق أو المتقدم إلى كتل ودول متعادية أو متنافسة بكل الحماس والتلهّف جاء نافعاً وواهباً بكل السخاء للمتخلفين.. لقد ذهبت بكل جنون التنافس هذه الكتل والدول تبحث بكل الهوان والمسكنة والتضرّع عن صداقة وحب ورضا وولاء هؤلاء المتخلفين مؤملة ومطالبة أن يتفضلوا ويمنوا عليها بتقبل كل ما يريدون ويحتاجون إليه لتقدمه إليهم شاكرة راضية سعيدة فرحة معترفة بالتفضل عليها.. التفضل الذي لن تنساه أو تنسى الإعلان عنه والاعتراف به واعدة بالمزيد.. المزيد..!

لقد تحولت هذه المنافسة على المتخلفين إلى كل السخرية وأقساها من المتفوقين كتلاً ودولاً.. زعماء وشعوباً.. وتحول المتخلفون إلى متدللين مذلين وموجعين وفاجعين بتدللهم ودلالهم.. لقد أصبحوا غواية وإغراء أكثر من غواية وإغراء الجنس المتقاتل المتنافس عليه بكل الجنون.

.. هل هذا يعني أن الإنسان أو أن الكائن كل كائن يهبط ويخاف من الهبوط والسقوط وينتظر له ذلك بقدر ما يصعد، وأنه يهون ويذل ويركع ويتضرّع ويضعف ويتملّق وينافق بقدر ما يقوى ويعز ويضخم ويتفوق وينتصر، وأنه يصغر ويخاف ويطيع بقدر ما يكبر ويخيف ويطاع كما أنه يتصادم ويتعرض للتصادم بقدر ما يتعاظم حجم ذاته، وكما أنه يخسر ويفقد إما حياً وإما ميتاً بقدر ما يربح ويجد ويملك، وكما أن ضخامة الفيل لم تهبه من الأمان أو من المزايا الأخرى أكثر مما وهبت النملة أو الذرة أو الأرنب أو الفأرة ضآلتها من ذلك، وكما أن تفوق الإله الساحق على إبليس لم يهبه من المجد أو السلطان أو الطاعة له أو من الانتصارات أو من الفرح أو السعادة أو من الأتباع والرعايا المخلصين أكثر مما وهب أو مثلما وهب إبليس تخلفه من ذلك؟

ما أخيب حظوظ الإله مقارنة بحظوظ إبليس في تقسيم البشر والحياة بينهما، إذن هل يربح المتفوق من تفوقه أكثر وأعظم مما يربح المتخلف من تخلفه أو بتخلفه أو مع تخلفه أو هل يخسر هذا أكثر أو أقسى مما يخسر هذا أي من وجوده؟

إذن هل يوجد من يربح من وجوده مهما كان وجوده؟ حتى الآلهة هل يمكن أن يوجد من يجرؤ على الافتراض بأنها رابحة من وجودها أو بأنها قد تربح من وجودها أو بأنه قد يوجد خاسر من وجوده مثل خسرانها من وجودها؟

إن كل شيء يجب أن يحزن للآلهة لضخامة خسرانها بوجودها.!

هل يجرؤ على الافتراض بأن الشمس تربح من وجودها أكثر أو أفضل مما تربح أية شمعة أو مما يربح أصغر نجم حتى ولو افترضت الشمس كائناً حياً يريد الربح ويعرفه ويفسره؟ هل يربح الكون من وجوده لو جاء أكبر مما جاء؟

هل في وجود الموجود ربح له كيفما جاء؟

لهذا هل يمكن أن يريد أو يقبل أن يوجد أي موجود لو خيّر قبل أن يوجد بين أن يوجد وألا يوجد؟ لهذا لم يعط أي موجود هذا التخيّر والاختيار لهذا وجد الوجود؟ حتى الآلهة أنها لم تخيّر هذا التخيير ولم تعط هذا الاختيار..!

وكم يجب الاستيقان أو الافتراض بأنه لا حزن ولا غضب كحزن الآلهة وغضبها لأنها قد حرمت من هذا التخيير والاختيار.. الآلهة لم تختر وجودها.. ما أقبح وأفظع هذا..!

.. وكم يسيء إليها أي إلى الآلهة ويطعن في كرامتها وشرفها وذكائها وكبريائها من اعتقد أو حتى ظن أنها راضية عن وجودها أو سعيدة به أو حتى قابلة له أو رابحة منه أو غافرة أو مسامحة لمن أوجدها إن كان لها موجد أو لو كان لها موجد..!

ما أقسى التحديق في خسائرها أي الآلهة وفي أرباحها من وجودها أي لو كان لها من وجودها أية أرباح؟

ما أقسى وأدوم عذابها من تفكيرها في أرباحها وخسائرها من وجودها أي إن كانت تفكر في ذلك.. لو كانت تفكر في ذلك..!

الآلهة تفكر في خسائر وجودها وأرباحه.. الآلهة لا تفكر في ذلك..!

هل يطاق هذا أو هذا؟

أليس غضبها على وجودها هو الذي صاغ أخلاقها وتصرفاتها البائسة الأليمة المقروءة والمرئية والمبثوثة في كل هذا الوجود الذي أريد ودبر وخطط وصنع بكل الغضب والغيظ والألم والتهوّر والضياع والمرارة والاكتئاب.؟

كائن يصنع الجحيم عقاباً والفردوس ثواباً وينزل ويرسل الأنبياء والأديان بكل هذه الوعود والوعيد هل يمكن تصور مثله غيظاً وغضباً وأسى وتوتراً وألماً وانفجاعاً ويأساً وخيبة وحسرة وتوقعات ومواجهات حزينة أليمة قاسية، قاسية مشوّهة مخربة معذبة مفسدة للذات.. لكل معاني الذات وتفاسيرها..!

إن الذات التي تصدر هذه الوعود والوعيد لن تكون ذاتاً معقولة أو عاقلة.!

.. إن المبالغة المجنونة في تصنيف الوعد والوعيد لا بدّ أن تعني أقبح وأردأ التفاسير.. وهل يمكن تصور جنون مبالغة في الوعد والوعيد مثل الوعد بالفردوس والوعيد بالجحيم.. بالفردوس والجحيم المنزلين المقروئين الموصوفين في الكتب المنزلة أي في الكتاب المنزل.؟

إن من يبالغ في وعده ووعيده إلى أن يقتحم المستحيل فلن يكون شخصية سوية أو سليمة. لن يكون كاذباً ومتهوراً فقط، إنه لا بدّ أن يكون أسوأ وأردأ من ذلك كثيراً.. إن الكذب يحتاج إلى مقادير من الذكاء والوعي والفن. قد تكون حاجة الكذب إلى ذلك أكثر وأعظم من حاجة الصدق إليه. الكاذب يجب أن يكون ذكياً وفناناً أكثر من الصادق..!

إن المؤمنين الذين صدقوا وتقبلوا هذا الوعد والوعيد بالجحيم والفردوس دون أن يفجعوا ويصدموا بكل القسوة لن يكونوا قد تعاملوا مع أي قدر من الذكاء أو العقل أو التفكير أو المحاسبة كما لن يكونوا قد قاسوا أو يقاسون أي معنى من معاني الاحترام لمن روي لهم عنه هذا الوعد وهذا الوعيد بهذا الجحيم وبهذا الفردوس ولمن رواهما لهم ووعدهم وأوعدهم بهما. أليس احتراماً لمن نحترم ألا نصدق عنه وفيه ما يهين الذكاء والعقل والصدق والوقار؟

ألسنا نهين ونعتدي ونسب بالتصديق أقسى مما نفعل ذلك بالتكذيب؟

أليس التصديق أحياناً إهانة وتكذيباً وتجريحاً وكفراً أكثر من التكذيب ومن الكفر؟ أليس كل تصديق هو تكذيباً؟

أليس التصديق لأي شيء هو تكذيباً لشيء مضاد؟

.. إنه لافتراض إن لم يكن حتماً أن إيمان المؤمنين بهذا الوعد والوعيد أي بالفردوس والجحيم بكل أوصافهما المروية وبغيرهما من الوعود والتوعدات الدينية المتخطية لكل حدود وحواجز المعقول والمقبول والممكن.

ـ نعم، إن إيمان المؤمنين هذا بذلك قد أفسد وأذل وشوّه وعوّق ذكاءهم وتفكيرهم وتصوّراتهم وكل رؤاهم ومحاسباتهم للأشياء بل ولأنفسهم؟ أليس ذلك إساءة إليهم مثلما هو إساءة إلى من آمنوا له بهذه الوعود وبهذا الوعيد؟

إن الإيمان في أكثر الأحيان إساءة وسباب لمن كان الإيمان به.. إن من لم يؤمن بالشيء فلن يكون قد أساء إليه أما المؤمن بالشيء فقد يكون إيمانه به سباً وإهانة وتشويهاً له..!

.. إنه لمحتوم بل وواجب أن أحسب مبالغاً بكل إسراف المبالغة في رؤيتي هذه أي في رؤيتي للعلاقات بين المتفوقين والمتخلفين التي سبق الحديث عنها..

ولا لوم ولا إنكار على من رآني مبالغاً هذه المبالغة بل قد يكون اللوم والإنكار على من لم يرني كذلك..!

إنها لرؤية يصعب أو يستحيل تقبّلها أو حتى الحديث عنها والاستماع إليها في مجتمعاتنا مهما كانت أقل من الواقع المرئي بل المالىء لكل الرؤى.. إن مجتمعاتنا لا تقبل من يرى أو يعرف فيتحدث.. إنها تريد من لا يرى فيتحدث. تريد من يسمع فيتحدث..!

.. إن مجتمعاتنا عنيفة جداً في رقة تقواها وتهذيبها وأحاسيسها حتى لقد أصبحت لعنف رقتها هذه وضعفها لا تطيق الحقائق الصعبة وغير الملائمة وغير المرضية لرقتها هذه المحولة لها إلى كل معاني الضعف وصيغه كما أصبحت لذلك لا تطيق الحديث عنها أي عن الحقائق الصعبة ولا الاستماع إليها كما أصبحت لا تطيق رؤية الأضواء القوية التي قد تكشف الحقائق الصعبة غير المرضية الملائمة المجاملة لرقة تقواها وتهذيبها وأحاسيسها التي حوّلتها إلى أكبر وأشهر سوق لتقبل كل أنواع التزوير..!

.. لهذا أصبح المزيفون المنافقون المدللون المخاطبون لخصائصها هذه المطاردون للحقائق الصعبة المؤلمة وللأضواء القوية الكاشفة لها هم كل أنبياء أسواقها ومنابرها ومحاريبها بلا أي منافس.. إنه لو جاء إليها أي إلى مجتمعاتنا العربية نبيان: نبي يراها تحت أضواء الشمس ويتحدث عنها وإليها كما يراها وكما يرى.. ونبي يراها ويسمعها في الظلام ويتحدث عنها وإليها كما يسمعها لما قاست أو ترددت أو تحيرت لكي تختار النبي الذي تؤمن به من النبيين.!

إن كل الأنبياء والمعلمين والكتّاب الذين عاشوا ورسخوا في التاريخ العربي وفي الحياة العربية إنما كانوا يطفئون كل الأضواء ويهربون من كل الأضواء ثم يذهبون بكل الرؤية يتحدثون عن كل شيء تحت كل الأضواء زاعمين أنهم هم مضيئو كل الأضواء..!

إن كل الأنبياء والمعلمين والدعاة وأغلب القادة والزعماء إنما كانت رؤاهم في الظلام. كانت رؤاهم قوية ويقينية لأنها كانت في أحلك الظلمات..!

إن رؤية من يرى في الظلام أقوى تأثيراً وإقناعاً وإرضاءً من رؤية من يرى في النور..!

⊛ ⊛ ⊛

.. المجتمعات والشعوب مقسّمة إلى جماعات من حيث الأعمال والممارسات أي من حيث وظائف الحياة.. إنهم حكام وقادة عسكريون وسياسيون وزعماء وعلماء وكتّاب ومفكرون وأساتذة ومعلمون وعمال وفنانون وفنيون ومزارعون وشيوخ دين وغير ذلك. وهم متنقلون في هذه الوظائف والأعمال والممارسات ومتنقلة فيهم وعليهم.. وهذا التنقّل يأتي بأساليب وفي ظروف متعددة.. وجماعات المجتمعات أو السلالات المتخلفة تخلفاً تكوينياً لا بدّ أن تكون كلها متخلفة.. فالحكام والقادة والزعماء والعلماء والكتّاب والمفكّرون والمعلمون والأدباء متخلفون ولا بدّ أن يجيئوا متخلفين كما أن العمال والمزارعين والفنيين وأصحاب الحرف والأعمال اليدوية وغيرهم وغيرهم لا بدّ أن يكونوا كذلك متخلفين في نفس المستوى ولنفس الأسباب..

ولكن كل جماعة من هذه الجماعات المتعددة لتعدد أعمالها وممارساتها يجيء تخلّفها معبّراً عن عملها ووظيفتها.. فتخلف الحاكم والقائد والزعيم والمحارب يجيء تخلف حاكم وزعيم وقائد ومحارب، كما أن تخلف الكاتب والعالم والمفكر والمزارع والعامل والحرفي يجيء تخلف كاتب وعالم ومفكر ومزارع وعامل حرفي وهكذا.. إنه كله تخلف ولكن الأساليب مختلفة ومتعددة..!

ولو تبادلوا الوظائف والمناصب لجاء التخلف كما جاء أو لبقي كما كان..!

.. ولا يمكن أن تكون جماعة من هذه الجماعات متخلفة أي هذا التخلف التكويني الذاتي الطبيعي في أي مجتمع أو سلالة من هذه المجتمعات أو السلالات ثم لا تكون كل الجماعات متخلفة، كما لا يمكن أن تكون جماعة مجتمع أو جماعة سلالة متفوقة أو متقدمة ثم لا تكون كل جماعاته أو جماعاتها كذلك مع الاختلاف المحتوم في أسلوب التعبير عن ذلك..!

ولا بدّ أن يفهم أن هذا الحكم يعني به التعميم لا التخصيص أي في المجتمعات المتفوقة أو المتقدمة. فليس كل فرد في أية جماعة من جماعات هذه المجتمعات أو السلالات المتفوقة أو المتقدمة لا بدّ أن يكون أو ينتظر أن يكون متفوقاً متقدماً. فكل التفوق والتقدم فيها ولكن ليس كل أفرادها متفوقين أو متقدمين. إن البستان الجيد لا يعني أن كل نبتة أو كل شجرة فيه جيدة..!

وبهذه الرؤية أو التفسير فإنه إذا تعاقب بديمومة الحكام أو القادة أو الزعماء الفاسدون أو الرديئون أو العاجزون أي المتخلفون في مجتمع أو شعب من المجتمعات أو الشعوب فإن هذا يعني أن كل جماعاته أو طوائفه متخلفة أي هذا المجتمع أو الشعب.. كل جماعات علمائه وكتّابه ومفكريه ومعلميه وشيوخه وأحباره ورهبانه وعمّاله ومزارعيه وفنانيه وفنييه وغيرهم وغيرهم.. كما أن تخلف جماعة من هذه الجماعات بديمومة في أي مجتمع من المجتمعات لا بدّ أن يعني تخلف حكّامه وزعمائه وقادته بل وأنبيائه بل وآلهته..!

ولن يكون حينئذٍ تغيير الحكّام والقادة والزعماء علاجاً بل لن يعني شيئاً غير تكاليف التغيير التي

قد تكون فادحة كبيرة وأليمة جداً.. ما أعظم ما خسر البشر بتغيير الحكام والقادة والزعماء بالقوة.. بل ما أفدح خسائر البشر بتغيير الآلهة والأنبياء والأديان..!

.. وليس تخلف جماعة من هذه الجماعات هو الذي صنع تخلف الجماعات الأخرى أو ساعد عليه أو أغرى أو أوحى به كما لن ينتظر من أية جماعة أن تعالج الجماعات الأخرى أو أية جماعة منها ـ أن تعالجها من تخلفها أو أن تعينها على ذلك..

إن تخلفها يأتي إليها جميعاً، كما أن تفوقها أو تقدمها يأتي إليها كذلك أي لو جاء..

إن المتفوق لا يفعل أو يخلق تفوقه ولكنه يفعل به أو يتخلق فيه وكذا المتخلف. إن الكائن لا يصنع تفوقه ولا تخلفه إلّا بقدر ما يصنع ذاته وصيغة ونوع وجنس ذاته..!

إن الكائن لا يكون بالإرادة بل بقوانين الكينونة حتى الإرادة لا تكون بالإرادة ولكن بصيغ وقوانين الذات والكينونة.. إن كل شيء يوجد ويكون بالتخلق لا بالخلق حتى طاقة الخلق وإرادته إنما توجدان وتكونان بالتخلق لا بالخلق.. إن كل شيء تكون لا تكوين..!

.. وبكل الغباء والبلاهة والنشوة التي وجدت كل العبقريات والمعجزات والحلول لكل المشاكل والعقد والمتاهات في كلمة واحدة نردّد هذه الكلمة غائبين عن كل تفكير ورؤية وحساب وتجربة: «إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر».. نردّدها بكل الغيبوبة وكأننا بها نغزل وننسج ونصوغ الكون.. كأننا بها نقرر ونضع ونفسر قوانين الطبيعة.. قوانين كل هذا الوجود. كأننا بترديدها نصوغ كل كينونة نريدها.!

إذن ليرد الأبله أن يكون عبقرياً لكي يصبح كذلك.. وليرد أغبى وأعجز وأضعف وأجهل الناس وأكثرهم دمامة وتشوّهاً أن يكون أذكى الناس وأقواهم وأعلمهم وأجملهم لكي يصبح كذلك..

.. ليرد الأرنب أن يكون أسداً، والنملة أن تكون فيلاً، والقزم أن يكون عملاقاً، وأسود اللون أن يكون أبيض لكي يكون ذلك.!

.. إذن ليرد كل كائن أي شيء وكل شيء ليكون ما أراد.. ليرد الإله أن يكون الإنس والجان كما يريد لكي يكون له ذلك.. لينجو من الغيظ والغضب والعصيان والتحدي له.. لينجو من عذاب ذلك وتحقيره وهوانه وإذلاله له. هل يوجد مفجوع مصدوم مثل الإله؟ إذن هل يوجد محتاج إلى الإنقاذ من كل أنواع المقاساة مثل الإله؟

.. ليرد كل نبي وكل معلم وكل صاحب مذهب أن يكون وحده المستقبل المحبوب المنتصر في كل الأسواق وكذا كل زعيم وقائد وحاكم ودجال ليكون له ما يريد..

إن كل الأحياء يريدون الحياة حتى أضعف وأصغر وأعجز الحيوانات والحشرات فهل استجاب لهم القدر كما أرادوا منه؟ إن من أصبحوا أعظم العباقرة وأقوى الأقوياء وأغنى الأغنياء لم يريدوا الحياة أو لعلهم لم يريدوا الحياة أكثر مما أرادها أجهل وأغبى وأضعف وأفقر الفقراء والجهلاء والضعفاء والأغبياء.. إن الساقط في امتحان الدراسة المدرسية أو الجامعية قد يكون أكثر وأقوى إرادة للنجاح من مثيله الناجح..!

.. اللّه نفسه يريد ويريد وأبداً يريد فلا يستجيب له القدر بل ويفعل دائماً ضد ما يريد أي القدر.. إنه كما يقول ويقول أنبياؤه يريد لنا وبنا الخير واليسر والهدى والإيمان وأن نكون ونكون ويكون كل شيء كما يريد ويطالب ويأمر ويرجو ويحب..

.. لقد تحمّل تكاليف إرسال وإنزال الأديان والأنبياء لأنه يريد لنا.. فهل استجاب له القدر أو هل يمكن أن يستجيب له؟

بل هل يمكن أن يوجد من خرج ويخرج القدر على إرادته مثل الإله أي بالتفسير المراد بالقدر هنا؟

وقد يدافع عن هذا القول البائس بأن يقال: إن المراد بالإرادة هنا التصميم فيكون المعنى: «إذا الشعب صمّم يوماً على أن يحيا حياة قوية سعيدة متحضرة منتصرة كريمة فلا بدّ أن يستجيب القدر» أي فلا بدّ أن يحدث ما صمّم عليه..

وهذا أيضاً لن يكون صحيحاً لأن التصميم وحده لن يفعل. إن التصميم يحتاج إلى أشياء كثيرة منها القدرة والذكاء والعلم والتدبير والحسابات العبقرية وإلى الظروف الجيدة وغير المضادة..

إن التصميم وحده سلاح بلا ذخيرة بل سلاح يطلقه حامله على نفسه أو يهدّد به نفسه أي منفذاً تصميمه أو محاولاً تنفيذه..!

.. إن كثيراً من الكلمات المردّدة تتحول إلى مخدرات وإلى عزاء كاذب مضلل خادع للمجتمعات العاجزة المتخلفة.. إنها تظل تنشدها وتكررها وكأنها تصوغ وجودها بها أو تخطط وتعد لصياغته أو تعلن عن بدئها بصياغته أي بإنشادها لإحدى هذه الكلمات..!

قد يتحول إنشاد الأمثال المأثورة إلى تعويض عن الفعل..

إن أصدق تعريف للإنسان أنه المريد الذي لا يفعل إرادته مهما فعل.. المهزوم أمام إرادته مهما انتصر.. المعذب بإرادته المفجوع بها مهما سعد.. إنه المريد دون أن يريد إرادته.. إن الإرادة بلا إرادة.!

إن الكينونة لا تكون بالإرادة وإنما تكون الإرادة بالكينونة..!

لهذا فإن كل كائن يريد بأسلوب وصيغة كينونته..

إنها إذا اختلفت الكينونة واختلفت صيغها اختلفت الإرادة..

.. إننا نريد لأننا نكون ولا نكون لأننا نريد. إن الإرادة ليست إلّا إحدى تعبيرات ومخلوقات ومسخرات وموظفات الكينونة..!

⊛ ⊛ ⊛

وهناك قولة مكررة ومرددة أخرى وهي مخطئة مثل هذه القولة ولكنها ليست في بلاهتها.. تقول هذه القولة: «الحاجة أم الاختراع».. يقول القائل هذه القولة معتقداً أنه بذلك يكتشف أسرار هذا الكون وأنه يقرأ على الآلهة ويعلمها ما يجب أن تعلمه وأن تستفيد منه..!

«الحاجة أم الاختراع»، من قالها؟ لقد كان قائلها في غيبوبة..!

.. ليست الحاجة أم الاختراع ولكن القدرة.. القدرة بكل معانيها هي أم الاختراع والاكتشاف والإبداع والإنجاز وأم كل شيء إبداعي..

.. إن المخترع والمكتشف هو كائن أو إنسان قد استطاع وليس كائناً أو إنساناً قد احتاج.. ولو أنه كان محتاجاً لما كان أكثر أو أقوى احتياجاً ممن لم يخترع وممن لن يخترع.. لهذا فإن المخترع والمكتشف قد يخترع ويكتشف ما ليس هو محتاجاً إليه وما ليس محتاجاً إليه أحد أو ما لا يحسب أن أحداً قد يحتاج إليه.. بل قد يخترع ويكتشف ما هو مضاد للحاجة ومقاوم لها..

وليست المجتمعات أو الشعوب أو حتى الأفراد التي اخترعت واكتشفت وأبدعت وغزت الفضاء وصعدت فوق الكون وإلى الكون وفعلت وبهرت وقهرت أشدّ احتياجاً إلى ما فعلت من المجتمعات والشعوب والأفراد التي لم تفعل شيئاً من ذلك.. وليس الذي اكتشف مرضاً أو اخترع علاجاً لمرض أو لوباء كان هو أو أهله أو هو وأهله وشعبه يقاسون من هذا المرض أو الوباء ويحتاجون إلى الإنقاذ منه أكثر ممن لم يخترعوا ويكتشفوا ويفعلوا أي شيء جيد أو مفيد... وليس الحيوان المفترس أو الطائر أحوج إلى الافتراس والطيران من الحيوان الذي ليس كذلك أي ليس مفترساً ولا طائراً..

ولهذا فإن المستقبل الضخم الباهر لمن يستطيعون وليس لمن يحتاجون...

إذن أيها الضعفاء الفقراء المرضى المهزومون احذروا فإن احتياجكم إلى القوة والصحة والغنى والانتصار لن يصنع لكم ذلك ما لم يصنعه لكم التفوق في القدرة الذاتية، بل إن احتياجكم بدون هذه القدرة لا بدّ أن يتحول إلى مزيد من الاحتياج.. إلى مزيد من العجز عن الاختراع والابتكار والاكتشاف وعن العمل الجيد القوي.. لا تنتظروا من أشدكم احتياجاً أن يصبح أعظمكم اختراعاً.!

.. إنه لم يكن يوجد أشد حاجة إلى قطرات الماء من العرب في جزيرتهم الظمأى فهل اخترعوا أنهاراً أو ينابيع أو سحاباً ممطراً أو سماءً ممطرة أو إلهاً باكياً لتتحول دموعه إلى نهر أو ينبوع أو إلى قطرات أو رذاذ من المطر أو حتى إلى آبار روية أسخى وأفضل من الآبار التي كانت والتي عجزوا عن الاستسقاء بها ومنها بأسلوب جيد أو ذكي؟ لقد كان احتياجهم إلى اختراع مثل هذا الإله احتياجاً توجبه وتطالب به كل ظروفهم وحياتهم..!

نعم، حتى مثل هذا الإله عجزوا عن اختراعه..!

لقد كان كل ما فعلوه في مواجهة هذا الاحتياج المذل المهلك أن اخترعوا صلاة الاستسقاء.. يا له من اختراع عربي لا تجرؤ كل الاختراعات أن تدخل معركة المنافسة له.

وتفسير هذا الاختراع لمن لا يعرفه: إنه إذا طال بل إذا دام شح السماء فلم ترسل شيئاً من دموعها ليتقاطر من عيون السحاب تجمع المؤمنون في العراء ليصلوا للإله صلاة يسمونها صلاة الاستسقاء لكي تدمع عيناه أي عينا الإله لتتحول دموعه إلى قطرات من المطر. لكي تدمع عيناه رحمة أو ندماً أو انفجاعاً..!

لقد عجز ورفض وجهل الإله والسماء والسحاب أن يتفاهم أو يتعامل أو يتعاطف مع هذه الصلاة أو يقتنع بها أو يستجيب لها بل أو يشارك فيها أو يحضرها. إنها صلاة بلا مثيب عليها أو مستقبل لها. إنها مناجاة ومخاطبة وتضرّع لصخور الصحراء..!

.. وقد كان من الممكن أن يوجه اعتراض أو سؤال إلى المصلين هذه الصلاة ليقال لهم: إذا كانت الصلاة تخترق قوانين الطبيعة فيجيء المطر حيث لا مطر فلماذا لا تصلون راجين ومطالبين أن يجيء أو يتخلق نهر دائم، ليكون الأمل والطلب والاستجابة والعطاء والنتائج أعظم وأكبر وأنفع وأدوم وأقوى وأذكى..!

وكم في هذا من الفوائد والمنافع والراحة والتكريم حتى للإله نفسه.. أليس في هذا إنقاذ له أي للإله من الإحراج الدائم بالمطالبة الدائمة له الفارضة عليه أخلاقياً ونفسياً وعقلياً ووظيفياً أن يستمع إليها ويستجيب لها؟ أليس الفاعل يعظم بقدر عظمة ما يفعله، ويصغر بقدر ما يصغر ما يفعله ويريده وينويه؟

أليس مطالبته بالأضخم واستجابته لهذه المطالبة أعظم تمجيداً ومجداً له؟ أليس مطالبته بكل الأسنان المفقودة كلها ليعيدها فيعيدها أفضل وأعقل وأتقى وأكرم وأكثر راحة له من مطالبته بها سناً، سناً ليعيدها واحدة بعد واحدة، بعد واحدة أي إذا كان سوف يطلب منه فيستجيب ويريد أن يطلب منه ليستجيب؟ أليس تحريك عضلات الإله لتصنع نهراً دائماً أفضل وأعظم من تحريك عضلاته لتصنع سحابة لتنزل قطرات من المطر؟

أليست صناعة النهر الدائم أعظم راحة للإله من أن يصنع كل عام سحابة؟

❁ ❁ ❁

.. إن الحاجة لا تصنع الاختراع وإنما تصنع الآلهة والأديان والأوهام والدجالين والمضللين المخادعين وتصنع العذاب والضيق والرؤى والخطوات والأخلاق الضائعة الخاطئة المدمرة والعواطف الأليمة القبيحة العدوانية الشريرة كما تصنع الهوان والمذلة.. تصنع كل ذلك بإرادة التداوي منها والظفر بها..!

.. إن كل الوجود والحياة والكينونات احتياج.. احتياج دائم شامل.. فهل هذا يعني أن كل وجود وحياة وكينونة اختراع بكل نماذج وصيغ وتفاسير الاختراع أي إذا كانت الحاجة أم الاختراع؟ لقد هان وسهّل ورخص إذن الاختراع والمخترعون.. إن الحياة والوجود سوف يضيقان حينئذٍ بالمخترعات التي لن يتسع لها هذا الوجود ولا أي وجود..

❁ ❁ ❁

«الحاجة أم الاختراع» إذن يا أصحاب أعنف وأحر وأضخم وأكثر الحاجات طوبى لكم.. كل المجد والبشرى والفرح لكم لأنكم سوف تصبحون كل السادة والقادة أو أقوى السادة والقادة في العالم

لأن مخترعاتكم ومبتكراتكم ومكتشفاتكم وإنجازاتكم لا بدّ أن تصوغ وتقود وتحكم كل العالم لعبقريتها وقوتها وكثرتها وضخامتها وتفوقها، لأنها لا بدّ أن تجيء متكافئة مع احتياجاتكم ورداً ملائماً عليها.. إذن فلتزدكم الأقدار احتياجاً وقسوة وشمولاً في الاحتياج لكي تزيدكم قوة ومجداً وتفوقاً وإبداعاً...

.. هكذا تقول كلمة: «الحاجة أم الاختراع». لقد وجد من يصدقون..!

بائس هو العقل الإنساني.. كم يستقبل من الأكاذيب والضلالات والبلادات والجهالات والشعوذات والبلاهات والإهانات واللطمات والصفعات لكي يتقبّل ويصدق ويؤمن ويبلع ويمضغ ويهضم ويختزن ويجتر.. بل لكي يخضع ويستسلم ويباهي ويشكر..!

كم يلقى من أنواع الأوحال والقاذورات في عقل الإنسان دون أن يمتلىء أو يزدحم أو يغلق أبوابه ونوافذه أو يضع حراسة أو حماية أو شروطاً على أبوابه ونوافذه..

.. دون أن يحدد أو يحاسب أو يفحص ما يلقى فيه من ذلك..!

هل يوجد عرض مباح بل معروض بلا أية حماية لكل الفاجرين الفاسقين الفاسدين المصابين بكل الأمراض الخبيثة مثل العقل الإنساني لكي يصيبوه بكل دنسهم وقبحهم؟

إن الإنسان لا بدّ أن يضع شيئاً من الحراسة والحماية أو كل الحماية والحراسة على كل شيء له أو فيه أو يتصل به إلّا عقله فإنه لا يضع له ولا عليه أي شيء من ذلك..

إنه لا يوجد موهوب لكل اللصوص والمخربين والمحتالين والأغبياء ليفعلوا به ما يريدون ويستطيعون مثل عقل الإنسان...

إنه لا يوجد من يبصق ويستفرغ ويلقي فيه وعليه كل الباصقين والمستفرغين والملقين مهما كانت أوصافهم وأخلاقهم ونياتهم وأمراضهم بلا أية حماية محلية أو دولية.. أخلاقية أو دينية أو فكرية أو صحية أو إنسانية..

- نعم، إنه لا يوجد من يفعل به كل ذلك بلا أية وقاية أو حراسة أو شروط مثل العقل الإنساني..!

إنه لا يوجد مستودع لكل الزبالات، لكل أنواع الزبالات مثل أعظم شيء في الإنسان وهو عقله..!

إنها لمشكلة.. إنه لو أمكنت حماية كل شيء وأي شيء من العدوان عليه ومن التخريب والإفساد له لما أمكنت حماية العقل من ذلك.!

إن العقل هو الكائن المتفرد بألا حماية له.!

لقد تحول أغلى وأكرم وأنفع شيء في الإنسان والحياة إلى أرخص وأهون وأضر وأخسر شيء فيهما.!

إنه لا أمل في حماية العقل أو الفكر الإنساني من الزيغ والضلال والسقوط والهوان مهما تعاظمت عطاياه وإنجازاته وانتصاراته وتحليقاته.. إنه المنقذ الذي لا منقذ له ولا منقذ منه.!

.. إنها لأقسى مأساة وأعظم ورطة أن يكون الهادي هو المضل والمهتدي هو الضال والمعلم

هو المجهل والواهب هو الآخذ ومعلم الصعود هو معلم الهبوط والسقوط ومتقبل السقوط والهبوط والفاعل بنفسه السقوط والهبوط..!

إن كل جيوش العالم وأسلحته ومعاهداته ومحالفاته وحراساته وحدوده ومعارفه وحضاراته وطبه وعقاقيره واكتشافاته وأديانه وأخلاقه لا تستطيع أن تحمي العقل من الزيغ والضلال والغواية والخداع والانخداع والغباء والبله والسقوط ومن التصديق لأكذب وأبلد وأجهل الخرافات والعقائد والمكائد والدعايات بل ومن فعله هو لكل ذلك..!

من أين يجيء الإنقاذ أو ينتظر مجيئه إذا كان صانع الهدى والصواب هو صانع الخطأ والضلال وكان واهب البصر هو المانع من الرؤية والمفسد لها وكان النبي هو الدجال وكان الملاك هو الشيطان.. إذا كان الإله الذي يرسل الأنبياء ليهدوا ويصلحوا هو الإله الذي يرسل الأبالسة ليضلوا ويفسدوا وكان الإله المخطط الصانع للوجه الجميل هو الإله المخطط الصانع لأفظع التشوّهات لكي يزرعها في الوجه الجميل..

إذا كان العقل الذي قال لنا وعلمنا ويقول لنا ويعلمنا كل الحقائق والذكاء هو العقل الذي قال ويقول لنا وعلمنا ويعلمنا كل الأباطيل والغباء أو هو المحسوب والمزعوم هذا وهذا والقابل لهذا وهذا، مزعوماً ومحسوباً هذا وهذا..

.. إذا كان العقل لا يصعد إلّا لكي يهبط، ولا يقوى إلّا لكي يضعف، ولا يستطيع إلّا لكي يعجز، ولا يعلم إلّا لكي يجهل، ولا يبني ويعمر إلّا لكي يهدم ويخرّب، ولا يقود إلّا لكي يقاد، ولا يعز إلّا لكي يذل، ولا يرى إلّا لكي يفقد الرؤية ويفقأ العيون الرائية والعيون التي تريد الرؤية أو تحاولها؟ هل وجد مقاوم ومفسد للرؤية وللفهم وللتفكير وللصدق بل وللعقل مثل العقل؟

.. أليس كل هذا هو كل تاريخ العقل وكل حاضره وكل مستقبله؟

وهل يكون شيئاً من الدفاع عن العقل أو مزيداً من الاتهام له والهجوم عليه أن يقال إنه لم يكن في أغلب مواقفه ورؤاه أو فيها كلها إلّا عميلاً مطيعاً لغيره. إنه أبداً أو غالباً يرى بغير عينيه، ويفكر بغير فكره، ويتكلم بغير لغته، ويقف في غير مكانه وعلى غير قدميه، ويقاتل بغير سلاحه وغير أعدائه، ويعمل لغير مجده ولغير حسابه.! لقد كان أبداً كذلك وسوف يظل كما كان.!

هذا التفسير للعقل هل فيه شيء من الدفاع عنه والرفق به والغفران له والاعتذار عنه أم فيه كل المزيد من الاتهام والفضح والتهوين له والنزول به؟

من أين جاء العقل ولماذا جاء؟ هل جاء بنفسه ومن أجل نفسه ولاحتياجات ومصالح نفسه وضروراتها أم جاء به غيره من أجل غيره واستجابة لحاجات وضرورات ومصالح غيره مستعبداً مقهوراً دون أن يريد أو يدري أو يستطيع أن يرفض أو يحاور أو يحاسب أو يطالب بقراءة الحساب أو فهمه أو كشفه؟

هل ساءل العقل نفسه شيئاً من هذه الأسئلة فتعذب بها وبالتفكير فيها وبمعرفة الأجوبة عنها أم صمت وغفل أو تغافل عنها رهبة وانفجاعاً واستحياء؟

العقل لم يأت من نفسه ولا لنفسه ولا بإرادة أو معرفة نفسه ولم يتخلق بضغوط من نفسه على نفسه لأنه يحتاج إلى نفسه أو يستفيد منها أي من وجوده. لقد كان محايداً من فكرة وجوده بل لقد كان غائباً عنها لم يفكرها أو يفكر فيها أو يدر بها أي قبل فرض وجوده عليه..

إذن ما القصة؟

إن أكواناً وحشوداً هائلة وأليمة وبائسة من الضرورات والاحتياجات والمواجهات والمصادمات والممارسات والأخطاء والمخاوف والآلام والتجارب والهزائم والعجز وغير ذلك وأمثال ذلك من أنواع الكينونات ظلّت دهوراً، دهوراً تعايش وتحاصر وتقهر وتذل وتعذب هذا الكائن العجيب الغريب المسمى إنساناً حتى تولد أو تخلق فيه هذا الشيء المسمى عقلاً دون أن تعرف هي أو يعرف هو كيف تخلق ولا لماذا تخلق لكي يكون أي العقل عميلاً ذليلاً مطيعاً مستعبداً لغير نفسه ولغير أوامر واحتياجات وضرورات ومصالح ورؤى وتفكير وتخطيط نفسه لنفسه.. ليكون سلاحاً في أيدي القوى المعادية المخاصمة المضادة المسخرة المستعبدة المذلة له الخارجة عليه..!

.. لقد تخلق أي العقل في الإنسان بالقانون أو بالأسلوب أو الآلية التي تتخلق بها الصخور والصحارى والبراكين والزلازل والتي تتخلق بها أعضاؤه: يداه ورجلاه وعيناه وأذناه وأظفاره وأسنانه وكل تكوناته وتكويناته الذاتية..!

لهذا كان محتوماً أن يوجد أي الإنسان في صيغه الأولى قبل وجود عقله كما كان محتوماً أن يكون وجوده المطلق قبل وجوده في صيغته الإنسانية. إن الإنسان لم يوجد وجوداً واحداً ولا مرة واحدة بل مرات.. لقد ظلّ يوجد ثم يوجد وسوف يظل يوجد ثم يوجد..!

.. وقد يكون استنتاجاً صحيحاً أن العقل لن يقبل أن يوجد أي لو خير ليكون وجوده كما كان أي مسخراً مستعبداً مفسّرة محلّلة بل مشرعة مقدسة به كل الأخطاء والخطايا والجرائم والمظالم والسفاهات والبلادات والبلاهات والعداوات والعدوان والخصومات والملاعنات والأكاذيب والحروب بل والفسوق وكل أنواع النذالات والسفالات..! حتى الأديان المتعددة المتعادية المتناقضة قد جاء العقل مشرّعاً مقدّساً لها كلها بل ومنكراً طارداً لها كلها..!

.. إن كل الفضائح والقبائح والآثام تفعل باسمه وبتدبيره وتخطيطه وتفسيره وتعليمه وتدريبه ومساعدته ولكن ليس بشهوته أو إرادته أو حريته أو بسالته أو حتى بقدرته..!

فهل يقبل أن يوجد ليكون ذلك لو كان مختاراً؟

إن العقل قد أبدع واكتشف وأنجز كل ما في هذه الحياة من مبتكرات وقدرات وأشياء نافعة ومنقذة للحياة والأحياء، ولكنه لم يفعل ذلك بتفاسير أو حسابات أو رؤى عقلية أو عن اقتناع بقيمة أو بجدوى أو بعقلانية ما كان ويكون أسباباً ونتائج، فاعلاً ومفعولاً له وبه ومن أجله..!

وإنما فعل ذلك ويفعله خاضعاً خضوعاً بلا أية رؤية أو تفكير أو اعتراض لضغوط وإملاء القوى التي يعمل لها وبأوامرها ضده وضد كرامته وشرفه وصدقه وذكائه وكبريائه..!

إنه أي العقل هو أقوى وأذكى ما في الإنسان وإنه لأضعف وأذل وأكذب وأخسر ما فيه..!

إن العقل قد أعطى وجود الإنسان وحياته أعظم وأقوى وأضخم ما فيهما ومع هذا قد يجوز أو يجب أن يطرح هذا التساؤل: هل كان تخلق العقل في الإنسان ربحاً له أم خسراناً؟ قد يكون هذا التساؤل مذهلاً وصادماً فاجعاً بل لا بدّ أن يكون كذلك لخروجه على كل التصوّرات والاعتقادات والمسلمات..

ولأنه لم يوجد من تساءل هذا التساؤل أو توقع أن يوجد من يتساءله..

.. لهذا قد يحسن أن يوضع هذا التساؤل أو السؤال في هذه الصيغة: أن يكون الإنسان كما كان أي بذاته وعقله وأن يكون بذاته فقط دون عقله أي الكينونتين لا بدّ أن تجعل عذابه وهوانه وجبنه وكذبه ونفاقه وعاره وافتضاحه وفسوقه وعدوانه وعداواته وخصوماته ونذالاته وسفاهاته وأحزانه ومخاوفه ومشاكله وأزماته وغواياته وضلالاته وسقطاته وزندقاته وإيمانه بالأوثان والآلهة وتعبّده وخضوعه لها.

ـ نعم، أي الكينونتين ستصيب الإنسان بكل هذا وتعاقبه بكل هذا أكثر وأقسى وأعصى على العلاج والحل..

وأيتهما ستكون إصابتها للإنسان بذلك أقل وأخف وأرحم؟

هل وجد من تساءلوا هذا التساؤل وحاولوا أن يعرفوا الجواب فعرفوه أو عجزوا عن معرفته أو هابوا معرفته؟

إنه سؤال صعب جداً.. وإنه لبعيد كثيراً عن موهبة التساؤل وقدرته وبسالته حتى التساؤل محتاج إلى القدرة والبسالة والموهبة بل هل مثل التساؤل احتياجاً إلى ذلك؟

إن التساؤل سلاح. إذن أليس إطلاقه يحتاج إلى البسالة والقدرة والمعرفة؟

.. ولكن هل محتوم أن يظل الإنسان أبداً بعيداً عن اقتحام الأسئلة الصعبة من هذا النوع.. عن اقتحام الأسئلة التي تهاب كل الآلهة اقتحامها وتعجز عن اقتحامها بل وعن تصورها وعن تصور وجود من قد يقتحمونها وترفض أن تخلق من قد يقتحمونها أو يتصورونها والتي لا بد أن تعاقب كل العقاب وأشد العقاب من يقتحمونها أي لو وجدوا أو حتى يتصورونها لأنها أي الآلهة لا تخشى على نفسها وعلى وجودها من شيء مثل خشيتها من الأسئلة الصعبة ومن الذين قد يسألونها. إنها أي الآلهة لم تجد وجودها أو تطمئن إلى وجودها وبقائها إلّا بحراسة كل العقول والألسنة والتصورات من هذه الأسئلة بل إلّا بإغلاقها دونها. إن الأسئلة هي أسلحة كل أعداء الآلهة..!

لهذا فإن كل الأنبياء لم يجيئوا لشيء مثلما جاؤوا ليقاوموا هذه الأسئلة ويصدوا عنها ويعلموا ضدها وليعاقبوا عليها وليقاتلوها ويلعنوها ولينزلوا السور والآيات في لعنها وفي التخويف منها.. إن أصدق تعريف لأي نبي: إنه عدو الأسئلة.. بل لعلهم أي الأنبياء لم يجيئوا إلّا لكي يحذفوا من كل اللغات والعقول والأفواه والتصورات والتعاليم والأديان حروفها وكلماتها أي الأسئلة.. إن الأنبياء لا يقاومون أو يكرهون مثل أن يكونوا سائلين أو مسؤولين أو معايشين لمن يسألون ويتساءلون..!

.. إن القيمة العقلية والفنية والجمالية والأخلاقية والدينية بل والنفعية لأي شيء ولكل شيء لا تساوي أو تعني إلّا حراسته من أن توجه إليه الأسئلة..!

إن كل شيء يهون ويفتضح ويقبح ويصغر ويصاب بكل الدمامات والتشوّهات إذا أطلقت عليه الأسئلة..!

.. والمراد بالأسئلة هنا الأسئلة التي تريد أن تفهم وتفسّر وتحاسب وترى وتقتنع لا الأسئلة التي يراد بها الإيمان والطاعة والتعبّد وتلقي الأوامر للاستسلام وتلقي الأجوبة الآمرة بالإيمان والاستسلام. إن الأسئلة المباحة والمشروعة في الأديان وفي أغلب المجتمعات والحالات هي التي يريد بها سائلوها أن يسمعوا الأوامر ليطيعوا..!

.. إن معرفة الجواب عن السؤال في صيغته الثانية ـ والذي هذا الحديث عنه ـ هي معرفة للجواب عنه في صيغته الأولى القائلة: هل تخلق العقل في الإنسان ربح له أم خسران؟

إن معرفة مقاييس الربح والخسران قد تكون غير مستحيلة ويجب ألا تكون مستحيلة مهما كانت صعبة..!

إن قيمة العقل وقيمة أي شيء في الإنسان وفي كل كائن هي أن يكون عطاؤه المادي والمعنوي أكثر وأعظم وأفضل من أخذه أي ليكون ربحاً لا خسراناً..

إن أي شيء وكل شيء لا يراد أو يمدح أو يطلب إلّا لما فيه أو لما يظن فيه من مزايا وفوائد وإن اختلفت حسابات المزايا والفوائد..

فهل العقل يعطي الإنسان هذا العطاء أكثر مما يعطيه ذلك أن يكون إنساناً أو كائناً بريئاً من العقل؟ إن السؤال صعب والجواب أصعب..! لنقرأ ونفسّر ونر الإله.. إنه كل العقل.. فماذا فعل به عقله؟ أليس هو الذي أوقع به كل ما يعاني ويقاسي ويرى ويواجه ويتحمل؟ هل للإله مثيل في عذابه الذي أوقعه به عقله؟ هل يفعل الإله بنفسه ما فعل بها من أخطاء ومشاكل وورطات لو كان بلا عقل؟

إذن هل يمكن تصور خاسر بشيء مثل الإله خاسراً بعقله؟ إذن هل الكائن الموهوب عقلاً كائن محظوظ أم كائن مظلوم؟ هل هو كائن محابى أم كائن محارب؟

ما أصعب أن يجاب بصدق عن هذه الأسئلة.. بل ما أصعب الصدق في كل شيء، لهذا ما أقل الصادقين.. ما أقلهم..!

.. نعم، العقل بكل صيغه وتفاسيره وتعبيراته قد صاغ ويصوغ الإنسان ووجوده عقلياً ونفسياً وأخلاقياً وفنياً وعواطف ومشاعر ورؤى ومواجهات وعلاقات وتصادمات وكينونات وتكويناً وقدرات صياغات شاملة ضخمة كبيرة مثيرة..

فهل هذه الصياغات أعطته من السعادة والراحة والكرامة والشجاعة والنظافة والشرف والرضا والأمان والاستقرار والحرية والحب والتقوى والصفاء والجمال ورضا الآلهة وإرضائها وجودة العلاقات معها وبها ومن الابتسام والفرح والأمل أكثر مما أعطته النقيض.. كل النقيض وأقسى النقيض؟ من يستطيع أن يجاوب على هذا التساؤل دون أن يفزع ويفجع؟

وهل وجد من سأل هذا السؤال لكي يسأل: هل وجد من أجاب عنه؟

إن أغلب الأجوبة أو كل الأجوبة عن هذه التساؤلات والأسئلة لن تكون إلّا الهرب منها والصمت عنها أي لو وجدت..!

إن الكلام هنا افتراضي لما كان يجب أن يكون واقعياً..!

ولكن أليست أكثر الأجوبة عن أغلب الأسئلة ليست في كل التفاسير والحسابات إلّا فراراً وصمتاً وعجزاً عن الأجوبة الصحيحة المعقولة المطلوبة مهما كانت ضخامتها وكثرتها؟

أليس الهاربون الصامتون العاجزون عن الأجوبة هم أسرع من يجدونها ويعلنونها.

كم هم قليلون الذين يعلنون عجزهم عن أجوبة أية أسئلة مهما كانت صعوبتها بل استحالتها في قدرتهم ورؤيتهم ويسالتهم؟

أليس هذا يعني أن أغلب المجيبين على الأسئلة أو كلهم ليسوا إلّا هاربين وصامتين وعاجزين عن الأجوبة مهما ألفوا وكتبوا الكتب بل وأنزلوا الكتب المقدسة المفسّرة لأجوبتهم عن كل الأسئلة المنطوقة والمصموت عنها؟

إن كل الآلهة والأنبياء والمعلمين في كل مواقعهم لم يحدث أن أجابوا عن سؤال واحد مع أن أجوبتهم عن كل الأسئلة قد أصبحت كتباً يثقل على التاريخ وعلى الحياة حملها وقراءتها.!

لقد كانت كل أجوبتهم لعناً وإهانة للأجوبة وللأسئلة..!

.. إن الأسئلة بمعناها الصحيح القوي هي أقسى أساليب المحاكمة للمسؤول أو للمسؤول عنه حتى ولو كانت بلا أجوبة وبلا انتظار أجوبة..!

إن المسؤول أما محاكم أو محاكم ما جاء السؤال عنه..!

لقد حرم الإله والنبي الذي تلقى منه وروى عنه.

ـ نعم لقد حرما السؤال عن أي شيء بأسلوب شامل صارم حين قالا: «لا يسأل عما يفعل»..!

إنه أي الإله الفاعل لكل شيء كما يقولان.. إذن لا يجوز السؤال عن أي حادث أو حدث أو عن أي شيء أو عن أي وجود أو موجود في هذا الكون أو في أي كون لأن كل ذلك مما فعل ويفعل وقد جاء الأمر بألا يسأل عما فعل ويفعل..!

لقد جاء الإله والنبي العربيان تعبيراً قوياً أليماً عن الإنسان العربي وجاء الإنسان العربي تعبيراً حزيناً رديئاً ولكنه صادق عنهما أي في هذه القضية.. لهذا لم يوجد مثل الإنسان العربي محروماً حارماً من التساؤلات والأسئلة ومحرماً لها أي بمعناها الصحيح القوي المطلوب لا بالمعنى الذي يراد به سماع الجواب لكي تكون الطاعة والاستسلام.. إن السؤال هنا ليس سؤالاً بل طلب للأوامر..!

إن أكثر وكل من يسألون يسألون ليؤمنوا لا ليفهموا أو ليحاوروا أو يحاسبوا..

.. إن كل العرب يرون كل سائل أي سؤال بحثاً عن العقل والمنطق والحكمة والصواب

والفهم - يرونه زنديقاً مخيفاً يجب الخلاص منه بكل الأساليب المبيدة.. وأي عربي لا يكون كذلك فلا بدّ أن يكون وأن يحسب خارجاً على العروبة والإسلام..!

إن الذين لا يسألون الأسئلة الصعبة المحتاجة إلى الأجوبة الصعبة لن يصنعوا الحياة الصعبة أي القوية المبدعة المتطورة المتجددة..!

إن الحياة القوية المتفوقة المتجددة هي التعبير الدائم الفعّال عن الأسئلة الدائمة الصعبة وعن أجوبتها..

.. إن الإنسان ليس إلّا سؤالاً.. إن بدايته سؤال ونهايته سؤال، وإن كل إبداعاته وحضاراته ومعارفه وكينوناته المتجددة المتفوقة ليست إلّا أسئلة وأجوبة.. ليست إلّا أسئلة تحولت إلى أجوبة.. إلى أجوبة خلاقة..

إن كل الكينونات الكبيرة ليست إلّا أجوبة عن أسئلة..!

إن الإنسان لو لم يتحول إلى أسئلة لما تحول إلى أجوبة.. إلى أجوبة هي كل حضاراته وابتكاراته وعلومه وأفكاره وثقافاته وآدابه وفنونه وكل كينوناته الجديدة القوية العظيمة..

ولأن الإنسان هو وحده السائل المجيب المطالب بالجواب بين كل الكائنات المعروفة لنا كان هو وحده صاحب وخالق كل الحضارات والإبداعات والكينونات العظيمة المتجددة المتفوقة المتطورة أبداً..

إنه أي الإنسان لو جاء غير سائل أو غير مجيب لما جاء خالقاً مبدعاً متخطياً أبداً لوجوده وكينوناته ولظل في صيغة وكينونة واحدة كما ظلّ الإله.. كل الآلهة في صيغة وكينونة واحدة وكما ظلّت كذلك الشعوب والمجتمعات التي لا تسأل هذه الأسئلة ولا تجيب عنها بل لا تحتاج إلى الإجابة عنها أو تشعر بهذا الاحتياج إلى هذه الإجابة..!

ما أعجب وأغرب ما كان محتوماً أن يحدث في هذا الوجود وفي كل وجود لو كان الإله مصاباً بموهبة السؤال والتساؤل أو بمرضهما وعذابهما وبالالتزام بالإجابة عنهما وعن كل سؤال وتساؤل يستحقان الإجابة وتتحتم الإجابة عنهما..!

أليس محتوماً معرفة الإجابة التي لا بدّ أن يجيب بها الإله لو كان مصاباً بالتساؤل؟

هل كان يمكن أن يوجد حينئذٍ من يسألون أو من لا يسألون؟

ولعله أي الإله قد صاغ نفسه في صيغة من لا يسأل ولا يجيب لئلا يحدث ما كان محتوماً أن يحدث حينئذٍ..

كيف لو تحول الآن إلى هذه الصيغة المحروم منها.. صيغة من يسأل ويجيب بالحتم والموهبة أعني الفاعل لهذا الوجود؟ ما أصعب وأقبح أو ما أسهل وأجمل وأغرب ما هو محتوم حينئذٍ أن يحدث..!

.. أكرر أنه لا بدّ من معرفة النوع الذي أعنيه من الأسئلة.. والإنسان أو كل كائن يكون

متسائلاً أو مغلقاً دون كل لغات التساؤل بالموهبة لا بالتعليم ولا بالظروف الموجبة للتساؤل..!

إن الإنسان يعلم القراءة والكتابة والعلوم والصناعة والزراعة وكل الأعمال اليدوية وغير اليدوية ولكن لا يستطاع أن يعلم كيف يصبح متسائلاً التساؤل المراد هنا، كما أنه يستطاع تعليمه كل ذلك دون أن يستطاع تعليمه أن يكون ذكياً أي إذا لم يكن ذكياً.. إن الذكاء قد ينظم وينظم التعبير عنه ولكنه لا يخلق أو يزرع في فاقده.

.. إن موهبة التساؤل لا تعلم لمن فقدها إلّا إذا كان ممكناً أن يعلم السمع أو الأبصار أو الشم لفاقده..

إن كل شيء وكل وجود وموجود وكل رؤية وسمع ومعرفة وتجربة ومعايشة ومواجهة وقراءة ومساكنة وتخيل وتصور لكل شيء ولكل وجود وموجود.

ـ إن كل ذلك ليس إلّا أسئلة صامتة.. صامتة ناطقة صارخة تقول بكل اللغات والأصوات والتعبيرات وبكل الانفجاع والذهول والغضب والاستنكار والتعجّب والرفض ـ تقول: كيف.. لماذا.. كيف حدث أو وجد هذا، وكيف حدث ووجد كما حدث ووجد، ولماذا حدث ووجد كما حدث ووجد.. من أراده وفعله، ولماذا أراده وفعله كما أراده وفعله.. ولماذا لم يرده ويفعله في صيغ ونماذج وتفاسير أخرى.. ولماذا أراده ويريده وفعله ويفعله مهما جاءت صيغه ونماذجه وتفاسيره.. ولماذا جاء مريده وفاعله مريداً وفاعلاً.. مريداً وفاعلاً بهذه القدرة والإرادة والأسلوب..!

ومريده وفاعله من أراده وفعله وأراده وفعله كما أراده وفعله..

الشيء من أراده وفعله ولماذا أراده وفعله كما أراده وفعله ومريده وفاعله من أراده وفعله ولماذا أراده وفعله كما أراده وفعله.. والمراد المفعول كيف قبل أن يكون مفعولاً مراداً ومفعولاً مراداً كما فعل وأريد أو كيف أريد وفعل دون أن يريد أو يدري أو يقبل ذلك..!

إن كل الأشياء وكل وجود وموجود مهما كان قبحه أو جماله وقبحها أو جمالها لهي أسئلة وإن لم تنطق أو تسمع أو تدق بكل القسوة والصراخ والتحدي والإذلال والضياع آذان وعقول وضمائر وأخلاق وشرف وذكاء وكبرياء الآلهة والأنبياء والمعلمين والمفكرين وكل الرائين والسامعين والمفسرين والناطقين بأية لغة من اللغات بكل الاستهزاء والتعجيز والازدراء..!

إنها تدق ولكنها تدق أشياء غائبة غير موجودة في مكانها..!

إن أصغر وأقبح حشرة.. ذبابة أو قملة أو صرصار أو جرثومة ليحتشد فيها.. في وجودها وصيغة وجودها وحياتها ووظائف وجودها وتفاسيره ومنطقه.. ليحتشد فيها من الأسئلة غير الناطقة ما لا تستطيع أن تجد أي جواب عنها كل مواهب وعبقريات وغرور وكبرياء كل من فوق هذا الكون وكل من في داخله وكل من حوله وبعيد عنه..

.. لو كان يوجد مسؤول عن هذا الوجود وكان مصاباً بموهبة التساؤل ثم قرأ ما في أية حشرة ولتكن ذبابة أو قملة أو بعوضة من الأسئلة الصامتة الصارخة المذلة الهازمة لكل الأجوبة فكيف يمكن

حينئذٍ أن يواجه نفسه أو أن يراها أو يعاملها أو يتعامل بها؟ كم في افتراض هذا المسؤول من وحشية وعدوانية عليه. إن الافتراض قد يكون عدواناً مثل فعل العدوان.!

.. ماذا لو أن أي نبي أو حكيم أو فيلسوف قد جاء ليعلمنا ما في هذا الكون من عقل وحكمة ومنطق وتفكير وحب ورحمة وجمال ـ لو أنه قرأ ما في هذه الحشرة بل أو ما في أعظم كائن وكينونة من أسئلة لم تسأل حتى اليوم بعجز كل ما في كل وجود وموجد من ذكاء وعقل وعلم وحكمة أن يجد أي جواب عن أي سؤال منها؟

.. وماذا لو أن هذا النبي أو الحكيم أو الفيلسوف قرأ ما في وجود الإله وذاته ووظائفه وما في فوائد ومنافع وجوده لنفسه أو لغيره وقرأ ما في ذلك من أسئلة كل سؤال منها يقتل وينفي ويهين كل تفاسير ومعاني الآلهة والألوهيات كلها، كلها..؟

وماذا لو أن صاحب أجمل وجه أو أذكى كائن قرأ ما في جمال وجهه أو ما في ذكائه من أسئلة حزينة أليمة فاجعة؟

إن وجود كل شيء.. أعظم شيء وأردأ شيء لهو كل الأسئلة التي تبحث عمن يسألها والتي لم تجد من يسألها..!

إنه لم يكن ممكناً أن يوجد أو أن يبقى أي شيء أو أي أحد إلّا لأنه كان محمياً من أن يكون محاكماً أو محكوماً بالتساؤل وبالأجوبة المفسرة المنطقية التفاسير. إن أعظم وأجمل شيء ليسقط لو حوكم وحكم بالأسئلة عن وجوده وعن معنى وتفاسير ومنافع وجوده..!

.. هل يقول الخيال أو التمني أو العقل إنه قد يحدث في أي وقت آتٍ ألا يوجد أو يبقى أو يفعل أي شيء أو أي أحد إلّا بعد أن يحاكم ويحكم بكل تفاسير وقوانين السؤال والمساءلات وأجوبتها؟ هل يستطيع العقل أو الخيال أن يرى أو يعرف ما الذي لا بدّ أن يحدث حينئذٍ؟

إن كل البشر في كل مستوياتهم الحضارية قد ابتكروا اللغات أو تخلقت فيهم اللغات بكل فنونها البلاغية والشعرية والجمالية ولكنهم جميعاً عجزوا أو هابوا وعجزت جميع لغاتهم عن ابتكار الأسئلة وعن التكلم والتخاطب بها أعني الأسئلة المرادة هنا..!

إن البشر إذن كلهم متكلمون ولغويون وكلهم غير سائلين أو متسائلين بل وكلهم غير غافرين أو متقبلين لمن يسألون أو يتساءلون بل غير مفترضين أنه قد يوجد سائلون أو متسائلون.!

إن الإنسان إذن في هذه القضية مثل الكائنات غير اللغوية، بل إنه أردأ منها لأنها هي محايدة منطقياً من الوجود والأشياء التي هي خارجة على الأسئلة وعلى المنطق أما هو فمنحاز لها..!

إن جميع الكائنات التي نعرفها ما عدا الإنسان تعيش وجودها والوجود التي تعيش داخله.. تعيش ذلك حزينة أو مسرورة، ضاحكة أو باكية.. تعيشه بصمت بلا تقديس أو تأليه، بلا مدح أو ذم.. دون أن تنزل الأديان أو تنشد القصائد أو ترتل الآيات والسور أو تكتب التعاليم في تمجيد وجودها أو نفسها أو موجدها أو أي شيء..

.. دون أن تجد في وجودها أي إله أو قداسة أو تفسير..!

أما الإنسان فيتفوق عليها في ذلك، إنه لا يكتفي بأن يعيش ذاته ووجوده والوجود الذي يعيش فيه وبه.. إنه لا بدّ أن يحول كل ذلك مهما كان قبحه وفحشه وجنونه وعدوانه وسفهه إلى كل القداسات.. إلى أديان وعبادات.. إلى منطق وأخلاق وجمال وحب وعبقرية كل الآلهة والأنبياء والعقول.. إنه ينفق وقته في قراءة وتفسير ما في وجوده وكل وجود من أسرار تقدس وتعبد..

.. إنه يحول نفسه إلى عبد ذليل مؤمن متعبد ويحول كل شيء إلى إله هو كل الجمال والكمال والبراءة والصفاء حتى ليحرم ويمنع توجيه الأسئلة والتساؤلات عنه أو إليه أو أن يعامل أو يرى أو يخاطب بأي شيء من: لماذا أو كيف..!

أليس تقديس الكائن تقديساً مطلقاً تقديساً لإرادته وتدبيره وتخطيطه ولما يفعل؟

.. إن العقل الإنساني لم يهبط مثل هبوطه حينما حوّل كل وجود وكل موجود وكل شيء إلى إله يعبد أي إلى أخلاق ومنطق وقدرة وإرادة وتدبير وفرح وحب ومجد إله.. حينما حول كل وجود مهما كانت بشاعته وفظاظته ورداءته إلى ألوهية تقدس وتعبد وتحول كل الدنيا إلى محاريب ومنابر تصلي لها وتتحدث وتخطب كل الأوقات ثناء عليها وتفسيراً لرحمتها وحكمتها وحبها وجمالها واعترافاً بالعجز عما يجب لها..!

إذن فإن أي شيء لم يهبط هبوط العقل الإنساني.!

إن كل غرائزه وأعضائه الهابطة لم تهبط هبوط عقله أي في هذه القضية وأيضاً في قضايا أخرى أو في كل القضايا.. أليس أي عقل الإنسان هو العميل الذليل والدليل والنصير لتنفيذ كل عمليات هبوطه ولكل أعضاء وغرائز الهبوط فيه؟

إنه لا يوجد عميل ودليل ونصير لتنفيذ الهبوط الإنساني مثل العقل الإنساني..!

.. إنها لفاجعة ألا يدري الإنسان أو العقل الإنساني أنه لا يجوز إنكار أي شيء أو أي حدث أو أي وجود أو موجود أو رفضه أو تغييره أو تصحيحه أو تبديله أو المطالبة بنقيضه كما لا يباح أو يغفر ذمه أو رؤية عيب فيه أو التحدث عن أنه قد يكون أو أن يصاب بأي عيب بل ولا يجوز التضرع إلى أي إله أو أي خالق ليغير أو يفعل أي شيء أو ليشفي وينقذ من أي شيء كما لا تجوز الشكوى أو البكاء أو التألم أو الغضب مما يحدث ويصيب ويؤلم أي من أي شيء.

ـ نعم، إنها لفاجعة ألا يدري أن أي شيء من ذلك لا يجوز ولا يغفر أو يقبل أو حتى يعقل إذا كان يؤمن أنه يوجد كائن واحد مطلق الكمال والقدرة ويخلق كل شيء بكل القدرة والحكمة والرحمة والمحبة والاتقان وإرادة المصلحة والمنفعة.. وبكل ما في التخطيط والتدبير والتصميم والإخراج من ذكاء وعبقرية وكمال وجمال وموهبة بل وإعجاز..

ـ إذا كان يؤمن بهذا الكائن أو كان يوجد هذا الكائن..!

كيف لم يعلم أن رفض أي شيء في هذا الوجود هو رفض لفاعله.. رفض لتفكيره وتدبيره وتخطيطه ولإرادته ولأخلاقه وعلمه وفنه وقدرته وذكائه وإخلاصه وصدقه ولفعله ووظيفته بل

ولوجوده.. رفض لكل شيء فيه؟. كيف لا يعلم أن كل الآهات والأنات والدموع المتحدرة تألماً أو حزناً أو انفجاعاً أو ذعراً أو ضعفاً أو بؤساً ليست إلّا شكاوى وأسلحة وحجارة وقذفات وإفرازات تطلق وتصب وتلقى على المسؤول عن كل شيء والفاعل لكل شيء والمريد لكل شيء بل ليست إلّا لعنات توجه إليه ويرمى بها كل وجوده كل طلعات وجهه؟

إنه لا يوجد وجه يتلقى من اللعنات والبصقات مثل وجه المسؤول عن كل شيء..!

كيف لا يعلم أن صراخ الطفل ليس إلّا صراخاً ضد آلامه، وأن صراخه ضد آلامه ليس إلّا صراخاً ضد وجوده الذي صنع آلامه، وأن صراخه ضد وجوده ليس إلّا صراخاً ضد إيجاده، وأن صراخه ضد إيجاده ليس إلّا صراخاً ضد موجده الذي صنع وجوده وآلامه، وأن صراخه ضد موجده ليس إلّا اتهاماً ومحاكمة له أي لموجده.. لأخلاقه وتدبيره وتفكيره ولإرادته وقدرته ولكل معانيه..

وأن علاج أي مريض أو مشوّه أو مصاب بأية عاهة ليس إلّا تصحيحاً لخطأ أو خطيئة من أخطاء وخطايا المسؤول عن كل شيء بداية ونهاية ودائماً.. المسؤول عن كل شيء تدبيراً وتقديراً وتخطيطاً وإرادة وفعلاً..

وأن تشييع أية جنازة أو إقامة أي مأتم لن يكون في كل التفاسير إلّا تشييعاً لجنازة واهب الحياة وآخذها وإلّا إقامة مأتم على جثمانه.. أي تشييعاً لجنازة كل معانيه وإقامة مأتم على كل معانيه..

وأن إنزال العقاب أو إقامة الحد على أي مجرم أو مذنب أو عاصٍ ليس إلّا عقاباً لمن أراده أي المجرم أو المذنب أو العاصي.. لمن أراده وخططه وفعله وصاغه ليجيء كما جاء ويكون ويفعل كما لا بدّ أن يكون ويفعل أي ليس إلّا إنزالاً للعقاب بالمريد المخطط الخالق الصائغ وإقامة للحد عليه..؟

نعم، كيف لا يعلم الإنسان أو العقل الإنساني كل ذلك؟

كيف أمكن أن يحدث هذا.. ألا يعلم الإنسان والعقل الإنساني أن الكائن الكامل كمالاً مطلقاً أزلاً وأبداً في كل أفعاله ونياته ورؤاه وطاقاته لا يجوز أن يغير أو يبدّل أو يصحح أو يرفض أو ينقد أو يحاسب أو يعارض أو يرى فيه أي عيب أو نقص أي شيء يصنعه أو يوجده أو يريده أو يخططه أو يدبره أو يفسده أو يدمره أو يشوهه..

وألا يعلما أي الإنسان والعقل الإنساني أن أبشع عاهة يزرعها هذا الكامل الكمال المطلق في الوجه الجميل البريء ليست إلّا أعظم صور الجمال يصور ويعرض ويصنع ويرى بها هذا الكامل الكمال المطلق وجهه وأخلاقه وجماله وحبه ورحمته وحكمته وذكاءه وفنونه وفرحه وسعادته وتخطيطه وتدبيره وأشواقه وطموحه وشهواته ومسلاته ولهوه ولعبه السعيد المرح، وأن علاج هذه العاهة أو محاولة علاجها لن تكون إلّا شتماً وتحقيراً وعصياناً له وخروجاً عليه، وأنها أي هذه العاهة الوبيلة هي أعظم وأجمل هدية يخص بها هذا الكائن الكامل الكمال المطلق صاحب هذا الوجه المصاب بها، وأن التحديق فيها أي في هذه العاهة تحديق في جمال وجهه أي جمال وجه هذا الكامل الكمال المطلق وفي جمال كل معانيه وأخلاقه بل وصلاة وشكر له على تفضّله وإحسانه إلى هذا الوجه الذي أصابه بما به أصابه؟

نعم، كيف أمكن أن يحدث هذا؟

كيف أمكن أن يجهل الإنسان والعقل الإنساني ما لا يستطاع جهله؟

❀ ❀ ❀

إذن ألا يمكن أن يكون أشد عقاب سوف يعاقب به الإله هو العقاب الذي لا بدّ أن يعاقب به من يغيرون أو يصححون أو يحاولون أن يغيروا أو يصححوا شيئاً في هذا الوجود.. شيئاً مما أراده ودبره وخططه وفعله ورآه كل الحكمة والرحمة والقوة والجمال.. مثل أن يزيلوا مرضاً أو تشوّهاً أو نقصاً أو ضعفاً أو عذاباً أو شيخوخة أو بلهاً أو جنوناً أو غباء أو جهلاً أو قحطاً أو فقراً أو بؤساً أو يقاوموا ويمنعوا وباء أو يحولوا صحراء إلى خصب ورخاء أو يجعلوا الإنسان أطول عمراً وأقوى جسماً وصحة وأجمل جمالاً وأقل دمامة أو أكثر سعادة وراحة وسروراً أو يفعلوا أي شيء فيه تصحيح أو تغيير أو تبديل أو تجميل لأي شيء في هذا الوجود لأن فعل ذلك أو أي شيء منه عدوان على إرادته وحكمته ورحمته وتدبيره وتخطيطه وعلى تكوينه وعمله وعلى كل فنونه ورؤاه وحساباته النفسية والعقلية والفنية والأخلاقية والشخصية والدعائية والتمجيدية للنفس والتسلطية القهرية التفردية.. لأن فعل ذلك هدم له ولما بنته كل عضلاته وعبقرياته وشهواته وتخطيطاته وحساباته وإراداته وكل معنوياته، لأن فعل ذلك تسفيه شامل قاس معلن له.. تسفيه تحول إلى كينونات وحياة بل وإلى تعاليم وتعليم ونظم ومباهاة ونضال.. لأن فعل ذلك إعلان حرب على الإله. هل يوجد محاربون للإله مثل من يغيرون أو يصححون أو يصلحون ما فعله بكل حكمته وإرادته ورغبته وتخطيطه؟

.. أيهما أقبح: ألا نرى ما لا يستطاع ألا يرى أم أن نرى ما لا يستطاع أن يرى لأنه لا يمكن أن يرى؟

أليس الذين لا يستطيعون أن يروا ما يرى وما لا بدّ أن يرى هم أكثر من يرون ما لا يرى وما لا يستطاع أو يمكن أن يرى؟

أليس من يجهلون ما لن يجهل هم أكثر من يعرفون ما لن يعرف؟

أليس أعجز الناس عن الإيمان بالحقائق هم أقدر الناس وأقواهم إيماناً بالأباطيل والخرافات؟

أليس أعجز الناس عن فهم الموجود هم أقدرهم على فهم ما لن يوجد؟ أليس أعجز الناس عن الرؤية هم أقواهم رؤية؟

أليست العيون المبصرة أشد عمى من العيون العمياء؟

أليس أعجزهم عن فهم ما هو كل المنطق هم أقدرهم على فهم ما هو خروج على كل المنطق.. على كل منطق؟

أليس الاقتناع أو الزعم بأن هذا الوجود قد وجد بالمنطق ويحكم ويسير ويخطط بالمنطق إهانة وسباً وتجهيلاً لكل منطق؟ أليس وضع هذا الوجود في ضمير وتفكير وعيني إله وتفسيره فلسفة لإله تحقيراً لكل الضمائر والأفكار والعيون والفلسفات وتحقيراً لكل إله؟

أليس اختراع الإله ليكون تفسيراً ومنطقاً لهذا الوجود هو أقبح وأبلد اختراع؟

لعل أولى بدايات العقل الإنساني.. بداياته الضخمة في تحطيم وإفساد وتشويه وتبليد نفسه هي اعتقاده بأن هذا الكون تدبير وتخطيط وفن ومنطق وإرادة وخلق وصياغة وإخراج وحكمة ورحمة وقدرة أضخم وأنبل وأعقل وأفضل وأجمل وأقدر إله.. أو لعل ذلك هو أول بدايات الإنسان في فعله لذلك بنفسه أي بعقله..!

ولعل هذه البداية لا تزال هي أعظم وأقوى وأشمل ما يحطم ويفسد ويشوّه ويضلل العقل الإنساني ويصيبه بأبشع وأفدح البلادات والإهانات.!.. هل أهان الإنسان عقله أو أهانه عقله مثلما أهانه في هذه القضية؟ هل وجد مهين مهان مثل عقل الإنسان؟

لعل العقل الإنساني لو لم يضرب نفسه هذه الضربة أو لعل الإنسان لو لم يضرب عقله هذه الضربة لجاء أي العقل الإنساني ولكان أعظم صحة وقوة وبسالة ونشاطاً وذكاء واقتحاماً وصفاء..

إذن لماذا جاءت هذه الضربة. هل يوجد مستفيد منها؟

.. إنه لا بدّ أن تكون أكثر العقول ذكاء وبسالة وصدقاً وتديّناً ونظافة وتقوى ورؤية هي أقدرها على التحرر من ذلك وأسرعها إليه وأكثرها وأقواها جرأة عليه..!

إن إيمان العقل وتقواه وكرامته في قوته ومقاومته وجرأته ونشاطه لا في ضعفه واستسلامه واسترخائه...

إن العقل كائن محارب محاسب لا كائن مستمع مصدق مطيع، أي إن المفروض والمطلوب أن يكون كذلك..

ولكن لقد ظل أي العقل يجيء دائماً أو غالباً نقيض ما يفترض فيه ويطلب منه ويجب عليه..

لقد جاء أي العقل ليكون هو العيون التي ترى غير ما يرى وليكون هو الآذان التي تسمع غير ما يسمع، وليكون هو الكائن الذي يجد غير ما يوجد أي ليكون ذلك وكذلك غالباً أو إلا شذوذاً. إنها لاستحالة أن يصبح العقل معلم نفسه..!

لقد جاء العقل ليكون تفسيراً وتبريراً وتمجيداً لكل ما هو خروج على العقل.. ليكون رؤية للعقل فيما هو أقسى صدمة للعقل.. لقد جاء العقل ليكون كل المعلمين ضد العقل..!

لقد تخلق العقل مما ليس عقلاً وفيما ليس عقلاً فأصبح معلماً ومؤيداً وحارساً وداعية وفاعلاً لما ليس عقلاً... بل وأصبح مقاوماً معادياً للعقل.. لكل ما هو عقل..!

نعم، لقد أصبح العقل أشهر وأشرس أعداء العقل..!

.. العقل خالق ومبدع وواهب ولكن ما الحافز وما الهدف وما المنطق وما النتائج وما النفع وما الراحة أو السعادة أو السرور أو الحماية أو الأمن أو السلام أو الحب أو الوفاق أو التقوى أو الأخلاق أو الصدق أو الشرف أو الوقاية من الأخطار والآلام والمخاوف والمشاكل والهموم والأحقاد والبغضاء والخصومات والحروب والانقسامات أو من الضلال والأخطاء والبلادات والتزييف والتزوير والخداع

والانخداع أو من أي سوء أو قبح أو نذالة أو سفاهة أو سفالة في ذلك أي في وجود العقل ووجوده خالقاً مبدعاً واهباً؟

هل وجوده ووجوده كذلك أي مبدعاً خلاقاً وهاباً أعطى كل ذلك أو شيئاً من ذلك أكثر من النقيض؟

هذه هي القضية التي كان الحديث عنها..

إنها لقضية يصعب جهلها أكثر مما يصعب فهمها..!

لعله لم يكن هناك بد من هذا التوضيح مع أن هذا القصد مفهوم أو يجب أن يفهم بدون أي توضيح أو تصحيح..

وقد تكون أحياناً أو دائماً أسهل الأشياء على الفهم هي أصعبها على الفهم..!

وقد سبق الحديث عن أن الإله قد تخلق فيه كل العقل الخالق المبدع الواهب كل الخلق والإبداع والهبات وكل شيء وسبق التساؤل هل مجيء الإله كذلك جاء أفضل أو أنفع أو أشرف أو أنظف أو أتقى أو أكثر عطاء للسرور أو الراحة أو الرضا أو الاطمئنان أو السعادة أو الحب أو البراءة له أو لأي شيء من أن يكون أي الإله قد جاء بدون هذا العقل الخلاق المبدع الواهب لكل شيء؟ ولعل الشك أو الاختلاف لن يتدخل في جواب هذا التساؤل.. وهل تعذب أو افتضح أي كائن مثلما تعذب وافتضح الإله لأنه جاء ذا عقل خلاق مبدع وهّاب؟

إن الذي قد يجيب على هذا التساؤل هو العقل أو بمعونته أو تأليفه أو تنسيقه أو تحريضه أو بلغته أو بادعائه.. إذن كيف يجوز أن تقبل إجابته أو حتى تحاور أو يستمع إليها؟ ألا يغفر العقل هذا النقد له مفسراً غفرانه بأنه أي هذا النقد ليس إلا نقد العقل للعقل؟

نعم، أليس الناقد والمنقود هنا هما العقل ولو ظاهراً أو لغة؟

أليس في هذا تعويض للعقل عن هوانه وإذلاله واتهامه؟

لولا العقل هل كان يمكن أن تفهم أو تعلن عيوب وذنوب العقل؟

إذن ليفرح ويسعد ويفخر ويعتز العقل بذلك..

إنه كل الرؤية مهما كان كل العمى.. إنه كل من يرى مهما كان قبح عماه..!

ألا يكفي العقل فخراً ورضا ومجداً واعتذاراً إليه أنه لا يمكن فهم ذنوبه أو عيوبه أو ذنوب أو عيوب أي شيء إلّا به؟ أيها العقل أنت الجاني والمجني عليه.. الظالم والمظلوم في هذه القضية بل أنت المتهم البريء..!

ألا يهبك هذا شيئاً من الراحة والعزاء؟

إن العدل والمنطق ليقولان: إنه بقدر ما يجب الهجوم عليك يجب الدفاع عنك..

ولكن الرأي الآخر يقول إنك لا تستحق الهجوم ولا الدفاع فأنت لست نفسك ولكنك وجود آخر جاء في صيغة أخرى..!

إنك أيها العقل لست مخطط أو مريد أو صانع نفسك أو مطيع أو خادم أو قائد أو لغة أو مأمور أو آمر أو معلم نفسك. إذن ما أنت؟ هل أنت نفسك؟ وهل تقبل أو يرضيك أو يسعدك أو يهبك العظمة أن تكون نفسك؟ هل تقبل أن تكون نفسك لو كنت مختاراً أن تكون؟ العقل محكوم أبداً ولم يصبح حاكماً قط ولن يصبح هل عرف هذا أحد؟

❀ ❀ ❀

لقد طال بنا الحديث.. طال بنا بعيداً عما نريد الحديث عنه وعن القضية التي هي القضية. ولعله طال بنا فراراً مملوءاً بالرهبة من القضية التي هي قضية هذا الفصل بل التي هي قضية كل القضايا.. إن هذه القضية التي لا بدّ أن ترهقنا بالحذر والرهبة هي هذا السؤال أو التي يحددها ويعلن عنها هذا السؤال الذي يقول بكل الرهبة والإزعاج والانزعاج..

هل نحن متخلفون؟ نعم، نحن متخلفون في كل الصيغ والتفاسير الحضارية أو في كل كينوناتنا العلمية والفكرية والثقافية والصناعية والزراعية والإبداعية والعسكرية بل واللغوية والأخلاقية والدينية.. الاعتقادية والإيمانية والتعبدية..

إننا قد نعترف بتخلفنا هذا التخلف دون أن يضعف أو يهتز إعجابنا بأنفسنا بل وبتفوقنا العالمي.

.. ولكن ليس هذا هو السؤال الذي لا بدّ أن يكون هذا جوابه.. إن السؤال المعني هنا هو السؤال الرهيب الذي لم يوجد أو يقل أو يندر أن يوجد من سأله أو يسأله..

إن المراد بهذا السؤال الذي لا بدّ أن يكون صادماً فاجعاً مزعجاً: هل نحن متخلفون تخلفاً تكوينياً أي ذاتياً أي عرقياً جنسياً سلالياً أي تخلفاً لا يستطاع علاجه بأي دواء أو حيلة أو وسيلة أو تعليم أو حضارة أو مواجهة أو تحدٍ أو بأية صدمات أو قارعات أو تجارب أو زلازل أو ضربات أو نكبات أو حتى بأية نبوات أو ألوهيات..

بل يزداد ويقبح ويفحش افتضاحه وضعفه وعجزه وهوانه وهزائمه ورداءته ويتعاظم ويتعدد ويتنوّع إعلانه عن نفسه كلما واجه نقيضه الذي يتحداه ويذلّه ويهزمه ويطالبه بأن يتعلم ويتغير أو يهزم ويموت..!

إنه التخلف الذي كلما علم وتعلم ازداد جهله، وكلما أعطي وسوعد ازداد فقده وفقره وعجزه، وكلما استقل وحرّر ازداد استعباده وهوانه وعبوديته، وكلما عرف القراءة والكتابة ازدادت أميته، وكلما حمل وامتلك أقوى وأحدث الأسلحة عظمت هزائمه وكلما ألبس أثقل وأغلى وأجمل الملابس ازداد عريه وتعريه، وكلما كبر حجمه صغر معناه، وكلما ازداد عدده نقصت قوته وازداد ضعفه، وكلما عنف وتكبّر وتعصب وشمخ إيمانه ودينه وتديّنه فقد تقواه وبراءته وصفاءه وطهارته وصدقه وناقض وقاوم وشوّه كل معاني الإيمان والدين والتديّن.. كلما عظم إلهه ودينه قبح عصيانه لإلهه ودينه.!

.. كلما قال: اللّه أكبر قالت أخلاقه وأعماله وتقواه: اللّه أصغر وأنا أصغر..!

.. إنه التخلف الذي لا تستطيع نبوات كل الأنبياء ولا تعاليم كل الأديان ولا وعيد ووعود

وتضرعات وهتافات كل الآلهة الرحيمة والمتوحشة أن تداوي منه أو أن تخففه أو أن تعرف كيف تفعل ذلك أو تعلم فعله..

إنه التخلف الذي لا يستطيع أي شيء ولا كل شيء أن ينقذ منه أو يعلم القدرة أو يهب القدرة على الخروج منه أو على إخفائه أو على إضعافه أو على التخفيف من افتضاحه وفضحه.. إنه التخلف الذي لا يستطاع التخلص منه إلّا بقدر ما تستطيع الآلهة التخلص من أخلاقها وأوصافها..!

إنه القانون أو الآلية أو الطبيعة التي فرضت على الوجود أو التي فرضها الوجود على نفسه دون أن يدري أو يريد أو يفهم لماذا أو يستطيع أن يرفض أو يعارض أو يقاوم أو حتى يغضب أو يحتج أو يعلن الإضراب عن التكاثر والتوالد أو عن الاستمرار في البقاء وفي صيغ وأساليب الكينونة التي كانت أو التي كانها دون أن يستأذن أو يستشار أو يختار أو تختار له الصيغ أو الأساليب أو الكينونات التي يجب أن تكون أو التي قد تكون مريحة وملائمة ومعقولة ومقبولة وذكية وتقية ونبيلة ونظيفة وشريفة أكثر، وأكثر...

إنها الخطيئة التي لا يوجد مخطئها والوجود الذي لا يوجد موجده أو من يدّعي أنه موجده..!

إنه القانون أو الآلية أو الطبيعة المهينة الهازمة الشاتمة لكل منطق وخلق وتخطيط بل ولكل إله موجود أو محتمل.. التي حكمت دون أن تدرس أو تعرف القضية وحيثياتها وأسبابها أو تستمع إلى أقوال المختلفين والمتخاصمين فيها أو تعرف حقوقهم واحتياجاتهم أو تفكر فيها أو تتساءل عنها.. التي حكمت بالفروق الهائلة الأليمة الظالمة المجنونة بين الكائنات جماعات وجماعات.. سلالات وسلالات.. أجناساً وأجناساً.. أنواعاً وأنواعاً.. أعراقاً وأعراقاً.. أفراداً وأفراداً..

.. بالفروق بكل أساليبها وصيغها وتفاسيرها ومستوياتها وألوانها.. لقد جاء الفرق بين الأفراد.. بين فرد وفرد أقل وأخف جداً من الفرق بين سلالة وسلالة أو جنس وجنس أو نوع ونوع أو عرق وعرق يستثنى من ذلك كائن واحد هو الإنسان لا يشاركه في ذلك أحد حتى ولا الآلهة أو الملائكة..

.. إن الفروق بين أفراد الإنسان لا تساويها في نتائجها أية فروق..!

فالفرق بين إنسان وإنسان أي بين فرد من البشر وفرد أعظم وأضخم جداً من الفروق بين كل السلالات والأجناس والأعراق والأنواع. حتى الفروق بين آحاد الآلهة والملائكة وسائر الكائنات الغيبية السماوية تهون وتخفت وتخجل وتهزم أمام الفروق بين آحاد الإنسان..!

والقانون أو الأخلاق أو الآلية أو الطبيعة أو الفكرة أو الرؤية أو العماية التي صنعت الفرق بين إنسان وإنسان هي التي صنعت الفروق بين سلالة إنسانية وأخرى.. إنها الصناعة أو المصنوع الذي ليس له أو لها صانع..!

.. والذين ينكرون وينفون ويرفضون الفروق بين السلالات البشرية استفظاعاً واستقباحاً واستعباداً لذلك عليهم أن ينكروا ويرفضوا وينفوا الفروق بين الأفراد البشرية لنفس هذه الأسباب والتفاسير والحسابات..

.. والإله أو المسؤول الذي لم يتورع عن صناعة الفروق بين الأفراد كيف يتورع أو يخجل أو يتدين أو يهاب أو يتقي أن يصنع الفروق بين السلالات؟ والذي تتقبل أخلاقه أو إيمانه أو تقواه أو عقله أو ضميره أو كرامته الفروق الهائلة بين أفراد الإنسان كيف لا يتقبل شيئاً من الفروق بين سلالاته؟

إن الفروق بين الأفراد ليس إلّا أقوى إعلان عن الفروق بين السلالات أو الأجناس.. فالأفراد المتفوقون جداً لا تلدهم أو تصنعهم إلّا بعض السلالات أو الأعراق، وهذه السلالات أو الأعراق لا تهب هؤلاء المتفوقين بندرة أو شذوذ أو بقلة بل بتتابع وتكاثر وتنوّع وديمومة. إنهم توالد فيها.. والسلالات الأخرى لا تلد أو تصنع من هؤلاء المتفوقين الخلاقين أحداً، ألا يعني هذا أقوى التدليل على الفروق بين السلالات؟

.. مجتمعات تلد المتفوقين الخلاقين بتتابع وأخرى لا تلد منهم أحداً. أليس لهذا تفسير هو ما ذكر؟ كيف أمكن أن يوجد أي خلاف أو حتى احتمال خلاف في هذه القضية؟

... إن الذين يرفضون وجود هذه الفروق بل ويرفضون تصوّرها والحديث عنها يؤمنون بها ويلعنون إيمانهم بها بين سلالات الحيوانات والنباتات والطيور وكل الكائنات ويحاولون استبدال سلالة بسلالة من هذه المخلوقات بل ويفاخرون بأن ما يملكونه منها من السلالة المتفوقة لا المتخلفة.

.. كيف أمكنت رؤية الفروق التكوينية الذاتية الطبيعية بين سلالات الخيول والأبقار والكلاب والدجاج والصقور والأغنام والنباتات والحشرات والجمادات والأحجار ثم لم تمكن رؤية شيء من هذه الفروق بين السلالات والأجناس البشرية التي تفقأ وتفجع وترهب وتملأ الفروق بينها عيون ووقار وحسابات وتمنيات كل شيء وكل أحد والتي تفضح وتهجو أخلاق ومنطق وذكاء وعدل وشرف ونخوة وتخطيط كل إله في هذا الوجود أو فوقه.. والتي تكذب وتصدم كل من يرى في هذا الوجود أي شيء من العقل أو التدبير أو التفكير أو الحكمة أو الحساب الذكي أو حتى الغبي.. والتي تنفي بل وترفض أن يكون داخل أو خارج هذا الوجود أي مسؤول عنه أو أن يقبل أي مسؤول أن يكون داخله أو خارجه أو فوقه ليكون مسؤولاً عنه..!

والتشابه أو التقارب أو حتى التساوي في صيغ ومظاهر وأجساد السلالات البشرية لا يحمي من ضخامة الفروق بينها في معانيها، كما أن هذا التشابه أو التقارب أو التساوي في صيغ ومظاهر أجساد وذوات سلالات الكائنات الأخرى لم يمنع من وجود الفروق الهائلة بينها في الخصائص والأوصاف وفي الجودة والرداءة..

.. كذلك يقال في التشابه والتساوي في ذوات الأفراد المتفاوتين بلا حدود أو مقاييس أو حسابات في ضخاماتهم وضآلاتهم المعنوية...

.. التفاوت بين أفراد الإنسان لا يبقي أي احتمال لأن يكون فوق هذا الوجود أي مسؤول يريد ويدبر.

.. إن عملية التطور ومراحله وبدء الكينونة وظروف كل ذلك لا بدّ أن تصنع هذا التفاوت المحول للسلالات البشرية إلى مجتمعات متفوقة جداً وإلى أخرى متخلفة جداً..

هل يمكن أن يوجد تطور بدون هذا التفاوت أو أن يوجد وجود أو كينونات بدون أن تكون محكومة بقوانين التطور كلها وبنتائجه وعملياته وظروفه المختلفة المتفاوتة في قوتها وسرعتها وفي بطئها وضعفها وفي كل معاني ذلك؟

.. الإنسان كائن تكوّن بالتطور.. إذن لا بدّ من التفاوت الهائل بين فصائله..

إن نفي التفاوت بين السلالات البشرية يعني اتهاماً خطيراً وتفسيراً خطيراً.

إنه يعني أنه يوجد مسؤول عن كل هذا الوجود وعن كل شيء هو الذي أراده وخططه ودبّره وخلقه وصاغه في كل صيغه وكينوناته وأخرجه متفاوتاً كل هذا التفاوت القبيح الأليم البليد، ولكنه لأسباب قد تدعى معرفتها قد حابى الإنسان محاباة مخترقة لكل قوانين الكينونة والوجود ولقوانين كل شيء إذ جعل سلالاته متساوية في كل طاقاتها الإبداعية والإنسانية وفي كل معانيها وتفاسيرها وقدراتها واحتمالاتها..

وكم هو اتهام أليم فاجع قاسٍ الزعم أنه يوجد مسؤول عن كل هذا الوجود ومريد فاعل مدبر لكل هذا الوجود بكل ما فيه..

.. كم هو اتهام أليم فاجع قاسٍ ظالم قبيح لهذا المسؤول..!

هل يوجد كائن يقبل أن يكون هذا المسؤول مهما كان انحطاطه وهوانه وسفاهته؟

.. وعلى هذا التفسير أو التصور أو الاعتقاد أو الزعم لا بدّ أن تتهاوى الأسئلة والاتهامات قائلة بكل الغضب والقسوة والعنف والانفجاع والحماس: إذا كان هذا المسؤول مفتوناً كل هذا الافتتان بحبه وإرادته ومحاباته للإنسان فلماذا إذن أراد ودبّر وصنع كل هذا التفاوت الرهيب الشنيع المهين بين أفراده في كل شيء.. في الذكاء والغباء.. في العبقرية والتفاهة.. في القوة والضعف.. في الجمال والدمامة.. في الصحة والمرض. في التشوّه وفي استواء الذات.. في الإيمان والكفر.. في دخول الجنة ودخول النار.. وفي صداقته ومعاداته.. وفي جعل فرد النبي محمداً وجعل فرد آخر أبا لهب أو أبا جهل.. وفي السمو والسقوط.. وفي الشهامة والنذالة.. وفي الغنى والفقر وفي كل شيء..!

إنها لا بدّ أن تتهاوى عليه هذه الأسئلة والاتهامات التي لن يستطيع أي سد أو حاجز ألّا يتحطم ويهوي أمام أي سؤال أو اتهام منها.. إنها أسئلة واتهامات لا بدّ أن تهزم وتسقط كرامة وشرف وكبرياء وذكاء وأخلاق كل من توجه إليه متهماً بها..

.. وهل يوجد أقسى أو أنذل من أن يتهم أي كائن بأنه هو مريد وفاعل هذه الفروق؟

.. إن موقع هذه الفروق بأفراد الإنسان لا يمكن فهمه أو الغفران له أو العفو أو الصفح عنه أو وصفه بأي معنى جيد أو ذكي أو كريم أو نبيل أو معقول أو غير مريض شاذ خارج على كل المقاييس المتصورة والمحتملة والمتوقعة..

إن الإنسان بهذه الفروق لا يمكن أن يوجد أو حتى يتصور مشوّه معذب مهان محقر معتدى عليه مثله.. كيف لم يفهم هو ذلك؟

إن عجزه عن فهم ذلك هو أحد التشويهات التي أوقعت به..!

.. إن وجهاً دميماً مشوّهاً جداً أمام وجه جميل جداً ليبصق على كل ما في هذا الوجود من شموس ونجوم ومجرات وبحار وأنهار بل وعلى كل ما فيه من آلهة وملائكة وأنبياء وأديان وكتب مقدسة..!

إن مواجهة هذا الوجه لهذا الوجه ليكفي قبحها لإطفاء أضواء كل الشموس والنجوم ولتجفيف مياه كل البحار والأنهار..!

.. ماذا يمكن أن يقول هذا الوجه الدميم المشوّه أمام الوجه الجميل السوي لو تحوّل إلى كلمات؟ وماذا يقول ويصنع مخطط وصانع الوجهين لو سمع ما يقوله حينئذٍ الوجه الدميم أي بافتراض أن للوجهين مخططاً وصانعاً؟

وماذا لو أن هذا المخطط الصانع الخالق كانت له عينان تريان فرأى الوجهين متقابلين وفهم كل ما في هذا التقابل من أنات وآهات وحسرات ولعنات واتهامات...

.. لو أنه قرأ وسمع وفسّر ووعى وعقّل ذلك؟

أليس بقاء هذا الوجود كما هو باقٍ نفياً قاطعاً لاحتمال وجود المخطط الصانع له؟

.. هذا المشهد أو الموقف هل له مثيل في قبحه أو بشاعته أو بلادته؟

.. نبي أو ولي أو قديس أو شيخ أو داعية من دعاة الإله يرى هذين الوجهين متواجهين فيهتف بإلهه ولإلهه متحدثاً عن ضخامة وشمول وعظمة رحمته ورأفته وحكمته وعدله وجماله وحبه للجمال والكمال وعن معاداته للقبح والقسوة والإذلال والعدوان زاعماً أنه أي أن إلهه لا بدّ أن يتفجر سروراً ورضا وإعجاباً بهذا التمجيد لحكمته ورحمته وشفقته ومحبته وشهامته.. هل حدث هذا؟ هل رآه أو سمعه أو علمه أحد؟ لتصب كل العيون والآذان بكل العمى والصمم لئلا ترى أو تسمع هذا النبي أو الولي أو القديس أو الشيخ أو هذا الداعية في هذا المشهد أو الموقف.. ليمت كل إله لئلا يرى أو يسمع أو يعرف ذلك أو يتهم به.. كيف تستطيع أية عين أن ترى ذلك ثم يؤمن عقلها أو قلبها أو ضميرها بأن هذا الوجود غزل ونسج وحياكة أعظم إله؟

.. أيهما أقبح وأوقح: الإله الذي يفعل ذلك ثم يذهب ويظل يراه ويستمع بكل البهجة والكبرياء والرضا إلى كل الحمد والشكر والتمجيد له لأنه فعله أم هؤلاء الذين يهبونه كل الثناء والمديح والحب والتعبّد لأنه المريد المدبر الفاعل لذلك؟

أجل، أي الفريقين يصنع أعظم الغضب والغيظ والاشمئزاز والانفجاع: الفاعل لأقبح القبح أم المادح الممجد لهذا الفاعل؟

كم هو قبيح ورديء وضياع وفوضى ألّا يكون لهذا الوجود محاسب محاكم.. لا له هو ولا لإلهه ولا لإنسانه..!

كل هذا الوجود بكل آلهته وكائناته بلا مسؤول. كيف يطاق هذا؟

ولأنه لا يوجد هذا المحاسب المحاكم المعاقب المعلم الناهي الشامل فإن الإنسان أي مجتمعاً يعمل ويقول ويعتقد ويعلن ويفهم كل ما يريد ويستطيع أي كله بلا محاسبة أو معاقبة أو محاكمة أو حتى معاتبة أو تصحيح أو تعليم أو حراسة أي من خارجه..

ومثل الإنسان في ذلك الكون والإله أي وكل الآلهة الموجودة أو المفترضة..!

حتى الآلهة بكل ما يزعم لها من أوصاف وأخلاق ورغبات وقوى وسلطان وأوامر ونواهٍ ووعيد ووعود إنما أرادها وصاغها الإنسان بلا محاسب أو محاكم أو معاقب أو مراقب.. إن شيئاً لم يشوّه شيئاً أو يعتد عليه مثلما شوّه الإنسان الآلهة ومثلما اعتدى عليها بصياغته لها ولأوصافها..

لقد كان يصوغها ويعرضها ويشوّهها كما يستطيع ويريد بلا أية حماية..!

.. إن الثلاثة أي الآلهة والإنسان والكون أي الموجود منها والمفترض يتحاربون أبداً أبشع وأشمل وأدوم الحروب بكل الأسلحة المادية والمعنوية بكل القبح والفحش والقسوة والنذالة والسفه والجهالة والبلادة دون أمل في أن يوجد من يمنع أو يصلح أو يشفع أو يهدي أو يصحح أو يبدل أو يخلق ويصوغ من جديد.. إن الحروب والعداوات بين هؤلاء الثلاثة هي كل الحروب والعداوات.. حتى الحروب والعداوات بين الإنسان والإنسان ليست إلّا حروباً وعداوات بين الإنسان والآلهة وكذلك بين الإنسان والكون.. إن الإنسان في كل حروبه لم يحارب غير الآلهة والطبيعة.. إنها لو وجدت محاكمة من خارج الثلاثة لتعاقب كل فريق من الثلاثة على ما فعله بالفريق الآخر من عدوان وتعذيب وتشويه وإيلام وقبح وإفساد وتضليل لما استطاعت أي هذه المحاكمة أن تجد أو تتصور عقاباً يكفي لتعاقب به أي فريق من الثلاثة..!

.. إن هؤلاء الثلاثة هم كل الأعداء وهم أيضاً كل الأصدقاء.!

هكذا جاءت القصة القبيحة الحزينة جاءت ليكون كل الأعداء هم كل الأصدقاء وكل الأُصدقاء هم كل الأعداء أي في العلاقات بين هؤلاء الثلاثة الأصدقاء الأعداء...

إنه لو وجد الإله والكون فقط أو الإنسان والكون فقط لكانت الحروب والعداوات أقل وأخف..!

.. الكون والإنسان يعتديان على الإله كل أنواع الاعتداء بلا أية حماية، والكون والإله يعتديان على الإنسان كل أنواع العدوان دون أية حماية، والإنسان والإله يعتديان على الكون كل أنواع الاعتداء بلا أية وقاية..!

ما أبشع هذا، وما أبشع ألا يوجد من يشكى إليه من ذلك..!

... ما أبشع ألا يوجد من ينقذ الثلاثة بعضهم من بعض وألا يوجد من ينقذهم من أنفسهم..! أي الثلاثة أكثر احتياجاً إلى الإنقاذ: الإله أم الإنسان أم الكون؟ إنه لن يوجد المنقذ مهما وجد الجواب.!

ما أعظم حاجة الإله إلى أن ينقذ من عدوان وتشويه وفضح وإرهاق وتكاليف ومضايقات ومطاردات وعرض وإزعاج وفجع الإنسان والكون له.. لهذا لعله أكثر الثلاثة احتياجاً إلى الإنقاذ. إنه أي الإله يصاب بكل ذلك ويواجهه ويقاسيه ويتكلفه ويصبح مسؤولاً عنه وملزماً متهماً به بلا أي ثمن أو تعويض أو ربح أو فائدة له..!

وما أشد حاجة الإنسان إلى الإنقاذ مما يوقعه ويهدده به الإله والكون بكل أفراده وما يعدانه له من أول البداية إلى آخر النهاية، إذن قد يكون الإنسان هو أكثر الثلاثة احتياجاً إلى الإنقاذ.

أما احتياج الكون أو كل ما يسمى الطبيعة إلى الإنقاذ من الإله ومن الإنسان فهذا أكبر وأصعب من كل حديث وتفسير..!

⊛ ⊛ ⊛

ثم نعود إلى السؤال الرهيب المزعج الحزين لنقول مرة أخرى هل نحن متخلفون التخلف التكويني الطبيعي الذاتي السلالي..؟ لماذا يرهبنا ويزعجنا ويفجعنا هذا السؤال..؟ لماذا يفعل بنا ولنا ذلك سائلين ومسؤولين عنه ومستمعين سامعين له مجيبين عنه قارئين مفسّرين له أي لو حدث أن فعلنا أو فعل بنا ولنا ذلك؟

هل ذلك لأننا متخلفون هذا التخلف لهذا نرهب ونرفض أي حديث أو تساؤل عنه بل أي تفكير فيه وتصور ومحاورة له؟ فهل يصبح ويعني رفضنا حتى لمساءلة ومحاورة هذه القضية بكل هذا العنف والحساسية تدليلاً وشهادة على أننا مصابون بهذا التخلف الذي نرفض ونرهب بل ونعاقب الحديث عنه ولو بأسلوب ونبات المحاورة والمساءلة وإرادة الفهم والدراسة له؟

لماذا نهاب الحديث عن نقص لا يحتمل ولا نتصور أن نكون مصابين أو أن نصاب به؟

هل من ليسوا متخلفين هذا التخلف يرفضون أو يهابون أو يكرهون الحديث عنه مساءلة ومحاورة ومناقشة ودراسة بل هل يهابون أو يقاومون اتهامهم به أو أن يوجد فيهم من يتساءلون: هل نحن متخلفون هذا التخلف؟

لو وجد في أرقى الشعوب والمجتمعات وأعظمهم تقدماً وقوة من يكتب ويذيع ويخطب متسائلاً أو حتى متهماً منزعجاً: هل نحن متخلفون هذا التخلف أو حتى معلناً معتقداً أن شعبه أو مجتمعه متخلف هذا التخلف ومحاولاً التدليل على ذلك فهل يمكن أن يغضب أو يفجع من ذلك شعبه أو مجتمعه أو يخاف من ذلك أو يتهمه بأنه يحطم أو يضلل أو يخدر أو يضعف طموح وقوى وآمال ومستقبل قومه ووطنه كما نفعل نحن أمام هذا السؤال أو الاتهام أي لو وجد..؟

هل يخشى أو يرفض التقي القوي البريء من الجريمة الحديث عنها أي عن الجريمة وعن تفاسيرها ونتائجها والمحاسبة عليها والمقاومة لها أو البحث عن فاعلها أم الذي يخشى ويرفض ذلك هو الفاعل لها والمصاب بإدمانها؟

هل ينزعج المبصرون السامعون الأسوياء الأقوياء جداً من الحديث عن العميان أو عن الصم أو عن المقعدين المشلولين؟

هل يغضب المتفوق من الحديث عن المتخلفين وعن أسباب تخلفهم بل أو من التساؤل: هل هو من المتخلفين؟

.. إذن حذرنا من هذا التساؤل ورفضنا له قد تكون لهما دلالات وتفاسير أليمة رديئة. إن ذلك أسلوب آخر من أساليب امتداح النفس والتحدث عن التفوق ولو بالتاريخ والآباء على الآخرين.. كل الآخرين..

ودلالات وتفاسير هذا الامتداح حزينة وذميمة. إنها تعني نقيض ما يقوله ويعنيه المديح والحديث عن التفوق..

.. إن الحديث عن التفوق نقيض للتفوق وإن الحديث عن النفس ورؤيتها بكل التواضع الذاتي أي غير المعلم الملقن الاستعراضي نوع من التقدم والبحث عنه والإرادة له والسير في طريقه.. إن الذكي والعظيم لا يقول أنا ذكي وعظيم أما من ليس ذكياً ولا عظيماً فيقول إنه ذكي وعظيم بل وأكثر من ذلك..!

.. إن مشاعر ورؤية الذات في المرآة لها تفاسير ودلالات متناقضة.. إن المرآة الواحدة ليست واحدة أمام المحدقين فيها. إن الإنسان لا يرى بعينيه ولكن عينيه تريان به. إن العيون لا ترى ما أمامها بل ترى ما في داخلها وما وراءها وما يراد لها.. إنها لا ترى ما ترى ولكنها ترى ما عملت وأريد منها أن ترى..!

.. ماذا لو كانت العيون ترى ما أمامها؟ ماذا ترى حينئذٍ عينا الإله؟

.. إن العيون ترى ما لا يرى وما لن يرى أكثر وأقوى من أن ترى ما يرى وما لا يستطاع أو يستطيع ألا يرى..!

إن العيون لم تركب في الرائي لترى بل لترى ضد الرؤية..!

لقد جاءت العيون لترويض الرائين على ألا يروا ما يرون بل على أن يروا نقيض ما يرون ونقيض ما يرى.

.. إن سؤالنا لأنفسنا هذا السؤال أو حتى شكنا أو اعتقادنا وإعلاننا بأننا متخلفون هذا التخلف لن يسحب منا أو يضعف فينا شيئاً من قدراتنا واحتمالاتنا الكامنة الصامتة الجيدة ولن يعوقنا أو يؤخرنا عن تخطي هذا التخلف بل المفروض ولو نظرياً أن نحاول الانتصار على ذلك.. عليه سؤالاً واعتقاداً وإعلاناً أي مواجهين له كذلك بالسؤال والاعتقاد والإعلان أي إن كانت هذه القدرات والاحتمالات فينا.

.. نعم، المفروض أن نحاول هذا الانتصار ولو بنيات وأسلوب التحدي والتكذيب والمنافسة وحماية النفس.. إن الطاقة الموجودة الصامتة الساكنة لا بدّ أن يطلقها ويفجّرها أو قد يفعل ذلك التحدي والاتهام والتكذيب والهجاء لها، ولن يفعل ذلك العكس.. إن التحدي محرض قوي على إطلاق وتفجير الطاقة الساكنة الصامتة المسترخية المختبئة..!

.. إن الضعفاء المتخلفين البلداء لم يصبحوا كذلك لأنهم اتهموا أو أفهموا أو اعتقدوا بأنهم كذلك أو لأنه قيل لهم كونوا كذلك، وإن الأقوياء المتفوقين الأذكياء لم يصبحوا كذلك لأنهم وصفوا بذلك ولا لأنهم أعلنوا كذلك ولا لأنهم اعتقدوا بأنهم كذلك بل ولا لأنهم أرادوا أن يكونوا كذلك. إن المواهب وكذا فقدها تخلق لا خلق..!

إن الموهوب محكوم عليه بذلك وكذلك فاقد الموهبة. إن الطاقة الإبداعية تتكون في الكائن كما تتكون أعضاؤه.!

.. فالمواهب لا تتخلق أو توجد أو تفقد بالأوامر أو الاتهامات أو الاعتقاد أو بالتفاؤل أو التشاؤم، كما أن الدمامة والجمال وسواد اللون وبياضه وكل أوصاف الجسم لا تكون بذلك لا نفياً ولا إثباتاً..

إن أذكى الأذكياء سيكون أذكى الأذكياء مهما قيل له أو اعتقد أو خاف أو تصور أنه أغبى الأغبياء..

وإن أغبى الأغبياء سيكون ويظل أغبى الأغبياء مهما قيل له أو اعتقد أو تصور أو أعلن أنه أذكى الأذكياء..

إن كل الأنبياء بكل كتبهم المنزلة وتعاليمهم ووعودهم ووعيدهم ووصاياهم التي روتها الملائكة عن الآلهة لا يستطيعون أي كل الأنبياء أن يصوغوا من ضمير ضعيف ضميراً قوياً أو من عقل بليد عقلاً ذكياً أو من نفس وقحة شريرة نفساً مهذبة خيرة أو من موهبة ضعيفة موهبة قوية أو من عواطف وأحاسيس مسترخية خامدة عواطف وأحاسيس متوقدة نابضة مهما صاغوا ركباً راكعة وجباهاً ساجدة وألسنة زائفة كاذبة واعظة وأخلاقاً معادية مخاصمة شاتمة، وشعوباً وطوائف مقتسمة متباغضة متبارزة متحاربة متلاعنة..!

هل يفقد الإله ألوهيته أو تضعف ألوهيته لو قيل له أنت لست إلهاً أو أنت ضعيف الألوهية أو لو شك في ذلك أو ساءل نفسه عن كونه كذلك..؟

ألا يحدث أن يشك الإله في ألوهيته أو في قوتها وكمالها؟ كيف لا يحدث؟

.. وهل يصبح أي الإله أفضل أو أقوى أو أتقى أو أذكى ذاتاً أو أخلاقاً أو تدبيراً أو تفكيراً أو حكمة أو رحمة أو تعاملاً مع النفس ومع كل شيء أو أن يتحول ويتغير إلى هذا الأفضل الأقوى الأتقى الأذكى لو قيل له أنت كذلك أو لو اعتقد وأعلن عن نفسه أنه كذلك..؟

حتى الإله إنه بكل كينوناته ومواهبه وطاقاته وأخلاقه تخلق لا خلق أي تكون وكينونة لا تكوين. وكما جاء الإله تكوناً وكينونة لا تكويناً هكذا جاء كل شيء..

.. وبالمنطق الذي تكوّن به الإله تكوّنت وتتكوّن كل الأشياء.!

.. إن كل شيء لكذلك أي تخلق لا خلق.. الشموس والنجوم والمجرات والبحار والأنهار وكل موجود ووجود وكذا الآلهة والإنسان وكل ما كان وما سوف يكون تكون لا تكوين.!

إن التحديق في الأشياء لن يرى غير ذلك..!

حتى ما يرى ويزعم ويبدو خلقاً ليس إلّا تخلقاً. إنه كينونة لا تكوين.. إنه كينونة في ذات من يرى مكوّناً وفي ذات من يرى مكوناً.. أي في ذات من بدا أنه فعل التكوين وفي ذات من بدا أنه قد فعل به التكوين..!

هل يمكن تكوين أي شيء أو فعل أي شيء به قبل تكونه وكينونته؟

إذن أليس كل شيء وكل وجود تكوناً لا تكويناً مهما بدا وفهم غير ذلك؟

.. ليت الأشياء والكائنات تكون بإطلاق الأوصاف عليها أي بأن يقال لها أنت هذا أو يقال لها أنت نقيض هذا.. ما أسهل وأعظم حينئذٍ كل شيء..

حتى الإرادة هل تستطيع أن تصوغ أو تهب الشيء أو الكائن غير كينونته؟

هل تستطيع الآلهة أن تكون غير ما كانت.. أفضل أو أقوى مما كانت مهما أرادت ذلك؟

إذن لماذا لم تكن هذا الأفضل والأقوى؟ هل عجزت عن أن تريد أم عجزت عن أن تكون أم عجزت عن هذا وهذا؟ هل يحتمل أن الآلهة لم ترد لنفسها أن تكون أعظم وأقوى وأدهى وأذكى وأعلم وأنشط مما كانت لكي تكون انتصاراتها على أعدائها وضرباتها لهم أحسم وأبطش، ولكي يكون نصرها وتأييدها وتمليكها وعطاؤها لأوليائها وأنبيائها وأصدقائها أقوى وأضخم، ولكي تكون أمجادها ومزاياها أكبر وأكثر وأشمل، ولكي تكون كرامتها وشهامتها أنبل وأشرف، ولكي تجعل كل شيء أجمل وأنظف وأسعد، ولكي تكون أوامرها وسلطانها وتعاليمها وشهواتها ورغباتها هي القائدة الحاكمة المطاعة المحترمة المرادة المنفذة في الوجود كله؟

إن كل العقول لتقف هنا متصاغرة ذليلة مهزومة حزينة مفجوعة لتتساءل: لماذا لم ترد الآلهة لنفسها ذلك ولماذا لم تصغ نفسها هذه الصياغة لكي تكون لها وللإنسان ولكل شيء هذه المزايا؟ هل يمكن أن تكون الآلهة قد اعتقدت أنها هي وكل ما تفعله هما كل الكمال والجمال حيث لا يحتاجان إلى أي تصحيح أو تبديل أو تكميل؟

.. هل يمكن أن تفهم أي العقول أنها أي الآلهة لم ترد ذلك أو أنها أرادته ولكنها لم تستطع أو تفهم أن تفعله؟

ما أقسى ورطة وعذاب وفجيعة وحيرة العقول الرائية القارئة المتسائلة.. لهذا ما أقل هذه العقول.!

إنه لا شيء يعذبها ويفجعها ويقهرها ويهينها مثل أن تحاول فهم الآلهة أو محاسبتها أو مساءلتها أو التحديق فيها أو مطالبتها بأن تكون مفهومة أو معقولة أو مغفورة.. هل اعتدي على العقول مثل الآلهة أو اعتدي على الآلهة مثل العقول؟؟ من يحكم؟.. في هذه القضية هل جنى غير العقل على العقل؟ أليس المهان هنا هو المهين؟ أليس العقل هنا هو الذي صنع عاره أي خاضعاً مطيعاً لطغيان وسلطان وأوامر وشهوات وبلادات غيره؟ وقد سبق في هذا الفصل الكلام عن وظيفة العقل ومكانته. وهو الرأي الذي رأيته وأراه..

إن العقل المحسوب أعظم المواهب والهبات هو أعظم المآسي والورطات..!

⊛ ⊛ ⊛

ولكن ما الجواب عن السؤال الصامت الصارخ أبداً بكل الأصوات واللغات وهو هل نحن متخلفون التخلف التكويني الذاتي السلالي..؟

.. عن السؤال الصامتة عنه كل الألسنة الناطقة به كل الأفعال والأوضاع والكينونات.. كل الأوقات.. بكل الأساليب والتفاسير.. إنه السؤال الذي صمتت عنه كل ألسنتنا وصرخ ويصرخ به كل وجودنا وتاريخنا..

كم هو صعب السؤال فكيف الجواب عنه؟

إن كل جواب عن هذا السؤال لن يكون حاسماً ما لم يكن بالفعل أي ما لم نتجاوزه بكينوناتنا أي ما لم نتحول من متخلفين كل صيغ وتفاسير التخلف إلى متقدمين كل صيغ وتفاسير التقدم أي التفوق..

.. غير هذا الجواب الذي هو جواب بالفعل والكينونة عن هذا السؤال الكريه تبقى أجوبة أخرى منها الجواب بالتجارب العملية القاسية الدائمة..

تقول هذه التجارب: لقد ظلّ تخلفنا الشامل الفاجع طويلاً، طويلاً يواجه ويعايش كل التحديات المهينة الحزينة الضاربة القارعة.. كل التفوّق الغازي المحارب الهازم المعلم المغري المذل الفاضح المالىء الساحر القاهر لكل العيون والآذان والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق.. المبارز بكل الجبروت بكل أسلحة ووسائل الانتصار والقهر لكل ما في تاريخنا ومقابرنا ومحاريبنا ومنابرنا وذكرياتنا وأشعارنا من آلهة وأنبياء وأديان وأبطال وأمجاد وفتوحات وغزوات وانتصارات مقروءة مكتوبة معبودة متعبدة متعبد بها.. يبارز كل ذلك مهدداً له بالتحطيم والإزالة والتكذيب والفضح والتهوين والاستهزاء به.

- نعم، تقول هذه التجارب: لقد ظل تخلفنا كل الزمن يواجه التعايش كل ذلك بكل هذه القسوة دون أن يستعين بطاقة التفوق الساكنة المختبئة فينا ودون أن تتحرك هذه الطاقة من داخلنا لكي تعينه أي تعين تخلفنا أو لكي تطرده لتكون بديلة أي لو افترض وجود هذه الطاقة..

.. تقول هذه التجارب فيما تقول: ألا يعني ذلك حتماً أن هذه الطاقة ليست في داخلنا ولم توجد قط في داخلنا..

ولو كانت هذه الطاقة أي طاقة التفوق والتخطي للتخلف موجودة في داخلنا وصامتة كل هذا الصمت في مواجهة هذه التحديات فهل يمكن حينئذٍ تصوّر مثلها بلادة وخموداً وهواناً بل وموتاً، موتاً؟

أليس فقدها ونفيها حينئذٍ أكرم وأشرف لها من وجودها ومن إثباتها بل وأشرف وأكرم لنا؟

إنه لصعب جداً بل ومستحيل جداً أن تكون هذه الطاقة أو الموهبة موجودة في داخلنا لم تظل

خامدة هذا الخمود أمام هذه التحديات. إنه لصعب بل ومستحيل اعتقاد ذلك أو زعمه..!

هل في ذواتنا طاقة ليست في الذوات الأخرى وهي قدرتها على اعتقال مواهبها العظيمة في داخلها دون أن تأذن لها بالانطلاق؟

.. إنه لمستحيل أن تظل كل العيون المبصرة رافضة للرؤية أو مغلقة دون الرؤية أو عاجزة عن الرؤية أمام كل المواجهات المتحدية المدمرة الخطيرة المحتاجة لكل الرؤية والتي لا إنقاذ منها إلّا بالرؤية..

أو أن تظل كل الأقدام السليمة القوية رافضة للحركة أو عاجزة عنها أو مهملة أو ناسية أو كارهة لها وهي تواجه كل الأخطار بكل صيغها ومعانيها التي لا يحمي أو ينقذ منها إلّا الحركة بكل قوتها.

إذن ما أقسى وأقوى ما تقوله التجارب في هذه القضية.. أليست التجارب المحكمة الكاملة هي كل وسائل النفيِ والإثبات؟

لو كنا نملك هذه الطاقة الصامتة المختبئة الساكنة أمام كل ما نواجه فهل يمكن أن يوجد ما يستحق كل العقاب والهوان والمذمة مثل هذه الطاقة؟ هل يوجد حينئذٍ مثلها هواناً وبلادة وسقوطاً؟

.. وهل الطاقة الصامتة العاجزة الساكنة أبداً طاقة؟

لقد عجزنا كل هذا العجز في كل معانينا وصيغنا وطوائفنا ومواقعنا ووظائفنا وكتلنا وانتماءاتنا حتى ليصعب أو يستحيل تفسير ذلك بغير الاقتناع بأنه لا يوجد شيء في داخلنا أي شيء قوي صامت قادر على الصمت وقابل للصمت أمام هذه المواجهات..

ومع هذا كم أتمنى وأنتظر وأطالب أن يكذب هذا التفسير أو هذا الاحتمال..

إن هذا التفسير أو الاحتمال ليطالبنا ويفرض علينا أن نواجهه بأذكى وأقوى وأقسى المواجهات لكي نثبت بطلانه. إن الحديث عنه نوع من المواجهة والمقاومة له أو يجب أن يكون كذلك كما أن معرفة المرض وإعلانه والشكوى منه قد تكون بدءاً لمقاومته وللتداوي منه أو يجب أن تكون كذلك.. كما أن الأنين أو الصراخ رفضاً لشيء أو إعلاناً عن قبحه وظلمه وفحشه وبلادته وهوانه وفساده قد يكون أسلوباً من أساليب إعلان الحرب عليه أو دعوة إلى ذلك وتحريضاً عليه..!

إذن علينا ألا ننزعج أو نغضب ممن يتحدثون عن هذا التخلف الذاتي التكويني السلالي بل ولا ممن يخشون أو يظنون أو حتى يعتقدون أننا مصابون به.. لأننا إن كنا مصابين به فلا ضرر من ذلك البتة لأن تخلفنا حينئذٍ لن يزيد أو يتعاظم. أما إن لم نكن مصابين به فإن حديثنا عنه وتخوفنا أو حتى اعتقادنا بإصابتنا به قد يحرض أو لا بدّ أن يحرض طاقاتنا الكامنة الساكتة على الانطلاق والتفجر خضوعاً وطاعة واستجابة لقوانين التحدي..!

إذن فعرض هذه القضية إما لا ضرر ولا نفع فيه أو فيه نفع بلا أي ضرر.

.. ومن سيئات هذا التخلف أو من حسناته ومنافعه أن المحكومين المصابين به لا ينتقلون بين

التقدم والتخلف أو بين التخلف والتفوق.. أي لا يصبحون لا هم ولا أجدادهم أو أحفادهم في فترة من التاريخ أو الزمن تحت ظروف وأسباب معينة متقدمين أو متفوقين وفي فترات أخرى نقيض ذلك. إنهم أبداً متخلفون في كل الظروف والأزمان.. كذلك لا يتخلق من هؤلاء المتخلفين أفراد عباقرة مبدعون خلاقون على المستوى الأعلى العالمي.. لا في الحكم ولا في القيادة أو الزعامة أو السياسة ولا في الحروب ولا في العلم أو الفكر ولا حتى في الشعر أو الفنون أو الآداب ولا في أية قضية من قضايا الإنسان أو الحياة أو الحضارة. إنه تخلف شامل متساوٍ في أنواعه وتنوّعه..!

إن التخلف في أي نوع من هذه الأنواع لا بدّ أن يساوي بل ويعني تخلف الأنواع الأخرى.. فالتخلف في السياسة أو الزعامة أو القيادة أو الحكم لا بدّ أن يساوي ويعني التخلف في العلوم والآداب والفنون والتفكير.. كما أن التخلف في هذا لا بدّ أن يعني ويساوي التخلف في ذاك أي في المجتمعات والشعوب المصابة بهذا التخلف الذاتي التكويني..!

إنه لن ينتظر مفكر أو عالم مبدع فيمن كل زعمائهم وقادتهم وحكامهم متخلفون..!

.. وما يقال ويرى عن تقدم وتفوق آباء هذه المجتمعات والشعوب بتلك المبالغات المخجلة المضحكة لم يكن ولن يكون إلّا إشاعات وأوهاماً وأكاذيب قد يكون من الحوافز عليها إرادة التعويض والتفكير عما هو حادث وواقع..!

إن العاجزين والناقصين لا بدّ أن يبحثوا عن التعويض بأساليب وصيغ فاضحة مخجلة ولا بدّ أن يجدوا ويعلنوا هذا التعويض.. والمتخلفون هذا التخلف متفوقون جداً في الادعاء وفي المباهاة بآبائهم وتاريخهم بل وفي اعتقادهم وزعمهم أن تاريخهم وآباءهم وأنبياءهم وخلفاءهم هم بداية ونهاية كل كون جميل عظيم بل وأنهم المعلمون للشموس والنجوم كيف تضيء وتصعد، وللأنهار كيف تجري وتروي، وللحقول كيف تخضر وتزهر وتثمر، وللنسيم كيف يهب ويلطف ويتلطف، وللآلهة كيف تسعد وتفرح وترضى وتعطي وتغفر وترحم، وللكون كيف يصبح منطقياً وعلمياً وأخلاقياً وإنسانياً وتخطيط وتدبير ومشيئة وصناعة إله، وللعقل والدين كيف يفتران كل قبح ووحشية وعبث وفوضى وسفاهة وبلادة في كل شيء بكل الجمال والحب والرحمة والذكاء والعدل والنظام والعقل، وللعيون أن ترى كل جمال الإله في أبشع الدمامات والتشوّهات وفي كل الدمامات والتشوّهات..

.. ألسنا نزعم ونعتقد أن أنبياءنا وخلفاءنا وآباءنا هم كل هؤلاء المعلمين لكل ذلك؟ بل ألسنا نرى ونعلن ونعلم أن كل أمجاد الماضي والحاضر والمستقبل تسكن في مقابرنا التي يسكن فيها أنبياؤنا وخلفاؤنا وآباؤنا وشعراؤنا بل تسكن أي كل أمجاد الحاضر والمستقبل والماضي في سطور وحروف كتبنا التي رويناها وكتبناها وتلقيناها عن آلهتنا وأنبيائنا وخلفائنا وفقهائنا وجهالنا وكذابينا ودجالينا؟ أليست أعظم أمجاد إلهنا بل كل أمجاد إلهنا هي أمجاده المدفونة في مقابرنا مع أنبيائنا وخلفائنا وفقهائنا وغزاتنا والمدفونة في سطور وحروف كتبنا؟

أليس كل مجد قد كان أو سوف يكون مدفوناً في مقابرنا ومكتوباً على سطور كتبنا؟

.. إنه لا شيء يثقل ويهين ويذل ويفسد ويسرق ويستعبد عقولنا وذكاءنا وأشواقنا وأخلاقنا

وأوقاتنا وصفاء نفوسنا مثل قبورنا وكتبنا التي روتها وكتبتها وفسّرتها قبورنا..!

إنه لا يوجد عدو لنا مثل قبورنا ومثل كتبنا التي روتها قبورنا ورويناها عنها.

إن كذب التاريخ والكذب على التاريخ وبالتاريخ هو أصدق الصدق في مجتمعاتنا وتعاليمنا..!

إن كل كذب قد يحاسب ويحاكم ويعاقب وقد يكتشف وقد يؤذن أو يغفر أن يفعل به وله وذلك إلّا الكذب على التاريخ والكذب به وإلّا كذب التاريخ أي في مجتمعاتنا وحياتنا..!

إذن كيف نصدق أننا كنا في التاريخ أو في إحدى فترات التاريخ متقدمين أو متفوقين أو لسنا نعيش ونعايش تخلفنا هذا الشامل الفاجع الراسخ الذي لم يستطع أن يداوي أو يخفف منه أي شيء ولا كل شيء.. من سحب منا ذلك التفوق الخارق المعجز وكيف سحب إن كان قد سحب أي قد وجد وسحب؟ هل يمكن أو يستطاع أن تسحب من الأبناء خصائص الآباء الوراثية؟ هل وجدت أو يمكن أن توجد مثل هذه المعجزة؟ إنها لو وجدت لأصبحت تهديداً خطيراً رهيباً لكل شيء. إنه لن يوثق حينئذٍ بأن أية كائنات أو سلالة سوف تبقى فيها خصائصها متنقلة في أجيالها دون أن تسحب منها بأسلوب خارج على كل ما عرف من قوانين الطبيعة وأخلاقها.. إنه لتهديد رهيب حينئذٍ لكل شيء ولكل واحد.. إن عملية السحب هذه لو وجدت لن تبقي أماناً لأي شيء ولا ثقة بأي شيء. إن أرقى وأذكى وأقوى وأعلم الشعوب اليوم قد تتحول حينئذٍ فجأة إلى كل النقيض بل تتحول إلى كائنات أخرى..!

.. منذ ألف وأربعمائة عام تفجرت في شعب صحرائي أمي طاقات ومواهب على كل الاتجاهات وبكل الصيغ والتفاسير قهرت وبهرت وأذلّت وأخافت كل العالم وأدّبته وعلّمته وتعلم منها كل شيء أي من ذلك الشعب الصحراوي الرملي الأمي.. وفجأة وبعد أعوام قليلة سحبت أو انسحبت من هذا الشعب الصحراوي الأمي هذه الطاقات والمواهب ليصبح هو وسلالاته فاقداً لكل شيء أي من الطاقات والمواهب والنشاط والابداع مهزوماً في كل ميدان متخلفاً كل صيغ وتفاسير التخلف.. ليتحول إلى كل الرثاء أو إلى كل الشماتة والاستهزاء في كل مواجهاته وممارساته وتصرفاته ومواقفه وفي كل معانيه ليعيش أبناؤه أي أبناء هذا الشعب حتى اليوم مسحوبة منهم كل هذه الطاقات والمواهب..

ليواجهوا عالم اليوم بكل أحداثه وكينوناته كما يواجهونه وكما يواجههم.. بكل هذا الهبوط إلى قاع كل حضيض..!

هل حدث هذا؟ وكيف حدث؟ هل يمكن أن يكون لهذا تفسير غير الاقتناع بكذب التاريخ والكذب على التاريخ والكذب بالتاريخ؟ هل وجد كاذب أو مكذوب عليه أو به مثل التاريخ؟

هل له من تفسير غير الاقتناع بأن أولئك الآباء من ذلك الشعب لم يكونوا إلّا نسخاً وصوراً قديمة نسخ وصور منها أبناؤهم.. أبناء اليوم. إن هؤلاء الأبناء ميراث صحيح عن أولئك الآباء.. أليس الأبناء أصدق إرث للآباء في كينونة كل الكائنات..!

.. لعل مزاياهم الحضارية المتفوقة المروية لم تكن إلّا شعراً عربياً.. إلا شعر مديح عربي.. هل

قرأنا شعر المديح العربي لنعرف ماذا يساوي ويعني؟ إن شعر المديح العربي هو تعبير عن كل الإنسان العربي وليس عن الشاعر العربي فقط..

إنه تعبير عن كل الإنسان العربي.. عن احترامه للصدق وللكلمة ولما يقول ولنفسه وللغته وقومه وتاريخه ولكل شيء.. إن الشاعر العربي مادحاً يعبر عن خصائص وأخلاق الإنسان العربي في كل طوائفه ومواقعه ومواقفه وليس عن الشاعر العربي وحده.. إن من لم يعرف شيئاً عن الإنسان العربي فقرأ شعر الشاعر العربي لكفاه ذلك ليعرف كل شيء عن خصائص ومواهب وأخلاق الإنسان العربي..!

.. لقد تعلم وتلقى وورث أخلاق شعره من أخلاق شعبه.. لقد حول أخلاقه ورؤاه إلى شعر ولم يبتكرها.. لقد أعطى لشعبه ما زرع فيه شعبه. لقد تكلم بلغة شعبه بأسلوب يسمى شعراً.. إن الشعر العربي كلام عربي جاء بصيغة تسمى شعراً.. إذن فشعر المديح العربي يساوي الإنسان العربي، والإنسان العربي يساوي شعر المديح العربي لأن الشاعر العربي هو الإنسان العربي متحولاً إلى شعر ومقروءاً شعراً.. فالإنسان العربي ليس غلطة قبيحة شاذة في الإنسان العربي ولكنه هو في حالة نطق.. أيهما أقسى تعبيراً عن الإنسان العربي.. القرآن العربي أم الشعر العربي؟ القرآن ليس شعراً ولكن هل يتفوق على الشعر في الوقار المفقود؟

.. فالشاعر العربي إذا كان قبيحاً ومنافقاً وكذاباً وذليلاً وبليداً وفاضحاً مفتضحاً مفضوحاً فالإنسان العربي كله كذلك...

.. فالإنسان العربي الراوي أمجاد آبائه والمؤمن بها كل هذا الإيمان هو كذلك.. هو شاعر عربي بلا وزن أو قافية..

.. إن الشعر لم يخلق الأخلاق العربية ولكن عبر عنها وكذا فعل القرآن..

إن العرب لم يفطنوا إلى فضح الشعر لأخلاقهم ومواهبهم كما لم يفطنوا إلى فضح القرآن لذلك فيهم..!

نعم، أولئك الآباء الصحراويون الأميون الرمليون.. آباء هؤلاء الأبناء انطلقوا وهجموا فغزوا وفتحوا واحتلوا فأخذوا ونهبوا وغنموا وأذلوا واسترقوا الفتيان والفتيات والعجائز وباعوهم وباعوهن واشتروهم واشتروهن وامتلكوهم وامتلكوهن واغتصبوا أعراضهن وأعضاءهن المحرمة المحترمة وحوّلوا شعوباً إلى عبيد وأوطانهم إلى غنائم وحولوا ملوكهم وسادتهم وعظماءهم إلى خدم وإلى بضائع تباع وتشترى وتعرض في أسواق البيع والشراء والمساومة. وحوّلوا عروشهم وتيجانهم وقصورهم إلى لعب وملاعب وقلائد ومضاجع لجواريهم وغلمانهم المنهوبين المسروقين.

لقد فعلوا كل ذلك في لحظات أو حماقات أو سفاهات أو مفاجآت فعلها التاريخ بنفسه لا يمكن فهمها أو تفسيرها بأكثر أو أذكى من أن يقال لقد كان التاريخ ينتحر، ينتحر بذلك.. لقد كان هذا الانتحار أشهر وأقسى عمليات التاريخ الانتحارية..

إن التاريخ ينتحر كثيراً ومرات، مرات كثيرة، ولعله دائماً في حالات انتحار دائمة.. لعل كل ما يفعله التاريخ انتحار ولكن الاختلاف في الأساليب وفي العنف والخفة..

إن التاريخ لا يفعل شيئاً لا يكون الانتحار ونيات الانتحار كل تفاسيره..!

ولعل أعجب أو أسوأ أو أفضل ما في انتحار التاريخ أنه انتحار لا ينهي المنتحر.!.. إن كل شيء تنتهي حياته إذا انتحر إلّا التاريخ والآلهة. إنهما أي التاريخ والآلهة في انتحار دائم دون أن يقتلا حياتهما.. لقد فعلوا أي هؤلاء الآباء كل ذلك ولكن ماذا فعلوا لأنفسهم أو لمن أوقعوا بهم كل ذلك من مزايا من أي نوع؟

.. ماذا أعطوا لأنفسهم أو لأبنائهم وأحفادهم حتى اليوم أو لمن فعلوا بهم ذلك من حضارة أو تقدم أو علم أو رخاء أو محبة أو سلام أو قوة أو حتى تدين أو تقوى أو أي شيء جيد أو نبيل أو ذكي أو قوي؟

ليصمت كل جواب عن هذا السؤال وليكن الجواب هو ما ورثه هؤلاء الآباء لحياة وكينونات أبنائهم ولحياة وكينونات من غزوا وفتحوا وملكوا وحكموا وعلموا ونقلوهم إلى دينهم ولغتهم والانتماء إليهم أو إلى دينهم فقط، أي وإلى تاريخهم وتعاليمهم وحضارتهم وكبريائهم واعتزازهم ومباهاتهم بعجزهم وتخلفهم وجهلهم وهوانهم وهزامهم وبقبورهم.. حتى المباهاة بكل هذا نقلوها إليهم ونقلوهم إليها..!

.. هو ما ورثوهم إياه تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً، مرئياً مروياً ومقروءاً ومسموعاً ومعروفاً وفاجعاً، فاجعاً..!

إن كل وجود هؤلاء الأبناء والأتباع بكل ضعفه وهوانه وجهله وفضائحه وهزائمه وقبائحه وفساده وآثامه ونذالاته ليس إلّا ميراثهم عن أولئك الآباء والسلف المعلمين الغازين الفاتحين المسترقين القادمين من الصحراء والرمال والأمية..

.. إلّا ميراثهم عنهم الطبيعي أو التعليمي أو التلقيني التقليدي القهري.. والميراث أو الإرث أو التوريث الطبيعي السلالي هو أقوى وأعظم وأكبر ما يورث بل هو كل ما يورث في التفسير الأعمق الأشمل. إن كل شيء نفعله أو نستطيعه أو نعلمه أو نريده ليس إلّا إرثاً طبيعياً سلالياً..

إن معرفتنا للقراءة والكتابة ولأي شيء وكل شيء وتكلمنا باللغات وغير ذلك ليس إلّا إرثاً وتوريثاً طبيعياً سلالياً، لقد ورثنا طبيعياً القدرة على ذلك أي خلقت وولدت فينا هذه القدرة خلقاً وولادة طبيعية وإلّا لما استطعنا ولا عرفنا ولا أردنا أن نتعلم ذلك ولا شيئاً منه بل ولما وجد من يريد أو يستطيع أن يجعلنا شيئاً من ذلك..!

إن الأبناء كما يرثون أعضاءهم عن آبائهم كذلك يرثون مواهبهم وطاقاتهم واحتمالاتهم العلمية.

.. إن والديّ الإنسان الأميين أو اللذين ماتا ساعة ولادته هما اللذان علّماه الكلام والمشي على قدميه وعلّماه القراءة والكتابة والجنس والزواج وكل شيء.. أي هما اللذان ورّثاه ذلك طبيعياً وسلالياً كما أنهما قد ورّثاه القدرة على ذلك بهذا الأسلوب السلالي الطبيعي التكويني..

إذن فهؤلاء الأبناء والأتباع ليسوا إلّا وارثين لهذا الميراث القبيح الكريه الصغير الرديء من أولئك الآباء والمعلمين السالفين.. وارثين له بكل أساليب وتفاسير الإرث والتوريث الطبيعي التكويني السلالي المتولّد عنه كل إرث وميراث وتوريث..

إن كل شيء وارثة حتى ما لا يستطاع إلّا بالتعليم والتلقين بل والمكابدة والنضال..!

ولهذا فإن ابن الإنسان يجيء إنساناً بكل خصائص وطاقات واحتمالات الإنسان طبيعة وتفاسير وواقعاً ومتوقعاً.. وابن أي كائن آخر غير الإنسان يجيء وارثاً لصيغة أبيه ولمعانيه بلا إرادة ولا تدبير لا من الوالد ولا من المولود..!

❀ ❀ ❀

وبدون اعتذار عن التكرار نقول: إنه لو حدث أن شعباً أو مجتمعاً من الشعوب أو المجتمعات كان في فترة من فترات التاريخ متفجراً بكل أنواع العبقريات والطاقات الإبداعية المعجزة والمذهلة والهازمة لكل عبقرية وإبداع بكل الصيغ والتفاسير والمقاييس ثم فجأة وبضربة فاجعة سحبت منه أو ماتت فيه أو فقد كل ذلك.. كل هذه العبقريات والطاقات المبدعة ليصبح كل أبنائه وأحفاده وسلالاته كل ما يتصور وكل ما لا يستطاع تصوّره من الضعف والعجز والهوان والجهل والبلادة والتخلف والافتضاح في كل كينوناتهم وممارساتهم ومواجهاتهم واستعراضاتهم دون أن ينقذ أو ينفع أو يجدي أي شيء أو أية محاولة.

ـ نعم، نقول: إنه لو حدث ذلك لأصبح أفظع وأخطر إنذار وتهديد لكل العالم القوي المتحضر المبدع بأن يحدث له كل ما حدث لهذا الشعب أو المجتمع فتنسحب أو تنسحب أو تهرب منه أو تموت فيه كل عبقرياته وطاقاته وإبداعاته وعلومه وأفكاره وتفوّقه المعجز الشامل ليهوي إلى كل حضيض التخلف والعجز والجهل والهوان والضياع مثل الذي حدث لهذا الشعب أو الشعوب أو لهذا المجتمع أو المجتمعات.. ليفقد كل العالم حينئذٍ كل وجوده الحضاري الصانع الصائغ لكل كينوناته الكائنة اليوم والكائنة غداً بأساليب وصيغ لا حدود لتجددها وتطوّرها..!

ليعود أي كل العالم بدوياً بدائياً بلا أمل في عودة مواهبه وعبقرياته وحضاراته إليه..!

إنه لخطر.. لأبشع خطر لو صحّ ما قيل عن هذا الشعب أو المجتمع من صعود بلا حدود ثم هبوط كهذا الهبوط الذي نجده ونراه ونعرفه ونقاسيه اليوم بل منذ دهور..

هل فطن أو يفطن العالم إلى ذلك؟ وماذا لو فطن إليه؟ هل يستطيع حينئذٍ أن يفعل أي شيء؟ إنه شيء لا تمكن الوقاية أو الحراسة أو العلاج منه أو التعقيم ضده..!

إن كل شيء قد يحمي ويحرس ويعالج وينقذ إلّا العبقريات والمواهب والطاقات التي تنسحب من صاحبها أو من مكانها انسحاباً لا تعرف أسبابه أو بلا أسباب أو خروجاً على كل الأسباب.. أي مثلما انسحبت من هؤلاء الآباء ومن سلالاتهم..!

إن كل العلم والتفكير والمنطق والخيال والتجارب والرؤى عاجزة أن تعرف كيف أو لماذا تنسحب العبقريات والطاقات والمواهب وكل معاني التفوق والحضارة الشاملة من أصحابها كما انسحبت من هؤلاء الآباء أي لو كانت قد تخلقت في هؤلاء الآباء ثم انسحبت منهم بالأسلوب الذي انسحبت به منهم..!

إذن لتفجع يا كل العالم الغازي للشموس والأقمار والنجوم والأكوان. إنك مهدد بهذا

الانسحاب.. لتنتظر في كل اللحظات هذا الانسحاب.. إن مجيء الموت قد تكون له علامات وأسباب قد تمكن معرفتها ومقاومتها أما هذا الانسحاب فبلا أسباب أو علامات تعرف وتقاوم..!

.. ومع كل هذا وبعد كل هذا كم أرجو وأتمنى وأطالب لو كانت القضية قضية مطالبة بأنها لم توجد وبأن تزيل كل الفروق بين جميع الكائنات البشرية وغير البشرية.. سلالات وأعراقاً وأجناساً وأنواعاً وأفراداً..

إنها لقبيحة وأليمة وظالمة وفاجعة وعدوانية وبليدة وإهانة لكل الأخلاق والحسابات ولكل منطق ورؤية ومعنى جيد أن توجد هذه الفروق والتفاوتات بين الكائنات الحيوانية وبين الكائنات الحشرية وبين هذه الكائنات وهذه الكائنات وبينها وبين الإنسان وبين الإنسان والإنسان.. سلالات وأعراقاً وأجناساً وبينه أفراداً، أفراداً..

كيف أمكن أن توجد هذه الفروق بكل فحشها وسخفها وقبحها وإيذائها وضلالها.. هل أرادها ودبّرها أي مريد مدبر؟

كم في هذه الفروق من العدوانية والوحشية والإذلال والمهانة والتشويه والقبح والتقبيح.. كم فيها من الغباء والقسوة..!

كم فيها من تشريع وتيسير للاعتداء والإذلال والافتراس والغيظ والألم ومن خلق أسباب ذلك ووسائله بل ومن تحويله إلى شرائع وأديان وفروسيات وإلى أخلاق وشهوات وحكمة ورحمة ومنطق إله.. أعظم إله..!

ألم تفسر بأنها كل النبل والحب والذكاء وكل عبقرية النظام؟

أما الفروق بين أفراد الإنسان في اللون أو في الجمال والدمامة أو في القوة والضعف أو في الصحة والمرض أو في الضخامة والضآلة أو في الذكاء والغباء أو في النصر والهزيمة أو في التكامل والتشويه أو في الرؤية والعمى أو في الطول والقصر أو في أي شيء يصنع تفوق فرد على فرد تفوقاً ذاتياً أو غير ذاتي اجتماعياً أو تاريخياً أو عرقياً أو سلالياً أو مكانياً أو وطنياً...

أو في غير ذلك من الفروق الصانعة للغيظ والغضب والخوف والإذلال والحزن وللهوان ولمشاعر وظروف الهوان وللهزائم والسقوط ولكل الآلام النفسية أو العقلية أو الأخرى أو للعار.. أو من الفروق الصانعة للتعالي والكبرياء والغرور والتطاول والوقاحة والتسلّط والطغيان... الصانعة للآلهة والعبيد وللملائكة والأبالسة، ولمستحقي الفردوس ومستحقي الجحيم.. ولموظفي الجنة وموظفي النار..!

ـ أما هذه الفروق فكيف لم تسقط كل احتمال بأن يكون في هذا الوجود أي تخطيط أو تدبير أو فعل جميل أو رحيم أو عاقل أو عادل أو مفهوم أو معقول أو مقبول أو مغفور أو لا يستحق أقسى المحاسبة والمحاكمة والعقاب؟

كيف لم تسقط هذه الفروق كل تفسير جميل أو ذكي أو منطقي أو أخلاقي لهذا الوجود أو لأي شيء فيه؟ كيف يقبل أي كائن مهما كان سفهه وجهله وقبحه ووقاحته وبلادته وقسوته أن يكون هو المدبر أو المريد أو الفاعل لذلك أو المشارك فيه؟

كيف أصيب العالم كله بكل العمى والبلادة والتبلّد والجهالة لكي لا يرى أو يفهم أو ينكر شيئاً؟ كيف استطاع العالم أو أحد منه أن يعايش أو يواجه أو يرى أو يقرأ أو يفسّر هذه الفروق؟

... إن اتهام النفس بكل التهم بكل القسوة والعنف بكل الإعلان عن ذلك طموحاً وتطلعاً إلى الأقوى والأعظم والأجمل لأفضل وأنفع وأذكى وأشرف من الإعجاب بها والرضا عنها والمباهاة بها كل الإعجاب والرضا والمباهاة..

إن هذا الاتهام للنفس حياة وتاريخاً.. ماضياً وحاضراً.. أجداداً وآباء وأبناء قد يحرض على التخطي والتفوق والمفارقة لما كان ولما هو كائن ليأتي البديل الأعظم الأنفع في كل شيء..

إن تحريض الذات للذات على التخطي للتخلف ولأي نقص أو ضعف أو هوان أو عيب هو أقوى وأنفع تحريض..

أما هذا الرضا والإعجاب والمباهاة بالنفس ماضياً وحاضراً ولا سيما بالماضي والآباء والتاريخ.

ـ نعم، أما هذا الرضا والإعجاب والمباهاة فقد يشغل ويلهي الحديث عنه والإعجاب والمباهاة به والانصراف إليه والبحث عنه ونبشه وعرضه والاهتمام به عن كل عمل آخر قوي وجديد وعظيم.. عن كل محاولة إبداع أو تفوق على ما كان. إنه قد يتحول إلى تعويض وإلهاء عن كل عجز ونقص وتخلف.. ألم يسحبنا إعجابنا بآبائنا وتاريخنا إلى المقابر وإلى الصفحات السوداء المكتوبة بالحروف والخطوط الرديئة وبالأيدي الأمية الجاهلة المريضة المرتجفة لنجد فيها ولتهبنا كل ما نتفوق به على كل ما تفوق به الآخرون علينا بل وعلى كل ما قد يتفوقون به علينا على مدى عمر الشمس والنجوم والوجود، ولكي تشغلنا عن كل محاولات واهتمامات جيدة جادة قد تجعلنا نستطيع شيئاً مما نحن عاجزون عنه..!

ألم يتحول إعجابنا بآبائنا وبحثنا عن كل ما نريد وتفرضه الحياة المتجددة القوية علينا في قبورهم إلى قيود وسدود وأغلال في أيدينا وأرجلنا وعقولنا ووجوهنا بل ورؤانا وأشواقنا؟

إذن ألم يصبح آباؤنا أقوى وأقسى الأعداء لنا أي بهذا التفسير؟

أليس الآباء يتحولون إلى عمى وصمم في العيون والآذان فلا ترى أو تسمع وإلى بلادة وجمود وغيبوبة في العقول والنفوس فلا تفهم أو تفكر أو تنشط أو تقتحم؟

والمراد بالآباء هنا آباؤنا الذين تحولوا إلى تراث ديني أو اعتقادي أو ثقافي أو عقلي أو أخلاقي أو أدبي أو نفسي أو اجتماعي أو تعليمي ثقيل فادح راسخ..!

ما أعظم ما سرق منا واستهلك وشغل وألهى فينا هؤلاء الآباء بل وضللوا وأفسدوا من أوقاتنا واهتماماتنا وحماسنا وأشواقنا وعقولنا وذكائنا وصفائنا وحبنا وبراءتنا ووقارنا بل ومن عضلاتنا وضرباتنا وسلاحنا وأموالنا وإنتاجنا وحياتنا.. وذلك بقراءتنا وتفسيرنا لهم وباهتمامنا واشتغالنا بهم وبتفكيرنا وتحديقنا فيهم وبانصرافنا وبحثنا عنهم وإليهم وبتعلمنا وتعليمنا لهم ولما قالوا وروي عنهم وباعتقادنا بأن فيهم وفي قبورهم كل ما يطلب ويراد وينفع في الحياتين: الأولى الفانية والثانية الباقية الخالدة وباختلافنا وتعادينا وتقاتلنا وانقسامنا وتخاصمنا وتشاتمنا عليهم وبهم ومن أجلهم وبتشييدنا لقبورهم

ومعابدهم واحتفالاتنا بهم ولتحكيمنا لهم في عقولنا وأفكارنا ورؤانا وتصوراتنا وفي مخاوفنا وآمالنا وحاضرنا ومستقبلنا..!

إنها لقضية تستحق كل التفكير والدراسة والاهتمام والعلاج ولكن لم تواجه بشيء من ذلك. إنه أسلوب من أساليب الانتحار الجماعي الشعبي القومي العلني الدائم بلا أية مقاومة أو استنكار أو علاج أو حتى رؤية له أو حديث عنه.. إن كثيراً من الشعوب لم تعاد وتقاوم وتفسد وتضلل حياتها مثلما فعلت بها ذلك بآبائها هؤلاء..!

❀ ❀ ❀

إن الإله هو أكبر وأشهر النماذج الأليمة الفظيعة لمن يكون موقفهم الدائم من أنفسهم موقف الرضا والامتداح والإعجاب والمباهاة بها ولها وعنها دون أن يكون لهم أي موقف من مواقف النقد أو الاتهام أو الاستنكار لها أي لأنفسهم..!

ولهذا فإنه أي الإله في كل تاريخه لم يتغير إلى أي شيء من الأفضل أو الأذكى أو الأقوى أو الأتقى أو الأعلم أو الأرحم أو الأحكم بل ولا يريد هذا التغير أو يتصوره أو ينويه أو يقبله أو يتحدث عنه.. هل يوجد محتاج إلى التغير والتطور مثل الإله فلماذا لم يحدث ذلك؟

لو أنه أي الإله لم يكن معجباً مباهياً بنفسه وبتاريخه وراضياً عنهما مادحاً ممجداً لهما بل كان متهماً ناقداً رافضاً لكينونتهما كما كانا أي نفسه وتاريخه متألماً مستحيياً منهما غاضباً عليهما وعلى كينوناتهما محاسباً محاكماً لهما على مجيئهما كما جاءا.

ـ نعم، لو أنه كان كذلك أي الإله ولم يكن في رؤيته لنفسه وتاريخه كما كان أليس محتوماً أن يكون أو أن يحاول أن يكون بل ويتمنى أن يكون أفضل وأعظم مما كان في كل شيء؟ ولعل معاملة البشر له أي للإله دائماً بالمديح مهما فعل بهم وبأي شيء أقوى الأسباب في أنه لا يتغير أو يتطور أو يرى نفسه رؤية ناقدة متهمة مطالبة له بالتغير والتطور..

إذن فالقسوة في نقد النفس واتهامها بالعجز والتقصير والتخلف محرضة على المحاولات والتطلعات الجيدة النافعة..

أما الرضا عنها والإعجاب والمباهاة بها والامتداح لها فلن يفعل شيئاً جيداً أو نافعاً إن لم يعوق ويثبط ويخدر ويؤخر ويفعل كل شيء رديء. والمفروض أن يفعل كل ذلك..

.. إذن أليس علينا أن نصدم ونفجع ونخيف أنفسنا دائماً بكل القسوة والإرهاب قائلين لها نحن متخلفون تخلفاً شاملاً قاسياً مهيناً.. فهل تخلفنا هذا تخلف تكوين وسلالة وجنس؟ نخشى ذلك لأن كل شيء فينا يدل على ذلك بل ويعلنه ويثبته ويرد كل التفاسير الأخرى. أرجو وأتمنى أن توجد تفاسير أخرى.. أليس واجباً علينا ومطلوباً منا أن نظل نقول ونفعل ذلك بكل الحرارة والحماس والجهر وبكل أساليب الإعلان والمحاسبة والمحاكمة والمعاقبة ليكون ذلك محرضاً لنا على تخطي تخلفنا وعلى تحقيق تخطيه إن لم يكن تخلفاً تكوينياً طبيعياً سلالياً لا يمكن الخروج أو العلاج منه..!؟

أيهم أقسى نقداً واتهاماً لأنفسهم ولآبائهم وتاريخهم: المتفوقون أم المتخلفون.. الأقوياء أم الضعفاء..؟

أيهم أكثر رؤية لعيوب الذات ونقائصها وتحديقاً فيها؟

وأي الفريقين أكثر غلواً في الإعجاب والمباهاة بالنفس وبالآباء والتاريخ؟

إن معرفة الجواب عن هذا السؤال أو الأسئلة قد تجعلنا أو نرجو ونطالب أن تجعلنا نغيّر رؤانا ومواقفنا من قضية الإعجاب والمباهاة بالنفس وبما كناه ومن قضية النقد والاتهام لذلك مهما كانت القسوة وأساليب الإعلان والتحدث عن هذا النقد والاتهام..

ولكن هل رؤية النفس والآباء والتاريخ والتحدث عن ذلك بالإعجاب والمباهاة والامتداح والتمجيد.

ـ هل هو تفكير أو معرفة أو رؤية أو محاسبة وحساب أم هو طبيعة وموهبة وغريزة ومستوى طوري تكويني أي أم هو أحد تفاسير وصيغ ومعاني التخلف السلالي الطبيعي الجنسي الذاتي وأحد عطايا ومواهب هذا التخلف الذي لا يستطاع الانتصار عليه بالإرادة أو التعليم أو المحاولة أو بأي شيء آخر ما لم يتغير أو يبدل الجهاز أو الآلة أو الموهبة التي تصنع التخلف والتفوق أو التأخر والتقدم...

❀ ❀ ❀

آه.. قد تكون التفاسير الباطلة السخيفة المريحة بديلاً عن التفاسير الصحيحة الجيدة المزعجة وقد تكون مفضلة عليها..!

لعل الأكثرين يفسّرون بحثاً عن الراحة لا عن المنطق والصواب..

.. لعل الحافز الأقوى على اختلاف أكثر التفاسير الرديئة الكاذبة وعلى الإيمان بها والدفاع عنها وعلى اجتناب ورفض أكثر التفاسير الصحيحة الصادقة هو البحث عما يريح والهرب مما يزعج ولو في الحسابات والتقديرات والتصورات الخاطئة..

إن أكثر الأخطاء الفكرية ليست أخطاء عقلية ولكنها رغبات نفسية..

هل كان خلق الإله للإنسان وللوجود ولإبليس وتخليده وتسليطه وتسويده على الإنسان ـ هل كان عن خطأ عقلي فكري حسابي منطقي أم عن رغبة نفسية انفعالية جامحة شاردة فاضحة ضالة هائمة؟

كذلك إيجاده لنفسه أي الإله كما أوجدها وتقبله ومعايشته لها ـ هل كان عن خطأ عقلي أم عن هوى نفسي عاطفي مظلم ضائع؟ هل يمكن أن يكون عقله قد قال له: إن وجوده كما وجد منطقي أو فني أو أخلاقي أو جمالي أو حتى شاعري أو إنساني؟ هل كان هناك أي حساب أو محاسبة في هذه القضية أو في أية قضية يحملها أو يتعامل بها الإله؟

في غار حراء لم أجد الإله ولا الملاك

.. إلى من أخجل وأحرج وهزم بحبه وصداقته لضخامة وجمال وصدق وبسالة نماذجهما وتفاسيرهما ومعاملاتهما وديمومتهما.

كل الحب والصداقات..

حتى لقد أخجلا وأحرجا وهزما أي حبه وصداقته كل حب وصداقات الآلهة والأنبياء.

.. كل تصورات الآلهة والأنبياء وأعوانهم للحب والصداقات..

.. كل الحب والصداقات بين الآلهة والآلهة.. بين الأنبياء والأنبياء.. بين الآلهة والأنبياء.. بين الأخلاق والأنبياء والآلهة.. بين الأنبياء وأتباعهم.. بين الآلهة وعابديها ومنتظريها وقارئيها ومفسّريها.. بين الآلهة وضمائرها ورؤاها وتمنياتها وشهواتها وعضلاتها..

.. بين الإله فاعلاً ومريداً ومخططاً ومجرّباً والإله مفسراً ومراداً ومنتظراً ومدعواً مطلوباً منه..!

هل يمكن تصور حب وصداقة مزعومين ومفقودين بكل صيغ وتفاسير ومعاني الزعم والفقد مثل حب وصداقة الآلهة.. مثل الحب والصداقة للآلهة.. مثل الحب والصداقة واهبة لهما الآلهة وموهوبين للآلهة؟

كيف لم يفهم كل العالم ذلك؟ حتى أغبى أغبياء العالم كيف لم يفهموه؟ كيف استطاعت كل عبقريات الغباء أن تجهل هذا.. أن تهبط أو تصعد إلى كل هذا الغباء؟ كيف استطاعت كل مواهب الإله أن تتصور وتدبّر وتخطط وتصوغ هذا الغباء لتهبه لمجدها وحبيبها الإنسان؟

من يهب الإنسان غباءه؟ هل واهبه غباءه هو واهبه ذكاءه؟ هل يمكن أو يعقل أو يقبل تصور هذا؟

نعم، إنه لن يوجد أو يتصور حب أو صداقة هما كل النقيض بل كل الرفض والعداوة والهدم لكل تفاسير كل حب وصداقة مثل الحب والصداقة للإله واهباً لهما وموهوبين له..!

أليس أقوى وأتقى وأشهر أساليب الإله وتصوراته في حبه وصداقته وفي تعبيره عنهما أن يذهب بكل النخوة ومشاعر السخاء والعطاء يدبر ويخطط ويفعل مجاهراً مفاخراً بكل لغات ومعاني الحماس والاهتمام والشوق لكي يصيب بأقسى وأفظع وأنكر وأدوم العاهات والتشوّهات والآلام والأخطاء الرهيبة ولكي يوقع في كل الآثام والمعاصي.

ـ نعم، لكي يفعل كل ذلك بمن يهبهم كل حبه وصداقته لكي يفعله.. يزرعه في وجوههم

وعيونهم وقلوبهم وعقولهم وأخلاقهم ومشاعرهم وعواطفهم بل وفي إيمانهم وتقواهم أي لأنه يهبهم ويريد أن يهبهم كل حبه وصداقته؟

أليس التشويه والتعذيب والإذلال بل والإيقاع في الضلال والفساد وفي كل الأخطاء والخطايا بكل نيات المكر.

- أليس ذلك أشهر وأقوى وأشمل أساليب الإله العربي أو كل إله للتعبير عن حبه وصداقته للتعبير عن ضخامة وسخاء ونبل حبه وصداقته؟

هل وجد من قال أو يقول غير هذا؟

هل وجد أو يوجد من لا يحكم بالكفر على من لا يقول ويعتقد هذا بل ويكفر كل من لا يكفر من لا يعتقد ويقول هذا؟ أليس كل مؤمن بالنبي العربي وبالدين العربي يقول هذا ويعتقده؟ كن يا قلمي عظيماً قوياً جسوراً ذكياً.. كن متكافئاً مع موقفك.. مع موقفي.. كن يا قلمي، كن.

آه، ما أقسى «كن» هنا.. ما أقساها.. ولكن بماذا تفسر أو تفهم القسوة؟ هل لها تفاسير محددة مفهومة؟ من صنع أو فهم أو حدد تفاسيرها؟

حتى الإله وأعوانه ومستشاروه هل فهموا أو حددوا أو صنعوا ذلك؟

ماذا كان محتوماً أن يحدث لو أنهم أي الإله وأعوانه ومستشاريه فهموا وحددوا وصنعوا ذلك؟

كن يا قلمي المفجوع الخائف دون أن يكون أو يستطيع أن يصبح فاجعاً أو مخيفاً..!

كن عظيماً قوياً جسوراً ذكياً لكي تستطيع.. لكي تجرؤ أن تقول: لقد طلب مني.. بل لقد أمرني.. لقد أصدر أوامره السلطانية علي وإلي...

لكي أذهب، أذهب إلى غار حراء، حراء..

.. إلى مخبأ وملجأ ومسكن ومرقد ومستراح الإله الذي قد أصبح شيخاً ضعيفاً كبيراً عاجزاً بل ومستحيياً وخائفاً من مغادرته.. من أن يظهر أو يرى..

.. لكي أذهب إلى هذا المخبأ والملجأ والمسكن والمرقد والمستراح للإله الذي قد أرهقته وأذلته وهزمته وشوّهته وعذّبته الشيخوخة بكل قبحها، قبحها، قبحها..

.. لكي أذهب إلى الغار.. إلى غار حراء.. غار الوحي.. غار ملاك الوحي.. غار نبوّة النبي العربي محمد.

.. إلى الغار الذي لم يأت إليه أو يسكن أو يتعامل أو يظهر أو يفخر أو يرض أو يسعد أو يفرح أو يعظم الإله في أي مكان مثلما كان كل ذلك أو مثلما اعتقد أنه أي فيه قد كان كل ذلك.

أعني الإله..!

لكي أذهب إليه.. إلى هذا الغار.. غار حراء الذي هو كل مجد وعبقرية وعلم وتقوى الإنسان

العربي وكل حضاراته وانتصاراته وكل استقباله ومقابلاته لآلهته وألوهياته بل ولكل مواجهاته ومخاصماته ومصالحاته وصداقاته وعداواته..

.. الذي هو كل رؤاه وآرائه وعقائده، كل إيمانه وكفره..

هل غير الأمة العربية أمة كل مجدها وتقواها وقوتها وعبقريتها وعلمها وحضاراتها بل وكل آلهتها وأنبيائها في غار... يحبل بهم وبها غار، ويلدها ويعلمها ويربيها ويخلقها ويلدهم ويعلمهم ويربيهم ويخلقهم غار.. بل ويصوغها ويفسّرها ويصوغهم ويفسرهم غار. نعم، غار بكل صيغ الغار وتفاسيره؟ ولكن هل هذا الغار موجود حتى اليوم؟ هل يتصور هذا؟ هل يمكن ألا تكون هذه الآبار المجنونة في سخائها وقوتها وفيضاناتها قد أغرقته أو دمرته أي هذا الغار أو أنه هو قد غرق أو هرب أو مات تحت رهبة أو إذلال أو تحدي هذه الآبار له؟

أيمكن ألا تكون منافسة هذه الآبار له قد قتلته؟

هل يستطيع أو يجرؤ أو يتحمل الإله الذي صنع هذه الآبار وملأها وخبأها بل ودفنها تحت الأقدام والخيام والعباءات أن ينافس أو يواجه أو يفاخر الإله الذي اكتشفها وفهمها وأظهرها وأخضعها واستعبدها وفضحها بانتصار كل معانيه على كل معاني من بصقها في ضمير البداوة والجهالة.. من اختار لها الصحراء وطناً وسكناً بل وقبراً.. إذن أليس محتملاً أو مطلوباً أو محتوماً أن يكون إله هذا الغار قد فعل شيئاً لإخفاء غاره فراراً به من مواجهته لهذه الآبار.. الآبار التي سحبت منه كل مجده وكل رعاياه بل وسحبته من التاريخ وسحبت التاريخ منه؟

.. أجل، لقد حدّق فيّ عابساً مبتسماً آمراً مطالباً ملزماً لي بأن أذهب إليه.. إلى الغار.. أذهب إليه بأسلوب الإسراء والمعراج وعلى أجنحة براقه.. وبأن أهب كل صلواتي وتضرعاتي ونداءاتي وهتافاتي واستجداءاتي وإيماني وتقواي لملاك الوحي.. لملائكة الوحي لكي تهبني، تنزل علي، إلي وحياً.. أعلى وأقوى ما عرفت وأنزلت السماء من وحي.. سورة أو آية أو إصحاحاً أو سفراً من القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو من الوحي الذي لم ينزل والذي هو أسمى وأتقى وأذكى وأعلم وأصدق من كل ما نزل.!

أليس الوحي الذي لم ينزل هو أفضل وأعظم وأشرف وأجمل في كل الحسابات والمقاييس من الوحي الذي نزل.. الذي أوحته وأنزلته أعلى السموات على أعظم الأنبياء راوية وناقلة له عن أعظم الآلهة؟

ليت كل الوحي الذي نزل لم ينزل وكل الوحي الذي لم يستطع أن ينزل نزل.!. لماذا لم يحدث ذلك؟ هل هناك قوة غير مفهومة أو معقولة تدبّر دائماً ليكون ما ينزل ويوحى أردأ وأفجع مما لا ينزل ولا يوحى؟

أليس أعظم وأعقل وأنظف وأنفع آلهة الإنسان وأنبيائه وزعمائه هم الذين لم يجيئوا إليه ولن يجيئوا.. هم الذين عجزوا عن المجيء وعن أن يعرفوا كيف يجيئون وكيف يستطيعون بل ورفضوا أن يجيئوا؟

أليس أعظم الأكوان نظاماً وفناً وجمالاً ومنطقاً وأخلاقاً وتكويناً هو الكون الذي عجزت كل الآلهة عن فهمه وتصوره وإرادته وخلقه وصياغته وإحضاره بل وعن حبه؟ أليس كل ما لا ينبغي أن يكون هو الذي يكون وكل ما ينبغي أن يكون هو الذي لا يكون؟ هل حدث أن جاء شيء أي شيء ولو واحداً ولو مرة واحدة كما ينبغي أن يجيء؟

.. كان يريد لي أن أتلقى هذا الوحي بهذه الأوصاف والشروط لكي أجرؤ على مخاطبتكم به إذ بدونه لن أجرؤ على ذلك. إنه يعرف موقفي هذا.!

لقد كان في موقفه هذا كما هو في كل مواقفه حفياً رحيماً كبيراً وأيضاً مخيفاً.!

... كان محتوماً أن أطيع الأوامر.!

هل يستطاع العصيان للأوامر بل أو للتلميحات أو للإشارات أو للإيماءات أو للهمسات الصادرة إلي.. الآمرة المريدة. الناطقة أو حتى الصامتة؟

أليس هناك من صمتهم أبلغ وأقوى نطقاً من كل اللغات الناطقة؟

.. ما أقدر الأوامر أي أحياناً حتى الهامسة بل حتى الصامتة منها ـ ما أقدرها على الإخضاع، على أن تصنع كل الخضوع وإرادة الخضوع لها بلا محاسبة أو مساءلة أو بحث عن أي تفسير.!.. ما أقدرها، أقدرها. ولكن ما أجملها وأنفعها وأنبلها في فعلها هذا.. في قدرتها هذه.!

آه. لعلكم جربتموها وسعدتم بها وتمنيتم المزيد منها أي من هذه القدرة على الإخضاع، المسعد المفرح المطالب بالمزيد، المزيد من هذا الإخضاع والخضوع.. من قدرتها على أن تسحر وتقهر وتبهر مع تمني من سحرتهم وقهرتهم وبهرتهم بالمزيد، المزيد من قهرها وبهرها وسحرها لهم؟

ما أجمل أن نسحر بساحر ولكن ما أقبح أن نسحر بدجال..!

آه. ألا يحتمل أن الإله يتعذب كل العذاب وأقسى وأدوم العذاب الآن وكل آن إذ يجد أنه عاجز، عاجز عن أن يعرف أو يملك أو يستطيع أي شيء أو قدر من القهر أو البهر أو السحر الذي تعرفه وتملكه وتستطيعه وتفعله كله، كله هذه الذات.. هذه الشخصية..!

ولعله أي الإله يقاسي كل الأوقات كل المقاساة محاولاً أن يتعلم شيئاً من سحر وقهر وبهر هذه الشخصية.!

.. مطيعاً مستسلماً متعبداً مرتلاً كل أناشيد الصلوات والمصلين...!

❀ ❀ ❀

ذهبت إلى الغار.. غار حراء.. غار محمد وإلهه وملاكه.. إلى الغار العابس اليابس البائس اليائس.. ذهبت إليه استجابة للأوامر.

دخلت الغار، دخلته.. صدمت.. ذهلت.. فجعت.. خجلت، خجلت من نفسي وقومي وديني وتاريخي وإلهي ونبيي ومن قراءاتي ومحفوظاتي..!

تضاعف وذهب يتضاعف وتتضاعف وتتعاظم صدماتي وفواجعي وذهولي وخجلي، خجلي.. من نفسي ومن كل شيء عرفته أو قرأته أو تذكرته أو اعتقدته أو احترمته أو تعلمته أو حفظته أو أملته أو انتظرته.. ذهبت أحدق وأتلفت.. أين أنا، أين أنا من أنا؟ هل أنا أنا؟ ماذا أرى؟ هل أنا أرى؟ هل أطيق أن أكون أرى ما أرى؟

آه، فجيعتي، فجيعتي هنا في هذه اللحظات بلا حدود أو مقاييس أو حسابات.. بلا عزاء أو شفاء.. أعني فجيعتي بمجيئي إلى الغار.. إلى هذا الغار.. بوصولي إليه.. بمواجهتي له. بقراءتي له..!

ظللت أحترق، أحترق بكل طاقات الاحتراق.. أحترق حيرة وذهولاً وعجزاً ويأساً وانهزاماً وتحديقاً وسؤالاً وتساؤلاً، تساؤلاً. أيمكن أن يكذب ويزور التاريخ كل هذا التزوير والكذب؟ إذن هل كذب على الإنسان وعطل وأفسد طاقاته العقلية والأخلاقية مثل الرواية؟

أهذا هو الغار.. هو غار حراء.. هو الغار الذي لجأ واختبأ فيه الإله كل التاريخ المحسوب كل تاريخ الوجود والكينونات مقسماً ومقرراً ألا يظهر أو يعرف أو يسمع أو يقرأ أو يوجد أو يفعل أو يحيا أو يخاطب أو يعامل فيه أو به أو منه أو معه أو إليه.. إلّا هنا ومن هنا...

متحدثاً باللغة العربية إلى النبوة العربية معلماً لها الديانة العربية لتكون الديانة العالمية الكونية النهائية ولتكون الأمة العربية هي المعلمة الأبدية لكل الإنسانية كيف تصعد إلى السماء وكيف تفهمها وتتعامل معها بل ولتكون القائدة لها إلى ذلك ولتكون المفسّرة المعلمة لضمائر وأخلاق وشهوات وأوامر وطلبات سكان السماء والمالكة لكل مفاتيحها ومنافذها أي السماء بل والسفير الوحيد لديها لكل البشرية..

.. ذهبت إليه.. إلى الغار، غار القرآن المغلق والهادم لكل غار قبله ولكل غار بعده لأنه يجب أن يكون هو كل غار وآخر غار والغائر والغيور من كل غار..!

كما أنه أي القرآن قد أصبح وأعلن نفسه كل قرآن وكل توراة وكل إنجيل ووحي وكل نبي وإله.!

.. ذهبت إلى الغار الذي ولد وورث وعلم ولقّن وألّف وحرّض وخلّد أقسى وأقوى وأغبى وأجهل وأدوم ألوهيات ونبوات وديانات ووقاحات ووحشيات التعصّب والحقد والبغضاء والعدوان والعداوات والجهالات والبلادات والخرافات المهينة لكل التفاسير... والتي لا بدّ أن يشترط فيها وعليها ألّا يستطاع بل أو يراد الشفاء منها..!.. هل أستطيع أو هل يستطاع الشفاء أو يراد أو أريد أي الشفاء مما علّمه وقاله هذا الغار مهما تعاظم الطب والأطباء؟

آه.. ولكن هل يمكن وجود أو تصور مسافة فاصلة أو معروفة أو حتى معلنة تساوي في بعدها وقسوتها وجهالتها وبذاءتها وتضليلها وضلالها شيئاً من المسافة الفاصلة بين الجمال والقبح.. بين الشهامة والنذالة.. بين الذكاء والغباء.. بين العلم والجهل.. بين المنطق والخروج على كل منطق.. بين الملاك والشيطان.. بين الإله وإبليس.. بين النبي وقاتله.. بين النبي والدجال..!؟

وهل وجدت أو يمكن أن توجد هذه المسافة الفاصلة أو أن يوجد أي فصل بين هذا وهذا.. بين شيء وشيء؟

هل وجد من عرفوا وحددوا هذه المسافة أو هذا الفصل أو البعد بين الشيء ونقيضه؟

ولكن مهما فقدت وأنكرت هذه المسافات الفاصلة أليس محتوماً أن توجد وتظل موجودة وأن تزداد وجوداً واتساعاً وأبعاداً.. بين هذا وهذا..

بين الإنسان والإنسان.. بين النبي والنبي.. بين الإنسان العربي والإنسان الآخر.. أي الإنسان الذي أصبح آخر، آخر ويصبح آخر، آخر أكثر كلما واجه الإنسان العربي أية مواجهة وكل مواجهة.. أليس الإنسان العربي مواجهاً ورافضاً.. محارباً ومسالماً مصادقاً يصنع الإنسان الآخر أي يعلن عنه وعن تفوقه! بين النبي العربي القائل: «ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله» والقائل بكل نخوة وفروسية وتقوى العروبة وإيمانها وشهامتها ونبوّتها وبكل التكرار.. التكرار: «واغلظ عليهم» «وليجدوا فيكم غلظة» «أشداء على الكفار».

- نعم، بين النبي العربي القائل والمعلم والمريد والفاعل لكل ذلك..

والنبي غير العربي.. النبي اليهودي الإسرائيلي القائل والمعلم والمشرع المصلي المغني لما يقول وبما يقول..

- نعم، والنبي غير العربي أي الإسرائيلي اليهودي القائل وسكان السماء يسمعون ويستمعون بكل الانبهار والانقهار والذهول والإعجاب مع كل مشاعر العجز عن إرادة ذلك أو القدرة عليه فكيف فعله والالتزام به أي ما يقوله هذا النبي الذي لم يكن عربياً.. أليس سكان السماء أعجز من كل العاجزين عن فعل وإرادة ما يجب وينبغي فعله؟ النبي القائل في أصعب وأذكى وأقوى وأبسل مواقف التحدي والرفض والتعليم والبسالة والتقوى والحب للإنسانية ولتجميل الإله الذي لا جمال له والذي لن يكون له أي جمال أو يعرف ما الجمال..!

وهل يعرف الجمال أو يحترمه أو يفعله من يزرع العاهة في الوجه الجميل البريء؟

نعم، والنبي غير العربي والذي لن يكون عربياً.. القائل وكأنه يريد أن يلقن ويعلم الإله العربي بل وكل إله أن يكون كذلك أو شيئاً منه..

- القائل: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر»..!

آه. كم في هذا القول من إرادة التعليم والتهذيب للإله، لكل إله؟ أليست هذه الكلمة تطالب الإله بأن يقطع يديه وكل أعضائه وعضلاته لئلا يرمي أي أحد بأي حجر؟..!

والنبي غير العربي القائل: «أحبوا أعداءكم.! أحبوهم، باركوهم.. اغفروا للاعنيكم اغفروا لهم».. «اعتذروا إليهم عن قسوة وإساءة الإله والطبيعة عليهم وإليهم.. عوّضوهم عن كل ما قاسوا وواجهوا ورأوا وعرفوا بالحنان والإشفاق عليهم».. «كونوا لهم شيئاً من حب ورحمة وأخلاق الإله التي لم يستطع أو يرد أن يكونها أي الإله أي حبه ورحمته وأخلاقه المقروءة»؟

«قولوا لهم إن الإله لم يكن يريد أو يرضى أن يصيبهم بما أصابهم به بل إنه لم ير أو يعرف أنه قد أصابهم..! لقد كان غائباً عن قلبه وضميره وعقله وعينيه وأخلاقه وعدالته وكرامته وشهامته ورحمته وحكمته حين أصابهم بما أصابهم كما كانت كل هذه المعاني والأوصاف غائبة عنه بل هاجرة ورافضة له حين فعل ذلك».

أليست غيبة الإله وغيبوبته دائمتين بلا تحديد زماني أو مكاني؟

هل أفاق الإله من غيبته وغيبوبته في أية لحظة من لحظات وجوده!

أليس كل شيء يقول: لا، لا؟ إن بقاء أي شيء يعني أنه لا يوجد إله مفيق.!

«قولوا لأعدائكم ولاعنيكم ومخالفيكم وخصومكم لستم أعداء ولا خصوماً ولا لاعنين ولا مخالفين ولكنها أخطاء وتناقضات ومنافسات صنعتها وأوحت بها اللغات والتعبيرات والتحفزات والقراءات والحدود والأبعاد الزمانية والمكانية والتشوّهات الكونية..».

«قولوا لهم: نحن نرفض وننكر بل ونقتل ونقاتل كلمات أعداء وخصوم وملعونين وخوارج وكفار وضالين وخبثاء ومخادعين وماكرين ومتآمرين».

هل ابتكر البشر أي آلهة البشر وأنبياؤهم وزعماؤهم وقادتهم ومعلموهم وكل الصاعدين فوق منابرهم ومحاريبهم ابتكاراً يساوي في قبحه وفحشه ونذالته وبلادته ابتكارهم لكلمات أعداء وخصوم وأضداد.. لكلمات عداوة وخصومة ومضادة.. قال هذا أو يريد أن يقوله أو ينبغي أن يقوله هذا النبي غير العربي والذي لن يكون عربياً.!

.. نعم، أو مثل المسافة الفاصلة بين إرادتنا واستطاعتنا.. بين تقبلنا ورفضنا.. بين قولنا وفعلنا.. بين اعتقادنا وتفكيرنا.. بين عقائدنا ومعارفنا.. بين إيماننا وسلوكنا.. بين رؤيتنا ورأينا.. بين أعضائنا وتعاليمنا وضمائرنا.. بين إلهنا فاعلاً ومرئياً وإلهنا معلماً ومفسراً ومروياً ومعتقداً.. بين إلهنا مسموعاً من فم النبي والمعلم والشيخ والقارىء ومن فوق المنبر والمحراب..

وبين إلهنا وجوداً وأنيناً وبكاءً وتشوهاً وآلاماً وعاهات وضعفاً وهواناً وبلادة وجهالة...

في كل أجساد وعيون ووجوه وعقول وأخلاق وقلوب وضمائر وبيوت ومواطن وأفواه ولغات وحياة كل الكائنات.. حتى الكائن الذي هو الإله أو المحسوب المزعوم إلهاً.!

أليست كل العاهات والتشوّهات والدمامات والضعف والشيخوخة والآثام والهوان والفضائح وكل القبائح قد تخلقت في ضمير الإله وقلبه وعينيه وأشواقه وأخلاقه ونياته وفي وجهه وجسده ويديه وعضلاته وفوق عرشه وفي أركان وحلي وأصباغ عرشه قبل أن يصيب بها من أصاب ويصيب؟ إذن أليست ذاته أي ذات الإله ونفسه هما المزرعة والمصنع الكونيين لكل ما ينكر ويقبح ويفضح ويرفض ويؤلم ويذل ويخجل؟

.. نعم، ذهبت إلى الغار في طوفان من الانفعالات التي لا يستطاع تحديدها أو ضبطها أو

التفاهم أو التحاور معها أو إطفاء أو تبريد شيء من حرائقها.. إنه لو وجد العدل في كل شيء والضبط لكل شيء لظلت الانفعالات بلا عدل ولا ضبط..!

.. ذهبت مطيعاً للأوامر..!

.. وبعد مقاساة أقسى عذاب الانتظار المصاب بكل رهبة وهيبة التوجس والتوقّع وأخطار واحتمالات المواجهة التي لم أجرّبها أو أتوقع أن أجرّبها أو أر من جرّبها أو يجرّبها.!

.. جاء إليّ ملاك الوحي.. جاء إليّ بوجه وطلعة وملامح وتعبيرات وحركات وكلمات واعترافات لا بدّ أن توقظ وتحرك وتهز وتخيف وتفجع بلادة وخمول ونوم وموت وصمم وأمن الإله لو سمعها أو رآها أو قرأها أو فهمها..

.. جاء إليّ لاعناً نفسه.. معتذراً إليّ وإلى الإنسانية كلها مما فعل بها.. بل لاعناً بألفاظ غامضة من حكم عليه بهذه الوظيفة وظيفة توصيل الوحي من السماء إلى الأرض..!

.. ما أقسى ما فعل بها كما اعترف وقال أو كما قال صراخه الفاجع المفجوع دون أن ينوي أو يعني الاعتراف.. قال والدموع تتقاطر من عينيه والارتجافات والزفرات تهز كل ذاته: إنه هو الذي علّم الإنسانية كلها هذا الغباء والبله والجهل والحقد والبغض والتعصب والعدوانية والتقسيم للبشرية، وإنه هو الذي علّمها أي الإنسانية السجود والركوع وكل أنواع وأساليب كل هذه العبادات والتعبّد بكل هذا الهوان والطاعة والبلادة والتبلّد.. بكل هذه الصيغ والأساليب.. بكل هذا التحقير والهجاء للنفس والقلب والعقل والضمير والأخلاق بل وللأعضاء الراكعة الساجدة.. بكل هذا التحطيم للهامات والقامات.. للكرامة.. للكبرياء.. للذكاء.. للشجاعة.. للنظافة. إنه تحطيم، تحطيم لكل تفاسير الإنسان. لقد كانت حظوظ الإنسان العربي من عملية التحطيم هذه من أضخم الحظوظ وأقواها تدميراً وتضليلاً وإذلالاً وتعجيزاً. وقد تكون مواجهاته لإسرائيل أقسى تعبير عن ذلك وتفسير له.!

.. قال أي ملاك الوحي: أنا الفاعل لكل ذلك بتعليمي وإيحائي حين أوحيت وعلمت النبي العربي كل ذلك طالباً بل فارضاً عليه أن يحوّل كل ذلك إلى دين وأخلاق وسلوك وضمير وإيمان وهوان وتحطيم عالمي كوني لا يستطاع ولا يراد العلاج أو الشفاء منه.. لقد دلّت التجارب الطويلة الأليمة على أن في ما أوحيته إلى النبي العربي خصائص ليست في أي شيء آخر. إحدى هذه الخصائص أنه لا يستطاع الشفاء منه بل ولا يراد.!

.. جاء إليّ ملاك الوحي يقاسي كل العذاب بكل أسباب وصيغ ولغات وتعبيرات ومنطق العذاب كل العذاب ذارفاً كل الدموع بكل غزاراتها وتعبيراتها وآلامها وأديانها ومذاهبها وانتماءاتها..

هو وكل مستشاريه وأعوانه وأصدقائه..

قائلاً وقائلين بكل لغات ومشاعر وعذاب الإحراق والاحتراق والصدق والحب والأسى والندم والتوبة والاعتذار والاستغفار.. بكل نيات الاتهام والتعنيف والتجهيل لمن فرض عليهم هذه الوظائف.!

إنها وظائف بالإكراه.. بلا أجر أو شكر.. لممارسة أقبح الممارسات.. قائلاً وقائلين: إننا عاجزون، عاجزون.!

عن أن نرضى أو نتقبل أو نطيع لنفعل ونتحمل ونتحمل المزيد من أخطائنا وخطايانا التي حولناها إلى معابد وعبادات وآلهة بل وإلى سجون ومعتقلات للتاريخ لا يستطاع كما لا يراد الخروج منها بل ويناضل الواقعون فيها ليوقعوا كل العالم فيها..

.. لقد قاسينا، وإننا لا نزال نقاسي وسوف نظل نقاسي، نقاسي من تعذيب وتأنيب ضمائرنا وأخلاقنا وتقوانا غير الإنسانية لنا لقبح وقسوة وبشاعة وبلادة وجهالة وخديعة ونذالة وتضليل وإفساد ما قلناه وأوحيناه وعلمناه من هذا الغار وفيه وباسمه.!

هل ضللت أو أسرت طاقات الإنسان ومعانيه مثلما ضللت وأسرت في هذا الغار ومنه؟ هل تستطيع أية قوة خيرة في هذا الوجود أو في أي وجود أن تسحب من عقل التاريخ أو من أخلاقه أو حتى من عيونه ولغاته أو من ذكرياته ومحفوظاته وسجلاته شيئاً مما قلناه أو علمناه أو أوحيناه في هذا الغار وإليه ولو ستراً على عارنا واعتذاراً عما فعلناه وإنقاذاً للحياة وللإنسان منه.. إنقاذاً لعقله وضميره وأخلاقه وعواطفه بل ولرؤاه وطموحه وعضلاته ولغاته لأن ما علمناه يفسد ويضلل كل ذلك فيه؟

... هكذا كان ملاك الوحي ومن معه يتكلمون. اقتنعت أو أردت أو تمنيت الاقتناع بأنها لا توجد أية مسافة فاصلة أو عازلة بين كلماتهم ونياتهم وضمائرهم بل بأن كلماتهم أو أفواههم هي نياتهم وضمائرهم وأخلاقهم وإراداتهم.. بأن هذه ليست غير هذه.. ليست هذه رسول هذه.. رسولها الصادق أحياناً والكاذب أبداً.. ويظهر أن جميع الكائنات.. الحيوانات وغيرها كذلك. ولعل الإنسان هو وحده المصاب بهذا الانفصال القبيح الخطير جداً بين لسانه ونياته بل وكل حقيقته ووجوده. ما أضخم وأدوم شرور وأخطار هذا الانفصال.!

إنه لشيء من الاعتذار الجيد المطلوب بل ومن التكفير عن الأخطاء والخطايا والنقائص أن يعترف بها فاعلوها ويعلنوا اعترافهم جاهرين باعترافهم.

ـ أن يفعلوا ذلك تحت حوافز الصدق والتقوى وبنياتهما ـ أن يفعلوا ذلك تائبين ونادمين لا أن يفعلوه كما يفعل الإله حين يعلن ويعترف بكل السذاجة أو البلاهة أو الوقاحة والسفاهة أو بالتفسير الذي لا تفسير له أنه المريد المخطط الفاعل لكل شيء.. لكل المظالم والآلام والقبائح والفضائح والأخطاء والخطايا بل والمعلم لكل ذلك القائد إليه ـ حين يفعل ذلك بلغات ونيات وشاعريات ومشاعر وتفاسير المباهاة والامتنان والإصرار على الإصرار..!

هل وجد أو هل يمكن أن يوجد أو يتصور أو يقبل أن يوجد من يعلن افتخاره ومجده وعبقريته وشهامته وتقواه وتفضّله وامتنانه على كل شيء وكل أحد بأنه ولأنه هو الذي أراد وأحبَّ وخطط وقرر وفعل كل شيء وكل أحد كما جاء بكل بداياته ونهاياته.. بكل ما يلقى ويرى ويواجه ويقاسي بين بداياته ونهاياته.. حتى الحيوانات والحشرات بكل ما تفعل ويفعل بها بداية ونهاية..! هل وجد أو يتصور مذموم مشتوم أو من يستحق أن يكون ذلك مثل المريد المخطط الفاعل لكل المراد المخطط المفعول.. لكل ما كان ولكل ما سوف يكون؟

أليس كل من شتم أو ذمّ أو حقّر أو رفض أي شيء أو أي أحد إنما يعني وإن لم يعرف المريد المخطط الفاعل لكل شيء ولكل أحد؟ كيف أمكن جهل هذا؟

.. هل وجد أو يمكن أن يوجد أو حتى يتصور قبح هو كل القبح.. يحسب ويزعم ويرى كل الجمال مثل قبح الإله، أو جمال هو كل القبح وأقبح القبح يرى ويزعم كل الجمال مثل جمال الإله أي مثل قبح الإله أي لأنه أي الإله هو كل شيء وكل أحد. كل الوجود إرادة وتدبيراً وتخطيطاً ورؤية وأخلاقاً وخلقاً وصياغة بل ووجوداً؟

.. كيف وجد من يسمع أو يقرأ كلمات وأوصاف قبيح ثم يتصور أو يفهم أو يعتقد أن المعني بذلك غير الإله أي غير المريد المخطط الفاعل الخالق الصائغ لكل شيء؟ حين يصرخ أي صارخ بانفجاع وألم قائلاً: ألعنك، أكرهك أيتها الحشرة، أينها العاهة، أيتها الشيخوخة، أيها المرض فهل يمكن أن يكون المعني بذلك غير الفاعل ومن الفاعل؟

.. كيف وجد من يسمع أو يقرأ من يقول أكرهك وألعنك وأحتقرك يا صانع ومؤيد ومخطط كل الآلام والآثام والبلادات والحقارات والإهانات بكل النذالة والسفاهة والفحش ثم يفهم أو يتصور أنه يمكن أن يكون المراد بذلك غير الفاعل لكل شيء والمسؤول عن كل شيء أي غير الكائن المزعوم إلهاً؟

.. من يستطيع أن يتقبل أو يعقل أو يغفر أو حتى يتصور هذا..

.. حاكم أو كائن ما قادر قدرة مطلقة ومستغنٍ عن كل شيء استغناء مطلقاً بكل معانيه يذهب يسرق وينهب ويقتل ويدمر ويطالب لنفسه بكل الرضا والإعجاب ثم يذهب يشتم ويحاكم ويعاقب واحداً من رعاياه لأنه فعل شيئاً مما فعل ويفعل هو تحت ضغوط الاحتياج والعجز والجهل.!؟

هل وجد هذا الحاكم أو الكائن؟ هل وجد من يعرفه أو يقبل معرفته؟

.. ما أقبح وأفجع وأبلد ألا يرى أو يقرأ أو يحاسب ويحاكم ويعاقب الإله نفسه.. ألا يحول كل رؤاه وقراءاته ومحاسباته ومحاكماته ومعاقباته لكل شيء وكل أحد وأيضاً اشمئزازه وغضبه وغيظه من كل شيء وكل أحد وعلى كل شيء وكل أحد.

ـ ألا يحوّل كل ذلك إلى نفسه وعلى نفسه ومن نفسه وهو الذي يريد ويدبر ويخطط ويفعل كل ما تحرمه وترفضه وتلعنه وتحاكم وتحاسب وتعاقب عليه كل الأديان والأخلاق والتعاليم والقوانين حتى أديان وأخلاق وتعاليم وقوانين الخارجين على كل ذلك وعلى كل الحب والحنان والرحمة والمنطق والعدل والشرف والإيمان والأديان أي وما يحرمه ويلعنه ويحاسب ويحاكم ويعاقب عليه وبه هو، هو نفسه.. كيف حدث ذلك؟

الفاعل لكل الآثام والأخطاء والذنوب والنقائص بتدبير وتخطيط وإرادة وتصميم وتعمّد وهو يستطيع ألا يفعل شيئاً من ذلك وهو لا يحتاج ولن يحتاج إلى شيء من ذلك.

ـ نعم، هذا الفاعل المسيء إلى كل صيغ وتفاسير الأساطير والخرافات بضخامة أسطوريته

وخرافيته ولضخامة ذلك كيف يحاسب أو يحاكم أو يعاقب أو حتى يلوم أو يذم من فعل واحدة من ذلك تحت أقسى ضغوط العجز والجهل والاحتياج... واحدة من الكون.. كون الآثام والذنوب والأخطاء والمظالم والنقائص التي يفعلها هو كلها بكل المباهاة والغرور والكبرياء والأساليب الإعلانية مطالباً بأفدح الأثمان ممن فعلها بهم وبكل الشكر والتعبّد والحمد له لأنه فعلها؟

.. أين ذهبت من الإنسان بل من الكون كله كل الرؤى والعقول والأخلاق أي في هذه القضية وفي أكثر القضايا؟ من سرق كل ذلك أو قتله أو ضلّله وحوّله إلى نقيض معانيه ووظائفه؟ كيف وجد من استطاع ذلك أو أراده؟ هل وجد أو يمكن أن يوجد أو حتى أن يتصور خارج على كل ما يقوله ويعلمه ويطالب به ويمتدحه بافتضاح وهوان ومسكنة مثل الإله؟ هل وجد مثله عصياناً لنفسه ولقوانينه ولكل ما يقول؟ هل وجد خارج على كل الأديان التي يعلمها مثل الإله؟

هل مرّ بالكون كله أو تخلق في الكون كله خارج على كل التعاليم والأخلاق والأديان والعدالة والحب والرحمة والعقل مثل الإله أو غير الإله؟

هل حارب الأديان أو أهانها أو هزمها أو شوّهها أو أذلّها مثل منزلها ومعلمها أو غير منزلها ومعلمها أي بسلوكه وأخلاقه وإراداته وشهواته وخططه وخدعه وتآمره حتى مع أقوى أعدائه.. إبليس؟

هل وجد متآمر على الأديان مثل من أوحاها وشرّعها؟

أعتذر، أعتذر بأن أقول إنني أعني الإله المزعوم المعلم الذي زعمته وعلّمته وفسّرته المحاريب والمنابر واللحى والعمائم والآيات والسور أي القرآن وأيضاً التوراة والإنجيل وكل قرآن وتوراة وإنجيل جاء أو قد يجيء..!

رهيب فاجع ما فعلته وأوقعته بالإنسان والتاريخ وما ورثتهما وغرست وزرعت فيهما الآيات والإصحاحات والأسفار وكل ما في معناها.! كيف لم يفطن كل العالم إلى ذلك.؟

هل أفسد الإنسان وشوّهه وأذلّه ولقّنه البلادة والجهالة والخرافة والفظاظة والعداوة بل والوقاحة والبذاءة مثل قرآنه وإنجيله وتوراته.. مثل كل قرآن وإنجيل وتوراة قد جاءت أو زعم أنها جاءت أو قد تجيء بأسمائها أو بأسماء أخرى؟

.. هل وجد في كل أعداء الإنسان أو هل يمكن أن يوجد مثل قرآنه وتوراته وإنجيله أو مثل ما هو معنى من معاني قرآنه وتوراته وإنجيله؟ من أول من فتح أبواب أو منافذ السماء ليستجدي منها قرآناً أو توراة أو إنجيلاً.. لتستفرغ على الأرض ذلك.! ما أعظم ذنوب هذا الأول إن كان قد وجد..!

.. كم هو فظيع، فظيع أنها لم توجد منظمات ومحاكم عالمية بل كونية يتألف قضاتها وشهودها من كل الشموس والنجوم والمجرات ومن سكانها وآلهتها إن كان لها سكان وآلهة لكي تحاكم الإنسان.. لكي تحاكم توراة الإنسان وإنجيله وقرآنه على قسوته وفحشه ووقاحته وبلادته في ظلمه وشتمه وتحقيره وتشويهه للإله باتهامه له بأنه هو المريد والمخطط والفاعل والصائغ المخرج لكل شيء حتى للنبوات والزعامات والقيادات والعبقريات والشاعريات العربية.. العربية.

كيف فقد العالم.. الكون كله كل تفاسير ومعاني الرحمة والإشفاق والعدل والشهامة والذكاء والمنطق في تصوّره ورؤيته وقراءته وتفسيره وتقديره للإله وفي تعاليمه عنه وتعليمه له بل وفي صيغ تعبّده له.. في صيغ وأساليب وتفاسير صلاته وصيامه وحجّه ودعائه ووصفه له وثنائه عليه؟

إن أي هاجٍ لم يهج مهجوه مثلما هجا الإنسان آلهته بتعبّده وعباداته وأوصافه لها مرثية أي أوصافه وعباداته ومسموعة ومفسّرة ومؤداة صلاة وحجاً وصياماً.!

.. نعم، كيف أمكن أن يوجد من يشك في أنه لم يوجد ولن يوجد محتاج إلى أن يتعلم أبجديات الأخلاق والعقل والعدل والمنطق والحب والرحمة والتهذيب والصدق والجمال والبسالة بل والإيمان والتديّن والتقوى مثل الإله أو غير الإله الذي بعث إلينا كل أنبيائه لكي يعلمونا ما لا يستطيع أو يريد هو أن يتعلم شيئاً منه ولكي ينهونا عما لا يريد أو يستطيع أن ينهى أو يمنع أو يزجر نفسه عنه؟ هل وجد أو يوجد خارج على كل تعاليمه وعلى كل التعاليم مثل الإله؟

أليس هو الكائن الذي لن يوجد مثله أو غيره في أمره بالمعروف الذي لن يفعل شيئاً منه وفي نهيه عن المنكر الذي لن يترك شيئاً منه أو يتنظف أو يتنزه عن شيء منه.؟

كيف لم يتحول المؤمنون به من عابدين له إلى معلمين له.. يعلمونه الأخلاق والصدق والوفاء والالتزام بما يقول وبما يطالب به ويفسّرون له أنه ذنب وعيب كبيران ألا يفعل المعروف الذي يأمر به وألّا يترك المنكر الذي ينهى عنه.!؟

.. وهنا بكل الروع والانزعاج واللهفة والحب والشوق قلت: إذن ما الحل.. ما العلاج.! قلت لمن أرجو منه الحل والعلاج.! قلت ذلك وأنا أعرف أن الحل والعلاج لا يعنيان أكثر من البحث والسؤال عنهما.!

.. أليس البحث والسؤال عن الحل والعلاج مطلوبين بل ومحتومين مهما كان محتوماً ومعلوماً معروفاً ألّا يوجدا أي الحل والعلاج بل مهما كانت فظاعة وقسوة وقبح الإعلان عن الحل والعلاج؟ أليس البحث والسؤال عما لا وجود له ولا جواب عنه هما إحدى وأقوى وأشهر وأرحم الخدع للنفس لكي تتقبل ما لا يمكن أو يقبل تقبله أو للإلهاء عن ذلك وعن التحديق والتفكير فيه؟

.. من الممكن أن يقال إن المخادعين الماكرين وأيضاً إن الرحماء الأتقياء الطيبين هم الذين اخترعوا السؤال والجواب ليلهوا ويخدعوا الإنسان أو ليفرحوه ويسعدوه ويعزوه.!

.. إن إرادة التلهي والتسلي واستفراغ وتفريغ النفس والعقل والقلب والضمير والرؤية من شحنات الاحتجاج والضيق والرفض والاشمئزاز من كل ما يرى ويسمع ويواجه ويقرأ ويفسر ويفعل ويحدث بكل التزاحم والتراكم والدوام.

- نعم، إن هذه الإرادة بهذه التفاسير لهذه الاحتياجات قد تكون هي أقوى وأشهر وأصدق التفاسير للبحث عن حل وعلاج ما لا حل أو علاج له وللسؤال عما لا جواب له.!

ولعل احتياج الإنسان إلى اللغة ليستفرغ ذاته أكثر من احتياجه إليها ليتكلم أو ليفكر..!

إنه لو وجد كل الحل والعلاج والجواب لكل شيء وعن كل شيء وعن كل سؤال لبقي الحل والعلاج والجواب بلا حل أو علاج أو جواب.!.. إن كل شيء ينتقل من سؤال إلى سؤال لا من سؤال إلى جواب، ومن مشكلة إلى مشاكل لا من مشكلة إلى حل.!

إنه لو فسّر الفعل والحدوث بالإرادة وبالقوانين الذاتية الآلية لجاء السؤال عن الإرادة وعن القوانين الآلية الذاتية.. ولو فسّرت الإرادة والقوانين الذاتية بالقدرة والحاجة والضرورة لجاء السؤال عن هذه.. ولو فسّرت هذه بالوجود أي بوجود الموجود المريد المحكوم عليه بالحاجة والضرورة لجاء السؤال عن الوجود.. عن وجود الموجود.. ولو فسّر هذا بوجود الموجود الأول لجاء السؤال عن وجود الموجود الأول.. لجاء السؤال هنا مغرقاً وهازماً صادماً مسكتاً كل سؤال وكل سائل وكل متعامل بالسؤال والجواب..!

إن كل الأسئلة والأجوبة لم تصغر وتذل وتفتضح وتهزم مثلما حدث لها كل ذلك متعاملة مع الموجود الأول ومتعاملة به. هل يوجد سؤال أو جواب أو عجز عن السؤال والجواب لولا الموجود الأول؟ إنه لو فسّر هذا الموجود الأول أي المحسوب كذلك بالكلمة المعروفة المشهورة المقنعة لمن يبحث عن الإقناع والاقتناع لا لمن يريد أن يعرف لا أن يقتنع بلا معرفة.

ـ بالكلمة القائلة: «لا يسأل عما يفعل» أي وعما يكون وعما لا يكون.. لا يسأل لأنه لن يجد جواباً ولن يوجد جواب.

ـ لو فسّر هذا بهذا لقيل: إذن لقد انتهى كل سؤال..!

إنها لو فسّرت كل وحدات كل الأشياء والآحاد بعضها ببعض لجاءت مجتمعة بلا أي تفسير أي بلا أي سؤال أو جواب.. إنها لو وجدت كل التفاسير لأعضاء الذات لما وجد أي تفسير للذات بأعضائها.!

وإنه لو فسّر الخالق بالمخلوق والمخلوق بالخالق لجاءا مجتمعين أي الخالق والمخلوق بلا أي تفسير.. بلا أي سؤال أو جواب.. ولنتصور القضية هكذا:

أحدهما جاء ليكون خالقاً معبوداً والآخر جاء ليكون مخلوقاً عابداً.. هل وجد من أراد هذا أو خططه أو علمه أو فعله؟

ما التفسير لمجيء هذا المثنى المركّب من الخالق المعبود ومن المخلوق العابد؟ هل يستطاع تصوّر قبح هذا المثنى؟

ألا يخجل ويهرب كل سؤال وسائل ومسؤول من هذا السؤال فكيف الجواب؟ إنه لو فسّر كل شيء بكل شيء لجاء كل شيء مفسراً أو مفسراً بلا تفسير.!

اسمع أيها الموجود.. يا من عوقبت وعذبت بوجودك وإيجادك أقسى وأوقح العقاب والعذاب والتعذيب.. بوجودك وإيجادك دون أن تدري أو تختار أو تستشار أو تقبل أو تعرف..

اسمع بغضب وانفجاع وغيظ ورفض واستنكار ومقاومة لا بصبر أو تحمل أو سكون أو هدوء بل ولا بالرفض المسالم الصامت المتوقر الكسول..

اسمع.. أنت موجود.. إذن أنت خارج على كل سؤال وجواب بل مهين محقر هازم لكل سؤال وجواب.. لكل من ابتكروا السؤال والجواب..!

أنت لا تستحق أن تتحول إلى سؤال لأنه لن يكون عنك أو لك جواب. لن تصبح جواباً.!

.. أيتها الكائنات اللغوية أي الهابطة إلى طور الكائنات اللغوية. أليست الكينونة اللغوية هبوطاً مهما حسبت وبدت صعوداً؟ أليست هبوطاً إلى حضيض الاعتقادات والخرافات والسفاهات والأكاذيب؟

.. يا هذه الكائنات التي لا مثيل لفضحها وافتضاحها وعارها وسفاهاتها وبلاداتها وجهالاتها ووقاحاتها وكذبها والكذب عليها لأنها بلغت طور الكائنات اللغوية.

.. يا هذه الكائنات احذفي من لغاتك كل سؤال وجواب ومن وجودك كل من يسأل ومن يجيب.!.. احذفي ذلك إن كنت تبحثين عن السؤال والجواب لا عن التلهي والتسلي واستفراغ الذات.!

إن الأشياء لو كانت لا توجد إلّا بمنطق السؤال والجواب لما وجد أي شيء. إن السؤال والجواب بعد وجود الشيء لا قبله.. إنهما منطلقان عنه وليس منطلقاً عنهما. إنهما جاءا منه ولم يجيء منهما.

.. إن منطق السؤال والجواب ليرفض وجود الكائن الأعظم أكثر مما يرفض وجود أصغر حشرة..!

إنها لو وجدت كل الأجوبة عن وجود أي شيء أو أي كائن لما وجد أي جواب عن وجود الكائن الأول الأعظم.!

أعود بشوق لأقول بكل الشوق: قلت له مخترقاً كل حراسات هذه الأفكار: إذن ما الحل، ما العلاج أي لهذه القضية المحتاجة إلى تلقي الوحي من غار حراء؟

.. لقد ضاع كل الأمل في أن ينزل الوحي.. في أن أجد ملاك الوحي أو منزل الوحي في غار حراء.. غار الوحي وملاك الوحي وإله الوحي..

لقد مات هذا الغار.. مات، مات وهجره إلهه وملاكه.. لقد قاطعا وقطعا التعامل به وفيه ومعه ومن...

لقد مات بأسلوب الانتحار ونياته.. مات هذا الموت بعد أن رأى وفهم وقرأ قبح وقسوة ونذالة كل شيء مما فعله وأوقعه بالإنسان والحياة وبكل شيء حتى بالحيوان المأكول المركوب المسخر المحمول عليه لأنه شرع وعلم ومجد إذلاله وتسخيره بل وشتمه وتحقيره بل وقتله تعبّداً وإرضاءً وإسعاداً للإله الذي يعجز كل الطب عن شفائه أي لأنه أوحى إلى الإنسان العربي.. إلى النبي العربي ما

أوحى.. ماذا أوحى إليه؟ هل تستطيع كل الحسابات والإحصاءات أن تحصي أو تحسب الخسران الذي أصاب الحياة والإنسان من هذا الوحي والإيحاء؟

هل أساء أي إله إلى نفسه مثل إساءته إليها بإيحائه ومخاطبته ومحاورته للإنسان العربي.. للنبي العربي مؤملاً أن يجد أو يرى شيئاً مما يريد أو مما يراد أو مما يرضيه أو يفرحه أو يسعده أو يمجده أو مما يريد أو يرضي أو يسعد أو يفرح أي بصر أو قلب أو ضمير أو عقل أو فكر أو خلق أو أمل جيد أو تقي أو ذكي أو كريم أو رحيم؟

أليس أردأ الكائنات حظاً ووجوداً هي الآلهة وأردأ هذه الآلهة هي المتكلمة المريدة المخططة الفاعلة، وأردأ هذه هي العارضة لنفسها المعلنة عنها القارئة المفسرة لها.؟

.. قلت له: إذن ما الحل ـ ما العلاج وقد ماتت وهزمت وهربت وأغلقت كل المغارات.. كل ملائكة وآلهة وأنبياء المغارات والغيران.. فظيع، فظيع أن تتخلق آلهة الإنسان في المغارات والغيران!

تحت عنف أقسى وأقوى التناقضات والتصادمات والمواجهات قلت له، قلت: إذن ما الحل، ما العلاج.. إني أحترق، أحترق..!

هنا خشع وصمت وتواضع وتوقع وتوقر ورهب كل شيء، أما الآلهة فقد هربت، هربت لئلا تكون مسؤولة أو منقذة أو مطلوباً منها ذلك أو مرجوة له..

وهنا قال المسؤول المخاطب الذي لم يكن مسؤولاً أو مخاطباً والذي لن يكون كذلك...

قال بكل الرضا عن نفسه وعن كل ما يريد ويرى ويفعل ويحدث وعن كل ما سوف يقول ويريد ويرى ويفعل ويحدث. قال من لم ير نفسه ولو مرة واحدة رؤية نقد أو رفض أو احتجاج أو محاسبة أو محاكمة أو تصحيح أو حتى عتاب.!

قال الإله المظلوم المشتوم المحقر بزعمه إلهاً وباتهامه بكونه إلهاً.. بأنه إله أو بأنه كان إلهاً أو بأنه قد يكون إلهاً أو أنه قد يقبل أن يكون ذلك أو كذلك؟

هل يمكن أن يوجد أو يتصور اتهام أو تحقير أو سب لأي شيء مثل زعمه إلهاً أو اتهامه بأنه إله أو بأنه قد كان أو قد يكون ذلك أو كذلك؟

إذن هل يوجد من يحتاج إلى أن يكون كل القبح والفحش والغباء والنذالة والوقاحة مثل الإله أو مثل من يعد ليكون كذلك أو مثل من يقبل أن يكون كذلك أو ذلك أو يستطيع أن يكونه؟ ما أكثر وأعظم الشروط الذميمة الرديئة فيمن يقبل ويريد ويستطيع أن يكون رباً وإلهاً وخالقاً وحاكماً لكل هذا الوجود!

... إن كل عار وقبح وفحش وآثام ووقاحات وفضائح كل العالم وكل شيء لن تكون شيئاً محاسبة بعار وقبح وفحش وآثام ووقاحات وفضائح رب وخالق وحاكم وإله هذا العالم.. هذا الكون أو المتهم المزعوم بأنه ذلك أو كذلك. بل أليست كل ذنوب وفواحش هذا الوجود هي بعض ذنوب وفواحش من بصقه زاعماً أنه خلقه؟

أعتذر إليك، أعتذر إليك يا إلهي الضعيف البريء الغائب العاجز عن أن يصعد إلى طور من يتهم ليحاسب ويحاكم ويعاقب.

.. أعتذر إلى ضعفك وعجزك وهزيمتك وضياعك وغيبوبتك وغيبتك يا إلهي، يا إلهي البائس الحزين.!

إنك يا إلهي بريء براءة من لم يوجد ولن يوجد.. أيهما أنفع وأنبل لك: أن تكون بريئاً هذه البراءة لأنك مفقود أم أن تكون متهماً بكل شيء؟

إني هنا لا أقول ولا أريد أن أقول لك يا إلهي يا من لن يساويه أي بريء في ديمومة براءته لأنه لن يساويه أي مفقود في ديمومة فقده.!

.. ولكني أقول للآمر المطاع..

أقول له: ما الحل.. ما العلاج..!

إني أقول له ذلك بخشوع ورهبة وتقوى ولغات الصلاة والتعبّد لا بأي معنى من معاني السؤال أو البحث عن الجواب..!

إن أتقى وأصدق التفاسير للسؤال والجواب أنهما صلاة، صلاة بلا إله.. صلاة من يحتاج ويريد أن يجد إلهاً فلم يجده ولن يجده ولو وجده لما وجده كما يريده أو كما ينبغي.!

.. إن كل منطق وحساب وتفسير يضيع، يضيع حين الصلاة.. يغيب، يغيب عن رؤية وتفكير وعقل وقلب وضمير المصلي الصادق الخاشع في صلاته بل وعن أخلاقه..!

هل يمكن أن يكون أو أن يعد مصلياً أي مصلٍ لا يفقد عقله وقلبه وضميره ورؤيته وأخلاقه وتفاسيره لنفسه ولكل شيء حين يصلي؟

.. هل يمكن أن يصلي من لم يفقد كل ذلك؟

إنه بقدر ما يكون المصلي مصلياً تهزم كل معانيه. لهذا فإنه لا يوجد ولن يوجد من يصلي كل معاني الصلاة مهما صلى.!

❁ ❁ ❁

سمعني أطالبه بالحل والعلاج..!

أدرك بموهبة الإدراك فيه.. أدرك عنف حيرتي وعجزي ورغبتي وحاجتي إلى أن يحل ويعالج..!

ليت الإله يتعلم أو يستعير أو يوهب شيئاً من إدراكه.!

هل يمكن أن يوجد أو يبقى في هذا الكون شيء يشكى أو يبكى منه لو حدث هذا أي أن يتعلم أو يستعير أو يوهب الإله شيئاً منه من إدراكه أو أي شيء من معانيه؟

.. الإله يدرك ويتعلم ويستعير الإدراك، إذن كيف بقي أو يبقى أي شيء كما بقي ويبقى؟

.. هنا، هنا أطلقها آهات وأنات لا تعني شيئاً مما تعنيه الآهات والأنات بتفاسيرها ودلالاتها المعروفة..!

... هنا أطلقها تحديقات وهمهمات وإشارات وابتسامات مليئة بكل المعاني والإيحاءات التي لا بدّ أن يصلي الإله في كل المعابد والمحاريب متديناً بكل الأديان راجياً ومتضرّعاً أن يفهم أو يلهم أو يعلم شيئاً من معانيها وتفاسيرها، أو يستطيع إطلاق مثلها مؤثرة وقاهرة وموحية مثل تأثيرها وقهرها وإيحائها..!

.. مشحونة ومملوءة بكل المعاني والتفاسير التي لا بدّ أن يحزن الإله كل الحزن وأقسى الحزن حين يعجز بكل ذكائه وكبريائه عن فهمها وتفسيرها.. عن فهم وتفسير أي شيء منها.

.. وعن أن يكون مثلها.. مثل أمرها ونهيها وسلطانها القاهر..!

... والتي لا بدّ أن يسعد الإله كل السعادة وأن يفخر ويتكبر كل الفخر والتكبّر لو استطاع بكل ما خطط وأراد وصنع لنفسه من ذكاء وفهم وعبقرية أن يفهم أي شيء منها ولو ظناً أو أملاً أو ادعاء أو توقعاً حتى ولو لم يملك هو مثلها ليتعامل ويعامل ويتسلّط بها.!

.. نعم، وهنا قال بصوت لا بدّ أن يفتن ويرهب ويبهر ويقهر ويسحر السماء لكي تذهب تناضل وتحاول أن تسكت وتخفي كل الأصوات المسموعة وأن يتحول كل شيء إلى صمت، صمت ولكي تهب آذانها كل طاقات ووظائف ومواهب السمع والاستماع.

.. لكي تجمع وتوحد استماعها إلى هذا الصوت.. استمتاعاً ورهبة وانقهاراً وانبهاراً وانسحاراً ورغبة في أن تفهم، تفهم.. وأملاً وطمعاً في أن تتعلمه أو توهبه لتتعامل وتعامل به وتستعمله ليكون لها جبروت أمره ونهيه اللذين لا يستطاع ولا يراد عصيانهما أو نسيانهما أو إهمالهما أو الاسترخاء حين سماعهما..!

نعم، وهنا قال..!.. ولأنه قال فلا بدّ أن تركع كل الآلهة لكي تحاول أن تسمع وتفهم ما قال أي شيء مما قال..!.. صعب تصور ماذا يصنع الاستماع إليه..!.. صعب تصور ذلك على من لم يجرب الاستماع إليه.!

.. أيتها الشموس والنجوم والمجرات احتفظي بشيء من قوة ووقار واتزان أعصابك وأعضائك وعضلاتك وكرامتك وكبريائك ونظامك لكي تستطيعي أن تستمعي إليه وهو يقول وكأنه يعلن موت السماء.. وكأنه يقرأ نعيه للسماء على سكان الأرض وهو يقول إن كل الحل.. كل العلاج هو الصمت، الصمت. لا علاج إلّا الصمت لأنه لا غار بعد اليوم.. لا غار.. وإذا لم يكن غار فهل تكون أو تبقى سماء أو يأتي أي آتٍ من السماء؟

لأن الغار.. غار حراء قد مات، مات بعد أن ماتت كل نبوة وكل نبي بعد النبوة العربية.. بعد النبي العربي لأنه لا يمكن أن يجرؤ على الحياة أو الوجود أو أن يتقبل ذلك أي نبي أو نبوة بعد أن

جاء وجاءت النبوة والنبي العربيان. إنه لا غار بعد الغار العربي إذن لا إله ولا نبي بعد الإله والنبي العربيين بعد موت أو إغلاق غارهما. وقد ماتا حزناً على غارهما الذي مات.! والآلهة والأنبياء لا يجيئون إلّا من الغيران مثلما جاء الإله والنبي العربيان!

قال: إن الحل والعلاج.. إن كل الحل والعلاج هما الصمت، الصمت الذي يجب أن يتحول إلى شيء من صمت الإله.. من صمته في غار حراء وعنه وفي كل غار وعن كل غار وفي كل شيء وعن كل شيء. وهل يستطاع الاقتداء بالإله أو تقليده في أي شيء من صمته؟

إن صمت الإله ليس صمت لسان ولغة فقط بل وصمت قلب وفكر وضمير ورؤية وأخلاق وحركة وعمل وشوق وحب بل وصمت وجود.. هل يمكن تصور وجود صامت صمت وجود الإله؟

.. الصمت، الصمت انفجاعاً وأسى وذعراً ويأساً لموت كل الآلهة والأنبياء أو لاختفائها وعجزها عن المجيء والظهور لأن جميع المغارات والغيران التي تجيء منها وتتخلق وتتعلم وتتدرب فيها قد ماتت أو هدمت أو أغلقت.. لأن جميع المغارات والغيران قد أصيبت بكل ذلك أي لأن غار حراء.. الغار الذي ولد وخلق وربى وعلّم وأخرج وأرسل ملاك الوحي العربي والإله والنبي العربيين قد مات أو أغلق أو هدم أو هرب أو اختفى استحياء وندماً وتوبة واعتذاراً واستغفاراً مما فعل ومحاكمة ومحاسبة ومعاقبة لنفسه على ما فعل بالحياة والإنسان ما أوحاه..

إنه لمفروض أن يرى أي غار حراء أنه هو الذي خلق أو ولد أو علم أو أغرى وأغوى الملاك والنبي والإله الثلاثة الذين هجموا على الحياة والإنسان زاحفين منه لهذا فهو المذنب كل ذنوبهم!

.. بعد هذا الإرهاق العقلي والفكري والنفسي والأخلاقي والتصوّري الذي لا بدّ أن يبيع الإله كل أرضه وسمواته وكل تاريخه أو يتنازل عن كل ذلك إذا كان الثمن أو الجزاء أو التعويض ألا يقاسي هذا الإرهاق أو شيئاً منه.

- نعم، بعد هذه المقاساة لكل هذا الإرهاق قال المخاطب: إنه الصمت، الصمت كما صمت الغار، غار حراء والد وخالق ومعلم ومربي كل الآلهة والأنبياء.. قلت له: أنقذتني، أنقذتني لا أنقذ الله منك أحداً ممن سحرت وقهرت وبهرت.!

ولكن هل يمكن أن أحسب حكيماً أو واعياً أو موالياً موالاة نافعة أو ذكية حين أدعو وأتمنى لك أن تظل ساحراً قاهراً باهراً أو حين لا أدعو وأتمنى لك الإنقاذ من طاقات ومواهب السحر والقهر والبهر فيك ومن حماسها ونشاطها واتساعها وإغرائها؟ ألست في هذا مثل المؤمن الذي يتمنى ويريد ويدعو لإلهه أن يكون المريد المخطط المدبّر العاشق الفاعل لكل شيء ولكل أحد؟

.. أليست أعمال وعمليات السحر والقهر والبهر أخذاً من الذات واستنفاداً وإرهاقاً وإحراقاً لقدراتها واستراحاتها واسترخاءاتها العضلية والنفسية والفكرية والأخلاقية بل والدينية؟ أليست هجوماً بأقوى طاقات الذات وأسلحتها؟ والهجوم أليس إرهاقاً وإنفاقاً لطاقات الذات وتعذيباً وإرهاباً لها؟ حتى الجمال البصري المرئي الجسدي الساحر القاهر الباهر برؤيته هو أخذ واستنفاد وإرهاق وإحراج بل

وقتل وتعذيب وتهديد وإخجال وفضح ولو أحياناً للذات المخلوقة المحكومة به مهما كان فعله بالرائين المبصرين المقهورين المبهورين المسحورين بل لأنه كذلك يفعل بهم..!

إن هذا الجمال مقاتل والمقاتل لا بدّ أن يرهب ويرهق ذاته وطاقاته ويستنفدها..

.. أليس الساحر الباهر القاهر فاعلاً والفعل معاناة واستهلاك للذات؟ أليست الشمعة المضيئة المشعلة والجهاز المتحرك العامل المعطي يستهلكان وينفقان طاقاتهما بل وذاتيهما دون الشمعة والجهاز الصامتين الخامدين المتوقفين؟

أليسا يفعلان ذلك بطاقاتهما وذاتيهما بقدر ما يعملان ويعطيان؟ أليس القلب الخافق أقوى وأصدق وأدوم الخفقان بأحر الحب والحنان والشوق والعطف يستهلك ويعذب ذاته أكثر من القلب الآخر؟ أليس الحب المنفذ والمحروم.. الواهب والعاجز جهاز إحراق واحتراق واستنزاف؟

.. إنه لا مثيل للإله عدواناً على نفسه وإرادة للعدوان عليها وتدبيراً وتشريعاً وتعليماً وحباً لهذا العدوان عليها.!

إنه لا مثيل له معادياً مقاتلاً مستهلكاً سارقاً مشوّهاً مورطاً فاضحاً مضعفاً معذباً لنفسه ولكل معانيه وطاقاته أي لو كان ذلك حقيقة وليس أغبى رواية يرويها غار حراء أو غيره من الغيران والمغارات وتروى عنه.. إنه لا مثيل للإله في شيء من ذلك لأنه لا مثيل لمطالبته أو للانتظار منه أو لمحاولته أو إرادته أو رغبته أو لمسؤوليته بأن تكون قدرته المنفذة على أن يسحر ويقهر ويبهر ويتسلّط بكل صيغ ذلك ومعانيه وتفاسيره بلا حدود أو مقاييس أو مستويات محددة أو مقررة أو حتى مفهومة. إنه أي الإله لم يعرف أن ذلك استنزاف شامل للذات.. استنزاف بلا تعويض أو استرداد. إنه لم يتعلم أو يعلم أن من يسحر ويقهر ويبهر ويتسلّط معذب ومسروقة مستهلكة مستنفدة طاقاته وأخلاقه وأفكاره وذكاؤه وحماسه بقدر ما يفعل ذلك وبقدر ما يكونه وكذلك من يريد ويدبّر ويخطط ويخلق ويطالب ويرجى وينتظر منه أي مثلما يفعل الإله أو يقال عنه ويعتقد فيه ويوصف أي مثلما أصاب إله وصاحب هذا الوجود من استنفاد واستهلاك وسرقة لكل طاقاته العضلية والذاتية ومن تعذيب وفجيعة وإذلال وتحقير وتشويه لكل معانيه الرائية والمفكرة والمفترة والمحاسبة المحاكمة المعاقبة أي المفروضة كذلك..!.. كيف لم يفطن أي الإله إلى ذلك؟ كيف لم يتحول البشر من مؤمنين به عابدين له إلى راثين ومنقذين ومبرئين له؟

.. هل يمكن وجود بل تصور معذب مشوّه محقر مشتوم مهزوم مهان مثل إله ورب وخالق وصاحب ومخطط ومنظم هذا الوجود لو كان محكوماً أو موجوداً أو مفسراً أو متعاملاً أو حتى مطالباً بأي قدر من الحكمة أو الرؤية أو الرحمة أو التفكير أو المحاسبة أو المحاكمة أو المعاقبة. هل يمكن أن يوجد أو يبقى أي إله لو كان محتوماً أن يتعامل بشيء من هذه المعاني؟

.. هل يمكن أن يوجد أو يتصور أي تفسير غير هذا التفسير لعجز الإله الذي جعله يضطر إلى أن يترك كل الأخطاء والآثام والفضائح والفواحش وكل المخطئين والآثمين والمجرمين..

يتركها ويتركهم تكون وتفعل ويكونون ويفعلون دون أن يمنع أو يعاقب أو يقتل أو يقاتل أو

يأتي خارجاً من اختبائه وكهفه صارخاً، صارخاً بأسلوب الإنذار والتحذير حاملاً كل أسلحة المقاومة أي لعجزه الذي أوقعه به استهلاكه واستنفاده وإنفاقه لكل طاقاته.. طاقاته العضلية والنفسية والعقلية والتخطيطية والحماسية في ممارساته وكفاحه فاعلاً لهذا الكون ومواجهاً له بكل معانيه.. أو غير هذا التفسير لعجزه الذي تحولت دموعه وأناته وآهاته وأحزانه...

إلى نبوات وأديان وصلوات وتضرعات وإلى حج وصيام وإلى كل هذه الأساليب والصيغ من الهوان والقبح المسماة والمزعومة تعبّداً وتقديساً وشكراً لصانع الموت والأمراض والتشوّهات والحشرات؟

.. هل يمكن أن يكون للنبوات أو للأديان أو للمحاريب والمنابر أو للكتب المقدسة المنزلة الباكية المبكية الفاجعة المفجوعة.

- هل يمكن أن يكون لها أي تفسير غير تفسيرها بأنها دموع وأنات وآهات وصرخات عذاب الإله وشكواه من عذابه وأحد تعبيراته عن عذابه وأيضاً من عجزه، عجزه عن أن يقاوم أعداءه وعصاته والخارجين عليه المتحدين المهينين له.

.. عن أن يقاوم ليمنع ويعاقب شيئاً من الأخطاء والآثام والجرائم والفواحش والفضائح والمظالم المرئية والمعلومة التي حشد كل اهتماماته ونخواته وحماساته وشهاماته ونبواته وأديانه وتعاليمه ووظائفه وموظفيه للعنها وللنهي عنها وللتحريض عليها ولتعليم وتفسير وإعلان قبحها وفحشها وأضرارها.. كيف لم يتحول كل قبح وإثم وخطيئة وظلم ونقيصة وفحش وضلال وطغيان وفساد وخراب وهوان وألم ومرض - كيف لم يتحول كل هذا وكل شيء إلى سؤال قاتل، قاتل: أين أنت أيها الإله.. أموجود أنت.. أموجود؟

.. يا كل عباقرة التفاسير من كل المجتمعات والعصور.. اجتمعوا لتتدارسوا وتتساءلوا وتتحاوروا وتتفاوضوا وتتشاوروا وتتعاونوا بكل الحماسة والصدق والقوة والتقوى..

لتعرفوا وتقولوا شيئاً في تحليل وتفسير وفهم هذه القضية أو شيئاً عنها..

إنها لقضية لا مثيل لها في هجاء وتحقير كل العالم.. كل معانيه وتفاسيره بل وكل حضاراته وعبقرياته.!

كيف هزمت وتبلدت بل وماتت كل رؤى الإنسان وذكائه أمام هذه القضية؟

.. هذه القضية تقول: إن سلطان وحاكم وصاحب وصديق وحبيب وخالق ورب وإله هذا الوجود يرفض ويمقت ويلعن ويقاوم وينكر ويعاقب كل الآثام والآلام والأخطاء والمظالم والفضائح والشرور التي تغطي كل هذا الوجود بل ويتعذب ويتشوّه ويفتضح ويخجل ويتعرى ويتلوّث ويشتم بها ليظل أمامها مواجهاً معايشاً مساكناً لها باكياً شاكياً حزيناً مقهوراً بها ومنها، مستغيثاً طالباً مؤملاً النجدة والإنقاذ ممن يسميهم أنبياءه ورسله وكل معاونيه بل أو من أعدائه...

دون أن يفعل أي شيء لمنع أو قتل أو طرد ذلك بأي أسلوب من الأساليب المانعة أو الطاردة

أو القاتلة بل أو المحاسبة المعاقبة.. دون أن يفعل أي شيء لحماية نفسه من أشياء يستغيث بكل شيء وكل أحد بكل المسكنة راجياً أن يحميه منها.!

.. قولوا يا كل عباقرة كل العالم وكل العصور.. قولوا، وهل يمكن أن تقولوا شيئاً غير هذا، غير أن تقولوا: هل يمكن أن يوجد أو يتصور أو يقبل أو يغفر أي تفسير أو تحليل لهذا غير أنه أي إله هذا الوجود عاجز، عاجز عجزاً مطلقاً؟ أليس العجز المطلق هو أتقى وأذكى التفاسير لأي إله؟ أليس هذا التفسير للإله في هذه القضية هو أنبل وأرحم وأذكى وأتقى التفاسير لأن كل التفاسير الأخرى التي قد تعد بديلة عن هذا التفسير أو هرباً منه قبيحة، قبيحة لا تغفر لأردأ كائن؟

إن كل إله لهذا الكون وأي إله له وإن أي إله وكل إله لا بدّ أن يواجه هذه الورطة وأن يحكم بها..!

أليس كل إله ورطة.. ورطة في نفسه ولنفسه ولكل شيء وكل أحد؟ هل يوجد خالق ومواجه ومعايش ومساكن لكل الورطات مثل الإله أو غيره؟ إنه أي هذا الإله وكل إله: لا بدّ أن يكون عاجزاً كل العجز أو فاسداً وكاذباً وقبيحاً كل الفساد والكذب والقبح.!

وأي هذين الاختيارين الأليمين القبيحين الفظيعين يجب أو ينبغي أو يطلب أن يختاره المؤمن في تفسيره لإلهه.! ما أصعب وأفجع موقف المؤمن إذا وقف أو لو وقف موقف الاختيار لإلهه.!

يا كل عباقرة وأتقياء وأنبياء كل العالم هل تجدون تفسيراً أو اختياراً ثالثاً غير هذين الاختيارين والتفسيرين؟ ألا تستطيعون إنقاذ الإله والمؤمنين به من هذه الورطة.. هذه المصيدة؟

.. إنها مهما كانت أمانيكم وتعاليمكم وقراءاتكم وظروفكم الموروثة الثقيلة المذلة فلن تجدوا أي اختيار أو تفسير ثالث يا كل أنبياء وعلماء وأتقياء وعباقرة كل العالم..!

هل يصعب أو يخفى عليكم حينئذٍ أي التفسيرين أو الاختيارين يجب أو لا بدّ أن تروا به الإله أو أن تحكموا به على الإله أو أن تحكموا عليه بالإله؟

آه، إن كل حكم بالإله وحكم له لن يكون إلّا حكماً عليه. بل إن كل شيء حكم نهائي عليه.!

.. إذن يا كل أنبياء وعلماء وأتقياء ورحماء وشعراء كل العالم اذرفوا كل أناتكم وآهاتكم وأحزانكم ورثائكم وإشفاقكم وتقواكم وأشعاركم وكل فنونكم دموعاً مغرقة محرقة على الإله.. على إلهكم الذي لن يكون له أي تفسير: غير تفسيره بأنه عاجز عجزاً مطلقاً أبدياً لا شفاء ولا إنقاذ له منه، أو بأنه فاسد بل فاسق وقبيح وكذاب ولئيم ومتآمر متعاون مع كل الأخطاء والخطايا والفساد والفسوق ومع كل المريدين والفاعلين لذلك لكل ذلك. ومع هذا فإن من الصعب أو المستحيل أن يعرف لحساب أو لمصلحة من يفعل ذلك أي الإله..!

.. ماذا لو وجد تفكير حر شجاع ذكي بل أو بليد، وكان محكوماً عليه بأن يؤمن بأن فوق هذا الكون أو الوجود إلهاً أو حاكماً أو سلطاناً أو مسؤولاً أو حتى مرئياً قادراً قدرة مطلقة.

ـ نعم، لو وجد هذا التفكير الرائي الحر الشجاع الذكي بل أو البليد أليس محتوماً حينئذٍ أن

يرى ويعتقد أن هذا الإله أو السلطان أو الحاكم أو المسؤول فوق هذا الوجود هو أفسد وأفسق وأقبح وأكذب وألأم وأسفه وأنذل من كل من هو كل ذلك ومن كل من يتهم أو قد يتهم أو يجب أن يتهم بكل ذلك؟.. الإله الصالح التقي المؤمن الرحيم يتآمر ويتعاون مع أقوى أعدائه ضد نفسه. احترقي أيتها العقول لئلا تفهمي هذا. هل هنا أي في هذه القضية وأيضاً في كل القضايا الأخرى ساحر لا حدود ولا تفاسير لطاقاته الساحرة قد سحرت كل العالم فجعلته لا يرى ولا يفهم ولا يحاسب ولا يحاكم بل جعلته يفعل ذلك ضد ذلك وخروجاً على كل ذلك؟ هل حكم على العالم واشترط على وجوده أن يتحول إلى أقوى ساحر ضد نفسه ليظل مسحوراً، مسحوراً حتى يجب أن يكون واعياً، واعياً؟

آه.. كل العذاب والانفجاع والترويع والاحتراق والأسى لكل عقل يفكر، ولكل عين ترى، ولكل ضمير وقلب وأخلاق تشترط وتحاسب وتحاكم وتعاقب وتؤنب، ولكل مؤمن تقي رحيم صادق ينتظر من إلهه أي شيء من ذلك.. أي قدر من الإيمان أو التقوى أو الصدق أو الحب أو العدل. آه.. كل الرثاء والعزاء لكل مؤمن بربه لإلهه وفيه أي قدر من الحكمة أو الرحمة أو الذكاء أو الأخلاق..!

.. ألا يمكن أن يقال إن كل الآلهة بل وكل الأبالسة قد تآمرت على الإنسان لكي تسحب منه كل تقواه وذكائه وضميره وأخلاقه وعقله بل وكل إيمانه وتديّنه ونظافته وشرفه ورؤيته وشجاعته وكرامته لكي يستطيع أن يجدها ويؤمن بها ويراها ويعلنها كل الجمال والحب والرحمة والتقوى والتديّن والشهامة في كل صيغ وتفاسير ومرائي القبح والبغض والقسوة والفسوق والنذالة والزندقة والقذارة لكي يرى الآلهة ويقرأها ويفهمها ويجدها في نفسه لا في ذاتها؟ أليس الإيمان بإله هذا الكون الذي نجده ونراه ونعامله ونقرؤه ونواجهه بكل أخلاقه وصيغه وتفاسيره ورؤاه.

ـ أليس هذا الإيمان أقوى تفسير وتعبير عن وقوعنا في هذا التآمر؟ هل كان يمكن أو يحتمل أن يؤمن الإنسان.. أن يؤمن أي إنسان بمدبر ومريد ومخطط وخالق وصانع هذا الوجود أو الكون لو لم تقتل فيه أو تسحب منه كل تقواه وإيمانه وتديّنه وأخلاقه وذكائه وشرفه وعقله وضميره ورؤيته ونظافته وشجاعته؟

لهذا ألا نستطيع أن نقول أو ألا يجب أن نقول: إن الإله قد تآمر وتعاون مع آخرين بل مع كل الآخرين حتى مع أقوى وأشهر أعدائه وخصومه أي إبليس لكي يسحبوا منه أي من الإنسان أو ليقتلوا ويذلوا ويسكتوا ويفسدوا فيه كل هذه المعاني.. كل معانيه القوية والذكية والشريفة والشجاعة لكي يستطيع الإيمان به والتعامل معه بل والتصور له بالفكر أو بالعواطف أو بالأخلاق؟ أليس أحد شروط هذا الإيمان أن يفعل به أي الإنسان كل ذلك؟ إنها لقضية صعبة، صعبة فكيف أمكن أن تتحول إلى كل هذه السهولة أعني الإيمان بهذا الإله وكل نتائج وتفاسير هذا الإيمان..!.. إن كل الحسابات الحرة تقول إنه لا أصعب من هذا الإيمان بل لا أكثر استحالة منه. إذن ما الذي حدث؟

.. لنراجع تفاسيرنا لهذه القضية ولكل قضية ولكل شيء.. وهل نستطيع أو نجرؤ أن نراجع هذه المراجعة؟

ولو فعلنا ذلك فهل يمكن أن تقول لنا كل تفاسيرنا أو أي شيء منها إنه ممكن أو محتمل أو

منتظر أو مقبول أو مغفور أن يكون أو يجيء الإله الذي ولده وبصقه واستفرغه وربّاه وعلمه وأرسله غار حراء أفضل أو أنبل أو أتقى أو أقوى أو أذكى من الإله الذي أهداه إلينا وقرأه علينا وفسره ووصفه لنا القرآن الذي كتبت ونحتت وحفظت وقرأت آياته وسوره حجارة وكآبة وقحط الغيران والمغارات؟

أليست حجارة وكآبة وقحط ووخشة ووحشية هذا الغار هي التي صاغت وألّفت أخلاق هذا الإله وسور وآيات ولعنات وعداوات هذا القرآن؟

ـ اسمعوا، اسمعوا. وهل تستطيعون أو تقبلون أن تسمعوا؟ وهل يمكن أن يوجد من تستطيع أو تقبل آذانهم أن تسمع هذا أو شيئاً منه حتى ولو استعارت من آذان الآلهة كل صممها وبلادتها وخمولها وموتها ووحشيتها وقبحها وهوانها؟ وهل يقبل أو يستطيع أي كائن أن يتعلم أو يستعير من الإله أي شيء؟

اسمعوا يا من لن تسمعوا ولم تسمعوا بل يا من يجب عليهم ألا يسمعوا.. اسمعوا..

لهذا أطالبكم أن تسمعوا لأني لن أنتظر منكم أو أخشى عليكم أن تسمعوا.. إن كل من يقبل أو يستطيع أن يسمع لن يقبل أو يستطيع أن يبقى موجوداً أي لو أنه وجد أو قبل أن يوجد..!

هل استطاع أو يستطيع أي كائن أن يعايش أذنيه إلّا مشترطاً عليهما ألا تسمعا بل أن تسمعا لئلا تسمعا.. أن تسمعا نقيض ما تسمعان.!.. ماذا لو أن الكائن الأعظم فوق هذا الكون القبيح المتوحش سمع أنة أو آهة أو صرخة أو استغاثة مفجوع أو مظلوم أو مهان أو مريض أو جائع أو مقهور؟

.. بعد هذه الحراسة والحديث عن هذه الحراسة والاقتناع بهذه الحراسة على آذانكم لئلا تسمعوا وبأنكم لن تسمعوا أقول لكم اسمعوا، اسمعوا: إن إله ومريد ومخطط ومدبر وخالق ومعلم ومربي ومرسل إله هذا الوجود وكل وجود هو الغار.. غار حراء..!

❀ ❀ ❀

إذن كم يجب علي أن أعتذر وأتوب إلى مخاطبي.. أو أن يعتذر ويتوب إلي لأنه طالبني بالذهاب إلى هذا الغار.. غار حراء الهاجي لكل الغيران والمغارات.. الباصق المستفرغ الهاجي لكل الآلهة والألوهيات.. لآخر الآلهة والنبوات!

هل تقبل الإنسان أو أي كائن في مستواه أو في مستوى أعلى من مستواه أن تكون له حواس أو أحاسيس أو أن يعايشها ويتعامل بها ومعها إلّا بأن تكون حواسه وأحاسيسه بلا حواس أو أحاسيس بل بأن تكون نقيضاً ورفضاً ونفياً لكل تفاسير والتزامات وأخلاق ومعاني كل الحواس والأحاسيس بل وحماية وحراسة من كل ذلك؟ لقد أريدت وخلقت كل معاني من يعايشون هذا الوجود ويعيشون فيه لتكون ضد معانيها وخروجاً عليها.!

.. إله هذا الكون يعايش ويساكن ويواجه ويفهم ويرى ويسمع كل كونه هذا بكل صيغه وتفاسيره ومعانيه.. بكل رؤاه وسمعه وشمّه ولمسه وتفكيره.. بكل عواطفه.. بكل حنانه ورحمته وحبه

وشهامته ونبله وذكائه وتساؤله.. بكل حواسه وأحاسيسه التي يغرق ويضيع ويضل في اتساعها ورهبتها كل أحد وكل شيء..

ثم يقبل أن يظل موجوداً مستوياً فوق هذا الكون مبتسماً مغازلاً مصلياً ممجداً لنفسه راضياً عنها سعيداً فرحاً بها وبجودة وعظمة وسخاء ظروف وجوده..!

كيف وجد من يقول أو يعتقد هذا أو شيئاً منه بل أو من يتصوره أو من يستمع إلى من يقوله أو يتصوره؟ كيف لم توجد مقاييس أو حدود دنيا أي ضعيفة هابطة للغباء والخطأ لا يستطاع الهبوط تحتها.. لا يستطاع أو يقبل بل أو يمكن تخطيها؟

كيف لم يوجد من يوجدون هذه المقاييس والحدود أو يذكرونها.

.. هل يستطيع كل ما في الكون وكل ما في كل أحد وكل شيء من رثاء وأسى أن يكون شيئاً من الرثاء والعزاء بل والبكاء لأمة ترى وتعلن وتعلم وتفاخر أن كل أمجادها الحضارية والعلمية والإنسانية والبلاغية والإعجازية بل والإلهية والنبوية والأخلاقية والدينية والقرآنية وأيضاً الحربية العسكرية الفروسية..

ترى وتعلن وتعلم وتباهي أن كل أمجادها هذه وغيرها إنما حبل بها وولدها وعلّمها ورباها وأرسلها وحارب وانتصر بها غار، غار حراء..

وأنه هو المؤمل والمنتظر والمطالب والمرجو أن يفعل بها ولها كل ذلك في الحاضر وفي كل المستقبل أي غار حراء.. أي هذا الغار الذي لا بدّ أن تخجل وتهون وتفجع كل المغارات والغيران لو انتمى أو انتسب أو لو نمي ونسب إليها.!؟

إذن من هي الأمة التي لن يصدق أو يقبل أن يقال إلّا عليها وعنها إنها أمة الغار بل وإن كل سعادتها ورضاها وفرحها ومجدها بذلك وبأن يقال وتقول إنها كذلك؟

أليست هذه الأمة هي الأمة العربية في كل عصورها وأطوارها ومجتمعاتها وأفكارها ومفكريها؟

هل وجد مفكر أو فنان أو شاعر أو معلم أو نبي.. مؤمن أو كافر.. شرقي أو غربي.. يساري أو يميني أو غير كل ذلك حاول أو أراد أو استطاع أو تمنى أو توقع أو وعد أن يخرجها من هذا الغار أو أن يعلمها غير تعاليم هذا الغار أو أن يصعد أو أن يخطو بها فوق هذا الغار أي أمة الغار.. أي أمتي العربية أمجد الأمم قولاً وشعراً ورواية. كم أنا حزين، حزين لأمتي التي لن يوجد لها تفسير أصدق أو أنقى أو أقوى من تفسيرها بأنها أمة الغار التي لا يستطيع أو يجرؤ أن يولد أو يظهر أو يتكلم أو يوحي إلهها أو ملاكها أو نبيها إلّا من الغار.. إلّا من هذا الغار.. غار حراء الذي ترفض كل الغيران والمغارات أن يسمى غاراً خوفاً من أن تتهم بأنه أحد آبائها أو أبنائها أو أقربائها.!

... إله ونبي وملاك وقرآن ودين لا يقبل أن يلده أو يعلمه أو يرسله أو يربيه إلّا هذا الغار.. إلّا غار حراء.. أو لا يستطيع أن يفعل ذلك غيره، غير هذا الغار.!

.. ماذا يمكن أن يسمى أو يفسر هذا الإله أو الملاك أو النبي أو القرآن أو الدين؟ ماذا يمكن

أن يساوي في حياة الإنسان أو حضارته أو معرفته أو منطقه أو أخلاقه أو وجوده أو حتى في إيمانه وتدينه وتقواه؟ هل يمكن أن يساوي غير ما ساواه ويساويه الإنسان العربي الذي كان والكائن والذي سوف يكون أو قد يكون؟

.. هل يمكن أن يفسر من يلدهم ويهبهم ويعلمهم ويربيهم ويصوغهم هذا الغار.. غار حراء..

بأصدق أو أقسى أو أوفى أو أشمل أو أدوم من تفسير مواجهة إسرائيل لهم.. من تفسير مواجهاتهم بكل صيغها ولغاتها وطاقاتها ونتائجها وتفاسيرها وأخلاقها لإسرائيل.؟ هل استطاع أو عرف الإله بكل نبواته وبلاغاته وتلاواته لقرآنه أن يفسّر أو يصف من واجهوا إسرائيل مثل تفسير ووصف هذه المواجهة لهم؟

.. آه يا غار حراء.. هل وجد أو يمكن أن يوجد فاضح لآلهتك وأنبيائك وأبنائك أو فاضح لك بآلهتك وأنبيائك وأبنائك مثل إسرائيل؟ هل جاءت إسرائيل تعبيراً عن شمول قوتها وتفوّقها أم عن شمول تخلف وضعف مواجهيها؟ من يعرف هذا؟

.. من هذا الكائن الذي أراد ودبّر وصنع هذا الفضح بكل صيغه وتفاسيره وميادينه واتجاهاته وتعبيراته لك يا غار حراء ولآلهتك وأنبيائك وأبنائك لهذا صنع إسرائيل كما صنعها وصنعك أنت ومن تصنع كما صنعكم؟ من هذا الكائن الفظيع القبيح؟ هل صنع هذا الكائن إسرائيل كما صنعها، كما جاءت وصنعك أنت ومن صنعت يا غار حراء وجئت وجاؤوا كما جئت وجاؤوا لتحقيق هذا الفضح وللإعلان عنه وللتشهير به عالمياً وكونياً؟

ولماذا اختار هذا الكائن إسرائيل جهازاً لهذا الفضح؟ هل أراد بذلك المبالغة في إعلان أمجاد إسرائيل أم المبالغة في الإعلان عن تصغير من لا يحتاجون إلى تصغير؟ هل هؤلاء يحتاجون إلى المزيد من الإعلان عن مزاياهم أو يحتاج أولئك إلى المزيد من الإعلان عن فقدهم لكل المزايا وعجزهم عنها؟ ليتك يا غار حراء الوالد والواهب والمعلم لبني إسرائيل لتصوغهم كما صغت قومي العرب لئلا يحدث هذا التفاوت القاتل.

.. هل وجدت أو يمكن أن توجد ولو تصوراً كل هذه النقائص أو مثل كل هذه النقائص مجتمعة كلها بأقبح وأشمل التجمع في ذات من أراد وأحب ودبّر وخطط وصاغ كل شيء ليجيء ويكون كما جاء وكان ثم ليذهب بكل الأساليب والتفاسير التي بها يذهب، يذهب؟

.. إن كل طاقات وعبقريات وإنجازات كل البشر بل ومسراتهم لتصغر وتهون وتقبح وتهزم وتخسر وتصعق خجلاً أمام أنة أو صرخة أو آهة أو استغاثة أو دمعة يطلقها مفجوع أو مظلوم أو مريض أو مهزم أو مهان أو مشوّه أو عاجز أو يائس أو محكوم عليه بوجود يرفضه كل الجمال والحب والفرح والمنطق.. إنها لن تطاق أو تقبل رؤية أو قراءة حياة الإنسان.. أي إنسان بل أو أي كائن محاسبة أو محاكمة أو مفسرة كلها بكلها.!

إن الرؤية والقراءة الشاملتين لأي شيء قتل له. لهذا لم توجد هذه الرؤية أو القراءة.

.. آه. كم يجب على وجودي أن يعتذر إلى وجودي.. إلى ذاتي أي إلى موجوداً.. أن يعتذر موجدي إلى وجودي.. إلى كل صيغ وتفاسير وجودي وإيجادي.. أن يعتذر كل وجود إلى كل موجود وكل موجود إلى كل وجود.. أن يعتذر بكل نيات التوبة والندم ومعاقبة الذات كل من فعل الإيجاد والوجود إلى كل من فعل به الإيجاد والوجود..!.. هل يوجد مذنب أو موقع به الذنب لو لم يوجد الفاعلون للإيجاد؟ إذن أليس الإيجاد هو كل الذنوب؟

إن أعظم آثام الموجد الأعظم بل وآثام كل منطق ومبدأ الإيجاد.. كل إيجاد وكل موجد.

ـ إن أعظم آثام ذلك أن جعل الموجد الموجود يتقبل بل ويرضى ويسعد به أي بإيجاده ووجوده بل ويحوله إلى إيمان وعبادات وصلوات وإلى آلهة ونبوات وأديان.. أن جعله يحول ويفسر العاهة والتشوّه والعجز في وجهه وذاته إلى جمال وقوة وحب في ذات وقلب موجده.!

.. أن جعله يفعل ذلك بكل لغات الشكر والرضا والتعبّد والمباهاة..

مهما اشمأزت وفجعت وذهلت وهربت كل القباحات والدمامات والتفاهات والبلادات والآلام والمآسي والفضائح واليأس ذعراً مما في وجوده وإيجاده من ذلك من كل ذلك..!.. أن جعله يقول شكراً وحمداً لك يا من أوجدتني أعمى وأصم وأبكم ومقعداً ومشوّهاً ومصنعاً لكل الآلام والبؤس.. إن الموجد الأعظم بل والأصغر لم يشبع أو يرض أو يكف قبحه وعدوانيته أن يوجد من يوجد بلا استئذان أو تدبير أو تفكير أو استشارة أو موافقة أو اختيار.. بل تعدى وتخطى ذلك كثيراً، كثيراً بكل القبح والتهوين والإذلال والافتضاح والعدوان..

بأن جعل من أوجد محكوماً ومصنوعاً ومخلوقاً بكل ذلك يحول إيجاده وموجده أي بهذه الصيغ وفي هذه الظروف إلى تعبد ومعبود بكل صيغ وتفاسير ومعاني ذلك..!

بل وجعله يزداد إيماناً ورضاً وإعجاباً وابتهالاً وتديّناً وإسلاماً واستسلاماً بقدر ما يقسو ويقبح ويهون ويذل ويتعذب وجوده بل ويهجوه وجوده.!

آه. أنا موجود موجد راضٍ عن وجودي وإيجادي ممجد لفكرته ومنطقه وحوافزه وأهدافه وتفاسيره أو متقبل له مستمسك به بل معادٍ محارب لاعن لكل من يريد أو يحاول إنقاذي منه.. من ذلك أي مهما كانت صيغ وظروف ومستويات واحتمالات وتوقعات وجودي وإيجادي. لقد وجدت أي أوجدت لأكون معرضاً لكل آثام وأخطاء وبلادات وسفاهات ودمامات كل وجود وموجود لكي أصرخ، أصرخ: ما أجمل وأنبل وأذكى وأتقى ذلك..!

إذن هل يستطيع كل الرثاء والعزاء والأسى أن يكفي رثاء وعزاء وأسى لي عن مأساة وجودي.. عن مأساتي بوجودي.. برضاي عن وجودي وتقبلي وتعبّدي وصلاتي لوجودي حتى حينما يصبح وجودي هو كل أعدائي وكل أعداء كل وجودي..!

آه. هل يمكن أن يربح أو يستفيد أي كائن من وجوده مهما كان وجوده أو صور وتخيل وجوده؟ ماذا تساوي أو تعني أرباح الوجود الجيد السعيد؟ هل فكّرنا أو تساءلنا أو عرفنا؟

.. إني أريد هنا أن أكون عدوانياً مقلقاً مؤذياً جريئاً بلا نموذج أو أني لا بدّ أن أكون كل ذلك وأنسى من كل ذلك دون أن أريد أو أدبر وأخطط أو أسعد أي حين أقول واضطر أن أقول: أيها الموجود الموجد الأعظم.

.. أيها المزعوم ذلك المتهم بذلك.. أيها المتهم المبرأ الذي لن يجده متهموه ليعاقبوه ولن يجده مبرئوه ليهنئوه.. أيها المالك المحتكر لكل الأوصاف الفاقد لكل الأوصاف الخارج على كل الأوصاف..!

.. ماذا تستفيد أو تربح أو تجد في وجودك مهما كانت صيغ وتفاسير ونماذج وظروف وجودك؟ هل تجرؤ على التفكير في هذا التساؤل أو على محاسبته أو على فهمه بل أو حتى على قراءته؟

إذن أليس الذين رأوك وفسروك موجوداً وحكموا عليك بأنك موجود هم أنذل وأقبح وأوقح أعدائك.. بل هم أول وأولى بل كل من يستحقون كل غضبك وعقابك وانتقامك أي إن كنت تفهم وتصنع شيئاً من ذلك؟

.. كيف أمكن أو يمكن جهل هذا أو الاختلاف فيه؟

اسمع يا إلهي.. اسمع بآذان غير آذانك التي جربناها وعرفناها..!. لقد كان من صنع لك يا إلهي أذنيك أعظم فنان أي في جعله لهما بلا وظيفة بل ضد الوظيفة المفروضة فيهما.!

اسمع، اسمع:

لقد وجدت في أزل لا حدود بل ولا تصور لأزله.. لأزل أزله.. هكذا قالوا إن وجودك وجود أزلي دون أن يعرفوا أهم يمجدونك ويسعدونك بذلك أم يفعلون النقيض؟

فهل تأذن أو تغفر أن أسأل هذا السؤال الصغير الكبير أيها المتهم بالأزلية والأبدية... هذا السؤال الذي يهين ويحرج ويهزم ويذل كل شيء أو الذي يجب أن يفعل ذلك..!

إني يا إلهي سأسأل هذا السؤال حتى دون أن تأذن أو تغفر بل حتى ولو كان محتوماً أن تقاسي من الغضب والحيرة والعجز والافتضاح.. حتى ولو كان محتوماً أن تغرق في عرق الاستحياء والانهزام والضياع..!

.. هذا السؤال الذي يقول أو الذي يجب أن يقول وأن تقول معه كل الكائنات الأخرى بكل لغاتها ونباحها ونقيقها ورغائها وبكائها وخرسها وضياعها وبكل فواجعها وفضائحها وآلامها وهوانها وعارها... الذي يقول: وأنت أيها الموجود الأزلي الأبدي هل تربح من وجودك أي ربح مادي أو معنوي.. نفسي أو فكري أو أخلاقي.. هل جاء وجودك بحثاً عن الربح أم عبثاً أم اضطراراً أو وإكراهاً؟ هل جئت ولادة بلا والد ولا والدة وبلا عمل من أعمال التلقيح والحبل؟

وهل جاء وجودك بالصيغ والتفاسير التي بها جاء باختيارك ومعرفتك ورضاك وحساباتك أم جاء خروجاً على ذلك؟

وهل وجدته أي وجدوك بعد أن رأيته وجرّبته وعرفته هو الصيغة التي لا تقبل أو ترضى سواها؟ وكيف استطعت أو تستطيع أن تقتنع أن الصيغة التي جاء بها وجودك هي أفضل أو أعظم الصيغ؟

.. هل سمعت شيئاً من هذه الأسئلة ألقي عليك أو ألقيته أنت على نفسك في أية فترة من فترات تاريخك الطويل.. الطويل؟

ماذا كان يمكن أن يكون جوابك أو وجودك لو واجهت هذه الأسئلة؟

.. فكر، فكر في ذلك.. راجع ذكرياتك. راجعها..!

هل سمعت يا إلهي من طالبك بذلك؟. ألا تكون أفضل مما أنت لو سمعت ذلك؟

هنا سؤال، سؤال يحاصرني ويحرقني.. يقول السؤال: هل الإله يصاب بالشيخوخة وبكل آلام وقبح ومعاني وهنها؟

.. إن كان يصاب بذلك فما أقسى الاحتمالات التي لا بدّ أن يصاب بها كل هذا الوجود وكل شيء.. ما أقسى وأفجع حينئذٍ التوقعات والتصورات..! وقد يقال برؤى وحسابات أخرى: بل ما أجمل وأرحم وأنفع أن يكون ذلك كذلك..!

إنها لا توجد أية قوانين أو عقاقير أو معاهدات أو تعهدات أو منظمات دولية أو كونية تحمي الإله من أن يصاب بذلك أي بالشيخوخة وبكل أعراضها وتعبيراتها. إذن كم هو مريح أو مزعج هو ذلك.! إن إصابة الإله بذلك تعني حتماً أن تكون آخر الأديان والنبوات والتعاليم والشرائع والكتب المنزلة معرضة لأن تكون هي الأضعف والأعجز والأقبح محاسبة بما سبقها من ذلك.. من أمهات وأخوات وبنات وزميلات وشبيهات وقريبات..

.. الآلهة تصاب بالشيخوخة ثم بالموت أو بالشيخوخة بلا موت أو لا تصاب بشيء من ذلك. أي هذه الاحتمالات أقل قبحاً وعذاباً وأيها أكثر أو أقل خروجاً على العقل والمنطق والقوانين؟

.. إن ذلك لا بدّ أن يعني أو قد يعني موت الألوهيات ونهاية عصورها.. موت ونهاية عصر الآلهة والألوهيات.. نهاية وموت الوجود أو الكون الذي تريده وتصنعه وتحكمه الآلهة والألوهيات أي كون الآلهة تصاب بالشيخوخة وبكل أعراضها وآلامها ومعانيها..

.. هل هذا أي عصر الآلهة والألوهيات والوجود أو الكون الذي تصوغه وتريده وتتصوره الآلهة والألوهيات هو العصر الذي لا تستطيع كل الأخلاق والعقول والرؤى والطاقات والتمنيات والاحتياجات أن تتصور أو تتمنى أو تتقبل أو تمقل أو تفعل أفضل وأعظم منه بل أو مثله؟ ماذا لو طلب من كل من يعيشون في عصر الآلهة.. من كل من يعيشون ويعايشون الوجود الذي تحكمه وتريده وتخططه وتصوغه وتتعامل به ومعه الآلهة والألوهيات.. لو طلب منهم أن يفجروا غيظهم وغضبهم واشمئزازهم؟

ماذا يمكن أن تقول الحيوانات والحشرات وكل الكائنات.. كل العاهات والدمامات والتشوّهات والمهانات والتفاهات والمخاطر والفضائح والآلام والهموم والنقائص التي جربت وعاشت وقاست

وعرفت عصر الآلهة والألوهيات والكون المحكوم بالألوهيات والآلهة.. التي أرادتها وخططتها وأحبتها وأصابت بها وعاشتها وعايشتها أي الآلهة والألوهيات.

ـ نعم، ماذا يمكن أن تقول لو أنها سئلت هذا السؤال أو هذه الأسئلة واستطاعت أن تجيب عليها؟ هل قاسى أي شيء أو أي أحد أية مقاساة بأي تفسير من تفاسير المقاساة إلّا في عصر الآلهة والألوهيات؟

هل فكّر البشر... عباقرتهم أو أنبياؤهم أو شعراؤهم أو علماؤهم أو أتقياؤهم أو أضداد هؤلاء هل فكروا في هذا التساؤل أو تساءلوه في هذه القضية وفي محاكمتها والحكم عليها؟ وهل علم الإنسان في كل تاريخه ألا يفكر مثل أو غير هؤلاء أي أنبيائه وعلمائه وأتقيائه وشعرائه وخلفائه؟

.. ماذا يمكن أن يكون الجواب أو الموقف أو الفعل لو حدث هذا أي لو حدث هذا التفكير الذي لم يحدث ولن يحدث؟

.. قبيح وأليم أن يكونوا قد فكروا فيه وتساءلوا عنه وفيه.. وقبيح ألا يكونوا قد فعلوا ذلك..!

.. قبيح وأليم ألا يفكروا أو يسألوا أو يروا أو يفهموا وقبيح أليم أن يفعلوا ذلك أو يكونوه ثم يظلوا في ثيابهم وجلودهم..!

.. لنراجع السؤال الرهيب أعني لنرجع إليه لنقول: هل تصاب الآلهة بالشيخوخة؟

هل الأفضل والأنفع أن تصاب أم ألا تصاب؟

والمنطق إن وجد منطق ماذا يمكن أن يقول ويرى في هذه القضية؟ إنه سؤال لا يطاق كذلك لا يطاق الصمت عنه. إذن كيف جاء الصمت عنه بكل الشمول؟

... ما هي النتائج المحتومة أو المحتملة حينئذٍ أي إن كانت الآلهة تصاب بالشيخوخة وبكل نتائجها وعواقبها ومعانيها..؟ أليس المطلوب والمنطقي أن يحدث ذلك مهما كانت النتائج والعواقب التي قد تكون جيدة جداً.؟

.. أليس محتوماً أن تكون أكبر هذه النتائج أن تموت أي الآلهة.. أن تموت موتاً طبيعياً بسلطان الشيخوخة أو أن تموت منتحرة رافضة لقبح وعذاب وهوان الشيخوخة وفراراً من مواجهتها ومعايشتها ومن تعذيب وتأنيب ضميرها لها لإصابتها بكل الكائنات بها؟

وماذا يعني ويعطي موت الآلهة من نتائج؟

إنه قد يعطي ويعني موت كل شيء بالتفسير القائل بأنه لا وجود ولا بقاء لأي شيء إلّا بالآلهة..!

وقد يثبت نقيض هذا القول والرأي.!

كما أنه قد يعني ويعطي أي موت الآلهة أن يتحرر الوجود وكل شيء من أقسى وأشمل طغيان واستعباد بل من أوقح وأجهل وأبلد استعباد وطغيان.!

أليست الآلهة والألوهيات هي كل بدايات ونهايات وتفاسير وجيوش وجنود وطاقات

وتخطيطات كل أساليب الطغيان والاستعباد؟ أليست هي الفاعلة والمعلمة لكل ذلك والآمرة والمطالبة به بأن تعبد به؟

.. هل يستطيع كل الطغيان أو الاستعباد الذي كان أو الذي سوف يكون أو قد يكون أو الذي قد يستطاع تصوّره أن ينافس صيغة واحدة من صيغ طغيان واستعباد الإله أو أي إله حينما يفرض فرضاً دائماً ملزماً على عين ألا ترى أو على أذن ألا تسمع أو على قدم ألّا تخطو أو على يد ألّا تمسك بالقلم أو بأي شيء أو على قامة ألّا تنتصب أو على قلب ألّا ينبض أو يتحرك أو على لسان ألّا يستطيع أن يقول: أدعوك.. أصلي لك.. أحبك.. أهتف لك.. أنتظرك.. أنتظرك يا إلهي.. الغائب الغائب أبداً، أبداً.. المنتظر أبداً، أبداً.!

.. أو أحتج عليك وأحاسبك وأستنكرك وأنكرك وأشمئز منك وأفجع بك يا إلهي لأنك لم تكن شيئاً مما أريده أو مما يجب أن تكونه..

بل لأنك يا إلهي كنت دائماً ومصر مستمر دائماً على أن تكون ضد ما يجب وينتظر ويراد ويحتمل أن تكون.. لأنك كنت وتكون دائماً أصغر جداً من الحجم المزعوم والمرجو لك بل أصغر من أصغر حجم..

بل لأنك يا إلهي جئت في كل أحجامك هجاء وتحقيراً لكل الأحجام المادية لهذا فإن حجمك هذا أي المادي لا يزاحم ولن يزاحم أي حجم، أما حجمك المعنوي يا إلهي فلم يوجد ولن يوجد من يجده...!

لقد جئت يا إلهي في حجم ترفض كل الأحجام أن تكونه أو تكون شيئاً منه أي في حجمه المادي أو المعنوي.. إنك يا إلهي بلا أي حجم بكل التفاسير..

.. إن الرؤية النافذة الذكية الشجاعة لتقول ويجب أن تقول إن كل الطغاة المستعبدين المذلين القاتلين لكل الحريات ليجب أن يتحولوا إلى معلمين ومؤدبين ووعاظ لكل الآلهة ليدرّبوهم على أي قدر من صيغ وأخلاق وتفاسير وأساليب التحرر والحرية ومن الإيمان بهما والاحترام لهما والالتزام بهما.

ـ نعم، لتقول ويجب أن تقول: إن كل الطغاة ليتحولون إلى أنبل وأفضل وأتقى الأحرار والمحررين لو حوسبوا أو فسروا بالآلهة.. بأي إله.. ليت كل الآلهة تحدد طغيانها واستعبادها بطغيان واستعباد كل الطغاة والمستعبدين. ما أطيبها حينئذٍ.. ما أطيبها.!

.. انظروا.. اقرؤوا.. فسّروا.. افهموا مثلاً واحداً.. طاغيتي الأكبر يفرض علي ألا أتحرك أو أقرأ أو أرى إلّا بقيود وشروط ومؤقتاً لأني عدو ومقاوم له أو لأنه حسبني كذلك أو خاف أن أكون كذلك.. أعني بطاغيتي الأكبر حاكمي أو زعيمي أو قائدي المصاب بكل عاهات الطغيان.!

أما الإله.. أما إلهي فإنه يفرض علي بتعجيزه لي بكل أساليب وآلات وصيغ التعجيز وهو يملك كما قيل ويقول كل آلات وأجهزة وقدرات التعجيز والتحطيم بلا أية حماية من أي نوع.

ـ أما إلهي هذا فإنه يفرض علي فرضاً أبدياً إلهياً ذاتياً ليس فقط ألا أمشي أو أتحرك أو أرى أو أقرأ أو أسأل أو أحاور أو أستنكر أو أحتج أو أصرخ أو أئن أو أبكي أو أتكلم حين يجب وينتظر أن أكون كل ذلك وأكثر من كل ذلك..

بل إنه ليفرض علي ألا أفكر أو أفهم أو أشعر أو حتى أغضب أو أشمئز مهما كنت ومهما كان كل شيء.. إنه يفرض كل ذلك علي بأسلوب لا مثيل له في قبحه وعدوانيته ووحشيته..!

.. يفرض علي ذلك ليس فقط بالتعليم والأوامر والتهديد والوعيد والرسل والكتب المرسلة المنزلة بل بإصاباتي بكل أسلحته اللئيمة الغادرة المحولة لكل طاقاتي وأعضائي إلى كل صيغ وتفاسير العجز والتعجيز النذل الوقح المتوحش بلا أي مثيل أو نموذج. هل يقاس طغيان وعدوان من يمنع بالأمر والنهي والتهديد بطغيان وعدوان من يمنع بالتعجيز الذاتي.. بتعجيز الذات؟

.. يفرض علي كل ذلك أو يصيبني ويضربني بكل ذلك ويوقعه بي إيقاعاً ذاتياً عشوائياً وحشياً بلا أية مراجعة أو رجوع أو محاورة أو مساءلة أو معاتبة أو محاسبة أو محاكمة أو انتظار للإنقاذ أو أمل فيه..!

طاغيتي الأكبر يقول لي: كن جباناً ونذلاً وإلهي يخلقني كذلك..!

.. يفعل بي كل ذلك لا لأني عدوه ولا لأنه يخشى ذلك، فأيهما الأقبح طاغيتي أم إلهي النبيل الرحيم؟

إلهي الحكيم الرحيم النبيل يفعل بي كل ذلك لا لأني عدوه أو كنت عدوه أو صديقاً لعدوه أو يظنني عدوه أو أنني قد أصبح عدوه أو أنني قد أستطيع أو أريد أن أكون ذلك أو شيئاً منه.. إنه الفاعل الضارب دون أن يكون مثيباً أو معاقباً بل دون أن يكون قاصداً أو رائياً أو فاهماً من يضرب ومن يفعل به ما يفعل.!

بل إنه يوقع ويفعل بي كل ذلك لأني عبده وعابده وصديقه الصادق الذي لا يريد ولا يستطيع ولا يعرف أن يكون غير ذلك..

إنه يفعل ويوقع بي كل ذلك لأني مخلوقه المؤمن المطيع العاجز المحب المتضرع إليه المؤمل فيه ومنه وحده.. لا لأني متآمر عليه، ولا لأنه يتوقع أو يخاف أن أتآمر عليه.

إن إلهي هو الكائن الفريد الذي لا يستطاع تفسيره بأي تفسير من التفاسير الجيدة الذكية أو الرديئة البليدة.!

... لا لأنه يتهمني بالرجعية أو بالتقدمية.. بالشيوعية أو بالرأسمالية.. بالملكية أو الجمهورية.. بالثورية أو الإصلاحية أو العقلية.. بالثورية أو الحرية.. بالثورية أو التقدمية.. بالثورية أو الأخلاقية أو الحضارية أو الإنسانية أو الجمالية أو العلمية..

نعم، أليست الثورية أو الثورة نقيضاً ونفياً لهذه القيم؟

إنه لا يفعل بي ذلك قصاصاً أو حساباً أو عقاباً أو زجراً أو تأديباً أو بحثاً عن العدل أو الجمال

أو الحب أو رغبة في أن يتعلم المزيد من فنون القتال والعدوان والإيذاء والتشويه والتحطيم..!

إن إلهي لو كان يضرب حساباً أو عقاباً أو عدلاً لما وجد من يضرب غير نفسه..!

.. إنه أي إلهي لا يفعل أو يوقع بي كل ذلك أو شيئاً منه لأنه يحاسب أو يحاكم أو يعاقب أو يفكر أو يخطط أو يرى أو يقرأ أو يفسّر أو يفهم بل لأنه يضرب ويضرب ويظل يضرب، يضرب بلا أي حساب أو تفسير أو منطق أو حوافز أخلاقية أو فنية أو دينية أو مذهبية أو دفاعية..!

إنه يضرب لأن له عضلات تستطيع أن تضرب لا لأنه يفهم لماذا يضرب.!

آه.. أليست كل ضربات وخبطات الطبيعة العمياء العشوائية الجنونية الإجرامية العدوانية الحمقاء هي شيئاً قليلاً، قليلاً من ضربات وخبطات إلهي.. وحبيبي.. صديقي.. عزيزي.. معبودي..

إلهي، إلهي الذي أراه وأعلنه وأعتقده وأفسّره كل الحب والرحمة والجمال والمنطق والأخلاق والوقار والتهذيب بل والتديّن والتقوى..

.. إلهي، إلهي الذي أراه كل شيء ولكنني لن أجده أي شيء؟

.. إذن أينا يجب وينتظر أن يتعذب حزناً ورثاء للآخر: أنا أم إلهي؟ أينا يجب أن يكون معلماً ومهذباً ومؤدباً للآخر: أنا أم إلهي.. الإنسان أم الإله؟ كم هو جميل ونافع أن تتعلم الآلهة من الإنسان.. ليت ذلك يحدث. ليته..!

إن هنا سؤالاً لم يوجد من يسأله مع أنه يفرض على كل شيء وكل أحد أن يكون سؤاله الأول بل أن يكون كل أسئلته.!

إن نسيان هذا السؤال أو العجز أو الاسترخاء عن سؤاله لهجاء وسبّ لكل شيء..

يقول هذا السؤال بكل الانفجاع والترويع والغضب والأسى والذهول ـ يقول:

لماذا أريد وخطط وخلق وصيغ وأخرج ونفّذ ودبّر هذا الكون ليكون ضارباً ومضروباً.. غالباً ومغلوباً.. جميلاً ودميماً.. قوياً وضعيفاً.. مخيفاً وخائفاً.. ظالماً ومظلوماً.. مشوّهاً ومتشوّهاً.. ذليلاً وعزيزاً.. شباباً وشيخوخة.. صحة ومرضاً.. ولادة وموتاً.. إلهاً وعبداً.. عابداً ومعبوداً.. خالقاً ومخلوقاً..؟ لماذا جاء أي الكون وكل شيء كما جاء ولم يجيء بصيغ أخرى؟ هل حدث ذلك بأي تدبير أو تخطيط أو تصميم أو إرادة أو خلق خالق؟ كيف؟ كيف؟ لماذا؟ ماذا يقول أي منطق في هذه القضية؟ هل يقول لأنه الأعدل أو الأعقل أو الأجمل أو الأتقى أو الأذكى أو هو كل المستطاع؟ هل هذا كل ما أمكن تصوّره ومعرفته من صيغ ومعاني الجمال والحب والإبداع؟

.. ما أقبح وأصعب الإجابة عن شيء من هذه التساؤلات بشيء من هذه الاحتمالات والإجابات..!

هل وجد في كل التاريخ جواب صحيح عن أي سؤال صحيح؟

.. هل يوجد أو يحتمل أن يوجد أي جواب عن أي سؤال من هذه التساؤلات..!

ما أخسر كل سؤال جاد صحيح شامل محاسب محاكم.. ما أخسره لأنه لن يجد الجواب.. الجواب الذي يسأل ويبحث عنه.!

إذن هل وجد أو يمكن أن يوجد أغبى أو أنذل أو أردأ من الأنبياء بل ومن كل المعلمين الذين لم يحترقوا بتصور وقراءة هذا السؤال بل الذين لم يحولوا كل آلهتهم وأنبيائهم ومعلميهم وعقائدهم وأديانهم إلى حرائق، حرائق ليحرقوا بها أنفسهم وكل شيء..

لئلا يسمعوا أو يفهموا أو يقرؤوا أو يواجهوا هذا السؤال.. هذا السؤال المذل الهازم المحرق لكل شيء. لئلا يروا أو يسمعوا آلهتهم وأنبياءهم وشيوخهم وأحبارهم ورهبانهم وكل معلميهم يتحدثون بكل الكبرياء والرضا عن جمال وحب وحكمة ورحمة وروعة كل شيء.!

.. إن العار والقبح لو كانا طاقات إحراق لأحرقا كل إله ونبي وزعيم وقائد ومعلم..

.. لوجب أن يحرقا.. لقررا أن يحرقا هؤلاء أكثر وأقوى وأحر من أن يحرقا أي كائن آخر.. أي برغوث أو نملة أو صرصار أو ذباب.. ومن أن يريدا إحراق هذه الكائنات..!

إن إحراق كل الحشرات والجراثيم لن يساوي في مزاياه وعواقبه الجيدة النافعة شيئاً من مزايا إحراق كل الآلهة والأنبياء والمعلمين والقادة والزعماء ومن العواقب الجيدة لذلك.!

أليس من أعظم وأتقى ما تتفوق به الكائنات الأخرى على الإنسان أنها بلا آلهة وأنبياء وقادة وزعماء ومعلمين؟ هل صنع أو يصنع الهوان أو العار أو العذاب أو البلادة للإنسان مثل هؤلاء؟

.. حاسبوا وحاكموا واتهموا وعاقبوا كل شيء وكل أحد بكل القسوة والوحشية والشمول والديمومة.. بكل العدل والتقوى أو بكل الظلم والفسوق..

ثم انظروا وفكروا واسألوا وتساءلوا: هل يمكن أن يكون كل ذلك شيئاً من المحاسبة والمعاقبة والمحاكمة والاتهام الذي يجب أن يحاكم ويحاسب ويتهم ويعاقب به كل آلهة وأنبياء وقادة وزعماء ومعلمي هذا الوجود؟

من الذي تصور أو ابتدع أو قرّر أو نفّذ هذه الفكرة القائلة والمعلمة والمقتنعة بأن المخلوق هو الذي يجب أن يحاسب ويحاكم ويعاقب ويتهم ويسب ويهجى وليس الخالق أي بما فعله ويفعله به الخالق؟ أليس الآلهة والأنبياء والمعلمون والزعماء والقادة هم الذين علموا ونشروا وروّجوا هذه الخطيئة.. هذه الجهالة.. هذا الظلم والقبح؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد قبح أو ظلم أو بلادة أو سفه أو عدوان مثل ذلك؟

.. الخالق المخطط المريد المدبر الفاعل يحاسب ويحاكم ويعاقب ويقاتل ويلعن مخلوقه على ما فعل به لأنه جاء في الصيغة التي صاغه بها..!.. هل تستطيع أو تقبل الشموس أو السحاب أو النجوم أن تتعامل مع الإنسان أو تمر به لو عرفت ذلك؟

هل يمكن أن يوجد عذاب أو انفجاع أو غيظ أو غضب أو اشمئزاز يساوي بعض ما أعاني من ذلك حينما أفكر أو أحدق في هذه القضية أو أحاسبها أو أحاكمها أو أقرؤها أو أفسرها أو أسائلها أو

في أية قضية أخرى من قضايا الوجود والكينونة محاكمة بالعقل أو بالأخلاق أو بالفن والإبداع أو بالنفع والضر؟

.. لماذا لا أجد من يشاركوني في شيء من ذلك؟ ما أقسى الوحدة في رؤية الوجود ومحاسبته ومحاكمته وقراءته.. ما أفجع الوحدة في مجالسة ومحاورة ومحاسبة الإله وتفسيره.!

.. لماذا تجمعت وتعاونت وتآمرت كل الآلهة القبيحة المتوحشة لكي توقع بي وحدي كل قبحها ووحشيتها ونذالاتها وأخطائها وخطاياها.. لكي تقرأ علي وحدي كل بلاداتها وجرائمها وفضائحها ونقائصها.. لتسد وتملأ كل الطرق والآفاق التي أتجه إليها أو أحدق فيها؟

لماذا، لماذا؟ لماذا أنا وحدي الرائي القارىء المفسّر لكل قبح وذنوب وبلادات كل الآلهة.

.. هل هي الفاعلة لذلك المسؤولة عنه أم أنا المسؤول عن كل ذلك الفاعل له؟ إذن من الفاعل لي لأكون كما كنت؟

اهربوا، انتحروا يا كل صانعي المنطق وواضعيه ومخططيه..

لئلا تسمعوا هذا السؤال.. لئلا تفسروه.

أليست كل أخطاء وخطايا وبلادات ونقائص وضلال المخطط المدبر المراد المفعول المخلوق هي حتماً بعض أوصاف وأخلاق الفاعل لكل ذلك؟ كيف وجد أو يوجد من جهل أو يجهل ذلك؟ هل جهل أو قد يجهل ذلك مثل أو غير الآلهة والأنبياء والمعلمين عنهم؟

.. هل يعقل أو يقبل أو يغفر أن يتهم المصمم المخطط المفعول المصنوع بأي شيء يجيء أو يتخلق أو ينبت في ذاته أو بأي شيء يريده أو يفعله أو يقوله أو يراه أو يعتقده إلّا بقدر ما يقبل ويعقل ويغفر أن يتهم الوجه الجميل البريء بالعاهة الوقحة التي يصاب بها.. بالعاهة البذيئة الوبيلة التي لا بدّ أن تتحول إلى كل اللعنات والتشوّهات والدمامات والبصقات والاستفراغات في وجوه وعيون وجلود وملابس وأخلاق كل آلهة وأنبياء وشموس ونجوم وأنهار وسحاب وحقول وزهور وقادة وزعماء ومعلمي كل هذا الوجود وكل معاهده ومعابده ومصاحفه وعقائده وأديانه وأضرحته وقبوره وكعباته ومزاراته وبداياته ونهاياته.. أليس كل الآلهة والأنبياء وكل معلمي الآلهة والأديان يجيئون ليعلموا هذا الذي لا يعقل أو يقبل أو يغفر.؟

.. أيها المؤمن التقي الصفي المحترق في صدق إيمانه وتقواه وحبّه هل تقبل أن يكون لك إله يحدق ثم يظل يحدق في عاهة قبيحة رهيبة وبيلة زرعها أو زرعت في وجه جميل بريء مؤمن تقي ثم يقبل أن تبقى له عينان.. يحدق، يحدق بهما أقبح وأبلد وأعمى من تحديق الحيوانات والحشرات؟

وهل في تحديق الحيوانات والحشرات شيء من القبح أو الوقاحة أو البلادة أو العمى المتجمع في تحديق الإله.. الآلهة كلها؟

إذن إلى تحديق الحيوانات والحشرات كل الاعتذار من هذه المقارنة.!

.. هل يوجد أو يتصور أبلد أو أقسى أو أقبح أو أوقح بل أو أفسق وأكفر من تحديق الآلهة..

من عيون الآلهة.. من قلوب وعقول وضمائر وأخلاق الآلهة.. من عروش ومضاجع الآلهة بل أو ما يساويها أو يشبهها في كل ذلك أو في أي شيء منه؟ إن كفر وفسوق كل الكافرين والفاسقين لن ينافسا شيئاً من كفر وفسوق عيون وقلوب وعقول وضمائر وأخلاق الإله.!

هل تقبل أو تستطيع أية عين أو أذن أو عقل أو قلب أو ضمير أو أخلاق أو عواطف ومشاعر أو حسابات أو حواس أو أحاسيس أن ترى أو تسمع أو تواجه أو تقرأ أو تفهم أو تفسّر أو تحاسب أو تشاهد أو تعايش أو تساكن شيئاً مما ترى وتسمع وتقرأ وتواجه وتشاهد وتعلم وتعايش وتساكن الآلهة بل وتريد وتخطط وتصنع وتخلق وتدبّر بكل هذا التبلّد والاسترخاء والكسل والعجز والخمول والقبح.. بل وبكل هذا الفرح والطرب والرضا والإعجاب والتمجيد والتعبّد والعبادة للذات.. بكل هذه الوحشية والرغبة العدوانية..!؟

هل يمكن أن يوجد أو حتى يتصور من يزرع العاهة أو الدمامة أو التشوّه أو العجز أو المرض في الوجه أو في الأعضاء كلها أو في الجسد كله ثم يذهب بكل الكبرياء والوقاحة والغرور المعلن المعلم يطالب بثمن ذلك ممن أصابه بذلك مشترطاً أن يكون الثمن شكراً وحباً وتمجيداً وعبادة وإيماناً وهواناً بل ومالاً وإنفاقاً وعطاء وفقراً وموتاً باسمه ومن أجله وفي سبيله ودفاعاً عما يقول ويريد ويعلم وباسم الطاعة والاحترام والاتباع لمن زعموا أنبياءه وأولياءه ودعاته.

- نعم، هل يمكن أن يوجد أو حتى يتصور من يفعل ذلك أو يقبله غير الآلهة.. غير الإله؟

هل يوجد أو وجد جرأة على فعل ما لا تستطاع الجرأة على فعله مثل الإله؟

انظروا يا من تستطيعون وتقبلون أن تنظروا.. يا من لم تنظروا قط إلى ما أطالبكم أن تنظروا إليه وأن تنظروه..

.. انظروا إلى هذه الدمامة أو العاهة أو النقيصة أو التعويق أو التعجيز أو إلى كل الآلام والآفات في هذا الوجه أو الجسد أو الشيء.. انظروا إلى كل ذلك بكل الحماس والرؤية وتوهج الأخلاق.. هل تستطيعون أن تروا ذلك أو أن تحدّقوا فيه دون أن تقاسوا كل الآلام والأسى والانفجاع بل والذعر والغضب والغيظ والاشمئزاز بل ودون أن تحملوا السلاح وتسددوه.. تطلقوه..؟

.. إذن هل تصدقون أن الإله ينظر إلى ذلك ويراه ويحدق فيه بل ويريده ويخططه ويصنعه ويوقعه بكل الفرح والرضا والسعادة والإعجاب والكبرياء عارضاً نفسه في كل ملابس وحلي الأعراس والأفراح؟

ما أفدح وأخسر الإنفاق على أعراس وأفراح الإله..!

.. اسألوا أنبياءكم وفقهاءكم وشيوخكم وأديانكم وقرآنكم وتوراتكم وأناجيلكم إن لم تصدقوا ذلك ليقولوا لكم: ماذا يمكن أن يكون عقابكم إن لم تصدقوه بل إن لم تروا وتعتقدوا وتعلنوا أن هذا هو كل الحكمة والرحمة والحب والجمال والإبداع والتقوى.!

ما أقسى وأقبح وأوقح وأفجع وأخسر وأبلد الإنفاق على الإله.. على الإيمان به وعلى احترامه

وحبه وتمجيده وطاعته وتقواه وتعليمه وتعاليمه وتعلّمه وعلى تفسيره وطاعته وحبه وفهمه والاقتناع به وعلى تصوّره والخوف منه والإعلان عنه.. هل وجد أو يمكن أن يوجد منفق عليه بلا أي ثمن أو شكر أو جزاء أو منطق أو فهم أو تفسير أو معنى مثل الإله أو غيره؟

هل سرق الإنسان بكل نماذج وتفاسير وقبح السرقة ومعانيها مثل الإله بل أو غير الإله؟

إذن أليس الإله والإنسان هما أعظم وأوقح وأقبح سارق ومسروق في هذا الوجود؟

اسمع وافهم أيها الإنسان، أيها العالم.. أطالبك أن تسمع وتفهم..

وهل كان يمكن أن توجد أو تبقى لو كنت تسمع أو تفهم أيها الإنسان.. أيها العالم أي وكنت تستجيب لما تسمع وتفهم؟

.. أطالبك أيها الإنسان، أيها العالم بما لن تستطيع أو تريد أو تتقبّل أو تتحمل أن تسمع أو تفهم..

إذن حاول أن تسمع وتفهم.!.. حاول أن تفعل ما لا ينتظر منك أن تفعل.. نعم حاول أن تسمع وتفهم هذا..!

.. هل يوجد أو يتصور سارق كل السرقات من كل المسروقين، بكل صيغ وتفاسير ونيات السرقات.. بأغبى وأوقح وأشمل كل السرقات بكل أساليبها ولغاتها مثل العلاقات والمعاملات والصفقات والمعاهدات والمبايعات..

مع الإله ومع كل أجهزته، ومع كل إله وموظفيه؟ هل وجدت أو يمكن أن توجد مراهنة أو متاجرة أو تجارة خاسرة كل الخسران وأقسى الخسران بلا أي احتمال للربح أو لتعويض الخسران مثل المراهنة أو المتاجرة أو التجارة أو المقامرة..

بالإيمان بالإله وبالإعلان عنه وبالدعاية والتفسير والتعليم والوعظ والتخويف والوعد والوعيد به وفيه وله وعنه؟

كيف أمكن أن يقع الإنسان كل الإنسان في هذه الورطة.. في هذا الخسران.. في هذه البلادة والغفلة اللتين لا بدّ أن تغفر كل البلادات والغفلات محاسبة بهما؟

إن كل الهوان والافتضاح والبلادة والقبح للإنسان حين عجز عن فهم ذلك..

حين عجز عن فهم ذلك أو عن إعلان فهمه والالتزام بفهمه كل أنبياء وعلماء وفقهاء وشعراء وعباقرة الإنسان في كل العصور والمجتمعات.. أو حين جبنوا وخدعوا وكذبوا فلم يقولوا ما فهموا وما وجب أن يقولوا بل فلم يناضلوا ويقاتلوا ليكون هذا الذي لم يستطيعوا قوله جهلاً أو غباء أو جبناً أو نفاقاً أو خداعاً أو متاجرة..!

أليست هذه التفاسير هي كل التفاسير أو بعضها لهذه القضية!

.. نعم، ثم ماذا لو أن الوحش أو الحشرات أو كل هذه وكل هذه أعارت أو وهبت أو علمت أو ركبت شيئاً من عيونها أو قلوبها أو ضمائرها أو عواطفها أو أخلاقها أو حساباتها..

بل أو شيئاً من إيمانها أو تقواها أو تديّنها ورحمتها وحبّها وحنانها وجمالها وكم كان واجباً ومطلوباً ومفيداً أن تفعل ذلك أي أن تفعله للأنبياء والفقهاء والشيوخ والوعّاظ ولكل المعلمين والمفسّرين والمعلنين والمتحدثين والمصلين والقارئين لجمال وحب ورحمة وحكمة وعدل وذكاء وأخلاق كل شيء، كل شيء لأن كل شيء هو كل تفاسير ومعاني إلههم.. كل عبقرياته وطاقاته وأشواقه وفنونه بل وكل تقواه وصلواته وإيمانه.؟

إن كل الأشياء حتى أقبحها وأبلدها وأنذلها وأفحشها ليست إلّا ذات وصيغ إلههم.!

.. لماذا لم تفعل ذلك أي الوحوش والحشرات؟ ليتها فعلته. إنه حينئذٍ لا بدّ أن تصبح وتكون وتحسب وتعلن أعظم وأتقى وأقوى مصحح ومعلم لهؤلاء.. أي للأنبياء وأمثالهم وأتباعهم وكم هو تخفيف من قبح هذا الوجود أن يتعلم أنبياؤه وعلماؤه وزعماؤه وفقهاؤه وشعراؤه من وحوشه وحشراته أخلاقها أو رحمتها أو حبها أو ذكاءها أو تقواها أو حتى جمالها ونظافتها أو صداقاتها أو سلامها أو آدابها أو تهذيبها أو تواضعها أو صدقها أو عدلها أو حتى كرامتها وبسالتها.!

إذن لماذا لم يحدث ذلك؟ لماذا لم تفعله أي الوحوش والحشرات لهؤلاء أو تفعله بهم؟ أليست وحشية وقبح ونذالة وأوحال وعفن وسقوط وفجور وبلادة وسفه وهوان ووقاحة كل الوحوش والحشرات هي أعلى مستويات وتفاسير كل الصيغ والمعاني الجميلة الذكية المرجوة المطلوبة أي لو حوسبت وحوكمت بكل صيغ ونماذج وأخلاق ومستويات ومعاني كل الأنبياء والأولياء والفقهاء والمعلمين للإله وعنه.!؟

هل يمكن أن ترى أو تحسب أو تتهم أي الوحوش والحشرات بأنها متآمرة مع الإله أو مع كل الآلهة في هذه القضية لهذا لم تفعل ولم تحاول أن تفعل ما كان وما يجب وينتظر وينبغي أن تفعله؟

ماذا يمكن أن يكون التفسير؟ ما هي التفاسير المحتملة؟ ما أصعب وأخسر وأبلد البحث عن التفاسير..! هل كان ذلك عجزاً أو إهمالاً أو تبلّداً أو نسياناً أو تعمّداً أو بخلاً أو عصياناً من الوحوش والحشرات وفيها أم كان غبية وغيبوبة ووحشية وبلادة وعناداً في الآلهة والأنبياء والفقهاء والوعّاظ وفي كل المعلمين للسماء وعنها، لهذا عجزوا عن أن يروا أو يقرؤوا أو يفهموا الوحوش والحشرات ليتعلموا منها أو امتنعوا عن ذلك عناداً أو قسوة؟ وهل في تفاسير هؤلاء ما هو أذكى أو أتقى أو أنبل؟

.. هل يكون التفسير أن هذه الكائنات أي الوحوش والحشرات وكل الكائنات الأخرى المماثلة كانت تعلم أن هؤلاء أي الآلهة والأنبياء والشيوخ والأحبار والرهبان وكل الحاملين للألواح المعلمين للتوراة والإنجيل والقرآن لا يمكن أن يتعلموا أو يعلموا؟ إن معرفة ذلك عن هؤلاء لن تخفى على أحد.. لن تخفى على الوحوش والحشرات.!

هل يجوز أن يفجع أو ينكر أو يفزع أي كائن لو قالت أقسى وأنذل وأردأ وأقبح الكائنات: إنها يائسة كل اليأس من القدرة بل وخجلى كل الخجل من أن تعلم أو تعير أو تهب شيئاً من إيمانها أو تقواها أو حبها أو حنانها أو عدلها أو نبلها أو إشفاقها أو شهامتها أو ذكائها أو حتى من جمالها لمريد ومخطط ومصمم وعاشق وخالق وصائغ كل هذا الوجود وكل وجود وكل شيء أو لأحد من دعاته

ومعلميه ومفسريه ومادحيه وعابديه مفسرة ذلك بأن كل ما سوف تعلم أو تعير أو تهب من معانيها هذه لهؤلاء لن يتعامل إلّا مع الهوان والإذلال والضياع والخسران.. لن يجد أو ينتظر أن يجد غير ذلك وأن كل العقول والأخلاق لتعجز وترهب وتخجل أن تتعامل أو تتحاور أو تتفاهم مع أخلاق وعقول الآلهة ومعلميها حتى أخلاق وعقول الوحوش والحشرات.!

.. ما أطول وأصعب المسافات التي لا بدّ أن يخطوها ويتجاوزها الآلهة والأنبياء وكل المعلمين لأوامر السماء وأخلاقها..

.. أن يخطوها ويتجاوزوها ليصلوا إلى معابد ومعاهد الوحوش والحشرات ليدرسوا ويتعلموا فيها الإيمان والتديّن والأخلاق والحب والرحمة والحكمة والحنان والذكاء والنظافة..

.. ليتعلموا فيها تفاسير أخرى لأناجيلهم وتوراتهم وقرآنهم.. تفاسير أذكى وأتقى وأجمل مما تعلموا وعلموا.. هل يوجد محتاجون إلى أن يتعلموا الإيمان والتديّن ومعاني الأديان مثل معلميها أي مثل الآلهة والأنبياء ودعاتهم؟

.. هل يعود السؤال القائل: هل الوحوش والحشرات في هذه القضية متآمرة مع الآلهة وضدها لهذا لم تفعل ما يجب وما ينتظر أن تفعل أي أن تعلم الآلهة وأنبياءها ودعاتها ومعلميها ومفسريها ما يجب أن يتعلموا ويعلموا؟ هل كانت الوحوش والحشرات ترفض وتقاوم أن تتحول الآلهة وأنبياؤها ودعاتها ومعلموها ومفسروها.. إلى أفضل أو أعظم أو أجمل مما كانت وكانوا؟

ولماذا ترفض وتقاوم ذلك؟ هل هذا الرفض والمقاومة لأسباب أنانية شخصية انتهازية أم لأسباب أخلاقية فكرية عاطفية أدبية تهذيبية؟ ألّا يمكن أن تكون أي الوحوش والحشرات قد تعلمت الأنانية القبيحة من الآلهة والأنبياء ودعاتهم؟

.. هل رشتها الآلهة أو عقدت معها أي مع الحشرات والوحوش صفقات أو اتفاقات أو معاهدات تجارية آثمة مثلما يعقد بين الأخلاق والأعضاء.. بين العقل والدين والشهوات أي لكي لا تفعل ذلك.. لكي تلتزم بهذا الرفض والمقاومة؟ ولكن أليست الآلهة والملائكة والبشر ومن في مستواهم أو أعلى منهم هم وحدهم الذين يتعاملون بالرشوات والصفقات المأجورة الآثمة؟

وهل تهبط الوحوش والحشرات والكائنات التي هي أقل وأردأ من ذلك إلى هذا الحضيض الذي تهبط إليه وتوجد وتولد وتحيا وتموت فيه الآلهة والملائكة والبشر ولا سيما من يسمون ويزعمون أنبياءهم وأولياءهم وفقهاءهم وشيوخهم وكل معلميهم مجد السماء والطريق إلى مجدها. أليس المتحدثون عن الصعود إلى مجد السماء والمعلمون لهذا الصعود ولهذا المجد هم أقوى من يعلمون الهبوط إلى حضيض الهبوط وأردأ الهابطين هذا الهبوط؟

نعم، أليس محتوماً هنا تكرار الأسئلة؟ أليس تكرار الانفجاع وما يفجع بدون تكرار الأسئلة بلادة وموتاً وهواناً؟ أليس تكرار الوجود والحياة تكراراً للرؤية وتكرار الرؤية تكراراً للانفجاع وما يفجع.. تكراراً للغيظ والغضب؟

.. إن الذين لا يسألون ويتساءلون اليوم وغداً ودائماً ما سألوه وتساءلوا عنه بالأمس وقبل الأمس وفي كل تاريخهم الذي كان.

ـ نعم، إن هؤلاء موتى ومقبورون داخل أجسادهم.. إنهم لن يكونوا أو يحسبوا أحياء أو رائين أو قارئين أو محاورين أو محاسبين أو محاكمين.. إنهم بلا عيون ولا قلوب ولا أخلاق ولا ضمائر..!

يقول السؤال المكرر والذي يجب أن يتكرر بقدر ما تتكرر الآلام والأحزان والعبث والفضائح والتفاهات والمظالم والهزائم والمعاصي والنذالات والأكاذيب.

.. بقدر ما تتكرر أخطاء وآثام وعبث ومطالبات الآلهة... بقدر ما يتكرر وجودها أي الآلهة والحديث عنها وإليها.

... بقدر ما تتكرر الرؤى والمرائي الحزينة الأليمة الدميمة الفاجعة..

بقدر ما تتكرر الصلوات والدعوات والشكايات والمناجاة والمخاطبات والمطالبات للآلهة التي لم تصبح ولن تصبح سامعة أو مجيبة أو فاعلة أو شهمة أو غاضبة على عجزها وخمولها وبلادتها وغيبوبتها.

... بقدر ما تتكرر رؤى كل العيون والعقول والأخلاق والإيمان والتقوى لأخطاء وخطايا الآلهة.. لعارها وهوانها وكذبها وعجزها وقبحها وهزائمها..!

وهل تستطاع هذه الرؤية؟. هل يستطيع البقاء من يستطيعها؟

.. بقدر ما تتكرر الولادة والوفاة.. الوجود والفناء.. المجيء والذهاب.. الصحة والمرض.. الشباب والشيخوخة..!

.. بقدر ما تتكرر دورات وحركات وتناقضات وتصادمات كل ما في هذا الوجود وكل وجود.. بقدر ما تطلع الشمس والنجوم لتغيب وتغيب لتطلع ويصغر القمر ليكبر ويكبر ليصغر.. بقدر ما يتكرر ذلك..

بقدر ما يتكرر ويتكرر دون أن يوجد من يقول: لماذا؟ لماذا؟

أليس التكرار قانون وطبيعة كل شيء؟

هل تكون موجوداً دون أن تتكرر رؤيتك وإرادتك واحتياجاتك واشتراطاتك وحبك وبغضك؟

هل تكون موجوداً دون أن توجد معانيك.. دون أن يوجد شيء من معانيك.. من الرؤية والإرادة والاحتياج والاشتراط والحب والكره والقبول والرفض؟

وهل تتكرر هذه دون أن يتكرر انفجاعك واستنكارك وغضبك وخوفك وعذابك؟

وهل يتكرر هذا فيك وعليك دون أن تتكرر آهاتك وأناتك وصرخاتك؟

وهل تتكرر هذه ثم لا يتكرر سؤالك وتساؤلاتك ومحاوراتك وصيحاتك ومحاولاتك ومبارزاتك بالتكرار والديمومة؟

.. إذن فالوجود والحياة تكرار والتكرار وجود وحياة.. لا وجود ولا حياة بلا تكرار، ولا تكرار بلا حياة وبلا وجود..

لهذا لم يوجد ولن يوجد مكرر ومتكرر معلن عن نفسه وممجد لها ومدلل عليها بالتكرار مثل الإله.. مثل كل الآلهة؟

أليس كل تكرار هو شيئاً من تكرار الآلهة ومن تعبيرها عن نفسها.. عن رضاها وغضبها.. حبها وبغضها.. فرحها وكآبتها.. عن عبثها وهزلها وضيقها وضياعها وسأمها وعن احتياجها إلى استفراغ نفسها بالتكرار.. التكرار..!

إنه لو كان التكرار أو التكرر رديئاً فلن يكون هناك أردأ من الآلهة..!

إن كل أفكار وآمال وتصوّرات وفنون ومحاولات وأفعال ومطالب الآلهة تكرار. تكرار.

لننظر إلى كل شيء في هذا الكون الكبير الصغير.. العاقل المجنون، النظامي الفوضوي.. المفسر بكل التفاسير دون أن يكون له أي تفسير... هل نرى أو نجد فيه حينئذٍ غير التكرار.. التكرار الفاجع الصادم الفاقيء لكل العيون والعقول والضمائر والفنون الرائية المسائلة المتسائلة المحاسبة أي لو وجدت؟ غير التكرار.. الذي لن يوجد له أي تفسير أو تبرير..!

إنها لو غفرت وقبلت ونفعت كل أعمال وعمليات التكرار لكان تكرار الإله وتكرار أعماله وعملياته هي وحدها التي لن تكون مغفورة أو مقبولة أو نافعة.. لن تكون مفهومة..!

... نعم، يقول هذا السؤال الحزين المفجوع الفاجع: ماذا لو أنها أي الوحوش والحشرات وكل الكائنات الأخرى المماثلة لها قد أعارت أو علمت أو وهبت أو فسّرت شيئاً من ذلك أي من معانيها للإله أو لكل الآلهة وهي كلها محتاجة إلى أن تعلم وتوهب وتعار كل ذلك أي كل معاني الوحوش والحشرات وكل الكائنات التي هي أعلى أو أدنى منها...

وإلى أن تفسر لها هذه المعاني بعد أن تقرأ عليها؟ أليس كل شيء حتى الوحوش والحشرات أقل بل وأنبل وأتقى قبحاً وفحشاً وحماقة ونذالة وعدوانية من كل إله؟

.. إذن لماذا لم تفعل ذلك أي الوحوش والحشرات لكي تقلل وتخفف من قبحها ووحشيتها أي من قبح ووحشية الآلهة ولو تمنياً وتأميلاً؟

وهل يستطيع أي شيء أن يقلل أو يخفف من قبح أو وحشية مخطط وصائغ هذا الوجود؟

.. هل يمكن أن يكون التفسير لذلك أنها أي الوحوش والحشرات قد رأت واعتقدت أنها أي الآلهة غير محتاجة إلى ذلك ولا إلى شيء منه؟ هل يمكن أن يرى أي كائن أن إله هذا الكون ليس محتاجاً إلى أن يتعلم كل شيء لفقده كل شيء جيد؟

.. هل يمكن أن يكون التفسير لموقف الوحوش والحشرات هذا أنها قد امتنعت هذا الامتناع رفقاً بالآلهة وإشفاقاً عليها ورثاء لها وابتعاداً عن إهانتها وإذلالها وعن إشعارها بنقصها وهبوطها حتى

تحت مستوى الوحوش والحشرات... عن إشعارها باحتياجها إلى أن تتعلم كل شيء لأن كل شيء فيها يحتاج إلى أن يتعلم؟

.. أليس كل شيء حتى الوحوش والحشرات توجب عليه تقواه ورحمته وشهامته وحساباته وإشفاقه أن يرثي ويحزن بل ويفجع ويخجل ويتعذب بفكره وعواطفه وأخلاقه لكل نماذج وتفاسير ومستويات وممارسات واهتمامات وطاقات الإله الأخلاقية والعقلية والفنية والنفسية بل والمعاشية والمكانية والاجتماعية والوظيفية؟ أليست كل كينونات الإله وتكوينه وكونه في ذاته وخارج ذاته خروجاً على كل المقاييس العقلية والأخلاقية والفنية؟

.. أليس محتوماً أن تعرف أي كل الوحوش والحشرات والهوام وكل الكائنات المحسوبة المزعومة رديئة وشريرة ودميمة وبليدة ووقحة وعفنة.

ـ أن تعرف أنها كلها هي بعض عطايا عقله وفنه وأخلاقه وتخطيطه وتدبيره وشهواته ولذاته وأهوائه أي الإله بل وبعض صيغ تطهّره وتعطّره وتوضئه وصلاته لنفسه ولمجده ولكل قبحه وفحشه؟ هل وجد من يصلي ويتعبد لقبحه وفحشه بل ويفرض على الآخرين أن يصلوا ويتعبّدوا لكل ذلك فيه مثل الإله بل غير الإله؟ هل يوجد ما يذم غير الإله أو غير ما فعل وأراد الإله؟

.. هل وجد أو يتصور من يستحق كل الرفق والإشفاق والرثاء بل والبكاء له وعليه ومن أجله مثل الآلهة أو غير الآلهة لقسوة وقبح وفحش ودمامة وتفاهة وبلادة وعبث ولادتها ونشأتها ومجيئها وبقائها وثمن وتكاليف وجودها والذعر من وجودها والتعبّد لوجودها والتعادي والتباغض والتلاعن والتخاصم والتقاتل بسبب وجودها أو باعتقاد وإعلان وجودها أو باسم وجودها واحترامها؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد أي عامل أو فاعل أو موظف مرهق ملزم ملتزم بأن يعمل ويعمل يدوياً وعضلياً ومعنوياً بلا أي أجر أو ثواب أو جزاء أو متعة أو سرور أو هدف غير الآلهة؟

ـ نعم، هل وجد أو يتصور من يستحق ذلك موهوباً له حتى من الوحوش والحشرات والهوام رثاء له وإشفاقاً وبكاء عليه مثل الإله.. مثل كل إله لهبوط وعجز كل مستوياته ونماذجه وتفاسيره وقدراته.

.. لهبوط كل نماذج ومستويات حياته وحظوظه واستمتاعه ومجده عن كل المستويات والنماذج بكل صورها ولغاتها وتفاسيرها حتى عن مستويات ونماذج حياة وحظوظ واستمتاع وأمجاد كل الكائنات.. كل الوحوش والحشرات والهوام..!

هل يمكن أن تقاسي أو تواجه أو تريد أو تفعل أو تعايش أية حشرة أو وحش أو هامة من الهوان أو الحرمان أو العصيان أو الإذلال أو الغيظ أو التحدي أو من القسوة والظلم والعدوان والأخطاء والخطايا أو الضياع والخسران مثلما يقاسي أو يواجه أو يريد ويدبر ويفعل ويعايش ويساكن الإله. أي إله.. كل إله؟

هل يقبل كل كائن مهما كان ضعفه وهوانه وخسرانه أن يكون ثمن أو جزاء وجوده ثمن أو جزاء وجود أي إله.. أعظم إله؟

ماذا لو عرضت الألوهية.. لو عرضت وظيفة الألوهية.. لو عرض التنصيب إلهاً على عرش الألوهية.. لو عرض على أي كائن أن يصبح إلهاً.

.. لو عرض ذلك عرض هبة مع كل التضرّع والتودّد إلى المعروض عليه ليقبل هذه الهبة.. هبة أن يصبح.. أن ينصب إلهاً.. أي الإله الوحيد الفريد أو الإله المشارك لكل آلهة هذا الكون الأخرى.. أي ليصبح إلهاً بكل تفاسير وصيغ وحظوظ ومستويات ووظائف وأمجاد إله هذا الكون.. كل آلهة هذا الكون..

.. لو عرض ذلك عرضاً مطلقاً على كل كائن وعلى كل شيء بكل السخاء والتضرّع والتودّد لكي يتكرّم ويرحم ويشفق ويجامل ويضحّي فيتقبل العرض ولو بأسلوب ونيات وأخلاق الفداء المتحول إلى انتحار..

ـ نعم، ماذا لو وجد هذا العرض السخي بكل هذه التفاسير؟ هل طرح هذا العرض؟ أليس مطروحاً دائماً؟ هل وجد مطروح معروض في كل الأسواق مثل وظيفة الألوهية؟

.. هل يمكن أن يوجد حينئذٍ من يقبله مهما كان في تقبّله أعلى نماذج وكل نماذج الفداء أي أن يصبح إلهاً حتى ولو تضرّع إلى من يراد منه تقبّل ذلك كل شيء وكل أحد بكل دموعه وعقله وقلبه وصلواته..

حتى ولو عرفوا وبلغوا أي المعروض عليهم ذلك فآمنوا واعتقدوا مفجوعين مروعين أن هذا الكون سيصبح بلا إله.. بلا أي إله لأن إلهه قد أصبح شيخاً هرماً عاجزاً، عاجزاً فهو محكوم عليه بأن يحال إلى التقاعد أو بأن يموت أو بأن يظل في وظيفته ومسؤوليته بلا قدرة.. بلا أية قدرة عقلية أو نفسية أو أخلاقية أو عضلية بالأسلوب الذي تظل به الزعامات والقيادات العربية في وظائفها بلا أي استحقاق.

... نعم، هل يمكن أن يوجد حينئذٍ من يقبل هذا العرض عليه بكل هذا السخاء والتودّد أي العرض عليه بأن ينصب إلهاً لكل هذا الوجود حتى الزعامات والقيادات والنبوات العربية.. حتى الحشرات والوحوش والهوام هل يمكن أن تقبل ذلك مهما تقبلت كل الإذلال والتحقير والتعذيب والإهانة والهجاء لكل معانيها وتفاسيرها وأخلاقها وسعادتها وحياتها وذكائها؟ حتى الزعامات والقيادات والنبوات العربية لن تقبل ذلك مع غرورها الخارج على كل تفاسير الغرور ولغاته وحدوده..!

أي إن كانت قد رأت أو فهمت أو فسّرت أو تصوّرت ماذا تعني أو تساوي أو تكون الآلهة. كل الآلهة بكل الرؤى والتفاسير والقراءات والحسابات!

هل يقبل أي كائن أن يكون خسرانه بوجوده مثل خسران الإله.. أي إله وكل إله بوجوده؟

كيف حدث هذا؟ كيف أمكن تصوّر هذا؟

من وهب الآلهة وجودها وذواتها وصيغها ونماذجها ووظائفها وحظوظها وأخلاقها وصاغ لها ذكاءها؟

كيف وجد هذا الواهب وهل وجد؟

هل يمكن أن يكون أي هذا الواهب غير الإنسان... غير ذعره وجبنه وخداعه ونفاقه وكذبه ووحشيته وأنانيته وقبح ودمامة ونذالة ضميره وعقله وأخلاقه ورؤيته؟ هل يمكن أن يكون أي معنى جيد قد وهب الآلهة وجودها الذي زعم أنه قد كان أو أذن بذلك؟ أليست معاني الإنسان هذه هي التي رأت وجرؤت واستطاعت أن تهب الآلهة وجودها وذواتها ونماذجها ووظائفها وحظوظها وأخلاقها وتفاسيرها أي معانيه هذه الرديئة الجامعة لكل معاني الرداءة والقبح؟

.. هل كان يمكن أن يهب الإنسان هذه الهبة بل أو أنه يتصوّرها لو كان يعايش أو يعاني أو يعامل أو حتى يفاوض شيئاً من الضمير أو الحب أو الصدق أو الجمال أو الرؤية بل أو من الرحمة أو الإشفاق أو الاستحياء؟

إنها الهبة التي تهب واهبها كل معاني القبح والفحش والبلادة والنذالة.!

.. إنه لو حوسب الإنسان على خروجه على كل حدود وصيغ وشروط ومعاني الضمير والذكاء والرؤية والأخلاق والمحاسبة والصدق والتقوى بل والإيمان والصفاء لهان كل خروجه هذا محاسباً بخروجه على كل هذه القيم أو المحسوبة قيماً حين استطاع وجرؤ ورأى أن يهب الآلهة وجودها وذواتها ونماذجها وأخلاقها وحظوظها ووظائفها وتفاسيرها بالأساليب التي وهبها بها كل ذلك لكي تجيء وتكون وتحيا وتواجه وتعيش وتعايش وتريد وتدبر وتفعل كل ما هو كائن ومزعوم ومتوقع بكل أوصافها وظروفها وأخلاقها ووظائفها وتاريخها وبكل قسوة حرمانها من كل أنواع الاستمتاع المادي والمعنوي. إنه لا وجود هو كل الخسران والعذاب والانفجاع بلا أي ربح أو فرح أو سعادة أو مجد أو ثمن غير وجود الآلهة.!

.. إنه لن يفسّر كل التفاسير الرديئة وأردأ التفاسير الرديئة مثل الإنسان حين اعتقد وزعم وأعلن أنه يكرم ويمجد ويرضي الكائن الذي سمّاه إلهاً بإجلاسه له على هذا الوجود وبإلقائه واعتقاله فيه وباتهامه له بأنه أي هذا الوجود هو كل عقله أي عقل هذا الذي سمّاه وزعمه إلهاً وكل ضميره وقلبه ورؤاه وعبقرياته ومواجهاته وقراءاته وشهاماته ومغامراته وأخلاقه وكل حبه ورحمته وطموحه ونضاله وآماله وكبريائه وأفراحه وأمجاده وكل غذائه... كل غذاء حواسه وأحاسيسه ومعانيه وأعضائه ومجاعاته بل وكل أرباحه.!.. إن كل هبوط ليعجز ويرهب ويستحي أن ينافس هبوط الإنسان حين آمن أن أي كائن يقبل أو يستطيع أن يكون موجوداً بالأوصاف والأخلاق والنماذج والظروف والوظائف والتفاسير والمكان والكينونة والمكانة التي أوجد بها أو وجد بها من زعمه إلهه.!

.. إنها لو وجدت محاكمة كونية تحاكم وتعاقب على العدوان بكل أنواعه وتفاسيره وصيغه أعني على العدوان بالتصوّر والاعتقاد والإعلان وبالتعليم والتعاليم وبالتديّن والتعبّد والمخاطبة لوجدت أي هذه المحاكمة أنه لا جريمة لا يكفي كل العقاب أن يكون عقاباً لها مثل عدوان الإنسان أو غير

عدوان الإنسان على الإله بتصوره ورؤيته واعتقاده وتديّنه وتعبّده له وبإعلانه عنه وبتعلّمه وتعليمه وتعاليمه له وعنه ولصفاته وعنها ولوجوده وعن وجوده. أليس العدوان بالتصوّر والاعتقاد والادعاء والإعلان والتعليم والمخاطبة عدواناً؟

.. إنه لا يوجد ولن يوجد محقر مهين مشوّه لا عن متهم فاضح لكائن يرى ويزعم ويعلن أنه يفعل به وله نقيض ذلك مثل الإنسان بإيمانه بالإله وتصوّره له كما آمن به وكما أعلنه وتصوّره ورآه في الذات والمكان اللذين رآه ووضعه بهما وفيهما.!

إنه لا يوجد صافع لاطم يعتقد أنه مصافح مقبل معانق مثل الإنسان بإيمانه بالإله وتعامله معه.

حتى صلواته وعباداته وتضرعاته ودعواته وتوقعاته.. إنها لأقسى وأقبح هجاء وسباب واتهام لمن زعمه وأعلنه، واعتقده إلهه. إنها أي عباداته وصلواته وتضرّعاته لكل هذا الهجاء والسباب والقبح والاتهام في كل التفاسير والقراءات والاحتمالات. إنها لأقبح هجاء قاله أقبح وأجهل وأبلد شاعر معتقداً معلناً أنه يصوغ أعظم وأجمل المدائح..!

.. ماذا يعني أن يتعبّد ويصلي لإلهه أي لمن زعمه إلهه؟

نعم، ماذا يعني أن يفعل الإنسان ذلك؟ كيف لم يفكر في ذلك؟

إنه يعني أن إلهه هذا كائن صغير ساذج تافه.. طفل غرير.. بلا وقار أو كبرياء أو كرامة أو احترام للذات..

حتى ليذهب بكل الافتضاح والنزق والهبوط يطالب بأن يخاف ويرجى ويعبد ويمدح ويرشى ويهتف ويصلى له ويكذب عليه وله لكي يبالغ في الجزاء على ذلك وفي الرضا والفرح به وعنه ولكي يجن مبالغة في العقاب على تركه أو التقصير فيه.. إنه يطالب بالمديح والتملّق ليدفع الثمن..!

إنه يطالب بذلك من الصغار، الصغار جداً ليجعلهم أحبابه وأولياءه وجلساءه.!

.. إنها لأردأ وأقبح وأضعف صيغة لأي كائن.!

.. حتى أردأ إنسان إنه ليرفض ويخجل أن يفسر بذلك مهما كان كذلك.!

.. وماذا يعني أن يدعوه ويتضرّع إليه طالباً وراجياً أن يفعل نقيض ما فعل.. أن يشفيه وينقذه مما أصابه به.. من مرض أو عاهة أو عجز أو هزيمة أو فضيحة أو ورطة أرادها ودبّرها وصنعها له وأصابه بها بكل التسديد والحكمة والرحمة والمنطق والحسابات الصادقة الدقيقة الحكيمة؟ هل يمكن أن يقال أو يظن أنه قد يصيب بأي شيء بدون هذه المعاني والحسابات؟

ألا يعني ذلك أنه يراه أي يرى إلهه عابثاً سفيهاً متناقضاً نزقاً متمزقاً ينقض ويهدم ويلغي ما أراد ودبّر وخطّط ورأى وعقل واعتقد وصنع وفعل وبنى بكل الحكمة والمنطق والعدل والحساب الذي لا يخطيء.

.. يفعل ذلك أي هذا النقض والهدم والإلغاء والتراجع لأنه طلب منه أن يفعله لا لأن ذلك هو العدل والحكمة والرحمة والمنطق، وإلّا لما فعل ما فعل ولتراجع عما فعل دون أن يطلب منه التراجع؟

.. أو ألا يعني ذلك أنه يرى إلهه هذا يريد ويدبّر ويخطّط ويفعل ما لا يصح أو يقبل أو يعقل ويصيب به لكي يطلب منه بكل التضرّع والتذلّل أن يتراجع ويزيل ما فعل ليتراجع عنه ويزيله تحت أقبح وأسفه مشاعر النخوة والكبرياء والرضا عن النفس؟

إنه يضرب لكي يقول له المضروب: اشهد أنك ضارب، ضارب فلا تضرب..!

.. أو ألا يعني ذلك أنه أي الإنسان يرى إلهه هذا كائناً لا يمكن أن يفهم أو يفسّر بأي منطق أو بأي تفسير لهذا يعامله ويتعامل معه برؤيته هذه له أي بلا أي منطق أو تفسير أو حساب؟

يا لهول هذه التفاسير والاحتمالات والتصوّرات والرؤى..!

يا لهول قبحها وبلادتها وغوايتها وإهانتها لكل تفاسير الإنسان..!

يا إلهي اشفني، انقذني مما أصبتني به.. إن ذلك يساوي: يا إلهي انقض ما أردت ودبّرت وخطّطت ورضيت وفعلت لي وبي وعلي. انقض ما رأيت وقدّرت أنه كل الجمال والكمال والخير والتقوى لك ولي..! ويساوي يا إلهي: لقد كنت ظالماً أو مخطئاً أو مخطئاً ظالماً فيما فعلت فارجع وتب واعتذر واخجل وكفّر عن ذنبك وخطئك واغسلهما بأغزر وأحر الدموع والآهات والتضرّعات إليّ أنا مظلومك وضحية أخطائك ومظالمك ونزواتك.!

إني أحاسبك وأحاكمك وأطالبك يا إلهي بلغة التضرّع والتودد..!

.. أو يساوي: إنك يا إلهي لا تتعزى أو تتغذى أو تشبع أو ترتوي من التعزي والتغذي إلّا بأن توقع بي أقسى الآلام حتى أصرخ، أصرخ معلناً أنك قد أوقعت بي ذلك بأقسى أساليبه وإني الآن أعلن أنك قد أوقعت بي ذلك؟ لهذا أرجوك وأنتظر منك أن تتركني ولو وقتاً ما لتعود مرة بل مرات أخرى إلى تعزيك وتغذيك بتعذيبي وعذابي.! أليس التعزي والتغذي ولو بالتعذيب على فترات وليسا بالديمومة؟

... أو يساوي: إنك يا إلهي لا تحيا أو تسعد أو تعجب بنفسك إلّا بأن تفعل الشيء ونقيضه بلا أي هدف أو مصلحة أو تفسير لهذا أرجوك وأدعوك أن تفعل بي ولي الآن نقيض ما أنت فاعل بي ولي..!

أليس التناقض والتراجع هما أعظم فنونك وأخلاقك يا إلهي؟

... أو يساوي: إنه لا مثيل لجنونك وافتتانك يا إلهي في حبك لنفسك وفي خوفك عليها وفي تدليلك لها لهذا لا مثيل لشهوتك ونضالك ومطالباتك لتكون المعبود الممدوح المشكور الممجد المقدس وحدك المنزّه من كل عيب وريب ونقص واتهام وشك فيك.. لهذا أطالبك وأنتظر منك لمصلحتك أن تكون ولو أحياناً رحيماً وشهماً ونبيلاً وكريماً أو حتى عاقلاً وذكياً ومتوقراً ومستجيباً فاعلاً ما يرجى ويطلب منك مخففاً من قسوتك متراجعاً عنها أي أحياناً لكي لا تفقد أو تتشوه أو تسقط الصورة أو الرؤية التي تريد أن تظهر وترى بها.

لكي تكون وتظل ما تريده لنفسك أي أن تكون وتظل وحدك المعبود الممدوح الممجد

المقدّس المشكور المبرأ المنزّه من كل ما لا يرضي أو يعقل أو يقبل وإصرارك يا إلهي على ألا تشغيني وتنقذني ولو فترة ما مما أصبتني به قد يجعلني أعجز عن أن أراك كما تريد وتطلب أن أراك.. عن أن أراك في الصورة التي تريد وتطالب أن أراك بها وهذا قد يجعلني لا أعبدك وأمجدك وأمدحك وأقدّسك وأؤمن بك كما ترجو وتطلب أن أفعل.

إن المسيء المتوحش الفاجع الضارب أبداً قد يرفض ويلعن حتى ولو كان هو أنت.!

.. إني يا إلهي أذكرك بهذه الأخطار التي قد تلقي بها على نفسك أو تلقي بنفسك فيها وعليها..!

ليتك يا إلهي تسمع وإذا سمعت فهمت وإذا فهمت فعلت.! ليتك.!

❂ ❂ ❂

نعم، يا إلهي لتفكر أنت وكل أعوانك وخبرائك ومستشاريك أي لتفكروا: هل يمكن أن توجد أية تفاسير غير هذه التفاسير لصلوات وعبادات وتضرّعات ومخاطبات ومناشدات الإنسان لك وإليك يا إلهي؟ ما أتعس حظوظ من محاورته ومناشدته وتمجيده وامتداحه والهتاف به والتضرّع إليه وطلب العون والغوث منه أقسى هجاء واتهام له.!

إذن هل يمكن أن تصور حظوظ تساوي أو تنافس حظوظك في التعاسة يا إلهي؟ هل يمكن أن يوجد من يقبل أن يشتري حظوظك يا إلهي بحظوظه مهما كانت تعاسة حظوظه؟

إذن ويلك، ويلك يا إلهي من كل التفاسير والحسابات والقراءات والرؤى..!

ويلك يا إلهي من كل العيون والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق الرائية القارئة المفكرة المحاسبة المحاكمة المحاورة..

ما أقسى وأفجع العلاقات بينك وبين أي عين أو عقل أو قلب يرى أو يفهم أو يحاسب.!

.. ولكن قد يقال برؤية أخرى: ما أعظم حظوظك يا إلهي لأن مثل هذه العيون والعقول والقلوب والأخلاق والضمائر لم توجد بعد وإن وجدت فهي ضائعة ضالة مهزومة هاربة أمام أضدادها ونقائضها فهي لن ترى أو تسمع أو تواجه أو تقاتل أو تبارز أو تنتصر أو حتى تخيف أو تزعج. إنها غريقة، غريقة في مجتمعات نقائضها وأضدادها.. لقد كانت الطبيعة ماكرة لئيمة لهذا صاغت العيون والعقول والقلوب والضمائر والأخلاق التي قد تستطيع أن ترى أو تحاور أو تسائل أو تحاسب أو تخاصم آلهتها نادرة وضعيفة ومهزومة وغائبة.!

.. ولا بدّ أن تقول تفاسير أخرى: إن فقد أو ضعف أو انهزام هذه العقول والقلوب والرؤى والضمائر والأخلاق أمام أضدادها ونقائضها لا بدّ أن يجعل حظوظ الإله أردأ وأقل وويلاته أعظم وأقسى وأكثر لأنها لو وجدت قوية منتصرة لأنقذته من كل تصورات واحتمالات ونماذج ومعاني وجوده.

.. من كل ما في وجوده من تشوّهات وتشويهات واتهامات والتزامات ومواجهات ومعاملات ومخاطبات ومطالبات وتضرّعات حزينة أليمة قبيحة.. من ويلات ويلات..!

أليست كل الويلات في وجوده وكل وجوده ويلات؟

.. لأنقذته من أن يكون محاسباً للإنسان ولكل شيء ومحاسباً بالإنسان وبكل شيء ومحاسباً له الإنسان وكل شيء.. مسؤولاً عن الإنسان وعن كل شيء مسؤولاً عنه الإنسان وكل شيء..

مفسّراً بالإنسان وبكل شيء مفسّراً به الإنسان وكل شيء..!

.. من أن يكون معاملاً ومواجهاً ومعايشاً ومواطناً ومحاوراً وقارئاً مفسّراً مسائلاً مساوماً مفاوضاً للإنسان ولكل شيء...

.. ومن أن يكون الإنسان وكل شيء معاملاً مواجهاً معايشاً مواطناً مساكناً محاوراً قارئاً مفسّراً سائلاً مسائلاً مساوماً مفاوضاً له.!

من أن يكون رائياً مساكناً للإنسان بكل عريه وقبحه وافتضاحه وانطراحه وانبطاحه..!

.. من أن يكون هو مدبر وخالق الجحيم وسكانه والفردوس وسكانه، وخالق إبليس ليتآمر معه ضد نفسه وضد الإنسان وضد الحياة وضد أنبيائه وأوليائه وضد كل المنطق والعقل والأخلاق والكرامة والتقوى والشرف.. ضد كل تعاليمه وأوامره ومطالباته وتمنياته وكبريائه وبسالاته.. ضد عيونه وآذانه وأفراحه وأشواقه.

... ضد كل سمواته وأرضه وآفاقه وطرقه واتجاهاته.. ضد كل معانيه وتفاسيره..

.. من أن يكون قد أراد ودبّر وصنع وصاغ إبليس وهو في وعيه وعقله وضميره وفوق عرشه بكل كبريائه ليكون أي إبليس الهازم المذل الفاجع الفاضح له أبداً في كل أكوانه وأمام كل مخلوقاته.. ليكون أي إبليس سلطان وقائد وصائغ وحاكم هذا الكون.. ليكون إلهه.. ليكون كل أحد وكل شيء رعية وعبداً عابداً له أي لإبليس..!

.. ليسرق منه كل ما صنع وفعل وامتلك. كل ملكه وأملاكه..!

.. كيف أمكن أن يصدق أو يتقبل أو يغفر أحد أن الإله قد خلق إبليس وأعطاه كل كينوناته وقدراته وأسلحته لكي يسحب منه كل مجده وسلطانه وليظل يفقأ ويقاتل ويعذب عينيه وأذنيه وعقله وقلبه وضميره وأخلاقه بانتصاراته الدائمة الشاملة الحاسمة المرئية والمسموعة والمواجهة والمعروفة والمكتوبة المقروءة المقررة في كل الميادين والمعارك على كل شيء وكل أحد..

لكي يطرده من كل ملكه ويعتقله ويقعده محصوراً محسوراً فوق عرشه..

.. لكي يذهب أي الإله يعاني ويلهث.. يلهث ويعاني هو وكل خبرائه وأعوانه ومستشاريه لكي يرسل الأنبياء والمعلمين ويؤلف وينزل الأديان والكتب المقدسة والتعاليم لكي يبقي شيئاً من ملكه وفي ملكه ملكاً له لئلا يصبح ويظل إبليس مغتصباً وسارقاً منه كل ملكه.. مالكاً كل ملكه.

.. لئلا تكون وتظل كل المعاملات معه أي مع إبليس ومن أجله وقد كانت كذلك وظلّت

حتى المعاملات المحسوبة والمزعومة مع الإله ومن أجله.. كانت وظلّت مع إبليس ومن أجله.!

.. لكي تذهب وتظل كل معاناته ولهاثه معاناة ولهاثاً بلا أي عطاء أو حتى عزاء أي في إرساله وإنزاله الأنبياء والمعلمين والأديان والتعاليم والكتب المقدسة..!

.. ولكي يضاف إلى هزيمته وإذلاله هزيمة وإذلال كل ما أرسل وأنزل وعلم ووظف من أنبياء ومعلمين وأديان وتعاليم وكتب مقدسة؟ كيف جرؤ أو يجرؤ أي نبي أو معلم أو دين أو كتاب منزل أن يعرض نفسه في مكان يعرض فيه إبليس نفسه؟

.. قصة الإله وإبليسه قصة تفسد كل التفاسير لكل الأشياء.. إنها لكل الهجاء والتحقير والإسقاط والاتهام لكل مواهب التصوّر والخيال. إن كل التصورات والقراءات والعقول والآذان ليجب أن تموت لئلا تتصورها أو تقرأها أو تفهمها أو تصدقها أو تسمعها.!

إن كل الهجاء لن يكفي هجاء للإنسان لتصوّره وابتكاره قصة الإله مع إبليسه هذا..!

.. نعم، إن هذه العقول والقلوب والعيون والضمائر والأخلاق لو وجدت قوية منتصرة لأنقذت الإله من نفسه.. من وجوده.. من أن يكون موجوداً.!

لكي تنقذه من هذه الويلات والفضائح والقبائح والهزائم والهموم التي أبداً يقاسيها ويفعلها ويتعذب ويتشوّه ويشوّه بها بلا أي ثمن أو سعادة أو فرح أو مجد أو منطق أو فهم أو إنقاذ أو أمل في الإنقاذ..!

إذن هل يوجد أو يتصور إنقاذ يساوي هذا الإنقاذ في أي معنى من معانيه؟

أجدني لا أزال مدفوعاً إلى الحديث عن قصة الإله مع إبليسه هذا. ما أصعب أن يصمت العقل أو القلب أو الضمير عنها.

.. أن يصمت عن هذه القصة..!

.. الإله بتفاسير ومنطق هي ضد كل المنطق والتفاسير يرى ويريد ويقرر أن يصوغ إبليس عدوّه الأول الأقوى بل الذي هو كل أعدائه قوة هائلة لكي يصبح هو مهزوماً ذليلاً حسيراً كسيراً في كل مواجهاته له.. مواجهاته العقلية والنفسية والأخلاقية والتعليمية التخطيطية الدعائية بل والعملية.

هكذا أراد ورأى وقرر أن يعاقب نفسه..!

.. ليفعل بنفسه ما يشاء، قد يكون له ذلك. ولكن إن جاز وغفر له وقبل منه أن يفعل ذلك بنفسه فكيف يجوز أو يغفر له أو يقبل منه أن يطلق هذه القوة على الإنسان البريء وعلى كل شيء بريء لتدفعه وتقوده إلى كل الآلام والفضائح والمهالك والخطايا.. لتوقع به كل ذلك.. لتفسد وتشوّه وتلوّث وتعذّب وتخيف وتضلل وتسكن عقله وقلبه وضميره ورؤاه وأخلاقه وكل معانيه وعلاقاته بنفسه وبكل شيء وكل أحد.. لتدمّره وتغرقه في الخلافات والخصومات والعداوات والانقسامات والحروب.. الحروب؟

.. لقد عشق أي الإله أن يوجد عدواً له يذلّه ويهزمه ويطارده فهل جهل أو أخطأ أو أراد أو

عجز حين تحول هذا العدو إلى إفساد وإضلال وتشويه وتعذيب وإرهاب وخداع دائم شامل لغيره.. للإنسان ولكل شيء؟

من يستطيع أن يفهم ذلك أو يعقله أو يفسّره أو يدافع عنه؟

هل ما لا يستطاع فهمه أو قبوله أو تفسيره أو الدفاع عنه هو الذي يفهم ويقبل ويعقل ويفسّر ويدافع عنه بكل الحماس والحرارة والقوة والإيمان؟

.. لقد أراد أي الإله أن يرضي ويسعد نفسه بمحاربتها وإهانتها وهزيمتها وإذلالها وفضحها فخلق من أوقع ويوقع به كل ذلك بأقسى الأساليب والتفاسير ولكنه لم يكن حكيماً أو عليماً أو حازماً أو شهماً في ذلك إذ تحول ذلك إلى عدوان لا مثيل له على الإنسان والحياة وعلى كل شيء.. إلى إفساد شامل دائم عالمي كوني..

إلى ترويع وتشويه لكل شيء ولكل أحد..!

.. لقد غضب على كائن قد عصاه أي على إبليس فاستجاب لغضبه وللتعبير عن غضبه بلا أي قدر من الذكاء أو الحكمة أو الرؤية أو الوقار أو العدل أو الفروسية النفسية فحول هذا الكائن العاصي المغضوب عليه إلى قدرة مطلقة لتكون كل الإذلال والإهانات والهزائم والغيظ له، للإله. وكل الإفساد والتضليل والتعذيب والتشويه والتلويث للإنسان والحياة ولكل شيء.. لتكون كل قادته ومعلميه وحاكميه ومرهبيه أي الإنسان. لتكون أقوى وأخلد وأشهر هؤلاء في حياة الإنسان.!

.. نعم، هل يمكن أن يوجد من يستطيع أن يفهم ذلك أو يعقله أو يفسّره أو يقرأه أو يسمعه فكيف يدافع عنه أو يغفره؟ إنه لن يوجد لو كانت الأشياء شيئاً مما يجب أو يعقل أو ينتظر أن تكون.! ولكن أليس ما لا يعقل أن يكون هو الذي يكون؟

.. أليس النضال لشفاء وتطهير وتنظيف عقل الإنسان وعقائده وإيمانه وتصوّره من هذه القصة.. قصة الإله مع إبليسه من أعظم وأنفع وأوجب أساليب النضال لتكريم الإنسان وحمايته.. لتكريم الحياة وحمايتها؟

أليس تنظيف عقل الإنسان وتراثه وإيمانه من الاعتقادات والتصوّرات والروايات البليدة القبيحة المهينة أنفع وأعظم وأوجب من كل أعمال وعمليات التنظيف؟

۞ ۞ ۞

.. نعم، هل كان يمكن أن يوجد أي شيء لو كان لا يوجد ولا يكون إلّا ما يعقل أو يفهم أو يرضي أو ينفع أن يوجد وأن يكون بالصيغة التي جاء بها أو بأية صيغة أخرى؟

حتى الإله وكذا كل إله لو أنه سئل أو فكّر قبل أن يوجد ويكون: هل يفهم أو يعقل أو يرضي أو ينفع أن يوجد ويكون في صيغته التي وجدت وكانت أو في أية صيغة أخرى وكان قد قرر والتزم ألا يوجد ويكون إلّا إذا عرف واقتنع أن وجوده وكينونته مفهومان أو معقولان أو مرضيان أو نافعان فهل يمكن أن يوجد ويكون أو أن يقبل ذلك أي إلّا إذا كان وجوده وكينونته اغتصاباً؟

وهل يمكن أن يوجد من قد يريد أن يغتصب للإله أو لأي إله وجوده وكينونته.. أن يغتصب له أي وجود أو أية كينونة مهما وجد من يريد ويتمنى أن يغتصب منه كل وجوده وكينوناته؟ إنه لا يمكن وجود أو تصور خسران أو تشويه أو توريط أو تعذيب أو إرهاب لكل أحد ولكل شيء مثل وجود الآلهة وكينوناتها ولو تصوراً وتلقيناً.

إن أي كائن لم يربح من أي إله أو من الإيمان بأي إله أي شيء مهما خسر به وبالإيمان به كل شيء.!

إن البشر لم يعاقبوا أنفسهم وحياتهم مثلما عاقبوها بإيجادهم للآلهة وبإيمانهم بها.!

.. حتى الذين أوجدوا الآلهة أي زعموا وأعلنوا واعتقدوا وجودها خداعاً ومتاجرة ورغبة في التسلّط والسلطان أو جهلاً وعجزاً ورهبة وتخيّلاً وانخداعاً ووهماً وهل أوجد الآلهة موجدوها إلّا بأحد هذه التفاسير أو بها كلها؟

- حتى هؤلاء لن يكون وجود الآلهة وكينوناتها ربحاً أو مجداً أو سعادة أو قوة أو أماناً أو صحة أو ذكاء أو ثراء لهم، وإنهم ليعرفون ذلك بالمنطق والتفكير أو بالرؤية أو بالأخلاق أو بالمواجهة والتجارب والسلوك وبالتكاليف والمقاساة.. إن المعرفة بالفعل والكينونة والمعاناة هي أبداً أذكى وأقوى وأتقى وأصدق من المعرفة بالاعتقاد أو التلقين أو الفكر.

.. إن الذين يؤمنون ويعلنون أن بيوتهم وغرفهم وسررهم وكل أماكنهم وطرقهم واتجاهاتهم وخطواتهم وكل الأشياء مشحونة ومسكونة بكل الأبالسة والعفاريت والقوى الخفية الشريرة المطلقة التصرّف والوجود والكينونات والضربات الأليمة لا يفعلون ذلك لأن في وجود هؤلاء أو في إيمانهم بهم خيراً أو نفعاً أو أي شيء جيد مفيد لهم ولن يكون ذلك كذلك ولا لأنهم يعتقدون شيئاً من ذلك.

ومثل هؤلاء من يؤمنون بالآلهة ويدعون إلى الإيمان بها وإلى التعبّد والتقديس لها والخوف منها..!

إنه العجز والجهل والوهم والخوف والضياع والتلقين المتحول إلى كل أنواع التعذيب للنفس والحياة وإلى كل أنواع التحقير والإذلال والتشويه للعقل والقلب والضمير والرؤية والأخلاق والعلاقات مع الذات ومع كل شيء وكل أحد..

لماذا لا نجد مسيحاً ولا سقراطاً عربياً؟

إلى من أنتظره وأتمناه وأطالب به صديقاً أي عطاء ووفاء وفداء والتزاماً وسلاماً وحرباً لا مراسلة ومخاطبة ومجاملة وموافقة وقراءة لفظية.. لا مصافحة ومعانقة وقبلات عربية فقط، فقط..

صديقاً كصداقة الإنسان وكل كائن لشهواته ورغباته وأمنياته ولذنوبه لا كصداقته لشعاراته وكلماته وانتماءاته ولعقائده ومذاهبه وآلهته وأنبيائه وأديانه وزعاماته.. كصداقته لأشواقه وخطاياه لا كصداقته لصلواته وعباداته وهتافاته.. كصداقته لإبليسه لا كصداقته لملاكه..

كصداقته لأعضائه لا كصداقته لأخلاقه.

أيها الصديق المتمنى بصيغه هذه..

.. كم من مسيح وسقراط ولدهما الدين العربي أو الفكر العربي أو التحدي العربي أو الحضارة العربية أو الأخلاق العربية..؟

كم من مسيح أو سقراط عربي صعدوا أو حتى مشوا إلى التاريخ أو صعدوا أو مشوا بالتاريخ، أو صعد أو حتى مشى بهم التاريخ.. على أفلاك وأنهار وبحار وجسور من الصلبان والسموم التي حوّلت الحياة والتاريخ من حياة وتاريخ صلبان وسموم وجهالة وبداوة وطغيان ورق واستعباد وإرهاب وأمية إلى حياة وتاريخ حضارة وعلم ومعرفة وفكر وعقل وثقافة وعدالة وتسامح وحرية ومحبة وأمان ومساواة.. حوّلتهما أو تحاول أو تكاد تفعل ذلك بالتحدي والمواجهة والمقاومة لها أي للصلبان والسموم.. لوعيدها ووحشيتها وجهالتها وإرهابها وظروفها وفاعليها والفاعلين بها..!

لقد دمّر الإنسان أي الإنسان الآخر الذي لم يكن عربياً. دمّر وأحرق ودفن كل صلبانه وسمومه التي أبدعت الحياة والتاريخ الحديثين ووهبتهما كل صيغ وتفاسير الحضارة والإنسانية ولغاتهما وأخلاقهما أعني صلبان وسموم المسيح وسقراط أي بروح وأسلوب التصدي والتحدي والمقاومة لها بكل القوة والذكاء والبطولة..بالموت بها.. بالصعود فوقها وبابتلاعها رشفاً وتذوّقاً متلذذاً..!

لقد فعل بها أي بالصلبان والسموم كل ذلك الإنسان الآخر الذي لم يكن عربياً ولم يتعلم أو يتكلم اللغة العربية ولم يقرأ القرآن العربي أو يصل الصلاة العربية متوجهاً إلى الكعبة العربية متضرعاً متملّقاً منافقاً راشياً للإله العربي بأخلاق ونيات وكبرياء وذكاء الإنسان العربي.. ما أقبح الإنسان عابداً للإله متملّقاً إليه وأقبح الإله معبوداً متملقاً إليه متقبلاً لذلك مطالباً به..!

أليست الطاقة أو الموهبة أو الروح التي هاجمت الصليب والسم لتموت بهما هي التي صاغت الإنسان الجديد وصنعت الحياة الجديدة القوية؟ أليست القدرة على الموت العظيم الكبير قدرة على

صناعة الحياة والتاريخ الكبيرين العظيمين! أليس الموت طاعة للعقل والأخلاق وللكرامة الإنسانية ورفضاً للغباء والجهل والكذب والضلال والخداع والتزوير والإذلال النفسي والفكري والديني والاعتقادي.

ـ نعم، أليس هذا الموت هو أعلى مستويات الحياة؟

لهذا أليست المجتمعات والشعوب التي لا يتخلق فيها من يموتون هذا الموت لا تصنع حياة قوية أو عظيمة أو كريمة أو حرة؟

.. إن هذا الموت هو أنبل موت كما أن أنذل موت هو موت الجنود في الحروب بين الشعوب التي تشعلها العداوات أو الخلافات أو الخصومات أو المنافسات أو الشهوات أو الاستعراضات أو المطامع والطموح بين القادة والزعماء والحكّام والأديان والمذاهب والانتماءات والغباوات والجهالات والوقاحات.. هل يستطاع التحديق في خسائر ومآسي الإنسان والحياة في هذه الحروب؟ ولكن هل يمكن أن يظن أو يزعم أن لها.. لهذه الحروب أي ربح أي إذا حدق فيها تحديقاً شاملاً رائياً قارئاً؟

كيف لم يفهم هذا كل الأذكياء بل وكل الأغبياء؟

.. لنحدق في كل الحروب التي وقعت أو سوف تقع أو قد تقع محاسباً ومفسّراً بعضها ببعض. كلها بكلها ليصبح انفجاعنا وترويعنا بهذه الحقيقة بلا حدود..

إن أية حرب لم تكن ولن تكون إلّا عدواناً أو صداً أو إزالة لعدوان حرب. وهل يمكن أن يوجد أو يتصور أي ربح في العدوان أو في الاضطرار إلى صد وإزالة العدوان.. في العدوان الذي يوجب ويصنع الحاجة إلى مقاومته وطرده؟

إن العدوان ومقاومته محاسبين ومفسّرين ومحاكمين معاً هما أخذ من الحياة ومن الإنسان بلا أي عطاء.. أخذ لا مثيل لبشاعته وخسائره وأهواله.. إن كل حرب لن تكون إلّا عدواناً أو محاربة لحرب..!

.. إن مقاومة العدوان وطرده بالحرب ليسا عطاء للحياة أو للإنسان ولكنهما تخليص لهما.. تخليص لهما بالحرب مما أوقعته بهما الحرب. إن تكاليف مقاومة العدوان وإزالته بالحرب ليست أرباحاً ولكنها خسائر تتحملها الحياة والإنسان.. خسائر محسوبة على الحرب.. على الحرب في صيغتيها وتفسيريهما: معتدية ومدافعة مخلصة منقذة..!

إن الحروب الإنقاذية التحريرية ليست إلّا صناعة وتخطيط الحروب العدوانية وليست إلّا شيئاً من صيغها وتفاسيرها..!

فكل الحروب من حيث البدء والابتكار والتفكير والمبدأ جرائم وخسران وجنون. كل الجنون بكل التفاسير والرؤى والحسابات والصيغ والمقاييس والقوانين..!

كيف أمكن أن يخفى ذلك على أحد؟

إنه لن يكون معطياً أو نافعاً أو محسناً أو مشكوراً بل لن يكون ويعد إلّا مجرماً أو مجنوناً أو كل ذلك من فقأ عيناً أو قطع يداً أو رجلاً ثم شفى من ذلك أو قتل حياً ثم أحياه موقعاً كل التعذيب والترويع والخسران والإذلال بمن فعل به ذلك..!

أليس هذا تفسيراً صغيراً صادقاً للحروب المعتدية والمدافعة المنقذة؟ هل لها.. للحروب أي تفسير غير ذلك؟

إن كل الجرائم والشرور والخسائر والمآسي والحماقات والبلادات لتجتمع في ابتكار وصناعة السلاح بكل أنواعه ومستوياته.. في اختراع وصياغة السلاح الذي آمنت به وصلّت له وعلمته ودعت إليه ومجّدته وأنزلت في تمجيده وتعليمه الآيات والسور كل الألوهيات والنبوات والأديان والزعامات والقيادات والوطنيات والمذاهب والنظم والشعوب وكل المؤمنين الأتقياء والزنادقة الفجار..!

.. إنه لو كان قد خلق للإنسان إبليس ليكون كل أعدائه ومفسديه ومضلليه وموقعي كل الشرور والآلام والمآسي والدمار به وكان هذا الإبليس ذكياً وماكراً وعبقرياً في ذلك لكان محتوماً أن يصوغ ويصرف كل اهتماماته في قضية واحدة.. في أن يجعل ضحيته الإنسان مبتكراً وصانعاً للسلاح.. لكل أنواع الأسلحة بارعاً وباسلاً في استعمالها..!

إن كل وظائف السلاح الجنوني التكاليف في تخطيطه وصناعته هي أن يضرب ويدمر ويقتل ويروّع أو أن يقاوم ذلك بالضرب والقتل والتدمير والترويع. إنه لا يشيد مصنعاً أو يبني بيتاً أو يحيي ميتاً.!

إذن هل يجد إبليس الإنسان شيئاً يوقعه بالإنسان مثل أن يدلّه ويحرّضه على ابتكار السلاح وصناعته والتعامل والتخاطب به وأن يجعله أضخم وأغلى وأقبح ما يباع ويشترى ويخزن وتقام عليه كل الحراسات وأقواها وأكثرها خوفاً وتخويفاً وتكاليف؟ إن إبليس الإنسان لم يسعد أو ينتصر مثلما فعل في ذلك..!

كم هي فادحة الأخطار والأضرار والآلام التي قد توقعها أو تزرعها رصاصة أو قذيفة واحدة تطلقها يد ظاهرة أو خفية لتصيب هدفاً مقصوداً أو هدفاً غير مقصود..!

فهل يستطيع إبليس أن يجد ما يحارب به صديقه الإنسان مثل أن يغويه بابتكار السلاح وصناعته وبالتعامل به وبأن يجعل عبقريته في ذلك بلا حدود؟

❀ ❀ ❀

نعم، لقد فعل بها ذلك أي بصلبان المسيح وبسموم سقراط بصعوده فوقها وتجرّعه لها بأسلوب ونيات الإذلال والقهر والتهوين والتشويه والعقاب والقتل لها..

أليس رفض الطغيان والجهالة ومقاومتها إلى حد الموت صلباً وتسميماً هما أنبل وأتقى وأقوى وأقصى أساليب القهر والتحدي والمقاومة والفضح لهما والاستهزاء بهما؟

لقد أخاف وهزم وأهان السموم والصلبان بذلك وسخر منها بموته بها فخافت وهانت وجبنت وصغرت واستسلمت وتحولت إلى عارٍ لكل التاريخ.. أما من ماتا بها فقد صعدا بالتاريخ وصعد بهما.. بموتهما التاريخ وصعدا فوق التاريخ..!

.. إنه الموت الذي عجز عن الصعود إلى مجده الإله الذي حرّضه ودفعه وساقه عنف رغبته في

المجد.. في أي مجد وكل مجد إلى أن يخطط ويخلق أردأ وأقبح وأقذر الحشرات والكائنات والعاهات والآفات والقباحات والتشوّهات لكي تكون له مجداً ولكي يدعيها ويراها أعظم وأشهر وأوسع وأشمل وأدوم وأظهر أمجاده وأعظمها حكمة ورحمة وجمالاً وعبقرية أو مؤملاً أن تكون كذلك.!

ولو أنه أي الإنسان الذي لم يكن عربياً قد جبن وذلّ وهان وهرب من مواجهتها ومقاومتها خوفاً من الموت صلباً وتسميماً لحكمته وأذلّته وطاردته ولظلّت تفعل به ذلك ولو بعقله وتفكيره وتصوّره وأخلاقه ومخاوفه حتى ولو لم يصعد هو أو تهبط هي لتصيب ذاته المادية الترابية. أليس الصلب والتسميم بالتوعد والتوقّع والتهديد والانتظار أقسى من الصلب والتسميم بالتنفيذ؟

أليس الخطر المنفذ أهون من الخطر المنتظر؟

إن اقتحام الأخطار والمخاوف يقتلها أو يطردها أو يضعفها ويخيفها كما أن مقاومة الطبيعة مقاومة بداواتها وجهالاتها وبلاداتها وبذاءاتها ووحشياتها وتذللها وتعلّمها وتجمّلها وتصوّغها صياغات حضارية وإنسانية وجمالية ومنطقية وعلمية أعني الاقتحام والمقاومة اللذين يقودان بيسالتهما وتصميمهما إلى الموت بالصلب والتسميم..!

إن الموت مقاومة للموت هو أقوى وأعظم وأشهر وأنبل الأساليب لتمجيد الحياة وتكريمها وتقويتها وتثبيتها بل ولمقاومة الموت أي القتل.. إن الموت العظيم هو أعظم مقاوم للموت وللحياة القبيحة الذليلة..!

إن الإنسان يقتل الصلب والصليب والسم والتسميم بالموت بهما لا بالحياة الذليلة الجاهلة المنافقة.

المستسلمة خوفاً منهما واتقاء لهما واستسلاماً للمعاقبين والمهددين بهما. إن السم والصليب لا يخافان أو يحترمان إلّا من قتلاه مبارزاً لهما.!

إن الذين ولدوا المسيح وصنعوا صليبه والذين ولدوا سقراط وصنعوا سمّه هم الذين أصبحوا يلدون كل مسيح وكل سقراط بلا أي صليب أو صلب وبلا أي تسميم أو سم.

إن الذين صنعوا للصلب والتسميم أعظم المجد وأشهره هم الذين حولوهما إلى تاريخ فاجع وذكريات فاجعة يعتقدون أنها لن تتكرر ويرفضون أن تتكرر حتى ولو تحولت كل مجتمعاتهم وشعوبهم إلى نماذج أقسى وأقوى من نموذجي سقراط والمسيح اللذين استحقا الموت ونفذ فيهما صلباً وتسميماً كما رأت وقضت أخلاق وأحكام وحضارة وتفكير ودين وضمائر عصريهما وشعبيهما بل وآلهتهما..!

.. بل إن هؤلاء هم الذين حوّلوا المادة التي صنعوا منها صليب المسيح وسم سقراط إلى مادة عجيبة خارقة يصنعون منها وبها سفناً وجسوراً ونسوراً وأجنحة يحلّقون بها فوق النجوم.. فوق عروش ومضاجع ومساكن الآلهة المختبئة الهاربة من كل العيون والعقول والآذان والمحاورات والمواجهات والمحاسبات والمساءلات والمسؤوليات والمواقف التي ينتظر ويجب ويطلب وتطالب أن تقفها وتقف

عليها بل وتصنعها - يحلقون بها فوق عروش ومساكن ومراقد ومخابيء الآلهة ويصعقون ويذلون ويفقؤون ويزعجون ويهزمون بها عيونها وآذانها وأعصابها وخمودها وكسلها واسترخاءها وأمنها وإعجابها بنفسها وبأعوانها وثقتها بحماية حصونها لها..!

إن ثقة الإله وإعجابه بنفسه لم يصدما مثلما صدما بهؤلاء الأبالسة..!

إنه لو لم يوجد مقاومو الصليب والسم بالموت بهما لما وجد ولا عرف هذا الصليب والسم، وإنهما لو لم يوجدا ويعرفا ويوجد من تقبّل ويتقبّل الموت بهما لما وجدت هذه الحضارة الصاعدة بإنسانها فوق خيال صانع ومخطط الشموس والنجوم والأقمار والمختبيء الساكن الراقد فوقها بكل الاستسلام والضياع والغيبوبة الدائمة الكئيبة العقيمة.. الحامي الحارس لنفسه بكل الرقى والتمائم والتعاويذ لتحميه من أسلحة ورؤى وتطلعات العيون.. كل العيون بكل أسلحتها ومعاقباتها.. المبدد لوقته بالتثاؤب والعطاس وبالسب والهجاء لكل من سواه وبالثناء الساذج الفاضح القبيح على نفسه..!

.. ولكن لماذا لم يكن لقومنا مسيح مثل هذا المسيح المعانق بكل الرضا والبسالة والفرح لصليبه، ولا سقراط مثل هذا السقراط المصافح الرافع بكلتا يديه لكأس سمه إلى كلتا شفتيه بكل السعادة والقوة؟ بل لماذا لم يلد ولا يلد قومنا من يتمنون أو ينتظرون أو يتقبلون أو يطلبون أو يغفرون أو يتصوّرون أن يتخلق أو يولد فيهم مسيح واحد أو سقراط واحد من هذا المقاس ولو شذوذاً أو غلطاً أو ادعاءً؟

إن قومنا مهما كانت أمجادهم المدعاة لن يدعوا أو حتى يقبلوا الادعاء بأنه قد تخلق أو قد يتخلق فيهم مسيح أو سقراط واحد لأن هذا لن يكون مجداً في عقائدهم وحساباتهم كما أنهم لن يصدقوا أن أحداً قد يصدقهم لو ادعوه لأنفسهم مهما تخطوا كل الحدود والحسابات والوقار في تصديقهم ورؤيتهم لأنفسهم وفي اقتناعهم بتصديق كل الناس وكل أحد لهم في كل ما يزعمونه ويعتقدونه ويعلنونه من أمجادهم التي لن يقبل أحد أن يفضح ويهجو نفسه بإنكارها أو بالشك فيها أو بالعجز عن رؤيتها أو عن الاقتناع بها أو عن الركوع والاستسلام لها حتى ولو كانت من الأمجاد التي لا تستطيع الشموس ولا النجوم أن تعرف أنها قد مرت بها أو رأتها أو أنها قد مرت بمن رآها أو عرفها أو قد يراها أو يعرفها..!

أليست كل أمجاد قومنا هي من الأمجاد التي لم ترها أو تعرفها أو تمر بها الشموس أو النجوم أو تمر بمن رآها أو عرفها أو بمن سعد أو شقي بها ناصرة مكرّمة له أو هازمة مذلة مهينة له!

إن لنا إذن لفضلاً ومنة على الشموس والنجوم لأننا لم نرهقها بالتحديق في أمجادنا وفي الانبهار بها وفي محاولة تفسيرها وتعليمها والتعلم منها.. كما أن لنا كل هذا الفضل والمنّة على كل الآخرين لأننا لم نرهقهم شيئاً من هذا الإرهاق بالتحديق في أمجادنا وبالانبهار والإعجاب بها وبتفسيرها وبالخوف والخجل منها وبمنافستها ومحاولة اللحاق بها..!

أليس أصحاب الأمجاد المتفوقة التي تصنعها المواهب والطاقات والأخلاق المتفوقة مرهقين ومخيفين وهازمين ومذلّين ومتحدين ومنافسين للآخرين.. لغيرهم بكل القسوة والإحراج والترويع

والتهديد؟ أليس الفاقدون لهذه الأمجاد والمواهب والطاقات مريحين ومسعدين ومفرحين لمنافسيهم وخصومهم وللمبارين لهم؟

❀ ❀ ❀

بل إن قومنا ليفاخرون مفاخرات تزعج وتفجع كل شيء وكل أحد.. يفاخرون هذه المفاخرات لأن نبيّهم الوحيد الذي يرونه ويعلنونه ويزعمونه أعظم الأنبياء وآخر الأنبياء وكل الأنبياء بل وقاتل وملغي كل الأنبياء..

يفاخرون هذه المفاخرات لأن نبيّهم هذا قد هرب من مكانه وقومه المبعوث إليهم ذلك الهرب الأليم الحزين المذعور المتخفي بالليل والظلام المحتال الذي لم يفكر فيه أو يقبله أو يتحرك في تصوّره لا سقراط ولا المسيح حتى ولا على أجنحة الملائكة إلى فردوس الحوريات والغلمان المصنوعة آذانهم وأعناقهم وأيديهم وأصابعهم وجلودهم وثيابهم من اللؤلؤ والمرجان والذهب والسندس والحرير ومن أثداء وأرداف الحوريات ومن سررهن وأرائكهن.. المغزولة المنسوجة أجسادهم على مغازل ومناسج الإغراء والإغواء والجنس..!

.. النبي العربي الأحد الأوحد الأول الآخر.. تبعثه السماء إلى قومه محروساً بكل عضلات الإله وجبروته وتخطيطه وذكائه ودهائه ومعجزاته وأعوانه وجيوشه وشرطته وحراسه السماويين..!

- هذا النبي العربي يهرب بذلك الأسلوب من وطنه الذي بعث فيه ومن قومه الذين بعث إليهم والذين اختاره الله لهم كما هرب وكما جاءت أوصاف هربه..!

هل فطن العالم إلى ذلك أو عرفه؟ وكيف يمكن أن يكون حكمه عليه ورؤيته له حينئذٍ؟ أم لعل العالم مسقط للإنسان العربي حتى للنبي العربي من كل محاسبة ومحاكمة غافر له إنسانياً ومنطقياً كل ما يفعله ويفعل به. إن العالم لم يكن سخياً ورحيماً وغافراً متسامحاً مثلما كان كذلك ولا يزال كذلك في تعامله مع العرب.. تعامله النفسي والفكري والأخلاقي واللغوي وفي تعامله العملي وفي كل معاملاته لهم ومعهم.. لقد فعل ذلك ليكون محقراً ومهيناً..!

كم هي صعبة ومؤلمة بل وفاجعة أحياناً هي تفاسير ودلالات الرحمة والسخاء والغفران والتسامح؟ إن ذلك مؤذٍ ومؤلم ومهين أحياناً أكثر جداً من النقيض..!

ليتنا جئنا وكنا ممن يقسو عليهم العالم وممن يحاسبهم ويحاكمهم ويخافهم ويغار منهم ويحقد عليهم ويحسدهم لا ممن يرحمهم ويسخو ويشفق عليهم ويغفر لهم ويسامحهم ويصلي لهم وعليهم ومن أجلهم ويضحك لهم وفي وجوههم ويضحك متحدثاً عنهم وإليهم ويذرف الدموع الساخرة رثاء لهم وإشفاقاً عليهم.!

ليتنا جئنا تفوقاً وقوة يرهبان ويلعنان ولم نجيء عجزاً وتخلفاً يرحمان ويمدحان ويرثيان.. ما أقسى المديح إشفاقاً ورثاءً..!

ما أقسى المديح لمن يستحقون الذم واللوم والإشفاق..

.. ليتنا دموع في عيون الأعداء والخصوم وكل الأشرار وفي قلوبهم لا ضحكات أو ابتسامات ساخرة راثية، أي دموع خوف لا رثاء..

.. ما التفسير لهذا الهرب؟ لقد وجد المؤمنون له كل التفاسير وأجمل التفاسير وإن كانت كل التفاسير قد رفضت تفسيره وعجزت عن تفسيره. إنه ليست للتفاسير قوانين أو ضوابط أو علامات أو منطق أو قيود أو حدود بها تعرف وتقبل أو ترفض وتستنكر.. إنها لا تعلم أو تدرس أو تفهم.!

إن كل مؤمن لا بدّ أن يجد أصدق وأذكى التفاسير لإيمانه ولكل ما يؤمن به. إنه إذا آمن بأي شيء فلا بد أن يجد له هذه التفاسير التي هي الأذكى والأصدق. ولو آمن بنقيض هذا الذي آمن به لوجد له وفيه هذه التفاسير التي هي الأذكى والأصدق.. إن الإيمان يعني فقد كل التفكير والرؤية والتحاور مع الذات.. إنه لو آمن بتعدد الآلهة لوجد في ذلك كل الذكاء والصدق والجمال والمنطق، ولو آمن بتوحيدها أي بإله واحد فقط لوجد في إيمانه هذا كل ذلك أي كل الصدق والذكاء والجمال والمنطق..!

ولو آمن بالشيطان إلهاً لرضي عن إيمانه مثل رضاه عن إيمانه بالإله المذكور المعلوم المجهول..!

ما أعظم فجيعة المؤمن لو لم يؤمن بالإله ثم ذكرت له أوصافه وأفعاله..!

.. إن هذه إحدى علامات وخصائص كل مؤمن أو كل مؤمن عربي ومن كان وجاء في مستواه إن كان يوجد آخرون في مستواه أي في مستوى الإنسان العربي..!

لهذا فإنه لم يوجد معتدٍ على ذكاء الإنسان وعلى منطقه وكرامته وعلى رؤاه وأخلاقه وحياته وعلاقاته بغيره وعواطفه نحو غيره.. نحو مخالفه مثل إيمانه. إن الإيمان أعظم مخرّب لمعاني الإنسان..!

ما أضخم وأبشع الهزائم والفضائح والآلام والتشوّهات والمعوقات والبلادات والعداوات والأخطاء والخطايا والخسائر التي أوقعها والتي سوف يوقعها إيمان الإنسان بالإنسان وبحياته وبكل شيء بلا أي ثمن أو تعويض..!

.. ما أعظم مآسي الإنسان بمن جاؤوا إليه ليعلموه هذا الإيمان ويرسخوه فيه.. إنهم أقسى من كل أعدائه وإن لم يكونوا من أعدائه..!

ولا بدّ من معرفة الفرق بين الإيمان وبين العلم والمعرفة والاقتناع..!.. ماذا لو حاكم الإنسان إيمانه ومن ابتدعوا له الإيمان وعلموه إياه؟ كيف لو حاكم من آمن به الإنسان الإنسان؟

إنما من قال أنا مؤمن إنما يقول وإن كان لا يدري: أنا مغلق كل النوافذ بين كل شيء وبين كل معاني الإنسان في ذاتي..!

.. أنا معطل بل مخرب لكل طاقات الإنسان المتخلقة في تكويني..

.. إنه يقول دون أن يعرف: أنا لا أرى ولا أفكر ولا أحاسب أو أسائل أو أحتج أو أغضب أو

أنكر أو أرفض أو أشمئز أو أقاوم أو أشترط أو أطلب أو أطالب أو أجد أي فرق بين شيء وشيء.. بين أي شيء وجد وحدث وأي شيء ينبغي أن يوجد ويحدث لأني مؤمن..

.. أنا أرى الحشرة والعاهة والقبح والعذاب والخراب والدمار والعار والموت كل الجمال والحكمة والرحمة والعدل والعبقرية كما أرى كل شيء كل ذلك.. أرى جمال ونبل إلهي في أقبح وأنذل شيء.

.. أنا أرى هذه الرؤية لأني لا أرى ولا أستطيع أن أرى ولا أريد أن أرى وممنوع من أن أرى لأني مؤمن ولا إيمان إلّا بذلك..

.. إنه لا إيمان مع الرؤية ولا رؤية مع الإيمان أي الرؤية بالعقل والتفكير والأخلاق والعواطف والقلب وبالعيون أيضاً. إن الرؤية بالعيون يجب أن تكون رؤية بكل معاني الرائي.

فالمرئي بالعينين يجب أن يكون مرئياً بالعقل والفكر والقلب والعواطف والأخلاق وبالمحاسبة والمحاكمة والتفاسير وإلّا فلا يكون مرئياً.. إن العيون لا ترى وإنما يرى بها. إنها لا ترى بنفسها لنفسها ولكن ترى بغيرها لغيرها..!

إن للحيوان عيوناً ولكن هل يرى مهما رأى؟

❁ ❁ ❁

هل عجز قومنا عن الصعود إلى الطور الحضاري الإنساني الخلاق الذي صعد إليه الآخرون لأنهم أي قومنا عجزوا عن الصعود إلى الطور الذي يجعلهم يلدون مثل هذا الذي صنع صليبه ليصعد به فوق التاريخ.. ليمجد به التاريخ، أو يلدون مثل هذا الذي صنع سمه ليقتل به بداوة التاريخ وجبنه وهوانه وطغيانه وليدلل به على أن الموت بهذا السم بهذا الأسلوب بهذه البسالة والتحدي يذل الذل ويهزم الهزائم ويقهر القهر ويزرع ويثبت الحياة والقوة والتفوق والحضارة والحرية والأمان؟ هل يستطيع أن يقهر الجهل والبداوة من لا يستطيعون أن يقهروا القهر ويذلوا الذل؟

❁ ❁ ❁

قال هذا ويقوله كائن يقاسي حرباً لا هدنة ولا سلام فيها ولا مثيل لها في أي تفسير من تفاسيرها.. حرباً لم يقاس مثلها أي محاربين أو متحاربين.. حرباً بين رؤية هذا المكان وفكرته.. بين إرادته وقدرته.. بين أشواقه وتمنياته ومواجهاته.. بين أخلاق ومنطق ذاته وأخلاق ومنطق إلهه.. بين وجوده وشروطه.. وشروطه لوجوده ولكل وجود..

.. حرباً غير مرئية السلاح أو الجنود أو المكان.. حرباً ليس القاتل فيها غير المقتول وليس المقتول فيها غير القاتل، وليس فيها منتصر ومهزوم بل كل من فيها مهزوم، مهزوم.

.. إنها حرب الذات للذات. إنها أقسى الحروب ولكنها أكثر وأصدق وأنبل الحروب منطقاً وتفاسير وحوافز..

لن يكون إنساناً بمعاني الإنسان من لا يحارب هذه الحرب..

.. نعم، قاله المعذب المفجوع نيابة وتعويضاً وتكفيراً عن بلادة ونذالة وقبح وهوان وعذاب وافتضاح وعار وعبثية ووقاحة كل شيء وكل أحد.. كل إله وكل إنسان وكل حشرة.. كل نجم وكل قمر وكل شمس وكل مجرة وكل مجموعة كونية لا تعرف لماذا هي ولا من أين ولا أين ولا متى ولا كيف ولا ما الثمن أو الجزاء أو التفسير أو المصير..

.. لا تعرف من الفاعل ولا من أين جاء أو لماذا جاء ولا لماذا فعل..؟

قاله ويقوله بكل طاقات الاحتراق سائلاً متسائلاً:

كيف وجد من جرؤ وفكر وتوقح في عدوانه بل وجن لكي يريد ويستطيع أن يوجدني وأن يوجدني كما أوجدني في الذات والصيغة والزمان والمكان والأسلوب والمنطق والتفاسير والظروف التي بها وفيها أوجدني إن كان قد وجد هذا الموجد لي؟

وعلى أي قياس أو مقاس أو بأية حسابات جمالية أو فنية أو منطقية أو أخلاقية أو عاطفية أو نفسية أو شوقية أو شعرية أو دينية تعبدية أو حتى شهوانية طغيانية انتقامية اضطرارية جنونية عبثية.. ذاتية أو عالمية كونية.

ـ نعم، على أي قياس أو مقاس وبأي حساب رأى وقرّر وتجاسر أن يوجدني كما أوجدني أي هذا الذي أوجدني إن كان ممكناً أن يتهم أي كائن.. أي عاقل أو مجنون.. أي عابث أو جاد بأنه قد أوجدني لأجيء كما جئت، لأكون كما كنت، لأذهب كما ذهبت، كما سوف أذهب.. ما الفخر أو المجد أو السعادة أو اللذة أو العبقرية التي أرادها ووجدها موجدي في إيجاده لي إن وجد؟

.. قاله وكتبه من تعيش وتتفجر وتتوقح وتتصارع وتتناطح داخل ذاته في أعماق عقله وقلبه وضميره وأخلاقه وكل معانيه كل الأوقات كل أخطاء وخطايا وقباحات ووقاحات وعذاب وورطات كل هذا الوجود.. كل آلهته وإنسانه وكائناته ووحداته بل وكل حشراته. حتى حشراته تعذبه وتروعه وتفجعه بكل عذابها ونقائصها وضعفها وبكل كينوناتها..!

كيف جاءت وجاءت كما جاءت أي الحشرات وكل الكائنات؟

.. قاله وكتبه المحاسب المحاكم المعاقب لنفسه.. لكل معانيه بكل ما يجب وينبغي ويفترض أن يحاسب ويحاكم ويعاقب به كل شيء وكل أحد نفسه بل وأن يحاسب ويحاكم ويعاقب كل كائن.. كل وجود وموجود به مقسماً عليه أي على كل وجود وموجود..!

هل يوجد معذب مفجوع مثل من يريد أن يجد لكل وجود وموجود، تفسيراً معقولاً؟

هل يوجد أو حتى يتصور عذاب أو انفجاع مثل عذاب أو انفجاع من يحمل ويتحمل ويقرأ ويفسر ويحسب ويحاسب ويحصي ويعايش كل أخطاء الآلهة ويطالب بتصحيحها وإصلاحها أو يحاول ذلك؟ هل يطاق عذاب من يقرأ الآلهة بعقله أو تفكيره أو ضميره أو أخلاقه أو قلبه أو بعينيه أو بشيء من معانيه؟

ماذا لو أن الإله أو أي إله رأى وقرأ وفسّر وحاسب وحاكم نفسه؟ هل يستطيع حينئذٍ أن يجد أو يتصوّر عقاباً يكفي ليعاقب به نفسه على خطأ واحد أو خطيئة واحدة من أخطائه وخطاياه؟ كيف لم يستطع أن يفعل ذلك؟

ماذا لو أن محكمة من كون آخر مؤلفاً أعضاؤها أو قضاتها من ذلك الكون الآخر قدم إليها إله وخالق ومريد ومخطط ومصمم هذا الوجود لتحاكمه على أخطائه وخطاياه بل على شيء من أخطائه وخطاياه المفرقة لهذا الوجود.. لكل شيء فيه؟

هل يمكن أن تجد حينئذٍ هذه المحكمة أي عقاب تراه وترضاه عقاباً كافياً له، بل كافياً لأي ذنب من ذنوبه أو لأية غلطة من غلطاته أو لأية جهالة أو نزوة من جهالاته ونزواته أو لأية قباحة أو وقاحة من قباحاته ووقاحاته؟

ألا يمكن أن توجد يوماً ما هذه المحكمة وهذه المحاكمة؟

هل يمكن تصور ما لا بدّ أن يحدث حينئذٍ؟ هل يمكن؟

كيف أمكن أن يتصور الإنسان أن لهذا الوجود بكل صيغه وتفاسيره وبداياته ونهاياته مريداً ومدبراً مخططاً مصمماً خلاقاً راعياً مسؤولاً جالساً فوقه بكل الكبرياء والرضا والإعجاب بالنفس وعنها.. بكل معاني وتعبيرات الكسل والاسترخاء والتثاؤب والتحديق في مرآته ليسعد ويفرح بما يرى من جماله وجلاله؟

ثم كيف أمكن أن يتقبل ذلك عقله أو قلبه أو ضميره أو أخلاقه أو رؤاه أو حتى تقواه، حتى تقواه وتدينه؟

إن التصور والتقبل لهذا الكائن المزعوم إلهاً فوق الوجود الذي نراه ونعرفه ونقاسيه ونقاسي منه لخروج على كل تفاسير ومعاني التقوى والتديّن..!

إن من يعيش فيه أي قدر من التقوى والتدين الصحيحين الواعيين الصادقين لا بدّ أن يبرأ من ذلك وأن يعلن براءته.. إن المؤمن بهذا الكائن المزعوم إلهاً لهذا الوجود لبريء من كل معاني التديّن والتقوى مهما كانت وجاءت المزاعم واللغات والتعاليم والكتب المنزلة..!

.. إن من يحسبون أقوى الناس تقوى وتديّناً هم أبعد الناس عن كل تقوى وتديّن!

لهذا فإنه لا يوجد ولن يوجد أبعد عن كل معاني التديّن والتقوى مثل هؤلاء الذين يجيئون إلينا زاعمين أنهم رسل وأنبياء ووسطاء قادمون من عند هذا الكائن المزعوم إلهاً فوق هذا الكون ليعلمونا الإيمان به وليعلمونا جبروته وطغيانه واستبداده وكل أخلاقه وشهواته ورغباته..

ليحدثونا عن ذلك ويفرضوا علينا الإيمان به وبكماله وجماله..!

كيف يكون تقياً أو متديناً من يتهم إلهه بأنه المريد المدبّر الخالق لكل هذا القبح المفرق لهذا الوجود؟ بل كيف لا يكون أفجر الفاجرين؟ وكيف لا يستحق أقسى المحاكمات والعقوبات لابتداعه هذا الاتهام ولإصراره عليه؟

إن من أول وألزم الشروط على التقي المتدين ومن أول وألزم معانيه أن يحترم ويوقر وينزه من يتقي ومن يتدين ويدين له بكل الصيغ واللغات والتفاسير من كل ما يكره ويرفض وينكر ويؤذي ويشوه ويعاب الوصف والتخلق به ويستحي منه.

.. من كل ما يفجع ويعذب ويجرح العيون أو القلوب أو العقول أو الضمائر أو الأخلاق أو الحسابات أو التوقعات أو التمنيات.. من كل ما يخجل ويتأثم من أن يفعله أو يريده أو يرضى عمن يفعله ويريده..!

فهل من التوقير أو الاحترام أو التنزيه لأي كائن الاعتقاد أو الإعلان بأنه المريد المدبر الفاعل لكل شيء بكل صيغه ومعانيه وتفاسيره.

.. بكل بداياته ونهاياته؟ أليس ذلك أقسى وأوقح وأقبح إهانة؟

إذن هل يمكن أن يكون متهم إلهه بذلك تقياً أو متديناً أو عابداً له بل أو غير ساب له بكل لغات وبذاءات السب وبكل تفاسير السب وفجوره ووقاحاته وإهاناته؟

بل هل يمكن ألا يكون مسيئاً مهيناً معتدياً مستحقاً لكل العقوبات ولأقسى العقوبات؟

أليس من قال: إن لي إلهاً مريداً مخططاً صانعاً لكل هذا الكون بكل ما فيه إنما يقول: لي إله قاتل سارق مخرب مدمر ظالم معتدٍ مفسد ممرض مقعد مفقر قاسٍ متجبر متهور موقع بكل أحد وكل شيء كل التشوهات والعاهات والعيوب والنقائص والعجز والتعجيز والعذاب والافتضاح والفضائح والذعر والجبن والألم والهوان.

.. مصيب بكل ما يفجع ويستفظع ويستنكر وبكل ما تعاقب عليه كل الشرائع والأخلاق بل والأديان؟

أليست هذه الآثام بعض آثام صاحب هذا الكون إن كان له صاحب؟

إنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد موصوف بكل الشرور والآثام والنقائص مثل الإله.. مثل كل الآلهة.. ولا واصف لها بكل ذلك مثل المؤمن أو غير المؤمن بها..!

هل في داخل تكوين الإنسان قوة خفية خارقة لا يستطاع فهمها ولا تصحيحها ولا الانتصار عليها جعلته وتجعله عاجزاً عن رؤية وفهم ما لا يستطاع العجز عن رؤيته وفهمه كما جعلته قادراً على فهم ما لا يستطاع أو ينبغي أو يقبل فهمه وعلى الإيمان بما لا يستطاع أو يقبل أو يرضى الإيمان به بل جعلته يعادي ويخاصم ويلاعن ويقاتل ويقتل من أجل أن يؤمن وأن يجعل كل الآخرين.. كل العالمين يؤمنون به بما لا يستطاع الإيمان به؟

ولعله لم يوجد غير الإنسان أو مثل الإنسان من يعاقب ضخامة ذكائه بضخامة غبائه ويسيء إلى أمجاد ذكائه بخطايا غبائه..!

إن الإنسان لم يعاقب ويهن ذكاءه وصدقه مثلما عاقبهما وأهانهما بإيمانه بآلهته وكذا فعل بإبائه وكرامته بتعامله بآلهته ومعها ومن أجلها وباسمها ودفاعاً عنها وتعبّداً وتفسيراً لها وتخاصماً وتعادياً وتلاعناً وتخالفاً وتحارباً بها.!

إن طرد الآلهة من هذا الكون ومن حياة الإنسان أو منعها من المجيء لو كان ذلك ممكناً لأعظم وأتقى إنقاذ لها من نفسها ومن الإنسان.. من إيمانه بها وأوصافه وتفاسيره لها وتعامله بها ومعها، وإنه أي هذا الطرد أو المنع لأعظم وأتقى إنقاذ للإنسان منها مؤمناً بها وعابداً مطيعاً متصوراً قارئاً راثياً لها متحدثاً عنها وإليها خائفاً منها مصلياً راكعاً ساجداً فوق التراب بكل ذاته وكبريائه وأعضائه باحثاً في التراب عن كل فرحها أي الآلهة ورضاها ومجدها وسعادتها وكرامتها وكبريائها وأشواقها وانتظارها أي في التراب..!

إن على كل باحث عن إلهه أن يبحث عنه في التراب..!

أليس من يتعبّد ويتقرّب لإلهه بالسجود بكل جسده وأعضائه وعقله وقلبه وأشواقه وأخلاقه على التراب إنما يريد أن يصل إلى إلهه من طريق التراب وفي التراب وبالتراب وأن يشتري كل رضاه وثوابه بالتراب راكعاً ساجداً عليه؟

إنه يجعل التراب مسجوداً عليه أغلى وأتقى وأفضل ثمن للإله وثمن يقدم للإله ويشترى به حبه ورضاه وسعادته وثوابه وصداقته.. إن أصدق أوصاف الإله أنه الكائن الترابي..!

.. إنه لا يستقبل عبيده راضياً مثلما يستقبلهم في التراب وفوق التراب.

۞ ۞ ۞

إن الإنسان لم يفقد ويهن ويشتم ويشوه كل عقله وذكائه ورؤيته وشرفه ونزاهته وكرامته وحبه وتقواه وتديّنه وإيمانه واحترامه لتعامله ولمن يتعامل معه إلّا حينما آمن وأعلن وعلم أن هناك كائناً مطلق القدرة والكمال والجمال هو وحده الذي أراد ودبر وصمّم وخلق وصاغ وولد كل هذا الوجود وكل وجود بكل ما فيه ثم استوى فوقه ليرى ويسمع ويفرح ويضحك ويبتسم ويغني لنفسه وينشدها كل أناشيد المديح والتمجيد بكل الإعجاب والرضا والاسترخاء والتثاؤب والإصغاء إلى المادحين الممجدين الهاتفين الداعين المستغيثين المتضرعين المصلين الباكين الصارخين دون أن يعرف أو يشعر أن عليه أن يسمع أو يستجيب أو يغيث أو يرحم أو أن ينتظر منه ذلك أو يكون مطالباً بشيء من ذلك.

.. دون أن يظهر أو يتكلم أو يعتذر أو يخجل أو يأسى أو يبكي أو يعاقب نفسه على كل ما فعل. فاعل وآمر ومخاطب ومعايش كل شيء وكل أحد لا يرى ولا يسمع ولا ينتظر. هل صدق ذلك أحد؟

إن الإيمان بهذا الكائن فوق هذا الوجود يعني حتماً بكل التفاسير الحكم عليه بكل الجرائم والفضائح والسفاهات والعذاب والتعيير والتحقير والتوريط..!

يعني الإلقاء بكل حواسه وأحاسيسه ومعانيه وأخلاقه في كل الأوحال والآثام والعار والنقائص والفسوق أو يعني اتهامه أو وصفه بكل ذلك وبأقسى من كل ذلك..!

فالمؤمنون به يحكمون عليه بكل ذلك أو يتهمونه ويصفونه ويمدحونه ويعبدونه ويصلون له بكل ذلك ظالمين أو مظلومين أو ظالمين مظلومين، ظالماً أو مظلوماً أو ظالماً مظلوماً..!

.. هذا الكائن إذن يا له من أخسر وأردأ كائن محاصر بأقبح وأفجع وأبلد وأقسى وأنذل الظروف والحظوظ والتفاسير والأوصاف..!

لهذا هل يوجد محتاج إلى الإنقاذ العالمي مثل الإله لإنقاذه من إيمان الإنسان به ومن تصوراته ورؤاه وأوصافه ومدائحه وعباداته وصلواته له وتحدثه عنه..

أو مثل الإنسان لإنقاذه من إيمانه بهذا الإله وبأي إله آخر؟

إن أي كائن لم يشوّه أو يعاقب أو يشتم مثلما شوّه وعوقب وشتم الإله بإيمان الإنسان به وعلاقاته به.. وإن أي كائن لم يعاقب ويشوّه ويشتم نفسه مثلما فعل الإنسان بنفسه كل ذلك بإيمانه بالإله وبعلاقاته به..!

إنه لا شيء يفجع مثل العجز عن فهم ذلك..!

إن فك الارتباط بين الإله والإنسان وتشييد أقوى وأعلى السدود والحدود والحواجز المغلقة أبداً والفاصلة بينهما كل معاني الفصل حيث لا يتلاقيان أو يتخاطبان أو يتعاملان أو يدري أحدهما بالآخر أو يذكره أو يتذكره أو يعرفه أو يصفه أو يشتاق إليه أو يتمناه أو يعبده أو يطالبه بأن يعبده..

آه ما أقبح هذا عابداً وأقبح هذا معبوداً. ما أقبح العابد والمعبود..

ـ نعم، إن ذلك لو حدث لمن أعظم وأنفع الإنجازات العالمية الكونية التي لم يحاول قط تحقيقها ولا حتى التفكير في تحقيقها أو الحديث عن ذلك..! ليت ذلك حدث. لماذا لم يحدث؟. إن فيه لكل الحماية لكرامة الإله ولكل حواسه وأحاسيسه ومعانيه من كل اعتداء وإيذاء وإزعاج وتعذيب وتوريط وتكليف وإهانة وتحديات فاجعة بل وصفعات ولطمات قبيحة..!

أما للإنسان فإن فيه أضخم الحماية لكل معانيه وليست الحماية كلها..

أتمنى أن أتحول إلى اعتذار إلى كل الآلهة عما فعله وأوقعه بها البشر بإيمانهم بها وبما عناه ويعنيه إيمانهم بها من تصورات وتفاسير وعلاقات لا تقبل أو تغفر أو تحتمل بأي مقياس من مقاييس العقل أو الأخلاق أو الشرف أو الجمال أو الفن أو الحب أو القدرة أو الرؤية أو المعاني الجيدة بل أو المعاني الرديئة جداً..

إن هذا الوجود لو حوكم أو فسر كله مجتمعاً كتلة أو صورة أو مسؤولية واحدة أو منطقاً أو تخطيطاً واحداً لكان محتوماً أن يجيء الحكم عليه والتفسير له بأنه كل القبح والدمامة والسفاهة والجهالة والوقاحة والظلم والعدوان والفساد والعذاب والتعذيب والعبث والأخطاء والخطايا بل وكل الفسوق والفجور والزندقة والعار والافتضاح والجنون والخروج على كل العقول والمنطق والأخلاق والكرامة والنبل والوقار. وهل يوجد أو يمكن أن يوجد أي شيء من ذلك خارج هذا الوجود أو أي وجود؟ أليس الوجود هو كل هذا؟

إذن ماذا يمكن أن يكون المتهم بكل ذلك.. بأنه كل مريده ومخططه وخالقه وعاشقه والنائم المستوى فوقه بكل العظمة والكبرياء والمباهاة والإعلان عن النفس وبالنفس، مطالباً بأن تركع وتسجد

وتذل له كل الجباه والهامات والقامات والذوات والعقول والأخلاق شكراً وتعبّداً له على ذلك ولأنه كذلك ولأنه لم يوجد أو ير إلّا في ذلك؟

كيف أمكن أن يوجد من يتصور كائناً يسميه إلهاً ليتهمه بأنه هو صاحب هذا الوجود الذي ذكرت هنا بعض أوصافه ليذهب يعبده ويسعده ويفرحه ويمتدحه ويتملّقه ويرضيه لينال كل حبه وجزائه ومكافآته باتهامه له بذلك وبإعلانه لاتهامه هذا بل وبتعليمه وتدريسه لهذا الاتهام له أي بأنه هو وحده صاحب كل هذا الوجود والمسؤول عنه بكل وحداته وصفاته وبداياته ونهاياته وأخلاقه وتفاسيره وحوافزه وأهدافه أي هذا الوجود وبكل مادياته ومعنوياته؟

هل يطاق هذا الاتهام؟ هل يستطاع تحمّله؟ هل يمكن أن يقبل أي كائن مهما كان قبحه وفحشه ونذالته وبلادته وهوانه وافتضاحه وطغيانه وعدوانه أن يكون متهماً به؟

إنه اتهام تهون وتصغر بل وتغفر أمامه كل الاتهامات؟

هل وجد أو يوجد غير الإنسان يحول كل الأوصاف القبيحة الدميمة الرديئة البليدة الأليمة الفاضحة المرفوضة المشتومة المذمومة المهانة المهينة إلى أعظم الأوصاف.. إلى كل الأوصاف العظيمة لكي يصف بها إلهه.. لكي يجعلها ويعلنها ويفسرها ويعلمها بأنها وعلى أنها كل أوصاف إلهه العظيمة؟

كم يستحق هذا المتهم بذلك أي الإله ـ كم يستحق من الرثاء والرحمة والإشفاق والإنقاذ والأسى عليه والدفاع عنه.. هذا المتهم المزعوم والمعلن والمعلم والمفسر بأنه المستحق لكل التأليه والتقديس والعبادة والشكر والإعجاب والتهنئة بل والحسد لأنه متهم بذلك؟

لقد كان المفروض والمطلوب والواجب أن يحوّل الإنسان كل إيمانه وتقواه وتديّنه إلى اعتذار عن اتهامه للإله بذلك أي بأنه هو وحده صاحب هذا الوجود والمسؤول عنه لا أن يصنع من اتهامه هذا أفدح وأقسى وأخطر وأعجب إله يفرض عليه أن يهبه بكل المسكنة والهوان كل إيمانه وتقواه وتدينه ويستعبد بكل الإذلال لكل عقله وقلبه وذكائه وكرامته ورؤاه وأخلاقه ولكل معانيه وحتى لكل لغاته ومحاوراته ومخاطباته وعلاقاته..!

هبني يا عقلي مزيداً من الغباء بل كل الغباء لكي أحاول الاقتناع أو حتى الظن بأن ما حدث في هذه القضية قد حدث أي بأن الإنسان قد اعتقد وآمن وأعلن أن كائناً عاقلاً قد أراد وخطط وصاغ وصنع هذا الوجود وأن هذا الكائن مستوٍ أو مستلقٍ فوقه أي فوق هذا الوجود يراه ويرعاه ويرضاه ويعامله ويخاطبه بكل البهجة والسرور والإعجاب وأنه بهذا الاعتقاد والإعلان والإيمان يقدس ويعبد ويحترم ويرضي هذا الكائن ويشتري فردوسه وينجو من جحيمه..!

لتستسلم وتتبلّد كل الاستسلام والتبلّد ولتصب بكل العجز عن الرؤية يا عقلي لئلا تحترق وتحرقني بتفكيري في هذه القضية وبتحديقي فيها وبمحاسبتي لها وبانفجاعي بها وبمساءلاتي عنها..

.. لتمت يا عقلي، يا فكري، يا رؤيتي، يا مساءلاتي ومحاسباتي فإن الحياة لا تحيى أو تقبل أو

تحتمل أو ترضى أو تعايش أو تمجّد أو يدافع عنها أو يشكر أو يمدح أو يعبد فاعلها إلّا بموت وخمود وصمت وغيبة العقل والتفكير والرؤية والمساءلة والمحاسبة.

.. لتهزم يا عقلي يا كل معاني الإنسان فيّ كما هزمت كل العقول وكل معاني الإنسان في كل من يعايشون ويساكنون ويفسّرون ويقرؤون هذا الوجود بكل الإعجاب والانبهار والرضا والتعبد والصلاة والتأليه والتمجيد...

لتستعر أو تقترض يا عقلي شيئاً أي شيء من بلادة آلهة هذا الوجود لتنظر إلى وجهك ونفسك ولأنظر إلى وجهي ونفسي في المرآة وبالعيون التي تنظر بها وفيها آلهة هذا الوجود إلى نفسها ووجوهها وإلى كل شيء كان أو سوف يكون أو لن يكون..

لماذا يا عقلي شحّت عليك الآلهة كل هذا الشح المعذب الفاجع المتحول إلى حرائق في كل رؤاك وحساباتك وتفاسيرك ومعاملاتك واشتراطاتك ومحاكماتك وتساؤلاتك.

ـ نعم، لماذا شحّت عليك هذا الشح يا عقلي فلم تهبك أي الآلهة من بلاداتها وبلهها وسفهها وهوانها وكذبها ودماماتها وفضائحها التي وسعت وصاغت كل هذا الكون.

ـ فلم تهبك من ذلك ما يجعلك تتقبّل وترضى وتسعد وتؤمن وتفرح وتعجب وترى كل القبح والدمامة والظلم والجهل والغباء والعبث والخطأ والضلال والعذاب والتعذيب والعار والجنون.

ـ نعم، وترى كل ذلك كل الجمال والعدل والعلم والذكاء والجد والصواب والهدى والسعادة والكرامة والعقل والمنطق والحب والتقوى كما وهبت الآخرين ذلك بكل السخاء والإغداق والإغراق والديمومة فجعلتهم يرون كل ذلك كذلك.. يرون كل شيء هذه الرؤية..

.. يرون في أدنى حشرة كل عقول وضمائر وأخلاق وعبقريات كل الآلهة؟ لماذا يا عقلي لم تأت الآلهة فاعلة لشيء من العدل في تقسيمها وتوزيعها لبلاداتها وتبلدها وفي ابتلاعها لكل القبائح والفضائح والمخازي والآثام والنقائص والتشوهات والعاهات والآلام وفي اشتهائها وخلقها لكل ذلك محولة له إلى معابد وعبادات وديانات ونبوات وألوهيات وكعبات وإلى كتب مقدسة تنزل وتحفظ وتنشد وتفسر وتعلم ويصلى بها ولها ويعادى ويحاسب كل شيء باسمها ومن أجلها لكي تخمد وتفسد وتخدع وتضل وتشوه وتضعف وتستعبد وتذل بل وتقتل بها كل عقول ورؤى وتساؤلات واشتراطات وأخلاق وبسالة وكرامة وغضب الأكثرين بل الجميع ثم لتجعل أفراداً معدودين يحسبون شذوذاً وغرباء في كل مجتمعاتهم يقاسون من ذلك كل أهوال الانفجاع والاغتراب والاشمئزاز والاستنكار والاصطدام والرفض والمقاومة بلا أي معين أو نصير لا بشيء من معانيه ولا بشيء من عضلاته أو حتى من كلماته؟

ما أقسى عذاب من يتعذبون برؤى ومحاسبات وشروط وتفاسير ومحاكمات عقولهم وأخلاقهم وضمائرهم ومعانيهم الإنسانية. لهذا ما أقل هؤلاء وأصعب أن يوجدوا..!

لقد جاءت الآلهة ماكرة.. ماكرة جداً في هذه القضية مع أنها أعجز الكائنات عن المكر الذكي

وأجهلها به بلا خلاف. لقد جاء أسلوب مكرها في هذه القضية إن جاءت شحيحة جداً في إيجادها لهؤلاء الذين يتعاملون ويتعذبون ويقرؤون ويفسرون ويحاسبون الأشياء بعقولهم ورؤاهم وأخلاقهم وضمائرهم ومعانيهم الإنسانية.. لأن هؤلاء لو جاؤوا الأكثرين لما وجدت من تعامل أو تخاطب أو من يعاملها أو يخاطبها أو يعترف بوجودها أعني الآلهة.!

ماذا لو أن كل العقول والعيون والأخلاق والضمائر والمشاعر جاءت متعاملة بطاقاتها ووظائفها المزعومة والمطلوبة والمفترضة؟ هل كان يمكن أن توجد حينئذٍ كلمة: اللّٰه أكبر أو اللّٰه أعلم أو اللّٰه أرحم أو اللّٰه أكرم أو اللّٰه أحكم أو اللّٰه أقدر أو أقوى أو اللّٰه هنا أو كان هنا أو مرّ من هنا أو قد يمر من هنا؟

أو كلمة: ما أجمل هذا أو أفضل هذا أو أنفع هذا أو أعقل هذا أو أعدل هذا أو أشرف هذا أو أسعد هذا أو أحكم هذا أو أتقى هذا أو أعظم هذا؟

إن الإنسان يرى الشيء أو الوجود أو الكون.. يراه ويعتقده ويعلنه جميلاً أو عظيماً أو عبقرياً أو فنياً أو منطقياً أو أخلاقياً أو مقبولاً أو معقولاً أو إلهاً أو يراه ويعتقده ويعلنه ويفسّره كل ذلك لا لأنه كذلك أو شيء من ذلك بل وهو نقيض وإهانة وتشويه وسب لكل ذلك ولكل شيء، ولكنه أي الإنسان يرى الشيء والوجود والكون هذه الرؤية ويعتقده ويعلنه هذا الاعتقاد والإعلان لأنه قد وجد ووجد فيه ومنه ولأنه قد حكم عليه بأن يساكنه ويعايشه ويعامله ويجده ويقرأه ويفسره ويحيا به وفيه ومعه وبألا يجد أو يعامل أو يعايش سواه.. ماذا لو وجد الإنسان إلهاً وكوناً آخرين جاءا كما ينبغي أن يجيئا؟ ماذا يمكن أن يقول ويرى حينئذٍ في الإله والكون اللذين وجدا؟

.. بدون هذا التفسير هل كان ممكناً أن يعتقد أو يقول أي إنسان أو أي كائن آخر إن كل ما في هذا الوجود من حشرات ووحوش وآلام وأمراض وأوبئة وتشوّهات وعاهات وموت وجرائم ومجرمين وجنون ومجانين وظالمين ومظلومين وكفر وكافرين وعدوان ومعتدين وسفالات ونزالات وتناقضات وجهالات وبلادات وعداوات وعبث وعار وافتضاح وخزي وسقوط ونهايات قبيحة مدمرة - أن يقول ويعتقد ويعلن أن كل ذلك ليس إلّا شيئاً من أعظم وأجمل الصيغ والصور والتفاسير والأزياء والمعارض لحكمة ورحمة ومحبة وقدرة وعبقرية وفنون أعظم إله، بل وأن كل ذلك ليس إلّا أعظم وأقوى الدعاة إلى الإيمان بهذا الإله وبأنه كل الجمال والحب والرحمة والحكمة والقدرة والعبقرية والشهامة والكرامة والإحسان والتفضل، وأن كل الأديان والنبوات والكتب المقدسة إنما جاءت لتعلم ذلك وتدعو إليه وتبشر به؟

لو أن هذه الآفات والفظائع التي لا حدود لقبحها وفحشها وخروجها على كل المعقول والمقبول لم توجد فلم يتدرب الإنسان على رؤيتها ومواجهتها ومعايشتها ومعاملتها والتعامل بها.

- لو أن ذلك لم يحدث فهل كان يمكن أن يتصور أي الإنسان أن أي كائن قد يريدها أو يدبّرها أو يفعلها أو يخلقها أو يقبلها أو يغفرها مهما كان خبثه وجهله وعجزه وهوانه ونذالته وفجوره

فكيف يتصور أن فاعل ذلك هو أعظم إله يستحق أن تهون وتذل وتركع وتسجد له كل الهامات والقامات والجباه والعقول والأخلاق شكراً له على ما فعل؟

ماذا لو أن الإنسان لم يجد الإله كما وجده أو كما اعتقد وقيل له إنه وجده بكل أوصافه وأخلاقه التي يفسّرها ويصورها ويعلن عنها هذا الوجود فلم يرض عقله وأخلاقه وحياته وكل شيء فيه على التعامل معه والرضا به وعلى تفسيره أعظم وأجمل التفاسير.

ـ نعم، ماذا لو أن ذلك لم يحدث؟ أليس محتوماً حينئذٍ أن يصاب بكل الصدمات والفواجع النفسية والعقلية والأخلاقية والفنية لو عرض عليه شيء من تصور هذا الإله ومن صوره المعلقة والمعروضة والمرسومة والمنحوتة فوق وداخل كل شيء في هذا الكون؟

إنه لو لم يوجد أي شيء أو أحد مما وجد ثم تجمعت كل العقول والتصورات والتمنيات والمواهب الفنية والإبداعية لتتصور أي شيء ترضاه وتقبله وتصممه وتخلقه لما أمكن أن تجد هذا الشيء في هذا الوجود الذي وجد حتى ولا في تصورها. إنها حينئذٍ لن توجد شيئاً مما وجد أو مثل شيء مما وجد حتى ولا الإله ولا الملائكة ولا الأنبياء لأنها لن تستطيع تصوره فكيف تستطيع أن تقبله أو ترضاه أو تخططه وتخلقه؟

إن كل شيء في هذا الوجود.. كل شيء قد وجد حتى الآلهة والأنبياء وسكان السماء خارج بكل صيغه ومعانيه وأهدافه وحوافزه وتفاسيره وبداياته ونهاياته على كل المقاييس والنماذج والعقول والتمنيات والاشتراطات والجمال والتفاسير بل وشاتم محقر فاجع لها..

لقد حكم على العقل بأن يكون خارجاً على العقل وضد العقل وبأن يكون مفسراً ومؤيداً لما هو كل الخروج على العقل ولكل ما هو مضاد لكل العقل..

لقد حكم على العقل بأن يجيء محكوماً في صيغة حاكم، مهزوماً في صيغة منتصر، مأموراً في صيغة آمر، أعظم كاذب في صيغة أعظم صادق، أذل مستعبد في صيغة أعز وأقوى وأعظم وأنبل حر محرر..

إذن هل يوجد أو يتصور أذل أو أخسر من العقل؟

إن المأساة أن أقوى وأعظم ما في هذا الوجود يتحول إلى أخسر وأضعف ما فيه.. أليس العقل كذلك؟ أليس الإله كذلك؟

إنه لا شيء كالعقل تحول إلى كل الهوان والاستعباد والتزوير والتضليل والخداع والانخداع وإلى تقبل وتفسير ما لا يمكن تقبله وما لا تفسير له.. تحول إلى تفسير لأقبح وأردأ وأغبى وأنذل الأشياء بأجمل وأذكى وأعظم وأنبل التفاسير..!

إنه لم يسخر مثله ليكون ضد نفسه وعدو نفسه ومحقر نفسه.. إن أي شيء لم يخضع ويروض نفسه ليكون كل الخروج على نفسه وكل الإذلال لها مثل العقل..!

إنه لا يوجد محتاج إلى إنقاذه من نفسه مثل من يفترض فيه ويطلب وينتظر منه أن يكون هو

كل الإنقاذ والمنقذين أي مثل العقل.. إنه لا يساوي العقل ويتفوق عليه في هذه القضية غير الإله..!

ما أتعس حظوظك وأقسى ورطتك أيها الإنسان إذا كان المرجو الوحيد لإنقاذك أي عقلك هو أول ما يحتاج إلى الإنقاذ فيك..! إنك أيها الإنسان لا تستطيع أن تهتدي إلّا بعقلك الذي هو كل ضلالك.. كل قادتك إلى كل ضلالك.. الذي هو كل مفسر ومسوغ ومشرّع وممجد لكل ضلالك..!

إذن أيها الإنسان هل يكفي كل الرثاء أن يكون شيئاً من الرثاء الذي يجب لك؟

إن الإنسان لا يرى لأن له عينين، ولا يسمع لأن له أذنين، ولا يرحم أو يعطف أو يحنو لأن له قلباً، ولا يحس لأن له مشاعر وأحاسيس، ولا يتدين لأن له ديناً، ولا يحترم الآلهة ولا معاني الآلهة لأن له إلهاً، ولا يلتزم بشيء من معاني التعبّد والصلاة والإيمان لأنه يتعبد ويصلي ويؤمن..

إن الإنسان خارج على كل معاني الإنسان ومضاد لها لأنه إنسان..!

كما أنه لا يعقل لأن له عقلاً.. كما أنه مضاد للعقل وخارج على كل العقل في كل رؤاه وعقائده واقتناعاته وأديانه وتفاسيره لكل شيء لأن له عقلاً.. إنه ليس كذلك مع أن له عقلاً بل هو كذلك لأن له عقلاً..!

إن ما هو مفروض أن يكون سبباً للشيء وصانعاً للشيء قد أصبح ضد الشيء ومانعاً من كينونة الشيء..

إن المشكلة الصعبة التي لا علاج لها أنه لا يوجد خارج العقل أو الكون من يصححه أو يعلمه أو يحاسبه أو يحاكمه على أخطائه وخطاياه أو من يحميه ويمنعه منها أو يفسرها ويعددها له أو يدله عليها كما لا يوجد خارجه نموذج يقلده أو ينافسه أو يتعلم منه أو يهتدي به أو يسابقه أو يهدده لكي يحاول أن يكون أعظم أو أعلم أو أعقل أو أقوى مما كان لئلا يسبق ويقهر ويهزم ويصبح متخلفاً عن مسابقه..!

لقد جاءت النتيجة هنا قبيحة وأليمة ورديئة مثل النتيجة التي جاءت من كون الإله واحداً ووحيداً لتكون ذاته هي كل رؤاه ومثله ونماذجه وأشواقه وتطلعاته وأفراحه ومبارزيه ومنافسيه ومعلميه وكل فنونه وقراءاته وقدراته ومبارياته بل وكل آبائه وأبنائه وأزواجه وعشيقاته ومحظياته وكل محاوريه وواعظيه ومحرّضيه وناقديه ومهدّديه ومحاسبيه ومحاكميه.. ليكون ويظل كما يصوره ويرسمه ويعرضه هذا الكون السخيف الأليم الفاجع الخارج على كل الحسابات العقلية والأخلاقية والفنية..!

لهذا كان محتوماً ألا يتخطى أو يغير أو يصحح أو ينقد ذاته أو أن يجد أو أن يرى فيها أي عيب أو نقص أو قبح أو ضعف أو خطأ أو تشوّه أو عدوان أو عبث أو سفه مهما كانت كل ذلك.. كما كان محتوماً ألا يحاورها أو يسائلها أو يحاسبها أو يحاكمها ليعاقبها ويصححها أي ذاته مهما استحقت كل المساءلات والمحاسبات والمحاكمات والعقوبات..!

ليت آلهة كثيرين جاؤوا متبارين متنافسين متسابقين متخاصمين متحاورين متحاسدين ليصحح ويعلم ويرهب ويحرك بعضهم بعضاً..

.. أليس ذلك أفضل وأنفع وأقوى من إله واحد جامد، جامد كما رأينا ووجدنا وجربنا وخسرنا وفجعنا؟

ماذا لو لم يكن للبشر في كل أحقاب وجودهم إلّا حاكم واحد وقائد واحد وعالم واحد وفيلسوف ومفكر واحد ومبتكر واحد وشاعر واحد وكاتب واحد وعقل واحد وقلب واحد؟

أليس أبشع وأخطر وأردأ من هذا ألا يكون لهم وللكون ولكل شيء إلّا إله واحد وخالق واحد بصيغة وولادة واحدة.. بطفولة واحدة وعمر واحد لا يتخطاهما إلى الشباب أو الرجولة أو الكهولة أو إلى تبديل أو تغيير أي شيء فيه؟

الإله طفولته وبدايته هي كل أطوار وجوده.. كيف قبل أو حدث هذا؟

حتى المرآة أنه لم يصنع أو يستورد أو يسرق أو يغتصب لنفسه مرآة لكي يرى بها شيئاً من ذاته ووجهه..!

ولعل الاعتقاد بوحدانية الإله إنما أوحت به وأملته وعلّمته وحدانية السلطان والخليفة والقائد والحاكم وشيخ القبيلة ورب الأسرة المتوارثة المتأصلة المنفذة وكذلك رغبة كل إنسان أو كل كائن في أن يكون وحده الأقوى والأعلم والأكبر والأجمل والأشهر والآمر الناهي المطاع المقدس المحكم المرجوع إليه وحده لا شريك له ولا ند ولا مثيل له.

أليست الرغبة في هذه الوحدانية أصالة إنسانية وتاريخاً إنسانياً؟

لقد حوّل البشر أنانياتهم ورغباتهم وسفاهاتهم وكبرياءهم وقبحهم إلى تصورات وأوصاف للإله ولهذا جعلوه مثلهم يحب ويكره.. يرضى ويغضب.. يريد ويشتهي ويتكبر.. يفرح ويحزن.. يصادق ويعادي.. يحاسب ويحاكم ويعاقب ويقسو في ذلك.. يمدح نفسه ويمجدها.. يطالب بأن يمدح ويعبد ويسجد ويركع ويصلى له ويرشو على ذلك ويعد بالرشوة عليه بل ويجن ويصغر ويسخف جداً رغبة في ذلك ومطالبة به.. ويذوب إعجاباً ورضاً وحباً ومدحاً لمن يفعلون له وبه ذلك حتى ليصنع الفردوس بكل حورياته وغلمانه وتفاهاته رشوة لمادحيه..!

إنهم يرون الإله كذلك.. كل يرى إلهه كذلك لأنهم هم كذلك أي يريدون لأنفسهم ذلك..

لقد فسّر المؤمنون إلههم بأصغر ما في أنفسهم وأخلاقهم من تفاسير..!

ولعلهم لم يحرموه أي الإله من أن يكون له زوجة أو ولد أو أي قريب أو رفيق أو رفيقة إلّا خوفاً على وحدانيته من المنافسة أو المشاركة أو الضعف أو الاتهام بذلك..!

كيف ينزّهونه من أن يكون له زوجة أو أبناء أو أقارب وهم يمدحونه ويصفونه بأنه يبغض ويحقد وينتقم ويمكر ويخدع ويكيد ويعاقب ويرشو ويطالب بالمديح ويجن فرحاً بالمديح والمادحين ويرسل الرسل وينزل الأديان والكتب المقدسة لتعليم مديحه ويحترق غضباً وغيرة من أية لغة من لغات المنافسة والمشاركة؟

.. كيف ينزّهونه من الأبناء والآباء والأقارب والزوجات بل والعشيقات وهم يرون أنهم يمدحونه

ويمجدونه ويعبدونه باعتقادهم وإعلانهم وتعاليمهم بأنه هو وحده المريد والمدبر والمخطط والخالق بكل الرضا والإعجاب لكل هذا الوجود ولكل ما فيه ولكل من فيه؟ مريد ومخطط وخالق هذا الوجود كيف يمكن أو يجوز تنزيهه من أي شيء رديء أو قبيح أو بليد؟

.. لتمت كل العيون والآذان والعقول والأخلاق والضمائر والقلوب والمحاسبات بل والتديّن والتقوى والنزاهة لئلا ترى أو تسمع أو تفهم أو تعرف أو تحاسب أو تسأل أو تسائل أو تصرخ، تصرخ أو تعلم أنها مركبة في الإنسان وأن كل انتماءاتها إلى الإنسان وأنها كل أمجاد الإنسان وأن كل أمجادها بانتمائها إلى الإنسان الذي تصور وأراد وخطط وخلق هذا الإله والذي تصوره وأراده وخططه وخلقه وصاغه هذا الإله..!

أيهما يستحق الرثاء أكثر: الإنسان الذي أراد وخطط وأخرج هذا الإله أم الإله الذي أراد وخطط وصاغ هذا الإنسان؟ أيهما يستحق أقسى العقاب؟

كيف قبل أو يقبل أي كائن أن يكون خالق الإله أو خالق الإنسان؟

هل الإله جناية إلهية على الإنسان أم هو جناية إنسانية على الإنسان وعلى الإله.. على اسم الإله؟

إن كان الإله هو الذي أوجد الإنسان كما أوجده وكما وجد فهل يستطاع حينئذٍ تصور عقاب يكفي عقاباً للإله؟

وإن كان الإنسان هو الذي أوجد الإله ليجعله متهماً بكل شيء ومسؤولاً عن كل شيء فهل يوجد مثله في قبح وبلادة وضخامة تزويره وجنايته على نفسه وعلى هذا الإله.. على اسم هذا الإله؟

إن المجني عليه في هذا الافتراض هو الجاني أي هو الإنسان وأيضاً هو اسم الإله..!

وأي الافتراضين أقل قبحاً وإيذاء وأهوالاً في النتائج؟

إن البشر لم يعتدوا ويخسروا ويقبحوا ويخطئوا أو يبلدوا ويجهلوا ويكذبوا ويأثموا في أي تصور أو ابتكار من تصوراتهم وابتكاراتهم في كل أطوار وخطوات وجودهم مثلما فعلوا في تصورهم وابتكارهم للآلهة ولأوصافها وأخلاقها ومنطقها وحياتها ولكل صيغ وتفاسير وجودها وبقائها وطلباتها ورغباتها وأرباحها وخسائرها أي الآلهة والأرباح والخسائر منها وبها..!

هل تستطيع كل ابتكاراتهم أن تكون كفارة عن هذا الابتكار؟

.. إن هذا التصور والابتكار لهما أقسى وأشمل تفاسير التحقير والتهوين والتعذيب والتوريط والتجهيل والسباب للمتصور المبتكر ولما تصوره وابتكره أي للآلهة.. إن مواهب ومزايا وعبقريات الإنسان لم تهن وتحقر وتشتم مثلما أهينت وحقّرت وشتمت بهذا التصور والابتكار..!

إن كل العزاء لمن وقع عليه هذا التصور والابتكار وأوقعا به أنه لن يعلم أن أحداً قد تصوره أو ابتكره أو يتصوره أو يبتكره لأنه لم يحضر ولن يحضر ليعلم ذلك أو غيره..!

إنها لا توجد تهنئة تساوي في إنقاذها وصدقها ونفعها تهنئة الآلهة ببراءتها من تصور وابتكار من تصوروها وابتكروها.

.. ببراءاتها من اتهامها بأنها قد وجدت في ذاتها مهما وجدت في تصور المتصورين الغائبين عن عقولهم وأخلاقهم ورؤاهم ومحاسباتهم وضمائرهم أي المفترضة فيهم ولهم والمطلوبة منهم وفيهم أي لو وجدت وأعلنت وصدقت ونفذت هذه البراءة..!

❀ ❀ ❀

نعم، إن الآلهة هي الكائنات المتفردة في شذوذها وخروجها على كل التفاسير والحسابات.. إنها الكائنات التي لا يمكن تنزيهها وتبرئتها من أي قبح أو فحش أو إثم أو ظلم أو خطأ أو خطيئة أو جهالة أو بلادة أو عبث أو سفه أو عدوان أو قتل أو سرقة أو من أن تكون كل ذلك وفاعلة لكل ذلك إلّا بتنزيهها وتبرئتها من وجودها.. إن الآلهة هي الكائنات التي وجودها هو الأخطاء والخطايا كلها.!

إنها لا أخطاء ولا خطايا بلا آلهة ولا آلهة بلا أخطاء وخطايا..!

.. إنه لفاجع ألا يعلم كل مؤمن بأي إله أنه يتهم إلهه بكل هذه الشرور والقبائح والفظائع ويراه ويعتقده ويعلنه هو وحده فاعلها كلها بكل الكبرياء والإعجاب والفرح والفخر والامتنان والرضا عن النفس لما فعلت وتفعل، وأن كل الفاعلين الآخرين ليسوا إلّا أعضاء وصوراً وصيغاً ولغات وأزياء وأنياباً وأظفاراً وأمعاء وأصواتاً وجلادين له أي للإله، أو ليسوا إلّا موظفين بالإكراه عنده يؤدون وظائفهم بالإكراه كما أراد وأحب وخطط وقرر وعرف وفعل بلا أي عصيان لإرادته أو تخطيطه أو تصميمه أو تدبيره أو تقريره أو علمه أو حكمته مهما كان العصيان للغته، أي لأوامره وتعاليمه التي لم يكن يريد لها أن تطاع بل أن تعصى.!

.. إن أي عصيان وكل عصيان لأي إله لن يكون إلّا عصياناً للغته وتظاهره لا لمنطقه أو رغبته أو خطته أو مشيئته أو لعبقريته. إن أبشع المعاصي والمظالم والموبقات هي كل الطاعة والاستجابة والتمجيد والإرضاء لحكمة الإله ومنطقه وإرادته وشهوته. إن جميع أوامر وشرائع الإله التي لا تطاع ولا تنفذ ليست إلّا تمثيلاً بليداً أليماً يشترك في تأليفه وإخراجه وتمثيله الإله والأنبياء والفقهاء والسلاطين المتسلّطون وأصناف أخرى.. إنها تمثل دون أن تراد أو يراد أن تطاع أو تنفذ، بل المراد أن يطاع وينفذ نقيضها..!

الإله يحشد وينزل ويؤلف الأنبياء والأديان والكتب المنزلة لكي يطاع ويعبد ويفعل كل ما يأمر به وهو في السر والعلن يحشد كل طاقات مكره ودهائه مريداً ومخططاً ومصمماً ومنفذاً أن يعصى كل العصيان وأقبح العصيان.. ينزلها ويؤلفها ويوظفها لكي تدعو إلى ما ترفض وتمنع أخلاقه وقوانينه ونظامه وكل معانيه وأجهزة مخابراته أن يكون.! هل يمكن أن يوجد أو يتصور تمثيلية هزلية قبيحة بليدة تهبط إلى مستوى هذه التمثيلية التي أبطالها الآلهة والأنبياء والزعماء والحكام والقادة ومفسترو الأديان ولصوص العقول والأخلاق وغيرهم وغيرهم؟

قاتل كل الأحياء وخالق كل القتلة والمريد المخطط المدبر الميسّر الملهم الدافع لهم ليكونوا قتلة..

والمهندس المقدر المقرر لكل الأخطاء والخطايا والآثام والآلام والشرور ولكل فاعليها لتكون ويكونوا كما كانت وكانوا..

والسعيد الفرح الراضي عن عبقريته ومهارته بأن يكون ذلك كذلك..!

.. هذا الكائن يرسل الأنبياء وينزل ويعلم ويشرّع الأديان والشرائع بكل الحماس والغضب والإرهاب والإغراء والتهاويل لتنهى وتمنع وتحمي وتعصم من كل ذلك ولتهدد وتوعد بكل العقاب والعذاب بأقسى الأساليب كل من يفعلون ولو بنياتهم أو شهواتهم أو حواسهم شيئاً من ذلك؟ أليس خيراً للعقول ألا توجد إن كان محتوماً أن تعرف ذلك؟

أليس من الأستر والأفضل والأنبل بل والأقوى والأتقى والأذكى للعقول ألا توجد وألا تقبل أن توجد إن كان محتوماً أو حتى محتملاً أن تعرف هذا الكائن أو أن تتصوره أو أن تؤمن به أو أن تكره على الإيمان به أو أن تعلم الإيمان به؟

هل يمكن تصور فضيحة أو إهانة أو مهانة أو هزيمة للعقول مثل ذلك أي مثل أن تتصور هذا الكائن أو أن تؤمن به أو أن تكره على الإيمان به أو أن تعلم الإيمان به؟

وهل وجد هذا الكائن؟ ومن وجده؟ وهل يمكن أن يوجد أو أن يجده أحد من الباحثين عنه أو المتصورين له أو المؤمنين به أو من الدعاة إلى الإيمان به؟

أليست كل القوانين والنظم والأخلاق والشرائع والتعاليم الطبيعية والكونية والدينية والإنسانية والعقلية ترفض وتمنع وتشتم تصوره وتصور وجوده فكيف تقبله أو تقبل الإيمان به أو الدعوة إلى الإيمان به أو التمجيد له؟

إن أي شيء أو أحد لم يهن أو يحقر نفسه أو يسيء إليها أو يشتمها مثلما فعل العقل بنفسه في هذه القضية وفي قضايا أخرى..!

بل لعل كل شيء وكل أحد لم يفعل بنفسه شيئاً من ذلك ويفسّره تفسيراً جميلاً وذكياً ومقبولاً بل وعبقرياً لولا العقل.. لولا تفاسير العقل ورؤى العقل وتعاليم العقل وضلال العقل..!

لهذا جاء الكائن صاحب العقل أو المصاب بالعقل هو أكثر الكائنات قبحاً وفحشاً وسوءاً وخروجاً على العقل وتشويهاً وهجاءً وتعذيباً ومقاومة وإذلالاً للعقل..!

إنه لا شبيه لجنايات العقل ولا لفضائحه وقبائحه وبلاداته وأخطائه وتزويره وكذبه وتشويهه وتوريطه، ولإذلاله وذلّه حين تصور هذا الكائن كما تصوره ثم آمن به ودعا إلى الإيمان به وفسّره وعلّمه وزوّر البراهين والتفاسير على وجوده ونصبه فوق هذا الكون وفوق كل شيء ووجده ورآه داخل كل شيء.. داخل ذات وحياة وأخلاق وقلب وضمير وطنين كل حشرة وجرثومة وقبح وعاهة وتشوّه وتأوه وأنين ودمار وخراب ووباء وشيخوخة ونهاية كئيبة رهيبة..

.. وحين أعلن وفسّر وجعل أي العقل كل هذه الآفات والسيئات والفظائع الجنونية هي أجمل وأنبل وأرحم وأحكم وأصدق وأبلغ وأسحر وأتقى صور وصيغ وتفاسير هذا الكائن أي الإله وأحاديثه إلى نفسه وعن نفسه وإعلانه عنها وعرضه لها..!

.. وحين رآها واعتقدها وأعلنها كل ضمير وعقل وقلب وأخلاق وعبقريات وشاعريات وفنون ولعب ومسلاة وملهاة وعبادات وصلوات هذا الكائن أي الإله..!

أليس العقل وحده هو الفاعل لكل ذلك وهل تورط في أي شيء من ذلك أي كائن لم يصب بالعقل؟

إذن أيها العقل هل تستطيع حسناتك أن تغفر سيئاتك أو أن تتكافأ أو تتنافس معها أو أن تتحول إلى شيء من التكفير أو الاعتذار عنها أو عن شيء منها؟

إن الكائنات الموصوفة بالعاقلة كائنات قد أصيبت بالعقل ولم تكرم أو تثب أو تشرف أو تترف به. إنها مصابة لا مثابة ومورطة لا مكرمة ومعذبة لا متنعمة أو معززة ومقسو عليها لا مرحومة أو محاباة ومفتضحة متعرية متلوثة معلنة عن ذلك لا مستترة أو متوقرة أو متطهرة أو صامتة عن ذنوبها وعيوبها.. عن فضحها وكشفها وإعلانها..!

.. إنها أي الكائنات الموصوفة بالعاقلة متعادية متباغضة متلاعنة متصافعة متبارزة متباعدة متقاتلة بمذاهبها ونظمها وآلهتها وأديانها وقومياتها وأعراقها وتاريخها وأوطانها وانتماءاتها التي ابتكرتها ورسختها وخلّدتها لها وفيها عقولها..

وليست متحابة أو متصادقة أو متعاطفة أو متحانية أو متسالمة أو مسالمة أو متعاونة مهما تصافحت وتعانقت وتحالفت وتلاقت ووقعت المحالفات والصداقات ولعنت الحروب والعداوات والخصومات بكل لغاتها ومؤتمراتها..!

إن كونها كائنات عاقلة هو الذي أوقع وفعل بها كل ذلك..!

حتى جحيم الأنبياء بكل أهواله المتفوقة على كل تصورات كل جنون وحتى غضب الآلهة.. حتى هذا وحتى هذا إنما تصوّرهما وابتكرهما وصاغهما وحرّض عليهما وقاد إليهما وأهل لهما العقل..!

.. الجحيم وجبروت الآلهة بكل أهوالهما ليسا إلّا إحدى هبات العقل..!

ما أبشع إذن هباته، ما أبشعها وأقبحها بل وأردأها..!

.. إنه لم يكن ممكناً أن يكون أو يوجد أو حتى يتصور لا هذا ولا هذا لولا العقل أو لولا الكائن الموصوف بالعقل أو المتهم بأنه الكائن العاقل في هذا الكون المرئي المعروف..!

إذن ماذا يمكن أن يقال عما أوقعه العقل بالكائنات الموصوفة بالكائنات العاقلة أو بالكائن الوحيد الموصوف بالكائن العاقل؟

.. إن العقل هو معلم كل الزندقات.. إذن هل يوجد مخرب ومفسد ومجرم ومضلل في حساب المؤمن مثل العقل وإنه لن يوجد زنديق واحد لولا العقل، إذن كيف يمكن أو يجب أن يرى المؤمن العقل؟

إن العقل هو مبتكر ومعلم وملقن وفارض كل الآلهة والأديان والمعتقدات الغيبية والنبوات بكل

أثقالها وأحقادها وإرهابها وإذلالها واستعبادها وخداعها وأخطائها وأوهامها وتكاليفها وخسائرها والخسائر بها وبكل ما فيها من قدرة على التشويه والتعويق..!

إذن هل يوجد عدو للحياة في حساب الحياة مثل العقل؟

إنه لولا العقل لما وجد أحد أو شيء من ذلك أو من هؤلاء أي من الآلهة والأنبياء والأديان والعقائد والتصوّرات الغيبية التعبدية.!

إذن هل تستطيع الحياة أن تحصي الأخطاء والخطايا والخسائر والآلام والكوارث والفضائح التي أوقعها بها العقل؟

والمفترض ألّا أكون محتاجاً إلى أن أفسّر ما المراد هنا بالعقل أو بالكائن الموصوف بالكائن العاقل..!

ولعل العقل هو الشيء الذي تتعاظم وتتنوّع أخطاره وإرهاقه وإرهابه وعجزه وتعجيزه وذله وإذلاله بل وجهله وتجهيله بقدر ما تتعاظم وتتنوّع ابتكاراته وإنجازاته وتحليقاته وطاقاته وأسفاره في كل الكون وفوق الكون بل وخارج الكون.. إن تحليقه العالي تحليق للمخاطر والمخاوف والمتاعب الموقعة به وبالإنسان وبالحياة..!

إن العقل هو الكائن الوحيد الذي تتحول ابتكاراته وإنجازاته الرائعة المذهلة إلى أثقال وأعباء وتبديد وتشتيت وترويع وتشويه وتضليل وإزعاج وحيرة لرؤى وأخلاق وأفكار وحسابات وخطوات ومعتقدات وأديان وسلام وإعجاب ورضا الإنسان والحياة. إنه أي العقل بقدر ما يعطي يحاسب ويعاقب ويطالب ويتفنن في ابتكار المتاعب والهموم.!

.. إن ابتكارات وإنجازات وتحليقات العقل تحول الكائن المصاب بالعقل من كائن يعيش داخل ذاته ومع ذاته وفي حدود ذاته في توافق بلا أي تصادم أو مشاكل إلى كائن يعيش ويتحرك خارج كل الحدود.. حدود ذاته وحدود الكون وحدود كل شيء وحدود ما ليس شيئاً بكل التصادم والتناقض والمعاناة والخوف والقلق واللهاث والركض الدائم وراء ما لا يعرف أو يوجد أو يربح أو يرضي أو يخفف من اللهاث والركض..

❀ ❀ ❀

.. أيها العقل، أرجوك وأنتظر منك ألا تغضب أو تفجع أو تنزعج.. إني لست لك معادياً أو خصماً. إني لا أستطيع ولا أريد أن أكون ذلك. إن ما قلته لك وعنك ليس إلّا شيئاً من حرارة الصداقة والمودة والإشفاق..!

إني لست أنا المتهم أو الناقد لك بما وجهت إليك هنا بل أنت الناقد المتهم لنفسك. لقد نقدتك واتهمتك بك.. لقد نقدتك واتهمتك بالعقل.. بعقلي. إذن فالعقل هو الناقد المتهم للعقل. إنه لولا العقل لما وجد منقود متهم ولا ناقد متهم. إنك أنت القاضي الذي حكم وأنت المحاكم الذي حكم عليه. أما أنا فلست موجوداً هنا..

إنك أيها العقل أنت الطبيب وأنت المريض في هذه القضية..

.. أنت المريض الذي يرجى ويطلب منه الدواء والشفاء.!

إني مع قسوة هذا الهجوم عليك أيها العقل لأتمنى وأطالب أن تتعاظم عقولنا حتى تصبح معرفتها لهذا الكون ولكل كون ولكل شيء ولكل الآلهة أسهل عليها من تعلم وقراءة حروف أية لغة سهلة بسيطة..!

❀ ❀ ❀

ولكن أيها العقل هل أنت فاعل أم مفعول، مفعول بك؟ هل أنت فاعل لوجودك ولأخلاقك وخصائصك ووظائفك وأفعالك أم مفعول بك كل ذلك؟ هل أوجدت وجودك كما جاء أو اخترته أم أوجد بك وأوجدت به دون أن يكون السؤال: أو أوجد لك أو أوجدت له فأنت لم توجد له وهو لم يوجد لك..!؟ إنه لا تدبير ولا تفسير لوجودك..!

.. هل الأشياء توجد نفسها أم تكون نفسها.. أم تتكون فيها نفسها وتتكون في نفسها؟ هل يمكن أن يوجد أو حتى يصنع أي شيء نفسه أو أي شيء من خصائص وأوصاف نفسه؟

هل الوجود تكون وكينونات أم إيجاد وتكوين؟ حتى ما يبدو أنه إيجاد وتكوين أليس تكوناً وكينونة لا إيجاداً ولا تكويناً؟ إنه لو كان الشيء يوجد نفسه لكان المعنى أنه يوجد قبل وجوده قبل وجود نفسه..!

حتى إيجاد الشيء لغيره إنه لا يمكن أن يكون. إن الشيء بل كل الأشياء توجد أي تكون وتتكون كينونة وتكوناً تتوالد وتكون وتتكوّن منهما الأشياء لتبدو العملية كأنها إيجاد وتكوين وخلق وإبداع.. إنها حبل وولادة لا خلق ولا إبداع ولا إيجاد ولا تكوين.. إن كل شيء ليس إلّا ولادة وتوالداً حتى الآلهة وحتى الإيجاد والخلق والإبداع والعبقريات ولادة وتوالد.. إن الولادة ليست إيجاداً ولا تكويناً ولكنها تكون وكينونة، وكذلك كل ما تفعله أو يبدو أنها تفعله كل وحدات هذا الكون والطبيعة وكل ما تفعله العقول والعبقريات الإنسانية، وأيضاً ما تريده وتدبره وتخلقه الآلهة إنه تكوّن وكينونة وليس إرادة أو تدبيراً أو تخطيطاً أو خلقاً..!

إن الآلهة لا توجد إرادتها أو تدبيرها أو أفعالها ولكن تلدها وتولد فيها.!

أليست الآلهة قد تكونت وكانت بكل ذواتها وصفاتها وأفعالها وأهوائها ومجاعاتها ولم تكن أو توجد بأية إرادة أو خطة أو حكمة أو تدبير أو تخطيط أو قدرة أي إن كانت قد جاءت؟

.. إنها بعد وجودها لو وجدت لا تحتاج إلى أن توجد أو تصنع أو تخلق أو تكون وقبل وجودها أو بدون وجودها كيف يمكن أن تفعل شيئاً من ذلك؟ إن الفاعل لا يفعل ولكن وجوده يكون ويتكون بصيغ الفعل والأفعال. إن الفاعل يفعل أفعاله بالقانون الذي يكون ويتكوّن به ذاته أي الذي تكون وتتكون به ذاته. إن الفاعل يفعل ما يفعل بالقانون الذي يفعل به ذكاءه وإرادته وعبقريته وقدرته وصفات ذاته وأعضاءه.!

إن عبقريات الكائن وقدراته وإراداته وصفاته حبل وولادة وليست إيجاداً أو تكويناً أو تخطيطاً ومثل ذلك كل أفعاله، وكذلك كل ما يتولّد عن عبقرياته وإراداته وطاقاته وصفاته.. إذن فإن كل شيء في هذا الوجود وفي كل وجود لا يوجد أو يفعل أو يخلق أو يراد أو يخطط وإنما يكون ويتكون أي في الرؤية الشاملة البعيدة المحاسبة المحصية مهما كانت كل الاعتقادات والاقتناعات والحسابات بل والبديهيات غير ذلك بل نقيض ذلك أي تقول وتعلم نقيض ذلك.. هل النهر أو السحاب يوجد أو يفعل أو يخطط أم يكون ويتكوّن؟ أليس كل شيء كذلك؟

.. هل يعجز أحد عن فهم ذلك حتى الآلهة هل يمكن أن تعجز عن فهمه أو تحتاج إلى من يجعلها تستطيع فهمه مهما كان عجزها عن الفهم.. عن فهم ما لا يستطاع العجز عن فهمه؟ أليس كل عاجز عن الفهم إنما فرض عليه عجزه هذا عجز آلهته؟ إن عجز الكائن يعني عجز من تكون منه أي عجز من ولده أو بصقه أو خلقه في اللغة الشائعة..!

.. أيها العقل إنه لمطلوب منك ألا تقاسي أي قدر من الاستحياء أو الانفجاع أو الانهزام.. إن القضية هنا ليست إلّا تساؤلاً أو تحاوراً أو تخاصماً أو تقاتلاً أو تلاوماً وتعاتباً بين العقل والعقل.. بين العقل ونفسه ليست بين العقل وأي خصم آخر..! إنه لا وجود هنا لغير العقل في هذه المعركة..!

إن من أكبر أخطائك وخطاياك أو كل أخطائك وخطاياك أو الأخطاء والخطايا المسقطة عليك المتهم بها أنت أيها العقل أنك أبداً في كل خطواتك وقراراتك وشجاعاتك واقتناعاتك ومحاوراتك ومخاصماتك ومبارزاتك وعداواتك وصداقاتك وإيمانك وكفرك وحربك وسلامك ورضاك وغضبك وإعجابك وانفجاعك ونشاطك وخمولك وحرارتك وبرودتك وتقواك وفجورك.

ـ إنك في كل ذلك لم تكن ولن تكون إلّا عبداً مأموراً مطيعاً مسخراً مستعبداً لغير نفسك.. لغير معانيك بل مذلاً وشاتماً وعاصياً لنفسك ولكل معانيك المزعومة والمعلمة لتكون ما يراد منك أن تكونه..

.. لتكون الخصم المحارب المشوّه اللاعن لنفسك..!

إنك أيها العقل أبداً تسمع وترى وتفهم وتقبل وترضى وتمدح وتعجب وتقتنع وتؤمن وتصادق وتناصر أو تفعل نقيض ذلك بغير عينيك وأذنيك وقلبك وضميرك واقتناعك وأخلاقك وأوصافك وكرامتك وتجاربك ومشاهداتك خارجاً على كل ما تزعمه لنفسك ويزعم لك..

إنك أيها العقل أنت أبداً المقود المزعوم قائداً والعبد المزعوم إلهاً والرعية المزعومة سلطاناً والمأمور المزعوم آمراً والمحكوم المزعوم حاكماً والجبان المزعوم باسلاً..!

إنك النقيض الشامل لكل ما يقال ويزعم لك وعنك..!

ألست مستعداً أبداً أن تؤمن بكل شيء وبأي شيء وبنقيضه.. أن تؤمن بالشيء ثم تكفر به.. أن تكفر به ثم تؤمن به بل أن تؤمن وتكفر بالشيء في وقت واحد ورؤية واحدة؟ ألست مستعداً دوماً أن تؤمن بكل الآلهة والأديان والمعتقدات والمذاهب والنظم والأخلاق والتعاليم المتناقضة المتضادة وأن تكفر بها وأن تتنقل بينها ومنها إليها.. أن تحاربها وتلعنها كلها وأن تدافع عنها كلها وتمتدحها كلها مقسماً عليها ومتنقلاً بينها أي مأموراً مسخراً مطيعاً ذليلاً.

.. أن ترى وتعلن كل شيء جميلاً ذكياً عدلاً أخلاقياً وأن تراه وتعلنه نقيض ذلك.. أن ترى وتعلن العذاب والقسوة حكمة ورحمة والرحمة والحب والسعادة بلاء والنور ظلاماً والظلام نوراً؟

ألست قد فعلت كل ذلك ولا تزال تفعله وسوف تظل تفعله؟ إنك كل ذلك والفاعل لكل ذلك لأنك لا توجد أو تتخلق أو تريد أو تحيا أو تتحاور أو تعمل في ذاتك أو لها أو معها أو منها أو من أجلها أو برضاها أو بموافقتها أو حتى باستشارتها..!

ولكنك أيها العقل تكون كل كينوناتك وتفعل كل أفعالك محكوماً ومقوداً بكل الإذلال والإكراه والجبروت بضرورات وشهوات ومجاعات وحماقات وتفاهات وتناقضات ومخاوف وهموم وتعاسة وبؤس وضعف وفحش وآلام وآثام وضياع وعبث الذات والوجود اللذين تخلقت وتكونت منهما وفيهما واستعبدت لهما بكل معاني وأساليب الإهانة والقهر والتسخير دون أن تريد أو تدري أو يترك لك شيء من الكرامة أو الوقار أو الاستتار أو من الحرية للتعامل معها أو لتصحيحهما أو لفراقهما أو حتى للتحاور معهما.. دون أن يكون لك أيها العقل اختيار أو رأي أو مصلحة أو مجد أو سعادة أو جزاء في ما تفعله أي في ما تكره على فعله وتسخر لفعله وتؤمر بفعله.. إن كوارثك أيها العقل رهيبة فاجعة. إنك لتستحق الرثاء والعزاء من كل شيء وكل أحد.!

إذن أيها العقل هل هناك من يشابهك أو يساويك في مأساتك؟ حتى الآلهة هل يمكن الزعم أن فيها شيئاً من المشابهة أو المماثلة أو المساواة لك في مأساتك هذه؟

آه.. أليست كل المآسي شيئاً من مآسي الآلهة ومن التعبير ومن الحديث عنها ومن التذكير بها والتفسير لها؟

إن ضخامة مآسي الآلهة جعلتها لا تفجع بأية مأساة بل ولا ترى أية مأساة.. كما أن ضخامة أخطائها وخطاياها أي الآلهة جعلتها تعايش وتساكن وتواجه كل الأخطاء والخطايا وأبشع الأخطاء والخطايا بكل الصمت والسكون بل بكل الرضا والتسلي والغناء للنفس وبكل التحديق في مرآتها.. هل مثل الآلهة تسلياً وتعزياً وتلهياً بالأخطاء والخطايا بل واستمتاعاً؟

ماذا لو لم تكن الآلهة كل الأخطاء والخطايا إرادة وتدبيراً وتخطيطاً وشوقاً وحباً ونظاماً وفعلاً؟

هل يمكن أن تقبل حينئذٍ أي شيء في هذا الوجود رؤية أو مواجهة أو معايشة فكيف تقبله مريدة أو مصممة أو عاشقة أو خالقة له أو متهمة به؟

لو أن إلهاً تخلق فجأة أو قدم من كون آخر ليس فيه شيء من أخطاء وخطايا كوننا هذا وكان قد تخلق فيه أي في هذا الإله القادم فجأة شيء من معاني الرؤية أو الرحمة أو الحكمة أو القلب أو الضمير أو الرفض أو الاحتجاج أو المحاسبة أو التساؤل أو العدل أو المقاومة الأخلاقية أو المنطقية.. فرأى أخطاء وخطايا الآلهة الموجودة.. أخطاءها وخطاياها المغرقة والمغطية لكل شيء في هذا الوجود..

ورأى أيضاً أخطاء وخطايا هذا الوجود التي أرادتها وعشقتها وخططتها ودبّرتها وصاغتها وأخرجتها وحرستها وخلّدتها وخلقت كل أسباب وظروف وجودها وخلودها وشمولها الآلهة الموجودة.

ـ نعم، لو أن ذلك حدث هل يمكن حينئذٍ تصوّر ما لا بدّ أن يصاب به هذا الإله الجديد المتخلق القادم فجأة.. أن يصاب به من الانفجاع والذعر والغيظ والغضب والاستنكار والاشمئزاز ومن التصميم على المحاسبة والمعاقبة وعلى الإزالة لكل هذا الوجود ولكل آلهته التي صنعت وقبلت ورضيت وعايشت كل أخطائها وخطاياها وكل أخطائه وخطاياه بكل هذه البلادة والقسوة والسفه والقبح والفحش والصمت بل وبكل الرضا والإعجاب والتعبّد والتأليه والصلاة للذات والمطالبة بالتعبد والتأليه والصلاة للذات؟

أليس محتوماً أو محتملاً جداً أن يرفض حينئذٍ هذا الإله أن يكون إلهاً أو أن يظل موجوداً اشمئزازاً واستقباحاً لما رأى ووجد؟ إن تكرار الرؤية والمواجهة لما يصنع الاستقباح والاستبشاع يسحب من الرائي المواجه مشاعر الاستقباح والاستبشاع..!

.. ثم كيف لو أن إلهنا هذا.. إله هذا الوجود انتقل أو نقل إلى كون آخر صاغه إله آخر فيه كل أوصاف وأخلاق وشروط الإله المفترضة والواجبة أو حتى شيء منها.. فرأى وعرف أي إلهنا.. إله هذا الكون الفروق بين الكون الذي خلقه هو والكون الذي خلقه ذلك الإله الآخر.. وعرف ووجد ورأى الفروق التي بينه وبين ذلك الإله الآخر.

ـ نعم، لو أن ذلك قد حدث فماذا يمكن أن يفعل إلهنا.. إله هذا الكون بنفسه رفضاً وعقاباً لها وهرباً واستحياءً منها؟ هل يمكن تصور ما لا بدّ أن يفعله حينئذٍ بنفسه؟ ألا يمكن أن يحدث ذلك؟ أليس من الواجب والنافع أن يحدث؟ إن مأساة إلهنا ومأساتنا فيه أنه لا يرى أو يعرف غير نفسه وغير ما فعل.!

.. كيف لم يتخيل إلهنا.. إله هذا الكون ذلك الإله الآخر ولا ذلك الكون الآخر ليتعامل مع تخيله هذا؟ هل هو فاقد لكل خيال؟ هل هو شرط محتوم في كل إله أن يكون معصوماً من كل خيال وتخيل؟ كيف يمكن أن يوجد أو يبقى أو يقبل أن يوجد أو يبقى أي إله يحيا وينبض فيه أي قدر أو نوع من الخيال والتخيل أو من القبول والرفض والاحتجاج والتساؤل؟

إنه لشرط في كل إله أن يكون مغلقاً دون كل تعامل وتحاور عقلي أو عاطفي..!

ولأن كل إله فاقد لموهبة التخيل والخيال فقد عجز إلهنا أي إله كوننا هذا عن أن يتصور أية نماذج أخرى للآلهة ولما يجب وينبغي أن تفعله وأن يكون لكي يصوغ منها ذاته وخلقه والوجود الذي يصنعه متعلماً من تلك النماذج الأخرى.. هل يمكن تصور ما لا بد أن يحدث لو كان صاحب هذا الوجود يملك أو يملكه أي قدر أو نوع من الخيال والتخيل؟

وأينا أكثر خسراناً بفقد إلهنا للتخيل والخيال: أنحن أم هو؟ أهو أم الوجود الذي يوجده والذي أوجده؟

.. ومن العلامات الأليمة على أنه أي الإله معصوم من كل خيال وتخيل أنه متجمد أبداً في حالة واحدة.. عقله وقلبه وضميره ورؤيته وفنه وتخطيطه وشهواته وأهواؤه ورغباته وطلباته وهمومه وهزائمه وكينوناته وأفعاله والكون الذي كوّنه بل وحرمانه من كل متعة جسدية أو معنوية..

ـ كل ذلك متجمد في صيغة وحالة واحدة وفي قبح وفحش واحد.. إن كل متخيل لا بدّ أن يغير ويتغير أو يحاول ذلك بكل السرعة والحماس والرغبة والقوة.. إن المتخيل لا بدّ أن يكون متطوراً. لهذا جاءت الآلهة غير متطورة، جاءت عاجزة عن التطور.. الآلهة عاجزة عن التطور..

هل يمكن تصور مأساة مثل هذه المأساة؟

.. خالق هذا الكون المتجمد المتبلد في كل صيغه وأساليبه وقوانينه وأخلاقه وفنونه ومنطقه وسفاهاته وتفاهاته وبلاداته وعاهاته وتشوّهاته وفي تكرار كل أخطائه وخطاياه.

ـ هذا الخالق هل يمكن أن يكون متخيلاً أو شاعراً أو فناناً أو ناقداً أو ملهماً أو عاشقاً أو نابضاً بل أو حياً؟

هل يمكن أن يكون جمالاً أو نبلاً أو عقلاً أو عدلاً أو حباً أو رحمة أو حكمة أو تقوى أو عبقرية أو محباً لذلك مريداً مخططاً له؟ ما أعظم عذابه لو كان شيئاً من ذلك.. وما أعظم قبحه لأنه لم يكن شيئاً من ذلك..!

.. أيها الكون كم أنت هجاء وتحقير وإذلال لكل معاني الآلهة والجمال والمنطق والذكاء والأخلاق والحب والإبداع والفن ولكل أسباب ومعاني الإيمان والتدين والتقوى.!

إن كل شيء فيك لسباب وهجاء لكل منطق يقول: آمنوا وتديّنوا أو اتقوا أو احترموا..

كم أنت نفي ورفض لكل ما يقال عنك وفيك..!

.. كم أنت مأساة لكل العقلاء والرحماء والحكماء والأتقياء.. وكم أنت مسلاة وملهاة وصلاة لغير هؤلاء.. للمناقضين لهم..

.. كم أنت عقاب وعذاب لكل العقول والأخلاق المحدقة المحاسبة.!

.. إنه لا مثيل لقبح أو لبشاعة أو لافتضاح إله أنت أيها الكون كل أزيائه وحلاه وسكنه وصوره ومواكبه ولغاته وكل العرض والمعارض والتفاسير لمواهبه العقلية والفنية والشاعرية والنفسية والأخلاقية والجمالية والإبداعية والإعلانية الدعائية..!

كم أنت أيها الكون أفظع الصور والتصوير لمن صورك..!

.. إن من أفحش وأقبح وأبلد ما فيك أيها الكون أن حولت كثيراً ممن يعايشونك ويساكنونك ويحيونك ويحيون ويتخلقون فيك ومنك وبك ويمارسونك ويضاجعونك وتمارسهم وتضاجعهم وتفضحهم ويفضحونك وتلعنهم ويلعنونك.

ـ إن حولتهم إلى مجانين إعجاباً وافتناناً بك ورضاً عنك وشوقاً إليك وثناء عليك وسقوطاً وتساقطاً في أوحالك وإيماناً بمن أرادك وخططك وصاغك وخلقك وصلاة وتعبداً له وانتظاراً له ومنه وإعجاباً بحكمته ورحمته وجماله..!

إن الإعجاب بك الذي تحوّل إلى تعبّد وتقديس وتأليه لك أيها الكون ولمن زعم خالقك وصائغك ليس إلّا تعبيراً عنك.. عن أوصافك وأخلاقك وعن كل مستوياتك المنطقية والفنية..!

إنك أيها الكون أنت المتحدث عن نفسك إلى نفسك..

.. إنه لا متحدث سواك ولا تحدث إلّا إليك..

لأن كل المعجبين المقدسين المؤلهين العابدين الهاتفين المؤمنين المتدينين لك ولمن زعم صانعك ومخططك وفنانك ليسوا إلّا إياك.. إلّا أعضاءك وأبناءك وخلقك.. إلّا لغتك ومنطقك وعقلك وقلبك وضميرك وكل معانيك.. إذن فأنت أيها الكون العابد المقدس المؤله لنفسك.. لأخطائك وخطاياك وشرورك وآلامك وحماقاتك وتفاهاتك وعبثك نصبت الإنسان ناطقاً معلماً معبّراً خطيباً عنك. جعلته كل لغاتك المنطوقة والمسموعة والمكتوبة والمقروءة والمعلمة والمتحولة إلى آلهة وأديان ونبوات وكتب مقدسة يقتل من يخالفها أو ينقدها أو يشك فيها أو يقول أريد أن أفهمها أو أنا عاجز عن فهمها أو عن الاقتناع بأنها هي كل العلم والعقل والجمال والإبداع والأخلاق والتقوى والسعادة والمجد وكل الحاضر والمستقبل والماضي بل وكل شيء..!

وكأنك أيها الكون أردت أن تخدع وأن تدافع عن أخطائك وخطاياك وأن تحولها إلى هدى وتقوى وأن تضلل وتعمي عن رؤية ومحاسبة وقراءة مخازيك ومآسيك وأن تصنع لنفسك أمجاداً وعبقريات وأنساباً لا تطاول لصعود صعودها، وأن تحول نفسك إلى معبود تصلي لك العقول والقلوب والأعضاء، وأن تضع حولك حراسة تنتظر وترجو وتحاول أنت ألا يستطاع اقتحامها وذلك حين أعلنت وعلمت على لسان إنسانك.. على لسان أحد استفراغاتك الإنسان: إنك بكل صيغك وتفاسيرك ووحداتك وآحادك وأجزائك وبكل سفاهاتك وحماقاتك وفحشك وفسوقك وزندقاتك.

- نعم، حين أعلنت وعلمت على لسان إنسانك أنك في كل ذلك لست إلّا إرادة وتخطيط وتصميم وخلق وجمال وفن وحب ومجد وفرح وسعادة أكبر وأعظم إله.. لقد زينت كل قبحك وذنوبك وعيوبك بأضخم الآلهة والأنبياء والأديان.!

إن تمجيدك أيها الكون للإنسان بلسان الإنسان ليس إلّا تمجيداً لذاتك.. تمجيداً لخلقك ولقوانينك وأخلاقك وقدرتك وولادتك ولأعضائك الخالقة للإنسان المتخلق منها الإنسان الذي هو أحدها أي الذي هو أحد أعضائك..!

.. وإن تمجيد الإنسان لك ليس إلّا تمجيداً لنفسه.. تمجيداً لمصممه وصانعه ووالده وباصقه ولأهوائه وشهواته وسفاهاته ومجاعاته وبلاداته وغواياته ولضعفه وهوانه واستعباده ولأحقاده وأحزانه وعداواته وأمراضه وشيخوخته وموته وعاره ولمن حبب إليه وغرس وزرع فيه كل ذنوبه وعيوبه وفضائحه وقبائحه وكل مساوئه وسيئاته وأخطائه وخطاياه..

لقد خلقته وركبته خاطئاً مخطئاً عاشقاً لأخطائه وخطاياه مستمتعاً بها لهذا يهبك كل تمجيده وحبه وولائه..!

.. إن تمجيد الإنسان لك أيها الكون ليس إلّا تمجيداً لآلامه وبلاداته وجهالاته وأخطائه وخطاياه ولكل فحشه وقبحه وضعفه وعاره وفسوقه وكفره ومآسيه ومخازيه ولكل ما يواجهه ويقاسيه من ترويح للعقول والقلوب والأخلاق والكرامة وللإيمان والتقوى والصفاء والحب والجمال..

لأنك أنت الموقع به كل ذلك والصائغ الصانع له ليكون كل ذلك والسعيد المشتهي لأن يكون كل ذلك، لقد مجدك حتى وجد فيك كل عبقريات وفنون إلهه.. وجدها في كل جرثومة وحشرة وعاهة..!

.. كما أن تمجيده أي الإنسان للإله.. لخالقك أيها الكون لن يكون إلّا تمجيداً لكل ما يرى ويعرف ويواجه ويقاسي ويفعل من فضائح وقبائح وآثام وآلام ومظالم وفسق وكفر وفحش وسوء ورداءة وبذاءة وعبث وهزائم وكوارث..!

إنه لا تمجيد يحمل من الغباء والكذب والهوان مثل هذا التمجيد..!

كيف لم يعرف كل إنسان أن تمجيد الإله هو تمجيد لكل قبح وفحش وظلم وخطأ وخطيئة وسفاهة ونذالة وفاحشة تفعل أو تنوى أو تشتهى أو تراد في هذا الكون أو في أي كون آخر.. تمجيد لكل ما ترفضه العيون والقلوب والعقول والأديان والأخلاق والضمائر والحضارات والبداوات..!

.. تمجيد لكل ما أراد أي الإله ولكل ما خطط وصمم وشاء وأحب وخلق وفعل وعبث ولعب وتسلى به أي لكل ما حدث ويحدث وما سوف يحدث..!؟

إذن هل يوجد أو وجد تمجيد لمن يستحق كل الاستنكار والغضب والتوبيخ وكل الحساب والعقاب وأقسى الحساب والعقاب بل وكل البغض والرفض والسباب والمعاداة والمقاومة بكل الأسلحة مثل التمجيد للإله.. مثل التمجيد لصاحب هذا الكون.. لحاكم هذا الكون.. لمنظم هذا الكون.. للمستوي فوق عروش هذا الكون.. للمباهي بأنه هو وحده صاحب ومبدع ومالك هذا الكون والمتصور العاشق له قبل أن يكون والمسؤول عنه وعن كل ما فيه ومن فيه؟

إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد مذموم مشتوم مهان محقر بدعوى ونيات وأساليب التمجيد والمديح له مثل الإله أسوأ وأردأ وأشقى الكائنات حظاً..!

لهذا كم يجب الرثاء والعزاء له أي للإله.. وكم يجب الإشفاق والبكاء عليه والرحمة به..!

إنه لهذا ليجب الأسى والدعاء والصلاة والغفران له ومن أجله لا أن يدعى أو يشكر أو يرجى أو يهنأ أو يحسد أو يصلى له.. يجب أن تكون كل الصلوات والعبادات والدعوات طلباً لإنقاذه لا طلباً منه ليفعل أي إنقاذ.!

إنه لا يوجد ولن يوجد محتاج إلى الإنقاذ من نفسه ومن كل أصدقائه ومحبيه وعابديه ومعامليه مثل الإله الذي يطلب ويرجى وينتظر منه كل الإنقاذ لكل شيء من كل شيء يراد الإنقاذ منه..!

إن كل البحار والأنهار والسحاب لو تحولت إلى دموع في كل العيون لن تكفي أو تجزي لتكون دموع بكاء وأسى وحزن على الإله.. على المتهم بأنه صاحب هذا الكون إرادة وتخطيطاً وتدبيراً وصياغة وخلقاً واستواء فوقه..!

أي الأحزان ابتكرت البكاء.. دموع البكاء: أحزان هذا الكون.. أحزانه على نفسه وعلى فاعله

المتورّط به أم أحزان صانع هذا الكون على نفس وعلى من فعل بهم ما فعل؟ أيهما يفترض أن يكون أقسى وأدوم وأصدق وأتقى أحزاناً: الوجود أم موجده؟

إن ابتكار أو تخلق الدموع الباكية لن يكون إلّا إعلاناً واعترافاً كونياً بأن هذا الكون وموجده إن كان له موجد لم يخططا أو يصاغا أو يحكما بأي قدر من العقل أو الفن أو الحكمة أو الرؤية أو الرحمة أو المحبة أو الذكاء أو الشهامة أو النظام..!

إن أية دمعة تذرفها أية عين لن تكون إلّا هجاء وذماً واتهاماً ورفضاً ومحاسبة لهذا الوجود ولمصممه وصانعه إن كان له مصمم أو صانع..!

إن هذا الكون وربه إن كان له رب هما وحدهما المستحقان لأن يحاسبا ويحاكما ويعاقبا على كل الدموع والأحزان المتساقطة من كل العيون والقلوب المتفجرة في كل القلوب والعيون.. إن قلبيهما أي الكون وربه وعيونهما هي التي تقلت إلى كل العيون والقلوب وفجّرت فيها كل دموعها وأحزانها أعني قلبيهما المفقودين وعيونهما المفقودة.. إن كل الدموع والأحزان إنما فجرتها القلوب والعيون التي لم توجد أي عيون وقلوب الكون والأرباب..!

لماذا أيّها النفط العربي
جئت بديلاً عن الإنسان العربي؟

(.. الكبار يقرؤون ويفسّرون ويرون مزاياهم وانتصاراتهم وتفوّقهم بتواضع ومحاسبة وهمس ونقد.... والصغار يهتفون لأخطائهم وتفاهاتهم ونقائصهم وهزائمهم وفضائحهم وتخلفهم وعجزهم بمباهاة وكبرياء وتمجيد وصراخ..).

شكراً لتفاؤلك أيها الصديق الأستاذ ولبشرياتك ولكتاباتك الغنائية الوردية المرحة، ولأحاديثك عن حرية الصحافة التي أنت أحد قياصرتها الكبار، وعن حق كل مخالف معارض رافض في نشر آرائه المضادة المعارضة الناقدة المهاجمة فوق عناوينها بألوان حمراء.. شكراً لك على كل ذلك وعلى مدائحك السخية اليعربية «للعبور» ولأمجاده الكونية..!

لقد حرّضني أسلوبك هذا على أن أكتب إليك هذه الكلمة المتقاطرة من عيون وقلوب وأخلاق النجوم مفجوعة بما ترى وتسمع وتقرأ وتواجه مؤملاً ومطالباً أن تنشروها في المكان والأسلوب اللذين يستحقهما ما فيها من الإثارة والجد والحساسية وضخامة القضية والدلالة والتفاسير..!

وأرجو ألا أكون قد قرأتكم قراءة مبالغة في خطئها لمبالغتها في التفاؤل والتصديق وفي إرادتها لذلك واحتياجها إليه أي لمبالغتي أنا في ذلك وفي إرادتي له واحتياجي إليه.. لهذا طمعت في ما لا يجوز ولا يمكن الطمع فيه في وجودنا العربي الدائم..

.. نعم، أرجو ألا يكون ذلك كذلك. فإن كان هذا الذي لا أرجوه فإن قلمكم الفرح المرح المغني دائماً بأعظم وأجمل البشريات هو المسؤول المغفورة له قدرته على خديعتي وعلى تأميلي في المستحيل الذي كان المفروض ألا يخدع في تأميله أحد، وعلى جعلي أحدّق في النجوم مؤملاً التحليق إليها وفوقها على صهوات خيول عربية..!

ألم يصعد النبي العربي فوق كل الكون على ظهر جمل يسمى بالبراق؟

لقد طال أيها الصديق تدليلنا لآذاننا ولآذان أنبيائنا وزعمائنا وقادتنا وجماهيرنا، وطال بل ودام إسماعنا لآذاننا وآذانهم كل إعجابنا وهتافنا وإيماننا وصلواتنا البليدة المخدوعة المؤمنة أحياناً والكاذبة الذليلة المنافقة دائماً أو أكثر الأحيان.

لقد طالت ودامت أشعارنا الجاهلة الجاهلية نغنيها وننشدها تمجيداً وتعظيماً لعجزنا وجهلنا وهزائمنا ونقائصنا ومبارزة ومفاخرة بها، حتى لقد رفعناها وعلقناها فوق الكعبة وسميناها «المعلقات» لضخامة إعجابنا ومباهاتنا بها..!

إن الإنسان العربي محتاج إلى أشعار ومعلقات وأناشيد جديدة مناقضة جداً للقديمة التاريخية.. مناقضة لكل محفوظاته ومروياته ومتمردة عليها ليضرب ويصدم ويفجع بها آذانه وآذان زعمائه وأنبيائه وقادته وجماهيره بل وأذني إلهه.. أذني إلهه اللتين قد أفسدهما بل وعوقهما وأضلّهما بما كان يسمعهما وبما لا يزال يسمعهما. أيهما أكثر تضليلاً للآخر: الإله العربي أم الإنسان العربي؟ ما أفظع جنايات الآذان على الإله العربي وعلى الإنسان العربي..!

.. أليست الآذان تفسد وتضلل وتعوق بنوع ما تسمع؟ أليس الإسماع الدائم لأذني الإله التمجيد والمديح شكراً له على أقبح القبائح التي يريدها ويدبّرها ويفعلها مسؤولاً أو يجب ويفترض أن يكون مسؤولاً عن إصراره على ذلك وتكراره له ورضاه عنه وإعجابه به؟ ماذا كان يمكن أن يحدث وأن يكون قد حدث لو كانت أذناه أي أذنا الإله تعاقبان وتحاسبان وتحاكمان على كل شيء قبيح أو رديء أو بليد يفعله لا أن يصلى له ويمجّد ويشكر على ذلك؟ ما أحوج أذني الإله إلى التوبيخ لا إلى المديح..!

هل انتظر أو توقع أن تنشروا هذه الأنة أو الآهة في المكان وبالأسلوب الملائمين؟ إن كان محتوماً أن تسخروا من توقعي هذا فأرجو أن تسخروا بشيء من الرفق والرحمة والوقار.. ولا مانع من أن يهبكم ذلك شيئاً من الضحكات المدوية السعيدة المتكافئة مع أسلوبكم في مخاطبتكم للسلطان ولرعاياه..!

ما أقسى ما تفعلون بالسلطان ورعاياه بأسلوبكم السعيد الممجد الطيب..!

.. تحدثتم بفرح وإعجاب مترف عن رفع الرقابة عن صحافة الوطن العربي الذي تستفرغون عليه وفيه وبه ومنه وباسمه كل ما تجرؤون على استفراغه وتربحون وتأمنون وتتعبّدون وتتمدّحون وتزينون وتتزينون باستفراغه..!

ولكن هل جهلتم أو أردتم أن تتجاهلوا هذا.. أن تتجاهلوا أن رفع الرقابة عن الكلمة في أي وطن أو مجتمع عربي يدل على مأساة.. يدل على أن هذا الوطن أو المجتمع قد أصبح مستسلماً استسلاماً ذاتياً.. مقيّداً بلا قيد ومربوطاً بلا رباط ومغلولاً بلا غل ومسجوناً بلا سجن ومحكوماً مضروباً بكل السياط بلا أي سوط أي أصبح كل ذلك وكذلك من داخله..!؟

لقد أصبح سلطانه أو حاكمه آمناً من أي رفض أو اعتراض أو نقد أو حتى تساؤل.. لقد أصبح يحكم قطيعاً لا مثيل له في الطاعة والهدوء والاستسلام بلا أية حراسة أو أوامر من خارجه..!

أما فرض الرقابة على الكلمة في أي بلد عربي فإن دلالة ذلك أقل سوءاً مهما كان قبحها. لأن هذا

الفرض للرقابة يعني أو قد يعني أنه قد يوجد من قد يخفق قلبه أو عقله أو أخلاقه أو طموحه أو آماله بالرفض أو بالنقد أو بالمعارضة أو بالاستنكار ولو بأخفى الأساليب الهامسة.. ولو بالتمني والانتظار.. إن الكائن الحي قد يوضع في قيد أو قيود، أما الكائن الميت فلن يوضع في شيء من ذلك..!

لهذا فقد يكون من الصواب أن يقال: إن أذل المجتمعات العربية هي المجتمعات التي لا رقابة فيها على الكلمة..!

إن هذه لإحدى خصائص المجتمعات العربية ـ إحدى خصائصها الأليمة.!

إنه إذن لشيء من البشرى أن يقال ويسمع أن ذلك الوطن العربي قد شدّد وضاعف الرقابة على وسائل التعبير بكل أنواعها بل وبالغ في الحراسة على كل عقل وفكر وقلب وعاطفة ولسان لأن ذلك يعني احتمال وخشية تفجر ذلك أو شيء منه بلغات الرفض أو النقد أو الاحتجاج أو المقاومة أو حتى المحاورة والمساءلة..! ووجود ذلك ولو احتمالاً في أي وطن عربي شيء عظيم وعلامة مفرحة بل مبشرة..!

❀ ❀ ❀

ولكن هذا الحديث المحرق المحترق عن ماذا؟ إنه عن هذه الفاجعة.. الفاجعة بكل تفاسير وصيغ وقسوة الفواجع..!

إنها فاجعة تعايش وتزاحم كل ألوان الفواجع الأخرى في عالمنا العربي وليست غريبة أو فريدة في عالمها العربي. إنها هذه: حين أعلن العرب نفطهم سلاحاً تحت أعجب وأفجع الهزائم التي لن ينافسها أي مثيل أو شبيه دقّت كل الأجراس والأصوات والطبول العربية معلنة أن العرب قد ملكوا كل أمجاد الكون وأذلوا كل الرقاب وخطفوا من الشموس والنجوم كل أضوائها وكبريائها وعيونها.. أما العالم فقد أصابه الصمت والذهول إما انفجاعاً أو اندهاشاً أو اشمئزازاً أو احتقاراً أو استصغاراً لنا أو لأسباب أخرى ليست مكرمة أو مشرفة..

نعم، أكثر من مئتي مليون عربي معهم كل العالم أو أكثر العالم بأصواته ومواقفه ومساعداته لأن معهم أي مع العرب كل محاباة الطبيعة بكل عطائها العشوائي البليد يعجزون قتالاً وعضلات وعقولاً وأخلاقاً وسلاحاً على امتداد أكثر من خمسة وعشرين عاماً عن مواجهة مليونين أو ما يزيد عن ذلك قليلاً من البشر.. من بقايا الرعب والتعذيب والتقتيل والتشريد والتحقير والإذلال والمطاردة التي اشترك وتعاون وتحالف وتنافس على توقيعها عليهم وبهم كل الآلهة والأنبياء وكل الأبالسة والملائكة وكل الشعوب والبشر أتقياء وفجاراً، مؤمنين وكافرين وكل التاريخ بل وكل الأديان والكتب المقدسة.. من بقايا كل أساليب الموت والتشريد والتهديد.

يعجزون عن مواجهة هذا العدد الضئيل الفقير الطريد المنبوذ المشتوم بكل لغات كل الآلهة والأديان والقوميات والنظم.. المزروعة في عضلاته العقلية والدينية والنفسية والتاريخية والعرقية

والجسدية كل حراب كل العالم ضاربة بأيدي وعضلات كل الآلهة والأنبياء والعنصريات والقوميات والأديان والمذاهب والأحقاد والعصبيات والانتماءات المغروسة فيها أنياب كل الوحوش والوحشيات..!

وحين يعجزون هذا العجز المعجز في عجزه لا يصمتون صمت إلههم أو يغيبون غيبته وغيبوبته أو يتجمعون في معابدهم يصلون ويدعون من لن يسمعهم أو يستجيب لهم، كذلك لا يذهبون يبحثون عن الطب والأطباء أو يخلقون الطب والأطباء للتداوي من عجزهم الذي لا بدّ أن يتحول إلى إحراج وفضح وهجاء لقدرة وموهبة وفن وذكاء من أرادهم وخططهم وخلقهم وصاغهم، كما لا يحاولون أن يضعوا أنفسهم تحت كل معامل التحليل وأجهزة التشريح لاكتشاف أسباب ضعفهم المعجز تفسيره لكل التفاسير ولكل المفسّرين..!

كما لا يحاولون الاختفاء والاستتار والهرب من كل عيون وآذان وقراءات وتفاسير كل العالم لهم وتساؤله عنهم رحمة بأنفسهم بل ورحمة بالعالم وحماية له من قسوة الانفجاع والصدمات.. إن عجز العرب في مواجهتهم لهذا العدو لهو علة ذاتية تكوينية لن يكفي أن يوضع لاكتشافها وتحليلها وعلاجها كل معامل التحليل وأجهزة الكشف والتشريح وعبقريات كل الطب والأطباء وكل وسائل وأساليب العلاج..

إنه لمن المشكوك فيه أن تستطيع كل الآلهة أو تعرف أن تعالج وتشفي من هذه العلة لو تجمعت وتحالفت وتعاونت أي الآلهة لتفعل ذلك.. أليس مفروضاً أن تحاول الآلهة ذلك لتكفر وتعتذر وتتراجع عن خطيئتها هذه أو لتسترها؟

إذن لماذا لم تفعل أي الآلهة ذلك؟ هل يمكن أن يكون لهذا تفسير غير أنها لا تستطيع ولا تعرف أن تفعله؟

.. المصابون بهذه العلة أي العرب يصلون لها ويدعونها بكل المسكنة والتذلّل والصراخ والإيمان والأمل طالبين ومنتظرين أن تشفيهم منها.. ومن المجد والخير لها أي للآلهة والستر عليها أن تستجيب لهم وتشفي هذا الشفاء. فلماذا لا تفعل؟ أليس محتوماً أن تقول كل التفاسير: إنها لا تفعله لأنها لا تستطيع ولا تعرف ولا تعلم؟ أليس من أوصاف كل إله أنه لا يستطيع ولا يدري كما لا يعرف أو يتعلم كيف يستطيع أو يدري؟ أليس العجز عن كل شيء هو الأوصاف الدائمة لكل الآلهة؟

إنه لم يصدق ولن يصدق من أوصاف أي إله غير أنه العاجز، العاجز المطلق العجز..

.. نعم، إن قومي لم يفعلوا شيئاً من ذلك أمام هذه المواجهة البائسة بل ذهبوا يقرؤون ويفسّرون ويعلنون أنفسهم على كل العالم بكل الدوي والديمومة والكبرياء والمباهاة...

.. ذهبوا يعرضون أنفسهم أمام كل المرايا والرؤى ذهبوا يقولون بكل الأساليب: إننا لسنا فقط عاجزين وضعفاء بلا حدود أو مقاييس بل وأغبياء بلا حدود أو مقاييس حتى لقد حوّلوا إلههم ونبيهم ودينهم إلى إعلانات عن حالتهم هذه بل وجعلوهم شركاء لهم في ذلك.. في تكوينهم الذاتي هذا.. إنه لم يشوّه شيء شيئاً مثلما شوّه ويشوّه قومي إلههم ونبيّهم ودينهم. إن العربي ليجعل إلهه ونبيه ودينه

دائماً شريكاً له في كل أخطائه وخطاياه ومسؤولاً عن كل ذلك وإعلاناً عنه وتفسيراً قبيحاً ذليلاً من تفاسيره..؟ إن العربي ليحول ويفسر ويعلن ويرى هزيمته وفضيحته وضعفه وهوانه فضيحة وهزيمة وضعفاً وهواناً لإلهه ودينه ونبيه. إنه ليفعل ذلك بكل الصيغ والتفاسير واللغات والجهر بل وإرادة التدين وإن كان لا يدري ذلك..! أليس يعلن ويرى إلهه صائغاً لكل صياغاته؟

⊛ ⊛ ⊛

نعم، ذهبوا بكل النشوة والكبرياء والجرأة والرضا ومشاعر القوة والانتصار والمباهاة والتفوّق يقولون لكل العالم: سنحاربك إن لم تحارب بدلاً عنا عدونا هذا الصغير الضئيل الفقير المطارد المقهور المعادى دولياً وتاريخياً وطبيعياً أي بانحياز الطبيعة ضده إلى أعدائه.. إلينا..

إننا لن نحاربك أيها العالم بأيدينا أو عضلاتنا أو بعقولنا وأخلاقنا أو بعبقرياتنا أو بتفوقنا الحضاري أو العلمي أو الإنساني.. ولا بجيوشنا بل بآبارنا.. بنفطنا الذي هو نفطك لو جرؤنا على قول الصدق.. سنحاربك أيها العالم هذه الحرب إن لم تحارب عنا عدونا هذا.. قال وأعلن قومنا ذلك بكل الأصوات حتى بأصوات إلههم ونبيّهم وقرآنهم ودينهم مفسرين له بكل التفاسير وقارئين له بكل القراءات من فوق وداخل كل المنابر والمحاريب..!

هل حدث ذلك؟ هل عرف أو سمع العالم به؟

إذن لتصعد أيها العار.. ليصعد مجدك فوق كل مجد وليهزم كل مجد.. لتسجد كل الهامات تحت هامتك.. تحت هوانك..!

لقد هتفت وصلت كل الأصوات والعقول والشهامات والبسالات والقيادات والعبقريات والكبرياء العربية بل والألوهيات والنبوات والديانات العربية لهذا السلاح العربي أي للنفط العربي مقاتلاً بديلاً وتعويضاً عن الفارس العربي الذي غابت أو نامت أو ماتت فروسيته طويلاً، طويلاً حتى يئس من قدومها واستيقاظها وبعثها وانبعاثها..!

نعم، أليست الفروسية عذاباً وهولاً يأكلان ذات صاحبها؟

أين أنت أيها الذكاء؟ أين أنت أيتها الكرامة؟ كيف غبتما في هذه القضية وفي كل القضايا الأخرى من قضايا قومي؟

كيف غبتما عن جميع زعامات وقيادات ونبوات وعقول وأخلاق وأقلام وأصوات وثورات قومي؟ هل سرقتما؟ من سرقكما من قومي؟ هل سرقكما سارق؟ وهل يعيدكما سارقكما ومتى إن كان لكما سارق؟ هل سرقكما من قومي إله قومي لكي يزدادوا له تعبّداً وهواناً واستسلاماً أليس الإنسان بقدر بلادته وهوانه يؤمن ويستسلم ويذل ويطيع؟

.. أيها الذكاء، أيتها الكرامة لتصابا بشيء من الشهامة والحنان والإشفاق والرثاء لتفكرا في العودة إلى الإنسان العربي.. لتعودا إليه ولو بمقادير قليلة، قليلة أقل مما يفترض ويطلب للإنسان؟ كيف استطعتما أيها الذكاء، أيتها الكرامة أن تسمعا أي عربي ولو عربياً واحداً يقول جهراً أو

همساً: إننا سنحارب العالم بالنفط لكي يحارب عنا هذا العدو الصغير الفقير المهجور المضطهد دولياً وتاريخياً؟

كيف استطاعت أذن عربية واحدة أن تسمع ذلك؟ هل سحرت الآذان العربية؟ هل ماتت؟ هل أصبحت معادية لهم لهذا قبلت منهم ولهم أن يقولوا هذا وأن تصغي إليهم طربة يقولونه؟

.. أما العالم.. كل العالم فيبدو أنه لم ينكر أو يفجع أو حتى يتعجب..! هل رأى ذلك طبيعياً فينا بل كل الطبيعي؟ هل رآنا أصغر وأقل من أن ينكر علينا أو يفجع بنا أو ينقدنا أو يحاسبنا.. حتى عدونا هذا الصغير الفقير الضئيل الذي طالبنا العالم أن يحاربه عنا لم يفعل أو يقل شيئاً من ذلك. هل احتقرنا العالم بكل هذه القسوة؟ أليس أقسى أساليب ومعاني الاحتقار لأي قوم أن يروا غير مستحقين لأن يحاسبوا أو ينقدوا أو يحاكموا أو تعاب أو تنكر نقائصهم أو ذنوبهم أو عيوبهم أو تفاهاتهم أو أخطاؤهم مهما عظمت وتفهت وقبحت وشملت ودامت.. أن يروا مغفوراً لهم مصموتاً عنهم.. أن يصبحوا غير مرئيين أو مقروئين أو مفسرين مهما افتضحوا وصغروا وتفهوا وهانوا؟ هل يطيق أي إنسان أن يكون غير مرئي أو مفسر أو مستنكر أو صانع للاشمئزاز أو للاستقباح أو للتعجب أو التساؤل أو للسخط مهما تعرى وافتضح وقبح في كل الصيغ والأحجام والمقاييس والتفاسير؟

أليس الخطأ والذنب يريان ويحاسبان بقدر ما يرى ويقدر المخطىء المذنب؟

❀ ❀ ❀

مبالغ أنت أيها العالم في إهانتك وإساءتك لقومي حين غفرت لهم عارهم هذا بكل السخاء والرحمة اللذين يعنيان كل القسوة والتحقير والتعبير الصامت كل الصمت تعبيراً والناطق الجاهر كل النطق والجهر تفسيراً وتقديراً..!

ألا تخشى أو ترى أيها العالم أن يأتي يوم يحاسبك فيه العرب.. يحاسبك فيه أحفادهم ويحاكمونك ويعاقبونك على هذا الغفران لهم.. الغفران الأليم المهين في يوم آتٍ قد يكون قريباً أو بعيداً جداً، ويطالبونك بالتعويض والتكفير اللذين قد تعجز عن تسديدهما لضخامة الإهانة والإساءة والجريمة إذ رأيتهم لا يستحقون العقاب أو العتاب أو الإنكار أو حتى الغضب أو الاندهاش أو التساؤل والحيرة مهما كانوا وفعلوا حتى حينما جعلوا النفط كل قواهم وأسلحتهم وحروبهم الفكرية والعقلية والأخلاقية والعضلية في كل مواجهاتهم ومبارزاتهم لهذا العدو الصغير.. الصغير بل وفي جميع مواجهاتهم ومخاصماتهم وخلافاتهم مع العالم كله ومع كل شيء.. حينما أعلنوا ذلك بكل الجهر والمباهاة..

.. فكر أيها العالم.. أن ذنبك هذا عظيم، عظيم.. فكر في أن العرب أي الأحفاد قد يعجزون عن أن يغفروا لك غفرانك لهم عارهم هذا الذي لن تستطيع أن تغفره لهم الحروف التي كتب بها ولا الصفحات التي كتب عليها ولا الأقلام التي خطته وخط بها ولا العيون التي قرأته ولا الآذان التي استطاعت سماعه والاستماع إليه..!

إنك أيها العالم تفكر في كل قضاياك. إذن أنت مطالب أن تفكر جداً في هذه القضية.. في قضيتك هذه بكل الحرارة والمرارة والقسوة والحذر الشديد..

❁ ❁ ❁

إن بقاءنا ألف عام بل آلاف الأعوام تحت الهزيمة نتعذب ونئن ونبكي ونعيش كل العار ونقاسيه بكل الانفجاع والترويع ومشاعر المذلة والهوان ليخلق لنا وفينا ذلك عضلات وأظفاراً وأنياباً وقلوباً وعقولاً وأخلاقاً وأدياناً ونبوات وألوهيات تجعل خمسين رجلاً.. خمسين فارساً منا يجرؤون ويستطيعون أن يواجهوا رجلاً أو غلاماً واحداً من رجال وغلمان عدونا هذا الصغير الفقير الطريد المقذوف أبداً بكل أسلحة العداوة والعدوان والبغضاء والحقد والتعصب الذي يصنعه ويجمعه ويفجره كل ما في تكوين الإنسان وظروفه وحياته من شرور ومخاصمات ومناقضات ومنافسات وعداوات وجهالات وآلام وأمراض وقبح ومن آلهة وأنبياء وأديان متعاقبة متنافسة متناقضة متعادية.. قبيح وثقيل ما تحمله وما حملته حياة الإنسان من ذلك... إنه لا يوجد حامل لأقبح وأفجع وأغبى وأثقل الأثقال مثل حياة الإنسان وتاريخه.. الأثقال النفسية والعقلية والأخلاقية والدينية والاعتقادية.. لهذا فإنه لا معذب في هذا الوجود مثل الإنسان مهما تعاظم مجده وسعادته..!

.. إن أثقل الأثقال التي تحملها حياة الإنسان وتاريخه هي آلهته ونبواته وأديانه، وإنها لأقسى أعدائه وأقوى المحرضين لأعدائه الذاتيين والنفسيين عليه وعلى حياته.. على صفائها وسلامها وجمالها وحبها بل وعلى صدقها وتقواها وشرفها وإشراقها..

إن الإنسان لم يعاقب أو يشوّه حياته وكل معانيه الإنسانية مثلما عاقبها وشوّهها بآلهته وأنبيائه وأديانه وبما ورثه ويرثه من تاريخه.. بكل تراثه وبكل مفاخره بتراثه وبما صنعه له وورثه إياه تراثه من خلافات وخصومات ومنافسات ومبارزات وملاعنات وعداوات ومواجهات ومصادمات ومن معابد متزاحمة متحاسدة متطاولة متقاتلة بكل النيات والتمنيات واللغات والصلوات بل وبكل الضربات وأقسى الضربات الواقعة أو المتوقعة المحشودة المخزونة في النفوس والناطقة المنطوقة في العقائد إما نصوصاً وحروفاً وجهراً وإما تفسيراً وتعليماً وهمساً..

إنه لو كانت هناك قوة كونية خارج الأرض معادية للإنسان تدبر وتخطط المؤامرات لتوقع به أي بالإنسان أقساها لقالت كل الأفكار والعقول إن ابتكار الآلهة والنبوات والمعتقدات والأديان المتعددة المختلفة المتعاقبة المتعادية المتنازعة المتصارعة المتنافسة المغطية لكل تاريخ الإنسان المقتسمة المقسمة له لهو أقسى وأذكى وأنجح هذه المؤامرات التي أوقعتها هذه القوة الكونية الشريرة بالإنسان..!

إن أقوى قائدين لأقوى جيشين متحاربين لن يوقعا بحياة الإنسان من الويلات والعداوات والأحقاد والعذاب والخراب والبذاءات النفسية والأخلاقية مثل ما يوقعه بها.. بحياة الإنسان نبيّان جاءا بدينين مختلفين متنازعين متنافسين لكليهما أتباع ومعابد وتعاليم وكتاب مقدس وكلاهما يعلن أن الله قد قذف فيه كل معاني عقله وقلبه وضميره وأشواقه..!

.. إن المعابد المتجاورة التي تشيدها وتتعبّد وتتعلّم فيها الأديان المتعددة التي جاء بها الأنبياء المتعددون لن تكون إلّا حصوناً وقلاعاً للبغضاء وإلّا مصانع أسلحة.. شر الأسلحة لبرهب ويعادي ويقاتل بها الإنسان نفسه.. ليرهب ويحارب ويشوّه ويلوّث ويعاقب بها كل معانيه الإنسانية.. النفسية والفكرية والأخلاقية واللغوية والدينية بل والقومية والوطنية.. من أراد ودبّر وصنع للإنسان هذه الكارثة؟ هل يوجد داخل هذا الكون أو خارجه عدو للإنسان بكل هذه الوحشية؟

❀ ❀ ❀

نعم، إن بقاءنا آلاف الأعوام تحت كل الهزائم نقاسيها، نقاسيها بكل معانينا وحياتنا لتصنع منا قدرة على أن نتداوى من عجزنا هذا لأفضل وأعظم انتصاراً ومجداً لنا من كل انتصار يوهب لنا حباً أو احتراماً لنفطنا أو خوفاً أو مخادعة ونفاقاً منه وله.. لغبائه وبداوته الحزينة..

وقح ونذل وقاسٍ أنت أيها العالم حينما أحببتنا واحترمتنا وعظّمتنا وأطعتنا وصادقتنا وواليتنا وأنشدت فينا أروع قصائد الحب والغزل والمديح والتعبّد بل والمبايعة بكل حضاراتك لنا - حينما أعلنت ذلك وخطبت به وقرأته بكل الأصوات واللغات في كل المحافل والاحتفالات والحفلات الدولية وأنت لا تعنينا بشيء من ذلك وإنما تعني به كله آبارنا.. نفطنا المعز المذل..! هل تغفر لنا أو لنفطنا أيها العالم وقد حوّلك احتياجك وظمؤك إليه أي إلى نفطنا - حوّلك إلى نذل سفيه مهين ذليل؟ أينا أكثر احتياجاً إلى غفران الآخر؟

هل نحن أحوج إلى أن نغفر لك لأننا أهنا وأفسدنا وفضحنا أخلاقك وصدقك وكرامتك وبسالتك بنفاقك وخضوعك لنا أي لآبارنا.. لنفطنا، أم أنت أحوج إلى أن تغفر لنا لأنك كذبت علينا ولنا وصليت ونافقت وتملقت وذللت وسجدت لنا وأنت لا تعنينا بأي شيء من ذلك وإنما تعني به كله نفطنا ولأنك لم تجد فينا ما خلا نفطنا شيئاً يستحق المحاسبة أو المحاكمة أو المعاملة أو المحاورة أو المساءلة أو الرؤية أو القراءة أو الفهم أو التفسير أو الخوف أو حتى المساومة أو الغضب أو الاستنكار لهذا غفرت لنا كل نقائصنا بل ومجدتها بل وجعلتها أي نقائصنا هي المعلمة والقائدة والمصححة والمحضرة لكل من يريدون أن يتعلموا ويعلموا ويتقدموا ويتحضروا ويصلحوا ويصححوا كل شيء فيهم وفي حياتهم بل وفي الكون بل وجعلتها أي نقائصنا كل ذلك لكل من أصبحوا كذلك أي عالمين متعلمين متقدمين متحضرين مصلحين مصححين لأنفسهم ولحياتهم وللكون ولكل شيء..!

لقد أعلنت أيها العالم ذلك ولا تزال تعلنه أو جعلتنا نعتقد أنك تعلنه وتعتقده، أو تعتقده دون أن تعلنه، أو تحياه وتعرضه دون أن تعتقده جحوداً ونكراناً وحسداً وغيرة من أمجادنا التاريخية والأبدية. لقد جعلتنا نعتقد ذلك وتعلنه.! فعلت ذلك وكأنك تريد أن تقول لنا: لقد فعلتم كل شيء جيد وعظيم وجميل في كل معاني الحياة فلا تفكروا أو تحاولوا أن تريدوا أو تفعلوا أي شيء جديد أو آخر...

.. كأنك تريد أن تخدعنا وتضللنا وتخدرنا وتعوقنا عن أي تحرك أو صعود، كأنك ترانا محتاجين إلى أن يفعل بنا ذلك من خارج أنفسنا لأننا لا نستطيع أو نريد أن نفعله بأنفسنا بلا أية قوة خارجية خادعة مضللة مخدرة معوقة بل ولو تجمعت وجاءت كل القوى لتمنعنا من أن نفعل ذلك بأنفسنا ولأنفسنا.. من أن نفعله بها ولها بكل القسوة والقبح والافتضاح.. كأنك أيها العالم لا تعرف ذلك فينا.. كأنك لا تعلم أيها العالم أن من أوصافنا التي لم تتغير ولن تتغير أننا مهما احتجنا إلى كل الآخرين ليصنعوا لنا وبنا وفينا كل شيء جيد أو عظيم أو جميل أو قوي أو نافع أو معقول أو محتوم أو حتى تقي فإننا لم نحتج ولن نحتاج إلى من يصنع لنا شيئاً من ضعفنا أو عجزنا أو هواننا أو جهلنا أو تخلفنا أو هزائمنا أو فقرنا أو عيوبنا أو ذنوبنا أو إلى من يعلمنا ذلك أو يدلنا أو يحرضنا عليه أو يقودنا إليه أو يدعو لنا إلهنا ليوقعه بنا أو يدعو لإلهنا أو يغريه ويغويه ليجيء أسوأ أو أقبح أو أعجز أو أقسى مما جاء.. إننا لم نحتج ولن نحتاج إلى من يخدعنا، إننا مخدوعون ذاتياً كل الانخداع.!

.. حتى إلهنا إن كل شيء وكل أحد لن يستطيع أن يجعله أفضل وإننا نحن لن نحتاج إلى من يعلمنا أو يساعدنا على أن نراه أو نعتقده أو نفسره أو نصنعه أو نجده أو نجعله كل هذا الأسوأ الأردأ..

.. إننا نريد ونفعل كل الأشياء الرديئة بلا أي معلم أو قائد أو مضلل أو مخادع، ونرفض ونعجز أن نفعل الأشياء الجيدة حتى ولو علمتنا إياها وحرّضتنا عليها كل قوى هذا الوجود بل وكل آلهته وأبالسته.. حتى الأبالسة إننا لا نستطيع أن نتعلم منهم شيئاً لا من مزاياهم ولا من رذائلهم.. إننا لمستغنون بنقائصنا عن أن يعلمنا الأبالسة أية نقيصة..!

إن إبليس وذريته لو لم يخلقوا أو لو أنهم ماتوا أو لو أنهم لم يعرفوا أو يدخلوا أرض العروبة لما جاءت نقائصنا أو سيئاتنا أو غواياتنا أقل أو أكثر أدباً أو استحياءً مما جاءت...

ولو أنه لم يبعث فينا أو إلينا أي نبي أو دين أو معلم أو مهدي أو ينزل علينا أي قرآن أو تعاليم لما جاءت تقوانا أو هدانا أو عقولنا أو أخلاقنا أو براءتنا أقل أو أضعف مما جاءت أي لو كان لنا شيء من ذلك.. من الهدى أو التقوى أو العقول أو الأخلاق أو البراءة النفسية والإنسانية..

إن كل عبقريات وحيل كل الأبالسة وحلفائهم وأعوانهم لم تساعدنا على معرفة وفعل وترسيخ أية سيئة من سيئاتنا...

وإن جميع أديان وتعاليم ونبوات وكتب جميع الأنبياء لم تستطع أن تساعدنا على أن تكون لنا حسنة أو مزية واحدة ترى أو تعرف أو يعترف بها أو تحترم أو تهاب أو تعد وتحسب حين تعد وتحسب الحسنات والمزايا ـ لم تستطع ولن تستطيع ذلك.. إن كل الآلهة والأبالسة بريئون من سيئاتنا ومن حسناتنا لو وجدت.

❀ ❀ ❀

في هذا اليوم صهلت وزأرت ونبحت وغنت جميع الأجهزة العربية المرئية والمقروءة والمسموعة

معلنة بكل مشاعر الحماس والكبرياء والنخوة أنه مهما حدث فإن سلاح النفط سيظل معداً لإطلاقه على كل العالم مرة ومرات أخرى ودائماً ما لم يحارب إسرائيل بكل الأسلحة ويعادها حماية ورثاء واحتراماً وتعظيماً لعجزنا وهواننا وبلاداتنا بل وترسيخاً وتخليداً لكل ذلك فينا.!

... لتصب أيها التاريخ بكل الصمم والأمية وفقد الذاكرة لئلا تكتب أو تروي أو تذكر أو تتذكر شيئاً عن العرب.. عن حروبهم وأمجادهم النفطية.. ولكن هل أنت أيها التاريخ تفعل أي شيء من ذلك بالصدق أو الذكاء أو الإتقان أو الأخلاق أو التقوى لكي يخشاك من يجب أن يخشوك؟ هل يوجد مزوّر مثلك؟ هل يوجد تزوير غير تزويرك أيها التاريخ؟ ألست كل المزورين؟

❀ ❀ ❀

.. لماذا أيها النفط العربي جئت بديلاً عن الإنسان العربي؟ لماذا جئت بهذه الضخامة والقوة والانتصارات وجاء الإنسان العربي بهذه الضآلة والعجز والهزائم؟ هل مجيئك كما جئت هو الذي جعل الإنسان العربي يجيء كما جاء أم كان مجيئك كما جئت أي بكل هذه القوة والضخامة والانتصارات تعويضاً لمجيء الإنسان العربي كما جاء أي بكل هذه الهزائم والضعف والضآلة؟ هل القضية قضية تقسيم أم قضية تعويض؟ هل في القضية سرقة أو نهب واغتصاب؟ هل سرقت أو نهبت أو اغتصبت من الإنسان العربي كل معانيه القوية الفعّالة لتصبح أنت هذا الجبّار ويصبح هو هذا الهزيل الضعيف في كل صيغه وتفاسيره.. في كل أفعاله وأفكاره؟

هل هنا خيار صعب أليم لا بدّ منه: هو أما أنت وأما هو دون احتمال أو إمكان أن تكون أنت وهو معاً؟ ومن يمكن أن يكون المقرر الفارض لهذا الخيار إن كان ذلك كذلك؟ ولماذا جاء هذا الخيار ولم يجيء الخيار الآخر؟

إذن أيها النفط العربي هل أنت سارق ناهب مغتصب شرير أم أنت بديل نبيل رحيم؟

وماذا لو لم تأت أو لم تأت كما أتيت لا سارقاً ناهباً غاصباً ولا بديلاً نبيلاً رحيماً؟ هل لهذا جواب وهل يمكن معرفة الجواب؟ وهل أنت إن كنت بديلاً بديل نبيل أم بديل أليم، أليم لئيم؟ وأين غاب السؤال الذي يجب أن يقول: لماذا استحال أيها النفط العربي أن تجيء قوياً جباراً كما جئت ويجيء الإنسان العربي كذلك؟ هل توجد قوة شريرة فوق هذا الكون معادية للإنسان العربي منعت أن يحدث ذلك؟

وأي الخيارين أفضل وأنفع للإنسان العربي إن كانت القضية قضية خيار أو تخيير محتوم: أن يجيء أي الإنسان العربي مثلما جاء نفطه قوياً جباراً مخيفاً ويجيء نفطه مثلما جاء هو ضعيفاً هزيلاً ذليلاً أم أن يحدث العكس أي مثلما حدث وما هو حادث؟ وهل يمكن أن يقال لقد كان من الأفضل الأنفع أو الأستر للإنسان العربي ألا يكون له نفط بكل هذه القوة أو بلا أية قوة إذا كان محتوماً أن يجيء وأن يظل هو بكل هذا الضعف؟

أليس اختفاء من لا يستطيع أن يكون عظيماً أو جميلاً أو نظيفاً أو ساراً أفضل من ظهوره؟

ولكن لا يمكن أن يصدق القول لو قيل بأن النفط العربي بضخامته وقوته وإغرائه وإغوائه قد أسكت أو أنام أو أمات أو أضعف المواهب والطاقات العربية ومنعها من التفجّر والظهور القاهر الباهر بإغنائه عنها وأنه لولاه لانطلقت في الإنسان العربي ومنه وعنه أضخم وأقوى المواهب والطاقات...

.. لا يمكن أن يصدق هذا القول لو قيل لأن وجود الطبيعة القوية الغنية السخية لا يصد أو يخيف أو يعتقل الطاقات والمواهب إذا وجدت بل يحركها ويحرضها ويؤججها ويفجرها ويتحول إلى أقوى وأذكى وقود لها..

كما أن فقد مثل هذه الطبيعة الغنية القوية السخية لن يعوق المواهب والطاقات الموجودة من التعبير عن نفسها بأقوى وأبدع الأساليب، فالمواهب الموجودة لن تقتلها أو تفقدها أو تسكتها أية ظروف، والمواهب المفقودة لن توجدها أية ظروف.. إن المواهب الموجودة القوية تصنع الظروف الملائمة وتحول الظروف غير الملائمة إلى ظروف ملائمة..

أما المواهب المفقودة فلن تصنع منها الظروف الملائمة أية مواهب ملائمة للتعامل المتكافىء معها..

فالمتخلفون العاجزون تخلفاً وعجزاً ذاتيين لن يكونوا متخلفين أو عاجزين لأن ظروفهم جيدة ولا لأنها رديئة..

والمتفوقون القادرون ذاتياً وتكوينياً لن يكونوا متخلفين ولا عاجزين مهما كانت جودة ظروفهم أو رداءتها..

قد يقول التفسير الفاجع لقضية الإنسان العربي ونفطه إن صاحب هذا الكون قد تورّط أو تعجّل فبصق هذا النفط في الأرض العربية بكل هذه الضخامة والإسراف فأصابه الندم والحسد للإنسان العربي بكل القسوة والانفجاع ولم يعرف أن يتراجع عما فعل فذهب يعاقب بكل الوحشية والفظاظة واللؤم، فكان عقابه أن سحب من الإنسان العربي كل المواهب والطاقات الفاعلة القادرة المبدعة الخلاقة المنتصرة الذكية انتقاماً من إعطائه ما لم يرد أو يقبل أن يعطيه له وهو ضخامة هذا النفط..!

لقد غلط فأعطاه فحسده فعاقبه عقاباً لا يستحقه على ما أعطاه.!

إن من درس وعرف أخلاق ونفسية الإله العربي وردود فعله لا بدّ أن يرى هذا التفسير محتملاً إن لم يره محتوماً أو لن يراه مرفوضاً أو مستحيلاً. إن الإله عربي العواطف والمشاعر.. وهل يبارى العربي في موهبة الحسد وفي الاستجابة القبيحة لها؟

إن للحسد والحاسد شأناً كبيراً وبيلاً في حساب الإله العربي.. لقد تحدث عنهما في قرآنه بكل التهويل والتضخيم والانفعال المذعور المفجوع، لقد تحدث عنهما بأسلوب من يخشى على نفسه منهما..!

إنه ليكاد يخاف على جبروته وقوته من جبروتهما وقوتهما..!

.. لقد أنزل على خاتم وسيد وسلطان أنبيائه محمد سورة التعوّذ والتعويذ يأمره بكل الرهبة والتوقعات الأليمة المحترقة بأن يستعيذ به ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ..﴾.

إنه لم يكتف بأن يعيذه ويحميه من شرور الحاسدين وهو القادر على ذلك وعلى كل شيء بل من ضخامة خوفه من ذلك أي من قدرة الحاسدين وفتكهم فقد منطقه وتوازنه بل وخرج على كل منطق وتوازن وتعقّل واحترام للنفس وأمره.. أمر من يريد إنقاذه من ضربات الحاسدين أن يطلب منه هذا الإنقاذ بكل أساليب الافتضاح كأنه قد نسي أنه وحده القادر على هذا الإنقاذ والمريد الفاعل له..!

كم في هذا من التضخيم لخوفه من الحسد..!

إنه لشيء رديء وقبيح وفاضح بكل التفاسير والحسابات أن يقول أي قائل: إني أخاف الحسد.. أن أحسد.. إني أستعيذ بديني أو بإلهي أو بتقواي من أن أحسد.. من أن يقتلني أو يشوّهني أو يفقرني أو يذلني أو يسحب مني مجدي أو جمالي أو قوتي أو ملكي وسلطاني أي حاسد فكيف بمن يطلب منه ويوحي إليه إلهه بأن يقول ذلك وأن يحوّله إلى كتاب مقدس.. إلى قرآن منزل خالد يقرأ ويحفظ ويصلى به ويعلن معجزاً لكل الكون ولكل من فيه كل الأزمان؟

ماذا لو أن أي حاكم أو زعيم أو قائد ذهب يعلن في خطبه وبياناته أنه يخاف من الحسد والحاسدين وأنه يصلي ويتعبد ويفعل كل شيء خائفاً ومستعيذاً من شرور الحسد والحاسدين طالباً الإنقاذ.. الإنقاذ مستعيناً بالرقى والتمائم وقراءة الأذكار؟ هل يمكن أن يقابل أو يفهم مثل هذا بغير السخرية والرثاء والاستهزاء؟ إن الإله العربي يخاف كل هذا الخوف على نبيّه العربي الأوحد من الحسد إذن ألا يعني ويفسّر هذا أنه أي الإله العربي يخاف على نفسه من ذلك خوفاً أشد وأحد من خوفه على نبيه؟

لنقرأ هذا ولنفكر فيه...

لماذا يختفي الإله اختفاء أبدياً عن كل العيون والعقول والقلوب والضمائر وعن كل تطلّع وانتظار له وإليه؟ لماذا؟

ولماذا يجيء أبداً تخطيطه وتدبيره وإرادته وخلقه وفعله وعرضه لنفسه بكل هذا القبح والضعف والغباء والرداءة والأخطاء والخطايا وبكل الخروج على كل الفن والإتقان والجودة والجمال والمنطق والحكمة حتى تحولت كل عبقريات وحضارات ونضال الإنسان إلى محاولات تصحيح وعلاج لأخطائه وخطاياه؟ لماذا؟ ولماذا يحول نفسه أبداً إلى مهزوم مقهور ذليل أمام كل أعدائه، أمام إبليس وكل أبنائه وأعوانه ليظل أبداً حزيناً كئيباً مغيظاً مقاسياً لكل الغضب والعذاب النفسي والقلبي والأخلاقي بل والاجتماعي والكوني حتى ليستحق كل الإشفاق والرثاء والرحمة من كل القلوب والعواطف الرحيمة بل والقاسية؟ لماذا؟ ولماذا يجعل ويعلن نفسه أي الإله دائماً محروماً كل الحرمان من كل المتع والاستمتاع بلا أي استثناء.. بلا أي مثيل؟ لماذا؟

هل للإله مثيل في حرمانه من كل اللذات؟ لماذا اختار لنفسه ذلك؟

لماذا جاء كائناً يستحق أبداً أن يرحمه ويعطف ويشفق عليه ويحزن ويرثي له كل أحد دون أن يستحق غيرة أو غبطة أو حسد أحد حتى ليذهب من قسوة غيظه وغضبه وعذابه وعصيانه وهزائمه يقاسي كل المقاساة ليخلق الجحيم بكل أهواله وتكاليفه وحراسه وزبانيته ليرد به على عنف عذابه وقسوة حياته.. ليرد به على ما قاسى ويقاسي بلا أي ثمن أو جزاء أو تعويض؟ لماذا؟

هل وجد عامل معذب بلا أي أجر أو خلاص غير الإله؟ لماذا؟

ألا يكون التفسير حتماً أو احتمالاً أنه قد فعل ذلك بنفسه.. قد فعل كل ذلك بنفسه دون أن يحاول إخفاء أي شيء منه بل محاولاً المبالغة في إبرازه وتكراره وفي الحديث عنه.

ـ نعم، ألا يكون التفسير أنه قد أوقع بنفسه كل ذلك بكل هذا العنف والديمومة ليحمي نفسه من الحسد لأنه لا مثيل له في خوفه من الحسد.. ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾؟ وإن لم يكن هذا هو التفسير فأي تفسير إذن؟ إن جميع التفاسير لتقبح وتتبلّد وتهزم أمام هذا التفسير مهما كانت عيوبه وذنوبه..!

إن الإله هو الكائن الذي لا بدّ أن تكون أجمل تفاسيره هي أردأ التفاسير في منطق كل تفسير ومنطق كل مفسّر لأي شيء..!

لهذا فإن أي مفسّر للإله لن يجد أي تفسير يرضاه أو ترضاه التفاسير أو ترضى أن يحسب منها.. أن يحسب تفسيراً ليدس فيها..!

فكل تفاسير كل الآلهة هي خيار بين القبيح والأقبح لا بين الجميل والقبيح أو الأجمل والأقبح. إن تفاسير كل الآلهة لهجاء لكل التفاسير..

.. إنه لا شيء علم العقل الإنساني التفاسير الرديئة الخاطئة الخارجة على كل التفاسير ودربه عليها مثل تفاسيره لآلهته.. إن الإنسان لم يهن أو يفسد عقله أو يخرج عليه مثلما فعل به في هذه القضية.. إنها لقضية تستحق من الإنسان كل اهتماماته.. كل اهتمام عقله وذكائه وكرامته وأخلاقه وحضارته، بل وكل اهتمام تدينه وتقواه وشرفه ونظافته إن كان له أو إن كان قد بقي له شيء من ذلك.. إن الإنسان لم يعاقب كل معانيه مثلما عاقبها بتفاسيره لآلهته..!

إن ها هنا أيها النفط العربي لسؤالاً لعله لم يسأله أحد مع أن المفروض بل والواجب أن يسأله كل أحد..

إنه سؤال قد يهاب الإله سؤاله أو الاستماع إليه أو التفكير فيه أو تصوره أو انتظار أو تفسير جوابه..!

إن أقوى وأوجب وأصدق وأذكى الأسئلة هي أكثر الأسئلة صمتاً عنها وجهلاً بها وفراراً وخوفاً منها وإعراضاً عنها لأنها أكثر الأسئلة تعذيباً وتعجيزاً وإرهاباً وإحراجاً وتكذيباً وتجهيلاً لسائليها وللمسؤولين عنها المطالبين لها بأجوبة..!

لهذا فإنه لا يوجد ولن يوجد مثل الإله صمتاً عن الأسئلة بل ورفضاً وخوفاً من الأسئلة التي

يجب أن يكون هو سائلها والمسؤول المجيب عنها والمحاسب المحاكم بها وعليها أو مثله معاقباً عليها ومعلماً ضدها..!

لعله لم يرسل أحداً من أنبيائه إلّا لإسكات كل الأسئلة التي لا بدّ منها..!

... إنه لا يعرف من يخاف الأسئلة وينهى عنها ويعاقب عليها ويضع كل الحراسات والتشريعات ضدها مثل الإله وأقرب المقربين إليه..!

ماذا لو أن الإله وجه إلى نفسه عن نفسه أو عن أي شيء فعله أو يفعله سؤالاً واحداً جاداً صادقاً ذكياً؟

ماذا لو أنه سأل نفسه: ماذا أنا ولماذا أنا.. كيف جئت ولماذا جئت ومن أين جئت وجئت كما جئت ومتى جئت وهل أبقى وكم أبقى ولماذا أبقى.. وما الثمن أو الفائدة أو المنطق.؟ وهل حرضني محرض على المجيء ولماذا حرضني؟ هل جئت مختاراً أم مكرهاً.. هل ندمت على مجيئي أم فرحت ورضيت به وعنه.. وهل أسافر أم أبقى أبداً مقيماً في مكاني وذاتي وعالمي؟

.. ولماذا فعلت وأفعل ما فعلته وأفعله.. ولماذا لم أفعله ولا أفعله في صيغ ونماذج وأحجام وأعداد وألوان أخرى.؟

هل أمرض حينئذٍ أو أموت أو أحزن أو أحاسب وأحاكم وأعاقب.؟ هل فكرت فيما فعلت وأفعل قبل أن أفعله وأصمم على فعلي له.. ولماذا جاء ويجيء تفكيري وإرادتي كما جاءا ويجيئان.. هل أنا حر في إرادتي وتفكيري أم هما يحتلان ذاتي ويتفجران ويتخلقان فيها كما تتخلق الأمراض والآلام والمجاعات والانفعالات والأعضاء في الأجساد الحية؟ هل جئت قبل إرادتي وتفكيري أم جاءت إرادتي وتفكيري قبل مجيئي.. وهل رضيت إرادتي وتفكيري عن وجودي ورضي وجودي عن إرادتي وتفكيري وهل حدث تلاؤم وتعاون وتكافؤ بين وجودي بكل صيغه وطاقاته وتفاسيره وبين إرادتي وتفكيري بكل تهويماتهما ومتاهاتهما ونزواتهما وعشوائياتهما وبداواتهما؟ هل وجودي ببداية وله نهاية أم بلا بداية ولا نهاية؟ وهل أستطيع أن أفهم هذا أو هذا؟

ـ نعم، ماذا لو سأل الإله نفسه كل هذه الأسئلة أو حتى واحداً منها؟ وهو حتماً لم يسأل واحداً منها وإلّا لما حدث أو بقي أي شيء مما حدث وبقي حتى ولا وجوده أو ذاته؟ هل يمكن أن يسأل نفسه شيئاً من هذه الأسئلة؟ هل يتصور ما لا بدّ أن يحدث حينئذٍ؟

❀ ❀ ❀

والسؤال الذي أغرقنا وأحرقنا وألقى بنا في كل هذه الحرائق والفواجع من الأسئلة هو سؤال يتصل بأقسى وأقبح فاجعة كونية تاريخية.. يتصل بقضية يصعب أو يندر أو يستحيل أن تتكرر في التاريخ أو في الوجود أو حتى في الخيال؟

إن الصانعين لهذه القضية متفوقون بضعفهم على كل خيال..!

.. إنه سؤال يتصل بالمواجهة العربية الإسرائيلية التي قاسى منها التاريخ والكون والمنطق

والأخلاق بكل الترويع والانفجاع والذهول وبكل مشاعر العار والخزي.. إنه لم يؤلم أو يفضح التاريخ مثلما فعل به قومي العرب..!

إن لقومي مزية عظمى، إنها إذلالهم لكبرياء التاريخ ولكرامته..

.. يقول هذا السؤال: ماذا لو كان العرب بلا نفط حين مواجهاتهم لإسرائيل.. كل مواجهاتهم لها؟ ثم يقول السؤال: وماذا لو كانت إسرائيل تملك كل النفط العربي حين حدثت جميع هذه المواجهات والعرب لا يملكون إلّا أنفسهم.. إلّا مواهب وطاقات الإنسان العربي.. لا يملكون إلّا إلههم ونبيهم ودينهم وقرآنهم وتاريخهم وشعرهم وشعراءهم وإنسانهم بكل أوصافه؟

.. لتكسف وتخسف بل لتمت كل الشموس والأقمار والنجوم وكل شيء أمام هذا السؤال انفجاعاً وفراراً من رؤية وسماع نتائج وتفاسير ذلك وتوقعاته..!

هل تستطيع أو تقبل أية لغة أن يؤلف منها هذا السؤال لقسوة وقبح ما لا بدّ أن يكون جوابه؟ هل جاء كل هذا الصمت عن هذا السؤال لأن جميع اللغات ترفض أن تسأله اشمئزازاً واستقباحاً وانفجاعاً؟

بائستان أذنا الإله إن سمعتا هذا السؤال..!

.. كيف لم يتذكر أو يذكر الإله العربي ولا النبي العربي هذا السؤال أو هذه القضية أو هذا الافتراض؟ هل ذلك عجز عن معرفة أو تخيل أو توقع ما سوف يحدث أم كان ذلك رهبة أو استحياء أو انفجاعاً أو تستراً على ما لا يطاق كشفه وإعلانه ومعرفته؟ إنه لصعب بل لأقسى هجاءً لهما تصور خيالهما وقراءتهما بكل هذا الضعف والعجز والغفلة..!

.. ولو أنهما أي الإله والنبي العربيين ذكرا وتذكرا وعرفا ذلك هل يقبلان أن يكونا عربيين أو قائدين ومعلمين للعرب أو منسوبين إليهم أو معايشين لهم أو متعاملين ومتخاطبين معهم أو حتى مواطنين لهم في هذا الكون أو في أي كون آخر؟

إنه لن يستحق الرثاء مثل إله يسمع ويرى ويقبل ويرفض أن يعيش في العالم العربي..!

ولولا أنهما أي الإله والنبي العربيين لا يقرآن ولا يعرفان القراءة ولا يستطيعان تعلمها ولا يريدان ذلك ولا يستمعان لمن يقرؤون أو يفسّرون أو يفهمون أو يسائلون ما يقرؤون ـ لولا ذلك لكان محتملاً أن يقرآ أو يسمعا أو يعرفا هذا السؤال بعد أن كتبته وطرحته بكل هذه القسوة والحرارة والانفجاع والتفجيع والترويع..!

ولا بدّ أن أكون حينئذٍ أنا المسؤول عن ذلك.. المحسن أو المسيء.. المفرح المسعد أو الفاجع المشقي لهما.. المخلص المنقذ أو المورط الموقع.. وهل أقبل أو أستطيع أن أكون وحدي المسؤول هذه المسؤولية.. مسؤولية أن أجعل الإله والنبي العربيين يقرآن أو يسمعان أو يعرفان أو يفسّران هذا السؤال الذي يصعب أو لا يستطاع حينئذٍ أن يعرف كيف يمكن أن يريا أو يفسّرا نفسيهما أو يهربا من نفسيهما أو أن يفعلا بنفسيهما أو بأي شيء أو بكل شيء؟

ما أعجب هذه الأمية.. ما أنفعها أو أضرها وأخطرها.. أمية الإله والنبي العربيين. أميتهما الدائمة

الشاملة.. أميتهما الحرفية واللغوية والعقلية والقلبية والأخلاقية والنفسية والسمعية والبصرية بل والدينية.. إن أميتهما الدينية هي أقسى وأردأ الأميات..!

أليسا أميين حتى في تدينهما وفي تعليمهما للدين والتدين؟ إن أمية الدين والتدين هي من أوسع وأخطر وأقوى وأشمل وأدوم الأميات في الماضي والحاضر والمستقبل في العالم كله..!

ومن أخطر وأقبح ما في هذه الأمية أنها تعلم وتمجّد وترسخ ولا يعلم ضدها للخروج منها.. إن الأديان والنبوات والكتب المقدسة تنزل لتعليمها لا لتعليم الخلاص منها بل ولمقاومة أية محاولة للخلاص منها أي من أمية الدين والتديّن..

كتب هذا الفصل قبل خروج هذا الفارس العربي من المعركة حسيراً كسيراً مفجوعاً مروعاً من العضلات والعقول والأخلاق والفروسيات التي أدار وخطط وخاض بها قومي معركته أي معركة الفارس العربي.. النفط العربي.

الأذكياء هم مبتكرو ومعلمو الغباء لماذا قال النبي هذا؟

إنه عربي لم يكن محتملاً أو متوقعاً أو مقبولاً أو حتى مغفوراً أن يكون عربياً أو أن يولد أو يوجد أو يعيش في مجتمع عربي..

.. إنه مصاب بكل مقاساة وعذاب وانفجاع التحديق والمساءلة والمحاسبة والقراءة والتفسير لكل شيء وفي كل شيء بكل الاشتراط.

.. إن قلبه وضميره وفكره وأخلاقه ورؤاه في حالة احتراق دائم.. في حالة حرب.. اشتعال.. غليان. إنه العذاب كله.!

كان يتساءل دائماً بكل الانفجاع والترويع:

..كيف كان النبي محمد يقول ودائماً يقول معلناً ومكرراً قوله.. يقول: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» أي ولا نقرأ.. كيف كان النبي محمد يمجد الأمية المطلقة الشاملة الدائمة.. يمجّد نفسه ويباهي بها لأنه أمي ويمجد قومه ويفاخر بهم لأنهم أميون..!

كان هذا الإنسان العربي الغلطة الفريدة الأليمة يسرف جداً في حبه لقومه وفي إرادته ورؤيته لهم، كان عذابه لقومه وفي قومه رهيباً، رهيباً.. وقد جاء تعبيره عن ذلك إسرافاً في نقده وتفسيره وتوبيخه وعتابه وحسابه لقومه..

لقد كان مدافعاً جاء في صيغة وتعبيرات مهاجم، بلغة مهاجم.. وفي جحيم احتراقه وحيرته في هذه القضية ولعنف رغبته في الدفاع عن النبي محمد رأى أن محمداً لم يكن في موقفه وقوله هذا مادحاً للأمية وإنما كان اضطراراً معلماً ومتمنياً لها ومحرضاً داعياً إليها وعليها أي مضطراً..

لقد رأى أي النبي محمد أن قومه يفتضحون ويصغرون ويهونون ويتبلدون ويقبحون كلما كتبوا وقرؤوا وحسبوا ونطقوا.. كلما فكروا وحاوروا ورأوا وحكموا وعلموا وتعلموا وعلموا.. بل وكلما تعبدوا وصلوا وصاموا وحجوا ودعوا إلههم وطلبوا منه ومدحوه ووصفوه وقرؤوه وفسّروه ورأوه وتذكروه.. ما أعظم افتضاحهم بإلههم وافتضاح إلههم بهم..!

ما أعظم افتضاح كل شيء وأي شيء تكون لهم علاقات تعامل به ومعه..!

لقد رأى النبي محمد قومه هذه الرؤية وكأنه قرأ وسمع وفهم كل ما يكتبون ويقرؤون ويقولون

ويذيعون ويعلنون اليوم.. كل كتبهم وصحافتهم وإذاعاتهم ومؤتمراتهم ومخاصماتهم ومشاتماتهم ومنابرهم ومحاريبهم وسينمائياتهم ومسلسلاتهم الفاجعة المشوّهة المخجلة المهينة لكل السماع والرؤية والحساب والمحاسبة ولكل أجهزة العرض والإخراج والمواجهة.. لكل ما يرى ويسمع ويقرأ ويفسّر ويعرض ويحسب ويحاسب ويعمل ويعامل..!

.. نعم، بكل الأسى والانفجاع والاستحياء والغيظ والغضب رأى محمد قومه هذه الرؤية وكأنه رآهم ويراهم اليوم معروضين في كل معارض الفضح والهجاء والتصغير بكل أساليب العرض لذلك وعلى كل أجهزته. فأراد بكل الحماس والإخلاص أن يسترهم..!

هكذا يفسّر هذه القضية هذا الإنسان المحسوب في مجتمعه الغلطة الأولى وقد تكون الغلطة الأخيرة.. قال هذا الإنسان: وحين رأى أي محمد قومه هذه الرؤية أراد بكل النخوة والحماس والفداء أن يستر ويخفي حقيقتهم هذه فنهاهم بهذا الأسلوب الغامض عن تعلّم القراءة والكتابة والحساب والمحاسبة والمحاورة والتفكير بل والكلام. آه. ما أقسى تاريخ الكلام فاضحاً مفتضحاً..!.. موقعاً أي محمد بنفسه اتهامه بأقسى وأقبح الاتهامات.. اتهامه بأنه نبي ورسول البداوة والجهالة وعدو التقدم والحضارة والحياة الجميلة القوية الذكية السعيدة لأنه ينهى عن العلم والتعليم بنهيه عن تعلم وتعليم القراءة والكتابة والحساب والكلام.. وبدعوته إلى الأمية المطلقة الشاملة الأبدية وبامتداحه لها. لقد كان محمد هنا مبالغاً في إيذائه لنفسه ولسمعته لأنه كان مبالغاً في حبه لقومه ولإرادته الستر عليهم والدفاع عنهم وفي خوفه من عرضهم لضعفهم بتعلمهم وتعليمهم للقراءة والكتابة ولأي شيء من أجهزة التعبير والنطق والعرض.

لقد يكون الستر على عورات اللسان هو أنبل وأعظم ستر..!

.. ولقد جاء النبي محمد نافذ الرؤية صادقها في هذه القضية.. ولعل أية رؤية أو تعليم من رؤاه وتعاليمه لم تجيء أو يجيء في صدق ونفاذ هذه الرؤية وهذا التعليم وفي نتائجهما المرجوة. لقد كان في ذلك متخطياً لنفسه متفوقاً عليها في كل رؤاها وتعاليمها.. إنه أي محمداً لو لم ير ويعلم إلّا هذه الرؤية وهذا التعليم لكان أعظم وأذكى وأصدق الأنبياء والمعلمين والرائين والخراصين.. إن رؤيته هذه لقومه العرب لتمجيد لنبوته ولقراءته للغيب.. لهذا يجب أن يقال: ليته لم ير إلّا هذه الرؤية ولم يعلم إلّا هذا التعليم. ليت محمداً كان قليل الرؤى قليل التعاليم.. لأن رؤاه وتعاليمه الأخرى قد تكون مسيئة إلى رؤيته هذه وإلى تعليمه هذا.. إنها مسيئة إليه وإلى قومه وإلى كل شيء..!

كم هو مفجوع ومروع ومصدوم من يحاسب رؤاه وتعاليمه الأخرى ومن يحدق فيها قارئاً ومفسّراً ومحاوراً لها ومتعاملاً معها وبها.. إنه لا دفاع عن كل رؤاه وتعاليمه الأخرى إلّا بألا ترى أو تقرأ أو تحاسب أو تفسر أو تعامل أو يحاول العمل والالتزام بها..

.. إن الذين يعرضون رؤاه وتعاليمه الأخرى بإعلانها أو بتفسيرها أو بالدعوة إليها أو بالمفاخرة أو بمحاولة العمل بها.

ـ إنهم لن يكونوا أو يحسبوا إلّا فضاحين له، إلّا دعاة ضده.. كيف لم يعرفوا ذلك؟ هل عرفوه ولكنهم أرادوا أن يفضحوه.؟

⊛ ⊛ ⊛

آه. إن كل رؤية وأية رؤية لكل عرب اليوم.. لكل قوم محمد لتتحول إلى أعظم شهادة لصدق ونفاذ رؤيته ولذكاء وروعة وفوائد تعليمه حين أراد أن يعلم قومه بهذا الأسلوب الغامض جداً ألا يتعلموا القراءة أو الكتابة أو الحساب أو المحاسبة أو النطق أو التعبير بأي أسلوب من أساليب النطق أو التعبير أو العرض للنفس..

⊛ ⊛ ⊛

ولكن كيف ينتظر أو يحتمل أن يطيع قوم محمد محمداً في تعليمه هذا الغامض.. الغامض جداً وقد عصوه أقسى وأقوى وأقبح وأدوم العصيان في تعاليمه وأوامره ونواهيه الحادة الحاسمة الظاهرة.. في كل تعاليمه ونواهيه وأوامره هذه؟

.. إنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد عصاة كقوم محمد..

كما أنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد معصي كمحمد..

إن كل رثاء وكل شيء ليطلب وينبغي أن يتحول إلى رثاء لمحمد لقسوة وشمول وديمومة وقبح ووقاحة ونذالة وبذاءة وفجور العصيان له.. إنه لو كان كل شيء محتملاً لما كان محتملاً أن يطيع قوم محمد محمداً..!

.. حتى المطيعون لمحمد لو وجدوا أنهم لعصاة له بأساليب ونيات أخرى بل بأساليب ونيات طاعتهم فكيف إذن بالعصاة.. إن المطيعين له لأعنف وأقبح عصياناً له من المطيعين له، كما أن المداحين له أعظم وأقبح ذماً له من الذامين له.!

.. إن العربي لأقبح وأردأ عاصٍ حين يكون مطيعاً فكيف به عاصياً، عاصياً؟ إنه هاجٍ عاصٍ لاعن محقر مشوّه مهما عرض نفسه ممجداً مطيعاً مادحاً متديناً. إن العربي تفسير واحد مهما تعددت آياته وسوره.! إنها إن وجدت وقد توجد أو لا بدّ أن توجد استثناءات في هذه القضية أو في هذه القضايا فلا يجب استثناؤها لنحالتها وضآلتها وندرتها..

قد يقال هنا إن كل ناقد بتعميم وقسوة محتاج إلى الاستثناء، قد يقال هنا: ويستثنى من ذلك الناقدون للكينونات العربية مهما كانت قسوة نقدهم وتعميمه..!

إن الهاجي لكل الكينونات العربية في كل فصولها وتاريخها لن يكون مخطئاً أو ظالماً أو معتدياً مهما كانت قسوة وشمول هجائه..

.. إن المادح الممجّد لأية كينونة عربية في أي فصل أو تاريخ من فصولها وتواريخها فلا بدّ أن يكون مخطئاً أو كاذباً أو منافقاً أو مغفلاً مخدوعاً مهما كان ضعف وقلة وبرود امتداحه وتمجيده..!

.. إن الكينونات العربية في كل أزمنتها وأمكنتها لتزكية وتصديق لكل الغاضبين عليها المفجوعين بها.. وإنها لتكذيب وتجريح لكل الراضين عنها المسرورين بها..

ما أقسى وأدوم عذابي لأني أنا وحدي الرائي لقومي هذه الرؤية المريد لهم ما لم يريدوه لأنفسهم وما لم يستطيعوه لأنفسهم..

.. ما أفدح وأشمل وأدوم عذابي بقومي ولقومي..

آه، إننا نتعذب بقدر ما نحب، هل يمكن أن يتعذب من لا يحبون؟

.. ما أقسى وأفجع عذاب المحب جداً حين يجد أحباءه أقل جداً مما يريد لهم فكيف بعذابه وانفجاعه حين يجدهم أي حين يجد أحباءه نقيضاً حاداً شاملاً لكل ما يريد لهم ويريد منهم؟

إذن هل يوجد عذاب أو انفجاع مثل عذاب أو انفجاع عربي يريد ويطلب ويحب لقومه أن يكونوا كل نماذج أو حتى أحد نماذج الكينونات الإنسانية المطلوبة المعلمة المفسّرة؟ وهل وجد هذا العربي ليتحول كل شيء إلى رثاء وعزاء وبكاء له وعليه إن وجد..!؟

آه، كيف لا يعلم قومي وكيف لم يعلموا أن المادحين لهم المعلنين رضاهم عن كينوناتهم لن يكونوا إلّا أغبياء جهلاء أو إلّا منافقين مخادعين كاذبين..

.. وإن الناقدين لهم بصدق وحرارة ورؤية وغضب وقسوة وغيرة هم الأصدقاء الأحباء.. هم الذين يجب أن يقبلوا ويقرؤوا ويرحب بهم ويستمع إليهم ويطالب لهم ومنهم بالمزيد؟

لماذا جاء الإنسان العربي كالإله يطالب بالمديح الكاذب المنافق الغبي الجاهل ويسعد ويرضى به ويرفض ويطارد النقد الصادق المخلص الذكي الشجاع ويحزن ويشقى به؟

أيهما علم الآخر ذلك: الإنسان العربي علّمه الإله العربي أم الإله العربي علّمه الإنسان العربي؟ وهل يوجد معلم آخر لذلك؟

إنه لا مثيل للإله ولا للإنسان العربي في إرادتهما للمديح السخيف البليد الكاذب المنافق وفي مطالبتهما به كما لا مثيل لهما في رفضهما ومعاقبتهما ومقاومتهما للنقد الصادق البريء الذكي المخلص الشجاع..

إنه لا مثيل لقبح تاريخهما في هذه القضية.. إن التاريخ لم يأثم أو يصغر مثلما أثم وصغر بهما لما حملاه من آثام وصغائر شهوتهما هذه.. إنهما عاشقان للصغار الذين يستفرغون المديح بلا نظافة أو ذكاء أو كرامة.

.. إن أي فصل من فصول التاريخ العربي لا يساوي فصل تاريخه في المديح مشروعاً ومطلوباً ومفروضاً ومثاباً مرشياً ومعاقباً تاركه والمتوقر المتأني في أدائه أي لو وجد هذا التارك أو المتأني المتوقر..

.. فصل تاريخه في المديح الكاذب المنافق البليد السخيف معطى ومأخوذاً.

.. تاريخه مادحاً وممدوحاً عابداً معبوداً مزوراً مزوراً له..

كما أن فصول تاريخ الإله ولا سيما الإله العربي تضمر وتصغر وتختفي أمام تاريخ الامتداح له وتاريخ مطالبته بهذا الامتداح وشوقه إليه وجنونه في حبه وانتظاره له..

إن كل آلهة البشر لتهون وتهزم أمام الإله العربي في هذه القضية..!

.. إنه لو تجمع وتعاون كل أطباء وعلماء النفس وكل المحللين النفسيين لما استطاعوا أن يكتشفوا التفاسير لرغبة الآلهة ورغبة الإنسان العربي.. رغبة حكامه وزعمائه وأنبيائه وقادته وأقويائه بل وعامته وضعفائه في المديح المبصوق من أردأ وأصغر وأكذب وأجبن الأفواه والنفوس والعقول والأخلاق والنيات. وهل يأتي المديح إلّا من ذلك؟.. ولما استطاعوا أن يعالجوا شيئاً من ذلك..!

ماذا يعني أو يساوي المديح؟ هل عرف المريدون لذلك ذلك أو فكروا فيه؟

.. إن أقصر وأضعف قامة لأية زعامة أو نبوة أو إمامة عربية لترضى وتسعد بل وتطالب بأن توصف وتمدح بأنها من قوتها وطولها تناطح بل وتسقط النجوم وتطأ هامات المجرات..!

.. وإن أي إله ليسعد ويرضى ويفرح ويطلب ويأمر بأن يوصف بأنه أرحم وأحكم وأنبل الرحماء والحكماء والنبلاء لأنه شاء وأحب وتعمّد أن يفقأ أجمل عينين ويشوّه أجمل وجه ويصيب ويقعد أقوى وأعلى قامة ويفجع بأغلى محبوب ويسرق من كل الأجساد والنفوس والعقول صحتها وشبابها وقوتها وفرحها ثم حياتها.. ما أطول المسافة بين أوصاف الإله وأفعاله..

ما أطول المسافة بين ما يطالب به ويقال عنه وبين ما يفعله..!

.. وإنه أي الإله ليطالب ويعاقب ويشاتم ويقارع ويناطح لكي يصاغ كل المديح المتعبّد الذليل للثناء على شهامته ونخوته وعدالته وتوبته وتصحيحه لأخطائه وعدوانياته وعلى تراجعه السريع التائب المعتذر عنها ومنها مع أنه لم يحدث ولن يحدث في كل حياته أن أحيى قتيلاً قتله أو نصب وسوى قامة حناها وحطّمها أو جمّل وجهاً شوهه أو بنى بيتاً أسقطه أو أعاد تشييد وتعمير مدينة زلزلها ودمّرها أو زرع صحراء صنعها وأفقرها أو اعتذر بإرسال رسول أو رسالة أو بصوته المسموع أو بحضوره إلى أي مظلوم أو مهان أو محقر أو مستعبد أو ناقص أو عاجز أوقع هو به ما أصابه ودبّر وأراد له ما أوقع به كل الدهاء والخبث والجرأة واللغات والأساليب الإعلانية الإرهابية المعلمة المقروءة المفتشرة في نبوات أنبيائه..

.. كما لم يحدث أن استمع أو استجاب لأي مفجوع أو مقهور أو منكوب أو مصاب دعاه بكل اللهفة والتذلّل والتعبّد والأمل لينقذه أو حتى ليخفف عنه مما فعله هو به..

.. كما لم يحدث أن ذرف دمعة أو أنّ أنّة أو أصيب برجفة ندماً أو أسى أو استحياء مما فعل وعلى ما فعل ولما فعل بضحاياه الذين هم كل من وجد وكل من سوف يوجد..!

إن كل الدموع والأنّات والانفجاعات لن تساوي ما يجب أن يصاب به الإله من ذلك لما فعل..

.. وإنه أي الإله ليزور الأديان والأنبياء ليوظفهم مداحين لذكائه وأخلاقه وشرفه وبراءته ولتدينه

وتقواه وقوته ونضاله لأنه يلعن ويحقر ويهدد ويعاقب الأغبياء والضعفاء والمذنبين والضالين والمخطئين والمنحرفين مع أنه هو المخطط والمصمّم والصائغ والمخرج والمؤلف والباني والمريد لهؤلاء بكل صيغهم ومعانيهم وبداياتهم ونهاياتهم وقوتهم وضعفهم..

.. ومع أن هؤلاء بكل نقائصهم وعيوبهم وجرائرهم هذه لا يبارونه في أية واحدة منها مريداً وفاعلاً لها ومباهياً متدللاً مدللاً نفسه بإرادته وفعله لها معلناً بكل الكبرياء والرضا والإعجاب عن إرادته وفعله لها..

الخالق المصمّم المريد يعاقب ويعيب ويلعن من أراد وصمّم وخلق مجازياً ومحاسباً له على عيوبه وذنوبه ونقائصه.. لأنه جاء كما أراده وخطّطه وصمّمه وخلقه ولم يجيء ذاتاً أو صيغة أخرى..!

هل حدث أو يحدث هذا؟ هل يمكن تصور هذا؟

هل جنّ العالم إن كان قد قبل هذا أو تصوره؟

أو لعل العالم كان مسرفاً في قبحه وفي إرادته للعدوان والهجاء والتشويه حين تصوّر وابتكر وتقبّل هذه القضية وحين تصوّر وابتكر وأعلن فاعلها وصاحبها أي المتهم بها..

.. أو لعله أي العالم رأى أنه شيء لا يطاق أن يكون كل هذا الوجود بكل مجراته وشموسه وحشراته وجراثيمه وناسه بلا أي مسؤول.. بلا أي منظم أو حاكم أو محاكم أو معلم أو قائد أو مشرف أو معالج أو مساعد أو ناصح أو حتى مجامل ولو بالبكاء والأنين..

.. هل يطاق أو يقبل مثل هذا ولو تصوراً وافتراضاً؟

ولأن هذا لا يطاق بأي تفسير أو حساب اضطر أي العالم إلى افتراض هذا الكائن الذي كان المفروض ألا تستطيع كل الافتراضات افتراضه أو تقبّل افتراضه..

لقد كان العالم في أقسى ورطة أمام هذه القضية فتصرف هكذا ليقع في ورطات.. ورطات..!.. لقد ذهب يتداوى من ورطة واحدة وحيرة واحدة بالتداوي بكل الحيرات والورطات الدائمة المتجددة وأيضاً باتهام النفس بالبلادات والجهالات بل وباعتقاد الجهالات والبلادات، وأيضاً بالاعتداء القبيح الفظيع على هذا الكائن المتصور المعلن بأنه المخطط المصمم المريد الفاعل الخالق لهذا الوجود.. الرائي المواجه المعايش المساكن له بكل هذا الصبر والسكوت والسكون المهين الذليل البليد..!.. ما أقبح صبر وسكوت وسكون الآلهة..!

.. هذا الوجود بكل وحداته وضخاماته بلا أي مسؤول.. هل يطاق هذا؟

فوق هذا الوجود أعظم وأضخم وأقوى وأتقى وأذكى وأشمل وأعلم وأحكم وأرحم وأعقل مسؤول بكل تفاسير ومعاني المسؤولية... بكل التزاماتها الأخلاقية والمنطقية والفنية والنفسية بل والوظيفية.. بل والدينية..!

هل يقبل أو يعقل أو يحتمل أو يغفر أو يطاق أو حتى يتصور هذا؟

ما أقسى وأدوم وأشمل حيرة الإنسان وعذابه مواجهاً لهذه القضية أي لو واجهها بشيء من عقله أو فكره أو قلبه أو ضميره أو أخلاقه أو رؤيته أو حتى بشيء من تساؤله..!

ولكن هل الإنسان يواجه مهما واجه؟

إنه في الكون الذي نعرفه هو الكائن الفريد الذي يواجه أو الذي يفترض فيه ويجب عليه ويطلب منه أن يواجه..

ولكنه أيضاً هو الكائن الوحيد في هذا الكون المعروف لنا الرافض المقاوم للمواجهة المعلم ضدها العاجز عنها المعاقب لمن يعلمونها أو يطالبون بها أو يفعلونها.. ألم يبتكر لهؤلاء عذاب الجحيم؟

.. أليست كل أديانه ونبواته وفلسفاته وتعاليمه وتدينه وتقواه نهياً عن المواجهة ولعناً لها وتحذيراً منها وتعليماً ضدها؟

إن كل مبتكرات وموروثات الإنسان هذه ليست إلّا سدوداً عالية وضخمة وأراد بها أن تكون عالية وضخمة لكي تمنعه وترده عن أن يكون مواجهاً وتحميه من ذلك ومن أن يعرف أو يشعر أن عليه أن يواجه أو أن من المباح أو الجائز أو المغفور أن يكون مواجهاً أي مهما واجه أي أن يكون مواجهاً بفكره أو عقله أو قلبه أو أخلاقه أو رؤيته أو بمساءلاته ومحاوراته وقراءاته وتفاسيره أو حتى بأنّاته وآهاته..!

لقد حرمت عليه بكل القسوة موروثاته ومبتكراته هذه أن يئن أو يتأوه أو يتفجع أو يتوجع أو يغضب لأنه واجه ما يواجه فرأى وعرف فصدم وأنكر ورفض - واستبشع واستقبح..! إن من أعظم وأول أغراض ووظائف أديان الإنسان ونبواته وفلسفاته وتعبداته وتعاليمه وأناشيده الروحية والغنائية والتعبدية إسكات وإغلاق كل معانيه الإنسانية، كل حواسه وأحاسيسه ورؤاه لئلا يرى أو يعرف أو يسأل أو يتساءل أو يدهش أو يفعل غير أن يحاول التعامل والتلاؤم والتصالح والتهادن مع هذا الوجود ومع كل شيء بأعضائه ومجاعاته وضروراته ومهاناته وتفاهاته وسخافاته... بكل هموم وبذاءات واحتياجات حياته بكل الخضوع والمذلة والاستسلام بل والتعبّد والتمجيد لكل ما تقول له وتفرض عليه.!

هل يطيق الإنسان وجوده أو إلهه أو كونه أو عالمه لولا إغلاق وإسكات كل معانيه وكل أجهزته ومنافذه الإنسانية.. كل رؤاه وسمعه وتفكيره وضميره وتفاسيره ومحاسباته واشتراطاته وقراءاته بل وفروسياته وشهاماته؟

لهذا جاءت كل أديانه ونبواته وفلسفاته وعباداته وتعاليمه لإسكات وإغلاق كل ذلك..

فظيعة، فظيعة هذه الصورة أو هذا التصوّر..

هل تطاق هذه الفظاعة أو هذه الصورة أو هذا التصور لولا هذا الإسكات وهذا الإغلاق؟

هل يطاق ما نرى لولا ذلك؟ هل يطاق أن نرى هذا.. أن نرى إنساناً أو أي كائن آخر مصاباً

ومحاصراً بكل الآلام والكوارث والهموم والإذلال والهوان يتأوه ويئن ويصرخ ويهتف بكل ذاته ومعانيه.. بكل أحاسيسه وحواسه.. بكل إيمانه وآماله وحبه: يا إلهي، يا ربي، يا خالقي، يا من أراد وفعل بي كل ما أنا فيه.. انقذني، ساعدني، ارحمني، خذ بيدي، انظرني، انظر إلي، اسمعني، استمع إلي.. أدعوك، أدعوك.. أرجوك، أرجوك.. أنتظرك، أنتظرك، أنتظرك.. أحدق في كل الآفاق منتظراً مجيئك، حضورك، خروجك من مخبئك يا رب، يا رب؟!

كل هذا مكرراً مستمراً والإله المستلقي فوق هذا الكون وفوق كل شيء يرى ويسمع ويعرف وهو خامد صامت ساكن لا يفعل بل ولا ينوي أن يفعل شيئاً للإنقاذ والمساعدة أو للتخفيف أو حتى للهرب مما يرى ويسمع ويعرف بل يظل محدقاً في مرآته ينظر إلى ذاته وعضلاته وضخامته وبدانته وقوته وجماله بكل الإعجاب والرضا والمباهاة بالنفس..!

.. أو كل هذا وهو لا يرى ولا يسمع ولا يعرف..

وأي التفسيرين أقرب إلى التصديق والصدق، وأيهما أكثر رفقاً بالإله وإشفاقاً عليه وأقل هجاء له؟!

أليس ذلك كذلك؟ أو أليس ذلك ما يقوله ويعلنه ويعلمه ويعتقده الإنسان أو ما يقول ويعلن ويعلم ويعتقد معناه؟ هل يطاق هذا أو أي شيء منه لولا هذا الإسكات والإغلاق والقتل والإفساد والتضليل لكل معاني الإنسان بأديانه ونبواته وفلسفاته وعباداته وتعاليمه بل وبشعرائه وبتعويده وتلقينه التمجيد والتقديس لكل ما في هذا الوجود ولكل ما يفعل الكائن المفترض فوقه من قبح وسوء وبلادة وعبث وظلم وعدوان وهوان وتناقض.. وفوضى.. من كل ما يرى ويسمع ويعلم ويواجه ويقاسي، في كل الأزمنة والأمكنة..

ويعظم قبح وقسوة منظر وتفاسير هذه الصورة أو التصور أو العقيدة والاعتقاد حين نرى أو نتصور هذا المعذب المسحوق الداعي المتضرع المتطلع المنتظر لإله لن ينقذ أو يحضر أو يرى أو يتحرك أو حتى يبكي أو يحزن أو يشفق أو يلطم خده انفجاعاً وذعراً أو يفقأ عينيه ويسد أذنيه لئلا يرى أو يسمع.. كيف لم يفعل ذلك؟ كيف لم يفعله؟

ـ نعم، يعظم ذلك حين نرى أو نتصور هذا المعذب المقهور وحوله كل الأهل والمحبين يبكون ويرثون ويتأوهون ويدعون ويتضرعون ويتمنون وينتظرون بكل اللهفة والحسرة والأمل واليأس.. الأمل الذي هو كل اليأس واليأس الذي هو كل التجربة اليائسة..!

إن البشر لم يجربوا تجربة هي كل اليأس أو لا بدّ أن تكون كل اليأس ويجب أن ترى وتعلن كل اليأس مثل كل تجاربهم مع الإله أو مع من زعم إلهاً..!

إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد مجربون مخطئون وضالون في كل تجاربهم مثل المجربين مع الإله.. مع كل إله وعلى كل إله.. وإنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد مجرب مخطئة وضالة كل التجارب عليه وفيه ومعه مثل الإله.. مثل كل إله أو غير الإله وغير كل إله..!

.. إن البشر كل البشر لم يجيئوا أو يكونوا أغبياء وخاسرين وضالين كل الضلال والغباء والخسران مثلما جاؤوا وكانوا كل ذلك في علاقاتهم بالإله.. بالآلهة كلها..!

إنه لن يتصور خسران مثل خسران التعامل مع الإله. مع كل الآلهة.!

.. وهنا قد يقبل أن يقال: إن هذا الغباء والضلال والخسران مراد ومقصود ونافع أي مراد ومقصود لأنه نافع أو مفعول ومعمول به لأنه نافع وإن لم يرد أو يقصد...

أليس الغباء والضلال قد ينفعان أحياناً؟

.. قد يقال ذلك ويقبل قوله لأن الحياة لن تقبل أو تجمل أو تفهم أو تطاق أو حتى تربح بدون الغباء والضلال والخسران أي بدون مقادير كثيرة ومتعددة متنوعة من ذلك..!

مقادير الغباء والضلال يجب أن تكون أكثر أم مقادير النقيض لترضى وتقبل الحياة؟!

إن الحياة لن تقبل أو تغفر أو تطاق بكل الذكاء والعقل والهدى أي لو حكمت بكل ذلك في كل رؤاها ومواقفها وتصرفاتها وأخلاقها وتفاسيرها. إنها حينئذٍ لكل العذاب والقبح والتفاهة والنذالة.. إنها معاملة ومحاكمة بكل ذلك لن توجد ولو وجدت لانتحرت وماتت بأحد أساليب الموت والانتحار أو بها كلها..!

إذن فأذكى الأذكياء وأعقل العقلاء لن يكونوا كل الذكاء وكل العقل في رؤاهم ومواقفهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم والتزاماتهم بل أو في كلامهم. إن هذا لن يكون. لن يستطاع ولن يراد ولن يقبل.. إنهم هم لن يستطيعوا ذلك أو يريدوه أو يقبلوه..!

لعلهم بقدر ما يصعدون في ذكائهم وعقولهم يهبطون في غبائهم وضلالهم أي تماماً..!

بل إن هؤلاء أي أذكى الأذكياء وأعقل العقلاء لا بدّ أن يكونوا معلمين وأقوى المعلمين وقادة المعلمين للخروج على الذكاء والعقل في مواقف ورؤى وعقائد وتصرفات وأخلاق وتصورات ومواكب كثيرة حادة شاملة..!

إن هؤلاء في كل التاريخ والمجتمعات هم أقوى وأشهر وأبقى من صاغوا ونظّموا ومجّدوا وخلّدوا هذا الخروج على الذكاء والعقل.. لو لم يوجد إلّا الأغبياء وإلّا ضعفاء العقول وناقصوها فهل كان ممكناً أن توجد هذه الموروثات الفادحة الثقيلة القبيحة المحولة إلى أديان وعقائد وفلسفات وتعاليم وحدود وسدود وقيود.. المسكتة المغرقة اللاعنة المهينة القاتلة لذكاء الإنسان وعقله بكل هذا الخلود والجبروت والشمول والقوة والفداحة والكبرياء؟

إن المتفوقين في ذكائهم وعقولهم وعبقرياتهم وفي حماسهم وطموحهم وخيالهم ونشاطهم هم الذين صنعوا مجد الإنسان وهوانه.. قوته وضعفه.. سعادته وشقاءه. إنهم هم الذين أثقلوا وعذبوا وأفسدوا وضللوا الإنسان وهم الذين وهبوه كل شيء جيد لديه..

ولكن لا بدّ من تقسيم هؤلاء المتفوقين إلى أقسام متباعدة التفاسير..!

.. إن ضعفاء الذكاء والعقول والمواهب والرؤى والحماس والطموح والخيال والنشاط لم يبتكروا

أو يتخيلوا أو ينزلوا أو ينزل عليهم شيء من هذه البلادات والغوايات والضلالات والجهالات والجنونيات المتحولة إلى أديان ومعتقدات ونبوات وخصومات وعداوات وانتماءات وقوميات وجنسيات ومذاهب بليدة جاهلة مجنونة متبارزة متلاعنة متحاربة مخربة خاسرة بذيئة وقحة عدوانية..

كما أنهم أي هؤلاء الضعفاء لم يفعلوا أو حتى يتخيلوا أو يتمنوا شيئاً من هذا الوجود الحضاري والعلمي والثقافي والفني والفكري والصناعي المالىء المغطي الصائغ كل صيغ الحياة وفنونها ولغاتها وآفاقها ودروبها.. الصانع لكل أجسادها وثيابها..!

ولأن ذلك كذلك أي في تفسير هذه القضية فإن الإله الذي هو كل الذكاء والعقل والعبقرية والهدى هو مدبّر وخالق وصانع كل الغباء والضلال والجنون بخلقه لكل الأغبياء والضالين والمجانين بل ومصممهم ليكونوا أغبياء وضالين ومجانين..

إنه الفاعل لكل ذلك بلا أي منافس. إن زعم المنافسة له في ذلك زندقة.!

.. إنه لولا الكائن الذي هو كل الذكاء والعقل والعبقرية والهدى والتقى أي المزعوم كذلك لما وجد أي شيء من البلادة أو البله أو الجنون أو الضلال أو الفسوق أو القبح أو الشر..! أليس وجود الإله الكامل في كل أوصافه وأخلاقه وقدراته يعني ذلك حتماً؟ أليس من لا يعتقد ذلك ويقوله خارجاً على كل الصدق والعقل والمنطق والأخلاق والبداهات..!

بل إن من لا يعتقد ذلك ويعلنه فلن يوجد أو يتصور مثله في هجائه وتحقيره لنفسه وفي سخريته منها وفي شتمه وتضليله لها أي لنفسه.. لكل معانيه وتفاسيره وصيغه.!

والبشر لم يسيئوا إلى أنفسهم وإلى تاريخهم وحياتهم ويفضحوها ويعرضوها أقبح وأقسى وأردأ عرض مثلما فعلوا بها كل ذلك في قصتهم مع الإله.. مع كل آلهتهم..

في إيمانهم بها وأوصافهم لها وانتظارهم منها ولها وفي رؤاهم وتعبّدهم وتضرّعهم ودعائهم وقراءاتهم وتذكّرهم لها وفي خوفهم واستحيائهم وقلقهم منها، وفي إنفاقهم عليها.. على بيوتها ومعابدها وكعباتها وعلى تراثها وكتبها وعلى كل أشيائها وأشلائها الأخرى.. ما أغلى وأفدح أشلاء الآلهة..!

.. وفي تعاديهم وخصوماتهم وملاعناتهم وانقساماتهم وحروبهم ومناهباتهم وسرقاتهم أي نهب وسرقة بعضهم لبعض.

- أي وفي فعلهم لكل ذلك باسمها ومن أجلها وطاعة لها..!

ومن أفجع وأسوأ ما في هذا أنهم لم يفطنوا له أو يشكوا منه أو يتحاسبوا أو يتحاوروا عليه وفيه. إنها لم تسحب من الإنسان كل رؤاه ومحاسباته ومحاوراته مثلما سحبت منه مواجهاً للإله وقارئاً مفسّراً له..!

نعم، إن الإنسان لم يعاقب ذكاءه وكبرياءه وكرامته ويتنازل عنها بل ويحاربها ويهينها مثلما فعل بتعامله مع آلهته.. بتعامله معها بفكره وعقله وقلبه وسلوكه وأخلاقه وبكل تعبيراته في كل تاريخه

وأوطانه.!.. لماذا أراد وتقبّل الإنسان أن يعاقب نفسه هذا العقاب بإلهه.. بكل آلهته؟

والمتفوقون الذين كان الحديث عنهم هم نوعان أو أنواع.. فهناك العباقرة المبدعون الأقلون دائماً والمفقودون دائماً في كثير من الأوطان والمجتمعات والذين يرجى ألا يكون فقدهم في هذه المجتمعات والأوطان دائماً.. وهؤلاء هم الذين يهبون الحياة كل جديد مبتكر جيد نافع عظيم جميل قوي ينقلها أي ينقل الحياة نقلات هائلة خلّاقة من طور إلى طور..

وهؤلاء يتحولون إلى عطاء للبشر جميعاً حتى ولو لم يريدوا أو يرد ذلك. حتى ولو وضعت كل الحدود والقيود والسدود لتمنع هذا العطاء عن أن يكون عالمياً دولياً كونياً.. بل إن عطاءهم هذا لا بدّ أن يتحول إلى عطاء للإله.. للآلهة وللأنبياء وللأديان ولكل المعتقدات.. إذ لا بدّ أن يوجد من يعتقدون ويزعمون أو يزعمون وإن لم يعتقدوا أن هذه الرؤى والأفكار والعلوم والإنجازات العلمية الهائلة التي أبدعها واكتشفها هؤلاء العباقرة قد سبقت إليها الأديان والمعتقدات والنبوات والكتب المنزلة فقالتها وأعلنتها وأوحتها وسجلتها..!

وقد وجد هذا الاعتقاد والزعم ووجد الدعاة له والمبشّرون به بكل الضخامة والغرور والدوي بل وبكل السذاجة والبلاهة والجهالة والسفاهة بل والوقاحة..!

وسوف يزداد ويتعاظم وجود هؤلاء الدعاة والمبشرين ليزحموا مجتمعاتهم ويزيدوها جهلاً وغروراً وانخداعاً وتوكلاً وتعصّباً ورضاً عن جهلهم وجهل تاريخهم وجهل آبائهم وأسلافهم ومعلميهم، واهتماماً بهذا الجهل وانقطاعاً إليه ليملأ عيونهم وعقولهم وأشواقهم وطموحهم ودراساتهم لكي لا يروا أو يريدوا أو يطلبوا أو يرضوا شيئاً غيره أو يعجبوا به أو يبحثوا عنه أو يشتاقوا إليه أو يعتقدوا أنه قد يوجد عند الآخرين ما يساويه أو ما يدنو منه فكيف ما يتفوق عليه؟

إن مجد التاريخ أو القبور ورطة أو عاهة أصيب ويصاب بها العاجزون المحتاجون إلى الغرور..!

.. وهذا الاعتقاد أو الزعم أو الجهل يتحول إلى عطاء للآلهة والأنبياء والأديان والمعتقدات الذابلة الميتة لأنه يتحول إلى امتداح وتمجيد لها وإلى اتهام لها بالعبقرية وبالسبق إلى معرفة كل ما سوف يعرفه البشر وكل ما لن يستطيعوا معرفته.. إذن لا بدّ أن يزداد الإيمان بهم والتخضع والتعبّد لهم بل والإنفاق عليهم أي على الآلهة والأنبياء وعلى الأديان والمعتقدات والكتب التي علموها وأوحوها وأنزلوها بكل أساليب الإنفاق.. وكم هو باهظ وفادح وخاسر الإنفاق عليها.. إنه الإنفاق الضائع الذي لن يسترد ولن يثاب. إنه الإنفاق الذي لن يجد من أريد إنفاقه عليه..!

وهؤلاء العباقرة الذين يعطون هذا العطاء هم مواطنون عالميون دوليون مهما كانت وصغرت انتماءاتهم الخاصة.. وقد يكون عطاؤهم للأوطان التي لم تلدهم أضخم وأعظم من عطائهم للأوطان التي ولدتهم أو التي ولدوا فيها..!

إنه لولاهم.. لولا هؤلاء العباقرة لظلّت الحياة طوراً واحداً بائساً كئيباً دميماً أليماً..!.. حتى الآلهة لقد تجددت بهم وانتقلت من طور إلى آخر.!

إن وجوه الآلهة في مرآة الأعمى لن تكون مثل وجوهها في مرآة المبصر..!

.. والشعوب والمجتمعات والسلالات التي يتخلق فيها هؤلاء العباقرة دائنة للشعوب والمجتمعات والسلالات التي لا يتخلقون فيها بديون لا يستطاع تسديدها..

إنها دائنة لها بكل وجودها الجديد الجيد وبإنقاذها من وجودها القديم الرديء، وهل يستطاع تسديد هذا الدين.. هذه الديون؟ بل إنه لا يراد ولا يطلب أو ينتظر تسديدها.!

ولكن ما أعجب وأقبح ما حدث ويحدث وما هو حادث..!

إن المدينين بهذه الديون يظلّون يتهمون دائنيهم بكل التهم ويلقون عليهم كل الأوحال ويزعمون أحياناً أو دائماً أنهم هم الذين صنعوا ضعفهم وهوانهم وتخلّفهم وخلقوا فيهم الفساد والفجور والكفر والغوايات وعلموهم كل ذلك.. إنهم هم المسؤولون عن كل عجزهم وقبحهم وغبائهم وفسادهم..!!

وقد يزعمون أنهم هم الذين صاغوا ضعف وبداوة آلهتهم وأنبيائهم وعباقرتهم وعظمائهم بتفاسيرهم وعرضهم لهم وبإيجادهم للحضارات العلمية والفنية والفكرية والصناعية المضادة المناقضة لهم أي لآلهتهم وأنبيائهم بتفوقها الشامل الحاسم عليهم.. ولقد زعموا ذلك.!

وقد يزعمون بكل الرضا والكبرياء أنهم هم الدائنون لدائنيهم وأن كل ما عند دائنيهم من علوم وتقدم وإبداع مسروق من قبورهم.. من قبور أنبيائهم وآبائهم.. منسوخ من ألواحهم.. ولقد زعموا ذلك..!

وقد يزعمون أنهم هم الذين صححوا لهم آلهتهم وأنبياءهم وأديانهم وقد زعموا ذلك.. بل لقد زعموا كل شيء في هذه القضية.!

إن العدوان يقع دائماً من المتخلفين على المتقدمين أو إن عدوانهم عليهم يقع أكثر من النقيض مهما اعتقد أو زعم أو بدا غير ذلك. إن المتخلف يأخذ من المتقدم كل شيء دون أن يعطيه شيئاً.. إن الجاهل يأخذ من العالم دون أن يعطيه أو حتى يشكره.!

.. وهؤلاء العباقرة قد يكون من الدقة ألا يوصفوا بالذكاء مراداً بالذكاء اتقان التعامل مع النفس ومع المصالح ومع الآخرين بل ومع الحياة الاجتماعية ومراداً به قوة وحرارة الاهتمام بذلك..

.. إنهم طاقات تعمل مخترقة ومتخطية لكل ما يقال ويعرف ويعلم.. ولعلهم كالطاقات الطبيعية الكونية التي تعمل بقوانينها غير مبالية أو مهتمة أو ذاكرة أو متذكرة أو شاعرة بغير ذلك..!

❁ ❁ ❁

هؤلاء هم أفضل وأعظم وأقوى وأنفع أنواع المتفوقين أو نوعي المتفوقين. ولعلهم هم وحدهم النافعون في نوعي المتفوقين أو في أنواعهم..!

بعد هؤلاء هناك الأذكياء المتفوقون بذكائهم ولذكائهم.. وهم لا يصعدون إلى طور العباقرة

لأنهم لا يستطيعون أو لأنهم شغلوا وصرفوا عن ذلك أو لأنهم انشغلوا وانصرفوا عنه.. وهؤلاء قد يكونون متفوقين في طموحهم وحماسهم وفصاحتهم ونشاطهم وأيضاً قد يكونون متفوقين في قسوتهم ونذالتهم ووقاحتهم وأحقادهم وعداواتهم وخصوماتهم وأنانياتهم وفي كل الشرور فكرة وإرادة ونية وسلوكاً، أو في عذابهم وهوانهم وخوفهم وضعفهم وقبح تاريخهم وكينوناتهم وذكرياتهم الأليمة المذلة..!

وهؤلاء هم الذين تحولوا ويتحولون إلى أنبياء ومعلمين وقادة وزعماء وأبطال وإلى أقطاب شيوخ وفقهاء وأحبار وكهان وأحياناً إلى أدباء وشعراء وكتّاب وخطباء منابر ومحاريب.. إلى غزاة مستوطنين مدمّرين مضللين مفسدين مشوّهين معوقين.. ليملؤوا وينقلوا ويشحنوا التاريخ والحياة والوجود وكل شيء وليصوغوه ويطبعوه ويؤلفوه بكل الأخطاء والخطايا.. بكل البلادات والنذالات والتفاهات والضلال والقبح والعذاب.. بكل العداوات والخصومات والملاعنات والخلافات والانقسامات والأحقاد والحروب وبكل الويلات.. الويلات..!

.. دون أن يهبوا أو يفعلوا أي شيء جيد أو عظيم أو جميل أو ذكي أو قوي أو نافع.. إن أعظم قائد حروب يصنع أعظم الانتصارات على أقوى الأعداء وعلى كل الأعداء لن يستطيع أن يهب الحياة أو شعبه شيئاً جميلاً أو ذكياً أو قوياً أو عظيماً أو مفيداً أو نافعاً ما لم يهب ذلك العباقرة الذين مرّ بنا الحديث عنهم..

.. وإن أي نبي يجيء إلينا من كل الآلهة حاملاً معه كل أوامر ونواهي وتعاليم وأديان وأخلاق وكتب وغضب ورضا ووعود ووعيد وجنات ونيران كل الآلهة لن يستطيع أن يهبنا شيئاً من ذلك ما لم يهبناه العباقرة الذين كان الحديث عنهم.. وإن جميع الآلهة لن ترد لنا ما أخذ منا وما فقدناه ما لم يردده إلينا هؤلاء العباقرة..

.. إنه لولا هؤلاء العباقرة المبدعون لما استطاع أي إله أو نبي أو زعيم أو قائد أو سلطان أو خليفة أو كاهن أو حبر أو شيخ أو فقيه أو كاتب أو أديب أو شاعر أن يجد أية وسيلة أو جهاز ليكتب أو يطبع أو يسجل عليه أو به أقواله أو ليطلق منه أصواته لينشر ويلقي ويطبع على التاريخ والحياة والوجود وعلى كل المنابر والمحاريب والنوادي وعلى كل شيء كل ما في جوفه من عفن وقبح وجهل وضلال وبلادات وعداوات ولعنات وأحقاد وخبث وتزوير وكذب وفجور ومبارزات وتحديات ومفاخرات تشعل الحروب والبغضاء وتمجد وتعلم الحروب والبغضاء وتدعو إلى الحروب والبغضاء وتطارد وتقاتل وتعادي كل الحب والصداقة والأدب والتهذيب والسلام والاستقرار وتؤجج في النفوس والعقول والقلوب والضمائر كل الحرائق.. كل الشكوك والخوف والقلق والتوقعات الرهيبة.. الرهيبة المتبادلة المتنقلة المتجددة أبداً، أبداً.. إن هؤلاء هم أعظم وأقبح صناع القلق والخوف والعذاب والتوقعات الأليمة الكريهة..!

.. إذن حتى ما يبدعه العباقرة يتحول إلى أجهزة تعذيب وتبليد وتضليل وتقبيح وتشويه وترويع وفضح وإفساد.. إلى أجهزة تنطلق منها كل الشرور وتطلق كل الشرور.. إنهم أكبر وأذكى عون لكل ذلك..!

إذن حتى العباقرة يفعلون كل ذلك بأساليب قوية وشاملة ولكنها غير مباشرة وإنهم ليعرفون ذلك فهل يتعذبون؟ إن أخطر ما في العباقرة أنهم يصنعون أخطر الأسلحة ليضعوها في أيدي أخطر القتلة واللصوص والأعداء والمفسدين والمضللين المزوّرين والمتخاصمين المتعادين المتقاتلين، وأنهم يضعون أقوى وأذكى الأجهزة في أيدي وأمام أفواه كل الأغبياء والجهّال والضالين والمغفلين والدجالين والمنافقين والبله العارضين لأنفسهم المعلنين عنها بكل الوقاحة والبذاءة والبلاهة وإرادة الجهر..!

.. إن العباقرة إذن هم عضلات أقوى القتلة والمدمرين، وأفواه أغبى الأغبياء وأجهل الجهّال وأكذب المنافقين..!

.. قد يكون من الصدق أن يقال إن أحداً لم يستفد من العباقرة مثلما استفاد الإله أي الإله العربي لأنهم أي العباقرة هم الذين ابتكروا كل الأجهزة التي تحولت إلى أناشيد وصلوات وهتافات ودعايات دائمة تدق كل الآذان والعيون والعقول والقلوب وتستهلك كل الزمان ممجدة مقدسة له أي للإله العربي وممجدة مقدسة لدينه وكتابه ونبيه ولكل ما يقترن اسمه باسمه.. كل الزمان والمكان تحولا إلى صراخ، صراخ باسمه ولاسمه.. لقد حولت أي هذه الأجهزة قراءة كتابه والأذان داعياً إلى صلاته إلى صراخ كوني يخترق آذان الشموس والنجوم ويزلزل الصخور ويكاد يسقط البيوت والأشجار ويرهب الحيوانات والوحوش وكل الكائنات الزائرة العاوية الصاهلة الثاغية الراغية الناعبة ويحول الصمت والوقار والهدوء والاسترخاء والنوم الصامت إلى محال.. إلى آمال ذهبت بلا عودة وماتت بلا بعث، لقد حولت هذه الأجهزة اسم الإله إلى أقسى وأدوم عواء..!

لقد جاءت لتصعد به فوق كل شيء لتهبط به تحت كل شيء.. لتلقي به في كل الأوحال..

.. لقد جاء هؤلاء العباقرة لينزلوا الإله من فوق عرشه أو من تحت عرشه وليصعدوا مكانه ولكن ـ وهذا كل العجب أو بلا أي عجب ـ لقد تحولوا بلا أية كرامة أو كبرياء أو غضب إلى دعاة له.!

إنه لا عجب في كينونات الإله ولا في رؤيته ولا في التعامل معه أو به مهما كان كل العجب، لقد قتل أي الإله كل معاني العجب والتعجّب.. إنه لا يعجب ولا يتعجب وإنه لقاتل في المتعاملين معه وبه كل لغات ومعاني العجب والتعجّب.. العجب والتعجب منه مهما كان وبدا كل الأعاجيب وفعل كل الأعاجيب.. بل مهما استحيت كل الأعاجيب من عجائبه وماتت أمام عجائبه استفظاعاً واستقباحاً لها ومنها..

أليست كل الأعاجيب تهزم بل تموت أمام عجائب الإله وأعاجيبه؟

كيف يعجب أو يتفجع من أي شيء أو من قبح أي شيء من لم يحترق عجباً وتعجّباً وانفجاعاً بالإله ومن الإله فاعلاً ومريداً ومواجهاً وصامتاً غائباً.!

كيف يعجب أو يتعجب أو يفجع من أي شيء أو بأي شيء الإله الذي أراد وفعل كل هذا.. الذي يواجه ويعايش كل هذا؟ لقد قتل الإله في الإنسان كل معاني العجب والتعجّب والانفجاع والتفجع كما قتل أي الإله في نفسه كل ذلك.!

لماذا يسارع المتخلفون إلى الدخول في الإسلام؟

روى الرواة أن أحد الأنبياء الذين هابت ورهبت وهربت واستحيت السماء أن تخاطبهم أو حتى أن تتصور وجودهم فكيف تخلقهم أو ترسلهم قال:

ما أقسى وأفجع مشاعر الإله بعجزه ونقصه وتخلفه وتدنيه في كل مواهبه وطاقاته وعبقرياته واختياراته ورؤاه وفي كل فنونه الفاعلة والمريدة المدبرة المعجبة العاشقة لو أنه رآه، لو أنه جرؤ واستطاع أن يراه.! ما أقسى غضبه على نفسه وهجاءه لها لو أنه رآه وقرأه وفسّره واستطاع أن يفهمه بكل صيغه وتفاسيره.!

لهذا كم أخشى أن يراه أو يقرأه أو يفهمه. ما أقسى الخوف على الإله والانفجاع به ومن أجله والرثاء له. ما أقسى عذاب ذلك. إن الخوف على الإله والرثاء له لأعقل وأتقى وأذكى من الخوف منه ومن الانتظار والتمجيد له ومنه.!

.. نعم، لأنه لن يجرؤ حينئذٍ على الزعم أو حتى التصور أو التمني أنه هو صانعه أو مخططه أو حتى متصوره أي لو أنه رآه أو قرأه أو فهمه.!

.. ولأنه لا بدّ أن يجد حينئذٍ مهما كانت غفلته وخموله وعجزه عن الرؤية والمحاسبة والمقارنة.

ـ نعم، لأنه لا بدّ أن يجد حينئذٍ أن المقارنة أو المماثلة أو المشابهة صعبة بل وقحة وبذيئة وبليدة جداً بينه أي بين هذا الذي لا بدّ أن يتحول إلى أقسى وأشمل هزيمة وتعيير وتعجيز لكل مواهبه أي مواهب الإله ولكل قدراته وتخطيطاته وتصوراته وطموحه وبين كل من أراد وتصور وتمنى وخطط ودبّر وصنع بكل مقاساته واهتماماته وبسالاته أي وبين كل مخلوقاته ومخلوقيه.!

ما أقسى المقارنة التي لا بدّ أن يقاسيها حينئذٍ إلهنا أي إن كان يعرف شيئاً من أخلاق المقارنة والمنافسة ومن منطقهما وآلامهما وحوافزهما.. وهنا صرخ أحد الرحماء جداً.. الرحماء بالإله. صرخ بكل لغات وتعبيرات الرثاء والإشفاق بل والأسى..

صرخ قائلاً:

أرجوكم، أرجوكم أن تصمتوا، أن تتوقفوا عن هذا الذي تتحدثون عنه.. عن ذكر وقراءة وكتابة اسمه وعن وصف أوصافه.

أرجوكم هذا الرجاء لأني أخشى أن يسمع إلهنا ويفهم شيئاً من أوصاف هذا الذي تتحدثون عنه.!

أليس محتوماً أن يتعذب كل العذاب وأقسى العذاب أي إلهنا أو أن يهرب من كونه ووجوده لو أنه سمع وفهم أوصاف من تتحدثون عنه بل شيئاً من أوصافه؟ ارحموه، ارحموا إلهنا. إنه لا كائن يستحق من الرحمة مثل إلهنا الذي قرأناه وفسّرناه وجرّبناه وعرفناه.!

.. أجل، أليس محتوماً أن يصاب بهذا أو هذا أو بهذا وهذا لو أنه سمع وفهم شيئاً من هذا غيرة واستحياء وخوفاً من عبقرية وقدرة ورؤية وأخلاق وذكاء الإله الآخر الذي تصور وأراد وخطّط وخلق واستطاع أن يتصور ويريد ويخطط ويخلق من تتحدثون عنه مقارناً أو محاسباً له بكل من تصور وأراد وخطط وخلق هو بكل همه واهتماماته أي إلهنا؟ أليس محتوماً أن يتصور هذا الإله الآخر؟

وهنا ضجّ كل شيء في الكون قائلاً لهذا الرحيم المشفق الرائي: لا تخش، لا تتوقع شيئاً من ذلك على إلهنا، لقد عايشناه وجربناه طويلاً، طويلاً. إنه هادىء خامد مسترخ غافل صامت حتى ليتفوق بذلك على الموتى.. على كل الموتى. إن الموتى ليغارون من خموده ومن صمته عن كل نبض.!

.. إنه معصوم عصمة أبدية من أن يصاب بالرؤية أو بالمحاسبة أو المحاكمة للذات أو بالغيرة العقلية أو الفنية أو الأخلاقية أو بالاستحياء أو الوقار أو بالندم على أي نقص أو تخلف أو خطيئة أو خطأ. لهذا فإنه لن يهرب أو يموت أو يقاسي من العذاب أو يتوب أو يتنازل عن عرشه أو عن ذاته أو يخجل ويختفي ويغيب مهما وجب أن يحدث كل ذلك.!

نعم، إنه لا يصاب بالغيرة العقلية أو الأخلاقية أو الفنية مهما أصيب بالغيرة الجاهلية.!

إنه لو كان يصاب بشيء من ذلك لما وجد أو بقي أي شيء كما وجد وكما بقي وكما نجد ونعرف ونرى، أن أصغر الحشرات لن تصمت عن وعلى ما يصمت عليه وعنه الإله بكل هذه الديمومة والقوة من الصمت.!

.. إنه لا يمكن تصور راضٍ عن نفسه باقٍ فيها حيث يجب أن يهرب منها ويتمزق ويتعذب غضباً عليها واشمئزازاً واستحياءً وافتضاحاً منها وبها مثل الإله، فظيع، فظيع ما لا بدّ أن يحدث لو أن الإنسان تعلم من الإله شيئاً من رضاه عن نفسه ومن إعجابه بها ومن عجزه عن رؤيتها ومن بقائه الدائم فيها بصيغة واحدة.!

.. ثم قال هذا النبي بكل توهّج الإعجاب والتعجّب وروعة المفاجأة: إنه لو كان في هذا الوجود إلهان أحدهما هو مريد ومخطط وخالق وإله وصديق هذا الذي أتحدث عنه، والإله الآخر هو مريد ومخطط وخالق ورب باقي الوجود لكان محتوماً أن يموت أو يتعذب كل العذاب الإله الأخير غيرة من الإله الأول..!

أنا أغلط أحياناً لأني أفترض أي أحياناً أن الآلهة تصاب بالغيرة الفنية.!

وهنا قيل له: وكيف يكون محتوماً أن يموت أو يتعذب كل العذاب من تصورته وافترضته فاعل هذا الوجود؟

إذن لماذا لم يصب بذلك فاعل هذا الكون حقيقة لا تصوراً أو افتراضاً؟ أليس شرطاً في كل إله أن يكون فاقداً للشهامة والرؤية والمحاسبة والغضب الفكري والأخلاقي وليس إلهنا فقط هو الذي يكون فاقداً لكل ذلك بكل الصيغ والتفاسير؟

هل غزارة وديمومة عمليات الخلق هي التي أنهكت الإله أو الآلهة وامتصت منه أو منها وقتلت فيه أو فيها كل طاقات الإبداع والاتقان والرؤى الذكية والحسابات العاقلة المعقولة الراثية القارئة الفاهمة الصانعة للجمال.. لكل صيغه وتفاسيره وفنونه؟ أليس الخلق أخذاً من الخالق واستهلاكاً له.. لعضلاته ومعنوياته؟ كيف لا يكون كذلك وهو أي الإله الخالق لا يتجدد أو يتغذى؟

.. لماذا اختار الإله أو الآلهة غزارة وكثرة ووفرة الخلق الضعيف الضئيل الدميم العاجز البليد على القلة الجيدة العبقرية؟ هل كل القيمة عندها للعدد لا للنوع ومن خدعها بذلك وقاله لها؟

ولكن هل القضية هنا اختيار أم انفجار.. استفراغ.. إفراز؟

هل الآلهة أو الإله حينما أسرف ليتفوق على كل جنون في عمليات الخلق وفي أعداد من يخلق.. في كثرة أعدادهم.

ـ نعم، هل كان بذلك يريد أن يعوض بالكثرة عن كل المعاني والمزايا القوية الذكية الجميلة المفقودة بل المرفوضة المطاردة في كل أكوانه؟ ولكن هل يمكن أن تصبح الكثرة الرديئة أي تعويض أو ربح؟ أليست خسراناً بكل التفاسير؟

.. كيف لم يقرأ أو ير أو يفهم الإله أو الآلهة ماذا فعلت وعنت وتفعل وتعني كثرة أعداد أبناء العروبة في مواجهاتهم لأنفسهم أو لأي شيء أو لما ليس شيئاً أو في مواجهاتهم لإسرائيل.. لإسرائيل؟. إنها مواجهة تخجل بل تموت من مواجهتها بل ومن رؤيتها وتصوّرها ومحاسبتها أصغر وأنذل الحشرات.!

إن كثرة الحشرات لن تصغر كما صغرت كثرة العرب مواجهة لقلة إسرائيل.

.. أليست كثرة عمليات الخلق تضعف وتفسد وتضلل بل وتعجز طاقات وحسابات ورؤى وتفكير ووقار وهدوء وجمال الخالق؟ أليست هذه العمليات الخالقة استنفاداً غير مهذب لكل معاني الإله؟

آه. ليت إله هذا الكون أي مريده ومخططه وخالقه قد عرف أن القلة المتفوقة في كل معاني التفوق أو حتى في شيء منها أفضل وأعظم بل وأكثر وأقوى من كل الكثرة المتفوقة في كل صيغ ومعاني التخلف.. التخلف الذي تفوقت فيه كل صيغ ومعاني التخلف العربي بكثرته أو مع كثرته أو لكثرته. ليته جمع كل طاقاته العضلية والفنية في عدد أقل من مخلوقاته ومخلوقيه ليكونوا أعظم وأجمل وأذكى تكويناً وكينونة.!

.. ليت كثرة العرب مواجهة لإسرائيل وللحضارة والحياة ولنفسها ولكل شيء تعلم الإله بل تعلم كل الآلهة ماذا تساوي وتفعل الكثرة.! كيف لم يعرف أي الإله ماذا تعني كثرة الحشرات؟

.. ليتها حينئذٍ أي هذه الكثرة تعلم الإله بل كل الآلهة التقليل من عمليات الخلق مقدرة أو مقتنعة أن إسرافها في هذه العمليات هو الذي سلبها أو أضعف وأفسد فيها كل مواهبها وطاقاتها وحكمتها ورؤيتها بل وشرفها.! هل يمكن اتهام الإله والآلهة بأنها تجهل إصابتها بكل هذه الآفات والنقائص؟

.. أليس محتوماً أو مفروضاً أن يوزع الإله اهتماماته وأفكاره ورؤاه وعواطفه وأوقاته وعضلاته وطاقاته بل وأحزانه على كل من خلق؟ وكم هي صعبة ومحيرة ومضللة عملية التوزيع هذه؟

كل معاني الإله مقسمة على كل هذا الوجود الدائم المتكاثر. إذن كم يجب الرثاء لها ولكل شيء.!

.. إذن أليست كثرة من خلق ويخلق خطراً على كل معانيه هذه لأنها أي هذه الكثرة لا بدّ أن تتحول إلى أقسى وأشمل امتصاص واستنزاف وإنهاك لها أي لمعاني الخالق بل إلى أقصى عقاب لها؟

.. إنها تحرمه من التركيز والتجميع والتدبّر والهدوء والقدرة على التنظيم والرؤية.. وهل هناك إفساد أو قتل للموهبة والقدرة بل والراحة مثل هذا؟ هل يوجد تبديد أو تشويه أو تضليل لطاقات وأفكار واهتمامات أي راعٍ أو مسؤول مثل أن يكون له قطيع كبير كثير مصاب بكل الآلام والأمراض والعاهات والتشوهات والشذوذ والشرود والضياع والفساد والضعف؟

وهل هناك قطعان مصابة بكل هذه الآفات مثل قطعان الخالق الأحد الأوحد؟

.. كيف لم يتساءل الإله أي إله عما صنعت له هذه الكثرة أي في مخلوقاته ومخلوقيه.. عما صنعت له من المجد أو السعادة أو القوة أو الانتصار أو الرضا أو الجمال أو الحب أو الراحة أو الطاعة أو من أي معنى جيد أو كريم، بل عما صنعت له من المعاني الأليمة المناقضة لكل هذه المعاني الجيدة؟ وهل كان يمكن أن يوجد أو يبقى أي الإله لو لم يكن معصوماً من كل سؤال وتساؤل؟

.. كيف لم يدرك أي الإله أن المخلوق الواحد الفاسد العاصي الضال المنكر الضعيف المشوّه النذل البليد المعذب العدواني الظالم المظلوم أقل إيذاءً وتعذيباً وتشويهاً وتحقيراً وهجاءً واتهاماً وغيظاً وإغضاباً له أي للإله من المخلوقين العديدين الذين هم كذلك؟ هل الإله يخلق ويصنع عدد من يخلق بالحساب أم بالضربات الطائشة؟ وإذا كان ذلك بالحساب فبأي حساب يكون حسابه؟ الإله يفعل ما تقول يداه لا ما يقول عقله، هل تصدقون؟

.. أيهما أقسى دلالة عليه وتفسيراً له: أن يكون قد أدرك ذلك أم أن يكون عاجزاً عن إدراكه؟ ما أفجع وأقسى بل وأردأ الاختيار للإله.. لكل إله..

إنه لن يكون إلّا اختياراً وخياراً بين قبيح وقبيح أو بين نذالة ونذالة أو بين بلادة وبلادة أو بين دمامة ودمامة أو بين عبث وعبث أو بين شر وشر..!

إنه اختيار وخيار بين الفاجع والأفجع.. الفاضح والأفضح..!

ولكنه أي الاختيار للإله والخيار بين تفسيرين أو رؤيتين أو قراءتين له أي للإله لن يكونا بين الفاضل والأفضل أو بين العظيم والأعظم أو بين الذكي والأذكى أو بين التقي والأتقى أو بين القوي والأقوى.. إنه أي الاختيار للإله لن يكون اختياراً بين الجيد والرديء أو بين المعقول وغير المعقول أو بين الذكي والغبي أو بين الجميل والدميم ولكنه أبداً بين الرديء والأردأ.!

.. كل القبح والسخف والجهل والعار أو كل الرثاء والعزاء والأسى للكائن الرهيب الذي إذا أصاب وجهاً جميلاً بريئاً بأقبح العاهات والتشوهات.. إذا أراد واشتهى ودبّر وخطّط وفعل كل الأخطاء والخطايا والذنوب والشرور والبلادات وأوقعها بكل شيء وكل أحد فلن يكون له أي تفسير غير أن يقال: إنه بذلك يعاني كل المعاناة وأجمل وأتقى المعاناة لكي يصنع ويحقق بذلك حكمته ومنطقه ونظامه أو لكي يحقق ويصنع به سعادته ومجده وقوته وفرحه وعرسه والظروف والصيغ والتفاسير الجميلة المجيدة لزفافه في عرسه وإلى عرسه دون أن يوجد له أو يجد لنفسه أي تفسير آخر إلّا أن يقال إنه بهذه الحماقات يستعرض ويعرض عضلاته.

.. إنه بغير ذلك لا يستطيع أو يعرف أن يصنع أو يحقق هذا أو هذا أو شيئاً من هذا أو هذا أو غير هذا وهذا.!

إنه لن يكون إلّا هذا العجز والغباء أو إلّا هذا الفحش والقبح أو إلّا كل ذلك.!

وهل وجد هذا الكائن أو أمكن تصور وجوده؟

وهل قبل أن يوجد أو أن يعلن عنه موجوداً؟

هل حدث ذلك؟ هل حدث؟ هل يمكن أن يحدث؟

كيف قبل أو يمكن أن يقبل أي كائن أن يوجد في عالم أو كون يحدث فيه مثل هذا؟

كائن يملك قدرة وإرادة مطلقتين في كل معانيهما وأعمالهما وبكل تفاسير الإطلاق. بأي أسلوب أو حساب يخرج ويضبط هذا الكائن إرادته وقدرته؟ أليست ورطة وفوضى لا مثيل لهما إلّا ما هو حادث في هذا الوجود حيث تكون وترى الكثرة حين يجب أن تكون وترى القلة؟ وحيث تكون وترى القلة حين يجب أن تكون وترى الكثرة.. حيث توجد كل الكثرة حين يجب وينبغي ويرجى ألا يوجد شيء أي من هذه الكثرة.!

.. حيث توجد قلة لا مثيل لشحها، وكثرة لا مثيل لسرفها وسفهها وقبحها.. هل يحتاج أي كائن إلى قوة خارجية تضبطه وتنظمه وتحدده وترشده مثلما يحتاج هذا الكائن؟ هل كان يمكن أن يجيء هذا الكون أو أي شيء منه كما جاء لو وجدت هذه القوة؟

كيف يضرب هذا الكائن بيده وإرادته وهما بلا أي جهاز من أجهزة الضبط؟ كيف؟

.. ولكن من هو هذا الإنسان الكوني أو الكائن الكوني أو ما هذا الكون الذي لم يكن مستطاعاً الحديث عنه أو ذكره أو تذكره دون أن تتفجر وتعصف وتنطلق وتطلق وتتحدى بل وتتفجع

كل هذه الأعاصير والبراكين والزلازل والأسلحة العقلية والفكرية والأخلاقية والجمالية والفنية على كل شيء وكل أحد..

حتى على أجساد ووجوه وعيون وضخامة وصعود وكبرياء وأضواء الشموس والنجوم...

.. حتى على كل أحاسيس وحواس الآلهة وعلى كل معانيها وشهاماتها وكراماتها واتجاهاتها...

حتى على كل عروش وتفاسير كل الآلهة الخامدة الخاملة المسترخية الصامتة الغائبة النائمة بل الميتة الموت الأزلي الأبدي فوق كراسيها وسررها ومضاجعها المغزولة والمنسوجة والمصنوعة من كل ما في هذا الكون من قبح وسخف وعفن وآلام وأحزان ودموع وغباء وضلال وأخطاء وخطايا ونذالات ودمامات وجهالات وقهر وخداع وسفه ودجل..

.. بل المغزولة المنسوجة المصنوعة من كل ما يملأ ويغرق ويذل ويشوّه كل هذا الكون وكل كون آخر بكل ذلك ومن كل ذلك..

.. بل المغزولة المنسوجة المصنوعة أي عروش الآلهة وكراسيها ومضاجعها من كل ما يرفض ويكره ويعجز ويجهل هذا الكون وكل من فيه وكل كون آخر أن يرى أو يعرف أو يقبل أو يكون أو يعيش أو يعايش شيئاً منه أو شيئاً من مثله، هل غزل أو نسج أو حيك أو صنع مثل عروش وسرر ومضاجع وكراسي الآلهة في صناعتها لأقبح وأقوى وأدوم القبح والتشويه والآثام والخسران والهوان والإذلال لكل شيء ولكل أحد؟

هل يتصور ما هو أقبح أو أفدح أو أجهل أو أردأ أو أرخص بل أو أقذر أو أعجز أو أذل أو أفسق أو أكفر أو أهدم لكل ما هو جمال وصفاء وذكاء وحب... من المادة أو الفكرة أو التقوى أو الديانة التي غزلت ونسجت وحيكت منها عروش وسرر ومضاجع وكراسي الآلهة كل الآلهة..

.. أو التي غزلت ونسجت وحيكت وخيطت وشيدت منها أكفان ومقابر الآلهة أي ومعابدها ومزاراتها وكعباتها وملابس أعراسها ومآتمها واستعراضاتها؟ هل خسر الإنسان أو يمكن أن يخسر مثل خسرانه في الإنفاق على أعراس وأفراح وملابس وزينات ومقابر ومآتم الآلهة؟

.. أو التي ابتكرت ونحتت وحفرت وبصقت منها أوراق وأحبار وأقلام وحروف ولغات ولعنات وتهديدات وبذاءات وعداوات وقباحات ووقاحات توراتها وإنجيلها وقرآنها.. نعم، قرآنها قمة سيئاتها ومأساتها وسوءاتها ووحشياتها وبداواتها وجهالاتها بل وعوراتها بل وخاتمة كل ذلك كما يقول ويقولون..!.. أجل، إن قرآنها هو قمة أو حضيض كل ذلك. إن كل صعود الإنسان صعود إلّا صعوده في أديانه ونبواته فإنه هبوط، هبوط.!

.. ما أجمل وأروع وأنفع أن يكون ذلك كذلك أي أن يكون قرآنها هو آخر ونهاية كل ذلك.. أي كل قباحات ووقاحات السماء المستفرغة على الأرض. إنه لا عدوان مثل عدوان السماء على الأرض ولا معتدى عليه مثل الأرض بعدوان السماء عليها، لهذا فإن أجمل وأروع وأنفع ما جاء به أو قاله نبي العرب محمد قوله وإعلانه أنه هو آخر الأنبياء إن كان ذلك يعني أن وجوده آخر وجوده أعني

إن كان وجوده أقسى وأقوى تحقير ورفض ونفي لوجوده ولمعنى وجوده ولاحتمالات وجوده وبقائه.. إن كان مجيئه هو آخر عدوان السماء على الأرض.. إن كان ذلك يعني إعلان خطأ مجيئه ومجيء أمثاله أي يعني التوبة من معناه ومن تكرار معناه.!

إن كان يعني أنه آسف وحزين لأنه قد جاء، لهذا لن يجيء مرة أخرى لن يجيء معناه مرة أخرى. إنه إعلان عالمي للتوبة من ذلك..!

ليت هذا ما يعنيه النبي محمد، إنه إن كان هذا ما يعنيه حين أعلن أنه آخر الأنبياء وأنه بمجيئه قد أغلق أبواب السماء لئلا تتصل بالأرض أو تتحدث إليها بالأسلوب الذي تحدثت به إلى الأنبياء بعد أن قرأ ورأى وعرف ضخامة وفظاعة عدوان السماء على الأرض وتشويهها لها بإرسالها من تسميهم بالأنبياء إليها.. بعد أن عرف قبح عدوان الأنبياء على الأرض لمعرفته بقبح عدوانه هو عليها.

ـ نعم، إن كان هذا ما يعنيه فقد أمكن أن يكون للنبي العربي معنى جيد ولو هذه المرة الواحدة.. وأمكن أن يكون أخلاقياً وإنسانياً ورائياً محاسباً محاكماً ناقداً رافضاً لنفسه أو لأي شيء آخر ولو مرة واحدة، ولو هذه المرة الواحدة..!

أليس ربحاً ومجداً وفخراً للعرب لم يجربوه أن يكون لنبيهم مزية ولو واحدة؟

... إنه ربح ومجد وفخر لم يجربوه إلّا كلاماً.. كلاماً.!

وهل جرب العرب في كل تاريخهم شيئاً من ذلك إلّا شعراً أو خطابة أو قرآناً متلواً؟

.. إذن فالنبي محمد لا يعني بقوله إنه آخر وخاتم الأنبياء أنه قد أصبح كل الأنبياء وكل النبوات الأزلية الأبدية الكونية، وإنما يعني بذلك إعلان خطيئة مجيء الأنبياء والنبوات وإعلان التوبة الصادقة الحاسمة من ذلك مع كل الاعتذار إلى الحياة التي ما أقسى وأطول ما تعذبت وتشوهت وقبحت وتقبحت وجهلت ورذلت ونذلت وهانت وحقدت وأبغضت وعادت وتعادت بمجيئهم ومجيئها أي بمجيء الأنبياء والنبوات إليها أي إلى حياة الإنسان بل إلى كل حياة وكل ما ليس حياة.!.. آه، هل توجد توبة أنفع أو أتقى من توبة الأنبياء من النبوات أو من توبة السماء من إنزال الأنبياء؟

ليت العرب يقتنعون ويعرفون أن هذا ما يعنيه نبيهم في هذه القضية لكي يحولوه إلى قراءة على كل العالم ليعرف أي العالم أن العرب قد يكون لهم مجد أو مزية أو نفع للعالم أو لأنفسهم أو لأي شيء وأن هذا ليس مستحيلاً استحالة مطلقة مهما دلّت كل الأحداث والتجارب والأدلة في كل التاريخ على هذه الاستحالة بل على أصالة هذه الاستحالة.!

هل يوجد اختراق للمستحيل مثل أن يثبت أن للعرب مزية حضارية أو علمية أو إنسانية أو عقلية فكرية أو أية مزية جيدة معروفة موجودة من أي نوع وليست مقروءة فقط؟

أليست المزية المقروءة المروية هي أقوى وأصلب وأعظم من المزية الموجودة في حساب الإنسان العربي؟

.. ولكن ألا يصبح العرب أردأ وأقبح مزورين لو أنهم فسروا نبيهم هذا التفسير الجميل

المستحيل مروره بفكر أو خيال أو حتى بتمني نبيهم لأنه جميل.. لأنه تفسير جميل أي محاسباً بالتفاسير والاحتمالات الأخرى.؟ وهل يتقبل خيال أو فكر النبي العربي أن يمر به أي معنى جميل أو ذكي أو نبيل أو تقي أو أخلاقي؟ أليس كل تفسير جيد أو ذكي أو نظيف أو أخلاقي لأي نبي أو زعيم أو قائد أو حاكم أو كبير أو مسؤول عربي بل أو لأي عربي عادي لا بدّ أن يكون بل وأن يرى ويعلن تزويراً، تزويراً؟

أي حاكم أو زعيم أو قائد أو ثائر أو قديس أو شاعر أو مفكر عربي يعلن بكل اللغات والأصوات أنه ديمقراطي أو حر أو صادق أو شجاع أو متواضع أو صديق أو محب أو زاهد في الحكم أو المجد أو الكبرياء أو الطغيان أو العدوان أو في البذاءات والوقاحات والملاعنات ـ هل يمكن تفسيره إلّا بأنه تزوير، وبأنه نقيض كل الصدق والجمال والتفاسير والمعاني الجيدة، وبأنه النقيض والرفض الحاد المتوحش لكل ما يقوله ويفترض ويحتمل من التفاسير الجيدة أو الذكية أو حتى التقية؟ هل يوجد شاتم أو مناقض أو مشوه لكل معاني النبوة وتفاسيرها مثل النبي العربي؟ إذن كيف يمكن أن يفسر النبي العربي هذا التفسير الجيد أو أي تفسير جيد آخر؟ أليس النبي العربي تشويهاً وسباباً وتقبيحاً لكل معاني النبوة وتفاسيرها بالقوة التي يصبح بها الحاكم أو الزعيم أو القائد أو المفكر أو الفنان أو المؤمن العربي تشويهاً وسباباً وتقبيحاً لكل تفاسير ومعاني الحكم والزعامة والقيادة والفكر والفن والإيمان؟ نعم، ليت ذلك التفسير الجيد ممكن.. ليته ممكن ليكون تفسير النبي العربي هذا التفسير الجيد ممكناً حين أعلن أنه آخر وخاتم الأنبياء والنبوات، وأنه قد أغلق وسرق وملك وأخفى بل وحطم كل مفاتيح أبواب ومنافذ السماء لئلا يظهر أو يخرج أو يطل منها الإله أو أحد أعوانه ليتحدث إلى سكان الأرض، بل وأنه قد أصاب السماء بعملية تعقيم ناجحة لتعجيزها عن أن تحبل بأي نبي أو تلد أية نبوة.!.. ما أشد احتياج النبي العربي والإنسان العربي إلى أن يفسّرا هذا التفسير الجيد الذي لا بدّ أن يصبح غلطة لو صح..!

.. كيف لم يفطن النبي محمد ولا قومه إلى هذا الذي يصعب أن يعجز أحد عن أن يفطن إليه وهو أن النبوة إن كانت شيئاً جيداً أو نافعاً للحياة أو للإنسان أو لأي شيء أو للإله أو لسكان السماء فإن جناية النبي العربي وقومه على العالم بل وعلى كل شيء جناية بلا مثيل حينئذٍ لأنهم هم الذين قتلوها أي قتلوا النبوة بعد نبوتهم ومنعوها وأغلقوا دونها كل الطرق والآفاق إلى الأرض وأصابوا السماء بالعقم والخرس لئلا تحبل بها أو تلدها أو تنطق أو توحي أو تأمر بها لأن الإله بعد أن كرّم ومجّد نفسه بالتحدث إلى الإنسان العربي لا يجوز أن يحقرها بالتحدث إلى غيره..! إذن كم هو دفاع عن العرب وتبرئة لهم من هذه الجناية أن يكون نبيهم إنما جاء ليعلن عالمياً بشاعة الأنبياء والنبوات وليعلن ضخامة ما في ذلك من الإفساد والعدوان والتشويه والتعويق للحياة وللإنسان ولكل شيء، لهذا جاء ليقول لا نبي بعدي، لا نبي.!

ليعني بذلك أنه آخر الجناة والخطاة والغزاة القادمين من السماء.. ليت هذا التفسير ممكن.. ليته ممكن، كم فيه من المجد للعرب لو كان.! كم فيه من التعويض لمن لم يجربوا صناعة المجد أو امتلاكه أو حتى الشوق إليه بل أو حتى الاتهام به.!

أما إذا لم يكن هذا التفسير هو التفسير لتحريم النبي العربي لكل نبوة ونبي بعده فلا بدّ أن يصبح العرب ومعهم نبيهم مستحقين لمحاكمة ومعاقبة دوليتين كونيتين لأنهم جاؤوا بقيادة نبيهم ليحرموا على الأرض وعلى الإنسان علاقاتهما بالسماء وليعلموا السماء ألا تتصل بالإنسان أو بالأرض وليزجروها وينهوها عن هذا الاتصال، خادعين أو مهددين مخيفين لها.. وكم في هذا من العدوان على الأرض والسماء والإنسان وعلى كل شيء بل ومن الوقاحة والقبح!

إنها لأقسى فجيعة وهزيمة أن يكون كل عطاء العرب للحياة وللإنسان وكل تأثيرهم في التاريخ وكل آثارهم فيه أن تكون لهم أقسى وأشرس نبوة تعجز كل الحضارات والعلوم والعقول والأخلاق والهزائم والانتصارات وكل الأحداث الرديئة والجيدة وكل القراءات والرؤى والتبدّلات والتغيرات الكبرى، ويعجز كل شيء عن ترويضها أو تعليمها أو تحضيرها أو تأديبها وتهذيبها أو تعقيلها بل أو عن التخفيف من بداوتها وشراستها وعدوانيتها وطغيانها وكبريائها ومن نشرها وتوزيعها وتأكيدها للعداوات والأحقاد والخصومات والانقسامات والجهالات والبلادات والبلاهات في كل آفاق الدنيا حتى في دنيا من هزموا وأذلوا الأقمار والنجوم. إن كل الانتصارات لتصغر مهما كبرت أمام انتصار النبوة العربية على المعاني الحضارية.!

.. كيف حدث هذا؟ كيف حدث أن تجيء نبوة ونبي أعجز الناس عن العطاء الحضاري والعلمي والإنساني هما أقوى وأطغى وأشرس وأفتك النبوات والأنبياء وأقدر على الزحف المنتصر الهازم المذل المشوه المفسد لكل معنى وشيء جيد أو قوي أو ذكي، أو المحاول والمريد أن يفعل ذلك.!؟

ما أفدح ما كان محتوماً أن يحدث لو كان ممكناً أن تتحول محاولات النبوة والنبي العربيين إلى واقع.!

.. لقد ظلم العرب وشوهوا أقسى وأشهر ظلم وتشويه حين بولغ جداً في حرمانهم من كل العبقريات ومن كل صيغ ومعاني التفوق لكي يبالغ جداً في إعطائهم هذه النبوة وهذا النبي المتفوقين على كل النبوات والأنبياء في صناعة الشراسة والحقد والبغضاء والتعصّب والتخلف والغرور.

.. هل كان هذا مبالغة في تعويضهم أم مبالغة في تشويههم وتحقيرهم وظلمهم؟ هل يوجد من يجيب لو وجد من يسأل؟

إنه لو بحث عن تفسير لهذه القضية لوجب أو لكان محتملاً أن يكون أحد تفاسير ذلك أن قوة النبوة العربية وقوة النبي العربي أي في شراستهما وبداوتهما وتخلفهما وحماقاتهما وعدوانيتهما قد سحبت من العرب أو هزمت وأذلت أو أضعفت فيهم كل القوى الأخرى الجيدة النافعة المطلوبة بل أو قتلت فيهم كل ذلك.!

.. وقد يقال في تفسير ذلك إن المعاني الحضارية والإنسانية والطاقات والإبداعات العلمية قد أنفت وخجلت أن تعايش النبوة العربية والنبي العربي لهذا قاطعت المجتمعات العربية والإسلامية.!

.. إن للنبوة العربية خصوصية عجيبة مثيرة جداً والمظنون أن أحداً لم يفطن إليها مع أن المفروض بل والمعقول ألا تخفى على أحد وألا يستطيع أحد ألا يفطن إليها.! ما أكثر وأضخم

الدمامات والتشوّهات والفضائح التي يعايشها ويعيشها كل أحد دون أن يراها أو يقرأها أحد.!

.. ما أعجب ما يحدث في الحياة والإنسان وما يحدث منهما وما أبعده عن المعقول والمقبول والمنتظر أي أحياناً أو دائماً، وهل هناك معقول مهما كان هناك كل غير المعقول؟ أليس المعقول خارجاً على كل المعقول مثل خروج غير المعقول؟

.. إنهما قد يعجزان عن رؤية ما يتفجر في كل العيون كل الأوقات بأقسى أساليب التفجر ثم يريان ما لا تستطيع كل العيون حتى عيون الإله وعيون أجهزته أن تراه.. كما أنهما قد يعجزان عن الفهم حتى ليجب أن يحسبا لم يوهبا ولن يوهبا أي قدر من الفهم، ثم يفهمان حتى ليجب الاعتقاد بأنهما لن يعجزا عن فهم أي شيء بل وبأنه لن يصعب عليهما أي فهم لأي شيء بل وبأن كل شيء إنما صاغه فهمهما أو صيغ على مقاسات فهمهما أو بإيحائه وتعليمه وطلبه، أعني الحياة والإنسان.!

إنهما أي الحياة والإنسان لن يفهما مهما فهما أو يعقلا مهما عقلا ولن يكون لهما أي تفسير مهما فسرا كل التفاسير.. مهما تحولت كل النبوات والفلسفات إلى تفاسير لهما.!

.. هذه الخصوصية للنبوة العربية قدرتها المطلقة بلا أية مقاساة أو نضال على أن تحول المجتمعات الناقصة والمتخلفة في مواهبها وطاقاتها الحضارية والإنسانية والعقلية بل والأخلاقية أي الحاضرة والمنتظرة ـ على أن تحولها بكل السرعة والسهولة إلى أتباع ورعايا لها لا يرون أو يسمعون أو يعقلون أو يحترمون أو ينتظرون إلّا ما تستفرغه في آذانهم بأجهل وأوقح الأساليب والتعاليم مهما فارقت ذلك كل المفارقة أعضاؤهم وشهواتهم وتمنياتهم وأعمالهم.

ثم عجزها المطلق أي عجز النبوة العربية عن أن تتعامل بل أو أن تتخاطب مع أي معنى من معاني الآخرين أي المتفوقين في كل مواهبهم أو في بعض مواهبهم إلّا أن يكون تعاملاً أو تخاطباً بالرثاء لها أي للنبوة العربية وبالإشفاق عليها وبالانفجاع بها لا للتفاهم أو التحاور أو التعاون أو التصادق أو التحالف معها... ما أكثر الإعجاب الذي سبّبه التهاون والإهمال في الرؤية والمحاسبة وليس سببه الإعجاب الذي سببه الاستصغار لا الإكبار.! أو إلّا أن يكون تعاملاً وتخاطباً مع «آبارها» التي لم تلدها أو تصنعها أو تتصورها أو تقرأها أو تقرأ عنها أو تتحدث عنها في شيء من سورها أو آياتها أو رواياتها. آه، ما أقسى التعامل والتخاطب مع هذه الآبار.!

ما أقسى احتياج هذا التعامل والتخاطب مع هذه الآبار إلى الغباء والهوان.!

.. لهذا لم يكن ممكناً أن يصبح من رعايا النبوة العربية أول من صعدوا فوق القمر وأطلقوا السفن والصواريخ الكونية كما لم يكن ممكناً أو منتظراً أن يكون من أصبحوا من رعاياها هم أول من يفعلون ذلك أو ممن يفعلونه.!

أليس شيئاً مثيراً بل وفاجعاً أن أحداً لم يفطن إلى هذه الخصوصية للنبوة العربية مع ما في دلالاتها وتفاسيرها من ضخامة كئيبة أليمة مهينة صانعة لكل التساؤلات ولأحدها وأحرها وأمرها؟ لماذا لا يأتي التساؤل والإثارة والاهتمام بقدر ما يجب أن يكون ذلك؟ لماذا كل شيء خروج على المعقول؟

.. أتباع النبوة العربية المتعددون والمختلفون أجناساً وأعراقاً وأوطاناً وألواناً ولغات وتاريخاً لم يستطيعوا أن يسبقوا إلى إبداع أي شيء جيد حضارياً أو علمياً أو فكرياً أو فنياً أو أخلاقياً أو إنسانياً بل أو أن يشاركوا في إبداعه، بل لم يستطيعوا إلّا أن يكونوا متخلفين في كل ذلك تخلفاً أليماً شاملاً فادحاً ذليلاً مذلاً بل وإلّا أن يكونوا ويظلوا عيالاً جياعاً يحيون على صدقات وإبداعات الآخرين العلمية والحضارية والصناعية والعقلية والعسكرية وغيرها وغيرها بل وحتى على صدقاتهم وإبداعاتهم النفطية، النفطية. نعم، وهل النفط.. نفطنا إلّا بعض عطايا وصدقات أولئك الآخرين علينا ولنا؟

.. هذه الحقيقة أو الظاهرة الفاجعة كيف لم تفجر وتسعر كل الاهتمامات والتساؤلات بحثاً عن التفاسير والأسباب وعن الدواء والشفاء إن كان ذلك مستطاعاً أو ممكناً؟ ما أدوم تساؤل من يتساءل كلما وجدت أسباب التساؤل.

وما أقسى عذاب وانفجاع من يتساءل بعقله وقلبه ورؤيته وأخلاقه أي كلما وجب التساؤل وكلما وجدت أسبابه. وهل وجد هذا الكائن الشقي البائس؟

.. قد يكون التفسير الأعدل أو الأعقل أو الأصدق أو الأقرب إلى ذلك أن العاجزين والمتخلفين في كل طاقاتهم ومعانيهم التكوينية والتطورية يتسارعون إلى الاحتشاد والتجمع للإيمان بالنبوة العربية لأنهم يجدون فيها كل عجزهم وتخلفهم وكل الاعتذار عن عجزهم وتخلفهم بل وكل التمجيد لعجزهم وتخلفهم وكل الإعلان والإقناع بأن عجزهم وتخلفهم هما كل القدرة والتقدم والتقوى وبأن عجزهم وتخلفهم هما اللذان صنعا ووهبا كل الحضارات والقدرات والمعارف والإيمان والذكاء والتدين وكل شيء جيد وجميل نبيل حتى جمال الإله ونبله هما اللذان صنعاهما ووهباهما ووجداهما رأياهما في أقبح القبح وأقسى الآلام!

.. قد يكون التفسير أن بين جميع العاجزين والمتخلفين كل معاني التخلف والعجز وصيغهما وبين النبوة العربية تجاذباً وتوافقاً وتصادقاً وتحاباً بل وتحالفاً غريزياً ذاتياً تلقائياً لا يحتاج إلى دعاية أو نصيحة أو تلقين أو تحريض أو إغراء ليكون قوياً، قوياً أبدياً.!

قد تكون العلاقات بينها وبينهم كالعلاقات الجنسية أي في أشواقها الاندفاعية الطبيعية العمياء، أليست أي النبوة العربية استجابة سخية شاملة لكل جوعهم إلى التعصب والتبلد والفحش والحقد والبغض والوقاحة والغرور؟

.. وبعيد جداً أو باطل مرفوض جداً أن تكون أي النبوة العربية هي التي صنعت عجز وتخلف رعاياها العاجزين المتخلفين.. ليس لأنها متورعة ورافضة أن تفعل ذلك بل لأنها عاجزة أن تفعله وغير محتاجة إلى أن تفعله. إن النبوة العربية لا تحتاج إلى أن تخلق العجز والتخلف في اتباعها مهما أرادت ذلك لأن أتباعها تخلقوا كذلك.!

.. قد يكون أتباع النبوة العربية قد عرضوا عجزها وتخلفها وأعلنوا عنهما بعجزهم وتخلفهم دون أن تصنع هي هذا أو هذا أو أن تدبر أو تريد أو تصنع أو تستطيع أن تصنع هذا أو هذا.!

قد تكون النبوة العربية مظلومة بأتباعها المؤمنين بها لأنهم قد أصبحوا كل وأقوى وسائل وأجهزة

وأصوات الإعلان والتعبير عنها والنشر لها لتكون مسموعة مرئية مقروءة ممارسة مفتضحة مفضوحة.!

إنه لولا أتباعها هؤلاء لظلت خافتة منسية مجهولة، وكم في هذا من الستر عليها ولها.؟

.. وقد يكون مقبولاً بل ومعقولاً أن يفسّر ما لقيته النبوة ولقيه النبي العربيان في المجتمعات المتخلفة والعاجزة وما سوف يظلان يلقيان من استسلام وتمجيد وأمجاد بل وتأليه حتى لقد تحولا إلى أضخم وأقسى وأقبح وأبلد وأشرس الوثنيات والأوثان، بل حتى أن جميع الأوثان والوثنيات لا تستطيع أن تصعد أو تمجد لتكون شيئاً من تفاسيرهما وأمجادهما الوثنية، بل حتى أصبح الإله لا يذكر أو يعبد أو يمدح أو يصلى له إلّا من أجل أن يذكرا ويعبدا ويمدحا ويصلى لهما أي للنبوة والنبي العربيين، حتى لأصبح الإله، هكذا يجب الاعتقاد، يقاسي كل قسوة العذاب غيرة واستحياء وانهزاماً وهواناً وضياعاً أمامهما.. وحتى لقد وجب وحق أن يحسب جميع الوثنيين في جميع العصور هم أعظم المؤمنين الموحدين محاسبين بوثنية أتباعهما أي أتباع النبوة والنبي العربيين، محاسبين بوثنية العروبة الموحدة.!

.. إن كل عيون كل الشموس والنجوم في جميع أطوار كينوناتها الكونية في كل رؤاها وتحديقاتها لم تر ولو ظناً وتحسساً وثنية تنافس أو تؤمل أو يحتمل أن تنافس شيئاً من وثنية المؤمنين بالنبي العربي وبنبوته العربية. إن العرب والمسلمين مهما حذفوا من كل منافسات التفوق في أي شيء جيد فإنهم سيظلون بلا أي منافس على تفوقهم في وثنيتهم هذه.!

.. إن الإله لو عاقب أو لو كان يعاقب على الوثنيات لما استطاع أن يعرف أو يصنع العقاب الكافي عقاباً لوثنية رعايا النبي العربي ورعايا النبوة العربية أي لو كان يعاقب الوثنية على قدر وثنيتها.!

.. ولو كان أي الإله يعاقب الوثن على قدر كونه وثناً لما وجد أو عرف عقاباً يكفي لمعاقبة النبي العربي ولمعاقبة النبوة العربية.!

هل يمكن تصديق هذا أي التصديق بأن وثنية التوحيد هي أضخم الوثنيات وأقبحها وبأن جميع الوثنيات لا تستطيع أن تنافس الوثنية التي جاء بها نبي التوحيد محمد معلماً ومنفذاً لها؟

.. نعم، قد يكون مقبولاً بل ومعقولاً أن يفسر ما لقيه وما سوف يظل يلقاه النبي والنبوة العربيان لدى المؤمنين بهما بما يلقاه اليوم ودائماً الحاكم أو القائد أو الزعيم أو المعلم أو الداعية أو الشاعر أو المفكر العربي في الأسواق العربية أو أن يفسر هذا بذاك.. أليست كل تفاسير الحاكم والزعيم والقائد العربي هي كل تفاسير النبي العربي بل والإله العربي؟ هل الأسواق العربية تتقبل وتتبع أو تختار من هؤلاء إلّا المتعصب السفيه البذيء الأحمق المعادي الملاعن المخاصم الشاتم الجاهل الكذاب المغرور العاجز في كل معانيه الإنسانية المحارب كل شيء وكل أحد والمتطاول على كل شيء وكل أحد والمعير لكل شيء وكل أحد بالكلمات. وأي كلمات هذه الكلمات.. أية كلمات. هل تأذن الطبيعة أو الآلهة أو حتى الحشرات أن تبتكر الكلمات لو عرفت أن زعيماً أو حاكماً أو قائداً أو معلماً أو داعية أو شاعراً أو مفكراً عربياً قد ينطق بشيء من الكلمات التي نطق والتي سوف ينطق بها؟

ـ نعم، هل الأسواق العربية ترضى أو تطيع أو تحمد أو تعظم أو تخلد من هؤلاء إلّا من هو كل ذلك وإلّا من يعلمها كل ذلك؟

وإذا اقتحم الأسواق العربية متنافسان في هذه الرذائل معلمين وفاعلين لها فلا بدّ أن يسقط الأضعف وينتصر الأقوى أي في تعليم وفعل هذه الرذائل، ماذا لو عرف ذلك المتسابقون في الأسواق العربية؟ أليس المنتظر حينئذٍ أن يتسابقوا على الانهزام لا على الانتصار؟

إن النبي محمداً لو جاء أكثر وقاراً وصدقاً وتفكيراً ورؤية وحباً وتواضعاً وأخلاقية وإنسانية وتحضراً وتهذيباً وعدلاً ولجماً للسان وللانفعالات والتعبيرات الهمجية الوحشية العدوانية الغوغائية لما وجد كل مجده وسلطانه الوثني الذي وجده أو لفقد أكثره، ولكن ماذا يبقى له أي للنبي محمد أو يوجد فيه لو أنه جاء كذلك أي لو أنه جاء عقلاً وصدقاً ووقاراً؟

لقد كانت وجاءت نبوة محمد بتعاليمها وقرآنها إغراء لا يقاوم للضعفاء والعاجزين والمتخلفين والجاهلين والخاطئين والمخطئين وللكسالى الخامدين الخاملين المتواكلين الهاربين من أن يكونوا أو يروا أنفسهم مسؤولين أو محاسبين بأي شيء أو عن أي شيء حتى ولا عن أنفسهم أو بها أو لها..!

هل يجد عطاء أو إنقاذ مثل أن يكون الموجود غير مسؤول عن تكاليف وجوده؟

.. إنها أي نبوة محمد تغفر لكل هؤلاء كل نقائصهم بل تبرئهم منها وتحولها إلى مزايا وتقوى وتصفهم بنقيضها وتهبهم كل ما يريدون ويفقدون وكل ما هم عاجزون عنه وجاهلون به وتحولهم إلى أولياء وأصفياء وأقوياء وأذكياء، بل وإلى عظماء وعلماء متفوقين منتصرين على كل الآخرين من خصوم وأعداء ومنافسين ومخالفين.. إنها استجابة لكل نقائصهم وذنوبهم وأحقادهم ونذالاتهم.!

.. إنها وعود مطلقة ومفتوحة بكل شيء وعلى كل شيء..!

.. إنها وعود تصطاد كل التفاهات والبلادات والآثام والعجز وكل النقائص.

.. إنها تصطاد كل المصابين بكل ذلك والمريدين العاشقين له.. الذين لا يريدون أو لا يستطيعون سواه، سوى ذلك..

ما أيسر وأسهل الصيد في بحار وشبكات الغباء والخداع..!

.. إنها وعود تصعد بأصغر الحشرات إلى أعالي السموات جاعلة منها أكبر الكائنات، هل يمكن أن ترفض الحشرات من يصعدون بها ليضعوها فوق الإله فوق عرش الإله وسريره لتكون كل حبه وصداقته؟

.. والثمن، إنه لا ثمن، إن كل الثمن المطلوب منهم دفعه أي إعلانه: أن يعلنوا إيمانهم وتصديقهم وتقديسهم واحترامهم وامتداحهم وصلاتهم وسجودهم وهوانهم وولاءهم وإخلاصهم ومبايعتهم وعبوديتهم الدائمة المطلقة أي بأقبح وأغبى الأصوات، مصوتين بكل ذلك لهذه النبوة ولنبيها ولإله هذا النبي وهذه النبوة..!

.. وأيضاً أن يشتموا ويتهموا ويحقروا ويخاصموا ويعادوا ويحاربوا كل الآخرين، كل المخالفين بكل أسلحة البغض والعداوة والتعصّب.

- أن يفعلوا ذلك بشعارات وتحت شعارات الإيمان بهذه النبوة ونبيّها وإلهها وبحجة الاستجابة والإفراح والإسعاد والتمجيد لهذه النبوة والنبي والإله الذي جاء أو صيغ على مقاسهما أو الذي صيغا أو جاءا هما على مقاساته..!

إن هذا هو كل الثمن لكل هذه العطايا التي يعرضها بل يتقدم بها إله هذا الكون بكل التضرع والتخشع والتودد مؤملاً أن تقبل ثمناً لمطالبه الصغيرة الرديئة التافهة الفاضحة المهينة للمطالب بها المتقبل لها..

.. لنتصور هذا التصور.. لنتصور أن النبي محمداً قد ألقى في جماهيره الملائمة خطابين أو سورتين قرآنيتين...

في أحد الخطابين أو السورتين دعا إلى حب ومصادقة المخالفين والخصوم وإلى التسامح معهم متحدثاً عن مزاياهم الحقيقية ومحرضاً على رؤية هذه المزايا وإلى الاعتراف بها وعن استنكار إنكارها...

وتحدث أيضاً عن قسوة الشروط والالتزامات المطلوبة ممن يؤمن به، مقللاً من الوعود السخية الواهبة بلا حدود، ملتزماً شيئاً من الوقار والصدق في إطلاقها وفي الرشوة بها أي بالوعود...

واصفاً ضخامة وصعوبة الثمن الذي لا بدّ من دفعه شرطاً محتوماً لصدق أي وعد من الوعود الجميلة أو المربحة أو المرادة..

واصفاً الإله وكل تصرفاته بالذكاء والقانونية والمنطقية وبالعقل والنظام والانضباط لا بالمشيئة المطلقة المتقلبة غير المحكومة بغير نفسها بغير المشيئة، ولا بأنه الكائن الذي قال عن نفسه كما روت نبوة محمد: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.. ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ..﴾ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.. ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾.. ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.. ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..﴾ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾..

نعم، في أحد الخطابين أو السورتين قال وعلم وأعلن وأكد كل ذلك، وكان في صوته وحركاته وإيماءاته وإيقاعاته وفي كل تعبيراته محكوماً بكل الوقار والاتزان والهدوء بلا أي تعبير مهيج انفعالي خطابي غوغائي يصرخ بالعيون والآذان المهتاجة دون أن يخاطبها أو يحاورها أو حتى يتحدث إليها أي يضربها ويغني لها ويستفرغ فيها وعليها لتستقبل وتنفعل لا لتحاكم أو تحاسب أو تحاور أو حتى تسائل.. دون أن يقرأها أو يقرأ لها أو عليها أو يتعامل معها أو ينوي التعامل معها. هل وجد محاب لغزاة الأسواق بالنبوات والآلهة والتعاليم مثل الآذان والعيون التي تتحول كل وظائفها إلى أن تستقبل الاستفراغ والبصق فيها بكل التلهف والحماس.! هل كان الإله ماكراً بالإنسان حين صاغه بعيون وآذان؟

.. أما في الخطاب الآخر أو في السورة الأخرى فقد جاء كل النقيض لهذا الأسلوب أي جاء النبي محمد ونبوته ووحي إلهه..!

.. وهنا يجب التصور والتساؤل: لأي الخطابين أو السورتين ستكون الاستجابة والحماس والتقبّل بل والهتاف أو لأيهما سيكون ذلك أقوى وأكثر.. للعقل والصدق والوقار أم للجنون والكذب والخداع والتهييج والهوس..!

هل يمكن أن يقبل أو يعقل أي شيء بالعقل أو بالصدق أو بالفهم والرؤية والاقتناع.

.. والنبي محمد هو دائماً الأسلوب الثاني في كل سوره وآياته وخطاباته وتعاليمه وأصواته وإشاراته معبراً عن وعده أو عن وعيده، واصفاً لفردوسه أو لجحيمه، مبشراً أو منذراً، متحدثاً عن بداية الكون أو عن نهايته.. عن انتقام الإله وبطشه وغضبه وبغضه وقسوته أو عن رضاه وحبه ورفقه وعفوه ورحمته. هل وجد واصف هجا نفسه وموصوفه مثلما فعل النبي محمد في وصفه لإلهه؟

.. إن جميع المهيجين المهتاجين المخترقين لكل حدود وتفاسير وصيغ الوقار والاتزان والصدق والعقل والمحاسبة للنفس في كل العصور والمجتمعات.

ـ نعم، إن جميع هؤلاء في كل معانيهم هذه لن يكونوا شيئاً واحداً من النبي محمد في هذه المعاني..!

إن أوصاف النبي محمد لأهوال الجحيم ولخرافات الفردوس لهزيمة وإسقاط لكل المنافسين في أي معنى من هذه المعاني في كل العصور والمجتمعات.. إن كل ما في الأشياء والكائنات من قبح نفسي وأخلاقي وعقلي لن يستطيع أن يفرز القبح الذي صاغ أوصاف الجحيم والفردوس وأوصاف سكانهما.!

فظيع، فظيع أن يقرأ أي إنسان أوصاف النبي العربي لجحيمه أو لفردوسه وأوصافه لمن سوف يكونون سكان هذا ولمن سوف يكونون سكان ذاك، وكيف سوف يحيون حياتهم أو وجودهم هنا وهناك..!

حتماً أنا أعني بالإنسان هنا الذي أرهب أن يقرأ وصف محمد لجحيمه ولفردوسه ـ أعني به الإنسان بمعاني الإنسان لا الإنسان بصيغة وملابس الإنسان، ما أقل هذا الإنسان، ما أقله مهما امتلأ الكون وغرق بالوالدات والوالدين والمولودين والولدان.!

إن جميع الهجائين في كل العصور والمجتمعات وبكل اللغات لو أرادوا أن يهجوا شيئاً أو أحداً أو مجتمعاً أو شعباً لما استطاعوا أو عرفوا أن يهجوه مثل هجاء أو شيئاً من هجاء من أراد أن يهجو العرب هجاء لم يهج به أي مهجوٍ فروى أوصاف النبي العربي محمد للجحيم والفردوس ولسكانهما.. إنه لسؤال محير جداً: كيف أمكن أن تتخلق في نفس النبي محمد هذه التصورات والصور للجحيم والفردوس..!؟

.. إذن كيف وصفه أي وصف النبي العربي محمد للإله.. لمكره وخداعه وكيده ولحبه وبغضه ورضاه وغضبه ولسروره وكآبته ولصداقاته وعداواته وشهواته وممارساته وعلاقاته ولمصافحاته ومعانقاته

وضرباته ولطماته ومصارعاته ومخاصماته ولتقلباته ونزواته.. لمطالباته وطلباته وشهواته.. وللأشياء التي تصنع له أي للإله هذا وهذا، ما أرخص هذه الأشياء، ما أرخصها وأسخفها.!

.. إنه لم يوجد ولن يوجد هاجٍ مثل النبي محمد في هجوه للإله، ولم يوجد ولن يوجد مهجو مثل الإله في هجو محمد له زاعماً ومعتقداً أن يمجده ويعبده ويرضيه ويسعده.! إنه لم يوجد ولن يوجد هاجٍ يحسب مادحاً مثل النبي محمد ولم يوجد ولن يوجد مهجو يحسب ممدوحاً مثل الإله أي إله محمد..!

ولعل من الحقائق التي لا يمكن أن تنكر أو تخفى أن العربي لا تستطاع منافسته في افتضاحه مادحاً وممدوحاً..

أي في افتضاحه وفضحه لنفسه ولممدوحه مادحاً أي قائلاً ومعلناً مدائحه في ممدوحه، وفي افتضاحه وفضحه لنفسه ولمادحه ممدوحاً أي متقبلاً ومعلناً تقبله للمدائح التي تقال له وفيه ويمدح بها بل معلناً رضاه وفرحه وسعادته وكبرياءه ومباهاته ومجازاته على ذلك أي على أقذر وأرخص وأوقح البصقات والاستفراغات التي تبصق وتستفرغ عليه وفيه بل وعلى مجتمعه وتاريخه وعصره وفيه بإعلان وأسلوب وتفاسير الامتداح والتمجيد له. هل يمكن أن يوجد من يجرؤ أن يزعم أن المدائح العربية أنظف أو أشرف من أي بصاق أو استفراغ؟

.. إن المادح والممدوح العربيين ليسا افتضاحاً وفضحاً لنفسيهما فقط ولكنهما افتضاح وفضح لكل الوجود العربي ولكل شيء عربي ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بكل صيغ ذلك وتفاسيره.. إنهما افتضاح وفضح للآلهة والألوهيات والأنبياء والنبوات والديانات العربية..

إنهما أي المادح والممدوح العربيين أقسى وأصدق تفسير لكل ذلك وإعلان عنه.. إن أي كائن من الكون المعروف أو المجهول لو سمع أو قرأ أو عرف الإنسان العربي مادحاً وممدوحاً لكان محتوماً أو مفروضاً أن يعرف أخلاق ومواهب ومستويات وذكاء وتفاسير وأشواق آلهته وأنبيائه وأديانه ونبواته.

إن أي إله أو نبي أو دين ليس إلّا صيغة وتفسير من آمن به جاء أو أعلن باسم أو بثياب إله أو نبي أو دين.!

وإن أي مؤمن ليس إلّا الإله أو النبي أو الدين الذي آمن به وانتمى إليه وحسب عليه جاء وزعم ورؤي وفسر وقرىء باسم وصيغة كائن أو إنسان قد آمن أو أعلن مؤمناً بإله أو دين أو نبي ما.. إن كل تفاسير هذا هي كل تفاسير هذا مهما اختلفت الأسماء والمظاهر.. لهذا فإن الإله والنبي العربيين مادحاً وممدوحاً لن يساويا إلّا العربي مادحاً وممدوحاً ولن يفسرا إلّا بذلك أي تفسيراً صادقاً. وإن العربي ممدوحاً ومادحاً لن يساوي إلّا الإله والنبي العربيين متمادحين متعاطيين للمدائح المتبادلة أو المتجازية، ولن يفسر أي العربي مادحاً وممدوحاً إلّا بذلك أي إلّا بالإله العربي والنبي العربي مادحاً وممدوحاً بل مادحين ممدوحين فهما أي الإله والنبي العربيان أعظم حظاً في هذه القضية لأنهما مادحان ممدوحان أما العربي فهو إما مادح وإما ممدوح وليس دائماً.

إذن فالعربي مادحاً وممدوحاً هجاء للإله والنبي العربيين..!

وإذن فالإله والنبي العربيان ممدوحاً ومادحاً هجاء للإنسان العربي.!

لأنهما هو ولأنه هما بكل التفاسير والمحاسبات والحسابات.!

هل عرف ذلك أحد؟ كيف أمكن أن يجهله أحد؟

إذن لن يكون مخطئاً من قال إن النبي العربي مادحاً للإله ليس إلّا شاعراً عربياً يمدح سلطانه العربي، وإن إله محمد مادحاً لنبيه محمد ليس إلّا شاعراً عربياً يمدح سلطانه العربي، هل كان ممكناً ألّا يكون العربي مصاباً بأقذر عمليات الاستفراغ المزعومة والمحسوبة امتداحاً ثم يصاب بها الإله والنبي العربيان، أو أن يصابا بها ثم لا يصاب بها الإنسان العربي؟

فمحمد وإلهه شاعران عربيان مادحان، وسلطانان عربيان ممدوحان.. هكذا حوّلا نفسيهما وجعلا العلاقات بينهما أو هكذا رآهما ورواهما وصورهما وصنعهما الإنسان العربي.!

ولو وجد من يحتاج إلى مزيد من الاقتناع بذلك لوجب أن يقال له اقرأ كتاب العرب «القرآن» لتغرق اقتناعاً بأن النبي محمداً في مديحه للإله ليس إلّا شاعراً عربياً يمدح سلطانه، وبأن الإله في مديحه لمحمد ليس إلّا شاعراً عربياً يمدح ملكه أو خليفته أو سلطانه أو رئيسه الثوري.

.. بل لكي تغرق اقتناعاً بأن القرآن هو أشهر وأضخم وأقسى وأفدح وأفضح كتاب امتداح وهجاء وافتخار وادعاء وبأنه قد كان وسوف يظل بلا منافس في فضحه وافتضاحه.

.. بأنه أي القرآن كل ذلك بأقبح وأفظع وأوقح وأنذل الأساليب والصيغ والتفاسير حتى لأصبح أقسى وأبقى هجاء لكل الوجود العربي.. لكل الوجود الإنساني.. لكل الوجود بكل تفاسير كل وجود..!

إن كل عبقريات الافتضاح والفضح في كل التاريخ وكل العالم لا بدّ أن تظل مهزومة ذليلة أمام كتاب العرب هذا، أمام قرآنهم بل أمام قضية واحدة من قضاياه، أمام افتضاحه وفضحه مادحاً وهاجياً وفاخراً مفاخراً وواعداً متوعداً مهدداً لاعناً متهماً محقراً لكل شيء ولكل أحد لا يسجد لكل حروفه بكل أعضائه ومعانيه.

⊛ ⊛ ⊛

.. إن كل خصائص ومواهب وأخلاق العرب في كل وجودهم وأطوارهم لو ماتت أو اختفت أو سرقت أو نسيت أو هانت أو ضعفت أو تضاءلت أو أنكرت أو زوحمت أو نوفست أو هزمت لبقي لهم شيء واحد، واحد لا يمكن أن يصاب بأي شيء من ذلك..

.. لبقي لهم شيء واحد هو الأقوى والأشهر والأبشع.!

.. هذا الشيء الواحد هو ضخامة افتضاحهم مادحين وممدوحين. آه. ماذا يعني أو يساوي أو يصنع المديح في المادح أو الممدوح مهما كان صادقاً فكيف، كيف؟ من أول من ابتكر المدائح؟

أليس محتوماً أن يكونوا العرب؟ من أول من تقبل ورضي وسعد وفرح وأثاب أن يكون ممدوحاً؟ أليس محتوماً أن يكونوا العرب؟

من أول من تقبل أن يكون مادحاً ذليلاً كذاباً منافقاً صغيراً بلا حدود أو شروط؟ أليس محتوماً أن يكون الإنسان العربي؟

من أول وأقوى من حقّر المديح بمديحهم مادحين وممدوحين؟ من أول من حول أعفن وأقبح أنواع وأساليب الاستفراغ والبصاق تبصقها وتستفرغها أعفن وأصغر النفوس والأخلاق إلى امتداح وتمجيد؟

أليس محتوماً وصدقاً أن يقال: إنهم العرب؟

من أول وأقوى من قال للحضارة والأخلاق والتفكير والذكاء والحرية والبسالة وللجمال الإنساني: كن بداوة ونذالة وجهالة وغباء وعبودية ودمامة وجبناً وفحشاً؟ أليس ذلك أي أليس هذا الأول هو الإنسان العربي والإله العربي والنبي العربي والمفكر العربي والمعلم العربي والشاعر العربي بل والسلطان والزعيم العربي؟

أليس العربي أبداً هو الأول والأشهر والأقوى في كل شيء رديء وقبيح وبليد وفاضح، فاضح؟ حتى الإله العربي إنه الأول والأشهر والأقوى في فضائح الآلهة.!

ماذا يعني أو يصنع المديح للممدوح أو فيه؟ هل سأل أحد عن ذلك أو فكر فيه؟ هل يصنع أو يهب المديح للممدوح أي شيء جيد أو نافع؟ هل يصنع له أو فيه جمالاً أو ذكاء أو قوة أو مجداً أو صحة أو هيبة أو حتى احتراماً أو تصديقاً أو حباً أو نسباً كريماً أو عظيماً أو حتى انخداعاً به وله أو عمراً أطول؟

أليس محتوماً أن يصبح العرب كل ما في الكون من قوة وعظمة وتقدم لو كان المديح يفعل شيئاً؟ ولكن كيف أليس الامتداح الكاذب البليد المخادع هو الذي صنع ووهب كل أمجاد التاريخ لجثث وقبور وآثام التاريخ؟ أليست كل هذه الأمجاد التاريخية الخالدة الخارقة هي هبات وصناعات المدائح الكاذبة البليدة المتاجرة الخادعة المخادعة؟ ولكن رأياً آخر قد يقول أو لا بدّ أن يقول: أليست هذه الأمجاد أو المحسوبة أمجاداً هي أقوى وأقسى مفسر وفاضح لأصحابها؟

أليس امتداح الضعيف أو الجبان أو الجاهل أو البليد أو الدميم أو النذل أو المهزوم الوقح بنقيض أوصافه يحرض على رؤيته وقراءته ومحاسبته وعلى تفسيره؟ أليس ذلك إعلاناً عن النقيض وتشهيراً به؟

إذن أليس أتقى وأقوى الامتداح لهؤلاء هو الصمت عنهم؟

إذن أليس المداحون هم أقبح وأوقح وأنذل وأقسى الهجائين؟

ماذا يعني أن تشير إلى أقبح وجه قائلاً إنه كل ما استطاع أن يتصور ويخلق الإله من جمال؟ كيف لم يعرف ذلك كل أحد؟

ماذا يعني أو يساوي المديح في حساب المادح والممدوح أو في حساب الأسواق التي يستفرغ

أي المديح فيها وعليها أو في حساب التاريخ أو أي حساب؟ كيف وجد من قبل أو يقبل أن يكون مادحاً أو ممدوحاً بعد أن عرف الإنسان العربي ممدوحاً ومادحاً؟ أليس تقبل ذلك يعني أن من تقبله إن وجد لم يكن قد عرف أو سمع أو قرأ أو فسر الإله العربي أو النبي العربي أو القديس العربي أو الشاعر العربي أو المفكر العربي أو القرآن العربي مادحاً أو ممدوحاً؟ ما أقسى وأفدح معرفة وقراءة وسماع ذلك.!

.. ماذا لو أن اللغة العربية قد أصبحت لغة دولية عالمية كونية ونسيت كل اللغات الأخرى فقرأ كل العالم المدائح العربية حتى مدائح الإله العربي لنفسه ومدائح أنبيائه وأوليائه له ومدائحه هو لهم في قرآنه؟

هل يمكن حينئذٍ أن يوجد من يقبل أن يكون مادحاً أو ممدوحاً؟ إنه لو وجد أي مادح أو ممدوح ليس عربياً لوجب القول إنه لم يعرف العرب مادحين أو ممدوحين.!

.. أنا أتقبل بل أسعد وأفرح أن أمدح بما ليس في شيء منه بل وأنا كل النقيض لما أمدح به.! هل حدث هذا؟

إذن أنا حتماً عربي، عربي غير مخلوط بأي شيء من أي إنسان آخر..!

.. أنا مادح، أنا أمدح بما لا أجد أو أعرف أو أتوقع شيئاً منه فيمن أمدح، بل وأنا أرى وأعرف وأقاسي كل النقيض في ممدوحي..

هل حدث ذلك؟ هل حدث؟ إذن أنا عربي، عربي حتماً، حتماً بلا خوف من أي خلاف..! أنا عربي إذن دون أن أجد أي منافس..!

إذن لقد وجد التفسير لما جاء كالمفاجأة الخارجة على كل الاحتمالات والتوقعات والتفاسير..

.. في هذه الأوقات.. المسلمون عرباً وأجناساً وأعراقاً أخرى يهتفون بالتاريخ يطالبونه بالعودة وبالانبعاث والانطلاق من صحاراه ومقابره بكل بداواته وجهالاته وعداواته وأحقاده وبغضائه وبكل عباءاته وعماماته وخيامه وسيوفه ورماحه..

.. يطالبونه بالعودة باصقاً مستفرغاً كل ما في نصوصه وتفاسيره من تعصب وقبح وقيح وفقر وضعف وهوان وقهر لكل معاني الإنسان.. يطالبونه بالعودة فوق ظهور إبله وخيوله وفوق أحجار كعبته لكي يهزم ويذل ويقهر بل ويطرد ويزيل كل إنجازات وعبقريات وحضارات الإنسان في كل عصوره ومجتمعاته.. لكي يدمر ويزيل كل السفن والصواريخ الكونية التي أسقطت الإله من فوق عروش شموسه ونجومه وأقماره..

ـ نعم، لكي يفعل كل ذلك بقراءة أو تفسير أو فهم سورة أو آية من الكتاب الذي جاء به أو الذي قاله أو رواه أو اتهم أو احتلم به ذلك النبي العربي الذي كان يعلن فاخراً مفاخراً متحدياً بأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يحسب ولا يستطيع أن يكون شيئاً من ذلك، وبأنه لم يكن يتلو كتاباً أو يخطه بيمينه أو بيساره وبأن أمته هي الأمة الأمية الأمينة المحافظة على أميتها العقلية والفكرية والحضارية

والنفسية والأخلاقية والفنية بل واللغوية التعبيرية مهما تخطت أميتها الأبجدية، وكم هو قبيح وعبث وخسران وافتضاح وتشويه أن يداوى من أمية الأبجدية من لا يستطاع مداواته من أمية الموهبة والكينونة..!

نعم، في هذه الأوقات.. المسلمون عرباً وغير عرب بكل مظاهر وصيغ وصهيل وزئير الحماس والنخوة والكبرياء والقوة والبسالة يرخون ويهزون اللحى ويحملون ويدقون الطبول ويرفعون ويسنون الخناجر والسكاكين مطالبين بكل أساليب ونيات التهديد بالعودة إلى الرمال وإلا فالموت والخراب والدمار لكل العالم ولكل شيء.. حتى للشموس والنجوم.. حتى للبحار والأنهار.. حتى للحقول والزهور.. إنها مطالبة بالعودة إلى الرمال التي لا تنبت الحقول أو العقول أو الجمال أو الرخاء أو الحب..!

.. والحسابات المنطقية ترى أنها قد تتعاظم هذه الظاهرة أو الآفة أو الردة في الأيام أو السنوات القادمة بين أتباع هذه النبوة العربية.!

وقد تصبح هموماً وآلاماً ومصارعات ومخاصمات دولية.. والانقسامات والتكتلات العالمية تحرض على ذلك وتعد له وتدفع إليه بل وتلزم به.!.. ما أعظم حظوظ الآلام والمشاكل والأحقاد والعداوات والزعامات الصغيرة التافهة.. ما أعظم حظوظها بالانقسامات الدولية.!

... قالت كلمة سابقة إنه قد وجد أو جاء التفسير لهذه الظاهرة الكريهة المزعجة أعني بها المطالبة بالعودة إلى رمال التاريخ وأمية الصحراء.. إلى التدين بالأمية وفرض وتمجيد ديانتها وفرضها أي ديانة الأميين على كل العقول والحضارات والأخلاق والشعوب وعلى كل الوجود.!

.. والتفسير أن المؤمنين بهذه النبوة نبوة النبي العربي قد فرض عليهم دون أن يريدوا أو يدروا أو ينتظروا مواجهة ومعايشة حياة وحضارة شاملة عظيمة قوية مخيفة مرهقة لتفوقها وتنوعها وتجددها وسرعتها وقسوة وشمول تحدياتها..

أبدعتها مواهب وبسالات عقلية ونفسية وعلمية وأخلاقية بل وعضوية وإنسانية ضخمة، ضخمة لم تستطع كل نبوات وأديان وتصورات السماء أن تتصورها.!

.. وهم أي المؤمنون بالنبوة العربية لا يملكون شيئاً من هذه القدرات التي أبدعت هذه الحياة وهذه الحضارة حتى ولا القدرة التي تجعلهم يستطيعون مواجهتها أو معايشتها أو مصادقتها أو فهمها أو الإيمان بها أو الاطمئنان إليها أو حتى محاورتها أو قراءتها أو مجاورتها أو حتى الانبهار أو الإعجاب أو الاعتراف بها.!

.. إنهم متخلفون تكوينياً وطبيعياً وطورياً عن مبدعي هذه الحضارة.. إن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً في العمر الإنساني.. في بلوغ الطور الإنساني..!

إن الفروق بين أطوار التكوين والكينونة لهي من أقسى وأعظم الفروق.! إذن ماذا يفعلون وكيف ينفعلون ويعبرون؟

إنها مواجهة صعبة بل مذلة بكل صيغها وتفاسيرها..!

كان الجواب أو الرّد الذي لم يعرفوا أو يجدوا أو يستطيعوا غيره أن يكرهوا ويحقدوا ويعادوا ويلعنوا ويرفضوا أي هذه الحضارة ومبدعيها ويتمنوا لها ولهم الخراب والموت، ويدعوا عليها وعليهم ولها ولهم بذلك بل ويوقعوا بها وبهم كل ذلك ولو تأميلاً واشتهاء..!

والحقد والبغض والحسد والعداوة والبذاءة والسباب والتمنيات القبيحة الشريرة العدوانية هي إحدى مواهب وخصائص المتخلفين في التكوين والطور. إنهم يتداوون ويتغذون بذلك.!

.. إنهم لو وهبوا كل ما في الكون رشوة وثمناً ليتركوا هذه الآفات النفسية والأخلاقية التي تحولت إلى خصوصيات ومواهب فيهم لما قبلوا تركها أو استطاعوا تركها خضوعاً لإغراء هذه الرشوة أو هذا الثمن حتى ولو أرادوا ذلك بل مهما أرادوا ذلك.!

إنهم لا يستطيعون هذا الترك ولا يريدونه بل ولا يستطيعون إرادته.!

إن الخبث النفسي والأخلاقي والعاطفي واللغوي التعبيري العدواني في المتخلفين طوراً وتكويناً ليس مرضاً يصيب أو لا يصيب.. يصيب ويعالج ويشفى منه.. ليس مرضاً يجيء من خارج الذات ليكون ممكناً الاحتماء منه والتلقيح أو التطعيم ضده، ولكنه هو الذات.. هو تكوينها وتركيبها.. هو أعضاؤها وغددها وخلاياها ووظائفها.!

.. إن هذا الخبث في المتخلفين كينونة وحياة ووجود ووظيفة كالطعام والشراب والنوم والجنس والتوالد والموت..

بل إنه فيهم إيمان وصلاة وتعبد وقومية ووطنية، إنه كل شيء فيهم!

.. لهذا ما أخيب وأضيع وأجهل التعاليم والنصائح والعظات الموجهة إليهم والمقروءة أو المنزلة عليهم ليشفوا من هذا الخبث أو لكي يضعف أو لينام أو لينسى أو ليهدأ أو ليتأدب أو ليتوقر ويتهذب ويستحي أي خبثهم هذا، إنهم لو لم يجدوا آخرين يوجهون إليهم خبثهم هذا بكل تعبيراته وتفسيراته هذه لوجهوه إلى الشموس والنجوم والحقول والأنهار.

.. إنه إفراز وليس فعلاً أو ممارسة أو تعاملاً..!

إنه أردأ أنواع الاحتقان والامتلاء والاستفراغ الطبيعي.!

.. وقد جاء تعبيرهم في ردّهم أو في جوابهم على هذه المواجهة أن زحفوا متراجعين إلى قبور التاريخ لينبشوا ويخرجوا أقوى وأذكى وأتقى أسلحة الحرب والمقاومة والنصر والحقد والبغضاء التي قالت لهم سورهم وآياتهم وقرآنهم ورواياتهم وأشعارهم إنها مدفونة في جثث وأكفان وقبور أنبيائهم وآبائهم وخلفائهم.. المدفونة في صحراء التاريخ، في تاريخ الصحراء، في حجارة الكعبة.. في سيوف وخناجر ورماح وخيام وصلوات ودموع وشعارات بدر وأحد والخندق وكربلاء والنجف والأزهر..

في تاريخ وذكريات خيبر وبني النضير وبني قينقاع وقريظة..

في إعلان عودة النبي محمد ونبوته وقرآنه وغلمانه وزوجاته ومحظياته المحجبات الأميات

المتنافسات المتحاسدات الأبكار والثيبات المتجاورات في غرف المضاجعات المنتظرات المحترقات الظامئات الجائعات المتلهفات المتطلعات إلى العلاقات التي لا تجيدها ولا تشبع منها النبوات.. في عودة النبي العربي معلناً بقرآنه أقسى اللعنات والتهديدات لكل الحضارات والعبقريات ولكل الديانات الإنسانية.!

.. إنهم يجدون في هذه النبوة، نبوة الصحراء والرمال كل الأسلحة التي يعشقونها ويتلاءمون معها ويرتاحون بها أي باستعمالهم لها بل ويجيدون استعمالها ويسعدون بهذا الاستعمال سعادة متعددة التفاسير والصيغ..

.. إنها أي هذه الأسلحة التي يجدونها في هذه النبوة تعوضهم وتغنيهم عن كل الأسلحة الأخرى مهما قست وتعددت وتنوعت وتصاعدت المواجهات.. إنها أسلحة خالدة أزلية أبدية في تفوقها وانتصارها على كل شيء وفي كل شيء وأمام أي شيء. إنها أي هذه الأسلحة هي اللّٰه جاء في صيغ ولغات وتعبيرات أخرى. نعم، إن اللّٰه في تصورات وعقائد المؤمنين ليس إلّا سلاحاً يقاتل عنهم ولهم في كل الميادين والمعارك والمواجهات.!

.. إنها أي هذه النبوة العربية التي يعودون إليها من هزيمتهم الحضارية الإنسانية الشاملة القاسية تلعن وتحقر وتسفه وتكفر وتفسق وتعير هذه الحضارة وتتهمها بكل الذنوب والعيوب وتسحب منها كل المزايا أي دعاية وتعليماً، وتدعو إلى تخريبها وقتلها بل وتعد وتوعد بذلك بل وتعلن التزامها بأن توقع بها كل ذلك قريباً، قريباً بل وتنبيء بأنها أي هذه الحضارة الشريرة الملعونة لا بدّ أن تفعل هي كل ذلك بنفسها، أليست أضخم وأشهر وآصل بشريات هذه النبوة تبشيرها الدائم بخراب وموت كل الحضارات؟

.. كذلك تعلم أي هذه النبوة أن إبداع هذه الحضارة والأخذ والإيمان بها والتلاؤم معها ليس تفوقاً أو صعوداً في أي شيء.. في الذكاء أو القوة أو البطولة أو الطموح بل هبوط إلى كل الشرور والآثام والآلام والفساد والغوايات.. إذن ليس نقصاً أو عجزاً أو ذنباً رفضها أو مقاومتها بل استقامة وأصالة وقوة.. قوة في رفض ومقاومة الشرور والقبائح.!

كذلك تعد أي النبوة العربية المؤمنين بها مؤكدة متعهدة بكل ضمائر وأخلاق وعهود وصدق وقوة ووفاء كل الآلهة بأن تجعلهم أي تجعل المؤمنين بها هم كل المنتصرين والوارثين لكل الأرض وما عليها ومن عليها من حضارات وبداوات ومن بدو ومتحضرين، بل وتجعلهم القادة والمعلمين والحاكمين لكل زمان ومكان ولكل من في الزمان والمكان بل ولكل من هم خارج الزمان والمكان أي إذا آمنوا بها وامتدحوها وبايعوها وأعلنوها وليس شرطاً أن يطيعوها أو يلتزموها أو حتى يفهموها أو يحترموها بأعضائهم أو شهواتهم.. إنها نبوة عجيبة، أن كل اهتمامها في الإيمان بها والامتداح لها لا في طاعتها والالتزام بها!

.. كذلك تعطي هذه النبوة المحمدية المؤمنين كل شيء بلا أي شيء يبدعونه أو يفعلونه أو حتى يعرفونه أو يكونون أول من يقولونه.. إنها تعفيهم من كل الأعمال والتكاليف الذكية أو القوية أو الصعبة أو الغالية الثمن أو المبدعة المتفوقة.!

إنها أي النبوة العربية تحول اللّه وكل أعوانه ومستشاريه إلى عاملين مكافحين ومنفذين ومفكرين بل ورائين بدلاً أو نيابة عنهم أي عن المؤمنين بها.!

.. إنها أي النبوة المحمدية تجعل منهم أي من اللّه ومن كل أعوانه ومستشاريه جنوداً وحرساً وخدماً بل وأجهزة جاسوسية ومخابرات للمؤمنين بها لحمايتهم وتقويتهم ونصرهم وإعطائهم وإطعامهم وتجميلهم والسير والصعود بهم فوق كل الكائنات، بل إنها تجعل منهم أرخص المداحين لهم أي للمؤمنين بها وأكثر المداحين افتضاحاً في مدحهم لهم.!

.. إنهم أي اللّه وكل أعوانه ومستشاريه لن يجدوا أي تفسير لوجودهم أو لبقائهم غير أن يكونوا ويظلوا موظفين عند المؤمنين بها أي بهذه النبوة ليفعلوا لهم كل شيء.. وسيرون أي اللّه وأعوانه ومستشاروه أن توظيفهم هذا عند المؤمنين هو أعظم وأنبل وأبقى وأتقى أمجادهم وأخلاقهم ووظائفهم وتلاؤمهم مع أنفسهم ووجودهم.!

بل سيجدون في ذلك كل العزاء والتعويض عن مأساة وعبث وجودهم.!

.. نعم، ماذا لو أن الإله وكل من معه وحوله حوسبوا وحوكموا على وجودهم لماذا جاء أي وجودهم، ماذا يعني ويحمل، وبماذا يفسر ويدافع عنه؟ ما الذي يجعله معقولاً أو مقبولاً أو حتى مغفوراً؟

هل يمكن حينئذٍ أن يجدوا جواباً أو دفاعاً غير أن يقولوا: من أجل التعامل مع محمد ونبوته والمؤمنين به وبها ومن أجل أن نكون حراساً وخدماً ومداحين وأصدقاء وأولياء ومخاطبين مناجين مبايعين مغازلين حماة أنصاراً له ولها ولهم أي لمحمد ونبوته وللمؤمنين بهما؟

هل يمكن أن يقبل أو يعقل منهم أي دفاع عن هذه القضية أي في هذه المحاسبة والمحاكمة غير ذلك؟

هل يستطيعون أن يجدوا دفاعاً عن وجودهم غير هذا الدفاع أو يرتاحون إلى أي دفاع آخر راضين عنه أو مقتنعين وسعداء به؟

لنتصورهم في هذه اللحظة يفكرون بحثاً عن أي دفاع آخر لكي نرثي لعجزهم.!

.. إن من يقرأ قرآن وتعاليم وأخبار هذه النبوة أي نبوة محمد فلا بد أن يقتنع بأن هذا التفسير هو كل التفسير لهذه القضية وبأنه لن يوجد أو يقبل أي تفسير آخر..

اللّه وكل من معه من سكان السماء والغيب وجدوا وجاؤوا وقبلوا بل وفرحوا أن يوجدوا ويجيئوا لكي يكونوا موظفين لنصرة وخدمة النبي محمد ونبوته والمؤمنين بهما.!

هل يوجد أو يقبل أو يعقل غير هذا التفسير لوجود ولمجيء الإله ومن معه ومن حوله؟

اسألوا جميع المفسرين والسحرة والكهان والدجالين والمعلمين.. الصادقين والكاذبين.. الأذكياء والأغبياء..

.. اسألوهم، اسألوهم هل يمكن أن يوجد أي تفسير غير هذا التفسير أو هل يقبلون أن يفترض

أي تفسير آخر؟ أليس من يفسر تفسيراً رديئاً مسيئاً إلى التفسير وإلى من يريد تفسيره؟

❀ ❀ ❀

.. إن هذه الردة أو الرجعة إلى رمال الصحراء.. إلى رمال التاريخ.. أي إلى نبوة محمد فراراً من التعامل مع هذه الحضارة وعجزاً عن التعامل والتكافؤ معها وتناقضاً مع مزاياها ومواهبها.!

.. إن هذه الردة أو الرجعة تحول الأشياء إلى نقيضها.. تحول أردأ وأبلد وأعجز الأعمال والأفكار والأخلاق والممارسات والنقائص والرؤى والمزاعم والعقائد والقدرات.. تحولها إلى أذكى وأتقى وأقوى وأعقل وأنبل التفاسير... أي تفسرها وتزعمها وتعلنها كذلك.!

.. إنها تحول الفرار إلى إقدام، والعجز والتخلف والبؤس والجهالة والبلادة إلى إيمان وتدين وتقوى وروحانية وقدرة على الرفض والزهد والصفاء والصعود الإنساني والنفسي إلى عالم العدم.!

.. إنها تحول الحقد والبغضاء والعداوة والبذاءات إلى جهاد ضد أعداء الإله والدين والإنسانية وإلى بسالة أخلاقية ودينية.

.. إنه أي هذه الردة أو الرجعة إلى النبوة العربية تفعل كل ذلك في حساب واعتقاد ومزاعم المؤمنين بها.!

إنها تجعل العجز والخوف من الصعود إلى القمر تواضعاً للإله واستحياء ورهبة من كبريائه ومن الإصابة بالغرور وحذراً من أشعار العاجزين بعجزهم، ومن تعذيب الأرض وحشراتها بالحنين والتطلع إليهم وبالخوف عليهم وبصدمة وحسرة الفراق لهم، ورفضاً لابتعاد جباههم المتعبدة الساجدة عن التراب، لصعودها عنه، وتحرجاً من إزعاج الطيور في أوكارها وفي سموها وسمواتها، ومحافظة على خفقات القلوب لتكون كلها لله دون أن يذهب شيء منها أي من خفقات القلوب في توقع أخطار المغامرة مغامرة الصعود إلى القمر، إنها تفعل كل ذلك لأتباعها الذين لم يصعدوا إلى القمر عجزاً وجهلاً وجبناً وتخلفاً وتبلداً.!

إنها أي النبوة المحمدية تجعل المؤمن بها يفسر نفسه وكل نقائصه وقباحاته ورداءاته أجمل وأعظم وأقوى التفاسير..

وإنها لتهبه وتجعله يهب نفسه كل الأشياء الجيدة المستحيلة والمستطاعة بلا أي استحقاق أو نضال أو شروط أو عبقرية بل وبلا معرفة للقراءة والكتابة.!

بل وقد تشترط لذلك الجهل بالقراءة والكتابة، أنها تشترط حتماً معنى الجهل بذلك.!

.. إذن كيف لا يجن كل العاجزين والناقصين والمتخلفين والهيابين والجبناء والأغبياء والكسالى إيماناً بها أي بالنبوة العربية وإعلاناً للإيمان بها؟ إنه لو ظهر الإله من مخبأ غيبته الأبدية بكل وجهه وذاته التي لم ترها ولن تراها أية عين لينهى هؤلاء المتخلقين بهذه الأوصاف عن الإيمان بالنبوة العربية وليوعدهم بكل العذاب والفواجع إن لم يرفضوها أو يخرجوا منها إن كانوا قد دخلوها لكان المفروض أن يعصوه إن كانوا قد عرفوا وآمنوا أنه هو، أو أن ينكروا أن من يرون ويواجهون ويسمعون هو الإله

لكي يظلوا مؤمنين بها.. بالنبوة العربية التي تهبهم كل هذا بلا أية جدارة أو عمل أي بالأساليب والتفاسير التي بها وهبت آبار النفط العربية نفسها لمن وهبتهم إياها، إن واهب النفط العربي كما وهبه قد تحول إلى أقسى وإهانة وتحقير لكل تفاسير الواهبين والموهوبين والهبات.!

.. وقد يكون مجيء النفط العربي كما جاء إلى من جاء بالسخاء الذي به جاء إحدى الشهادات العالمية الكونية الطبيعية على عبقرية النبوة العربية وعلى صدقها وعلى ضخامة عطائها، وعلى تكذيبها وإذلالها لكل من لا يؤمنون بها، وعلى تفوقها عليهم أي على من لا يؤمنون بها، وعلى أنها تهب المؤمنين بها العاجزين المتخلفين الأميين الصحراويين النائمين الكسالى جداً.. تهبهم وتظل تهبهم إلى أن يصبحوا يقاسون من التواضع حين يأذنون أو لو أذنوا بأن يسجد لعباءاتهم وعقالاتهم وكوفياتهم وعماماتهم وخيامهم وبداواتهم ووقاحاتهم من سجدت كل شموس ونجوم وأقمار وآلهة هذا الكون وكل كون لأقدامهم وصواريخهم وسفنهم وحساباتهم ونظرياتهم وقراءاتهم وتفاسيرهم وأوامرهم وأجهزتهم وعقولهم الإنسانية والعلمية..!

أليس مجيء النفط العربي كما جاء هزيمة وتكذيباً ونقضاً وإذلالاً بل وإهانة لكل الحسابات والنظريات والشهامات والكرامات والعبقريات العلمية والحضارية والأخلاقية والإنسانية بل والكونية بل ولكل منطق وأخلاق وكبرياء وشرف الآلهة أعني الآلهة التي لم تجيء منها أو بها أو عنها أو حتى تتصورها النبوة العربية؟

إن على من قالوا وزعموا أن القرآن هو أعظم معجزات النبي العربي محمد أو هو كل معجزاته..

إن عليهم أن يتراجعوا ليقولوا ويعتقدوا أن أعظم وأقوى وأنبل وأفضل معجزاته بل وأنفع معجزاته أو كل معجزاته هو النفط العربي..

إن النبي العربي لو بارز أو نافس أو بارى معجزات كل الأنبياء بمعجزاته وكان قد اختار النفط العربي ليكون أقوى معجزاته أو كل معجزاته لما وقف أمام محمد أي نبي ليبارز أو ينافس أو يباري بل لما جرؤ أي نبي أن يتحدث عن نبوته أو معجزاته أمام معجزة محمد هذه.!

إن كل عيون وعقول وعلوم وأخلاق وقلوب وضمائر وحسابات وتقديرات كل العالم.. المؤمن والكافر.. الفاجر والصالح.. القوي والضعيف.. المتقدم والمتخلف لم تر القرآن بأي قدر مما رأت ووجدت وعرفت وهابت وخافت وحسبت وحاسبت وقرأت وفسرت به النفط العربي.. حتى المسلم العربي وغير العربي لم يستطع ولن يستطيع أن يرى أو يقرأ أو يجد أو يعشق أو يحترم أو يمجد قرآنه بشيء مما فعله لنفطه وبنفطه ومتعاملاً مع نفطه وبنفطه.. ولم يفعل ولن يفعل به قرآنه أو إسلامه أو نبيه أو حتى إلهه أو يفعل له شيئاً مما فعل به وله نفطه.!

.. ماذا لو خير الإنسان العربي بين أن يفقد قرآنه أو دينه أو نبيه أو كل ذلك بأن يفقده ضياعاً أو موتاً أو نسياناً أو ارتداداً أو أن يفقد نفطه أي بعد أن جاء أو قبل أن يجيء بل بين أن يفقد إلهه أو يفقد نفطه؟ أليست إهانة لنفطه أن يوضع في مباراة مع قرآنه أو دينه أو نبيه أو إلهه؟

وماذا لو خيّر بين أن ينادي على أمته العربية يوم القيامة.. يوم البعث «يا أمة القرآن.. يا أمة الإسلام.. يا أمة محمد» أو أن ينادي عليها «يا أمة النفط.. يا أمة الآبار النفطية؟».

هل يمكن أن يصعب أو يخفى حينئذٍ ما الذي لا بدّ أن يختاره الإنسان العربي في الموقفين أو الاختيارين؟ ولن يمنعه استحياء أو هيبة أو تأدب أن يختار ما لا بدّ أن يختار إذا كان الإله هو الذي سوف يكون المنادي وفارض الاختيار..!

.. ثم ماذا لو خيّر النبي محمد بين أن يكون هو وقرآنه ونبوته لأمته أو أن يكون لها نفطها وكان التخيير والاختيار محتومين وملزمين؟ ولا بدّ من الافتراض هنا بأن محمداً مبرأ من كل تفاسير وحوافز الأنانية.. أي من افتراضه أسمى وأتقى نفسياً وأخلاقياً من الزعامات العربية، وهل يمكن هذا الافتراض؟ ولكن هنا رأي يصعب رفضه..

يقول هذا الرأي إن النفط العربي لم يجيء إلّا تكريماً وتعظيماً وتصديقاً وإرضاء وانتصاراً ونصراً لمحمد ونبوته وإعلاناً عالمياً كونياً عنهما وتضخيماً وحماية وتجميلاً وإعزازاً لأمتهما.. للمؤمنين بهما.. فلولا مجيء محمد ونبوته لما جاء هذا الخالق الأعظم أي النفط.. أي تفسير لمجيء النفط العربي كما جاء إن لم يكن هذا هو التفسير؟

.. هل يستطيع أي مؤمن أو يقبل من أي مؤمن أن يرفض هذا الرأي أو حتى يشك في صدقه؟

أليس إبعاد هذا الرأي عن تفسير هذه القضية يعني حتماً تفسير الإله أردأ وأفجع التفاسير؟ أليس من النبل والتقوى أن يفسر أي الإله بالتفسير الرديء الفاجع بدل تفسيره بالتفسير الأردأ والأفجع؟

وهل يمكن أن يوجد تفسير آخر للإله غير تفسيره بهذا أو بهذا؟

.. إن يدي الإله وعقله وقلبه وضميره ورؤاه وأشواقه وإرادته وأخلاقه وكل صيغه وتفاسيره تعمل وتفعل.. تعطي وتمنع بالارتجاف والارتعاش والاهتزاز لا بالتدبير أو التفكير أو التخطيط أو الحساب أي إن لم يفسر هذا التفسير في هذه القضية.!

لهذا جاء النفط العربي كما جاء بإحدى اهتزازاته أو ارتجافاته أو ارتعاشاته هذه أو هذه أو هذه.!

ولكن ألا يقال أي التفسيرين للإله أردأ وأفجع ثم يبقى السؤال بلا جواب؟

.. كم هو صعب وفاجع تفسير الإله في أي موقف من مواقفه.!

عاجز وبائس ومحرج جداً كل من حاول أو أراد أو تمنى أن يفسر الإله تفسيراً معقولاً أو مقبولاً أو حتى مغفوراً ولا سيما في حوافزه وأشواقه النفطية العربية!

.. ماذا يمكن أن يكون جواب الإله أو الجواب عنه ودفاعاً عنه لو جاء هذا السؤال: أيها الإله كيف وهبت العرب كل هذا النفط الذي لا يعرفون عنه شيئاً إن كنت عدواً لهم أو غير صديق ومعظم ومبالٍ بهم ولهم؟ أما إذا كنت صديقاً ومحباً وموقراً ومريداً ولياً لهم مشغولاً مسحوراً مبهوراً مقهوراً بهم كما يقال ويقول خاتم أنبيائك فلماذا إذن لم تهبهم شيئاً من مزايا وقدرات وعبقريات

وانتصارات أعدائك وأعدائهم الذين لولاهم لما أمكن أن تتحول هبتك النفطية العربية إلى هبة.. والذين لا بدّ أن يصنعوا هذا التساؤل هل أنت الواهب للعرب أم هم الواهبون؟

.. إنك يا إلهي في هذه القضية وفي كل القضايا الأخرى لست فقط محيراً ومعجزاً لكل منطق وعقل وتفكير وحساب وتوقع جميل ذكي، بل إنك مهين محقر صادم فاجع ساب معير لكل ذلك.!

ما أقسى المحاسبات والمحاكمات لك يا إلهي لو وجد من يضعونك في أغلال وقيود وأقفاص المحاسبات والمحاكمات التي تستحقها؟

ما أعجز وأقسى ورطات وهزائم أصدقائك وأوليائك الذين يريدون أن يفهموك ويدافعوا عنك يا إلهي.! وهل وجد أحد من هؤلاء؟

.. إنك يا إلهي لو وضعت في القيود والأغلال والأقفاص التي تستحقها على أخطائك وخطاياك لما بقي في هذا العالم أو الكون قيد أو غل أو قفص واحد ليوضع فيه أو يقيد أو يغل به أي مذنب أو مجرم قد وجد أو قد يوجد أو تخيل وتوقع ولن يوجد..

بل التي تستحقها على بعض أخطائك وخطاياك يا إلهي وليس عليها كلها، فكيف عليها كلها؟

.. إن كل الكون لو تحول إلى حرائق ونيران لكي تخلد وحدك يا إلهي في عذاب كل ذلك لما كفى جزاء وعقاباً وحساباً لك على إحدى جرائمك فكيف عليها كلها؟

أليس مدبر ومخطط وفاعل كل شيء هو المحاسب على كل شيء؟ كيف خفي ذلك على أحد؟

.. هل تكفي كل العقوبات المعروفة بل وغير المعروفة عقاباً عادلاً أو معقولاً لمن أراد وأحب ودبر وخطط وصاغ وفعل كل شيء، كل شيء؟ نعم، كل شيء. هل وجد هذا المريد المحب المدبر المخطط الصائغ الفاعل؟.. حتى النحول والذبول والشحوب في أوراق وزهور وألوان وأغصان البساتين والحقول..

حتى الخسوف والكسوف في طلعات وإشراقات ووجوه الشموس والأقمار.. حتى الدموع والأنات والآهات والأحزان والتشوهات والجراح في عيون ووجوه وقلوب وضمائر ومضاجع وثياب وخطوات وقبور الشيوخ والأطفال والعصافير والحمائم بل والذئاب والأسود وكل الوحوش، كل هذا أراده وعشقه ودبره وفعله مريد ومدبر وفاعل كل شيء دون أن يصاب بأي قدر من الاستحياء أو الرهبة أو الرحمة أو الحكمة أو الشهامة أو التقوى أو المحاسبة للنفس أي يستمر يريد ويدبر ويعشق ويفعل كل هذه الآثام والقبائح بكل مشاعر النشوة والمباهاة.!

❀ ❀ ❀

.. الحياة بكل صيغها ومستوياتها وأطوارها أقوى وأكبر من الكائن الحي ومن الإنسان مهما كان قوياً وكبيراً، بل بقدر ما يكون قوياً وكبيراً تصبح الحياة أقوى وأكبر منه، إنها حقيقة أو مشكلة لا شفاء ولا نجاة منها.!

إن كل العبقريات والإنجازات لا تستطيع أن تعالج أو تنقذ أو تخفف منها.!

.. إن الكائن أو الإنسان يصنع لنفسه خصماً قوياً كبيراً أو يصنع خصمه قوياً كبيراً كلما صنع حياته قوية كبيرة أو بقدر ما يصنعها كذلك.!

لهذا فإنه لا أحد يصنع لنفسه أقوى الخصوم وأقسى المتاعب وأدومها مثل الإله.!

.. لهذا فإن تعاظم الحياة لا يصنع راحة لمن يحياها بل يصنع له المزيد من المتاعب والهموم والورطات والمزيد من المخاطر والاحتياجات والتكاليف التي تعني المزيد من المتاعب المختلفة التفاسير والصيغ، بل ومن الهوان والقبح والأحزان والمخاوف.!

لهذا أيضاً فإن الكائن أو الحي لا يسعد أو يرتاح أو يأمن أو يطمئن أو حتى يرضى إذا أصبح كبيراً أو بقدر ما يكون كبيراً بل يصاب بالنقيض ويقاسي من النقيض، وهل عرف المقاسي لذلك ذلك؟ ولو عرف فهل يمكن أن يتغير أي شيء أي في هذه القضية؟

.. إن الكائن أو الإنسان حينما يطور حياته ويصعد بها إلى كل الاتجاهات لا يفعل لأنه قد عرف أنه بذلك يصنع لنفسه سعادة أو راحة أو اطمئناناً أو أماناً أكثر أو أقوى أو أدوم، ولكن يفعله لأنه لا يستطيع الصمت عن أن يفعل أو مللاً وهرباً بلا وعي أو رغبة في المفارقة لمكانه وكينونته وفي الانتقال والتغير بلا مقارنات أو حسابات مدروسة معروفة. إن كينونة أي كائن وكل كائن لا تجيء بالحساب أو بالمعرفة الشاملة بل تجيء وتكون بالقدرة وبالاندفاع الذاتي الآلي.!

.. إن الحياة ليست عطاء أو تفضلاً أو إحساناً ولكنها توريط وإرهاب واستعباد وعدوان وإلزام وتكليف وإيذاء وفضح وافتضاح مهما كبرت وعظمت بل هي كذلك بقدر ما تكبر وتعظم.!

إنها أبداً حكم على من يعطاها لا حكم له.!

إنه لو وجد من صنع الحياة بادئاً مريداً مخططاً مختاراً لعجزت كل التفاسير عن تفسير حماقته أو جهالته أو عدوانيته أو عبثه أو قبحه أو خبثه أو سخفه، ولما كفت كل العقوبات عقاباً له على ما فعل، إن صانع الحياة هو فاعل كل الآلام والآثام.!

.. أنت إله. إذن أنت أصغر وأضعف من حياتك ووجودك ومواجهاتك وتبعاتك، إذن أنت عاجز عن أن تكون إلهاً بكل تفاسير الإله وعن أن تؤدي كل وظائف الألوهية بالقدرة والكفاءة المطلوبة والمزعومة.!

.. أنت نبي.. أنت حاكم أو قائد أو زعيم كبير.. إذن أنت حتماً أصغر وأضعف من مكانك والتزامك ومن عرشك ووظيفتك، أنت إذن خاسر، خاسر لأن عذابك أكبر من سعادتك ولأن مواجهتك أكبر من قدرتك.! أنت إذن مفتضح.!

.. أنت مجتمع متقدم متحضر مبدع قوي جداً.. إذن المشاكل والأخطار والمخاوف والاهتمامات والهموم التي تواجهها وتفرضها على نفسك وتلتزم بها أكبر وأقوى منك جداً، إن آفاقها وتحليقاتها وسمواتها أبعد وأعلى وأقوى من كل أجنحتك، إن سمواتك تصعد بقدر ما تحلق وإن

ظمأك ليشتد بقدر ما تفجر الأنهار والعيون والسحاب.. إذن حذار، حذار أن تكون كبيراً قوياً لأنك حينئذٍ ستكون حتماً صغيراً وضعيفاً أمام مواجهاتك ومسؤولياتك ومحاولاتك وتمنياتك.. أمام كينونتك الكبيرة القوية المبدعة المتجددة.! من وضع هذا القانون أو المنطق الذي يعني أنك بقدر ما تقوى وتكبر وتسعد وتنتصر وتحلق تضعف وتصغر وتشقى وتعذب وتنهزم وتفتضح؟

.. ما أقل الذين قرؤوا هذا الإنذار أو الإعلان المكتوب المطبوع بل المحفور بكل الحروف واللغات والأشكال والأساليب والتفاسير على كل العيون والوجوه والقلوب والضمائر وفوق كل شيء وفي أحشاء كل شيء المعلن الصارخ بكل الأصوات واللهجات والآهات والأنات القائل: إن الحياة هي كل أجهزة وأساليب التعذيب بكل لغاته وتفاسيره.. وإنه لا حياة بلا ألم ولا ألم بلا حياة، هل عرف ذلك أحد من الأحياء؟.. وإنه لا حياة بلا عذاب وعار وفضائح وهزائم وقباحات ووقاحات وتشوهات وهوان، هوان..

.. وإنه لا شيء من ذلك بلا حياة.. هل عرف ذلك أو شيئاً منه صائغ هذا الكون أي إن كان له صائغ؟

ـ نعم، ما أقل الذين قرؤوا والذين قد يقرؤون هذا القرار الذي قالته وعرفته وصاغته والتزمته ونفذته الطبيعة وكل شيء دون أن تعرفه أو حتى تتصوره الآلهة أو الأنبياء أو الألوهيات أو النبوات..!

.. هذا القرار القائل: إن هذه الآفات وكل الآفات الأليمة والرديئة.. المهينة والفاضحة.. البذيئة والعفنة...

عاشقة للضخامة والقوة والاتساع.. عاشقة لها جداً.. أليس الكذب والنفاق والافتضاح والخوف والهزائم عاشقة لكرسي السلطان أكثر من عشقها لسرير خادمه.؟

.. لهذا فإن حظوظ الآلهة أو الإله منها أعظم وأضخم من حظوظ أي كائن وكل كائن آخر. لقد امتلأ الكون كله بحظوظ الآلهة من هذه الآفات.!

.. وحظوظ الإنسان منها أعظم وأضخم من حظوظ الحيوانات، وحظوظ الحيوانات منها أعظم وأضخم من حظوظ الحشرات، وحظوظ الحيوان الأعظم والأضخم والأقوى والأكبر أعظم وأضخم من حظوظ الأصغر والأضأل والأضعف والأتفه.!

كما أن حظوظ الإنسان الأكبر والأقوى والأعظم والأعلم أقسى وأعظم وأضخم وأشرس وأوسع من حظوظ الأصغر والأضعف والأجهل والأنذل أي من هذه الآفات..!

نعم، هل صنع أمجاد العار والفضائح والنذالات والهزائم والآثار الكبار أم الصغار؟ هل تستطيع كل الذنوب والقبائح أن تساوي واحدة من ذنوب وقبائح الكائن الأعظم صانع هذا الكون؟

.. إذن أليس محتوماً أن تقول كل التفاسير إن جميع الأحياء لا بدّ أن يمارسوا بل ويبتكروا كل أساليب الفرار من الحياة بل والقتل والتدمير والعقاب لها والانتقام منها بدراية وتدبير مقصود أو بلا دراية ولا تدبير، ولكن لا بدّ من الاختلاف بل والتفاوت في هذه الأساليب؟ إن أساليب الأقوياء والمتفوقين حضارة ومعرفة ومواهب وطاقات ورؤى لا بدّ أن تكون غير أساليب الضعفاء والجهلاء

والمتخلفين مواهب وطاقات ورؤى وحضارة أي في قضية مقاومة الحياة والاحتجاج عليها ورؤية وقراءة آثامها والانفجاع بها ومعاقبتها..!

إن أقبح ما في الحياة أنه لا يستطاع إصلاحها أو تصحيحها أو تهذيبها أو عقابها إلّا بقتلها.!

.. ثم أليس محتوماً كذلك أن تقول كل التفاسير إن الأقوياء والمتفوقين والمتحضرين والأذكياء والذين هم أكثر وأقوى وأصدق شرفاً ونبلاً وإباء ورؤية وتقوى وصفاء وعلماً وأخلاقاً.

ـ أن تقول كل التفاسير: إن هؤلاء لا بدّ أن يكونوا أقوى وأعنف وأشجع وأذكى رؤية لآثام وآلام وافتضاح وفضائح وهزائم وفظائع الحياة.. لهذا لا بدّ أن يكونوا أكثر وأقسى وأدوم إحساساً وعذاباً وتعذباً وتفجعاً بها ومنها وتفكيراً فيها واحتياجاً إلى رفضها وتقبيحها واستقباحها ومقاومتها والهرب منها أعني الحياة القوية المتفوقة أي كلما كانت قوية متفوقة في صيغها وتفاسيرها وتكاليفها والتزاماتها وفي عطائها وأخذها ومطالبتها واشتراطاتها أو بقدر ما تكون كذلك؟

آه. إن الحياة بقدر ما تقوى وتعظم تؤلم، تؤلم.!

.. أليس محتوماً أن يتصاعد الإنسان بل وكل كائن في انفجاعه وغضبه وغيظه وحزنه واستنكاره ورفضه بقدر ما يتصاعد في رؤيته ومعرفته وكرامته وكبريائه وقوته وشجاعته وفي عقله وقلبه وحبه وضميره وتقواه؟

.. أليس الإنسان ومن في مستواه يتعذب بمعانيه هذه ويقاسي منها وتحاسبه وتعاقبه أكثر من أي كائن دونه كينونة ومستوى؟ أليس الإله الأكبر يتعذب برؤاه وتفكيره وضميره وأخلاقه ومحاسباته ومحاكماته لنفسه ولما يجد ويرى أعنف مما يتعذب الإله الأصغر؟

.. أليس الأقوياء المتفوقون المتحضرون يرفضون أن يتناسلوا أي يرفضون أن يوجدوا بالكثرة والوفرة التي يوجد ويتقبل بل ويريد أن يوجد بها الضعفاء المتخلفون الجهلاء؟

.. أليس هذا أي رفض التناسل بالكثرة والغزارة الحيوانية أسلوباً إعلانياً من أساليب رفض الحياة القوية المتفوقة المتقدمة ومن أساليب الفرار منها بل والمقاومة لها لضخامة وعمق معرفتهم بها.. بآثامها وآلامها وفضائحها وقبائحها ووظائفها وتكاليفها والتزاماتها العابثة الأليمة البليدة المذلة المهينة التي لا يستطيع أي شيء ولا كل شيء أن يحمي أو يشفي منها إلّا بالرفض المطلق لها.. إلّا بالفراق؟

.. أليست الحياة تهاب الحياة وتخشاها وتدرك وترفض عيوبها بقدر ما تعظم وتقوى؟

.. ألا تقول بعض الاستنتاجات أو كل الاستنتاجات البعيدة الذكية بل والغبية: إن الإنسان في مستقبله المجهول الموحش المتوحش لن يكتفي برفضه الكثرة في وجوده ولوجوده بل سوف يرفض كل وجوده؟

ولا بدّ أن يقول الاستنتاج هنا: لأنه لا حدود ولا قيود ولا ضوابط لتعاظم الإنسان في حياته وفي صياغته وتعقيداته لحياته ولتكاليفها واحتياجاتها.. وهو أي الإنسان كلما فسر كلما عظم، عظمت رؤيته وانفجاعه واستنكاره واشتراطه ورفضه أو هذا هو المفروض والمنتظر والمطلوب.. وهي أي الحياة

كلما عظمت توحشت وافتضحت وقبحت وتعرت وتوقحت وتكبرت قسوتها وشروطها وضغوطها وإملاءاتها ومطالبها، وألقت بكل حجبها وأزيائها وأساطيرها التي تهبها ألواناً من الرهبة والإرهاب والسحر والغموض والجمال الذي لا يوجد أو يرى إلّا في الظلام، إلّا في الظلام المطفىء للعيون والشموع والشموس..!

وحينئذٍ لا بدّ أن يتعاظم استحقاقها للرفض والمقاومة بل والاستقباح والترفع عن التقبل والاستسلام لكل الهوان والاستعباد والافتضاح والانهزام والقبح بتقبلها..!

ألا يعني هذا وهذا وهذا أن الإنسان في مستقبله الموحش العابث لا بدّ أن يرفض كل الحياة لا كثرتها فقط؟ لقد بدأ يرفض كثرتها، ولنفس الأسباب يرفض أيضاً قلتها؟

هل يوجد من يريد أو يستطيع أن يحيا حتى يحدث هذا ليراه مسروراً معجباً راضياً أو مذعوراً حزيناً من أجل الإله الذي لا بدّ أن يحزن ويتعذب ويشقى لأنه حينئذٍ سوف يفقد استمتاعه البهيج الراقص برؤيته لإنسانه هذا يمارس ويعرض عليه وفي عينيه وأذنيه كل آلامه وآثامه ومخازيه وعاره وفضائحه وهمومه ومسراته الحمقاء التافهة البليدة العابثة.. وأيضاً يفقد رضاه عن مجده بفقده لرؤيته له أي لمعشوقه الإنسان يتوضأ ويصلي له بلا أية صلاة أو وضوء بروحه أو قلبه أو حبه أو صدقه أو عقله أو ضميره أو أخلاقه أو حتى بعينيه أو بلسانه..

هل يصلي أو يتوضأ الإنسان بأي معنى من معانيه مهما صلى في كل المعابد وتوضأ بكل البحار والأنهار؟

.. وقد تكون الأسلحة الرهيبة وكل وسائل وأساليب الحياة الصعبة المتعبة المزعجة الغالية التكاليف المحطمة التي يبتكرها الأقوياء المتفوقون المتحضرون ويحولونها إلى التزامات وممارسات محتومة.

ـ قد تكون بعض أساليبهم لرفض الحياة ومقاومتها بل ومقاتلتها وللفرار منها أو للاحتجاج والغضب عليها أو للتعبير عن الذعر منها والضيق بها والنقد واللعن والتهديد لها وللإعلان عن قبحها وفحشها وعدوانيتها.! قد تكون الحروب والملذات والمسرات المؤذية حرباً ضد الحياة رفضاً للحياة جاءت تحت شعار الدفاع عن الحياة.!

.. قد يكون ذلك كذلك وإن كانت النيات والتفاسير متخفية متسترة حتى لتصعب رؤيتها وقراءتها وتصورها أو الاقتناع بها لو ذكرت.! أما الأساليب الأخرى المضادة لذلك والشافية والمحاولة للشفاء منه فقد تكون أقوى إعلان عن نقائص الحياة وذنوبها وآثامها وعدوانياتها وذلك بالتداوي منها ومما فعلت وتفعل.!

إنهم يقاسون ويناضلون كل المقاساة والنضال لكي يتداووا ويداووا ويشفوا ويشفوا مما فعلت الحياة، إذن كم هم خصوم لها؟ أليست كل المهدئات والمسكنات والمخدرات والمسكرات والأدوية أسلحة جيدة أو رديئة يطلقونها على الحياة؟

.. إن مقاومة الشيء أو الفعل أو الحدث والفرار والتداوي منه هو مقاومة لفاعله وفرار وتداوٍ منه واتهام له بل وإعلان حرب عليه. فالرفض لما تفعله أو توقعه الحياة هو معنى من معاني الرفض لها.. الذين يشفقون لكي ينقذوا مما فعله فاعل بهم هل يمكن أن يكونوا أصدقاء لهذا الفاعل؟

.. وقد تكون الأمراض والضعف والشيخوخة والموت التي تصيب كل الأحياء أي كل أجسادهم أي تصيب بها أجساد الأحياء حياتهم قد تكون أسلحة يقاتل ويقاوم ويفني ويعذب ويخيف بها الأحياء الحياة بكل صيغها ومستوياتها معبرين بذلك عن رفضهم واستقباحهم لها واحتجاجهم عليها وفرارهم منها وتوريطهم وإذلالهم وهوانهم واستعبادهم وانتضاحهم وفضحهم بها، قد يكون استقباحهم للحياة ورغبتهم في الفرار منها قد أمليا على أجسادهم ذلك أو أن أجسادهم هي الفاعلة بنفسها ذلك فراراً واستقباحاً.!

.. قد يكون ذلك تدبيراً محيراً في غموضه يفرضه الكائن الحي على جسده أو يفرضه الجسد على الحي إرادة للخلاص من ورطة الحياة بعد التجربة الفادحة لها.. لآثامها وآلامها وقبائحها وفضائحها ولفراغها من كل منطق وهدف ومن كل معنى معروف أو غير معروف جيد أو رديء.! هل يمكن أن يوجد أي تفسير غير هذا التفسير ليكون هو كل الجواب عن هذا السؤال الذي يقول: إذن لماذا حكم بذلك أي بالمرض والضعف والشيخوخة وبالموت على كل كائن حي؟ لماذا خصّ الكائن الحي وحده بذلك أي بالأساليب الواقعة؟ لماذا لا تمرض ولا تضعف ولا تشيخ ولا تموت الكائنات غير الحية بالسرعة والأساليب والمقاساة التي تصاب بها كل الكائنات الحية؟ لماذا لا تصاب بذلك بهذه الأساليب والسرعة والمقاساة الأخشاب أو الأحجار أو المعادن أو التراب أو الشموس أو النجوم؟

ماذا لو كانت الشموس والنجوم والجبال والبحار والأنهار كائنات حية؟ أليس محتوماً حينئذٍ ألا تبقى.. أن تكون قد مرضت وضعفت وشاخت وماتت؟

إذن هل هنا مكر كوني قد أراد ودبر ألا تكون الكائنات الكبرى كائنات حية لأنها لو كانت كذلك لكان محتوماً أن تضعف وتمرض وتشيخ وتموت وهو أي هذا المكر أو الماكر الكوني يرفض أن يموت كل شيء؟

.. أليس التفسير بل كل التفسير لذلك أن الكائنات الحية تمرض وتضعف وتشيخ وتموت فراراً أو تخلصاً من الحياة وإلّا فلماذا تصاب هي وحدها بذلك دون الكائنات غير الحية؟

.. لهذا فإن أقسى وأردأ متهم هو من يتهم الإله بأنه كائن حي حياة أبدية أزلية وبأنه لا يمرض ولا يضعف ولا يشيخ ولا يموت فراراً وتخلصاً من الحياة كما تصنع كل الكائنات الحية الأخرى.. كما يصنع أعظمها وأقواها وكما يصنع أصغرها وأضعفها وأذلها وأنذلها.!

كل الكائنات الحية تفعل ذلك خضوعاً لإملاء الكرامة والتقوى الأخلاقية والنفسية.!

.. إنه حينئذٍ أي هذا المتهم للإله بالحياة الأبدية الأزلية بلا مرض أو ضعف أو شيخوخة أو موت رفضاً واستقباحاً لحياته.. للحياة يهبط به تحت كل مستويات كل الكائنات الحية.. تحت كل مستوياتها في الرؤية والغضب والاستنكار والاحتجاج والانفجاع والرفض والبسالة والشهامة والكرامة

والإباء والاستحياء.. أليست هذه مزايا يجب ويحمد ويجمل أن يتخلق بها كل كائن حتى الإله وأن فاقدها هابط ذميم رديء مهين؟

.. حتى جسده أي جسد الإله لا يصاب ولا يصيب نفسه بشيء من ذلك لكي يفارق الحياة.. لكي يفارق ما لا يستطاع أو يقبل أو يعقل أو يغفر قبوله أو وجوده أو مواجهته أو معايشته أو قراءته أو رؤيته أو تصوره أو تذكره فكيف الاستمتاع والفرح والرضا والمباهاة به؟ حتى جسد الإله بلا كرامة أو شرف أو كبرياء أو إحساس أو احتجاج.. بلا أي ارتجاف أو اهتزاز من الاستحياء أو الغضب أو التغطي والغرق بكل ألوان العار.!

.. جسد الصرصار والذباب يصاب بما يقتله ليهرب وينجو من هذا القبح الشامل الدائم، وجسد الإله لا يصاب بذلك ليهرب هذا الهرب وينجو هذه النجاة؟

هل حدث هذا؟ هل صدقه أي مصدق؟

أيها العقلاء والشرفاء والأتقياء والحكماء فتشوا عن أعداء الإله الدوليين والكونيين، فتشوا عنهم فقد تعرفون أنهم هم الذين أرادوا ودبروا وصاغوا هذا العار للإله وروجوه وأشاعوه وثبتوه، وأسباب ذلك قد يستطاع فهمها وقد يقال إنه لن يستطاع فهمها وكيف يستطاع؟

أما مفكرو العرب وحكماؤهم وفلاسفتهم وعباقرتهم وأنبياؤهم وكل موظفيهم في أجهزة الكلمة والتعبير فقد يرون ويقولون بل ويجب أن يروا ويقولوا: إن أعداء العرب هم الذين أذاعوا وأشاعوا وروجوا عن الإله ذلك كيداً وبغضاً للعرب وتآمراً وعدواناً عليهم لأن الإله عربي، عربي ولن يكون أو يقبل أن يكون إلّا عربياً ولن يشاركهم فيه أي مشارك.. لن يستطيع أي قوم هذه المشاركة فيه ولن يقبلها إلّا هو ولا قومه وملّاكه العرب..!

إن أعداء العرب هم الذين شوّهوا الإله هذا التشويه لكي يصبح تشويهه وتشوهه تشويهاً وتشوّهاً للعرب وفي العرب لأن الإله أي هذا الإله عربي بلا مشارك. فالعرب يرفضون أن يكون لهم شركاء فيه وغير العرب يرفضون لأنفسهم هذه المشاركة.!

.. ولكن ما الصواب هنا أعني في هذه القضية؟

هذا السؤال، سؤال: ما الصواب سؤال إنساني تاريخي.. حضاري وبدوي.. تقدمي ورجعي.. عاطفي وعقلي.. ديني وإلحادي.. علمي وجاهلي جهلي..!

هذا السؤال يسأله من لا يستطيعون النطق بحروفه أو يعتقدون أنهم يسألونه.!

.. إنه سؤال لا بدّ أن يسأله ويعلن التعامل به والاحترام والالتزام به كل أحد.. كل أصدقاء الصواب وأيضاً كل أعدائه.. إنه سؤال تعبد وليس سؤال التزام أو معرفة أو إرادة معرفة.!

.. ما الصواب.. إن جميع أجوبة هذا السؤال لا تكون أو لن تكون صادقة أو صحيحة أو منطقية أو شجاعة إلّا بأن تقول: لا صواب.. لا صواب، وأبداً لا صواب، لا صواب.!

إنه أبداً لا صواب إذا كان يعنى به ما يعنيه المتحدثون عنه والناطقون به.!

إن كل ما يحسب ويعلن صواباً لن يكون في كل تفسيراته وتأويلاته إلّا استجابة أو تلاؤماً أو شهوة أو ظروفاً أو منطقاً أو حاجة لما هو خروج على الصواب وإهانة وتحقير وتكذيب له أو لما لن يكون صواباً ولا خطأ إلّا لغة أو دعاية أو انخداعاً أو تلقيناً.!

.. إنه لم يوجد ولن يوجد في هذا الكون ولا في أي كون أي صواب إلّا بتفسير خاص.. برؤية خاصة.. بمصلحة أي منفعة خاصة.. بواقع خاص، بظروف خاصة.. باعتقادات وتلقينات وتعاليم خاصة، خاصة لم تكن تبحث عن الصواب أو تريده أو تحترمه أو تلتزم به إلّا بقدر ما كانت تبحث عن الخطأ أو تريده أو تحترمه أو تلتزم به، إنهما أبداً أي الخطأ والصواب إرادة وتلاؤم وإلف وتلقين أو مناقضة لذلك أي للإرادة والتلاؤم والإلف والتلقين.!

لنحكم ولتحكموا وليحكم هنا كل أحد. ولنستمع بكل الاهتمام والصدق.!

هل الصواب أن يوجد من يسألون عن الصواب ويتعادون ويتقاتلون باسمه ويدمرونه تحت شعار المحافظة عليه أم الصواب ألّا يوجدوا؟ هل هو أن تكون أنت ودينك ووطنك وإلهك المنتصرين على عدوك أو مخالفك وعلى دينه ووطنه وإلهه أم أن يكون العكس، أم ألا يوجد منتصر ولا منهزم، أم أن يكون الفريقان منهزمين أو يكونا منتصرين أم ألا يكونا قد وجدا؟

هل هو أن تكون أنت العابد الشاكر لإلهك لأنه أوجدك أم أن يكون هو العابد الشاكر لك المعتذر التائب إليك الطالب الغفران منك لأنه قد اعتدى عليك بإيجادك بالأسلوب والصفات والظروف التي بها أوجدك لتقاسي كل ما لا بدّ أن تقاسي، لتنتهي كما لا بدّ أن تنتهي بنفس القبح والوحشية التي سوف بها تنتهي... بإيجاده لك.. لكي تعبده وتمدحه وتقاسي كل الهوان والمسكنة والخوف منه وله لكي يسعد ويفرح ويتكبر ويضحك لنفسه بكل السماجة والبلاهة والوقاحة وهو يراك مقاسياً باكياً شاكياً متضرعاً متلهفاً متطلعاً منتظراً بلا سامع أو مجيب أو منقذ أو حتى معتذر..

وهو يراك غريقاً متنقلاً متلطخاً في هوانك وعارك وآثامك وآلامك وهمومك ومخاوفك ومشاكلك وفضائحك؟ وهل وجد أو يمكن أن يوجد مدعٍ مرجوٍ منتظر منه كل شيء ومزعوم كل شيء بلا أي ثمن أو عطاء أو جزاء أو جواب غير هذا الإله؟

.. هل هو أن تجيء لتموت أم ألا تجيء لئلا تموت؟

.. هل هو أن تموت لأنك جئت أم ألا تموت لأنك جئت؟

هل هو أي الصواب أن تموت ميتاً أم منتحراً أم مقتولاً..؟

أن تقتل نفسك أم أن يقتلك إلهك أم أن تقتلك حشرة أو جرثومة أو ملك الموت أم أن يقتلك عدوك أو مبارزك؟ أن تقتل قبل أن تتعذب وتهون وتفتضح وتضعف وتعجز أم أن تقاسي وتكون كل ذلك ثم تموت موتاً؟ هل هو أن تولد فتموت أم أن تولد فتشيخ فتموت؟

.. هل هو أن تكون أنت المسخر المستعبد القاتل الآكل للحيوانات والحشرات أم أن يكون

النقيض؟.. أن تكون النبي أم أن تكون التابع له.. أن تختار فردوس نبيك أم أن تختار جحيمه.. أن تكون من أتباع نبيك أم من أتباع نبي آخر.؟

.. هل هو أن تجيء جائعاً آكلاً مستفرغاً لأكلك بالأسلوب الذي تعرفه وتمارسه في المكان الذي تعرفه والذي تذهب إليه متواضعاً مذعوراً ذليلاً راكعاً مقعياً مستحيياً متخفياً أم أن تجيء بريئاً نظيفاً من ذلك؟

هل هو أن تجيء صغيراً، صغيراً لتكبر، تكبر ثم لتصغر، تصغر لتذهب صغيراً ذليلاً محطماً أم أن تجيء طوراً واحداً لتبقى نفس الطور ثم لتذهب في نفس الطور؟

هل هو أي الصواب أن تموت لتدفن جثة عفنة في التراب أم أن تحترق وتذوب وتتبدد لتذهب، لتكون هباء ولهباً نظيفاً مضيئاً؟

.. هل هو أن يوجد الإله، وأن يوجد كما وجد، وأن يوجد واحداً أم ألا يوجد أو أن يوجد بصيغ وصفات وأخلاق أخرى أو أن يوجد أي الإله متعدداً لا واحداً؟

هل هو أن توجد الأرض والكون بكل كائناتهما وكينوناتهما أم لا يوجدا أم أن يوجدا بكينونات وكائنات أخرى؟

.. هل هو أن يوجد كل ما وجد، كما وجد أم ألا يوجد شيء مما وجد؟ هل هو أي الصواب أن أسأل هذه الأسئلة بكل هذه الحرارة والحماس والجد أم أن أصمت عن هذه الأسئلة وعن كل أسئلة أخرى توقراً ويأساً مما يمكن أن أسمع من أجوبة عن هذه الأسئلة وعن كل أسئلة..

ـ أم أن أصمت عن هذه الأسئلة وعن كل أسئلة احتراماً للأسئلة؟ أليس للأسئلة وللسائلين كرامة وحقوق؟

أليست الأسئلة حيث لن توجد أجوبة تحقيراً للأسئلة وللسائلين؟

هل الصواب هو الصواب أي هو ما نراه ونزعمه ونعلم بأنه هو الصواب كل الصواب، أم الصواب هو الخطأ أي هو ما نراه ونزعمه ونعلم بأنه هو الخطأ كل الخطأ؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد من يعرفون ذلك.. من يعرفون الخطأ من الصواب.. من يعرفون أو يرون الأخلاق والعلامات والأزياء والحدود الفاصلة بين هذا وهذا؟ هل وجدت أو يمكن أن توجد عباءات أو عقالات أو جلاليب تضع الحدود بين الإله الصواب والإله الخطأ؟

.. هل استطاعت جميع الألوهيات والنبوات والعبقريات أن تعرف ذلك مهما حسبت وزعمت معلنة أنها عرفته ومهما زعم لها وعلم عنها أنها عرفته؟ هل يمكن أن يرجى من الإله الذي وضع النفط العربي كما وضعه في المكان الذي وضعه فيه ـ أن يرجى منه معرفة الخطأ من الصواب؟

.. أليس ما يحسب ويزعم وما حسب وزعم كل الصواب يحسب ويزعم وحسب وزعم كل الخطأ؟

.. أليس ما يحسب ويزعم وما حسب وزعم كل الخطأ يحسب ويزعم وحسب وزعم كل

الصواب؟ أليس ذلك كذلك في زمانين ومكانين مختلفين بل وفي زمان واحد ومكان واحد؟

هل الصواب أن نفعل الصواب أم أن نفعل الخطأ أي أن نفعل ما يسمى ويزعم هذا أو أن نفعل ما يسمى ويزعم هذا؟

أي الفعلين يصنع أخطر وأقبح النتائج أو أنبل وأفضل النتائج؟

أيهما أي الخطأ والصواب أعطى الحياة والإنسان وأشواق وأنانيات الإله أكثر أو أفضل أو أنفع أو أقوى أو أبقى مما أعطى الآخر؟

.. هل وجد لذلك حساب صحيح لا يقبل الاختلاف فيه وعليه؟ وهل يمكن أن يوجد مثل هذا الحساب؟ هل وجد أو يمكن أن يوجد حساب أو تعريف أو تحديد لا يقبل الاختلاف عليه حتى الإله، هل وجد هذا الإله؟

.. أليس كل الصواب أي إن كان يوجد صواب هو ألا يوجد ما يسمى صواباً وما يسمى خطأً أي ألا يوجد من يتحدثون عن هذا أو هذا؟ هل يساوي أو يعني كل الصواب والخطأ إلا من يتحدثون عنهما ويتعاملون باسمهما؟

.. هل يستطيع جميع الآلهة والأنبياء والعباقرة بل وجميع المزيفين والدجالين والسحرة أن يضعوا تعريفاً محدّداً للصواب أو للخطأ ليتفقوا عليه أو حتى ليختلفوا عليه وفيه؟ هل يستطيعون؟ لقد شقّوا جميعاً طويلاً لكي يعرفوا ذلك أو ليزعموا أنهم عرفوه ويعرفونه دون أن يصلوا إلى شيء أو يفعلوا شيئاً.!

.. اسمعوا. وهل تقبلون أو تستطيعون أن تسمعوا؟ اسمعوا ولكن ليس كما كنتم تسمعون. لقد كنتم تسمعون لئلا تسمعوا. اسمعوا هذا. اسمعوه.. الإله يعرف الصواب.. رائع أو محزن أو مفرح.. إذن لماذا لا يفعله؟ يعرفه ولا يفعله. إذن أليس ألّا يعرفه أقل هجاء له؟

الإله يعرف ولا يفعل. ما أفظع هذا.. الإله لا يعرف لهذا لا يفعل، أيهما أفظع!؟.

.. الإله يعرف الخطأ.. إذن كم هو فظيع، فظيع ألا يتجنبه؟

هل يمكن الدفاع عنه بأنه عاجز عن تجنّبه أو متعمد أن يفعله؟

هل يوجد أو يمكن أن يوجد تفسير لهذا أو لهذا أو جواب عن هذا أو عن هذا؟. نعم، الإله يعرف الخطأ ويرفضه ومع هذا فالكون مملوء به، ويعرف الصواب ويريده ومع هذا فكل شيء محروم منه وعاجز عنه. هل تصدقون؟

.. واحزناه وأسفاه عليك يا إلهي، إن دموعك لا تجف أسى على الصواب الذي تريده وتعرفه ثم لا تجده وانفجاعاً بالخطأ الذي تعرفه وترفضه ثم لا تجد شيئاً مثلما تجده.!

.. إنك يا إلهي لن تكون أي قدر أو أي شيء من الكمال أو الجمال أو القوة أو الذكاء أو الكرامة أو الفهم أو الرؤية أو حتى من الوجود والكينونة.. إنك لن تكون شيئاً من ذلك إلّا بالصمت عنك، إلّا بصمت كل المعاني وكل شيء عنك.. إلّا بصمت العقل والقلب والضمير والأخلاق

والرؤى والتساؤل عنك.. إنك يا إلهي لا تساوي في أي معنى من معانيك إلّا الصمت عنك.. إلّا صمت كل المعاني عنك.!

❀ ❀ ❀

هنا يعود السؤال القائل: ما الصواب في هذه القضية.!

هل الحياة قاتلة أم مقتولة أم قاتلة مقتولة؟ هل هي التي تقتل الكائنات الحية لقبحها ووحشيتها وعدوانيتها ونذالتها ولفراغها من كل المعاني والتفاسير الرحيمة الكريمة الصديقة، أم هي أي الكائنات الحية هي التي تقتل الحياة عقاباً لها على أخلاقها وأفعالها وفظاعاتها وهرباً منها رفضاً لها؟

.. هل الحياة قاتلة أم مقتولة أم قاتلة مقتولة؟ هل تبادلت الحياة والأحياء القتل ليكون كلاهما قاتلاً مقتولاً؟ أليس كل الأحياء وكل ما في الحياة قاتلاً مقتولاً؟

.. هل الحياة تموت منتحرة تأثّماً وتندّماً وتوبة واستغفاراً واستحياءً وهرباً وانزعاجاً من عدوانها على الأحياء الذين تسكنهم وتحتل أجسامهم لتوقع بها كل العذاب والهوان والاستعباد والعجز والافتضاح بلا أي استحقاق تستحقه هذه الأجسام.. لتوقع بها ما لا يستطيع أو حتى يريد كل الأعداء أن يوقعوه بها..

ـ نعم، هل الحياة تموت منتحرة من أجل ذلك وأيضاً تموت منتحرة رفضاً لأن تظل تقاسي كل ما تقاسي من آلام وآثام وهوان وعار وفضائح ومشاكل بلا علاج أو أمل في أي علاج؟

أليست الحياة هي كل من يجب عليه أن ينتحر وكل من يستحق ذلك؟

هل يوجد أو يمكن أن يوجد مستقبل ومتقبل لما لا يستطاع أو يقبل أو يعقل أو يغفر تقبله مثل الحياة أو غير الحياة مهما كبرت وعظمت بل مهما شرفت ونبلت وكرمت؟

هل تستطيع الحياة أن تفعل من القبائح والفضائح إلّا بقدر ما تكون كبيرة عظيمة قوية؟

.. أليست الحياة العظيمة تفعل من القبح والفحش والعذاب والافتضاح والتوريط والتعذيب أعني وإن لم تعرف أو تقصد ذلك أكثر مما تفعل الحياة الرديئة القبيحة الضعيفة البليدة الجاهلة؟ لهذا أليس الإله يفعل من ذلك ما لا يستطيع كل الأنذال والشريرين بل والمجرمين أن يفعلوا شيئاً منه؟

.. أليس العبقري المبدع الذي يبتكر حيلة أو وسيلة لإطالة عمر الشيخوخة أو لحماية الوليد من الموت المبكر المنقذ له من الخوض والغوص والسير الطويل في آثام وآلام وفضائح وقبائح الحياة، أو لعلاج الرحم النظيف المستريح البريء.. لعلاجه من البراءة والنظافة منهن ومنهم ليكون ملوّثاً معذباً مشوّهاً بهم وبهن ومستفرغاً لهم ولهن، وأيضاً لصد وهزيمة الأوبئة التي تجيء بكل الجسارة والشهامة والتقوى والرحمة والمحبة لتنقذ من التراكم والتزاحم والتكاثر البليد الأليم العقيم الفقير الجاهل المعذب المنافس للحشرات والمفسد الملوّث لكل صيغ البيئة وتفاسيرها وأخلاقها ونظافتها وجمالها أي ما يزعم جمالها ونظافتها ـ وهل وجد حتى اليوم منقذ من هذا التراكم والتزاحم والتكاثر البليد القبيح العقيم مثل الأوبئة المنقذة من هذا التوالد الصانع لهذا التزاحم؟

- نعم، أليس هذا العبقري المبدع العزيز القليل جداً يبدع ويصنع ويهب من التعذيب والتوريط بل ومن القبح والفضح والمشاكل والآلام والأمراض والفقر والضياع وأيضاً من الإخراج والتعذيب والتحدي والهزيمة لكل أخلاق الإله وقدراته ما لا يستطيع أن يفعل مثله أو شيئاً منه أغبى وأجهل وأعجز الأغبياء الجاهلين العاجزين؟ أليس هذا المبدع يصنع بوسائل ذكية وقوية العجز والعاجزين والجهل والجاهلين ويهبهم القوة والبقاء والكثرة والانتشار؟.. أليس هذا العبقري المبدع يصنع ويرسخ يؤكد ويلمع ويضخم هذه الآفات ويهبها القدرة على التعاظم والتكاثر والانتصار أكثر مما يشفي منها مهما شفى منها.. أليس الذي يلقي بنا إلى الوباء مسيئاً مهما حصننا ضده؟

.. أليس الذي يخلقنا لنجوع ونمرض ونهون ونمارس العار والفضائح ثم نشيخ ونموت هو الصانع لنا والموقع بنا كل هذه الآفات والنذالات والضربات مهما عالجنا وشفانا أو حاول أن يعالجنا ويشفينا منها، أو ينصحنا ويعظنا ضدها؟

.. مهما وقانا منها وأعطانا نقيضها أحياناً؟ أليس من ولد ليقتل هو أقبح القاتلين؟

.. أليس الطبيب الذي يصنع المرض والعاهة والتشوّه والألم مجرماً ومعتدياً ونذلاً مهما شفى أو حاول أن يشفي من ذلك؟

أليس قاطع اليد مذنباً شريراً مهما ترك اليد الأخرى أو حماها من السوء؟

.. أليس الذي يبتكر السلاح قاتلاً مهما حاول أن يحمي أو ينقذ من ذلك.. مهما لعن سلاحه ودعا إلى الإلقاء به أو إلى تخزينه وإلى إغلاق كل الأبواب عليه؟

أليس العبقري المبدع صانعاً للسلاح وإن لم يصنعه بيديه وعضلاته وإرادته وتخطيطه.. صانعاً لكل أنواع السلاح.. للسلاح الذي تتعامل به الحروب وللأسلحة التي تتعامل بها الحياة والتي تتقاتل بها كل الأشياء وكل سلوك الإنسان وأخلاقه وعواطفه وأفكاره دون أن تسمى سلاحاً؟ إن ما لا يسمى أو يحسب سلاحاً قد يكون في معانيه سلاحاً أكثر وأقتل من كل سلاح؟

.. أليس القتال والسلاح في غير الحروب هما أبشع السلاح والقتال لأنهما أدوم وأكثر من قتال وسلاح الحروب ولأنهما يصنعان الحروب وأسبابها وتفاسيرها بل لأنهما هما اللذان يصنعان كل ذلك بكل الأساليب ويجعلانه أفتك وأقسى، ولأنهما أيضاً يصنعان سلاح الحروب؟ أليس الذي يهبنا آخذاً منا كل ما وهبنا ثم معاقباً لنا على ما وهبنا لأنه وهبنا؟

.. إذن أليس العبقري المبدع صانعاً للحروب وللقتل والقتال بكل الصيغ والتفاسير والنتائج وإن لم يكن شيء من ذلك بقيادته أو إرادته أو تعاليمه أو رضاه بل وإن صنع له ذلك كل الغيظ والغضب والأسى بل وإن صنع له الموت الجسدي؟

.. أليس هو كذلك مهما حاول أن يحمي أو يخفف من شرور وآلام ذلك بل مهما حمى وخفف من ذلك؟ إنه لا صانع للعذاب والمشكلات والورطات والهموم بكل أنواعها مثل العبقريات الخلاقة لأنه لا صانع للحياة القوية المتفوقة مثلها.!

.. أليس الصانع المبدع الذي يخططنا ويريدنا ويصنعنا ويصوغنا محتاجين وجائعين ومدفوعين مقودين إلى العار والهوان والآلام والهزائم والفضائح والقبائح والآثام والأحزان والمخاوف والأمراض والتشوّه والعجز والموت وإلى كل ما نحن مسوقون ومدفوعون وصائرون إليه.

ـ نعم، أليس هذا المبدع الصانع آثماً ظالماً معتدياً مسيئاً فاسقاً عاصياً ولئيماً نذلاً شريراً سفيهاً يستحق كل العذاب والعقاب والإنكار والاشمئزاز ـ يستحق كل ذلك حتى ولو حول كل شيء.. كل الوحوش والحشرات والجراثيم وكل الكائنات إلى أنبياء ودعاة وكتب مقدسة وإلى قديسين وملائكة ليصافحونا ويعانقونا ويعظونا وينصحونا ويعلمونا ويبشرونا وأيضاً ليشتمونا ويهددونا ويتهمونا ويخيفونا.

ـ حتى ولو حول كل الشموس والنجوم والمجرات إلى بيوت وسرج وعروش وسرر وتيجان لنا وحظائر لخيولنا وأنعامنا وأغنامنا.

ـ حتى ولو حول كل عبقرياته وعضلاته وعبقريات وعضلات جميع أعوانه وخبرائه إلى مهندسين وبنائين ليخططوا ويشيدوا لنا جحيمه وفردوسه بكل ما فيهما ومن فيهما من غلمان وجوارٍ وزبانية وملائكة غلاظ شداد.. ـ حتى ولو هان كل الهوان لنا حتى لم يكن أو يبق له هم أو اهتمام أو أمل أو مجد أو تفكير أو عمل غير أن يتضرع إلينا لنكون أصدقاء وأولياء ومحبين شاكرين له؟

❀ ❀ ❀

قاسية وبليدة جداً بلا أية رحمة أو ذكاء أو منطق أو جمال، أعني التفاسير الصادقة الصحيحة الشجاعة المعبرة المحدقة أي لو وجدت هذه التفاسير ووجد المفسّرون الفاهمون المستجيبون لها المؤمنون المتأثرون بها، أعني كل التفاسير لكل الأشياء.!

هل اشترط الموجدون لهذا الوجود إن كان له موجدون ألا توجد هذه التفاسير؟

.. ما أقسى وأفجع هذه التفاسير.. ما أقسى وأفجع أي تفسير وكل تفسير لكل شيء ولأي شيء أعني التفسير الصادق الصحيح الشجاع.!

لهذا لم يوجد ولن يوجد من يفسّر أي شيء أو أي أحد بهذه التفاسير، ولا من يقبل أو يأذن أو يرضى أو يغفر بأن توجد أو بأن يوجد منها أي شيء أو بأن يوجد من يفسّرون أو من يريدون أو يطالبون أن يفسر بها أي شيء أو أي أحد، هل وجد في هذا الكون أو في أي كون أغلى أو أقل أو أفجع أو أشجع من التفاسير الصادقة الصحيحة لأي شيء؟

.. إن هذه التفاسير أي لو وجدت هي كل الزندقة والخيانة والفساد والعصيان والتمرّد بل والعدوان في حساب واعتقاد وتعاليم جميع الألوهيات والنبوات والديانات والزعامات والقيادات والاعتقادات والانتماءات والمذاهب والنظم بل وفي كل تجاربها.!

إن كل معجزاتها في ألا توجد هذه التفاسير وفي ألا يوجد من يفسّرون أو يقبلون التفسير بها.

.. إن كل مجد وقوة ووجود وبقاء وانتصار كل هذه أي الألوهيات والنبوات والديانات

والزعامات والقيادات والاعتقادات والانتماءات والمذاهب والنظم لا يساوي أو يعني إلّا فقد هذه التفاسير.!

.. إن كل القادة والزعماء وواضعي المذاهب والنظريات والفلسفات ـ وكم أتمنى أن توجد استثناءات من هذا التعميم ـ نعم، إن كل هؤلاء مع الإصرار على تمني شيء من الاستثناءات ـ ليرفضون ويعادون ويقاومون هذه التفاسير كما يرفضها ويعاديها ويقاومها كل الآلهة والأنبياء والمعلمين والقديسين، أليس في هذا محاباة للآلهة والأنبياء والمعلمين والقديسين حين سووا بهؤلاء في هذه القضية؟

.. إن كل هؤلاء ليخافونها ويرهبونها ويخجلون منها أعني هذه التفاسير أكثر وأقسى مما تخاف وترهب وتخجل أقبح وأصعب العاهات والتشوّهات والعورات المشوّهة والدميمة الشاذة المصابة بكل ما يفجع ويحزن ويؤلم أن ترى أو تعرض أو تقرأ أو تفسّر..!

وهل يوجد ما يحتاج إلى الستر والإخفاء مثل عاهات وتشوّهات الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة؟

.. إن مقاومة هذه التفاسير أسلوب شامل أليم من أساليب مقاومة الرؤية والفهم والتساؤل والمحاكمة والمحاسبة..

إنها أي هذه المقاومة فقء للعيون ونفي بل وقتل للعقول والضمائر والقلوب والحماس والأخلاق بل إنها تزييف وتزوير لها. إنه لو منع فامتنع كل القتل والنفي والفقء للعيون والتزوير لما كان ممكناً أن يمنع أو يمتنع شيء من هذا القتل والنفي والتزوير والفقء للعيون.!

.. هل يمكن أن يوجد أو يرى أو يعتقد أي شيء من الجمال أو المنطق أو الحب أو الفن أو الكرامة أو الإغراء في أي شيء صغير أو كبير لولا هذا الفقء والنفي والقتل والتزييف والتزوير لكل ذلك؟

❀ ❀ ❀

المراد بالتفاسير التي عنها كل هذه الأحاديث التي قد تحسب تهويلية أو أكثر من ذلك.

ـ المراد بها التحديق في أحشاء الأشياء وفي ضمائرها وأخلاقها.. في بداياتها ونهاياتها ومسيراتها.. لماذا وماذا ومن أين وإلى أين وكيف ومتى.. ومن أجل من ومن أجل ماذا وممن، ممن. ما الربح، من الرابح، ما الحوافز، ما الأهداف، من المقرر لذلك.. من المسؤول. إنها الرؤية والقراءة والتفسير بكل قسوة الرؤية والقراءة والتفسير بكل البسالة المقتحمة.. من وراء وداخل كل الأغطية والحجب والحراسات التاريخية، من فوق كل الألوهيات واللاهوتيات والنبوات والتعاليم والمعلمين، من فوق كل المنابر والمحاريب.. وإذا وجد هذا التحديق أو لو وجد بكل هذه القراءة والرؤية والمحاسبة والمحاكمة والمساءلة بكل الصدق والبسالة والاقتحام.

ـ أي إذا وجدت أو لو وجدت هذه التفاسير ووجد من يفسّرون بها ويلتزمون ما تقول لهم فهل

يمكن أن يبقى أي شيء معقولاً أو مقبولاً أو حتى مغفوراً، أو أن تتنزل آلهة السماء من فوق سمواتها لتتحدث بكل الانبهار والاندحار عما في أي شيء أو عما في كل شيء من الحكمة أو الرحمة أو الجمال أو التفضّل أو العطاء أو العبقرية الفنية الإبداعية، أو أن توضع الفلسفات والنظريات والمذاهب لتتحدث عن ذلك أو عن شيء منه، أو أن يبقى أو يوجد أي شيء أو أحد ليكون فاعلاً ضارباً مهيناً منتصراً متبوعاً معبوداً مخيفاً معشوقاً مراداً، أو ليكون مفعولاً مضروباً مهاناً مهزوماً تابعاً عابداً عاشقاً مريداً خائفاً ذليلاً، أو ليكون هذا وهذا أو أحياناً هذا وأحياناً هذا؟ حتى الإله أي إن وجد محكوم عليه حتماً بأن يكون هذا أو هذا أو هذا وهذا أو أحياناً هذا وأحياناً هذا! حتى الإله.!

.. أليست الكينونة هذا أو هذا أو هذا وهذا أو هذا أحياناً وهذا أحياناً هي الكينونة الكاملة والمحتومة والمصير والتفسير اللذين لا مفر منهما لكل شيء ولكل أحد مهما صعد أو هبط أي في علاقاته ومعاملاته مع نفسه ومع غيره ومع كونه ووجوده ومع آلهته إن كانت له آلهة؟

.. إن هذه التفاسير إذا وجدت أو ولو وجدت لا ترحم أحداً أو تحابيه أو ترفق به أو تعفيه من قسوتها وتشويهها وفضحها مهما كبر وعظم.. بل إنها لتقسو على من تفتتر فاضحة ومشوّهة ومعيرة له بقدر ما يكون كبيراً وعظيماً وقوياً، إن الكائن الحي ليتعذّب ويخسر بوجوده الحي بقدر ضخامة كينونته الحية، إن غيظ وغضب إله واحد لأعظم من غيظ وغضب كل الكائنات الحية.!

.. أليست أي هذه التفاسير لو وجدت تفضح وتحقّر وتهين وتعير الإنسان أكثر وأقسى مما تفعل ذلك بالحيوان أو الحشرة، وتفعله بالآلهة أكثر وأقسى مما تفعله بالأنبياء والقديسين، وتفعله بالزعماء والقادة أكثر وأقسى مما تفعله بالرعايا، وتفعله بالعباقرة والمتفوقين أكثر وأقسى مما تفعله بالمتخلفين والعاديين، وتفعله بالفعالين المقتحمين أكثر وأقسى مما تفعله بالعاجزين القاعدين، وتفعله بالشموس أكثر وأقسى مما تفعله بالأقمار والنجوم، بل وتفعله بالوجوه الجميلة أكثر وأقسى مما تفعله بالوجوه الدميمة المشوّهة أي تفعل الفضح والتعيير والتحقير والتهوين والإذلال؟

نعم أليست هذه التفاسير تفعل ذلك كذلك أي لو وجدت؟ أليست العيون والعقول والأخلاق والمشاعر تفجع بقدر ما ترى وتفهم وتسأل وتشعر وتحاسب؟

.. لهذا ولأسباب أخرى فإن كل هؤلاء المتفوقين كل أنواع هذا التفوّق يعادون ويقاومون ويرهبون هذه التفاسير أقسى وأقوى مما يفعل الآخرون الفاقدون لهذا التفوّق بكل أنواعه وصيغه، إن الكائن بقدر ما يكبر يكبر خوفه وعاره وهمومه وآلامه وافتضاحه واحتياجه إلى ألا يرى أو يقرأ أو يفهم بكل حدوده وتفاسيره بصدق وبسالة.!

.. أليس الآلهة والأنبياء والكبراء والأقوياء والعظماء والمقدسون يصنعون كل الحجب والبراقع والجلابيب ليستتروا ويحتموا بها من هذه التفاسير أكثر مما يصنعها أو يفكر فيها أو دون أن يصنعها أو يفكر فيها الأصغرون أي الذين لم يصعدوا إلى قبح هؤلاء.. أي الذين لم يكبروا لتكبر تشوّهاتهم وأخطاؤهم وذنوبهم كما كبر هؤلاء؟

بل أليس هؤلاء هم وحدهم الذين خافوا ورفضوا هذه التفاسير وتعذّبوا تفكيراً فيها فصنعوا لها

كل الحجب والأغطية والبراقع والجلابيب؟ هل يوجد مثل هؤلاء احتياجاً إلى إطفاء كل الأضواء وتكثيف كل الظلمات أمام العيون والعقول والضمائر والأخلاق التي تريد أن تراهم أو تقرأهم أو تفهمهم أو تفسّرهم؟

.. إن هؤلاء أي الآلهة والأنبياء والأقوياء والعظماء والكبراء والقادة والقديسين هم الذين ابتكروا وصنعوا هذه السدود والحواجز والحراسات لمقاومة وصدّ هذه التفاسير، كما أنهم هم الذين ابتكروا وأرادوا وفرضوا وشرعوا وصنعوا القيود والسجون والأغلال والخصاء لذكورة العبيد بل وحوّلوها إلى أديان ومذاهب ونظم وتعاليم بل والخصاء للعقول والأخلاق والضمائر ولكل معاني الإنسان.!

هل وجد أو تصوّر خاصٍ كهؤلاء أو مخصي مثل الإنسان، مثل كل معاني الإنسان؟

أليس الكائن يصنع العذاب والقبح والإذلال والعبث والأخطاء والورطات والمشاكل بقدر ما يكون كبيراً وقوياً ومنتصراً متفوقاً، كما أن الإله يصنع كل ذلك بقدر ما يكون كذلك أي قوياً وكبيراً ومنتصراً ومتفوقاً؟

بل أليس الكائن يقاسي كل ذلك بقدر ما يكون كذلك أي كبيراً وقوياً ومتفوقاً ومنتصراً؟

.. هل يصنع الأخطاء والآلام والمشاكل والورطات الكبيرة إلّا الكبار، الكبار؟ لهذا فإن الحياة الكبيرة القوية المتصاعدة هي التي تصنع الآلام والأخطاء والمشاكل والفضائح والمتاعب الكبيرة، الكبيرة!

.. أليس أفضل وأنبل الآلهة أضعفها كما أن أنذلها وأقبحها أقواها؟ أليس أسعد الآلهة وأتقاها وأجملها بل وأقواها وأذكاها هي التي لم توجد، لم ترَ نفسها أو تجرّبها أو تتعامل معها أو بها؟ هل قبل أي إله نفسه إلّا لأنه لم يوجد؟ إن كل الكائنات قد تقبل وجودها وتتعامل معه إلّا الآلهة.! إن قبح الآلهة ووظائفها ومسؤولياتها لا تقبل مهما قبل كل قبح ومسؤولية ووظيفة.!

❀ ❀ ❀

.. إذن فالحياة في طورها الأدنى جهالة وضآلة وقبح وعجز وفقر وجوع ومرض.. أما في طورها الأعلى فهي ضخامة وقوة وقدرة وجمال ومعرفة وعطاء وإبداع وتحليق فوق الشموس والنجوم ولكنها أي في طورها هذا تصنع وتهب وتبتكر وترى وتمارس بل وتفرض من القبح والفضائح والعذاب والتعذيب والعجز والتعجيز والورطات والتوريط والعقد والتعقيد بل ومن الجهل والتجهيل بل ومن المخاطر والمشاكل والدمامات والتشوّهات والعداوات والأحقاد والبغضاء والهموم والمخاوف والإذلال والهوان والعار أكثر وأقسى وأقوى مما تفعل أو تريد أو تواجه أو تقاسي كل ذلك أو أي شيء منه وهي في طورها الأدنى أي الأضعف الأجهل.! وهي أي الحياة لا تستطيع أن تكون غير طوريها هذين وما بينهما بل ولا يستطيع أي شيء أو أحد أن يجعلها غير ذلك.!

.. وهنا لا بدّ أن يقرأ ويعلن هذا السؤال نفسه: إذن أي الحياتين أو الصيغتين أو الطورين أفضل أو أنبل أو أعظم أو أنفع أو أربح أو أقل قبحاً أو فحشاً أو تعذيباً أو خسراناً؟ أو أيهما يمكن أن يصبح

أو يحسب مزية أو عطاء أو إحساناً أو شيئاً يقبل أو يرضى أو يسعى إليه في أصعب وأقبح الطرق وأكثرها إظلاماً ووحشية وضياعاً وافتضاحاً وإذلالاً وأهوالاً؟

.. يا له من حصار يحاصر به كل كائن حي فرض عليه وعوقب بأن يكون حياً. كيف أمكن أن توجد الحياة أو أن يوجد من أرادها وصنعها؟ هل كان هذا المريد الصانع للحياة شريراً بكل هذه القسوة أم بليداً كل هذه البلادة أي إن وجد؟

.. إن كل كائن حي محاصر ومحكوم عليه بأن يحيا هذا الطور الأدنى أو هذا الطور الأعلى، حتى الإله محكوم عليه ومحاصر بهذا الطور أو بهذا.. هل وجد من قرأ وحاسب ما في الطورين وما في المسافة الفاصلة بينهما من قبح وعذاب وعبث ودمامات وفضائح؟

.. إذن هل وجد أو يمكن أن يوجد معتدٍ مشوّه ظالم عابث مثل من أراد أو خطط أو صنع الحياة، أو معتدى عليه مشوّه مفضوح مورّط مظلوم مثل من أريد له وخطّط وصنع ليكون حياً وفرض عليه أن يكون كذلك؟

هل وجدت قضية فيها كل هذه الحماقات والقباحات مثل هذه القضية؟

.. إن أصعب أو أردأ ما في هذه القضية أو الحياة أنه لا يراها أو يحاكمها أو يحكم عليها إلّا المصابون المحكوم عليهم بها الغرقى فيها المقيّدون بكل قيودها الموضوعون في كل أغلالها وسلاسلها الذين قد ماتت وقتلت وفسدت وضلّت فيهم كل طاقات وأخلاق وحماس ومعاني الرؤية والقراءة والمحاسبة والكرامة والبراءة والرفض والغضب أو ضعفت وهانت وتبلّدت فيهم.!

إن كل قوى الحياة وفنونها ووظائفها محوّلة إلى محاولات دائمة وبكل الصيغ والأساليب لكي تفعل هذا القتل والموت والإفساد والإضلال بكل معاني الأحياء وبكل علاقاتها بهم وعلاقاتهم بها لكي يتقبلوا بكل الهوان والافتضاح والتلهّف والعمى والتبلّد كل ما توقع بهم وتفرض عليهم وتلوّثهم به.. إن الحياة لا تجمل أو ترضى أو تسعد أو حتى تبقى إلّا بقدر قتلها لمعاني من يحيونها.!

.. إنه لولا ذلك لكان الرفض والخصام والانفصام بينهما أي بين الحياة والكائن الحي حاسماً قاصماً شاملاً، بل لما كان ممكناً اللقاء بينهما فكيف بما هو أكثر من ذلك؟

.. إنه لولا ذلك لما جاء الرفض والخصام والانفصام بينهما بكل هذا التنكّر والتستّر والأساليب والمزاعم التي تضلّ وتعجز وتختلف فيها التفاسير.!

إنه لا يوجد طاغية مستعبد بكل أساليب وتفاسير ونيات وقسوة الاستعباد مثل الحياة في معاملتها للكائن الحي..

وإنه لا مستعبد مقهور مستسلم لكل ذلك مثل الكائن الحي في تقبّله للحياة.. لحياته بلا أي شرط من أي نوع أو بأي صيغة.!

هل وجد أي قبول بلا أي شرط غير قبول الكائن الحي لحياته؟

.. إنه لولا ذلك لكان القتال أو القتل أو الفراق أو الانفصال بينهما أي بين الحياة والكائن

الحي بالسيف لا بالإبرة أو العصي أو السكاكين، وبضربة واحدة لا بضربات متعددة، وفوق عيون الشموس لا تحت السراديب المظلمة، وبتفسير واحد لا بعديد التفاسير.!

إنه لولا ذلك لكانت المقاطعة بينهما كونية عالمية إعلانية لا فردية أو طائفية أو مذهبية أو دينية أو انتمائية أو ثورية أو أخلاقية أو انتحارية أو تفسيرية أو عصيانية أو مرضية نفسية أو عصبية أو عقلية أو أخلاقية أو جسدية.!

إن كل الأحياء خصوم وأعداء ومقاتلون لحياتهم ولكنهم يعبّرون عن ذلك بأساليب جبانة متخفية لأنها أي الحياة قد سحبت منهم كل معاني الشجاعة وتعبيراتها باحتلالها لذواتهم.!

.. هل وجدت أو يمكن أن توجد علاقة بين شيئين يجب ألّا توجد وإذا وجدت وجب بترها بضربة واحدة مثل العلاقة بين الحياة والكائن الحي أي في كل مستوياتهما وأطوارهما بل ولا يجب ذلك مثلما يجب في أطوارهما ومستوياتهما العليا؟ إن حلول الحياة في الذات يساوي إشعال وتسعير كل الحرائق في مادة قابلة للاحتراق أو في ذات مكوّنة من اللّحم والشحم والعظم والأعصاب، ولا إطفاء لهذه الحرائق إلّا بطرد الحياة.!

.. ماذا لو حدّق الأحياء في حياتهم وقرؤوها وفسّروها وحاسبوها وحاكموها.. لو حدقوا فيها بداية ونهاية.. مجيئاً وذهاباً.. أخذاً وعطاء.. قوة وضعفاً.. سعادة وشقاء.. ضحكاً وبكاءً.. جلوساً فوق العرش والسرير وانطراحاً داخل الكفن والقبر؟

.. لو حدّقوا وفكّروا فيها فكرة وعبثاً، حافزاً وهدفاً، خطة وإخراجاً، صعوداً وهبوطاً، كرامة ونذالة، نظافة وتلوّثاً، شرفاً ولؤماً؟ لو حدّقوا فيها بشيء من عيونهم أو عقولهم أو ضمائرهم أو قلوبهم أو أخلاقهم أو بشيء من الشهامة أو الكرامة أو النظافة أو الشجاعة أو الاستحياء أو الكبرياء.؟

.. نعم، ماذا لو فعل ذلك الآلهة أو أعوان الآلهة أو الأنبياء أو الملائكة أو القادة أو الزعماء أو العلماء أو العباقرة أو أصغر وأضعف الناس أو كل الناس، أو لو فعلته الحيوانات والحشرات والكائنات الأخرى التي هي أصغر وأخفى؟

ماذا لو أن أحد هؤلاء أو كل هؤلاء قد فعل ذلك أي حدّق وفكّر في كل ذلك وقرأه وفسّره وحاسبه وحاكمه وكانت حياته لم تذل وتستعبد كل معانيه وتصبها بكل العمى والتبلّد وبكل إرادة وطاقة الاستسلام؟ هل يمكن حينئذٍ أن يجيء أو أن يبقى إن جاء أحد منهم أو أن ينظر إلى نفسه أو أن يترك أو يقبل أن ينظر إليه أحد أو أن يقول: أنا، أنا، أو أن يعتقد أو يعترف أو يعلن أنه موجود، موجود؟

هل يقبل أي كائن أو أعظم كائن أو إنسان أن يقول أنا موجود لو رأى ذاته ذات ذبابة مع أنه في ذاته التي ليست ذات ذبابة أكثر إثماً وفحشاً وعذاباً وهواناً وعاراً من أية ذبابة.!؟

كيف لم يحدّق واحد من هؤلاء ولو في واحدة من عطايا ووظائف الحياة والأحياء، ولو في استفراغ فضلات الطعام في ذلك المكان بذلك الأسلوب المحكوم بذلك الإقعاء الذليل الراكع الهارب من كل العيون.!

.. ولو في الإلقاء بالجباه في التراب والارتفاع بالأعجاز إلى السماء إلى الإله تقبيلاً ومعانقة ومصافحة له.. ولو في استفراغ القيء الجنسي بتلك التعابير والتفاسير والشهقات والنهقات التي لا بدّ أن تصيب الإله بكل الصمم والخرس والغثيان أي إن كان إلهاً لا جماداً.!

ولو في أنات وتضرعات وزفرات ودموع وركوع وسجود من يعدّون أعظم الأبطال الأقوياء الكبراء المتكبرين الرافضين المتحدين، أي تحت قسوة وإملاء الألم أو الخوف أو الهوان أو الضعف أو المرض أو الجوع أو الهزيمة أو الحزن أو التعذيب والعذاب أو الاحتياج أو التملّق أو النفاق أو الكذب أو الخداع، كائن يبكي ويتضرّع ويركع ويسجد استجداء أو استرحاماً أو خوفاً واستسلاماً ولو استعداداً هل يمكن أن يكون له ما يرضى أو يقبل أو يغفر ثمناً لذلك؟

.. كيف لم يعرف كل الأحياء وأبلد الأحياء أن الحياة هي كل ما يذل ويهين ويقهر ويفضح ويهزم ويشوّه ويخيف ويخجل ويحزن ويجيع ويحوج ويمرض ويقعد ويقتل ويعذب، وأنه لا شيء من ذلك بلا حياة أو من غير الحياة. وأن الحياة كل ذلك، وأنه لا شيء من ذلك لولا الحياة.. نعم، وأن الحياة كل ذلك وكل التوقّع الدائم لكل ذلك.!

.. كيف لم يعرف كل ذلك كل الأحياء حتى الإله لم يعرفه؟

كيف لم يعرف الإله أنه أعظم الخاسرين والمعذبين المعاقبين بالحياة.. بحياته وبكل حياة.. بحياته وحياة أنبيائه وأوليائه بل وبحياة كل أعدائه؟ إن خسران جميع الخاسرين بحياتهم لن يساوي شيئاً من خسران الإله بحياته؟ فكيف وهو الخاسر المعذب المعاقب بحياة كل حي وليس بحياته فقط؟

.. كيف لم يعلم ويعرف أنه أي الإله هو كل الخاسرين والمعذبين والمعاقبين، بل والمشوّهين المشتومين المتهمين بكل ذلك أي بحياته وبحياة كل حي حتى بحياة القملة والنملة والصرصار والبرغوث؟

الإله معاقب معذب مشوّه بكل حياة، إذن هل يوجد مثله معذباً معاقباً مشوّهاً؟

.. من سحب من الإله كل مستويات ومقادير الذكاء والفهم والرؤية والغضب والغيظ والاستحياء والاشمئزاز والكرامة والكبرياء، أي سلوكاً لا قولاً؟ من سحب منك يا إلهي كل ذلك؟ كيف لم يوجد من يهبك شيئاً من ذلك؟

نعم، يا إلهي أليس مجيئك حياً وتقبلك لمجيئك كذلك وأيضاً تقبلك لأن تخلق أو لأن يجيء أي شيء حياً ـ أليس ذلك يعني حتماً أن كل هذه المعاني قد سحبت منك أو ماتت فيك، حذار يا إلهي أن تنكر ذلك أو تجادل فيه.!

.. ولكن كيف أتعجب من عجز الإله عن فهم ما لا يستطاع العجز عن فهمه؟

أليس التعجّب أو أقسى وأقوى التعجب في أن يفهم الإله أو يستطيع أن يفهم ما لا يستطاع العجز عن فهمه؟

.. الإله فهم ما لا يمكن العجز عن فهمه.!

هل يوجد أو يمكن أن يوجد خروج على كل التجارب والاحتمالات والتوقّعات والمنطق بكل تفاسيره مثل هذا الخروج؟ أليس عجز الإله عن أن يفهم وعن أن يفعل هو الذي أبقاه وأبقى هذا الوجود كما نجده؟ هل كان يمكن أن يبقى هو أي الإله أو أي شيء أو أن يبقى كما هو لو كان يستطيع أن يفهم أو أن يفعل؟

.. الإله الذي عمره أطول من كل الزمان ومن كل تفاسير الزمان ومعانيه، والذي ذاته ووجوده أكبر وأوسع من كل الوجود ومن كل وجود ومن كل تفاسير ومعاني كل وجود.

ـ هذا الإله بكل رؤاه ومواجهاته ومشاهداته ومعاملاته ومصادماته ومحاسباته وبكل أجهزته ويقظته ودقته وحكمته وتجاربه لم يعرف أن كل الآثام والآلام والزندقات والعداوات والعدوان والفضائح والقبائح والنذالات والعفونات والعار والهوان وكل ألوان الخسة ـ لم يعرف أن كل ذلك هو بعض عطايا ووظائف وأخلاق وتفاسير الحياة، وأنه مستحيل أن يوجد شيء من ذلك لولا الحياة أو أن توجد الحياة دون أن يوجد كل ذلك، وأن صانع الحياة هو الصانع لكل ذلك، كما أن صانع الطعام وصانع الجوع إليه هو صانع استفراغ فضلاته ومكان استفراغها.!

.. ولأنه لم يعرف هذه الحقيقة التي تتعذب وتتلوّث بها عيون وأخلاق وثياب ومساكن الحشرات فقد رأى أي هذا الإله أن كل مجده وقوته وسعادته وفرحه وعبقريته وجماله وكبريائه وسخائه بل وتقواه في أن يهب نفسه الحياة لتهب الحياة لكل الكائنات الحية حتى لأضعف وأصغر وأقذر وأذلّ وأشقى هذه الكائنات، ما حساباته حين وهب الحياة لهذه الكائنات البائسة الضائعة المستقذرة المحقرة؟ من خدع الإله ليعاقب نفسه ويعاقب كل من صنعه حياً بالحياة؟

لو كان أي الإله يعرف ذلك أو شيئاً منه إلّا يصبح محتوماً حينئذٍ ألّا يصنع الحياة أو يقبلها إلّا بأذكى وأقسى الشروط وصيغ الاختيار، أي لو كانت الحياة مجداً أو ربحاً يراد ويطلب ويعطى بتفضّل وفرح؟

.. هل كان يمكن حينئذٍ أن يهب الحياة للقملة أو الذبابة أو البرغوث أو للأبالسة بالفرح والإصرار والتكرار والديمومة والنشوة التي بها يهبها لنفسه ولحراسه وأعوانه وأنبيائه وإنسانه؟ كيف لم تمنعه الرحمة أو الحكمة أو الشهامة أو الكرامة أو حتى النظافة من أن يفعل ذلك؟ وكيف لم يعرف أن إعطاءه وإرادته الحياة لهذه الكائنات المشتومة المحقرة المحسوبة قبيحة وضارة ومرفوضة ومهانة والمفرغة المحرومة من كل معنى جيد هما أقسى تحقير وإسقاط للحياة ليصبح ذلك أقسى تحقير وسباب لمن تراد وتوهب له أي الحياة.. ليصبح إعطاؤه وإرادته الحياة لهؤلاء أي لحرّاسه وأعوانه وأنبيائه وإنسانه أقسى تحقير وإهانة وسباب لهم بل ولنفسه حين أراد لها الحياة وأعطاها إياها؟

الإله أراد الحياة لنفسه ولأقرب المقرّبين إليه كما أرادها لكل حي، هل تصدّقون؟

.. كيف لم تعرف يا إلهي ذلك، وكيف لم تخش أن يعرف أولياؤك وأصفياؤك هؤلاء ذلك فيرفضوا هبتك هذه أي فيرفضوا الحياة التي تهبها بكل هذا التهوين والتصغير والتحقير والعبث والهزل بل والسفه والجنون والوحشية؟

كيف لم تخف أن يرد أولياؤك وأنبياؤك إليك الهبة التي تهبها بكل السخاء والشهامة والمن للقملة وللذبابة وللصرصار بنفس المنطق والتفسير والتكرار بل والأسلوب وبنفس الإعجاب بالنفس والرضا عنها؟

كيف استطاعت وتستطيع وقبلت وتقبل يدك يا إلهي أن تنتقل من خلقها للحياة في النبي والملاك إلى خلقها في القملة والذبابة ومن خلقها لها في القملة والذبابة إلى خلقها لها في الملاك والنبي، وكيف قبل الملاك والنبي ذلك؟

كيف لم يحدث ذلك أي كيف لم يرد إليك أنبياؤك وأولياؤك وأصفياؤك بكل الاشمئزاز والغيظ والغضب هبتك هذه أي الحياة الرخيصة المهانة المحقرة بكل التفاسير والحسابات؟ كيف لم يصعقك أو يفزعك أو يفجعك تبلد وهوان هؤلاء الأقربين إليك يا إلهي؟

.. كيف قبل أو يقبل أي نبي أو ولي أو ملاك أن يعانق أو يصافح أو يلمس يدك أو يتقبل من يدك.. يدك التي عانقتها وصافحتها ولمستها وتقبلت منها بكل الديمومة والجهر والافتضاح بل والتعبّد والتمجيد أذلّ وأصغر وأقذر وأجهل كل الكائنات أي التي تزعمها وتعلنها كذلك أنت وكل أوليائك وأصفيائك وأنبيائك وملائكتك كذلك وكل ذلك؟ حتى غسل يديك إن أحبابك هؤلاء لم يشترطوا عليك غسلهما بعد أن خلقت بهما هذه الكائنات الحشرية قبل أن تخلقهم هم بهما. حتى هذا الاشتراط لم يفطنوا إليه.!

.. انقذني يا إلهي من التحديق والتفكير فيك ومن التفسير والمحاسبة ومحاولة الفهم لك، انقذني من التعامل معك ومن محاسبتك بالرؤية أو بالعقل والفكر أو بالقلب والضمير أو بالأخلاق.! انقذني من ذلك رحمة أو شهامة أو كرامة أو توبة من العدوان ومن شهوة التعذيب ورؤية المعذبين.!

.. إنه لا عذاب ولا انفجاع مثل عذابي وانفجاعي بهذا التحديق والتفكير والتفسير والمحاسبة والمحاولة، هل عرفت هذا؟ هل عرفته؟ هل عرفته دون أن تحاول التراجع أو التكفير عن خطيئتك القبيحة الكبرى؟

.. لماذا يا إلهي حميت كل أحد.. حميت كل أنبيائك وأوليائك وأصفيائك وحراسك وخدمك من كل ذلك أي من كل التحديق والتفكير فيك ومن محاولة فهمك وتفسيرك ومحاسبتك ومحاكمتك إنقاذاً وحماية لهم من أهوال العذاب والانفجاع والغيظ والغضب والاشمئزاز والاستنكار ولم تحاول أن تحميني أنا من ذلك؟ لماذا؟ هل جربت كل شيء باحثاً عن السعادة والفرح والمجد لك فلم تجد شيئاً من ذلك يرضيك أو يكفيك أو يشبع بداوتك الجائعة أبداً إلى ما لا يعقل أو يقبل أو يرضى أو حتى يغفر ـ فلم تجد شيئاً من ذلك إلّا في كل هذا الترويع والتعذيب والفجيعة لي؟

ألا توجد منظمة أو محكمة كونية إلهية لكي أحاكمك وأحاسبك لديها أو حتى أشكوك إليها يا إلهي؟

ماذا يمكن أن تحكم به عليك يا إلهي هذه المنظمة أو المحكمة لو وجدت تكفيراً وتعويضاً لي عما أوقعت بي من الترويع والتفجيع والتعذيب وعقاباً لك على ذلك؟

هل تجد حينئذٍ أي هذه المنظمة أو المحكمة في كل ملكوتك وجبروتك ما قد يكفي ليكون هذا التكفير والتعويض أو هذا العقاب؟ حتى تنازلك عن ألوهيتك ونزولك من فوق عرشك هل يكفي ليكون هذا التكفير والتعويض والعقاب؟ هل يكفي أن تتنازل عن كل أملاكك لتكون التعويض والتكفير الواجبين؟

.. ولكن يا إلهي لماذا وجدت وتوجد المحاكم لمحاكمة العبيد المخلوقين العاجزين الضعفاء الصغار ولمحاكمة المتهمين بأصغر الأخطاء والخطايا دون أن توجد أية محكمة لمحاكمة الآلهة والخالقين والقادرين والأقوياء والكبار والفاعلين لأكبر الأخطاء والخطايا ولكل الأخطاء والخطايا ولكل شيء.. لمحاكمة المريدين والمخططين والخالقين المسيرين لكل من يتهمون ويحاكمون ويعاقبون؟

كيف يحاكم ويعاقب من جرح أو ضرب طفلاً أو شيخاً أو أغرق أو أحرق أو سرق أو هدم كوخاً أو خيمة ولا يحاكم بل ويشكر ويحمد ويعبد من قطع وفقأ أعضاء وعيون كل الأطفال والشيوخ وكل واحد وكل كائن وأغرق وأحرق وسرق وهدم كل البيوت والمدن والحقول وكل شيء ومن يظل أبداً يفعل ذلك ويباهي بفعله ويطالب بشكره على فعله؟

.. كيف يحاكم ويعاقب من قتل حيواناً ولو خطأ يملكه إنسان ولا يحاكم بل ويمجّد ويصلى له وتسجد له الجباه والعقول والأخلاق من قتل ويقتل كل الناس وكل الكائنات الحية ومن يشوّه ويقعد ويعجز كل الوجوه والأعضاء والأجسام ساحباً منها كل قدرتها وحماسها ونشاطها وفرحها وجمالها وسحرها بل وذكائها وعقولها وذاكراتها وأشواقها ومرحها ـ من فعل ويفعل كل ذلك مدبّراً مريداً متعمّداً بلا اضطرار أو جهل أو خطأ أو عجز أو ثأر.. من حول ويحول كل جمال إلى تشوّه ودمامة وكل قدرة إلى عجز وكل شموخ وانتصاب إلى انحناء وانحدار وكل عين إلى ظلام؟

.. كيف يحاسب أو يعاتب أو يلام من رأى أو سمع أو عرف غريقاً أو تائهاً أو ضالاً أو معرضاً مهدداً بأي خطر مستغيثاً طالباً الإنقاذ والمساعدة وكان قادراً أن يفعل ثم لم يفعل أي شيء مما يستطيعه ثم لا يحاسب أو يعاتب أو يلام من يرى ويسمع ويعرف كل الغرقى والتائهين والضالين والمهددين بكل الأخطار والآلام كل الأوقات دون أن يفعل أي شيء للإنقاذ أو للمساعدة وهو قادر قدرة مطلقة بل وهو الموقع بهم كل ما يواجهون ويقاسون..

بل ثم تنزل كل الكتب المقدسة ويرسل كل الأنبياء للتحدث عن رحمة وحكمة ونخوة وجمال وحب ورعاية واستجابة وإغاثة هذا الكائن لكل المعذبين والخائفين والمستغيثين بل ولكل الصامتين؟ وهل وجد هذا الكائن أو هل يقبل أن يوجد؟ هل يوجد محقر لنفسه ولهذا الكائن مثل من أعلن أو زعم وجوده؟

⊛ ⊛ ⊛

كيف حدث هذا؟ من أراده ودبره وفعله؟ هل أردته ودبّرته وفعلته أنت يا إلهي أي هذا الواقع أو النظام الذي يحاسب ويحاكم ويعاقب هؤلاء دون أن يحاسب أو يحاكم أو يعاقب هذا الكائن؟

.. هل كل شيء في هذا الكون وفي كل شيء خارج على كل العقل والعدل والذكاء والجمال وعلى كل الحسابات؟ ومن الذي أراد ودبّر وصنع هذا الخروج؟ هل هذا الخروج على كل هذه المعاني والتفاسير هو الذي أراد وصاغ وجود هذا الوجود وكل وجود وتقبل وجوده وبقاءه وأذن به. وأنه لولا هذا الخروج لما وجد أو بقي شيء؟ من وضع عقل وأخلاق وقوانين وصيغ كل شيء؟ وهل يقبل أي كائن أن يكون الواضع لذلك أو لأي شيء منه مهما كانت أميته ومواهبه وبداوته العقلية والأخلاقية والفنية والقانونية؟ هل يقبل أي عامل يدوي أن يكون صائغ هذا الوجود بكل صيغه وأخلاقه وتفاسيره ومنطقه وقوانينه مهما كان جهله وعجزه وقبحه ووحشيته ووقاحته؟

❀ ❀ ❀

.. أرجو ألا يكون من التكرار الخارج على الالتزام بحقوق الكلمة والكتابة وبشروطهما وذكائهما أن أقول: كيف لم تعرف يا إلهي أنه لولا الحياة.. حياتك وحياة من وهبتهم الحياة أو عاقبتهم بها لما كفر بك ولما عصيت أو اتهمت أو أحرجت أو شتمت أو حقّرت أو هزمت أو استفرغت كل الوقاحات والدمامات والبذاءات والفضائح والأوحال في عينيك وأذنيك وعلى تاجك وعرشك، ولما قاسيت من الغيظ والغضب والحسرة والانفجاع ومن كل المشاعر الأليمة الحزينة الباكية المهزومة المعذبة بكل مواجهاتها وتجاربها المضادة والمؤذية لكل تمنياتها ومسرّاتها؟

إذن هل يمكن تصوّر خاسر بالحياة ومن الحياة.. حياتك وكل حياة مثلك يا إلهي؟ هل كل اهتماماتك ومحاولاتك وحساباتك ووظائفك يا إلهي أن تفعل كل ما يصنع لك العذاب والغيظ والتحقير؟

.. هل أطالبك أن تفهم هذا الذي أقول لك يا إلهي؟ هل أنت يا إلهي بلا مثيل في تحقيرك وتعذيبك وإذلالك وهجائك وفضحك لنفسك وفي إرادتك وتدبيرك لكل ذلك.. لفعلك وإيقاعك كل ذلك بنفسك؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد خارج على نفسه ومعذّب لها مثلك يا إلهي؟

.. هل يمكن إذن تفسيرك أو فهمك أو تقبّلك نفسياً أو عقلياً أو علمياً أو أخلاقياً؟ ألست إبطالاً بكل معانيك لكل المعاني.. لمعاني كل شيء؟ ألست يا إلهي هزيمة وتكذيباً وإهانة لكل التفاسير والعلوم والأخلاق والقوانين المعروفة وغير المعروفة؟

إن جميع الخارجين على كل شيء جيد ومعقول ومقبول ومغفور ومحترم بل ومحتمل لن يساووك في خرجة واحدة من خرجاتك على كل ذلك، كيف لم يفطن إلى ذلك ويفجع به أحد من العاملين معك والمتعاملين بك ولك؟ كيف سحبت منهم كل معانيهم؟

.. أنت يا إلهي وكل أنبيائك وأوليائك ووكلائك وكل البشر أقويائهم وضعفائهم تحاكمون وتعاقبون كل المخطئين الذين أريدوا ودبّروا وخطّطوا مخطئين ولكي يكونوا مخطئين وعاجزين عن أن يكونوا غير مخطئين، بل وتشرّعون لهؤلاء هذه المحاكمات والمحاسبات والعقاب، ثم لا تحاكمون أو

تحاسبون أو تعاقبون من خلقوا هؤلاء المخطئين مخطئين وأرادوهم مخطئين وحاصروهم بكل ما يجعلهم حتماً مخطئين وعاجزين عن أن يكونوا غير مخطئين؟ أليس كل من يفعل الخطأ أو الخطيئة يفعلها لضعف وعجز في معانيه أو في جسده؟ وقد خلق وخطط ليكون كذلك.

.. هل كل التفسير لذلك في منطقك ومنطق كونك ومنطق كل أعوانك ودعاتك وفي منطق كل شيء أن المحاكمات والمحاسبات والعقوبات إنما أريدت وشرّعت لتكون عقاباً للضعف والعجز وللضعفاء والعاجزين لا للأخطاء والخطايا ولا للمخطئين والخاطئين.. لا للأخطاء والخطايا الكبيرة ولا للمخطئين والخاطئين الأقوياء القادرين الكبار الخالقين للمخطئين والخاطئين الصغار الضعفاء المرادين والمخططين ليكونوا بالحتم وبالعجز الذاتي خاطئين مخطئين..

.. لتكون أي المحاكمات والمحاسبات والعقوبات قوة ومجداً وسلطاناً وسلاحاً بل وتقوى ومديحاً لهؤلاء الخاطئين المخطئين الكبار الأقوياء القادرين المريدين المخططين لإيجاد كل الأخطاء والخطايا بإيجادهم بالإرادة والتدبير والتخطيط لمن لا بد أن يصبحوا ويزعموا ويروا مخطئين وخاطئين وموقعين أخطاءهم وخطاياهم بأنفسهم لا بمن أرادوهم وصاغوهم مخطئين وخاطئين أو يرون ويبدون كذلك.. لا بمن يحاكمونهم ويحاسبونهم ويعاقبونهم على ما فعلوه هم بهم؟

أليس مخطط الشيء وخالقه هو الخالق لكل معانيه وطاقاته وأخلاقه؟ أليس خالق العين هو خالق رؤيتها ولونها وخالق العقل هو خالق ذكائه وغبائه وخالق العضلات هو خالق قوتها وضعفها وخالق الجسد هو خالق عضلاته؟ هل هذا التفسير هو كل التفسير لهذه القضية أي إن المحاكمات والمحاسبات شرّعت وأريدت لتكون عقاباً للضعفاء لا إرادة أو تحقيقاً للعدالة؟

.. كيف أمكن أن يحدث هذا أعني أن يحاكم ويحاسب ويعاقب من أريد وخطط وخلق وصيغ مخطئاً خاطئاً أي ليكون كذلك، ولا يحاكم أو يحاسب أو يعاقب من أراد وخطط وخلق وصاغ كل الخاطئين والمخطئين وأن يكون المحاكم المحاسب المعاقب هو هذا المريد المخطط الخالق الصائغ؟

كيف حدث أن يعاقب المفعول والمفعول به ولا يعاقب الفاعل له والفاعل به؟

كيف يكون الخط أو التخطيط أو المغزول المنسوج أو التفكير الرديء هو الفاعل لرداءته والمسؤول عنها الملوم أو المعاقب عليها أو المتهم بها ويكون المخطط الخاط الغازل الناسج المفكر هو التقي العبقري البريء المستحق لكل المجد والتمجيد بل وأن يكون هو اللائم المتهم المحقّر الشاتم لخطه وتخطيطه وغزله ونسجه ولأفكاره؟ كيف تكون القملة أو الذبابة معاقبة على ضعفها وهوانها ويكون معاقبها صانعها؟

.. كيف تكون أخطاء وعيوب الصنعة أو الصناعة الرديئة القبيحة منها لا من صانعها وفيها لا في صانعها؟ كيف وجد من يقول ويرى ويعلم ذلك وهل وجد؟

.. كيف يحاكم أو يعاقب أو يلعن أو يلوم الصانع صناعته أو صنعته على عيوبها وأخطائها

متهماً ومحقراً ولاعناً لها على ما فيها من أخطاء وعيوب بل وأن يؤلف الكتب وينزّل التعاليم ويأجر ويوظف الدعاة ليتحدثوا عن ذلك ويعلموه ويؤكدوه؟

وهل وجد هذا الصانع أو مثل هذا الصانع أو هل يمكن أن يوجد؟ نعم، لقد وجد، وجد ليكون أكبر من الكون ومن كل شيء.!

لقد قال كل الأنبياء والأتقياء والمعلمين للعقول والقلوب والضمائر والأخلاق كل رؤاها ونبضها وأشواقها وحبها وتفاسيرها وأخلاقها وتقواها.

ـ لقد قال كل هؤلاء: نعم، لقد وجد هذا الصانع، بل لقد وجد ليكون وجوده كل وجود وكل تفاسير ومعاني ومجد كل وجود وموجود وليكون بقاؤه وديمومته هما بقاء وديمومة كل بقاء وكل ديمومة وكل باقٍ ودائم.! لقد قال كل الرواة عنك ذلك. إذن كل الفضاحين والمشوهين هل يساوون الرواة عنك في فضحهم وتشويههم لك يا إلهي؟

.. كيف أمكن أن يعاقب أو يلام أو يذم الوجه الدميم على دمامته أو العقل البليد على بلادته أو الجسد الضعيف العاجز على ضعفه وعجزه، ولا يعاقب أو يلام أو يذم من أراد ودبّر وخطّط وزرع هذه الدمامة وهذه البلادة وهذا الضعف والعجز في هذا الوجه وفي هذا العقل وفي هذا الجسد بحساب وتصميم حاسم دقيق لا يمكن التراجع عنه أو الخطأ فيه؟ وهل حدث هذا؟ لقد حدث..!

.. لتسألوا كل النبوات والسموات والكتب المقدسة المنزلة المقروءة في كل المحاريب ومن فوق كل المنابر لتعلموا أن كل ذلك قد حدث بل لتعلموا أن ذلك هو كل ما حدث ويحدث، ولتعلموا أيضاً منهم أنهم لم يستنكروه أو يفجعوا به أو حتى يتساءلوا: كيف حدث.!

.. إن محاكمة ومعاقبة المخطئين الخاطئين الصغار الذين أريدوا وخططوا وصنعوا كذلك ولكي يكونوا كذلك دون محاكمة ومعاقبة من أرادوهم وخططوهم وصنعوهم كذلك لن تكونا أي هذه المحاكمة والمعاقبة أقل قبحاً أو سفهاً أو جهالة من محاكمة ومعاقبة أصغر وأذلّ وأقذر وأضعف الحشرات على كينونتها هذه دون محاكمة ومعاقبة خالقها وخالق هذا الكون إن وجد هذا الخالق، أو دون محاكمة ومعاقبة الطبيعة التي ولدتها أي ولدت هذه الحشرات وصاغتها وجعلتها كذلك أي لو كانت أو افترضت الطبيعة تفعل بالإرادة والتدبير والتفكير، أي ثم يكون المحاكم المعاقب لها هو هذا الخالق المفترض أو الطبيعة المفترضة واعية مريدة مدبرة فاعلة.!

كذلك لن تكون هذه المحاكمة والمعاقبة أقل جهلاً أو غباءً أو حماقة من أن يحاكم ويعاقب خالق الطبيعة الطبيعة على أخطائها وخطاياها ونقائصها.. على براكينها وزلازلها وأعاصيرها وقحطها وعلى كل عيوبها وآثامها وآلامها وعجزها وضعفها. كيف لم تنزل أية نبوة لتعلن وتعلم أنها لن توجد محاكمة أو معاقبة تساوي في قسوتها وقوتها المحاكمة والمعاقبة التي لا بدّ أن توقعها الحشرات بمن أرادها وخططها وصاغها كذلك؟

.. لعل البشر في كل أطوار كينوناتهم وتاريخهم لم يبتكروا أو يعلموا أو يعتقدوا أو يعيشوا ويعايشوا جهالة فيها كل صيغ وتفاسير كل الخروج على كل معاني العقل والعدل والذكاء والأخلاق

والقوانين وفيها كل معاني الافتضاح وأساليبه وعاره وقبحه مثل جهالتهم هذه التي جعلتهم اعتقاداً وتشريعاً وسلوكاً يحاكمون ويعاقبون بل ويذمون ويلعنون الخاطىء المخطىء الصغير العاجز الذي أريد وخطّط وصيغ خاطئاً مخطئاً ولكي يكون خاطئاً مخطئاً بالحتم الذاتي دون أن يفعلوا أي شيء من ذلك بالكبير القوي القادر الذي أراد ودبّر وصاغ وخطّط وصنع هذا المخطىء الخاطىء الصغير العاجز ليكون خاطئاً مخطئاً صغيراً عاجزاً، بل وينصّبونه أي هذا الكبير القوي القادر ليكون المحاكم المعاقب لهذا الصغير العاجز الخاطىء المخطىء.!

.. ولعلهم أي البشر في كل مراحل ورحلات وجودهم لم يلدوا ويتخلق فيهم أو يستقبلوا أو يعرفوا من جاؤوا إليهم ليعلموهم أضخم وأوقح الجهالات والبلادات والأخطاء والخطايا مثل أنبيائهم وقديسيهم وكل معلميهم الذين جاؤوا إليهم ليعلموهم ويشرّعوا لهم وينفذوا ويرسخوا فيهم هذه المحاكمات والعقوبات ليحاكم ويحاسب ويعاقب بها من فقئت عيناه وقطعت رجلاه لأنه عجز عن الرؤية وعن القفز على قدميه وليشكر ويحمد ويعبد فاقيء العيون وقاطع الأرجل بالإرادة والتدبير والتخطيط والفرح جزاء له على ما أراد ودبّر وخطّط وأحب وفعل.! أليس كل المتحدثين عن السماء يجيئون ليعلموا ويشرّعوا ويقرروا ذلك؟

.. هل هناك مدبّر خبيث لئيم شرير جداً يريد الهبوط بكل معاني الإنسان وبكل صيغه وتفاسيره.. بكل ذكائه وتفكيره وكرامته بل وبكل شرفه ودينه وتقواه وإيمانه وصفاته وبكل أخلاقه؟ هل وجد هذا المدبر الخبيث اللئيم الشرير المعادي للإنسان وبعد تفكير طويل وحاد وحسابات طويلة وحادة لم يعرف أو يجد أي هذا المدبّر الخبيث اللئيم الشرير ما يصنع ويحقق له هذه الشهوة أو الرغبة في الهبوط الشامل بالإنسان إلّا في أن يصنع له الأنبياء والدعاة والمعلمين والقديسين لكي يرسلهم إليه أي يطلقهم عليه.!؟ ما أقساه من إطلاق، ما أقساه.!

نعم، إن هؤلاء إطلاق على الإنسان وليسوا إرسالاً إليه.!

هل أطلق على الإنسان أو أرسل إليه وحوش مفترسة مثل من سموا ويسمّون بالأنبياء وبكل ألوان الدعاة والمعلمين والواعظين الصالحين؟ هل قوتل وقتل الإنسان مثلما قوتل وقتل بهؤلاء؟ كم هي طيبة ونبيلة رحيمة هي الوحوش محاسبة بهؤلاء.!

.. إن الوحوش وأقسى الوحوش وأقوى وأخطر الوحوش قد تفترس بعض الأجسام. إنها لن تفعل أو تستطيع أو تريد أكثر من ذلك.!

إنها تفعل ذلك إذا فعلته بلا منّ أو كبرياء أو امتداح أو تشريع له.!

.. أما الوحوش المسماة أنبياء ومعلمين وقديسين ومصلحين فإنها تفترس وتفسد وتضلّل بل وتقتل وتشوّه وتلعن العقول والقلوب والضمائر والعيون والأخلاق وأيضاً الحياة والأجسام، بل وتزيل وتهدم وتميت وتغرق وتجفف المدن والحقول والمصانع والمعابد والمدارس والبيوت والأنهار والسحاب والابتسام والجمال والحب والفرح والضوء في العيون والوجوه والقلوب والعقول والأخلاق.

– إنها كل العبوس والسباب والبغضاء والقحط والظلام.

ـ إنها تفعل كل ذلك أي هذه الوحوش بالعداوات والانقسامات والأحقاد والحروب التي تعلمها وتدعو وتدفع إليها وتحرض عليها بل وتصنعها وتوقدها مباركة مقدسة مصلية لها.؟

إنها تفعل كل ذلك بكل الامتنان والمباهاة والجهر والدعاية والنزق.!

ما أكذب أو أجهل أو أبلد الإنسان حينما يسمي أو يرى أو يعلن الوحوش المعروفة وحوشاً..

دون أن يرى ويعلن ويسمي ويعتقد آلهته وأنبياءه وكل معلميه وقديسيه وواعظيه كل الوحوش وأقسى وأقبح وأوقح الوحوش، بل ومعتذراً إلى الوحوش لأنه سمى وأعلن وحوشه هذه وحوشاً.. إنها لأقسى إهانة لوحوش الغابة.

.. هل رأى أو عرف أو وجد أو واجه الإنسان غزاة له متوحشين مدمّرين معادين مفسدين مشوّهين مثل من زعموا وسمّوا وأعلنوا أنبياءه ومعلميه وصالحيه وواعظيه ومحبّيه وفدائييه؟ إنه لأقسى وأقبح ظلم لوحوش الغابة أن يسمي الآتون بالنبوات والأديان والتعاليم السماوية وحوشاً.!

.. إن الإنسان في كل وجوده لم يشوّه أو يلعن أو يعاقب بشيء مثلما شوّه ولعن وعوقب بأنبيائه ومعلميه وقديسيه أي وبآلهته أو بإلهه الواحد أي بمجيئهم إليه.!

من أول من خلق أو روى للإنسان آلهته؟ هل للإنسان عدو مثله؟

.. هل جاء إليه هؤلاء وخصّص بهم جزاء أو عقاباً له لتفوّقه على الكائنات الأخرى؟ هل استطاعت أو تستطيع كل الوحوش في كل غاباتها وتاريخها أن تقتل أو تشوّه أو تخيف الأعداد البريئة التي قتلتها وشوّهتها وأخافتها نبوة واحدة بصنعها وتعليمها للعداوات والانقسامات والأحقاد والحروب وبتخليدها لكل ذلك؟

.. أليس قد تقرر أو قيل ويجب أن يتقرر: أن الحياة تعاقب وتشوّه وتهين وتورط وتعذب الكائن بقدر ما يكون عظيماً وكبيراً ومتفوّقاً.. إن الحياة تتحول إلى عقاب وتعذيب وتوريط وافتضاح بقدر ما تكبر وتعظم وتقوى؟

.. أليس مجيء الآلهة والأنبياء والمعلمين والأديان إلى الإنسان أحد الأساليب أو أقوى وأشهر وأشمل وأقسى الأساليب التي تصنعها الحياة المتفوقة لإيقاع كل الآفات به أي بالإنسان عقاباً له على تفوّقه؟ أليس التفوق أبداً عقاباً وعذاباً؟

سلوا الإله كيف يعذبه ويعاقبه تفوّقه. سلوه، سلوه.!

.. لعل الحياة لم تجد شيئاً تعاقب به تفوّقها في الإنسان مثل أن تصيبه وتخصّه بالألوهيات والنبوات وبالتعاليم والكتب السماوية المقدسة لأنها لم تجد أو حتى تتصور عقاباً يساوي هذا العقاب في قسوته وشموله وخلوده وقبحه وأيضاً في بلادته ووقاحته وفظاعة نتائجه. إن كل شيء لو تجمع ليصنع أقسى عقاب للإنسان لما وجد مثل عقابه بذلك أي بالألوهيات والنبوات والأديان وكتبها وتعاليمها.!

.. إذن أليس حتماً على الإنسان بل وعلى كل كائن حي أن يتوقع بأن يواجه ويعاني ما هو

أقسى وأقبح بقدر ما تتصاعد وتتعاظم حياته لأن العقاب والعذاب هما أبداً بقدر تعاظم وتصاعد الحياة كما قرّر وكما أرجو أن يكون قد فهم؟

لهذا أليس عقاب الإله وعذابه هما أكبر وأقسى من كل العقاب والعذاب لو اجتمعا أو جمعا في ذات واحدة لأن حياة الإله هي أكبر وأقوى من كل صيغ الحياة متجمعة في ذات واحدة حية أي لو تجمعت في ذات واحدة حية؟

أليست الحياة صديقاً مضاداً أو صديقاً معادياً أو عدواً مصادقاً لأنها بقدر ما تجيء وتهب تعاقب وتضرب وتعذب لأنها لا تصافح وتعانق وتعطي إلّا بنيات اللاطم الشاتم المسترد والآخذ؟

❀ ❀ ❀

.. إذن لتتعاظم وتتصاعد حياتك أيها الإنسان وحياة كل كائن حي في كل صيغها وتفاسيرها، ولكن لا تنتظر أي مزيد من الفرح أو الراحة أو السعادة أو الأمان، بل أو حتى من المعرفة الواهبة للاطمئنان أو الرضا أو الثقة بما هو كائن أو بما سوف يكون أو بما لن يكون.. بل انتظر النقيض الحاد العنيف لكل ذلك..! انتظر أن تكون هابطاً وصغيراً ومعذباً ومشوّهاً بقدر ما تكون صاعداً كبيراً سعيداً جميلاً متألقاً.!

.. حتى المعرفة إنها مهما عظمت لن تتحول إلى العطاء المطلوب والمرجو منها والمفترض فيها، بل إنها لا بدّ أن تتحول إلى مزيد من القلق والذعر والإرهاب والورطات والشكوك والمشاكل والمصادمات والمناقضات، وإلى مزيد من العجز والتعجيز عن الإقناع والاقتناع بل وعن الرؤية والتفاؤل.! إن المعرفة تأخذ أكثر مما تعطي وتقلق أكثر مما تهب الراحة والأمان، هكذا قالت الحياة.!

.. لقد جاء منطق الحياة وقانونها ضد المنطق والقانون المفترضين بل والمزعومين المعلنين.! لقد جاءت الحياة بلا منطق أو قانون لتصنع قانوناً ومنطقاً هما ضد كل ما يفترض ويطلب من صيغ القانون والمنطق ومن تفاسيرهما.! إن منطق الحياة وقانونها: إننا كلما عرفنا أصبحنا أكثر وأقسى عجزاً عن أن نعرف، وإننا كلما جهلنا أصبحنا أكثر وأشمل معرفة وأقوى اقتناعاً بأننا نعرف. إننا نعرف كل شيء لأننا نجهل كل شيء.!

.. إنه لن يكون خطأ أو مرفوضاً أن يقال: إن الذين لا يعلمون يعلمون، وإن الذين يعلمون لا يعلمون وإن الجاهلين أكثر اطمئناناً ورضا من العارفين.!

.. إننا بقدر ما نعرف نعرف أننا لا نعرف وبقدر ما نجهل نجهل أننا نجهل.!

.. إن المعرفة هي التي تجعلنا نقتنع ونزداد اقتناعاً بأننا لا نعرف مهما عرفنا! كيف نعرف أننا لا نعرف لو كنا لا نعرف؟ وكيف لا نجهل أننا نجهل إذا كنا نجهل أو إذا كنا لا نعرف؟

.. إنها لا وسيلة لأن نعرف أننا نجهل إلّا بأن نعرف، كما لا وسيلة لأن نعرف كل شيء ولأن نقتنع بأننا نعرف كل شيء إلّا بأن نجهل كل شيء.!

هكذا جاء منطق الحياة وسلوكها ولن ينتظر منها أن تتغير أو أن تحاول تغيير أي شيء من منطقها وسلوكها مهما تغيرت كل صيغها ومستوياتها وألوانها وأزيائها ولغاتها.!

لهذا فإنه لا أحد يعلم كل شيء إلّا الإله أو الآلهة والأنبياء، ويجيء بعدهم في معرفة كل شيء كل المتحدثين والراوين عنهم والمفسّرين لهم والمعلمين علومهم أي علوم الآلهة والأنبياء، وقد يكون الراوي عن الآلهة والأنبياء والمفسّر لهم أعلم من أي إله وأي نبي لأن كل الآلهة والأنبياء يتجمعون فيه.!

.. إنهم يعلمون كل شيء لأنهم لا يستطيعون أن يعرفوا أنهم يجهلون أي شيء.! ومن لا يعرفون كيف يجهلون؟ كيف يعرفون أنهم يجهلون؟

نعم، لأن معرفة الجاهل لجهله محتاجة إلى أن يعرف ذلك، ومن لا يعرف أي شيء كيف يستطيع أن يعرف أنه يجهل مهما جهل؟

إن معرفة الجهل نوع من المعرفة، وقد تكون أصعب وأنفع وأنبل أنواع المعرفة.!

لهذا لا بدّ أن تكون معرفة الجاهل لجهله أصعب كثيراً من معرفة العالم العارف لجهله، هل يوجد أصعب من معرفة الإله أو النبي لجهله؟ ومثل الإله والنبي في هذه القضية من يفسّرونهما ويعلمون عنهما.. وأن تكون معرفة العالم العارف لمعرفته أقل وأضعف وأكثر تواضعاً من معرفة الجاهل لمعرفته أي لجهله الذي لا بدّ أن يتحول إلى أقوى معرفة.. إلى معرفة إله أو نبي.! هل وجد أو يوجد مثل الآلهة والأنبياء والمفسّرين لهم عجزاً عن معرفتهم لجهلهم؟.. إن جهّال العالم والتاريخ هم الذين وهبوا ولا يزالون يهبون وسوف يظلّون يهبون العالم والتاريخ أقوى وأشمل وأفدح المعارف والعلوم والتعاليم الجاهلة، أو العالمة لأنها الجاهلة.!

.. إنه لا شيء يثقل ويعوق ويشوّه ويشتم ويضلل الحياة والتاريخ مثل معارف وعلوم وتعاليم الجهّال العلماء أو العلماء جداً لأنهم جهلاء جداً أي الآلهة والأنبياء وكل أصناف وأفواج وأجناس المعلمين لمعارف وعلوم وتعاليم الآلهة والأنبياء أي السماء.!

لقد جاءت معارف وعلوم وتعاليم هؤلاء قوية وشاملة وراسخة خالدة متحدية متكبرة مغرورة محاربة مقاومة رافضة لكل معرفة وعلم وذكاء لأنها كانت جاهلة كل الجهل وأقوى الجهل، ولأنها كانت جاهلة كل هذا الجهل جاءت عالمة وعارفة كل العلم والمعرفة، بل جاءت كل المعرفة وكل العلم والمعلمة لكل المعرفة وكل العلم.!

لأنه لا يعلم ولا يعرف كل العلم والمعرفة إلّا من يجهلون كل الجهل وأشمل الجهل كل معرفة وكل علم. إن الإنسان لم يتعلم أو يعلم أو يعرف أقوى وأتقى وأذكى معارفه وعلومه إلّا من أجهل جهلائه أي إلّا من آلهته وأنبيائه ومن المعلمين والمفسّرين لعلوم آلهته وأنبيائه، هل تصدقون هذا؟ صدقوه مهما وجب ألّا تصدقوه.!

كيف لم يوجد من ينقذون الإنسان من علمائه هؤلاء الجهلاء أو من جهلائه هؤلاء العلماء؟ أليس هذا الإنقاذ هو أعظم وأنفع وأنبل وأتقى وأوجب إنقاذ؟ هل يوجد أو يتصور إنقاذ يساوي

في كل مزاياه ومنافعه أو في شيء منها إنقاذ الإنسان من آلهته وأنبيائه ومن تعاليمهما؟ هل يرجى أو ينتظر أن يوجد هؤلاء المنقذون..؟ إن أبقى وأقوى وأتقى معارف الإنسان وعلومه وتعاليمه هي أجهل وأغبى جهالاته وغباواته واعتقاداته أي هي التي يعلمه إياها آلهته وأنبياؤه وأديانه.!

.. إنها هي التي يعلمه إياها أجهل وأغبى جهلائه وأغبيائه.!

هل عرف الإنسان أن أجهل جهلائه هم أعلم وأشهر وأقوى علمائه ومعلميه وأن جهالاتهم المعلمة هي أعلم وأشهر معارفه وعلومه وأقواها سلطاناً وخلوداً؟

.. إن الإنسان لم يعجز عن التداوي أو يرهب التداوي بل أو يقاوم التداوي من أي شيء مثلما عجز عن التداوي ورهب وقاوم التداوي من أخطائه وجهالاته التي استفرغها فيه وعليه أجهل جهلائه وأضعف ضعفائه محولين لها إلى آلهة وأديان ونبوات وكتب مقدسة تعرف وتعلم وتفسر كل شيء لأنها لا تعرف أي شيء ولا تستطيع أن تعرف أنها لا تعرف.!

إن البشر في كل تاريخهم وأطوار وجودهم لم يقاتلوا في أقسى وأطول الحروب بكل أسلحة القتال وبكل الأسلحة الأخرى دفاعاً عن أثقل وأقبح وأقوى القيود والأغلال والسجون والظلمات المستعبدة القاهرة المفسدة المشوهة الفاقئة بل القاتلة لعقولهم وقلوبهم وضمائرهم وأخلاقهم وذكائهم ولكرامتهم وشجاعتهم بل ولعيونهم مثلما قاتلوا دفاعاً عن جهالات وضلالات وأخطاء من زعموهم آلهة وأنبياء وأدياناً وكتباً مقدسة يقرؤها ويعلمها ويفسّرها لهم أجهل وأضعف جهلائهم وضعفائهم، ويجد ويخرج لهم من حروفها الأمية ومن بلاغتها البدوية ومن شتائمها وسفاهاتها وآهاتها وبلاهاتها أخبار وعلوم وأحداث كل ما كان وما سوف يكون وما لن يكون.! تراتيل أمية فيها كل علوم وتفاسير ومنطق وقوانين وأخلاق كل الكون وكل شيء، بل فيها كل أخباره وأسراره وأحداثه بداية ونهاية بالتحديد الزماني والمكاني.!

.. أليست أقوى وأصدق وأعلم أخبار وروايات الآلهة والأنبياء والأديان والكتب المقدسة هي أخبارها وراوياتها بل ورؤيتها لكل ما لم يكن ولكل ما لن يكون وعما لم يكن ولن يكون؟

أليست أعظم عطاياهم العلمية لنا أو كل عطاياهم أن يحولونا إلى قراء ومفسّرين ومنتظرين بل ومخاطبين وعاشقين للنجوم التي لن ترى أو تبزغ بل التي لم توجد ولن توجد، بل ومصلين ومقبلين للحجارة السوداء؟

.. إن كل شيء فضح وتكذيب ورفض لآلهة الإنسان وأنبيائه وللمعلمين بهم وعنهم ولكل ما قالوه وعلموه ورووه وفعلوه.! إنه لم يوجد أو يبق أو يحي أو يعمل أي كائن أو شيء إلّا بالخروج على كل ذلك.!

لقد كان المفروض أنه لو أمكن الانخداع بأي شيء وبكل شيء لما كان ممكناً الانخداع بهؤلاء ولا بما جاؤوا به، بل إن كل حسابات ورؤى وتفاسير المنطق لتقول أو يجب أن تقول: إنه لو كان كل كائن يريد أن يكون منخدعاً مخدوعاً ومطالباً بذلك ساعياً إليه ومصراً عليه لما استطاع أي

كائن مهما حاول وسعى أن يخدع أو ينخدع بواحد منهم أي من الآلهة أو الأنبياء ولا بواحد من المفسّرين والمعلمين لهم وعنهم ولا بشيء مما قالوه أو علموه أو رووه أو حتى فعلوه.!

لقد كان خروجاً على كل الاحتمالات والتفاسير أن يوجد من قد يخدع أو يتخدع بهؤلاء.!

إذن كيف حدث ما لم يكن يمكن تصوّر حدوثه، وحدث بهذه السهولة وبهذا الشمول والإصرار والديمومة، بل ويظل يحدث أبداً بكل هذا الشمول والإصرار والديمومة والسهولة بل والتصاعد؟ لقد هانت بهذا كل تفاسير ودلالات الخديعة والانخداع.!

.. إن كل أحد وكل الأشياء والكائنات أي غير الإنسان لو تحولت إلى أقوى وأذكى وأتقى المفسّرين والمحللين ثم كلفوا بل وظفوا أن يعرفوا أو يعلنوا ويقرروا كيف حدث هذا الذي لم يكن ممكناً تصور حدوثه لولا حدوثه، أي كيف جاء هؤلاء الآلهة والأنبياء ودعاتهم ومفسروهم بكل ما قالوه وعلموه ورووه ـ كيف جاؤوا إلى الإنسان كما جاؤوا، وكيف ذلّ وهان وسجد واستسلم لهم كما فعل بكل هذه السهولة والديمومة والشمول والإصرار بل وبالتصاعد في كل ذلك أي الإنسان.

ـ نعم، إن ذلك لو حدث لكان محتوماً ألا يجد له هؤلاء المفسّرون المحللون أي تفسير أو تحليل لما حدث، بل لفجعوا بما حدث، بل لعجزوا أن يصدقوا أن ما حدث قد حدث، بل لرفضوا أن يعتقدوا أنهم قد وجدوا لئلا يحدث لهم هذا الذي حدث للإنسان أي لئلا يهبطوا إلى الحضيض الذي هبط إليه ذكاء الإنسان وعقله ومنطقه وضميره وأخلاقه ورؤيته وكرامته حين تقبل من زعمهم ودعاهم آلهته وأنبياءه وأديانه وكتبه المقدسة والمفسرين المعلمين لهم ولها ليشوّهوه ويقبّحوه ويجهّلوه ويحقّروه ويستعبدوه كما فعلوا ويفعلون وكما سوف يظلون يفعلون بلا نهاية كما يخشى ويحتمل..

ـ بل ليحوّلوه إلى أوقح وأقبح وأقسى الأعداء والخصوم والمحاربين واللاعنين الكارهين لأنفسهم ولآبائهم وأبنائهم ولأقرب أقربيهم وللإنسانية كلها ولكل شيء ولكل أحد ما لم يكن العبد الجبان المراد المكتوبة المحفوظة شروطه وأوصافه.! هل جاءت الآلهة والنبوات والأديان والكتب المقدسة إلّا لتعلم الكراهة والعداوة.؟؟

.. ولو حاولنا أن نجد تفسيراً لما لا تفسير له فماذا يمكن أن يقول أو أن يكون هذا التفسير، أو ماذا يمكن أن يكون التفسير الذي نعرضه ونفترضه ونتساءل عنه دون أن نجده؟

أليس البحث والتساؤل عن التفاسير دليلاً على قبح ونكر ما يراد تفسيره؟

.. هل يكون التفسير أن الحياة ولا سيما حياة الإنسان وكذا حياة كل من هو في مستوى الإنسان ومن هو أعلى من الإنسان كالإله ومن معه وحوله من سكان السماء.

ـ نعم، إن هذه الحياة مزروعة ومغزولة ومنسوجة ومختارة ومجمعة من كل صيغ وتفاسير وبدايات ونهايات ومعاني القبح والعبث والتعذيب والتوريط والتشويه والإرهاب والتخويف والإهانات المتنوعة الصفات والضربات والجنسيات والتعبيرات والأخلاق؟

.. إنها الترويع والتكليف والانفجاع والإذلال والخسران والاستعباد بلا أي جزاء أو عطاء أو

شكر أو انتظار لشيء من ذلك.. بلا أي شيء يعطى أو ينتظر أو يفهم أو يعقل غير مقاساتها والاستمرار والالتزام والإلزام بمقاساتها.!

.. لهذا ولأسباب وأشياء أخرى فإنها أي هذه الحياة لن تطاق معايشتها أو معاشرتها أو تقبلها بل أو قراءتها أو رؤيتها فكيف التعامل معها أو بها، بل فكيف الرضا أو الفرح أو السعادة أو الإعجاب بها، بل فكيف حمايتها والدفاع عنها وعبادة أو شكر من وهبها أي عاقب بها بأن وهبها؟ لن تطاق ما لم يغط كل قبحها وفضائحها وفواجعها وآثامها وتفاهاتها وعارها بكل الأغطية وأكثف الأغطية؟

.. إذن لا بدّ من تخديرها وتضليلها وخداعها وإسكاتها وإرهاقها بأثقل وأبلد وأقسى وأشمل وأخلد الجهالات والبلادات والضلالات لتلهي وتشغل وتصرف وتعجز بذلك عن رؤيتها أو قراءتها أو محاسبتها أو مساءلتها أو تفسيرها لنفسها ولمن يحياها، وأيضاً لا بدّ من كل ذلك لمن يحيا هذه الحياة لنفس الأسباب وبنفس التفاسير.!

.. لا بدّ من ذلك لكي تستطيع أي هذه الحياة أن تتعامل مع نفسها ويستطيع من يحياها التعامل مع نفسه ولكي يستطيعا أن يتعاملا أحدهما مع الآخر وبه وفيه.!

ولم يكن ممكناً أن توجد هذه الجهالات والضلالات والبلادات التي تستطيع أو يؤمل فيها أن تصنع هذا التخدير والتضليل والخداع والإسكات والإرهاق بكل القسوة والجبروت.

ـ لم يكن ممكناً أو مؤملاً أن توجد بكل شروطها وأوصافها وقوتها وشمولها وطول بقائها إلّا في هذه الألوهيات والنبوات والكتب المقدسة المنزلة من فوق النجوم ووراء النجوم ومن فوق كل شيء وأيضاً من تحت كل شيء.!

.. لهذا كان محتوماً أو معقولاً أن تبتكر الحياة لنفسها ولمن يحياها هذا التخدير والتضليل والخداع والإسكات والشغل والإلهاء والتعويض بل والتنويم والتمويت باختراعها العجيب الشاذ المؤلم الذكي الغبي جداً، بل العبقري جداً في قدرته الفاجعة الفاضحة أي بابتكارها للآلهة والأنبياء والأديان والكتب التي أوحتها الأمية والجهل والعجز والضياع والآلام والمخاوف والاحتلام إلى التعصّب والأحقاد والبغضاء لتتحول إلى محاريب ومنابر وعداوات وخصومات وملاعنات وانقسامات مقدسة، وإلى حروب، حروب تجند لها وتقاتلها وتقاتل فيها كل عضلات كل الآلهة وعقولها وضمائرها وأخلاقها وكبريائها.!

.. هذا أحد التفاسير.. وتفسير آخر..

التفسير الآخر يقول بكل الاقتناع والإصرار والانفجاع: لقد ابتكرت أو اخترعت أو توهّمت وتصوّرت واعتقدت وأعلنت الحياة الآلهة والأنبياء والأديان والكتب المقدسة والمعلمين المفسرين لهم ولها لكي تشوّه وتعذّب وتضلّل وتقبّح نفسها عقاباً لها أي لنفسها على مجيئها وعلى عدوانها وإيذائها وتعذيبها وتوريطها لمن جاءت إليهم واحتلت أجسامهم وذواتهم بكل الوقاحة والبذاءة والوحشية والعدوانية ليصبحوا أحياء لكي يعذّبوا ويشوّهوا ويعاقبوا بكل ما يعاقب ويعذّب ويشوّه به كل كائن

حي..! أجل هل وجد أو هل يمكن أن يوجد أو يتصور عدوان بذيء بليد وقح نذل لئيم مثل مجيء الحياة إلى ذات أو جسد أو شيء هادىء مستريح نائم ساكن مسترخ بريء من كل الخطايا والأخطاء والمخاوف والأحقاد والبغضاء والآلام والآثام والفضائح والعورات لكي تسكنه أو تحتله ليصبح كائناً حياً ليواجه ويمارس ويعامل ويرى ويسمع ويقرأ ويفسّر ويفهم ويتقبّل ويعايش ويعيش ويخوض كل ذلك بكل صيغ وتفاسير الافتضاح والنزق والهوان والإلزام والالتزام والاستسلام، بل ليصبح منتجاً مبتكراً مصدراً لكل هذه العاهات والآفات والقبائح والفضائح مزروعاً فيها مباهياً بها بل مصلياً عابداً هاتفاً لها، مغتسلاً متوضئاً بآثامها وعفوناتها.!

أليس أتقى وأشهر وأدوم الاغتسال والتوضؤ هما الاغتسال والتوضؤ بأقبح العفونات والآثام؟ أليست أعلى سموات التوحيد هي أهبط الهبوط إلى حضيض الوثنية؟

.. فهذا التفسير يقول إن الحياة لم تجد أو تعرف عقاباً جيداً قاسياً ملائماً تعاقب به نفسها جزاء لها على ظلمها وإيذائها وتعذيبها وتوريطها لنفسها لمجيئها ولقبولها أن تجيء وعلى ظلمها وإيذائها وتعذيبها وتوريطها لمن جاءت إليهم ليصبحوا أحياء...

أو تعاقب به الأحياء الذين قبلوها أي الحياة واستقبلوها آتية إليهم ليصبحوا أحياء، لتقاسي وليقاسوا كل التعذيب والترويع لأنها عاشت بهم وفيهم وأصبحوا أحياء بها وفيها، ولو أنهم أي الأحياء رفضوا قبولها واستقبالها لما وجدت، لماتت أي الحياة، وحينئذٍ لن يوجد شيء من هذا التعذيب والترويع والتفجيع والتوريط والقبح والفضح والتشوّهات والأخطاء والخطايا التي تواجهها وتقاسيها وتفتضح وتقبح وتتشوّه وتفجع وتتفجّع بها الحياة وكذلك الأحياء، كل الأحياء، كل الأحياء صعوداً إلى الإله وهبوطاً إلى أردأ وأصغر الحشرات.

ـ نعم، هذا التفسير يقول يقيناً أو احتمالاً، وحرصاً وعجزاً عن المعرفة المستيقنة ـ يقول: إن الحياة لم تستطع أن تجد أو تعرف أو حتى تتصور عقاباً لهذه الجريمة أي لجريمة وجودها ومجيئها وجريمة تقبّلها واستقبالها غير أن تبتكر الآلهة والأنبياء والأديان والكتب المقدسة المنزلة بكل مفسّريهم ومعلميهم وبكل مفسّريها ومعلميها ليكونوا ولتكون كل هذا العقاب بأعلى وأقسى وأشمل وأدوم نماذجه وتفاسيره وأخلاقه ومستوياته.. أليس عقاباً جيداً لا ينافسه في قوته وقسوته أي عقاب آخر! لعل كل تجارب الحياة لم تجد عقاباً يساوي هذا العقاب في المعنى المراد به ومنه!

كيف عجز كل الأحياء حتى الأنبياء والشعراء والعباقرة عن أن يفهموا أن التعذيب والعقاب بالحياة أي بتحويل الكائن الموجود كائناً حياً هو أقسى وأفجع تعذيب وعقاب؟ كيف أمكن ذلك؟

وأيهما أكثر وأقوى تعاملاً وتخاطباً وتفاهماً وتصادقاً مع المنطق بكل أخلاقه ومستوياته وتاريخه: أن يكون هذا العقاب هو عقاب الحياة تعاقب به نفسها وتعاقب به الكائن الحي الذي تقبل مجيئها إليه والذي استقبلها آتية إليه ومحتلة له فاعلة متورطة به، محرّضاً لها على أن تجيء إليه غازية محتلة لتشقى به ويشقى بها بلا علاج إلّا بالفراق، أم أن يكون عقاب الكائن الحي لنفسه وللحياة. لنفسه وللحياة.. للحياة لأنها جاءت إليه، ولنفسه لأنه تقبل مجيئها إليه بل ولأنه استقبلها وحوّلها إلى ضيف

وإلى ساكن في ذاته ليفعل بها وتنفعل به أو لأنه لم يستطع أو يرد رفض مجيئها إليه جهلاً أو جبناً أو لأسباب رديئة أخرى؟

ما أكثر الأسباب الأخرى التي يفسّر بها ما لا تفسير له.!

أليس غزو واحتلال الحياة لأية ذات أو جسد ليصبح محكوماً بالحياة ومحكوماً عليه بها هما أردأ وأقسى أنواع الغزو والاحتلال بل أليسا هما كل الغزو والاحتلال وكل أسباب ومسوغات الغزو والاحتلال وكل الشعور بهما والمقاساة لهما؟

.. إنه لن يكون غزو ولا احتلال ولا غزاة ولا محتلون ولا مهانون أو معذبون بهما أو محتاجون إليهما أو قادرون عليهما.

ـ إنه لن يكون ذلك ولا شيء منه لولا غزو الحياة واحتلالها للذوات والأجسام. إذن كيف لا يعلن عالمياً بل وكونياً أنه لا غزو ولا احتلال لولا غزو الحياة واحتلالها للأجسام؟

.. ثم أليس استسلام الذات والجسد لغزو واحتلال الحياة له هو أقبح وأضعف وأخطر أنواع الاستسلام للغزاة والمحتلين؟ إن تسليم الذات أو الجسد لتحتله الحياة لهو تسليم فيه كل معاني الجبن والعجز والهوان.. إنه لم يوجد ولن يوجد غزو واحتلال فيهما من الآلام والآثام والهوان مثل غزو واحتلال الحياة للأجسام. إن في ذلك كل ذلك، وإنه لا شيء من ذلك لولاهما أي لولا غزو واحتلال الحياة للذوات.!

آه. أين أنا؟ أين أنا الآن؟

هل أجد نفسي، ذاتي.. شيئاً من نفسي وذاتي لكي أقول: اسمعوا، اسمعوا. ولا بدّ أن تفجعوا لو استطعتم أن تسمعوا.!

.. اسمعوا، اسمعوا. هذا الهول، الهول:.. أنا لا أكفر ولم أكفر ولا أعصي أو أخطىء أو أقبح أو أفتضح أو أجبن أو أهون أو أكذب أو أرذل أو أهان أو أهين أو أظلم أو أظلم أو أشوّه أو أتشوّه أو ألوّث أو ألوّث أو أشتم أو أُشتم أو أغضب أو أغيظ الإله أو أجرح أو أحرج أو أخجل أو ألوث عينيه أي عيني الإله أو عقله أو ضميره أو أخلاقه أو كرامته أو كبرياءه أو نظافته أو استحياءه أو وقاره أو تقواه أو شرفه أو هدوءه أو رضاه عن نفسه أو تحديقه في جمال وجهه أو أن أمرض أو أشيخ أو أموت أو أتحول إلى أقبح وأقسى العاهات والتشوّهات والاتهامات واللعنات في وجوه وعيون وأخلاق وعقول وضمائر كل شيء وكل أحد.. كل الألوهيات والنبوات والمؤمنين بها الآتين ليفسّروها ويعلموها ويمجّدوها.. كل الشموس والنجوم والسحاب والحقول والصحارى ـ أنا لا أكون شيئاً من ذلك ولا أستطيع أن أكونه ولا أنوي أو أريد أن أكونه إلّا لأنني أحيا.. إلّا لأني مصاب بالحياة محتل بها، هل عرف ذلك أحد؟ كيف لم يعرفه كل أحد؟ هل يقبل أي كائن أن يكون حياً أو أن يصاب بالحياة أي كائن إن كان قد عرف ذلك؟

.. إذن هل مثل الحياة قبحاً وفضحاً وخطايا وأخطاء وتعذيباً وتشويهاً؟ هل غير الحياة شيء من ذلك؟ هل شيء من الحياة ليس كل ذلك؟

هل شيء غير الحياة يفعل أو يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك أو يقبل أن يفعله أو يحتمل أو يخاف أن يفعله أو أن يتهم بفعله؟

كيف أمكن أن يخفى شيء من ذلك على أحد؟ كيف أغلقت بل قتلت أمام هذه الفاجعة كل العيون والعقول والضمائر والحواس والأحاسيس؟ كيف خفي على الآلهة والأنبياء والأتقياء والأصفياء والأقوياء والعباقرة والشعراء المتعذبين المعذبين بتحديقهم الدائم المحرق المحترق في عيون وأحزان وآلام وتشوّهات وأخطاء وخطايا وفضائح وعار الشموس والنجوم والحشرات وكل الكائنات، وفي قراءتهم وتفاسيرهم لها.. رثاء وانفجاعاً وإشفاقاً ورفضاً وغضباً واستنكاراً وطهارة ونبلاً؟ أليس التحديق الرافض الغاضب المقاوم في الآثام والآلام والتشوّهات والفضائح والأخطاء تقى ونبلاً وطهارة وحباً؟ أليست الرؤية المحاربة تديّناً لم تعرفه السماء؟

.. كيف خفي على كل هؤلاء أو على أحد منهم أنه لا أنبل أو أفضل أو أتقى أو أقوى أو أكثر أو أصدق احتراماً لكل المعاني الجيدة ورفضاً واجتناباً لكل المعاني الرديئة القبيحة البليدة السفيهة من رفض الحياة ومقاومتها بل وأنه لا رفض ولا مقاومة لشيء من هذه المعاني الشريرة الرديئة الأليمة الفاضحة المذلة إلّا بكل هذا الرفض والمقاومة للحياة وأن تقبل الحياة تقبل لكل هذه المعاني المذمومة المشتومة المحرمة في كل التعاليم بل والتزام بها؟

.. كيف لم يسائل نفسه الإله أو أي نبي أو تقي أو شريف أو كريم أو نظيف أو حي القلب أو الضمير أو الخلق أو الرؤية أو العاطفة أو المحاسبة هذه المساءلة ناطقاً أو غير ناطق: لو لم أعاقب بفرض الحياة علي فهل كان ممكناً أن أرى أو أقرأ أو أواجه أو أعايش أو عرف أو أساكن أو أحب أو أعشق أو أريد أو أفعل أو أرضى أو أقبل أو أغفر أي شيء أو نوع من الأخطاء أو الخطايا أو الحماقات أو التفاهات أو القبائح أو الفضائح أو الهوان أو الهزائم أو الآلام أو التحقير أو الاحتقار أو أن أعير أو أتهم بشيء منه أو أن أخاف أو أتوقع أو أنتظر شيئاً من ذلك أو أن أكون مسؤولاً عن شيء من ذلك أو محاسباً عليه أو مفسّراً أو مرثياً أو مذكوراً أو مذكراً به أو مطالباً مرجواً للإنقاذ منه عاجزاً عن هذا الإنقاذ؟

إنه سؤال لا يطاق أو يغفر الصمت عنه كما لا تطاق مواجهته أو التعامل به.!

.. وماذا لو أن هؤلاء أو بعضهم تساءلوا هذا التساؤل؟

ماذا يحتمل أو ينتظر أن يكون جواب من يتساءلون منهم هذا التساؤل.. جوابهم العملي أو الفكري أو الأخلاقي أو العاطفي أو النفسي أو حتى الديني؟ وهل وجد تساؤل ديني؟ وهل يبقى أي دين حينئذٍ؟

إنه لصعب وعذاب أن يجدوا هذا الجواب وإنه لصعب وموت ألا يجدوه.!

.. الإله يحيا حياة ليست حياة كل الأحياء إلّا شيئاً من نبضاتها أو ضحكاتها أو مزحاتها أو بصقاتها أو عطساتها أو سعلاتها أو مداعباتها أو لعباتها وملاعباتها أو قباحاتها أو سخافاتها أو بلاهاتها أو آناتها أو شهقاتها أو استعراضاتها أو تسلياتها وسينمائياتها..!

.. إذن فهو أي الإله لأنه يحيا هذه الحياة يواجه في كل أوقاته ويعايش ويعيش ويساكن ويمارس ويرى ويسمع ويقرأ ويخاطب ويعرف ويعاشر ويصارع ويصادم ويشاتم ويخاصم ويضاجع بل ويعشق ويريد ويخطط ويفعل تحت أقسى الضغوط النفسية والعقلية والأخلاقية كل أوقاته بكل حواسه وأحاسيسه ومعانيه كل هذه الآثام والآلام والآفات بكل صيغها وتفاسيرها وتعبيراتها ولغاتها وصراخها وكبريائها.!

نعم، الإله يحيا هذه الحياة بكل هذه التفاسير والصيغ والمعاني والأهوال.!

.. إذن هل يستطيع خسران كل الأحياء بحياتهم متجمعاً مجتمعاً ومفرّقاً متفرقاً في كل ذوات كل الأحياء وفي كل تاريخهم أن يساوي شيئاً من خسرانه أي خسران الإله بحياته.. بلحظة من لحظات حياته؟

من أراد ودبّر للإله كل هذا الخسران؟ من هو؟ من هو؟

.. كل العار والافتضاح بل والإشفاق والرثاء لهذا الإله ولكل أنبيائه وأوليائه وخبرائه وشعرائه وأصدقائه وحراسه وأعوانه ومدلليه ومفرحيه ولكل خابزي وصانعي خبز وأفيون! فرحه ومرحه وسروره وضحكه ونومه وتخديره وغيبوبته عن نفسه وعن كل شيء.. عن رؤيته لنفسه أو لأي شيء. لكل واضعي كل الأساور في يديه وكل القلائد واللآلىء والجواهر في عنقه وكل العطور في أنفه وفي نسيج عرشه.

- نعم، كل العار والافتضاح والإشفاق والرثاء والبكاء لكل هؤلاء إن كانوا لم يفطنوا إلى هذا الخسران للإله بحياته أو إن كانوا قد فطنوا إليه ثم تقبلوا أن يقاسيه أي تقبلوا أن يحيا أي الإله ويظل حياً ليظل يقاسيه دون أن يرفضوا احتمال بقائه حياً، ولو بنفي ورفض كل معاني الاحتمال أن يكون قد وجد، ولو بمطالبته بالانتحار، ولو بإطلاق كل أسلحة القتل والموت عليه إنقاذاً ورحمة له وبه من هذا الخسران.. من هذا الخسران بحياته.. بكونه موجوداً وموجوداً حياً، وحياً لا يزال حياً وسوف يظل حياً؟

.. الإله وجد ووجد حياً ليظل حياً أبداً ليقاسي كل ذلك، كل مقاساته هذه بلا خلاص أو إنقاذ ولو بالموت أو القتل أو الانتحار أو الهرب أو النفي.!

هل تستطيع كل التصوّرات المصابة بكل البشاعات والمبتكرة لكل البشاعات والمتغذية والسعيدة بكل البشاعات والفظاعات أن تبتكر بل أو تتصور مثل هذه البشاعة والفظاعة؟

❀ ❀ ❀

وهنا بكل الروع والهول والانفجاع لنعرض ونقرأ هذا التصوّر:

نعم، هنا حرب رهيبة تتعامل وتعمل بكل أسلحة التدمير والتحطيم والقتل والتشويه والتعجيز والترويع والتشريد والإذلال والإفقار والتجويع وبكل نيّات وحوافز ذلك..

فاعلة محدثة كل ذلك ومريدة أن تفعله وتحدثه بكل شيء وكل أحد.. بكل المدن والقرى

وبكل ما فيها من بيوت ومعابد ومتاجر وأغذية ومصاحف وتوراة وأناجيل وكتب أخرى دينية وأخرى غير دينية هي أتقى وأصفى وأصدق وأعلم من الكتب الدينية.!

.. بكل الحقول والبساتين بكل ما فيها وعليها حتى من الحيوانات الطيبة البريئة المؤمنة المتدينة بكل الصدق التي لا تدري ولن تدري ما الذي يحدث أو لماذا يحدث ولا لماذا كانت ولا لماذا هي هنا.. آه. الحيوانات، هل وجد أو يمكن أن يوجد أتقى أو أصفى أو أنقى أو أنبل أو حتى أذكى منها أي الذكاء النفسي والسلوكي والأخلاقي بل والديني والإنساني بلا أي كذب أو نفاق؟

.. بكل الشيوخ والأطفال والنساء والرجال والمرضى والمشوّهين والعاجزين والمقعدين والمصلين الراكعين الساجدين القارئين لكتبهم المقدسة.. المتطلعين إلى السماء هاتفين داعين منادين منتظرين لكل آلهتهم: أن تظهر وتحضر، أو أن تفعل غائبة محتجبة عن كل العيون بل وعن كل العقول والقلوب والضمائر والأخلاق.. أن تفعل أي نصر أو هزيمة.. أي هدم أو بناء.. أي عطاء أو منع.. أن تفعل أي شيء بل كل شيء مما يجب ويرجى ويطلب منها أن تفعله.

.. خائفة مستحيية أن تظهر أو ترى، أو مشغولة بالتحدث إلى نفسها وبالتحديق فيها وبمغازلتها وتدليلها وبإرضائها والفرح والإعجاب بها أي بنفسها عن كل أحد وكل شيء.. عن أن تظهر وتحضر أو أن تفكر في ذلك أو تفعل أي شيء مما يطلب ويرجى منها..! هل وجد أو يتصور مشغول عما يجب أن يشغل به مثل الآلهة أو غيرها؟

.. هذه الحرب قائمة ومشتعلة ولا تزال قائمة ومشتعلة بكل فجور وجنون وآثام وأهوال وويلات وجرائم وبغضاء وأحقاد الحروب كل الحروب دون أن توجد أو ترى أو تنتظر أو تعلن أو تعرف أو تُدعى أية حماية عقلية أو أخلاقية أو حضارية أو إنسانية أو حتى دينية أو طبيعية أو إلهية أو سماوية أو فلكية أو من أي كون آخر من خلق أو من عبث ولعب أي آلهة آخرين.

.. دون أن توجد أو تنتظر أية أجهزة إطفاء أو إنقاذ من أي نوع بأي أسلوب أو حتى وعد بشيء من ذلك.

حتى السحاب والشموس والنجوم تطل وتمر فوقها أي فوق هذه الحرب ناظرة آتية ذاهبة عائدة بكل الصمت والبله والبلادة والتبلّد والنذالة دون أن تفعل أو تقول شيئاً أو تغضب أو تحزن أو تحتج أو تكف عن الطلوع والمجيء رفضاً للرؤية والمواجهة وبراءة من الاتهام.. دون أن تحاسب أي الشموس والسحاب والنجوم أو حتى تسائل صانعها: كيف فعل ذلك أو كيف لا يفعل شيئاً لمنعه أي لمنع هذه الحرب.. كيف يطيق رؤيتها ومواجهتها ومعرفة أهوالها حتى ولو رائياً مشاهداً غير فاعل أو مسؤول.. أليس المشاهد الرائي للقبح والسوء بصمت بكل تفاسير الصمت بكل معاني الذات فاعلاً لذلك بأسلوب وتفسير ما؟

.. رهيبة وفاجعة هي بلاهات وبلادات وصمت وهوان واستسلام وجبن وضلال كائنات هذا الكون.. في كل صيغها وتفاسيرها وأخلاقها وتعبيراتها.. رائية ومرئية.. طالعة وغائبة.. متحركة وساكنة

مظلمة ومضيئة.. جميلة ودميمة.. محيية وقاتلة. إنها أي هذه الكائنات لهي في أضخم وأعظم كينوناتها أردأ منها في أصغر وأتفه كينوناتها.!

.. لقد صممت بكل العبقرية الأليمة اللئيمة الشريرة البليدة لتكون هذه الكينونة الصانعة المبدعة الواهبة لكل الانفجاع والغيظ والغضب والعذاب والذعر والهوان والضياع والقبح والعبث..

ولتكون الوالدة الباصقة الموقدة لهذه الحرب المتخلقة المولودة من أعضائها وطاقاتها وأخلاقها وقبحها ووحشيتها والعاملة الضاربة بأعضائها وطاقاتها وأخلاقها وبكل قبحها ووحشيتها وجهالاتها وبلاداتها..!

أليس الخالق خالقاً لمخلوقات مخلوقه، والوالد والداً لأولاد مولوده، والفاعل فاعلاً لأخلاق وأفعال وقدرات وخصائص وسمات مفعوله، والصانع صانعاً لعيوب صنعته؟

❀ ❀ ❀

.. ولكن هل وجدت هذه الحرب؟ وأين وجدت إن كانت قد وجدت؟ وهل وجدت في هذا العالم، في هذا الكون؟

وهل وجدت إن كانت قد وجدت بكل هذه الأوصاف والظروف والأساليب؟

.. إذن أين كان إله هذا الكون إن كانت قد وجدت، وأين كان حين وجدت، وكيف جرؤت أن توجد مهما قيل جواباً عن سؤال أين كان إله هذا الكون حين وجدت؟ فهل يمكن أن تكون قد وجدت وكما وجدت إن كان إله هذا الكون قد وجد؟

.. كيف جرؤت أي هذه الحرب أن تسقط بكل قبحها وفحشها ونذالاتها وجرائمها في عيني الإله أو في ضميره أو عقله أو قلبه أو أن تواجه وتتحدى وتشوّه وتصدم وتشتم أخلاقه وكبرياءه وحنانه وحكمته ورحمته وشهامته، أو أن يزأر أي صوت من أصواتها في أذنيه المهذبتين الغنائيتين الفنانيتين المحترقتين رقة وشاعرية وتقوى وحياً؟ وهل هناك ما تجب له أقوى وأتقى الحراسات مثل أذني الإله وكل حواسه وأحاسيسه.. أو أن تقتحم وتفسد عليه شيئاً من استرخائه وكسله وهدوئه وفرحه ومرحه وخلوته بأعوانه وأخدانه بكل الكبرياء وبكل الرضا عن النفس والإعجاب بها..

.. كيف جرؤ أو يجرؤ أي قبح أو فحش أو لؤم أن يكون موجوداً مرئياً أو مسموعاً أو معروضاً أو مروياً أو معروفاً حيث يمكن أن يراه أو يعرفه أو يسمعه أو يسمع عنه أو يواجهه أو يعايشه أو يقرأه أو يتهم أو يفجع به الإله، أو أن يقال هذا من خلقه أو من تخطيطه وتدبيره وإرادته أو من حكمته ورحمته، أو مما يصنع له الفرح والرضا والسعادة والمجد.! أليس وجود ذلك يعني حتماً أن يقال كل هذا القول أو بعضه؟

.. آه. أين مكان الإله ومكانته من هذه الحرب وما رأيه فيها وما مشاعره بها ولها وإليها وعنها؟

أليس محتوماً أن يكون له أي للإله في هذه الحرب وفي كل شيء مكان ومكانة ورأي ومشاعر وموقف فعلي أو أخلاقي وعاطفي ونفسي ومنطقي أي على حساب أدنى المستويات؟

.. ولكن هل كل محتوم منطقاً وتفكيراً وتفسيراً وأخلاقاً محتوم واقعاً؟ هل كان يمكن أن يكون حينئذٍ قد وجد أي شيء مما وجد أو وجد كما وجد؟

أليس أبعد الأشياء عن الحتمية الواقعية هي الأشياء المحكومة والمقروءة والمفسَّرة بالحتمية المنطقية والعقلية والأخلاقية والتفسيرية أي لو وجدت هذه الحتمية؟

أليس مجيء كل شيء كما جاء قد أفسد كل الحسابات والحتميات العقلية والأخلاقية والجمالية؟

.. لا بدّ أن يكون هنا افتراضان أو تفسيران لموقف ومكان ومكانة الإله من هذه الحرب التي قد ثبت أنها قد وجدت وأنها لا تزال موجودة مشتعلة بكل بشاعاتها وأهوالها وآثامها وجرائمها..!

افتراض أو تفسير يقول إن الإله يريدها أي هذه الحرب ويسعد ويفرح ويتسلى ويتغذى ويتغنى بها وبرؤية ومواجهة آلامها وبشاعاتها وآثامها وإلّا لأطفأها أو وقفها ومنعها.. بل إنه هو مدبّرها ومخططها ومريدها والآمر بها والمحرّض عليها والصانع لكل أسبابها وظروفها وحوافزها والقدرة عليها والإرادة لها وإلّا لما وجدت أو يمكن أن توجد..! الإله يرفض بل يلعن ويمقت هذه الحرب بكل تفاسيره وحساباته.!

أيمكن هذا؟ إذن لماذا لم يمنعها أو يطفئها؟ أعاجز أم مهمل أو مشغول أم كسول أم ماذا؟ إذن هو يريدها بل ويقاتل لكي تكون وتبقى.! وهذا الافتراض أو التفسير للإله في موقفه من قضية هذه الحرب لن يستطيع أي شيء من الحسابات أو الافتراضات أو الرؤى أو حتى من الأماني والتحويمات والدروشات العقلية أو التصورية أو الأخلاقية أو النفسية أو الإنسانية أو حتى الدينية أن يجد غيره مهما حاول وأراد وتمنى وناضل لكي يجد غيره. إن الإله نفسه لو أراد أن يفهم أنه أي هو يرفض وينكر هذه الحرب ثم لا يطفئها أو يمنعها لما استطاع أن يفهم ذلك.!

.. ولكن كم هو فظيع وفاجع وبشع أن يكون هذا الافتراض أو التفسير افتراضاً للإله أو تفسيراً له في هذه القضية أو في أية قضية أخرى..!

بل كم هو بشع وفظيع وفاجع أن يكون افتراضاً في أي كائن آخر أو تفسيراً له. الإله يريد هذه الحرب ويسعد بها ويناضل لتوجد وتبقى.!

من صاغ ذات الإله هذه الصياغة التي لا نموذج لها في القبح والبشاعة والشذوذ؟

.. أما الافتراض أو التفسير الآخر للإله في هذه القضية أي في هذه الحرب فإنه يقول إن الإله بكل الانفجاع والغيظ والغضب والحزم والشهامة والبسالة والاستحياء والكبرياء بل وبكل التقوى والحماس يرفض وينكر ويمقت ويلعن هذه الحرب.. إنه يتعذب ويراع ويهان ويشوّه ويحقّر ويهزم ويشتم بها.. بكل حواسه وأحاسيسه.. من كل آفاقه واتجاهاته والتفاتاته.. إنها إهانة وإذلال وهجاء وتحقير وسباب واتهام وفضيحة وهزيمة وفجيعة بلا حدود بكل المقاييس والتفاسير والحسابات.. إنها كل ذلك بل وأفظع من كل ذلك لكل معانيه..!

.. إنه يقاسي كل ذلك بعديد التفاسير والحسابات..

.. إنه يقاسيه بكل أهواله وبشاعاته وعاره لأنه غريق ومحاصر برؤيته وبقراءته ومواجهته ومعايشته له وبكونه فوقه وفيه ومعه بكل كينوناته ومكانته وزمانه ومكانه. إن كل جثث وجراح وتشوّهات وأنّات وصرخات وضربات هذه الحرب تتساقط فوق ذاته وكل معانيه.! إنه إذن لا عذاب مثل عذابه بكل معاني العذاب ما لم يكن حجراً أي الإله..! ويحق للحجر أن يحاسبنا على ظلمنا له لحسباننا أن تحجره أقسى من تحجر إله هذا الكون!

.. وإنه أيضاً يقاسيه.. يقاسي كل أهوال وآثام ونذالات هذه الحرب لأنه هو موقدها ومخططها ومدبرها والمتهم بها المسؤول عنها والراضي الصامت عنها أو لأنه هكذا يرى أو يجب أن يرى مع أنه يرفضها وينكرها وينهى عنها ويفجع ويتعذب بها..

وأيضاً لأنها أي هذه الحرب تقع في مملكته، في كونه.. في الكون الذي صنعه هو وتوقد وتسلّح وتحرّض بالمواد التي خلقها هو ووضع فيها كل طاقاتها.. كل طاقات الضرب والاشتعال.. وأيضاً لأنه يرفضها وينكرها ولكنه لا يستطيع أن يطفئها أو يمنعها أو لا يريد ذلك أو لا يستطيع أن يريده أو يريده ولكنه لا يستطيع أن ينفّذ إرادته أو يرفض تنفيذها لأن في ذاته قوى ترفض وتقاوم ذلك.. لأن في ذاته قوى متناقضة متصادمة..!

إنه لا شيء يتجمّع فيه كل التناقض والتصادم غير ذات الإله.!

كيف ذلك؟ كيف يمكن فهمه بل أو تصوّره؟

.. كائن كامل في كل معانيه وأخلاقه ونياته ورغباته وحوافزه كمالاً مطلقاً وقادر قدرة مطلقة دون أن يوجد معارضون أو منافسون أو مقاومون أو حتى ناقدون أو مصححون له أو مطالبون بالتصحيح دون أن يخشى أو يحتمل أن يوجد أي شيء من ذلك..

هذا الكائن الفاجع المذل لكل الاحتمالات والتصوّرات والحسابات يريد شيئاً بل يعشقه ويمجّده ويتمناه ويحترق شوقاً إليه وأملاً فيه وانتظاراً لتحقيقه ومجيئه، ويقاسي كل المقاساة تفكيراً وتخطيطاً وتدبيراً وتذلّلاً واحتيالاً وإنفاقاً في إرسال الرسل وإنزال الكتب والأديان والتعاليم والتهاويل وفي تشييد المعابد والمنابر وصياغة اللعنات والتهديدات والعداوات والسفاهات.. لتعليم ذلك الشيء وللأمر به وللدعوة إليه ولتفسير وإعلان مزاياه وعطاياه..

وأيضاً لإعلان وتبيان الأهوال والدمار والفواجع والأضرار التي لا بدّ أن تحل بهذا الكون وبكل كون آخر وبكل ما فيه ومن فيه ما لم يفعل وينتصر ذلك الشيء بل ويتعذب ويهون كل العذاب وكل الهوان أي ذلك الكائن الفاجع المهين الهازم المحقّر لكل الحسابات المنطقية والأخلاقية والفنية ما لم يحدث ويفعل وينتصر أي ذلك الشيء ولأن ذلك الشيء لم يتحقق.. ذلك الشيء الذي من أجله تحوّل ذلك الكائن أي الإله إلى نبي ومعلم وأستاذ وفقيه وواعظ وشاعر وإلى منبر وخطيب وإلى ملاك وشيطان لكي يحرّض على تحقيقه ويغري بتحقيقه وأملاً في تحقيقه.. بل تحوّل إلى متعبّد متخضع

متملّق إلى من يرجوه أن يفعل ذلك الشيء.. إلى راكع على الأبواب يدقها بكل الديمومة والمسكنة مؤملاً الاستجابة.!

.. بل تحوّل أي ذلك الكائن أي الإله إلى مهندس وعامل وبناء ليصنع ما سمّاه فردوساً ليملأه بالغلمان والحوريات والمضاجع المغموسة بكل ما في تصورات الإله وأمانيه وأشواقه من معاني الجنس وصيغه وصوره وتصوّراته وحركاته وبالأشياء الأخرى الملائمة والمحققة لكل صيغ الافتضاح وتفاسيره..!

تحوّل إلى كل ذلك أملاً في أن يكون ذلك الشيء لكي يراه ويسعد ويفرح ويتغذى ويتعزى ويتداوى ويتغنى به.. برؤيته وكينونته ومواجهته ومعايشته ومعاشرته وبالمباهاة به وبعبقريته التي تصورته وأرادته وخططته وصاغته وصنعته وقدرت عليه.. ذلك الشيء الذي لن يجد لوجوده معنى أو ثمناً أو وظيفة لولاه ولولا محاولة تحقيقه..

.. هذا الشيء الذي يحشد هذا الكائن أي الإله كل هذه الحشود بكل هذه المعاناة لكي يكون لا يكون، لا يكون لأن هذا الكائن أي هذا الإله لا يجعله يكون أو يأذن له بأن يكون.. بأن يكون بيديه أو إرادته أو بنياته، ولا بأيدي أو نيات أو إرادات من يطالبهم بأن يفعلوه ويلعنهم ويهددهم بكل العقوبات إن لم يفعلوه.. ولكنه قد يقاتلهم لو خاف أن يفعلوه لئلا يفعلوه.. ولكنه قد يصوغ نفسه وكل شيء صياغات أخرى لئلا يفعلوه لو توقع أن يفعلوه. بل لأن هذا الكائن يصنع ويقيم كل الأسباب والحوافز والنيات والمعوقات والسدود والقيود التي تمنع أن يكون أي هذا الشيء أو أن يريد فعله أو يستطيع فعله من يطالبهم ويكلفهم بفعله..!.. بل إنه قد يصاب بالجنون وبكل الاحتمالات الأخرى الفظيعة لو ظن أنهم قد يفعلون ما يطالبهم أن يفعلوه.!

.. هكذا يجيء تصرفه وتعامله مع الشيء الذي يريده ويطالب به بكل الأساليب والوسائل بل ويتعذب غضباً وغيظاً وشعوراً بالهوان والهزائم إذا لم يتحقق.!

إنها لقضية فاجعة مهينة لكل الحسابات والتفاسير. حتى لقد كان المفروض ألّا يوجد من يستطيع أن يقرأها أو يسمعها أو يتصوّرها فكيف يعقلها أو يقبلها أو يغفرها أو يفسّرها؟

.. أما النقيض أي ما يكرهه ويلعنه ويقاومه تعليماً ووعظاً وتهديداً بكل القسوة والهدير والزئير والتهويل والانزعاج والانفجاع فإنه هو الذي يقع ويدوم ويسيطر دون أن يمنعه أو يضعفه أو حتى يذلّه أو يخيفه أو يحدد زمانه أو مكانه أو سلطانه أو يساعد على شيء من ذلك بل أو لا يساعد ويحرّض ويغري ويغوي لكي يكون كل ذلك أي كل النقيض. إنها لن توجد صيغة أو تتصور صيغة لمعاداة النفس مثل ذلك أي مثل تعامل الإله مع نفسه.!

.. ما التفسير لهذا الذي يجب ألّا يكون له تفسير.. لهذا الذي لا تستطيع كل التفاسير أن تكون شيئاً من تفاسيره أو تقبل أن تكون ذلك.. لهذا الذي لو فسّر لأصبح تفسيره هجاء وإسقاطاً لكل التفاسير؟ من أول من ابتكر التفاسير؟ هل كان مبتكرها مبتكراً أم متحدثاً عن عجزه وحيرته وانفجاعه وضياعه؟

.. كائن قادر قدرة مطلقة في كل معانيه المادية والمعنوية بلا أي منافس أو منازع أو قادر على أن يكون ذلك.. بلا أي احتمال أن تقع ثورة أو انقلاب أو تمرّد لإسقاطه أو لإرهابه أو لإصلاحه أو تصحيحه أو زجره أو لإلزامه بشيء..!

هذا الكائن يريد ويخطط ويدبّر ويصنع كوناً.. يفعل ذلك بكل الحرية والقدرة والبصيرة والذكاء وبكل إرادة ومشاعر الحب للجمال والكمال والعطاء والإسعاد والتفضّل بكل صيغ ذلك وتفاسيره وتعبيراته..

مالئاً كونه هذا بكل الكائنات المختلفة المتفاوتة المتعددة الأجناس والكينونات والصفات والألوان.. مالئاً أي هذا الكائن كونه بكل هذه الكائنات باختيار وتفكير وتدبير وأخلاق وعضلات ونيات وضمير وقلب وعقل..! كائن كامل كمالاً مطلقاً حتى في رؤاه وأشواقه الجمالية والفنية، بل إنه أول مخطط ومعلم ومبتكر لكل شروط وقواعد الجمال والفنون.!

.. ولكن ماذا يحدث وحدث بعد أن صاغ هذا الكائن كونه هذا؟

حدث ويحدث دائماً أن ما يريده من كونه وما يحبه ويحترمه ويسعد ويفرح ويطالب ويأمر به ويتحمل أضخم وأثقل وأغلى التكاليف والوظائف والهموم لكي يكون هو الذي لا يكون بل ويبدع ويحشد كل الأسباب والمعوقات التي تمنع بالحتم كينونته..

أما ما لا يريده أو يحترمه بل ما يتحول إلى أقسى الغيظ والغضب والأسى والهجاء والإهانة والهزيمة والتحقير والتحدي له والعدوان عليه والعصيان لكل أوامره ومطالبه وتعاليمه ونبوانه وأنبيائه ولكل تمنياته وأشواقه ومسراته فهو الذي يكون.. فهو الذي يملأ ويشوّه كونه أبداً ويتفجّر ويتساقط ويتزاحم ويصرخ أبداً في عينيه وأذنيه وقلبه وضميره.. مهيناً شاتماً لقوته وكرامته وشهامته وكبريائه، باصقاً بكل لغات الاستهزاء والتحدي على كل ثيابه وذاته ومعانيه..

باصقاً على كل محاريبه ومنابره وعلى كل حروف ونصوص وصهيل وزئير ونعيب وأنين سور وآيات قرآنه.. محوّلاً كل جيوشه وحشوده واستعداداته إلى أذلّ الجيوش والحشود والاستعدادات.

.. إذن لنعد إلى السؤال.. لنقل ما التفسير لهذا!.. لهذا الكائن أي المسمى والمزعوم إلهاً.. لهذا الذي لن تسخو أو تشفق كل التفاسير لتهبه تفسيراً من تفاسيرها ولن تهون أو تصغر في رؤيتها لنفسها لتقبل أن يكون أحد تفاسيرها أو شيئاً من تفاسيرها. ومع هذا فلا بدّ أن يكون له تفسير بل كل التفاسير وأقوى التفاسير وأكثرها تكاليف وعدواناً على التفاسير..

.. أليس كل شيء لا بدّ أن يكون له تفسير ومفسّرون مهما كان بلا تفسير بل مهما كان رفضاً ونقضاً لكل التفاسير؟

أليس ما لا تفسير له وما لا يمكن أن يكون له تفسير هو أكثر الأشياء تفاسير وأكثرها تعاملاً مع المفسّرين والتفاسير وأكثرها إنفاقاً على تفاسيره وعلى ابتكارها وتعليمها ومعاناة لها؟

.. لهذا أليست الآلهة هي أكثر وأقسى الأشياء والكائنات تفاسير ومفسّرين بل وأقواها وأتقاها تفاسير ومفسّرين؟ هل خسر الإنسان أو تعذّب أو أصيب بالبلادة والبله والضياع مثلما فعل وحدث له

وأصيب به حينما ذهب يفسّر آلهته.. حينما ذهب يتألّق ويتأنّق ويحلّق ويتزاحم ويتشاتم في ابتكار وتجميع وتجميل وتصبيغ وتعطير أنواع التفاسير لها أي لآلهته؟

هل خسر الإنسان عقله أو ذكاءه أو أخلاقه أو صفاءه مثلما خسر كل ذلك في تفسيره لآلهته؟

أليست التفاسير عجزاً ورفضاً واستنكاراً واستبشاعاً وتناقضاً وتصادماً وانفجاعاً بل وتقاتلاً مع الذات ومع الآخرين وليست تفاسير؟ إن التفاسير لبست إلّا رؤية وقراءة للمفسّر وحديثاً عنه من خارجه لا في ذاته ولا لذاته ولا عن ذاته. إنها فيمن يفسّر لا فيما يفسّر.!

.. لهذا أليست أكثر الأشياء احتياجاً إلى التفاسير هي أقبحها وأوقحها وأبلدها وأكثرها خروجاً على كل المعقول والمقبول والذكي والجميل والجيد؟

لهذا كم يجب الأسى والرثاء للإله بل والغضب عليه والانفجاع به لأن البشر كل البشر في كل تاريخهم لم يخسروا أو يتعذبوا أو يقاسوا أو ينفقوا أو يسفهوا في شيء أو من أجل شيء مثلما فعلوا ومثلما حدث لهم في محاولاتهم أن يفسّروه..!

أن يفسّروا ما لا يمكن أن يكون له تفسير وما يتحول تفسيره إلى إسقاط لكل التفاسير..

.. بل إنهم في كل مراحل مسيرتهم الأليمة الضائعة لم يقاسوا من الاختلاف والتعادي والمخاصمات والملاعنات والاتهامات والتباغض والتباهي والمبارزة مثلما قاسوا من كل ذلك في معاركهم الطويلة السخيفة الأليمة لابتكار التفاسير لآلهتهم أو لإلههم الواحد ولتفسير وتوكيد وإعلان ونشر هذه التفاسير وللحديث عنها مقاتلين هذه بهذه ومناصرين لهذه في مقاتلتها ومخاصمتها ومشاتمتها لتلك ولتباهيها عليها، كم كانت قبيحة وسخيفة وفادحة ومهينة تلك المعارك التي خاضها الإنسان مختلفاً متخاصماً متعادياً على تفاسيره لآلهته أو لإلهه.!

.. إذن لنعد إلى السؤال..

ما التفسير للإله في هذه القضية التي تعجز وترفض وتتكبر كل التفاسير مهما رخصت وهانت وتواضعت وصغرت أن تكون تفسيراً لها أي له.. للإله؟

.. أريد أن أعصي كل التفاسير وأعتدي عليها وأخترق كل حدودها وشروطها وكرامتها وذكائها لأقول: قد يكون تفسير الإله في ورطته أو في مأساته أو في فضيحته هذه أن ذاته مؤلفة مجمعة مكوّنة بكل صيغها ومعانيها وتعبيراتها من كل التعارض والتناقض والتصادم والتخاصم بل والتقاتل والتعادي المتحول إلى التمانع بل وإلى العجز والتعجيز.

.. أليس كل ما في الكون وكل ما في كل شيء من تصادم وتناقض وتعارض وتعادٍ وتشاتم بل وتقاتل وتمانع بعض التعبير والتفسير عما في ذات مريده ومخططه وصانعه من ذلك؟

.. إن كل شيء فيه معارض ومناقض ومصادم ومقاوم لكل شيء فيه بل ومقاتل معادٍ منافس له..

.. إن كل قواه ومعانيه ضد كل قواه ومعانيه كما أنها أي كل قواه ومعانيه ضد نفسها. إنها ليست حالة تضاد فقط بل وتعادٍ وتقاتل وتشاتم وتنافس بلا أي مثيل أو نموذج.!

.. إن إرادته ضد إرادته وقوته ضد قوته وحكمته ضد حكمته ورحمته ضد رحمته وعقله ضد عقله وحبه ضد حبه وعدله ضد عدله وضميره ضد ضميره وسخاءه ضد سخائه وإن كل واحدة من هذه ضد الأخرى..

.. إن كل شيء فيه وكل معنى من معانيه ضد وعدو كل شيء فيه، كما أن كل شيء فيه وكل معنى من معانيه ضد نفسه وعدو نفسه ومقاوم معارض مقاتل مخاصم لنفسه.!

إنها لا توجد ولم توجد حرب بكل معاني الحرب وتعبيراتها مثل الحرب في داخل ذاته.!

.. إنه يريد ولا يفعل، ويفعل دون أن يريد، بل إنه يريد دون أن يريد أي ما لا يريد. إنه يريد ضد إرادته كما أنه يفعل ضد إرادته وضد رحمته وشهامته وضد تعاليمه..!

.. وإنه لا يريد ويفعل أي ويفعل ما لا يريد ويفعل ما لا يريد أن يريد وما لا يستطيع أن يريد، كما أنه لا يفعل حين يجب أن يفعل وحين يطلب أن يفعل ويطالب بالفعل وبأن يريد.!

.. إنه يهب الحب لأنه يريد البغض، ويهب البغض لأنه يريد الحب، ويصنع التشوّه والدمامة والضعف والهوان والهزائم لأنه يريد ويحب نقيض ذلك، ويفعل ويريد نقيضه لأنه يريد ويحب نقيضه ويخطط له.! إنه يزرع الدمامة في الوجه لأنه محب للجمال ولأنه يريد أن يزرع كل الجمال في ذلك الوجه الذي زرع فيه كل الدمامة أو حين يجب أن يزرع فيه كل الجمال والصفاء والسرور والحب.!

.. إنه يفعل حين يجب ألّا يفعل وحين تقول الأخلاق والرحمة والشهامة لا تفعل، لا تفعل. وإنه لا يفعل حين يجب أن يفعل وحين تطالبه كل الأخلاق والرحمة والعدل وكل المعاني الجيدة بأن يفعل، يفعل.!

.. إنه يصنع ويهب النصر والقوة والغنى والعزة والمجد حين يريد النقيض وحين يحب النقيض.!

.. وإنه يهب ويصنع النقيض حين يريد وحين يحب ويطلب وينتظر نقيض هذا النقيض.!

لنقرأ هذه النماذج..

إنه يكره ويلعن إبليس ويريد له الهزيمة بل ويطالب بهزيمته.. يطالب من لا يستطيعون هزيمته أن يهزموه..! ولكنه يخلقه ويخلده ويسلطه ويهبه القوة والخلود وكل أسباب وظروف وأسلحة الانتصار بل وكل عبقريات الانتصار وكل أمجاد المنتصر.! إنه يفعل له أي لإبليس من ذلك ما لم يفعله لكل أنبيائه وأوليائه وأحبائه في كل تاريخه.!

.. وإنه يريد لآدم.. للإنسان نقيض ذلك.. نقيض ما أراد لإبليس بل ويتمناه ويسعد ويفرح ويطالب به.. ولكنه يترك نقيض ما يريد هو الذي يحدث بل ويدبر ويساعد على حدوثه بل ويحدثه هو بأساليبه المختلفة القبيحة.!

.. وإنه يطالب عباده بأن يكونوا عباده وحده بكل تفاسير وصيغ العبودية، ويفرض عليهم ذلك.

ولكنهم لا يكونون كذلك لأنه لا يريد لهم أن يكونوا، أو لأنه يريد ولا يريد.. يريد إرادتين متناقضتين أو لأن حكمته وشهوته تعارضان وترفضان وتقاومان إرادته، أو لأنه يريد أن يسعد ويفرح برؤيته ما لا يريد.. لأنه يريد أن يرى نفسه معصياً مهجوراً.!

.. وإنه يعلن ويعلم بكل التباهي والتمجيد للنفس أنه لا يقبل أو يرضى أو يجد سعادته أو مجده أو جماله أو شهامته وكرامته أو تقواه أو عبقريته إلّا إذا كانت كل الكائنات سوية وقوية وجميلة وسعيدة وكاملة الصحة الجسدية والعقلية والنفسية والأخلاقية بلا أي تشوه أو مرض أو عاهة أو عجز أو بلادة أو بله أو جنون أو نقص أو ضعف بأي معنى أو صيغة أو مستوى. إنه ليفسّر نفسه بأنه لا بدّ أن يختار فقده لعينيه على أن يرى أي كائن مصاب بآفة من هذه الآفات.!

.. ولكنه يدبّر ويخطط ويفعل ليوقع كل هذه الآفات بكل الكائنات أو يترك هذه الآفات تصيب كل هذه الكائنات مسترخياً خامداً متبلّداً فوق عرشه ناظراً بكل العجز عن الرؤية أو الانفجاع أو الانزعاج أو الاستحياء وعن أي تفكير لمعاقبة ومحاسبة الذات. إنه لا يمكن تصوّر نظرات تصيب بكل الاشمئزاز والانفجاع لبلادتها وخمولها وعماها وموتها مثل نظرات الجالس فوق هذا الوجود.!

.. وإنه ليحارب ويشرّع الحروب ويأمر بل ويلزم بها بكل أساليبها وأسلحتها كيلا يوجد أو يبقى كافرون أو ضالون أو مفسدون أو جبارون وطغاة، ويطالب بقتلهم وقتالهم إذا وجدوا ويعاقب من لم يفعلوا بهم ذلك. إنه ليفعل ذلك حتى ليظن أنه لا بدّ أن ينزل من فوق عرشه حاملاً كل أسلحة القتال ليقاتلهم إن وجدوا.!

.. ولكنه يذهب بكل الحماس والاهتمام والتدبير والتخطيط بخلقهم قبل أن يكونوا ويجيئوا ليكونوا ويجيئوا، وهو يعلم قبل أن يفعل ذلك أنهم سوف يكونون كذلك.. بل ثم يذهب بعد أن يجيئوا يهبهم كل أسباب القوة والانتصار والإصرار والتكاثر أو يصنع لهم ذلك أو يتركهم يصنعونه لأنفسهم دون أن يقول لهم بحزم أو صدق أو شهامة: قفوا، أو يوجد المناقضين لهم الذين يستطيعون أن يقولوا لهم: قفوا، ويستطيعون أن ينفذوا ما قالوا.. إنه لا يفعل ولا يخلق من يفعلون أي ذلك، هل وجد مقصّر أو عاجز مثله؟

.. وإنه ليقول بكل الديمومة والتكرار بكل أجهزة القول والمنطق: إنه يعمل ويناضل بكل قدراته ومعانيه وأجهزته ليكون راضياً سعيداً مطاعاً محبوباً معبوداً منتصراً واثقاً مطمئناً لا يجد أبداً ما يؤذيه أو يقلقه أو يغضبه أو يغيظه أو يعصيه أو يتحداه أو ما يهين أو يجرح أو يعذب عينيه أو أذنيه أو قلبه أو ضميره أو أشواقه أو تمنياته أو أخلاقه أو عرشه أو ما يضطره إلى أن يكون ضارباً معاقباً منتقماً محارباً محاسباً مهدداً صارخاً متوتراً مشغولاً بالتفكير في التعذيب وفي صياغة وصناعة أساليبه أي التعذيب وأدواته..!

أليس تدبير التعذيب وإرادته وإيقاعه وإنزاله تعذيباً؟

لأنه يجد ويواجه ما يضطره إلى أن يكون كذلك.. إلى ما يجعله أبداً مشغولاً معذباً بتدبير وتخطيط وصناعة العذاب والتعذيب وإيقاعهما.!

.. ولكنه لا يصنع هذه الراحة أو السعادة أو الرضا لنفسه وحياته بل يتعمّد أن يوقع بها أبداً النقيض بقوة وقسوة وديمومة لا يستطيع كل الأعداء وأشرس الأعداء أن يدبّروها ويوقعوها به. إنه لا يمكن تصور عدو لنفسه مؤذٍ معذب لها مثله مثل صاحب هذا الكون. ولكن هل هو كذلك بتعمّد أو بجهل؟ وهل يستطاع أو يقبل تفسيره بهذا أو بهذا؟

❀ ❀ ❀

هل يمكن أن يصدق أحد أن هذا قد يحدث أو أنه هو كل ما يحدث لو أنه هذا الأحد المفترض قد سئل أو تساءل عن ذلك قبل أن يحدث وأن يكون هو كل ما يحدث أو لو أنه أي هذا الأحد المتصور كان يتعامل مع إله آخر وكون آخر غير هذا الكون وغير إلهه؟ إن أي تصور لم يفسد ويشوّه وتسحب منه رؤيته وأخلاقه تحت واقع ما أو تعاليم قادرة على إفساده وتشويهه وسحب وظائفه منه.

لن يستطيع أي مثل هذا التصوّر أن يتصوّر هذا الكون أو إله هذا الكون بأخلاقهما وصيغهما وتفاسيرهما.!

.. شيء مذهل بل فاجع..! كيف جاءت ذات هذا الإله ومعانيه كما جاءت؟

هل جاءت بلا تدبير أو تخطيط أو إرادة؟ وكيف أمكن أن تجيء وأن تجيء كما جاءت بلا تدبير وتخطيط وإرادة؟ كيف استطاعت الفوضى والآلية أن تجيء بكل هذا الهبوط والضعف والقبح؟

وإن كانت قد جاءت بإرادة وتخطيط وتدبير فكيف جاءت أو أمكن أن تجيء هذه الإرادة والتخطيط والتدبير كما جاءت، وكيف جاء أو أمكن أن يجيء صاحب هذه الإرادة والتخطيط والتدبير كما جاء ومن أين جاء ولماذا جاء وجاء كما جاء ولماذا جاء به من جاء به وجاء به كما جاء إن كان أحد قد جاء به، وهذا الأحد المفترض كيف جاء ومن جاء به وجاء به كما جاء إن كان أحد قد جاء به؟

.. هل وجد من فهموا ذلك واقتنعوا به بل هل وجد من تساءلوا أو يتساءلون عنه؟. لماذا يفقد السؤال بقدر ما يكون واجباً ومحتوماً منطقياً أن يجيء؟ هل يكون الهرب من السؤال بقدر قوته وصحته رهبة من مواجهته وعجزاً عنها؟

.. لماذا لم يجيء هذا السؤال، وماذا يمكن أن يكون الجواب لو جاء هذا السؤال القائل: لماذا يقبل ويرضى ويدبّر بل ويفعل صاحب هذا الكون ما يكره وينكر ويلعن وما ينهى عنه وما يراه ويعلنه كل القبح والسّفه والظلم وما يعاقب عليه كل العقاب؟ لماذا؟

ثم لماذا لا يشاء ولا يدبّر ولا يفعل ولا يساعد أن يكون ما يطالب ويأمر به ويحث ويجزي ويعد بالجزاء عليه ويهدد من لا يفعلونه بأقسى وأوقح العقاب، وما يراه ويعلنه كل الحق والعدل والعقل والجمال؟ إنها تساؤلات يجب أن تسقط كل إله من فوق عرشه وأن تحرق عرش كل إله تحت إلهه وتاج كل إله فوق إلهه. إنها أسئلة كان المفروض أن يحرم الإله كل من يخلق من أن يكون له لسان لئلا يسأل أي سؤال منها.!

.. كيف لم يسأل هذا السؤال كل من له لسان وكل من جرّب وعرف النطق بالسؤال بل وكل من لم يعرف ويجرب النطق بالسؤال؟ كيف لم يتعلم ويعرف السؤال من لم يعرفوه ويتعلموه من هذا السؤال؟

.. كيف لم يصبح هذا السؤال هو أشهر وأقسى وأقوى سؤال؟ كيف أغلقت كل الأفواه دونه، نعم، هل وجد من سألوه؟ كيف أمكن أن يوجد من لم يسألوه؟

هل وجد إغلاق أو انغلاق في هذا الوجود أو في أي وجود مثل إغلاق وانغلاق كل الأفواه وأوسع الأفواه عن هذا السؤال الذي تقول كل الحسابات والتقديرات والمستويات والرؤى العقلية والتعبيرية والإنسانية واللغوية إنها لو أغلقت كل الألسنة عن كل الأسئلة لما أمكن أن تغلق دون هذا السؤال، وإن كل جثث الآلهة لو تحولت إلى جثة واحدة لتغلق وتسد كل الطرق والأبواب دون هذا السؤال لما استطاعت..!

.. لقد كان المفروض بل وكل ما يستطيع أن يفهمه ويقوله كل المنطق إن الإله لو وظف وسخّر كل طاقاته ومواهبه ومعارفه وتجاربه وكل دهائه ومكره وكل أنصاره وأعوانه وسلطانه وإرهابه لو سخّر ووظّف كل ذلك لكي يزجر ويمنع هذا السؤال من أن يتفجّر في أي قلب أو عقل أو ضمير أو أخلاق أو رؤية أو أن ينطلق من أي لسان أو يتقاطر أو ينزف من أي قلم لكان محتوماً أن ينتصر هذا السؤال على هذا التوظيف والتسخير اللذين أراد بهما الإله أي افتراضاً أن ينتصر بهما عليه أي على هذا السؤال.! ولكن هل المفروض يكون واقعاً بقدر ما يكون مفروضاً؟ وهل المنطقي يكون واقعاً بقدر ما يكون منطقياً؟ بل هل المنطقي والمعقول منطقي ومعقول بقدر ما هما كذلك أو لأنهما كذلك؟ بل أليسا هما كذلك بقدر ما يكونان غير ذلك بل ومناقضين لذلك وغير ذلك بقدر ما يكونان ذلك؟

.. ولكن لو أن هذا السؤال الذي لم يجيء قد جاء فماذا يمكن أن يكون الجواب افتراضاً أو حتماً؟

هل يمكن أن يكون غير الانفجاع، بكل تفاسير الانفجاع بالتناقض والتعارض والتصادم والتعادي والتمانع بأقسى وأقبح الأساليب في معاني الإله داخل ذاته، ليظل أبداً يقاسي كل ذلك بلا معين أو منقذ بل أو راثٍ أو مجامل؟

.. هل يمكن أن يوجد أي جواب أو تفسير غير هذا؟ هل يستطيع أي مشفق على الإله أو راثٍ أو محترم له أن يجد أي تفسير له غير هذا التفسير؟

إن جميع المتعاملين مع الإله والمفسّرين القارئين المصادقين المحبين له ليقولون ذلك أي هذا الجواب وهذا التفسير في هذه القضية دون أن يقولوه أو يعرفوا أو يعترفوا أنهم يقولونه أو أنهم يريدون أو يقبلون قوله بل وهم حتماً لا بدّ أن يلعنوا ويكرهوا ويقاتلوا من يقولونه لو وجدوهم أو حتى تصوروهم.!

نعم، إنهم يفسّرون الإله هذا التفسير ويجيبون عن هذا السؤال بهذا الجواب دون أن يدروا أو يريدوا.!

قد يكون التفسير المرفوض أقوى التفاسير أي في حياة وسلوك وتعبيرات رافضه.!

.. أليسوا جميعاً وبكل الجهر وإرادة التعليم والتفسير والهداية يقولون: إن الله لم يفعل بل ولم يأذن أن يكون هذا الذي يأمر ويطالب به ويدعو ويحرّض عليه وإليه ويراه كل الجمال والحب والرحمة ويقاسي كل المقاساة في إرسال الأنبياء وإنزال الكتب والأديان والتعاليم لتعليمه وللدعوة إليه ولوعيد من لا يفعلونه ولوعد من يفعلونه بكل سفه السخاء وجنونه؟

أليسوا يقولون إن الله لم يفعل ولا يفعل ذلك ولم يأذن ولا يأذن بفعله لأنه لا يشاؤه ولا يريده ولا يقبل أو يسعد أو يستريح أن يكون، ولأن النظام والمنطق والحكمة والتلاؤم والسعادة والبقاء والجمال والفرح والعبادة والشاعرية والإيمان في هذا الكون وفي كل كون ولكل شيء وفي كل شيء لا يكون إلّا في ألا يكون هذا الذي تحول الإله من أجل الدعوة إليه إلى أرخص موظف واعظ متملق متضرع مؤملاً أن يكون؟

.. إنهم ليبالغون في عبادتهم وتعبّدهم وإنهم ليرون أنهم يبالغون في ذلك حينما يرون ويزعمون ويعتقدون أن الإله يبالغ جداً في سخائه بكل ذاته وفي احترامه وتكريمه وإسعاده وحمايته وفي التزامه بالحكمة والرحمة والعدل والمنطق والجمال وبكل معاني الحب والتقوى.. وبأن يكون فدائياً واهباً كل طاقاته وكبريائه وذكائه لفدائيته أي حين يصيب بكل العاهات والتشوّهات والتعجيز والفضائح والعار والأمراض والآلام والبلاهات والبلادات كل الأجسام والوجوه والعقول والضمائر والقلوب والأخلاق..!

بل وحين يوظف كل طاقاته وطاقات أعوانه وكل كونه لتكون أجهزة إغواء وإضلال واحتيال وخداع وإغراء ليحوّل كل من يستطيع تحويلهم إلى ضالين وفاسدين وسفهاء وعصاة له وإلى كافرين به بل وليقودهم إلى كل ذلك بكل مواهبه القيادية الاستبدادية العدوانية التسلطية الإعلانية الجهرية والسرية الخفية. أليست قيادة الإله لكل شيء قيادة مطلقة في قوتها واستبدادها وتسلّطها الجاهر والمتخفي؟

.. إنهم يقولون بل ويرون وإن لم يقولوا أو يدروا ذلك..!

يقولونه بأسلوب ونيات المؤمن المتعبّد الممجّد المادح..!

.. يقولون ويرون بل ويفترون إن الله يضل لأنه لا يحب أن يهدي ويدعو إلى الهدى ويطالب بالهدى ويتحمّل تكاليف فرض الهدى على من يقرّر ويقضي بأن يوقعهم في الضلال.!

.. وإنه أي الإله يقود إلى الكفر ويشاء ويدبّر ويبشر ويهيىء ويزيّن ويفرض الكفر على من يطالبهم بالإيمان ويريد لهم الإيمان ويفرض عليهم الإيمان ويعاقبهم إذا لم يؤمنوا.. وأيضاً يفعل ذلك لأنه يحب الإيمان ويتعذب ويشقى ويهون ويذل ويصغر ويهزم إذا لم يكن هذا الإيمان..! إنه أي الإله أعظم وأشهر وأقوى قائد إلى ما لا يريد، إلى ما يفجعه ويحزنه ويغيظه ويصنع له الهزائم.!

.. وإنه أي الإله في رأي المتعاملين معه والمفترين له أجمل وأذكى وأتقى التفاسير ليفسد ويشوّه ويقبح من يريد ويحب بل ويدبّر ويخطط إصلاحهم وتصحيحهم وصحتهم.!

.. إنه ليصيب بالعجز التام الجسد الذي يريد أن يصلي له واقفاً وساجداً وراكعاً ويطالبه بذلك.!

.. وإنه أي في رأي وتفسير أحبائه وأوليائه هؤلاء ليحطّم ويعذّب ويذل ويعادي من يريد ويحب ويتمنى أن يكونوا أصدقاءه أو من يريد ويحب ويتمنى المزيد من صداقتهم له ومن صداقته لهم. إنه ليصيب متعمداً من يراهم أصدقاءه ومن يريدهم أصدقاءه ولأنه صديقهم بما لا يستطيع كل الأعداء أن يصيبوا به، أن يصيبوا به أقسى وأقبح أعدائهم.!

.. وإنهم ليرون ويقولون ويفسّرون وإن لم يدروا أو يريدوا أنه أي الإله يريد ويدبّر ويرسل ويضخم القحط والأوبئة لأنه يريد أن يصنع الرخاء والصحة والأمان لكل أحد وكل شيء.!

وإنهم ليقولون بكل تعبيراتهم ولغاتهم غير المنطوقة أو المسموعة أو المفكرة إنه أي الإله يصيب بأقسى القحط والأوبئة لكي يقاسي ويبكي ويتأرّق ويذرف كل دموعه وأحزانه رثاء لمن يصيبهم بذلك واعتذاراً إليهم.

.. إنه أي الإله يريد ويدبّر ويحشد ويصنع ويضخم الغضب والغيظ والحزن والهوان والإذلال لنفسه لأنه يريد ويدبّر ويخطط ويصنع لها الفرح والرضا والسعادة والمجد والقوة والعزّة والانتصار، بل إنه قد يرى بذكائه الذي لا يمكن أن يتعامل به أحد من الأذكياء أو من الأغبياء أنه يصنع كل هذا لنفسه بصنعه لذلك. إنه يصنع كل المجد لنفسه بصنعه كل الهوان لها.!

.. إنه يصنع ويدبّر ويخطّط لنفسه كل هذا العذاب بخلقه لمن يصنعونه له.!

.. إنهم يقولون ويرون دون أن ينطقوا أو يدروا أو يريدوا.

.. إنه أي إله هذا الكون يذهب يدبّر ويخطّط ويريد ليملأ عينيه وضميره وقلبه وفكره ومواجهاته بل وثيابه وجسده وأخلاقه وتاريخه وكل تطلعاته بكل القبح والفحش والعفونات..

لأنه يريد ويدبّر ويخطط بل ويناضل فاعلاً وراغباً ليملأ كل ذلك أي عينيه وضميره وقلبه وفكره وأخلاقه ومواجهاته ومعاشراته ومعايشاته بنقيض ذلك، بل بأقسى نقيض لذلك، إنهم يرون ويقولون دون أن ينطقوا، إنه أي الإله هو الكائن الذي يصنع ما يهينه ويغضبه حين يريد أن يصنع ما يرضيه ويعزّه.!

.. إنهم ليقولون ويرون دون أن يدروا أو يقولوا إنه أي الإله ليذل ويحقّر ويهجو ويلعن كرامته وشهامته وشجاعته لأنه يريد امتداحها وتكريمها وإعزازها.

.. إنه لا يوجد محقّرون ومشوّهون وهاجون ومتهمون لأنهم محبون وعابدون وممجدون مثل المؤمنين بالآلهة.. بالإله، وإنه لا يوجد محقّر مشتوم متهم مهان لأنه يراد احترامه وتمجيده وعبادته وإرضاؤه وإسعاده وإفراحه مثل الإله.. مثل كل الآلهة.!

.. إنها لو أقيمت محاكمة في هذا الكون أو في أي كون آخر لمحاكمة بل ولمعرفة ومعاقبة من هم أكثر وأقبح وأبلد تشويهاً وهجاء وإهانة وتحقيراً وإغضاباً وغيظاً للإله ولكل إله برؤيتهم وتفاسيرهم وأوصافهم ومدائحهم وتعبّدهم له وعلاقاتهم به بل وبعباداتهم ومطالبتهم له وتأميلهم فيه وانتظارهم منه لكان محتوماً أن يجد قضاة وحكّام هذه المحاكمة أن هؤلاء هم أكثر وأقوى الكائنات

والكائنين إيماناً بالإله وتعبّداً وتمجيداً واحتراماً وحباً له وتملّقاً إليه أي هم الزاعمون المعلنون المعتقدون أنهم يصنعون ويشيدون له ويزفون ويهدون إليه كل الأمجاد والعظمة والسرور.. إنه لا بدّ أن يكون هذا هو حكمهم ورأيهم واقتناعهم وإعلانهم مهما كان ذكاؤهم وغباؤهم أي ما لم يكونوا كاذبين مزوّرين منافقين جبناء أي ما لم يكن ذكاؤهم وصدقهم ورؤيتهم ذكاء أو صدق أو رؤية إله أو نبي أو زعيم أو مفكر أو شاعر عربي.

.. إنه لا يمكن أن يوجد أو حتى يتصور مهين مؤذٍ محقّر معير شاتم لممدوحه مثل المؤمن في كل أساليبه ولغاته ونياته المادحة لممدوحه.. العابدة لمعبوده.. في كل تفاسيره وأوصافه ورؤاه وتصوراته له وأحاديثه عنه وفي كل عقائده وآماله فيه..

إنه لا يوجد ولم يوجد من يستحقون الإنقاذ مثل الآلهة أي إنقاذهم من إيمان المؤمنين بهم ومن كل ما يعنيه هذا الإيمان من نتائج وتفاسير واعتقادات، كيف لم يفطن العالم إلى ذلك؟ ما أغبى العالم إن كان لم يفطن إلى ذلك، وما أقساه وأنذله إن كان قد فطن إليه ثم لم يحرّكه الإشفاق ليفعل شيئاً لإنقاذها من هذا الإيمان بها.!

.. إنه لشيء مهين وفاجع للإنسان.. لذكائه وكرامته وشهامته ولكبريائه وأخلاقه وعلمه وحضاراته.. لكل تفاسيره ومعانيه.. لكل الرؤى والتحديق فيه وله.

- إنه لشيء مهين وفاجع وشاتم لكل أحد ولكل شيء.. لكل معاني وتفاسير كل شيء وكل أحد لكل ما كان وما سوف يكون ولما لن يكون مثل هذا، مثل أنها لم توجد منظمات عالمية دولية بل كونية تكون الشموس والنجوم والمجرات وكل الأكوان الأخرى بعض المؤلفين والمنظمين لها والأعضاء فيها..

مثل أنها لم توجد هذه المنظمات ولا شيء منها بل ولا التفكير فيها أو الحديث عنها..

لكي تفعل أو تعلم أو تفسّر شيئاً أو تكتب وتصدر قرارات، ولو قرارات فقط.. لحماية الإله.. لحماية من سمي أو زعم أو أعلن إلهاً..

هل وجد أو يمكن أن يوجد من هو أحق بالحماية وأكثر احتياجاً إليها مثل الإله لحمايته من المؤمنين به.. من إيمانهم به وأوصافهم وتفاسيرهم ورؤاهم ومدائحهم وصلواتهم وقراءاتهم له ومن طلباتهم واستغاثاتهم ودعواتهم وتضرّعاتهم منه وبه وإليه وله.

.. إنه لا كائن يشوّه ويهان ويهجى ويسب بالإيمان به وبالتعامل به ومعه وبتشييد العلاقات والصداقات معه مثل الإله، مثل كل إله.!

إن جميع المظالم والبشاعات والأخطاء والفضائح التي أقيمت وأنشئت وأنزلت الأديان والمنظمات والمحاكمات في كل التاريخ والمجتمعات لمقاومتها وفضحها وللعلاج منها لهي أقل وأنبل وأرحم مما يلقاه ويتلقاه الإله من عباده المؤمنين به من إيمانهم به وعبادتهم له ومما يعنيه ويصنعه هذا الإيمان وهذه العبادة من بلادة وبشاعة وخطأ وفضح وتشويه وهجاء تهاوى ولا يزال يتهاوى على الإله وسوف يظل يتهاوى عليه.. على اسمه وعلى ذاته وعلى كل معانيه وتفاسيره.!

ما أضخم العفونات والاستفراغات التي يكتب بها اسم الإله والتي يحاصر ويغطي بها وجهه.!

.. ولكن هل أقيمت أو أنشئت أو أنزل أو جاء ونزل نبي واحد أو محاكمة واحدة أو منظمة واحدة أو دين واحد لإنقاذه أي الإله ولحمايته من ذلك؟ هل كان ترك الإله بدون هذا الإنقاذ بلادة عالمية أم وحشية أم مؤامرة عالمية كونية عليه على الإله؟

.. إن جميع اعتداءات البشر كلهم في كل أطوار ومراحل وجودهم.. اعتداءات بعضهم على بعض وعلى أنفسهم وعلى كل الكائنات الأخرى لتهون بل وتغفر محاسبة محاكمة مفسّرة باعتداءاتهم على الإله.. باعتداءات إيمانهم به وعبادتهم وأوصافهم ورؤاهم وتفاسيرهم وتصوّراتهم ودعاياتهم له وإعلانهم عنه ومجيئهم من عنده وتلقيهم وحيه ليقولوا ويرووا ويعلموا عنه ويعدوا ويوعدوا به، وليتحدثوا بلغته وصوته وصهيله وزئيره ونعيبه بل وبتملّقه وتضرعه وتذلله وبكائه بل ونفاقه المتحول إلى كل أنواع الرشوة.. الرشوة الفاقدة لإسرافها ولعنف رغبتها في الإغراء والإغواء لكل صيغ وتفاسير ومعاني الجمال والصدق والذكاء والمنطق والوقار والاحترام للنفس..!

مؤملاً بذلك أن يقبل أو يستقبل أو يفتح له أي باب من الأبواب الراكع عليها الداق لها بكل أعضائه وعضلاته وأصواته واستغاثاته وانكساراته..

.. بكل محاريبه ومنابره وأنبيائه وأديانه وكتبه المنزلة.

.. مؤملاً أن يستقبل بشيء من ذلك أو يوهب شيئاً من ذلك رثاء لآلامه وضياعه وعصيانه وهجرانه ووحدته..!

آه، هل وجد أو يمكن أن يوجد من يجب أو يستحق أن يوهب كل الرثاء والعزاء والإشفاق لقسوة آلامه وضياعه وهمومه وهجرانه وعصيانه ووحدته مثل الإله.. مثلك يا إلهي.؟

.. ولكن ألا يخفف من قبح وآثام وآلام هذا العدوان.. هذا الاعتداء على الإله أنه اعتداء نظري اعتقادي خيالي كلامي تعليمي، وليس فعلياً حقيقياً ولن يصبح كذلك أبداً؟. أليس أتقى اعتداء وأرحم اعتداء مع أنه أقبح وأبلد اعتداء هو الاعتداء على الإله لأن المعتدى عليه لم يوجد ولن يوجد.. لأن جميع المعتدين في جميع العصور لن يجدوا الآلهة ولن توجد ليصبح ممكناً أن يكون اعتداؤهم أو عدوانهم عليها عدواناً عملياً لا نظرياً اعتقادياً كلامياً فقط.. إذن اسعدي وافرحي أيتها الآلهة لأن كل عدوان وأي عدوان عليك لن يصيبك بل ولن تشعري به أو تعرفيه.!

.. لعل أجمل وأنفع ما في الآلهة أن العدوان عليها والتشويه والتحقير والهجاء لها سيظل أبداً نظرياً اعتقادياً لا فعلياً عملياً لأن وجود الآلهة سيظل أبداً كلامياً لا واقعياً..

ما أعظم حظوظ المعتدى عليه الذي لا بدّ أن يظل الاعتداء عليه أبداً نظرياً اعتقادياً دون أن يستطاع تحويله إلى أي اعتداء فعلي واقعي.!

ماذا لو كانت الآلهة موجودة وموجودة فيها ولها كل الحواس والأحاسيس؟ ماذا لو كان ذلك كذلك لترى وتقرأ وتفهم كل الإهانات والاعتداءات والاتهامات والتشوّهات والتشويهات واللعنات

المقذوفة المصبوبة المصوّبة إليها وعليها وفيها بدعوى الإيمان بها والعبادة والاحترام والتمجيد والإرضاء والإسعاد والتجميل لها؟ أليست الآلهة تتلقى وتسمع كل أنواع القبح وتصب وتستفرغ فيها كل أنواع القبح بقدر قوة وكثرة الإيمان بها؟

.. إن أجمل وأنبل وأنفع ما في الآلهة وللآلهة ألّا تكون موجودة وألّا تكون سامعة أو رائية أو فاهمة أو محاسبة أو معاقبة لو كانت موجودة. إن أجمل جمال الآلهة هو ألّا تكون موجودة لا أن تكون لابسة أجمل وأغلى الحلى.!

.. إذن كيف كانت أي الآلهة أو تصورت أو اعتقدت موجودة أو أنها قد توجد أو أن وجودها قد يعني أي معنى جيد أو أن وجودها لن يهدم ويلعن ويشوّه كل معنى جيد جميل معقول أو حتى مغفور؟

هل يمكن تصوّر هاجٍ مهجو لكل شيء وبكل شيء غير الإله أو مثل الإله؟

.. كم كانت ضخامة وقسوة وديمومة احتياجات الإنسان إلى أقبح النذالات والجهالات والبلادات والعمايات وإلى أدومها وأشملها لكي يستطيع أن يجد هذه الآلهة وأن يؤمن ويعلن إيمانه بها ولكي يستطيع أن يراها؟. ما أعمى العيون التي تستطيع رؤية الآلهة.

.. كم كان الإنسان محتاجاً إلى كل أنواع العمى وأقسى العمى لكي يستطيع ويجرؤ أن يرى الآلهة؟

كيف وجد هذه العيون التي رأتها أو كيف خلقت له أو فيه أي هذه العيون؟ وكيف استطاع أن يقتنع أنه رآها مهما قالت له عيناه بل وكل العيون إنه رآها؟

.. إنها الرؤية التي لا يستطيع أو يجرؤ أو يقبل أن يراها إلّا الفاقد لكل الرؤية بل إلّا العاجز عن كل رؤية.!

.. إنها أي رؤية هذه الآلهة هي الرؤية التي تسحب من الرائي بل تقتل وتفسد فيه كل وظائف الرؤية وتفاسيرها وأخلاقها.. كل ذكائها وغضبها وبسالتها واحتجاجاتها.. إنه لا شيء أفسد وهزم وهجا كل معاني الرؤية مثل رؤية الآلهة.. إن رؤية كل مرئي لن تكون إلّا أقسى عدوان على عيني الرائي وعلى كل معانيه وحساباته وتصوّراته وتمنياته أي إذا كان يرى ليرى ولا يرى لكي يعجز عن الرؤية وليحتمي منها.!

.. إذن فكيف برؤية مرئي ليست كل آثام وآلام وقبح وبلادة وسفاهة وضياع وتشوّهات كل مرئي بل كل موجود إلّا بعض معانيه.. إلّا شيئاً مما فيه؟.. فكيف برؤية مرئي ليست كل عاهات وتشوّهات كل الوجوه إلّا بعض عاهات وتشوّهات وجهه وأخلاقه؟

.. رهيب.! كيف استطاع أو يستطيع أي صاحب عينين أن يتحمّل عينيه.. أن يتعامل معهما أو بهما.. أن تركبا فيه أو أن يصدقهما ولو أحياناً؟

أي إن كان قد رأى بهما أي طلعة من طلعات هذا الإله مطلة من نوافذ وعيون هذا الوجود.

.. ما أقسى تصديق العينين. ما أقبحه، وأفجعه..!

.. كم كان محتاجاً أي من رأى وجرؤ واستطاع أن يرى هذه الآلهة إلى مقادير وأنواع الغباء التي تجعل ذكاءه يتقبّل وجود هذه الآلهة أو تجعل غباءه يتقبّل ذكاءها أي غباءها.. التي تستطيع أن تجعله يحدق في عيون هذه الآلهة محدقة في كل ما يرى وما لا يرى مطلة من كل عاهاته وتشوّهاته وآلامه وآثامه!

.. وكم كانت مقادير وأنواع النذالات التي كان محتاجاً إليها.. محتاجة إليها أخلاقه لكي تستطيع أن تتقبل أخلاق هذه الآلهة أو محتاجة إليها نذالاته لكي تستطيع تقبّل أو حتى غفران نذالاتها أي نذالات هذه الآلهة؟

إن تقبّل أخلاق الآلهة المصبوبة في هذا الكون لشيء تخجل منه كل النذالات والبلادات.

.. إن عيون الإنسان وأخلاقه وكل معانيه لم تصب بكل العمى والسفه والبلادة والقبح وكل معاني السقوط وصيغه، ولم تحتج إلى كل ذلك وإلى أضخم وأردأ ذلك إلّا حينما أرادت وحاولت واستطاعت أن تجد في أخلاق ومنطق وتصرّفات الجالس فوق هذا الكون أخلاقاً أو منطقاً أو تصرفات تقبل أو تغفر أو حتى تفهم.. أن تجد في ذلك ما يجب أن تسجد له مصلية كل الجباه والعقول والقلوب منحنية له كل القامات والهامات.!

.. الجالس فوق هذا الكون يتثاءب ويسعل.. ويشد شعراته البيضاء ويحك جبهته كسلاً وفراغاً وضياعاً وكآبة وأسفاً.!

.. هل كان يمكن أن يقبل أي إله وجوده لو كان موجوداً؟ أليس فقد وجود الإله وكل إله شرطاً في تقبّله لوجوده؟ بل أليس وجود كل آله وأي إله مشترطاً فيه ألّا يكون موجوداً وألّا يحتمل أن يصبح موجوداً؟ لقد ظلّ كل إله لا يرى إلّا جماله دون أن يرى أي شيء من قبحه لأنه لم يجيء ولن يجيء.!

.. أليس كل إله قد قبل أن يكون موجوداً وأن يعلن ويعتقد أنه موجود لأنه لم يكن موجوداً ولن يكون موجوداً ولأنه يعرف ذلك، يعرفه.. يعرفه لأنه غير موجود..!

نعم، إن أكثر الآلهة وأصدقها معرفة هي التي لم توجد ولن توجد، بل إنها لا تعرف ولن تعرف إلّا لأنها لا توجد كما أن أحداً لن يعرفها أو يجدها إلّا لأنها لن توجد.!

وهل عرفت الآلهة أو يمكن أن تعرف شيئاً مثلما عرفت أنها لم توجد ولن توجد، بل هل عرفت أو يمكن أن تعرف شيئاً غير هذا؟ إن الآلهة هي الكائنات التي لن تكون عليمة أو جميلة أو رحيمة بل أو موجودة أو مرئية إلّا بألّا توجد.!

.. هل غفر أي إله لنفسه آثام وآلام وقبائح وفضائح وجوده بل وهل فرح وسعد وباهى بوجوده إلّا لأنه لا وجود له ولأنه لن يصبح له وجود؟

بل هل طمع أو انتظر أن يعتقد ويرى إلهاً لو لم يكن مقتنعاً أنه لن يوجد؟

.. لقد رآى وأعلن أي الإله.. رأى وأعلن الكون وكل شيء كل الجمال والحب والرحمة والعبقرية والمجد والتفضّل والإحسان لأنه لم يره.. لم ير شيئاً ولا يستطيع أن يرى.. أن يرى شيئاً أي لأنه لم يكن موجوداً ولن يكون ذلك؟

أليس كل جمال.. جمال كل شيء وكل أحد في ألّا يرى الرؤية المسائلة المتجاوزة القارئة المحاسبة المحدقة في كل تفاسيره وكينوناته الواقعة والمتوقعة، المرئية وغير المرئية؟

أليس فقد الرؤية شرطاً في جمال الرؤية وجمال المرئي أي الرؤية بكل تفاسيرها وصيغها، بكل عيونها وأسلحتها وأجهزتها؟

.. هل كان يمكن أن يوجد جمال أو حتى حديث عن الجمال أو تصور أو انتظار له لو أن هذه الرؤية قد وجدت من البدء أو في البدء.. لو وجدت قبل وجود المرئي؟ لهذا أليست العيون العمياء ترى الجمال أكثر مما تراه العيون المبصرة بل تراه دون العيون المبصرة أي ما لم تكن العيون المبصرة أكثف عمى من العيون العمياء، أو ما لم تكن ترى الشيء نقيض ما يرى؟ أليست أكثر العيون ليست فقط عاجزة عن الرؤية بل مزيفة لها؟

.. كما أن العقول البليدة لا بدّ أن تجد الذكاء في البلادة أكثر مما تجده أو دون أن تجده العقول الذكية بل وأكثر مما تجده أي الذكاء في الذكاء؟

كما أن الأخلاق الضعيفة والجبانة والذليلة والساقطة والهابطة قد تجد أو لا بدّ أن تجد في ضعف الأخلاق وجبنها وهوانها ونفاقها وكذبها واستسلامها أذكى الأخلاق وأعقلها وأحكمها وأنفعها وأقواها بل وأتقاها..!

أليس أقوى وأصدق وأدوم وأسهل وأرحم التقبّل هو تقبّل من لم يوجد ولن يوجد؟ هل توجد نظافة أو براءة أو جمال أو تقوى مثل نظافة وبراءة وجمال وتقوى من لم يوجد ولن يوجد، بل هل يمكن أن يوجد كل ذلك أو أي شيء منه إلّا لمن لن يوجد وفيمن لن يوجد؟

كل المجد والحب والطهارة لكم وكل الشوق إليكم يا من لم توجدوا ولن توجدوا.

.. هل أصبح الإله وكل إله كل هذه المعاني والتفاسير والقراءات والرؤى والتصوّرات والكينونات الجميلة إلّا لأنه لم يوجد ولن يوجد؟

هل سحر بل وفقأ وأحرق كل العيون جماله أي الإله إلّا لأنها لم تره ولا يمكن أن تراه أي إلّا لأنه لم يوجد ولن يوجد؟

ما أجملك وأنبلك وأفضلك وأعظمك وأنقاك وأذكاك وأقواك يا من لم تكن ولن تكون موجوداً.!

وما أقبحك وأنذلك وأصغرك وأفجرك وأضعفك وأغباك وأخسك يا من وجدت مهما زعمت واعتقدت ورئيت غير ذلك بل نقيض ذلك.!

ما أعجز كل الأخساء والحاقدين أن يرموك بأية نقيصة أو خطيئة يا من لم توجد ولن توجد،

وما أقدر أنبل النبلاء على أن يسددوا إليك أشتات النقائص والخطايا يا من وجدت مهما كانت مزاياك.! إذن هل يوجد بريء كل البراءة إلّا من لم يوجد ومتهم بكل الاتهامات إلّا من وجد؟

.. لهذا ما أسهل وأنبل وأجمل وأنفع وأتقى وأقوى بل وأنظف وأسعد وجود الآلهة أي لأنها لم توجد ولن توجد؟. إذن ما أفظع وأفدح وأقبح وأشمل ذنوب وأخطاء ودمامات وعفونات وشقاء الآلهة بل وفسوقها لو كانت موجودة.!

.. إن أحداً لم ير أو يجرب أو يسمع أو يقاس أو حتى ينتظر من الآلهة ما يرفض أو ينكر أو يحتقر أو يكره أو ما يغضبه أو يفجعه أي لأنه لم يرها أو يسمعها أو يحاورها أو يعاملها أو يقرأها أو يفسّرها أو يجدها أي لأنها لم توجد ولن توجد..! لقد كان الإنسان يمدح ويعبد ويشكر مدبّر ومريد وخالق هذا الوجود لأنه لم يوجد أي مدبّر ومريد وخالق هذا الوجود.!

.. هل كان يمكن أن يوجد من يقبل أو يرضى أو يصدق وجود الآلهة لو كانت موجودة أو لو كان ممكناً أن توجد وأن تزعم أنها هي مريدة ومدبرة وصانعة هذا الوجود وكل وجود؟

.. إن كل عطايا ومزايا وعبقريات كل إله وكل الشوق والحنين إليه والحب والاحترام والتمجيد له في ألّا يكون موجوداً أو ممكناً أن يكون موجوداً.!.. أيها الإله الممجد الممدوح المعبود من فوق كل منبر وفي كل محراب وتوراة وإنجيل وقرآن. آه لو وجدت ورأتك أية عين.!

.. أليست كل البراهين وأقوى وأذكى وأشهر البراهين التي وهبت وصنعت الاقتناع بوجود الآلهة.. بوجود أذكى وأتقى وأقوى وأنبل وأفضل الآلهة هي فقدان هذه الآلهة وفقدان كل آلهة هي أن أية عين أو عقل أو ضمير أو أخلاق لم ترها أو تفهمها أو تتصورها أو تجدها؟

.. لقد اقتنع المؤمنون بآلهتهم وبوجودها وآمنوا بها ودعوا إلى الإيمان بها لأنها غير موجودة ولن تكون موجودة ولأن أعضاءهم وأخلاقهم وسلوكهم وتجاربهم وحدسهم وشهواتهم تعلم أنها غير موجودة ولن تكون موجودة مهما قالت أفواههم ومنابرهم وتعاليمهم بل وتعمل وتتعامل وتقبح وتفضح وتفتضح أي أعضاؤهم وشهواتهم وأخلاقهم وكل انفعالاتهم بأساليب تعني حتماً نفي احتمالات وجودها.!

.. إنها أي الآلهة لو وجدت أو لو كانت موجودة أو لو كان محتملاً أن توجد لما وجد من لا يرفضها ويلعنها ويقاومها بل ويحاربها بكل معانيه.. بكل عقله وقلبه وأخلاقه وعواطفه وعضلاته وأسلحته.. إنه لا شيء ولا أحد ينفي وجود الآلهة ويعلن نفي وجودها بل احتمال وجودها مثل أعضاء وشهوات وأخلاق من يجيئون إلينا بكل الضجيج والكبرياء والوقاحة ليعلنوا أنفسهم أنبياءها أي أنبياء الآلهة ورسلها ومفسّريها ودعاتها وموظفي منابرها ومحاريبها.!

.. هنا تحليل أو تفسير قد يبدو خارجاً على كل تصوّر وتفكير وعلى كل تحليل وتفسير.. كيف وهل وجد أو قد يوجد أي تحليل أو تفسير خارج على كل التفاسير والتحليلات أو خارج على كل التصورات والأفكار؟ هل مثل التصورات والأفكار احتواء لكل شيء؟ يقول هذا التحليل أو التفسير: لعل البشر لم يتقبلوا الآلهة التي لم توجد ولن توجد بكل هذا الحماس والإيمان وبكل هذا العطاء لها

من عقولهم وقلوبهم وعواطفهم وتعاليمهم وأخلاقهم ومن مخاصماتهم وعداواتهم وملاعناتهم وحروبهم بل ومن عضلاتهم وأموالهم وموتاهم وشهدائهم بكل هذا الجنون والتضحيات والفداء المسرف المهين البليد.

ـ نعم، لعل البشر لم يفعلوا كل ذلك أو شيئاً منه لآلهتهم التي لم توجد ولن توجد إلّا رفضاً أو مقاومة للآلهة التي قد توجد وخوفاً من أن توجد وتعويضاً وإغناء عن وجودها ورشوة لها لئلا توجد وشكراً لها لأنها لم توجد ولن توجد بل وإغراء لها بألّا توجد أو تقبل أن توجد، لعلهم جنوا في عبادتها وتمجيدها مفقودة لكي تظل مفقودة.!

لقد استطاع البشر أن يعايشوا الآلهة وتعايشهم وأن تقام أقوى وأدوم وأشمل وأسخى وأشهر العلاقات بين الفريقين لأنه كان مستحيلاً استحالة أبدية وأزلية أن يوجد أحد الفريقين أو أن يوجد لقاء أو علاقات بين الفريقين.!

لقد كان وجود العلاقات والصداقات بينهما مستحيلاً ومرفوضاً ما لم يكن مستحيلاً ومرفوضاً وجود أحدهما.!

إن أحد الفريقين أي البشر سعداء بلقاء الفريق الآخر وبالتعامل معه أي الآلهة لأنه لم يوجد ولن يوجد أي فريق الآلهة.!

هل وجد مثل هذه القضية التي تقول إن هذا الكائن لم يكن ممكناً أن تقام معه هذه العلاقات والمعاملات والمحالفات والصداقات واللقاءات والمفاوضات المشحونة بكل حرارة ووقود الحب والعطاء والفداء.

.. التي تقول إنه لم يكن ممكناً أن يحدث ذلك ولا شيء منه لو كان ممكناً أن يوجد هذا الكائن..

.. هذا الكائن الذي كل جماله ومجده وقوته وحكمته ورحمته وشهامته وصداقته وعفّته وكل الشوق والتطلّع والحنين إليه وكل الرؤية والانتظار له والإعجاب به في ألا يحتمل وجوده..

.. هذا الكائن الذي لم يكن ولن يكون شيئاً من ذلك ولن يعطى أو يرى شيئاً منه إلّا بشرط واحد هو ألّا يكون موجوداً بل وألّا يحتمل أن يكون موجوداً أو أنه كان موجوداً! هل وجد هذا الكائن الذي يشترط فيه وله مثل هذا الشرط؟ هل فطن أحد إلى هذا؟ كيف غابت أو ضلّت كل الرؤى والقراءات والمحاسبات للنفس؟

كل التهنئة للكائن الذي لن يحميه من أن يكون كل القبح والفحش والعذاب والافتضاح والعار والهوان إلّا بأن لا يكون موجوداً أو كل العزاء والرثاء له..!

ولكن أليس كل كائن لن يحمى من أن يكون كل ذلك إلّا بألّا يكون موجوداً؟

.. أليست هذه القضية بتفاسيرها هذه وبتفاسيرها الأخرى التي تذلّ وتفجع وتقهر قراءتها وتصوّرها فكيف التفكير والتحديق فيها والمحاسبة لها.

ـ نعم، أليست هذه القضية هي أقسى السخرية بل وكل السخرية من عبقريات الإنسان وحضاراته وتحليقاته ومن صدقه ووقاره وذكائه وكبريائه ومن كل مزاعمه عن نفسه ولنفسه..!

.. ومن كل أنبيائه وشعرائه وشاعرياته ونبواته؟ ما أقسى هجاء الإنسان لنفسه بمزاعمه عنها ولها وبأنبيائه وشعرائه وبشاعرياته ونبواته، ما أقساه.!

.. إذن كيف وهو لا يزال بل وسوف يظل يحيا ويمارس ويعايش هذه القضية؟ إنه يحيا ويمارس ويعايش هذه القضية بل ويمجّدها وكأنه يرفض أن يشفى منها.! كيف لم يرَ نفسه؟ كيف لم يرها؟

هل معنى هذا أن أقوى وأكثر الكائنات رؤية لا بدّ أن تكون أقلها وأضعفها بل وأردأها وأغباها رؤية لهذا كان محتوماً أن يكون الإنسان هو أقل وأضعف وأغبى الكائنات رؤية.!؟ هل يعني هذا أن أكثر الكائنات تفوقاً لا بدّ أن تكون أكثرها تخلّفاً وأكثرها هجاءً وسباً وإيذاءً لتفوّقها؟

.. هل جاءت هذه القضية لتكون كل العقاب للإنسان على تفوّقه وعبقرياته.. لتكون كل التشويه والهجاء والتعذيب له لأنه جاء كذلك؟ هل ذلك كذلك؟ أليس كل شيء يصدق ذلك؟ هل يوجد معذب ومهان ومروّع بكل الأساليب مثل الإنسان في هذا الوجود الذي نعرفه؟ أليس التفسير أنه لا مثيل له في تفوّقه؟

أليس كل كائن يعاقب على ضخامته وعظمته وقوته المادية والمعنوية ويعاقب بها وعلى قدر حجمها.. على قدر اتساعها وصعودها وحدودها المتنوعة التفاسير والصيغ؟

أليس هذا العقاب محتوماً حتى ولو لم يوجد أو يعرف المعاقب؟

كيف ذلك، ما التفسير؟ نعم، أليس أقسى العقاب وكل العقاب أو أكثره وأبشعه وأدومه وأشمله هو العقاب بلا معاقب؟ أليست كينونة الكائن هي المعاقبة له؟ والمعاقب من عاقبه بأن جعله معاقباً؟

.. أليست العقول والقلوب والأخلاق والضمائر والرؤى والهامات والقامات والأحجام الذاتية بل والآذان تتصادم وتواجه وتقاسي وتفجع وتتعذّب وتتشوّه وتصاب بكل معاني الغيظ والغضب والغثيان والاشمئزاز بل والعجز والتوقّع الأليم بقدر ما تكون ضخمة وعظيمة وشريفة وصادقة وذكية وتقية ونبيلة وجميلة ورحيمة وباسلة ورائية ومحاسبة ومسائلة؟ أليست قسوة الهبوط والسقوط محسوبة بقيمة ومدى الصعود؟

.. لهذا ولغير هذا أليس محتوماً أن يتعذّب ويقاسي ويفجع ويروع الإله أكثر وأشمل وأفدح من الملاك والنبي، وأن يتعذب ويقاسي ويفجع ويروع الملاك والنبي أكثر وأشمل وأقسى وأفدح من كل البشر بل ومن كل الكائنات الأخرى، وأن يعاني من كل ذلك عظماء وعباقرة البشر أكثر وأقسى وأفدح وأدوم مما يعاني منه سائر البشر؟ أليس الإله الواحد الكبير أقسى وأكثر تكاليف ومسؤوليات وورطات وأخطاء من الآلهة العديدة الصغيرة؟

.. أليس العظماء والكبراء والأتقياء والشرفاء والمتفوقون في كل معانيهم أو في بعضها أقل

سروراً وحظوظاً وسعادة ورضا وأماناً وابتساماً واقتناعاً من الصغار والضعفاء والمتخلفين؟

أليس المبصرون أقسى ترويعاً وانفجاعاً وسباً وإيذاء لهم ولعيونهم وأكثر من العميان؟

أليس التفوق هو كل العقاب والعذاب للمتفوق حتى وإن لم يوجد أي مريد أو مخطط أو صانع للعقاب والعذاب، بل حتى ولو تحول كل شيء إلى محاولة للحماية من هذا العذاب والعقاب؟

.. إن جميع المتفوقين بأي نوع أو صيغة أو تفسير من أنواع وصيغ وتفاسير التفوق لا بدّ أن يعاقبوا على ذلك أي لا بدّ أن يقاسوا منه.. بذواتهم وكينوناتهم المادية أو بمعانيهم أي بضمائرهم وعقولهم ورؤاهم وحساباتهم ومحاسباتهم.. وبمكاناتهم وأمكنتهم وأخلاقهم وقراءاتهم وتوقعاتهم ومسؤولياتهم وبكل تفاسيرهم لأنفسهم وتفاسير الآخرين لهم بل وبكل رؤى الآخرين لهم وآمالهم فيهم وانتظارهم لهم ومنهم وتوقعاتهم ومطالباتهم وطلباتهم لهم ومنهم وفيهم.. ما أقسى وأبعد معاقبة وتعذيب الشيء والكائن لنفسه..! إنهما عقاب وعذاب بلا حدود أو مسافات ومن وراء وفوق كل الحدود والمسافات.

.. ما أقسى وأفظع العذاب والعقاب المعنوي، إنه مهما كانت لكل عقاب وعذاب مادي حدود ومقاييس فإن العذاب والعقاب المعنوي لن تكون له حدود أو مقاييس..!

.. إذن ماذا يمكن أن يكون عقاب الآلهة وعذابها ومقاساتها بهذه التفاسير والحسابات؟ هل يستطاع تصور ذلك أو الجرأة على تصوّره؟ إن المفروض أن تسحب الآلهة كل العقاب الذي أعدته لكل الآخرين لتعاقب به نفسها دون الاقتناع بأنها عاقبتها بما يكفي.!

.. إذن هل يمكن أن يوجد أو حتى يتصور معاقب أو معذب مورّط مشوّه للإله مثل من يضعونه في مكان الألوهية فوق عرش الألوهية بكل معانيها ومسؤولياتها والتزاماتها وورطاتها وتفاسيرها وأخلاقها؟ إنها لكل الأهوال والافتضاح والفواجع والهموم بل والآلام والآثام والخزي بلا ربح أو جزاء أو مجد أو سرور..

كيف لم يعرف هذا أو حتى شيئاً منه من يضعونه أي الإله أو يطرحونه أو يصلبونه فوق هذا الكون وفوق كل شيء متمدداً منبطحاً لتتفجّر وتستفرغ في عينيه وأذنيه وضميره وعقله وقلبه وفوق أخلاقه ومجده وكبريائه ووجهه وذاته وثيابه كل العاهات والدمامات والتشوّهات والبصقات والقباحات واللعنات والأنّات والآهات والصرخات وكل شيء وكل أحد.. لتصبح كل حواسه وأحاسيسه مباصق لكل القبح والفحش؟

كيف جاء أو جرؤ أو قبل أن يجيء هذا الكائن الذي تعجز وتهاب كل التصورات أن تتصوّر شيئاً من لؤمه وخبثه وشروره ونذالته ليعاقب ويعذّب كل أنواع التفوّق بكل هذه الأنواع والألوان من العذاب والعقاب حتى ليعاقب ويعذّب الإله. كل الآلهة على تفوّقها.. بقدر تفوّقها كل ألوان العقاب والعذاب؟

.. من أين جاء وكيف جاء ولماذا جاء كما جاء؟

كيف عرف واستطاع وتقبل أن يجيء وأن يجيء كما جاء؟ من وهبه كل خبثه ولؤمه ونذالته وقسوته وعدوانيته أو من أراده وخططه وصاغه هذه الصياغة ليكون كما كان بلا إرادة أو تخطيط أو تدبير أو صياغة محسوبة مقررة؟

من أين وكيف جاءت هذه الطبيعة أو القانون والنظام الخارجان على كل القوانين والنظم التي يجب وينبغي ويطلب أن تكون.. القانون والنظام القاضيان بأن يعذب ويروع ويفجع بل ويستعبد ويذل ويصغر الشيء والكائن بقدر ما يتعاظم ويتنوّع ويبهر تفوّقه.. بأن يتلقى ويقاسي من ذلك الفيل أكثر من النملة، والإنسان أكثر من الحيوان، والحيوان أكثر من النبات والجماد، والذكي أكثر من الغبي، والعاقل أكثر من المجنون، والقائد أكثر من المقود، والكريم الشهم أكثر من اللئيم النذل، والصادق النزيه أكثر من الكاذب الملوّث، والمحب التقي أكثر من المبغض الفاجر، والمتوهّج المتطلّع المتلفّت أكثر من الخامد المتجمّد الصامت الحواس والأحاسيس؟

ماذا لو حاكمت الأرض والطبيعة الإنسان العربي أو لو حاكمهما؟

يا شعبي.. يا كل حبي وآمالي وهمومي واهتمامي وتاريخي ومستقبلي وسعادتي وشقائي وانتصاراتي وهزائمي. يا شعبي العربي، العربي.. يا كل ذكرياتي وقراءاتي وتفاسيري ويقظتي وأحلامي وصومي وحجي وصلواتي وإيماني وزندقاتي، يا كل فردوسي وجحيمي..

إن حرائق حبي وإرادتي وتمنياتي واشتراطاتي وطلباتي ومطالباتي لك وانفجاعي وأساي عليك وبك قد أشعلت نقدي ورؤيتي ومحاسباتي وقراءاتي وتفاسيري لك بكل هذا اللهب.. هذا اللهيب..!

فهل أستحق غضبك واستنكارك ورفضك أم رضاك واستماعك واهتمامك وتقبلك. أنا المعذب بك ولك كل هذا العذاب؟

إننا نحب ونريد ونطالب بقدر ما نحيا، وإننا نغار ونحدّق ونحاسب ونشترط ونطالب ونرضى ونغضب وننقد بل ونخاصم ونقسو بقدر ما نحب ونريد ونطالب. إننا بقدر ما نحيا نكون.. تكون معانينا وتعبيراتنا..!

.. تكون آلامنا وصرخاتنا وفواجعنا وتصادماتنا..!

.. يا أحرار وثوار ومفكري قومي.. يا أنبياء وشعراء وعلماء وقديسي ومعلمي وفناني وفقهاء قومي.. يا كل قومي يا كل بدايتي ونهايتي وزماني ومكاني وولادتي وموتي ولغتي وديني وتشاؤمي وتفاؤلي ومسراتي وأحزاني ومجدي وهواني.. يا كل قوتي وضعفي.. ضعفي.. إني واأسفاه.. واهولاه.. وافضيحتاه.. واغضباه - إني لم أكن مهما كانت سذاجة وبلادة تفاؤلي وآمالي وحبي وتوقعاتي.

لم أكن أنتظر أو أتوقع أو أحاول أن أطلب منكم صدقاً أو شجاعة عقلية أو دينية أو أخلاقية أو تعبيرية أو رؤية أو فهماً لما لا يستطاع أو يقبل العجز عن فهمه أو ذكاء أو رؤية أو حرية أو حباً أو تسامحاً أو غفراناً لمن يعيش أو يقاسي أو حتى يتمنى أو يتصور شيئاً من ذلك أو يعذره أو يغفره أو يفهمه أو يحاوره أو يخاطبه أو لا يطارده ويطرده ويشتمه ويتهمه أي شتماً واتهاماً صامتين أو هامسين لا جاهرين لئلا يتحولا إلى محاورة أو مخاطبة أو مساءلة أو إلى إعلان أو اعتراف مسموع أو إلى قراءة مسموعة؟

ولكن كيف لا يكون واجباً أو حتى ممكناً أن أجد وأواجه أو حتى أنتظر وأتوقّع منكم محاورة

أو مخاطبة أو مساءلة أو محاسبة أو محاكمة أو حتى سباً واتهاماً وتحريضاً وعداءً أي مكتوباً مقروءاً مسموعاً معلناً؟

كيف لا يكون كل ذلك أو شيء منه وقد قلت وكتبت وأعلنت شيئاً لم تستطع كل الألوهيات والنبوات والعبقريات والشاعريات والأوهام والأحلام والأساطير العربية أن تقوله أو تسمعه أو تقرأه أو تتصور أن أحداً قد يقوله أو يسمعه أو يقرأه أو يتصوره أي لجرأته ومغامرته ومخاطرته التي قد تحسب كل الجنون والانتحار في المجتمعات العربية لا لعبقريته. فلست هنا أمدح أو أفخر بل أفسر.. أي وقد قلت وكتبت وأعلنت شيئاً لم تجربوا يا قومي يا أهل العرب الأعزاء أن تقولوا أو تسمعوا أو تقرؤوا شيئاً منه أو شيئاً مثله أو أن تتصوروه أي لجنون المخاطرة والتحدي فيه..

.. شيئاً قد قالت وكتبت وقرأت وأعلنت كل الشعوب العظيمة بل والشعوب التي لم تحسب عظيمة مثله وأكثر وأقسى منه بل وفاخرت به..!

لماذا يا قومي، يا أهلي العرب فقدتم وجهلتم ورهبتم ورفضتم كل مستويات وصيغ ونماذج وتفاسير ولغات وأخلاق وشرف وكبرياء كل الصدق والشجاعة والرفض والإباء والذكاء والعصيان والتمرّد اللذين هما كل أسلحة وخطوات وسفن الخروج من هوان وقيود وحضيض البداوة والتخلّف والعجز والاستعباد إلى سموات الصعود والتقدّم والحضارة والقوة والحرية بل إلى سموات الإيمان والتديّن والتقوى؟

نعم، هل وجد أو يمكن أن يوجد أي شيء جيد أو عظيم.. أية حضارة أو معرفة أو قوة أو مجد أو إيمان أو تقوى أو تدين بلا عصيان وتمرّد بالفكر والعقل والإيمان والدين والرؤية والأخلاق والسلوك؟

حتى الأديان والنبوات وكل العقائد والتعاليم أليست أساليب أو أقسى الأساليب من العصيان والتمرّد؟ أليس كل نبي جاء إنما جاء متمرّداً مهما كانت قيمة وفوائد وذكاء تمرّده وجاء عاصياً؟

حتى الإيمان بالإله الواحد المستوي على كل عروش الطغيان والفظاظة والفظاعة والوحشية والأنانية والجبروت والاستبداد والقبح والوقاحة.

ـ أجل، حتى الإيمان بمثل هذا الإله هل كان ممكناً لولا العصيان والتمرّد.. لو لم يوجد العصاة المتمرّدون أي بأفكارهم وعقولهم وقلوبهم وأخلاقهم وتمنياتهم بل وبعيونهم وآذانهم ولغاتهم وعضلاتهم؟

حتى العيون والآذان. ما أعظم احتياجها إلى العصيان والتمرّد.!؟

إن جميع الكائنات التي هي دون الإنسان أو غير الإنسان لم تبدع شيئاً من إبداعات الإنسان ولم تصعد إلى سماء من سمواته لأنها لا تعرف أو تستطيع أن تعصي أو تتمرّد بأي قدر أو أسلوب أو لغة من أساليب أو لغات أو قدرات العصيان والتمرّد.!

لهذا فإن الإله لا يبدع ولا يتغير أو يتطور إلى الأفضل لأنه لا يعصي أو يتمرد، وكذا كل إله، أي على ذاته ووجوده.

إذن أليس الذين يرفضون أو يقاومون هذا العصيان والتمرّد في مجتمعهم وقومهم أو في كل المجتمعات والقوميات إنما يرفضون ويقاومون كل إبداع وتقدم وقوة ورؤية وحرية وشجاعة وصدق بل وكل تقوى وإيمان ونبوة وألوهية ودين وبراعة ونظافة؟

.. نعم، هل جاء شيء من هذا إلّا تمرداً وعصياناً؟ هل أراد أو تصوّر أو أحبّ أو فعل شيئاً من ذلك إلّا العصاة المتمرّدون؟

.. كم أتمنى أن يتحوّل شعبي العربي إلى أعظم وأشهر مرحّب وفرح وسعيد ومباهٍ بأن يوجد بل ويتكاثر فيه هؤلاء العصاة المتمرّدون بهذه التفاسير للعصيان والتمرّد وأن يصبح أعظم وأشهر مستقبل لهم بل ومصدر لهم..!

كم أتمنى ذلك وإن كنت لن أنتظره أو أتوقعه أو أؤمله..!

ما أقسى وأخسر وأفجع الأماني والتمنيات بلا أي أمل أو توقع أو انتظار..

ـ نعم، كم أتمنى أن يعصي ويتمرّد شعبي العربي هذا العصيان والتمرّد وأن يترفّع ويتطهّر من عصيانه وتمرّده اللذين أهانا ولوّثا وهزما كل تاريخه ووجوده وإعجابه بنفسه.!

آه، يا قومي.. يا شعبي العربي العزيز الذي أقسو عليه بقدر ما أريد وأتمنى له. أليس الحب والاشتراط الجيد للشيء قسوة عليه؟

.. كم أنا مفجوع ومروّع ومعذّب ومصدوم ومهزوم في نفسي وفي شعبي، شعبي العربي الكريم الحبيب النبيل أي الذي أريده كذلك وأتعذّب لأنه ليس كذلك.!

.. لأنك يا شعبي رهبت وضعفت وهبطت وصغرت عن أن تهب أو تعلن حبك أو احترامك أو إعجابك أو إشفاقك..

ثم جبنت وبخلت بل وخفت بأن تعلن حقدك وبغضك ولعناتك واتهاماتك أعني في هذه القضية لهذا الإنسان.. الإنسان الذي لم يكن الإله نفسه يتصور مجيئه ووجوده في المجتمع الذي جاء إليه ووجد فيه..!

هل يمكن أن يتصور أحد حتى الإله أن يتخلّق أو يخلق في الإنسان العربي أو من الإنسان العربي أو في المجتمع العربي إنسان غير عربي في كل صيغه وتفاسيره ولغاته وقراءاته وأشواقه ورؤاه وتصوّراته وتمنياته؟

أليس الإنسان العربي وجوداً واحداً وطوراً واحداً في كل تاريخه.. في كل ماضيه وحاضره ومستقبله مهما تبدّلت وتغيّرت وتطوّرت أزياؤه ولغاته وبيوته وعلاقاته..؟

مهما قال وأخاف وتعاظم وتصاعد جبروت وإرهاب وأرقام نفطه أي نفطه الذي لم يكن ولن يكون نفطه مهما كان أقسى وأوقح وأشمل إعلان عن سفهه وعجزه وافتضاحه. مهما جاء أي نفطه الذي لم يكن نفطه.

ـ مهما جاء ليكون أقوى إعلان عن سفه وبلادة الطبيعة ومن فوقها إن كان.

آه، يا شعبي العربي العزيز الصانع لي والموقع بي كل الفواجع والصدمات والهزائم والعذاب بكل صيغه وتعبيراته ومستوياته.!

حتى اللعنات والاتهامات والبذاءات والوقاحات عجزت وهابت شجاعتكم وتقواكم وأصالتكم وعروبتكم عن إعلانها..

عن إعلانها وتصويبها وإطلاقها على من تريدون أن تفعلوا بهم كل ذلك وتصبيوهم بكل ذلك وتتمنون لهم كل ذلك وترونهم أهلاً لكل ذلك. إن من أعنيه هنا واحد فقط حتى اليوم. إنه إنسان واحد ولدته يا شعبي وولد فيك ولادة خارجة على كل قوانين الولادة والتوالد.

⊛ ⊛ ⊛

آه، يا شعبي العربي.. هل وجد أو هل يمكن أن يوجد من يتفوق عليك أو من يساويك في وثنيتك.. في عبادتك لقبورك وتاريخك ولبداوتك وجاهليتك الفكرية والأخلاقية والحضارية والنفسية واللغوية بل والدينية. ما أشرس وأقبح وثنيات الأديان. ما أقبحها وأطغاها.!

هل هان الإنسان وصغر مثلما هان وصغر أمام وثنيات أديانه؟

إنك يا شعبي العربي العزيز لوثني في إيمانك ودينك وعبادتك وتوحيدك أكثر وآصل وأقوى من كل عباد كل الأوثان والأصنام..

انظر يا شعبي الحزين، حتى عسكرك الذين أصبحوا ثواراً وقادة وأنبياء ورؤساء وحكاماً مكذبين وهاجين لكل أمجادك المقروءة المزعومة وباصقين عليها قد حوّلتهم أصالتك في الوثنية إلى أقسى الأوثان.!

.. إن كل صلواتك وعباداتك وشهاداتك المؤمنة الموحّدة لن تستطيع كل وثنيات كل الوثنيين أن تساويها أو تنافسها في أي شيء من وثنياتها.. إن كل الوثنيات وأقبح الوثنيات لتصغر وتهون وتجمل أمام وثنيات توحيدك.

أمام نتائج إيمانك بالإله الواحد وما يفرض عليك ويعلمك هذا الإيمان.!

.. إن كل الأوثان في كل التاريخ والمجتمعات لن تستطيع أو تؤمل أن تكون شيئاً من الأوثان والوثنيات التي فرضها وأوقعها بك أنبياؤك وأولياؤك وشيوخك ودراويشك وخلفاؤك الراشدون وما يختزنون ويزرعون لك في أكفانهم وقبورهم وأسمائهم من تعاليم وعبوديات..! أما ثوارك فقد صعدوا بوثنيتك صعوداً ترهب عيون النجوم الصعود إلى التحديق فيه.!

.. إن الوثنية فيك يا شعبي العربي أصالة ووجود وكينونة لا حالة أو مرحلة أو طور أو خطأ أو بداية أو طفولة.!

لهذا لم يستطع أي شيء أن يهزم أو يذل أو يضعف أو يذهب شيئاً من وثنياتك.!

إنك يا شعبي توحد لكي تعدّد وتشرك، وتؤمن لتكفر، وتمدح لكي تذم وتلعن، وتمجّد لكي

تهين، وترى لكي تفقد كل الرؤية، وتصلي وتحج لكي تكون أردأ عابدي أردأ الحجارة.!

.. إنك لتؤمن بالإله الواحد لكي تحول كل أنبيائه وأعوانه وجلّاديه والمتحدثين عنه بل وكل ضرباته وأخطائه إلى أقسى الآلهة، وتؤمن بالنبي الواحد لكي تحول كل أصحابه وأبنائه وزوجاته ومحظياته وقبره وأحجاره ومغاراته وضعفه بل وثيابه وهمومه وهزائمه وشتائمه وبغضائه وأحقاده وعداواته ومخاصماته وحروبه إلى أقوى وأخلد الآلهة، وتحترم الحجارة لتحوّلها إلى كعبات تصلي وتحج وتركع وتسجد لها بكل قامات وهامات ذاتك وفكرك وعقلك وقلبك وأخلاقك وإيمانك.. معتقداً وزاعماً أنك تعبد وتمجّد وترضي وتخدع وتعانق أشرس إله.!

.. حتى أردأ وأوقح وأنذل وأكذب وأجهل شعرائك وفقهائك ومعلميك الجهلاء المخادعين الأميين قد حوّلهم إيمانك وإعجابك ومباهاتك بهم وقراءتك لهم إلى أشرس وأقوى الأوثان.. حوّلتهم إلى ذلك أصالة وموهبة الوثنية فيك.!

.. حتى حروبك وهزائمك وآلامك وغزواتك وعداواتك ومخاصماتك وخلافاتك مع نفسك ومع الآخرين حوّلتها يا شعبي العربي الفاجع إلى أديان وألوهيات ومقدّسات ترى في رفضها أو نقدها أو قراءتها أو رؤيتها قراءة أو رؤية جديدة مسائلة محاسبة.

- ترى في ذلك زندقة وردّة توجبان العقاب كما ترى في رؤيتها وإعلانها كل الكمال والعدل والذكاء والعبقرية وكل المستطاع والمراد والمطلوب كل الإيمان والتقوى والتعبّد والاستقامة التي يهتف لها وبها سكان السماء والتي تتحلّى وتتزيّن وتتكحّل وتتراقص وتغني لها حوريات وغلمان الفردوس انتظاراً لقدوم الأحباء المستقيمين هذه الاستقامة.!

نعم، يا شعبي العربي الفاجع لكل أصدقائه ومحبيه ومنتظريه المؤملين فيه!

.. إن كل أوثان كل العالم في كل التاريخ لا تساوي في تعدادها أو شراستها أو ديمومتها بعض أوثانك يا شعبي المعجز في تفاسيره لكل التفاسير ولكل الراغبين في أن يفسّروا ما ليس له أي تفسير.!

يا شعبي المسعد المفرح المروي المشبع لشماتة كل الشامتين.!

.. والآن اسمع يا شعبي العربي العزيز. أتضرّع إليك أن تسمع وتستمع بأساليب وتفاسير غير الأساليب والتفاسير التي كنت أبداً تستمع وتسمع بها.. لقد كنت تستمع وتسمع كما كان إلهك العربي يسمع ويستمع إلى الآهات والأنّات والهتافات والنداءات والتضرّعات والصلوات والتساؤلات والمحاورات الموجهة إليه.. الشاكية الباكية الباصقة المستفرغة كل دموعها وآلامها وفواجعها واحتقارها ولعناتها على ضخامة وجمال كل ما يحسب ضخماً وجميلاً في هذا الوجود.!

ما أقبح وأوقح وأبلد وأنذل هذا الاستماع والسماع.. كيف يقبل أي كائن أن يسمع أو يستمع كما يسمع ويستمع الإله؟

إذن يا شعبي العربي أرجوك وأتضرّع إليك أن تتعلّم السماع والاستماع بأساليب وأحاسيس واستجابات وقراءات وتفاسير أخرى، أخرى، لا كما يسمع ويستمع إلهك العربي.!

ألم يعذبك سماع واستماع إلهك إليك؟ إذن كيف لا ترفض هذا السماع والاستماع؟

.. اسمع، اسمع أي بهذه المواهب والطاقات والاستجابات الأخرى المتمرّدة على سماع الإله واستماعه. اسمع يا شعبي العربي الذي تقول كل التجارب والرؤى والأفكار: إنك لن تسمع إلّا كما يسمع إلهك. نعم، اسمع.. لقد وجد، لقد جاء عربي واحد، واحد في كل تاريخ العروبة. وا أسفاه، واأسفاه لأنه عربي واحد فقط.!

لأن كل التاريخ العربي ينكر أن يكون قد تخلق فيه أو مرّ به غير هذا العربي الواحد.!

.. لقد وجد وجاء هذا العربي الواحد ليتخطى كل حدود جنون الجرأة والمخاطرة.. ليقتحم كل مواقع ومراكز وتحصينات الخطر الجاهل الأمي المصاب بتعصّب وشراسة وقسوة كل الآلهة الجاهلية البدوية.!

.. وجد وجاء ليقول ويكتب ويعلن بكل لغات وأصوات وأساليب الجرأة المنتحرة المجنونة بجنون ما أصعب وأقل وأخطر وجوده..

.. ليقول ويكتب ويعلن شيئاً بشيء من الصدق، من الشجاعة، من الإيمان، من معاناة الحرية والرؤية والتقوى الفكرية والنفسية والأخلاقية والإنسانية بل والدينية، رافضاً بكل لغات وتفاسير وصيغ الجنون والانتحار أن يقرأ أو يفهم أو يتصور أو يرى أو يحسب أو يحاسب أي شيء من مخاطر وهموم وعذاب وهزائم ذلك في عالمه العربي.. العربي الذي لم يجرّب أو ير أو يجد أو يتصوّر أو يفعل أو يعلن أو يستطيع أو يقرأ أو يسمع أو حتى يؤمل أو يتمن في كل مراحل وأطوار وصيغ وجوده وتاريخه إلّا النقيض، كل النقيض لكل ذلك..

.. في عالمه العربي الذي لم يتعذب أو يصدم أو يفجع أحد بأي شيء مثلما تعذّب وصدم وفجع به، أي بمعايشته ومواجهته وقراءاته ومحاورته ومخاطبته ورؤيته وتفسيره له..

أي لعالمه العربي وفي انتظاره منه وله وتأميله فيه..

رهيب أن تكون رائياً أو قارئاً أو مخاطباً محاوراً مسائلاً محاسباً مشترطاً بأسلوب غير عربي ثم تكون محكوماً عليك بألّا تعايش إلّا الإنسان العربي.!

.. نعم، يا شعبي العربي، يا كل وجودي وفقدي، يا كل قراءاتي وتفاسيري ورؤاي ومواجهاتي وتجاربي ورضاي وغضبي.. يا كل آمالي ويأسي وهزائمي وانتصاراتي وقوتي وضعفي وفرحي وحزني وتشاؤمي وتفاؤلي..

.. يا شعبي، يا كلي، كلي.. ما أصعب وأقسى وأفجع أن تكون كلي ثم تجيء كل النقيض الأليم لكل ما أريد وأتمنى وأطلب لك ومنك.!

.. لقد قال واقتحم وفعل وأعلن هذا العربي بكل الجنون والحماقة.

.. بكل الجنون والحماقة اللذين كم أرجو وأطالب وأتمنى أن يصبحا كل العقل والحكمة.!

اللذين أرجو وأتمنى أن يتعلم منهما شعبي العربي كل عقله وحكمته.. أن يتعلم منهما كل عقلاء وحكماء وأنبياء شعبي كل العقل وكل الحكمة.!

.. قال واقتحم وفعل وأعلن شيئاً قليلاً جداً من ذلك الممنوع المفقود المحرم المعاقب عليه كل العقاب، بل من ذلك المستحيل أن يوجد من يتصوّره أو يقبله فكيف يوجد من يقتحمه أو يفعله أو يعلنه أي في عالمنا العربي...

.. قال واقتحم وفعل وأعلن ذلك أي هذا العربي الواحد لا لأنه يؤمل أو ينتظر أو يطالب أن تفهموه أو توافقوه أو تؤيدوه أو تناصروه أو تحترموه أو حتى تعذروه وتغفروا له أو أن تملكوا أو تريدوا أو تستطيعوا وتفعلوا شيئاً من الشجاعة أو الرؤية أو الغضب أو الحماسة أو الشهامة أو الاستحياء أو الحرج أي لكي تجرؤوا وتتكرّموا وتتقبّلوا وتتفضّلوا وتصبحوا كل صيغ وتفاسير ومقاسات ونماذج الشجاعة والشهامة والمجد والكبرياء الأخلاقية والفكرية والنفسية والإنسانية والحضارية بل والدينية..

أي لأنكم جرؤتم وأردتم وقرّرتم وأعلنتم وكتبتم وقرأتم وفسّرتم وسوّغتم سبّه واتهامه وتكفيره والمطالبة بالحكم عليه بكل ما تشتهيه وتسعد وتفرح وترضى وتفاخر به كل بداوات وأخلاق وتاريخ ونبوات وألوهيات وديانات وتقوى العروبة بل وكل شعرها وفنونها وثقافاتها.. كل معابدها ومعاهدها.. كل سلاطين العروبة وخلفائها وفقهائها.. كل ملوكها ورؤسائها وثوارها.!

۞ ۞ ۞

.. ويلي، انفجاعي، عاري، استحيائي، هزائمي، كل هزائمي بشعبي، من شعبي الذي يجبن ويهاب ويبخل ويحسد ويغار وينافس وينذل ويرذل إلى أن يجمع بكل الالتزام والاتقان والتقوى والفروسية على ألّا يقول أو يكتب أو حتى يذكر أو يتصوّر أي بجهر أو إعلان أو محاورة أو حتى مخاطبة أو مساءلة شيئاً من لعناته أو اتهاماته أو تحريضاته أو تمنياته على إنسان يريد ويتمنى له كل ذلك ويراه مستحقاً كل ذلك ويجب أي في رغباته وشهواته أن يوقع به كل ذلك أي لئلا يكون رائياً له أو معترفاً أو مذكراً به أو متحدثاً عنه أي رغبة في إخفائه ونفيه وتحطيمه ورفضاً لظهوره، واشتهاره وانتشاره بنيات التآمر اللئيم.!

۞ ۞ ۞

أيتها الأرض.. أيتها الأرض.. كيف قبلت أو استطعت أو أردت أن تلدي أو تحملي أو تعايشي أو تطعمي أو تعاملي أو تواجهي أو تري مثل شعبي العربي.. أن تحبلي به؟ كيف قبلت أحشاؤك وأخلاقك ذلك؟

هل كنت أيتها الأرض، أيتها الطبيعة معادية لنفسك حين فعلت ذلك.

أيتها الأرض.. أيتها الطبيعة. كيف، كيف؟

ما أخسر وأخيب مساءلتك ومحاورتك أيتها الأرض أيتها الطبيعة.!

أيتها الأرض، أيتها الطبيعة لقد علّمك إلهك كيف تردّين على محاوريك ومسائليك. علّمك ذلك مما علّمته مواهبه وقدراته.!

.. أيتها النجوم والشموس والمجرّات كيف قبلت أو قدرت أو جرؤت أن تطلعي أو تشرقي أو حتى تمرّي على الكوكب، على المكان الذي حبل بشعبي وولده وحضنه وحمله وأطعمه وعايشه وأسكنه وساكنه؟ هل كنت تعاقبين نفسك أم تسلّينها وتضحكينها؟ هل أنت صماء عمياء لهذا لم تري أو تسمعي لهذا لم تفجعي بشيء مما يرى ويسمع؟

❀ ❀ ❀

.. آه يا شعبي، إنك محيّر ومعجز ومعذّب لكل الأفهام والعقول والحسابات لعجزك عن أن تجيء على أي مقياس من مقاييسها.!

لقد قال وقرّر واقتنع كل شيء أنه مهما أمكن الإنكار لكل شيء والاختلاف على كل شيء فإنه لن يكون ممكناً الإنكار أو الاختلاف على أنه لا شبيه ولا مثيل لسخائك في السب والاتهام والبغضاء والعداء ولا في جهرك وصراخك بذلك. إنك تحيا وتعظّم وتمجّد وتقوى وتكبر بذلك وبإعلانه وبالجهر به أي في رؤيتك لنفسك ولكل شيء.!

إذن لماذا وكيف خرجت وتمرّدت على أصالتك وموهبتك هذه في هذه القضية؟ لماذا أنت أبداً خروج على كل التفاسير؟

لماذا يا شعبي أنت أبداً إهانة لكل التفاسير ونفي لكل التفاسير الجميلة؟

.. لقد حرمتني يا شعبي العزيز من مناصرتك وفهمك وتأييدك وإعجابك، وهذا ليس شذوذاً في أخلاقك أو سلوكك في كل تاريخك.. ولكن العجيب والشذوذ أن حرمتني من شتائمك واتهاماتك وتحريضاتك وعداواتك أي المقروءة المكتوبة المعلنة بكل هذه القسوة والخسة.؟ إنك يا شعبي مستودع هائل من هذه النقائص التي لا تستطيع ولا يستطاع منعها من التفجّر على كل وجه وعين وأذن وعلى كل شيء. إذن كيف لم تتفجّر هنا؟ كيف كتم أنفسه هذا المستودع؟

نعم، لقد كان حرمانك لي هنا، في هذه القضية.

.. حرمانك لي من الشتائم والاتهامات والتشهير والتحريض أي جهراً وإعلاناً.

ـ نعم، لقد كان ذلك بأسلوبه ونياته أقصى وأقسى نماذج وتعبيرات القسوة والخسة المدبّرتين بل الأصيلتين المدبّرتين أو المدبّرتين بالأصالة والطبيعة. إن سلوكك وضعفك الأليمين يا شعبي لا يحتاجان إلى التدبير مهما أردت وحاولت تدبيرهما.!

.. ألست يا شعبي ترى وتعتقد أو لا بدّ أن ترى وتعتقد أن شيئاً أن أي شيء مما اعتقدته وقلته وكتبته وأعلنته بكل جنون الجرأة والمخاطرة والتمرّد المتحدي بلا حدود أو قيود أو حواجز أستحق عليه من لعناتك وعداواتك واتهاماتك وتحريضاتك ومعاقباتك ومحاسباتك أكثر مما يستحق من ذلك كل ما كان وكل ما هو كائن وكل ما سوف يكون أو قد يكون في البشر والحياة والكون من

زندقات وآثام وأخطاء وخطايا.. أستحق عليه كل ما استطاعت وحشيات كل الآلهة أن تريد وتتصور وتفعل من كل أنواع وأساليب العقاب والعذاب؟

إذن كيف أمكن يا شعبي أن تنتصر على أخلاقك ومواهبك وأصالاتك وأشواقك إلى الشتائم والاتهامات والعداوات والتحريضات والمحاسبات أي المعلنة الجاهزة الصارخة؟

هل أصبح هذا المستحيل واقعاً لكي توقع بي هذا الحرمان؟ هل رأيت أن حرمانك لي يا شعبي الرحيم من هذا العقاب هو أقسى عقاب؟

أليس محتوماً أو حتى محتملاً أن يتعذب الإله وكل سكان السماء إلى أن يستحقوا كل الرثاء والعزاء بل والبكاء لعجزهم عن فهمك وتفسيرك يا شعبي العربي، أي في انتصارك وخروجك على مواهبك وأخلاقك وأصالتك وأشواقك وتاريخك في هذه القضية أعني قضية حرماني وحمايتي من أن تطلق علي شيئاً من أسلحتك البذيئة القبيحة الرديئة الهمجية، أعني أسلحة السباب والاتهام والتحريض والبغضاء والتشهير أي المكتوب المقروء المعلن الصارخ المخطوب المصلى المتعبّد به..

الذي تكتبه وتقرؤه وتعلنه وتعلمه وتصلي وتتعبّد به وله كل ديانات وتقوى وكبرياء وشهامة وكرامة كل آلهتك وأنبيائك وعلمائك وشعرائك وسلاطينك وخلفائك وفقهائك ورؤسائك وملوكك وثوارك يا شعبي العربي، يا شعبي العربي يا كل عذابي وانفجاعي وهزائمي وذنوبي وعاري وأحزاني.

.. يا كل من صنع وصاغ رؤاي له وآرائي فيه وغضبي منه وفواجعي به وتمرّدي عليه.!

.. أيتها الأرض، أيتها الطبيعة هنا عربي يريد أن يأسى ويحزن لك أي يعلن أساه وحزنه لك، وأيضاً يريد أن يستغفر ويعتذر إليك بل ويشكرك من أجل ما فعل بك شعبه ومن أجل ما فعلت لشعبه وقاسيت وتورّطت وافتضحت من أجل شعبه.!

لقد تقبّلت أيتها الأرض، أيتها الطبيعة مخدوعة أو مخطئة أو رحيمة أو كريمة أو راثية أو مسحورة أو مقهورة أو مأمورة.

نعم، لقد تقبّلت بكل أساليب التضحية والفداء ومشاعر الحب والرحمة والشفقة أو بكل معاني الغباء والغفلة والقسوة أن تحبلي بشعبي العربي وأن تلديه وتخلقيه وترضعيه وتحضنيه وتربّيه وتطعميه وتريه وتواجهيه وتعايشيه وتواطنيه وتساكنيه..!

إن ما فعلت عطاء لا مثيل له في عطائه أو غبائه وهوان لا مثيل له في هوانه وغبائه.. إنها قمة الفداء والنخوة والشهامة أو حضيض السفه والعبث والقسوة والبذاءة والنذالة.

.. وأي التفسيرين يجب وترين وترضين أن تفتري به، وأيهما أصدق وأذكى تفسيراً لك؟

ولكن أيتها الأرض، أيتها الطبيعة هل لك تفسير دون تفسير؟ ألست كل التفاسير الرديئة وكل التفاسير المحسوبة والمزعومة جيدة لأنها كل التفاسير الرديئة؟ وبأي منطق أو حساب يفصل بين التفسير الجيد والتفسير الرديء ويفهم الفرق بينهما؟

هل الفرق بين التفاسير الجيدة والتفاسير الرديئة في الأشياء والكائنات المفسّرة أم في المفسّرين لها؟

وهل الفرق بين مفسّر ومفسّر فيهما أم في تعاليمهما وظروفهما وتلقيناتهما وفي ذكائهما وغبائهما ورؤاهما وفي انفعالاتهما وقراءاتهما وانتماءاتهما؟ هل الفرق بين النبي والنبي أو بين النبي والفيلسوف والملحد في تفاسيرهم ورؤاهم للأشياء فرق في الرؤية أم في المرئي؟

ماذا لو وجدت محكمة أو منظمة كونية فتوجه إليها الإنسان العربي مطالباً بمحاكمة الأرض والطبيعة على ولادتهما وخلقهما وصياغتهما وتربيتهما وحضانتهما له ليجيء ويظل كما جاء وكما ظلّ بكل صيغه ونماذجه ومواهبه وبكل كينوناته.. بكل سلاطينه وخلفائه وزعمائه وقادته وشيوخه وفقهائه.. بكل قبوره وقصوره وأكواخه وخيامه.. في كل تاريخه..

.. بكل ثواره وثوراته ونبواته وانتصاراته؟!

.. ما أعظم ذنوب ووحشية ونذالة من صنع أو أراد للإنسان العربي ثوراته وثواره.!. وهل وجد هذا المريد الصانع لذلك؟

هل حقّر أو أبغض أو شوّه الإنسان العربي مثل من صنع له وأراد ثوراته وثوّاره؟ هل عوقب أحد أو شيء مثلما عوقب الإنسان العربي بثوراته وثواره؟ هل عرّى وفضح وضخّم نقائص العرب وسيئاتهم مثل ثوراتهم وثوّارهم؟

.. فظيع، فظيع أن يقال أو يعتقد أن فوق هذا الوجود أو في داخله إلهاً مطلق القدرة والتصرّف والتفكير والتفاسير، وأن هذا الإله هو الذي أراد وقدّر ودبّر وخلق وصاغ للعرب ثوراتهم وثوّارهم. كيف يستطاع حينئذٍ أن تحصى أو تفسّر عداوات وبغضاء هذا الإله للعرب وأحقاده عليهم؟

وأيضاً متهماً أي الإنسان العربي الأرض والطبيعة بأنهما قد حابتا الإنسان الآخر عليه فوهبتا هذا الإنسان الآخر كل ما يعرفان ويستطيعان من حماس وقدرة ومعرفة وإرادة لكي تصنعاه وتصوغاه أفضل وأعلم وأقوى وأسعد، بل وأتقى ليكون أي هذا الإنسان الآخر هو سلطان بل إله هذا الوجود المطلق.. ليكون المتحكم فيه والحاكم المطلق فيه بلا أي منافس أو مقاوم أو حتى معارض.. إنها محاباة ضخمة ومذلّة. وهل يوجد متهم بهذه التهمة أو بغيرها غير الأرض والطبيعة؟

.. أجل، ماذا لو وجدت هذه المحكمة أو المنظمة الكونية واحتكم إليها الإنسان العربي متهماً للأرض والطبيعة بالاتهامات التي ذكرت وقرئت وأعلنت وفسّرت وعرضت وفهمت؟ أنا هنا أفترض الإنسان العربي يحسن الاتهام يجيد عرضه وقراءته ويعرف مكانه. ولكن ما أصعب وأغلى هذا الافتراض.!

نعم، العربي كل معانيه ولغاته وعباداته اتهام ولكن بكل تفاسير الأخطاء والخطايا.!

.. ثم ماذا لو أن الأرض والطبيعة اشتكتا واحتكمتا إلى هذه المحكمة أو المنظمة الكونية مطالبتين بمعاقبة الإنسان العربي وبتعويضهما عن كل ما أوقعه وصنعه بهما من إهانات وتلويث وسفه وتشويه وإفساد وتعجيز وتقبيح لجمالهما وبراءتهما وأخلاقهما وذكائهما وصفائهما ولصحتهما ونظافتهما وكرامتهما بل ولتقواهما...!

ومن سرقات وإبادات واستهلاك أعمى مجنون همجي سفيه لطاقاتهما وعطائهما وسخائهما وإنتاجهما ومواردهما...

والعربي لا ينافس في سفه وفوضى وعدوانية الاستهلاك فيه أي إذا قدر.

أي بلا أي ثمن أو تعويض أو تكفير أو تصحيح أو بديل أو توقع جيد.. وأيضاً من عدوان. أليس كل معايشة ومواجهة الإنسان العربي للأرض والطبيعة ولكل شيء عدواناً، عدواناً بكل الأساليب والتفاسير.. عدواناً أخلاقياً وفكرياً ونفسياً وعلمياً وحضارياً وجمالياً وعمرانياً بل ودينياً؟ حتى تدينه ودينه إساءة لكل معاني الدين والتديّن.!

نعم، ماذا لو حدث هذا وهذا وهذا؟ وكيف لم يحدث لا هذا ولا هذا ولا هذا؟

لماذا لا يحدث ما يجب أن يحدث ويحدث ما يجب ألا يحدث؟

ألا يعني هذا كله أن هذا الوجود، هذا الكون وقد يكون كل كون ووجود كذلك بلا أي قانون أو حراسة أو حاكم أو دولة..

.. بلا أية محكمة أو منظمة أو حماية من أي نوع يمكن التحاكم أو حتى الشكوى أو التظلّم إليها؟

.. الكون بلا حكم أو حاكم أو حكومة. هل فطن العالم المحكوم به إلى ذلك؟

كيف حدث هذا؟ كيف حدث وقبل بل وغفر وشكر أن يكون لأجزاء هذا الكون والوجود محاكم ومحاكمات وحكومات ثم لا يكون له كله شيء من ذلك..!

.. أن يكون لكل من خلقوا وصيغوا بالإكراه وفي غيبتهم محاكم ومحاكمات ومحاسبات ومعاقبات ومسؤوليات وحكام وحكومات ثم لا يكون لمن أراد ودبّر وخطّط وصنع وخلق وصاغ كل ذلك.. كل شيء أي شيء من ذلك أي من المحاكم والمحاكمات والمحاسبات والمعاقبات والمسؤوليات والحكومات والحكّام.

أو لمن هو الوالد الباصق المستفرغ المفرز لكل شيء.. المصنوعة من ذاته كل ذات؟

آه، كيف حدث أن تكون الصورة المشوّهة أو المخطئة محاكمة ومعاقبة ومساءلة ومحاسبة ثم لا يكون مصوّرها شيئاً من ذلك، بل ثم يكون مصورها هو المحاكم والمسائل والمحاسب والمعاقب لها؟

كيف يحاكم خفقان القلب ولا يحاكم القلب، أو يحاكم القلب ولا يحاكم الجسد الذي زرعه وأنبته أو يحاكم الجسد ولا تحاكم الطبيعة..

الطبيعة التي ولدته وبصقته وصاغته وشوّهته؟

.. كيف تحاسب وتحاكم وتفسّر الثمرة ثم لا يفعل شيء من ذلك بشجرتها، ثم كيف يفعل كل ذلك بالشجرة ثم لا يفعل شيء منه بتربتها أو بذرتها أو بيئتها أو بمناخها وظروفها؟ كيف تحاكم اليد الضاربة أو الرجل المقتحمة ولا تحاكم الإرادة أو الشهوة أو الرؤية أو العقيدة الموجهة الضاغطة؟

.. كيف يحاسب ويحاكم ويعاقب المولود على ما أوقعه به والداه توريثاً وتعليماً وتدريباً ثم لا يسأل والداه عن أي شيء من ذلك؟ كيف يفسّر هذا المولود وأي مولود معزولاً عن آبائه توريثاً وتدريباً وتعليماً وتلقيناً؟ كيف يحاكم الفيضان ولا يحاكم السحاب أو يحاكم السحاب ولا تحاكم البحار والأنهار، أو تحاكم البحار والأنهار ولا يحاكم الكون أو يحاكم الكون ولا تحاكم كينونته أو تحاكم كينونته ثم لا يحاكم كل شيء؟

.. كيف حدث أو أمكن أن يحدث أو قبل أو أمكن أن يقبل هذا؟

هل وجدت أو يمكن أن توجد حدود أو قوانين أو تفاسير للقبول أو للرفض؟

أليس كل شيء يدل ويقول ويقنع أنها لا توجد ولم توجد ولن توجد هذه الحدود أو القوانين أو التفاسير بل وأن أحداً أي أحد لن يريد أو يتمنى أو يتقبّل بشيء من الرضا أن توجد؟ إن القبول والرفض في الحكم بهما وفي تنفيذهما فوضى كفوضى الوجود. وجود الشيء ونقيضه، وجود هذا دون هذا.. وجود الوجود وكل شيء كما وجد..!

.. حتى الإله الذي قيل لنا وعلمنا عنه فآمنا وأعلنا إيماننا أنه مطلق القدرة والإرادة والرؤية والجمال والكمال. حتى هذا الإله الذي قيل لنا وعلمنا عنه كل شيء دون أن نجد أو نرى فيه أي شيء مما علمنا عنه وقيل لنا عنه بل أو أن نؤمل أي شيء منه.

- حتى هذا الإله هل وجدت أو قبل أو طالب أو اشترط أن توجد أية حدود أو شروط أو قوانين أو تفاسير لقبوله أو لرفضه؟

بل هل وجد مثل هذا الإله تنازلاً عن كل هذه الحدود والشروط والقوانين والتفاسير بل وخروجاً عليها ونسياناً لها وجهلاً بها بل ورفضاً لها؟ بل هل مثله معلماً ومريداً ومخططاً لهذا التنازل والنسيان والجهل والخروج والرفض؟ هل مثل إله هذا الكون تنازلاً عما لا يصح أو يقبل أو يغفر التنازل عنه أو تقبلاً وفعلاً لكل ما لا يقبل أو يعقل أو يغفر فعله أو تقبّله؟ هل مثله فاعلاً لكل ما لا ينبغي ولكل ما لا يطلب أو يراد، تاركاً لكل ما ينبغي ولكل ما يطلب ويراد وخارجاً على كل تفاسير الجمال والنظام والعقل؟

هل وجد كائن بلا أي شروط ذكية أو تقية أو كريمة أو نظيفة أو رحيمة أو شجاعة لوجوده.. لقبوله لوجوده مثل إله هذا الكون؟ هل وجد عارض لنفسه معلناً عنها بأقسى وأقبح وأشمل أساليب ولغات الهجاء والتحقير والفضح لها مثل هذا الإله؟

.. هل يمكن أن يوجد أي شيء لو كان كل شيء أو أي شيء لن يوجد ولن يقبل أن يوجد إلّا بشروط.. بأي قدر من الشروط الفنية أو العلمية أو الفكرية أو الأخلاقية أو حتى النفعية؟

لو كان وجود أي موجود أو أي شيء لن يكون إلّا بشروط فهل يكون وجود إله هذا الكون أكثر احتمالاً من وجود أية حشرة أو عاهة أو دمامة أو نذالة أو شيخوخة أو مرض أو موت لكي يصبح الكون كله جمالاً وسعادة وصحة وقوة ومحبة ورحمة وحكمة وفناً وشعراً وسروراً أي لوجود كل ذلك فيه؟

لو كانت هناك شروط لوجود أي أحد أو أي شيء فهل كان ممكناً أو مقبولاً أن توجد أية زعامة أو قيادة أو ديانة أو نبوة أو ثورة عربية أو ثائر عربي؟

بل أو أن توجد أية لغة أو حروف أو أبجدية يمكن أن يتحدث أو ينطق أو يكتب بها أي لسان أو قلم في فم أو يد أي إله أو نبي أو شيخ أو قديس أو معلم أو مفكر أو شاعر أو فنان عربي، أي عربي؟

لو كان للغات أية حماية بأي أسلوب فهل كان ممكناً أن توجد اللغة العربية ومثلها لغات أخرى ليتكلمها من يتكلمونها كما تكلموها ويتكلمونها؟

هل يمكن أن يوجد من يعتقد بل من يتصور أن الكلمة والقلم قد يهانان أو يحقران أو يفتضحان أو يصغران أو يلعنان أو يسقطان ويتلوّثان مثلما يحدث لهما كل ذلك في يد أو فم أي عربي ـ أي من يعتقد أو يتصوّر ذلك قبل أن يحدث؟

لو أن أي كائن لم يسمع العرب متكلمين ولم يقرأهم كاتبين فهل يمكن أن يتصوّر أن أفواهاً أو أقلاماً قد تتكلم أو تكتب شيئاً مما يتكلّمون أو يكتبون؟

.. كيف أمكن أن يكون لهذا أو لأي شيء أي تفسير أو منطق أو تقبّل أو غفران؟ لقد كان ذلك صعباً بل لقد كان مستحيلاً..

ولكن قد يقال: لقد تحول هذا الصعب أو المستحيل إلى مقبول ومعقول ومشكور ومعلم، بل لقد تحوّل إلى كل ذلك.

وكيف حدث ذلك؟ حدث لأن الإله العربي والإنسان العربي هما اللذان يريدان ويخططان ويقرران ويقرآن ويفسّران ويربيان ويصوغان كل شيء.. كل وجود ومنطق وعقل وأخلاق ورؤية ودين وتديّن وألوهية ونبوة وآلهة وأنبياء.. وقد يحتاج هذا إلى تفسير وسنحاول تفسيره أعني كون الإله العربي والإنسان العربي هما كل ذلك. كل هذه الوظائف.!

وهنا هل يمكن أن تصبح أو تظل أية رؤية أو منطق أو تفكير أو تصور أو أخلاق أو ثقافة أو لغة أو ألوهية أو نبوة أو ديانة أو تقوى.

ـ أن تصبح أو تظل كل معانيها أو شيئاً من معانيها؟ هل يمكن ذلك إلّا إذا كان ممكناً أن تصبح أو تظل الثورات أو الزعامات أو القيادات أو الحريات أو التقدميات أو الحضارات أو العبقريات العربية في أي عصر من عصورها شيئاً من معاني ذلك أو تفاسيره أو تعبيراته أو طاقاته أو نياته أو أخلاقه أو انتصاراته؟ أليس الإله والإنسان العربيان خروجاً على كل التفاسير المعروفة المرادة كما أن الثورات والحضارات والحريات والنبوات والقيادات العربية هي نفس هذا الخروج؟

وهنا يجب أن يسقط بل ويطرد الحساب والانتظار والاشتراط لأي شيء جيد أو ذكي أو تقي في كل ما حدث وفي كل ما قد يحدث..

أجل، لأن الإله العربي والإنسان العربي هما اللذان يريدان ويفسّران ويخططان ويصوغان كل شيء وكل أحد ويحكمان ويحاكمان كل شيء وكل أحد..!

وهنا لا بدّ بل ويجب أن يتعجّب بل ينكر ويفزع ويفجع كل من يسمع أو يقرأ أو حتى يتصوّر هذا القول. ولا بدّ أن يزول ويهون كل هذا حين يسمع التفسير.. إنه تفسير قد يكون أقسى صدمة ولكنه حقيقة وليس هزلاً. ولا بدّ أن تكون قسوته أعنف لأنه حقيقة وليس هزلاً.!

.. هل يستطيع أن يجهل هذه الحقيقة إلّا من يجهلون أن الديانة العربية والنبوة العربية قد جاءتا وجاءتا إلغاء ونسخاً وإبطالاً وطرداً وقتلاً وتكذيباً وسبّاً وتقبيحاً وتحقيراً وتصحيحاً عدوانياً همجياً بدوياً لكل الديانات والنبوات ولكل الكتب المنزّلة المقدّسة التي قد جاءت أو زعم أنها قد جاءت أو التي قد تجيء أو يزعم أنها قد تجيء.

.. جاءتا أي الديانة والنبوة العربيتان لتكونا امتلاكاً شاملاً احتكارياً لكل العلاقات بالسماء وبمن فوق السماء ولكل علاقات السماء وسكانها بكل شيء وأي شيء ومع كل شيء وأي شيء أي تعليماً وتشريعاً وتفسيراً ومحاورة ومخاطبة ورؤية ورواية وقبولاً ورفضاً ومدحاً وذمّاً وحباً وبغضاً.. أي جاءتا لتقررا وتعلنا امتلاك وتمليك الإنسان العربي لهذه العلاقات بالسماء ومع السماء بأسلوب احتكاري أبدي..!

.. إذن فالسماء لا تستطيع ولا تقبل أو تريد أن تتصل بالإنسان أو بالأرض أو بأي شيء أي معلّمة أو مشرّعة أو مفسّرة أو محاورة أو مخاطبة أو مغازلة متضرّعة مطالبة راجية باكية متملّقة متخضّعة بكل المسكنة، أو آمرة ناهية متوعدة مهدّدة واعدة بكل الكبرياء والغرور والوحشية والوقاحة بل والكذب والخداع والنفاق.

ـ نعم، لا تستطيع أو تريد أو تقبل أن تتصل هذا الاتصال إلّا من نوافذ وخروق ذات الإنسان العربي ومن تراب مقابر موتاه.. أوثانه أي بواسطة ديانته ونبوته وكتابه المنزل أو المزعوم منزلاً..

هل توجد وسائل مواصلات بين الكون والإله أو بينه وبين الأرض غير مقابر الإنسان العربي. مقابر موتاه.. أوثانه التي استفرغ أي الإله فيها كل ذاته؟ هل ثقلت مقابر العرب إلّا لأن ذات الإله مستفرغة فيها؟

.. إذن فالإنسان العربي أي بسلطان وجبروت ومنطق وواسطة نبوته وديانته وكتابه المنزّل هو وحده بلا ند أو شريك أو مساعد أو حتى مستشار ـ هو وحده الذي يريد ويرى ويتصور ويخطّط ويصوّر ويفسّر ويخلق ويصوغ ويحكم ويحاكم بل ويعلم وينظم وينظف الإله والكون وكل شيء وكل أحد أي كما يريد ويعتقد ويشتهي ويستطيع باسم نبوته وديانته وألوهيته وإلهه وكتابه المنزّل. هو الذي يضع ويعلن ويحدّد ويصوّر للإله كل نماذجه ومقاييسه وصوره ومواهبه النفسية والفكرية والأخلاقية الأبدية النهائية.!

.. إذن فالإنسان العربي بهذا التفسير هو وحده الذي يحكم ويحاكم ويعاقب ويقتل ويقاتل ويسب ويحقر ويوعد ويذل كل شيء وكل أحد، بل ويخلق الجحيم ويدخل فيه كل إنسان وكل كائن أي إن كان يريد ويحب له ذلك ويعتقده مستحقاً لذلك لأن الفاعل لذلك وهو الإله لا يوجد إلّا في ديانة ونبوة الإنسان العربي أي إلّا في ذات وحياة الإنسان العربي.!

يا من قد يصابون هنا بكل الانفجاع والانزعاج والذهول، الذهول اقرؤوا وفسّروا نصوص ومعاني: «محمد خاتم الأنبياء ودينه وكتابه خاتم الأديان والكتب المنزلة».

اقرؤوا وفسّروا هذا لتعرفوا وتقتنعوا وتصرخوا قائلين: أعد، أعد، زدنا من تفسير ذلك، زدنا ولو كررت واتهمت بالتكرار لأقول غافراً وعاذراً لمن يصدقون هذا الاتهام.. لأقول: يعلن ويعتقد الإنسان العربي بكل أجهزة التعبير ـ والمفروض أن العالم يعلم هذا الذي يعلنه ويعتقده الإنسان العربي ـ نعم:

.. يقول معلناً وصارخاً ومتحدياً ومصدقاً أي الإنسان العربي: إن اللّٰه منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد إلى نهاية الكون إلّا في النبوة والديانة العربيتين أي معلماً ومشرّعاً وآمراً ناهياً ومحللاً محرماً ورائياً وقابلاً رافضاً وراضياً غاضباً ومحاسباً محاكماً معاقباً وقائلاً صامتاً وفرحاً حزيناً ومنتصراً منهزماً وقوياً ضعيفاً.. إنه يقول ذلك بكل الجهر والفخر والاقتناع والكبرياء.!

والديانة والنبوة العربيتان لا توجدان أي بهذه التفاسير إلّا في الإنسان العربي أي في رؤاه وعقائده وتفاسيره وإراداته وتقاليده وظروفه وفي قوته وضعفه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه وفي أفواهه ولغته ورواياته وفي خصوماته وعداواته وحروبه وفي مهادناته ومصادقاته ومصالحاته بل وفي بؤسه وجهله وكذبه ونفاقه وفسوقه.!

.. إذن فاللّٰه أي بهذه التفاسير لا يوجد إلّا في ذات الإنسان العربي، في محاريبه ولحاه وعمائمه وفي قبور موتاه وفي الروايات والأساطير عنهم بل وفي ملابسهم ومسابحهم وهمومهم وأوحالهم وفي عاهاتهم وتشوّهاتهم الذاتية والنفسية المعنوية الأخلاقية.!

إذن فالإنسان العربي هو اللّٰه أي بهذه التفاسير.. إذن فاللّٰه لا يوجد ولا يلتمس ولا يفهم أو يقرأ أو يرى أو يفسّر إلّا في ذات الإنسان العربي..

هل يستطيع العالم أن يجهل أو ينكر ذلك؟ وهل يستطيع أو يجرؤ أن يعلن إنكاره له أو جهله به أي إن كان يجهله أو ينكره؟ ألم يذل بل ويقتل النفط العربي كل شجاعة وكرامة وكبرياء وصدق في هذا العالم؟

شكراً أو سحقاً لك أيها النفط العربي. لقد بالغت في تأديبك وإذلالك لكل العالم ليهوي إلى هذه المسكنة والهوان في تعامله مع العروبة، مع صحراء العروبة.. مع ديانة ونبوة العروبة.. إذن هل نقول شكراً أم نكراً لك؟

.. يا من قد تقرؤون تفسير وتبيان هذه الحقيقة فتقبلون أو ترفضون هل ستتحوّلون حينئذٍ إلى إعجاب واهتمام وإيمان بالإنسان العربي وإلى ولاء وطاعة ومحبة له وإلى خوف ورهبة منه وإلى تعبّد وصلاة في كل محاريبه وإلى حج واعتمار إلى كل كعباته ومزاراته ومغاراته أم إلى مزيد من الإذلال والفضح والتصغير والتكذيب والتجهيل له ولإلهه بالصعود فوق عقله وعلمه وتعاليمه ورؤاه وتصوّراته وأحلامه وكبريائه.. فوق سريره الخائف المتخفي داخل كل المخابيء التي لا تختزن شيئاً والتي لا يمكن الوصول إليها مهما حاول وسافر المسافرون والمحاولون.!

.. فوق نجومه وشموسه ومجراته وأقماره التي لم يرها أو يعرفها.. فوق جماله ورحمته وفنونه وأمجاده وقدراته وعبقرياته التي رواها الذباب للبرغوث وفسّرتها العاهة للدمامة وغناها المرض للموت ودرسها الغباء للجهل والأخطاء للخطايا والعار للهوان..

وقرأتها الأثّات على الآهات وخطبت وصلت بها الألبسة للملائكة وزيّنت ومدحت بها القبور القصور والغربان الصقور والنسور.. ورأتها العيون العمياء في العيون الحزينة وقالتها الزهور الميتة للزهور الذابلة الظمأى وعيّرت بها النبوات والديانات الأخيرة النبوات والديانات الأولى.. القديمة. وطاردت وحاربت بها الديانات والنبوات الأخيرة الديانات والنبوات التي كانت قبلها..!

.. التي أهانت وأذلّت بها قسوته أي قسوة الإله رحمته، وأذل وأهان بها غباؤه ذكاءه، وأخطاؤه صوابه، وضعفه قوته، ودمامته جماله، وكذبه صدقه، وهوانه عزّته، وهزائمه انتصاراته، وفجوره تقواه، وفقده وجوده.. أي التي كذبت وأذلّت وأهانت علامات وشهادات فقده ادعاءات واعتقادات وجوده..

.. التي كذبت بها كل أفعاله وكل رؤاه وتفاسيره وكل أديانه ونبواته وتصوراته ورواياته والروايات عنه.. التي كذبت بها الرؤية الرواية والصورة التصور والفكر الاعتقاد والانتظار الوعد وكذب بها كل الشهود المشهود له.. كل من أريدوا وحسبوا شهوداً له.!

إن مأساة وفضيحة وعذاب وهوان وإهانة أي إله وكل إله أنه لن يوجد أو يرى أو يقرأ أو يفسّر أو يفهم أو يعرض في ذاته بل في ذوات الآخرين في كل أهوائهم وشهواتهم ونقائصهم وظروفهم وعيوبهم ولغاتهم وأخلاقهم وفي أعضائهم ولغات وأخلاق أعضائهم.. في كل لغات وأخلاق أعضائهم. إنها لو تغيرت أخلاق ووظائف وكينونات الأعضاء.. أعضائهم لتغيرت أوصاف وأخلاق وكينونات وأوامر ومطالب وتعاليم إلههم.!

.. منذ وجد الكون والإنسان والآلهة أي والحديث عن الآلهة والتصوّر لها والتعليم بها وعنها ولها هل وجد أي إله في ذاته أم في ذوات الآخرين المتعددين المختلفين المتفاوتين المتناقضين المتحاربين المتلاعنين؟

لهذا جاء ويجيء أبداً أي الإله متناقضاً متلاعناً متحارباً متفاوتاً مثل من جاء في ذواتهم.!

إذن هل وجد أي إله أم وجد من زعموا أنهم وجدوه؟ ولو وجد فهل وجد أو يوجد في ذاته أم في ذوات من وجدوه أو من زعموا أنهم وجدوه؟ إن الإله هو الكائن الذي لن يرى أو يسمع أو يقرأ أو يفسّر أو يوجد أو يلقى في ذاته أو بصوته أو بخطه أو بقوته أو هيبته أو حتى في صورته أو زيّه. إنه أبداً مزوّر..

.. في كل تاريخ الإله أي إله هل رؤي أو سمع أو لقي أو لمس أو شمّ أو وجد أو وجّه خاطباً معلماً آمراً ناهياً محاسباً محاكماً حاكماً ناطقاً بالحكم معاقباً منفذاً للعقاب مادحاً ذامّاً مصادقاً معادياً محارباً مسالماً رافضاً قابلاً محلّلاً محرماً؟ هل حدث شيء من ذلك أو يمكن أن يحدث؟

أم الذي وجد وجاء أبداً بكل أساليب ومعاني الوجود والمجيء هو الإنسان لابساً كل الأزياء،

متكلماً كل اللغات، منتمياً كل الانتماءات، ناطقاً بكل الشعارات، صاعداً فوق كل المحاريب، مشحوناً متفجراً بكل العداوات والأحقاد والبغض والأهواء والشهوات والآثام والنقائض والأكاذيب والأوحال ملقياً بها على الإله.. على ضميره وعقله وأخلاقه وعلى كل معانيه بل مادحاً مصلياً متعبّداً له بها..

زاعماً أنه أي الإله هو الذي يفعل ويقول ويعلم ويفتش وينفّذ كل ذلك بواسطة ذاته ومن داخلها بل وأنه هو المرئي المسموع المقروء الموجود فوق المنبر وداخل المحراب وفي سطور الكتاب وفي اللحية والعمامة والجبة والعباءة والقلنسوة والجلباب جاء في صيغة بعض من خلق ليقول ويعلم ويفتش وينفّذ كل ما يريد ويطلب مصوراً عارضاً نفسه في عمامة أو جبة أو لحية أو عباءة أو خيمة أو جلباب مرتدياً لذلك متخفياً مستتراً متنكراً فيه دون أن يستطيع أي الإله أن يعلن معارضته أو موافقته.. أن يقول لا أو نعم.. أن يقول كذبت وأخطأت أو يقول صدقت وأصبت..!

إنه أي الإله الكائن الذي لا يقول أو يفعل شيئاً لتبرئة نفسه مهما قست الاتهامات.!

لهذا أي لأنه أي الإله لا يستطيع أن يقول أي شيء من ذلك فإنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد مثله من جرؤ ويجرؤ على الكذب عليه كل الكذابين الجبناء الضعفاء بكل الشجاعة والقوة والأمان والاطمئنان..!

إنه لا كائن أبيح ويباح وسوف يظل يباح عرضه وشرفه وكرامته وذكاؤه وتقواه لكل الكذابين والمتاجرين والأغبياء والجهلاء والأنذال بلا أية حراسة أو رقابة ذاتية أو خارجية محلية أو عالمية مثل الإله.. مثل كل إله.!

.. إن من أصعب الأشياء على الأفهام والأخلاق والعقول بل وعلى الإيمان والتديّن والتقوى ومن أعسرها أنها لم توجد أقوى وأضخم وأشهر المنظمات العالمية بل والكونية لحمايته وتبرئته من ذلك..!

هل وجد أو يمكن أن يوجد محتاج إلى هذه الحماية والتبرئة مثل الإله.. مثل كل إله؟

.. هل كان فقدان هذه المنظمات عجزاً أم جهلاً أم كسلاً أم استرخاء أم بلادة أم عداوة أم مؤامرة مدبّرة على هذا الإله الذي لا ناصر ولا حامي له مهما جاءت وكانت المزاعم والعقائد والأديان المتهمة المشوّهة الشاتمة لكل صوره وصيغه وتفاسيره؟

هل وجد مستفرغ عليه ومستفرغ به مشتوم مشتوم به بلا أي حامٍ أو مناصر غير الإله؟

إن أقسى وأوقح وأقبح وأقوى أعداء الإله وفاضحيه ولاعنيه ومشوّهيه ومحقّريه هم أنبياؤه وأولياؤه وأصدقاؤه وأنصاره.

.. هم الذين يجيئون ليعلموه ويمجّدوه ويعبدوه وينظّفوه ويقدّسوه ويفرّحوه ويزفوه إلى كل احتفالات ومهرجانات الأعراس والأفراح والزفاف.!

لكي يدقّوا كل أجراس مجده والتمجيد له.!

كيف لم يعرف ذلك ويعلنه أنبياؤه وأولياؤه وأصدقاؤه؟

هل التفسير أنهم أغبياء أو أعداء كل هذا الغباء أو كل هذا العداء؟

لعل أردأ وأسوأ وأعدى الأعداء هم الأعداء الذين لا يعرفون أنهم أعداء. لعل الأنبياء وكل المتحدثين عن السماء وعن سكانها هم هؤلاء الأعداء الأغبياء أي حين يكونون صادقين.!

.. بعدنا عن السؤال أو الافتراض الذي طرح نفسه على نفسه وعلينا أو الذي طرحناه على نفسه وعلينا أو الذي تحدثنا عنه في سطور سابقة دون أن يطرح نفسه على أي شيء أو تطرحه نحن على أي شيء.. هل السؤال يساوي السؤال وقضية السؤال أي المسؤول عنه أم يساوي السائل؟ هل سئل هذا السؤال أو عرف جوابه أو وجد من يريد معرفة جوابه؟

نعم، لقد بعدنا كثيراً عن السؤال فلنعد إليه معتذرين إليه..!

.. إنه السؤال أو الافتراض الذي يقول أو الذي يقال إنه يقول أو الذي يجب أن يقول ويجب أن يقال إنه يقول:

ماذا لو وجدت هذه المحكمة أو المنظمة الدولية أو الكونية فاحتكم إليها الإنسان العربي شاكياً مما فعلت به الطبيعة والأرض، مطالباً بالعقاب لهما وبالتعويض له منهما، مما فعلتاه به، أو فاحتكمت إليها الأرض والطبيعة مطالبتين بالعقاب والتعويض من الإنسان العربي لما فعل وأوقع بهما؟

أي الخصمين حينئذٍ سيكون منطقه وحججه وتهمه أقوى وأصدق وأولى بالاستماع إليه وبالتقبل لدى هذه المنظمة والمحكمة؟

وماذا تقول الاحتمالات عمّن قد يحكم له أو يحكم عليه، وأيهما قد يجيء الحكم له أو الحكم عليه أقوى وأقسى؟!

إن الحكم أحياناً ليعذبّ ويخيف ويحزن ويفجع من يحكم به أكثر وأقسى مما يفعل ذلك بمن يحكم عليه. ليت الإله عرف ذلك.!

وقد يجيء التساؤل حينئذٍ هكذا:

وهل تستطيع هذه المنظمة أو المحكمة أن تحكم لهذا أو لهذا، أو أن تحكم على هذا أو على هذا؟

إن الحكم على هذا أو لهذا له شروط وأسباب صعبة جداً..!

أليس المفروض أو المحتوم بل أو المطلوب والواجب والعدل والشرف أن تقع في حيرة بل في ورطة تجعلها عاجزة عن أن تدين أو تبرىء وعن أن تجزي أو تعاقب وعن أن تعرف ذلك مثل عجز إله وحاكم أو صانع أو قائد أو مريد أو مدبّر هذا الوجود، كل الوجود، وكل وجود عن أن يعرف ما الذي يجب وينبغي بل ويريد ويرضى ويسعده ويفرحه ويشرّفه أن يخلقه وكيف يخلقه ومتى يخلقه وأين يخلقه ولماذا يخلقه ولمصلحة من يخلقه وبأي منطق أو خلق أو كرامة أو دين أو تقوى يخلقه ويخلقه كما خلقه ويخلقه؟.. أليس الخلق البادىء ورطة وحيرة لا نموذج لهما تعذيباً وتعجيزاً وتضليلاً

وتحدياً وإذلالاً؟ كيف لم يفهم الخالق الأول البادىء ذلك؟ إنها أي هذه المنظمة أو المحكمة الكونية المفترضة لا بدّ أن تواجه أي إن لم تكن قد تعلّمت من آلهة العروبة ونبواتها وعبقرياتها وفلسفاتها ودياناتها ومن قرآنها وتفاسيره وأحاديثه.

ـ نعم، لا بدّ أن تواجه حينئذٍ كل ما لا بدّ أن يجعلها عاجزة كل صيغ العجز ومعانيه وتفاسيره وأخلاقه أن تعرف من الذي يستحق من الخصمين المتحاكمين أن يحكم له أو ضده وأيهما يستحق أقسى الحكم وأيهما يستحق أخفه أي إن كان لا بدّ من الحكم بأقساه أو بأخفه.

أي إن لم تكن قد استعارت أو تعلمت أو سرقت كل أخلاقها ورؤاها ومواهبها من العروبة التي تجد وترى في عجزها كل القدرة والقوة، وفي جهالتها كل العلم والمعرفة والعبقرية، وفي وقاحتها وشتائمها كل التهذيب والفروسية والتديّن، وفي هزائمها كل الانتصارات وفي نبوتها وكتابها المنزّل كل معارف الإله ورؤاه وتصوّراته وأمانيه وتعاليمه وطاقاته وفنونه الإبداعية البلاغية وكل تفاسير قوانين الطبيعة وتاريخها بداية ونهاية، بقاء وفناء، وترى في غزواتها وفتوحاتها المتحولة إلى سبي واسترقاق ومغانم وجزية واحتلال ـ ترى فيها كل التمدين والتحضير والتعمير والعطاء لمن فعلت بهم ذلك.

.. ما أصعب وأقسى أن يكون أي كائن قاضياً ليحكم باسم العدالة على هذا وضد هذا وفي هذا ولهذا..

ما أقسى ما لا بدّ أن يعاني فكره وعقله وقلبه وضميره وأخلاقه أي ما لم يكن حجراً في كل رؤاه وتفاسيره وحساباته.!

أو ما لم تكن أحاسيسه وحواسه وأخلاقه حواس وأحاسيس وأخلاق إله يرى ويسمع ويواجه ويعايش ويفعل كل هذا كل أوقاته دون أن يطلق على نفسه كل أسلحة الانتحار والتعذيب والعقاب بل والتشويه.

.. لو أن أي قاضٍ محاكم يعايش ويقاسي كل معاني الضمير والقلب والتفكير والأخلاق والمحاسبة والمحاكمة للنفس ولاحتمالات الخطأ والصواب فهل يستطيع لسانه أن ينطق بأي حكم أو أن يكتب أو يوقع قلمه أي حكم.. أقسى حكم أو أخف حكم؟ وإن استطاع أن يفعل ذلك فهل يمكن تصوّر المعاناة التي لا بدّ أن تقاسيها وتتعذّب بها كل معانيه؟ ما أقسى وأصعب وأفجع أن يكون وأن يظل من يقضي ويحاكم ويحكم إنساناً بكل معاني الإنسان أو بشيء منها.!

.. لقد روّض الإنسان وكل كائن في هذا الوجود..

ـ روض أخلاقه وضميره وتفكيره وعقله ورؤاه وكل معانيه على أن تفقد بل وتقتل كل معانيها. لقد كان محتوماً أن يفعل ذلك لكي يستطيع بلا أية معاناة أو محاسبة أو حتى مساءلة أن يكون وأن يفعل كل شيء وأي شيء.. أن يكون قاضياً وحاكماً ومحاكماً ورائياً ومفسّراً ومعايشاً ومنفذاً، بل ونبياً وإلهاً..

ناطقاً بحكم الإعدام ومنفذاً له بأسلوب ومشاعر ومباهاة من يصلي لأهله أو من ينقذ غريقاً من

غرقه أو يشفي مريضاً أو متألماً من مرضه أو من ألمه، أو يزيل تشوّه أي مشوّه.

.. أن يكون متحدثاً عن سكان السماء ناقلاً راوياً لتعاليمهم وأخلاقهم وصفاتهم بل قادماً من لقاء ومفاوضات الآلهة متكلماً بلغاتها وألسنتها، لاعناً بلعناتها مبغضاً بأحقادها معادياً بعداواتها مهدداً موعداً بجحيمها. كيف يملك هذه الجرأة لولا هذا الترويض؟

.. ماذا لولا هذا الترويض الذي وقّعه الإنسان على نفسه باسم الدين والعدالة أو الأخلاق أو الأمن أو النظام أو المذهب أو الانتماء أو إرضاء الإله وإسعاده ووضع كل الفرح في قلبه أو بالتكرار.. التكرار الهازم للعيون والعقول والأخلاق..

ما أقدر التكرار على الترويض لتقبل ما لا يقبل تقبله ولفهم ما لا يمكن فهمه.!

.. ما أفدح وأطول وأقسى وأفجع ما أهان وأذلّ وحقّر وشوّه ولعن وهزم الإنسان كل معانيه بل وكل دينه وتقواه بحجة الطاعة والاحترام والتكريم والعبادة والإفراح والإسعاد والإرضاء لإلهه. لآلهته..!

هل عصي أو حقّر أحد أو شيء مثلما عصيت وحقّرت معاني الآلهة بحجة الطاعة والاحترام لها؟

هل عاقب أو شوّه أو أفسد أو حقّر أو أذلّ أو أهان كل معاني الإنسان مثل الإله أي مثل زعم ومحاولة ودعوى الاستجابة والطاعة والتكريم والنصر والانتصار له؟ هل فعل بالإنسان كل ذلك شيء مثلما فعله به تكرار الرؤية والسماع والمواجهة والمعايشة؟

إن التكرار يسحب من العيون والآذان والعقول والضمائر والأخلاق كل وظائفها.!

.. نعم، ماذا لولا هذا الترويض بالتكرار.. تكرار الرؤية والمواجهة والممارسة والتعليم والتلقين؟

.. ماذا لو أن العيون والآذان والعقول والأخلاق لم تروض الترويض الذي يجعلها فاقدة لكل معانيها ووظائفها بل ومضادة وطاردة وقاتلة لكل معانيها ووظائفها بالتكرار، التكرار..

ثم رأت وسمعت وفهمت وقرأت وفسّرت كل الدمامات والتشوّهات والأنّات والآهات والصرخات والبلادات التي تغطي وتفضح وتفجع وتعايش كل شيء وكل أحد بل التي لا يرى أو يسمع أو يعايش أو يقرأ أو يوجد سواها أما بالتفرّد وأما بالاختلاط والمشاركة والتعاقب والتوقّع والانتظار والتفاسير.! أليس كل شيء فاجعاً مؤلماً إما بالواقع وإما بالتوقّع والانتظار وإما بالتفاسير.. بتفاسيره؟ أليس كل وجه وكل قوة وكل وجود وكل سرور هو دمامة وضعفاً وفقداً وحزناً إما واقعاً أو توقّعاً أو مصيراً أو تفسيراً؟

.. هل وجد مثل الإله أو غير الإله من أفسد وقهر وضلل وشوّه وسحب منه التكرار كل معانيه؟ هل مثل الإله أو غير الإله من روّضه التكرار وعوده على ألا يرى أو يسمع أو يفهم أو يفسّر أو يقرأ أو يفعل أو يعمل أو يعامل كما يجب وينبغي وينتظر ويطلب أن يكون، بل على أن يكون كل النقيض دون أن يحاسبه أو يعاتبه أو حتى يسائله أي معنى من معانيه؟ هل مثل الإله من جعله الترويض بالتكرار أعجز وأقل وأصغر من أعجز وأصغر وأقل الحشرات رؤية واستماعاً وسماعاً وانفجاعاً واشمئزازاً

واستنكاراً وغضباً فاعلاً متحركاً منكراً مغيراً مصححاً؟. أليست كل الحشرات تنكر وتفجع وتكره وترفض وتهرب وتعصي وتقاوم بل وتسقط وتموت معاناة ومقاومة ورفضاً؟

ولكن الإله هل يصعد إلى شيء من ذلك؟ ليته يستطيع ويفعل.!

.. الإله قد يرى أو يسمع أو يحسب أو يحاسب أو يرضى أو يغضب أو يحب أو يكره أو يقبل أو يرفض أو يفكر أو ينكر أو يستحي أو يهرب أو يقاوم.!

هل يمكن اتهامه بهذه التهم أو وصفه وتمجيده بهذه الأوصاف؟ إذن كيف جاء أو بقي أي شيء كما جاء وكما بقي؟

هل يقبل أو يرضى أي كائن مهما كان أن يحدث في الكون أو في أي شيء أي حادث كما هو حادث وكما يحدث أو أن يقبل أو يرضى أو يغفر ذلك؟ إذن قولوا، قولوا أيها المحبون المحترمون الممجدون للإله المدافعون عنه المؤمنون به..

- قولوا إن التكرار المروّض المفسد لكل شيء ولكل أحد قد سحب منه وأذل وأفسد وعطّل وقتل فيه كل معانيه.. كل هذه المعاني، كل معاني الكائن الحي.. قولوا إن إلهنا هو وحده الذي قتل التكرار المروّض كل معانيه دون كل الكائنات الحية..!

.. قولوا كل ذلك لئلا تكونوا أقسى القساة في سبّه وذمّه وتحقيره.. إنه أي الإله ميتاً أقل هجاء لنفسه منه حياً.!

إن المؤمن الذي يقول: إلهي ميت أكرم وأنبل هجاء له من المؤمن الذي يقول إلهي حي.

.. هل وجد أو يمكن أن يوجد محتاج إلى كل الإشفاق والرحمة والعطف والحنان والمحاباة بل وإلى التزوير.. إلى كل أساليب التزوير في رؤيته وتفسيره ومحاسبته وفي الحكم عليه وفي تعديد كل أوصافه ومزاياه مثل الإله؟ ولعل كل عبادات الإنسان للإله وعلاقاته به وأوصافه له وأحاديثه عنه أساليب متنوعة من الإشفاق والعطف عليه والرحمة والتزوير الحاني.!

.. أو قولوا أيها المؤمنون جداً: إن إلهنا قد خبط إحدى خبطاته أو خبطته الوحيدة فولدت أو خلقت هذا الكون بكل صيغه وأجناسه ووحداته، بكل آثامه وآلامه وتناقضاته وقبحه وفحشه وضلاله وضياعه.. وكان حينما خبط خبطته هذه نائماً أو غائباً عن نفسه أو فاقداً لوعيه أو لاعباً عابثاً متسلياً أو متحركاً حركات عصبية غير محسوبة أو مرادة.!

لعل أرفق التفاسير به أن يقال ويعتقد أنها حركات عصبية تائهة.!

وحين عاد إلى نفسه هاله وفجعه وفضحه وأخجله وأذلّه ما رأى وسمع وعرف وفعل. عذّبه ذلك كل أنواع وأساليب التعذيب وأقساه، أقساه.!

وقد يصعب الاقتناع بهذا التفسير أو الافتراض لأنه يعني أو قد يعني أن الإله في بدايته كان يقاسي أمام المواجهات الصعبة الأليمة أي نوع أو أسلوب من أنواع وأساليب المقاساة..

.. وتحت إملاءات وإيحاءات وضغوط وعذاب الصدمة فعل بنفسه شيئاً رهيباً قبيحاً فاجعاً بل جنونياً..

شيئاً لم يكن منتظراً أو متوقعاً أو حتى متصوراً أن يفعله هو أو أي كائن بنفسه..!.. ولكن أليس كل ما يفعله الإله بنفسه خارجاً على كل المنتظر والمتوقع بل وعلى كل المتصور والمحترم؟

.. فعل ذلك الشيء عقاباً وتأديباً لنفسه أو فراراً بها أو حماية لها من أهوال وفواجع ودمامات وعار وفحش وقبح وعذاب وتأثيم وتعيير وسباب المواجهة.. لقد أبطل وعطّل وقتل في نفسه كل الحواس والأحاسيس وكل وظائف العقل والتفكير والأخلاق والشهامة والرحمة والحب والندم والاستحياء والمحاسبة والمحاكمة للنفس ولأي شيء..

فأصبح فاقداً لكل وظائف الرؤية والسمع والعقل ولكل أساليب ومعاني التخاطب مع النفس ومع الأخلاق ومع كل شيء وأي شيء فاقداً لكل وظائف ومعاني وتفاسير الكائن الحي.. لكل تعبيرات الحياة والتزاماتها وشروطها.. لكل تبعاتها وورطاتها وهمومها ولكل مسرّاتها ولذاتها وأرباحها أيضاً أي الخادعة التي لا تعني أو تكون إلّا مقاومة أو مناقضة أو مهادنة أو مسالمة للنقيض..! هل يعني أو يساوي الإله أو أي إله إلّا مقاومة أو مناقضة أو مهادنة أو مسالمة الشيطان؟ وهل يعني أو يساوي الشيطان إلّا مقاومة الإله أو مناقضته أو منافسته أو مخادعته أو هزيمته أو مهادنته أو مواجهته؟ وهل يساوي أو يعني الإله والشيطان إلّا ما يعني ويساوي فقدهما أو إلّا ما تساوي وتعني مواجهة أحدهما للآخر هذه المواجهة التي لا يساوي أو يعني انتصارها لا انهزامها؟ أما انهزامهما معاً فيها فهو وحده الانتصار كله. وماذا تساوي أو تعني مواجهة الإله للشيطان أو مواجهة الشيطان للإله مهما كانت النتائج؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد قبح أو فحش أو بذاءة أو وقاحة أو خسران مثل هذه المواجهة بين الإله والشيطان؟

.. لننظر إليهما إلى الإله وإلى الشيطان.. هل يربحان شيئاً منتصرين فكيف بهما منهزمين؟ أليسا خاسرين أبداً؟

أي ربح للشيطان إذا انتصر؟ أليس انتصاره أي ربحه خسراناً له لأنه لا بدّ أن يتعذّب ويعاقب ويشقى بقدر ما يضل ويفسد ويقود إلى الجحيم دون أن يأخذ أو يعطى شيئاً؟

.. أما الإله فماذا يمكن أن يربحه إذا انتصر أو لو انتصر وهو لن ينتصر؟ إنه خاسر ومأخوذ منه وملزم مكلف مسؤول مفروض عليه حتى ولو تحول كل شيء وكل أحد إلى انتصارات قاهرة باهرة له دون أن يأخذ أو يكسب أي شيء لنفسه..

.. إنه لن يربح أي ربح لذاته من هذه الانتصارات المفترضة. بل إنه لا بدّ أن يكون ملزماً ملتزماً بالإنفاق بكل معاني وأنواع الإنفاق الفكري والعقلي والنفسي والعضلي والمادي على فردوسه وعلى كل من قادتهم انتصاراته إلى سكناه وإلى الخلود فيه. وأيضاً لا بدّ أن يكون ملزماً ملتزماً برعايته أي الفردوس وبالإشراف عليه وبحمايته وبالتحديق فيه وبالمحافظة والإبقاء على مستواه الجيد.. وفي

هذا كل أنواع التعذيب له.. منها تعذيب الغيرة ومشاعر الحرمان من الممارسة والمشاركة ومواجهة كل ما فيه أي الفردوس من البذاءات والتفاهات والفضائح والقبائح مسموعة ومرئية ومفسّرة محاسبة. ما أعظم وأبشع الخسائر والأهوال التي لا بدّ أن يكابدها الإله والشيطان منتصرين فكيف بهما منهزمين؟

كيف لم يعرفا ذلك؟ كيف لم يجدا ناصحين مقنعين منقذين؟

.. لنعد إلى افتراض هذه المنظمة أو المحكمة الكونية وإلى افتراض أن الإنسان العربي قد احتكم إليها شاكياً من الصيغ والمستويات الضعيفة الهابطة جداً التي صاغته واعتقلته وأذلّته وخلّدته فيها وبها الطبيعة والأرض بكل أساليب وتفاسير التعمّد المعادي بلا حدود أو نماذج، وإلى افتراض أن الأرض والطبيعة قد احتكمتا إليها أي إلى هذه المنظمة أو المحكمة مطالبتين بالتعويض والتكفير وبالمحاسبة والمعاقبة للإنسان العربي ومنه لما أوقع واستفرغ ويوقع ويستفرغ عليهما وبهما وعلى كل شيء وبكل شيء يتعامل ويتخاطب به ومعه أي الإنسان بل وعلى كل شيء وبكل شيء يقرؤه أو يفسّره أو يعتقده أو حتى يمتدحه ويصفه ويعلن احترامه له وإيمانه به، هل حقّر أو هجي أو سبّ أو ذمّ أو شوّه كائن مثل الإله بإيمان الإنسان العربي به وبامتداحه وتمجيده وعبادته له؟

أليس الإنسان العربي يهجو ويحقّر ويذم ويتهم ويشوّه بامتداحه وتمجيده وتبرئته وبتعبّده وإيمانه أكثر وأقسى مما يفعل ذلك بهجائه وذمّه واتهامه وتحقيره وبرفضه للتعبّد وللإيمان؟ إنه لو جاء إله جديد لهذا الكون لرفض أن يعبده ويمتدحه ويؤمن به الإنسان العربي أي إن كان قد عرف كيف آمن بالإله القديم وكيف عبده ومدحه وفسره.!

.. إن على من لا يستطيع أو يريد تصديق هذا ألا يقرأ الشعراء والخطباء والأدباء والفقهاء والكتّاب العرب مادحين وممجّدين ومنشدين لسلاطينهم وخلفائهم وثوّارهم بل ولأنبيائهم.. كيف حقّروهم وهجوهم وفضحوهم وبصقوا واستفرغوا عليهم بدعوى وأسلوب وإعلان المديح والتمجيد لهم؟

وإن عليه كذلك أي على من لا يستطيع أو يريد تصديق هذا ألّا يقرأ النبوات والسور والآيات العربية المادحة الممجّدة المغنية المصلية الواصفة المفسّرة للإله العربي.. كيف رأته وقرأته وفسّرته وصوّرته وتصوّرته واختزنته في أضعف وأصغر وأردأ الأوصاف..

.. أيهما أكثر وأقبح عاراً وافتضاحاً وتشوّهاً وتلوّثاً وخزياً بالمدائح والقصائد والصلوات التي وجّهت ورفعت إليهما: الإله العربي أم الحاكم أم السلطان أم الخليفة أم الزعيم أم الثوري أم النبي العربي!

أي هؤلاء كان يجب وينبغي أن يحمل من الأسلحة أكثر وأن يقاتل بها أشرس وأعنف ليحمي نفسه من أن يؤمن به الإنسان العربي ومن أن يمتدحه ويصفه ويفسّره ويخاطبه وينشده ويراه ويعبده ويصلي له ويقاتل ويعادي ويخاصم ويشاتم باسمه ودفاعاً عنه واحتراماً وحباً وولاء له؟ ولكن ما أبعدهما أي الإله العربي والممدوح العربي عن أن يريا أو يسمعا أو يفهما.!

.. نعم، لنعد إلى الافتراضات الثلاثة ولنفترضها واقعاً ولنقرأ احتمالاتها أي لنحاول ذلك..

هل تحكم أي هذه المنظمة أو المحكمة الكونية للإنسان العربي في شكواه ضد الأرض والطبيعة لأنهما صاغتاه كما صاغتاه وكما جاء.!؟

إنه لا ينبغي أن يوجد أي خلاف أو شك في أن صياغته كما صيغ وكما جاء أي الإنسان العربي عدوان وظلم تقصر وتقل كل المحاسبات والعقوبات المعروفة والمستطاعة والممكنة عن أن تكون شيئاً من العقاب أو التكفير أو التحذير أو الإنذار أو التأديب أو الانتقام أو الثأر الكافي أو المطلوب ممن فعل به ذلك. من فعله كما فعله أي إن كان قد فعله أحد أو قبل أو استطاع أن يفعله أحد أو حتى إن كان أحد قد اهتدى إلى تصوّر صيغته لكي يحاول أن يصوغه ويخرجه ويعرضه ويعلنه ويراه ويقرأه ويفسّره بها؟

أليست صيغة الإنسان العربي بكل تفاسيرها وتعبيراتها وقدراتها ومستوياتها وحيانها التي جاءت كما جاءت ودامت وخلدت بلا أي تغيير هي كل التدليل والتفسير والإقناع على أنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد أي كائن فوق هذا الكون يريده ويدبّره ويخططه ويصوغه ويخلقه ويخرجه ثم يظل يراه ويواجهه ويفهمه ويقرؤه ويخاطبه ويحاوره ويعامله دون أن يهرب أو يختفي أو ينتحر أو يفقأ كل حواسه وأحاسيسه لئلا يرى أو يسمع أو يقرأ أو يفهم أو يواجه أو يحاور أو يسأل أو يسائل أو يتهم أو يتهم نفسه بشيء من ذلك؟ هل يصح أو يقبل أو يغفر أن يوجد من يخالف أو يشك في هذا الاستنتاج؟ إن تصور الإنسان العربي قبل مجيئه ليجيء في صيغته التي جاء بها لشيء تعجز عنه وتموت دونه كل رؤى وتصوّرات كل الآلهة.

إن مجيئه كما جاء أي الإنسان العربي لم يكن تصوّراً ثم تخطيطاً ثم صيغة وإخراجاً بل لقد كان مجيئاً فقط. ولعل مجيء الكون وكل شيء كما جاء كان مجيئاً فقط.

أليس فخراً ومجداً وشرفاً للإنسان العربي أن مجيئه كما جاء لا بدّ أن يكون نفياً لكل احتمال بأن يكون فوق هذا الكون أي كائن أي كائن بأي مستوى أو طور من مستويات وأطوار الكينونة؟

.. إذن أليس شيئاً محيّراً ومزعجاً وفاجعاً أن يكون النافي بكل وجوده وبكل صيغ وتفاسير وجوده لكل الاحتمالات بأن يكون فوق هذا الكون أي كائن.

ـ أن يكون هو أشهر وأكثر وأقوى من يتحدث عن هذا الكائن فوق الكون ومن يؤمن به ويدعو إليه ويحاول أن يدلل عليه ومن يشاتم ويخاصم ويعادي ويقتل ويقاتل ويبغض باسمه وباسم الإيمان به والاحترام والتمجيد له؟ كائن كل صيغ وتفاسير وجوده تنفي وتطرد كل ما ترى وتسمع وتقول وتعتقد عيونه وآذانه وتعاليمه ولغاته.!

هل يستطاع سماع أو تصديق المنطق أو التفكير الذي يقول:

إن الإنسان العربي هو أقوى وأشهر نافٍ بوجوده وبكل صيغ وجوده لكل إله ولأي إله وإنه أقوى وأشهر مثبت للإله ولكل إله ومدلل عليه ومتحدث عنه ومصلٍ له بلسانه وتعاليمه ونبواته وأنبيائه؟؟

وأي هذين التفسيرين واللغتين للإنسان العربي أقوى وأقدر على الإقناع؟

إذن هل الواجب والمفروض أن تفرح وتسعد أو أن تحزن وتشقى وتفجع يا شعبي العربي لأنك أنت وحدك هذا التناقض والتضاد الفريد، الفريد في كل لغاته وتفاسيره وتاريخه؟

⊛ ⊛ ⊛

مرة أخرى بل مرات أخرى لنعد إلى السؤال العجيب الأليم الصعب.!

إلى السؤال الذي لا بدّ أن يصيب الإله وكل أعوانه وموظفيه بكل الذعر والحيرة والحرج أي لو سمعوه وقرؤوه وفهموه.!

الذي لا بدّ أن يجعلهم يتواجهون بكل تعبيرات العجز والانكسار والانهيار.!

.. نعم، هل تتقبّل هذه المحكمة أو المنظمة ادعاء الإنسان العربي على الأرض والطبيعة شاكياً متظلّماً مطالباً بالثأر وبالتعويض والجزاء عما فعلتا به؟

.. حتماً سيرق ويحزن بل وقد يبكي كل أعضاء المحكمة أو المنظمة للإنسان العربي.. للصيغ والمستويات الحزينة الضعيفة التي صيغ بها والتي فرضت عليه ودبّرت وخططت واختيرت له أو التي جاء بها وجاءت به دون تخطيط أو تدبير أو اختيار أو إرادة أو قصد بل أو علم بذلك أو اهتمام به..

ومهما كان شمول واتساع بل وعالمية وكونية الخبث والشرور والخبثاء والأشرار فهل يستطيع أو يعرف أو يجرؤ أي شيء أو أي أحد من هذه أو من هؤلاء أن يتصوّر أو يريد أو يخطط أو يصوغ الإنسان العربي ليجيء كما جاء.. كما جاء أو شيئاً مما جاء في صيغ أنبيائه أو قديسيه أو زعمائه أو قادته أو عباقرته أو عمالقته أو فلاسفته أو شعرائه أو أدبائه أو خطبائه أو علمائه أو فقهائه أو فنانيه أو مفكريه أو معلميه أو مؤمنيه وصالحيه أو كافريه وفاسقيه؟ لقد جاء في كل سمواته وأراضيه تحت كل درجات الهبوط الواقع والمتصوّر.!

.. إنه لمحتوم أو محتمل أو واجب أن يواجه ويقاسي كل أعضاء هذه المحكمة أو المنظمة هذه المواجهة والمقاساة وأن يذرفوا كل الدموع والأحزان والحنان على الإنسان العربي ومن أجل الإنسان العربي لمجيئه بهذه الصيغ والمستويات التي وجدوه بها بكل تفاسيرها العقلية والفكرية والأخلاقية والعلمية والنفسية والعضلية واللغوية التعبيرية بل والدينية والتديّنية حتى دينه وتديّنه إنهما أضعف وأردأ من كل دين وتديّن أي في معانيهما وتفاسيرهما مهما كانت لغاتهما.!

ولكن هل يمكن أو هل يجب أو ينتظر أو ينبغي أن تحكم له في هذه الدعوى في هذه القضية مهما ذابت واحترقت بل وافتضحت في رثائها وبكائها وأساها له وحنانها وحنوها عليه أعني هذه المنظمة أو المحكمة الكونية المتصوّرة؟

كيف تحكم له أو تقبل أو حتى تفهم احتكامه إليها وهو يعلن ويؤمن أن إلهه هو الذي أراده وخططه وصاغه وخلقه واشتهاه وعشقه في صيغه ومستوياته التي جاء بها وأنه لو جاء أو صيغ في أية صيغ أو مستويات أخرى لكان ذلك كل الدمامة والتشويه والتحقير والهجاء والتعذيب له ولإلهه ولكل

شيء؟ إنه ليعتقد بل ويقول إن كل عبقريات الآلهة والطبيعة قد وظّفت وأنفقت لكي تستطيع أن تصوغه كما جاء وإن أي كائن لن يجيء كما جاء.!

.. وأيضاً كيف تحكم له أو تقبل احتكامه إليها مطالباً بالحكم له على الأرض والطبيعة وهو يعلن بكل الإيمان والاقتناع والرضا والفهم والإعجاب أن إلهه هو الذي أراد وخطّط وصاغ وخلق الأرض والطبيعة بكل الحب والرحمة والحكمة والجمال والذكاء والتقوى والعبقرية لتجيئا وتكونا وتفعلا وتعاملا وتصوغا كما حدث ويحدث وكما لا بدّ أن يحدث؟ إنه ليرى ويعلن ويعلم أن الطبيعة والأرض بكل ما فيهما وبكل ما تفعلان هما عقل الإله وقلبه وضميره وأخلاقه ويداه وعضلاته ولغاته. إنهما كل معانيه بل كل ذاته مرئية ومسموعة وفاعلة، محاربة ومسالمة، معادية ومصادقة، مصافحة وضاربة. إنهما كل ملابسه الداخلية والخارجية الجديدة والقديمة الغالية والرخيصة.!

.. ولو أمكن الافتراض أنه أي الإنسان العربي قد رأى أو قد يرى أنه قد صيغ صياغة ضعيفة عاجزة رديئة في كل نماذجها وتعبيراتها وأنه لذلك قد ظلم ظلماً قد يكون أقسى وأقبح من كل ظلم فكيف يطالب بمحاكمة الطبيعة أو الأرض وبالقصاص والثأر منهما وبمجازاتهما على ذلك وهو يقول ويؤمن أنهما أي الأرض والطبيعة مرادتان ومخططتان ومفعولتان مخلوقتان مصوغتان محكومتان من خارجهما دون أن تريدا أو تعرفا أو تستشارا أو تقبلا أو تشتركا أو تختارا أو ترفضا شيئاً مما يفعل بهما، وأن المريد المخطط المحب العاشق المنظم الفاعل لكل ذلك هو الإله الذي نؤمن به ونعبده ونمجّده ونمتدحه ونشكره ونذبح وننحر كل قلوبنا وعقولنا وأخلاقنا وهاماتنا وقاماتنا وشجاعاتنا وكراماتنا ونظافاتنا بل وتفوانا تحت قدميه.. قدميه اللتين لم توجدا ولن توجدا.. اللتين كل جمالهما ونظافتهما وصحتهما وقوتهما في ألّا توجدا أو تريا أو تعاملا أو تعملا.. الذي نفعل له كل ذلك لأنه الفاعل بنا وبكل شيء كل ذلك.

ـ نعم، لو أمكن هذا الافتراض وحوسب به وأنه لافتراض صعب أي أن يرى العربي أنه قد صيغ أقل من الكمال بكل تفاسير الكمال فلا بدّ أن يوجد حينئذٍ من يقول: هكذا جاء الإنسان العربي.. هكذا جاء منطقه وإيمانه ودينه وتديّنه وأخلاقه وكل رؤاه وقراءاته وحساباته وتفاسيره لكل الأشياء، بل هكذا جاءت نبواته وعبقرياته.

.. هكذا جاء وجاءت لتقول ويقول: إن المراد المخطط المخلوق المفعول المفعول به.. المفعولة الموقعة به كل الأمراض والتشوّهات والبلادات والجهالات والعجز والضعف والانحراف والفسوق والمرادة الموقعة به كل هذه وكل هذا هو المذنب والعاصي والفاعل والمحاكم المحاسب المعاقب.

.. أما المريد المخطط العاشق القادر الفاعل الخالق لكل ذلك فهو الذي له كل الشكر والحمد والمجد والعبادة...

فهو الذي يحاكم ويحاسب ويعاقب من فعل بهم ما يحاكم ويحاسب ويعاقب من يفعلونه على فعله بهم..!

إن الإنسان العربي ليحتقر ويحقِّر ويهين ويلعن ويكره ويطارد ويهجو ويعاقب الضال والبليد والضعيف والسفيه والأحمق والعاجز ويشكر ويحمد ويمجد ويعبد وينزّه من أراد وخطّط وخلق هؤلاء ليجيئوا ويكونوا كما جاؤوا وكانوا لأنه أرادهم وخطّطهم وفعلهم وصاغهم كذلك أي لكي يكونوا ويجيئوا كما كانوا وجاؤوا.

وإنه أي الإنسان العربي ليستفرغ ويصب على إبليس كل لعناته وعداواته واتهاماته وأحقاده.. كل أسلحته النفسية والأخلاقية واللغوية ثم يحشد ويوظف ويحرّض كل حبه ورضاه وإعجابه وإيمانه وصلواته ومدائحه لكي يهرب كل ذلك بكل التذلّل والخضوع والرهبة والرهبانية والمسكنة لمن أراد ودبّر وخطّط وصاغ ووظّف إبليس ليكون إبليساً. أيهما أكثر وأقبح وأوقح إبليسية: إبليس أم صانعه ومريده إبليساً؟

.. إنه أي الإنسان العربي ليطرد ويطارد ويقتل ويقاتل ويذم ويسبّ الحشرات والجراثيم والحيوانات المتوحشة المفترسة المؤذية ويهرب ويشمئز منها بكل الأساليب وأقساها أو ببعض الأساليب وأخفها ويغلق أو يعلن أنه يريد أن يغلق أو أنه يتمنى أن يغلق دونها كل الأبواب والنوافذ والطرق بكل لغات وتفاسير الحماس والانفجاع والانزعاج والرفض والكبرياء والكرامة والبسالة..

أو يزعم أنه يفعل ذلك وأنه يجب أن يفعله دون أن يفعله أو يستطيعه، بينما يحشد ويحرّض ويوظف كل نبواته وعبقرياته وشاعرياته وفصاحاته وبلاغاته واهتماماته وحماساته وفروسياته وصلواته وعبودياته لكي تجرؤ وتستطيع أن تكون شيئاً من الثناء على الإله الذي تصور وأراد وخطط وخلق وصاغ هذه الكائنات لكي تكون أعظم وأقوى وأشهر مواطن ومساكن ومعايش بل ومصادق ومنافس مزاحم مكاثر له أي للإنسان العربي في كل أوطانه وبيوته وغرف نومه وفي كل معاهده ومعابده في كل أطوار تاريخه.. هذه الحشرات والكائنات المتهمة البريئة المعتدية شيئاً من أنواع الاعتداء عليها.. التي قد تفسّر ويفسّر وجودها بأن الإله لم يجد من ينوب عنه في مساكنه ومعايشة ومعاملة الإنسان العربي مثلها.!

لم يجد ما يساويها في عرضها لجماله ونظافته وقدرته الفنية والتصويرية.!

.. إنه يلعن الظلام والآلام والقحط والفيضان والأوبئة والتشوّهات والدمامات ويستعيذ ويستغيث منها ويصلي ضدها ويتداوى منها بالرقى والتمائم والأدعية والأحجبة وبكل الجهالات والخرافات لتحميه وتحرسه وتشفيه، مع أنه يراها حتماً يد الله ممدودة إليه بكل الحب والرحمة والعطاء والتكريم والحماية.!

إنه يفعل كل ذلك أي الإنسان العربي بكل الذعر والهوان والاستسلام والمسكنة..

ثم يهب كل إيمانه واحترامه وتقواه بل وتقديسه للكائن الذي يريد ويدبّر ويخطط ويصنع كل ذلك ويصنع به وله كل ذلك.. يريده ويدبره ويخططه ويصنعه وهو في كل يقظته ووعيه وقوته وحريته ورؤيته وتقواه..

بل وهو يتفجّر فرحاً وسعادة ونخوة ونشوة وإعجاباً بنفسه ورضاً عنها ومغازلة لها أي في عقائد وتعاليم وإيمان الإنسان العربي.!

.. إن الإله في إيمانه لن يخطيء في أي شيء يفعله كما أنه لن يحزن أو يندم على أي ذنب أو ظلم يرتكبه.!

.. إن الإنسان العربي لكل ذلك وإن كل ذلك ليس إلّا شيئاً من الإنسان العربي. إن أي كائن لم يعاد كل العقل والأخلاق والكرامة والذكاء مثل معاداة الإنسان العربي لكل ذلك في رؤيته وتفسيره للإله وفي تعاليمه عنه ومعاملته له.!

.. هل أتوقع أن أسمع هنا من يقول.. يقول لي: إنه ليس الإنسان العربي فقط، ليس وحده في هذه التقوى أو في هذا الخروج على كل تقوى؟ إن قوانين الوجود والكينونة ترفض التفرد أو التخصص أو التخصيص في العظمة أو التفاهة في القوة أو الضعف في الخير أو الشر.. ترفض ذلك في الفرد كما ترفضه في النوع والجنس. هل قوانين رفض التفرّد بتدبير وتخطيط أم تقليد أم توالد وولادة؟

.. إن له لشركاء يرجى أن يكونوا أقلين ويخشى أن يكونوا أكثرين.. كم يخشى أن يكون الشركاء في الأشياء الرديئة هم أبداً الأغلبين. وكم يخشى أن يكون هذا الذي يخشى هو الحادث الموجود دائماً.!

.. آه، كم يخشى أن الكائن الذي قد أراد وخطّط للإنسان العربي صيغته وصاغها وخلقها وأخرجها لتكون صيغته وحده بلا شريك أو مثيل.

نعم، كم يخشى أن يكون هذا الكائن تحت أقسى الانفعالات والتصوّرات قد أخطأ فصاغ آخرين كثيرين أو قليلين بصيغ الإنسان العربي وفي صيغه حاسباً تحت ضغوط وآلام أقسى وأغبى الظروف والحسابات أنه يصوغ الإنسان العربي وحده ويصوغ له وحده.!

وكم في هذا الخطأ من الظلم والقبح والعدوان أي إن كان قد حدث فعلاً لا تصوراً وحذراً فقط.!

إنه لصعب جداً أن يكون مخطط وصائغ الإنسان العربي كامل الوعي والفهم والاتزان والانضباط والرؤية والتذكر حين تخطيطه وصياغته ورؤيته وفهمه له واستماعه إليه..

وإنه لصعب كذلك ألّا يضل ويخطيء ويتخبّط من أراد وعشق ورضي وقبل أن تجيء صيغ الإنسان العربي وتفاسيره كما جاءت.!

إن المخلوق المصنوع هو الخالق الصانع جاء وظهر في صيغة أخرى.. في صيغته المدبّرة المخططة الفاعلة. وإن الخالق الصانع هو المخلوق المصنوع جاء في أقوى الأساليب تعبيراً عن وجوده ومعانيه..!

❀ ❀ ❀

وهنا قد تقفز خاطرة مثيرة ولكنها متوقعة.. مثيرة بقدر ما هي متوقعة.. قد تصرخان هنا: الأرض والطبيعة في آذان وعقول وضمائر أعضاء المحكمة أو المنظمة الكونية المفترضة قائلتين بكل حرارة الاحتجاج والانفجاع والغضب:

إننا أي نحن الأرض والطبيعة لم نفقد كل الوقار والاتزان والعدل بل والذكاء والكرامة والشرف والتقوى والاحترام للنفس وللوجود والكون وللإله الذي يجب أن يرى ويقرأ ويفسّر ويفهم بالرؤية والقراءة والتفسير والفهم لنا...

الذي لم ير ولن يرى أو يقرأ أو يفسر أو يفهم أو يحترم أو حتى يوجد إلّا بنا وفينا ولنا، بل الذي هو نحن في أجمل وأقوى وأصدق صوره وأزيائه وفي أردئها وأفجعها وأكثرها دمامة.

ـ نعم، إننا أي نحن الأرض والطبيعة لم نفقد كل ذلك مثلما فقدناه في محاباتنا ومعاملتنا وعطائنا للإنسان العربي وإننا لن نخشى من محاكمة ومحاسبة ومعاقبة الإله لنا مثل خشيتنا من محاسبته ومحاكمته ومعاقبته لنا لضخامة وديمومة محاباتنا وعطائنا وانحيازنا إليه وله.

ولأنه أي الإله لم يفتضح أو يفضح مثلما فضحناه وافتضح بنا، في محاباتنا وعطائنا للإنسان العربي لنكون تعبيراً وتفسيراً لمحاباة الإله له وفضحاً لذلك وافتضاحاً به.!

لقد تخطينا كل حدود الوقار والاتزان والعدل والذكاء والدين والتديّن في عطائنا ومحاباتنا للإنسان العربي وفي انحيازنا الفضاح إليه.. لقد أعطيناه وحابيناه وانحزنا إليه حتى غضبت علينا أردأ وأصغر وأنذل الحشرات وحزنت وفجعت واشمأزت منا وبنا ولنا وعلينا بل وتمرّدت وقرّرت أن تعاقب وتنتقم بالأساليب التي تعرفها وتستطيعها أعني الحشرات..!

لقد رأت أي الحشرات أن أقوى وأذكى هذه الأساليب الانتقامية العقابية هي أن تتكاثر وتنتشر وتقوى وتتسلّط وتسيطر وتتألق في العالم العربي كله بلا أية مقاومة.. هازمة ومذلة كل مقاومة أي لو وجدت أية مقاومة محتلة كل البيوت والغرف والسرر وموائد الطعام متربعة مستوية فوق كل العيون والأنوف والوجوه والهامات بل وفوق كل العروش والنفوس بكل الهدوء والانتصار وبكل مشاعر الأمان والاطمئنان من أن تواجه بأي عقاب أو طرد أو نفي أو بأية ثورة ولو نفسية أو دينية أو وعظية تعليمية ضدها بل بكل الحفاوة والترحيب والاستقبال المصافح المعانق المفسر لجمالها..

أليس هذا التفسير هو أذكى وأقوى التفاسير لمجد وسلطان الحشرات في العالم العربي؟

حتى دين العرب ونبوتهم تحت سلطان هذه الحشرات قد تحولا إلى آيات وسور من التملّق والنفاق والتمجيد لها أي للحشرات فزعما وأعلنا وعلما أنها أي الحشرات أحد وأقوى وأنبل أساليب ولغات الإله في تعبيره وإعلانه عن جماله وحبه ورحمته وحكمته وعبقريته وشاعريته.. فزعما وعلما وأعلنا أن الحشرات هي أحد وفود الإله المختارة أرسلها إلى الإنسان لتقيم وتؤكد وتقوي وتنظف علاقات المحبة والصداقة والاحترام والتفاهم أي بين الإله والإنسان العربي.

.. نعم، لقد تخطينا أي نحن الأرض والطبيعة تخطينا كل حدود الوقار والاتزان والعدل والذكاء والتقوى في عطائنا ومحاباتنا للإنسان العربي بكل أساليب وتفاسير العطاء والمحاباة والانحياز...!

لقد جننا في محاباته وعطائه وفي الانحياز إليه نأعطيناه هذه الآبار، «الآبار»، «الآبار» المغرقة لقحط صحاراه وقحط تاريخه التي غرق فيها الإله.. غرق فيها عدله وذكاؤه وتقواه وكرامته وحساباته

وتوقعاته ونظافته. التي تحول سوادها.. سواد دموعها إلى سواد في رؤيته وسمعته وحكمته وفي كل معانيه أي الإله.. التي غرق في إذلالها وإدلالها..

كل العالم.. كل أخلاقه وأفكاره ورؤاه وعلاقاته وصداقاته وعداواته ولغاته بل وكل أديانه وتاريخه وأمجاده وحضاراته..

.. التي قالت لكل العالم.. للماشين فوق القمر: هن واصغر واجبن واكذب فاستجاب، استجاب.!

.. وأعطيناه أيضاً محاباة وانحيازاً أقوى الأديان والنبوات المصححة لكل الأديان والنبوات والملغية الناسخة النافية الطاردة لكل الأديان والنبوات والخاتمة لكل الأديان والنبوات..!

ألسنا بهذا قد أعطيناه كل أبواب ومفاتيح الفردوس والجحيم يدخل في هذا وهذا من يشاء كيف يشاء أو يغلقهما أي الفردوس والجحيم إذا رأى وأراد ألّا يدخلهما أحد!. لقد جعلنا الإنسان العربي يرى أن نبيّه ودينه هما كل تفاسير وعقل ومنطق وأشواق ورؤى وإرادات الإله.!

.. نعم، نحن، نحن الأرض والطبيعة المعطيتان للإنسان العربي وللإنسان كله أديانه ونبواته وأنبياءه وتعاليمه بل الصائغتان الخالقتان لكل ذلك بالأسلوب والمنطق والقانون والقدرة التي بها خلقنا وصغنا ذاته وأعضاءها ومواهبها وأحاسيسها وحواسها.. قوتها وضعفها.. جمالها ودمامتها.. ذكاءها وغباءها.. موتها وحياتها.. لون وبريق عينيها وشعرها وجلدها..

والتي بها خلقنا وصغنا بحاره وأنهاره وحقوله وصحراءه بل التي بها خلقنا وصغنا إلهه. كل آلهته. أليست صياغة الذات صياغة لآلهتها؟

.. ماذا لو أن صياغاتنا جاءت صياغات أخرى أي نحن الأرض والطبيعة، أو لو أننا صغنا الإنسان أي الإنسان العربي وكل إنسان صياغات غير الصياغات التي جاء بها.. التي صغناه وخلقناه بها ووضعناه واختزناه فيها إرادة وتخطيطاً أو آلية ذاتية أو خبطاً عشوائياً؟

حتى التخطيط والتدبير والإرادة أليست خبطاً عشوائياً أو آلية ذاتية؟

.. ماذا لو أن ذلك قد حدث؟ هل كان يمكن حينئذٍ أن يكون له أي للإنسان أديان أو أنبياء أو نبوات أو تعاليم أو آلهة أو أن تجيء أديانه أو أنبياؤه أو نبواته أو تعاليمه أو آلهته أو حتى أخلاقه ولغته كما جاءت؟ أليست كل عقائد الإنسان إنما تلدها وتصوغها صياغات وتخطيطات ذاته؟

.. لماذا تخلقت في الإنسان وللإنسان الأديان والأنبياء والنبوات والتعاليم والآلهة ولم يتخلق شيء من ذلك في الكائنات أو للكائنات الأخرى المعايشة المجاورة المساكنة للإنسان؟

لماذا جاء لغوياً ولم تجيء الكائنات الأخرى حوله لغوية؟

هل لهذا من تفسير غير التفاوت والاختلاف في كينونة وتكوين الصيغ؟ وهل من فاعل لهذا الاختلاف والتفاوت أي في صيغ التكوين والكينونة سوانا نحن الأرض والطبيعة؟ هل وجد غيرنا مرئياً أو مسموعاً أو مقروءاً أو معشوقاً أو فاعلاً أو منتظراً محسناً أو مسيئاً جميلاً ذكياً أو دميماً غبياً؟

إذن ألسنا نحن أي الأرض والطبيعة الخالقتين الصائغتين لأديان ونبوات وأنبياء وتعاليم وآلهة الإنسان كل الإنسان بقدر ما نحن الخالقتان الصائغتان لكل أخطائه وخطاياه وفحشه وضعفه ووقاحاته ومجاعاته وهمومه ومخاوفه وتشوّهاته وأمراضه وشيخوخته وهوانه وموته وأيضاً قبره وأكفانه؟

أليست صياغة ذات الكائن صياغة لكل أفكاره وقدراته ورؤاه ومعانيه؟

.. كم نرجو بل نطالب الإنسان بنيات التحدي والتعجيز أو بالرغبة في الفهم هذا السؤال الذي لا بدّ أن يبدو مغرياً جداً أي السؤال الذي قد يقول: وأنتما أيتها الأرض والطبيعة من صاغكما الصياغات الصائغة لكل شيء.. لأننا حينئذٍ لا بدّ أن نسأل سؤالاً هو أصعب من كل الأسئلة ومعجز لكل الأجوبة. أليس محتوماً ألّا تفهم أو تقرأ وتفسّر القضية إلّا هكذا: إنه لا سؤال أو لا جواب أو لا سؤال ولا جواب.!

.. إنه لن يوجد أي اقتناع أو اعتقاد أو إيمان أو تصديق إلّا بألّا يوجد أي سؤال.. إن كل من يسألون ويتساءلون بأي معنى من معاني السؤال والتساؤل فلن يكونوا إلّا أعداء ورافضين للسؤال والتساؤل بل وعاجزين عنهما.!.. من صاغ الأرض والطبيعة.. إذا صح هذا السؤال فلا بدّ أن يصح السؤال: من صاغ صائغ الأرض والطبيعة وصائغهما من صاغه..!

.. لقد أعطينا الإنسان العربي كل هذا.. أعطيناه إياه خبطاً وتخبطاً وسفاهة، أو انحيازاً ومحاباة، أو اختباراً وابتلاء، أو إيماناً واقتناعاً باستحقاقه، أو رغبة في الافتضاح والفضح لأنفسنا ولمن أعطيناه ونعطيه ولكل شيء، وعقاباً وتعذيباً لأنفسنا ولكل شيء. أليس المعطي قد يعطي عقاباً وتعذيباً وفضحاً لنفسه كما أعطى ويعطي الإله إبليس وأعداءه كل ما أعطاهم؟

ليس هذا الذي أعطيناه كل ما أعطيناه أو أعظم ما أعطيناه أي الإنسان العربي.. لقد أعطيناه أضخم وأنفع وأغلى ما يعطى وما لم يعط وما يصعب أن يعطى..

إنه أضخم وأجمل وأغلى وأنفع عطاء جاء بأسلوب الحرمان والحماية والتحصين والتلقيح والتعقيم والتطعيم..!

أليس العطاء بهذا الأسلوب أي بأسلوب الحرمان من عطاء ما يصنع الألم هو أنبل عطاء؟

لقد حرمناه أو حميناه وحصناه وعقمناه وطعمناه ضد المعاناة الإنسانية.. المعاناة التي لا يعانيها ولا يتعذب أو يفجع أو يراع أو يحاسب ويحاكم نفسه وكل معانيه بها إلّا الإنسان أي في مستواه الأعلى أي مستواه الذي هو فوق مستوى الإنسان العربي.!

إنها معاناة العقل والفكر والقلب والضمير والرؤية والمساءلة والأخلاق. إنها محاسبة ومحاكمة كل شيء وكل أحد حتى الآلهة بذلك أي بالعقل والفكر والقلب والضمير والرؤية والمساءلة والأخلاق.!

.. إنه لا معاناة ولا عذاب يساوي هذه المعاناة وهذا العذاب أي لو وجدا في مستوياتهما المطلوبة والمزعومة والمفترضة والمعلمة بل أو في أي شيء أو قدر من هذه المستويات..!

إذن فإنه لا حماية تساوي هذه الحماية في نفعها وعطائها. هذه الحماية الرحيمة التي يحمى بها الإنسان من أن تتخلق فيه معاني الإنسان الصعبة.!

.. ماذا لو أن أي إنسان بل أو أي كائن لم يحم هذه الحماية ولم يحرم منها ويحصن ويطعم ويعقّم ضد هذه المعاناة.. معاناة العقل والفكر والقلب والرؤية والضمير والأخلاق ومحاسبة ومحاكمة النفس للنفس ولكل شيء حتى لتحديقات الإله فيما أراد وفعل..

ـ نعم، ماذا لو أن هذا الإنسان أو الكائن المفترض رأى بقلبه أو عقله أو تفكيره أو ضميره أو عينيه أو أخلاقه أو حتى بدينه وإيمانه وتقواه أو لو أنه بكل ذلك رأى أي لو أنه رأى إلهه الذي رآه واعتقده وتعلّمه وفسّر له وقيل له عنه إنه كل الجمال والحب والرحمة والذكاء والتقوى والشهامة والعبقرية وتمناه وانتظره وأراده كل ذلك ـ لو أنه رآه يفعل بكل شروط ومقاساة وتفاسير وعبقريات وحماسات التخطيط والتدبير والنشوة والفرح والرضا عن النفس والإعجاب بها.

ـ يفعل كل ما في هذا الوجود من آلام وآثام وتشوّهات وعاهات وعبث وتناقض وبلادات وجهالات ومن أكوان وكينونات وكائنات متناقضة متضادة متصادمة متعادية متحاربة متطاردة متناطحة مختلفة ومتفاوتة الأحجام والأوصاف والذوات والقدرات والأنياب والأظافر والوحشيات.

... يأكل ويخيف ويطارد ويقهر بعضها بعضاً وأيضاً يسخر ويستعبد بعضها بعضاً دون أن يوجد فوقها أو حولها أو فيها أي حارس أو حام أو حكم أو حكومة أو قانون أو منطق أو حدود أو هيئات أو منظمات لتحدد وتنظم وتفسّر العلاقات واللقاءات بينها.. لتحاسب وتعاقب وتمنع وتصلح الفاسد والمعتدي أو لتصوغه صياغات أخرى أقوى وأذكى وأتقى.. دون أن تكون لها أية وظيفة أو هدف أو حافز أو تفسير أو منطق ديني أو أخلاقي أو فني.. دون أن تعني أو تساوي أي شيء غير كينونتها بلا تفسير ثم موتها بلا تفسير.. دون أن تصنع مجداً أو فرحاً أو نفعاً لأي كائن آخر.

.. دون أن تعرف أو حتى تسأل أو تفكر لماذا هي.. لماذا جاءت وجاءت كما جاءت ومن أين جاءت ومن أراد لها أن تجيء وأن تجيء كما جاءت.. ومن أراد لها كل ذلك إن وجد من أراد له أن يجيء كما جاء.

.. ولماذا تذهب وتذهب كما تذهب.. من أراد ذلك ودبّره وفعله بعد أن اختاره إن كان قد اختاره..

لماذا تذهب بعد أن جاءت، ولماذا تجيء إن كان محتوماً أن تذهب ولماذا تجيء وتذهب.. ما تفاسير ذلك ومنطقه وحوافزه وأهدافه؟

إن كان له تفاسير وحوافز ومنطق وأهداف فما هي وإن لم تكن له أي هذه التفاسير والمنطق والحوافز والأهداف فلماذا جاء ويجيء.

.. هذه الأكوان والكينونات والكائنات كيف تقرأ أو ترى أو تفسّر؟ إن كان لمجيئها أو في مجيئها أي جمال أو منطق أو سعادة أو فائدة أو فرح أو عزاء أو دواء أو غذاء أو حتى غناء لنفسها أو لأي إله أو لأي كائن، فلماذا ذهبت وتذهب، وإن لم يكن في مجيئها أو لمجيئها كل ذلك أو أي

شيء منه فلماذا جاءت ولماذا تستمر في المجيء؟ إن كان الإله يريد مجيئها ويستفيد ويربح من مجيئها فلماذا تذهب وإن لم يكن ذلك فلماذا تجيء ويتركها تجيء؟

هل وجد من يسأل هذه الأسئلة أو يقاسيها أو يتصوّرها أو يفكر فيها؟ إن كل من يسألون يسألون: متى يولد أو يوجد هذا ومتى يفقد أو يموت ولكنهم لا يسألون: لماذا يولد ويوجد ولماذا يفقد ويموت..!

إذن كيف يحتمل أن يوجد من يفهمها ويجيب عنها ويتعامل معها ويحدق فيها، أي هذه الأسئلة بهذه التفاسير؟

هل كان يمكن أن يوجد هذا الكون أو أي شيء لو كانت الأشياء لا توجد أو تبقى إلّا بالسؤال والجواب؟

هل يمكن أن يوجد أي جواب مهما وجدت كل الأسئلة؟

هل يمكن أن يوجد أي سؤال لو كان لا يوجد إلّا إذا كان محتوماً أو حتى محتملاً أن يوجد له جواب؟

هل كان يمكن أن يوجد أي جواب لو كان يشترط عليه أن يكون جواباً؟ هل حدث أن جاء أي جواب بأي معنى من معاني الجواب؟

هل السائلون أي عن قضايا الكون والكينونة ـ هل هم يسألون أم يئنون ويتألمون ويعلنون عن عجزهم وحيرتهم وضياعهم وورطاتهم؟

وهل المجيبون يجيبون لأنهم يعلمون أم لأنهم لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون؟

ـ نعم، ماذا لو وجد هذا الإنسان أو الكائن ورأى ذلك وتساءل عنه وحاسبه وحاكمه وقرأه وفسّره بقلبه أو عقله أو ضميره أو أخلاقه أو عينيه أو بإيمانه ودينه وتقواه..

وأيضاً رأى بكل هذه الرؤية كل ما يواجه ويعايش ويساكن ويعامل ويعرف ويسمع ويقرأ أو يروي ويعلم ويتعلم.

.. رأى بهذه الرؤية بكل تفاسيرها نفس الإنسان الذي يوجد فيه وبه.. رآه في داخله وفي كل خارجه...

يعيش كل وجوده.. كل تاريخه وحاضره ومستقبله.. كل أممه وشعوبه وطوائفه وأوطانه وخلافاته وعداواته وأحقاده وحروبه وملاعناته ومبارزاته وبداياته ونهاياته وحوافزه وأهدافه.. كل أربابه وأنبيائه وأديانه وأفكاره وثقافاته وخرافاته وصلواته وتعبّداته.. بكل خلافاتها وتناقضاتها ومنافساتها وعداواتها ومفاخراتها.. كل قصوره وقبوره وخيامه وأكواخه وأعراسه ومآتمه.. كل كعباته ومزاراته ومغاراته وكهوفه ومهوده وأكفانه.. رآه بكل أمجاده وهوانه، بكل انتصاراته وهزائمه، بكل ثيابه وعريه...

ـ أجل، ماذا لو وجد هذا الإنسان أو الكائن ورأى بكل هذه الرؤية كل هذا؟ ما أفظع بعض هذا فكيف كله؟

هل يمكن أن يوجد بل أن يتصور عذاب مثل عذابه؟

إذن أليس الحرمان والحماية من هذه الرؤية بكل معانيها وتفاسيرها بكل هذه المعاني والتفاسير هو أعظم وأنفع وأرحم عطاء؟.

ثم ماذا لو وجد كل هذا الإنسان أو كل هذا الكائن ثم استطاع أن يرى ويقرأ ويحاسب ويحاكم المسؤول عن هذا الوجود.. بالمنطق والأسلوب والاستقباح والانفجاع الذي يرى ويقرأ ويحكم ويحاسب به نفسه وجنسه بل والأجناس البائسة الهابطة كل الهبوط في رؤيته وحساباته وتعاليمه وأديانه.

أي أجناس الحيوانات والحشرات والأصغر من ذلك..

ـ نعم، ثم أراد وقرّر واستطاع أن يحاسب ويحاكم ويعاقب إلهه على شيء من الأخطاء والخطايا والفظائع والفضائح التي لا يرى جماله أي جمال إلهه وحكمته ورحمته وشهامته وعبقريته ومحبته وسعادته إلّا مريداً مدبراً مخططاً فاعلاً لها أي لهذه الفظائع والفضائح والأخطاء والخطايا والتي يحاسب ويحاكم ويعاقب عليها وبها أصغر وأنذل وأضعف وأحقر الحشرات والكائنات أي التي يراها ويعلنها هذا الأصغر الأضعف الأحقر الأنذل أي التي يراها ويعلنها الإنسان كذلك.

ما أقسى وأصعب تصوّر العذاب حينئذٍ..!

كيف أمكن ألّا يحاسب ويحاكم ويعاقب مريد ومخطط وفاعل كل شيء بشيء مما يحاسب ويحاكم ويعاقب به كائن مراد مدبّر مصوغ محكوم مفعول من خارجه؟ كيف يشترط على هذا وفيه ويطلب منه ما لا يطلب أو يشترط شيء منه على هذا وفيه ومنه؟

من وضعك وصاغك أيها المنطق.. يا منطق الإله.. يا منطق كل أعوان الإله ومستشاريه وموظفيه.. يا منطق الإنسان.. يا منطق أنبياء الإنسان ومنطق عباقرته ومفكريه وصالحيه.؟

هل أهين أو يهان شيء مثل المنطق أي مثل ما يسمى ويزعم منطقاً؟

وهل خرج على المنطق وحقّره مثل المنطق أي مثل ما حسب وأعلن منطقاً؟ هل عادى أو فضح المنطق شيئاً مثلما عادى وفضح نفسه أو عادى الإله شيئاً مثل معاداته لنفسه أو عادى الإنسان أحداً مثلما عادى الإنسان؟

إذن هل يمكن أن يوجد ولو في التصور عطاء يساوي في سخائه ونفعه ونبله حرمان وحماية الإنسان من أن يكون إنساناً بمعاني الإنسان..

يساوي حماية وحرمان الإنسان العربي وكل من في مستواه من أن يكون إنساناً محكوماً بمعاني الإنسان المفسّرة والمعلمة والممجّدة والمدعاة والمتحدثة عنها الأديان والنبوات والفلسفات والأخلاق التعليمية؟ هل وجد محظوظ محابى مثل من حرم وحمي من ذلك؟ لماذا حمى الإله وحرم نفسه من هذه المعاني؟ هل لهذا أي تفسير غير هذا التفسير؟

.. إذن نحن.. نحن الأرض والطبيعة قد أعطينا الإنسان العربي أعطيناه.. وحابيناه، حابيناه حتى

أصبحنا أهلاً لأن نتهم بكل الخروج على كل حدود وقيود الوقار والاتزان والعقل.. بل أصبحنا افتضاحاً وفضحاً لأنفسنا ولمن أعطيناه وحابيناه بل ولمن أردنا وتصوّرنا وأوجدنا وصاغنا أي إن وجد وقبل أن يوجد هذا المتصور المزعوم المتهم بذلك.. لمن خلقنا بكل معانينا ورؤانا وقدراتنا وتصرفاتنا وقوانيننا التي تعني حتماً أن نعطي ونحابي ونصوغ الإنسان العربي كما فعلنا وكما جاء.!؟

إذن هل يمكن أن تحكم علينا هذه المحكمة أو المنظمة الكونية لما فعلناه بالإنسان العربي؟ أليس المعقول المحتوم أو المتوقع المطلوب أن تحكم لنا لأننا فعلنا له كل ما فعلنا وفعلناه كما فعلناه؟

نعم، إننا أي نحن الأرض والطبيعة لن نفجع أو نستنكر أو نعجب أو نفاجأ لو حاكمتنا وحكمت علينا لأننا أعطيناه أي الإنسان العربي وحابيناه حتى تحولنا إلى فضح وافتضاح له ولأنفسنا ولكل شيء لا لأننا ظلمناه أو تراخينا أو قصرنا أو بخلنا في محاباته وإعطائه أو في تحقير وإذلال طاقاتنا وثرواتنا وأخلاقنا ومواهبنا وقوانيننا لكي تتوافق وتتلاءم مع شهواته وطاقاته وأخلاقه ومواهبه.. مع ضعفه وكسله واسترخائه وإهماله وأحقاده وعداواته وعدوانياته.. مع شرهه وسرفه البدني وزهده وتقتيره وشحّه وضعفه الفكري والعلمي والعاطفي والأخلاقي والإنساني.!

لقد صنعناه ليكون شرّه الجسد والأعضاء زاهد العقل والفكر والضمير والرؤية والأخلاق.!

.. أما صياغته أي صياغة الإنسان العربي التي جاءت ضعيفة وعاجزة في كل نماذجها ومستوياتها وتفاسيرها واختراقاتها الفكرية والعلمية والنفسية والإبداعية والفنية والعاطفية والتصورية والاحتجاجية الغضبية الرفضية..

فهذه لن تكون عدواناً أو إساءة أو تعذيباً أو ظلماً له أو عليه أو إليه، بل إنها كل الإحسان إليه والمحاباة والتخصيص له بالراحة والهدوء والخمول والاسترخاء المتثائب النائم الغافل البليد الصامت عن كل الرؤية والاحتجاج والتطلّع والتفكير والإبداع والصعود والاقتحام والفعل الخلّاق. ما أعظم وأدوم راحة النائم في يقظته.!

ما أكثر النائمين في يقظتهم. ما أعظم حظوظهم وأعظم محاباة من صاغهم كذلك لهم.!

أليس هذا كل التعب والعذاب والمعاناة أي أن يكون الإنسان إنساناً بمعاني الإنسان؟

وفقد هذا أو الحماية من هذا أليس كل الراحة والاسترخاء والنوم والفرح؟ أليس النائم محمياً من كل تبعات ومقاساة وهموم المستيقظ؟ أليس الإنسان أقسى عذاباً وخوفاً ومقاساة من الحيوان والحشرة؟ أليس الإنسان العبقري والذكي والتقي والقوي أكثر وأعظم التزامات ورؤى ومحاولات وخطوات مرهقة مقلقة محاسبة ممن هم دون ذلك؟

إذن كم نحن محابون وواهبون لمن لم نردهم ونصنعهم عباقرة وأذكياء أو أقوياء أو أتقياء أي بضمير وأخلاق التقوى لا بلسانها.!؟

.. أليس الصاعد في سفنه الكونية محلّقاً إلى القمر وفوقه أقسى مقاساة في كل تفاسير المقاساة وتبعاتها وهمومها والتزاماتها وتقواها من كل المنطرحين فوق التراب تحت خيامهم مع أغنامهم

وأنعامهم وأبقارهم ينظرون بكل البله والخمود والخمول إلى السماء يخاطبون ويناجون ويفسّرون وينتظرون إلههم الذي لن يظهر أو يحضر أو يسمع أو يستجيب أو يعتذر.. الذي لن يمل أو يخجل من صمته وعجزه وغيبته وغيبوبته.. الذي لن يخشى أن يغضب أو يسأم أو حتى يعجب أو يتعجّب منتظروه ومناجوه ومخاطبوه ومؤملوه من ديمومة عجزه وصمته وغيبته وغيبوبته وبلادته أو حتى يسألوا أو يتساءلوا عن ذلك.. الذي لم يوجد غائب مفقود عاجز أصم أخرس ضال ضائع مثله ومع هذا يرى ويعتقد ويعلن بأنه كل الظهور والوجود والقوة والسمع والكلام والنطق والهداية والهدى.. الذي لم يخسر أو يخب أحد بانتظاره وبالتعامل والتعاقد معه مثلما خسر وخاب المنتظرون له والمتعاملون المتعاقدون معه؟

نعم، أليس ذلك كذلك؟

لهذا أليس الإله أشد وأشمل وأصدق وأدوم عذاباً من الأنبياء والملائكة..؟

لهذا أيضاً أليس الأنبياء والملائكة أشد وأشمل وأصدق وأدوم عذاباً من الكائنات الأخرى التي هي أقل منهم في معانيها وتفاسيرها أي من الإنسان الذي لم يصعد إلى طور الملائكة والأنبياء؟ أليس مجيء الكائن متفوّقاً في طاقاته أو معانيه أسلوباً من أساليب المعاقبة له وإن لم يكن بنيات ذلك؟ أليس الأكبر ولو بالحجم يتعذب أكثر؟ أليس أكبر حيوان يقاسي أكثر من مقاساة أصغر حشرة؟

.. أليس ذلك كذلك أو أليس ذلك هو المفروض والمتوقع والمنطقي؟ آه. لا نزال نتحدث عن المنطق والمنطقي اللذين لم نجدهما أو نعرفهما ولن نجدهما أو نعرفهما.

.. اللذين لن نعرفهما أو نجدهما إلّا بقدر ما نفقدهما ونجهلهما.!

أليس الأجهل بالمنطق والمنطقي هو الأقدر على أن يجدهما ويعرفهما بل ويراهما؟

.. كيف لم يعرف الإنسان وآلهة الإنسان وعباقرته أن من أراده وخططه وصاغه إنساناً أكثر عدواناً وقسوة عليه ممن أراده وخططه وخلقه نملة أو قملة أو صرصاراً أي لو وجد من يريده ويخططه ويخلقه قملة أو نملة أو صرصاراً؟

وهل وجد من أراده وخططه وخلقه إنساناً؟ هل وجد هذا المجنون أو المجرم الأعظم؟ هل يستطيع عار وقبح وهوان وافتضاح ووحشية وبلادة وأخطاء وخطايا كل الحشرات والحيوانات أن تنافس أو تساوي عار أو قبح أو افتضاح أو وحشية أو بلادة أو أخطاء أو خطايا إله أو نبي أو قائد أو زعيم أو بطل واحد من البشر؟ هل تستطيع ذنوب كل الكائنات أن تساوي ذنوب الإله الواحد؟ هل تستطيع؟ قبيح، قبيح أن يكون المسؤول عن كل هذا الكون واحداً.!

كيف يستطيع ظهره أو أكتافه أو ضميره أو أخلاقه حمل هذه الآثام والفضائح كلها؟

إذن ولهذا هل يوجد أو يمكن أن يوجد تعذيب لأي كائن أو عدوان على أي كائن مثل أن يجيء إلهاً أو نبياً أو عبقرياً أو حتى إنساناً عادياً أو ملاكاً، ملاكاً جداً مراداً ومخططاً ألا يجيء أية حشرة أو أي حيوان أو أي كائن لا يقاسي شيئاً مما يفترض أو مما لا بدّ أن يقاسيه الإله والملاك

والنبي والعبقري بل والإنسان العادي غير العربي أي متعمداً تعذيبه وفضحه بألّا يكون كذلك أو ذلك أي بألّا يكون الكائن الذي لا يقاسي شيئاً من مقاساة الإنسان؟

كائن يخطط ويصاغ ليكون إنساناً.. ليكون معداً لاقتراف الذنوب والأخطاء والمظالم والعدوان والزندقات التي ستقوده حتماً إلى الخلود والتخليد في الجحيم الخالد المخلّد الذي تحدث عنه وعن أوصافه خاتم الأنبياء.. في دينه خاتم الأديان.. في كتابه خاتم الكتب..!

.. كائن يخلق للجحيم.. لجحيم محمد استحقاقاً عل بعض نقائصه وآثامه..

.. كائن يدبّر ويخلق ويخرج ليكون.. ليجيء غيظاً وغضباً وانفجاعاً وحزناً وتوتراً وإقلاقاً وأرقاً وتوعّداً وإرهاقاً واحتراقاً وإحراقاً دائماً لإله وخالق وحاكم ومنظم هذا الوجود كله.. ليجيء إلهاء وصرفاً له عن كل شيء حتى عن نفسه.. عن رؤيتها ومحاسبتها وقراءتها لإصلاحها وتصحيحها.. لاهتمامه المحرق المغرق به. بهذا الكون.. بهذا الإنسان..!

هذا الكائن الإنسان هل اعتدي على أحد أو ظلم أو عذّب أو شوّه أو قبح أو فضح أحد مثله لتخطيطه وخلقه في هذه الصيغة المتفوّقة أو المزعومة المحسوبة متفوقة؟ ومن الذي حسب وزعم هذه الصيغة متفوقة؟ إنه المصاب بها..!

هل وجد أو يمكن أن يوجد أو حتى يتصور ظالم متوحش قبيح عدواني مثل من اختار له صيغته واختاره لصيغته أي هذا الكائن أو الإنسان؟

كائن يختار ليكون ساكن الجحيم ومعذب صاحب هذا الكون. كيف جاء؟ كيف جاء؟

إذن أليس الأرحم والأنبل والأنفع والأتقى والأذكى أن يصاغ هذا الكائن.. هذا الإنسان في صيغة قملة أو نملة أو صرصار أو في أية صيغة أخرى إن كان الاختيار أو البديل الآخر أن يصاغ في صيغته التي حكمت وقضت عليه بأن يكون فاسداً ورديئاً وآثماً وغبياً وجاهلاً وأعمى ونذلاً، ليكون مستحقاً للتخليد والخلود في الجحيم الخالد المخلّد، وليكون ملزماً لصاحب هذا الكون ومريده ومدبّره ومخططه وصانعه وصائغه بأن يتحمّل تكاليف تخطيط وإيجاد وصياغة وتضخيم وتعميق وتخليد هذا الجحيم وحراسته وحمايته من التخريب والخراب والتقادم المضعف لحرارته وقوته وحصانته ولإحراقه وتحريقه وتعذيبه..

وليكون موقداً مشعلاً في عيون وآذان وآمال وطلبات ومطالبات وشهامات ومجاعات صاحب وخالق وحاكم هذا الوجود..

ليكون كل الحرائق.. المحرقة لكل رؤى وأخلاق وتفاسير ووظائف القلوب والعقول والضمائر بل والإيمان والتديّن والتقوى..

.. أليس وجود هذا الكائن الإنسان ليكون كما لا بدّ أن يكون في صيغه المادية والسلوكية والنفسية والعقلية والأخلاقية إهانة وعصياناً وهزيمة للإيمان والأديان؟

أجل، أليست صياغة هذا الإنسان في ذات قملة أو نملة أو أية حشرة أو كائنة أخرى أنفع وأفضل وأجمل وأتقى وأستر وأطهر وأنظف وأشرف له ولمن أراده وخططه وصاغه وأقل إيذاء وفجيعة

لضمير الإله وأخلاقه وطموحه وتمنياته وأديانه وتعاليمه وكتبه المنزلة أي من صياغته في ذات إنسان ليكون مستحقاً لهذا الجحيم وصانعاً لخالق وصاحب وحاكم هذا الوجود كل هذا الغيظ والغضب والكآبة والانفجاع والتوتر والقلق والأرق والأسى والندم والتعب والعذاب والتكاليف الفادحة، الفادحة في رؤيته ومعاملته ومخاطبته وتخطيطه وخلقه وفي الانتظار له ومنه وفي الاستماع إليه وفي الاهتمام به وفي الإنفاق على جحيمه وفردوسه وفي إنزال وإرسال الأديان والأنبياء والكتب المنزّلة إليه وفي التدبير والتخطيط لهدايته وتقويته وإسعاده، وأيضاً لإضلاله وإشقائه وإفساده وإضعافه ـ ..لتوظيف الأبالسة والشياطين لإغوائه وإكفاره، وأيضاً لصناعة وصياغة وتوظيف وتدريب وترويض وتعليم الملائكة لكي تتحاور وتتخاطب وتتعامل وتتساوم وتتفاوض مع أعضائه وشهواته ومجاعاته وطاقاته التي لم ترد أو تصنع أو تصنع أو تخرج أو يرد لها إلّا أن تتعامل وتتحاور وتتخاطب وتتصادق مع الأبالسة والشياطين بكل لغات الأبالسة والشياطين.. بكل أساليب التديّن والتقوى والطاعة والتنفيذ لرغبات وأوامر وتخطيطات وتعاليم ورسل الأبالسة والشياطين..؟

إنه يناضل ويعاني ويوظف كل طاقاته واهتماماته وحماساته لإضلاله وإشقائه ولتحويله إلى زنديق أكثر وأقسى مما يفعل لإسعاده وهدايته ولتحويله إلى مؤمن..!

إنه يصوغ أعداءه بمواهب وطاقات أقوى وأذكى من مواهب وطاقات أصدقائه.!

.. كائن لولاه لما اضطر الإله إلى تخطيط وتدبير وخلق الأبالسة والشياطين والجحيم وكل أجهزة الحساب والعقاب والتعذيب وموظفي كل ذلك.. ولما وجد الكفر ولا الفسوق ولا الخيانات والفضائح والنذالات والعار، ولا القتل والقتال والحروب، ولا الآهات والأنّات والدموع، ولا الركوع للأوثان والطغاة وللآلهة التي لم توجد ولن توجد مطالبة ومرجوة للإنقاذ.. ولما قاسى الإله الأحزان والهزائم والفواجع بكل رؤاه وحساباته وأمانيه وتجاربه ومواجهاته..

ماذا يمكن أن يكون أي شيء أو تصور أي شيء لو كان الإله يستطيع أن يصعد إلى أي سماء من سموات الأحزان أو الفواجع أو الاشمئزاز..

.. ما أقبح الآلهة وأنذلهم بدون ذلك، وما أقسى عذابهم وافتضاحهم بذلك..!

.. هذا الكائن أي الإنسان هل يقبل أو يرضى أو يغفر أحد أن يوجد فكيف يقبل أو يرضى أو يغفر أن يوجده هو؟ هل يوجد ذنب يساوي ذنب إيجاده أو وجوده، إذن هل تساوي كل الذنوب ذنب من أوجده؟

.. هذا الكائن أليس تخطيطه وإرادته وصياغته ليجيء في الصيغة التي بها جاء كما جاء هو أقبح وأقسى عدوان وإساءة عليه وإليه وتشويه وتعذيب وفضح وافتضاح له ولمريده وصانعه ولكل شيء؟

إنه لكل التعذيب للعقل والقلب والضمير والأخلاق والإيمان والتديّن تصور وجود هذا الكائن فكيف تصور مدبّره ومريده ومخططه وخالقه.؟

.. ما أعظم عذابنا وانفجاعنا نحن الأرض والطبيعة في هذه اللحظات أو اللحظة إذ نواجه ونقرأ ونسمع هذا الاتهام لنا بالاعتداء على الإنسان العربي وبإذلاله وتحقيره وتصغيره وبالهبوط به..!

.. الإنسان العربي الذي لم يسفّه أو يخطىء شيء أو أحد مثلما سفهنا وأخطأنا في ضخامة عطائنا ومحاباتنا له حتى لقد أصبنا الإله بالخرس والصمم لئلا يخاطب أو يرى أو يسمع أحداً بعد أن خاطب ورأى وسمع النبي العربي..!

.. لأننا أردناه وصغناه ليجيء بالصيغة المريحة التي جاء بها.. التي لا تقاسي شيئاً مما تقاسيه الصيغ الأخرى.. التي لا تقاسي من عمليات ومتاعب وهموم واهتمامات الإبداع والخلق والتفكير والرؤية والمحاسبة والصدق والعدل والبسالة والمخاطرة.. ما أقسى هذه المقاساة.. ما أقساها.!

كيف أمكن أن يحسب أو يزعم ذلك عدواناً أو ظلماً أو إيذاء؟ كيف؟

كيف يحسب مظلوماً أو محقراً من جاء قملة أو نملة ولم يجيء إلهاً صانعاً للقملة والنملة؟

.. لقد حابيناه وأعطيناه.. حابيناه وأعطيناه بتخطيطنا وإرادتنا له هذه الصياغة أو بصياغتنا له هذه الصياغة أو الصيغة بموهبتنا الذاتية الآلية بلا تخطيط أو إرادة أو معرفة.!

نعم، نحن الأرض والطبيعة يجب أن نعترف وعلينا أن نعترف بأخطائنا وذنوبنا إذا اقتنعنا أننا قد فعلنا ذلك أو شيئاً منه أو وقعنا فيه أو حتى اضطررنا إلى الوقوع فيه أو حكم علينا به وبالوقوع فيه..

إنه لا أحد. لا الإله ولا أعوانه ولا أحد من البشر يفعل أخطاءه وخطاياه معلنة مكشوفة بلا أي تستر عليها أو دفاع عنها غيرنا نحن الأرض والطبيعة.!

.. لهذا نقول ونريد أن نقول بكل الصدق والشجاعة والإخلاص بل وبكل الإيمان والتقوى الذاتية الآلية:

ـ نقول: إن ذنبنا الحقيقي الكبير الذي نستحق عليه نحن الأرض والطبيعة أقسى المحاسبات والمحاكمات الجازية المعاقبة هو أننا صغنا الإنسان العربي في صيغة إنسان ليكون محاسباً ومطالباً مقروءاً مفسّراً بمعاني الإنسان لأنه جاء في صيغة إنسان.!

أجل، إن هذا هو ذنبنا الكبير الحقيقي إن كان ممكناً أن نعد مذنبين مهما كنا وفعلنا.!

.. إن الرفق والإشفاق في درجاتهما العليا ليفرضان علينا أو يطالباننا أي في حدودهما الدنيا أن نحميه ونريحه من أن نضعه أي الإنسان العربي في صيغة إنسان كما حميناه وأرحناه من أن نضع فيه معاني الإنسان أي الصعبة المبدعة المتعبة الخلّاقة. إن تفريغ الكائن الأعلى عن معانيه الصعبة لإنقاذ له من ألوان المعاناة المشحونة بكل ألوان العذاب لهذا جاء الإله أشهر وأعظم مفرغ لنفسه من كل معانيها. لهذا لم يوجد ولن يوجد فيه أي في الإله أي معنى من معاني الإله.!

.. نعترف نحن الأرض والطبيعة أننا لم نكن كل الكمال أو الحب أو الرحمة أو الإشفاق، وأننا لا نستطيع ولن نستطيع أن نكون كل ذلك..!

إننا لو كنا ذلك لفعلنا للإنسان العربي أكثر وأعظم مما فعلنا له.. لقد أرحناه وحميناه من أن ندبره ونخططه ونصوغه بمعاني الإنسان الصعبة المعذبة الملزمة الملتزمة.!

إن هذا بعض الرحمة والحب والإشفاق والعطاء والحنان والمحاباة والانحياز وليس هذا كل ذلك مهما كانت ضخامته.!

لقد جعلناه يملأ ويحاصر ويفجع كل العيون والآذان والضمائر والأخلاق والعقول قبحاً وافتضاحاً وبلادة وبذاءة ووقاحة وجهالة وعجزاً دون أن يرى أو يسمع أو يقرأ أو يعرف أو يخجل أو يرفض أو يعجز أو يتوقف شيء من أعضائه وشهواته عن شيء من ممارساتها لشرهها ولوظائفها البذيئة. لقد زرعنا فيه كل هذه الطاقات والمواهب الحارسة له من كل ألوان المقاساة والهموم والاهتمامات الإنسانية. زرعناها بكل التأصيل والتخليد.

.. ولكن هذا كله مهما عظم عطاء ومحاباة ليس كل الرحمة والحب والحماية والراحة والرفق والإشفاق. ليس كل ما نستطيع أن نفعله له.!

إننا لو كنا كل ذلك وفعلنا له كل ذلك لأرحناه وحميناه أي الإنسان العربي بل ولحرسناه من أن نصوغه أو أن يصاغ بصيغة من صيغ الإنسان حتى ولو بلا أي معنى من معاني الإنسان...

أي لئلا يكون محاسباً أو مطالباً أو مرئياً أو مقروءاً أو مفترأً أو منتظراً بشيء من معاني الإنسان أي لئلا يكون موجوداً أو موضوعاً أو مخزوناً في غير ذاته أو متهماً بغير ذاته أو متهمة به ذات ليست ذاته.!. نبي أو قائد يوضع في ذات ليست ذات نبي أو قائد، وكائن ليس نبياً ولا قائداً يوضع في ذات نبي أو قائد.!.. قبيح وفاضح ومعذب ومفسد أن يحدث هذا.!

.. إنه بهذه الصيغة لا بدّ أن يكون محاسباً ومحاكماً ومطالباً بمعانيها ومشترطة فيه أو لا بدّ أن يكون هذا هو المفترض والمنتظر والمتعامل عليه وبه.. لو وضع أرنب في ذات أسد أو نملة في ذات فيل أليس محتوماً حينئذٍ أن ينتظر من هذا الأرنب والنملة ما ينتظر من الفيل والأسد؟

.. إذن لا بدّ أن يكون أي من وضع في صيغة أو في ذات بلا أي شيء من معانيها أي كما جاء ووضع الإنسان العربي.. كما وضع في ذات وصيغة إنسان بلا معاني الإنسان أي الصعبة المبدعة المغيرة المتغيرة المتوالدة تصاعداً وتخطياً لا تكاثراً وتزاحماً.

ـ لا بدّ أن يصبح فاضحاً مفضوحاً مفتضحاً فاجعاً محرجاً صانعاً لكل الاشمئزاز والغثيان والغضب والغيظ وأيضاً صانعاً لكل الشماتة والمسلاة الحزينة الأليمة الكئيبة المضحكة بكل معاني البكاء والأسى.. المضحكة المفرحة لبعض الآلهة والنجوم والكائنات المطلة من بعيد.. من فوق. المتغذية بالشماتة برؤية النقائص والقبح والافتضاح...

والمبكية المحزنة الفاجعة للمطلات الأخرى من الآلهة والنجوم والكائنات الباحثة عما يبكي ويحزن ويفجع لتحزن وتفجع وتراع..!.

ولكن ألم نحم الإنسان العربي من أن يرى نفسه بل ألم نجعله يرى ذاته كل الأحجام وكل

الشموس والنجوم والأضواء مهما كان بلا أي حجم أو ضوء ولو من سراج أو شمعة؟

.. إننا أي نحن الأرض والطبيعة نسأل ونسأل..!

هل يمكن أن نحسب أو نرى بذلك ظالمين للإنسان العربي أو معتدين عليه لكي نزعم أو نعلن مستحقين للمحاسبة أو المحاكمة أو المعاقبة أو حتى للاتهام أو للنقد أمام هذه المنظمة أو المحكمة الدولية أو الكونية؟ ولكن هل نحن نسأل ولماذا نسأل؟ هل يمكن أن نجيء أو نبقى لو كنا نسأل.. لو كنا نسأل لنسأل؟

.. إنها أي هذه المنظمة أو المحكمة لن تتعلّم أو تستورد منطقها أو عقلها أو رؤيتها أو تعاليمها أو دينها أو أخلاقها أو عدالتها من الإله العربي أو النبي العربي أو الدين العربي أو الإنسان العربي أو حتى من المفكر أو الشاعر العربي أو أن هذا هو المطلوب والمفترض والمتمنى أي ألا تتعلم شيئاً من ذلك من هذه أو من هؤلاء.!

بل المحتوم أو المتوقّع أن تفجع وتراع من أي شيء عربي تراه أو تقرؤه أو تسمعه أو تعرفه أو تعامله أو تتعامل معه أو به.!

لهذا ننتظر ألّا ترانا في معاملتنا وتخطيطنا وصياغتنا للإنسان العربي مثل رؤية الإله العربي لنفسه ولكل شيء.. مثل رؤية ومحاسبة ومحاكمة ومعاقبة ومطالبة وملاعنة الإله العربي لمن أراده وشاءه وعشقه ودبّره وخطّطه وخلقه صانعاً له كما أراد وشاء وأحبّ وخطط ودبّر واستطاع..

لأنه جاء وكان كما أراده أن يجيء ويكون وكما خلقه.!

.. مثل رؤية الإله العربي لنفسه.. مثل رؤيته لنفسه دائماً مصيباً وعاقلاً وعادلاً ومبدعاً ومحسناً وواهباً وشافياً وقوياً وجميلاً ونبيلاً ورحيماً ومحيياً.

مهما كان وأراد ودبّر وفعل كل الخطأ والجنون والغباء والبله والظلم والعدوان والقسوة والقبح والعجز والضعف والبخل والحرمان والإساءة والنذالة والوقاحة والدمامة والتشوّه والأمراض والأوبئة والفناء والخراب والموت.. الموت.!

هل يستطاع الاختلاف أو الشك في أن هذه الأوصاف هي بعض أوصاف الإله العربي بل بعض أمجاده ومدائحه لنفسه؟ ليت هذا الاختلاف أو الشك يوجد أو حتى يمكن أو يقبل أو يغفر تصوره أو ذكره أو عرضه أو الاستماع إليه..!

هل جاء الإله العربي كما جاء لأنه إله عربي أم لأنه إله وكل إله مثل الإله العربي؟

.. نحن الأرض والطبيعة كم نتعذب ونفجع ونحزن ونصغر ونهون ونقبح ونذل ونظلم ونتشوّه بل ونعصي في رؤيتنا وتفسيرنا وقراءتنا ومحاسبتنا ومواجهتنا وتجربتنا ومحاورتنا ومعاملتنا ومناقضتنا ومصادمتنا وفي انتظارنا وتمنياتنا ونصائحنا للإله العربي وفي معاملته ومخاصمته ولعنه وتحقيره ونصائحه وانتظاره وأوامره ومطالبته لنا. ما أقبح وأوقح وأفسق وأكفر وأنذل العلاقات بيننا وبين الإله.. بين الإله وبين أي شيء وكل شيء.!. كيف لم يعرف العالم ذلك؟

.. أليس محتوماً من أجل ذلك أن نأثم ونخطيء ونكفر بل أن نكون كل الآثمين والمخطئين والكافرين وكل الخالقين الملزمين الموحين المغرين المغوين لكل هؤلاء أي لعلاقاتنا ومعايشاتنا ومساكناتنا ومشاركاتنا للإله العربي؟ هل نكون مطيعين أو مرضين مفرحين للإله العربي ما لم نكن مستجيبين ومنفذين لرغبته وشهوته وإرادته وحكمته في أن نكون آثمين ومخطئين وكافرين ومعذبين متعذبين.

.. هل يوجد أو يتصور مفجوع مصدوم مهان معذّب محقّر بل وفاعل لكل الأخطاء والخطايا والزندقات مثل المحكوم عليه بالتعامل والتحاور والتفاوض والتفاهم والتوافق والتصالح مع الإله العربي أي لأنه لا مريد ولا عاشق ولا مخطط ولا قابل ولا فاعل لكل ذلك ولا محرّض أو دال عليه وقائد إليه مثل الإله العربي بل غير الإله العربي؟ إذن هل يوجد من يستحق كل العقاب والحساب بل والاشمئزاز منه مثل الإله العربي بل غير الإله العربي؟

.. إذن هل يوجد أو يتصور معذب مفجوع مصدوم محقّر مهان معتدى عليه.. على كل معانيه وصيغه وتفاسيره ورؤاه ومواجهاته وتصرفاته وأخلاقه بل ومحكوم عليه بأن يكون كل الحماقات والآثام بل والكفر كل الكفر.

ـ نعم، هل يمكن أن يوجد أو يتصور مصاب بكل ذلك ومحكوم عليه بكل ذلك مثلنا نحن الأرض والطبيعة أي لأننا نحن كل المتعاملين مع الإله العربي ولأن الإله العربي هو كل من يتعاملون معنا؟ إذن هل يمكن تصوّر كينونة مثل كينونتنا في قبح وبشاعة ورداءة حظوظها أي نحن الأرض والطبيعة.. نحن لا نتعامل إلّا مع الإله العربي والإله العربي لا يتعامل إلّا معنا بل لا يجد غيرنا. إذن ما أفظع حظوظنا..!

.. هل نجد من ينقذنا من الإله العربي أو حتى يرثي أو يحزن لنا من علاقاتنا بالإله العربي.. من تفرّد واستبداد الإله العربي بنا..؟

هل نؤمل أو ننتظر في أن نجد هذا المنقذ أو حتى الراثي لنا من الإله المحسوب المزعوم المعلن كل آلهة هذا الوجود وكل وجود آخر؟ أيهما أفجع: أن يكون العربي عربياً أم أن يكون إلهه عربياً، عربياً؟

هل ينتظر مجيء أو وجود أي شيء سعيد أو مجيد أو كريم أو عظيم أو ذكي أو تقي إذا كان الإله العربي هو وحده المريد المخطط الفاعل الخالق لكل شيء.؟

لماذا جاء الإله إلهاً عربياً، عربياً جداً في كل مواهبه وطاقاته وأخلاقه وشهواته؟

نحن الأرض والطبيعة هل وجد أو يمكن أن يوجد واهبون أو عادلون أو محسنون أو فاعلون أو حتى موجودون سوانا مهما حسبنا وزعمنا وأعلنا غير ذلك بل ونقيض ذلك؟

هل وجد مظلوم أو معتدى عليه أو متهم أو مشتوم بأية تهمة أو شتيمة غيرنا نحن الأرض والطبيعة مهما كنا وزعمنا كل الظالمين والمعتدين والشاتمين والمتهمين؟

ألسنا كل الآلهة والملائكة والبشر والكائنات الأخرى؟

هل يمكن أن يوجد أو حتى يتصور عذاب مثل عذابنا نحن الأرض والطبيعة لأننا كل الآلهة والبشر وكل الكائنات الأخرى؟

إذن من المعتدي الظالم الوقح، ومن المظلوم المتوقح المعتدى عليه؟ هل وجد أو يمكن أن يوجد ظالم أو معتدٍ ليس مظلوماً أو معتدى عليه أو مظلوم معتدى عليه ليس ظالماً أو معتدياً؟

من المحاكم الخالق الإله؟ ومن المحاكم المخلوق العبد؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد هذا التقسيم للوجود.. لمن وجدوا؟

ألسنا نحن أي الأرض والطبيعة كل الآلهة والخالقين والمحاكمين وأيضاً كل المحاكمين المخلوقين العبيد؟ هل الآلهة وكل أحد وشيء إلّا ضعفنا وآلامنا واستفراغنا وضياعنا ومجاعاتنا وتساؤلاتنا الحائرة؟

.. إذن من يجب أو يقبل أن يكون المحاسب المحاكم المعاقب؟

ومن يجب أو يقبل أن يكون من يصنع ويقرر الحساب والعقاب والمحاكمة ويفترها ويشرف عليها ويحكم بها ويقبل ليكون ذلك؟

من الذي يرى العدل أو المنطق أن يكون الحاكم المحاكم والذي يرى أن يكون المحكوم المحاكم؟

.. ولكن هل وجد أو هل يمكن أن يوجد من يسأل ليجيب أو من يستحق أن يسأل حتى ولو لم يجب أو ينتظر أن يجيب أي لكي يسأل؟ هل يمكن أن يوجد أي جواب عن السؤال الكبير أو يؤمل أن يوجد مهما وجدت كل الأجوبة عن كل الأسئلة الصغيرة؟

.. الإله يسأل ويسأل أي إنه سائل ومسؤول.. يسأل من يتعامل معهم وبهم ويسأله هؤلاء. إذن ماذا يساوي أو يعني السؤال يوجهه السائل ويستقبله المسؤول؟ كيف لم تسقط من كل اللغات حروف وكلمات: سائل ومسؤول وسؤال؟

.. أليس مجيء الإله سائلاً ومسؤولاً تدليلاً على أن السؤال لا يعني أي معنى من معاني السؤال وعلى أن السائل مهما سأل فهو لا يسأل وعلى أن المسؤول ليس مسؤولاً مهما سئل؟ الإله يسأل عبيده وأعوانه وموظفيه وهم يسألونه.!.. إذن كيف وجد من يعتقد أن لأي سؤال أي معنى من معاني السؤال في حساب السائل أو في حساب المسؤول؟

إنه لا إلغاء أو هجاء لمنطق السؤال والتعامل به مثل أن يكون الإله سائلاً ومسؤولاً.

.. هذه هي التفاسير والافتراضات أو بعضها عن محاكمة الأرض والطبيعة على ما فعلتاه بالإنسان العربي وعما يمكن أن يقال ويقولا دفاعاً وتبرئة أو موازنة ومحاسبة لما فعلتاه به وفعلنا له أي أمام هذه المحكمة أو المنظمة الكونية المتصورة..

❀ ❀ ❀

.. أما المحاكمة المضادة أي محاكمة الإنسان العربي على ما فعله بالأرض والطبيعة.. على ما فعله بوالدتيه وأبويه ونبييه ومعلميه ومرضعتيه وحاضنتيه ومربيتيه وعمتيه وخالتيه أي الأرض والطبيعة أي وخالقتيه فقد تقول أو لا بدّ أن تقول مما تستطيع ويمكن أن تقول ويقال أي هذه المحاكمة بكل أجهزتها ورؤاها وحساباتها وجماعات الدفاع والمقاضاة فيها ـ أن تقول ويقال فيها وعنها:

إنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد بل أو يتصور عدوان مثل عدوان الإنسان العربي على الأرض والطبيعة.. مثل تشويهه وتحقيره وإهانته وإذلاله وإضعافه وإفساده وتعجيزه وهزيمته لهما أو مثل أخذه وسرقته منهما بلا أي عطاء، أو مثل تعبيره وتفسيره وعرضه وإعلانه عنهما بأردأ وأبلد وأهون وأصغر وأحقر وأنذل أساليب التعبير والتفسير والإعلان والعرض لهما وعنهما وفيهما..

أو مثل امتصاصه وسدّه وإغلاقه لمنابع وطاقات وشهوات وحماسات الحياة فيهما بل بصرفه وتصريفه كل ذلك فيهما إلى أقبح الاتجاهات بأقبح الأساليب..

مثل إخماده وتخديره وإسكاته لعبقرياتهما وذكائهما ونشاطهما..

.. مثل تعويقه وتعطيله وإسكاته لطاقاتهما واحتمالاتهما ومواهبهما.. مثل تجفيفه وإظمائه وتضليله وتخريبه بل ولشربه وتلويثه لأنهارهما وفيضاناتهما وتدفقهما وأيضاً لطرد ومطاردة سحابهما الساقي المحيي المديم لبحارهما وأنهارهما متدفقة صانعة للحياة والحقول والزهور.. مثل تكذيبه لجمالهما وذكائهما ومنطقهما وشرفهما وسخائهما ونظافتهما أي بمجيئه دائماً نقضاً وهدماً لكل هذه المعاني الممجّدة...

.. مثل تدليله على جهالتهما وأميتهما وبداوتهما وجاهليتهما وإثباته لكل ذلك بكونه كل ذلك بلا أي شيء أو قدر من غير ذلك.. مثل تعذيبه وهجائه وتصغيره لهما..

.. مثل إصابتهما بالغثيان والاشمئزاز من نفسيهما لمعايشته أي الإنسان العربي ومواطنته ومساكنته ومخاطبته ومعاملته وبنوّته لهما بكل أساليبه وتفاسيره ومستوياته وتعبيراته وبذاءاته.. بكل مواهب وطاقات وأخلاق زعاماته وقياداته ونبواته وفقهائه وعلمائه وشعرائه..

.. مثل مشيه ونومه واسترخائه وبصقه واستفراغه وصلاته وسجوده وتوالده فوقهما وفيهما.. على وجهيهما وثيابهما وجلديهما وعيونهما وأخلاقهما وكرامتهما وضميريهما..

.. مثل توالده وولادته منهما وبهما وفيهما وعليهما بكل هذا التكاثر والتزاحم القبيح..

.. مثل سبّه وتعييره لهما برؤيته وقراءته وتفسيره وفهمه لهما وبحديثه عنهما وبتحويله لهما إلى منطق وضمير وأخلاق ورحمة وحكمة وعبقرية وسعادة ومجد إله بل أعظم وأتقى إله...

مثل سبّه وتعييره وتحقيره لكل معانيهما وأخلاقهما بادعائه عليهما بأنهما هما اللتان أقنعتاه بأن يكون عبداً مؤمناً مصلياً ساجداً راكعاً متديناً ورائياً مفسراً كل الأخطاء والخطايا والقبائح والفضائح والمظالم والبلادات والنذالات والقسوة والسّفه والضلال والكفر بأنها هي كل ما يراد ويرضى ويجمل ويطلب ويستطاع من الإيمان والتقوى والحب والعدل والحكمة والرحمة والشهامة والكرامة والنبل والذكاء والعبقرية..

أليس الإنسان العربي يعتقد ويقول كل ذلك؟ أليس يعتقد ويقول أو يعتقد وإن لم يقل بأنهما هما اللتان قالتا له: كن مغفلاً وبليداً أو جاهلاً وأعمى وخادعاً مخدوعاً منافقاً كذاباً عاجزاً مهزوماً مثل آلهتك وأنبيائك وزعمائك وفقهائك وشعرائك وآبائك.. مثل كل تاريخك الذي كان والكائن والذي قد يكون أي لتكون عظيماً وباسلاً وأصيلاً ومؤمناً وتقياً بل وصديقاً حبيباً للإله..

لكي تكون معادياً وعاصياً وهازماً للشيطان.. لكي تكون أهلاً ومستحقاً للفردوس.. للتخليد فيه بين وفوق وتحت أثداء وأرداف وأحشاء وسرر حوريات وغلمان الفردوس.. مملوءة يداك وعيناك ونشواتك وشهواتك وكؤوسك بالشراب.. بالخمور التي أرادها وصنعها وعبأها وعرفها بالمذاق والتجربة بل والشهوة والفن والخبرة الإله مستعيناً بكل أنبيائه وشعرائه وخبرائه وندمائه وفقهائه وبكل جلسائه..!.. هل مثل الإله أو غيره من لا يجد العون أو ينتظره أو يطلبه إلّا من طالبي العون ومنتظريه منه معلمين ومعتقدين ذلك؟

.. هل وجد أو يمكن أن يوجد كائن لا يستطيع ولن يستطيع ولم يستطع أن يرى أو يقرأ أو يسمع أو يريد أو يعرف أو يفعل أو يضرب أو يقاتل أو يلعن أو يصافح أو يعانق أو يقبل إلّا بعيون وآذان وأفواه وشفاه وجباه وأشواق وإرادات وطاقات وأخلاق وعضلات وأيدي الآخرين كل الآخرين.. الأقوياء الأذكياء العارفين الصالحين والضعفاء الأغبياء الجهلاء الفاسدين بل والكائنات الأخرى؟

- نعم، هل وجد أو يمكن أن يوجد هذا الكائن الذي لا يوجد إلّا في ذوات الآخرين وفي ذوات كل الكائنات لو لم يوجد الإله العربي الذي وجده ووصفه النبي العربي والدين العربي.. الذي وجده النبي والدين العربيان في القملة والنملة لا في ذاته؟

.. نعم، مثل سبّه وتعييره وتحقيره لكل أخلاق الأرض والطبيعة ولكل مواهبهما ومعانيهما بادعائه أي الإنسان العربي بأنهما هما اللتان قالتا له وأقنعتاه بأن كل ما يصيبه ويصاب به وما يصاب به كل شيء وكل أحد ويصيب كل شيء وكل أحد من عذاب وظلم وقسوة وتشوّه وتشويه ونقص وبلادة وبله وجنون وعجز ومرض وشيخوخة وموت بل وغواية وضلال وفساد وهوان فلن يكون أو يرى أو يعتقد أو يحسب إلّا بأنه كل ما يراد ويرضى ويقبل ويستطاع بل ويتصور من السعادة والحب والفرح والعدل والرحمة والحكمة والجمال والذكاء والقوة بل وكل الهداية والإيمان والتقوى والشفاء والكمال..

أي لأن كل ذلك هو كل طاقات وشهوات وتمنيات وإرادات وتخطيطات ومسرّات الإله بل وكل أحلامه ورؤاه وكل طلباته من نفسه ومن كل أحد وكل شيء...

بل لأن كل ذلك هو كل التفسيرات والتبريرات لوجوده.. لوجود كل إله ولرضاه عن نفسه ولسعادته وفرحه بها. أليست العاهة في الوجه الجميل والشلل في القامة الرافضة للانحناء والهوان، والسل في الصدر البريء، والإسكات والسكوت للقلب النابض أعلى مستويات عبقريات وأشواق وفنون ومسرات الإله؟

.. مثل اتهامه لهما بأنهما هما كل براهين الإقناع بوجود الإله العربي الموصوف في القرآن

العربي وفي أقوال وروايات ورؤى النبي العربي والدين العربي بكل أوصافه وأخلاقه وأفعاله ونياته وطاقاته ومواهبه..

.. بكل أنانياته وسذاجاته وبلاهاته.. بكل تبعاته ومسؤولياته والتزاماته عن هذا الكون وعن كل كون وجد أو قد يوجد أو لن يوجد إلّا في التصور أو التمني أو الخوف والتوقع الأليم الكئيب..!

هل وجد أو يمكن أن يوجد توقع كئيب أليم مثل التوقّع من الإله أو غير التوقع من الإله.. من حكمته أو رحمته أو قدرته أو نشاطه؟

.. هل يمكن تصور اتهام يساوي هذا الاتهام في أي معنى من معانيه؟ هل يمكن إنقاذ أو تبرئة الإله من أن يكون كل المتهمين والفاعلين لكل الأخطاء والخطايا إلّا بتبرئته من وجوده؟

.. وأيضاً مثل اتهامه لهما بأن الجحيم والفردوس بكل ما فيهما من وحشيات وتفاهات وبداوات وقباحات وفضائح وغباء وجنون...

إنما وجدت وصيغت وخططت موادهما وطقوسهما وأخلاقهما وملائكتهما وزبانيتهما وغلمانهما وجواريهما ومحظياتهما وديمومتهما وكل تفاسيرهما ومعانيهما منهما أي من الطبيعة والأرض.. حتى الكؤوس في أيدي الغلمان والجواري مصبوبة في أفواه السكارى.. حتى السرر منعرية فوقها الجواري - حتى هذه وهذه إنما صنعت وجاءت من الأرض والطبيعة.. ومثل اتهامه لهما بأن سلطان وطاغية هذا الوجود وكل وجود لا يصنع ولا يستطيع أن يصنع بل ولا يحب أو يرضى أن يصنع أي جهاز من أجهزة العذاب والتعذيب والتشويه والروع والترويع والإهانة والهجاء والإذلال إلّا منهما.. إلّا من جسديهما وطاقاتهما وأخلاقهما وقوانينهما ومنطقهما بل ومن إيمانهما وتدينهما وتقواهما.. كل رماح وخناجر وسيوف وإبر طاغية هذا الوجود التي يتسلى ويتداوى بها من حقده وبغضه وغيظه وضياعه قد خلقها وركبها منهما..

.. وبأنهما أي الأرض والطبيعة هما كل العرش والسرير والمكان والغطاء والكساء والمخبأ والملجأ والمسلاة والملهاة واللعب والملعب للطاغية الرهيب طاغية هذا الوجود...

وبأنهما كل رؤاه وتصوراته ومعاملاته ومخاصماته وطموحه ورضاه وغضبه وكل مدحه ولعنه وهجائه وحربه وسلامه...

.. وبأنهما أي الأرض والطبيعة محكومتان ومسيرتان بلا أية معارضة أو مقاومة لمشيئة طاغية هذا الوجود.. لمشيئة العابثة المتقلبة المستبدة المجنونة التي لا تؤمن أو تلتزم بأي قدر أو نوع من العقل أو المنطق أو الذكاء أو الحكمة أو التخطيط أو الرحمة أو الرؤية أو الوقار أو الشهامة أو الاستحياء أو الحب أو الصداقة أو التديّن أو التقوى، والتي لا تتعامل أو تتحاور مع أي شيء من ذلك أو تحترمه أو حتى تعرفه، بل التي هي خروج فاضح شامل على كل ما يقال ويعرف ويراد ويتصور ويتمنى من القيم والجمال والذكاء والاستحياء والاحترام للذات. وبأنهما كل قدراته وأسلحته ووسائله التي يفعل بها هذا الخروج والتي بها يستطيعه وبها يعبر عنه أي عن هذا الخروج.!

.. أو مثل اتهامه أي اتهام الإنسان العربي لهما بادعائه عليهما بأنهما أي الأرض والطبيعة هما كل من أرادوه وخططوه وصاغوه ونفّذوه وألزموه ليكون متكلماً ومخاطباً ومحاوراً ومحاسباً وقارئاً ومفكراً وفاعلاً أو حتى مؤمناً ومتديناً أي اتهامه الذي جاء بأسلوب ونيات الامتداح لهما ولما وهبتاه وفعلتاه به، أي ليكون كل ذلك كما جاء وكما سوف يظل كما جاء؟

هل يمكن أن يوجد أو أن يتصور متهم تساوي تهمته تهمة من أراد وخطط وخلق وصاغ الإنسان العربي ليكون متكلماً أو محاوراً أو مخاطباً أو محاسباً أو قارئاً أو رائياً أو فاعلاً أو حتى مؤمناً متديناً كما جاء وكان؟

أليست ذنوب ونقائص وأخطاء وعجز وتشوهات وعيوب المخلوق المصنوع المخطط محسوبة على الفاعل ومتهماً بها الفاعل لا المفعول به ولا عليه؟

كيف أمكن أن يجهل هذا أي جاهل؟ إنه لو أمكن أن يغفر لكل جاهل وأن يفسّر جهله لما أمكن الغفران لجاهل هذا.. اسمعوا لقد حدث هذا. لقد ظلّ الإنسان العربي يتهم الأرض والطبيعة بأنهما هما اللتان صاغتاه متكلماً مفكراً محاوراً محاسباً قارئاً رائياً فاعلاً مؤمناً متديناً وقبلتا معايشته كذلك.. هل تصدقون؟

.. إنه لن يوجد أو يتصور كائن يستحق كل العقاب والغضب والاشمئزاز مثل من يتهم بأنه قد صاغ وخطط وخلق الإنسان العربي متكلماً أو مخاطباً أو محاوراً أو مفكراً أو شاعراً أو رائياً أو محارباً مخاصماً أو مهادناً مسالماً أو حتى مؤمناً متديناً متعبداً تقياً بل أو حتى موجوداً ليساكن ويواطن ويعايش ويصادق بل ويربي وينمي القملة والنملة والذباب والصرصار بل ويعبد ويقدس ويمجد الكائن أو الإله الذي أراد وأحب واشتهى وخطط وصاغ وخلق القملة والنملة والذباب والبرغوث والصرصار ولأنه فعل كل ذلك بكل الزهو..!

هل مثل الإنسان العربي مربياً ومواطناً ومساكناً ومطعماً وصديقاً وفياً لكل الحشرات والآفات أو مثله عابداً حامداً مقدساً معظماً منزّهاً لإلهه لأنه خلق هذه الحشرات والآفات وحاباه بضخامة علاقاته بها؟

.. إنها لو حوّلت نقائص وفضائح كل شيء إلى معارض إعلانية كونية عالمية تعرض وتلقى وتقرأ وتستفرغ على كل العيون والوجوه والآذان والمعاهد والمعابد لما استطاعت أن تنافس شيئاً من نقائص وفضائح كائن حول الإنسان العربي إلى معرض وعرض لتفكيره أي لتفكير هذا الكائن ولتخطيطه وإرادته ورؤيته وأشواقه وأخلاقه ولكل طاقاته العضلية والنفسية والفنية. ولو كانت الأرض والطبيعة هما خالقتي الإنسان العربي لكان هذا هو العرض والمعرض لنقائصهما وفضائحهما..

وهنا لا بدّ أن يصغر كل هوان وإجرام أمام هوانهما وإجرامهما.

.. هذه بعض التهم التي قد تقرؤها الأرض والطبيعة أو تقرأ نيابة عنهما أمام هذه المحكمة أو المنظمة الكونية شاكيتين من الإنسان العربي على ما أوقع وفعل بهما ومطالبتين بالتعويض منه والعقاب له.!.. صعب التصور للعقاب الذي يستحقه أي الإنسان العربي وللتعويض الذي يستحقانه أي الأرض والطبيعة أمام هذه التهم.!

.. في تاريخ الكون كله هل وجد أو كان يمكن أن يوجد مثل هذا الاتهام في أي شيء من صيغه أو معانيه.. في تعدده أو قوته أو صدقه أو خطورته أو قسوته أو فظاعته؟ كائن يتهم بأنه هو كل صائغ كل صيغ الإنسان العربي وكل معانيه.!. لا بدّ أن تهون وتغفر كل الاتهامات أمام هذا الاتهام..

.. ألا تستحق كل الشفقة والرثاء والرحمة والتعزية كل الآذان التي تسمعه أي هذا الاتهام، وكل القلوب والضمائر والعيون والأخلاق التي تستقبله أو تقرؤه أو تتصوره أو تحاسبه أو تواجهه أو يروى لها، وكل العقول والأفكار التي تفهمه أو تسائله أو تفسّره، وكل التقوى والإيمان اللذين يصليان ويهتفان ويغنيان له؟

هل تستطيع أية محكمة أو منظمة محلية أو عالمية أو كونية أن تستمع إلى هذه الاتهامات أو أن تقرأها أو تسمعها أو تفهمها أو تسائلها أو تحاورها أو تحاكمها أو تفسرها..

مهما كانت صلابة وقسوة وبلادة ونذالة وقبح آذانها وقلوبها وعقولها وأخلاقها؟ حتى الإله العربي وهو النموذج الشامل للخروج على كل القيم والمعاني العظيمة هل يستطيع أن يكون ذلك أو شيئاً منه، أي هل يستطيع أن يقرأ أو يسمع أو يفهم أو يسائل أو يحاور أو يحاكم أو يفسر هذه الاتهامات الموجهة إلى الإنسان العربي أي هل يستطيع ذلك الإله العربي مع أنه هو الأستاذ المعلم المخطط المبدع لكل قسوة وبلادة وقبح وفحش وظلم وهوان وصمم وعمى ونذالة ووقاحة..

كيف وجد من ينكر ذلك أو يخالف فيه؟ فكروا أيها العاجزون عن التفكير.!

هل يمكن أن يوجد أي شيء من ذلك لو لم يكن هو الأستاذ المعلم المريد المخطط الخالق لكل ذلك بل والفرح السعيد المتلهي المتسلي المغني بكل ذلك بل والمصلي المتعبد الراكع لكل ذلك أعني الإله العربي؟ هل يمكن أن يوجد من يزعم أن شيئاً من ذلك قد وجد بالإكراه لقوته ولإرادته؟.. كيف يستطيع الإله العربي أن يبقى موجوداً لحظة واحدة لو لم يكن كذلك وهو يسمع ويرى ويواجه ويقرأ ويفسر ويفهم الإنسان العربي قارئاً ومتكلماً ومحاوراً ومخاطباً ومحارباً ومسالماً وفاعلاً وسائلاً ومجيباً وشاتماً ومادحاً ومضارباً ومصافحاً معانقاً بل ومؤمناً متعبداً مصلياً حاجاً صائماً مفسراً لنفسه ولوجوده ولإلهه ونبيه ودينه وإيمانه ولجحيمه وفردوسه بغلمانه وجواريه ومخازيه؟ لكن هاهنا شيء لا بدّ أن يطرح أو قد يطرح أحر التساؤلات، إذ من المشاهدات والتجارب التي كان المفروض ألّا تخفى على أحد أن الإله غائب هارب بكل ديمومة وشمول الهرب والغيبة والغيبوبة.. إنه لا يرى أو يفهم أو يوجد بأية صيغة أو تفسير من صيغ وتفاسير الرؤية أو الفهم أو الوجود في أي زمان أو مكان أو شيء أو حدث فاعلاً أو متدخلاً أو مشاركاً أو مصححاً أو متكلماً أو محاوراً أو مداوياً أو واهباً أو ضارباً أو مصافحاً أو مواسياً أو معزياً أو حتى رافضاً أو حامياً لنفسه أو لكرامته أو مدافعاً عنها. حتى دفاعه عن نفسه أو عن أي شيء من معانيه مع أنه لا يوجد محتاج مثله إلى هذا الدفاع لأنه لا يوجد معتدى عليه مثله.. على كل معانيه وأخلاقه. إن كل شيء عدوان عليه..

.. إنه لأخفى وأضعف وأقل وجوداً بكل تفاسير الوجود من كل كائنة وكائن. إنه لو وجد وظهر كل شيء بأي معنى من معاني وصيغ الوجود والظهور لكان أي الإله هو وحده الذي لن يوجد

أو يظهر بأي تفسير أو صيغة من ذلك.. إن النملة أو الذرة أو القملة أو أية كائنة أصغر أو أكبر منها لموجودة ذاتاً وفعلاً وتأثيراً وأثراً وكينونة وتعاملاً مع غيرها أكثر وأقوى وأظهر من وجوده بل دون وجوده. إنه الكائن الذي لن يراه أو يسمعه أو يقرأه أو يصدمه أو يزحمه أو يطأه أحد والذي لن يرى أو يسمع أو يقرأ أو يزحم أو يصدم أو يطأ أحداً أو شيئاً..!

.. أليس لاختفائه هذا تفسير؟ ألا يمكن أن يكون التفسير هرباً، هربه من أن يرى أو يسمع أو يقرأ أو يواجه أو يعامل أو يعايش أو يفهم الإنسان العربي بعد أن فجع به بتجربته له؟ أليس الزعم أو الاعتقاد أنه أي الإله يستطيع أو يقبل رؤية الإنسان العربي أقسى إهانة وهجاء له؟

.. ألّا يكون التفسير أنه أي الإله قد أضرب وكفّ عن فعل وعمل وخلق أي شيء بعد أن خلق الإنسان العربي خيفة أن يجيء أي شيء يخلقه كما جاء الإنسان العربي وكما خلقه؟ أليس واجباً على كل مؤمن بالإله محترم له أن يبحث عن أجمل وأذكى التفاسير ليفسّره بها؟

.. ألا يكون التفسير أنه قد اختفى لئلا يرى أو يرى استحياء واشمئزاز وذعراً من هبوطه الأليم في تخطيطه وصياغته للإنسان العربي ليجيء كما جاء؟

أليس محتوماً أن يقاسي كل مؤمن أقسى المقاساة لكي يجد إلهه الذي هو خروج على كل التفاسير ـ لكي يجده مفسّراً بأجمل التفاسير؟

.. ألا يكون التفسير أنه قد اختبأ في مخبأ لن يخرج منه من اختبأ فيه؟

هل وجدت مخابىء مثل مخابىء الآلهة أو مختبئون مثل الآلهة أو محتاجون إلى الاختباء مثلها؟

هل يوجد باحثون عن العار والافتضاح وعاشقون لهما مثل من يطلبون أو يريدون من الآلهة أن تخرج من مخابئها؟ هل وجد من رفضت طلباتهم بلا أي أمل في الاستجابة مثل من طلبوا من الآلهة الخروج من مخابئها؟ سلوا كل العيون والآذان والعقول والأخلاق هل رأته أو سمعته أو قرأته؟

.. ماذا لو كان فوق هذا الكون آلهة أخرى غير الإله العربي؟

وهل يقبل أي إله غير عربي أن يكون فوق هذا الكون أو فيه أو معايشاً أو مواطناً أو مواجهاً أو رائياً أو مجاوراً له؟

أليست كل الآلهة الأخرى غير العربية فناً وشعراً وغناءً وحباً وصداقة وجمالاً؟

.. نعم، ماذا لو كان فوق هذا الكون آلهة أخرى أو إله آخر فرأى الإله العربي مخططاً ومريداً وخالقاً وصائغاً للإنسان العربي ليجيء كما جاء.. كما وجد وجرّب وفسّر وعرف.. في كل صيغه وتفاسيره ومستوياته وتاريخه وأوطانه وأديانه؟ كيف أمكن أن تخلق أو تتخلّق أي كينونات الإنسان العربي أو أي شيء منها؟

.. هل يقبل حينئذٍ أي إله أن يكون إلهاً أو أن يخلق أو يخطط أو يريد أو يصوغ أو يخرج أي شيء أو أي كائن أي لو رأى الإله العربي مريداً أو مخططاً أو مدبّراً أو قائلاً أو فاعلاً؟

أليس محتوماً أن يمنعه ويزجره حينئذٍ خوفه من أن يكون مثل الإله العربي الخالق للإنسان

العربي أي يمنعه ويزجره عن أن يكون إلهاً أو مخططاً أو مريداً أو مخرجاً أو صائغاً أو موجداً؟

.. أيها الإله العربي. إن لك لمزية ضخمة، ضخمة هي أنك سوف تجعل كل إله يرفض أن يكون إلهاً وكل من أصبح وبويع إلهاً يتنازل عن ألوهيته ويتنكرها ويرفضها خوفاً من أن يكون مثلك ليخلق الإنسان العربي الذي خلقته عاشقاً له.!

أليس للدمامات والآلام والأخطاء مزايا أو فوائد أو نفع إذا تحولت إلى حذر واتقاء وحماية منها ومقاومة لها وانتصار عليها؟

هل وجد أو هل يمكن أن يوجد زاجر لأي إله ولكل إله عن أن يكون إلهاً، أو محرّض له على أن يتنازل عن ألوهيته ويتوب منها ومن أن يكون مخططاً أو مريداً أو مدبّراً أو خالقاً أو صائغاً مخرجاً.

ـ نعم، هل وجد أو يمكن أن يوجد ما يفعل كل ذلك مثل أو غير التحديق في الإله العربي مصمماً وواهباً للإنسان العربي.. للعربي نبياً أو معلماً أو زعيماً أو حاكماً أو ثائراً أو شاعراً أو كاتباً أو فناناً أو عالماً أو مفكراً أو حتى حداداً أو نجاراً أو خياطاً أو طباخاً أو زارعاً أو حتى مؤمناً عابداً ممجداً واصفاً مفتراً لإلهه؟

إن الإنسان العربي ليهجو ويحقّر إلهه مادحاً مقدّساً راشياً راثياً مصلياً داعياً منتظراً له أكثر وأقسى مما يفعل به منكره ورافضه وهاجره بل وقاتله.!

.. إذن أليس العدل والواجب والحق والصدق أن يقال ويعتقد ويعلن أن كل الآلهة الأخرى أي غير العربية لم تر أو تعرف أو تتصور الإله العربي أو مختاره ومصطفاه وحبيبه ومخلوقه وفرحه ومجده وكبرياءه أي الإنسان العربي وإلّا لما قبلت أي الآلهة الأخرى أن توجد أو تحيا أو تبقى أو تصنع وتخلق حذراً من أن تكون كالإله العربي الذي أوجد الإنسان العربي بالإرادة والتدبير والتفكير والتخطيط وبالإعجاب والمباهاة والامتنان بكل الرؤية والقدرة والمعاناة؟

هل كانت هناك مؤامرة لئيمة شريرة قد دبّرت إخفاء الإله العربي والإنسان العربي عن عيون ومسامع وعقول وضمائر الآلهة الأخرى لكي تقبل أن تظل آلهة وموجودة وخالقة وباقية، إذ لولا هذا الإخفاء فهل يمكن أن تكون أو تظل شيئاً من ذلك أي كل الآلهة الأخرى؟

.. كم كان جمالاً وراحة ونظافة وكرامة وبراءة بل وتديّناً وتقوى ألّا يوجد أي كائن خالق أو أي كائن مكون مخلوق. يا لها من غلطة أو فكرة قبيحة بليدة سفيهة أي أن يوجد أي خالق أو أي مخلوق. كيف وجد من يريد ذلك أو من يفعله؟ إذن كم كان واجباً ومطلوباً أن يرى ويقرأ ويفسّر ويجرّب ويعايش ويفهم ويعامل الإله العربي والإنسان العربي كل من قد يوجد ليكون كائناً خالقاً أو ليكون كائناً مخلوقاً..

لكي لا يوجد هذا الكائن الخالق أو الذي قد يكون خالقاً ولكي لا يوجد هذا الكائن الذي قد يكون مخلوقاً أو هذا الكائن المخلوق أو الذي أصبح أو قد يصبح مخلوقاً..

أي لكي لا يكون إلهاً عربياً خالقاً أو إنساناً عربياً مخلوقاً..!

.. لنفكر، لتفكروا في هذا: لو كان إله الكون كل الكون رأى الإله العربي الخالق أو الإنسان العربي المخلوق..

لو كان قد رأى أو قرأ أو عرف النبوات أو الزعامات أو القيادات أو الديانات أو الثورات أو أي شيء من الكينونات العربية فهل كان يمكن أن يكون أو يظل خالقاً أو حتى موجوداً أو باقياً أو قابلاً أن يكون موجوداً أو باقياً؟

❁ ❁ ❁

.. كيف جاءت فكرة الوجود وجود أي شيء؛ هل يمكن أن تكون قد جاءت بإرادة أو تدبير أو تخطيط أو بأي حساب.. بأي تفسير أو مستوى من تفاسير ومستويات الإرادة أو التدبير أو التخطيط أو الحساب؟

هل يمكن أن توجد أية إرادة أو تدبير أو تخطيط أو حساب قبل أن يوجد من يفعل ذلك؟ إذن هذه المعاني أو المواقف أي الإرادة والتدبير والتخطيط والحسابات والتفكير في كل ذلك مسبوقة بالوجود أي لا بدّ أن تكون محكومة ومأمورة ومملى عليها لا حاكمة أو آمرة أو مملية أو مدبّرة أو مخططة..!

إذن هل يمكن وجود أو حتى تصوّر تدبير أو تخطيط أو تفكير حر أو إرادة أو حسابات أو تقديرات أو انفعالات أو محاكمات أو رؤى حرة؟

هذا الوجود أو الموجود قد وجد قبل أن يوجد التفكير والتدبير والتخطيط والإرادة والمحاسبة.

ـ نعم، هذا الوجود أو الموجود كيف يمكن أن يكون مريداً أو مفكراً أو مخططاً أو محاسباً أو مدبّراً بحرية وقد وجد بكل أوصافه وطاقاته وظروفه قبل كل شيء.. قبل أي شيء من ذلك؟

إله هذا الوجود أو موجده أو المتهم بذلك قد وجد أو أوجد بالصيغ والأوصاف والطاقات والأخلاق والرؤى والانفعالات والاحتياجات والمجاعات والأنانيات التي بها وجد أو أوجد أو جاء قبل أن يصبح مريداً أو مفكراً أو مخططاً أو محاسباً أو رائياً أو فاعلاً بل وقبل أن يستشار أو يختار أو يوافق أو حتى يخبر أو يعرف أو يساءل أو يعتذر إليه..!

هذا الإله كيف يمكن أن يكون حراً في أي شيء من ذلك أو في أي شيء آخر؟ هذا الإله هل يمكن تصور مستعبد لوجوده.. لصيغ وجوده مثله؟

أليست صيغة الوجود والموجود وظروفه هي التي تصوغ وتحكم وتوجّه وتحدّد طاقاته ونياته واحتياجاته وأفعاله وتعبيراته وذكاءه وغباءه؟ حتى الآلهة أليست كذلك بلا أية قدرة على التمرّد أو العصيان؟.. حتى الآلهة لن تستطيع أن تتمرّد على صيغ وظروف وجودها أو أن تعصيها. لهذا فإنه لا مثيل للآلهة في عجزها عن التغير وعن التغيير.. إن المؤمنين بالآلهة هم الذين يغيرونها حين يبدو أنها قد تغيرت..!

.. إن الفرق بين أصغر حشرة وأعظم كائن.. بين أضعف حشرة وبين الإله والإنسان لن يساوي إلّا الفرق بين هذه وهذا في صيغ وظروف وجودها ووجوده..!

ولكن من الذي يدبّر ويخطّط ويصنع وجود الأشياء والكائنات وصيغ وجودها ويفرض ذلك؟ إن هذه هي كل المشكلة بل كل القضية..!

إن أي وجود أو موجود لم يختر أو يخطط أو يصنع صيغ أو ظروف وجوده حتى ولا الآلهة، حتى الاستشارة لم يستشر في ذلك..

❁ ❁ ❁

بعد هذا العرض المثير الموجع لدعاوى واتهامات كلا العدوين الخصمين أو الصديقين المتخاصمين: الأرض والطبيعة للإنسان العربي والإنسان العربي للأرض والطبيعة.. بعد هذا العرض المؤلم المحرج على هذه المنظمة أو المحكمة أو المحاكمة الكونية المفترضة والتي كان يجب أن تكون قد وجدت بل التي قد وجدت تفسيراً وإن لم توجد ذاتاً.. التي قرئت وإن لم تكتب.. ونطقت وإن لم تسمع.

- نعم، بعد هذا العرض لهذه القضية بكل هذا الصدق والحرارة والجرأة والانفجاع على هذه المنظمة أو المحكمة أو المحاكمة ماذا يمكن أن ترى وتقول فيها وبماذا يمكن وينتظر أن تحكم وعلى أي المتخاصمين تحكم أو على أيهما تحكم أقسى؟

قد تكون هذه القضية بلا مثيل أو بلا مثيل في قلة مثيلها. إنها قضية صعبة معقدة متداخلة محيرة.. إن أية محكمة أو منظمة لم تواجه أو تسمع مثلها.!

.. إن المعتدي المسيء هنا معتدى عليه مساء إليه وإن المعتدى المساء إليه وعليه مسيء معتدٍ.. ولكن أليس كل موجود معتدياً معتدى عليه؟ إن كلا الخصمين هنا معتدٍ على الآخر مسيء إليه. إن اليد المضروبة ضاربة اليد الضاربة لها.

.. الإنسان العربي معتدٍ مسيء على الأرض والطبيعة وإليهما بكل أساليب وتفاسير الاعتداء والإساءة بلا حدود بتعامله بهما ومعهما وفيهما وبانتسابه إليهما وبمعايشته ومساكنته ومواطنته وبنوته لهما.. هل يمكن تصوّر مفجوع مروع مثل من يوجد ويعيش داخل الذات العربية بكل تفاسيرها ومعاملاتها.

.. هل مثل هذه الإساءة والعدوان إساءة أو عدوان؟ إنه لا ذنوب مثل ذنوب الإنسان العربي وذنوب أمثاله إن كان له أمثال.

- مثل ذنوبه التي أوقعها ولا يزال وسوف يظل يوقعها بالأرض والطبيعة..!

وقد فسّرت الصفحات السابقة بشاعة وقبح ما يفعل ويوقع بهما..

وهل يغفر للإنسان العربي أو يسعده أو يفيده أو يكرّمه أن يكون له أمثال؟ إن التفرّد بالهبوط قد يكون أقوى في احتمالات الإنقاذ والمساعدة من الجماعية فيه!

.. ولا معوض لهما أي للأرض والطبيعة عما يفعله بهما الإنسان العربي وأمثاله إلّا ما يفعله لهما الإنسان الآخر.. إنه المبدع الصانع الواهب لهما: للأرض والطبيعة كل جمالهما ومجدهما وقوتهما وعبقريتهما وسخائهما وفرحهما وضخامتهما وقوانينهما وذكائهما ومنطقهما، وإنه العارض لكل ذلك المعلن عنه القارىء المفسّر المثبّت له الدال عليه المعامل له والمتعامل معه وبه بكل البراعة والقوة والمعرفة والذكاء..!

إنه لا معنى ولا عطاء جميل أو عظيم في الأرض والطبيعة ولا منهما لولا الإنسان الآخر..

.. أما هما أي الأرض والطبيعة فقد اعتدتا عليه على الإنسان العربي وأساءتا إليه بأن صاغتاه كل صياغاته ليكون ويظل يكون كل وجوده الذي كان والذي سوف يكون بكل مستوياته الفاجعة المروعة الصغيرة.. بأن اختارتا له بنذالة وعدوانية وخبث هذه الصياغة التي جاء بها أو بأن بصقتاه فيها بلا اختيار أو إرادة أو دراية.. هل يوجد من يمكن أن يتهم بأنه الصائغ للإنسان العربي ليجيء كما جاء غير الأرض والطبيعة؟

أليس مذنباً ومعتدياً أقبح وأنذل الذنوب والاعتداءات من صاغ مخلوقه ومصنوعه أصغر وأضعف وأردأ صياغة وأكثرها هواناً وافتضاحاً وأخطاء وخطايا وعجزاً؟ إذن هل يوجد مذنب معتدٍ مثل صائغ الإنسان العربي؟

أليست ذنوب وأخطاء ونقائص المخلوق المصنوع هي بعض ذنوب وأخطاء ونقائص الصانع الخالق؟

حتى اعتداءات وإساءات وإهانات المخلوق المصنوع لصانعه وخالقه وعليه وإليه لن تكون أو يجب ألّا تكون أو تحسب إلّا فعلاً للخالق الصانع بنفسه وضد نفسه قاصداً أو غير قاصد. إن اعتداء المخلوق أو المصنوع على خالقه أو صانعه لن يفسّر أو يجب ألّا يفسّر إلّا بأنه اعتداء الخالق الصانع على نفسه.!

.. إذن وبلا انحياز إلى الإنسان العربي وبلا تبرئة له أو دفاع عنه لا بدّ أن نرى ونقول إن كل ما أوقعه ويوقعه أي الإنسان العربي بالأرض والطبيعة ليس إلّا فعلهما بنفسيهما. فعدوانه عليهما وإساءاته إليهما هو وهي عدوان وإساءات منهما على نفسيهما وإلى نفسيهما بل وعليه هو وإليه. فهو في عدوانه معتدى عليه..

إنه المعتدى عليه والمساء إليه في عدوانه عليهما وفي إساءاته إليهما أي في صيغ وأساليب عدوانه وإساءاته إليهما وعليهما.!

إنه ليس إلّا فاعلاً ما فعل به.. ليس إلّا مفعولاً به حسب وبدا فاعلاً بغيره.!

.. لعل الإنسان العربي لا يسمع هذا أو يعيه أو يقرؤه لئلا يبالغ في تبرئة نفسه من كل نقائصه وقبائحه وفضائحه وإساءاته واعتداءاته ومن كل ضعفه وعجزه.. وأيضاً لئلا يبالغ في إلقاء كل ذنوبه وعيوبه وهزائمه على غيره وفي اتهامه بها. أليس أشهر وأقوى فصول كتاب تاريخ الإنسان العربي الفصل الذي يبرئه من كل ذنوبه ونقائصه ويلقي بها على كل الآخرين؟

إنه أصيل وشهير جداً في هذا الخلق.. في هذه الرذيلة.!

نعم، إن من خصائص ومواهب وعقائد ورؤى الإنسان العربي أن يعتقد ويعلن ويعلم أن الآخرين هم المدبّرون والمخططون والفاعلون لكل أخطائه وخطاياه وعجزه وهزائمه بل ولأحقاده وعداواته وبغضائه ومخاصماته.. وأيضاً أن يعتقد ويعلن ويعلم أن كل علوم وحضارات وتقدم ومزايا كل الآخرين ليست إلّا شيئاً من عطاياه منهوبة أو موهوبة..

حتى النبوات والألوهيات ليست إلّا إحدى عطايا نبواته وألوهياته..!

أليس إله ونبي الإنسان العربي قاتلين وملغيين وطاردين مطاردين لكل الآلهة والأنبياء؟ لهذا فإن الإنسان العربي يرى ويعلن أنه كافر كل من لم يؤمن بأنه لم يبق من الآلهة والأنبياء إلّا الإله والنبي العربيان.!

.. إن الإنسان العربي في عقائده ورؤاه ودعاواه وأخلاقه هذه خارج على كل التفاسير الأخلاقية والعقلية والمنطقية والنفسية والتهذيبية التعليمية بل والدينية. فكيف خروجه على كل اللغات والتفاسير الحضارية؟ إنه هجاء لكل انتماءاته ولكل ما ينتمي إليه.!

إنه شذوذ يتفوّق في شذوذه على كل شذوذ.!.. إن الإنسان العربي عذاب وفجيعة وصدمة لكل من يريد أن يقرأه أو يفهمه أو يفسّره.

إنه لا يماثل الإنسان العربي في هذه القضية إلّا الإله العربي.. فهو أي الإله العربي يرى ويعتقد ويعلن ويعلم أنه بريء من كل أخطائه وخطاياه وسيئاته ومن كل تخطيطاته وأفعاله الرديئة القبيحة العدوانية، وأن الآخرين هم كل المسؤولين عنها الفاعلين لها الذين يجب أن يحاسبوا ويعاقبوا عليها وبها..!

كما يرى ويعتقد ويعلن ويعلم أن كل مزايا وأعمال وعبقريات كل الآخرين ليست إلّا شيئاً من مزاياه وأعماله وعبقرياته.!

والمأساة أنه أي الإله قد وجد من يتقبّلون منه ذلك بل ويمجّدونه به.!

كيف جاءت صيغ وتفاسير ومستويات الإله العربي مثل صيغ وتفاسير ومستويات الإنسان العربي؟

من الذي اختار لهما وفرض عليهما هذه الصيغ والتفاسير والمستويات الموحّدة؟ كيف وجد من يستطيع أن يفعل ذلك وكيف فعله؟ ولماذا فعله أي إن وجد من فعله؟

إن الصدق والدّقة مطلوبان وواجبان وملتزم بهما دائماً أو أحياناً أو نادراً وشذوذاً أو هكذا قيل ويقال وسوف يظل ذلك يقال ويقال. ما أقل صدق وذكاء وجمال ما يقال وما أكثر كذبه وقبحه وغباءه.!

آه ما أقل ما يقال ومن يقبل أن يقول لو كان لا يقال إلّا الصدق والذكاء والجمال والحق.

... وبالصدق والدقة اللذين يندر ويخيف ويعذب ويهدّد بل ويقتل ويفضح ويهزم الالتزام بهما ولو في بعض المجتمعات التي أشهرها وأصلها في ذلك مجتمعي.

ـ نعم، بهذا الصدق والدّقة لا بدّ أن يقال: إن بين الإنسان العربي والإله العربي فرقاً في هذه القضية..

هل يزعج الإله العربي أو الإنسان العربي هذا الفرق والإعلان عنه أم يرضيه ويسعده؟

.. فالإله العربي يعلن ويعلم بكل المباهاة والتدلّل والدلال والغرور أنه المريد المدبّر المخطّط الفاعل لكل الشرور والآلام والآثام والعاهات والنقائص والأخطاء ثم يطالب بأن يكون المشكور المعبود الممدوح الممجد لذلك ومن أجل ذلك ولأنه الفاعل لكل ذلك، معلناً أن الآخرين هم الذين يجب أن يحاسبوا ويعاقبوا ويحاكموا ويذموا ويلعنوا جزاء لهم على ما فعل هو.. على ما فعل هو بهم وبكل أحد وبكل شيء.!

يا له من هبوط لم يهبط إليه أي كائن حتى ولا في تصوّره غير الإله العربي.!

حتى الإنسان العربي لم يستطع الجرأة على كل ذلك أو على مثل ذلك بل جرؤ فقط على أن يتهم الآخرين بأنهم المدبّرون والمخططون والفاعلون لكل الشرور والآلام والآثام والفضائح والهزائم التي يفعلها هو أو التي تصيبه..

.. أما هو فبريء. إنه أبداً مفعول به وليس فاعلاً أي لأي شيء مما لا يرضى أو يقبل أو يغفر..!

هل يسعد أو يمجد الإنسان العربي أن يجيء أكرم وأنبل وأتقى وأعظم حياء وذكاء من إلهه أم يحزنه ويهينه ويفجعه ذلك؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان الإنسان العربي يحاسب إيمانه أو تعاليمه أو دينه أو أخلاقه أو رؤيته؟

❀ ❀ ❀

قد يكون المعقول المقبول بل المحتوم ترك التساؤل عما يمكن أو يتوقع وينتظر وينبغي أن تحكم به هذه المنظمة أو المحكمة أو المحاكمة الكونية المفترضة أو المطالب بها أو المعتقد وجوب وجودها.

.. أن تحكم به في هذه القضية الفريدة والشاذة في كل تفاسيرها..

.. أن تحكم به على الأرض والطبيعة أو على خصمهما الإنسان العربي..

.. إن كل الحسابات والتقديرات قد تقول: إنها أي هذه المنظمة أو المحكمة لا بدّ أن تراع وتفجع مما سمعت وفهمت ولكنها لن تحكم على المتخاصمين ولا على أحدهما لا حكماً قاسياً ولا مخففاً..

إنها ستجد وترى أن كل ما قالاه وشكيا منه صحيح ولكنهما لا يستحقان العقاب أو الحساب.

.. إنها ستجد عدواناً وإساءات وجرائم ولكنها لن تجد أو ترى فاعليها معتدين أو مسيئين أو مجرمين لكي يحاسبوا أو يحاكموا ويحكم عليهم.. إنها ستجد اعتداءات وجرائم ومظالم وآثاماً دون أن تجد معتدين أو مجرمين أو ظالمين أو آثمين. إنها ستجد من فعل بهم كل ذلك دون أن يكونوا

فاعلين لشيء من ذلك.. ستجد أظفاراً وأنياباً وأمعاء مفترسة وآكلة أنبتت في المفترس الآكل ولم ينبتها هو في ذاته..!

.. إنها ستجد مرضى ومقعدين وعاجزين وعمياناً أي مصابين بذلك وليسوا فاعلين له.. ستجد موتى ومشوّهين لم يصنعوا الموت أو التشويه أو التشوّه.!

لم يريدوا الموت ولا التشويه ولا شيئاً مما يفعلون لو لم يفعلوا كذلك.!

.. إنها سترى أنهم قد أرادوا وفعلوا ذلك بالتفاسير التي أراد وفعل بها البليد بلادته والدميم دمامته والقصير القامة قصر قامته.!

إنها سترى ذلك هذه الرؤية لأنها أي هذه المنظمة أو المحكمة توجد وتعيش وترى وتحكم من خارج ذوات ووجود ورؤى ومشاعر الخصمين أي الأرض والطبيعة أحد الخصمين المتخاصمين والإنسان العربي الخصم المخاصم الآخر. والرائي من خارج نفسه ووجوده ومن خارج كل وجود لا بدّ أن تختلف رؤيته لنفسه ولكل شيء.. لهذا لا بدّ أن تستمع إليهما وأن تراهما وتقرأهما وتفسّرهما بكل الحياد والنزاهة والهدوء بل والبرود. إن حيادها سيكون بلا مثيل حتى حياد الإله إن كان له لن يصعد إلى حيادها لأنه ليس خارج وجوده.. وحينئذٍ لا بدّ أن تحزن وترثي لهما أي للأرض والطبيعة أحد الخصمين وللإنسان العربي الخصم الآخر، بل وأن تذهب تحاول الانتقام من أجلهما ممن فعل بهما وفعلهما والأخذ بالثأر منه لهما دون أن تجدهما مستحقين لأية محاسبة أو معاقبة أو حتى مساءلة بل لا بدّ أن تجدهما مستحقين لكل التعويض والتكفير والاعتذار والاستغفار ولكل نيات ومحاولات التصحيح والتغيير لهما وللتعامل والمواقف منهما ومعهما..!

إن كل راءٍ وقارىء ومفسّر ومحاور محاسب من خارج هذا الوجود لا بدّ أن يرى كل شيء فيه مظلوماً مهاناً معتدى عليه مستحقاً لكل أنواع التعويض والتكفير والاعتذار إليه دون أن يستحق أي حساب أو عقاب ومستحقاً لكل الحساب والعقاب ولأقسى الحساب والعقاب من أراد له وفعل به وله كل وجوده وكينوناته كما جاء وكما كانت أي وجوده وكينوناته..!

ولكن هذا الرائي القارىء المفسّر المحاور المحاسب لم يوجد؟ هل ينتظر أن يوجد؟

إذن ألا يمكن الاعتقاد أو الظن أن هذه المنظمة أو المحكمة الكونية المتصورة لا بدّ أن ترى أنها قد وجدت من يجب أن تتهم وتحاسب وتحاكم وتحكم عليه أو من تقبل الاستماع إلى اتهامه وإلى محاسبته ومحاكمته والحكم عليه بكل الرغبة والحماس والرضا والاطمئنان والاقتناع..

أي إن كانت قد سمعت عن وجود إله لهذا الوجود أي ليكون الاتهام والمحاسبة والمحاكمة له.. لإله هذا الوجود انتقاماً وثأراً وإنصافاً وتعويضاً للأرض والطبيعة وللإنسان العربي ولكل شيء مما فعل به وأراد ودبّر له أي إله هذا الوجود بدلاً من أن تفعل ذلك بمن فعل به أي ليكون الاتهام والحساب والعقاب لمن أصاب بما يشكى منه لا لمن أصيب بذلك؟

.. أما إذا لم تكن أي هذه المنظمة أو المحكمة قد سمعت بهذا الإله أفلا يمكن حينئذٍ الاقتناع أو التصور أو التمني أنها لا بدّ أن تذهب تبحث عن كائن آخر.. عن أي كائن أراد وخطط

وصنع وصاغ هذا الوجود.. الأرض والطبيعة والإنسان العربي وكل شيء وفعل به كل وجوده.

.. أن تذهب تبحث عن هذا الكائن أي في الافتراض ليكون كل الأخطاء والخطايا والدمامات والاتهامات لكي تكون كل المحاسبة والمحاكمة والمعاقبة له وكل الغضب والانفجاع عليه ومنه وبه؟ لأنه سيكون حينئذٍ كل اللصوص والقتلة والغادرين والفاسقين والفاسدين والمعتدين..!

.. ألم يكن من الواجب والمتوقع والنافع المفيد جداً لكل شيء أن يكون هذا قد حدث؟ كيف لم يحدث؟ ألا يمكن أن يحدث؟ هل ننتظر حدوثه؟ ولكن هل يستطيع أي كائن غير الإنسان أن يتصور لهذا الوجود فاعلاً أو مريداً أو مدبّراً؟

.. كيف يقبل أو يغفر أو يحدث أن يكون الفاعل بهذا الوجود وجوده بلا محاكمة ومحاسبة وعقاب أو بلا طرد أو إسقاط أو تصحيح لكل صيغه ومعانيه؟

فاعل الطبيعة والأرض اللتين فعلتا الإنسان العربي كما فعلتاه ليفعل بهما كل ما فعل ويفعل وما سوف يظل يفعل.. اللتين فعلتا لتفعلا الإنسان العربي كما فعلتاه ـ هذا الفاعل بلا محاسبة ولا محاكمة ولا معاقبة ولا طرد أو إسقاط له وبلا تصحيح لشيء من أخلاقه أو معانيه أو سلوكه.!

هل حدث هذا؟ هل حدث؟

إنه لا فجيعة مثل فجيعة من يرون ويقرؤون هذا الوجود أو أي وجود من خارجه..!

إن الذين يعيشون داخل هذا الوجود أو أي وجود أي يعيشونه ويعيشهم ويعيش فيهم لا بدّ أن تفسد وتعجز وتضل وتعمى رؤاهم وقراءاتهم وتفاسيرهم له لكي يستطيعوا قبوله.. وقبول وجودهم ووجودهم فيه لكي لا يبالغوا في انفجاعهم بأنفسهم أو في هجائهم وازدرائهم وتعنيفهم لأنفسهم لأنهم قبلوا ذلك بل ومجّدوه وأعلنوا فرحهم وسعادتهم به.. إن العيون لا ترى نفسها هكذا الوجود لا يرى الوجود هكذا الموجود لا يرى نفسه.. لا يرى وجوده مهما نقأ عينيه بفحشه وقبحه.!

.. ماذا لو أن أي نبي أو قائد أو عظيم أو عبقري بل لو أن الإله ذاته رأى أو قرأ أو فسّر هذا الوجود الذي يعيشه ويعيش فيه أي ووجوده من خارجه من خارج وجوده؟

ماذا يمكن حينئذٍ أن يكون انفجاعه واشمئزازه وتهوينه لنفسه أو ماذا لو أن أية حشرة أو عاهة أو دمامة أو مهانة أو هزيمة أو مرض أو ولادة أو موت أو شيخوخة أو أية آفة رأت وقرأت وفسّرت وجودها من خارج وجودها، أي لو أن المصاب بذلك أو المتوقع والمنتصر والمحتوم أن يصاب به رأى أو قرأ أو فسّر وجوده من خارج وجوده بل لو أن الشموس والنجوم والحقول والمجرات رأت أو قرأت أو فسّرت وجودها من خارج وجودها.. من خارج هذا الوجود وكل وجود؟

إن الرؤية الرائية المحكومة بالعدل والتقوى لا بدّ أن تحكم أي في هذه القضية على الإنسان العربي بأنه متهم ومدين ويستحق الحكم عليه بكل ما تطالب به الأرض والطبيعة وبكل ما تدعيانه عليه بل بحساب وعقاب كل الذنوب..

.. إن جناياته عليهما لا تحتاج إلى أن تسمع أو ترى أو تقرأ أو تذكر أو يذكر بها أو تفسّر أو

يدلّل عليها أو تحتاج إلى شهادة أو شهود أو إلى مرافعات إثبات. إن كل شهود النفي لو وجدوا لما أمكن الاستماع إليهم..

إن الإله لو أراد أن يتحول إلى شاهد لرغبة في نفسه لما جرؤ على ذلك إذ لا بدّ أن يفتضح.

.. إن الصم البكم الخرس الأميين العميان الفاقدين لكل أدوات التعبير والاستقبال والتصادم ليسمعون ويرون ويقرؤون وينطقون ويواجهون ويتصادمون ويصدمون ويصدمهم كل ذلك.. كل ما يقبح ويشوّه ويفسد ويلوّث ويذم ويميت ويفقر ويخرب ويلوّث به الإنسان العربي كل الأرض والطبيعة ونفسه وكل شيء. إنه لا جاني عليهما يتفوّق عليه في جنايته عليهما. إنه لا جاني على الأرض والطبيعة مثل الإنسان العربي ولا مجني على شيء مثل جناية الإنسان العربي عليهما.!

.. إنه بكل الأساليب والصيغ والأدوات يلوّث ويشوّه وينجّس جمالهما ونظافتهما وطهارتهما، ويصيب بيئاتهما ويحشد ويربي وينمّي ويرعى ويستولد ويوطّن فيهما أي في بيئاتها كل الأوبئة والحشرات والدمامات والقحط والخراب والتخريب والبداوة والتخلّف الشامل.. ويصيبهما الأرض والطبيعة بالعقم والعجز والضعف المولود الموروث المتوالد.. بالضعف العرقي.

.. بالضعف المتولد والمتخلّق والمنقول إليهما من خصائصه وعرقه وضعفه هو.. بالضعف المولود.. الضعف بالتوالد والتناسل ليجيء كل ما يلدان ويهبان ويرعيان من نباتات وأشجار وثمار وأزهار ومن حيوانات برية أو بحرية أو جوية هزيلة مريضة دميمة مشوّهة رديئة عاجزة موبوءة والدة للأوبئة - ليجيء كل ذلك بما فعله بهما الإنسان العربي..

ليجيء كل ذلك بالأسلوب والمنطق والحتم الذي يجيء به المولود العربي من الوالد العربي.!

.. وإنه كذلك يتعامل بهما ومعهما وفيهما ويعايشهما ويواجههما ويوجههما ويسمعهما ويولد ويوجد ويسير وينام ويمارس كل فحشه وجهالاته وسفاهاته ودماماته وأخطائه وذنوبه وفضائحه ونقائصه وخصوماته وعداواته وحروبه وكل بذاءاته وعفوناته ودينه فيهما وفوقهما وبموادهما وأدواتهما بلا أي فن أو علم أو تكريم أو تجميل أو تضخيم أو تصعيد بل هابطاً بهما إلى أعماق كل حضيض هاجياً كل صيغ الهجاء وتفسيره بهجائه وتفسيره لهما. أليس الشيء العظيم يهون ويصغر ويعجز ويتفه بقدر ما يتعامل به الإنسان العربي؟

.. أليس الشيء الجيد أو الجميل أو القوي يصبح شيئاً رديئاً ودميماً وضعيفاً أو يرى أو يبدو أو يتحوّل كذلك أو يهجى ويفسّر ويتهم بذلك.. بأنه كذلك أو لا بدّ أن يصبح كذلك أو أنه لا يساوي إلّا ذلك، أي إذا عامله وتعامل به وحكمه وامتلكه وخططه وخلقه وصاغه كائن رديء لا يستطيع أو يريد أو يعرف أو يعامل إلّا الشيء الرديء.

.. أي كائن رديء عنده القدرة والتصميم على أن يحوّل كل شيء إلى رديء وكل شيء رديء إلى شيء أردأ كما يصنع الإنسان العربي.. كما صنع بالأرض والطبيعة وبكل شيء بل وبالإله وكما يصنع وكما سوف يظل يصنع..!

حتى الإله والسلاح الجيد لقد حوّلهما الإنسان العربي بتعامله معهما وبهما إلى كل القبح والعجز والرداءة والافتضاح والهزائم.!

وهل الرديء بمواهبه وأخلاقه وطاقاته يمكن أن يصنع شيئاً جيداً أو شيئاً غير رديء حتى ولو أراد ذلك؟ هل الإرادة قدرة أم تنفيذ للقدرة؟ هل يوجد من يجرؤ على الزعم بأن الإله الذي يتعامل ويتخاطب ويتساوم ويتفاوض ويتلاقى ويتصادق ويتحالف ويتحارب ويتفاهم معه الإنسان العربي هو مثل الإله الذي يتعامل معه الآخرون كل هذه المعاملات في جماله أو فروسيته أو عبقريته أو حبه أو رحمته أو في أي شيء من معانيه، بل أو في أدبه وتهذيبه وقوته وفي قدرته على مواجهة الأعداء والخصوم والأزمات والكوارث؟

إنه أي الإنسان العربي يفسد ويشوّه ويضعف ويذلّ ويبلد ويقتل ويخمد في كل هذه كل خصائصها ومواهبها وجمالها وطاقاتها وفروسياتها وحماسها وبسالتها بمعاشرته ومواجهته ومعاملته لها واستضافتها وبرؤيته لها يفسدها ويشوّهها ويضعفها ويخمدها ويقتلها ويصيبها بالبلادة والجبن حتى الإله. إنك لن تجد إلهاً كاملاً في كل معانيه لعبد ناقص في كل معانيه أو صاغه وتخيّله وتمناه وصوره عبد في كل معانيه.!

.. إن الإنسان العربي لم يجن في عملته هذه مثلما جنى على إلهه وقادته وزعمائه وأبطاله بتوجيهه وتدبيره وتعليمه وتكوينه لهم بأساليبه المباشرة وغير المباشرة.. إن الإنسان العربي لم يصغ شيئاً بكل حدوده وصفاته وأخلاقه وآرائه وشهواته وحنقه وبغضه وعدوانيته مثل صوغه للإله العربي ليكون مثلما يريده ويتصوّره ويقبله.. مثل صوغه له على ذاته، على شهواته وإراداته وتمنياته وتخيلاته المريحة ولو محاسبة بالتخيلات الأخرى..

.. إن الإله ليس موجوداً بذاته ولا مرئياً بصورة ذاته أو مسموعاً من ذاته أو يتحرك أو يضرب أو يرضى أو يغضب بذاته أو في ذاته أو من ذاته، وإنما يحدث كل ذلك ويوجد ويكون ويتحرك ويرى ويتصور ويرضى ويغضب في ذات المؤمن ومنها وبها. إنما يكون أي الإله ويرى ويفسّر ويعظم أو يصغر في ذات المؤمن به ومنها وبها. إذن ما أصغر الإله وأردأه وأضعفه وأقبحه.

إن الإله ليس إلّا مولوداً.. إلّا ولادة.. ووالده تخيل وتمنيات ومخاوف وأكاذيب وتصورات أضعف إنسان. إن أسوأ والد والد الآلهة.!

.. كائن يريد أن يشخّص كائناً آخر كبيراً، كبيراً بلا حدود، كائناً لم يره أو يسمعه أو يلمسه أو يخطئه أو يخطط له أو يزنه أو يعرف مقاييس ثيابه أو عباءته أو عمامته أو حذائه أو غرفته أو سرير نومه أو ثقل وطأته على الأرض.

وليس له آباء أو أبناء أو أقارب ليعرف من نماذجهم أو أحجامهم والكون الذي يزعم أنه هو وحده المريد المخطط الفاعل له يصلح أن يكون فاعله كل النماذج والصيغ والأخلاق والفضائح.. أن يكون أقبحها وأوقحها وأبلدها وأجهلها وأفجرها وأعبثها وأنذلها وأبخلها وأعفنها وأصغرها وأفجرها

وأكفرها وأكثرها خروجاً على كل العقل والمنطق والجمال والأخلاق والنظافة والكرامة والحب والفنون..!

هذا المشخص أي الإنسان المؤمن كيف يستطيع أن يشخّص شخصية أو ذات مشخصه أي الإله من خارج صيغ ومعاني ذاته أو شخصياتها أو من خارج هذا الكون الذي قد تشخّص وتحدد وترسم ذاته أو شخصيته أي الإله ذبابة أو قملة أو جرثومة أو عاهة أو دمامة أو مرض أو جمل أو جدي أو ذئب أو غزال أو حصان أو شمس أو كوكب أو مجرة.. كل الضخامة البدنية فيما يبدو بلا أية ضخامة عقلية أو أخلاقية أو منطقية أو معنوية بل أي حجم من ذلك. من هذه التفاسير..!

إن هذا الكائن الإله لا يرى أو يوجد خارج ذلك، إذن كيف يمكن رؤيته أو تشخيصه أو تصويره أو تحديده أو معرفة ذاته وشخصه أو أوصافه أو حتى جنسيته أو نسبه أو مكانه أو مكان ولادته بين شخصيات وجنسيات وذوات وانتماءات هذه الأكوان.. بين الشخصيات والذوات والجنسيات والكائنات التي منها القملة والنملة والصرصار والذبابة التي وجدت بالمنطق والأخلاق والتفاسير والأغراض والذكاء والتخطيط والعبقرية التي وجدت بها الشموس والمجرات والبحار والأنهار بل التي وجد بها الإله والإنسان؟

كم هو عجيب هذا.!.. أعظم وأضخم كائن والمزعوم الموجد لكل كائن لا يوجد أو يعرف أو يرى أو يفسّر أو يشخّص في ذاته بل في الذوات الأخرى.. في ذوات القملة والنملة والصرصار والبرغوث والجرثومة الوبائية وفي الذوات الأخرى.. الأصغر والأكبر..!

لنسمع هذا السؤال الفاجع الذي لعله لم يقل أو يسمع قط.. يقول السؤال لو لم توجد أو تعرف أو تر هذه الأكوان.. أكوان القمل والنمل والذباب والصراصير والجراثيم والحشرات والعاهات والتشوّهات وغيرها وغيرها..

هل كان يمكن أن يوجد حينئذٍ أو يرى أو يعرف أو يتصوّر الكائن المسمى إلهاً أو حتى يكون الحديث عنه أو الحوار حوله أو عنه أو المعاناة الفادحة النفقات والمقاساة لتشييد البيوت والمعابد والكعبات له التي لن يسكن أو يتعبّد فيها أو يطوف حولها أو يصلي متوجهاً إليها أو يقبل حجارتها السوداء أو يتعرّى محرماً أمامها أو يهب أو ينفق أي شيء على بنائها أو يساعد بعضلاته على ذلك.!؟

هذا شيء مما يفعله الإنسان العربي بالأرض والطبيعة...!

ومما يفعله أيضاً بهما أنه يستهلكهما.. يستهلك طاقاتهما وخصوبتهما وجمالهما وشبابهما وقدرتهما على العطاء وحماسهما للعطاء بل ويستهلك نشاطهما وفرحهما وصحتهما وذكاءهما وطهارتهما.. يستهلكهما هذا الاستهلاك الفادح الشامل الدائم دون تعويض أو تكفير أو اعتذار أو تراجع أو ندم.. دون أي عطاء لهما أو مداواة أو ترميم أو إصلاح أو أي احتمال لذلك وأمل فيه..!

والإنسان العربي هو آخذ غير معطٍ أبداً إلّا العطاء الذي هو أقبح أخذ.!

.. وهنا صرخت المنظمة أو المحكمة الكونية التي لم توجد ولن توجد،

ـ صرخت بصوت واحد ومنطق واحد قائلة بكل اللغات المتكوّنة والتي لم تتكوّن: كل هذا صحيح، صحيح جداً ولكنه أي الإنسان العربي بريء، بريء جداً. إننا نحكم بهذا الحكم دون أن تكون لنا عواطف، أي عواطف نحو النفط العربي، نحو نفطه. إننا لا ننكر أو نهون من سلطان نفطه ولكن لأننا رأينا كيف هانت وصغرت وركعت أمامه كل الهامات والقامات أنكرنا التعامل معه حتى بعواطفنا خوفاً واشمئزازاً.

وليس في تاريخ العطاء عطاء يساوي شيئاً من عطاء الأرض والطبيعة للإنسان العربي حين أعطياه ما سمي وما سمّاه وما سمّوه بالنفط العربي..

معتدى عليه أقسى وأقبح وأفحش عدوان يعطي المعتدي كل هذا العطاء تحت هذه الظروف والأساليب وبهذه المقادير التي أعطى بها..!

إنه لعطاء لا تستطيع أن تصعد إليه خيالات الآلهة فكيف تستطيع أيديها أو عضلاتها أو سخاؤها التفكير في الصعود إليه.؟ إن الآلهة لا بدّ أن تحتقر كل عطائها وأن تخجل منه محاسبة له بهذا العطاء.. بعطاء الأرض والطبيعة للإنسان العربي نفطه. ولكن هل الآلهة تحاسب أي شيء!؟

.. إن الله قد يحاسب ويعاقب الأرض والطبيعة على إسرافها هذا أي على أن أعطيا الإنسان العربي النفط بهذا الإسراف الذي لا بدّ أن يعجز كل جنون عن أن ينافسه في جنونه بل الذي يرفض كل جنون أن يسمى أي هذا الإسراف جنوناً لئلا يشتركا في الوصف.. في صفة الجنون.!.. والذي لا بدّ أن يحول عطاء الإله في كل تاريخه إلى أشح مستويات وأساليب ونماذج الشح..!

ولعل الأرض والطبيعة قد جنتا في هذا العطاء للإنسان العربي تحت حوافز الندم ومعاقبة النفس وبنيات التعويض له عن حرمانها له من المواهب والطاقات الإنسانية القادرة المتفوّقة.. عن حرمانها له من ذلك.. هذا الحرمان الذي لم يبق ما يمكن أن يسمى حرماناً أي حرمان أمامه.. هذا الحرمان من كل الطاقات والمواهب وكل المعاني الجيدة الذي كتبته وأعلنته وقرأته وفسّرته إسرائيل بكل الأجهزة واللغات والألسنة من فوق كل النوادي والمنابر والأقمار والشموس والأفلاك الكونية.. الطبيعية والصناعية.. الذي قرأته وكتبته وفسّرته وأعلنته إسرائيل بكل اللغات العربية.. الفصحى والشعبية والسوقية والجمهورية.. من فوق هامات ومنابر ومعابد ومغارات وصلوات آلهتنا وأنبيائنا وخلفائنا وقرآننا وكعباتنا وتاريخنا وفتوحاتنا وغزواتنا المكتوبة المقروءة المزعومة المهزومة المصدومة المكذبة المهانة بمجيء إسرائيل..!

❀ ❀ ❀

هنا سؤال واحتمال حادان يقولان هل كانت الأرض والطبيعة نبيلتين وصادقتين وصديقتين وكريمتين حين أعطيا الإنسان العربي هذا العطاء أم كانتا خبيثتين ماكرتين عدوّتين معاديتين له حين جادتا عليه كل هذا الجود إذ كانتا بذلك تنويان فضحه والإعلان عالمياً عن ضعفه وسفهه في تمليكه لذلك وفي تصرّفه فيه وإنفاقه له وفي عرضه لكل مواهبه وأخلاقه وطاقاته وذكائه وفي كل احتمالاته الإنسانية والحضارية..؟

إن كانت هذه هي الحوافز فما أعظم جوعهما أي الأرض والطبيعة وشرههما إلى مشاهدة الفضائح والنقائص لأن ما عند العرب من ذلك يشبع كل جائع إليه دون مجيء الفضاح الأعظم.. النفط..

.. ولكن هل الأرض والطبيعة شريرتان وهاويتان لصنع ورؤية ومواجهة الفضائح والافتضاح والعار وأنهما تسعدان وتتغذيان وتتلذذان بذلك بالطبع والأصالة والشهوة بلا أسباب أخرى جيدة ومعقولة وكريمة، بل وضد هذه الأسباب بل وبلا أسباب غير شهوة الاستمتاع بالمشاهدة والمواجهة والاستماع إلى القبح والعذاب وللقبح والعذاب؟ قبيح أن يكون ذلك كذلك ولكنه ليس شذوذاً أو تفرّداً أن يكون. أليس الإله كذلك؟

.. ألا يحتمل أن تكونا أي الأرض والطبيعة قد تعلمتا ذلك من الإله؟ أليس الإله يدبّر ويريد ويخطط ويصنع القبائح والفضائح والآلام وكل أنواع العذاب والعار والتشوّهات ويوقعها بالآخرين الأبرياء بلا أسباب أو أهداف أو نتائج أو أغراض غير أن يسعد ويستمتع برؤيتها ومواجهتها ومساكنتها وسماعها وبتدبيرها وتخطيطها وإرادتها وصنعها وفعلها لكي تتلهى وتتسلى دائماً كل حواسه وأحاسيسه بالمعذبين والمصابين بكل ذلك؟

هل يوجد خلاف في أن الإله يفعل ذلك لهذه التفاسير؟

.. ليته يوجد لذلك أي لفعل الإله هذا تفسير أفضل من هذا التفسير.!

إن أبشع ما في الإله وتفاسيره أنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد في تفاسيره ما هو جيد وما هو رديء أو ما هو أقل رداءة.. إن كل تفاسيره رديئة حتى ما يحسب أتقى وأذكى التفاسير. إنه لا تفسير له إلّا كل هذا الوجود موحّداً بكل صيغه ومنطقه وأهدافه ومعانيه. وهل يتصور تفسير يساوي في قبحه تفسير هذا الوجود مجتمعاً ومفسّراً بكل وحداته ومفسّراً بخالق له كامل؟

.. إن أجمل تفاسيره ألّا تكون له أية تفاسير.. إنه لا جمال ولا ذكاء ولا أخلاق ولا منطق ولا حكمة أو رحمة أو تقوى للإله إلّا بأن يكون محروماً من كل التفاسير بل ومن كل التوقّعات والمساءلات والاعتقادات والتعاليم والرغبات والطلبات والمحاسبات والمحاكمات والمعاقبات. وهل يوجد أو يتصور كائن لا مثيل له في كماله وجماله وبراءته من كل التفاسير الرديئة والقبيحة والآثمة البليدة غير الكائن الذي لا وجود له؟ إن أي مفسّر لن يكون بلا عيوب..!

ـ .. نعم، قالت المنظمة أو المحكمة بصوت واحد وعقل واحد: إن الإنسان العربي بريء من كل ما فعل. إنه مفعول بكل ما فعل وفي كل ما فعل. إن كل ما فعله مفعول به وفيه فهو مفعول مفعول به مهما بدا أو زعم فاعلاً..!

.. إن أدوات وأجهزة ونيات وإرادات وشهوات ورغبات وقدرات وظروف وأوقات وكل انفعالات وحواس وأحاسيس فعله مفعولة. مفعولة به وفيه وكذلك كل شيء وكل أحد حتى الإله.. كل إله..!

لماذا يفعل حين يفعل ولا يفعل حين لا يفعل؟ إنه استجابة أو كينونة وليس فعلاً مثلما تطلع الشمس ويخضر الحقل.!

.. إنه حين يضرب أو يقتل لا يستطيع ألّا يفعل أي أي كائن حتى الإله..

.. إنه لا يفعل ذلك إلّا تحت الظروف المحتّمة الذاتية والخارجية. وبلا حتم لا فعل.!

.. إنه إذن إذا ضرب أو قتل فهو مضروب مقتول أو مضروب مقتول به وليس ضارباً ولا قاتلاً. إنه لكذلك مهما رأى واعتقد وقال وفعل كل شيء غير ذلك.. إن الرؤية الشاملة الخارجية المحايدة القارئة للحروف المكتوبة وغير المكتوبة لتقول ذلك..!

.. كذلك لاعنه ومحاسبه ومحاكمه ومعاقبه ليس إلّا مفعولاً به وليس فاعلاً أي مفعولاً به اللعن والمحاسبة والمحاكمة والمعاقبة..!

ما أسهل فهم ذلك مهما صعب الاقتناع والاعتقاد والقول والاعتراف والجهر به والإعلان عنه بل مهما كان مستحيلاً الإيمان بغيره أو وجود تفسير أو منطق أو رأي أو رؤية غيره..!

حينما يمرض القلب ويؤذي كل الأعضاء ويعتدي عليها، وحينما تمرض الأعضاء أو بعض الأعضاء فتؤذي وتمرض القلب والأعضاء الأخرى وكل الذات وتعتدي عليها من يكون الفاعل والمفعول والمفعول به والمعتدي والمعتدى عليه هنا.. من يكون ليكون المحاسب المحاكم المعاقب؟

إن الكون مجتمعاً ومتعاملاً بعضه مع بعض ومفسّراً ومعلّلاً بعضه ببعض مثل الجسد الواحد متعاملاً بعضه مع بعض ومفسّراً معلّلاً بعضه ببعض.! فمن الفاعل ومن المفعول فيه؟

إن من يرى الكون كله.. إنسانه وأرضه وكواكبه وطبيعته وكل شيء فيه.. يراه من خارجه رؤية موحّدة متعاملاً ومتصادماً ومتعايشاً بعضه مع بعض كل شيء مع كل شيء فلا بدّ أن يرى كل شيء ظالماً معتدياً ومظلوماً معتدى عليه أو لا بدّ أن يراه.. أن يرى كل شيء لا ظالم ولا مظلوم لا معتدي ولا معتدى عليه.. لا بدّ أن يرى شيئاً لا يمكن تفسيره أو غفرانه أو فهمه كما لا يمكن التصوّر بأن كائناً عاقلاً قد خلقه أو صنعه أو خططه أو أراده أو غفره.!

.. لا بدّ أن يراه كله مظلوماً معتدى عليه ولكن الظالم له والمعتدي عليه كائن آخر من خارجه أو أن يراه كله ظالماً معتدياً ولكن ظلمه واعتداءه ليس ظلماً ولا اعتداء منه. إنه ظلم واعتداء مفعولان به كما تفعل به أمراضه وعاهاته وتشوّهاته وشيخوخته وموته وكما تصنع به ذاته بكل حدودها وصيغها وحجمها ولونها وكم تصنع بالإله ألوهيته وأنانيته وذاته وطغيانه وإعجابه بنفسه وعدوانه على كل شيء وكما يصنع كل ذلك فيه وله وبه..

هل الإله هو الذي فعل ذلك بنفسه أو فعلته به نفسه وهل يستطيع ألّا يكون ذلك أي ألا يفعل به ذلك أو هل يستطيع أن يتخلص من ذلك.. مما فعل وأوقع؟ هل يستطيع الإله أن يكون غير ما كان أو ما هو كائن بقوة ذاتية أو خارجية؟

هل يصدق أحد أن الإله لو أراد ألّا يكون إلهاً أو أن يتنازل عن ألوهيته أو عن وجوده

لاستطاع؟ إذن لماذا لا يفعله.. لم يفعله ولو تجربة أو تسلية أو امتحاناً أو إرهاباً أو رياضة نفسية أو عقلية أو أخلاقية أو جسدية أو تنشيطاً أو تجديداً للذات ولكل شيء أو شوقاً إلى رؤية ما قد يحدث ولو تجربة واحدة يجرّبها على نفسه أو تجرّب عليه؟ هل هو خائف أو مخوّف عليه؟

هل يخشى أي الإله ألا يستطيع العودة إلى ذاته أو وجوده أو ألوهيته أي لو جرّب التنازل عن ذلك؟ ألّا يزداد حباً واستجابة وتجميلاً لذاته وألوهيته ووجوده ووظائفه لو جرّب التخلي أو التنازل عنها فترة أو فترات متقطعة؟

.. إنه لا يوجد محتاج إلى تجربة ذاته وإلى التجربة عليها بأقسى الأساليب وأخطرها وأكثرها مثل الإله فلماذا لا يفعل شيئاً من ذلك إذن؟

هل هو لم يجد من يعلمه أو ينصحه أن يجرّب ذلك؟

إنه لا يوجد من يحتاج إلى أن يتعرّض أو يعرض إلى أقوى وأقسى وأدوم المخاطر والتهديدات في ذاته وعلى ذاته وعلى مناصبه ووظائفه ووجوده وعلى مكانته واستقراره وسكونه مثل الإله فلماذا لا يكون شيء من ذلك؟

.. إن الإله محتاج أبداً إلى أن يزلزل، يزلزل بكل طاقات الزلازل وأهوالها.!

إنه يحتاج إلى ذلك لطول جموده وركوده ولأن وظائفه تحوجه إلى ذلك.!

إنه محتاج إلى التحريك العنيف.. العنيف جداً. لأنه ساكن أبداً، أبداً بلا أي حراك.!

ليت كل القوى المحركة وكل طاقات التحريك تتحول إلى ضربات ودفعات تحريك للإله. الإله جامد راكد فأين المحركات. أين أقوى المحركات؟

إن الزعم الدائم أن الإله هو الجهاز المحرّك الشامل الدائم الوحيد لكل شيء.. لكل الكون محركاً ومحركاً ومتحركاً. إذن هل يمكن تصوّر كائن مثله يجب أن يحرك، يحرك ضد جموده وثباته ورتابته واستمراره في حالة وصيغة واحدة؟

أن يحرك، يحرك حتى يصبح جديداً ومتجدداً في تصاعده الشامل.. الفكري والأخلاقي والفني والعاطفي بل والعضلي وفي الرؤية والاستماع والتخاطب وفي أساليب الاستجابة والتعامل والقراءة لنفسه ولكل شيء..؟

الجهاز المحرك لكل شيء راكد، راكد.. إذن كيف يمكن أن تتحرك الأشياء، وأين من يحركها وهل يوجد؟. لقد أوجد الإنسان الأجهزة المحركة والرافعة لآلاته فلماذا لم يوجد مثلها أو أقوى بل أقوى منها لتحريك الإله ورفعه؟ هل يحسب هذا إهمالاً دولياً أم هو دليل غير منطوق على أن العالم مقتنع بأنه غير موجود؟

.. ما أردأ حظوظ بل ما أتعس حظوظ كون ضخم جداً، حاكمه ومالكه ومريده ومخططه وصانعه كائن ساكن جامد ثابت في كل معانيه وصيغه وشهواته وأشواقه وطموحه ومطالبه لا يغير ولا يتغير.. لا يتحرك ولا يحرك.. لا يجدد ولا يتجدد أو يبدل أو يتبدل أو يصحح أو يصحح..

.. يظل أبداً يخلق القملة والذبابة والبرغوث والصرصار والجرثومة بل والإنسان بصيغة واحدة دائمة بكل الحماس والنشوة والكبرياء والفرح والتعزي والتغذي مستغرقاً في التثاؤب وفي النظر إلى وجهه وإلى جمال ما يفعل بلا تبديل أو تصحيح أو تغيير أو تراجع أو حتى تساؤل أو رؤية محاسبة ناقدة مفكرة..!.. دون أن يرى أو ينظر إلى ما يفعل أو يفطن إلى أن كل الخالقين والفاعلين يغيرون ما يفعلون ويطورونه فلماذا هو لا يفعل ذلك؟

.. كائن يقال إنه مستيقظ أبداً وإنه لا يصاب بالنوم ولا بالنعاس ولا بالسنة من النوم وإن جميع المنوّمات والمخدّرات لا تستطيع أن تهبه شيئاً من النوم أو الإغفاء أو النعاس أو الغيبوبة أو الخدر أو التخدير حتى ولو أراد ذلك ورهن أو باع كل مجده ومعانيه ووجوده لكي يصاب بشيء من ذلك لما أمكن أن يظفر بشيء منه بل حتى ولو تعاطى كل المخدرات الموجودة وغير الموجودة.!

.. هذا الكائن البائس المحكوم عليه بكل هذا البؤس والشقاء والتعذيب لا يستطاع تصور مثله غيبة وضياعاً وغيبوبة وخموداً وخمولاً وعجزاً عن الحركة بل وعن الرؤية والسماع والحضور بل عن النطق بأية لغة أو حروف. علّم كل اللغات وظلّ عاجزاً عن الكلام بأية لغة.!

.. إنه كائن لا يستطيع أن ينام ولا أن يستيقظ ولا أن يسمع أو يرد، ولا أن يحضر أو يغيب، ولا أن يسكر أو يصاب بالغيبوبة أو يفيق، ولا يفعل أو يدبّر أو يريد وهو المدبّر المريد الفاعل كل شيء وأبداً أي وهو المزعوم والمحسوب كذلك. إن أنفع ما في الإله وأقل الأضرار فيه أن الإيمان به معزول عن أسلوب وحقيقة التعامل معه أو باسمه. إنه لا يتناول أية متعة أو لذة جسدية أو روحية مع أنه الواهب والفاعل المبتكر لكل ذلك والممجّد الفاعل له الداعي المحرّض عليه المتقاطر عواطف وريقاً شوقاً وجوعاً واحتياجاً ودموعاً إليه أي إلى ذلك.!

هل يمكن أن يكون لهذا الكائن أي وجود؟ وهل يقبل هو أن يكون له وجود؟ ما يربح من وجوده أو يجد فيه أو هل يمكن أن يوجد من يستطيع أو يقبل أن يوجد أو أن يوجده هو أو أي موجد آخر أي هذا الكائن المسمى إلهاً المرهب لغة وتفسيراً وتعليماً والمأمون بل المفقود الميت تعاملاً معه ووجوداً في الحياة؟

هل يغفر أي غافر لنفسه أن يغفر لها تصوره هذا الموجود؟

هل تصوّره أي تصوّر الإله متصوره نكاية واستهزاء به أم تمجيداً وتكريماً أم بلادة وجنوناً؟

.. إنها ورطة أو سقطة لا مثيل لها في كل الورطات والتصوّرات أي تصوّر هذا الكائن الذي هذه بعض أوصافه وحظوظه وآلامه وضعفه وهوانه. الذي هذه مكانته ومكانه ووظائفه التي من أتقاها وأذكاها وأجملها أن يظل يناضل تخطيطاً وتفكيراً وتدبيراً لكي يتقن خلق العاهة والدمامة والتشوّه والعجز والحشرة والموت والشيخوخة والعار والافتضاح والهزائم لكي يظل هو معايشاً مساكناً مواجهاً مواطناً لكل ذلك بلا إنقاذ أو فرار.!

❀ ❀ ❀

هل يكون من التكرار غير المقبول أن أقول:

إن من يرى هذا الكون من خارجه أي يراه فاعلاً مفعولاً ومفعولاً فاعلاً فلا بدّ أن يرى فاعله أعظم مجنون وأعظم عابث وأعظم مجرم وأعظم سفيه وأقبح هازل مشوّه مخرّب وأعظم خاسر بلا أي أمل في أي ربح.؟!. إن للصرصار والذبابة ربحاً من وجودهما دون خالقهما وإنهما لا يعانيان شيئاً من العذاب أو الهوان أو الغيظ الذي يعاني.!

إنه أي رائيه من خارجه لن يستطيع أن يفهمه أو يعقله أو يغفره أو يتقبله أو يسامحه أو حتى يحاسبه أو يسأل عنه أو يسائله بأي عقل أو منطق أو فكر أو خلق أو ضمير أو حساب أو حتى دين أو بأية صيغة أو مستوى من صيغ الفن أو الجمال بل أو الدمامة أو العبث الجاد أو حتى الهازل..!

وإنه أي الرائي للكون من خارجه لن يتصور أن أي كائن مهما كان مستوى هبوطه قد يتقبّل أن يكون هذا الكون متكاملاً متجمعاً متوحّداً في تعامله وفي تفاعله شيئاً من ولادته أو بصفاته أو سعلاته أو عطساته أو إراداته أو ضرباته أو سكراته أو تخطيطه أو إبداعه أو هزله أو فنه الهازل أي بكل ما في داخله وخارجه من حشرات وآلهة وآلام وفضائح وهزائم وبشر. يهبطون، يهبطون حتى يذهبوا يعلمون ويعتقدون ويزعمون ويعلنون أن العاهات والتشوّهات والدمامات وكل النقائص وكل العار والفضائح والقبائح هي أجمل وأذكى وأرحم وأتقى وأقوى تعبير وإعلان الإله عن كمال وسخاء وضخامة رحمته وجماله وإحسانه وعطائه ومحبته ورعايته وعبقريته.

ـ أي بكل ما في داخل هذا الكون وخارجه.

ـ يذهبون يعتقدون ويعلنون ويزعمون أن الوالد بقدر ما يحب ابنه ويريد له الخير والسرور وبقدر ما يكون أي الوالد حكيماً وعبقرياً وعليماً ومبدعاً رحيماً يفقأ عيني ابنه ويقطع يديه ويصيبه بالعجز والشلل وبكل الآلام والنقائص والتدمير والهزائم والفضائح والعار ويفعل به كل الشرور كما يفعل الإله كل ذلك بعباده وبكل الكائنات الأخرى لأنه يحبهم ويحبها ولأنه يريد لهم ولها الخير والسرور ولأنه حكيم وعليم ورحيم وعبقري ومبدع..!

أليس ما يفعل إله هذا الكون أبشع مما يفعله هذا الأب.. من هذا الذي لم يفعله ولن يفعله أي هذا الأب ولا أي أب؟ إن أي مجرم أو مجنون لن يفعل بمن يستطيع الفعل به مثلما يفعل الإله بمن فعل بهم خلقه لهم..!

إن أحداً لم ير قبح هذا الكون كما هو بكل صيغه وتفاسيره ومنطقه ونتائجه وحوافزه وأهدافه لأن أحداً لم يره من خارجه ولا يستطيع أن يراه بكل بشاعته وقبحه إلّا من رآه ويراه من خارجه ولهذا لم يره أحد هذه الرؤية حتى ولا الإله لأنه لم يره ولا يراه ولن يراه من خارجه لأنه أي الإله وجود ويعيش داخل الوجود، كل الوجود..

إن اللّه يعيش داخل أقسى وأكثف وأقبح وجود: داخل وجوده هو وكل وجود آخر..!

إن رؤية من يرى هذا الوجود أو الوجود كله أو أي وجود من خارجه أي لو وجد لن تساوي إلّا رؤية كل القبح والفضح والفحش والعذاب والخطر والعبث والتفاهة والغباء والنذالة والجبن والعداوات والبغضاء بكل الصيغ والتفاسير واقعة ومنتظرة وقادمة مرئية..!

حتى ما يحسب ويزعم ويعلن ويرى ويعتقد نقيض ذلك هو كل ذلك وأكثف من كل ذلك هو كل ما يروّع ويفجع ويصنع الاشمئزاز والغيظ والغثيان.!

هل أكرر وأقول: ماذا لو أن الإله رأى نفسه من خارج وجوده ومن خارج كل وجود أو لو رآه أي راءٍ من خارج وجوده ومن خارج كل وجود؟

.. وماذا لو رأى الذباب نفسه أو الصرصار من خارج وجوده وخارج كل وجود، أو لو رأى خالقه هذه الرؤية من خارج الذات وهو يتألق ويتأنق ويزف نفسه في ثياب العرس والزفاف ليخلق ويدبّر ويخطّط الذباب أو البرغوث أو أية حشرة أخرى؟

أليس الإله يفعل ذلك أي يدبّر ويخطّط ويخلق الذبابة والبرغوث والقملة والجرثومة وكل حشرة وعاهة وآفة وهو متزيّن بملابس الزفاف وهو زاف نفسه ومزفوف إلى أضخم وأغلى احتفالات الأعراس له وبه؟

أليس الإله يزين نفسه ويسعدها بخلقه لذلك وإلّا فماذا يفعل؟

ولولا حالات ومشاعر ومعاني العرس والزفاف هذه لما ذهب الإله يفكر أو يخطط أو يدبّر أو يريد أو حتى يتصوّر ليخلق هذه الآفات بكل هذا القبح والديمومة والحماس والإصرار والتكرار..

كل شيء يتحدى الإله وأعوانه ليوجد تفسير غير هذا التفسير..!

هل يستطاع أو يمكن الزعم أن اللّٰه قد أراد واشتهى وصمّم كل هذه القبائح والفضائح لتتخلّق وتبقى بكل الديمومة والتكرار والالتزام مواجهة مواطنة مساكنة له بدون أن يكون في حالة فرح وزفاف معرس، بل وهو في حالة كآبة وغيظ واشمئزاز وانفجاع، أو وهو في حالة غيبوبة أو سلبية أو ضياع أو فقد لكل العواطف القابلة والرافضة السعيدة والكئيبة؟ كل الرثاء والهزائم لكل من يحاولون الدفاع عن الإله أو أن يجدوا له تفسيراً جيداً أو معقولاً..!

۞ ۞ ۞

لقد بعدنا بأفكارنا واهتمامنا وعواطفنا وحوارنا عن المنظمة أو المحكمة الكونية المفترضة للحكم بين الخصمين المتخاصمين أي الأرض والطبيعة خصما ضد الإنسان العربي والإنسان العربي خصماً ضد الطبيعة والأرض..!

بعد هذا الحوار أو الخصام الطويل الحاد المثير المحيّر الموجع نرجع ونختار ونتمنى أن تؤجل هذه المنظمة أو المحكمة النطق بالحكم بل والاقتناع به إلى أجل مطلق.. إلى أن يحكم رب هذا الوجود المزعوم أو أن يظهر ويحضر لكي يكون هو المتهم البديل عن المتهمين وعن كل متهم مهما كانت الأخطاء والخطايا.!

هذا مع الرجاء ألّا تكون هذه المنظمة أو المحكمة الكونية المفترضة قد رأت أو عرفت هذا الإله أو شيئاً منه لأنها حينئذٍ لن تقبله حاكماً بل ولا حكماً ولا شاهداً بل ولا حاضراً للمحاكمة، بل

ستراه مجرماً لا يحاكم وإنما يحكم عليه بكل ما يتصور ويستطاع ويعرف من العقوبات دون أن يكفي كل ذلك عقاباً له..!

هول، هول.. رهيب. رهيب..!

مريد ومدبّر ومخطِّط وفاعل كل هذا الكون هل يكفي كل شيء أو أي شيء عقاباً له بل شيئاً من العقاب له؟

أهوال، أهوال..

⊛ ⊛ ⊛

استيقظ.. احضر.. اغضب.. افهم.. تبرّأ أيها العقل، أيها القلب.. أيها الضمير.. أيتها الأخلاق والرؤى..

لقد طال النوم والخمول والخمود والغيبة والغيبوبة والبلادة والعمى والخداع والانخداع والافتضاح والزور والتزوير.. لقد طال، طال، طال..!

لقد عجزت كل العيون أن ترى تحت أضواء كل الشموس.. لقد عجزت أضواء كل الشموس أن تري عيون المؤمن شيئاً من جسد إلهه المنحوت من عاهات ودمامات وتشوّهات وأخطاء وآلام وسفه كل هذا الوجود والمعروضة المكتوبة فوقه والمعروض المكتوب فوقها..!

بطن المرأة أخطر مصنع في الكون

إن الولادة استفراغ لا تدبير.

إنها أقسى تعبيرات الطبيعة عن عبثها وضلالها وضياعها وعدوانها على نفسها..!

إن بطن المرأة هو كل المشغلين والمموّلين والمعاملين والمصدرين والمخططين والبناة لكل المقابر ولكل حفّاريها.. إنه لولا بطن المرأة لما وجد أي قبر أو مأتم أو نائح أو منوح عليه أو طاغية..!

.. هكذا قال كل الأنبياء الذين لم يجيئوا والذين يجب ألّا يجيئوا أو الذين يجب أن يجيئوا والذين لن يجيئوا مهما وجب وطلب أو رفض وكره وفجع وآذى وأفسد وضلّل أن يجيئوا..!. هل جاء الأنبياء إيجابياً مهما جاؤوا سلبياً؟ إنهم سلب بلا أي إيجاب.. هل لمجيء الأنبياء أي نفع لأي شيء أو لأي أحد أو أية قوة أو مجد أو جمال أو دواء أو شفاء أو سرور أو علاج أو إصلاح أو تصحيح أو حتى أية تقوى أو تديّن أو براءة أو نظافة أو شجاعة مهما كانت أصواتهم والأصوات والدعايات والتصويت لهم وبهم وبأسمائهم؟ ثم اختلفت الروايات والآراء والتفاسير حول هذه القولة..!

قال قائلون إنها تعني كل البطون.. كل بطون النساء الباصقات المستفرغات للأولاد لأنها كلها تحبل وتلد وتصنع وتعطي باستفراغها وبصقها وإفرازها وولادتها كل الآلام والمشاكل والهموم والعداوات والأحقاد والحروب والأمراض والموت والجنون والعجز والضعف والشيخوخة بل والأخطاء والخطايا وإغضاب وغيظ وعصيان وإهانة الإله بل كل الآلهة..!

.. بلا أي تفسير أو تسويغ أو منطق أو عواقب معقولة أو مقبولة أو مريحة أو جميلة أو ذكية أو نافعة أو فنية أو إنسانية، بل وبلا أي إسعاد أو تمجيد أو تعظيم أو إرضاء أو إفراح للإله أو لأي شيء..

.. بل وبلا أي ثمن أو تعويض أو هدف أو منطق..!

لأنها فقط توليد وتعديد وتخليد وتضخيم وتكبير للمشاكل والأخطاء والخطايا والآلام والعذاب والعبث والأحزان وتكرار دائم لذلك..!

ولكن آخرين قالوا إن هذه القولة إنما تعني فقط بطون النساء العربيات أو بطون النساء العربيات المسلمات فقط، فقط.. وقد يكون هؤلاء القائلون مصابين بالتعصّب القبيح الكريه، والتعصّب بكل أنواعه هو أحد آفات وأوجاع الإنسان التي لم يستطع بل أو يرد الشفاء منها..!

وحين قيل لهؤلاء: ولماذا بطون العربيات وحدها أو بطون العربيات المسلمات فقط؟ لماذا هذا التخصيص؟ أليست العملية كلها بصقاً، بصقاً واستفراغاً قبيحاً بذيئاً قذراً خاسراً متعباً ملوّثاً مورّطاً؟

قالوا لأن المرأة العربية أو المرأة العربية المسلمة وهكذا أمثالها إن وجدت لها أمثال وقد وجدت وموجودة دائماً أمثالها.

ـ نعم، قالوا لأن المرأة العربية أو العربية المسلمة أي وأمثالها تصنع الأولاد أو تلدهم وتبصقهم وتستفرغهم بلا حساب أو سؤال أو نظام أو تخطيط. إنها لا تفعل شيئاً من ذلك ليكونوا بقدر الحاجة إليهم والقدرة عليهم والقدرة لهم ليكونوا شيئاً مما يجب أن يكونوه..! ولأن صناعتها وولادتها واستفراغها لهم دون شروط.. دون الشروط المقبولة المعقولة المطلوبة بل والمعروفة لدى كل عارفي الشروط وواضعيها ومفسّريها ومشترطيها..

ولأن هذه الصناعة أي ولادة الأولاد التي تصنعها المرأة العربية المسلمة أو العربية فقط تجيء أبداً أقل مما يطلب وينبغي ويفترض.. تجيء بهم أبداً أقل في كل مستوياتهم وقدراتهم العقلية والنفسية والإبداعية والحضارية بل والإنسانية والعاطفية والعضلية والأخلاقية والتكوينية والسلوكية بل تجيء بهم نقيضاً حاداً شاملاً لكل ذلك.. نقيضاً لما يطلب وينبغي ويفترض من كل ذلك وفي كل ذلك ولكل ذلك..!

وأيضاً لأن الإشراف عليهم بعد مجيئهم بل وقبل ذلك يجيء رديئاً، رديئاً جداً..

إنه لا أخطر أو أخسر أو أفجع أو أعبث من صناعة الأولاد كلهم فكيف بصناعتهم عرباً.. فكيف بالذين تلدهم وتصنعهم المرأة العربية المسلمة وأمثال العربية المسلمة؟

هل يوجد غيظ أو تشويه أو تعذيب أو تلويث للنفس ولكل شيء أو عدوان على النفس وعلى كل شيء وكل أحد مثل صناعة الأولاد فكيف بصناعتهم صناعة عربية مسلمة؟

هل يوجد خاسر ملوّث معذّب مغيظ معصي بهم مثل مريدهم ومدبّرهم وخالقهم طامعاً ومؤملاً ومنتظراً ومريداً ومعلماً وآمراً أن يطيعوه ويعبدوه ويشكروه ويمجّدوه ويفرحوه ويسعدوه ويتحوّلوا إلى كل الجمال والتجميل والانتصار له؟ إذن هل يوجد أو يتصوّر أردأ حظاً أو حساباً أو منطقاً أو رؤية أو أخسر من الإله في هذه القضية ومن تعامله وعمله بها ولها وفيها لأنه بذلك يريد ويدبّر ويصنع لنفسه الغيظ والغضب والعذاب والقبح والهزائم والهوان والعصيان والإذلال والاستهزاء والتحقير، أي يفعل كل ذلك لنفسه بصناعته للأولاد... يوقعه بنفسه عامداً متعمّداً عارفاً رائياً قارئاً مكرراً مصراً مستمراً..!

⊛ ⊛ ⊛

إن التوالد ليس عمل الإنسان ولا غير الإنسان، وليس تخطيطه أو تدبيره أو إرادته أو ابتكاره أو حتى رغبته الأولى ولكنه فعل وإيقاع به وضده وتوريط وتشويه وبلاء له وبصق واستفراغ عليه وفيه ومنه، إنه أردأ وأوقح وأقبح وأعفن بصق واستفراغ عليه وبه.. إنه أي الإنسان وكذا كل كائن متوالد يصاب بالتوالد كما يصاب بالأمراض والعاهات والتشوّهات وبالضعف والشيخوخة والهموم وكما يصاب بالقيء والإسهال والغثيان وانخراق الأمعاء أو بأي خلل في الجسم..

وكما يصاب باحتقان الجسم والمعدة مما يأكل ويشرب ويواجه ويقاسي فيحدث الازدحام

والامتلاء والاختزان الرديء فيضطر ويحتاج إلى الاستفراغ.. إلى قذف ذلك بأسلوب الولادة بل بأساليب أقل قبحاً وضرراً وعفناً من الولادة وأساليبها.. وحين استمر وتحتم أي التوالد على الجميع بالتكرار والاستمرار أصبح أخلاق ومنطق أعظم وأذكى وأنظف إله على الجميع وعلى كل الكائنات الحية المتوالدة أن تتحمّل كل هذا.. كل هذا الاستفراغ البذيء القبيح أي استفراغ التوالد والأولاد بل وكل استفراغ حتى استفراغ الطعام والشراب في المكان المعروف وغير المعروف والذي يجب أن يكون معروفاً والذي كم من القسوة والقبح والإساءة والإهانة أن يكون معروفاً أي أن يكون موجوداً وأن توجد الظروف والأسباب والاحتياج التي تحتّم أو حتى تطالب أن يكون موجوداً.. أن تتحمّل كل هذا بكل الرضا والإعجاب والتمجيد للنفس والتعبّد لمن فعل بها ذلك..!

.. إن استفراغ فضلات الطعام في المكان المعروف القبيح البذيء المهين لأكرم وأنبل وأنظف وأنقى من استفراغ الأبناء أي من التوالد بل ومن قراءة ورؤية الإله الطيب النظيف النبيل الصديق يصيبنا بالاستفراغ.. باستفراغ الأولاد وبالاستفراغات والإفرازات والبصقات الأخرى الكثيرة الكبيرة الكريهة البذيئة.. وبالاستفراغات الأخرى التي تخجل الكلمات البذيئة من النطق بها، ثم يحمي أي الإله نفسه من كل هذه الاستفراغات أي من كل هذه النظافة والجمال والتكريم والنعماء ليخص بها الإنسان والكائنات الأخرى المستفرغة مؤثراً لها على نفسه..!

هل هو أسخى الكرم أن يهب الإله كل الكائنات هذا الاستفراغ ويحرم نفسه؟

هل هو إذن محب وصديق وعادل ونظيف ومريد وعاشق للجمال والنظافة في رؤيته ومواجهته ومعاملته وعقله وفنونه وأخلاقه؟

إن كان استفراغ وبصق وإفراز الأولاد وعملية الولادة قبحاً وقذارة وإهانة وتلويثاً وتعذيباً وعبثاً فلماذا أصاب به الإنسان وكل المتوالدين؟ أما إن كان غير ذلك.. نقيض ذلك فلماذا يحرم نفسه منه.. لماذا يعادي نفسه كل هذا العداء.. لماذا الآلهة تعادي نفسها أقسى عداء.. كل هذا العداء.. لماذا؟

كيف يصيب المحب حبيبه بما يحمي ويبرىء نفسه منه بل وينزهها منه وعنه؟؟

من صاغ وخلق هذا الكائن الذي لا يستطاع فهمه محباً ومبغضاً.. هذا الخالق الذي لا تستطيع كل التفاسير أن تكون شيئاً من تفاسيره؟ من صاغ الإله ليكون كما كان؟ كيف يصيب الجمال والكمال والنظافة والذكاء نفسه بنقيض ذلك أو يحرم حبيبه من ذلك ليصيبه بكل النقيض وبأقسى النقيض لذلك؟ كيف يحدث ذلك وهل حدث.؟

كيف يريد ويدبّر ويخلق كل الدمامة والوقاحة والعذاب من لا يريد إلّا كل الجمال والشهامة والصفاء والحب والسعادة؟ هل حدث ذلك؟ هل وجد متهم بذلك؟ كيف وكيف يحدث ذلك؟ كيف تصوره من تصوره؟ وهل جاء تصوراً أم واقعاً؟ من صاغ الأشياء كما صاغها وكما جاءت، حتى الآلهة من صاغها بكل هذا القبح والسوء والبلادة وهل يقبل أي صائغ أن يصوغها هل يوجد صائغ رديء ولئيم مثل صائغ الآلهة؟ هل يستطيع صنّاع القبح والبلادة ومتصوّروها أن يصفوا أو يتصوّروا مثل قبح الإله وبلادته فاعلاً وذاتاً وشخصية، ماذا لو أن الإنسان لم يصب بالتوالد والولادة والأولاد ورأى ذلك

في غير ذاته، خارج ذاته ورأى وقرأ وفهم ووعى بداية ونهاية ونتائج وعواقب وآلام وتشوّهات وتكاليف وعبث ومسؤوليات وتبعات وهموم كل ذلك بالفاعل وبالمفعول به.. لمن فعل ولمن فعل به؟

وماذا لو أن الإله الذي برّأ وحمى نفسه من ذلك بعقل ووعي ورؤية أو بدون ذلك.. حماها وبرأها ونزّهها من ذلك أي من التوالد والولادة والأولاد..؟

ـ نعم، ماذا لو أن الإله أصيب بهذا الذي حمى نفسه منه أي بالتوالد والولادة والأولاد كما أصاب وأصيب الإنسان والكائنات الأخرى بذلك..؟

ـ نعم، لو أن ذلك حدث هل نستطيع حينئذٍ أو هل يخفى أو يمكن أن يخفى علينا ما يمكن أن يحدث أو ما لا بدّ أن يحدث أي ما لا بد أن يفعل الإله والإنسان رفضاً واشمئزازاً وانفجاعاً وعذاباً وترويعاً؟ هل يوجد مفجوع مثل من يحكم عليه بأن يكون متوالداً؟ هل يمكن أن يتصورا حينئذٍ أي الإله والإنسان مثل قبحهما وتلوّثهما وتحقيرهما وعارهما وهوانهما وإهانتهما وسقوطهما وتفاهتهما وخزيهما أي لو حدث هذا المفترض فيهما ولهما؟

ماذا لو أحصينا أو حاسبنا أرباحنا وخسائرنا من ذلك.. أرباح وخسائر الإنسان منه وفيه أي نحن؟

ماذا لو أحصينا أو حاسبنا أرباح وخسائر الإله من الإنسان والداً مولوداً متوالداً؟

أو لو أحصينا وحاسبنا أرباح وخسائر الإله من وجوده وإيجاده للإنسان أو من وجوده وإيجاده لنفسه أو من وجود وإيجاد أي شيء أو أي أحد حتى لأنبيائه وأوليائه وملائكته وزبانيته وحرّاس فردوسه وجحيمه؟ هل فكّر الإله أو محبّوه في ذلك؟

ماذا لو كان نبيلاً أو شهماً أو حكيماً أو رحيماً أو خجولاً أو جمالياً أو إنسانياً أي الإله ثم رأى وقرأ وعرف الولادة والتوالد بداية ونهاية وتفسيراً ونتائج وتلويثاً وتكليفاً وإيماناً وكفراً واستقامة وعصياناً وثواباً وعقاباً وجنة وناراً وإغضاباً وغيظاً للآلهة.. لكل الآلهة ولكل المعاني الجمالية الجميلة ولكل شيء؟

هل يمكن حينئذٍ أن يصيب أحداً أو شيئاً بالتوالد والولادة والأولاد مهما كان خبثه ودمامته وغباؤه وسفاهته وعبثه وعدوانه على نفسه وعلى كل شيء وكل أحد..!؟ من زرع أو غرس أو طبع أو صنع أو أراد للإله وفي الإله وللإنسان وفي الإنسان وفي كل كائن ولكل كائن حي طبيعة أو قانون أو غريزة أو إرادة وتدبير أو استفراغ الولادة والتوالد؟؟ قبيح من فعل هذا، قبيح فاعله.! هل وجد هذا الكائن الفاعل المريد لكل ذلك؟

هل كان بليداً بلا مثيل أو وقحاً بلا مثيل أو وحشاً بلا مثيل أو مريضاً عاشقاً للألم والهوان والتحقير والتعذيب والتشويه والتعيير والتحيير والتوريط والإحراج ومشاهدة ومواجهة ومعايشة كل ذلك بلا مثيل؟

هل كان كائناً لا يمكن أن يرى أو يقرأ أو يفسّر أو حتى يفترض؟ هل يستطاع افتراض هذا

الكائن؟ ومهما كان موجوداً هل يستطيع الافتراض افتراضه أو يجرؤ على افتراضه؟ هل تستطيع كل الافتراضات أن تقبله أو تحسبه أحد افتراضاتها؟

إذن كيف حدث ذلك؟

كيف أمكن أن تهان وتعذب وتفجع وتشوّه عيون وقلوب وأخلاق وعواطف وضمائر وصعود وتجارب الشموس والنجوم والسحاب برؤية ومواجهة ذلك أي التوالد؟

أليست قضية التوالد هذه تنفي أن يكون داخل هذا الكون أو فوقه أو حتى حوله أي كائن.. إله أو غير إله قادر له عين أو عقل أو ضمير أو عواطف أو أخلاق ترى أو تفهم أو تحاسب أو تحاكم أو تسائل أو تقرأ هذا البصاق والاستفراغ والإفراز المسمى توالداً وولادة؟

كيف يطاق بداية استفراغية وبصقية وحملاً وتحمّلاً واستقبالاً ثم بصقاً واستفراغاً وإخراجاً له بذلك الأسلوب، معاناة وتكوناً وتكويناً وبكاءً ثم مقاساة ومعاناة وتفسيراً ثم استفراغاً وإفرازاً ثم ذعراً دائماً ثم توقّعاً أليماً دائماً ثم موتاً وقبراً ومأتماً وعويلاً ودفناً في التراب، ثم أحزاناً وذكريات نادبة كئيبة وقبحاً وعاراً وسباباً ومشاكل وورطات وغيرها، وغيرها يصنعها كلها هذا المولود.. وأيضاً هموماً، هموماً مختلفة الأنواع والجنسيات والجهات والقراءات واللغات والتفاسير والرؤى..

أليس كل هذا بعض تفاسير ومعاني هذه الولادة والمولود؟

❀ ❀ ❀

قالوا إن الإله لا يلد.. قال هذا كل الأنبياء والأولياء والمؤمنين ولكن هل مثل الإله أو مثل الآلهة ولادة؟ هل يوجد والد لكل شيء مثل الإله أو غير الإله أي كل الآلهة؟

أليس الإله هو الوالد لكل شيء حتى لأحقر الحشرات ولأفدح العاهات والتشوّهات والدمامات والآلام والهموم؟

أليس هو الوالد لكل ذلك وللأبشع من كل ذلك بعقله وقلبه وأخلاقه وإرادته وشهوته ومنطقه وبيديه وعضلاته وجماله ومباهاته وكبريائه وفروسياته وبكل معانيه؟

أليست ولادة التدبير والتقدير والتخطيط والخلق والإرادة هي أعظم وأشمل وأقوى الولادات بل وأصدقها؟

إن كل الوالدين والمولودين ليسوا إلّا ولادة والد واحد.!

قيل أو كيف إذن لم يقل: أيها الإله لماذا تفعل ذلك وترضى به وتصر وتسكت عليه وعنه وعلى من يفعلونه ويتعذبون ويتلوّثون ويعذّبون ويلوّثون به؟

هل غذاؤك ومجدك وفرحك وسعادتك وشهامتك وكبرياؤك وقوتك وعبقريتك وثمن وجودك واقتناعك بوجودك وبقيمة وجودك وبقائك في أن ترى وتشاهد وتواجه ذلك ومن يقاسونه ويتعذّبون ويتلوّثون به؟

هل التفسير أن الإله لا بدّ أن يضرب ويفعل كل الضربات والأفعال بأردأ وأبلد وأقبح أساليب العشوائية.. لا بدّ أن يشوّه ويلوّث ويعذّب ويورّط ويعادي ويؤذي ويحرج ويقتل ويخاصم ويفجع بلا أية رؤية أو حساب أو منطق أو عدل أو استحقاق أو تدبير أو تفكير أو شرف أو رحمة أو حكمة أو كرامة أو تقوى أو تديّن أو عيون ترى وتحاسب؟ هل هذه وظيفة الإله وسعادته وعقله وأخلاقه وكل رؤاه وحساباته لنفسه ولكل شيء؟

هل كل التفاسير للإله أنه قوة باطشة عمياء بكل ضلالات البطش والعمى وبكل معانيهما وصيغهما وتفاسيرهما.. يتحرك ويضرب ويفعل بلا رؤية أو حساب أو منطق أو نتائج أو بحث عن أية نتيجة أو هدف أو حساب أو ضرر أو نفع أو عن أي شيء جيد جميل أو رديء دميم؟ هل الإله يفهم الفرق بين هذا ونقيضه.. بين الشيء ونقيضه.. بين أن يهب الحياة والوسامة أو يهب الموت والدمامة.. يهب الذكاء والشهامة أم يهب الغباء والنذالة؟ إن كان يفهم هذا الفرق فلماذا لم يعمل ويتقيّد به وإن كان لا يفهمه فواأسفاه على الكون الذي يدبّره ويخطّطه ويصوغه ويخلقه، وواأسفاه على من يتعامل ويعمل معه وله وعلى من يقرؤه أو يفسّره أو ينتظر منه وله؟

هل هو أي الإله يفقأ العينين ويقطع أو يشل اليدين والرجلين ويحني الظهر ويمرض ويشوّه ويهرم ويضعف ويصنع العاهات والدمامات والتشوّهات ويقتل أي يميت بالأساليب والنيات التي يفعل بها النقيض؟

إن المفترض والمعتقد أن الإله هو الذي صاغ كل الكون وكل شيء بكل صيغه وتفاسيره ونماذجه وأخلاقه ومعانيه.. صاغه بيديه وعضلاته وبأخلاقه ومنطقه وإرادته وتدبيره..!

إذن الصائغ لكل شيء في الإله.. الصائغ لكل صيغه ونماذجه وتفاسيره وشهواته ومطامحه ورؤاه أي الإله من صائغها.. من صاغه ويصوغه؟ من صاغ الصائغ؟ أليس كل صائغ مصوغاً؟ أليس كل مصوغ مخطط مراد مدبّر له صائغ مريد مدبّر مخطط؟

المصوغ أو الكائن بلا صائغ قبله كيف تجيء صيغه؟ على حساب أي قياس أو نموذج أو مستوى أو نوع يجيء بلا كائن قبله أعني أي كائن يجيء أو يمكن أن يجيء؟ كيف تجيء كينونته بلا مريد أو مخطط أو راسم أو قادر أو فاعل أو مختار؟ كيف يجيء كينونة أو صيغة أو ذاتاً؟ وكيف يختار ذاته وصيغه لو أراد وقدر أن يختارها؟ إن ذلك أسلوب من الوجود قبل أي وجود.!

قبل كل قبل كيف يختار النموذج الذي يجيء به أو كيف يختار له أو كيف يختار الصيغة التي يخلقها ويخلق بها وهو مطلق الإرادة والرؤية والقدرة والاختيار وهو مطلق الغنى عن كل شيء؟

كائن يستطيع كل شيء وغني عن كل شيء ويستوي لديه كل شيء بأي أسلوب أو حساب أو منطق أو نموذج أو حتى تدبير أو تقدير يفعل ما يفعله؟

بأي منطق أو ضرورة أو جمال أو فن أو قانون أو احتياج أو سعادة أو فرح أو شهامة أو التزام أو عبقرية يخلق الخالق الأعظم الأول الإنسان أو أية حشرة أو أي كائن أو أي شيء يخلقه بهذه الصيغة، في هذا الزمان، في هذا المكان.. يخلقه متوالداً يخلقه يتعذّب ويخاف ويشقى ويمرض ويشيخ ويهون

ويموت بعد أن يقاسي ويواجه ويمارس كل الفسوق والتلوّث والضلال والهوان والتشوّه والعذاب والعار والآلام والآثام والعصيان والكفر والسب والتحقير للآلهة ولكل شيء؟

كيف يخلقه ليؤذيه ويعصيه ويغيظه ويغضبه وقد خلقه حراً مطلق الرؤية والتدبير والقدرة والتصرّف والإرادة أي الخالق وقد خلقه كذلك وهو كذلك بدءاً بلا أي نموذج أو مثال سابق؟ كيف فعل الخالق ذلك بنفسه؟

هل يستطاع التصديق أنه قد فعل ذلك؟

هل خلقه وخلق كل شيء كذلك بدءاً لأنه لا يعرف غير ذلك أو لأنه لا يستطيع غير ذلك، أو لأنه يكره غير ذلك أو لأنه مكره على ذلك أو لأنه رأى ذلك كل الجمال والكمال ورأى غيرهما كل الدمامة والنقص وهو العاشق أبداً لكل الكمال والجمال اللذين هما كل الدمامة والنقص؟ ولكن أليس محتوماً أن الخالق فاقد كل الفقد للتمييز بين الجمال والكمال ونقيضهما.. بين الشيء وضده؟ إنها حيرة.. أقسى حيرة، أنه لا جواب أي جواب..

هل يمكن أن يوجد مدافع أو مفسّر أو فاهم أو مقتنع في هذه القضية بل أو في أية قضية إلهية أو كونية أخرى؟ إن العلاقات بين الإله والكون لكل الإذلال والهزيمة والتحقير للعقل والاستهزاء به..!

كيف سحرت كل العقول والقلوب والأخلاق والرؤى والآراء لتصبح تفهم وتعقل وتصدّق وتقبل ما لا يفهم أو يعقل أو يقبل أو يصدق أو يغفر؟ كيف سحرت بكل هذه القوة والقسوة؟ من سحرها، من ساحرها؟ لقد سحرت بسحر لم يعرف أو يستطع أو يتصوّر كل السحرة له مثيلاً.؟

هل سحرت أم هي الفاعلة بنفسها ذلك؟

هل الساحر مسحور أم منسحر أم ساحر لنفسه؟

هل المخلوق مخلوق أم متخلق أم منخلق أم خالق لنفسه؟

وأنت يا إلهي كيف تركت الأشياء ومنها الإنسان تجيء كما جاءت وكما تجيء؟ ألا تخشى من قبح وفحش وفجيعة المواجهة؟ أليست المواجهة الأليمة القبيحة فاجعة؟ هل يوجد أفجع من مواجهاتك إن كان فيك شيء من طاقات المواجهة ومواهبها ورؤاها؟

أين عقلك وأخلاقك وعدالتك وشهامتك ورؤاك وحساباتك لتقول لك: إن كان التوالد جمالاً أو خيراً أو نفعاً أو قوة أو حباً أو راحة أو نظافة أو عبقرية أو انتصاراً أو إيثاراً فلماذا لا تتوالد أنت؟ لماذا تحرم نفسك من هذه المزايا؟ أليس الإله والألوهية مزايا؟ هل تقبل أن تكون كل المزايا لمن تخلق وأن يكون لك أنت يا إلهي كل الحرمان من ذلك وهل قررت يا إلهي أن يكون كل القبح لك وفيك وكل النبل والجمال لغيرك وفي غيرك؟ كيف تقرر أو ترضى أو تقبل أن يلد الإنسان إنساناً مثله أو أعظم منه وأن تلد أنت أي بأخلاقك ومنطقك وإرادتك وتدبيرك وحبك وشوقك وفنونك كل الجراثيم والحشرات والعاهات والتشوّهات والدمامات والآلام والأمراض والشيخوخة والموت والمآتم والمقابر والقبور والجنازات؟

أليست كل هذه ولادة معانيك.. كل معانيك؟

أما إن كان أي التوالد عكس ذلك أي ضد هذه المزايا وخروجاً عليها فلماذا حكمت به على الإنسان وعلى كل كائن حي؟ هل تسمع وتعي يا إلهي هذا التساؤل بقدر ما يعني ويساوي؟ ما أعظم أن يسمع الإله ويعي وما أنظع ألا يسمع الإله وألا يعي؟ هل يوجد أو يبقى أي شيء كما هو لو كان الإله يسمع ويعي؟ كيف والفرق عظيم بين توالد الإله وتوالد غيره في حساب الخير والجمال والنفع والنظافة والقوة والضعف والإرضاء والإغضاب والتجميل والتشويه لك ولكل شيء؟

❀ ❀ ❀

آه، هل تخاف يا إلهي لو ولدت أن ينافسك أولادك أو يغلبوك أو يسقطوك بثورة كثورات البشر المسقطة الساقطة أو أن يسلبوك ألوهيتك ومجدك أو أن يحسبوا أذكى أو أجمل منك؟ هل أنت تغار وتخاف من المنافسة والمقاومة ومن التفوّق عليك حتى ولو كان المنافسون المقاومون المتفوّقون الثائرون هم أبناءك أو أحفادك؟

إذن لماذا لم تخف شيئاً من هذا الخوف على الإنسان المتوالد وعلى جميع الكائنات الأخرى المتوالدة؟ هل أنت أناني بكل هذه القسوة والفظاعة والقباحة والشراهة والشراسة؟

ولكن يا إلهي كم يجب عليك ألّا تخاف شيئاً من هذا الخوف لو توالدت ومهما ولدت لأن من تلدهم حينئذٍ لا بدّ أن يكونوا ويجيئوا بأخلاق وآداب الآلهة فلا خوف عليك منهم بل لا بدّ أن يكونوا فرحاً وأنساً ومجداً وقوة وجمالاً وعوناً ومسلاة وعزاء وجلساء وأصدقاء ومستشارين صادقين مخلصين لك.. لا بدّ أن يكونوا تعويضاً جيداً لك.. عن المآخذ عليك..!

هل يوجد محتاج إلى هؤلاء وأمثالهم وإلى مساعداتهم الشاملة الدائمة مثلك يا إلهي ومثل كل إله؟

أليست الآلهة كما يقال وتقول ويقول كل أنبيائك وتعاليمك وأديانك وكل معلميك والمعلمين عنك وبك ولك.؟

ـ نعم، أليست الآلهة كما يقول كل شيء جمالاً وفرحاً وحباً وعدلاً ورضاً وصداقة وعوناً وحماية فكيف بهم متعاملين مع آبائهم؟

إذن ليتك يا إلهي كنت تلد ليكون لك أبناء آلهة.!

❀ ❀ ❀

وهل أنت يا إلهي تخاف أو تغار أو ترفض أو تشمئز؟

لو كنت شيئاً من ذلك فهل يمكن أن تخلق الأبالسة والشياطين والأشرار والطغاة العصاة وكل الخارجين المنتصرين عليك وعلى كل رسلك وأنبيائك ومعلميك وكل المذلين الهازئين الساخرين منك

وبك الساخبين منك كل مجدك وشرفك وكرامتك وكبريائك الهازمين لكل أوامرك ورغباتك وشهواتك ومطالباتك وأشواقك وأفراحك وانتصاراتك وتوقّعاتك وقراءاتك..!؟

هل وجد من يصنع كل الغيظ والغضب والانفجاع والاشمئزاز بل والعذاب والاحتقار لنفسه ولكل أحد وشيء غيرك يا إلهي أو مثلك يا إلهي؟

ليتك يا إلهي كنت تخاف أو تغار أو ترفض أو تشمئز أو تحدق بعينيك أو بعقلك أو بقلبك أو بضميرك أو بأي شيء من أخلاقك أو معانيك..! إنك لو كنت كذلك لكان محتوماً أن تحوّل نفسك وكل شيء إلى حرائق.. إلى حريق، أو أن تصوغ نفسك وكل شيء صياغات أخرى جداً أخرى.! أعني أخرى مناقضة جداً، جداً بلا أي تقارب أو تشابه..!

هل وجد أو يوجد من يستحق شيئاً من الاستنكار والغضب والغيظ والاشمئزاز والحساب والعقاب والرفض والعار الذي تستحقه كله أنت يا إلهي على ما فعلت بالإنسان.. على إهانتك وتحقيرك وإذلالك وتبليدك وتضليلك وتجهيلك وتلويثك وإفسادك لكل معانيه ومستوياته.. لعقله وأخلاقه وذكائه وتقواه وإيمانه وتصوّره..

حين جعلته يستطيع أو يجرؤ أن يفهمك أو يعقلك أو يجدك أو يغفرك أو يؤمن بك أو يراك أو يقرأك أو يفسّرك في أي زمان أو مكان أو شيء أو حدث أو منطق أو تفسير..

.. في أية آهة أو أنّة أو صرخة أو دمعة أو تشوّه أو مرض أو شيخوخة أو موت أو مأتم أو فضيحة أو عجز أو عار أو هزيمة أو خطيئة أو نذالة أو مهانة أو إهانة أو قباحة أو وقاحة أو في زلزال أو بركان أو طوفان أو إعصار أو قحط أو وباء أو في حرب أو عداوة أو خصومة...

أرادها وأحبّها وحبل بها وولدها عقلك أو قلبك أو عواطفك ومشاعرك أو أخلاقك أو كبرياؤك وشهامتك أو يداك أو عضلاتك؟ رهيب، رهيب ما فعلته بالإنسان يا إلهي؟ إنك لن تستطيع أن تجد أية كفارة تتقدم بها إلى الإنسان تكفيراً عما فعلت به.!

❀ ❀ ❀

كم هو خروج على تفاسير وحدود كل منطق وعقل وأخلاق وحساب أن تنكر وترفض يا إلهي أن تلد ذاتك كما تلد كل الذوات الأخرى.. أن تلد ذاتك الإلهية ذوات أخرى إلهية ثم تقبل وتعلن وترضى بكل المباهاة والإعجاب والفرح والسعادة أن تلد أخلاقك وضميرك وعقلك وحبك وجمالك ونظافتك وتدبيرك وتخطيطك وإرادتك وعبقريتك...

كل شيء.. كل الحشرات والحيوانات والآفات والدمامات والتشوّهات والموت والأمراض والأبالسة والشياطين والطغاة واللصوص والكفّار والفجّار والأنذال والأخساء والأحقاد والبغضاء والعداوات والخصومات..!؟

أليست كل هذه وكل هؤلاء ولادة كل معانيك وتفاسيرك؟ هل كان يمكن أن يلدها أو يلدهم غيرك. يا إلهي الجميل الحبيب العبقري؟

ألست قد ولدتها واستفرغتها وقذفت بها من كل أرحام وأسماء ومعاني ذاتك بكل أشواقها ونشواتها وشهواتها وحساباتها بكل جنون الكبرياء والإعجاب والرضا والاطمئنان وبكل مشاعر الإحسان والامتنان إلى من فعلت بهم ومعهم ولهم وفيهم ذلك؟

أليس كل ما يفعله الكائن أي كائن هو ولادة معانيه.. ولادة عقله أو قلبه أو ضميره أو أخلاقه أو إرادته أو ضرورته أو ولادة كل ذلك فيه بل هو ولادته حتى ولو فعله بغير إرادته؟ أليس كل إيجاد ووجود ولادة وتوالداً؟

إن الولادة الجسدية قد تكون غير محاسبة أو معاقبة أو حتى ملومة أو مذمومة مهما كانت مشوّهة أو أليمة بل قد تكون معذورة ومغفورة ومرحومة، لأنها من حيث البدء والمبدأ بلا إرادة أو تدبير أو تفكير أو قصد أو قدرة على منعها مهما كانت إرادة المنع.. أليس توالد الإنسان قد جاء كما جاء توالد الحيوان؟

أما الولادة المعنوية.. ولادة التفكير والتدبير والتخطيط والخلق والإيجاد والصياغة والإخراج فإنها تستحق كل المحاسبة والمحاكمة والعقاب والثواب والاستنكار أو كل الشكر والثناء والرضا والإعزاز والتكريم على حسب مجيء المولود أو المخلوق..!

أليست هذه الولادة هي الولادة؟ أما ولادة الجسد فليست ولادة ولكنها بصق واستفراغ وإفراز..!

.. الإله يلد عقله وقلبه وضميره وخلقه وفنه وإرادته وحبه وجماله وعبقريته الذباب والبرغوث والجراثيم والذئاب والوحوش وكل العاهات والتشوّهات والآفات وكل ما يرى ويعلم وكل ما لا يرى ولا يعلم، ويرفض بكل الكبرياء والفخر والإعلان عن المجد والكرامة والشهامة أن تلد ذاته إلهاً عظيماً مثله.. هل الإله كذلك أو يمكن أن يكون كذلك؟

كيف وجد من يصدق هذا أو يعقله أو يفهمه أو يغفره أو يعذره أو حتى يتصوّره؟

كيف جاءت صيغة هذا الإله وكيف قبلها؟ وهل جاءت أي صيغة هذا الإله؟ هل وجد أو يمكن أن يوجد من يستطيع تصديق ذلك أو يجرؤ على تصديقه؟ كيف حدث ذلك؟

⊛ ⊛ ⊛

نعم، إن أولادك يا إلهي لو رزقتهم لجاؤوا عوناً مربحاً جداً لك ولحملوا عنك كثيراً من أثقالك وهمومك ومعاناتك وهزائمك ومسؤولياتك ومن تفرّدك بكل هذه الأعباء والآلام والورطات والإهانات والمهانات والعصيان والتحدي والتحقير لك مواجهاً ومقاسياً لكل ذلك وحدك لأنك الكائن وحدك والمريد للوحدانية وحدك..!

ما أقبح وأقسى الوحدانية حتى وحدانية الألوهية.. ولعل وحدانية الألوهية هي أقبح الوحدانيات.!

إنه لا كائن في هذا الوجود يريد أو حتى يقبل الوحدانية لنفسه غيرك يا إلهي ليكون وحده المسؤول المحاسب المحاكم عن كل شيء.. المتهم الملوّث بكل شيء وبكل ما يكون ويحدث..

إن الوحدانية ليست مزية ولا راحة ولا تفضيلاً ولا تفوّقاً في أي شيء.. ولكنها مبالغة في التعذيب والتلويث والاتهام..!

فكيف يا إلهي أردت لنفسك الوحدانية.. هذه الوحدانية.. هذه الوحدة المطلقة في عذابها وقبحها ومسؤولياتها؟ من خدعك يا إلهي كل هذه الخديعة؟ وكيف قبلتها؟

أكنت يا إلهي مستعداً للانخداع كل هذا الاستعداد؟ إذن هل يوجد مثلك ضعفاً وانهزاماً يا إلهي القوي الجبار؟

❁ ❁ ❁

آه يا إلهي العاجز عن الرؤية بكل معانيها وتفاسيرها وأعضائها وأخلاقها وتعبيراتها.. وهل مثلك عجزاً عن ذلك؟

أجل يا إلهي هذا أنه لو كان لك أبناء لكان محتملاً بل يقيناً محتوماً أن يعرفوا ويبتكروا أساليب ووسائل أخرى عقلية وفنية وأخلاقية ودعائية وتعليمية جديدة وقوية تكون أذكى وأقوى وأقدر على هزيمة وإذلال وسحق كل أعدائك وعلى إرشاد وتعليم وإقناع كل الخارجين المتمردين عليك العاصين لتعاليمك الهازئين الساخرين بها وبأوامرك ودعاتك.. يا إلهي المهزوم في كل حروبه ومفاوضاته ومخاصماته ومحاوراته وتعاليمه وحياته ووجوده..! هل وجد مهزوم مثلك يا إلهي؟ إن أساليبك ووسائلك في هذه القضية هزيلة وضعيفة ومهزومة بلا مثيل في كل أساليب ضعفها وهزائمها وهزالها.. إنه لا أحد يحتاج إلى المساعدة على هزائمه مثل الآلهة..! إن هزائم كل المهزومين في كل تفاسير الهزائم وتعبيراتها ومعانيها ودلالاتها لا تساوي هزيمة واحدة من هزائمك الشاملة المتعددة الصيغ والأنواع والتفاسير يا إلهي.!

إن هزيمة واحدة من هزائمك يا إلهي أمام انتصارات إبليس المسكين عليك يا إلهي لتتحول إلى أقوى اعتذار واستغفار عن كل الهزائم التي يصاب أو قد يصاب بها كل المهزومين في كل الأمكنة والأزمنة.. إن هزائم كل المهزومين لتتحول إلى أقوى بل إلى كل الانتصارات محاسبة ببعض هزائمك يا إلهي أمام إبليس المسكين.. أمام أي خارج عليك ومخالف وخصم لك وساخر هازىء بك ومنك ومتحدٍ لك..!

إن كل الكون والكائنات والجن والإنس وكل السموات وكل سكان السموات وكل ما كان ويكون وكل شيء ـ لو تحول كله إلى بكاء ورثاء وعزاء وآهات وأنّات ودموع ومآتم لما أصبح شيئاً كافياً من الحزن والأسى والعزاء لشيء من هزائمك وفضائحك وفواجعك وعذابك وحسراتك على نفسك يا إلهي، إني يا إلهي أتعذّب لك مثلما أتعذّب بك..!

❁ ❁ ❁

يا إلهي كيف تأبى أو تتكبّر أو تتنظّف أو تأنف من أن يكون لك زوجة أو خطيبة أو آباء أو

أبناء أو أقارب ثم لا تأنف أو تأبى أو تستكبر أو تتنظّف من أن يكون لك عبيد وخدم ورجال دين وهاتفون مصلّون منافقون مأجورون مرتشون أذلّاء جبناء أغبياء حقراء ماسحون للتراب بجباههم بل ملوثون للتراب بلحاهم وجباههم بل وتسعد وتفرح وترضى وتفخر بأن يسجد ويركع ويخضع ويصلي لك أحقر وأبلد وأكذب وأجهل وأنذل مخلوق... ملقاً ونفاقاً وهواناً ورشوة وخداعاً..؟

كيف تقبل أن ترشو وترشى وتعامل المرتشين ويتعامل بك ومعك الراشون المرتشون، ثم ترفض بكل الكبرياء والغرور والابتهاج والسعادة والتعالي أن يكون لك أهل.. زوجة أو أبناء أو آباء أو أشقاء أو أقربون أو ذوو رحم..؟

.. تقبل بل وتطالب أن تكون مسجوداً لك مرفوعة موجّهة إليك أعجاز الساجدين، ملقاة في عينيك وعلى وجهك، ثم ترفض بكل العنف والوحشية والنزق أن يكون لك ابن أو أب أو أخ أو قريب؟ ما أقبح منظرك مسجوداً لك، وما أقبح الساجد لك رافعاً عجزه إليك لتسعد وتفرح وترضى وتجزي على ذلك.!

كيف استطاع أو يستطيع يا إلهي أي عقل أو خلق أو تصوّر أو بصر أن يعقلك أو يفهمك أو يتصورك أو يقبلك أو يغفرك أو يراك في هذه القضية أو في أية قضية أخرى؟ كيف يمكن أن توجد في أي شيء من هذا الوجود؟ كيف أمكن أو يمكن أن تراك أية عين في أية صيغة من صيغ هذا الكون؟

.. إنه لو عوقب كل من يستحقون العقاب على كل أخطائهم وخطاياهم ومظالمهم وقباحاتهم ووقاحاتهم وفحشهم وبذاءاتهم وبلاداتهم لما استحقوا شيئاً مما تستحقه أنت يا إلهي من ذلك على واحدة من خطاياك أو أخطائك..!

هل كان يمكن أن توجد أية أخطاء أو خطايا لولاك يا إلهي؟؟

❀ ❀ ❀

آه، كيف يمكن ذلك؟

كيف يستحق العقاب أو العذاب أو اللوم أو التعنيف أو الورطات أو الأزمات من تلد ذاته أي أحشاؤه مولوداً ولادة طبيعية اضطرارية غير إرادية مثلما يستحق كل ذلك وأقسى من كل ذلك من تلد كل معانيه كل القبح والفضح والنذالات والجهالات والأخطاء والخطايا والورطات والآلام والعذاب وكل الفاعلين لكل ذلك وكل المعذبين والمصابين والمعاقبين بكل ذلك.. المحكوم عليهم بكل ذلك.. من ولدت معانيه كل وجود وموجود؟

هل يستطيع أي متصور مهما كان فساد وقبح وبلادة تصوره أن يتصور كائناً عظيماً أو حتى حقيراً يرفض أن يلد إلهاً برحمه وأحشائه وعلاقاته الجنسية أو بعقله أو قلبه أو شهواته أو أشواقه أو أخلاقه أو بإرادته أو بيديه وعضلاته أو بكل ذلك ـ أليست هذه الولادة هي أنبل وأنفع ولادة إن كان في أية ولادة أو في أي إله أي نفع أو نبل.

ـ نعم، يرفض أن يلد إلهاً ثم يهب كل أوقاته واهتماماته وطاقاته وعضلاته وذكائه وعقله ومجده وفرحه وسعادته وتقواه ونبله الذي يستحق عليه كل الشكر والحب والثناء والعبادة أي إذا صدق ما يقول المؤمنون الصالحون لكي يلد كل أنواع وأجناس الحشرات والحيوانات والآفات والعاهات والآلام والهموم والفضائح والأخطاء والخطايا والنقائص والغضب والغيظ والهوان والتحقير لنفسه ولكل شيء ولكل أحد.

.. لكي يلد كل ذلك بكل معانيه.. بكل معانيه المادية والأدبية والنفسية والفنية والشعرية والدينية مرسلاً كل أنبيائه ومعلميه ودعاته مبشّرين بذلك ومعلمين له ودعاة إلى الإيمان والالتزام به..

❁ ❁ ❁

أيهما أقبح أو أنذل أو أسفه إنسان أو أي كائن آخر يلد جسده كائناً أي مولوداً مثله وأحياناً أعظم منه أم أن يتكبّر ويترفّع ويتنظّف عن مثل هذه الولادة الجسدية أو حتى المعنوية لكي يذهب يعلن ويفخر ويفرح ويباهي ويناضل ويحارب ويقاسي لكي يستطيع ويدبّر ويخطّط أن يلد ذبابة أو صرصاراً أو برغوثاً أو أية جرثومة مرضية أو حشرة أو آفة أو عاهة أو أي تشوّه في أي وجه بريء تقي صفي نقي مؤمن..

لكي يلد كل ذلك بكل معانيه وإراداته وتدبيره وتصميمه وفرحه وشهامته وعبقريته؟

أليس الإله يفعل كل ذلك بكل ذلك بكل هذه المعاني؟ وهل يفعل كل القبح والسوء والفحش والعدوان والغباء والنذالة بكل الإعجاب بالنفس والرضا عنها غير الإله؟ فكروا في هذا يا من لم تجربوا أن تفكّروا..! هل جنّ كل البشر مثلما جنوا في هذه القضية؟

هل عقل البشر مثلما جنوا؟

هل جنوا جداً لأنهم عقلاء جداً؟

هل جاء الجنون والغباء عقاباً للعقل وللذكاء؟

هل تصوّروا مجنوناً مثل إلههم هذا أو جنوناً مثل جنون إلههم هذا؟

هل يعاقب العاقل بالجنون بقدر عقله؟

هل يجن جداً من لم يكن عاقلاً جداً.. من لم يكن مفترضاً فيه أن يكون عاقلاً جداً؟. هل يجن جداً إلّا من كان عاقلاً جداً؟

هل فرض على العقل والذكاء أن يصابا بنقيضهما بقدر ما يكبران ويبدعان ويكونان؟ هل وجد أعظم عقل وذكاء بلا أقبح وأردأ وأنذل وأفجع جنون وغباء؟

من قضى وقدّر وصمّم أن يعاقب الجمال بالدمامة والقوة بالضعف والصعود بالهبوط والصحة بالمرض والرؤية بالعمى والحياة السعيدة بالموت الحزين..

والحياة النابضة الفاعلة المبدعة بالموت الخامد الصامت؟

.. أن يعاقب عبقريات الإنسان وتفوّقه بإيمانه بالآلهة؟

هل تنازل كل البشر.. كلهم عن كل ذكائهم وكرامتهم وكبريائهم ورؤيتهم وعن كل معانيهم وتفاسيرهم الإنسانية والأخلاقية والعقلية والعلمية والحضارية مثلما تنازلوا عن كل هذا في هذه القضية بل وفي كل قضاياهم الكبيرة؟

هل اعتدي على عقل الإنسان وعلى ذكائه وكرامته وكبريائه ورؤيته مثل اعتداء الإله عليه، على كل معانيه.. مثل اعتداء الإيمان بالإله على كل وجوده وصيغه وتفاسيره وتعاليمه ولغاته وعلى كل صداقاته وعلاقاته وعلى حبّه وبغضه وعلى كل رؤاه؟

هل أساء البشر إلى أي كائن أو شيء أو حقّروه أو سبّوه أو فضحوه أو شوّهوه أو هبطوا به أو عيروه أو أحرجوه أو أظهروا عجزه مثلما فعلوا بالإله حين آمنوا به ووصفوه بكل هذه الأوصاف وفسّروه وعاملوه كما فسّروه ويفسرونه وكما عاملوه ويعاملونه ويعلنونه وكما اعتقدوه وآمنوا به وشرحوا أسباب إيمانهم به واعتقادهم له؟ وهل رؤي شيء بالدمامة التي رأى وفسر بها المؤمن إلهه؟

وأيضاً هل أساء البشر إلى الإله مثل إساءاتهم إليه حين دعوه وشكوا إليه وطالبوه بأن يرى ويسمع ويستجيب وينقذ ويعالج، ذارفين كل الدموع والتضرّعات والأنّات والآهات في أذنيه وعينيه وقلبه وفكره وأخلاقه وتحت عرشه..

دون أي احتمال لأن يسمع أو يستجيب أو يفعل أو يحتمل أن يفعل أي شيء يطلب منه أو يفترض فيه أو ينتظر ويؤمل منه وفيه أو يجب عليه؟ هل أحرجوه أو فضحوه أو سبّوه مثلما فعلوا به كل ذلك حينما ذهبوا يدعونه ويشكون إليه ويطلبون منه مؤملين أن يسمع أو يستجيب؟

هل يوجد أقبح أو أردأ من الإله بكل ضخامة ومجد وتكاليف الإله بل وإرهابه بلا ذات إله.. بلا أي معنى من معاني الإله المطلوبة والمفسّرة والمنتظرة والمعلمة المدرسة.. من الإله بلا إله؟

إنه لن يوجد من يجب أن يقاسي من عذاب الخجل والإحراج والافتضاح مثل الإله أي لو كان موجوداً سامعاً مواجهاً للضارعين الداعين الطالبين المطالبين بكل الإنقاذ والمساعدة السريعة الحاسمة الشاملة منه، من أخلاقه ووعوده وحبه ورحمته وواجبه دون أن يفعل أو يريد أو يستطيع شيئاً من ذلك..!

هل حقّر أحد بشيء مثلما حقّر الإله بالإيمان وبالمؤمنين به؟ وهل حقّر وأهان البشر شيئاً أو أحداً مثلما حقّروا وأهانوا الإله حين آمنوا به كل إيمانهم به؟

هل اعتدى على الإله بكل معاني الاعتداء غير المؤمنين به المعلمين عنه وله.. المفسّرين المعلمين لحكمته ورحمته ومنطقه وأخلاقه وجماله حتى حين يزرع العاهة في الوجه البريء الجميل.. يزرعها في الوجه الجميل البريء التقي المؤمن به جداً جزاء له على إيمانه أو على معنى آخر فيه جميل أو بريء أو تقي أو ذكي أو عبقري..!؟ أليس أصحاب كل هذه المزايا لا بدّ أن يعاقبوا بكل أنواع العقاب أو بشيء منها؟

هل حقّر أو اتهم البشر شيئاً مثلما فعلوا كل ذلك بالإله زاعمين ومعلنين ومعتقدين أنهم يصنعون له بذلك كل المجد والتعظيم والفرح والسعادة والجمال والكرامة والكبرياء؟

هل اعتدى أحد على أحد أو شيء مثلما اعتدى الإله على الإنسان بتنصيبه لنفسه رباً له أو مثل اعتداء الإنسان على الإله لإيمانه وعلاقاته به؟

هل حكم على الإنسان أن يعاقب على تفوّقه الشامل الذي هو بلا مثيل بتخلّف هو بلا مثيل في قبحه وشموله وافتضاحه وفضحه؟

هل من قوانين هذا الوجود أن يجيء الهبوط الأليم الفاجع مساوياً للصعود العالي؟

هل يجيء كل شيء معاقباً بنقيضه عقاباً مساوياً لقيمته وعظمته؟ هل يكون أو يجيء أو ينتظر أن يكون تخلّف وهبوط الكائن حتى الإله بقدر صعوده وتفوّقه؟

هل يكون عذاب الكائن وحيرته وورطاته ومشاكله وعذابه بل وعجزه وهزائمه بقدر عظمته ومجده وقوته وقدرته وانتصاراته؟

هل تكون قسوة موته مساوية لضخامة حياته؟

من فارض هذا النظام أو هذا القانون؟

إن واضع قوانين هذا الكون وكل كون ووجود ليس قانونياً، إنه أجهل من كل الدارسين لكل القوانين والمتعاملين بها ومعها بل ومن الخارجين عليها..!

إن كل الخارجين على القانون لا يساوون في خروجهم شيئاً من خروج واضع قوانين هذا الكون ومريدها ومدبّرها والحاكم المحاكم المحاسب بها وعليها في خروجه على كل قانون وحساب ومنطق وذكاء وعقل وعدل وأمل وانتظار بل وبسالة شهامة..!

هل يكون الكائن مشوّهاً معاقباً مهدّداً بقدر صعوده وتفوّقه؟

من أراد ودبّر وحقّق وقرّر وشرّع هذا القانون؟؟

إن هذا القانون موجود بكل القسوة والوحشية مهما جهل واضعه ومريده ومنفّذه والمحكوم عليهم بالتعامل به ومعه.! إن من يصاب بعاهة أو بتشوّه أو بعمى أو بضعف أو بشيخوخة يجهل أن ذلك خروج على القانون.!

أليس الإنسان يهبط ويفتضح ويتعذّب ويتلوّث ويفجع ويهون ويخاف ويذل ويكذب وينافق ويخجل ويهزم ويفسق ويسقط ويعبد الآلهة التي لم توجد ولن توجد دون الحشرات أو أكثر وأهون من الحشرات أي بقدر تفوّقه وصعوده عليها.. بقدر تفوق صعوده على صعودها؟ لتفوّقه عليها جاء أكثر وأشمل وأقسى شروراً وآلاماً وعذاباً وهواناً وآثاماً وفسوقاً منها أي من الحشرات..!

أليسا أي الإنسان والحشرة يشقيان أي مادياً ومعنوياً ويقاسيان من العار والفضائح والعذاب والهوان والهزائم والمخاطر والمخاوف والضياع بل والتبلّد بقدر تفوّقهما وصعودهما وبقدر هبوطهما وتخلّفهما أي كل واحد منهما أي بقدر كل منهما صاعداً وهابطاً؟ إذن أيهما أعظم وأفضل حظاً في

حسابات المقاييس والتفاسير كلها.. أعظم وأقوى وأكبر الكائنات أم أصغرها وأحقرها وأضعفها وأهونها؟ هل مهانة وجبن واستسلام وخضوع وخوف وتضرّع وسجود وصلاة وبكاء ونفاق ومذلّة إنسان واحد كبير جداً أو صغير جداً في موقف واحد من مواقفه التي قد تتكرر تستطيع أن تنافسها أو تساويها أو حتى شيئاً منها كل مهانات ومذلّات واستسلام وجبن وهزائم وذعر كل الحشرات وكل الكائنات الأخرى في كل مواقفها وظروفها؟

لهذا هل يمكن أن يتفوّق على الإله والإنسان أو أن يساويهما أي كائن في هزائمهما وفضائحهما وفواجعهما وعارهما وعذابهما بل وبلادتهما؟ هل يستطاع جهل هذا أو العجز عن رؤيته والانفجاع به؟

لقد أصبح ما لا يستطاع جهله هو الذي لا يستطاع علمه.!

إن الإله والإنسان لا يسعدان أو يفرحان أو يرضيان أو يعجبان بنفسيهما أو بأي شيء إلّا بقدر ما يصابان بكل البلادة والقسوة والقبح والعمى الشامل في كل معاني الرؤية وتفاسيرها.. بكل أجهزتها وأدواتها وعيونها وأخلاقها، آه كم تحتاج الرؤية إلى الأخلاق بل وإلى العيون.. كم تحتاج العيون إلى عيون والرؤية إلى رؤية؟.. كم تتحول الرؤية إلى عجز عن الرؤية وتتحول العيون إلى فقد للعيون.. إلى قتل وإعماء للعيون كما يتحول الصعود إلى هبوط بل وإلى سقوط وتحطّم والحياة إلى موت والموت إلى وثن؟ هل هذا هو التفسير لكون عذاب الإله أي كل إله وهوانه وهزائمه وفضائحه وإذلاله وذلّه وبؤسه وحظوظه البائسة لا يساويها أو ينافسها شيء من ذلك لأن تفوقه لا يساويه أو ينافسه أي تفوق أي تفوقه الواقع أو المزعوم؟

كيف حدث ذلك؟ كيف وجد من أراد ودبر وفعل واستطاع ذلك؟ وكيف وجد ولماذا وجد؟

إذن من الأكثر والأصدق والأشهر مجداً وحظاً وربحاً وسعادة وفرحاً وراحة ورضا واستمتاعاً وقوة في هذه الحياة..

من يرون ويحسبون ويعلنون ويعتقدون بل ويكونون هم الأقوياء الأذكياء الكبراء العظماء العباقرة المبدعين السعداء أم من هم النقيض لكل ذلك؟

إذن كيف تفسّر الحياة والوجود؟ لقد كانت تفاسيرهما أبداً جهلاً وغباءً وتضليلاً وعجزاً بل وهرباً من الحقيقة..!

وما تفاسيرهما الصحيحة الصادقة إن وجدت أو لو وجدت هذه التفاسير أو كان ممكناً أن توجد.. وما التفاسير الأخرى إن وجدت تفاسير أخرى؟

من ابتكر التفاسير للأشياء وجعل منها الصواب والخطأ والصحيح والباطل؟ كيف وجد هذا المفسّر وكيف اهتدى إلى تفاسيره واقتنع بها وجرؤ على الإعلان عنها وعلى تعليمها وعلى تحويلها إلى أديان وتعاليم وكتب مقدسة ومذاهب متحاربة متلاعنة؟

هل تساوي أية تفاسير غير المفسر والمفسر؟

هل تساوي تفاسير أي شيء غير وجوده؟ هل يمكن أن يكون للإله أية تفاسير لو وجد ووجد

كما وجد وكيف وجد؟ أليس وجود الإله كما وجد وكيفما وجد هو أعظم نفي ورفض لكل التفاسير بل واستهزاء بكل التفاسير والمفسّرين والباحثين عن أية تفاسير.. عن أي تفسير لأي شيء؟

هل يمكن أي تفسير للذباب أو للصرصار أو أية حشرة أو لأي تشوّه أو عاهة أو آفة لوجودها في أي وجه أو ذات أو مكان أو عقل أو قلب أو فكر أو ضمير أو رؤية أو سؤال أو تساؤل؟

هل يمكن أن يوجد هذا التفسير أو أي تفسير لشيء من ذلك؟

إذن كيف يمكن أن يوجد أي تفسير لمن أراد وخطط وأحب وعشق وفعل وصنع ذلك بكل الفرح والمباهاة والرضا والإعجاب وشهوة الإعلان والاعتراف وبشهوة الرؤية والمواجهة والمشاهدة بل ومطالباً بأن يتهم بذلك ويحمد ويشكر عليه وينسب إليه ويوهب كل الإيمان والتمجيد والعبادة والثناء من أجله..؟

الذبابة والقملة والجرثومة والعاهة والتشوّه بلا أي تفسير معقول أو مقبول أو مغفور أو مفهوم إذن فاعل ذلك بكل التدبير والتخطيط والتصميم والحماس كيف يمكن أن يكون له أي تفسير من هذه التفاسير أو من غيرها؟

فاعل ذلك له كل التفاسير الجميلة العبقرية الأخلاقية الفنية الإيمانية الدينية العقلية..!

إذن أليست لمفعولاته هذه كل هذه التفاسير؟ أليست تفاسير المفعول تفاسير للفاعل، وتفاسير الفاعل تفاسير للمفعول؟

كيف أمكن أن يوجد من يلعنون ويقتلون ويحتقرون ويقاومون ويطاردون الذباب أو الصرصار أو المرض أو القحط ثم يعبدون ويمجّدون ويشكرون فاعل ذلك ويصلّون ويسجدون ويركعون له ويهبونه كل الجمال والحب والرحمة والشهامة والكرامة والصداقة أوصافاً له مقروءة ومفسّرة من فعله وخلقه لكل ذلك، أي لكل ما يلعن ويقتل ويحتقر ويقاوم ويطرد ويطارد المؤمنون به؟ الذباب دميم جداً وخالقه جميل جداً.! هل تصدقون أو تؤمنون؟

ماذا يمكن أن يحدث في هذه اللحظة لو وجد من يقرأ ذلك ويفهمه ويحاسبه ويحاكمه أو حتى يراه أو يسمعه أي لو لم تقتل وتفقأ وتخمد وتسكت وتحذف كل معاني العيون والعقول والضمائر والأخلاق والإنسانيات والتساؤلات والانبهارات والانفجاعات والتصادمات عن وظائفها ومن وظائفها، بل ولو لم تفقد وتقتل كل معاني الإيمان والتقوى؟

إنه لا شيء خارج على الإيمان والتديّن ومهين لهما مثل الإيمان والتديّن بمعانيهما المعلمة والمشرّعة المنزلة.!

❀ ❀ ❀

وفي حديث نبوي آخر لم يقله ولن يقوله أي نبي..!

قال هذا النبي الذي لم يكن ولن يستطيع أن يكون نبياً..!

أليس أعظم الأنبياء هم الأنبياء الذين لم يكونوا أنبياء.!؟

قال هذا النبي المضاد لكل الأنبياء والنبوات مخاطباً العرب أو كل البشر أو كل المتوالدين: إياكم وصناعة الأولاد.. إياكم، إياكم وصناعتهم..!!

قيل: لماذا يا رسول الله.. يا رسول الله.. الله الذي لم يكن مرسل الأنبياء؟

قال: لأنهم خراب..!

قيل: ثم لماذا؟ قال: لأنهم عذاب وتباب وإرهاب واكتئاب وسباب.!!

قيل: ثم لماذا؟ قال: لأنهم حساب وعقاب وإرهاب..!!

قيل: ثم لماذا؟ قال: لأنهم غضب وإغضاب لرب الأرباب.. لكل الأرباب.. لكل تعاليم وأوامر وشهوات وأمجاد كل الأرباب..

لأنهم هجاء وتحقير وفضح لأخلاق ومواهب وشرائع كل الأرباب.. لأنهم بئس النتائج والأسباب.. لأنهم أقسى وأقوى تكذيب لكل ما قيل ويقال عن جمال وذكاء ونظافة ومواهب وعبقرية وأخلاق الطبيعة والوجود والأرباب..!

.. لأنهم.. لأنهم.. لأنهم... مستمراً يقول ويقول لأنهم، لأنهم..!

وهنا تصاعد الصراخ بكل الأصوات واللغات قائلاً، قائلين: كفى، كفى يا رسولاً ونبياً لم يكن من رسل أو أنبياء الله...!

كفى، كفى ذلك بل بعض ذلك.. كفى، كفى تحطيماً لمبدأ وفكرة البنوة والأبوة.. لفكرة ومبدأ التوالد...!!

كفى بعض ذلك، كفى اقتناعاً بصدق الحديث النبوي الذي لم يقله ولن يقوله أي نبي.. القائل بكل القسوة والصدق والرؤية والمعرفة.. القائل والذي سوف يظل أبداً يقول: إن أردأ وأخطر وأخسر مصنع في الكون هو بطن المرأة.. المرأة العربية المسلمة أو كل امرأة أو كل بطن متوالد يبصق الأولاد مثلما بصق هو..!

إنه البصق أي بصق الأولاد هو البصق الذي يلد كل بصق ويبصق كل بصق ويستفرغ كل بصق.. كل باصق وكل مبصوق..!

إنه البصق الذي لولاه لما وجد في هذا الوجود ولا في أي وجود أي قبح أو فضح أو فحش أو فسوق أو كفر أو نذالة أو سفاهة أو خيانة أو وقاحة أو خصومة أو عداوة أو حرب أو ألم أو غيظ أو عذاب أو هوان أو هزائم..

بل لما وجد أي بصق.. ولا أي باصق أو مبصوق!.

إنه أي التوالد هو البصق المغرق لكل البحار والأنهار والسحاب والصحارى والحقول والآفاق والدهور بكل الآثام والآلام والقبائح والفضائح والأخطاء والخطايا والورطات والعداوات والخصومات والبغضاء والهموم..!

إنه أي التوالد هو الملوّث لكل ذلك بكل هذا..

❀ ❀ ❀

ليت محمداً، ليت النبي العربي قد قال ذلك، إنه لو كان قد قاله لكان أحد الأنبياء العظماء.. أحد الأنبياء الذين لم يكونوا ولن يكونوا أنبياء.. أنبياء توراة أو إنجيل أو قرآن، لقد عجزت العبقريات والمواهب العربية أن تلد نبياً واحداً خارجاً أو متفوّقاً على نبوات التوراة والإنجيل والقرآن.. على نبوات السماء التي تلدها الصحارى والجبال والمغارات والغيران والكهوف والصلوات والقراءات والأميات والبداوات..!

.. التي تلدها وتلد اللحى والعمامات والعباءات والكعبات..!

ليت واحداً من العرب قد قال ذلك.. إذن لأمكن أن يقال إنه قد يوجد في العرب من قد يرى أو يفكر أو يحاور أو يحاسب أو يحاكم أو يسأل ويسائل أو من قد يقرأ أو يفسّر أو يرفض أو من قد يتفوق على الحشرات في سلوكه وحياته وتوالده ورؤاه حتى ولو تفوّق عليها في أشياء وهبط عنها في أشياء كثيرة أليمة فاجعة..!

هل يستطيع أو يقبل أي عربي أن يتحوّل إلى متوحش أو متكبر ليتفوّق على الحشرات أو ليعتقد أنه تفوق عليها أو أنه قد يجوز أو يقبل أو يغفر أو يمكن أن يتفوق عليها في أي أسلوب أو تفسير أو معنى من معانيها أو أساليبها أو تفاسيرها؟ أليس إصراره على التناسل بكل أساليب تناسل الحشرة أسلوباً من أساليبه التي ترفض أن يتفوق على الحشرة في أي أسلوب أو خلق من أخلاقها أو أساليبها حتى ولا في موهبة ووفرة وطريقة التناسل لأنه يرفض بل ولا يستطيع أن يكون متوحشاً أو متكبراً؟ أليس العربي مؤمناً جداً بكمال الله ومؤمناً جداً بأن الكامل لا يصنع بل ولا يريد أو يقبل إلّا الكمال والكامل، ومؤمناً جداً بأن الله هو المريد والمخطط والخالق للحشرة ولكل أخلاقها ومواهبها وطاقاتها واستفراغاتها؟ إذن فالله هو الحشرة قد جاء في صيغة أخرى.. في جسد حشرة. أليس المخلوق هو إحدى صيغ الخالق؟ إذن أليس محتوماً أن يؤمن العربي وأن يكون مؤمناً بكمال الحشرات مثل إيمانه بكمال الإله.. بكمال مريدها ومخططها وصانعها؟

هل يقبل أو يغفر أي منطق أو دين أو خلق الإيمان بكمال المريد المخطط الفاعل دون الإيمان بكمال المراد المخطط المفعول؟ أليست كل تفاسير إبليس تساوي تفاسير خالقه؟ هل يريد أو يدبّر أو يصنع الكامل النقص أي غير الكمال في كل معانيه وصيغه ومنطقه ونتائجه وتفاسيره؟ أليس الفنان عاجزاً أو مخطئاً أو ناقصاً أو غير فنان حينما يبدع ما يعاب أو يرفض أو يستنكر أو ما يجب تدميره أو تغييره أو تحقيره أو تصحيحه أو نقده أو حتى تعديله؟

نعم، كيف يقبل العربي أن يتفوق على الحشرات؟ إذن كيف لا يتناسل كما تتناسل؟ أليس الاقتداء بالكمال والكامل كمالاً؟ أليست مخالفة الكمال والخروج عليه نقصاً وذنباً وكفراً؟

وهل يفعل العربي أي ذنب أو نقص أو كفر مهما كان كل من يفعل كل ذلك أو أعظم وأشهر وأجرأ من يفعله؟

أجل، أليست الحشرات كمالاً مثل كمال مريدها ومخططها وصائغها؟ إذن أليس الاقتداء بها كمالاً؟

أليست الحشرات وكل شيء كمالاً مطلقاً في كل حسابات الإله ورؤاه وفنونه وأخلاقه وأشواقه وأمانيه وكبريائه وقدراته؟ أليس القول بغير ذلك أقسى هجاء واتهام له؟ أليس ذلك يعني اتهامه بأنه يريد ويدبّر ويعشق ويفعل النقص؟

❀ ❀ ❀

نعم، إن الولادة هي بصاق وبصق واستفراغ الطبيعة من الإنسان في الإنسان على الإنسان.. على كل شيء.. قبيح، قبيح.! إن أصدق وأشمل أوصاف الإنسان: إنه الباصق المبصوق عليه المبصوق به وفيه.!

.. إنها أي الولادة من حيث المجيء والبدء والاستمرار والحتم ليست إرادة أو تدبيراً أو خلقاً إلّا بقدر ما احتقانات الجسد وإفرازاته وعاهاته وتشوّهاته وآلامه كذلك. إذن كم هي فظيعة، فظيعة.!

.. إنها في كل التفاسير حكم على الكائن المصاب بالتوالد وليست حكماً منه أو له أو من أجله.! لقد وجد نفسه كذلك ولم يردها أو يجعلها أو يخترها كذلك أو يطالب لها بذلك.!

لقد حكم بها على الإنسان بالمنطق والتفاسير التي حكمت بها على أصغر وأردأ الحشرات..!

هل الحشرات تلد وتتوالد أم تبصق وتستفرغ وتقذف؟

أليس مثلها الإنسان؟ بل أليس أسوأ منها الإنسان في ذلك؟ هل هناك منطق لعملية توالد الإنسان يتفوّق على منطق عملية توالد الحشرات؟

أليست الحشرات والكائنات الأخرى أقدر على التوالد وأخصب توالداً من الإنسان حتى من توالد الإنسان العربي؟

إذن فالحشرات والكائنات المشابهة مفضلة ومتميزة ومتفوّقة على الإنسان إن كان التوالد فضيلة أو مزية أو معنى جيداً مفيداً أو معقولاً حتى على الإنسان العربي الذي يصعب أو يستحيل التفوّق عليه في ضخامة توالده؟

حقاً إن الإله لم يسب أو يغضب أو يعاقب أو يذل أو يحقر أو يفضح نفسه مثلما فعل حينما خلق الإنسان متوالداً أي لو كان هو الذي خلقه وأراده كذلك لأن هذا التوالد هو الذي يلد الكفرة والفاسقين والظالمين واللصوص والطغاة والأنذال والأشرار والأغبياء والقتلة والملوّثين وكل المالئين والمحرقين لعينيه وقلبه وعقله وأخلاقه ومجده ولكل حياته وتاريخه بكل الغيظ والغضب والحزن والهوان والمذلّات والهزائم والفضائح..؟

هل عادى الإله نفسه مثلما عاداها حينما خلق الإنسان وخلقه متوالداً أي لو كان هو الذي خلقه وخلقه كذلك؟

لهذا لا بدّ أن يتفجّر هذا السؤال ليقول: هل وجد أو يمكن أن يوجد معادٍ لنفسه مثل الإله؟ كيف أمكن أن يغيب هذا السؤال عن أي مؤمن بالإله؟ كيف أمكن أن يغيب عن الأنبياء والقديسين وعن الأقربين إليه من السماويين؟

هل الإله كائن خارج على كل التفاسير والحسابات؟ هل هو كائن لا يسعد ولا يرضى بل ولا يحيا إلّا بأن تكون كل مواجهاته عصياناً وإذلالاً وإهانات وهزائم وفضائح وقبائح تحاصر كل رؤاه وآفاقه وطرقه وآماله وتعاليمه وأوامره ومطالبه بل وكرامته وشرفه؟ من صاغه هذه الصياغة؟ وهل يقبل أي صائغ أن يصوغه مهما كانت رداءته ورداءة صياغته؟

❀ ❀ ❀

إن كل غيظ وغضب وهوان وإذلال وعصيان وانهزام وتعذيب يجب ألّا يساوي شيئاً من مقاساة الإله لذلك لكل ذلك بخلقه للإنسان والداً متوالداً أي إن كان هو الذي خلقه كذلك ثم بتكاليفه لإعداد أجهزة وأماكن ووسائل وزبانية المحاكمة والمحاسبة والعقاب له ولتوالده وولاداته وأولاده على ما فعلوه به من غيظ وغضب وإذلال وهوان وعصيان وهزائم وفضح وفضائح وتعيير له واستهزاء به.. بما قال وعلم وأرسل وأنزل وشرع وطلب وأمل وانتظر وأعلن وأراد وأحب واشتهى.!!

إن أي حاكم أو قائد أو زعيم ذليل مهين وضيع لن يتحمّل من رعيته أو أعوانه ومساعديه أو من أي أحد مثلما تحمل الإله من الإنسان والداً متوالداً، ولن يوجّه إليه من العصيان والتحقير والاستهزاء والرفض بل والنبذ والتهوين والاستهانة مثلما وجه إلى الإله.. مثلما وجه إليه رائياً سامعاً شاهداً حاضراً مواجهاً صامتاً متبلّداً عاجزاً عاجزاً.!

هل في هذه القضية لغز قبيح أليم فاجع أو خدعة كبرى؟ هي أن الإله كافر فاسق ملوّث عاشق مريد مدبّر لذلك لهذا خلق الإنسان وخلقه والداً متوالداً لكي يتحقق له كل ذلك بكل الأساليب والصيغ والتفاسير والضخامة والديمومة والشمول والقبح والفضح..! هل ذلك كذلك؟ قد يكون وإلّا فماذا؟..

إن كل مريدي ومدبّري وعاشقي وصانعي الكفر والفساد والفجور والضلال والغوايات...
لن يستطيعوا أن يكونوا شيئاً من الإله في ذلك..

.. من الإله الذي صنع الإنسان وصنعه والداً متوالداً ليصنع كل الكفر والفساد والفجور والغوايات والضلال والنذالات والقبائح والفضائح والمظالم والطغيان والحروب..

حتى الملائكة لقد فهموا هذا قبل أن يوجد وقالوا للإله مفجوعين وناصحين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟

إذن هل يمكن تفسير الإله إلّا بأنه عاشق ومريد وفاعل ومناضل لتحقيق كل الزندقات والغوايات والآثام والشرور والنذالات ولكل أنواع الفساد والعذاب، ولهذا كان تحالفه مع إبليس على ذلك هو أشهر وأقوى وأضخم وأصدق تحالف لإفساد وإضلال وتكفير الإنسان، إنه لا تحالف مثل تحالف الإله

مع إبليس على الإنسان.! ويكون النطق بآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هو: «وما خلقت الجن والأنس إلّا ليكفروا ويفسقوا بي ولي» وقد جاءت الآية بالعكس سخرية وإثارة وتحدياً.!

إن كل الرؤى والتفاسير والحسابات تقول إنه لا يوجد ولن يوجد في هذه القضية إلّا احتمالان: أحدهما أن يكون الإله كارهاً رافضاً لكل ما يسميه ويسمى بالكفر والخبائث والشرور والفضائح...

أو أن يكون راضياً بذلك مريداً له سعيداً به موظفاً نفسه وكل طاقاته واهتماماته لتحقيقه..!

إن كان الاحتمال الأول فلماذا لا يحشد كل نفسه وسلطانه ومعانيه لمنعه ومنع أسبابه بل لماذا حينئذٍ يحرّض عليه ويصنع كل أسباب ووسائل التحريض عليه والإغواء به والإيقاع فيه والدفع والسوق إليه بل وحشد كل القوى والجيوش والزبانية والأبالسة والمحرّضات المغويات للإيقاع فيه وللدفع والسوق إليه ليكون محتوماً، محتوماً الوقوع فيه؟ وهنا لا بدّ أن تقول كل الرؤى والحسابات والتفاسير إنه لم يبق إلّا الاحتمال الثاني.. الاحتمال الآخر القبيح الفظيع النذل الكافر الفاجر.. إنه لم يظل احتمالاً بل يقين وحتم..!

ولكن لماذا؟ إنها قضية تحار فيها كل الألباب.!

إنهما احتمالان يحاصران الإله محاصرة أقسى وأكثر وأبشع من قاتلة وهازمة وفاضحة ومذلّة وشائمة.!

لقد هربت كل العقول والرؤى والحسابات عن رؤية هذه الحقيقة بل لقد عميت عن ذلك، الإله لا يريد إلّا الإيمان والتقوى.

لهذا يصنع كل أسباب الزندقات والفجور.! هل تفهمون؟

إن الاحتمالين لأقسى هجاء للإله ولكن أيهما أقسى في هجائه؟ ولن يوجد أي احتمال غيرهما..!

إن الإله هو الذي لا يمكن أن ينجو من الهجاء.. من كل الهجاء وأقسى الهجاء أو من بعض الهجاء وأخف الهجاء، ولكن أخف هجاء الإله وبعضه يتفوّقان على كل الهجاء وأقسى الهجاء..!

كيف لم يفهم هذا من يفهمون ومن لا يفهمون؟ كيف وجد من يعجزون عن فهم ذلك مهما كانت بلادتهم وغفلتهم؟

إن فهم الإنسان لم يفسد ويضعف ويعجز ويخطىء ويتبلّد مثلما أصيب بكل ذلك وبأقسى ذلك حينما أراد أن يفهم الإله..

لهذا فإنه لم يوجد ولن يوجد معتدٍ على فهم الإنسان ومفسد له مثل الإله.. مثل تصوّره ومثل الإيمان به ومثل تفسيره..!

بل إن الإنسان لم يلعن ويتهم ويحقّر فهمه مثلما فعل في هذه القضية.!

ولعل التفسير لهذه القضية التي لا مثيل لها في صعوبتها وتعجيزها وإحراجها وقبحها أن الإنسان واجه ورطة كبرى هي الإيمان بذاتية الكون بداية ووجوداً وكينونات وقوانين وأخلاقاً وديمومة وأزلاً

وأبداً.. واجه ذلك في بداية تطلّعاته ومساءلاته وتفكيره ورؤاه وحساباته وقراءاته لنفسه وللأشياء... فكان صعباً بل مستحيلاً أن يفهم أو يحل هذه المشكلة أو الورطة العظمى وأن يقتنع أن الكون وكل شيء ذاتي.. ذاتي الذات أو الوجود أو الكينونة أو الدوام أو الصفات أو القوانين.!

فكان أن لجأ إلى حل المشكلة التي لا حلّ لها بأن أسقطها على كل كائن مظلوم، مظلوم زعمه وسماه إلهاً..!

مشترطاً أن يتنازل عن كل عقله وضميره وأخلاقه ورؤاه وتساؤلاته.. في فهمه ورؤاه ومحاسباته وتفسيره وقراءاته لهذا الإله وعن اشتراطاته وشروطه عليه وله وفيه...!

فكانت النتيجة أن جاء هذا الإله البائس المظلوم الذي لا مثيل له تشويهاً وفضحاً وتحقيراً واتهاماً وتهويناً وتقبيحاً دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه أو أن يوجد من يدافع أو ينوي الدفاع عنه...!

فكانت النتيجة أن جيء بهذا الإله دون أن يجيء أو يريد ذلك.. إن الإله هو الكائن الذي لا مثيل له في ضخامة وجوده وتأكد فقده..

إنه بهذا لا مثيل للإله أي لاسمه ظالماً ومظلوماً..

.. الإله بتصوّره وتفاسيره وفي الاعتقاد والإيمان به هو كل الظالمين وكل المظلومين، كل الشيء ونقيضه.!! هو كل القبح والجمال وكل الذكاء والغباء وكل العدل والظلم وكل القتلة والمقتولين وكل المعتدى عليهم والمعتدين وكل الممرضين والشافين المعالجين، وكل الأبطال والجبناء والأنذال والشرفاء أي كل من يسمّون ويحسبون هذا وهذا.. دون أن تذكر كلمة «كيف» ولا «لماذا».. بل ولا كلمات «قبيح.. افتضاح.. جنون.. زندقة».!

ثم شيّد أعتى الحدود والحصون وألّف وأعدّ أقوى الجيوش لحماية هذا الاعتقاد من أن يهاجم أو يخترق أو حتى يساءل أو يحاسب أو يحدق فيه..!

فكان ما كان وما أصعب زوال ما كان أي من الاعتقادات الغيبية اللاهوتية.. لقد جاءت أبطل الاعتقادات هي أقواها وأبقاها وأكثرها أنصاراً.!

إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد أثقل أو أوقح أو أبلد على تاريخ الإنسان وعقائده وعقله وقلبه وحياته وذكائه من آلهته وأنبيائه وعقائده الدينية دون أن يهبوه أي شيء من المادية أو المعنويات العقلية أو النفسية أو الدينية أو الروحية ما عدا ألوان التهديد والوعيد.

إن الإنسان لم يعاقب أو يشوّه نفسه وأخلاقه وكل معانيه وصيغه مثلما فعل بها بإيمانه بأربابه وأديانه وأنبيائه ودعاته وبتقسمه عليهم وتوزعه على محاريبهم ومنابرهم وأوثانهم وبالصلاة والحج إلى كعباتهم، بالانقسام والتشتّت والتوزيع والتوزّع عليهم وبينهم.!

.. إن كل أعداء الإنسان لا يفعلون به مثل انقسامه بين أديانه المنقسمة المتعادية المتخاصمة

أرباباً وأنبياء وكتباً مقدسة ومحاريب ومنابر ومزارات وكعبات واتجاهات وصلوات.! إن من جاؤوا بالأرباب والأديان والعقائد المختلفة لهم أكثر إيذاءً للإنسان وفتكاً به وإفساداً له من عدوه إبليس الهازم للإله السالب القاتل الملغي لكل مجده بل ولكل قوته وذكائه وكبريائه، هل أهان مهين شيئاً أو أحداً مثلما أهان إبليس الإله؟ أليس إبليس قد فعل كل ذلك بالإله؟

لقد فعل أنبياء الإنسان بالإنسان أقبح وأقسى مما فعل به إبليس.. هل يطاق هذا؟

كيف وجدت هذه القصة.. قصة هزيمة الإله الحاسمة الرهيبة أمام إبليس، وانتصار إبليس القاتل على الإله الخالق بهذه القوة؟ كيف تمكن قراءة أو تفسير هذه القصة بأي منطق أو حساب؟ هل يمكن أن يكون ذلك عجزاً أو بلادة أو غفلة أو ضعفاً في الخالق أو تواضعاً بليداً فيه أم مؤامرة تآمر بها مع الشيطان ضد الإنسان.!؟

كيف لم يأت حديث عن قصة التآمر هذه بين الإله وإبليس أي على الإنسان؟ إنها قصة تحتاج إلى كل الاهتمام وتصيب بكل الهموم.!

هل يمكن أن توجد أو تتصور تفاسير لهذه القضية أخفّ قبحاً أو عاراً أو بلادة أو افتضاحاً من هذه التفاسير بأي المقاييس أو الحسابات أو الأخلاق؟

❀ ❀ ❀

ارثوا لي. ارثوا لعقلي وقلبي وأخلاقي وحساباتي حين أعجز عن أن أجد أي تفسير لهزيمة الإله أمام خصمه البائس الذي أصبح عظيماً.. الذي أصبح عظيماً لعظم الإله.. أي لفقد الإله للعظمة أو لتنازله عنها.. عن العظمة التي كان كل الحديث عنها، أو لسرقتها واغتصابها منه.!

إن جميع العقول لن تجد أي تفسير لهذه القضية إلّا أن ترى وتقول بأن الإله قد تآمر أضخم مؤامرة شريرة مع الشيطان على الإنسان.. ولكن كل العقول لا بدّ أن تعجز عن الفهم.. عن فهم هذه المؤامرة..!

إن كل العقول مهما وجب عليها الإيمان بهذه المؤامرة فلا بدّ أن تعجز عن فهمها وأيضاً لا بدّ أن تعجز عن رفضها وإبطالها..!

إنها عاجزة عن فهمها وعاجزة عن رفضها..!

وهكذا كل العقول عاجزة عن نفي الآلهة وعاجزة عن فهمها أو تصوّرها أو الإيمان بها وعن احترامها وتعظيمها وعن الإعجاب بشيء منها أو فيها.. إذن هل هناك معذب للأخلاق والعقول والحسابات والتصورات مثل الآلهة التي لا يستطاع نفيها والتي لا يستطاع فهمها أو تصورها أو قبولها أو الغفران لها والتي لا يستطاع الإيمان بها..!؟

❀ ❀ ❀

ليتني بلا فهم أو أخلاق أو حسابات أو رؤى لكي لا أقاسي أن أرى الإله أو أفهمه أو أؤمن به، ولكي لا أقاسي العجز عن ذلك.. لكي لا أقاسي محاولة هذا أو هذا.!

إن في ذلك كل العذاب والانفجاع والترويع والحيرة.!

❀ ❀ ❀

ما أعظم أهوال الحساب والعقاب التي لا بدّ أن يواجهها آدم وحواء وأن توجّه إليهما وأن يصلياها لأنهما هما اللذان تفجّرت منهما أنهار وبحار وطوفان التوالد والولادات البشرية.. إنهما ليستحقان كل الحساب والعقاب على كل ما فعل ويفعل كل البشر وعلى كل ما فعل ويفعل بكل البشر وعلى كل ما أصاب البشر ويصيبهم في كل تاريخ وجودهم وعلى كل ما فعلوا بالإله أي البشر..

هل يستطاع تصور ما فعله البشر بالإله من غيظ وإحباط وهزائم وإذلال؟

إن جميع الأبالسة ليسوا إلّا موظفين لدى من ولدا ويلدان.. ولولا ما يلدان أي آدم وحواء لما وجد الأبالسة لهم عملاً ولا طعاماً ولا مكاناً ولا أنصاراً بل لما وجدوا هم..! إن آدم وحواء هما اللذان أوجدا مجد الشيطان..!

كيف يكون للشيطان مجد بل أو وجود لولا آدم وحواء المصابان بآفة التوالد والولادة؟

ماذا لو أن آدم وحواء لم يوجدا أو لو أنهما لم يصابا بآفة التوالد.. بآفة بصق الأولاد؟ هل يمكن حينئذٍ أن يوجد الأبالسة أو أن يجيئوا أو يظلوا أبالسة لو وجدوا ليصبحوا كل الغيظ والحرب والتدمير والأسى والإفساد للإله ولكل شيء جميل وبريء ونظيف ولكل سلام وتقوى وإيمان ومحبة وسعادة ورضا وعدل في هذه الحياة؟

إن الأبالسة لم يوجدوا ولم يصبحوا أبالسة إلّا ليكونوا موظفين عند أولاد آدم وحواء.. إذن أي الفريقين المضل المفسد للآخر المعتدي عليه: الأبالسة لأبناء آدم وحواء أم أبناء آدم وحواء للأبالسة؟

أي الفريقين هو الذي أذاق الإله ويذيقه أقسى الغيظ والغضب والقهر والمرارة والفواجع والعداوات والحيرة؟ أليس محتوماً أو محتملاً جداً أن يصبح الأبالسة وأن يظلوا أتقياء وفضلاء ونبلاء أو لا هذا ولا نقيضه لو لم يجيء آدم وحواء مصابين بالولادة.. باستفراغ الأولاد الذين حوّلوا الأبالسة إلى قادة لهم ليخططوا لهم ويعلموهم ويقودوهم إلى كل الأخطاء والخطايا والقبائح والفضائح والنذالات والعداوات وإلى كل الشرور وإلى كل القهر والإذلال للإله؟

وهنا لا بدّ من أصدق الاعتذار إلى الأبالسة للحديث عنهم..؟

العلاقة بين القلم والإنسان والإله

ماذا يقول القلم لو حاكم خالقيه وموظفيه والفاعلين به وفيه.

أيها الصديق الذي أراد أن يضع بل وضع دون أن يريد ويدبّر.. حتى ولو لم يرد أو يدبّر... الذي وضع للصداقات.. للعلاقات بين من يحسبون ويسمّون أنفسهم أصدقاء بل أوفى وأعظم وأصدق الأصدقاء بل أول الأصدقاء وآخرهم...

.. الذي وضع ونفّذ للصداقات والعلاقات حدوداً ومقاييس وتفاسير وديناً وكتباً مقدسة ونبوات جديدة متفوقة على كل النبوات التي قرأناها وعلمناها وحفظناها ونشرت لنا من فوق وتحت كل المنابر والمحاريب بلغات كل الآلهة والأنبياء والوعّاظ والقديسين..

.. الذين لا بدّ أن يتمنى الإله المعروف بل وكل إله غير معروف أن يتعلّم هو وكل أصدقائه وأعوانه وكل الموظفين في كل أجهزته شيئاً من حماس وصدق وعطاء ووفاء وصفاء وإخلاص صداقتهم أو من التزاماتها وتكاليفها وفرحها وحبها وسعادتها وعذابها وهمومها وأخطارها وتضحياتها وبسالاتها ومسؤولياتها..

أنا هنا أفترض الإله وأعوانه وكل من معه وحوله أعظم كثيراً من كينوناتهم التي عرفناها ورأيناها وجربناها وقاسينا منها والتي جربها وقاسى منها كل شيء وكل أحد حتى ولو لم يرها أو يقرأها أو يفهمها أو حتى يسألها أو يسائلها، إنها لن توجد حظوظ تواجه من التعاسة والخيبة مثل حظوظ من يجربون حظوظهم بالتعامل مع الآلهة.!

.. الذين لا بدّ أن يرفض ويهرب كل إله من قراءة ورؤية وتفاسير صداقتهم خوفاً من قسوة مقاساة العذاب والاستحياء ومشاعر العجز والانهزام لو حاسبت صداقته بصداقتهم أو خوفاً من أن يكون ملزماً بتقليدها وبالتعلّم منها أو من أن يمرض بعدواها أو بشيء ولو قليلاً جداً من شهامتها وبسالتها والتزاماتها أي من عدواها..!

ليت الآلهة جاءت أو خلقت مصابة بل مريضة بالعدوى الجيدة.!

لماذا جاء الإله بل كل الآلهة معقّمة ضد الإصابة بالعدوى الجيدة؟

لقد أصاب الإنسان العربي الإله بكل أنواع العدوى الرديئة دون أن يصاب بعدوى جيدة..

هل يوجد أنفع أو أوجب من أن تكون أي الآلهة مصابة بل مريضة بالعدوى الجيدة أو أقبح أو أردأ أو أخسر من ألا تكون كذلك؟

هل يمكن تصوّر من يحتاج إلى أن يتعلّم الصداقة أو حتى شيئاً منها لأنه فاقد لها كلها فقداً

ذاتياً أبدياً دون أن يريد أو يستطيع أن يفعل ذلك مثل الإله.. مثل كل إله وأي إله؟

لقد علّمتني صداقتي لإلهي.. صداقتي الطويلة الحزينة المهزومة الخاسرة الضائعة أي لإلهي أنه لا يحترم أو يلتزم أو حتى يعرف أو يستطيع أي شيء من معاني الصداقة أو شروطها أو من شروط ومعاني أي شيء جيد.!

هل وجد أو يمكن أن يوجد خارج على كل تفاسير ومقاييس وحدود ومستويات ونماذج كل الصداقات مثل إلهنا بل ومثل كل إله وأي إله؟ ما أقسى وأشقى وأضخم ما وهبت إلهي من أنواع الصداقات ولكن كيف جازاني على ذلك؟ فظيع، فظيع جداً ما فعل..!

.. لقد جاءت صيغ كل إله خروجاً بل وعدواناً على كل الصيغ الموجودة والمتصورة والمطلوبة والمعقولة والمقبولة والمفترضة بل والمحتملة فكيف بالمحترمة؟ بل لقد جاءت سباباً وهجاء لكل الصيغ واستفراغاً عليها بكل أساليب وتفاسير الاستفراغ.!

كيف لم يعرف كل العالم ذلك ويعلنه بكل لغات وتعبيرات الغضب والغيظ والرفض والانفجاع؟

نعم، هل وجد أو يمكن أن يوجد محتاج إلى تعلّم ذلك أو إلى تعلّم شيء من ذلك وإلى الالتزام به دون أن يتعلّمه أو يتعلم شيئاً منه أو يلتزم به أو بشيء منه مثل الإله الذي نعرفه أو الذي قيل لنا إننا نعرفه ويجب أن نعرفه لأننا لا نعرفه ولن نستطيع أن نعرفه ولن يقبل منا أن نعرفه ولن نقبله لو عرفناه..!

ولأنه لن يوجد أو حتى يتصور خسران لنا مثل أن نعرفه أو خسران بنا لو أمكن أن نعرفه.. مثل أن نعتقد أو نتصور أننا قد عرفناه أو وجدناه أو أننا قد نجده أو نعرفه أو أن من النافع أو الخير أو المجد أو القوة أو التقوى أو المحبة أو المعرفة أن نراه أو نعايشه أو نعامله أو نلقاه أو نجده أو نعرفه..!

إنه لا يطاق رواية وتصوّراً وتعليماً ووعظاً فكيف يطاق رؤية ومواجهة ومعاملة ومعاشرة ومساكنة؟ إنه الكائن الذي لم يطق ولن يطاق إلّا رواية أو إشاعة أو موعظة مكذّبة بلا أي احتمال للتصديق أو الصدق.

.. إن كل خسران البشر في كل تاريخهم لا يساوي خسرانهم بإلههم أو بآلهتهم أي مروية ومزعومة وموصوفة وموعوظاً بها فكيف بخسرانهم بها موجودة ومرئية ومعاشرة معايشة مساكنة أي لو كانت كذلك أو كان ذلك ممكناً؟

.. إن مزايا كل إله.. كل جماله وحبه وحكمته ورحمته وعبقريته وعدالته بل ورؤيته وكرامته ونظافته.

ـ إن كل مزايا هذه وغيرها ليست إلّا في أن وجوده لم يكن ولن يكون إلّا زعماً واعتقاداً وتلقيناً لا وجوداً ولن يكون وجوداً، إنه الكائن الذي لم يحترم أو يعظم أو يطع مثله مزعوماً ولم يحقر

أو يهن أو يعص مثله موجوداً، إنه الكائن الموجود جداً لأنه المفقود جداً، إنه الكائن الذي تراه كل العيون لأن أية عين لم تره ولا يمكن أن تراه أو تقبل أن تراه.!

.. إنه لو لم توجد أية رواية أو قضية أو عقيدة أو تصورات أو أحلام كذبها أفضل وأتقى وأنفع من صدقها لوجب استثناء واحد، ولوجب أن يكون هذا الاستثناء عن الإله وعن كل إله وأي إله .. عن رواية وقضية وتصورات وجوده والاحتلام بوجوده..!

إنه لو كان كل صدق نافعاً وذكياً وجيداً وتقياً لوجد صدق واحد هو نقيض وضد وعدو لأن يكون أو يحسب شيئاً من ذلك.. إن هذا الصدق هو صدق الرواية.. أية رواية عن الإله.. عن أي إله وكل إله.. عن وجوده أو عن أوصافه وأخلاقه أو عن كل شيء له وعنه وفيه، إنه لا أعظم من أن يكون كل حديث عن كل إله كذباً إذا كان البديل أن يكون صدقاً.!

أيها الرواة والمتحدثون عن الإله، عن كل الآلهة..

يا كل هؤلاء الرواة والمتحدثين كونوا كاذبين جميعاً، كاذبين جداً لتكونوا أفضل وأتقى وأنفع وأنبل من كل الصادقين..!

كونوا صادقين في كل قضية وعن كل قضية ولكن كل الرجاء وأصدق الرجاء أن تكونوا كاذبين في هذه القضية وعنها، أي إذا لم يكن بدّ أن تفرضوا أنفسكم عليها أي على هذه القضية.!

.. هل يوجد أجمل من الأنبياء في أن يكونوا كاذبين أو أقبح منهم في أن يكونوا صادقين أي راوين ومتحدثين عن الآلهة إذا كان محتوماً أن يكونوا هذا أو هذا.!؟

.. أيها الأنبياء، يا كل الأنبياء كونوا كاذبين ولا تكونوا صادقين لئلا تكونوا أفجع وأقبح وأوقح وأخطر من كل الكاذبين ومن كل الصادقين.!

.. إنكم أيها الأنبياء، أيها المتحدثون عن أي إله لأخطر وأفجع من كل الصادقين لو كنتم صادقين وأقبح وأردأ من كل الكاذبين إذا كنتم كاذبين.! فأي التفسيرين أرفق وأرحم بكم.؟

.. أيها الأنبياء يا كل الأنبياء وكل المتحدثين والراوين عن الإله وعن كل إله وأي إله...

هل يوجد أقبح أو أفجع أو أردأ منكم إن كنتم صادقين أو أبلد أو أنذل أو أكثر إيذاءً أو قسوة أو فحشاً أو عدواناً منكم إن كنتم كاذبين أي يا كل الأنبياء وكل المتحدثين عن الإله وعن كل إله.!

إذن ألستم في كل الحالات والرؤى والحسابات والظروف مذنبين ومشوّهين ومفسدين؟

.. هل يوجد غيركم فاجعين ومخيفين ومروعين ومعذبين ومضلّلين سواء أكنتم صادقين أم كاذبين أي أيها الأنبياء، أيها المتحدثون عن الإله.. عن الآلهة.. عن كل إله وأي إله؟

كيف لم تعلموا هذا ويعلمه كل الأذكياء والأغبياء؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد مثلكم عدواناً على الإنسان والحياة أو تشويهاً أو إيذاءً أو تحقيراً بل أو إفساداً وتعجيزاً لأخلاقهما وذكائهما أيها الأنبياء، أيها المتحدثون عن الإله.. عن كل إله.. عن كل الآلهة؟ كيف أمكن أن يوجد من يستطيع جهل هذا؟

إنكم لن تكونوا صادقين أي في هذه القضية.

ولكن لو كنتم صادقين فما الذي يجب وينتظر أن تكونوه وتفعلوه؟ هل يمكن أو يقبل أن يكون ما لا بدّ أن تكونوه وتفعلوه شيئاً غير أن تناضلوا كل النضال بكل أساليب وأخلاق ومنطق وقوة وإرادة النضال وإعلانية النضال وديمومته وكبريائه وكرامته وشرفه.

.. أن تناضلوا كل هذا النضال بل وأكثر وأقسى من هذا النضال انتصاراً وحماية للإنسان.. لإنسانكم..لآبائكم وأمهاتكم وأبنائكم ولكل أقاربكم وأصدقائكم وشعبكم وكل الشعوب الأخرى.

ـ نعم، انتصاراً وحماية وحراسة لكل ذلك بل ولكل شيء وكل أحد من طغيان وجبروت ووقاحات وسفاهات وعبوديات وأنانيات وبداوات ونذالات وجهالات وبلادات كل إله.. كل الآلهة.

.. لا أن تتحوّلوا وتحوّلوا أنفسكم إلى أعوان ومعلمين ومشرّعين ومذيعين وناشرين ومفسّرين ودعاة لكل ما تفعله وترقعه هذه الآلهة بكم وبقومكم وبكل شيء وكل أحد..!؟

هل قاسى آباؤكم أو أي أحد أو أي شيء مثلما قاسوا من الآلهة.. من الإيمان بالآلهة؟ هل أذلّت كرامتهم أو ذكاؤهم مثلما أذلّت بذلك؟

أليس المفروض والمطلوب والواجب أن تكون قوة وقسوة وحرارة المقاومة متكافئة مع قوة وقسوة وقبح وشمول ونذالة الطغيان والطغاة مهما كانت انتماءاتهما وجنسياتهما وأسماؤهما وتفاسيرهما وحوافزهما وأماكنهما أي الطغاة والطغيان؟

هل يوجد أو يتصوّر طغاة وطغيان بلا أي حدود أو مقاييس أو تفاسير أو أخلاق أو منطق أو حسابات مثل الآلهة طغاة وطغياناً؟

إذن أليس المفروض والمطلوب والواجب ألّا يوجد أو يتصوّر مثل الأنبياء أي مثلكم أيها الأنبياء.. مثل كل إنسان حر شريف كريم أبيّ ذكي تقي مقاومة للإله، لأي إله.. لكل إله؟

أليس المفروض المحتوم أن تتصاغر كل المقاومات الحرة الشريفة الباسلة محاسبة بكل مقاومة ولأية مقاومة لكل إله ولأي إله مهما كانت فداحة وقسوة وديمومة الثمن أو الجزاء الذي قيل له إنه قد يدفعه أو إنه لا بدّ أن يدفعه؟

أليست كل التعاليم حتى تعاليم الآلهة والقادمين من عندها تقول: إن المقاومة والرفض يجب أن يكونا متكافئين مع ضخامة وجهالة الطغيان والطغاة ومع قوتهما بل ومتفوقين على ذلك وإن الجزاء لا بدّ أن يكون محسوباً بضخامة أخطار المقاومة وإن المقاوم يكون تقياً وصادقاً ومرضياً بقدر خطورة هذه الأخطار؟

إذن أنتم أيها الأنبياء، أيها المتحدثون والرواة عن الآلهة الواصفون المفسّرون لها المبشّرون المهدّدون المتوعدون الواعدون الواعظون بها حتماً كاذبون كذباً مدبّراً متعمّداً أو كذباً بليداً ضالاً جاهلاً.. كذباً بحوافز خيّرة أو بحوافز شريرة..

وإنه لمن الخير والأفضل أن تكونوا في هذه القضية كاذبين كاذبين مهما كانت الحوافز والأسباب والنيات..!

إنكم حينئذٍ لموقعون بالإنسان والحياة أضخم وأقسى وأشمل وأغبى الخسائر والأضرار والشرور والعداوات والعدوان والهوان والإهانات والبذاءات والتفاهات.

ـ لموقعون كل ذلك وغير ذلك وأكثر من ذلك بالإنسان والحياة ومعلّموه ومفسّروه وممجّدوه ومشرّعوه لهما..

ولكنهم مع كل هذه الأهوال والتهاويل التي تفعلونها وتوقعونها وأنتم كاذبون لا بدّ أن تحسبوا كل القداسة والشهامة والحب والنبل والعطاء والجمال والرحمة لو حوسبتم بكم صادقين أي بافتراضكم صادقين..!

يا من كذبهم أنبل وأرحم وأتقى وأذكى من كل الكذب بل ومن كل الصدق، أي إذا لم يكن بدّ أو بديل من أن يكونوا صادقين أو كاذبين..!

إن كذبهم أقل قبحاً وهولاً من صدقهم.. من هم؟ إنهم المتحدثون عن الآلهة..!

ولكن أليس كذب الآلهة في كل ما وعدوا وأوعدوا به، في كل ما قالوه راوياً له عنهم أنبياؤهم وملائكتهم هو أنبل وأرحم وأنفع وأتقى الكذب من كل الكذب أي محاسباً بصدقهم؟

إنه لو لم يكن الأنبياء كاذبين في رؤاهم وتعاليمهم ورواياتهم عن الآلهة لوجب أن يكون الآلهة كاذبين..!

إنه لواجب ومحتوم أن يكون أحد الفريقين أي الآلهة والأنبياء كاذباً.

أما أن يكون الفريقان صادقين فإن ذلك خارج على كل الاحتمالات والقوانين والقدرة والمنطق والتقبل.. خارج على كل الممكن والمعقول والمستطاع..!.. ألا يمكن أن يكون الآلهة والأنبياء كاذبين معاً بأسلوب ونيات الاتفاق والتآمر؟

❀ ❀ ❀

آه، إني لفي حيرة.. لفي أقسى صيغ وتفاسير وعذاب ومعاني الحيرة، في أقسى مستوياتها..

.. إني أريد بكل قوة وقسوة وضغوط وأوامر وأشواق الإرادة ـ بل وبكل إرادة التنفيذ والاستجابة لها أي للإرادة.

نعم.. إني بكل ذلك.. بكل هذه التفاسير والضغوط أريد وأريد ما أريد وأن أستجيب وأطيع وأحب وأحترم وأنفّذ ما أريد.. هذا الذي أريد مهما كنت عاجزاً عن فهم ما أريد وعن أي تفسير وعن أية قيمة له.

.. مهما كنت عاجزاً عن الفهم بل وعن الاحترام لما أريد وعن الجواب: لماذا أريد ولماذا أريد ما أريد ولماذا أريد كما أريد ما أريد..! كيف جاء ولماذا جاء الإنسان مريداً كما يريد ومريداً لكل ما يريد بكل صيغ إرادته وأساليب تعبيره عنه؟ كيف ولماذا؟ هل يوجد أو يتصور مذل وهازم ومعذب

ومستعبد بل ومعجز فاضح متحدٍ للإنسان مثل إرادته.. مثل أن يجيء ويصاغ محكوماً عليه بهذه القوة التي لا تفاسير ولا حدود ولا أخلاق ولا كرامة ولا منطق ولا عقل لسلطانها وطغيانها ورغباتها وإملاءاتها..

أي محكوماً عليه بهذه القوة المسماة بالإرادة ومحكوماً بها؟ كيف يمكن أن يحسب حراً أو أنه يملك أو يستطيع شيئاً من الحرية أي كائن محكوم بهذه القوة.. بهذه الإرادة الذاتية أو بهذه العبودية الذاتية التي تتكوّن وتجيء وتحكم وتطغى ونطلب وتملي وتأمر وتنهى بلا أية قوانين أو شرائع أو أديان أو مذاهب أو تخطيط أو تدبير أو محاسبة أو مساءلة أو محاكمة أو صياغة مقررة أو معقولة أو مقبولة..؟

كيف تجيء إرادته ضد إرادته وعاصية لإرادته ولكل معانيه وقيمه وتعاليمه وعلمه وتقواه وأخلاقه وكرامته؟

كيف استطاع أو يستطيع الإنسان.. أي إنسان أن يتحدث عن حريته.. عن أية حرية إن كان قد فطن إلى ذلك ورآه وعرفه وتعذّب وافتضح وذلّ به وله؟

أو كيف استطاع أو يستطيع أن يتحدث عن الذكاء أو الرؤية.. عن أنه قد يملك شيئاً من الذكاء أو الرؤية أو من القدرة على أنه قد يكون شيئاً من هذا أو هذا إن كان قد فطن إليه أو رآه وعرفه؟ إن الإرادة هي كل المستعبدين المذلّين لكل الأحياء حتى للآلهة، إنها كينونة وليست تدبيراً أو تخطيطاً.

يا كل العالم.. أنت كل العمى والغباء والهوان والجبن مهما كنت وزعمت بل وفهمت وفسّرت كل الرؤية والذكاء والعزّة والبسالة والكرامة والكبرياء..!

.. إني أريد، أريد دون أن أريد، وأريد ما لا أريد وما أخجل وأفجع بأن أريده وحين أريده وما أعجز عن أن أفعله بل وأن أريده كما أريده وكما يجب أن أريده..!

إذن اسعد واصعد أيها العار والهوان بالإنسان أمام إرادته وفي إرادته وفي إرادته لإرادته وفي خضوعه وعبوديته لإرادته..!

إذن اصعد واسعد وتعاظم أيها العذاب الإنساني..!

.. إني أريد بدون أن أريد أو أقبل أن أريد.. بدون أن أدري لماذا أريد.. بدون أن أستطيع ألّا أريد.. بدون أن أستطيع تعقيل أو تصحيح أو تعليم أو تهذيب إرادتي..!

أليست كل حياة مشحونة بكل ذلك بل وبكل ما هو أقسى وأفجع وأصعب من كل ذلك بقدر ما هي حياة وإلّا فلن تكون حياة؟ أليست ضخامة ومجد وعظمة وذكاء كل حياة مساوية لهذه الحياة ومتكافئة معها؟

أليست الحياة أي كل حياة عذاباً وانفجاعاً ورعباً وترويعاً وتهديداً وأعباءً وتكاليف والتزامات فادحة، فادحة بقدر ما هي الحياة؟

أليس فقد أو ضعف أو استرخاء أو تبلّد العذاب والانفجاع والانزعاج والترقّع الدائم القاسي

الرهيب الشامل يعني حتماً فقد الحياة أو ضعفها أو بلادتها أو هوانها أو عماها أو يعني كل ذلك؟

لهذا أليست الآلهة هي أقسى وأفدح وأفجع الكائنات كينونة أو أغباها وأموتها وأعماها وأنذلها كينونة.؟

إنها أي الآلهة إما أن تقاسي أقسى العذاب وكل العذاب وإما أن تعيش كل الموت والخمود والخمول والتبلّد والغيبوبة.!

أليس اليقظان المتوهّج الحاد الرؤية والقراءة والمحاسبة والمحاورة والمساءلة أكثر وأقسى عذاباً وانفجاعاً واشمئزازاً واستنكاراً ومعاناة لكل الأهوال والترويع من النائم الخامد الخامل الغريق في بلادته وبروده وصمته ونومه وموته وغيبوبته الشاملة؟

أليس الكائن يعذّب ويتعذب ويفجع بقدر ما يحيا ولأنه يحيا؟

أليس الكائن أي كائن يحيا بقدر ما يقاسي من العذاب والانفجاع والاشمئزاز والاستنكار والاندهاش؟

أليس الكائن الحي يحاسب ويعاقب ويعذب بل ويفجع ويهان ويقهر على قدر ضخامة واتساع وصعود وتنوّع كينونات حياته؟

كيف وجد من يجهل ذلك؟ وهل وجد هذا الجاهل الذي يجب أن يحسب وجوده غلطة أي إن وجد أو لو وجد أو لو كان ممكناً أن يوجد؟

كائن يجهل أن ضخامة الحياة تعني حتماً ضخامة العذاب بكل أساليبه وتفاسيره وصيغه ولغاته..!

هل وجد هذا الكائن؟ هل يمكن أن يوجد؟

❀ ❀ ❀

أجل، إني أريد أن أقول وأقول وأن أظل أقول.. إني أبدأ أذكر وأتذكر وأحب وأشتاق وأتطلّع وأنتظر، أنتظر وأتمنى، أتمنى بكل اللهفة والتلهّف والاحتراق والإحراق.. بكل طاقات ووقود وأجهزة الاحتراق والإحراق.. بكل طاقات وبلادات وحماقات وعداوات وخطايا وأخطاء الزعامات والقيادات والعبقريات والشاعريات العربية ـ بكل قدرتها على إحراق عقول وقلوب وضمائر وأخلاق ورؤى كل من يقرؤونها أو يحاسبونها أو يحاورونها أو يعايشونها أو ينتظرون منها أو يفسّرونها أو يحاكمونها أو يطالبونها بالمقاييس المعروفة فكيف بمن يحدّقون فيها؟

.. بكل طاقات وقدرات النفط العربي على أن يكون محترقاً ومحرقاً لكل الرؤى والحسابات والتوقّعات العقلية والقانونية والأخلاقية والحضارية بل والدينية، حتى الحسابات والتفاسير الدينية قد جاء أي النفط العربي هازماً صادماً مشوّهاً مكذّباً لها ساخراً منها.!

.. على أن يكون محترقاً ومحرقاً بكل أساليب ولادته ومجيئه وحياته ووفاته الأليمة المحتومة المنتظرة بكل تفاسير الانفجاع والتخريب والتعذيب والترويع والإذلال..!

.. بكل طاقات وقدرات كل التاريخ العربي والحاضر العربي على أن يكونا محرقين ومذلّين وهازمين ومهينين وفاضحين وشاتمين ومحرجين لكل تاريخ ولكل حاضر وواقع وكائن، أي لو حسبا أعني التاريخ العربي والحاضر العربي ـ لو حسبا على التاريخ والواقع والحاضر والكائن وحوسب كل ذلك أو بعض ذلك بهما..

ما أقسى انفجاع الزعامات والقيادات والنبوات والعبقريات بل والألوهيات لو حدقت أو فكّرت في الزعامات والقيادات والعبقريات والألوهيات العربية ورأت أو ظنّت أنها محسوبة عليها ومفسّرة بها ومسؤولة عنها أو ما أقسى وأعظم وأسعد وأفرح شماتتها وسخريتها. إن القارئين المحاسبين المفسّرين للمواهب والطاقات والتعبيرات والكينونات العربية لا بدّ أن يقاسوا من الفجيعة أو من الشماتة والسخرية.

.. كم من الفجيعة والترويع والخروج على كل منطق وحساب وتدبير وخلق جيد في هذا...

أي في أن طاقات الاحتراق والانفجاع والإحراج والاستحياء والخوف والرهبة وطاقات العذاب والهوان والسقوط في الإنسان لا حدود ولا نفاد لها مهما كان لكل شيء حدود ونفاد.. حتى كرامات وذكاء وعطاء ورؤى وعبقريات الآلهة لها حدود ونفاد، حتى لقدراتها وفنونها وأشواقها وعلمها وصبرها وشجاعتها ومروءتها ورحمتها وحكمتها لها أقسى الحدود والنفاد.! إنه لا حدود ولا نفاد ولا حساب لعذاب الإنسان المعنوي.. النفسي والعقلي والأخلاقي والتصوّري والعاطفي والتوقعي مهما كانت وضاقت وصغرت حدود وطاقات وحسابات ذاته وواقعه وذوات وواقع كل شيء وكل أحد..!

هل وجد أو يمكن أن يوجد أو يتصور تعذيب أو ترويع أو تفجيع أو عدوان أو خروج على كل التفاسير الجيدة بل المعقولة المقبولة مثل هذا، مثل أن يكون العذاب بلا حدود والمعذب في أصغر وأضيق الحدود والأحجام والطاقات والكينونات؟

إذن كيف يمكن أن يكون أو يتصور لطاقات عذاب الإله وانفجاعه وترويعه وحرجه وإحراجه وأثقاله حدود أو نفاد؟

لقد كانت كل الاحتمالات والحسابات والافتراضات تقول أو يجب ويتوقع أن تقول: إن كل المخلوقين والمخلوقات لو استفرغت وصبّت وصاغت في الإله كل بلاداتها وتبلّدها ونذالاتها ووحشياتها وقباحاتها وكل عماها لما استطاع كل ذلك أن يهبه القدرة أو الجرأة على أن يرى أو يواجه أو يقبل أو يقرأ وجوده أو أي وجود فكيف يعايشه أو يعاشره أو يساكنه أو يصادقه دون أن ينتحر، أن يموت، أن يحترق انفجاعاً واستحياءً وخزياً وعاراً وحرجاً وإحراجاً بل وذعراً وهواناً.. وإن كل المخلوقين والمخلوقات لو أنها وهبته أو أعارته كل دموعها وأحزانها وفواجعها لما كفَت أو قبلت لتكون شيئاً من دموعه وفواجعه وأحزانه أي المفترضة فيه والمفروضة الواجبة عليه..!

إذن كيف أمكن أن يبقى الإله كل بقائه المذكور والمكتوب والمزعوم والمعلم يواجه ويعايش ويعاشر ويرى ويقرأ ويفهم ويخاطب كل هذا وكل غير هذا دون أن يذهب بلا عودة أو قبول للعودة أو تفكير فيها.

ـ نعم، دون أن يذهب الذهاب الأبدي منتحراً أو محترقاً أو مصعوقاً أو هارباً.

ـ دون أن يفعل أي شيء أو كل شيء لإنقاذ نفسه وللستر عليها ـ للهرب من نفسه ومن كل شيء؟

هل تستطيع كل التفاسير الجيدة والرديئة الذكية والغبية الكريمة والمهينة الباسلة والجبانة.

ـ هل تستطيع كل هذه التفاسير أن تجد لهذا أي لبقاء الإله كل هذا البقاء مواجهاً كل هذه المواجهات أي تفسير؟

كيف استطاع الإله أن يجهل ذلك الكائن أو ذلك السلوك النبيل الباسل المنقذ المشتوم بتعاليم كل الأنبياء والجبناء والجهلاء والأرقاء الأذلاء أي المسمى انتحاراً؟ هل جهل أي الإله ذلك أم رهبه وهابه واستصغر نفسه أمامه أم عجز عن الصعود إليه لهذا لم يتعامل معه وبه؟ إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد انتصار مطلق أبدي على كل شيء سوى شيء واحد هو الانتحار.. إنه كل الانتصار في نتائجه وحوافزه مهما بدا أو حسب انهزاماً في أساليبه ولغاته.

إن أي إله وكل إله لن يستطيع أن يجد أو يعرف أو يمارس أي إنقاذ أو تقوى أو شهامة أو شجاعة أو براءة أو طهارة أو حصانة من كل الآثام والآلام والهموم والفضح والافتضاح غير أن ينتحر، ينتحر أو أن يذهب بأي أسلوب آخر.. إنه لو كان الانتحار في كل الحالات هو كل الجبن والعذاب والقبح والخطأ والإساءة والعجز والدمامة والفجيعة والخسران لكان في الإله وفي كل إله هو كل النقيض وأقوى النقيض لكل ذلك.!

كيف أمكن أن يوجد إله يظل يواجه ويعايش ويقرأ نفسه وكل هذا وكل شيء وكل أحد.. يظل ويظل ويظل أبداً بلا انتحار، بلا انتهاء أو ذهاب أبدي بأي أسلوب..؟ كيف أمكن أن يوجد مثل هذا الإله؟

هل استعار نفسه من الزعامات والقيادات والعبقريات والنبوات العربية في أضخم وأعلى وأقوى وأذكى مستوياتها، أي في مواجهاتها لإسرائيل أي حين مواجهاتها لإسرائيل؟

هل هان أو صغر أو افتضح أو قبح أي شيء مثلما هانت وصغرت وقبحت وافتضحت الزعامات والقيادات والعبقريات والنبوات بل والألوهيات العربية في مواجهاتها لإسرائيل؟

أجل، لقد كانت مواجهة العرب لإسرائيل مواجهة بين آلهة وأنبياء العرب أو بين إله العرب ونبيهم وبين إسرائيل، إن العرب لا يواجهون أي شيء بأنفسهم بل بكل شعوب وقبائل وسلاح وقصائد وقيادات تراثهم.!

إن هوان وعجز وعار وافتضاح كل مواجهة لا بدّ أن يصغر ويغفر ويهون محاسباً بهوان وعجز وعار وافتضاح وبلادة وهزائم مواجهة إله العرب ونبيهم لإسرائيل... أليس كل العرب يرون ويعتقدون ويعلنون بكل الافتخار والمباهاة والكبرياء بأن كل مواجهاتهم لإسرائيل ليست بأية صيغة أو تفسير من صيغها وتفاسيرها إلّا مواجهة بين كل آلهتهم وأنبيائهم وأديانهم وعباداتهم وصلواتهم وقرآنهم بل وإنجيلهم ومكّتهم وكعبتهم ويثربهم ونجفهم وكربلائهم وبين إسرائيل.. إسرائيل، إسرائيل؟

إن من خصائص العرب أن كل مواجهاتهم مواجهات بأربابهم وأنبيائهم وبكل تراثهم.!

.. ويل التاريخ من إسرائيل.. ويله من إسرائيل مواجهة للعرب.. لآلهة وأنبياء وتاريخ وفروسيات وعبقريات وشاعريات العرب.. مفسّرة لمقابر وتوابيت وجثث العرب المدفون المخزون المقروء فيها كل وجودهم الذي كان والذي أيضاً لا بدّ أن يكون ويكون كما كان لا كما قيل وروى وزعم.. أليست كل صيغ وكينونات العرب الحاضرة والآتية مدفونة مخزونة مصورة مخططة في مقابر وجثث وتوابيت آبائهم؟

.. نعم، ويل التاريخ من إسرائيل. ويله.!

.. ولكن أليس ويله من العرب لا بدّ أن يكون أفجع وأدوم وأصعب وأقسى وأشمل بل وأصدق من ويله من إسرائيل.. من ويله من كل شيء؟ أليس ويل التاريخ من العرب مواجهين لإسرائيل لا بدّ أن ينسيه كل ويلاته الأخرى؟

أليس التاريخ كله ويلات، ويلات مهما اختلفت وتنوّعت الصيغ والأساليب واللغات والجنسيات؟ أليس كل ما يرى ويعلن أمجاداً ومسرات وانتصارات للتاريخ وفيه هي مهانات وأحزاناً وآلاماً وهزائم له وفيه بكل التفاسير والحسابات؟

.. أليس أقوى وأعظم وأشهر ما في التاريخ ومن في التاريخ هم أقوى وأعظم وأشهر وأتقى من يصنعون ويلاته.. أضخم وأكبر وأشهر ويلاته؟ هل يوجد أو يتصور مبصوق مدفون فيه كل الآلام والآثام والبلادات والمهانات والوقاحات بكل الأنساب والانتماءات والأساليب واللغات والديانات غير التاريخ؟

.. هل يستطيع كل الأبالسة متحالفين متآمرين مع كل الملائكة ليوقعوا بكل العرب كل المعاني الرديئة الدميمة بكل طاقاتهم وحماساتهم وتجاربهم ـ هل يستطيعون أن يفعلوا أو يبلغوا من ذلك شيئاً مما فعلته وبلغته مواجهاتهم أي مواجهات العرب لإسرائيل؟

لتمت كل الرؤى والعقول والتصوّرات والقراءات.. لتمت لئلا تقرأ أو ترى أو تعرف إله العرب يقاسي، يقاسي مواجهاته لإسرائيل.

ما أعظم ذنوب وقبح من ألقى بك يا إله العروبة إلى هذه المواجهة.!

.. كيف وجد من قبل أو صنع أية مواجهة بين أي شيء وشيء أو بين أي كائن وكائن أو بين أي إله وإله إن كان قد عرف أو قرأ أو رأى أو حتى تصور مواجهة العرب لإسرائيل أو مواجهة إسرائيل للعرب أي ولآلهتهم وأنبيائهم وعلمائهم وخبرائهم وشعرائهم وفقهائهم ولكل قبور خلفائهم وسلاطينهم وأبطالهم ومواجهين لها.!؟

أليس المفروض والمنتظر بل والواجب أن تتوقف وترفض كل المواجهات بين كل الأشياء والكائنات والكائنين بعد مواجهة العرب لإسرائيل أي حذراً من أن تجيء أي مواجهة شيئاً من تفاسير أو صيغ أو مستويات مواجهة العرب لإسرائيل.؟

هل يمكن أن يقال ويقبل ويصدق ويقنع أن الإله أي إله حتى الإله العربي الذي لن يكون أي مستوى من مستوياته إلّا عربياً، عربياً تفكيراً وعواطف وأخلاقاً ورؤى بل وعضلات..

قد قبل بقاءه وأصر على بقائه بحوافز وتفاسير لا مثيل لها في فدائها وتضحيتها.. لا مثيل لها في أي مستوى من مستوياتها.. في أي مستوى من كل المستويات المجربة والمفترضة؟

هل يستطيع أو يقبل أي إله أن يفعل هذا المستوى من الفداء والتضحية؟

هل قبلت وتقبل الآلهة وجودها وبقاءها ورضيت وترضى وجودها وبقاءها اللذين لا مثيل لهما في البؤس والفضح والعذاب والإحراج والترويع بلا أي ثمن أو جزاء أو تعويض أو عزاء أو حتى شكر رغبة في الفداء والتضحية والتزاماً بهما؟

هل يستطاع افتراض هذا الافتراض؟ هل يستحق أي إله أن يوهب هذا الافتراض؟

نعم، هل يمكن أن يوجد أي تفسير لوجود الآلهة وبقائها وسلوكها ولكل تصرفاتها غير أنها بلا مثيل في فدائها وتضحياتها وإن كان فداء وتضحيات بلا أي قدر من الذكاء أو المنطق أو العقل أو الحساب. بلا مثيل في فقدها لكل الذكاء والمنطق والحساب العاقل، أو أنها بلا مثيل في عدوانها على نفسها وعلى كل شيء وكل أحد وأن بلادتها بلا مثيل في إرادتها وتدبيرها وتخطيطها وصياغتها وإخراجها لهذا العدوان؟ إنه لن يوجد أي تفسير جيد لأي إله وإن اختلفت وتفاوتت مقادير الرداءة في كل تفاسيرها.

.. نعم، هل التفسير أن الآلهة قد قبلت ورضيت وجودها وبقاءها اللذين لا مثيل لهما في افتضاحهما وحزنهما وعارهما وقبحهما وعذابهما وتشوّهاتهما وخسرانهما ونذالتهما وفحشهما وعدوانهما ـ قد قبلت ورضيت ذلك بكل أساليبه لأنها نبيلة وصديقة ورحيمة وتقية، تقية..

.. لأنها تريد أن تدرب وتعلم كل الكائنات التي حبلت بها وولدتها شهواتها ونزواتها وآلامها وأخلاقها وضياعها وفراغها وجوعها الجنسي وجوعها الشامل الدائم.

ـ أن تدرب وتعلم كل هذه الكائنات وفي قمتها الإنسان وفي حضيضها وحضيض حضيضها كل الكائنات الأخرى حتى أحقر وأنذل الحشرات أي التي نراها ونعلنها كذلك بل وتعلنها لنا وتعلمنا إياها كذلك ألوهياتنا ونبواتنا وأدياننا وتقوانا ورحمتنا وحبنا وتواضعنا الديني والأخلاقي والإنساني والحضاري؟ هل سفه أو أذنب أو توحش أو فحش أو قبح أو اعتدى الإنسان هو وآلهته وأنبياؤه مثلما فعلوا في رؤيتهم وتفاسيرهم ومعاملاتهم وقراءاتهم وتصوّراتهم للكائنات الأخرى التي يسمونها حيوانات وحشرات وفي إعلانهم وأحاديثهم عنها؟ ماذا يمكن أن تقول المحاسبة لو حاسبوا أنفسهم بها، لو حاسبوا كل سلوكهم ونيّاتهم بنياتها وسلوكها؟

ـ نعم، لأنها تريد أن تعلّم وتدرّب وتروّض كل هذه الكائنات المهانة المحقّرة وكل شيء وكل أحد على أن يتقبل وجوده ويسعد به مهما كان قبحه وفضحه وهوانه وبلادته وسفاهته وحقارته وعذابه وعاره؟ هل يرضي الآلهة أو يسعدها أو يريحها أو يهبها المجد والعظمة أن يكون هذا هو التفسير

لتقبلها وجودها وبقاءها؟ ولكن لماذا تريد وتحاول أن تقنع الأشياء والكائنات بتقبّل وجودها وبقائها؟ هل يستطاع فهم هذا؟

ما الذي تجده في هذا الوجود وهذا البقاء لكي تعاقب نفسها من أجلهما؟

الآلهة بكل معاني ونيات وصيغ وتفاسير الفداء والتضحية والتعذيب والتحقير والتشويه للنفس تريد وجودها وبقاءها لأنها تريد أن تعلّم وتدرّب وتروّض كل شيء وكل أحد على تقبّل وجوده وبقائه. إنها أي الآلهة تعاقب وتعذب وتشوّه نفسها بوجودها وبقائها لأنها تريد وجود كل شيء.!

نعم، ولكن لماذا تريد لكل شيء وكل أحد أن يوجد ويبقى وأن يتقبّل ذلك ويتعامل به ومعه؟ هل هذا نوع من الغرام الساحر الفاتن القاهر المضل المذل الذي لا يمكن تفسيره أو فهمه؟.. هل يمكن أن يوجد أي تفسير لذلك؟

من سحب من كل العالم أو قتل فيه كل تفاسير ورؤى وحسابات وتساؤلات بل ونبضات وأنّات وصرخات الفكر والقلب والانفجاع والغضب والاشمئزاز والاستنكار؟

هل التفسير أن ذلك قد سحب من العالم أم أنه لم يتخلق فيه؟

.. ما أقسى التفكير والتحديق في منطق وحسابات من تقبل ويتقبل وجوده وبقاءه برضا وفرح وإعجاب أو حتى بغضب وحزن واشمئزاز.. ما أصعب فهم ذلك.!

أليس أقوى وأضخم الموجودات وجوداً هي أقساها وأضعفها وأقبحها وأبلدها وأخسرها وجوداً لهذا جاء وجود الآلهة وأعوانهم ومستشاريهم وموظفيهم الأقبح الأبلد الأخسر؟

هل يستطاع قبول تقبل الآلهة لوجودها وبقائها مهما قبل تقبّل كل شيء وكل أحد لوجوده وبقائه؟

وهل يمكن قبول تقبّل أي كائن لوجوده ثم لبقائه؟

لو أن كل الكائنات حتى أصغرها وأحقرها وأذلّها وأخسرها وأضعفها قد اقتنعت بكل منطق وتفاسير وحسابات ومزايا وأرباح وجودها وبقائها لكان مفروضاً بل ومحتوماً أن يوجد استثناء واحد، واحد هو الإله، هو كل إله..

لوجب أن يقتنع كل إله أنه لم يوجد ولن يوجد ولن يتصور أن يوجد أي ربح أو تفسير أو منطق أو مزية أو جمال أو قوة أو ضرورة أو أي معنى لوجوده وبقائه أو في وجوده أو بقائه بل أو أي عزاء أو إنقاذ أو حتى تسلية أو تلهية من أي نوع أو بأي أسلوب..!

.. لقد كانت كل الافتراضات تقول حتماً وحسماً إن أي إله مهما كانت ضخامة ووحشية وجنون أنانيته وقوته وطغيانه واستبداده وافتراسه واستمتاعه وسكره وخدره بذلك لن يستطيع ولن يستطاع أن يجد أو أن يوجد لوجوده وبقائه أو في وجوده وبقائه أي ربح أو مجد أو فرح أو سعادة أو قوة أو معنى أو تفسير.

حتى ولو وجد وفهم وعقل كل ذلك في وجود وبقاء كل شيء وكل أحد...

حتى ولو وجد وفهم وعقل وأرضى بل وأعجب كل ذلك في وجود وبقاء أصغر وأحقر وأقذر وأخسر الكائنات والحشرات التي أرادتها وخططتها وخلقتها الآلهة لتكون تمجيداً وتعظيماً وتضخيماً لمجدنا وعظمتنا وضخامتنا مقارنين بها مساكين لها..

آه. هل وجد أو يمكن أن يوجد أي كائن مهما كان هوانه وخسرانه وعذابه وهزائمه وفضائحه أو أن يبقى لو كانت أو حتى خاف أو توقع أن تكون هزائمه وفضائحه وعذابه وهوانه وخسرانه شيئاً مما يقاسيه الإله أي إله من ذلك بلا أي ثمن أو تعويض أو تكفير حتى ولو معنوياً نفسياً أو أخلاقياً أو دينياً.. حتى ولو تأميلاً أو وعوداً أو انتظاراً خائباً، خائباً..!

إنها لو استحقت كل الكائنات.. الحشرات وما هي أضعف وأصغر وأهون وأشقى من الحشرات - لو استحقت كل التهنئات على أرباحها وفوائدها وأمجادها وأفراحها وسعاداتها وانتصاراتها لوجودها وبقائها وفي وجودها وبقائها لما استحق الإله.. كل إله وأي إله وأعظم إله إلّا كل التعزية والرثاء والإشفاق والبكاء والأسى له وعليه ومن أجله لما يصنع له وجوده وبقاؤه مما يجعله مستحقاً لكل ذلك.. مستحقاً له بأساليب وتفاسير لا يمكن أن يستحق بها أي كائن مثلما يستحق بها الإله كل إله وأي إله وأعظم إله..!

إنه لو وجدت أو أقيمت أو عرضت أو أعلنت أية منافسة أو مبارزة أو محاسبة أو مقارنة كونية أو دولية عالمية أو محلية بين ما ندعوها ونراها ونعلنها ونعلمها أصغر وأحقر الكائنات وبين أضخم وأعظم وأقوى وأجمل وأنبل وأتقى إله أي ما ندعوه ونراه ونعلنه ونعلمه كذلك. أي في مزايا وأرباح وجمال وأفراح وسعادة كل منهما في وجوده وبقائه ومن وجوده وبقائه لكان حتماً أن يكون الإله وكل إله مهزوماً خاسراً مقهوراً بائساً في هذه المحاسبة والمبارزة والمقارنة..!

إنه لن يوجد أو يتصوّر أو ينتظر أي شيء معقول أو مقبول أو مغفور إلّا مشروطاً بألا يحاكم أو يفسّر أو يقرأ أو يحاسب بأي قدر من العدل أو الذكاء أو المنطق أو الأخلاق أو الوقار أو الصداقة أو المحبة أو حتى بشيء من الاستحياء أو الإيمان أو التقوى.. إن أي إله لن يجيء أو يقبل أو يفهم أو يغفر إلّا بشرط محتوم هو أن يكون خارجاً على كل صيغ ومعاني الإله المزعومة والمفروضة والمقبولة بل بشرط أن يكون معادياً ومقاوماً لاعناً مدمّراً لكل هذه الصيغ والمعاني أي المزعومة المروية المدرّسة المنزّلة المعلّمة بأنها كل أشواق وتمنيات وكرامة ومجد وتقوى وجمال كل إله.!

إن أي إله لن يكون إلهاً أو يقبل إلهاً إلّا بقدر ما يكون عدواناً على كل قيم ومعاني وتفاسير وأخلاق الإله المعلّمة المنزّلة على كل الأنبياء والنبوات والكتب المقدسة بل إلّا بقدر ما يكون خروجاً بذيئاً وقحاً على كل ذلك..!

.. هل اشترط من الخروج على كل المعاني والصيغ والذكاء والأخلاق الجميلة الذكية الكريمة أن تكون خروجاً على كل ذلك بل ومعادية ومحاربة له مثلما اشترط ذلك على الآلهة، على كل الآلهة بل وأن تكون أقسى وأقوى وأشمل وأدوم وأطغى وأسفه رافض ومعاقب ومشوّه وهازم مذل شاتم مهين بل ومحقّر، محقّر لها أي لكل القيم والمعاني والتفاسير والأخلاق الممجدة في كل التعاليم والأديان؟

.. إنه لسؤال صعب أن يطلقه اللسان أو أن تستمع إليه الآذان أو أن يكتبه القلم، وأن تصوغه الحروف أو أن يستقبله الورق أو أن تقرأه العيون أو تراه أو تفسّره أو تفهمه أو تقبله أو تعقله أو تغفره العقول أو القلوب أو الأخلاق أو الضمائر أو حتى الأديان والمذاهب.! إنه سؤال قاهر فاضح مذل معجز لكل شيء، لكل سؤال وجواب ومنطق وفهم لأي تفسير جيد، لأي شيء يحسب جيداً.. إنه السؤال المطبوع المحفور المنحوت المرئي المقروء المتربّع المستوي الواقف الصاعد فوق كل الوجوه والعيون والجلود والذوات والثياب والرؤى والآفاق والاتجاهات.. والصارخ، الصارخ بكل الأصوات واللغات واللعنات والبذاءات والتشوّهات والتحديات والإهانات والهجائيات.. إنه السؤال الذي هو كل ذلك وأكثر وأقسى وأفجع من كل ذلك ولكن دون أن يسأله أو يسمعه أو يقرأه أو يراه أو يتصوّره أو يراع أو يفجع أو يمرض أو يموت به أحد، كأن القضية أن السؤال بقدر ما يكون قوياً وصادقاً وحاراً وظاهراً يعجز عن الظهور والنطق.. إن هذا السؤال أي بعض هذا السؤال يقول: من هذا الكائن ومن أين جاء وكيف أمكن أن يجيء وتقبل أن يجيء..! هذا الكائن الذي أراد وقدّر وجرؤ وقبل ورضي وأذن وغفر لعقله أو لأخلاقه أو لاستحيائه أو لكرامته أو لشهامته أو لنظافته أو لرحمته أو لجماله أو لأي معنى من معانيه: أن يريد ويخطط ويصوغ ويخرج ذات هذا الإله ليكون ويقاسي ويواجه كل ما حدث وما هو حادث.. أن يهب هذا الإله كل معانيه وصيغه وتفاسيره ورؤاه وأحاسيسه وأخلاقه وشهاماته ونخواته وقدراته وكراماته أو أن يرضاها أو يقبلها له أو حتى بعضها، بعضها! من خالق وواهب هذا المريد الفاعل نذالاته ودماماته ووحشياته وجهالاته؟ من الذي أراد واستطاع أن يجعله كذلك أي يجعل الإله.. أن يصوغ ذاته ويقبل أن تكون ذاته كما كانت أو كما صيغت أو كما صاغها لتقاسي وتواجه وتتحمّل كل عذابها وهمومها وورطاتها وهزائمها وضعفها وهوانها وضياعها ووحدتها.. هل فعل هذا الكائن بالإله ذلك نذالة أم عجزاً أم بلادة أم عدوانية بلا شبيه أو مثيل؟ ولكن كيف استطاع وعرف أن يملك كل هذه القدرة اللئيمة والأليمة البليدة التي جعلته يستطيع أن يفعل ذلك؟

كم هو فاجع وفادح ومذل مخز أن البشر لم يعرفوا أنه لم يصب بكل صيغ ومعاني التشويه والتعذيب مثل ذات الإله وأنه لم يتصور أو يبتكر أو يعشق أو يصنع أو يرد أو يستطع أو يخطط كل صيغ ومعاني التشويه مثل من صاغوا ذات الإله أو تصوّروها أو أرادوها أو قبلوها أو غفروها أو رضوها أو فسّروها وعلموها وأنزلوا الأديان والنبوات والكتب المقدسة الخالدة لتلقينها وتعليمها وتحفيظها.!

لقد كان المفروض بل والمعقول أي لو وجد هذا المعقول أن تعجز كل عبقريات البشر وكل ذكائهم بل وكل جهالاتهم وبداواتهم وبلاداتهم أن تصنع أو تريد أو تقبل أو تعقل أو حتى تتصوّر أو تتمنى أو تفهم أو تغفر ذات الإله أو صيغه أو تفاسيره أو أخلاقه أو نماذجه أو فنونه أو منطقه أو تصوّره أو حتى عذابه وهزائمه وحرمانه وضياعه وأحزانه الزاحمة المشوّهة المعيّرة الفاجعة السابّة المهينة لكل الرؤى والعقول والضمائر والحسابات والأخلاق والتمنيات بل وللتقوى.

كيف استطاع أن يفهم أو يقبل بل أو يتقبّل أو يتصوّر أي كائن: إن كائناً ما قد يصغر أو يهون

أو يقبح أو ينذل أو يتشوّه ويتوحش أو يجهل أو يتلوّث أو يسقط كل صيغ السقوط ومعانيه وإراداته وفنونه وعبقرياته لكي يستطيع أو يجرؤ أو يقبل أن يهب هذا الإله كل صيغه الذاتية أو الفنية أو الأخلاقية أو الإبداعية أو المنطقية التي يريد ويخطط ويصوغ ويخرج ويواجه ويفسّر ويعامل ويرى ويقرأ بها ذاته وحياته ووجوده وكل شيء.. لكي يستطيع أن يفعل ويرضى كل ذلك كما جاء راضياً فاعلاً له؟

كيف قبح وهان وتوحش ونذل أي هذا الكائن المفترض لكي يستطيع ويجرؤ أن يصنع هذا الإله كما صنعه وأن يريده ويتصوّره ويخططه ويصوغه ويخرجه بل أو أن يراه ويقرأه ويفسّره كما جاء.. كما تراه وتقرؤه وتواجهه وتقاسيه وتفسّره وتفجع وتروع وتحزن وتتعذب وتهان وتصغر به وله ومن أجله وفيه كل الآلام والعاهات والتشوّهات والتفاهات والأخطاء والخطايا والكينونات بل والاحتمالات وكل الكائنات، بل وتعاني كل الخجل والعار والاشمئزاز والغثيان به وله ومن أجله؟ كيف وجد من يستطيع أو يقبل أن يكون موجد هذا الإله أو الرائي لعذابه أو لهمومه أو لهزائمه وعجزه وضعفه وحيرته وضياعه ولأخطائه وخطاياه؟

.. وكيف تقبل هذا الإله أن يجيء أو يصاغ كما جاء وكما جاءت صيغه؟ كيف استطاع أي عقل أو خلق أو منطق أو حساب أو فن أو إيمان أو تديّن أو نبل أو جمال أن يفهم أو يفسّر أو يتصوّر أو يتقبّل ذلك أو حتى أن يغفره؟

إنه لم يوجد ولن يوجد قبح أو بلادة أو مهانة أو وحشية تصور وتقبل مثل قبح وبلادة ومهانة ووحشية تصور وتقبل هذا الإله.!

إذن كيف يمكن بل ويجب أن يكون الرأي والرؤية لمن جاؤوا ليعلنوه أي يعلنوا هذا الإله ويعلموه ويلقّنوه ويفسّروه وينزلوا الكتب والنبوات والأديان في تعليمه وتلقينه وتفسيره وفي الإعلان عنه والتشهير به وفي صياغة وإنزال وتعديد وتنويع اللعنات والتهديدات لكل من لم يروه ويعتقدوه ويعلنوه ويفسّروه كذلك؟ إنها لقضية لا بدّ أو يجب أن تصنع كل الحيرة والانفجاع والاستحياء والغضب..!

❀ ❀ ❀

أجل، إني بكل الفرح والرضا والسعادة أريد أن أقول وأقول وأن أحول أقوالي إلى أناشيد وترانيم وصلوات بل إلى أتقى وأصدق وأحر وأعظم إيماناً وتديّناً من كل ذلك.! هل توجد حياة بلا صلوات وأناشيد وترانيم؟

أليست أصوات الحشرات وكل الكائنات الأخرى هي أصدق الصلوات والترانيم والأناشيد؟

أليس كل شيء هو أتقى وأقوى وأصدق وأحرّ وأعظم تديّناً وإيماناً من كل الترانيم والأناشيد والصلوات والمناجاة والصرخات الدينية التي تطلقها حناجر ومنابر ومحاريب ونبوات وصلوات كل القادمين من السماء المتحدثين عنها الصارخين باسمها.. المتوعّدين الواعدين بأهوالها وبحبها وجمالها؟

هل يوجد أكذب أو أخدع أو أبلد من أصوات القادمين من السماء؟

أليست دموع وأنّات وآهات وصرخات واحتجاجات بل ولعنات وبذاءات وأحزان كل الأطفال والشيوخ والمرضى والمقهورين والمصابين والمحزونين وكل المعذبين والمظلومين والمهانين والشاكين بلا مشكو إليه.. الداعين بلا مستجيب.. المنتظرين بلا حضور أو انتظار أو احتمال حضور أصدق وأتقى وأقوى وأحر وأنبل وأعظم إيماناً وتديّناً من صلوات وترانيم وأناشيد كل الألوهيات والنبوات والديانات والكتب المنزلة؟ أليس كل شيء هو أصدق وأتقى وأقوى وأحر وأنبل وأعظم إيماناً وتديناً من كل ذلك أي من كل صلوات وأناشيد وترانيم كل الألوهيات والنبوات والديانات؟

.. إن أية أنّة أو آهة أو صرخة أو شكوى أو لعنة يطلقها أي طفل أو شيخ أو أي إنسان أو أي كائن، تعبيراً عن أي مرض أو ضعف أو خوف أو ظلم أو قبح أو أي عذاب أو هوان أو اضطهاد يقاسيه أو يتوقعه أو يراه أو يقرؤه أو يسمعه أو يروى أو يفسّر له، لتخاطب وتحاور وتعاقب وتسمع وتعلم وتعنف وتلعن وتهين وتفجع وتخجل الإله وتصلي وتهتف له وتمجده صلاة وهتافاً وتمجيداً مضاداً، مضاداً ـ نعم، إن كل ذلك بكل أساليبه لأكثر وأقوى وأتقى وأقسى وأصدق وأنبل وأعظم إيماناً وتديّناً مما تفعل أو مما تستطيع أن تفعل جميع صلوات وترنيمات وإنشادات وهتافات ولعنات وتعاليم وتقوى وصدق جميع الأنبياء والأتقياء والقديسين والمؤمنين في جميع العصور.. مرسلين من كل الآلهة.. معلمين لكل الآلهة متحدثين عن كل الآلهة.. مخاطبين مناجين لكل الآلهة..!

ـ نعم، إن ذلك لكذلك أو إنه الذي يجب وينتظر ويفترض أن يكون كذلك..!

إن أية أنّة أو آهة أو صرخة أو لعنة من هذه الأنات والآهات والصرخات واللعنات لتهزم وتذل وتهين وتكذب وتفضح كل النبوات والألوهيات والديانات والصلوات، بل إنها لتسخر من كل ذلك وتهزأ به بل وتلعنه، تلعنه.!

هذا طفل مشوّه مصاب يئن ويبكي وهذا نبي يهتف ويصلي لإلهه الذي أصاب الطفل.. أيهما أقوى صلاة وهتافاً وأصدق؟ وأيهما يجب أن يستمع إليه الإله أكثر؟

.. أجل، إني أريد أن أقول وأظل أقول لأني أسعد وأتعزى وأتداوى بأن أفعل وأظل أفعل ذلك، أفعله.!

ولكن المشكلة أنك تعلم هذا الذي أريد قوله لك.!

إن علمك هذا إذن لا بدّ أن يحرمني أو أن يحاول حرماني من هذه السعادة ومن هذا التعزي والتداوي والفرح.!

أليس عذاباً وهواناً أن نريد ولا نفعل إما لأننا عاجزون أو لأننا خائفون؟ إذن أليس كل المريدين معذبين ومهانين؟ إذن أليس كل الموجودين معذبين ومهانين لأنهم جميعاً أحياناً أو كل الأحيان مريدون ما لا يفعلون إما عجزاً أو خوفاً أو عجزاً وخوفاً، مريدين ما لا يكون؟

إذن أليست الآلهة كل الآلهة هي أقسى وأشمل وأكثر من وجدوا أو من قد يوجدون عذاباً

وهواناً لأنه لا مثيل ولا شبيه لها في إرادتها ما لا تفعل وما لا يفعل وما لن تفعل أو يفعل؟ إن إرادات جميع المريدين لا تساوي إرادات إله واحد من نوع إلهنا وإن حرمان جميع المحرومين من إراداتهم.. مما يريدون لا يساوي حرمان إله واحد من هذه الآلهة.!

أليس هذا يعني حتماً أن عذاب وهوان كل المعذبين والمهانين لن يساويا عذاب وهوان إلهنا أو أي إله من طرازه؟

أما فضائح وورطات الإله فيكفي فجيعة أن هذا الوجود شيء منها.!

.. إذن ما الحل أو العلاج لإنقاذي وشفائي من هذا الحرمان؟

وهل يمكن أو يستطاع أو يتصور إنقاذ أو شفاء لمن وجدوا من ذلك؟

.. هل وجد أو هل يمكن أن يوجد منقذون أو معالجون لمن وجد من حرمانه أو عذابه أو هوانه أو من عجزه عن أن يكون أو يفعل أو يفعل ما يريد ويقول وينتظر ويتمنى ويلقن ويعلم؟ ما أقسى وأنذل وأكذب العلاقات بين الإرادة والواقع.. حتى للإله.. حتى لكل الآلهة التي وجدت هل وجد أو هل يمكن أن يوجد منقذون ومعالجون أو حتى معزون لها من حرمانها وعذابها وهوانها وعجزها..

من عجزها عن أن يكون ما تريد وما تطالب به وعما تعلمه وتمتدحه وتقوله وتنزل وتبعث ونكتب وتؤلف وتنشد النبوات والأنبياء والقصائد والكتب والأديان لكي يكون؟

إنه لن يوجد أو يتصوّر مستحقون للرثاء والعزاء بل وللبكاء لقسوة وشمول وديمومة وعذاب حرمانهم مما يريدون ويطلبون ويعلمون ويشتهون مثل الإله.. مثل كل الآلهة التي جاءت وصيغت على نموذج إلهنا..!

.. التي غزلت ونسجت وحيكت وخيطت من ثياب أخلاق وعقل وضمير وقلب وقدرات وشهوات وتمنيات وتصورات وأنانيات وطفوليات الإله.. إلهنا الذي لقن وقرىء وفسّر وعلم ووصف لنا. إن أقسى وأشمل المحرومين حرماناً مما يريدون لا بدّ أن يرثوا ويحزنوا للآلهة لو حاسبوا حرمانها بحرمانهم أعني الآلهة التي جاءت على نموذج إلهنا.!

❀ ❀ ❀

هل وجد أو هل ينتظر أن يوجد منقذون أو معالجون لمن وجدوا أو لمن هم موجودون أو لمن لا يزالون موجودين؟

هل يستطاع ولو تصوراً أو دعاية أن يعالج أو ينقذ الموجود مهما كانت ضخامة وعظمة وقوة وجوده بل مهما كانت ضخامة وقوة وعظمة ألوهيته.

ـ أي أن ينقذ أو يعالج من عذابه وهوانه وعاره وهزائمه وفضائحه بذاته لقسوة وقبح ونذالة

العلاقات بين ما تريد وتتمنى وتجد.. بينها متمنية مريدة وواجدة كائنة قادرة فاعلة.. أليس المنقذون المعالجون أو المفترضون المزعومون كذلك هم الذين يصنعون ويدبّرون ويريدون ما يراد ويطلب العلاج والشفاء منه؟

أليس الآلهة والأنبياء والقادة والزعماء والأمهات والآباء هم الذين يرجون وينتظرون ويطالبون بالإنقاذ والعلاج مع أنهم هم كل من يصنعون ما يراد ويطلب العلاج والإنقاذ منه؟ هل كان يمكن أن يوجد أو حتى يتصور من يحتاج إلى إنقاذ أو علاج لولا وجود الآلهة الخالقة ووجود الأنبياء والزعماء والآباء والأمهات.

.. هل يستطاع الإنقاذ أو العلاج مع وجود الذات؟

أليس الإنقاذ والعلاج من وجود الذات هو كل الإنقاذ والعلاج مما يراد ويطلب العلاج والإنقاذ منه بلا أي بديل؟

لهذا لم يستطع الإله ولا أي إله أن يظفر بالعلاج أو الإنقاذ من أي شيء أليم أو كريه أو بغيض أو قبيح أو ذليل مع وجود ذاته أي مع وجوده بدون ذهابه الذهاب المطلق؟

لا علاج ولا إنقاذ لأي إله من عذابه وهوانه وحيرته وتعاسته وغيظه وغضبه إلّا بذهابه الذهاب المطلق.! هل يوجد من يخالف؟

لهذا أليس الآباء والأمهات هم كل هؤلاء، هم كل الأعداء أي الأعداء الأبرياء نية.. المذنبين فعلاً وسلوكاً..

هم كل الذين خلقوا كل الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة والأبطال وجاؤوا بهم إلينا بخلقهم لنا؟

حتى الآلهة أليس الآباء والأمهات هم الذين خلقوهم؟

هل كان يمكن أن يتخلّق أو أن يجيء واحد من هؤلاء إلينا أو إلى غيرنا أو إلى أي كائن أو مكان لولا الآباء والأمهات؟ حتى الشيطان لولا الآباء والأمهات هل يمكن أن يخلق أو يصبح شيطاناً؟

.. أيها الآباء والأمهات، أنتم كل الأعداء والعذاب والقبح والألم والحزن والبلادة والضياع والأمراض والهزائم والموت والنذالات والفضائح لنا ولكل شيء مع أنكم كل النقيض لكل ذلك فيما تريدون وتحاولون وتقولون، بل وفي كل ما يقال ويعتقد ويعلم بل ويرى..!

أيتها الأمهات والآباء.. أنتم كل الظالمين وكل المظلومين.. أنتم كل المعذبين والمتعذبين.. كل الأبرياء والمتهمين.. كل الأصدقاء وكل الأعداء.. الأعداء المقاومين لكل الأعداء.. أنتم كل الأعداء المزعومين كل الأصدقاء وأعظم الأصدقاء والمريدين أن يكونوا كل الأصدقاء وأعظم الأصدقاء والمعتقدين أنهم كل هؤلاء..!

أنتم كل الأعداء الذين هم كل الأصدقاء والمحبين والفادين في كل التفاسير والتعاليم والنيات والمواقف والعواطف.!

أنتم أيها الآباء والأمهات كل من خلقوا هذا الوجود لأنكم كل من خلقونا، إنكم لستم فقط خالقي الآلهة والأنبياء والزعماء والقادة بل أنتم أيضاً خالقو كل هذا الوجود..!

وهل يخلق هذا الوجود أو نرى أنه قد خلق لولا خلقكم لنا، إذن ألستم بخلقكم لنا خالقي كل هذا الوجود؟

أنتم أيها الآباء والأمهات خالقو كل نقائصنا ونقائص كل شيء وكل وجود..!

.. هل هناك ظالم أو معذب أو مروع أو مهين أو فاجع أو فاضح أو مذل لنا مثل بل غير من خلق لنا هذا الوجود وخلقنا فيه؟ هل فعل بنا ذلك غير آبائنا وأمهاتنا؟

إذن أيها الآباء والأمهات هل ترون أن نشكركم ونجزيكم أم أن نحاسبكم ونعاقبكم؟

أليس محتملاً بل منطقياً وعدلاً بل وواقعاً أن من يستحقون الجزاء والشكر والثناء والإعجاب أو من يبدو ويعتقد أنهم يستحقون كل ذلك هم أحق من يستحقون نقيض ذلك؟ أليس الآلهة الخالقون هم النموذج الأقسى والأفجع في هذه القضية؟

.. هنا سؤال قاتل، قاتل دون أن يسأله أي سائل؟

وهل وجد أو يمكن أن يوجد من يسألون أو من يقبلون أن يسألوا الأسئلة القاتلة أو من يسألونها أو عنها وعن الجواب عنها؟ أليست الأسئلة الصحيحة القوية التي يجب أن تسأل وتكون لها أجوبة تخيف وترهب؟

يقول هذا السؤال أو بعض ما يقول: لماذا لا يوجد ولم يوجد وكيف لم يوجد ولا يوجد إله آخر مناقض أو منافس أو مصحح أو مصلح أو معلم أو مكمل أو محاسب أو معاقب أو حتى معاتب للإله القديم الشيخ البدوي الأمي الجاهلي الضعيف العاجز الذي لم يستطع أن يحكم أو يصنع كونه بأي قدر من النظام.. الذي عرفناه وجربناه وقاسيناه ولعناه وكرهناه وهجرناه.

ـ نعم، لماذا لم يوجد ولا يوجد هذا الإله لكي يكون تكفيراً وتعويضاً واعتذاراً عن الإله القديم الذي عرفناه وجربناه وقاسيناه، وستراً عليه وتخطياً لعصره وعهده وتوبة من نقائصه وذنوبه ونسخاً وإنساء لها وله بل واستغفاراً من أخطائه وخطاياه؟

لماذا كل شيء يتغير ويتبدّل ويتعاقب ويتصاعد ويتطور ويذهب.. يسقط أو يموت ليجيء غيره.. ليجيء أعظم وأقوى وأتقى وأعلم وأنبل منه؟

ـ نعم، لماذا كل شيء يحدث له ذلك ويفعل ذلك إلّا الإله.. الإله؟ أليس المنطق الذي أوجد هذا الإله أو أي إله يجب أن يكون منطقاً لإيجاد أي إله وكل إله؟

أليس الإله وكل إله هو أكثر احتياجاً إلى ذلك من كل شيء وكل أحد؟ هل يمكن تصور محتاج إلى أن يكون أفضل وأنبل وأتقى وأقوى وأعلم وأصدق مما كان مثل الإله.. مثل كل إله؟

.. شيء لا يستطاع فهمه أو تفسيره ولن يقبل فهمه أو تفسيره ألّا يوجد وألا ينتظر أن يوجد إله آخر.

.. إله حضاري أو ثوري أو مذهبي أو عقلاني أو إنساني أو إصلاحي أو تصحيحي ولو بالأساليب والمستويات والتفاسير الثورية العربية..

.. ألا يوجد وألا ينتظر أو يرجى أو يطالب أن يوجد مثل هذا الإله ليتخطى بنا أو لينقذنا أو ليقول لنا ويوهمنا أنه سوف ينقذنا من إلهنا القديم البدوي الرجعي الأمي العدواني الاستبدادي الأناني العنيف، العنيف المتجمعة بل المتخلقة كل أعراض ولغات وتعبيرات كل الأمراض العصبية والنفسية والجسدية فيه.. في كل صيغه وأخلاقه وسلوكه ومعانيه.. لينقذنا من كل ما فعل بنا ولنا.. من كل ما فعل وما سوف يفعل..

.. لينقذنا من إلهنا الذي كان والذي هو كائن، الذي لا نتعذب أو نفجع أو نخطىء أو نذنب أو نذل أو نهون أو حتى نكفر به إلّا لأنه هكذا فعلنا وفعل بنا.. لأنه يسعد ويفرح ويرضى عن نفسه ويعجب بنا في أن نكون كل ذلك.. لأنه هكذا أرادنا وخطّطنا وصاغنا وعلّمنا وألهمنا وقادنا وحرّضنا بكل أساليب وطاقات التحريض.! حتى الزعامات والقيادات والنبوات العربية أصيبت بالثوريات المذهبية أو الإصلاحية أو التصحيحية أو العقلانية أو الحضارية أو العلمية بل أو الدينية.

ـ أصيبت ولا بدّ أن تظل تصاب بكل ذلك ولو مزاعم وشعارات وادعاءات وقراءات وخطابات ومخاصمات وملاعنات، كم يجب أن أعتذر إلى كل الثورات والثوار حين أسمي ثورات وثوار العرب ثورات وثواراً.!

إذن كيف عجز الإله.. الإله المطلق أو الإله العربي وحده عما لم تعجز ولن تعجز عنه ولا عن أي شيء منه الزعامات والقيادات والنبوات والفلسفات والشاعريات العربية؟

هل يمكن أن يوجد عجز يساوي عجز من عجز عما لم تُعجز ولن تعجز عنه الطاقات والمواهب العربية المتحوّلة لضخامتها وقدرتها بل وعبقريتها إلى زعامات وقيادات ونبوات كونية عالمية أبدية نهائية؟

هل كان ذلك عجزاً أم رفضاً أي هل عجز الإله عما لم تعجز عنه المواهب والطاقات العربية أم رفضه، أي هل عجز الإله عن أن يكون ثورياً أم رفض لأنه قرأ الثورات العربية وقرأ وفسّر وعامل الثوار العرب ففجع، فجع؟

.. نعم، لماذا لم يوجد ولا ينتظر أن يوجد غير هذا الإله المتفرّد المتجمّد المتبلّد في صيغته الواحدة المتجمّدة ـ غير هذا الإله الذي لا يتغير أو يتبدّل بكائن أو بإله آخر ليكون بديلاً عنه لا تكراراً له أو بكينونات وصيغ أخرى أقوى وأذكى وأنقى.. ـ غير هذا الإله الذي لا يخلق أو يلد إلهاً أو كائناً آخر ليكون بديلاً وخليفة عنه أو ليكون قدرة ومثلاً له أو ليكون معالجاً ومهذباً ومعلماً بل ومؤدّباً له..

أو ليكون شيخه وأستاذه ونبيّه ووالده المعلم المهذب الموجه.

ـ ليحوّله إلى كائن أفضل.. أعلم وأرحم وأكرم وأحكم وأنبل وأقوى وأذكى وأصدق وأكثر حرية وديمقراطية ورؤية وتواضعاً ووفاءً وصدقاً وجمالاً وحباً واستحياءً؟

لماذا الإله وحده حرم من التطور الصاعد ومن التوالد المتطوّر؟

.. ما أشد احتياج الكون وكل شيء إلى إله جديد ليعالجه وينقذه ويحرره من الإله القديم.. من كل ما فعله وأوقعه به وأراده له إلهه القديم.!

.. بل ما أشد احتياج الإله القديم إلى إله جديد لكي ينقذه من أخطائه وخطاياه وورطاته وضعفه وهزائمه وفضائحه بل ومن وظائفه ومسؤولياته.. لكي يسقطه من فوق عرشه وينفيه من نفسه.. من ذاته.!

هل وجد أو يمكن أن يوجد من يحتاج إلى أن ينقذ من نفسه مثل الإله، مثل كل إله.. أن يطرد من ذاته ومن كل كينوناته ومن كل شيء..!

ما أقسى وأقبح وأردأ هذا أي أن يكون ويظل الإله واحداً، واحداً وصيغة ورؤية واحدة، واحدة وطوراً واحداً، واحداً، وولادة واحدة، واحدة أبداً، أبداً..

ما أفجع وأردأ وأخسر ألّا تتوالد الآلهة أي ألّا تكون أطواراً متصاعدة متجددة.!

هل وجد كائن هو أبداً المولود والرضيع والطفل والغلام والشاب والكهل والشيخ والهرم أي هو هذا الطور الواحد غير الإله، غير هذا الإله؟

هل يمكن تصوّر ما يساوي هذا في قبحه وبلادته ورداءته وعقمه وفي خروجه على كل القوانين والكينونات.!؟

.. ما أفجع وأقبح وأردأ أن يكون الإله أو أن يكون مريد ومخطط وصانع هذا الكون وكل شيء واحداً أبداً، أبداً بلا أي تغيير أو تبديل أو تطور أو تصاعد أو تراجع أو تصحيح أو إصلاح أو تجديد لا في ذاته ولا في صيغه أو كينوناته أو أطواره أو أخلاقه أو رؤاه أو علومه أو ثقافته أو تفكيره أو أعوانه وموظفيه ومستشاريه أو حتى في مذاهبه وأديانه وتقواه وصحته وقوته وغدده وخلاياه وأعصابه؟ حتى أعصابه وغدده وخلاياه..

هل يوجد من يجب عليه أن يغير ويبدّل أبداً أجهزته الصحية والعصبية والنفسية ودينه ومذهبه وسلوكه مثل الإله؟

❀ ❀ ❀

.. قبيح فظيع بليد مهين جداً أن يكون الطبيب المداوي أو المطالب بذلك والمرجو منه ذلك هو المريد والمخطط والفاعل لما يراد العلاج منه ولما يشكى إليه منه.. أن يكون هو المصيب بكل ما يطلب أن يداوي ويشفي وينقذ ويحمي منه...

.. أن يكون الطبيب هو عاشق وراسم وفنان ومبدع المرض الذي يراد ويطلب ويرجى أن يشفي منه بل وأن يكون دافع تكاليفه أي تكاليف هذا المرض وتكاليف موظفيه ووظائفه ودافع ثمنه..!

أن يكون خالق جراثيم المرض هو المطالب بصنع التلقيح والأدوية ضدها..

.. أن يكون الواهب المتفضّل المنعم هو السالب السارق.

.. أن يكون صانع وواهب الجمال والشباب والقوة هو المدمر المعادي لذلك السارق له.

.. أن يكون الموجد هو المفقد المفني..

.. أن يكون الخالق هو القاتل والباني هو الهادم..

.. أن يكون المذنب المجرم الخاطيء المريد الصانع لكل الخطايا هو القاضي المحاكم المعاقب.. هو كل التشريع والحكم والتنفيذ...

أن يكون القاتل الظالم المعتدي المشوّه هو المشرّع ومنزّل الأديان والنبوات والتعاليم لمنع ومحاسبة ومعاقبة ذلك ومن يفعلونه أو يصمتون عن مقاومته ومعاقبته..

.. أن يكون واهب الحياة والشباب والحب والفرح والسعادة والمجد والرؤية والذكاء والعظمة والصفاء والتقوى بل والإيمان به.. والداعي إلى كل ذلك والمرسل المنزل كل أنبيائه ودعاته وتعاليمه وكتبه المنزلة لكي يكون ذلك.. لكي يحيا ويسعد ويستمتع كل كائن بذلك.

ـ أن يكون هو السالب السارق المحارب القاتل لكل ذلك بل والرافض المعادي لكل ذلك بكل الأساليب..

.. أن يكون كل المستغاث به هو كل المستغاث منه...

.. أن يكون المغرق هو كل المرجوين للإنقاذ والحماية من كل غرق.!

.. أن يكون الرب الضارب الفاعل المذنب المخطيء الموقع بكل الآلام والتشوّهات والقباحات والوقاحات هو الرب المطالب بالإنقاذ والحماية من كل ذلك، بل والمستغفر المعتذر إليه من كل ذلك أي من كل ما أراد وأحب ودبّر وفعل.. أن يكون مريد وعاشق ومخطط وفاعل كل الذنوب والخطايا والأخطاء هو الذي يعتذر ويتاب إليه من ذلك.

.. هل وجد من يحاسب أو يعاقب على ما أراد وأحب وفعل هو غير هذا الكائن المسمى والمزعوم رباً!؟

أليس هذا الكائن يعاقب ابتكاره وصنعته على ما أراد وصنع بهما من ضعف وأخطاء وعيوب؟

هل يوجد أو حتى يمكن أن يتصوّر عار أو افتضاح أو قبح مثل عار وقبح وافتضاح هذا الكائن أي المزعوم والمسمى إلهاً ورباً؟

أو هل يوجد مشوّه ومظلوم ومعتدى مفترى عليه بل ومسبوب محقّر متهم مثل هذا الكائن المزعوم رباً وإلهاً؟

إذن كم يجب الرثاء والأسى لهذا الكائن..

.. لعقله وقلبه ورؤاه وحساباته بل ولعضلاته ولكل صيغه وكينوناته وتاريخه وتفاسيره وحظوظه.

.. لكل بداياته ونهاياته.. لولادته وطفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته.. لكل وجوده أين وجد وكيف وجد ومهما وجد..!؟ هل يمكن تصوّر أتعس أو أشقى أو أصغر من ولادة وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة هذا الكائن المسمى المزعوم إلهاً ورباً؟

.. ما أقسى وأفجع أن يكون هذا الأقسى الأفجع هو كل ما يحدث وكل ما ينتظر أن يحدث.؟!

.. أن يكون أقسى وأفجع الأقسى الأفجع وكل الأقسى والأفجع هو كل ما يحدث وكل ما ينتظر أن يحدث؟

.. ما أقسى وأفجع وأقبح أن يكون الإله الذي وجد هو كل الآلهة التي قد توجد ويرجى أن توجد وينتظر أن توجد أي ألا يوجد أي أمل بأن يوجد أي إله أفضل أو أنبل أو أقوى أو أتقى من الآلهة التي وجدت.!!

.. ما أقسى وأفجع وأفظع وأردأ ألا يوجد أو ألا ينتظر وجود إله آخر.. آخر بكل صيغه ومعانيه وتفاسيره وأخلاقه وأفكاره وحساباته وطاقاته وعضلاته وحضاراته بل وفي مذاهبه وتعاليمه ونبواته وأديانه.. حتى ولا في أديانه أو نبواته..!

.. أن يكون من أرادني وخططني وخلقني وصاغني كما جئت ووجدت نفسي هو الذي سوف يريد ويخطّط ويصوغ ويخلق أبنائي وأحفادي..

هو الذي سوف يفعل بهم ويفعلهم كما فعلني وفعل بي..!

كيف يقبل أو يغفر أو يرضى أي كائن أن يراد ويصاغ ويخطط ويخلق ويجيء أبناؤه وأحفاده بلا نهاية كما أريد وخطط وصيغ وخلق وجاء هو.؟

كيف نقبل أو يقبل أي كائن وكل كائن أن يظل ويظل يكرر ونكرر في أبنائنا وأحفادنا كما تظل الحشرات وكل الكائنات تكرر في أبنائها وأحفادها؟

.. ما أقسى وأفجع وأقبح أن يكون الإله الذي قرأناه وفسّرناه وعرّفناه وجرّبناه هو كل الآلهة لهذا الكون ولكل كون.. هو كل الآلهة الكائنة والذاهبة والمنتظرة والمفسّرة.. ألا تكون هناك آلهة قادمة أو منتظرة أو ألا يكون هناك مصحّحون قادمون أو منتظرون ليصحّحوا الإله الذي لا يذهب ولا يتغير..

❀ ❀ ❀

.. كنت أريد أن أسأل وأسأل وأظل أسأل، أسأل.. عن، وعن، وعن. عن كل شيء وعن كل ما ليس شيئاً.!

أليس كل شيء هو سؤالاً وسائلاً أو يجب ويفترض أن يتحول إلى سؤال وسائل حتى وإن لم يوجد أو ينتظر أن يوجد أو يراد أن يوجد أو يفيد أن يوجد أي جواب عن أي سؤال؟

أليست الأسئلة أنيناً وبكاء وغضباً ورفضاً واحتجاجاً وحيرة واشمئزازاً، وليست بحثاً عن الجواب عن أي جواب مهما قيل وحسب واعتقد غير ذلك؟

أليس محتوماً أن تهاب أو ترفض أكثر الأسئلة لو كان محتوماً أن تكون لها أجوبة؟

.. الإنسان يسأل الآلهة والكون ونفسه بل ويسأل الأطلال والديار ويسأل أيضاً النجوم والسحاب والطيور.!

هل يمكن أن يكون سؤاله هذا سؤالاً؟ هل كان يمكن أن يقبل أو يعايش الإنسان نفسه أو إلهه أو وجوده أو أي شيء لو كان يسأل ليجد جواباً؟

.. الإله يسأل ويتساءل.. هل يحتمل أن يكون الإله سائلاً أو متسائلاً؟ أليس يفعل ذلك كما يعد ويتوعّد ويريد ويطلب ويأمر.. هل يحتمل أنه يعني بذلك أو ينتظر منه شيئاً غير أن يفعله أو غير أن يقوله؟؟

.. أليست أصدق وأدوم وأجمل وأقوى بل وأتقى وأذكى تفاسير الإنسان أنه السائل المتسائل، أو أنه الكائن المفترض فيه أن يكون كذلك أي مهما أصيب هو وكل شيء بكل صيغ الخرس والصمت وبكل معانيهما، كما أن أصدق وأدوم تفاسير الإله أنه المحاور بلا فهم أو تفاهم والمريد بلا مراد والفاعل بلا إرادة والمتكلم بلا لغة؟

❀ ❀ ❀

أجل، كنت أريد ذلك ولكن القلم المرهق المفجوع المروع المهزوم المهان أبداً.. المتعامل أبداً مع أقبح وأفجع وأذلّ الهزائم والفواجع والفظائع والآلام أعني قلمي، قلمي..! لأنه لا يعامل أو يتعامل أو يتخاطب أو يتكلم إلّا باللغة العربية ومعها ولا يحاور أو يحاسب أو يحاكم أو يخاصم أو يصادم إلّا الإنسان العربي فقط.. ما أقسى فقط هنا. ما أقساه.!

قيل ويقال بنيات وأساليب ومواقف الاحترام والتمجيد والتعظيم للإله إنه لا يعرف أو يتكلم إلّا اللغة العربية وإنه لا يخاطب أو يفاوض أو يقرأ إلا الإنسان العربي بالمنطق العربي وباللغة العربية أي الإله.. كائن لم يحاور أو يخاطب أو يقرأ أو يفسّر إلّا الإنسان العربي باللغة والأخلاق العربية، هل وجد أو قبل أن يوجد هذا الكائن؟ وقيل أيضاً ولا يزال يقال وسوف يظل هذا القول يقال ـ نعم، قيل إنه أي الإله حينما كلّم الإنسان العربي أول مرة أي النبي العربي باللغة العربية وبالأفكار والأخلاق والرؤى العربية أصيب أي الإله بأقسى وأقوى ضربات وصدمات الحب.. العشق.. الغرام.. الإعجاب.. الاندهاش.. بأقوى وأقسى ضربات وصدمات الانبهار.. الانقهار.. الانهزام.. الجنون.. بأقسى وأقوى وأدوم حالات وصيغ الضعف والهزال من عنف الضربات والصدمات.!

وقد جاء التعبير تعبير الإله عن هذه الضربات والصدمات بأن أعلن بكل الأصوات والأنّات والآهات أنه لن يتكلم أو يخاطب أو يعلم أو يحاور أي إنسان بأية لغة خيفة أن يكون هذا الإنسان غير عربي أو أن تكون هذه اللغة غير اللغة العربية، أي إنه لن يخاطب أو يكلم الأرض وأهلها بعد أن كلّم الإنسان العربي أي النبي العربي باللغة العربية.. لهذا توقفت النبوات والديانات بعد النبوة والديانة العربيتين.. لقد حرّم على نفسه أن يتكلم وفرض على لسانه الصمت بعد أن ذاق الكلام باللغة العربية.!

.. الإله لن يتكلم إلّا اللغة العربية، ولن يكلم أو يخاطب إلّا الإنسان العربي، ولن يستطيع أو

يريد أن يفعل غير ذلك.! لهذا منع تصدير الديانات والنبوات إلى الأرض بعد تصديره ديانة ونبوة العرب.!

.. إذن هل تستطيع كل الأحزان والمراثي أن تكون شيئاً من الأحزان والمراثي التي يجب أن تقدم لحظوظ الإله الأليمة الرديئة عزاء ورثاء وبكاء لها وعليها ومن أجلها لوجوده وحظوظه البائسة الحزينة الكئيبة أي الإله؟

ـ أجل، كنت أريد ذلك.. أريده، أريده..!

ولكن القلم.. هذا القلم في هذه اليد.. هذه اليد العربية التي ما أطول وأقسى ما عذبت وعوقبت وحوربت ولعنت واتهمت لأنها عربية ولأنها لم تقبل أو تستطيع أن تكون عربية لا بالفعل ولا بالقدرة ولا بالإرادة..

ولأن أقدارها وآلهتها لم تجعلها غير عربية أي أو أن تجعلها عربية، لقد جعلتها عربية الولادة والمكان والكينونة والجنس واللغة والظروف ولم تجعلها عربية التفكير أو الرؤية أو الأخلاق أو الصدق أو الانفجاع أو التساؤل أو الاحتجاج أو العذاب الدائم، الدائم.!

ـ نعم ولكن هذا القلم ذرف كل الدموع الجافة النازفة وأطلق كل الأنَّات والآهات والصرخات التي لم يسمعها ولن يسمعها أحد غير نفسه ـ ذرفها وأطلقها متأوهاً مصلياً متعبّداً متضرعاً بكل ترانيم وأناشيد وصلوات كل الديانات والنبوات والرهبانيات التي لن تكون ديانات أو رهبانيات أو نبوات السماء التي ترويها وتفسّرها لنا وتعلمنا إياها المنابر والمحاريب والمصاحف والعمائم واللحى..!

ما أبشع وأبلد وأقبح الديانات والنبوات والأخلاق والتعاليم والرهبانيات التي ترويها وتفسرها وتعلمها وتقرؤها وتمجّدها لنا المنابر والمحاريب والمصاحف واللحى والعمائم والمغارات مغارات حراء وغير حراء وكل حراء.. هل قبح شيء مثلما قبحت تعاليم وأخلاق ورؤى وتفاسير المصاحف والعمائم واللحى.!؟

.. هل هان الإنسان مثلما هان حينما تقبل بل ووظّف العمائم واللحى والمصاحف معلمة له؟

.. وهل وجدت أو يمكن أن توجد أديان أو نبوات أو تعاليم أو رهبانيات أو ألوهيات غير التي ترويها وتفسّرها وتقرؤها وتعلّمها وتمجّدها لنا المنابر والمحاريب والمصاحف واللحى والعمائم والمغارات؟ إذن هل يمكن أن يوجد أو حتى يتصور هوان مثل هوان الإنسان لأنه هو وحده الذي يتعلم من العمائم واللحى والمصاحف وهو وحده الراوي القارىء المفسّر الممجّد لها؟

.. نعم، ولكن القلم.. هذا القلم.. ولكنه.!

.. كل الرثاء والعزاء والاعتذار والاستغفار له وإليه أي لهذا القلم وإليه بل إلى كل الأقلام ولكل الأقلام التي جاء أحد أساليب الإذلال والتحقير والتسخير لها أن أصبحت صانعة ومعلمة ومؤكدة وممجدة ومسلّطة للمصاحف والعمائم واللحى ومتوجة لها، وأن أصبحت سيوفاً وخناجر وسياطاً ولعنات وجهالات وأكاذيب في أيديها وأفواهها وأخلاقها أي في أفواه وأخلاق وأيدي اللحى والعمائم والمصاحف.!

.. هل وجد أو يمكن أن يوجد من أو ما يستحق كل الرثاء والعزاء والبكاء والاعتذار والاستغفار إليه وله مثل القلم في كل عصوره وحتى في أذكى وأقوى وأتقى عصوره تحرراً وتحضّراً؟

هل قاسى من العذاب أو الإذلال أو التحقير أو التصغير أو التزوير أو التسخير أو الاستعباد أو التلويث أو التشويه أو من الكذب عليه والكذب به ومن البصق عليه والبصق به ومن استفراغ كل القباحات والوقاحات والبلادات والنذالات والحماقات والعداوات عليه وبه وباسم شرفه وصدقه وكرامته وشهامته وشجاعته وتقواه وكبريائه وفدائه وذكائه.

ـ نعم، هل قاسى من ذلك في كل المجتمعات والعصور مثل القلم أي مهما كان مجده ونضاله وشجاعته وعطاؤه وكبرياؤه وفداؤه واقتحامه وانتصاراته؟ هل يمكن أن يغفر شيء من هوانه محاسباً أو مقارناً بكل أمجاده؟

.. ماذا لو وجدت منظمة دولية كونية عادلة عاقلة صادقة شجاعة؟

ـ نعم ماذا لو وجدت هذه المنظمة التي لم توجد ولن توجد كما تقول كل التقارير والتفاسير والحسابات والتجارب.

ـ لو وجدت وتقدم إليها القلم مطالباً بالإنقاذ من العدوان عليه وبحماية كرامته وحصانته وعفّته من كل أساليب ونيات كل أنواع وألوان الفسق بكل معانيه وأخلاقه ووقاحاته.. بحمايته وحراسته من أن يوضع في كل يد تستطيع وتريد ذلك بلا أية شروط أو قيود.. في أيدي كل الآلهة والأنبياء الأميين.. في أيدي كل الطغاة والمتسلّطين والدجالين واللصوص والجهلاء لكي تستفرغ عليه وتستفرغ به كل قبح ونذالة وبلادة وبذاءة وجهالة وهوان وكَذب ونفاق وعداوات وخصومات ومنافسات وشهوات ومطامع ومطامح وهزائم وفضائح ونقائص كل الأديان والمذاهب والألوهيات والنبوات والقوميات والشعارات والزعامات والقيادات والأنانيات والذاتيات وكل ما في الفكر والقلب والنفس والأخلاق من ضعف وعجز وقبح وأحقاد وأهواء؟

ـ نعم، ماذا لو وجدت هذه المنظمة أو المحكمة الدولية الكونية ليحتكم إليها القلم شاكياً باكياً مطالباً بالإنقاذ والحماية وبالتعويض والتكفير والاعتذار عن كل بل أو عن بعض ما أوقعه به كل المعتدين عليه بكل أساليب الاعتداء وتفاسيره في كل العصور والمجتمعات..

أي ما أوقعوه به من أنواع وفنون التزوير والتحقير والتسخير والتشويه والتلويث والإذلال والكذب والبصق به وعليه؟

هل يستطيع أو يتحمل أي شيء أو كلّ شيء أن يوقع به وأن يصاب بكل أو ببعض ما أوقع بالقلم وأصيب به من ذلك؟

إنه لو كانت قد وضعت كل الشروط والحراسات والحصانات لحماية كرامة ونظافة وأخلاق وتقوى كل شيء لنجاء القلم وحده بدون أي شيء من ذلك.! إنه لو بقي لكل شيء أي قدر من الكرامة أو النظافة أو الاحترام لكان القلم هو وحده الذي لم يبق له أي قدر من ذلك. لهذا أليس كل

الصدق والحق أن يقال: إنه لم يوجد ولن يوجد مذنب ظالم معتدٍ مشوّه فاجر شاتم مهين محقّر ناشر مناصر للكذب والنفاق والتزوير والتضليل والقبائح والفضائح ولكل أنواع ولغات النذالات والعداوات والبلادات والأحقاد والبغضاء بل والقبح والفحش مثل من اخترع القلم وعلم به وعلم استعماله ووضعه في اليد، في كل يد بلا أي شروط بل وضد كل الشروط ورفضاً وإهانة لكل الشروط؟

ما أقبح وأوقح وأبلد وآثم من يتهم الإله أو الآلهة بأنها هي التي أرادت ودبّرت وخلقت القلم وعلمت به إن كانت قد عرفت ماذا يعني ذلك؟

.. هل وجد في التاريخ كل التاريخ في أية مرحلة من مراحله ـ هل وجد أي إله أو نبي أو قديس أو مصلح أو ملاك أو شيطان أو دين أو قانون أو شرف قرر أو التزم أو أراد أو حتى رأى أو حاول أن يحمي القلم أو غضب له من أن تمسك به أية يد.. كل يد لتبصق عليه وبه.. لتستفرغ عليه وبه كل الرذائل والنقائص.. بكل تفاسير وصيغ ومستويات كل النقائص والرذائل وكل ما هو أقبح وأوقح وأفجع من كل النقائص والرذائل؟

إني هنا أعمّم في الحديث عن القلم ولكن لن يخفى أن المحرّض لي على هذه الرؤية للقلم هو القلم العربي، فإن كنت قد قسوت في حكمي على كل القلم فليغفر لي من عرف القلم العربي..

أيهما يحقر ويهان ويبصق ويستفرغ عليه وبه وفيه أكثر وأكثف وأدوم وأقذر وأقسى وأفجع وأشد إيلاماً: الإله أم القلم؟ كيف يستطيع القلم أو الإله أن ينظر إلى ذاته أو يبقى فيها ملطخة بكل ما بصق واستفرغ فيها وعليها؟

هل وجد أو هل يمكن أن يوجد محقران مظلومان مهانان متهمان باصقان مبصوقان مبصوق عليهما وبهما مثل الإله والقلم؟

ولكن أيهما فعل به وله وفيه ذلك أكثر وأبشع وأفجع: الإله أم القلم؟ إن مأساتهما أي الإله والقلم أن كليهما صامت مستسلم لما يفعل به.. لا يدافع ولا يغضب أو يحتج أو يرفض أو يشكو أو ينكر.. قالوا إن الإله هو الذي خلق المادة التي صنع منها القلم وهو الذي هدى صانعيه إلى صنعه وهو الذي ألهمهم ذلك، وهو الذي علّمه وعلّم به أي بالقلم.! قالوا لقد أراد أن يمجّد القلم كل التمجيد الذي يستطيعه ويعرفه فلم يجد مثل أن يقسم به.!

.. وهنا لا بدّ أن يأتي هذا السؤال الذي لا بدّ أن يقول: لماذا فعل الإله ذلك؟ أليس التساؤل عما يفعل أي الإله واجباً أو مباحاً مهما قال وقيل إنه هو لا يسأل عما يفعل؟

.. هل فعله ليفضح ويحقر ويفجع ويعذب ويلوث القلم وحامليه ومعامليه.. ليفعل به وبهم كل ما يفعلونه به من ذلك، أم ليحابي ويعزي نفسه ويخفف عنها بأن يوجد أو يوجد مثيل له في التلويث والتحقير والتعذيب والفضح والافتضاح؟

هل فعله ضارباً معاقباً دون أن ينوي أو يريد الضرب أو العقاب أي هل فعله ارتجاجاً وارتعاشاً لا فعلاً؟

.. هل فعل ذلك أي الإله خطأ وعجزاً في الحساب وفي التقدير والتفكير؟ هل خدع نفسه أو خدعته نفسه كما خدع وانخدع في كل ما فعل.. في كل حساباته وتقديراته وتفكيره ورؤاه وطموحه وآماله.. في كل تخطيطه لكل شيء؟ هل كان يمكن أن يوجد أي خداع أو انخداع أو خادع أو مخدوع لولا خداع الإله لنفسه وانخداعه بها؟

هل أخطأ أحد ضد نفسه وضد كل شيء وكل أحد في كل حساباته وتقديراته وتخطيطاته وتوقعاته ورؤاه وأفعاله.

- نعم، هل أخطأ أحد هذا الخطأ مثله أي مثل الإله بل هل أخطأه أحد غيره؟ هل وجد من عذبته وشوهته وحقرته وغاظته وأهانته أخطاؤه ضد نفسه مثل الإله؟

أليس الإله هو أعظم مخدوع منخدع تحول إلى أعظم خادع بل أصبح هو كل الخادعين بكل الأساليب؟

ما أعظم أمجاد هذا الوجود لأن أعظم وأكبر وأقوى منخدع مخدوع فيه قد أصبح هو أعظم وأشهر وأدوم الخادعين بل كل الخادعين، أي بتفاسيره المتعددة أو ما أصغر وأردأ أمجاده.!

ما أكذب وأرخص اللغات في أفواه من نطقوا بكلمة مجد في هذا الوجود.!

.. إذن هل فعل ذلك أي هل خلق مادة القلم وعلمه وعلم به أي الإله لأنه عرف أو قدر أو ظن أو أراد وتمنى ورأى أنه سيكون أعظم وأقوى من يصنع له أمجاده الكاذبة البليدة السخيفة القبيحة التي هي كل أمجاد مريد ومدبّر وصانع وصائغ وعاشق هذا الوجود؟ وهل لصاحب هذا الوجود أي مجد أو تفكير أو تدبير أو فعل ليس بكل هذه الأوصاف وحدها؟

.. وقد يقبل أو يغفر أن يعاد السؤال: هل فعل ذلك بعضلاته الطائشة بلا تفكير أو تدبير أو إرادة أو حساب.؟

.. هذه الرؤية والمحاسبة والمحاكمة للقلم العالمي..!

للقلم في كل الأيدي مستفرغاً كل الحروف فوق كل الصفحات.!

.. أما القلم العربي.. القلم في يد الإنسان العربي وفي أيدي كتاب الإله العربي مملياً عليهم سوره وآياته وأوامره وتعاليمه وأشواقه وأهواءه وأمانيه ووعده ووعيده وحبه وبغضه وكل انفعالاته، كل صهيله وزئيره وغنائه وبكائه وفرحه وحزنه وغضبه.

- نعم، أما هذا القلم فهل يمكن أن توجد أية محكمة أو منظمة تقبل أن تسفّه أو تهون أو تسقط لكي تفكر في محاكمته؟

أليست المحاكمة اعترافاً للمحاكم بأنه يستحق أن يحاور ويساءل وينتظر منه؟

.. إن الكائن قد يهبط في كل صيغه ومعانيه وتفاسيره هبوطاً يجعل محاكمته بل ومحاورته ومساءلته غير مقبولة أو مغفورة بل غير محتملة.

.. يجعل ذلك شيئاً من التكريم والتمجيد له..!

أليس هبوط القلم العربي في يد الإنسان العربي وفي أيدي كتاب الإله العربي هو هذا الهبوط، بل أهبط من هذا الهبوط ومن كل هبوط؟ هل يعزي القلم عن هبوطه في يد الإنسان العربي أو ينافسه في ذلك مثل هبوطه أو غير هبوطه في أيدي كتاب الإله العربي؟

.. أليس الكثير من الكائنات بل أكثر الكائنات تقاوم وترفض وتطارد بكل الأساليب بل وتقاتل وتقتل لضخامة وتعدد وتنوّع شرورها وقبحها وأذاها وعفنها ونقلها للآلام والأمراض والعاهات والتشوّهات ولكنها لا تحاكم أو تحاور أو تحاسب أو تساءل لأنها أقل من ذلك؟

فهل يمكن أن يكون القلم في يد الإنسان العربي أو في أيدي كتاب وأعوان ومستشاري الإله العربي أذكى أو أتقى أو أنظف أو أنبل أو أرقى أخلاقاً أو أكثر تحضّراً أو فهماً أو معرفة من هذه الكائنات لكي يكون مستحقاً للمساءلة والمحاورة والمحاسبة والمحاكمة؟ لهذا فإن أي كائن غير الإنسان لن يحاكم مهما كانت أضراره وأخطاره وإزعاجه ومهما وجب التخلّص منه بكل الأساليب لأن المحاكمة أسلوب من أساليب التقدير والاعتراف بشيء ما للمحاكم..

إن المحاكمة محاورة، والمحاورة تأميل وأمل، والتأميل والأمل تكريم وتوقع.!

.. إذن أليس الذين لا يحاكمون الإله ويرفضون محاكمته بل ولا يتصورون محاكمته مع أنه هو كل الجناة وكل المسؤولين عن كل شيء وهم يعرفون ذلك ويعترفون به إعلاناً وتعبّداً وتمجيداً ـ أليس هؤلاء يبالغون جداً في تحقيره وفي الهبوط به؟

إنهم يرفضون وينكرون بل ولا يتصورون أن يكون مسؤولاً أو محاوراً أو مقروءاً أو مفسراً أو معاتباً أو ممكناً أو مطلوباً تصحيحه أو وعظه أو تأنيبه مهما فعل بهم وبكل أحد وكل شيء.. مهما ضرب وشوّه وعذّب وقتل كل شيء وكل أحد، ومهما اعتقدوا وأعلنوا أنه هو الفاعل لكل ذلك بإرادة وتدبير وتصميم وإصرار واعتراف يحوّله إلى نبوات وصلوات وأديان وكتب منزّلة، الإله لا يحاسب أو يحاكم أو يحاور أو يساءل أو حتى يعاتب أو ينصح مهما فعل وكان، هل يوجد تحقير وتصغير مثل هذا التحقير والتصغير؟. إنهم أي المؤمنين بهذا لم يسووا الإله بالإنسان.. بأنفسهم.. لقد هبطوا به تحت ذلك، لقد جعلوه لا يستحق الحساب أو الحوار أو المساءلة.. هل يجهلون أو ينكرون أن الكائن تعظم وتقسو محاورته ومساءلته ومحاسبته على أفعاله وأخلاقه بقدر ما يعظم هو..

أي بقدر ما يعظم ويكبر قدرة ومعرفة وعقلاً ونفساً وكبراً ونظافة وأخلاقاً وذاتاً ومكانة ومجداً وتمجيداً؟ أليس الواجب والمفروض أن يلقى الكبار أعماراً وأطواراً وذواتاً من ذلك أقسى مما يلقى الصغار؟

أليسوا بهذا قد هبطوا بالإله إلى أردأ وأقسى مستويات المجانين الذين لن يحاوروا أو يساءلوا أو يحاكموا أو يحاسبوا أو يعاقبوا أو يعاتبوا أو حتى ينصحوا مهما أساؤوا وخرّبوا وسفّهوا وقالوا وفعلوا وافتضحوا وفضحوا؟!

أليس كل العقلاء يحاورون ويساءلون ويحاسبون ويحاكمون وينقدون بل ويعاقبون أي إذا فعلوا ما يجعلهم يستحقون العقاب؟ أليس إعفاؤهم من ذلك أقسى أساليب التحقير والتصغير والهجاء لهم؟

إذن أليس حذف الكائن ممن يستحقون المساءلة والمحاورة والمحاسبة والمحاكمة والخضوع لقوانين المعاقبة.

ـ أليس ذلك إسقاطاً له عن كل درجات ومراتب ومنازل العقلاء والمفكرين والأخلاقيين والمدبرين المخططين والرائين لأنفسهم المتخاطبين معها ومع أي شيء أو أي أحد؟

إن المؤمن بالإله ليرى بكل الإحساس الأليم والتحديق المفجوع أصغر عاهة أو عيب في وجهه أو في وجه ابنه أو أمه أو أبيه أو في وجه أي إنسان آخر ثم يعمى كل العمى عن كل العاهات والعيوب متجمعة في وجه إلهه، مغطية لكل ذاته وثيابه وأخلاقه وصوره.! هل وجد أو يمكن أن يوجد مغطى بكل العاهات والدمامات غير الإله!

إذن هل يوجد أو وجد مسقط من كل الاهتمام والاحترام والرؤية ومن الاشتراط له وفيه وعليه مثل الإله أو غيره في حياة المؤمنين به وفي تعامل كل معانيهم معه وبه؟

إذن هل وجد أو يمكن أن يوجد أو حتى يتصور محقر ومحقر وساب ومسبوب ومهين ومهان ومعتدٍ ومعتدى عليه مثل الإله والمؤمنين به الزاعمين المعتقدين المعلنين أنهم يمجّدونه ويعبدونه ويمدحونه أذكى وأقوى وأتقى أساليب التمجيد والامتداح والعبادة والتعبّد؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد أغبى أو أفسد أو أفسق من العلاقات بين الإله وعابديه؟

كيف لم يفطن العالم في كل بيئاته وتاريخه وأطواره الحضارية إلى ذلك؟

كيف لم تتخلق وتنتشر وتتعدد فيه أقوى وأوسع وأذكى المنظمات الدولية مؤلفة من كل أصحاب أقوى العقول والمواهب والأخلاق والمعارف لكي تعالج هذه القضية أي لكي تفك الاشتباك أو الارتباط بين الإله والمؤمنين به بل وتلغي بل وتحرم العلاقات وكل الاتصالات بينهما؟

أليس فك هذا الاشتباك أو الارتباط وهذا الإلغاء والتحريم أنبل وأنفع وأتقى وأذكى فك وإلغاء وتحريم؟ هل وجد مفسدون أو مسيئون أو مخرّبون أو معوقون أو زارعون للعداوات والأحقاد والبغضاء مثل من ابتكروا وعلموا العلاقات بين الآلهة والإنسان ليكون هناك فريقان: فريق الآلهة وفريق المؤمنين ليتعاملا بالأساليب والصيغ والتفاسير التي بها يتعاملان.؟

❀ ❀ ❀

.. ماذا لو تخلقت محكمة أو منظمة للبحث عن العدل ولإقراره وتحقيقه وللإعلان عنه والتعريف به..

وكانت أي المحكمة أو المنظمة المتصورة مؤلفة من آلهة ليسوا من نوع ولا من مستوى الإله أو الآلهة التي عرفناها وجرّبناها وقاسينا منها وافتضحنا وفجعنا وهزمنا وذللنا وصدمنا وخسرنا بها ومنها وصلينا وتضرّعنا وهناً لها دون أن تفهم أو تستجيب أو تجزي، ثم تقدم وشكا إليها الإله أو كل الآلهة التي جاءت إلينا أو التي تخلقت وسكنت فينا دون أن نريد أو نعرف أو نقبل أو نرضى أو ندبر أو نعظم أو نسعد أو نقوى بها، بذلك، طالبة العدل والمجازاة والعقاب من المؤمنين الذين فعلوا وأوقعوا

بها كل ما فعلوا وأوقعوا بحجة وبدعوى الإيمان بها والعبادة والاحترام والإرضاء والإفراح والإسعاد لها.. وأيضاً تقدم وشكا إليها كذلك المؤمنون بالإله أو بكل الآلهة التي عرفوها وجرّبوها وقاسوا كل أنواع وأساليب وقسوة المقاساة منها راجين ومطالبين بالعدل.. العدل، بكل العدل.. راجين ومطالبين بالتعويض والتكفير والجزاء والانتقام من هذا الإله أو من كل هذه الآلهة التي فعلت وأوقعت بهم كل ما يشكون منه ويتعذبون به وكل ما يتوقعون وينتظرون من أهوال وآلام وفواجع وهوان ومهانات لا حدود ولا ضوابط ولا أخلاق لها كما لا نجاة أو مهرب لأحد منها؟ وهل يستطيعون وصف أو إحصاء ذلك مهما أرادوا وحاولوا؟ هل يستطاع وصف أو إحصاء ذنوب وأخطاء وعدوان الآلهة؟

- نعم، ماذا لو وجدت هذه المحكمة أو المنظمة ثم تقدم إليها الفريقان أي الآلهة والمؤمنون بها يطلب كلاهما محاسبة ومحاكمة الآخر على كل ما فعل به وألقى عليه، وعلى كل اتهاماته وتشويهه وتلويثه له، وعلى كل ما قال له وعنه وفيه، وعلى كل تفاسيره ورؤاه وتعاليمه وإحراجه وأوصافه ومطالباته له؟ ما أفظع وأقبح وأفجع ما سوف تسمع وتقرأ وترى وتعرف حينئذٍ هذه المحكمة أو المنظمة!

أليس المفروض أو المحتوم حينئذٍ أن تصاب هذه المحكمة أو المنظمة بالحيرة عاجزة ومتهيبة ومتحرجة من أن تعرف أو تعلن أي الفريقين: الآلهة والمؤمنين بها أكثر وأقسى وأشمل وأفحش وأوقح عدواناً على الآخر وإيلاماً وإيذاءً وتشويهاً له وبصقاً واستفراغاً عليه وفيه؟ ولعلها لم تخلق أو تتخلق هذه المحكمة أو المنظمة فراراً من هذه الحيرة والتهيب والتحرج والعجز.!

.. نعم، هل نستطيع أن نعرف أو حتى نتصور باصقين مستفرغين ومبصوقاً مستفرغاً عليهم وفيهم مثل الإله والمؤمنين به.. مثل كل الآلهة والمؤمنين بها؟

ولأن القلم هو الوسيلة القوية الدائمة العالمية بل الكونية لهذا البصق والاستفراغ المتبادلين بين الآلهة والمؤمنين بها أصبح أي القلم أشهر باصق مستفرغ ومبصوق مستفرغ به وفيه وعليه.!

السماء تستورد الآلهة من الأرض

إلى أمين العروبة.. أمين الجامعة العربية.. أمينهما بكل صيغهما وتفاسيرهما الحضارية والفكرية والثقافية والعلمية والتقدمية والأخلاقية والإنسانية. بكل التزاماتهما وواجباتهما، أو إلى من يجب ويطالب وينتظر أن يكون كل ذلك أو بعض ذلك أو أكثر من كل ذلك. إنه تكليف بما لا يطاق لهذا يقبله العربي بكل الفرح والرضا ومشاعر المجد، لأن العربي لا يتصور أي التزام بين التكليف والتنفيذ.!

.. إنها أول رسالة وقد تكون آخر رسالة من هذا النوع توجه إليك أو إلى أي أمين آخر للعروبة.. للجامعة العربية في كل عهودها وعصورها الذاهبة والآتية والتي لن تأتي والتي يجب ويرجى ألا تأتي إلّا إذا كانت سوف تأتي أفضل مما أتت.!

ولكن هل في أي حساب أن يتفوّق حاضر العرب أو مستقبلهم على ماضيهم؟

.. إنها رسالة قد يذهل ويفجع الإله بل لا بدّ أن يذهل ويفجع صارخاً أو صامتاً عجزاً عن الصراخ وعن الفهم والتفكير والتساؤل ورهبة من ذلك لو قرأها أو سمعها ولكنه لن يستطيع قراءتها لأنه أميّ لا يستطيع القراءة أو الكتابة مثل خاتم ومجد أنبيائه وأفضل وأقرب أنبيائه إليه الذي مجّده وفضّله لأنه كذلك.

ـ نعم لو قرأها أو سمعها موجّهة من عربي إلى مسؤول عربي... وهل يختلف ما يوجّهه أي عربي إلى عربي آخر إلّا في تفاوت أساليب السباب والبذاءة؟

موجهة من عربي لم يكن إلّا عربياً فقط في كل وجوده.. في كل رؤاه وقراءاته وتعاليمه ودينه ولغته وسمائه ومكانه وعلاقاته وانتماءاته.. إنه أي الإله لا بدّ أن يصعق حينئذٍ من التعجّب: كيف أمكن أن تكون هذه الرسالة من عربي إلى عربي.. إني أنا الإله عاجز عن فهم ذلك وتصديقه.!

.. إنها رسالة قد يعجز ويرفض التاريخ العربي، بل لا بدّ أن يعجز ويرفض بكل منطقه وتصوراته وأساطيره وبكل قدراته ومواهبه وتجاربه، بل وبكل فضائحه بخروجه على كل مفهوم ومعقول ومقبول ومصدق ومحترم لأنه قد جرّب واقتنع أن العربي متوقّر وتقي جداً في تفكيره وعقله وتعاليمه مهما كان مفتضحاً في كل شيء آخر..

ـ نعم، لا بدّ أن يعجز ويرفض أي التاريخ العربي الذي هذه بعض أوصافه أن يصدق أو حتى يتصوّر أن عربياً قد خاطب بها مسؤولاً عربياً أو أن هذا قد يحدث.! إنه أي التاريخ العربي مهما حلّق في مزاعمه البسالة والخوارق لنفسه فلن يجرؤ على التحليق إلى ذلك.!

.. ولن أجرؤ على أن أقول لكم كل ما تقول أو أكثر ما تقول هذه الرسالة ولكنني سوف

أقاسي وأتعذّب رهبة واستحياء وتوقّراً لكي أملك كل أساليب وتفاسير الشجاعة غير المعقولة أو المعروفة أو المغفورة أو المنتظرة أو المتصورة من عربي أي وفي العالم العربي لكي أجرؤ بكل تفاسير المخاطرة والمغامرة بل والجنون على أن أقول لكم بعض ما تقول الرسالة..!

إنها تقول من أخف ما تقول:

أنا عربي ولدت وحبوت ومشيت وعشت ولا أزال أعيش في العالم العربي وحده.. ولعلي لم أعش فيه وإنما ألقي بي إليه إلقاء. أليس العيش في الشيء ومع الشيء شيئاً أكبر وأكثر من الإلقاء فيه وإليه؟ وهل مشيت وإن كنت قد ولدت وحبوت؟ أليس المشي انتقالاً؟ وهل انتقلت؟ ألست مبالغاً في قراءتي ورؤيتي لنفسي حينما قلت: ومشيت؟

.. إنني لم أذق أو أجرّب أو حتى أحاول أو أر العيش في غير عالمي العربي الذي ولا بدّ تعرفون كل أوصافه وأوصاف من يعيشون فيه وشروطهم.. الذين لا يختلفون أو يتفاوتون في تفاسيرهم ومواهبهم ورؤاهم وأشواقهم وطاقاتهم مهما اختلفوا وتفاوتوا في أصواتهم وأزيائهم وشعاراتهم وأماكنهم وانقساماتهم.. في تفاسير سبابهم ومخاصماتهم وعداواتهم وانحيازاتهم وتبعياتهم..!

.. الذين لا يختلفون أو يتفاوتون في وثنياتهم وعبودياتهم مهما اختلفوا وتفاوتوا في أوثانهم ومعابدهم.!

.. الذين لا يختلفون خضوعاً للطغيان مهما اختلف طغاتهم وشعاراتهم وانتماءاتهم وأكفانهم..!

.. نعم، أنا هذا العربي. ومع وحشية كينونتي هذه ومحاصرتي بها هذه المحاصرة بكل أوصافها وظروفها هذه فلقد مرضت بمرض لم يكن من المحتمل في أي حساب أن يمرض أي عربي به فكيف يمرض به عربي كانت ولادته وكينونته وظروفه ومواجهاته ورؤاه ومكانه وأرضه وسمواته وصحراؤه كل ما سمعتم شيئاً منه؟

.. مرضت بمرض جاء ليكون أقسى وأقوى اختراق وتجهيل لكل حسابات وتوقّعات ومعارف وأخلاق ورؤى وتجارب كل الآلهة والأقدار، بل ليكون أقوى وأقسى استهزاء بها..!

أي لمرضي أنا العربي بهذا المرض الذي لا يمرض به أي عربي.!

ولكن هل مرضت بهذا المرض أم مرض هو بي؟ وهل مرضت به أم ولدت وخلقت به؟ هل المرض حدوث وحدث وأحداث أم تكوين وتكوّن؟ هل هو مجيء وهجوم من الخارج أم ظهور وإعلان وحدوث ومبارزة من الداخل؟

هل وجد من سأل هذا السؤال أو من وجد الجواب وقاله؟

هل العبقرية والجمال والذكاء قدوم وهجوم من الخارج أم حدوث وانفجار من الداخل؟ أليس التفسير لهذا هو التفسير لهذا؟ هل جاء هذا المرض إلي وفي أم أنا الذي جئت إليه وفيه؟

هل المرض هو الذي أوجد المريض أم المريض هو الذي أوجد المرض؟

هل أنا الذي أوجدته أم هو الذي أوجدني أي أوجدني مريضاً؟

هل أنا المعذب الظالم له المعتدي عليه أم هو الفاعل ذلك بي؟

هل جاء إلي عاشقاً مختاراً راثياً أم مدعواً مضطراً محكوماً عليه؟

ما أوقح الأمراض إن كانت تجيء مختارة وما أقبح من يجيء بها إن كانت تجيء مضطرة..!

من يستطيع أن يكون حكماً مقبول الحكم في هذه القضية؟

وهل يمكن أن يوجد أو ينتظر هذا الحكم.. هذا الحاكم المقبول الحكم؟

ليتني أستطيع أن أعرف أو أستطيع التوقّف عن محاولة أن أعرف.

.. إني هنا أتحدث عن مرضي هذا لا عن كل الأمراض؟

من أول من أراد وابتكر الأمراض؟ هل يوجد هذا الأول أو يقبل أن يوجد؟

.. ما أصعب ألا نعرف وما أصعب أيضاً أن نعرف أي أي شيء.!

وأيهما أصعب وأقسى: أن نعرف أم ألا نعرف؟

قد يكون جواب السؤال مفهوماً مهما كان الواقع بعيداً عن أن يكون مفهوماً.!

.. نعم، أنا هذا العربي المحكوم المحاصر في عالمه العربي مرضت بمرض لا بدّ أن تصبح إصابتي به مفاجأة مروعة محيرة لعيون الشموس والنجوم ولكل تجاربها وفهمها الثابت للإنسان العربي..

قد تكون إصابتي به ثناء على العروبة مهما كانت عذاباً وتعذيباً لي لا يطاق.!

.. إنه مرض أي مصاباً به أو لو أصيب به الإنسان العربي لا بدّ أن يكون وأن يحسب أول هزيمة وتمرّد قاسيين على قوانين الطبيعة وعلى التزامها المتعصب البليد بمنطقها وأخلاقها، وعلى مسيرة التاريخ وتفاسيره وقراءاته ومحفوظاته.!

إنه مرض قررت وتعهّدت والتزمت كل الآلهة وكل قوانين الطبيعة أن تحمي الإنسان العربي منه... من أن يمرض به أو أن يخشى أو يتصوّر أو يحذر أن يصاب به أو أن يرى أو يعايش أو يتقبّل أو حتى يعرف أو يعامل أو يواطن أو يخاطب من يصاب به أي لو وجد مصاباً به وعرف أنه مصاب به.!

إنها لم تحمه رحمة أو تكريماً أو محبة أو إسعاداً بل فعلت به ذلك تحقيراً وتهويناً وإهمالاً.

هل يستطيع أي عربي أن يتصوّر أن أي كائن قد يصاب بهذا المرض؟

حتى الإله إنه لن يتصوّره مريضاً به مع أن المفروض ألّا يمرض به أحد مثل الإله.!

لا بدّ أن يكون الإله قد احترق شوقاً إلى معرفة هذا المرض إن كان قد استطاع قراءة ما كتبت.!

.. لقد قرّرت وتعهّدت والتزمت كل الآلهة وكل القوانين الطبيعية بهذه الحماية للإنسان العربي. لماذا؟ هل يوجد أو يمكن أن يوجد من يدري؟

هل كانت تنوي تمجيده أم تحقيره بهذه الحماية أم كانت تفعل بلا فهم أو تدبير؟

... ثم قررت وتعهّدت والتزمت لأسباب قد تفهم وقد يعجز كل الفهم عن فهمها بأن تبالغ جداً في إصابته بكل الأمراض الأخرى.. بكل الأمراض التي تصيب أجسام وأعضاء الإنسان كما تصيب أجساد وأعضاء الكائنات الأخرى حيوانية وحشرية وغيرها بل وأن تخصّه أي الإنسان العربي بأن تصيب جسده وأعضاءه بأمراض أكثر وأقسى مما تصيب به أجساد وأعضاء الكائنات الأخرى الحيوانية والحشرية وغيرها وغيرها..

لماذا؟ إنه يجب ألا يكون هنا سؤال لأنه لن يكون هنا جواب..!

.. بل لقد حولت أي الآلهة والطبيعة الإنسان العربي إلى أعظم ممجّد ومفسّر ومعلم لهذه الأمراض ولمزاياها المنطقية والدينية والأخلاقية والحضارية والفلسفية والنفسية، حتى لقد حوّلها إلى أقوى وأذكى وأتقى التفاسير لحكمة ورحمة وعدالة وتقوى وذكاء الإله، وإلى أعظم وأكبر وأشهر الأدلة على وجوده، لقد وجد الإله لأنه وجدها أي الأمراض.!

لقد وجد الله كل الحكمة والرحمة بقدر ما وجده ممرضاً ومشوّهاً مصيباً بكل الآلام والعاهات.!

.. بل لقد جعلته أي جعلت الإنسان العربي يصنع أعظم وأضخم الأمجاد والمدائح والصلوات والعبادات لإلهه لأنه يصيبه وبقدر ما يصيبه وكلما أصابه بهذه الأمراض أو بأي شيء منها، إذن هل أصابه ويصيبه بذلك ماكراً خادعاً لكي يبالغ في تمجيده وامتداحه وحبّه له؟

إنه لا يرى إلهه في أجمل صيغ وأزياء الجمال والحب والرحمة والحكمة والذكاء والعبقرية والإحسان والعطاء إلّا في أقسى وأقبح الأمراض والآلام والتشوّهات وإلّا لابساً كل أثواب الجلّادين والقبّارين وحافري القبور وصانعي الأكفان وحاملي الجنائز وناعي الموتى وإلّا مبتكراً بكل الحماس والنشاط كل العاهات والدمامات أي إلّا حينما يرى كل ذلك ويرى من يقاسون كل ذلك بكل القسوة آنين باكين متضرّعين بلا سامع أو مجيب أو مستجيب. لقد وجد في هذه الآفات أنقى وأقوى مرآة يرى بها ومنها وجه إلهه مشرقاً بكل حبه وجماله.!

أيها الإله.. اسعد وافرح وتكبر وتجبر وعذب وشوّه وافعل كل الأخطاء والخطايا والفضائح لأنه قد وجد من يشكرونك ويمدحونك ويعبدونك ويتحدثون عن جمالك ورحمتك وحكمتك وحبك وعبقريتك وذكائك وإحسانك وعطائك وفرحك وسعادتك كلما فعلت ذلك وكلما بالغت وقسوت وجننت في فعله..!

ـ أي لأنه قد وجد الإنسان العربي أو لأنك أوجدته كما أردته. ما أغلى وأفدح ثمن فرحك وسعادتك وكبريائك وتدللك أيها الإله.! لأنه قد وجد الإله العربي والنبي العربي والدين العربي والمعلم العربي..

ألا يمكن أن يكون التفسير لكونك أيها الإله العربي لا تستجيب ولا مرة واحدة لمن يدعونك

ويتضرّعون إليك بكل الأنين والبكاء والهوان هو أنك تخشى ألا يفعلوا لك ذلك أو أن يتراخوا في فعله وفي أساليب ومشاعر أدائهم له لو أنك استجبت وشفيتهم وأنقذتهم، لو أنك استجبت لهم فيما يرجون ويطلبون ومما يتعذبون به ويئنون منه؟ إنك أيها الإله لم تستجب في كل تاريخك لأية دعوة متلهفة متضرعة باكية، هل التفسير أنك تريد ديمومة ذلك؟

.. إن كان هذا هو التفسير فالإنسان العربي هو المسؤول عن صياغتك هذه الصياغة الأليمة الفاجعة حتى في تعاملك مع غير العربي.. مع كل العالم بل مع كل الكون، ألست كذلك مع كل الكون؟ وحينئذٍ هل وجد أو يمكن أن يوجد مفسد لك وجانٍ عليك وعلى العالم وعلى كل شيء مثل الإنسان العربي؟ هل يمكن تصور مذنب أو مفسد أو معتدٍ على كل شيء وكل أحد مثل من علم وألهم وأغرى وأغوى إله هذا الكون وأوحى إليه بتعامله معه ليكون أي إله هذا الكون كما كان؟ أليس العبد الرديء قد يعلم بسلوكه الرديء سيده السلوك الرديء؟ أليس التابع أو الخادم الرديء ينقل أحياناً إلى متبوعه ومخدومه رداءته كما ينقل العبد الغبي إلى إلهه غباءه وهوانه؟ ولكن هل وجد أو يمكن أن يوجد من يستحق كل الرثاء والإشفاق مثل كائن مطلق في كل رؤاه وقواه ومعانيه وتفاسيره استطاع الإنسان العربي أن يصوغه كما صاغ صاحب هذا الكون.. أي كما صاغك أيها الإله لتجيء كل صياغاتك كما جاءت وكما أردت أن تجيء أي كما صاغك بتعامله معك وبرؤيته وتفاسيره لك وبتعاليمه عنك؟ لقد عاملك ورآك وفسّرك وعلّم عنك وبك بأخلاقه وعقله وعلمه وتصوّراته فرضيت وقبلت ونفذت بكل الالتزام فأصبح لك صائغاً.! أعلنوا يا سكان السماء. أعلنوا وكونوا صادقين. أعلنوا أن الإنسان العربي هو الذي صاغ الإله العربي. هل يمكن أن يجيء أو يعلم أو يعرف الإله العربي كما جاء وعلم لولا الإنسان العربي؟

.. أجل، أنا عربي بكل هذه الصفات والظروف والتاريخ والبيئة، ومريض بكل القسوة والشمول والشذوذ والغربة والاغتراب.. مريض بهذا المرض بكل صدقه وعنفه وديمومته وبكل حرائقه وأهواله وطاقاته وفظاعاته.. مريض، مريض.. بمرض الرؤية والتفكير والاحتجاج والانفجاع والمساءلة والمحاسبة والمحاكمة والقراءة والتفسير والاشتراط لكل شيء وكل أحد.. أجل، مريض بذلك لا عاشق أو مختار أو مبتكر له.!

.. إنها الأهوال والفواجع كلها.. تتفجّر وتتسعّر وتتزاحم كل الأوقات بكل الأساليب واللغات والتفاسير والاحتراق والحرائق، في كل رؤاي وعقلي وفكري وقلبي وضميري وأخلاقي واتجاهاتي..

في كل قراءاتي ومساءلاتي ومحاسباتي ومحاكماتي واشتراطاتي ورؤاي وتفاسيري لكل شيء ولكل أحد، تتفجّر وتتسعّر وتتزاحم بتفاسير وصيغ وطاقات غير عربية بل نقيض كل ما هو عربي.!

.. إني مريض وحدي بهذا المرض وأنا أعايش وأواجه مجتمعاً لم يوجد أو يخلق فيه أو منه ولن يوجد أو يخلق فيه أو منه من يمكن أن يمرض به أي بهذا المرض، بل ولا من سمع أو يسمع به أو يعرف أو قد يعرف أنه أي هذا المرض قد وجد أو أنه قد يوجد.. إن مجتمعي لا يعرف أو يتصور

الأمراض النبيلة العاقلة التي لا بدّ أن يمرض بها كل من يرون أو يفكرون أو يتساءلون أو يحاسبون أو يشترطون كما لا يصاب بها.!

.. إنه العذاب الدائم الشامل بكل صيغه ومعانيه وتفاسيره وقبحه ووحشيته. إنه العذاب الذي سببه والذي يصنعه كل شيء لا شيء دون شيء والذي لا ينقذ أو يحمي منه أي شيء. إنه العذاب الذي يصنعه التحديق في بلاهة وضخامة الشمس أقسى مما يصنعه التحديق في ضآلة وهوان الحشرة.!

.. إنه العذاب الذي تضيق كل حدود واتساع كل هذا الكون عن حدوده واتساعه. إن حدود الإنسان الفكرية والتصوّرية والعاطفية والإنسانية أوسع من كل الوجود، إذن أليس عذابه أبعد وأوسع حدوداً من كل الحدود؟

.. إنه العذاب الذي لم تستطع كل الآلهة أن تتخيّله حينما أرادت أن تتخيّل وتصنع أقسى العذاب في جحيمها لمن زعمتهم كل أعدائها وأقسى أعدائها. إنه العذاب الذي لم تتحدث عنه الآلهة في كتبها المنزّلة على أنبيائها الذين لم يكن محتملاً أن يتصوّروه فكيف يتحدثون عنه؟

.. إني لأقاسي كل ذلك كل أوقاتي بكل معانيّ وتفاسيري، كلما رأيت أو سمعت أو قرأت أو فكّرت أو سألت أو سئلت أو ساءلت أو أردت أو اشترطت أو حاورت أو تمنيت أو عرفت أو جهلت، وأنا دائماً أفعل كل ذلك.. وأنا دائماً مصاب بكل ذلك ومحكوم علي بكل ذلك دون أن أختار أو استشار أو أستطيع الرفض أو النجاة.

وأنا دائماً أقاسي كل ذلك كلما نطقت أو صمت، تذكرت أو نسيت، نمت أو استيقظت.. آه. «نمت.. نسيت»!. «نسيت»!

هل أنام؟ حتى السؤال كيف سألته؟ إني حينما أحسب أو أبدو نائماً لا أكون نائماً.!

.. إنها غلطة أو أكذوبة أو أمنية جميلة ضائعة أن أتحدث عن النوم والنسيان. إنها أمنية بل أمنيتان أي أن أنام أو أنسى.. أمنيتان مستحيلتان. هل عاقبني الإله بأن جعلني مثله لا أنام؟ هل هو عقاب أم بحث عن مثيل؟

.. إن أقصى السرف والترف في التمني والتأميل أن أتمنى: أن أنام أو أنسى، ليتني أجد من يهبني إحدى الأمنيتين.. من يهبني من المترفين المثقلين بهما إحداهما، أما كلتاهما فلن أجرؤ على التمني بأن أجد أو بأن يوجد من يهبني إياهما!

حتى التمني لذلك هل امتلكته أو جرؤت عليه؟ والأمنية الثالثة التي حرمت منها هي العمى الإنساني لا البصري، إنه لا عذاب كعذاب من لم يصب بهذا العمى.!

.. آه يا إلهي هل أنت جاهل كل هذا الجهل أو معادٍ لنفسك كل هذا العداء حين حرمت على نفسك النوم والنسيان بل وأعلنت افتخارك وتمجيدك لنفسك بذلك.. بهذا التحريم والحرمان؟ لماذا لا يوجد معذب ومشوّه لنفسه وراغب في تعذيب وتشويه نفسه مثل الإله؟ كيف جهلت يا إلهي أنك أعظم معذب لنفسك. أعظم معذب في الكون!

.. يا إلهي ليت جميع أطباء وعلماء وسحرة ومداوي ودجالي كل العالم يستطيعون أن يبتكروا دواء أو سحراً يشفيك من عذابك ومرضك.. من أرقك.. إن في شفائك هذا لكل الشفاء من كل الأخطاء والخطايا والحماقات والتوترات والآلام والسفاهات التي يقاسي منها كل شيء وكل أحد في هذا الوجود البائس لأنك أنت تقاسيها.

أليس محتوماً أن تنتقل مقاساة وآلام وأخطاء وضعف الخالق إلى مخلوقه؟

.. نعم، إني لأقاسي كل أوقاتي كل ذلك حتى حين أحدّق في عيني الإله وأنا مريض بالتحديق الدائم الذي لم أجد ولم يوجد ولن يوجد له أي علاج أو حتى تخفيف أو تخدير أو خداع.!

هل جربت يا إلهي التحديق في عينيك أو سألت من حدق فيهما إن وجد عن عذاب ذلك؟

حتى حين أحدق في عيني الإله المحدقتين بكل الإعجاب والانبهار والسعادة والفرح والرضا عن النفس أي المحدقتين في كل العاهات والتشوّهات والدمامات والبلاهات والآلام والفضائح والمظالم والآثام والهوان والقهر والهزائم والعورات التي أرادها وعشقها ودبّرها وخطّطها وفعلها وأخرجها وأعلنها وأبرزها وعرضها وباهى بها ضميره أي ضمير الإله وقلبه وعقله وتفكيره وأخلاقه وأمجاده وعبقرياته ويداه وكل تاريخه بل وجمّل أو اعتقد أنه قد جمّل بها ذاته ومواهبه وعرشه وثيابه ورؤاه، هل وجدت أو هل يمكن أن توجد عيون تستطيع أو تجرؤ أن تحدّق في العورات والقباحات مثل عيني الإله؟

.. ما أقسى وأفجع التفاسير لعيني الإله.. لأخلاقهما ولكل تفاسيرهما الرائيتين لكل ما تريان ويرى ولكل ما لا يستطاع ويرفض أن يرى..!.. ما أقسى وأفجع وأفجر وأكفر عيني الإله والتحديق في عيني الإله.. محدقتين في كل ما يصعق ويفجع ويفضح أن يرى بل أو أن يتصوّر أو أن يقال إنه قد يرى..

.. محدقتين بكل النشوة والطرب في كل ما لا بدّ أن تتحول رؤيته إلى أقبح وأوقح وأقسى وأبذأ استفراغ على العيون والعقول والقلوب والأخلاق والجمال والفنون وعلى كل شيء.!

كل الرثاء لا يكفي رثاء لعيني الإله لو كان فيهما أي معنى من معاني الرؤية.!

.. إنه لا شيء يصنع كل العذاب والغيظ والغضب والانفجاع والذعر مثل التحديق في عيني الإله أو في أي معنى من معانيه.!

إن عيني أوقح مجرم لا بدّ أن تتعذّبا وتفجعا وتبكيا مما تسعد به عينا الإله.!

.. إنها لن توجد بلادة أو وقاحة مثل بلادة ووقاحة عيني الإله ناظرتين بكل الوقار والاسترخاء والابتسام والإعجاب إلى كل شيء.!.. ماذا يمكن أن تقول عينا الإله الرائيتان لكل هذه الآلام والآثام والقبح والعبث والمظالم والشرور والتفاهات؟ أي ماذا تقولان لعقله وقلبه وضميره وأخلاقه عمّا تريان؟

❀ ❀ ❀

كذلك أقاسي كل هذه المقاساة حين أحدّق وأنا المحدّق الدائم بلا أية استراحة من التحديق. بلا أي إنقاذ أو منقذ منه أو أمل في أي شيء من ذلك..

أي حين أحدّق في ذكاء أو عقل أو تقوى أو كرامة أو صدق أو أخلاق أي نبي هبط إلينا في أضخم موكب من الشموس والنجوم، متوّجاً بكل عمامات وعباءات ولحى وشوارب كل الآلهة، محوّلاً كل الأحجار والأشجار والقصور والقبور وكل الهامات والقامات إلى منابر لكي يصعد فوقها ليفسد ويشوّه ويفجع ويلعن كل طاقاتنا ومعانينا الفكرية والعقلية والنفسية والأخلاقية والفنية بل والدينية بتحدثه المصاب بكل جنون الحب والتقديس والتعبّد والإعجاب والانبهار والبله ـ أي بتحدثه هذا بكل هذه التفاسير عن عبقرية وشاعرية وحكمة ورحمة ومحبة وعدالة وبسالة إلهه لأنه أراد وعشق ودبّر وخلق كل ذلك وأصاب بكل ذلك.. أصاب به كل شيء وكل أحد.. لأنه أصاب ويصيب ويستطيع أن يصيب وله الشكر أن يصيب كل أحد وشيء بما أصيب وبما سوف يصاب به!

... ولكن هل تستطيع أو استطاعت أية عين أو عقل أو قلب أو ضمير أو أخلاق مصابة بأي قدر من التحديق أن تحدّق في أي معنى أو صيغة من صيغ أو معاني هؤلاء الذين يجيئون إلينا لينصبوا أنفسهم لنا وعلينا أنبياء.. ليكونوا أضخم وأخلد وأقسى وأشمل وأوقح العاهات والتشوّهات والعداوات والجهالات والنذالات والانقسامات والأحقاد في عقولنا وقلوبنا ونفوسنا وأخلاقنا وأوطاننا وتاريخنا بل وفي ألسنتنا وأيدينا وأسلحتنا؟ هل استطاع أحد أن يؤمن بواحد من هؤلاء الأنبياء أو أن يراه إلّا بعد أن أصيب بالعمى المضاد للعمى أي بالعمى الذي يرى الشيء نقيض نفسه.. نقيض ما يراه الراؤون المبصرون؟ إن هذا العمى المضاد للعمى بهذا التفسير هو أقوى رؤية وإبصار في هذا الكون.!

.. هل هانت أو هزمت أو ماتت كل معاني التحديق مثلما هانت وهزمت وماتت في تعاملها مع الآلهة والأنبياء وفي قراءتها وتفسيرها لهم؟ إن المؤمنين بالآلهة والأنبياء الرائين لألوهياتهم ونبواتهم لا يستحقون أن يفسّروا بالتفسير الذي يرى أن كل البشر مصابون بالتحديق الأعمى أو بالرؤية العمياء.!

.. وإني أيضاً لأقاسي كل هذه المقاساة حين أحدق وأنا المصاب بالتحديق الذي لو أصيب بشيء منه إله هذا الكون لما بقي محدّقون ولا محدق فيه لأنه لا بدّ أن يحرق حينئذٍ أي الإله كل شيء وكل أحد وأن يحرق نفسه فراراً من التحديق في نفسه أو في أي شيء أو في أي أحد لأن التحديق أي لو وجد لن يعالج إلّا بالموت. بكل أساليب الموت أو بواحد منها فكيف إذا كان المحدق هو باصق هذا الكون بكل لغاته وتفاسيره؟

ـ نعم، حين أحدّق في الكائن أو في الإنسان الذي يذهب بكل الهتاف والصراخ والهوس والبله يدعو ويرجو من يؤمن ويزعم ويعلن أنه هو الذي أصابه بإملاء الحكمة والرحمة والتدبير والتفكير بل والحب بكل ما أصيب وبكل ما سوف يصاب أو قد يصاب به من آلام وعاهات وتشوّهات وأمراض وعجز وموت وأخطاء وخطايا بل وفضائح وعار وهوان.

ـ نعم، يدعوه ويرجوه ليشفيه وينقذه بل ويحميه من كل ما أصابه به بمشورة بل بإملاء وإلزام حكمته ورحمته ومحبته وتدبيره وتفكيره وشهامته وكرامته وكبريائه أي ليكون ذلك إعلاناً فاجعاً مهيناً عن أنه أي هذا المدعو المرجو قد كان حين أصابه مخطئاً أو ضالاً أو ظالماً معتدياً لهذا يتراجع ويدعى ويرجى وينتظر بل ويطالب ويجب أن يتراجع عما أراد وخطّط ودبّر وفعل.. وإعلاناً عن أنه قد

عرف أو أنه لا بدّ أن يعرف بأنه قد كان ذلك أي مخطئاً أو ضالاً أو ظالماً معتدياً حين أصاب بما أصاب به.!

.. أو ليكون ذلك إثباتاً أليماً قبيحاً بأنه أي هذا المدعو المرجو إنما يصيب بما به يصيب أملاً أو طمعاً أو رغبة أو شهوة شاذة مريضة فادحة التكاليف في أن يرى ويسمع كل الصلوات والتضرّعات والهامات والقامات والآهات والأنّات والدموع الغزيرة الذليلة في كل أوقاته واتجاهاته مرفوعة موجهة إليه، راكعة ساجدة تحت قدميه، مستغرقة مصبوبة في عينيه وأذنيه، متملّقة مسلية مرضية لكبريائه وأشواقه وشهواته الصغيرة العدوانية الهمجية في كل تفسيراتها وتعبيراتها. لكي يستمر يغني لنفسه إعجاباً بمكره البذيء الذي وهبه كل هذا التعبّد والتذلّل المفتضح المتعري المتساقط في عينيه وأذنيه تحت صراخ ضحكاته البلهاء..!

.. لهذا فقد يشفي وينقذ ويدعى ويرجى بأن يشفي وينقذ مما أراد وخطط وفعل ومما أوقع وأصاب به بعد أن يشبع من التغذي بهذا الطعام الذي لا يشبع منه أبداً مهما تحول كل شيء وكل أحد إلى شيء من هذا الطعام وإلى طهاة وموائد ومعابد ومطاعم له أي بعد أن يرشى بالرشوة المطلوبة المرضية القبيحة البليدة.!

أليس هذا التفسير هو أحد التفاسير الجيدة القوية لهذه القضية قضية أن يدعى ويرجى الإله لينقذ مما أصاب به متراجعاً، متراجعاً؟

طبيب عظيم بتر أحد أعضائك بكل رحمته ومحبته وحكمته ومعرفته المطلقة التي لن تخطىء أو تكذب أو تتغير كيف ترجوه ليعيد إليك ما بتر أو كيف يفعل ذلك؟ أليس هذا أقسى هجاء واتهام لعلمه وأخلاقه بل لكل معانيه؟

.. كيف أمكن أن يوجد من يسعد ويرضى بل أو يقبل بل أو يغفر أن يرى أو يسمع من يتضرّعون ويتذلّلون ويصلون ويركعون ويسجدون ويئنون ويبكون بين يديه وتحت قدميه وفي أذنيه وعينيه..

بكل صيغ وتفاسير الاستعراضات والاحتفالات والمواكب الكونية الإعلانية التعليمية التدريبية؟

على أي نموذج صيغت نفس وأخلاق ورؤى وشهوات وأنانيات هذا الكائن؟

.. ثم كيف وجد من يقبل وينفذ ذلك.. يقبله وينفذه ضد عقله وكرامته وشجاعته وتقواه وأخلاقه، وضد هامته وقامته واستوائه.. يقبله وينفذه في كل ذلك منه وفيه؟ كيف وجد من يفعله أو من يفعل به أو له؟ كيف يستطيع من يفعل ذلك أن يحترم نفسه بل أن يرى نفسه؟

... هل يمكن تصوّر سخف أو قبح أو سفه أو هوان أو غباء مثل هذا؟ كيف هبط الإنسان ليقول إن الإله قد فرض عليه ذلك، وليقول إن له أنبياء قد جاؤوا إليه ليعلموه ذلك ويدرّبوه عليه؟

❀ ❀ ❀

.. أو ليكون ذلك اعترافاً إعلانياً عالمياً بأن هذا المدعو المرجو أي هذا الإله يلعب ويعبث

أقسى وأغبى وأفجر وأقبح اللعب والعبث، وبأن من أساليبه المختارة في هذا اللعب والعبث أن يذهب بكل النشوة والحماس والرضا عن النفس يضرب ويدمر ويمرض ويشوّه ويفقر ويذل ويفجع ويخيف ويصيب بكل الآلام والشرور والهزائم... ليعود ويحذف ويبطل كل ما فعل فاعلاً النقيض، ثم ليعود، ليفعل النقيض ونقيض النقيض.. ليستمر يمارس هذا العبث واللعب بلا توقف أو هدنة للراحة أو للتفكير أو للحساب والرؤية أو تحت ضغط الوقار أو الرحمة أو الاستحياء أو الاستفظاع أو التوبيخ أو المحاكمة للذات أو للتساؤل.. للتساؤل: لماذا، لماذا هذا العبث واللعب المجنونان المجرمان؟

أليس هذا التفسير القبيح هو أحد التفاسير المحتومة في هذه القضية؟

.. كيف لم يفطن هذا المؤمن الداعي الراجي إلى ذلك؟ من هذا الذي استطاع وجرؤ أن يركب فيه كل هذه الغفلة والبلادة؟ أليس الإبداع في صنع الغفلة والبلادة يحتاج إلى عبقرية؟

الذكاء والغباء أيهما أكثر احتياجاً إلى العبقرية لتصوغه صياغة قوية سخية؟

.. كيف أصبح ممكناً في حساب أو ذكاء المؤمن المصاب أن يدعو ويرجو إلهه الذي أصابه ليشفيه وينقذه مما أصابه به؟ أليس دعاء ورجاء جرثومة المرض التي قتلت لتنقذ مما فعلت ولتحيي من قتلت أذكى وأعقل من دعاء الإله ورجائه لينقذ مما فعل؟

.. وبدون تصور هذا الإله مصاباً بهذا اللعب والعبث كيف يدعى ويرجى ليشفي وينقذ مما فعل هو؟ ومع هذا فإن تصوره كذلك لا يجعل دعاءه ورجاءه ليشفي وينقذ مما فعل معقولاً لأنه أي هذا الإله المدعو المرجو يفعل الشيء ونقيضه... يفعل الشيء ويتراجع عنه أي وينقذ منه لأنه يعبث ويلعب لإسعاد ومغازلة نفسه وإلهاء فراغه البائس الكئيب لا لأنه يدعى ويرجى ويستجيب..!

أي إذا كان هذا هو التفسير أو أحد التفاسير في هذه القضية.!

.. إنه لا يستطاع تصور أية فجيعة أو إهانة لكل المعاني الجيدة والمعقولة مثل أن يهتف هاتف قائلاً: يا إلهي انقذني، اشفني، احمني مما أصبتني به.. مما أصابتني به إرادتك وحكمتك ورحمتك ومحبتك وعدالتك ومنطقك وفنك وتخطيطك.. احمني، انقذني، اشفني، عالجني، طهّرني يا إلهي، يا إلهي.. مما أصابتني به يداك العبقريتان الفنانتان الحكيمتان الطاهرتان المنزّهتان المعصومتان عن أن تفعلا غير العدل والحق والفن والمنطق والحب والجمال والإنقاذ والرحمة والذكاء والمصلحة والخير لمن أعطتاه وصافحتاه ولمن حرمتاه وضربتاه وأصابتاه وشوّهتاه.!

أليس من قال انقذني يا إلهي مما أصابتني به يداك إنما يقول وإن لم يعرف أو تعرف أنت: اخرج يا إلهي على يديك، عاقبتهما، اهدم ما بنتاه، أثبت خطأهما وعدوانهما وفسادهما وإفسادهما وتخريبهما وتمرّدهما عليك وعصيانهما وتشويههما لك.. قاوم وقاتل يا إلهي يديك بنقض ما حاكتاه وغزلتاه وصاغتاه؟ ألست يا إلهي معتدياً على يديك ومحقّراً مجهلاً لهما لو أنك نقضت بيديك أو بغير يديك شيئاً مما فعلته يداك؟ كيف لم تفهم ذلك يا إلهي ولم يفهمه من يدعونك ويرجونك وينتظرون منك أن تفعل لهم ضد ما فعلت يداك وأن تفعل يداك ضد ما فعلتا وضد ما فعلت أنت؟ في أي

المدارس والجامعات ومن أفواه وعقول أي المعلمين والأساتذة تعلمت أنت يا إلهي وعبادك ودعاتك غباءكم هذا؟

هل توجد أو يمكن أن توجد تفاسير غير هذه التفاسير لهذه القضية أعني قضية دعاء المؤمن ورجائه لإلهه أن ينقذه ويشفيه مما أوقعه وأصابه به مؤمناً ومعلناً أنه لم يصبه ولن يصيبه إلّا بأوامر كل حكمته ورحمته ومحبته وعدالته ورؤيته وقدرته وشهامته وكرامته وعبقريته وكبريائه؟

والإله لا يستشير معانيه الجيدة بل تحكمه وكذا معانيه غير الجيدة..!

.. ولو وجدت تفاسير أخرى فهل يحتمل أن تكون أقل قبحاً أو غباء أو جهالة أو عدواناً أو إهانة لكل التفاسير والمفسّرين ولكل شيء جيد بل ولكل شيء غير جيد من هذه التفاسير؟

إن هذا الوجود والمسؤول عنه إن وجدهما كل القبح إن لم يفسّرا ويدافع عنهما بكل التفاسير إما إن فسّرا فلا بدّ أن تتحول كل تفاسيرهما إلى أقسى إعلان عن قبحهما.. إنه لكل الخروج على المنطق والجمال مفسّراً وغير مفسّر..!

.. أجل، إني لأقاسي كل هذه المقاساة كلما حدّقت هذا التحديق وكلما حدّقت أي تحديق وأنا المحدّق الدائم كل التحديق.. كل أنواعه وتفاسيره ومعانيه.. وأنا المحدّق الذي لا بدّ أن تقتل أو تحرق إحدى تحديقاتي كل شيء وكل أحد أي لو كان أي شيء أو أي أحد قد يقتله أو يحرقه أي تحديق أو كل التحديق.! إن كل الأشياء فيها مناعة ضد التحديق تحميها من أن تقتلها أو تجرحها مهما وجب أن تفعل بها كل ذلك.!

.. وأنا المحدّق الذي لن يقبل أو يستطيع أي إله أن يظل فوق عرشه أو داخل نفسه أو أن يبقى موجوداً أو أن ينظر إلى شيء أو أحد من كونه خيفة أن يراني محدّقاً فيه أو في أي شيء، خيفة أن يقرأ أو يفهم تحديقي أعني لو أنه أصيب بشيء من التحديق الذي أنا مصاب به كله أو لو عرف ماذا يعني التحديق.!

ولكن الإله معصوم من كل ذلك لهذا استقر حيث يجب أن يحترق قلقاً وعاراً.!

.. وأنا المحدق التحديق الذي لو وعاه من ابتكروا أو وضعوا اللغات ومن يتكلمونها لما وجدت كلمة «تحديق» ولا وجد من ينطقون بها ولا من يضعونها في أي قاموس لغوي.! إنهم سيعرفون حينئذٍ أنه لا يوجد ولن يوجد تحديق فإذا وضعوا كلمة تحديق كانوا غالطين!

هل أحتاج إلى أن أقول إنه لا يراد هنا تحديق العيون، بل إنه تحديق ضد العيون وضد رؤيتها وتحديقها وضد كل ما تراه العيون وتحدق فيه، إن العيون لا ترى أو تحدق مهما بدا أنها فعلت وتفعل ذلك.. إن رؤيتها وتحديقها بلا رؤية ولا تحديق أو ضد الرؤية والتحديق.. إن المحدّق الرائي كائن آخر لا تراه العيون ولا تريد أن تراه، إنه يعذبها ويفجعها ويفضحها، إنه عدوّها الذي لا يسالم!

وما أقل هذا الكائن، ما أقله، إنه لا يوجد بوجود العيون ولا يفقد أو يضعف بفقدها أو ضعفها، إن وظيفة العيون ضد التحديق أو هكذا جاءت!

إنه لو كان ممكناً اتهام الإله بالذكاء لكان ممكناً ومعقولاً اتهامه بأنه إنما خلق العيون لئلا يوجد التحديق.. وإنه أي الإله لو كان يعرف معاني التحديق لما خافه وقاومه وكرهه أحد مثله.!

.. إنه لا يوجد مضلل وخادع بل وغافر مادح معظم هاتف مجمل لكل الدمامات والنذالات والبلادات والهوان والعذاب والهزل والعبث مثل العيون القوية الرؤية في كل مقاييس الطب والأطباء.!

إن قوة الإبصار قد تعني أو لا بدّ أن تعني ضعف التحديق.!

.. إنه لا شاتم ولا مهين ولا محقّر للعيون ولا باصق عليها مثل العيون، إنه لا عدوان على العيون مثل عدوان العيون، إنه لا يوجد أو يعرف من يقاسي من العدوان عليه مثل العيون.!

إنه لا فاقد للرؤية ولا راءٍ ضد الرؤية مثل العيون المبصرة الناظرة الهاتفة لجمال وكمال وروعة ما ترى.!

إن العيون لو ترى أو رأت ما تراه لما كان مثلها فاجعة ومفجوعة رافضة للرؤية.!

.. لتُسأل عينا الإله وعيون جميع أعوانه وأنبيائه ودعاته هل حدقت أو استطاعت أو تستطيع أن تحدق ولو مرة واحدة في أي شيء مما ترى ويرى، بل هل استطاعت ألا تكون مانعة ممنوعة من التحديق؟ هل سئلت أو تساءلت هذا السؤال أو التساؤل أي عيون هؤلاء؟

.. أليس بقاؤها أي عيون الإله وأعوانه وأنبيائه ودعاته في وجوه أصحابها تعاملهم ويعاملونها بلا انفجار أو احتراق أو فراق أو قتال أو حتى خصام بينها وبينهم دليلاً لا تستطاع محاورته على أنها لم تحدق ولا تستطيع أن تحدق ولا مرة واحدة. بل وعلى أنها ممنوعة بل ومانعة من التحديق؟ أليس محتوماً أن الإله قد اشترط لوجوده وعليه ألا يكون محدقاً واشترط على أنبيائه وأعوانه ألّا يكونوا محدقين؟

.. ها أنت ترى واحداً من هؤلاء يحدق بكلتا عينيه في صورة من صور الدمامات والتشوّهات والآلام والحقارات والنقائص والمظالم والمهانات والذنوب والشرور التي تغطي هذا الوجود وكل وجود دون أن يقتل عينيه أو تقتله عيناه، بل ثم يذهب بكل النشوة والفرح والرضا يبتسم لعينيه وتبتسمان له ويعانقهما وتعانقانه، بل ثم يذهب بكل الكبرياء والإعجاب والاقتناع والصراخ الإعلاني يتحدث عن جمال وكمال وروعة وعبقرية ما يرى مغنياً هاتفاً لعينيه، مغنية هاتفة له عيناه.!

هل رأيت ذلك ولو مرة واحدة؟ هل سألت عينيك؟ سلهما، سلهما.!

.. هل تقبل أو يقبل أي كائن أن تكون أو يكون رائياً أو مواجهاً لهذا الإله أو النبي أو الملاك أو القديس أو المؤمن محدقاً هذا التحديق معبراً عن تحديقه فيما حدق فيه هذه التعابير؟ نعم، لقد قبلت دون أن تدري أنك قبلت أو كيف قبلت أو ماذا يعني قبولك لذلك أي أن تكون رائياً مواجهاً لهذا الإله أو النبي أو الملاك.!

.. ماذا يمكن أو يحتمل أن يكون أو يصاغ الحوار بينه أي بين الإله أو النبي أو الملاك أو القديس أو المؤمن وبين عينيه وهو يحدق هذا التحديق في إحدى هذه الآفات أو في كثير منها أو

فيها كلها أي لو كان ممكناً أو محتوماً أن يوجد هذا الحوار؟ وماذا يمكن أن يكون في تصوّر من يتصوره؟

.. أطالبك أيها العار، يا كل العار أن تعلم هذا الإله أو النبي أو الملاك أو القديس أو المؤمن المحدق هذا التحديق أي لو حدق هذا التحديق وأيضاً إذا عجز عن هذا التحديق.

ـ أطالبك أن تهبه شيئاً من الكرامة أو الاستتار أو التقوى بل وأن ترثي له وتشفق وتستر عليه من عاره المغطي لكل الكون.!

هل يوجد عدو لأي كائن مثل عينيه لو كانتا تحدقان؟

.. ثم هذه الآفات والفظاعات ماذا يمكن أن تقول للعيون المحدقة فيها لو استطاعت أن تقول.. أن تقول لعيون الإله والأنبياء والملائكة والقديسين والمؤمنين المحدقة فيها بلا معالجة أو محاولة بل بلا اشمئزاز أو استنكار أو رفض أو غضب أو بكاء بل بفرح وسعادة ورضا ورقص وغناء؟ ماذا يمكن أن يقول لو استطاع أن يقول الجسد المغطى بكل التشوّهات لعين الإله أو النبي أو الملاك أو القديس المحدقة فيه بإعجاب ورضا وثناء على من فعل به ذلك أو ببلادة أو استرخاء وتثاؤب؟ صعب جداً ما يمكن أن يقول هذا الجسد.!

.. هذه القصة إنها قصة الوجود كله بكل ما فيه من آلهة ونبوات وعبقريات وحضارات وإنسانيات..!

إنها قصة لم يكتبها أو يقرأها أو يفكر فيها أحد..!

.. إنها قصة كل شيء وكل أحد.. إنها مجد أو عار كل شيء وكل أحد..

إنها قصة لم تعرف الآلهة إيحاءها إلى الأنبياء أو يعرف الأنبياء قراءتها على البشر.!

.. كيف أمكن الصمت عنها بكل هذه الغفلة والبلادة، بكل هذه العالمية والكونية والديمومة؟

كيف لم تصبح هذه القضية أضخم هموم واهتمامات كل العالم؟ نعم.

.. الآلهة والأنبياء وكل إله ومعاونيه ومستشاريه وموظفيه يحدقون في كل الآفات والعاهات والدمامات والحقارات والآلام والأمراض والموت وفي كل ما يهين ويفجع ويقهر.

ـ يحدقون في كل ذلك كل الأوقات بكل الاسترخاء والغباء بل وبكل الابتسام والفرح والرضا والإعجاب والإنشاد لمجد ذلك ولمجد من أراده وفعله وذهب يتغذى ويتسلى ويتغنى بالتحديق فيه.. يحدقون فيه ليجدوه أذكى وأتقى وأقوى وأنفع وأصلح ما يريده ويحبه ويعرفه ويرضاه ويسعد به ويستطيعه ويفعله الإله قائلين: ليس في الإمكان أبدع مما كان!

.. أما البديل عن هذا الافتراض فهو أن هؤلاء أي الإله ومن معه وحوله وتحته يعيشون بكل أساليب وتفاسير الاسترخاء والتثاؤب والتبلّد والخمول والضحكات البلهاء فوق وتحت ومع وبين هذه الأكوان الدميمة البليدة الأليمة الفاجعة العابثة المهينة لكل الرؤى والحسابات والتفاسير والمنطق دون

أن يقاسوا أية مقاساة أو احتجاج أو غضب أو رفض أو حتى تساؤل بروؤاهم أو عقولهم أو قلوبهم أو ضمائرهم أو أخلاقهم أو حتى بإيمانهم وتقواهم وتديّنهم.. دون أي شعور أو نبض قابل أو رافض معجب أو مستنكر لأنهم أجهزة صامتة كل معاني الصمت..

.. دون أن يقاسوا أية مقاساة من التحديق الناقد الرافض الغاضب المحاسب المحاكم المشترط المحارب أو حتى الصارخ الباكي المتأوّه المتوجّع، أو حتى من التحديق المهادن المسالم المسترخي العاجز المريد المرجىء الكسول الرافض المنكر بلا فعل أو إقدام، لأنهم مصابون بعمى شامل.. بعمى مهين لكل مزايا العمى ومعانيه لأنه يرى الأشياء رؤية مضادة.!

.. إذن فأي الافتراضين ينبغي أن نختاره أو فرض أو يفرض علينا اختياره تفسيراً للإله ولجنوده وأوليائه وأنصاره هؤلاء.. تفسيراً لبلادتهم الفاجعة المذهلة المواجهة والمعايشة لكل هذا القبح بكل صيغ وتفاسير القبح.. بكل هذا الرضا والتقبل الذي لا بدّ أن يثير غضب واشمئزاز وانفجاع الحشرات.!

هل هو فقد للرؤية المحدقة المحاسبة أم هو فقد للحماس والإرادة والعقل والشهامة والنشاط والمبالاة والمنطق ولكل الأحاسيس والمشاعر الجيدة أم القضية أسوأ وأردأ من كل ذلك ومن كل افتراض؟ وهل وجدت هذه القضية أو يمكن أن توجد كما ذكرت أم هو افتراض لا بدّ منه؟

.. ما أفجع وأقسى الاختيار للإله. وما أعظم عذاب وحيرة وضياع من يختار أو من فرض عليه أن يختار للإله.!

ولكن هل وجد من يختار له؟ وهل يمكن أن تجد الإله لو اخترت له أو لو رأيت ذلك؟

ومع هذا هل وجد أو يمكن أن يوجد من يجب الاختيار له مثل الإله أي إن كان من الممكن والمستطاع الاختيار له؟

أليس الإله هو أعظم محتاج دون أن يستطاع تسديد أي احتياج من احتياجاته ودون أن يوجد من يحاول أن يفعل ذلك؟

ولكن كيف تبلّد كل العالم كل هذا التبلّد الأزلي الأبدي؟ كيف استطاع أي العالم أن يهب نفسه كل هذا التبلّد أو أن يجد من وهبه ويهبه كل ذلك؟ من أين تأتي البلادة والتبلّد؟ من يصدرهما، من؟ كيف لم يتجمع ليوظف ويحرض كل علمائه وخبرائه وأذكيائه وأتقيائه بل وأدبائه وشعرائه ليختاروا ويضعوا للإله صيغاً ونماذج عقلية ونفسية وفنية وأخلاقية وجمالية تتفوّق كثيراً على صيغه ونماذجه التي جاء بها ليعرضوها عليه بأشتات الأساليب.. القوية الملائمة.. المهذبة المتلطفة الشعرية.. والعنيفة الإملائية التهديدية.. بكل الأساليب المختلفة والمتضادة.. المغرية المرضية والمزعجة المخيفة.. بكل الأساليب واللغات المجربة والمبتكرة.. أليس في الحساب أن يختار حينئذٍ أفضل وأعقل مما كان؟

.. كيف لم يفعل العالم ذلك؟ أليس محتملاً أن يتقبّل ويستجيب بأسلوب ظاهر معلن أو بأسلوب متستر مخادع أي الإله؟

بأيهما يجب أن يوصف العالم هنا: بالإهمال أم بالبلادة.. بالتبلّد أم بالبلادة؟

أليسوا يزعمون ويعتقدون أنه يتقبّل الدعوات والتضرّعات والهتافات والرجاء والتأميل منه وفيه فيغيّر مواقفه وأخلاقه وأفكاره وانفعالاته استجابة لذلك؟ أليسوا يزعمون وإن لم يعرفوا أنه لا مغير لمواقفه ولا متأثر منخدع بما يسمع وبما يقال له ويطلب منه مثل الإله؟

.. ألا يمكن أن يستيقظ وينشط العالم فيفعل في الحاضر أو المستقبل لإلهه ما لم يفعله له في كل تاريخه أي يختار له كينونات أفضل وأعظم بل وأسعد من كل كينوناته الكائنة والتي كانت ويطالبه بالتحول إليها؟ أليس في هذا أي لو حدث من الإنقاذ والعطاء له أي للإله مثل ما فيه من الإنقاذ والعطاء لكل شيء ولكل أحد؟ كيف لم يعرف العالم ذلك؟

.. أليست الاحتمالات لأن يسمع ويستجيب الإله قد أصبحت قوية لأن المفروض أنه أي الإله قد أصيب بالتواضع وبالنقد للذات وبالمحاسبة والمساءلة لها، وأنه قد تعلم أشياء كثيرة لم يكن في البدء يتصوّرها، ما أقسى وأنفع نقد الإله لنفسه.!

إن كل اهتمامات العالم ونضاله أن يقفز بالعالم قفزات عظيمة نافعة متجاوزة لكل شيء رديء وضعيف، إذن لماذا لا يحاول القفز بالإله القافز بكل قافز إلى المستوى الذي يستطيع القفز إليه بإرادته وكلمته وبيديه بدون جناحيه.!؟

لقد رأى أو المفروض أنه قد رأى قفزات وإبداعات الإنسان في هذا الكون حتى لأوشك أن يصوغه صياغات أخرى متفوقة جداً على صياغاته أي على صياغات الإله له، بل حتى لأوشك أي الإنسان أن يكون هو مديّره ومخطّطه وحاكمه ومفسّره ومعلمه قوانينه. ولكن أليس ذلك كذلك أي أليس الإنسان هو وحده الذي يدبّر ويخطّط ويفسّر ويعلم ويصوغ ويحكم هذا الكون؟

.. إنها هزة بل صدمة هائلة لكبرياء الإله ولإعجابه بقدراته وعبقرياته وبمعرفته وحكمته وخبرته أعني إبداعات وقفزات الإنسان في هذا الكون الذي أراده الإله غباءً فصاغه الإنسان ذكاءً؟

.. إنه إذن لحتم أو افتراض أنه قد أصبح يقاسي من التواضع والاستحياء والتحقير للذات بل ومن الخوف الرهيب الدائم.. من الخوف على مجده وسلطانه بل وعلى وجوده ومن الشعور بالنقص!

لقد سحبت إبداعات الإنسان منه كل مجده وسلطانه وأوشكت أن تسحب منه وجوده.!

.. وأيضاً قد رأى أو المفروض أنه قد رأى كيف تحكم وتطاع وتحترم أصوات وآراء ورؤى ورغبات ومطالب الشعوب والجماهير، وكيف يسمع ويخضع لها الحكّام والقادة والقادرون والمتفوّقون دون أن يعني ذلك أي نقص أو هوان أو حتى ضعف أو غضب أو غيظ في هؤلاء الحكّام والقادة والقادرين المتفوّقين بل فيه كل التمجيد والحب لهم والإعجاب بهم والرضا عنهم. أليست طاعة الأقوياء للضعفاء المستحقين للطاعة من أنبل وأقوى الأخلاق فكيف طاعة الخالق للمخلوقين؟

إنه لا أتقى وأوجب من طاعة الخالق الذي أصبح متخلّفاً لمخلوقه الذي أصبح متقدّماً عليه.!

.. نعم، أليس كل هذا لا بدّ أن يجعل أو قد يجعل الاحتمالات جيدة لأن يستجيب الإله حين

تختار له وتعرض عليه صيغ ونماذج أذكى وأتقى وأقوى من نماذجه وصيغه التي كانت والتي هي كائنة لكي ينتقل إليها ويكونها؟ أليس مستمراً في قتل وتعذيب كل نماذجه التي خلقها؟ أليس هذا تراجعاً عن مستواها الخلقي والفني.. عن عبقريته.. لقد رأى وتعلم أشياء جديدة ورائعة وأصيب بالتواضع الحاد المذل فكيف لا يستجيب بل كيف لا يطيع بلهفة وتشكّر وتأدب؟ أليس كل مجد الإله وسعادته وفخره أن يرضى عنه الإنسان ويعجب به ويشكره ويطيعه بل وأن يطيع هو الإنسان ويرضيه وأن يفعل له ما يجعله راضياً عنه معجباً به مطيعاً له؟ أليس كل نضال الإله من أجل ذلك وتأميلاً فيه حتى لقد تحوّل نضاله هذا وأمله هذا إلى افتضاح شامل؟

هل افتضح أحد مثل الإله في تملّقه للإنسان طمعاً في أن يحترمه ويعبده؟

.. أليست الأرض هي دائماً المعلمة للسماء والقارئة المفسّرة الرائية لها الصاعدة إليها وليس العكس؟ بل أليست الأرض هي دائماً المكتشفة المراسلة لها المتحدثة إليها أي للسماء وإليها؟

أليست الأرض هي أبداً آلهة السماء وأنبياءها ومخاطبتها ومحاورتها وآمرتها وصانعة مجدها وهوانها؟ أليست الأرض هي المصدّرة إلى السماء كل أنبيائها ودعاتها ومعلميها ومفسّريها؟

أليست الأرض هي عين السماء وضميرها وقلبها وعقلها وأخلاقها وفجورها وتقواها؟ أليس الإنسان يصعد إلى السماء بقوة الأرض وعقلها وعلمها وأخلاقها لا بقوة السماء أو بعقلها وبعلمها أو بأخلاقها..

أليس الذين تعلّموا السماء وعرفوها وسمعوها إنما تعلموها وعرفوها وسمعوها من الأرض لا من السماء؟

أليس الذين صاغوا كل أوصاف الإله هم سكان الأرض لا سكان السماء؟

أليس سكان الأرض هم الذين أروا الإله وعلّموه لسكان السماء؟

أليس إله السماء يسعد ويشقى، يرضى ويغضب، يكبر ويصغر بسكان الأرض لا بسكان السماء.. يبحث عن سكان الأرض وعن رضاهم لا عن سكان السماء ولا عن رضاهم..؟

.. يقرأ ويعرض نفسه على سكان الأرض لا على سكان السماء.. يبيع نفسه لسكان الأرض لا لسكان السماء؟

أليس عرش الإله مصنوعاً من خشب الأرض لا من ذهب السماء؟

أليست الأرض هي التي علّمت السماء القراءة والكتابة واللغات دون أن تعلم السماء الأرض شيئاً؟

أليس أذكى وأعظم وأفضل الآلهة هي التي تتعلّم من الأرض لا من السماء؟ أليست أعظم خطوات وتخطيطات ومغامرات الآلهة أن تهبط إلى الأرض باحثة عن الإنسان متودّدة إليه ملقية بنفسها بين يديه؟

.. أليس كل سكان السماء موظفين وعمالاً وحراساً عند سكان الأرض؟ أليست كل وظائف سكان السماء للإنسان وفيه ومعه ومن أجله؟

أليس إتقانهم لتعاملهم مع الإنسان وعجزهم عن هذا الإتقان هما اللذين يهبانهم رضا إلههم وغضبه؟

أليس الإنسان باستقباله لهم وتعامله معهم هو صانع أحزانهم ومسراتهم؟

أليست كل دموع السماء وأشواقها إنما تتقاطر وتسيل على خدود الأرض.. إنما تسيل وتتقاطر من عيون وقلوب الأرض؟ أليست الأرض هي التي ركبت في الإله وفي السماء وسكانها العيون والقلوب؟

.. إذن هل الإله بكل أجهزته إلّا موظف عند الإنسان وللإنسان يريد ويدبّر ويشرّع ويفعل ويرضى ويغضب ويحب ويكره ويحزن ويفرح ويحارب ويسالم ويقبل ويرفض ويطيع ويعصي ويتراجع ويتناقض بل ويبكي ويبتسم ويمدح ويلعن ويكون ولا يكون بل ويتأرق كل أوقاته بلا نوم، بلا ممارسة أية متعة أو لذة.

ـ نعم، يفعل كل ذلك وغير ذلك كل أوقاته من أجل الإنسان..

من أجل إسعاده وإرضائه وإعطائه ما يريد ويطلب ويتمنى؟

إنه يعلن: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ويفاخر: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾.. أليس قد حوّل أعظم أحبابه إبليس إلى أعظم أعدائه من أجل الإنسان؟

بل لعل الإله لم يصنع وجوده أو يسعد أو يرض أو يفخر به إلّا من أجل الإنسان ومعايشته.!

.. إذن كيف لا يستجيب بكل السمع والطاعة والفرح والتأدّب لو أن الكون.. لو أن الإنسان اختار له نماذج وصيغاً أعظم بكل التفسير من صيغه وتفاسيره ثم قدمها إليه طالباً منه أي من الإله أن يأخذ بها لتكون بديلاً عن صيغه ونماذجه التي عاش بها وجرّبها طويلاً، طويلاً فلم تصنع له ولا لمن تعاملت معه وعملت فيه إلّا الهزائم والفضائح والعذاب وكل ألوان الخسران ومعانيه؟

إنه لا خاسر أو مهزوم أو مفضوح أو مهان أو معذب معصي بما فعل مختاراً لنفسه مثل الإله.!

أليست استجابته لمن يطالبونه بأن يغير ذاته وكل صيغه ونماذجه إلى الأفضل والأعظم والأقوى أنبل وأنفع من استجابته لمن يطلب منه رغيفاً أو قميصاً أو قتل خصم أو هزيمة منافس أو إذلال قريب؟

أليست استجابته لمن يقول له: كن كما يجب وينتظر أن يكون الإله أروع وأتقى من استجابته لمن يقول له: كن لي ومعي أقوى وأفضل مما تكون مع عدوي أو ندّي أو جاري ومما تكون له؟ هل يوجد أقذر أو أسفه من استجابة الإله لدعاء خصم على خصمه لأنه طلب ذلك منه متضرّعاً متذلّلاً؟

إنه لا يمكن تصور محقر معير مسفوه عليه مثل الإله مطالباً بما يطالب به ومرجواً منتظراً منه أن يفعل ما يطالب به.!

ما أصغر الإله في تصورات وعقائد من يطالبونه بما يطالبونه.!

.. إن كل مطالبات الإله واستجاباته المقروءة والمسموعة لا بدّ أن تكون أو قد تكون كل

البلادة والعبث والسخف والضياع والخسران. أليس يطالب بأن يضرب ويقتل ويهين ويصنع اليتم والعار والتشوّهات وأمثال ذلك.!؟

.. أما مطالبته بأن يستبدل بذاته ذاتاً أخرى فلا بدّ أن تكون أي مطالبته هذه كل الذكاء والعقل والحق والواجب أعني إن كان ممكناً أن يكون حاضراً سامعاً واعياً، إن هذه المطالبة لأمنية معقولة واحتجاج معقول بل ومحتوم مهما كان عجز المطالب أو فقده.!

.. هل يمكن تصوّر ما يساوي بله وجهل وسفه وعبث نبي أو أي مؤمن أو كائن يهتف قائلاً: يا إلهي هبني أو هب الإنسان أو هب كل أحد وكل شيء الكمال أو الجمال أو العقل أو الذكاء أو الصفاء أو الحب أو القدرة أو الصحة أو الاستقامة والتقوى أو الشفاء من الحقد والبغض والقسوة والأنانية والجبروت والطغيان، أو هبني وهب كل أحد وكل شيء كل ذلك.

ـ دون أن يقول أي هذا النبي أو المؤمن أو الكائن هاتفاً محترقاً صارخاً، صارخاً: يا إلهي هب نفسك كل ذلك، هب نفسك كل ذلك، فلا أحد يحتاج إلى كل ذلك مثلك، ولا أحد فاقد بل ورافض ومعادٍ لكل ذلك مثلك أو غيرك... فلا أحد حام لنفسك ولكل شيء ولكل أحد من ذلك مثلك أو غيرك يا إلهي، يا إلهي الذي لا يستحق كل الحساب والعقاب على كل الخطايا والأخطاء مثلك بل غيرك؟ كيف يخفى على من يطلبون من الإله أن يهبهم الكمال أو أي شيء جيد أنه لا فاقد لكل ذلك مثل الإله؟

. ماذا يمكن أن تكون يا إلهي مشاعر أعوانك ومستشاريك وأهلك المساكنين المعايشين الرائين لك العارفين بك حين يسمعون من يطالبونك بأن تصنع لهم وللآخرين كل ما يجب وينبغي دون أن يطالبوك بأن تصنع شيئاً من ذلك لنفسك؟ إنهم يعرفون كم أنت محتاج إلى أن تعطى أو تعطي نفسك ما يطلب منك أن تعطيه.!.. هل يوجد من يستحقون الرثاء والإشفاق مثل من يعايشون ويساكنون ويرون ويواجهون الإله بلا حجاب؟

.. كم يمكن أن يكون انزعاجهم وغيظهم واشمئزازهم حين يجدون هؤلاء المطالبين يطالبونك ولا يطلبون لك.. يطالبونك ويطلبون منك أن تفعل لكل أحد ولكل شيء ما أنت أشد احتياجاً من كل شيء وكل أحد إلى أن تفعله لنفسك دون أن تفعله أو تريد أو تفكر أن تفعله، أي لنفسك.!

إنهم يفسّرونك أقبح التفاسير إذ يرونك تهب الكمال للآخرين ولا تهبه أو حتى تريده لنفسك.!

.. إني هنا أفترض أن من حولك أيها الإله من أعوان وأهل ومستشارين لم يتعلموا منك أخلاقك ومنطقك ورؤاك وحساباتك، لهذا أتكلم بأسلوب من ينتظر منهم أن يكونوا كما يجب وينبغي أن يكونوا لا أن يكونوا كما وجدوك ورأوك وعرفوك.!

.. إن الإصلاح والتصحيح والتقويم والتكوين الجيد لذات الإله ولكل تفاسيره وطاقاته وتصرفاته وانفعالاته لهو أوجب وأنفع وأعظم الأشياء، بل إنه الشيء الذي به يكون الإصلاح والتصحيح والتقويم والتكوين الجيد لكل شيء ولكل أحد، والذي بدونه لن يكون إصلاح أو تصحيح أو تقويم أو تكوين جيد لأي شيء أو لأي أحد..!

.. لهذا لم يكن شيء من هذا الإصلاح أو التصحيح أو التقويم أو التكوين الجيد لأي شيء في هذا الوجود لأنه لم يكن شيء منه للإله..!

.. لهذا لم يستطع الإله ولا جميع دعاته أن يحققوا شيئاً من ذلك أي من هذا الإصلاح أو التصحيح أو التقويم أو التكوين الجيد في هذا الوجود أو في أي وجود آخر لأن الإله قد ظلّ بدون شيء منه كل تاريخه الطويل الأليم البائس.! إنه لو وفد من فوق هذا الكون وافد وألزم بأن يقوم بأوجب إصلاح وتصحيح لما بدأ بغير الإله المنصوب فوق هذا الكون.!

لقد ذهبت وظلّت كل محاولات الإله ودعاته وموظفيه نباحاً ونعيباً ونقيقاً ووعيداً وزئيراً وإزعاجاً وضياعاً واتهاماً ووقاحات ولعنات وتشوهات وتشويهات وبذاءات دون أن تعطي شيئاً جيداً ظلّوا يزعمون ويعلنون أنهم لم يتخلقوا أو يقبلوا أن يجيئوا أو يحيوا إلّا لكي يعطوه، لأن صيغ الإله ونماذجه وجميع مستوياته النفسية والعقلية والفنية والأخلاقية ظلّت ثابتة لم تتحوّل إلى هذا الشيء الجيد الذي يتحدثون عنه أو إلى أي شيء جيد آخر من أي نوع وبأي أسلوب.!

هل يمكن أن يتغير الجهاز أو الآلة دون أن يتغير أو يغير مشغلهما أو مهندسهما؟

هل يمكن أن يعجز أحد عن فهم هذا؟ حتى الأميون في مواهبهم واحتمالاتهم هل يمكن أو هل يستطيعون العجز عن فهم هذا حتى ولو أرادوا وقرروا العجز عن فهمه؟ ولكن هل وجد أو يمكن أن يوجد من لا يعجز عن فهم ما لا يستطاع العجز عن فهمه؟

أيضاً هل يوجد من لا يفهم ما لا يمكن فهمه؟

.. إنه لو كان كل شيء يكون كما يجب وينبغي ويعقل أن يكون لكان محتوماً أن يحشد العالم كله: كل علمائه وخبرائه وحكمائه وشعرائه وأطبائه وفنانيه ومهندسيه ونفسانييه بل وحداديه ونجاريه ونساجيه وسباكيه ومزارعيه ليطلب إليهم ويلزمهم لكي يضعوا ويختاروا صيغاً ونماذج أخرى جيدة لكي يقدموها إلى الإله لتكون بديلاً عن صيغه ونماذجه، ملزمين له بها بكل أساليب الإلزام الإقناعية أو القهرية أو الإقناعية القهرية، مثلما تفعل الشعوب مع حكامها وطغاتها وقادتها ومثلما تفعل بهم بل أقسى وأشمل وأكثر حرارة وحماسة وقوة مما تفعل الشعوب مع أربابها هؤلاء وبهم.. لماذا لم يفعلوا ذلك بإلههم؟

أليست الحماسة والقوة والضربة يجب ويطلب أن تكون متكافئة مع الهدف والغاية والحاجة والمقاومة ومع من توجه إليه وضده الضربة؟

ويستطيع العالم أن يمارس أساليب عديدة ليضغط بها على الإله ليتقبل الالتزام بما يعرض عليه.!

.. من هذه الأساليب أن يهدده بالإضراب عن الإيمان به وعن عبادته بكل أنواعها الجيدة والرديئة.. وهل في العبادة ما هو جيد؟

وهل يوجد ما يساوي رداءة وبلادة من تصوروا العبادة وشرّعوها؟

.. ومنها تهديده باختيار آلهة أخرى أو إله آخر غيره لينزل هو من عرش الألوهية أو ليكون شريكاً لا وحيداً..

لكن قد يرى الإله إنزاله عن عرش ألوهيته ثواباً له وليس عقاباً.!

.. ومن ذلك أيضاً تهديده بهدم بيوته أي معابده والتوقف عن تشييد الجديد منها.. وبإحراق كتبه ومنع تداولها وقراءتها وطبعها وعرضها أي قرآنه وتوراته وإنجيله وغيرها وهذا التهديد يفترض كتبه هذه مجداً له لا فضحاً وتعييراً يسعد بالتخلص منها.!

.. كذلك تنظيم المظاهرات الشاملة الصارخة معلنة ومتحدثة عن كل ما في تاريخه من أخطاء وخطايا ومظالم واستبداد وعدوان وإهمال وعجز وسفه وفضائح وقبائح.!

إنه لن يوجد أو يتصور تهديد يساوي هذا التهديد في فضحه وإذلاله وإرهابه.!

.. إنه حينئذٍ لن توجد أو تبقى له أية فضيلة كما لن تستطاع تبرئته من أية نقيصة أو رذيلة، إنه الغرق، الغرق في الآثام والفضائح.

.. ومن هذه الأساليب أن يهدده بتخريب أشياء من كونه الذي يزعم أنه قد خلقه بكل الحكمة والنظام والروعة ليكون ذلك إعلاناً عن عجزه المطلق لأنه لن يستطيع أن يعيد أو يصلح ما خرب.!

ماذا لو أن العالم أطفأ الشمس أو أسقط القمر أو جفف أو شرب الأنهار والبحار؟ هل يستطيع الإله حينئذٍ أن يعيد شيئاً من ذلك إلى ما كان؟

كيف لم يفطن أحد إلى ذلك ويبحث له عن تفسير؟ إنه كل الإهمال والعطل..

.. كذلك تهديده بتحريض أعوانه وموظفيه من سكان السماء على الثورة ضده أي ضد الإله، يا لها من ضربة لم يجربها الإله.!

وكم كان يجب أن تسدد إليه.! ولكن ما أكثر أن تخطيء وتعجز الأحداث.!

.. إن هؤلاء الأعوان والموظفين ناضجون للثورة. إنهم يقاسون كل المقاساة كل أسبابها.. فهم مكلّفون بأداء أقبح وأنذل وأرذل وأفدح الأعمال وأغباها بلا أي ثمن أو أجر أو مصلحة حاضرة أو آتية.. بلا أية علاقة أو تفاهم أو رغبة أو أحاسيس بينهم وبين ما يفعلون.. بلا أي إغراء أو رجاء أو حتى وعد بالتعويض.

.. لقد كان المفروض والمنطق أن يكونوا أول الثوار وأقسى الثوار على طاغيتهم وعلى كل وجودهم وظروفهم؛ لقد كان اختراقاً لكل التجارب والاحتمالات أن سكان السماء لم ينفذوا أية ثورة ضد وحشهم الرهيب.!

ولكنهم لم يفعلوا ما يجب أن يفعلوه لأنهم لم يعرفوا كيف يفعلون ذلك ولم يجدوا من يحرّضهم عليه ويقودهم إلى مثل الذي وقع في الأرض، وأبداً سكان الأرض أسرع إلى الإبداع والابتكار من سكان السماء.!

وسكان السماء يعايشون العرب أكثر وأدوم إذن كيف تتخلّق فيهم حوافز الثورة العظيمة.؟

.. إذن ما أسهل وأسرع أن يثوروا متى وجدوا المحرّضين المعلمين لهم، وهل يمكن أن يوجد هؤلاء من غير سكان الأرض؟

وإنه لممكن جداً أن يقدم أي العالم حينئذٍ إليهم السلاح وأدوات التخريب لكي ينفذوا ثورتهم بكل القوة والحسم.. ولعل سكان السماء رأوا ماذا فعلت وأعطت الثورات العربية لهذا لم يثوروا على الإله ولن يثوروا.. وستكون هذه الثورة لو حدثت هي وحدها في العالم والكون الثورة النافعة الواهبة الشافية من كل الأدواء والآلام والظلم والقبح بل ومن كل شكوى ومشكو إليه ومشكو منه، إنها ثورة ضد مدبر ومريد كل الشرور والآلام والأخطاء والخطايا، بل وضد الثورات المخزية.. ومنها أي من الأساليب التي يمكن أو يجب أو ينبغي أن يحولها العالم إلى سلاح يهدّد الإله بإطلاقه عليه ما لم يقبل ما يعرض عليه ـ نعم، ومنها أن يهدّده بأن يحاكمه ويطالبه بالتعويض عن الآلام والمظالم والإهانات والقباحات والنذالات والبلادات والعاهات والتهديدات والاتهامات والمخاوف والمشاكل والشتائم التي أوقعها به أي بالعالم أفراداً وجماعات ولا يزال يوقعها به بكل أساليب النذالة والوحشية، بكل ألوان العدوانية.!

.. وأيضاً عما اغتصب وأخذ منه بكل حيل وأساليب الأخذ.. من ماله وعمله وعرقه ودمه ووقته ومن قلبه وعقله وعلمه وضميره وعواطفه وأخلاقه ورؤاه وأشواقه وانتظاره وفي الأحاديث عنه والامتداح والعبادة له وفي الأشواق إليه والاهتمام به، إنه أخذ لا يماثله أو يفسّره أي أخذ أو كل أخذ. إنه الآخذ بكل الصيغ والمقاييس والألوان والأنواع والضخامة.. وعما أصابه به من خسران.. خسران. هل يستطاع الحديث عن هذا الخسران، عن الخسران الذي أوقعه ويوقعه الإله بالعالم؟

.. هل يستطيع أي شيء وكل شيء أن يكفي تعويضاً أو تكفيراً عن ذلك.. عن شيء من ذلك؟

هل يستطيع أي خيال بل كل خيال أن يتخيّل ما يمكن أن يقبل أو يحسب تعويضاً وتكفيراً عن أي شيء من ذلك؟. إن الإله لو باع كل ذاته بعرشها لما كفى ثمنها تعويضاً وتكفيراً عما فعله بالعالم مع افتراض وجود مشترٍ.. وهنا سلاح قد يكون أفتك الأسلحة التي يستطيع العالم تهديد الإله بها في هذه القضية، إنه سلاح قد تكون كل أسلحة البشر وأفتك أسلحة البشر عاجزة عن أن تفعل فعله، وما هو هذا السلاح؟ إنه تهديد العالم للإله إن لم يقبل ما يطالبه به ويراه له بأن يأمر ويحشد ويوظف أي العالم كل طاقاته وعبقرياته وحماساته لكي يفرغ ويشفي كل العالم والكون وكل شيء من كل ما زرع وغرس فيه أي الإله من أمراض وعاهات وتشوّهات وبلادات ونذالات ونقائص وضعف وعجز وفقر وجوع وضياع وهوان وخوف وألم وعار وذنوب وأخطاء وخطايا أو لكي يقلّل ويخفف من ذلك، ولعل الإله لن ينزعج من شيء مثل انزعاجه من هذا التهديد.. آه لو كان يملك طاقة الانزعاج، ليته كذلك.!

ولكن هل الإله ينزعج؟ هل يمكن أن يفعل أو يرى شيئاً أو يستطيع ذلك لو كان يصاب بالانزعاج؟ هل يمكن أن يكون مخطط هذا الكون وصانعه ومشرعه بكل الإعجاب والرضا يقاسي شيئاً من الانزعاج؟

.. إن الإله لا يتعزى أو يتغذى أو يتلهى أو يتسلى أو يتداوى أو يباهي أو يسعد أو يفرح بمثل مواجهته ورؤيته ومعايشته وقراءته لهذه الآفات، كل أوقاته بكل اهتماماته.!

إذن هل يوجد عقاب له مثل حرمانه من ذلك.. من أن يشاهد ويعايش كل المآسي..!

ألا يكفي إقناعاً بذلك إصراره الدائم المخيف القبيح على أن يريد ويدبّر ويخلق ويعمّم ويخلد هذه الآفات ليصيب بها كل شيء وكل أحد، رافضاً ومقاوماً ومستنكراً زوالها والشفاء منها؟ إنه في هذه القضية إما عاجز أو مريد، ولماذا يريد؟ هل يريد ما لا يسعد أو يفرح أو يرضي أو يعجب أو يمتدح أو يمدح نفسه به؟

.. هل يمكن أن يوجد أي تفسير لذلك غير هذا التفسير الأليم الفاجع الفاضح القائل بأنه أي الإله يصيب أحبابه وأولياءه بأعظم وأقسى الفوادح لتكون سعادته أعظم!؟

هل يستطيع المؤمنون أن يجدوا أي تفسير لهذه القضية أفضل أو أقل قبحاً وجنوناً من هذا التفسير؟ هل أهان الإنسان نفسه مثلما أهانها في بحثه عن تفاسير إلهه وفي تفاسيره له أي للإله؟

.. إذن ما أشقى الإله وأقسى عذابه وضياعه وأحزانه لو شفي الكون من هذه الآفات فحرّم من الاستمتاع والتداوي وملء الفراغ والضياع بمواجهتها ورؤيتها وقراءتها ومعايشتها، مشوّهة مغطية معذبة لكل شيء.. لكل جسد ووجه وفكر وقلب وضمير ورؤية وعاطفة وخلق وجمال وحب.. لكل حياة وحي ولكل وجود وموجود أي هذه الآفات.!.. وهل يمكن شفاؤه من ذلك؟ إنه أي الكون لا يستطيع بل ولعله لا يريد الشفاء من ذلك، لقد صاغه الإله عاجزاً عن ذلك وغير مريد له، والتفسير لذلك بعض ما ذكر وهو أن الإله لا يسعد أو يفرح أو يرضى أو يحيا إلّا بذلك رؤية ومواجهة ومعايشة.

.. إذن هل يمكن أن يهدّد أو يرهب الإله بشيء مثل تهديده وإرهابه بهذا السلاح؟ ما أبشع ذعره لو فطن إلى التهديد بهذا السلاح وتوقّع أن يوجه إليه.! ولكن هل يمكن أن يتوقع ذلك؟ ألا يمكن أن تحميه تجاربه واسترخاؤه وغفلته من هذا التوقّع؟

.. إنه لا يوجد بل ولا يتصور من يمكن أن توجه إليه كل التهديدات وأقوى وأقسى التهديدات مثل الإله أي إن كان كما يوجد ويرى ويقرأ ويفسّر في هذا الكون وكان كما يصفه دعاته ومعلمو أخلاقه وأشواقه، أي دون أن يوجه إليه شيء منها.!

من حماه من ذلك؟ أهي الحظوظ أم غباء وهوان من خطط وخلق؟

.. نعم، قاسية هي معاقبة الإله بحرمان عينيه من رؤية الدمامات والعاهات والتشوّهات، وبحرمان أذنيه من الاستماع إلى الأنّات والآهات والصرخات، وبحرمان ضميره من ديمومة وشمول العذاب والخراب والفساد والطغيان والمظالم وكل ما يفجع ويفضح ويقهر ويهين مغطياً ومشوّهاً ومحقّراً ومهدّداً كل شيء.!

ماذا يبقى له من صيغ الاستمتاع ومعانيه لو حرم من ذلك؟

.. هل له أي للإله من متعة ثمناً لوجوده وحياته وأجراً لمقاساته وأعماله غير أن يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويستمتع بضميره مواجهاً ومعايشاً ومعاشراً لهذه الآفات المشوّهة لكل شيء والباصقة على كل شيء والشاتمة لكل شيء وكل أحد حتى له هو؟

وهل يوجد مبصوق عليه ومشتوم بهذه الآفات الكونية مثل الإله؟

.. إنه لا يستمتع بأية متعة أخرى كما يستمتع الآخرون وكل الكائنات الحية، لهذا عوض عن حرمانه هذا باستمتاعه بتعذيب وترويع وتشويه وتحقير وإذلال وفضح كل شيء وكل أحد، يا لها من متعة.!

آه، ما أسوأ وأردأ حظوظ إلهنا هذا أو كل الآلهة.!.. من صنع للآلهة حظوظها؟ كم كان متوحشاً ولئيماً عدوانياً بلا أي قياس؟

هل يمكن تصور معاداة مثل معاداة الإله لنفسه إن كان هو الذي قدّر وأراد واختار وصنع حظوظه؟

هل كان مقدر وصانع حظوظ الآلهة أقسى ثوري ضد الألوهية لهذا صنع وأراد حظوظها بهذه القسوة والخسة والقبح والتعذيب والتفاهة لكي يعاقبها أي يعاقب الآلهة ولكي يقلّل أو يمنع من وجودها أي من وجود الآلهة والألوهية ومن التقبّل لها والرغبة فيها؟

آه، كيف وجد من يقبل أن يكون إلهاً أو أن يكون له إله؟

لقد كانت ولا تزال الرغبة في الألوهية مرضاً بل جنوناً كونياً لم يستطع الشفاء منه بل لم يوجد من يريد الشفاء منه ولا من يحاول أن يعالج ويشفي منه.!

إنها ليست السماء وحدها هي المريضة بالآلهة والألوهيات وبالجنون بها، بل إن الأرض أكثر مرضاً بذلك وجنوناً به. وما أقسى الفرق بين ألوهيات السماء وألوهيات الأرض، فهذه وهم والأخرى حقيقة قاتلة كل أساليب القتل.

.. لقد كان وجود أو فكرة أو تصور الألوهية والآلهة أفدح وأوقح تعذيب وتحقير وتصغير لها ولكل شيء.!

وأيهما أكثر وأقسى عطاء لذلك أي للتعذيب والتحقير والتصغير: أن توجد الآلهة والألوهية أم ألّا توجد ويرفض ويقاوم أن توجد؟ أليس هذا السؤال هزلاً أو بلادة بلا مثيل؟ إنه كالتساؤل: أيهما أفضل: أن نكون أحراراً أذكياء أم عبيداً أغبياء.!

.. إن الألوهية حقيقية أو وهمية أو اعتقادية ليست إلّا أخذاً شاملاً أليماً من العابد لها والمؤمن بها. إنها أخذ مادي ومعنوي من كل معانيه وتفاسيره ومن قدميه ويديه وعضلاته.!

آه يا من أدعوه وأنتظره دون أن أجده أو احتمال أن أجده حوّلني حشرة أو أقل من حشرة إن كان البديل أن أكون إلهاً معبوداً مسجوداً لي مفتوناً بل مجنوناً برغبتي ونضالي وقتالي بل وهواني لكي أكون معبوداً مسجوداً متملّقاً متضرّعاً لي وإلي، فاعلاً لي بل فاعلاً بي ذلك أكثرهم كذباً وجبناً وبلادة وسقوطاً وعفونة، بل فاعلاً بي ذلك من عبادته اتهام وتلويث وكفره وبعده براءة من هذا الاتهام والتلويث.. أو أن أكون هذا العابد الساجد المتضرّع المتملّق بكل السقوط والهوان لإله لم أجده أو أعرفه أو أره أو أسمعه أو أنتظره أو أجرب منه أو فيه أي طلعة أو لمسة وفاء أو صفاء أو حب أو نبل أو شهامة أو كرامة أو صدق أو استحياء.!

.. لإله لم أر أو أقرأ أو أجد اسمه وأوصافه أو صورته في أي مكان أو شيء أو فوق أي شيء بل كل شيء ينفيه وينفي كل علاماته.!.. لإله لم أسمعه قط ولن أسمعه أبداً يقول لي بالصوت أو بالمراسلة إني أشكرك مهما أعطيته ومجّدته وفعلت له.!

.. إن من أعظم الكوارث التي شوّهت وعذّبت وأذلّت الأرض وأهلها هي الكوارث المتنوعة التي أنزلها بها تخلق الآلهة والألوهيات فيها أي في الأرض وهبوطها من فوق حدودها إليها واستيرادها لها. نعم، إن الأرض تستورد أشرس وأبلد وأجهل الآلهة والألوهيات.. تستوردها من بعيد، بعيد.. من وراء كل الزمان والمكان.!

.. إن الألوهيات والآلهة التي تتخلّق فيها أي في الأرض لم تشبع جوعها وجوع أهلها إلى القهر والتشويه والتقبيح والتجهيل فذهبت بكل المعاداة للنفس والعدوان عليها تستوردها أي تستورد الآلهة والألوهيات من بعيد، بعيد من وراء الشموس والنجوم.. من وراء كل شيء.. تستوردها خارجة على كل النماذج والتفاسير الجمالية والعقلية والفنية والأخلاقية.!

ما أقبح ما صدرت وتصدر السماء إلى الأرض. إنها لم تصدر إليها إلّا هذه الآلهة والألوهيات، وما أقبح ما استوردت وتستورد الأرض من السماء. إنها لم تستورد منها إلّا هذه الآلهة والألوهيات.!

إذن ما أقبح السماء مصدرة إلى الأرض.. وما أقبح الأرض مستوردة من السماء.! ليس المراد بالسماء الأجرام السماوية بل شعب ودولة السماء التي أكبر وزرائها وزعمائها ملك الوحي والموت وحارسا الجحيم والجنّة.

.. كيف تحدث الأحداث كما تحدث؟ هل هناك من يريد ويدبّر لها من خارجها أن تحدث كما تحدث؟ إن كل ما تصدره السماء إلى الأرض مستورد من الأرض، وإن الإنسان، إنسان الأرض هو المصدر إلى السماء كل آلهتها وأنبيائها ونبواتها وكتبها المنزلة ومجدها..

هل محتوم أن يجيء كل شيء ضد نفسه.. أن يجيء العقل ضد العقل والذكاء ضد الذكاء وكل موجود وكائن ضد نفسه؟

هل يمكن أن يوجد أو يبقى أو يعمل أي عقل أو أي شيء لو التزم بألّا يوجد أو يبقى أو يعمل إلّا بالعقل؟

.. حتى الإله هل جاء أو يمكن أن يجيء أي كائن أو أي شيء ضد نفسه كما جاء الإله؟ كيف خفي مجيء الإله كذلك على أي عين أو عقل أو قلب أو ضمير أو خلق؟ لو أن أي كائن حكم عليه أو طلب إليه أو أراد أن يختار ويصوغ للإله ذاتاً أو صيغة أو ظروفاً أفليس محتوماً حينئذٍ أن يختار ويصوغ له أي للإله أفضل وأعظم مما اختار وصاغ الإله لنفسه؟ الأرض المختنقة المخنوقة بالآلهة التي حبلت وتحبل بها والتي ولدتها وتلدها بإغراق..

.. هذه الأرض البائسة التي لا مثيل لخصوبتها في ولادة الآلهة والألوهيات تذهب بجنون وفنون

تستورد الآلهة والألوهيات من وراء كل حدود وآفاق الكون. الأرض المختنقة بالطغاة والفراعنة كيف تحتاج إلى أن تستورد طغاة وفراعنة من وراء حدودها تسميهم آلهة؟

كيف حدث ويحدث هذا؟

أليس العقل الذي يرى أن هذه الآلهة المستوردة من خارج الوجود تهب الأمان أو الصفاء أو الجمال أو الورع النفسي أو الأخلاقي أو السلوكي هو عقلاً خارجاً على كل تفاسير واحتمالات العقل؟

إذن كيف تحدث الأحداث والأشياء؟ لماذا تجيء أبداً ضد ما يجب أن تجيء.. ضد نفسها؟

لماذا جاء تكوين الإنسان أقسى جهاز للتعذيب؟

أنا مصاب، مصاب جداً بأنواع من التلهّف والتذكّر والأشواق والمشاعر والعواطف والحنين والانفعالات المحرقة.. بأنواع من ذلك لو تحوّلت إلى كلمات مكتوبة لما استطاع كل ما في الدنيا من ورق وحبر أن يتسع لأن يكتبها ولأن تكتب عليه أو لأن يجد اليد أو الآلة التي تملك القدرة على كتابتها.. إنني مصاب بذلك وأنت مصاب بأن تصيب به.. وأنت مصاب بالقدرة على أن تصيب الآخرين بذلك..!

كم هو بائس ومعذب ومكوّن تكويناً أليماً ظالماً فادحاً خاطئاً مخطئاً جاهلاً شريراً هذا الإنسان أي إن كان يعيش فيه أي قدر من معاني الإنسان.. ما أقسى وأفدح تكوينه.. الصيغة التي كوّن بها.. إنها أقسى وأظلم صيغة لأي تكوين.. لأي كائن.. لأي كينونة.. إنه لذلك أي الإنسان هو أعظم وأشهر مظلوم ومعتدى عليه بين كل الكائنات.. إنه لا مثيل لعذابه وشقائه وللعدوان عليه والإساءة إليه..

لقد تجمعت كل الآلهة لتكونه هذا التكوين المنجمع فيه كل ألوان العذاب..!

لقد كوّن أي الإنسان لتكون عواطفه ومشاعره وأشواقه وحبّه وحنينه وإرادته وتذكره وتمنياته وتطلعاته وتلهفاته وتصوراته وخفقاته ونبضاته وموازناته وآهاته وأنّاته ـ ليكون كل ذلك فيه بلا حدود أو مقاييس أو حسابات أو مخففات أو مهدئات أو نهايات ما لم تكن النهايات القاتلة.. لتكون مقاساته مقاساة لا تستطيع تحتملها الشموس والمجرات والبحار والأنهار وكل الكائنات مجتمعة ليقاسي من ألوان العذاب ما لا تقاسي مثله كل الأشياء.. كل الكائنات مجتمعة..

أما قدرته.. قدرته على مواجهة ذلك وعلى التعامل والتكافؤ والتوازن معه وعلى معايشته فوأسفاه.. حتى الآلهة إنها لا تستطيع أن تقاسي مقاساة الإنسان هذه التي خصّ بها للتفاوت الرهيب بين قدرته وكينونته.. بين قدرته ومعانيه الإنسانية التي خصّ بها دون جميع الكائنات حتى لقد خصّ بها دون الآلهة.. نعم دون الآلهة..!

ما أغرب أو أصعب أو أعظم ما لا بدّ أن يحدث لو كان يعيش في الآلهة أي معنى من معاني الإنسان هذه التي يجب أن تعيش كلها في كل إله..! ليت هذا حدث، ليته حدث، لماذا لم يحدث؟ لماذا؟ كيف ولماذا خصّت الآلهة الإنسان بهذه المعاني الصعبة القوية وحمت نفسها منها؟ هل كانت في هذا مؤثرة له على نفسها أم كانت معتدية قاسية عليه؟ هل يمكن فهم الآلهة أو فهم ما تفعله الآلهة؟ لماذا لم يوجد من يحاسب ويحاكم ويصحح الأشياء؟ حتى الآلهة لماذا لم يوجد من يفعل بها ولها ذلك؟

.. ما أقبح وأفظع ألّا يكون في هذا الوجود أي محاسب أو محاكم أو مصحح له..!.. كل هذا الكون بكل ما فيه من آلهة وغير آلهة بلا أية حماية أو رعاية أو معلم أو منظم أو مسؤول، هل يطاق هذا؟ كيف يطاق؟ كل هذا الوجود بلا حاكم أو قائد أو زعيم أو هادٍ.. كيف حدث هذا!؟

إن كان هذا الذي فعلته بالإنسان أو للإنسان خيراً أو حباً أو نفعاً أو جمالاً أو سعادة أو قوة أو تقوى أو مجداً فلماذا لم تفعله لنفسها وبنفسها أي الآلهة؟

أما إن كان نقيض كل ذلك فلماذا أوقعته بالإنسان؟ هل من جواب وهل من إنقاذ للآلهة من هذا السؤال؟ هل يوجد محتاج إلى الإنقاذ من نفسه ومما فعل بنفسه وبكل شيء وكل أحد مثل الإله.. مثل كل إله؟

هنا صدم وفجع القلم في يدي رثاء وحزناً وأسى للآلهة وللإنسان وأصبح عاجزاً وعاصياً أن يتحرك في يدي لأكتب إليك ما كنت أريد كتابته، إذن كل الاعتذار إليك مني ومن قلمي..

❀ ❀ ❀

لقد كان العدل والعقل والنظام والحكمة تقضي بأن يحدث أحد أمرين: أن تتعاظم قدرة الإنسان لتكون متكافئة في كل تعاملها ومعاملاتها ومواجهاتها لكل معانيه هذه.. لكل عواطفه ومشاعره وانفعالاته من حب وشوق وحنين وأنين وتلهّف وتذكّر وتطلّع وتوقّع ورؤية وتفكير وتأميل وانتظار واهتمام وحماس وطموح وكبرياء ومتكافئة معها.

.. أو أن تجيء معانيه هذه ضعيفة خاملة باردة فاترة كما حدث لكل الكائنات الأخرى من حيوانات وغيرها، بل كما حدث لكل الآلهة وأعوانها وحرّاسها وجلسائها ومقتربيها، هل وجد مثل هؤلاء خمولاً وفتوراً وضعفاً؟ لئلا يكون عذابه أي الإنسان بلا مثيل أو شبيه في قسوته وشموله وديمومته وقبحه كما حدث وكما هو حادث، أي إن كان يعيش في داخله كل الإنسان أو أي شيء من الإنسان.. ولكن هل وجد أو يمكن أن يوجد مطارد للإنسان لئلا يعيش في داخله مثل الإنسان؟

إنه لا مطارد لمعاني الإنسان مثل الإنسان لئلا يتعامل بها.!

هل يمكن أن توجد حتى ولو تصوراً حرائق كالحرائق المشتعلة أبداً داخل ذات الإنسان أي ذات الإنسان التي يعيش في داخلها كل الإنسان أو شيء من الإنسان؟

.. إن ذات الإنسان التي يعيش ويحيا ويعمل ويتعامل ويتحرك فيها كل الإنسان أو بعض الإنسان بمعانيه المفسّرة والمفترضة والمعلمة والمزعومة لتشبه جهازاً أو آلة صغيرة ضعيفة تخزن وتجمع وتولّد وتفجّر وتشعل فيها كل طاقات الحرارة وكل الحرائق والمتفجّرات وهي لا تستطيع أن تتحمّل أقل ذلك..!

إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد وعاء أو مكان لتختزن فيه كل الفواجع والقوارع والآلام والزلازل والبراكين ولتفجر فيه مثل ذات الإنسان، إن كل العذاب ليخفت ويهون بل ويموت أمام عذاب الإنسان الذي يسكن في داخله إنسان.. ليت الإله يستعير إنساناً ليسكن في ذاته أي إنساناً

تسكن فيه معاني الإنسان ويتعامل بها ومعها ليعرف قبح ووحشية ما فعل..!

إنه لو كان لهذا الوجود صانع لوجب اتهامه بأنه قد أراد وقرّر أن يجمع كل فنون العذاب وقسوة العذاب في ذات الإنسان، وبأنه قد جمع كل طاقات وعضلات التعذيب والترويع والتهديد ليسدّدها أبداً إلى الإنسان.. إلى كل معاني الإنسان، بل وبأنه لم يتعلم فنون التعذيب إلّا لكي يعذب الإنسان..!

إن لهفة تطلقها والدة على وليدها غائباً أو ضائعاً أو مريضاً أو مشوّهاً أو مقعداً أو محتضراً أو ميتاً أو مهاناً أو مقهوراً أو مهزوماً أو عاجزاً أو بائساً أو مخطوفاً..

وإن أنّة أو آهة أو دمعة أو صرخة أو حسرة أو لوعة أو استغاثة أو خفقة أو رجفة.. يطلقها ذليل أو معذب أو عاجز أو مقهور أو مهزوم أو بائس أو مريض أو مشوّه أو خائف أو يائس أو مظلوم أو محروم أو مشتاق أو محب أو منبوذ أو فاقد أو مفجوع أو محقّر أو معيّر أو مطارد أو يتيم أو مصاب بإحدى المصائب التي لا حدود ولا حصر ولا أعداد لها والمسدّدة أبداً بكل الأساليب والأسلحة إلى الإنسان.

ـ نعم، إن شيئاً أو واحدة من ذلك لتتخطى كل العذاب الذي يتعذّب به كل شيء في هذا الوجود غير الإنسان، وتتفوّق عليه.!

ليت الإله قاسى شيئاً من ذلك لعله يكون حينئذٍ أنبل وأرحم مما كان. ليته قد تعذّب ليعرف ماذا يعني العذاب.! هل هو أي الإله لم يتعذّب ولو بالرؤية والمشاهدة والفهم؟ أليست مشاهدة ورؤية وفهم العذاب عذاباً؟ هل صنع الإله لذاته جلداً لا يخترقه أي عذاب، لا يخترقه الرصاص.. يحميه من أن يرى أو يسمع أو يشعر أو يقاسي أو يفهم أو يتعامل أو يتفاعل أو يتعاطف مع أي شيء؟

ما أقسى عذابه أي الإله لو لم يصنع لذاته هذا الجلد..!

.. إن خوف الإنسان من الإله وتعبّده وتضرّعه وتخضعه وهوانه وتصوره وتذكّره وانتظاره له ومنه وتضخيمه وقراءته وتملّقه له.

.. وكذلك خوفه من لقائه وحسابه وعقابه ومن مواجهته ومحاورته ومن جنّته وناره وزبانيته ومن حرّاسه ورقبائه وجواسيسه وأجهزة إحصائه.. وأيضاً خوفه من الموت وتوقّعه له ومما فيه ومما وراءه من غموض رهيب، رهيب بلا حدود.

.. نعم، إن كل ذلك بل إن أي شيء من ذلك مما خصّ بمعاناته ومقاساته الإنسان وحده ليهين ويهون كل ما في هذا الوجود من ترويع وتعذيب وتحطيم يلاقيه كل كائن غير الإنسان..

دع خوفه الدائم القاتل من العار والهوان والهزائم والفضائح والضياع والسقوط والدمار بكل معانيه وأشمل معانيه.. دع خوفه من كل شيء ومن كل ما ليس شيئاً..!

حتى ما ليس شيئاً.. كم يتعذب الإنسان بالخوف منه..!

.. فكيف بأهوال وعذاب عمليات الانتزاع..؟

يأتي الإنسان دون أن يريد أو يدري إلى وجوده وإلى هذا الوجود فيصبح له أبوان وأخوة وأقارب من كل نوع وشعب ووطن وتاريخ ودين وإله وأشياء أخرى كثيرة عميقة..

ثم يكون له أبناء وأصدقاء وعلاقات وصداقات وحب وأشواق وارتباطات والتزامات ومعاملات واهتمامات ورسوخ.. رسوخ.. رسوخ لا يطاق الانفكاك منه ولا يقبل أو يغفر أو يفسّر الانفكاك منه.. ويكون له زوج أو زوجة بكل أعماق ذلك ورسوخه وشموله.. ثم في ضربة واحدة وقد تكون بعد كل أنواع التعذيب والترويع يسحب من كل ذلك ويسحب منه كل ذلك انتزاعاً، انتزاعاً.. إلى أين.. إلى أين؟

ما أقسى انتظار هذا المجهول وأقسى التفكير فيه والتفسير له..!

هل مثل هذا تعذيباً وفظاعة وقبحاً وعدواناً؟ إنها لن تعقل أو تغفر أو حتى تفهم القسوة التي أرادت ودبّرت للإنسان ذلك..!

لن تستطيع كل اللغات وكل أساليب التعبير أن تكون شيئاً من التعبير عن ذلك أو عن بشاعة ورداءة وقسوة حظوظ وتكوين وكينونة من فعل ويفعل به ذلك.. من حكم عليه بذلك ليظل منتظراً ومتوقعاً التنفيذ في كل لحظة.. بكل أسلوب وبأي أسلوب.. بكل سلاح وبأي سلاح.. فاقئاً وضارباً ومخترقاً وفاجعاً لكل العيون والقلوب والعقول والضمائر والأخلاق والحسابات والقوانين والأديان والنخوة والشهامة، لتركع بل لتسقط كل الشموس والنجوم بل وكل الآلهة أمام قبح وعذاب هذا الانتزاع..!

كيف أمكن أن يوجد هذا الانتزاع أو أن يوجد من يريده أو يدبّره أو يفعله أو يغفره أو حتى يفسّره.؟

آه، فكيف إذا أضيف إلى كل هذا تصور تخليد الإنسان في مهازل ومباذل وفضائح وتفاهات الفردوس أو تخليده في عذاب الجحيم..؟

وكيف إذا كان هذا التصور سوف يصبح واقعاً؟

لتسحب كل لغات وتفاسير كل العذاب لتتجمّع في الإنسان وللإنسان وحده الذي تخيّل الفردوس والجحيم وتخيّلهما وتقبّلهما عقاباً وعذاباً له، فظيع، فظيع ذلك..!

أيهما أقسى إهانة وتحقيراً وتحطيماً وتعذيباً وتسفيهاً: التخليد في تفاهات وفضائح الفردوس أم في عذاب الجحيم؟ كيف يقبل الحديث عن هذه القضية حتى ولو بأسلوب التساؤل؟ كيف قبل الإنسان أن يجعل الحديث عن الجحيم والفردوس قضية من قضاياه؟

.. وإذا كان خيال الإنسان هو الذي تصوّر وصاغ الجحيم والفردوس فهل يمكن أن يعني هذا إلّا أقسى التعبير عن قسوة عذابه، عن قسوة العذاب الذي أوقعته به صيغة تكوينه الذاتي؟

أليس تصور العذاب الخرافي تعبيراً عن قسوة عذاب من تصوره ويتصوره؟ أليس قبح التصور تعبيراً عن قبح الكينونة؟ إذن كم يحوي تكوين الإنسان من شحنات العذاب التي جعلته يتصور

جبروت الإله وعقابه وغضبه وقسوته وقوته وضرباته وشمول سلطانه وطغيانه بكل الديمومة والإحاطة.!

إن تصور الإله بكل صوره ومعانيه وأوصافه هذه لهو أقسى وأقبح وأفجع أحكام الإنسان على نفسه والتعبير عنها.. إنه لا بؤس ولا تعاسة ولا كآبة ولا عذاب ولا ذعر مثل بؤس أو تعاسة أو كآبة أو عذاب أو ذعر من تفجّر خياله بتصور هذا الإله بكل معانيه وتفاسيره وتهديده وإرهابه وأخلاقه وكينوناته..!

إن تصور النفس له واختزانها له لشيء تعجز كل التعبيرات عن وصف أو قراءة أهواله المؤلمة والمهينة والمحقّرة الفاجعة البليدة..

إنه لا أشقى كينونة وتكويناً وحياة من كائن يستطيع أن يتصور هذا الإله ثم يختزنه داخل نفسه.!

كيف استطاعت النفس الإنسانية أن تتصور هذا الإله ثم استطاعت أن تختزنه في داخلها ثم استطاعت أن تتعامل وتتحاور وتتعايش معه بقلبها وعقلها وضميرها وأخلاقها وتقواها ولغاتها ومعاملاتها؟

كيف استطاع أي تصور أن يصوغه بالصياغات التي صاغه بها؟

إذن هل يوجد مثل نفس الإنسان مولداً ومصنعاً ومستودعاً ومبتكراً ومصدراً لكل العذاب ولأقسى العذاب بل ولأقبح وأغبى العذاب؟

إنه لو قبل وغفر تصور أي شيء وكل شيء لما قبل ولما غفر تصور الآلهة كما جاء تصورها بل لقد كان تصورها كما تصورت من المستحيلات التي لم تظل مستحيلة.! لقد تحوّل تصورها إلى إلغاء لكلمة: مستحيل.. للغة مستحيل..!

❀ ❀ ❀

وتصور الإنسان هذا الإله هذا التصور يعني حتماً أشياء عديدة أليمة..

إنه يعني قسوة وقبح عذاب الإنسان الذي أوقعه به وفرضه عليه تكوينه المحكوم بكل هذه المشاعر والعواطف والانفعالات.. من أشواق وحب وحنين وتذكّر وتطلّع وتوقّع وتلهّف وطموح ورغبات وشهوات ومن أحقاد ومخاوف وبغضاء ومنافسات ومنازعات وعداوات وخلافات وانقسامات وتهديدات وهموم وأشياء أخرى كثيرة بلا حدود بلا قوة ذاتية متكافئة مع ذلك وبلا حماية أو نهاية من أي نوع..!

.. تكوينه الذي حكم عليه بأن يصاب بكل هذا دون أن يوجد دواء أو مداوٍ.

.. وإنه أي تصور الإنسان هذا الإله هذا التصور يعني ضخامة تعذيب الإنسان لنفسه لحكمه عليها ومحاصرته لها أبداً وأين كان بجبروت وإرهاب وطغيان ووعيد هذا الإله بكل شراسته وأنانيته وكبريائه البذيئة المجنونة..

هل يمكن تصور تعذيب أو إرهاب أو إذلال أو تحقير أو تحطيم للنفس مثل هذا.. مثل هذا التصور؟

هل يمكن تصور مواجهة مهينة ومرهبة ومحطمة مثل المواجهة بين الإله والإنسان؟

ـ وإنه أيضاً أي هذا التصور يعني أقصى التحقير والتوريط والتلويث والتسفيه بل والسباب لهذا الإله.!

.. لو أن الإله كان حاضراً وواعياً وقرر أن يحاكم ويعاقب الإنسان على تصوره له هذا التصور وعلى تفسيره له بهذا التصور فهل يجد عقوبة تكفي ليعاقب بها الإنسان على إساءته إليه وتشويهه له؟

ولكن أليس ما فعله ويفعله الإنسان بالإله نتيجة لما فعله ويفعله الإله بالإنسان؟

❁ ❁ ❁

.. كيف خفي هذا على كل ذكاء عقل الإنسان؟ كيف خفي عليه أن نفي وجود الكائن أو الشيء لأن نافيه لم يعلم بوجوده ليس إهانة ولا إساءة للمنفي وجوده ولن يعده أو يراه المنفي شيئاً من ذلك؟

فمن نفى وجود دولة أو أمة أو شعب أو قبيلة أو مدينة أو تاريخ أو حرب أو قائد أو عالم أو كاتب أو شيء أو أحد أو حتى دين أو نبي وقد وجد لأنه لم يعلم أنه قد وجد أو أنه موجود فلن يكون أو يعد النافي مسيئاً أو مهيناً أو معتدياً أو مستحقاً لأي حساب أو عقاب ولن يراه المنفي شيئاً من ذلك أو مستحقاً لشيء منه. إنها قضية يستحيل الخلاف عليها.

.. ولكن الذي قد يكون أو لا بد أن يكون مسيئاً ومهيناً ومستحقاً للحساب والعقاب هو الذي يثبت وجود الشيء أو الكائن ويعترف بوجوده ثم يتهمه بأوصاف وأخلاق وأفعال رديئة شريرة قبيحة بليدة سفيهة عدوانية..

بل ويصفه بذلك حتى ولو بنيات وقصد وإعلان الامتداح والتمجيد والتعبّد والتقرّب..

فالإهانات والإساءات والاعتداءات لا تكون إلّا للموجود أو للمعتقد بأنه موجود أو قد وجد..!

.. وهذا التفسير أو الحكم يشمل النافي لوجود الإله لأنه لم يستطع أن يعلم أو يقتنع بوجوده.

وهل يمكن أن يعلم أحد بوجود الإله لولا التلقين؟

إن هذا النافي لن يكون أو يعد مسيئاً أو مهيناً للإله أو مستحقاً لعقابه أو غضبه أو غيظه بأي حساب أو تفسير من حسابات وتفاسير المنطق.. أي منطق..!

ولكن الذي يكون كل ذلك والمستحق لكل ذلك هو المثبت للإله والواصف له بأقبح وأبلد وأنذل الأوصاف..! إذن فالمثبتون للإله قد يلقون أقسى الحساب والعقاب والغضب والانتقام. أما النافون له فبريئون مبرؤون ناجون، إنهم لم يروا أو يعلموا فلم يسيئوا أو يهينوا أو يعتدوا.. كيف خفي ذلك على أحد من أصحاب العقول أو حتى على أحد من فاقدي كل العقول؟

والآن يجب أن يعرف ذلك كل أحد.. كم هي مفيدة معرفته وكم هو ضار ومهين ومفسد الجهل به.!

نعم، كم يجب أن يعلم هذا الذي لا يستطاع جهله..!

إنها لفاجعة إنسانية ألا تعرف ذلك كل العقول..

❀ ❀ ❀

.. كلهم: المؤمنون وغير المؤمنين يتحدثون عن حرية التفكير والتعبير والاقتناع والاعتقاد والرؤية.. ويطالبون بذلك وبأن يتحول إلى إعلان وعبادة.. ويجهلون أنه لا مقاوم ولا معادي ولا قاتل أو مقاتل لهذه الحرية مثل الإيمان بالإله والأديان والمعتقدات الروحية، ولا مثل الكتب المقدسة المنزّلة المرتّلة..

إن الآلهة والأديان والنبوات والمعتقدات الروحية والدينية لا تطارد وتعادي وتبيد وتنفي هذه الحرية وترهبها من خارج الذات بل ومن داخلها. إنها أسلحة تصنع وتختزن وتفجر داخل الذات ومن داخلها.

إنها أسلحة يطلقها الإنسان على نفسه.. يطلقها من نفسه على نفسه..

إنه بها يفقأ ويسكت ويرهب ويفسد ويقتل قلبه وعقله وضميره وأخلاقه ومشاعره وعواطفه وعينيه وأذنيه لئلا يرى أو يسمع أو يفهم أو ينكر أو يرفض أو يقاوم أو حتى يغضب أو يفجع أو يدهش أو يتعجّب أو يسأل أو يتساءل أو يبقى فيه أي شيء من معاني الإنسان.. إن وظيفتها أن تميت في الإنسان كل معانيه الجيدة القوية المقاومة..!

.. نعم، إن كل ذلك هو بعض ما توقعه وتفعله الآلهة والنبوات والأديان والعقائد الروحية والدينية بالإنسان. إنها تفعل وتوقع به دون أن تفعل له شيئاً..!

.. إذن هل يوجد مثلها قاضياً على حرية التفكير والتعبير والاقتناع والاعتقاد والإيمان والرؤية ومحاولة الفهم والتعامل مع الذات ومع معانيها أي معاني الذات؟

إن الإنسان لم يعاد ويذل حريته مثلما عاداها وأذلّها بالآلهة والنبوات والأديان والمعتقدات الغيبية وبالكتب المقدسة.

.. هل فعل الإنسان ذلك بنفسه وبحريته وبمعانيه قاصداً لأنه هارب منها ومن مواجهتها والتعامل بها ومعها ومن الالتزام بها أم فعله وفعل به فتقبله عن جهل وغباء وخديعة وانخداع؟

أليس للإنسان شرطان على حياته: الغباء والهرب أي بالتفكير والتصور؟

هل يستطيع الإنسان ألّا يهرب من معانيه المفترضة والمعلمة والمعلنة والمحكوم بها عليه مهما كان ذكاؤه وعلمه وقوته وشجاعته ومكانته وكبرياؤه؟

هل يستطيع الإنسان أن يتعامل مع إنسانيته إلّا بقدر ما يتعامل الإله مع ألوهيته؟

.. أليس الإنسان بقدر ما يكبر ويعظم يحتاج إلى أن يصغر ويهبط؟ هل يستطيع أي إنسان أن يعيش معاني الإنسان مهما جاء معلماً وداعية لها بل مهما جاء نبياً لها وبها؟

.. بهذا حكم على الإنسان تكوينه الذي لم يختره أو يستشر فيه.. إذن هل يوجد تكوين فيه ما في تكوين الإنسان من قبح وآثام وتعذيب وتشويه وإذلال وتحطيم وتسفيه وترويع وأحزان وهزائم مهما صاغ نفسه وصاغ الآلهة لتصوغه؟

ألم يتكر الإنسان الآلهة لكي يزعم أنه صياغة عبقريتها؟

.. إن من أردأ وأسوأ ما في العلاقات بين الإنسان وبين الآلهة والأنبياء والأديان والعقائد الغيبية والكتب المنزّلة أنه يطيعها بكل الاستسلام والخضوع والهوان والجبن بعقله وتفكيره وتعاليمه وإيمانه وشعاراته ومحاوراته.. ويعصيها بكل الجرأة والوقاحة والسفاهة والبذاءة بكل سلوكه ونياته وشهواته ومجاهراته..

لقد عصاها حيث يجب أن يطيعها وأطاعها حيث يجب أن يعصيها، لقد أعطاها ما لا يجوز أن يعطى وحرمها ما يجب أن يعطى..!

لقد أطاعها فيما لن يصنع لها أي مجد أو سعادة وعصاها فيما يصنع لها المجد والسعادة والكرامة..!

.. إنه في هذه القضية قد أعطى الحرية لأقبح وأردأ وأنذل ما فيه، وحرمها على أعظم وأنبل وأنفع وأقوى ما فيه.. أعطاها لأعضائه وأهوائه البذيئة وحرمها على عقله وأجنحته..!

.. إذن التعريف الصادق الفاجع للآلهة والأنبياء والأديان والكتب المقدسة والعقائد الغيبية أنها الآخذة من الإنسان ما لا يجوز أن يؤخذ والعاجزة عن أن تهبه ما يجب أن يوهب.. إنها لن تستطيع أن تهبه مهما استطاعت أن تأخذ منه، إنها لن تهبه ما ينفعه مهما وهبته ما يضره ويفسده ويضعفه ويهينه..!

.. وإنه لشيء جيد جداً أو رديء جداً أنه لا يستطاع اتهامها أي الآلهة والنبوات والأديان والكتب المنزلة والمعتقدات الروحية الدينية بأنها قد خرجت على وظيفتها أو التزاميها هذين أو قصرت في واحد منهما حتى ولا في العصور والعهود التي تعد أزهى وأقوى عصورها وعهودها. وما يقال ويعتقد خلاف ذلك لن يكون إلّا تمنياً أو خطأً أو كذباً أو تغييراً في الصيغ والأساليب واللغات والتعبيرات والظروف أو تغييراً في الشهوات والرغبات أو في الملائمات والملاءمات..!

.. إن أعظم الأنبياء والأولياء والأتقياء والقديسين ليسوا أقل آثاماً وشروراً نفسية أو أخلاقية أو سلوكية أو إنسانية أو عدوانية ممن يعدون أشراراً أو أسوأ الأشرار أو قادة الأشرار.. ليسوا أتقى منهم ولا أكثر التزاماً أو أقدر على الالتزام منهم بما تقوله وتعلمه وتدعو إليه الآلهة والنبوات والأديان والكتب المنزلة والمعتقدات الروحية والدينية..!

ولكن الفرق بين الفريقين هو في الصيغ والأساليب والتعبيرات والاختيار وفي أنواع وظروف

ممارساتهم وشرورهم وشهواتهم وأوحالهم وآثامهم.. إنهم ليسوا أصفى أو أتقى أو أقوى منهم قلوباً أو نفوساً أو عقولاً أو ضمائر أو محبة أو رحمة أو حناناً أو إشفاقاً أو دموعاً على المعذبين والمظلومين والمقهورين واليائسين الباكين الخائفين المطاردين..!

.. إنهم ليسوا أصفى أو أنبل دموعاً أو أحزاناً إنسانية..!

بل إنهم أي أعظم الأنبياء والأولياء والأتقياء والقديسين يجيئون ليشرعوا ويعلموا ويمجدوا ويبتكروا المزيد من التعذيب والقهر والظلم والإذلال والقسوة والإرهاب والاستعباد بل ومن البغضاء والأحقاد والعداوات والتهديد والوعيد والتحقير لهؤلاء المعذبين المقهورين المظلومين اليائسين الباكين الخائفين المطاردين..!

.. إنهم يجيئون ليصنعوا لهم الجحيم والتهديد بالجحيم.!.. هل يتصور أعداء للإنسان ومروعون له مثل من صنعوا أو أرادوا له الجحيم أو حدّثوه عن الجحيم؟

❀ ❀ ❀

في هذه القضية تفسير أليم فاجع ولكنه قد يكون التفسير الصحيح أو أحد التفاسير الصحيحة لهذه القضية.. يقول هذا التفسير أو ينبغي أن يقول: إن مجيء الآلهة والأديان والنبوات والكتب المنزلة والعقائد والتعاليم الفظة الفاجعة الرهيبة الكئيبة في إرهابها ووعيدها وتعذيبها ووحشيتها ومحاصرتها...

لم يكن إلّا تعبيراً عن بعض ما كانت تختزن نفوس وحياة من جاؤوا بها من فظاظة وقسوة وبغضاء وأحقاد وآلام وآثام وقبح وفحش ونذالة وعدوانية كانوا محتاجين إلى استفراغها وصبّها على كل أحد وعلى كل شيء..!

كانوا مشحونين بكل القبح ولا بدّ من التفريغ. فكان هذا التفريغ.!

هل تستطيع أية نفس فيها أي قدر من الحب أو الحنان أو الرحمة أو الصفاء أو البراءة أو الطهارة أو الجمال أو حتى من التديّن والتقوى أن تتصور هذا الإله بكل جبروته وتسلّطه وقوته وبكل عيونه وآذانه وجواسيسه ومخابراته وزبانيته وأجهزته وبكل جحيمه وعقابه وعذابه وحسابه وتهديده ووعيده ولعناته وشهواته وأنانياته.

.. وبكل مساكنته وحضوره في كل بيت ومكان ومخبأ وسرير..

.. لتحوّله إلى أقسى وأطغى خصم محاكم معاقب للإنسان الذي جاء كما أراده وخلقه.. لأنه جاء كما أراد له أن يجيء وبالصيغة التي صاغه بها وخططها له؟

كيف أمكن أن يوجد من يتصور خالقاً يلعن ويحاكم ويعاقب مخلوقه لأنه جاء كما خلقه وكما شاء له أن يجيء ولأنه فعل النقائص والأخطاء والذنوب التي أرادها له وأراده لها والتي صاغه وخطّطه لكي يكون محتوماً أن يفعلها أي الذنوب والأخطاء والنقائص التي سوف يكون محكوماً عليه بها.. بفعلها؟

كيف لم يتصور ويعتقد ويعلن أن الفاعل الخالق المريد المخطط هو الذي يجب أن يحاسب

ويعاقب على كل شيء رديء أو ضعيف أو بليد أو ناقص أو آثم أو عدواني يفعله مخلوقه؟

كيف لم يفهم كل أحد أن جميع أخطاء وخطايا وعيوب المخلوق ليست إلّا عدواناً وظلماً يوقعه به فاعله وخالقه الذي فعله وخلقه وصاغه بتخطيط وإرادة وتدبير؟

إنها أخطاء وخطايا وذنوب لا تستحق الاعتذار والغفران فقط بل إنها لتوجب العقاب لمن فعل وخلق فاعلها.

.. إن مجيء المخلوق مذنباً أو مخطئاً أو بليداً أو فاسداً أو فاسقاً أو ظالماً عدوانياً يجب أن يفسّر ويفهم ويرى مثل مجيئه أعمى أو أصم أو مقعداً أو مشلولاً أو دميماً أو مشوّهاً أي إذا افترض له فاعل خالق مريد مدبّر مخطط لكل ما سوف يريده ويجده ويستطيعه ويفعله أي المخلوق. إن الخالق لهذا وهذا هو الذي يجب أن يعاقب لا من فعل به ذلك. إنه أي من فعل به ذلك يستحق الاعتذار لا العقاب أي إذا افترض هذا الخالق المريد المدبر.. فمن الذي يستحق حينئذٍ اللوم والذّم والحساب والعقاب؟.. من هو كل المذنب حينئذٍ؟

كيف لم يفهم هذا كل الأنبياء والأولياء والأتقياء والقديسين مهما كان مستوى ذكائهم؟ كم هو فاجع مستوى ذكاء المتحدثين عن السماء؟

لماذا لا تتخاطب السماء إلّا مع أردأ الناس ذكاء بل وإنسانية؟

.. لو أن الإله أراد وقدّر وقرّر وأحب وشاء وخطّط لإنسان أن يكون كافراً أو فاسقاً أو فاسداً أو جاهلاً أو نذلاً فجاء نقيض ذلك، أليس محتوماً حينئذٍ أن يكون عاصياً مغاضباً مذلاً فاجعاً للإله مستحقاً لعقابه وعذابه أي لو كان ممكناً أن يجيء هذا النقيض؟

إذن أليس مجيئه كافراً أو فاسقاً أو فاسداً أو جاهلاً أو نذلاً أو كل ذلك كما أحب وأراد وقرّر وقدّر وخطّط وشاء له الإله طاعة وإرضاء وإسعاداً وفرحاً ومجداً وتصديقاً له أي للإله يستحق عليه كل الثواب والامتداح والإعجاب والتمجيد؟

إن من صنع بإرادته وتخطيطه وعلمه آلة لتكون هادمة فجاءت هادمة فلا بدّ أن يرضى عنها وأن يكون هو الصانع لهدمها والمسؤول المحاسب عليه وعنه أي عن هدمها مثل رضاه عن الآلة التي يريدها ويخطّطها ويصنعها لتكون بانية فتكون كذلك.!

أليس الصانع بعلمه وإرادته وتخطيطه وحكمته لأنياب وأظافر وعضلات ووحشية الوحش المفترس هو المحاسب على افتراسه بل أليس هو المفترس؟ أليس هو هذا الوحش؟

أليس الوحش مصنوعاً به العدوان إن كان معتدياً كما صنعت به أظفاره وأنيابه وعضلاته وجوعه؟

❀ ❀ ❀

نعم، إنه تكوين الإنسان الأليم الرديء الفاجع هو الذي صنع له وأوقع به كل شروره وآلامه وفظائعه وفضائحه وهمومه وكل أخطائه وخطاياه وكل ما يفعله ويفعل به، وكل آلهته وأباليسه

وجحيمه وكل طغاته ودجاليه ومضلّليه ومخادعيه وقائديه إلى كل هوانه وهلاكه وعاره وهزائمه وفحشه ووحشيته.. وكل معلميه كل جهالاته وخرافاته وسخافاته وعداواته وبذاءاته..!

لقد أفرزت هؤلاء وهذه صيغة تكوينه أي تكوين الإنسان..!

حتى الآلهة بكل قباحاتها ووحشياتها وتكاليفها وآثامها وإرهابها وإذلالها.. حتى الآلهة بكل صيغها وتفاسيرها إنما ابتكرها ودلّ عليها بل وخلقها وخلق أوصافها وتفاسيرها وكل لغاتها ومعانيها تكوين الإنسان الأليم الرديء الفاجع القبيح الفادح.. إنما فعل كل ذلك صيغة تكوينه.. تكوينه العقلي والفكري والنفسي والعاطفي والخيالي والتصوري والذاتي المحكوم به عليه..!

ولأن تكوين الإنسان هو الذي أوقع ويوقع به كل مقاساته وكل المقاساة منه فلا أمل في شفائه من ذلك ولا في التخفيف منه حتى ولو أصبح الإله المزعوم الموصوف بأنه يقول للشيء كن فيكون.. بل حتى ولو تحول الفردوس الأسطوري المقروء عنه في الأديان إلى أحد وأصغر وأقل أوطانه ومملوكاته وممالكه..

إنه لا شيء يستطيع إنقاذ الإنسان من شروره وأخطائه وخطاياه أو من عذابه أو آهاته أو آثامه أو من فواجعه النفسية أو العقلية أو القلبية أو التصورية أو التوقعية أو الأخلاقية أو السلوكية أو من أي نوع من أنواع الفواجع ما دام تكوينه هو تكوينه.. كما أن تكوين الكائنات الأخرى غير الإنسان هو الذي صاغ سلوكها وحياتها وأخلاقها.!

إنه لن يستطيع هذا الإنقاذ لا التقدم العلمي أو العقلي أو الفكري أو الحضاري أو الصناعي أو أي تقدم كان كما لن تستطيعه كل الأديان بكل نبواتها وأنبيائها وآلهتها وكتبها المقدسة ووعدها ووعيدها وجناتها ونيرانها وصهيلها فوق كل المنابر والمحاريب.!

إنه لو انتقل إلى الكواكب الأخرى لنقل معه كل مقاساته وكل المقاساة منه حتى ولو ساكن الإله فوق عرشه أو اغتصب من الإله عرشه ليكون صاحبه والمستوي فوقه وحده أي ما دام تكوينه الذاتي هو تكوينه..!

إن كل جهاز أو آلة تعمل بطاقتها وخصائصها ووظائفها لا بما يجب أو ينبغي أو يحسن. وتكوين الإنسان الذاتي ليس إلّا جهازاً أو آلة تعمل بطاقتها وخصائصها ووظائفها اضطراراً لا بما يجب أو يشتهي أو يطلب أو يعلم أو يقرأ..

إن الكينونة بكل صيغها وتعبيراتها ليست إلّا وظيفة التكوين الذاتي.. فالتكوين هو خالق وصائغ كل الكينونات..

إن الإنسان لا يحزن أو يجبن أو يخاف أو يتوقع أو يتصور أو يمرض أو يموت بتعليم ولا لأنه لم يعلم نقيض ذلك وهكذا كل مشاعره وعواطفه وشهواته ورغباته وسلوكه ومواقفه وقوته وضعفه..!

إنها وظائف التكوين الذاتي لا تبديل لها إلّا بتبديل تكوين الذات سواء أكان التكوين بتدبير أم بلا تدبير..!

إن كل تكوين بتدبير متكوّن عن كينونة بلا تدبير..

.. فيا من تنتظرون الخلود في الفردوس.. فردوس الغلمان والحور العين وأنهار الخمور والسكر والخمود والخمول والكسل والتفاهة والبلادة والفضائح لا تنتظروا أن تكونوا أقل عذاباً أو انفجاعاً أو ترويعاً أو قبحاً أو كآبة أو خوفاً أو توقعاً مرهقاً معذباً أو غيرة أو خبثاً أو حقداً أو حسداً أو لؤماً أو شروراً مما كنتم في دنياكم ما لم تخلع عنكم صيغ تكوينكم وتوضعوا في صيغ تكوين أخرى..!

كما أن الإله لن يفقد شيئاً من مقاساته أو من المقاساة منه.. لن يفقد شيئاً من هزائمه أو من أخطائه أو من حيرته وضياعه أو من تخطيطاته وخطواته الخائبة الخاسرة المدمّرة العاجزة أو من أحزانه وأوجاعه وحسراته وصراخه وبكائه ما لم يضع نفسه في صيغة تكوين أخرى..!

لماذا لم يفعل بنفسه ولنفسه ذلك؟ أعجز أم بلادة؟

هل قرأ نفسه؟ هل نظر إليها في المرآة ولو مرة واحدة؟

.. وقد يكون من الشواهد على ذلك ما فعله آدم وحواء في الفردوس الأول وما أصابهما فيه مع أنهما كانا وحدهما وهذا يجعل أسباب الغواية والشرور والآلام والفواجع أقل، كيف وقد خاطبهما وأمرهما الله بكل التودّد والحنان والاهتمام مواجهة بلا أي وسيط ناصحاً ومحذّراً ومعلماً ومتخضعاً متضرّعاً متخوفاً مرتجفاً متفائلاً متشائماً..!

ولكنهما تحت إملاء قوانين تكوينهما الذاتي فعلا وأصابهما ما جعله يضطر آسفاً ومفجوعاً مهزوماً إلى إخراجهما من الفردوس الذي صنعه من أجلهما وأدخلهما فيه فرحاً سعيداً غريقاً في البشر والبشريات مما فعل ومما ينتظر...! ولعله كان يجهل أن تكوينهما الذاتي لا بدّ أن يفعل بهما ما فعل..!

وهذا لا بدّ أن يصنع خوفاً من تكرار هذا الحدث أي من أن يفعل من سوف يدخلون الفردوس الثاني مثل الذي فعله آدم وحواء في الفردوس الأول تحت إملاء نفس الظروف والأسباب الذاتية التكوينية..!

وحينئذٍ يضطر أي الإله إلى إخراجهم من فردوسهم كما اضطر إلى إخراج آدم وحواء من فردوسهما..!

إن احتمالات وأسباب الإخراج الثاني أقوى وأظهر من أسباب واحتمالات الإخراج الأول كثيراً، كثيراً.

والمفروض أن منطق الإله وأخلاقه ورؤاه وانفعالاته ثابتة لا تتغير أو تتناقض..!

لقد أخرج آدم وحواء من الفردوس الأول فكيف لا يخرج أبناءهما من الفردوس الثاني؟ لقد فعلا أي آدم وحواء ما أوقع به الغضب والغيظ والإذلال فكيف لا يفعل أبناؤهما به ذلك أي داخل الفردوس؟ لقد خدع آدم وحواء آمال الإله فكيف لا يخدعها أبناؤهما؟

.. وإنها لأقسى إهانة لكل شرف العقل وأخلاقه أن يقال: إن آدم وحواء قد فعلا في فردوسهما

الأول ما استحقا عليه طردهما منه وإن أبناءهما لن يفعلوا في فردوسهم الثاني ما يستحقون عليه طردهم منه، أو أن يقال لقد عوقب آدم وحواء العقاب الذي استحقاه ولكن أبناءهما لن يعاقبوا أبداً هذا العقاب مهما استحقوه بالتكرار والاستمرار..!

إنها لقضية مثيرة حقاً تستحق كل الاهتمام والقراءة والدراسة..!

.. ولكن لقد طرد آدم وحواء من فردوسهما إلى الأرض فإلى أين يطرد أبناؤهما من فردوسهم؟ إنها حيرة، حيرة مرهبة.. ليتهم يطردون إلى الفناء الأبدي..

هل يمكن أن توجد كل النظافة أو البراءة أو الكرامة والصدق أو الجمال أو الراحة أو التقوى أو الإنقاذ من كل قبح أو خبث أو ألم أو فساد أو ضلال أو عدوان أو عذاب أو عار أو افتضاح أو هوان أو نذالة إلّا بالفناء الأبدي؟

أرفض أن يجيء القرآن شاعر هجاء لشعبي اليمني

نظري إلى وجه الحبيب نعيم	وفراق من أهوى علي جحيم
يا زارع الريحان حول بيوتنا	يا زارع الريحان حيث تقيم
ضع لي على وجه النجوم علامة	إني أحدّق في السماء وأهيم

إلى مَنْ مجّد الصداقة والحب بانتمائه إليهما.. بانتمائهما إليه.

إلى مَنْ في طلعته وابتسامته وإيماءته وهمسته تتجمّع كل الجيوش الغازية الهازمة الطاردة المطاردة لكل جيوش اليأس والهموم والأسى والإحباط والهزائم والتشاؤم والتجارب الخاسرة الخائبة والانتظار الذليل الحزين المهزوم المفجوع.. الطاردة المطاردة لها من:

كل وجوه وملامح وعيون وقلوب وعقول وضمائر كل المشاهدين الرائين المواجهين المتعاملين السامعين المتسائلين القارئين.. لكل نصوص وحروف وتفاسير طلعته..

.. إلى مَنْ أتمنى أن تحمى كل معانيه.. كل عقله وقلبه وضميره وصدقه وصفاته وأخلاقه.. كل حواسه وأحاسيسه وكل من معه ومن حوله.. كل من في بيته ومن يأتي إلى بيته ويعرف بيته وكل مجاور لبيته.

ـ أن يحموا هم وكذا غيرهم.. كل غيرهم من أن يقرؤوا أو يسمعوا أو يذكروا أو حتى يلمسوا أو يتذكروا أو يروا أي شيء من صحافة سبتمبر.. سبتمبر.. سبتمبر ـ أتمناه هيبة ورهبة مما فيها من الصدق والإخلاص والتواضع والذكاء والعلم والإيمان والتقوى الدينية وغير الدينية ومن العبقريات.. العبقريات التي لا يوجد مثلها إلّا في السور والآيات التي أنزلت على خاتم كل النبوات أي قاتل وملغي وهازم وطارد كل النبوات. أليس أعظم ما جاء به وجاء من أجله نبي العروبة أن يقتل ويلغي ويطرد ويهزم كل الأنبياء الذين كانوا قبله وكل من قد يجيئون بعده.. ومما فيها أي صحافة سبتمبر من صعود، صعود فوق غبار النفاق وتراب النفاق وأوثان التراب وتراب الأوثان وتراب التراب..

من صعود وهبوط أيضاً فوق قمم الجهل والغباء.. تحت حضيض الجهل والغباء.. بكل لغات كل ألوان السذاجة والعدوان على النفس والفضح لها ولمن يكون الحديث عنه وإليه ومن أجله وزفافاً إليه..

ما أقبح زفاف النفاق البليد البذيء. ما أقبح الزفاف والمزفوف إليه وأقبح العرس.!!

آه، وأبداً آه. آه كم أخشى أن يقرأ إبليس صحافة سبتمبر أو شيئاً من صحافة سبتمبر..!. يا صحافة سبتمبر هل قرأت نفسك؟ من أرادك وخلقك ووهبك الورق والمطابع يا صحافة سبتمبر.؟

.. ما أعظم وأقسى حينئذٍ شماتته أي إبليس واستهزاءه بالإله لخلقه هذا الإنسان السبتمبري.. هذا الثوري السبتمبري المؤذي والفاجع لكل العيون والآذان والعقول والوقار والاستحياء بتفجّره فرحاً ومباهاة وتمجّداً وتحدياً وكبراً وتكبّراً بانتصاراته المخترقة لكل المقاييس والحسابات والتوقّعات وبثورته الهازئة. بما كان وبما سوف يكون وبما لن يكون.. لن يكون..!.. بثورته ذات العبقريات والاقتحامات الهازئة بكل العبقريات والاقتحامات والثورات..

.. بثورته التي تقرؤها وتفسّرها علينا صحافته السبتمبرية..

.. تقرؤها وتفسّرها كما تقرؤها وتفسّرها حتى لتوشك أن تجعلنا وأن تجعل كل أحد عاجزين عن أن نتعلّم القراءة والكتابة أي تجعلنا وتجعل كل أحد رافضين تعلّم الكتابة والقراءة ومتمنين العجز عن تعلّمهما.. بل وداعين من لا ينتظر أن يسمع أو يستجيب أن يجعلنا عاجزين عن ذلك..!

أي لئلا نبتلى بقراءتها أو يحكم علينا بالكتابة فيها أو بمثل ما فيها..

.. كان يشك في أن يكون لأية ثورة أي عطاء أو مجد، بل كان يستيقن ذلك أحياناً ويجب أن يستيقن ومن الصعب أن يوجد خلاف في هذه القضية أي خلاف يستحق الخلاف.. يستحق أن يكون خلافاً.. أما بعد ثورة سبتمبر فقد ثبت كما أفهمتنا صحافتها أنه لا مجد ولا عطاء إلّا مجد وعطاء الثورات..

فقد أفهمتنا أنه لا مجد ولا عطاء للتزوير والضلال والتضليل والخداع والانخداع والعجز والغرور والادعاء يساوي مجد وعطاء الثورات من ذلك وفي ذلك.. إنه لو كان لكل شيء عطاء ومجد لكان مجد الثورات وعطاؤها الغباء والكذب والغرور والعجز الصارخ. الصارخ.!

إنه لو كان الإله الخامد الجامد المستسلم لرجعية الكون والكينونة طويلاً طويلاً ـ وهل مثل الإله في رجعياته الشاملة الدائمة؟

ـ أجل، إن الإله لو كان قد قرّر أن يصنع أقوى وأشمل وأحرّ وأفتك ثورة ضد كل شيء.. ضد نفسه ووجوده وكينونته وتبلّده وبلادته ورجعيته وإمبرياليته ورأسماليته في كل صيغها وتفاسيرها فقرأ صحافة سبتمبر.. صحافة ثورته فعرف حقيقة هذه الثورة من صحافتها لكان محتوماً أو لكان واجباً أن يستعمل كل الأسلحة لقتل أو منع ثورته المنوية المقرّرة.! إذن لا خوف من أن يثور الإله الذي يجب أن يثور إن كان قد قرأ صحافة سبتمبر وعرف ما وراءها.!

❀ ❀ ❀

كان انبهاري وفرحي عظيمين حارين راقصين لاتساع انتشار الكتاب الأخير في اليمن الثورية السبتمبرية وللإقبال المتنافس المتصارع المتقاتل ولا سيما بين حملة الأقلام وحملة الألواح أي بين شيوخ الكلمة وشيوخ الدين.. حتى أصبح يقال أو وجب أن يقال إن كل رجل من رجال الدين

بموافقة ورضا كل إيمانه وتقواه لمستعد أن يبيع أو يرهن كل معابده ومساجده ومصاحفه وكعبته إن كان ذلك يهبه القدرة على أن يقتني نسخة ولو ناقصة منه..

وإن جميع حملة الأقلام من شعراء وأدباء ومفكرين وفنانين ومعلمين ثوريين أي في يمن ثورة سبتمبر لمستعدون أن يبيعوا أو يرهنوا أو يحطموا كل أقلامهم إن كان الجزاء أو الثمن أن يمتلكوا ولو مجتمعين نسخة من هذا الكتاب..

أعني أقلامهم المصلية الراكعة الساجدة خارج جميع المساجد والمعابد وضد كل الصلوات والركوع والسجود في كل المعابد والمساجد.. أعني أقلامهم الحاجة إلى كل الكعبات والطائفة حول الكعبات والمقبلة لأحجار كل الكعبات ولكن دون كعبة مكة. إن أقلامهم خارج كل المساجد والمعابد مهما صلّت كل الأوقات فيها وهاجرة أبداً لمكة والكعبة حتى ولو حجّت كل عام إليها. كل يوم إليها..

.. هل في هذا شيء من العجب أو الشذوذ أو المفاجأة في حاضر اليمن أو في تاريخه العظيم في آلامه والعظيم في أمجاده.!. إنه لا عجب أن يصبح هذا الكتاب شاغل اليمن الأول لأنه أي هذا الكتاب هو المتمرّد الأول في التاريخ العربي.. أليس اليمن أي تاريخاً هو مبدع وخالق ومعلم وواهب ومصدر الحضارات والحريات وقد يقال والقات..؟

أليس كل تاريخ اليمن تمرّداً أي ضد التمرّد الجيد؟

وهو أي حاضراً المصحح المداوي الشافي للثورات والحامي لها من الانحدارات والانكسارات والاندحارات والانبثارات. إن على من لا يصدق هذا أو يشك في صدقه أن يقرأ صحافة ثورة سبتمبر.!

ألم يصدر غازيه ومحتله أبرهة الحبشي لهدم الكعبة لأنه هادم الوثنيات وكانت الكعبة ولا تزال وسوف تظل أضخم وأقبح أوثان الوثنيات.

ولم يحاول الشعب اليمني هدم الكعبة بنفسه بل أرسل أبرهة نيابة عنه لأنه أي الشعب اليمني هو أبداً صديق للسلام عدو للعنف..!

نعم، الكعبة وثن يتفوّق على كل الأوثان والوثنيات. لهذا فالعرب لا ينافسون في وثنياتهم حتى ولو كانت الكعبة هي وثنهم الفريد.. ليتها وثنهم الوحيد. إن كل تفكير واعتقاد وتصورات وعبادات وعلاقات العربي وثنية، وثنيات.!

.. وأيضاً ألم يسلم أي الشعب اليمني مليكته العظيمة بلقيس وتسلم نفسها هي وجنودها وحراسها وكل رجالها ومستشاريها وعرشها وتاجها وساقيها عاريتين وكل حليها وملابسها الداخلية والخارجية إلى اليهودي سليمان وكان الرسول بينهما للاستسلام هدهداً مجهول الجنسية والأوصاف والأخلاق والشبه والمكان حاملاً الرسالة المطالبة بالتسليم والاستسلام على أحد جناحيه وقيل حاملاً لها بمنقاره ليكون الاحتقار والتعالي أعظم لا ليسلمها إلى يد الملكة بل ليلقي بها إلى غرفة نومها

تحت سريرها راغباً أيضاً في تضخيم التحقير والتصغير ولم يحاول أو يفكر أن يلقي بها في يدها. إنها قصة تتفجّر لها وبها أقسى الصخور غيظاً وغضباً وانفجاعاً واشمئزازاً ورثاءً وتعجّباً. كيف أمكن أن تحدث وجرؤ راويها أن يرويها؟ لقد جاء اليمن كله حين وصلت هذه الرسالة إلى اليهودي سليمان مبايعاً مستسلماً أي اليمن كله. وماذا كان راكباً في مجيئه؟

لعله كان راكباً نفس الهدهد بأمر من سيده له بالتواضع.!

ألم يفعل اليمن ذلك لعراقة حضارته وضخامتها وأصالتها ولعنف عداوته ورفضه للحروب والعداوات؟..

هل يمكن أن يكون فعل ذلك عجزاً أو جبناً أو جهلاً أو خطأً أو انخداعاً؟

ومن تبالة هذا الشعب.. الشعب اليمني وصدقه وتواضعه ووفائه أنه لا يزال يؤمن بالقرآن الذي يروي هذه القصة بأبشع وأعنف وأوقح الأساليب بل لا يزال يحفظ ويقرأ ويطبع ويوزّع ويفسّر ويقتني هذا القرآن ويقاتل دونه ويسالم ويصادق ويحارب ويعادي باسمه ومن أجله.

عجباً.!.. كيف استطاع أو قبل أي الشعب اليمني أن يؤمن ويظل مؤمناً بالكتاب الذي يحكي بكل الوقاحة هذه الإهانة التي لا مثال لها ومؤمناً محترماً مقدساً للنبي الذي جاء بهذا الكتاب الذي جاء ليسجل ويعلن ويخلد هذه الإهانة؟..

.. وهنا شيء يثير الإعجاب كل الإعجاب وأقصاه بهذا الشعب اليمني وفاء وخلوداً وتواضعاً ورفضاً للكبرياء وتمسّكاً بالتاريخ الصغير المهين المسيء..!. أليس الوفاء للهوان والإهانة وفاء أصيلاً؟ أليس التنازل عن الكبرياء كبرياء أحياناً والعجز عن المقاومة مقاومة بتفسير ما؟ إن اسم «بلقيس» منتشر جداً في اليمن حتى اليوم..!

كيف؟ هل هم لم يفطنوا إلى تاريخ هذا الاسم؟ هل الفطنة إلى مثل هذا عسيرة؟ كيف لم يقتلوا هذا الاسم رفضاً واستنكاراً له؟ كيف لم تقم دعوى على حامل هذا الاسم أو لم يقم هو دعوى على من وضعوا له هذا الاسم؟ كيف؟ كيف لم يفعلوا؟

كيف لم يتساءلوا أو يسألهم الآخرون: لماذا لم يفعلوا ذلك أو يفكروا في فعله؟

.. عجيب أنت يا شعبي اليمني العزيز.. عجيب، عجيب..!

ما أقسى وأقبح العجيب أحياناً.!. ما أكثر العجيب الفاجع المهين وأقل العجيب الآخر..!

.. وأيضاً لقد قدم إلى اليمن لاجيء لا يدرى من أين قدم ولا جاء.. لا يحمل سيفاً ولا رمحاً ولا خنجراً بل ولا مصحفاً ولا نسباً ولا قاتاً ولا موقعاً بأي اسم..!

لم يجيء راكباً جواداً أو جملاً أو بغلاً أو متوجاً بعمامة أو مسبحة. قدم في الظلام لا يدرى في أي حقل نبت ولا من أية شجرة تفرّع وطلع.!

جاء وليس مهماً البحث عن تفاسير وأغراض مجيئه.!

فماذا حدث؟ لقد تحول بكل اليسر والسرعة والقوة والسلطة إلى بيت إمامة، إمامة لتحكمه أي

لتحكم الشعب اليمني بكل السياط والخناجر والسيوف والعمائم والتجهيل والتجويع وإغلاق التاريخ عليه لئلا يرى الحياة والعالم السعيد لأنه إمامة.. لئلا يرى أو يعرف أنه يوجد بشر خارج كهفه وسجنه.. لئلا يعلم أنه يوجد آخرون غيره وغير أئمته بسياطهم وخناجرهم وسيوفهم وعمائمهم وقاتهم.. وهل هم الذين جاؤوا بالقات أو أن بؤس حكمهم حرّضهم على ذلك؟

لماذا فعل الشعب اليمني ذلك؟ لإنسانيته.. لرغبته التي لا حدود لها في تكريم وتعزيز وتكبير الضيوف واللاجئين حتى ليحولهم آلهة عليه حتى ليصنع منهم آلهة يعبدون..؟ لقد ظلّ بيت الإمامة هذا أكثر من ألف عام هو الإله والنبي والحاكم والمعلم والمرجو الواحد لكل شعب بلقيس يحكمه بالعمامة والمصحف وبما يفتيان به.!

ومن خصائص الشعب اليمني أنه لا يوجد فيه آلهة أي حكّام صغار وكبار بل كلهم كبار، كبار أي ما داموا صغاراً أي ما داموا حكّاماً عليه..!

ولعل كل الشعوب العربية كذلك لأنهم أبناء الشعب اليمني..!

.. كل الشعوب العربية وقد يقال: أغلب الشعوب إلّا الشذوذ النادر فعلت انقلاباتها أو سرقاتها للحكم التي تسميها ثورات.. فعلتها وحدها بلا جيوش خارجية لأنها شعوب انشقاقية انفصالية فردية أنانية أي التي فعلت انقلاباتها وحدها أي ثوراتها..!

أما الشعب اليمني فقد فعل انقلابه أو ثورته أو اغتصابه للحكم وللعرش ولموارد الخزينة ولإنفاقها بالمشيئة والهوى والأنانية والمنفعة الخاصة الذاتية الإعلانية.. هل يوجد سارق مثل الحاكم الذي يهب مال الدولة ليمدح أو لئلا يذم أو يكره أو لئلا يزال من مكانه؟

ـ نعم، فقد فعل ذلك بجيوش أخرى لأنه يؤمن بالوحدة وبالجماعية العربية وباليد العربية الواحدة ويرفض التفرّد حتى ولو لاغتصاب الخزينة والعرش والألوهية الواحدة المؤلهة المعبودة بكل الحروف المنقوشة أو المبصوقة المستفرغة على صفحات صحافة ثورة سبتمبر..

آه، ماذا يعني ما يسمّى بالثورات؟ هل يعني إلّا استيلاء الحارس على محروسه، أو على الخزانة أو الخزينة التي وضع حارساً لها. هل أعطت أية ثورة أي شيء مهما زعم أنها أعطت كل شيء؟ إن على من يشك في هذه القضية أن يقرأ ويحاسب كل الثورات العربية.. الليبية والسورية والعراقية واليمنية والمصرية والسودانية بل وكل الثورات العالمية.. الفرنسية والروسية والصينية وغيرها وغيرها..

إن كل شيء جيد إنما يصنعه الإنسان الجيد والإنسان الجيد يوجد ويبدع حيث لا ثورات أكثر وأقوى من وجوده وإبداعه حيث تكون وتوجد الثورات. كيف يجهل هذا أي جاهل؟ لننظر إلى أمريكا التي هي بلا ثورة وإلى أمريكا المتعاقبة الثورات.. ولننظر إلى اليابان غير الثورية وإلى الصين الثورية..!

ولننظر إلى بلد مثل الكويت ولنتصور أنها قد أصيبت بأية ثورة من الثورات العربية أو غير العربية لنعجز عن تصور الفجيعة المحتومة.!

وللشعب اليمني قصة من الفداء والإيثار والتنازل عن الحقوق الذاتية والقومية والدينية والأخلاقية والاجتماعية.. قصة يعجز خيال الإله عن توقّعها بل وعن تصورها لو لم تقع..

ولا بدّ أن وقوعها قد صدم وأهان خياله أي خيال الإله..! لأنها جاءت في واقعها فوق خياله وأبعد منه.!

.. تقول القصة التي أصبحت حقيقة إنه كان في زمان ـ لا نحتاج إلى تحديد زمانه ـ توجد قبيلة تسكن مكة تسمى قبيلة قريش.. ادعى رجل منها أن اللّه قد جمع كل أفكاره وشحنها بكل عواطفه واهتماماته وهمومه وفراغه ووحدته وضياعه فأقنعته بأن يختاره نبياً ومنقذاً أبدياً لكل العالم، لكل الكون وأن يلغي ويقتل ويطرد كل من جاؤوا قبله أو من قد يجيئون بعده من رسل وأنبياء ومعلمين ومفكرين وملهمين ومن علماء وشعراء وعباقرة وخالقين.. وهذا الرجل لا يعادي أو يطارد أحداً مثلما يفعل بالخالقين المبدعين.. وكان هذا الرجل يسمى محمداً وكان يتيماً ضعيفاً فقيراً مغموراً.. فرفضه قومه فأخذ الخوف يهاجمه، يهاجمه حتى وحى إليه بالهرب إلى قرية أو مدينة هناك تسمى يثرب منافسة لمكة بأسلوب ما، وهرب أو هاجر معه وبعده بعض قومه الخائفين المؤمنين من القرشيين إلى يثرب هذه المسماة بالمدينة المنورة، وكان أهلها من أصول يمانية وكانوا كراماً فوق كل المقاييس المعروفة ففعلوا كل شيء جيد ونبيل وعظيم وفدائي لهؤلاء المهاجرين أو الهاربين.. آووهم وأسكنوهم وزوّجوهم وأطعموهم وكرّموهم وأمّنوهم بل وبايعوهم بالنبوة وبالإيمان والطاعة والاتباع وقاتلوا عنهم ومعهم وباسمهم وتحت قيادتهم فانتصروا وفتحوا مدناً وأقطاراً وشعوباً حتى فتحوا لهم مدينتهم مكة وبلادهم التي هاجروا أي هربوا منها إليهم.!

حوّلوهم من مهاجرين هاربين في الظلام إلى غزاة فاتحين.. إلى محطّمين ومذلّين وسارقين لأشهر وأقوى وأضخم العروش والتيجان ليجلسوا فوقها وينصبوها فوق من هاجروا إليهم لاجئين هاربين.!

هكذا ظلّوا يفعلون ويفعلون متصاعدين حتى أقاموا لهم دولة أو بداية دولة أي لمن هاجروا أو هربوا إليهم.. دولة أصبحت أقوى دولة في عصرها بل أعظم دولة..

وبدؤوا يتراجعون إلى الوراء أو يوضعون في الوراء أي في القيادة والتسلّط والأمر والتأمير وقوة السلطان. وأصبح أي المهاجرون الهاربون اللاجئون هم كل التيجان والعروش والأمر والنهي متقاسمين لذلك متنافسين عليه بل متقاتلين متلاعنين عليه.. مات محمد والأمور كذلك مقراً بل وصانعاً ومخططاً لها وراضياً بها.. أي لتكون كما كانت أو بدأت.. الفاعلون يختفون ويبعدون واللاجئون يتسلّطون.!

.. ازداد أو ظلّ يزداد هؤلاء في الاختفاء والصمت وأولئك في البروز والدوي حتى أصبح هؤلاء لا يرون ولا يسمعون وأصبح أولئك كل الرؤية والسماع والضجيج. حتى أصبح أولئك أقل من شركاء فيما فعلوا ووهبوا بل أقل في ذلك من الخدم والموالي.!

وهكذا ظلّت العروش والتيجان تتنقّل وتتعاقب وتتقاتل وتتصارع بين المهاجرين الهاربين اللاجئين بلا مشاركة من الفاعلين الواهبين.!

بين الخلفاء الأولين وأبنائهم وأقاربهم بل وزوجاتهم وبناتهم. بين العباسيين والأمويين وبين العباسيين والعباسيين وبين الأمويين والأمويين..

وغيرهم وغيرهم بل وبين مواليهم وعبيدهم وخدمهم.. يفعلون كل الآثام والآلام والفساد بالدين والحياة والشعب وبكل شيء.. ويقودون إلى كل الهزائم والفضائح والموت والهوان، وأولئك الذين آووا ونصروا وشادوا وشيّدوا.. الذين غزلوا ونسجوا وحاكوا وصنعوا ونصبوا ورفعوا ونقشوا وطرّزوا وزيّنوا كل التيجان والعروش والقلانس والعمائم والمسابح واللحى التي سوف تحكمهم وتذلّهم وتخفيهم عن كل أجهزة الصور والصوت والرؤية والإحساس.. لئلا يروا أو يسمعوا أو يحس بهم أو يحسوا هم بأنفسهم أو بما هو حادث ويحدث..!

إنهم صامتون غائبون. إنهم مفقودون. إنه ليجب أن يموتوا.. أن يموت وجودهم.. كل صيغ وتفاسير ومعاني وجودهم يجب أن تموت، تموت..!

لقد أصبحوا متفضّلين واهبين خالقين.. إذن يجب أن يختفوا.. أن يموتوا كل معاني الموت وصيغه.. لئلا يجازوا بفضلهم وتفضّلهم.. لئلا يعرفوا بذلك أو يعترف لهم به..!

إنهم غائبون مفقودون صامتون.. إنهم كل ذلك بكل صيغه وتفاسيره.. إما خوفاً أو عجزاً أو كسلاً أو ضياعاً أو إهمالاً أو خموداً أو خمولاً أو شماتة أو يأساً وانفجاعاً أو تآمراً أو لأسباب أخرى..

أي أو نكاية بهؤلاء المهاجرين اللاجئين الذين آووهم ونصروهم وكرّموهم ومجّدوهم وحموهم بل وحوّلوهم إلى سادة وملوك وخلفاء وسلاطين بل وإلى أنبياء، فكان الجزاء أن غدروا بهم أقسى وأنذل غدر وأن أفسدوا عليهم وفيهم حياتهم فحوّلوها من حياة سلام ومحبة وعمل وعطاء وإنتاج وزراعة وتجارة إلى حياة موت وحروب وعداوات وبغضاء وأحقاد وخصومات وملاعنات وقتال وغزو ونهب وسلب وسرقات..

باسم الصدقة على الله وعلى أنبيائه وعباده العاجزين العاشقين المعلمين للسلب والنهب..

باسم وبدعوى الطاعة والتمجيد والإرضاء لله ولنبيّه محمد ولدينه ولعباده المزعومين صالحين وأبراراً أتقياء..

ليأكلوا أموال الناس المغزويين المسلوبين المنهوبين.

- ليأكلوها في صحون وقدور الإله وبأيدي وملاعق ملائكته.. ليأكلوها على موائد الآلهة خادمة لهم الملائكة..

أليست الغنائم المنهوبة المسلوبة من المحاربين المزعومين أعداء سرقات بل أقبح السرقات باسم الآلهة والأنبياء والصالحين.. باسم أو بحجة إرضاء وإسعاد وتجميل السماء ومواطنيها!.. وما أبشع كلمة غنائم وأبشع معناها وأبشع من نطقوا بها واخترعوها وعلّموها ونفّذوها وحوّلوها إلى تاريخ ودين.!

❀ ❀ ❀

نعم، لعل هؤلاء المسمّين بالأنصار والذين هم من أصول يمانية لم يكونوا من داخلهم مؤمنين أو راضين بالنبي محمد أو بدينه أو بمن جاؤوا معه أي بعد أن رأوهم وعرفوهم وعايشوهم وقرؤوا

وفسّروا كل ما في حقائبهم النفسية فأنكروهم وأضمروا لهم الكيد والعداوة والشر والتدمير بنيات الانتقام والعقاب..!

وكانت الفكرة أو الخطة الناجحة الذكية أن يصمتوا عنهم ويتركوهم ليصنعوا بأنفسهم وبلادهم وعصورهم وتاريخهم الدمار والفساد اللذين صنعوهما واللذين عرفوا أنهم صانعوهما بل والهزائم والفضائح التي أوقعوها بأنفسهم وبشعوبهم وأوطانهم بل بكل الشعوب والأوطان التي غزوها وفتحوها..!

لقد تركوهم ليحدث ما حدث وكأنهم كانوا يصنعون الغيب وليسوا يقرؤونه فقط.. كأنما كانوا يصوغون الأحداث المقبلة الأليمة ولم يكونوا فقط يرونها..

كان الأنصار في هذه القضية يشبهون المتآمرين على قريش وعلى من جاؤوا بهذا الدين بل وعلى الدين نفسه أي كان اليمانيون هؤلاء..

ولكنهم لم يكونوا كذلك وليسوا محتاجين إليه ليحدث ما حدث وما كان محتوماً حدوثه..!

إنها قصة بلا مثيل أو شبيه. إن أعجب وأقبح وأصعب ما فيها كل هذا الصمت عنها كل هذا الوقت..

لقد كان المفروض بل والواجب أن تتحوّل هذه القصة إلى أحر وأقوى وأدوم وأشمل بل وأذكى الدراسات العالمية والقومية.. التاريخية والمنطقية.. العرقية والإنسانية والنفسية.. البدوية والحضارية.. الجماعية والفردية..!

كيف حدث هذا.. هذا الصمت؟ كيف حدث؟ هل لحدوثه سر أو تفسير تعجز كل التفاسير عن تفسيره بل وتهاب تفسيره وقراءة سرّه وتفسيره لو كان له تفسير؟

هل يمكن أو يقبل أو يعقل أو يغفر تفسير هذا الصمت بأنه استهانة بالشعب اليمني أي بالشعب العربي كله لأن الشعب اليمني هو كل الشعب العربي. وقد كرّرت تفاسير ذلك أي كون الشعب اليمني هو كل الشعب العربي أو هو كل الشعوب العربية..؟.!

هل كان للشعب اليمني أعني للشعب العربي كله عدو قوي قادر له كل هذه المكيدة القادرة القوية الشريرة؟

هل تسمح كرامة وكرم الشعب اليمني بذلك؟ كيف سمحا به أو كيف سكتا عليه وعنه؟

آه. يا شعبي اليمني العزيز الكريم علي وعلى كل قومك العرب.. يا كل مجدي الماضي والحاضر والآتي.. يا كل فخري ونصري وعزّي وانتمائي وادعائي..!

يا شعبي كم تعذبني وأتعذّب لك ومن أجلك ومعك وفيك وبك وباسمك حين أقرأ صحافتك السبتمبرية ومدائحها لقادتك وزعمائك الثوريين الطيبين المتواضعين الرافضين الكارهين المعافين لكل الأوثان وعابديها ولكل المنافقين والمنافق لهم والمتقبلين لشيء من ذلك..!

نعم، كم تعذبني وتزعجني وتفجعني يا شعبي اليمني الثوري السبتمبري حين أجدك وأقرؤك

تحاول بكل ضعفك.. بكل مواهبك الضعيفة الأليمة أن تفسد وتزعج وتفضح وتهين قادتك وزعماءك الأبرياء الأتقياء الأصفياء الثوار.. الثوار جداً..

بمدائحك البليدة المشوّهة التافهة الكاذبة في نياتها مهما كانت صادقة في لغاتها ورؤاها..!

أليس كثير من المديح كاذب النيات صادق الرؤية والتعبير؟

.. أيهما أقسى تعذيباً لنا وعدواناً علينا: من يعذبنا ويعتدي علينا صادقاً وعارفاً ومعلناً أنه يفعل بنا ولنا ذلك أم من نتعذب له وبه وفيه ومن أجله وبانتمائنا إليه وبانتمائه إلينا دون أن يدري أو يريد أو ينوي أو يقبل لنا أو بنا أي شيء من ذلك؟ أليس أقسى العذاب هو العذاب بالرؤية والعقل والفكر والقلب والخلق والضمير؟

.. إن الإله لو واجه إبليس بكل قبحه وتمرّده وعصيانه وتذالاته وطغيانه عليه لما قاسى شيئاً من العذاب أو الانفجاع أو الاشمئزاز أو الأسى الذي أقاسيه حين أقرأ الصحافة الثورية السبتمبرية.. حين أقرأ مدائحها لقادتك وثوارك المعذبين المتعذبين بتواضعهم وصدقهم وتقواهم وبكراهتهم ومقاومتهم للكذب والنفاق والهوان يا شعبي اليمني العزيز الحبيب.!.. أليس الزعيم العظيم يتعذب بنفاق المنافقين له أقسى من عذابه بهجاء الهاجين له؟

آه.. ويلي من نفسي سائلة متسائلة.. ويلي من صمتي عن السؤال والتساؤل والمساءلة..!

إذن ويلي مني.. ويلي مني أبداً ودائماً. أليس كل الويل من النفس؟

❁ ❁ ❁

هل وجد أو يمكن أن يوجد من لم يقاسوا أو من لا يقاسون أو من لن يظلّوا يقاسون العذابين معاً أو أحدهما أو من لم يصنعوا ولا يزالون يصنعون وسوف يظلّون يصنعون كلا العذابين أو أحدهما.. العذاب واقعاً منهم والعذاب واقعاً عليهم؟ أليس كل الوجود تعذيباً للآخرين واستقبالاً للعذاب منهم؟ هل يمكن أن توجد ثم لا تصنع العذاب أو يصنع بك العذاب؟

.. كم أنا معذب بقدر ما أحيا.. بقدر ما أنا إنسان أو بقدر ما أنا كائن أكبر من الإنسان. أعظم حياة من حياة الإنسان..!

.. أنا أسأل إذن أنا إنسان، إذن أنا كل العذاب الفكري والقلبي والعاطفي والأخلاقي والفني والديني والحضاري والجسدي والذاتي.. إذن أنا أوسع وأدوم وأشمل وأقسى عذاباً من كل عذاب.. من كل العذاب أي بقدر ما أنا إنسان أحيا كل معاني الإنسان وألتزم بها وأحاول الالتزام بها وبشروطها ورؤاها ومحاسباتها وقراءاتها وتفاسيرها..!.. أنا صانع للعذاب مصنوع بي العذاب بقدر ما أحيا.. بقدر ما أنا إنسان..!

❁ ❁ ❁

قاسية وصعبة جداً هي المحافظة على براءة الإنسان وتقواه الأخلاقية والفكرية والنفسية والدينية والحضارية والإنسانية.. بل هي مستحيلة، مستحيلة..

إنه أي الإنسان حتى في أعلى وأسمى وأنقى مستوياته ونياته وتفاسيره يظلم ويعذب ويفجع ويخيف ويورط ويقهر من لا يريد أو ينوي أو يقبل أو يرضى لهم إلّا كل الحب والصداقة والخير والنجاح والانتصار والسعادة والفرح والمجد والراحة بكل الأساليب والصيغ والمعاني..! بل إنه ليفعل ذلك بقدر سمو وضخامة مستوياته وكينوناته.!

كم هو قبيح وفاجع وأليم أن نعذب أو نؤذي أو نظلم أو نحزن أو نصدم أو نهزم من لا نريد أو نرضى أو نقبل أو نتمنى أو ننتظر لهم إلّا كل النقيض لكل ذلك..!

كم هو رهيب أن يكون محتوماً بأن نكون فجيعة أو هزيمة أو كآبة أو ورطة أو شماتة أو تعبيراً أو هجاءً أو إيذاءً أو تعذيباً أو تشويهاً أو إحراجاً لمن لا نريد لهم أي شيء من ذلك..!

.. نعم، مخطط ومريد وصانع وصائغ الكون والحياة والإنسان وكل شيء كان يجب ويفترض ويطلب وينبغي أن يكون أقوى وأذكى وأنقى وأنبل وأشرف وأعلم وأرحم وألطف مما كان وجاء وعمل..

.. أن يكون شاعراً وفناناً وروائياً ومصوراً متصوراً قارئاً مفسّراً مستمعاً معلماً متعلماً أعظم من كل ما في هذا الوجود وكل وجود.. من كل ما فيه ومن فيه..!

أليس كذلك؟

ألا يمكن الافتراض أو ألا يجب الافتراض أنه يوجد خالق آخر قد قرّر ودبّر وخطّط وصمّم مستطيعاً التنفيذ أن يجيء صاحب أو خالق أو رب هذا الوجود بكل هذا العجز والضعف والبلادة والبله والوحشية والسّفه والدمامة والجهالة والنقص والنقائص والذنوب..

وأن تكون تفاسير هذا الخالق الآخر نفسية وأخلاقية وعقلية وتكوينية ذاتية وحشية أنانية..

وأن يكون قد صاغه صياغاته هذه لحسابات خاصة ليست كريمة ولا نبيلة؟

هل يمكن التقبّل أو الغفران أو حتى التصديق بأن يصل أي ضعف إلى هذا الضعف..

أن يكون عدد إسرائيل كما هو وأن تكون ثرواتها الطبيعية والعالمية والكونية بل والدينية والتاريخية كما هي.. وأن يكون عدد العرب وثرواتهم العالمية والكونية والنفطية والطبيعية والتاريخية والدينية والشعرية والخطابية والادعائية والحربية كما هي...

ثم تجيء المواجهة بينهما أي بين العرب وإسرائيل كما جاءت أو شيئاً مما جاءت؟

إنها أي هذه المواجهة العربية الإسرائيلية صيغة من صيغ التكرار للمواجهة بين بلقيس اليمن وهدهد سليمان اليهودي.

⊛ ⊛ ⊛

آه. أنا إنسان إذن ما أقسى وأدوم وأشمل عذابي.. أنا أتعذب كل العذاب. كل عذابي لنفسي

وبنفسي وبعذاب ولعذاب كل الآخرين وكل شيء لأني جئت إنساناً دون أن أعرف أو أقبل أو استشار..!

إذن كم يمكن ويجب وينبغي ويفترض أن يكون عذاب من هو أكبر وأعظم من الإنسان.. عذاب الإله والملاك والنبي والولي والصفي؟ أليس الكائن يتعذب بقدر مستويات كينونته العقلية والنفسية والفنية والأخلاقية بل والدينية؟

ما أقسى وأفجع عذاب هؤلاء.. ما أضخم أهوال عذابهم ما لم يكونوا بكل تفاسيرهم ومعانيهم ورؤاهم ومحاسباتهم وقراءاتهم أقل من الصراصير والقمل والنمل ومن كل الحشرات بل ومن كل الكائنات الأخرى أعني الآلهة والملائكة والأنبياء والأولياء والأصفياء..!

أليس الإله يتعذب أكثر من النبي والملاك، والملاك والنبي يتعذبان أكثر من الولي والصفي، والولي والصفي يتعذبان أكثر من الإنسان العادي؟ أليس هذا هو الواقع أو المطلوب؟

أنت إله أو ملاك أو نبي أو ولي أو صفي أو أي كائن يعيش كل هذا الوجود.. كل هذا العذاب والقبح والغباء والعبث الأليم في عينيك وضميرك وقلبك وفكرك وحساباتك ومحاكماتك ومساءلاتك واشتراطاتك وتعاليمك وعقائدك وإيمانك وتمنياتك وتطلعاتك وتقواك...!

إذن هل يمكن أن يوجد أو ينبغي أو يقبل أن يوجد مثل عذابك أو انفجاعك أو اشمئزازك أو عارك؟

ما أعظم وأضخم ما يستطيع الذباب أو البرغوث أن يبيع أو يهب أو يهدي للآلهة والملائكة والأنبياء والأصفياء والأولياء من تقواه وبراءته وسعادته وراحته وطهارته، بل ومن أمجاده محاسباً ومفسراً نفسه بهم..!

❀ ❀ ❀

آه.. خوفي عظيم وفادح من أن تتكرر قصة بلقيس اليمن مع هدهد النبي الملك اليهودي سليمان..

.. خوفي من ذلك عظيم وفادح.. وأسبابه قوية، قوية..!

إن اليمن وملكه أو ملكته اليوم موجودان وإن الملك النبي اليهودي سليمان وهدهده موجودان كذلك، وإن كل المحرّضات والمغريات والداعيات والمسببات والآمرات بل والمشرّعات.. لتكرار هذه القصة بأقسى وأفدح وأفضح الأساليب والتفاسير موجودة ومواتية كثيراً وجداً..

.. لتكرار هذه الفضيحة المأساوية..!

والعرب بارعون ومعروفون مشهورون مشهود لهم بالقدرة على إيجاد بل وتحريض القوانين والأسباب والتفاسير التي تحتم تكرار الفضائح التي كان ويجب ويفترض وينبغي أن يستحيل تكرارها بل ووقوعها..!

أليسوا أي العرب قد كرّروا وجود إسرائيل التي لم يكن تكرارها أي تكرار وجودها إلّا أكثر من كل مستحيل لولا عبقريتهم أي عبقرية العرب في تكرار إيجاد المستحيل وجوده في كل الحسابات والرؤى العقلية والمنطقية والقانونية والفنية..!

.. في تكرار إيجادهم للمستحيل الرديء لا الجيد؟

لولا موهبة العرب في إيجاد أو وجود المستحيل بكل التفاسير والحسابات هل كان يمكن ولو تصوراً تدمير المفاعل الذرّي العراقي أو غزوة أو ضربة المطار الأوغندي عنتيبي أي لولا مواهب العرب ومواهب أشباههم وحلفائهم وخلفائهم أي في جعل المستحيل هو الواقع الدائم.!؟

هل العرب يعدون أمثالهم بضعفهم ونقائصهم وهوانهم وهزائمهم أم يسيرون معهم ومثلهم فقط في الطريق والمستوى والبداية والنهاية وإلى البداية والنهاية!

هل المواهب والقدرات والعبقريات عدوى أو اقتداء أو تعليم أو إرادة أو رغبة أو حاجة؟

وهل يمكن أن تكون ذلك أو شيئاً منه؟

ليتها كذلك..!

ولكن هل كان يمكن تصور أو قراءة أو تفسير ما يمكن أن يحدث أو ما لا بدّ أن يحدث لو كانت كذلك؟

⊛ ⊛ ⊛

سأكرر هذه الكلمات وكثيراً من الكلمات السابقة. وكم أشعر أن هذه القضايا تستحق التكرار.. إن التكرار الذي أعنيه ليس إلّا لغة نابضة خافقة صادقة تعبيراً عن حالة فكرية أو شعورية أو أخلاقية أو إنسانية دائمة الخفقان والأنين.

- نعم، وهؤلاء صامتون غائبون للأسباب السابقة أو لغيرها أو لها ولغيرها.. عدنا إلى قصة المهاجرين والأنصار.

صعب وقبيح أن نتصور كيف أصبح المؤوون الناصرون الواهبون لكل شيء هم الغائبين الصامتين المبعدين المبتعدين عن كل شيء حتى عن العيون والآذان والذكرى والتذكّر وعن كل الحسابات والمحاسبات والمحاورات والمساءلات..!

هل كان صمتهم واعتزالهم واختفاؤهم وتركهم لكل شيء أملاً في هزيمة هذا الدين الغازي وهزيمة من جاؤوا به بعد أن عرفوا كل شيء عنه وعن أهله.. بعد أن عرفوا بالرؤية والتجربة والمعايشة والمقاساة أشياء لم يكونوا يعرفون منها شيئاً حينما آووا ونصروا ووهبوا واستقبلوا ورحبوا؟ أليس الإيمان الأول والإيمان الجماعي الجمهوري والإيمان الوراثي هو دائماً بلا رؤية ولا ذكاء ولا معرفة ولا منطق بل أليس بلا إيمان؟ أليس الواقع الدائم أن الإيمان بلا أي معنى من معاني الإيمان؟ أليس أكثر المؤمنين غير مؤمنين؟ أليسوا غير مؤمنين لأنهم مؤمنون؟ إن الإيمان لا يعني ولم يعن إلّا باصقاً ومبصوقاً فيه وعليه..!

أليس الإيمان في الغالب استقبالاً واختزاناً لاستفراغ وإلقاء من الخارج وليس إيماناً أو تفاهماً أو اقتناعاً أو حتى إرادة أو رغبة أو رؤية أو تلاؤماً أو إعجاباً؟

أليس أقوى المؤمنين إيماناً بإيمانهم وتعصّباً وتمجيداً له هم المؤمنون بلا أي معنى أو شرط من معاني الإيمان وشروطه؟

ـ نعم، كان محمد اللاجىء وأصحابه اللاجئون يذيعون ويعلمون العرقية الجاهلة الجاهلية البغيضة القبيحة العدوانية المذلة الصانعة والمعلمة المشرعة للأحقاد والبغضاء والعداوات والانقسامات..

.. كانوا يذيعون ويعلمون ذلك بكل الوقاحة والبذاءة والبلادة والإساءة بين من آووهم ونصروهم ووهبوهم كل وجودهم وكل شيء.. كانوا يفعلون ذلك بعيونهم وآذانهم وعواطفهم وقلوبهم وأخلاقهم وكرامتهم وكبريائهم وشرفهم.. باصقين عليهم كل بذاءاتهم ووقاحاتهم وسوءاتهم..!

كانوا يقولون ويذيعون من فوق كل منابرهم وسفاهاتهم: «الخلافة في قريش إلى يوم القيامة» كانوا يحسبون أن قيام القيامة بعد ساعات أو أسابيع أو حتى سنوات لهذا قالوا هذا القول.. ويذيعون ويقولون:

«هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه منازع إلّا كبه اللّه في النار على وجهه».. يقولون هذا القول لأنهم كانوا يعتقدون أن حراس جهنم من جهلاء قريش.!.. ويقولون:

«الناس تبع لقريش.. مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم».. «الناس تبع لقريش في الخير وفي الشر».. «الناس تبع لقريش ما بقي من الناس اثنان».. «لا يزال الإسلام عزيزاً منيعاً ما ولي هذا الأمر رجل من قريش».. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

إنه لا يمكن تصور عرقية جاهلة متعصّبة مثل هذه العرقية.. إنهم يقولون ليكذبوا أضخم وأجهر الكذب أن الإسلام جاء ليسوي بين البشر.. بين الزنجي والأبيض ومع زعمهم هذا يزعمون أن أعظم عبقري مسلم لا يصلح للخلافة أو لحكم المسلمين ما دام يوجد أميّ جاهل قرشي فاسق حتى ولو كان ابن سفاح..!.. إن كل تقوى البشر وعبقرياتهم لا تقبل حاكمة للعرب والمسلمين ما لم يكن الحاكم قرشياً..!

.. إنهم يعلمون ويعلنون التفرقة بين القرشيين العرب وبين أعظم قبيلة عربية.. وبين كل القبائل العربية..!

يعلمون ويعلنون أن كل العالم لا يصلح لما يصلح له رجل واحد من قبيلة قريش.!

.. يعلنون ويعلمون ذلك ديناً ونبوة وقرآناً فكيف يجرؤون على الزعم أن الإسلام جاء ليسوي بين البشر؟

كيف يجرؤون على اتهام أي دين أو نظام بمثل هذا الاتهام؟

.. إن أي مواطن يمني يقرأ رأيي هذا لن يغضب أو ينزعج مني أو منه لأني أتحدث عن نفسي

وأبكي نفسي. إذن لن تكون مشاعره إلّا الرثاء والحزن لي ومحاولة التخفيف عني ومحاولة التهوين من عذابي وأساي..

إن أكثر الناس وحشية وجهالة من يغضب أو ينكر على من يحزن أو يأسى على نفسه بل المفروض أن يأسى ويرثي ويشفق عليه وله ويحترمه حتى ولو كان مخطئاً أو مبالغاً أو حتى قاتلاً نفسه إشفاقاً عليها وغضباً لكرامتها وأسى على هوانها..!

أليس القتل للنفس أنبل وأنقى وأذكى وأشجع ولو أحياناً من الاقتتال مع من نزعمه ونعلنه أو يزعم ويعلن عدواً لنا لنقتله ويقتلنا أو لنظل ويظل نحاول قتله ويحاول قتلنا؟

❀ ❀ ❀

هل أحتاج إلى الاعتذار من أن أقول بالتكرار:

إن التكرار ليس إلّا لغة نابضة صادقة متفجرة معبرة عن ازدحام عقلي أو نفسي أو أخلاقي أو إنساني أو احتجاجي عنيف ملح متكرر ملازم ملزم أو عن كل ذلك..

وإن الذين لا يكررون رؤاهم الأخلاقية والفكرية والدينية واحتجاجاتهم واستجاباتهم وانفعالاتهم ومحاوراتهم وتساؤلاتهم واستنكاراتهم بكل لغاتهم وتفاسيرهم وتعبيراتهم وممارساتهم وهم يواجهون ويعايشون ويقاسون ويعاملون كل شيء في أنفسهم وفي هذا الوجود بعيونهم وعقولهم وقلوبهم وضمائرهم وأخلاقهم وإيمانهم وتقواهم..

لن يكونوا شيئاً من معاني الإنسان مهما كانوا كل صيغه وصوره وملابسه..

.. لن يكونوا إلّا كائنات تحيا بلا حياة كالآلهة والأنبياء والملائكة وكل سكان السماء وأصدقائها ودعاتها؟ أليس هؤلاء يحيون بلا حياة أي إن كانوا يحيون؟

أليس هؤلاء أي الآلهة والأنبياء والملائكة وكل سكان السماء وعملائها أقل من كل الكائنات حتى من صغار الحشرات في رؤيتهم وقراءتهم ومحاورتهم ومساءلتهم للحياة وإحساسهم بها وفي قبولهم ورفضهم لها وفي رضاهم وغضبهم عليها وعنها وفي اشتراطهم لها وعليها، وفي إدراكهم لجمالها وذكائها وعدلها ولقبحها وغبائها وظلمها، وفي الاحتجاج عليها والانفجاع بها ولها؟ أليس هؤلاء هم صائغي الإنسان ومعلميه ليكون أعمى في كل تعبيراته ومعانيه؟

هل جاء هؤلاء إلّا لكي يقتلوا ويسكتوا ويذلّوا ويهزموا في الإنسان كل معانيه الرائية القارئة السائلة المسائلة المحتجة؟

❀ ❀ ❀

إن الوجود كله تكرار. إنه لا وجود بلا تكرار ولا تكرار بلا وجود.. فالحياة والموت والتوالد والليل والنهار والنوم والصحو والأكل والشرب والحب والبغض والجنس والرؤية والفرح والكآبة والضحك والبكاء والمجيء والذهاب والخلق والابتسام والعبوس وكل شيء تكرار، تكرار..!

حتى العبادات والتدين والديانات كلها تكرار. فالصلاة والصيام والحج والدعاء والهتاف والتضرع

والاستغفار والتوبة والتحديق في السماء وفي الغائب المختفي الذي لن يحضر أو يظهر تكرار.. تكرار..!

إن المفقود والمعدوم هما فقط اللذان لن يكونا تكراراً ولن يستطيعا أن يكونا ذلك ما داما مفقوداً ومعدوماً. إنه لولا التكرار لما وجد أو بقي أو انتظم شيء..!

إن الذين يقولون لنا لا تكرروا الحديث عن أي شيء إعجاباً أو استنكاراً هم كالذين يقولون لنا لا تكرّروا انفعالاتكم ولا اهتماماتكم بأي شيء رضا أو غضباً.. إعجاباً أو استنكاراً.. تقبّلاً أو رفضاً.. والذين يقولون لنا هذا هم كالذين يقولون لنا لا تكرّروا مقاومتكم أو مناصرتكم.. محاربتكم أو مسالمتكم.. معانقتكم ومصافحتكم أو مضاربتكم وملاطمتكم لأي شيء مما ترون وتواجهون وتقاسون.. كالذين يقولون لنا لا تنظروا أو تقرؤوا أو تسألوا أو تفهموا أو تحزنوا أو تفرحوا أو تضحكوا أو تبكوا أو تتكلموا أو تغضبوا أو ترضوا إلّا مرة واحدة..!

.. والذين يقولون لنا كل هذا إنما يقولون لنا: موتوا، موتوا.. كونوا جماداً، جماداً.. إنما يقولون لنا لتكن رؤاكم وانفعالاتكم وأحاسيسكم وأفعالكم مثل رؤى الإله وأحاسيسه وانفعالاته وأفعاله أي موتاً، موتاً.. وهل يوجد موت مثل موت الآلهة.. الإله؟

❀ ❀ ❀

أنا إنسان، أنا أحيا، إذن أنا أرى، أنا أرى إذن أنا أقبل وأرفض.. أنا أقبل وأرفض، إذن أنا أناصر وأقاوم.. إذن أنا أتكلم.. أنا أتكلم إذن أنا أكرّر الكلام أو أتكلم بتكرار بقدر ما أرى وأواجه بتكرار.. بقدر ما أقبل وأرفض.. أعجب وأشمئز.. أحب وأبغض.. أوافق وأخالف.. أفهم وأعجز عن الفهم بتكرار..

بقدر ما أنا موجود ومواجه ومقاسٍ بتكرار..

.. بقدر ما أخاف وأريد وأطمع وأطمح وأتطلّع وأتوقع بتكرار.. بقدر ما أتجدد وأتطور وأتحول وأتنقّل بتكرار.. إذن أنا أكرر الحديث عن كل شيء وعن نفسي بقدر ما أحيا.. بقدر طاقات الرفض والقبول.. الرضا والغضب.. الإعجاب والاشمئزاز.. الرؤية والعمى.. التمني والتطلّع والمحاولة والاشتراط واللهفة في. بقدر ما في ذاتي من ذلك.. أي بقدر ما أحيا كل الحياة أو من الحياة..!

إذن فالذين يعيبون وينكرون علينا تكرار أن نقول إنما ينكرون ويعيبون علينا الرؤية القارئة السائلة المتسائلة الحارة الراضية الغاضبة.. القابلة الرافضة.. المقاومة المناصرة..! إنهم يعيبون وينكرون علينا أن نكون أحياء..!

إنه لو كان فوق هذا الكون أو في جوفه إله يملك أي قدر من الرؤية أو المساءلة أو المحاورة أو المحاسبة أو المحاكمة أو التقوى أو الاستحياء أو الشهامة أو النظافة أو البسالة أو النقد للذات أو من الاشتراط لها أو عليها أو من الذكاء أو الجمال الفكري أو النفسي أو الأخلاقي أو من الحب لذلك أو من الشوق إليه والبحث عنه لما قبل أو رضي أن يوجد أو يبقى شيء من هذا الكون البليد

السخيف الأليم كما هو بلا أي تغيير أو تبديل إلى ما هو أذكى وأتقى وأجمل وأنبل..!

إن التغيير والتغير الدائم إلى الأفضل والأقوى ليس إلّا تعبيراً عن الرؤية المكررة الحماسية الحارة الحادة في كل معانيها وتفاسيرها بل عن الرؤية الدائمة المحرقة المحترقة المكررة المتكررة في كل أسئلتها وأجوبتها وفي كل مطالبها ومطالباتها ومحاكماتها وإلحاحها وتقواها.. أليست التقوى تساؤلاً ما؟ أليس التساؤل بأحد أنواعه أو بكل أنواعه تقوى ما؟

هل يؤمن من لا يتساءل؟ هل الإيمان الصامت بلا تساؤل إيمان؟ هل المبصر بلا رؤية مبصر؟

إن تكرار وتكرر الأحداث والأشياء والرؤى والمواجهات والكائنات مع عدم تكرر وتكرار الانفعالات والانفجاعات والاحتجاجات والمساءلات لقمة الموت أو البلادة أو كليهما..!

وإن تكرار وتكرر ذلك مع عدم تكرر وتكرار الرضا والغضب.. القبول والرفض.. الاشمئزاز والإعجاب لقمة ثانية للموت والبلادة...!

وإن تكرار وتكرر ذلك مع عدم تكرار وتكرر التعبير عن ذلك بكل تفاسير ولغات التعبير الناطق المقروء المسموع المثير الصادم المزعج لقمة ثالثة للبلادة أو للموت أو لكليهما...!

هذا شيء من الدفاع عن الاتهام لي بأني أتكرر وأكرر حين أتحدث عن أي شيء منكراً أو معجباً، مادحاً أو ذاماً، قابلاً أو رافضاً..!

إن الصمت عن التكرار أحياناً أي تكرار الحديث عن القبيح.. عن استقباح القبيح وعن التحريض عليه وعن المطالبة بالنقيض.. عن تكرار المطالبة بهذا والرفض والمطاردة لهذا.

- نعم، إن هذا الصمت أحياناً لن يكون إلّا كل الموت والبلادة والتبلّد.. إلّا كل معاني الهوان ولغاته.!

أليس الموت أحد أساليب البلادة والتبلّد بل كل أساليبهما؟

.. والبلادة والتبلّد أليسا شيئاً من أساليب ولغات الموت بل أليسا أقسى ذلك؟

والإنسان العربي حين يصمت هذا الصمت ويدعو إلى هذا الصمت بهذه التفاسير لا يفعل ذلك لأنه يستثمر الوقت ويخاف عليه من الضياع بالتكرار حديثاً وكتابة وقراءة وسماعاً وإنما يفعل ذلك خمولاً وكسلاً وهواناً وموتاً وبلادة وتبلّداً وغيبوبة وعجزاً..

ماذا يعني صمت الحشرة والحجر؟ أليست الحياة والذكاء نشاطاً مكرراً متكرراً؟ أليس الموت والغباء صمتاً وخموداً دائماً مكرراً متكرراً في كل شيء وعن كل شيء؟

إن المذموم الرديء من التكرار هو تكرار البلادة والجهالة والسفاهة وتكرار الكلمات بلا معنى أو حماس أو فعل أو انفعال أو رؤية أو تغير أو إرادة لذلك، وليس تكرار الحماس أو التفكير أو الذكاء أو الرؤية أو الغضب أو الرفض أو المقاومة للأشياء الذميمة القبيحة الرديئة.. إن القضية هي الفرق بين تكرار وتكرار وليست بين تكرار وصمت..!

أليس العرب أحق الناس برفض التكرار وبأن يكونوا أكثرهم رفضاً لأنهم أولاً يفهمون أدق

وأخفى المعاني بأقل الألفاظ وأخفاها.. ولأنهم ثانياً هم أحرص الناس على أوقاتهم..!

هل مثل العرب في احترامهم للوقت وحمايتهم له من الضياع؟ هل مثلهم من يغالي في ثمن الزمن بائعاً له ومشترياً؟ إن من احترامهم للوقت أن يقولوا إن اللّه قد خلق الأرض والسموات في ستة أيام، واليوم عند اللّه ألف عام كما يقول قرآن العرب مع أن اللّه يقول للشيء كن فيكون.. كيف ضيّع اللّه من وقته ونشاطه ستة أيام أي ستة آلاف سنة في خلق الأرض والسماء وهو يقول للشيء كن فيكون؟

... ومن احترامهم أي العرب للوقت أنهم ينتظرون ويتوقعون قيام الساعة في أي وقت أو لحظة أو ثانية.. كذلك ألزموا أنفسهم كل يوم بخمس صلوات في الليلة واليوم في المساجد البعيدة والقريبة ليلاً ونهاراً غير الصلوات الأخرى الكثيرة. إذن كم يبقى من الوقت المحترم الغالي؟

كذلك شرعوا لأنفسهم كل عام صيام شهر كامل يموت فيه كل شيء غير عبادة اللّه والموت والاسترخاء باسم عبادة اللّه..!

هل هناك قتل وإفساد لكل شيء مثل صيام العرب؟

كذلك يرون أن من أعظم وأرفع منازل التقوى والحب للّه قضاء أكثر الأوقات في تكرار قراءة القرآن لمجرد التكرار والتلاوة اللفظية المكررة..!. إن قراءة من لا يعرف اللغة لهو أتقى أساليب التقوى والتديّن.! هكذا يقول ويعتقد العرب عن قراءة قرآنهم..!

ومن الدلائل على غلاء الوقت عند أبناء العروبة أنهم يرون ويعلمون ويقولون إن اللّه يظل الشهور العديدة لكي يخلق ويكوّن وينزل المولود الجنين وينبت الحقل، ويظل الأعوام لكي يصنع وينبت وينصب الشجرة ويرفع أغصانها.! مع أنهم يؤمنون ويقرؤون: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾..!

كذلك من تكريم العرب للزمان أنهم يقولون ويعتقدون أن عذاب أهل الجحيم بلا زمان، وتفاهة أهل الفردوس في فردوسهم بلا زمان..!

أليست حياة أهل الجنة قمة التفاهة والقبح والبلادة؟ إنه لشيء مهين أن يقبل أي محترم أن يعيش في فردوس الغلمان!.. كيف يقبل أن يحيا أي نبي أو عبقري في خيمة مع الولدان؟ كذلك يعتقدون ويقولون إن اللّه يظل كل الزمان يعاني ويواجه قبح وقسوة وجوده بلا نهاية...

هل يمكن تصور وجود يساوي في قبحه وقسوته وجود صاحب هذا الوجود؟

.. ويقاسي ويعايش بل ويواطن ويساكن كل ما في هذا الوجود من الفحش والغباء والدمامة والوحشية بلا نهاية..!

هل يوجد ما يجب احتقاره وقتله مثل هذا الزمان؟

.. نعم، الزمان غالٍ وثمين جداً عند العرب، حتى أنهم ليناضلون كل النضال لكي ينفقوا أو يقضوا تسعمائة وتسعة وتسعين ساعة أو يوماً في تقليم أظافرهم ودسّ أصابعهم في خياشيمهم مفضلين

لذلك على أن ينفقوا أو يقضوا ألف ساعة أو ألف يوم في الصعود إلى القمر وفي الاستعداد والإعداد لذلك لأن في ذلك نقص ساعة أو نقص يوم في الألف الساعة أو الألف اليوم..!

إن هذا لأتقى وأذكى وأقوى أساليب العروبة في احترامها للزمن.!

❀ ❀ ❀

والعرب لا ينكرون التكرار فكل حياتهم تكرار.. وفي الغالب تكرار سخيف أو بليد أو عقيم أو بذيء أو مهين أو كل ذلك.. إنه لكل ذلك.!

وكيف ينكرون التكرار وهم يقولون ويؤمنون أن قرآنهم معجزة المعجزات مع أنه بلا مثيل ولن يكون له أي مثيل في تكراره الرديء الضعيف جداً..!

.. ولكنهم أي العرب إذا واجهوا أفكاراً لا يستطيعون الإيمان بها أو الفهم لها أو القدرة على قول مثلها ذهبوا يشتمونها وينكرونها ويرفضونها ويشنعون عليها ويحاربونها بأشتات الأساليب والأسلحة.!

وأسلحة العرب كثيرة ولكنها أبداً مهزومة، إنه لا مثيل لأسلحتهم في قوتها وكثرتها وفي قلتها وعجزها.!

من ذلك أن يزعموا أنها تكرار، ويكونون بذلك يعنون أمرين: أحدهما محاولة التهوين من قيمتها والطعن فيها. وثاني الأمرين أنها ليست جديدة لديهم ولا عليهم بل هم يعرفونها ويعرفون أنها مكررة..! وقد يعنون أنهم هم المبتدعون المبدعون لها..! فهم إذن يعرفون فينكرون بل يعرفون ويتكرون فينكرون ولا يجهلون فينكرون..!

إن جميع التكرار وفنونه وأساليبه وجميع قضاياه وموضوعاته أعني التكرار الزائف لو تجمعت في كتاب أو لغة أو في شيء أو مكان واحد لما استطاعت أن تنافس القرآن في شيء واحد من تكراره مثلاً في حديثه أي حديث الإله عن نفسه أو عن قوته أو عن علمه أو عن مجده أو عن إعجابه وإيمانه بنفسه أو عن أنانيته أو عن مطالبته بأن يكون وحده العظيم المحبوب المعبود المشكور المذكور..!

إن تكرار حديث الإله عن نفسه لشيء يشمئز منه أسفه السفهاء..!

إنه لم يتحدث ولن يتحدث أحد عن نفسه بافتضاح مثلما فعل الإله.!

.. إنه لن يوجد بل ولن يتصور في العالم أو في الخيال والحساب مكرر متكرر في نفسه وفي كل شيء مثل الإله، في قبح تكراره وتكرره..

لنفكر في هذه الصورة.. كل لحظات الزمن يكرر الإله رؤيته وسماعه ومخاطبته لكل الدمامات والتشوهات والآفات والأنات والآهات والصرخات والهتافات والصلوات والشكايات والدماء والدموع

والجراح وممارسات كل أنواع الفسق والخبث والدناءات والتفاهات والجرائم والفضائح والقبائح والزندقات..

هل يحدث ذلك؟ وإن كان قد حدث فهل يمكن أن يكون الإله قد قبل أن يبقى فيه أي قدر من الرؤية والسماع والحياة؟

۞ ۞ ۞

سيكون تكراراً أن أقول:

إن العرب بلا براعة بارعون في تكرار الضربات لأنفسهم بلا أعداء أو ظروف ملزمة. إنهم لا يحتاجون إلى من يدلونهم على الضربات لأنفسهم وضدها أو إلى من يلقون بهم فيها. إنه لو فقد كل دالٍ وسائق إلى الهاوية وعليها لهداهم خطؤهم الأصيل بل خطؤهم الأصيل العريق في غوايته إليها وإلى السقوط فيها..!

إن الزعامات والقيادات العربية لم تعلم غباءها أو قبحها من خارج ذاتها..!

إن كل غباء العالم والكون لا يستطيع أن يعلم زعامة عربية واحدة غباءها وافتضاحها.. ماذا لو أن الإله غار أو خجل أو حزن أو تألم أو ندم ممن أصابهم ويصيبهم فرثى وبكى وأراد أن يتوب وصمم أن يفعل شيئاً ليغفر لنفسه مما فعل تصحيحاً وتكفيراً وتوبة فاختار كل أعوانه ومستشاريه ومندوبيه من أنبياء وملائكة وزبانية ومن حوريات وغلمان وغيرهم وغيرهم فأرسلوا إلى أوطان العروبة كلها ليعلموا ويصلحوا وينقذوا ويدرسوا ويحذروا من الوقوع في الفضائح والهزائم والكوارث التي وقعوا والتي سوف يظلّون يقعون فيها.

ـ نعم، لو أن الإله فعل كل ذلك بكل حنانه وحبه ورحمته وذكائه محاولاً أن يغطي بذلك شيئاً من عيوبه وذنوبه وعاره وهوانه ودماماته التي لا يستطاع ولن يستطاع تغطية شيء منها..؟

كل الذين يعرفون الإنسان العربي يقولون إنه لو فعل ذلك لما حدث إلّا النقيض إن لم يكن بدّ من أن يحدث شيء أي لحدث أن يتعلم اللّه وكل من معه من الإنسان العربي لا أن يحدث عكس ذلك..

إن الإنسان العربي مهما استطاع أن يتعلم القراءة والكتابة فإنه لن يستطيع أن يتعلم المزايا الإنسانية أو الذكاء أو إبداع الحضارة أو معايشتها بذكاء وبكفاءة أو بقوة..!.. ليتنا نجهل هذه الحقيقة.!

.. وقد يكون من الدلائل على هذه الحقيقة الأليمة أن اللّه وكل ملائكته وأنبيائه وأعوانه وقرآنه وكل خبرائه ومستشاريه وأديانه قد جاؤوا ليعلموا الإنسان العربي ما قد قالوا إنهم قد جاؤوا ليعلموه إياه فحدث نقيض ذلك.. فحدث أن تعلم كل هؤلاء النقائص التي زعموا وأعلنوا أنهم إنما جاؤوا ليعلموا الإنسان العربي نقيضها فتعلموها من الإنسان العربي..!

وهل وجد أو يمكن أن يوجد أي كائن بنقائص الإله العربي أو النبي أو الملاك أو الإنسان أو

الدين أو الخلق أو العقل العربي حتى يمكن القول بأنها أي هذه النقائص إنما تعلمت من هذا الكائن؟

إن كل هذا الكون لن يجد من يعلمه كل نقائصه وذنوبه أفضل من الإنسان العربي.!

ولعل الإله لم يوجد إلّا لكي يسلي ويسعد نفسه بمشاهدة نقائص الإنسان العربي.!

.. إن القراءة بمعناها الصحيح أو المطلوب أو النافع أو الحضاري هي نوع من النشاط الإنساني الشامل.. من النشاط العقلي والفكري والنفسي والعلمي والأخلاقي والتاريخي ومن الشوق إلى كل ذلك..!

إنها بتفاسيرها هذه نشاط يرهبه ويعجز عنه الأكثرون فكيف العرب.!

إن العربي كسول جداً في معانيه الإنسانية. في معانيه هذه مهما كان نشيطاً جداً في أعضائه غير الإنسانية أو في أعضائه التي يشارك فيها الإنسان غير الإنسان أو في معانيه غير الإنسانية. إنه أي الإنسان العربي نشيط جداً في هذه وهذه. ولكنه نشاط ضد النشاط.. ضد الحياة. إنه هدم للنشاط ومبدّد له وشاغل عنه أي للحياة وعنها.. إن كل نشاط الإنسان العربي ليس إلّا نشاطاً مضاداً للنشاط..!

حتى نشاطه في صناعة الأولاد ليس إلّا نشاطاً ضد النشاط لهذا فالعربي كسول جداً في القراءة في كل معانيها هذه.. وقد يقال إنه لا يقرأ البتة لأنه لو قرأ وإذا قرأ لا يقرأ بشيء من هذه المعاني للقراءة بل يقرأ إذا قرأ ضد هذه المعاني للقراءة أو يقرأ ما لا تنبغي قراءته أي ما قراءته نفي للقراءة وتحريم وإفساد لها ونهي وشغل عنها..!

ما أكثر القراءة التي هي نفي ورفض وتحريم للقراءة.!

ولأنه أي الإنسان العربي كذلك فإنه يقاوم ويحارب ويرفض ويلعن القراءة بأساليب كثيرة..

من هذه الأساليب أن يزعم ويعتقد ويعلن أن الأفكار والآراء والكتب التي فيها ما لا يستطيع الصعود إليه ليست إلّا مكررة أو كافرة أو مستوردة أو متآمرة.؟

والتفسير الشامل لذلك أنه عاجز عن أن يقرأ هذه القراءة المفسّرة.. لعل كل صيغ حياة الإنسان العربي أساليب مختلفة للعجز عن القراءة..!

.. إن من يقرأ إنما يحاسب نفسه والوجود والتاريخ والحاضر والمستقبل.. إنما يحاسب نفسه بكل ذلك.. يحاسب كل ذلك بنفسه.. إذن هل يوجد أصعب من القراءة أو أشرف من القراءة بمعانيها هذه؟

.. إن رفض القراءة والعجز عنها إنما يعنيان رفض التطور الشامل الصعب والعجز عن هذا التطور أو يعنيان الخوف من ذلك والخوف من تحدياته ومن التعامل معه ومن المحاسبة به.!

إن العجز عن رؤية العاهة في الوجه البريء أو الرفض لهذه الرؤية إنما هو عجز عن القراءة أو رفض لها. إن الرفض للقراءة والعجز عنها إنما يعنيان الرفض لهذه الرؤية والعجز عنها..

.. إنه بهذه التفاسير والشروط للقراءة سيظل القارئون في كل العالم هم الأقلين حتى ولو لم يبق

أميّ واحد في الكون.. كما سيظل الراؤون والسائلون والمتسائلون والمؤمنون والمتكلمون هم أبداً الأقلين مهما أصبح كل من في الوجود ذوي عيون وألسنة مبصرة ومتكلمة وسائلة متسائلة، وذوي معابد وكتب مقدسة ملأى بالآلهة والعقائد والتعاليم المؤمنة بل حتى ولو تحول كل الوجود والكون إلى آلهة وأنبياء وعقائد ومعلمين وأديان وإيمان وتقوى..!

بل كما سيظل الآلهة والأنبياء والشعراء والأتقياء هم أبعد الكائنات عن معانيهم المفسّرة المعلنة أي كما سوف يظل الإله أقل ألوهية أي التزاماً بأي معنى من معاني الألوهية، وكما سوف يظل النبي والشاعر والمعلم والتقي أقل نبوة وتعلّماً وتعليماً وشاعرية وتقوى ممن ليسوا آلهة أو أنبياء أو أتقياء أو شعراء أو معلمين أي أقل في معانيهم وسلوكهم وأخلاقهم محاسبين ومحاكمين بأنفسهم بل أحياناً وبغيرهم..!

❀ ❀ ❀

لقد تعذبت طويلاً لكي أجد كائناً أبعد عن معنى الألوهية أو النبوة أو الشاعرية أو التقوى أو الالتزام بالتعاليم من الإله أو النبي أو الشاعر أو التقي... كيف أمكن أن يوجد من لم ير ويعرف ويقرأ كل ذلك بل ويتعذب به؟ إنه لا يوجد كائن معروضة كل فضائحه وذنوبه وأخطائه فوق كل شيء وفي كل شيء مثل الإله والنبي والمعلم والشاعر..!

.. إنه لو حوسب أو عوقب أو عذب أي كائن لخروجه على كل معانيه وتفاسيره وشروطه ومزاعمه عن نفسه ولنفسه وعن تفاسير كل الآخرين له وتأميلهم فيه وانتظارهم منه وله وعن مزاعمهم له وعنه وفيه.

ـ نعم، إنه لو حدث ذلك أو وجب ذلك أو التزم بذلك لما أمكن أن يحاسب أو يعاقب أو يحاكم أو يعذب على ذلك مثل الإله أو النبي أو المعلم أو التقي أو الإنسان حتى أصغر وأردأ إنسان.. إن بلادات وذنوب وأخطاء ومظالم ونقائص الإنسان وحده لتغطي كل بلادات وذنوب وأخطاء ومظالم ونقائص كل ما في هذا الوجود وكل من فيه من كائنات.. من كائنات جيدة ورديئة..!

إن أبشع وأفجع ما في هذا الوجود بل في الكون.. في كل الكون: إن الكائن بقدر ما يكون كبيراً أو عظيماً أو يزعم ويعتقد ويعلن ويرى كذلك أو يريد أن يكون كذلك يصغر ويهون في كل معانيه المزعومة المعلنة المعتقدة المعلمة المفسّرة لهذا فإنه لن يصغر أو يهون أو يقبح مثل الإله أو النبي أو المزعوم كبيراً وعظيماً ونظيفاً جداً..! ولهذا فإن كل إله يصغر عن كل تصور أو تفسير له.! وأيضاً لهذا فإن الإنسان محاسباً بكل تفاسيره هو أصغر من كل كائن بكل عبقرياته..

.. وقد يقال أيضاً: لهذا فإن كل حشرة أو كائنة ذليلة تكبر وتعظم عما يقال فيها مهما صغر وهان كل ما يقال فيها أو مهما كبر وعظم كل ما يقال فيها وعنها ولها..!

صعب وتعذيب جداً أن يوهب شيئاً من التفكير أو الرؤية أو المحاسبة أو المساءلة والتساؤل من حكم عليه بمعايشة أو مساكنة أو مواطنة هذا الوجود..!..

إن أي إله أو نبي أو ملاك لأصغر وأردأ من أخلاقه وأوصافه المزعومة أو المروية أو المعلمة الممجّدة..!

وإن أية حشرة لأكبر وأنظف وأتقى وأسمى وأشرف من أوصافها وأخلاقها ومستوياتها المروية والمعلمة والمفسّرة والمحقّرة المشتومة..!

❀ ❀ ❀

هل معنى هذا أن كل شيء يصغر ويقبح بقدر ما يكبر ويعظم أو بقدر ما يرى ويزعم أو يبدو كذلك.. لهذا جاءت كل الآلهة تحت كل النماذج في قبحها وصغرها وفسوقها؟

.. إذن هل يوجد أو متى يوجد تفسير جميل أو كريم أو نظيف لأي موجود أو وجود..!؟

هل لأي موجود أو وجود براءة أو كرامة غير أن يكون غير موجود.؟ هل للأشياء تفاسير؟.. إن كان لها تفاسير وحدات وأجزاء فهل يمكن أن تكون لها مجتمعة أية تفاسير؟ ولو وجدت التفاسير فما تفاسير التفاسير؟

لو كان للإله تفاسير أو للكون تفاسير لعلاقة أحدهما بالآخر ولتعامله به ومعه فهل يمكن أن يكون لهما معاً أي الإله والكون أية تفاسير أي مجتمعين؟ الكون وجد لأن الإله وجد ولماذا وجد الإله الذي تحول وجوده إلى تفسير لوجود الكون؟

مَنْ أول من ابتكر التفاسير للأشياء؟ هل يمكن أن يوجد أو يعرف هذا الأول؟ من أين جاء؟ ولماذا جاء؟ هل وجد من تساءل هذه التساؤلات أو شيئاً منها؟ لماذا لم يوجد إن لم يكن قد وجد؟ وإن كان قد وجد فماذا كان الجواب أو فماذا ينبغي حينئذٍ أن يكون أي الجواب؟

هل كان يمكن أن يوجد أي شيء لو كان لا بدّ له من تفسير لا بدّ من جواب للتساؤل عنه؟ ولكن ما المراد بالتفسير أو التفاسير هنا؟

ما أكثر وأشمل وأدوم وأصعب الأسئلة إن كان محتوماً أو حتى مطلوباً أن تكون حين يجب أن تكون وبقدر ما يجب أو يطلب أو ينبغي أن تكون وبقدر ما يحتاج الموقف أن تكون؟ إنه لن يوجد حينئذٍ شيء لا يتحول إلى سؤال.. إلى كل الأسئلة.!

.. وكم هي أصعب وأقسى وأفجع من ذلك إن كان محتوماً أو حتى مطلوباً أو متوقعاً أن تكون لها أجوبة مقنعة أو مرضية أو حتى مفهومة؟ وهل وجد دين أو مذهب أو نظام أو عقل أو خلق يضع حدوداً أو قيوداً أو فروقاً بين أجوبة وأجوبة؟.!

.. هل كان يحتمل أن يوجد سائل أو سؤال واحد لو كان لا يوجد إلّا إذا كان محتوماً أو حتى محتملاً أو مطلوباً أو مشترطاً أن يوجد الجواب أو المجيب أي كما يجب أن يوجد ويجيب؟ هل كان يمكن أن يوجد الإله نفسه لو كان محتوماً أن يكون سائلاً ومجيباً؟

قد يكون الجواب أن المراد بالتفسير والتفاسير أن يكون للشيء أي للمفسر أو للمراد تفسيره..

ـ أن يكون له قبل وبعد.. أن يكون له تخطيط فكري أو فني أو أخلاقي أو جمالي بل وشعري أو إنساني سابق على وجوده وسابق المخطط له هذا التخطيط على وجوده.. هذا هو القبل الذي يجب أن يكون له..

أما البعد أي بعد وجوده فالمراد به أو بعض المراد به أن تكون له أهداف ونتائج تكون التفسير النهائي أو المنطقي أو الأخلاقي أو الفني أو حتى النفعي والأناني والمزعوم لوجوده..

فهل يوجد هذا التفسير أو شيء منه لهذا الوجود أو لأي وجود؟

إن كان هذا الوجود بلا إله فهل يوجد له هذا القبل أو البعد؟ وإن كان له إله فهل يوجد لإلهه أو لأي إله هذا القبل أو البعد؟

.. وإذا فسّرا مجتمعين أي الإله والوجود أو كل إله ووجود فهل يمكن أن يكون لهما مجتمعين أو مفرقين هذا القبل أو هذا البعد أو أي شيء منهما أي من هذا القبل أو هذا البعد؟

إنه لا تفسير للوجود مرئياً رؤية واحدة ولا تفسير له مرئياً رؤى متعددة وإن أي تفسير لن يكون له تفسير..!

إنه لو فسر هذا بذاك لما كان لذاك تفسير، ولو فسر ذاك بذلك لما كان لذلك تفسير..

إنه لو فسر المولود بالوالد لما كان للوالد تفسير، ولو فسر الوالد بالجد لما كان للجد تفسير. ولو فسر الشيء بسببه لما كان لسببه تفسير، ولو فسر سببه بأسبابه لما كان لأسبابه تفاسير، ولو فسر الجزء بالكل لما كان للكل تفسير، ولو فسر الموجد الموجود بالموجد لما كان للموجد تفسير، ولو فسر الإنسان وكل شيء بالإله لما كان للإله تفسير، ولو فسر الإله بنفسه وبكل شيء وكل أحد لما كان لنفسه ولكل شيء وكل أحد تفسير..!

إن خروج كل شيء على كل التفاسير حول كل المواجهين لذلك إلى مفسرين..!

إن كل من جاؤوا ليفسروا إنما جاؤوا ليعلنوا أنه لا تفسير..!

إنها لأخطر مؤامرة أن يترك العرب يتعلمون القراءة والكتابة

إلى الصديق أو الذي كان صديقاً أو الذي اعتقدته وآمنت به صديقاً أو الذي تمنيته وأتمناه أبداً صديقاً أو الذي أرجو وأصلي وأتعبّد بلا إله لأجده صديقاً، أو الذي يجب ويطلب أن يكون صديقاً..

لقد كنت ولا أزال وسوف أظل أريد الكتابة إليك.. إني أسعد وأتعزى وأتداوى وأقوى وأستقوي وأبحث عن الانتصار المفقود بالكتابة إليك..

هل البحث عن الانتصار بحث عن الانتصار أم عن أفجع معاني الانهزام؟

.. ولكني وجدت أو اعتقدت أو ظننت أو تصورت أو خفت أو وسوست ـ وكم أتمنى أن أكون مخطئاً ـ إنك تكره وترفض وتتقي أن أكتب إليك حذراً، حذراً..

بل وتؤمن وتتديّن وتحترم إلهك ونبيك وإيمانك وتقواك وحجك وصيامك وقرآنك بألا أكتب إليك بل وتتشاءم وتتوجّس وتستعيذ وتقرأ كل سور المعوذات.. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ - ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾...

.. تفعل كل ذلك راجياً ومطالباً ألا أكتب إليك.

لكي تحمي مكانك ومكانتك وكينونتك وبراءتك والرضا عنك من غضب وعقاب وحساب إيمان وتقوى مجتمعك العربي.. المؤمن بلا تقوى، والمطيع المستسلم بلا صدق أو فهم أو احترام أو إيمان أو حب أو اتباع، والمصلي بلا طهارة أو تطهّر أو وضوء نفسي أو فكري أو أخلاقي أو حتى مكاني أو جسدي..

والمناضل أي مجتمعك العربي بلا ميدان أو معركة أو مواجهة أو انتصار.. والواعظ المعلم المصدر للأديان والألوهيات والنبوات والأخلاق بلا اتعاظ أو اقتداء أو التزام، والمحترق المحرق حماساً وتحميساً بصوته وخطبه وشتائمه بلا أي قدر من الحماس أو التحميس في رؤاه أو خطواته أو هجماته أو عضلاته أو ضرباته.

بل وتحاول أن تحافظ على دينك وقوميتك وتاريخك وعبقريات وبسالات وأصالات العروبة بأن ترفض وتكره وتقاوم أن أكتب إليك بل وتصلي لذلك في كل كعبات ومقامات ومعابد العروبة والإسلام راجياً ألّا أكتب إليك..

بل وتناشد كل الآلهة الموجودة وغير الموجودة طالباً منها أن تقتل وتدمّر كل الورق والأقلام لكي أعجز عن الكتابة إليك.. عن إرادة ونية الكتابة إليك.!

بل وتتمنى أن تنطفىء وتموت وتسرق كل الشموس وكل الأجهزة الصانعة للنور وللرؤية لكي لا أستطيع أن أكتب إليك..!

.. إن حزني وانفجاعي قاسيان قاتلان محرقان لأن الدلائل على موقفك هذا كثيرة قوية حاسمة متكررة متجددة..!

إنكم حتماً تعرفون ذلك وتعرفون ما يقنع كل الإقناع بأنكم كذلك سلوكاً ورغبة ونية وتعبيراً بل وإصراراً.. تعبيراً عن التقوى العربية واحتراماً للتقوى العربية التي لم توجد والتي كم يخشى ألا توجد؟ نعم، ومن أجل ذلك قررت بكل الأسى والعذاب أن أعاقب وأعذب نفسي وكل معاني الإنسان في كل العقاب والعذاب بكل معانيهما وتفاسيرهما.

أي بأن أمتنع عن الكتابة إليكم وعن التفكير في ذلك وعن التأميل فيه..!.. كيف استطعت أو جرؤت أن أقسو على نفسي كل هذه القسوة باتخاذي هذا القرار ضدها؟

.. إن هذا القرار قرار لحظات. وهل يكون قرار اللحظات قراراً أبدياً؟ هل يمكن أو يقبل تفسيره بذلك أو أن يفسر كذلك؟ ليت الإله يستطيع أو يعرف أن يعاقب ويحاسب نفسه بشيء من محاسبتي ومعاقبتي لنفسي. ما أجمل كل شيء حينئذٍ..!

لهذا، لكل هذا ولتفاسير أخرى فإن هذه الرسالة التي لا بدّ أن تتحول أو التي يجب أن تتحول إلى أقسى وأغزر البكاء والدموع في عواطف وأخلاق وعيون كل الآلهة الجافة المجدبة المحرومة أبداً من كل البكاء والدموع لأنها الجافة المجدبة المحرومة أبداً من كل الرؤى والعواطف والحب والرحمة والحنان بل والإيمان. ما أقبح وأبلد وأفجر الآلهة الخالقة الفاعلة المعايشة المواجهة لكل هذا دون أن تغرق دموعاً وبكاء وأسى..

ـ نعم، فإن هذه الرسالة لكل هذه التفاسير الموجعة الفاجعة لم تجرؤ ولن تجرؤ أن تقول أو ترى أو تعتقد أنها موجهة إلى من كل سعادتها وفرحها وإرادتها في أن تكون موجهة إليه.. إنها ليست إلى من أتعذب وآسى أقسى العذاب وأقسى الأسى لحرماني ورهبتي واستحيائي من الكتابة إليه..

إنها رسالة إلى انفجاعي، انفجاعي بكم بل لكم.. بقومي بل لقومي.. لكل قومي تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً..

نعم، لقومي وبكل قومي في كل عصورهم وأوطانهم لأن ما فجعني هنا لا بدّ أن يكون فجيعة لي بكل قومي لأنه لا بدّ أن يكون تفسيراً لكل قومي تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً لأن الأبناء يحملون مواهب وخصائص واحتمالات الأجداد والآباء لينقلوها إلى كل الأبناء والأحفاد.. إنهم حبالى بذلك ولا بدّ أن يلدوا حبلهم.!

إن موهبة وطاقة وبسالة الكذب والنفاق والهوان والركوع والسجود والافتضاح مع مواهب

وطاقات ولغات الغرور والكبرياء والصهيل والوقاحات والبذاءات في المتنبي وأمثاله من عباقرة العروبة لا بدّ أن تكون موجودة مزروعة ومكونة متكونة في كل أجيال العروبة.. أجداداً وآباء.. أبناء وأحفاداً.. رهيب قبيح فاجع ذلك.. المتنبي المتنبي وأمثاله مزروعون في مواهب وأخلاق أبنائنا وأحفادنا. فظيع، فظيع.!

انظروا، انظروا إلى عرب اليوم.. إلى كل شعراء وأدباء وأنبياء وكتّاب وعلماء وزعماء وقادة عرب اليوم لتعرفوا أهوال وقبح هذه الحقيقة.. اقرؤوا آلهة التاريخ ثم انظروا إلى آلهة اليوم وحاسبوها ثم قولوا ماذا وجدتم ورأيتم وعرفتم.!

.. نعم، كانت هذه الفجيعة.. فجيعتي هذه. كانت حين قرأت كلمة في صحيفة بعنوان: «حكاية العربي الخائف من مصير الهنود الحمر»..

آه، كم تمنيت حين قرأتها أني لا أعرف اللغة العربية..

أليست معرفة اللغة العربية عذاباً بل كل العذاب؟

إذن كيف يمكن تصور عذاب وانفجاع واشمئزاز من لا يعرف إلّا اللغة العربية أي إن كانت رؤاه وأخلاقه وأفكاره وحساباته وتطلّعاته غير عربية.؟

.. بل كم كان واجباً عليّ حينئذٍ أن أتمنى أني لا أعرف القراءة بل ولا أستطيع أن أتعلم القراءة..

لقد كان هذا التمني هو أقل ما تفرضه عليّ وتوقعه بي هذه الصدمة الفاجعة.. الفاجعة بقراءتي لكلمتكم هذه..!

كم يجب على الإله أن يحزن بل وأن يعاقب نفسه لأنه أراد وصاغ الإنسان العربي قادراً على أن يتعلم القراءة والكتابة.!. لماذا أراد الإله ذلك؟ هل أراده خبثاً أم جهلاً؟ هل أراده بحثاً عن العار والافتضاح أو تغذياً بالعار والافتضاح؟

.. كم يجب عليه أي على الإله أن يفعل كل ذلك بنفسه لو أنه قرأها أو سمع من يقرؤها..!. كل أنبيائنا وخلفائنا وعلمائنا وفقهائنا وشعرائنا وأدبائنا وشيوخنا مزروعون في كل أبنائنا وأحفادنا وأجيالنا الآتية.. الآتية.. في عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم وفي كل مواهبهم.!

هل يمكن تصور ما يهددنا ويفضحنا ويحقرنا ويشتمنا مثل هذا؟

ما أصعب وأقسى وأوقح وأصدق هذه الكلمة التي تريد أن تقول: إنه لأقسى وأشمل وأدوم فضح وتحقير وهجاء للعرب أن يتركوا يتعلمون القراءة والكتابة.

إن ذلك لأفدح وأقبح وأفجر إعلان عنهم، كم من الستر عليهم ولهم أن يكونوا عاجزين عن أن يتعلموا القراءة والكتابة. ألا يمكن أن يقال بالأسلوب العربي بل وبالتفكير العربي والاعتقاد العربي وبمنطق كل أجهزة الإعلان والدعاية العربية: إنه أي ترك العرب يتعلمون القراءة والكتابة بل والكلام بل وأن يكون لهم أنبياء ونبوات وأديان: إن ذلك أضخم وأخبث وأمكر مؤامرة أرادتها ودبّرتها وصاغتها

ونفّذتها وأشرفت عليها كل مواهب وطاقات وعبقريات وخبث كل الإمبرياليات والصهيونيات العالمية والكونية بل وكل ما في هذا الكون من قوى وكائنات وآلهة.. كل همومها واهتماماتها أن تنافس وتعادي وتقاوم العروبة حسداً وغيرة وجبناً وخوفاً بل ورهبة من تفوّقها بكل تفاسير وصيغ ومعاني التفوق بكل مستوياته وإهاناته وآلامه وهزائمه؟ هل وجد أو يمكن أن يوجد فاضح للعرب أو معلن عن فضائحهم ونقائصهم وضعفهم وغبائهم بل وعن جبنهم وجهلهم وكذبهم ونفاقهم بل وفسوقهم ووحشيتهم وهوانهم.. مثل أنبيائهم ونبواتهم وأديانهم وعلمائهم وشعرائهم وفقهائهم وزعمائهم وقادتهم وعباقرتهم مهما كان كل شيء فيهم فضحاً وافتضاحاً. مهما كان كل شيء فيهم فاضحاً مفضوحاً؟.. ما أعظم وأفظع الافتضاح الذي يجيء في صيغ أنبياء وعلماء وشعراء وزعماء وعباقرة وإله.

.. إنه لولا هؤلاء لجاء وظلّ افتضاح العرب هامساً أو صامتاً متخفياً مستتراً مستحيياً محتجباً متواضعاً غير مقروء أو مسموع أو مرئي أو معروف أو معروض.. إذن هل يوجد شاتم معير للعرب مثل أنبيائهم وشعرائهم وأدبائهم وعلمائهم وزعمائهم وقادتهم؟

هل وجد أو يمكن أن يوجد افتضاح مثل افتضاح قومي العرب وعرض لأي افتضاح مثل عرض قومي العرب لافتضاحهم؟

أليست هذه مؤامرة كونية عالمية بل وإلهية على العروبة وأبنائها؟ أليس كل شيء في هذا الكون وفي كل كون مؤامرة على العروبة منافسة لها وخوفاً منها وحسداً لتفوقها؟

نعم، أليست مؤامرة أخرى ألا يقال بكل أجهزة ووسائل وأصوات الإعلان والتعبير..

ألا يقال بكل هذه الأساليب: إن ترك العرب يتعلمون القراءة والكتابة والكلام.

بل وتركهم ليكون لهم أنبياء وزعماء وخطباء وشعراء وأدباء وفقهاء وعلماء ومعلمون ومفاوضون ومحاورون وعباقرة وأديان وكتب مقدسة ومنابر ومحاريب ليكون افتضاحهم والإعلان والتعبير عنه كما كان وكما هو كائن وكما سوف يكون أجل، إنهما مؤامرتان لئيمتان على العرب..

إحداهما تركهم يتعلمون القراءة والكتابة بل والكلام بل وأن تركب فيهم أفواه وألسنة..!

.. والأخرى الصمت عن إعلان هذه المؤامرة وعن الدعوة إلى الحشد.. كل الحشد لمقاومة هذه المؤامرة بكل الأسلحة والألسنة..

قد يقال هنا بكل الحماس والرؤية والاهتمام والصدق: وهل وجدت الآلهة أو الحضارات أو الكون أو أي شيء إلّا لتدبير وتخطيط وصنع المؤامرات لإيقاعها بالعالم العربي.؟

❀ ❀ ❀

كم أرجو بل وأطالب أن تكونوا أنتم المصححين مطبعياً لهذه الرسالة.. لهذه السورة غير القرآنية.. لهذه القصيدة غير العربية.. لهذه النبوة غير المحمدية.. لهذه التعاليم غير الإسلامية.. لهذه الاحتجاجات والانفجاعات والقراءات والتساؤلات والاحتراقات التي لن تكون عربية أو إسلامية أو إلهية.. التي لن تكون عدنانية أو قحطانية..!

كما أرجو وأطالب أن يكون نشرها في المكان الذي نشرت فيه كلمتكم. أليس ذلك تشريفاً وشرفاً ومجداً وسعادة لها؟ كما أرجو وأطالب أن تصل إلي نسخ عديدة من العدد الذي تنشر فيه..

.. من العدد الذي تنشر فيه لتتحول كل الأمجاد إلى حسد وغيرة وهزائم أمام مجده ومن مجده.. مجده الذي صنعه له نشرها فيه.. صحيفة عربية تجرؤ وتقبل وتعقل وتخاطر أن تنشر مثل هذا الجنون الذي لن تصدق أو تتصور كل رؤى وذكريات وتجارب كل الآلهة أن عربياً قد أصيب أو قد يصاب به.!..

إذن، إذن أليس محتوماً أن تمرض وتتعذب غيرة وحسداً وعجزاً كل سور وأسفار وإصحاحات القرآن والتوراة والإنجيل أمام الصحيفة التي لا بدّ أن تكسب وتملك كل المجد وكل المنافسة على المجد لنشرها هذه الكلمات التي لن يصدق أن تسمى أي شيء من معاني الكلام أو صيغه.!

.. كتبه.. وهل كتب؟ هل وجد أو يمكن أن يوجد من يكتبه أو من يقبل أن يكتبه أو من يقبل أن يتهم بأنه كاتبه؟ حتى الآلهة هل تجرؤ على أن تصدق أن كاتباً قد كتبه فكيف تجرؤ على التصديق بأن عربياً قد كتبه؟

.. كتبه العربي الذي لم يوجد والذي كم كان يجب أن يوجد والذي لو وجد لما صدق أحد حتى ولا الإله أنه قد وجد والذي لن يوجد أو حتى يتصور أقسى أو أردأ حظاً منه لو وجد وهو عربي ولد ووجد وحوصر في العالم العربي وفي اللغة العربية.

.. كتبه العربي الذي لا بدّ أن تتعذب كل الآلهة لكي تتصور وتصدق ذلك..!

.. كتبه العربي الذي لا بدّ أن يتحول وجوده وكتابته له إلى فجيعة وهزيمة وإذلال وتكذيب وصدمة وإهانة لكل حسابات وتقديرات ومقاسات وتمنيات وطاقات ورؤى وتجارب الآلهة. كل الآلهة.. هل يمكن أن يصدق أحد أن عربياً يعيش في العالم العربي ويتكلم اللغة العربية فقط قد كتبه باللغة العربية، حتى الإله هل يستطيع تصديق ذلك أو حتى تصوره أو حتى الغفران لمن صدقه أو تصوره؟

إذن هل يمكن تصور عذاب وانفجاع وضياع واغتراب كاتبه إن وجد؟

كيف جرؤت الآلهة أن تخترق وتشوّه صيغة الإنسان العربي الواحدة الدائمة وتعتدي عليه بأن ابتكرت وابتدعت فيه هذا الإنسان الواحد الأليم؟

⊛ ⊛ ⊛

قد أجد بل يجب أن أجد ومحتوم أن أجد كل الغفران.. غفران منطق وأخلاق اللغة والحوار والمخاطبة وغفران منطق القارىء وأخلاقه حين أقول بأسلوب قد يشبه التكرار وقد يقال إنه تكرار لكلمات قد سبقت ـ حين أقول:

إنه لا يوجد ولم يوجد غير العربي أو مثل العربي مؤمن بلا أي معنى من معاني الإيمان، أو تقي بلا أية صيغة من صيغ التقوى، أو صاحب أقوى وأقسى دين بلا أي تديّن بالقلب أو الفكر أو السلوك

أو النيات أو حتى باللغة أي بالتهذيب اللغوي، أو مطيع خاضع راكع ساجد بكل هامته وقامته وجبهته وركبته ولغته وبكل أعضائه بلا أي إخلاص أو اقتناع أو التزام أو تفسير أو تمجيد لمعنى الطاعة أو تكريم أو إعزاز أو انتصار أو مجد للمطاع..

أو هاج ساب مقسد لمن يطيع..

أو مصلٍ بلا أي معنى من معاني الصلاة.. بلا أي صفاء أو جمال أو قداسة أو براءة بل وبلا أي تعامل أو تخاطب أو شوق مع من يوجّه إليه صلاته بل وبلا أي احترام له، أو مناضل محارب بلا أي نضال أو حرب، أو منتصر كل الانتصار في كل المعارك والمواجهات لأنه مهزوم كل الانهزام والهزائم في كل المعارك والمواجهات ولو المعارك والمواجهات التي قد تكون بلا معارك ولا مواجهات أو التي قد يكون أقواها وأشهرها هي التي لم تكن ولن تكون..!

أو واعظ معلم باصق مستفرغ مصدر لأقوى وأقسى الأديان والآلهة والأنبياء والأخلاق والتعاليم وأشرسها دون أن يتعامل أو حتى يتصادق أي معنى جيد من معانيه مع أي شيء مما يبصق ويستفرغ ويعلم ويصدر..

أو مؤلف وكاتب ومنشد وقارىء لكل دواوين ومعلقات وسور وآيات الحماسات والمصاهلات والمزاعرات والعوائيات دون أن يصاب أي شيء من رؤاه أو أخلاقه أو أفكاره أو حساباته أو اشتراطاته أو حركاته أو مواجهاته بأي قدر من الرؤية أو الانفجاع أو الاشمئزاز أو الغضب أو الغثيان أو حتى من النبض أو الحرارة أو الاستيقاظ مهما واجه وفعل ما لا تستطيع أصغر وأردأ الحشرات مواجهته فكيف فعله؟

أو صانع موقد لكل الشموس وهو العاجز عن إيقاد شمعة فكيف إيجادها؟ أو غازٍ مفسّر للكون على أجنحة أنبيائه وبتعاليم نبواته وهو الذي يذوب خوفاً من خسوف أو كسوف شمسه أو قمره؟

أو واهب مبدع لكل الحضارات وهو المفسد المشوّه المحقّر لكل حضارة فرض عليه ملامستها أو رؤيتها أو التحدث عنها أو ادعاؤها فكيف معاملته لها وتعامله بها؟

أو معلم لكل العالم ولكل التاريخ القراءة والكتابة وهو الأميّ الذي تمدحه ألوهياته ونبواته وكتبه المنزلة المقدسة بأنه أبدي الأمية ويمدح آلهته وأنبياءه بأبدية أميتهم ـ وهو المادح الممدوح بالأمية الأبدية التكوينية والدينية؟

هل هذا كل الإنسان العربي أم شيء منه؟ إن كل هذا ليس إلّا شيئاً من نماذجه وتفاسيره الشاملة الدائمة الثابتة المقررة المفسرة عالمياً وكونياً في كل أكوانه وكينوناته وتاريخه والتي يتفرّد بها وحده دون أية مشاركة أو منافسة بل لا يطمع أو يريد أي كائن أو أي شعب أن يشاركه أو ينافسه في شيء منها.!

.. إنه أي الإنسان العربي هو كل الإيمان والتديّن والتقوى والمجد والنضال والجمال والقوة والذكاء والانتصارات والعبقريات والعطاء الإنساني والحضاري والديني والأخلاقي..

.. إنه كل التفاسير لكل الألوهيات والنبوات وكل الطرق إلى الآلهة والأنبياء.. إلى الفردوس.

.. إنه كل ذلك، كل ذلك وحده أي في اعتقاد وتعاليم ودعاوى وأصوات وآيات وسور وأشعار وأقلام ومنابر ومحاريب ودعوات وصلوات وإعلانات وقراءات كل آلهته وأنبيائه وشعرائه وأدبائه وخطبائه وفقهائه وعلمائه وعقلائه وسفهائه ومعلميه ومفسريه.. صغاره وكباره.. زعمائه وقادته.. إنه أي الإنسان العربي ليرى أن الآلهة لم تتعلم الابتسام إلّا لكي تبتسم له ولا الكلام إلّا لكي تكلمه..!

.. ولكنه وحده كل النقيض لكل ذلك بل كل الرفض والهدم والتشويه والإفساد والمقاومة لكل ذلك..

أي سلوكاً ونيات وأخلاقاً وأفكاراً ورؤى وتفاسير وطاقات واحتمالات وتوقّعات.. تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً.. إن المسافة بين العربي ولغته كالمسافة بين الإله ودعايته وادعائه..!

.. ليته يوجد من يستطيع تكذيب ذلك بالرؤية لا بالرواية بالنص لا بالتفسير.. بالصورة لا بالتصور.. بالواقع لا بالتوقع.. بالعبقريات لا بالنبوات. ليت النبوات لم تكن إذا كانت تعني أن تكون البديل عن العبقريات كما عنت عند الإنسان العربي.!

نعم، ليته يوجد من يستطيع تكذيب ذلك.. ليت كينونات الإنسان العربي تكذب ذلك أو شيئاً منه.. تكذبه بالمعاناة والابتكارات لا بالتلاوة والتفاسير للسور والآيات.. بقراءة وتفجير وتحطيم الصخور لا بقراءة وتفسير وتمجيد وانتظار القبور.. سكان القبور.. بتخطي الموتى لا بلعن من لا يصلون لقبورهم ويحفظون ويفسّرون تراثهم.

.. بالإنسان لا بالإله.. بالشيطان الحاضر الظاهر الفاعل لا بالإله النائم الغائب الذي لن يستيقظ أو يحضر.. بأن يصبح الإنسان بديلاً عن الإله لا بأن يظل الإله بديلاً وتعويضاً عن الإنسان..!

ليت هذا التكذيب بهذه التفاسير يوجد. لماذا لم يوجد؟ هل ينتظر أن يوجد؟

ماذا تقول كل العلامات والرؤى في ذلك؟

إن من آصل وأردأ مواهب العربي أنه لا يريد أو يستطيع أن يكذب بالكينونة والعمل تفاسيره الرديئة الأليمة.!

آه.. إن هذه الأنّات والحسرات والتمنيات تتفجّر وتتحول إلى أسئلة..

في هذا الوقت الذي يجب أن تهرب أو تنتحر فيه كل الآلهة وأن تتساقط وتنطفيء وترفض المجيء والبزوغ كل الشموس والنجوم والشموع..

خوفاً وانفجاعاً واشمئزازاً واستحياءً من أن ترى أو تواجه أو تسمع أو تفهم أو تقرأ..!

.. إنه الوقت الذي أعلنت فيه إسرائيل لكل العالم وأرت وأقنعت كل العالم أن كل قبور ومقابر كل العرب هي قبور ومقابر كاذبة مكذوبة مكذوب عليها وبها.. إن للكذب مخازن وإن أكبر مخازن الكذب هي المقابر العربية وإن القبور لتكذب وإن القبور العربية هي أكذب الكذابين.!

هل وجد أو يمكن أن يوجد كاذب مكذوب عليه وبه مثل القبور؟ قد ينافسها في ذلك بل ويتفوق عليها الإله بل كل إله وليس الإله العربي وحده..

.. لقد أثبتت إثبات رؤية وسماع ومواجهة وفجيعة أنها حروف بلا لغة وخزائن بلا مخزونات وأنها فارغة من كل شيء وأي شيء يوهب أو يهب أو يمتلك أو يستحق أن يروى أو يروى عنه أو حتى يقرأ أو يفسّر أو يحلل أو توضع له أية حسابات أو مقاييس أو موازين أو أن تتواجه أو تتصادم أية منافسة عليه. يجب ألا ننسى أن الحديث هنا عن القبور والمقابر العربية.!

.. لقد أثبتت إسرائيل ذلك لكل العالم، لكل شيء ولكل أحد حتى للإله الساذج الضائع المخدوع الذي كان يحسب بل ويعلن بكل الكبرياء والرضا أنه يختزن في هذه القبور والمقابر أعظم وأغلى وأجمل الكنوز.

ـ نعم، لقد أثبتت إسرائيل كل ذلك بمواجهاتها الشاملة المتنوعة المتواصلة لعرب اليوم الذين أفرزتهم واستفرغتهم أصلاب وأرحام هذه المقابر والقبور..!

لقد فسّرت إسرائيل كل من في قبورنا ومقابرنا منذ البداية.. منذ الأزل، وكل من سوف تلد أصلابنا وأرحامنا إلى النهاية.. إلى الأبد بتفسيرها لنا اليوم..!

لقد فسرت آباءنا وأبناءنا في كل كينونات الماضي وكينونات المستقبل بتفسيرها لكينونتنا الحاضرة.!. لقد استطاعت إسرائيل بكل اليسر أن تفسر آباءنا الذين عجزت كل التفاسير عن تفسيرهم. لقد أثبتت فراغ مقابرنا من كل مخزونات جيدة أو نفيسة..!

كنت يا بغداد يوماً كل أنهار الحضارة

إلى منجم الحب والصفاء والوفاء

.. إلى كل صيغ وتفاسير الجمال الإنساني

❀ ❀ ❀

أشكو إليها.. إلى بغداد، بغداد التي كانت في إحدى بدايات التاريخ أو في أجمل وأقوى بداياته أو في أولى بداياته الكبيرة العظيمة. ما أقسى وأصعب البدايات الصغيرة فكيف البدايات الكبيرة.!.. ما أصعب وأقسى بداية الإنسان فكيف بداية الإله؟ ما أصعب البداية المطلقة.!. وهل يمكن أن توجد بداية بلا بداية.

.. إلى بغداد التي كانت في تلك البداية عاصمة أو أولى عاصمة عالمية، كونية للتفكير والعلم والثقافة والفلسفة ولكل الفنون والحضارات والمذاهب والآراء والانتماءات واللغات والمنابر والمعابد الحرة العالمية الكونية المستقبلة المصافحة المعانقة القارئة لكل العالم.. لكل الإنسان.. والمصدرة المعلمة المقرئة الباسمة المحيية لكل العالم لكل الإنسان.

.. المسافرة المهاجرة إلى كل العالم.. إلى كل الإنسان.. المسافر المهاجر إليها كل الإنسان.. كل العالم..

التي كانت ـ وما أعظم مجدها وتاريخها هذا ـ كانت كل المصاحف والتوراة والأناجيل.. وكل المعارضين والرافضين والناقدين لكل ذلك أي لكل المصاحف والأناجيل والأسفار ولكل توراة.. والتي كان كل العالم يسافر ويهاجر إليها بكل أشواقه الفكرية والثقافية والحضارية..

.. نعم، أشكو إلى بغداد هذه.. إلى بغداد التي كانت وإلى بغداد الكائنة والتي سوف تكون والتي سوف تستمر تكون، وتكون وأبداً تكون. والتي أرجو وأطالب أن تكون أعظم مما كانت حينما كانت إحدى أو أعظم والدات التاريخ.

.. أشكو إليها أني عربي من أعماق الصحراء.. من أعماق العروبة.. وأني مصاب بمرض غريب لا يستطاع ولا يراد الشفاء منه بل ويجب ألا يراد أو يستطاع الشفاء منه. من هذا المرض الشاذ الغريب الذي ما أصعب وأعجب أن يصاب به الإنسان العربي مهما أصيب بكل الأمراض الأخرى الحيوانية..!

آه. ما أكثر البشر المصابين بالأمراض الحيوانية وما أقل المصابين بالأمراض الإنسانية.

.. إنني مصاب بهذا المرض يا بغداد، يا بغدادي هذه التي أقرؤها وأتذكرها وأتداوى وأتعزى بقراءتها وتذكرّها وأحنّ وأشكو وأتضرّع إليها وأتصورها موجودة معادة عائدة بتلك الروح ولكن بأطوار وأساليب ومستويات وصيغ أخرى، أقوى، أقوى..

.. مصاب يا بغدادي هذه بمرض الصدق الفكري والرؤية والتساؤل والاحتراق والاشتراط والمحاورة والمحاسبة وبكل آلام الانفجاع العقلي والنفسي والفني والأخلاقي. بكل آهاته وأنّاته. ما أقسى هذا المرض. ما أقساه. لهذا ما أقل المصابين به..!

.. مصاب بهذا المرض على غير قياس بل وأكبر وأفدح من كل قياس أو حساب أو توقع أو تصور.!

.. مصاب بهذا المرض الذي لم يوجد ولن يوجد له طبيب أو طب أو مصح أو اهتمام أو حتى شيء من المسكنات والمهدئات.. بهذا المرض الذي لن يوجد للعربي المصاب به شركاء أو نظراء أو زملاء.

.. ولأني يا بغدادي مصاب بهذا المرض بكل هذه القسوة هذا المرض الذي يرفض أو يعجز أو يخجل أن ينزل في ذات عربي اليوم والذي ترفض وتعجز بل وتجهل ذات عربي اليوم أن تكون مأوى أو سكناً أو مضيفاً له. آه. هل يمكن التصديق أو التصور أن مرضاً ما يرفض أن يصيب الذات العربية احتراماً لنفسه؟ أجل، يا بغدادي لأني مصاب بهذا المرض بكل هذه الفداحة والوحشية فإني في عالمي العربي اليوم لا أستطيع أي تعبيراً أن أكون عقلي أو تفكيري أو قلبي أو ضميري أو رؤيتي أو إيماني أو أخلاقي أو صوتي، صوتي أو حتى صورتي، صورتي بلا حجاب كثيف، كثيف أي بلا تزوير شامل ودائم.!

إن العرب لا يضعون الأحجبة على شيء مثلما يضعونها على التفكير والرؤية والحرية..!

.. لا أستطيع في عالمي العربي أن أكون شيئاً من ذلك قارئاً أو قائلاً أو كاتباً أو طابعاً أو ناشراً له أو معلناً متحدثاً عنه أو مؤمناً به.. هل استطاع أو يمكن أن يستطيع أي عربي في كل وجوده أن يكون شيئاً من ذلك؟

وأنا لا أستطيع كما لا أريد أو أجرؤ أن أكون مزوراً لذاتي أو ساكناً في غيرها أو منطلقاً من غيرها أو متعاملاً مع غيرها أو بائعاً لها بأي ثمن من الأثمان المعروضة في الأسواق العربية كما تطالب وتفرض وتعلم جميع الأسواق والمنابر والمحاريب والأذان والمذاهب والانتماءات والأخلاق والأصوات واللغات العربية..

وكما ترفض بكل القسوة وبكل أساليب البطش أي كل المجتمعات العربية بكل أجهزة ووسائل التعبير أن يتخلق فيها أي شيء أو أي قدر من الصدق أو التفكير أو الرؤية أو البسالة أو النظافة أو حتى من المحاورة أو المساءلة أو التساؤل ليعيش أو حتى يوجد أي ذلك الشيء أو القدر ولو تحت كل ظروف ومشاعر وآلام الاغتراب والاختفاء والتخفي والضعف والعدوان والرفض والتهديد الصانع لكل الرعب في كون بل في أكوان واسعة مطلقة من الكذب والنفاق والهوان والاستسلام والبلادة والنذالة

والعمى والسقوط والأصوات الهاتفة المصلية لكل ما هو قبيح وبليد وفاجع ومهين.. اللاعنة المهددة لكل ما هو حر وذكي وباسل وصادق..!

.. لكل رفض أو حتى نقد لأي وثن من الأوثان المالئة لكل حقائب ومقابر ومتاحف وسطور التاريخ.!

هل يمكن أن يوجد أو يتصور اغتراب أو عذاب كاغتراب وعذاب من يصمم على أن يكون في كل تعبيراته أو حتى في شيء من تعبيراته مهما كانت متخفية وحذرة وخافتة.

ـ أن يكون صادقاً أو مخلصاً أو حراً أو قوياً أو أبياً أو ذكياً وهو يحيا أو يوجد في مجتمع لا يعيش أو يسود أو يسمع أو يقرأ أو يقبل أو يغفر فيه إلّا الكذب والنفاق والجهل والبلادة والاستعباد بكل صيغه وتفاسيره بل ويعاقب بكل ألوان العقاب كل من لا يكون كل ذلك بل وكل من قد يعارض شيئاً من ذلك أو من لا يرضى ويمجّد كل ذلك؟ أليست وحدانية الغباء والكذب والنفاق والسقوط مفروضة ومنفّذة في العالم العربي أكثر وأقسى من وحدانية الإله؟

.. آه يا بغدادي، يا بغدادي هذه التي كانت والتي أرجو أن تعود وتكون أي بتلك الروح والتسامح والسماحة والحرية التي كانت وبتلك الكينونة الكونية العالمية.. العلمية والفكرية والثقافية والاعتقادية والفنية والتعبيرية والحضارية.. التي كنتها وكانتك يا بغدادي.. في ذلك الزمان.. زمان طفولة التاريخ وطفولة كل شيء.. طفولة السماء وطفولة الآلهة.

ـ أي مهما كان واجباً ومحتوماً وجيداً أن تتفاوت وتتصاعد كل الصيغ والأساليب والمستويات والرؤى والتفاسير والقيم لتلك الروح والحرية والسماحة والكونية العالمية التي كانت أي التي كنتها وكانتك يا بغدادي. يا عاصمة البصرة والكوفة.. يا مطلع الشمس والقمر والنجوم في إحدى بدايات الكينونة. كينونة الإنسان والحياة..

يا أول وأكبر مهود التاريخ الكبيرة أو أحد مهوده الكبيرة.. هل يقبل أو يمكن أن يكون من ولدوا التاريخ وربوه وعلموه وحضروه أقل ممن ولدهم ورباهم وعلمهم وحضرهم التاريخ أو ألا يسيروا مع التاريخ الذي ولدوه وربوه وعلموه وحضروه؟

أجل يا بغدادي بكل اللهفة والاحتراق أشكو إليك.. أشكو إليك.!

هل يخيب من يشكو إليك متلهفاً متطلعاً منتظراً مؤملاً متذكراً مذكراً ذاكراً مطالباً محاولاً أن يكون ذاته فقط.. أن يكون كل ذاته أي تفكيراً وتعبيراً ورؤية وقبولاً ورفضاً.. إيماناً وكفراً.. أن يكون كل ذاته، ذاته فقط طباعة ونشراً وعرضاً قائلاً وكاتباً.. صامتاً وصامتة يده عن الإمساك بالقلم.. أن يكون حراً في أن يرى ويفكر ويعبر ويكون بقدر حرية من يكذبون وينافقون ويركعون ويتلوثون ويلوثون ويعمون ويتبلدون؟ كم أتمنى أن توجد أي في العالم العربي حرية تجرؤ على أن تنافس أو حتى تواجه حرية الكذابين والمنافقين والمزورين والراكعين والمتبلدين والمتلوثين الملوثين الباصقين على كل العقول والعيون والأخلاق!

نعم، يا بغدادي.. يا كوفتي، يا بصرتي، يا كل أشواقي وحبي يا من كنت في عصرك أقوى أجنحة التاريخ والمستقبلة لكل طيران التاريخ.!

هل يخيب أو تقبلين أن يخيب هذا المستغيث بك.. هذا العربي القادم المنطلق من أعماق التاريخ.. من أعماق العروبة القادمة المنطلقة من أعماق الصحراء.. من أشواقها وحرارتها ولهفتها وظمئها وجوعها الحضاري الإنساني؟

هل يخيب أو تقبلين أن يخيب هذا العربي المستغيث بفكره وعقله وضميره ورؤاه وقلمه وورقه وصوته المستغيث استغاثة ثقافية فكرية حضارية أخلاقية مطالباً أن يستطيع شيئاً من التعبير الذي يستطيعه كله في كل العالم العربي كل الكاذبين والمنافقين والمزورين والهاتفين المصلين المؤلهين لكل الأوثان القبيحة البذيئة الفاسقة الكافرة المرفوعة المنصوبة المهتوف المصلى لها فوق كل كعبة ومشهد ومعبد ومنبر ومزار وغار وحراء وكتاب وصفحة وسطر وحرف..

.. فوق كل عمامة وكوفية وقلنسوة وطربوش وكل رأس حاسر الشعرات السوداء والبيضاء والمختلطة.؟

كتبه المحرم عليه في كل أوطانه العربية أن يكون عقله أو تفكيره أو رؤيته أو ضميره أو صوته.. أن يكون أي شيء من ذاته الإنسانية.. والعاجز الرافض أن يكون غير ذلك.

كتبه من يحرم عليه قومه أن يكون صادقاً ويرفض ويعجز هو أن يكون كاذباً..!

إني أبدأ أصلي ولم أجرب أن أغني

.. إلى جمال ومجد وسعادة الصداقة والحب.

.. إلى من لو قرأ الإله ضميره أو قلبه أو فكره أو أخلاقه أو صفاء وجهه وتعبيراته وملامحه لكان محتوماً أن يخجل ويرهب ويهاب أي الإله من أن يريد أو يخطط أو يصنع أية واحدة من الآفات والعاهات والتشوّهات والقبائح والفضائح والأخطاء والخطايا التي تغطي وتغرق وتشوّه كل وجوه وآفاق هذا الوجود.. كم هو عذاب وضياع وقحط وحرمان ويتم بأقسى تفاسير اليتم.. اليتم الإنساني..

ـ كم هو كل هذا: ألا نجد من يهبنا حبه وصداقته وتذكره وحماسه واهتمامه وقراءاته لنا.. لمشاعرنا وشجوننا واهتماماتنا وهمومنا ومشاكلنا وآلامنا وهزائمنا ومخاصماتنا ومبارزاتنا لأنفسنا.. لوجودنا.. لظروفنا.. لتصادمنا واصطدامنا برؤانا ومواجهاتنا وتفكيرنا وأفكارنا..

.. لانفجاعنا وعذابنا بآلهتنا.. بإلهنا كلما رأيناه أو واجهناه أو قرأناه أو فسّرناه أو رجوناه أو انتظرناه أو حاكمناه أو حاسبناه أو نسيناه.!

.. ليكون ذلك شيئاً من العزاء والدواء والأمل والفرح والابتسام لنا لئلا نظل وحدنا مع أنفسنا وحدها نواجه ونقاسي هذا الوجود الوقح القبيح البليد البذيء المتوحش وكل من فيه وما فيه.. لنواجه ونقاسي فضائح وقبائح من زعم إلهه..!

.. ما أقسى وأقبح هذه الوحدانية في هذه المواجهة والمقاساة..!

ولعل الإله المهزوم الحائر الضال المخطىء الضائع أبداً لم يصنع الإنسان والشيطان أي أقوى وأقسى أعدائه وكل أعدائه.

ـ نعم، لعله لم يخلقهما ويرد خلقهما إلّا فراراً وتداوياً من هذه الوحدانية في هذه المواجهة والمقاساة. ليت هذا الإله وأي إله وكل إله يعرف ويستطيع التداوي والفرار.

.. إن الجحيم بلا هذه الوحدانية لأقل عذاباً وقبحاً من الفردوس بهذه الوحدانية.!

هذا هو العذاب الأول أو الأشهر أو الأكبر أو الأشمل والأدوم.. إنهما عذابان لا فرار من التنقل بينهما.!

إنه تنقل بلا اختيار محكوم به على كل من وجد حتى على الإله إن وجد دون اختيار.!

.. أما العذاب الآخر فهو العذاب المشحون بكل القلق والتوجس والتوقع الأليم الدائم.. إنه التحديق الدائم في كل الآفاق الزاحفة القادمة منها حتماً كل المفاجآت أو إحدى المفاجآت الحزينة.!

وهل ما يحدث أو أي شيء مما يحدث مفاجأة مهما بدا أو حسب مفاجأة أو أغرب مفاجأة؟

هل في الوجود مفاجأة مهما جاء وقرىء وفسّر كل شيء مفاجأة؟

.. نعم، وأما العذاب الآخر فهو أن نجد من يهبنا كل ذلك بكل السخاء والفداء والعطاء والحب لكي نظل كل الأوقات مهددين بالأخذ منا.. بأن يسحب منا كل ما وهبنا ووجدنا وملكنا.

.. متوقعين للأخذ والسحب منا مرة واحدة بالأسلوب الكلي أو مرات بالأساليب الجزئية التقطيعية.. عضواً عضواً، وجزءاً جزءاً.. أي العذابين أقسى: العذاب الكلي، أم المجزأ؟

.. متوقعين لذلك كلما فكرنا وتذكرنا أو تصورنا أو قرأنا أو نظرنا أو فسّرنا.. كلما تشاءمنا أو تفاءلنا لو تفاءلنا.!

سواء أقبلنا أم رفضنا، آمنّا أم كفرنا.!

.. إنه لا مجيء بلا ذهاب، ولا ظهور بلا اختفاء، ولا بزوغ بلا مغيب، ولا عطاء بلا أخذ واسترداد، ولا حياة أو شباب أو صحة بلا موت وشيخوخة ومرض..

إنه لا وجود بلا فقد. إنه لا وجود إلّا للفقد، إنه لا فقد لولا الوجود. إنه لن يفقد من لم يجد..

.. إنه لن يوجد ما لا يفقد، ولن يفقد ما لا يوجد..؟

.. قبيح وفاجع ومهين لكل التفاسير والحسابات أن يحفر قبر وينسج كفن ويحمل نعش كلما ولد مولود وأن يبيض شعر وتنحني قامة كلما وجد رأس أسود الشعر وقامة ممدودة.!

.. إذن متى وكيف ننجو من عذاب الحرمان والضياع والقحط والفقد أو من عذاب التهديد والوعيد بالأخذ والسحب والفقد.؟

إننا إما محرومون أو منتظرون لفجيعتنا بالحرمان المحتوم..!

.. إذن أي العذابين أقسى: ألا نجد أم أن نجد لنفقد.. لنقاسي دائماً توقعاً لأن نفقد؟ ولكن هل يمكن أن نقاسي أحد العذابين فقط؟ ألسنا في كل اللحظات نقاسي العذابين معاً مهما كان التفاوت بينهما؟

.. أيهما أنبل عطاء: من يهبنا الحياة لكي يهبنا المرض والضعف والشيخوخة وكل الآلام والمخاوف والورطات والتوقّعات الدائمة الفاجعة ثم لكي يهبنا الفقد للحياة ولكل ما وهبنا.. لكي يسحب منا كل ما وهبنا بأقسى وأنذل الأساليب العدوانية القتالية أم من يهبنا الحرمان من كل ذلك ومن كل ويلات وآثام ذلك ـ أم من لا يهبنا أي شيء من ذلك ولا من غيره لئلا يأخذ منا أي شيء.. لئلا يستطيع أن يأخذ منا؟ أليست الحياة والشباب والصحة هي كل الطرق إلى الموت والشيخوخة

والمرض؟ هل يوجد هذا لولا هذا؟

.. إني هنا لا أسأل ولكني أئن وأتوجع.. أتفجع لألقي بشيء من أثقالي النفسية والفكرية والاحتجاجية الانفجاعية التي تضيق بها وعنها كل آفاق ومساحات هذا الكون، والتي تعجز عن حملها كل عضلات وأكتاف كل هذا الوجود، والتي لن تستطيع قراءتها أو تصورها أو فهمها أو معايشتها أو رؤيتها أو تصورات وعيون وعقول وحسابات كل الآلهة المعروفة والآلهة التي لم تعرف ولن تعرف..!

إني لا أنتظر جواباً. إذن كيف أسأل وأحسب سائلاً؟

.. إني أحاول تفريغ نفسي من اختزاناتها وخزائنها غير الثمينة أو المرغوب فيها.!

.. إني هنا لا أسأل ولكني أصلي بآلامي ولآلامي. إني لا أصلي لها أو بها تعبداً بل خشوعاً لأسبابها وحوافزها وتفاسيرها الإنسانية غير السماوية والدينية.. إن الصلاة بالآلام وللآلام هي أتقى وأنسى وأصدق الصلوات.. أليست هي كل الصلوات؟

أليست كل الصلوات الأخرى كاذبة، كاذبة بل أقل من كاذبة؟ إني أصلي لآلامي وبها رفضاً للصلاة التي تصلى لمريدها ومدبرها وفاعلها أي آلامي.!

.. أجل، إني هنا لا أسأل بل ولا أغني.. إني لا أغني.. إني لم أرد أو أحاول قط أن أغني.!

إني لا أجيد الغناء بل ولا أعرفه ولا أستطيع أن أجيده أو أعرفه..

إني لم أجرب الغناء أو أحاول أو أعشق تجربته..

.. إني لم أستمع إليه حتى ولو سمعته أو سقط علي.!

كيف أغني أو أحاول أو أقبل أن أغني أو أستمع إلى الغناء أو إلى من يغني وأنا أرى وأواجه وأقرأ وأفسر وأفهم كل ما أرى وأواجه وأقرأ وأفسر وأفهم أو حتى شيئاً.. أي شيء من ذلك؟

إني لا أستطيع ولا أريد الهبوط إلى شيء من مستويات المستوي فوق هذا الوجود الغريق في الضحك والمغازلة والامتداح والغناء والصلوات لنفسه وهو يرى ويواجه ويعايش ويساكن ويفعل كل هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه.. وإن الغناء لا يجيدني أو يريدني أو يستمع أو يسعد بي أو يحاول أو يتمنى ذلك..

أو أن يجرب أو يحاول أن يجرب التعامل بي أو معي أو الاستماع إلي. إنه يعاملني بشيء من معاملتي له.!

إنه أي الغناء ليرهب ذلك ويستحي منه.!

لعل الغناء في موقفه هذا كان نبيلاً جداً حين رفض أن أتعامل معه أو يتعامل معي حين وجد فاعل هذا الكون القبيح، القبيح يغني لنفسه ويستمع بكل الرضا والفرح إلى من يغنون لقبحه.!

إني أنا، أنا الصديق العميل الدائم الصادق المخلص المحترق في صداقته وإخلاصه.. للأسى.. للبكاء. للآهات.. للأنّات.. للصلوات.. الصلوات المضادة الرافضة للصلوات التي تطالب بها الآلهة والتي تصلي وتقدم وترشى بها الآلهة وإليها..

الآلهة البدوية الطفلة الدرويشة البلهاء التي تعلمت ألوهيتها وعلمتها من تجاربها وإردتها وعشقها وتدبيرها وتخطيطها وخلقها ومعايشتها ومواجهتها وقراءتها للآلام والآثام والعاهات والتشوّهات ولكل ما يصنع الغيظ والغضب والاشمئزاز والغثيان والانفجاع والكفر..!

لقد كان المفروض ألا يوجد كافر بآلهة هذا الوجود مثل كفر آلهته بها.. بنفسها.!

.. كتبه الحزين الباكي المصلي بدموع وأحزان ونقوى كل الآلهة التي لم توجد ولن توجد والتي كان يجب أن توجد لكي تبكي وتحزن وتصلي بدموعها وأحزانها وقلوبها وتقواها هي لا بدموعه وأحزانه وتقواه هو أي كاتبه..

إنه لا تقدم أو تطور
أو جمال أو أخلاق أو دين بلا تمرّد

آه. يا شعبي الهارب المذعور من استقبال حروف صامتة فوق ورق صامت.. أنعاك، أنعاك يا شعبي الحبيب الواهب الوالد المصدر للإنسان العربي في كل أوطانه..!

أنعاك يا شعبي اليمني يا حبي الأول والأقوى. أنعاك، أنعاك..

أنعى العروبة كل العروبة في كل أوطانها وتاريخها وأطوارها ومجتمعاتها حين أنعاك..

أنعاها أدياناً وعقائد ومذاهب ونبوات وشاعريات وأدبيات وثقافات وتعاليم وتعليماً.. أنعاها بنعيي لشعبي اليمني.. أنعاها آلهة موحّدة ومتعددة.. أصناماً وأوثاناً..

أنعاها كعبة ومكة ومدينة وقدساً وكربلاء ونجفاً..

أنعاها محاربة ومسالمة مهزومة ومنتصرة أي زاعمة أنها منتصرة.!

.. أنعاها أخلاقاً وديناً وإيماناً وتديناً وشجاعة وشهامة وكرامة وحضارة وحرية وصدقاً، صدقاً..

أنعاها كلها في كل ماضيها المزعوم المزور وفي كل حاضرها الفاضح المهين وفي كل مستقبلها البائس المذعور الرافض المجيء.. أنعى نفسي لأني أنعاها.. حين أنعاها..

.. أنعاها بكل هذه الصيغ والتفاسير والحرارة والمرارة والعذاب بعد أن نعى شعبي اليمني العزيز إلي نفسه.. شعبي اليمني الذي هو كل الشعوب العربية ولادة وخلقاً وصياغة وتصديراً.. بعد أن نعى إلي نفسه بأقسى وأفجع أساليب ولغات النعي.. أنعاها بعد أن أعلن شعبي اليمني الكريم نعيه لنفسه بكل أساليب النعي وبأقساها وأكثرها إيلاماً وإهانة وتهويناً.. بعد أن هاب ورهب ورفض وانفجع وانزعج أي شعبي اليمني أن تلجأ إليه مستصرخة أفكار محاربة مطاردة لم تؤمل أن تجد لها أي ملجأ سواه لأنه لم يجدها أي هذه الأفكار اللاجئة محفورة على حجارة قبوره وأوثانه، وهو لا يتعامل بعقله أو برؤيته أو بإيمانه وتقواه إلّا مع قبور وأصنام تاريخه أو أن يكون أي قدر أو تعبير من الشجاعة في الرأي أو الرؤية أو التفكير أو التعبير أو الحوار أو المواجهة أو الاستقبال أو القراءة أو حتى في الإيمان والتدين..

أو أن يتهم بأي شيء من ذلك.. حتى الاتهام بالشجاعة الفكرية أو العقلية أو الأخلاقية أو اللغوية أو الإيمانية يرفضه، يرفضه.. بعد أن هاب ورهب ورفض وذعر وانفجع من احتمال أن يولد أو يوجد فيه بل أو أن يتحاور ويتخاطب معه أي متمرد.. أي متمرد على الموت.. على الموتى.. على

القبور.. على أوثان القبور.. على بلادات وجهالات وأكاذيب وأغلال التاريخ.. بعد أن أغلق كل حدوده تحت أقسى وأشمل الحراسات لئلا تتسلّل إليه أوراق كتبت عليها كلمات يائسة من أن تجد قارئاً واحداً يقرؤها كما يجب أن يقرأها أي يقرؤها ويفهمها ويقتنع بها أو يرفضها بعد محاورتها ومحاسبتها بصدق وحرارة وشجاعة.. إن الشعوب التي لا يولد ويوجد ويتخلق ويقفز ويصمد ويبرز ويتألق فيها المتمردون بكل طاقات ولغات وتعبيرات وتفاسير التمرد..

والتي لا تتقبل بل وتفرح وتسعد وتباهي وتتفاءل أن تزدحم بكل ألوان المتمردين بكل ألوان المتمردين بكل ألوان التمرد وعنفه وشموله.

ـ نعم، إن هذه الشعوب لن تكون مبدعة أو متطورة أو متغيرة أو متحضرة أو حرة أو قوية بل أو مؤمنة أو متدينة أو تقية.. هل وجد أي شيء جيد أو ذكي أو قوي أو عبقري أو حتى تقي بدون تمرد؟.

أليس الإيمان والتدين والتقوى والأخلاق تمرداً؟ أليس أقوى وأصدق وأشهر أنواع وسلوك التمرد هو تمرد الإيمان والأديان والتدين والتقوى والأخلاق؟ هل يمكن أن يكون مؤمناً أو متديناً أو تقياً أو أخلاقياً أو مفكراً من لا يتمرد على أهوائه وشهواته وأعضائه وتقاليده ومجتمعه وجبنه وخوفه وخموله وعجزه وعلى استسلامه لمواجهاته ولميراثه وتراثه الملقن المعلم المحنط؟

أليس الأنبياء كل الأنبياء هم أشهر وأقوى وأقسى العصاة والمتمردين على أقوامهم ومجتمعاتهم وفيها؟ أي الفريقين أكثر وأشمل عصياناً: الأنبياء أم عصاتهم أي بهذا التفسير؟

أليست كل الأديان والنبوات تمرداً، تمرداً؟. لماذا جاء تمردها تقوى وطاعة وجاء التمرد عليها عصياناً وفسوقاً وكفراً؟

لماذا لم يوجد من يسأل هذا السؤال ومن يفهمه ويجيب عنه كما يجب؟

.. قد يقال ويكون هذا التمرد هو تمرداً ضد التمرد المطلوب والنافع والخلاق ولكنه تمرد، تمرد..

ماذا يمكن أن يكون قد جاء وجود الإنسان.. وجوده الحضاري والعلمي والديني والأخلاقي والفكري والثقافي لو لم يتعاقب عليه وإليه أفواج المتمردين بكل أنواع ولغات ومخاطرات التمرد؟

لماذا يا شعبي العربي.. يا شعبي اليمني.. يا شعبي الذي أتمنى أن يكون كما يجب وكما يستحق أن يكون يا شعبي الذي أرفض أن تكون الرواية عنه ميتاً أعظم من الرؤية له حياً.!

ـ لماذا أنت وحدك المحروم المعصوم من كل أنواع التمرد بكل صيغه وتفاسيره الحضارية والإنسانية والفكرية والعقلية والإبداعية بل والإيمانية الدينية الأخلاقية..

دون أن تصاب بأي حرمان أو عصمة من كل ما يجب وينبغي ويطلب الحرمان والعصمة منه؟ لماذا أنت محروم معصوم من كل ما يجب أن تكونه ولم تحرم أو تعصم من أي شيء يجب ألا تكون أي شيء منه؟

.. لماذا كل هذا يا شعبي العربي.. يا شعبي اليمني العزيز الذي يجب ويرجى ويطلب أن يكون أكبر وأعظم مما كان.. الذي يجب ألا تقبل أو تغفر أو تصدق كينونته الكائنة والتي كانت.!

يا شعبي اليمني الذي هو كل شعبي العربي.؟ هل أنت يا شعبي كائن دون الإنسان وترفض أن تكون إنساناً لأن الإنسان كائن متمرد أي لا بدّ أن يتخلق فيه المتمردون وأن يلدهم. والكائنات التي لا تمرد فيها هي كائنات لم تبلغ طور الإنسان. هل حدث أن تمرد على نفسه ومجتمعه غير الإنسان؟

إني أريدك يا شعبي العزيز عظيماً وكبيراً لهذا تجيء قسوة رؤيتي ونقدي ومحاسبتي لك بقدر ما أريدك وأريد لك.. لهذا أبدو قاسياً جداً لأني محب جداً..

إنك يا شعبي مهما وجب الخوف عليك من كل شيء ومن أي شيء فإنه لا يمكن ولا ينبغي ولا يستطاع الخوف عليك من أن تصاب بالتفكير أو بالرؤية أو بالصدق أو بالبسالة الفكرية أو بالحماس أو بالتطور الذاتي أو بالقراءة لما تنبغي قراءته كما يجب أن تكون قراءته!

إن هذه هي إحدى مزاياك التي لن تنافس أو تطاول أو تبارى فيها..!

إذن عليك ولك ألا تخشى أي شيء على مزيتك هذه..

.. ألا تخشى عليها أي غزو أو ضعف أو هزيمة أو تغير أو أن تخترق حدودها أو تقترب منها أية بسالة فكرية أو عقلية أو اعتقادية أو أخلاقية أو تعبيرية.

حتى ليجب أن يفجع ويراع كل قارىء لك وناظر إليك عاجزاً بل ورافضاً بل ومحرجاً مستحيياً أن يفهم كيف لم تتعلم شيئاً من البسالة، من بسالة مواطناتك وصديقاتك الأزليات الأبديات.. من الحشرات التي تغطي وتؤرخ وتعايش وتساكن كل وجودك بكل الشمول والديمومة بكل أساليب التحدي والمبارزة والبسالة والكبرياء.!

كيف لم تتعلم ذلك أو شيئاً منه من مواطنك الفارس الباسل الخالد الذباب الذي تحدثت عنه آلهتك ونبواتك وكتبك المقدسة، وتحدثت عنه أشعارك وآدابك وأخلاقك بكل الحماس والاهتمام والتقوى وبكل الروع والروعة والترويع، بكل الإعجاب والخوف والتخويف.!

من هذا الفارس الباسل المستوي المتألق المحلق فوق وداخل كل العيون والوجوه والآذان والهامات والقامات والأعضاء المحرمة المكرمة المعبودة العابدة العربية.. العربية..!

.. فوق وداخل كل المعابد والمعاهد والكعبات واللحى والعمائم الساكنة والمقبورة فيها آلهتك وأمجادك كلها، كلها..

فوق وداخل كل أوراق وصفحات وحروف كل المصاحف وكل الكتب المقدسة التي هي كل أوراقك وصحفك وصفحاتك وحروفك ومصاحفك وكتبك المقدسة..

مواجهاً مهاجماً متحدياً كل الأخطار، كل الأخطار..

كل أسباب وأسلحة ومواطن الموت بكل الروعة، الروعة..

مهاجماً متحدياً كل شيء حتى الموت، حتى الموت..!

إنه ليتحدى ويهاجم الموت حتى ليخاف منه الموت..!

أعني أعز وأشهر وأقوى أصدقائك ومواطنيك.. الذباب.!

أما أنت يا شعبي العربي.. فإنك تخاف.. تخاف وتهرب.. تهرب حتى.. حتى ليرثي ويحزن لك الموت..!

بل إنه أي الموت ليكاد يخجل ويهرب من التعامل بك ومعك.. ولولا ضغوط وإملاء وأوامر الآلهة والطبيعة على الموت لكان محتوماً أو محتملاً جداً أن يرفض التعامل بك ومعك استحياء واشمئزازاً وفراراً من خوفك، خوفك يا شعبي، يا شعبي.!

من يرثي لي.. لعذابي.. لانفجاعي بك ولك يا شعبي؟ مَنْ، مَنْ؟

يا شعبي اليمني.. يا كل شعبي العربي. يا أعظم آمالي لهذا يا أعظم أحزاني.!

لنقاتل كل أحد لئلا يدخل في ديننا لئلا ينافسنا في فردوسنا

إلى الذكرى الجميلة المداوية.. إلى الفارس المقاتل في جيوش العروبة والإسلام لمناصرتهما على عدوهما الذي لا عدو لهما سواه أي على تخلفهما الوراثي الذاتي التكويني إذ لا عدو لهما غير هذا العدو مهما قالت وأعلنت كل محاريبهما أي العروبة والإسلام وكل منابرهما وأقلامهما: إن أي شيء لم يتعلم العداوة ويحمل أسلحتها إلّا لكي يوجهها إليهما حسداً وغيرة وخوفاً منهما..!

لعلنا لم نتعلم اللغة إلّا لنتحدث عن كيد كل شيء للعروبة والإسلام بكل التآمر..!

إن العروبة والإسلام لم يصعدا إلى الطور الذي يصنع العداوة والأعداء بل إلى الطور الذي يصنع الرثاء والراثين والسخرية والساخرين..!. هل نستطيع أن نصبح مستحقين لأن يكون لنا أعداء؟

.. الزمن مسافر أبداً لا يستريح ولا يتوقف عن أسفاره لحظة واحدة. وأيهما أنفع أن يكون هذا المسافر مسافراً أبداً أم أن يكون واقفاً متوقفاً مثل توقف العقل العربي والفعل العربي والتاريخ العربي بل والإله العربي عن كل أساليب ونيات ومعاني الحركة والنشاط والحماس والتغير والتغيير والتخطي بل وعن الرؤية حتى الرؤية؟

إن العيون العربية لا ترى مهما رأت وأبصرت وركبت لها وفيها كل العيون العلمية الصناعية، ومهما قال كل الطب إنها سليمة ورائية بل ومتفوقة الرؤية. إنها أي العيون العربية عاجزة عن الرؤية عجزاً ذاتياً أبدياً لا مرضياً وقتياً.. إنها جهاز أو آلة بلا أية وظيفة. إنها ليست كذلك. ليتها كانت كذلك. إذن لجاءت أخطارها وأضرارها أقل بل لجاءت حينئذٍ بلا أخطار وأضرار.. فالعقل العربي وكذا التاريخ والعيون والنظرات والمواجهات والمصادمات العربية ليست فقط عاجزة أو متوقفة عن أن تعمل.. عن أن تكون رؤية وتساؤلاً ونقداً ومحاسبة ورفضاً واندهاشاً وانفجاعاً وإعجاباً وتخطيطاً لتكون تغييراً وتخطياً وقوة وإبداعاً وجمالاً أي لتفعل ذلك..!

لهذا ليتها معطلة أو ميتة كالأجهزة والآلات المعطلة الميتة.. ولكنها واأسفاه تعمل بكل النشاط والحماس والقوة.. تعمل ضد عملها أي ضد العمل المفترض فيها والمطلوب منها والمزعوم لها مقاومة ومفسدة له..

فهي ترى وتنظر وتقرأ وتفكر وتحاور وتسائل وتتحرك وتنشد وتهتف وتصرخ وتسب وتلعن وتتهم وتخاصم وتعادي لتهدم نفسها ومعانيها ووظائفها المفترضة فيها والمطلوبة منها والمزعومة لها بل لتجعلها تؤدي النقيض كل النقيض.. نقيض الرؤية والتفكير والفهم والتساؤل والحماس والنشاط

والتحرك والتغيير والتخطي للتاريخ.. للولادة.. لمعابد ومقابر وكهوف وكعبات الآباء..!

أليس العرب يقاومون كل المقاومة بكل الأساليب ليظلوا داخل كعبتهم أبداً؟

❁ ❁ ❁

آه. متى كان اللقاء الأول؟ وأين وكيف كان؟ وماذا قلنا وروينا وقبلنا ورفضنا؟ وعلى ماذا اتفقنا واختلفنا؟ وكيف كان الفراق ومتى كان اللقاء الثاني وأين وكيف وماذا؟ ومتى كان آخر لقاء وكيف كان الفراق، وكم طال، طال؟ وماذا حدث في أعوام الفراق القاسية العابسة؟ من الذي أراد ودبر أن يكون اللقاء السار المداوي السعيد ثم يكون بالحتم الفراق المعذب الفاجع الكئيب؟ وهل وجد أو قبل أن يوجد هذا المدبر المريد الفاعل القبيح الفاجع؟

هل يمكن أن يكون فاعل الشيء هو فاعل نقيضه في هذا الوجود؟

كيف عاش في أعماقك كل هذا الوفاء كل هذه المدة الطويلة؟ ما أقوى وأعظم أجهزتك النفسية والأخلاقية والعقلية والتذكرية التي استطاعت أن تختزنه بكل هذه القوة كل هذه الأعوام تحت أقسى الأعاصير وأقسى عصور الجفاف الإنساني..!

إنه وفاء، وفاء مهما كان صامتاً، مهما طال صمته..

وهل كان صامتاً حقاً؟ وهل يصمت الوفاء مهما توقف عن النطق أو فقد النطق؟ أليس صمت الوفاء أحياناً أقوى وأعلى نطقاً من النطق؟ لهذا أليس الإله هو كل النطق لأنه كل الصمت، وكل السمع والاستماع لأنه كل الصمم، وكل الحضور لأنه كل الغيبة والغيبوبة، وكل العون والفعل لأنه كل العجز والترك والضياع والغفلة؟ أليس المؤمن يقول ذلك ويعتقده؟ ولكن ما الوفاء؟ هل عرفناه مهما عشناه وقرأناه؟ هل هو فكرة أم عاطفة؟ محبة أم إعجاب أم عادة أم قدرة أم واجب أم حنان أم رثاء أم تعبير وتفريغ للنفس من ازدحامها والازدحام فيها وإلقاء بها على الآخرين؟ أهو فروسية أم أنانية استعراضية؟ أم تلهٍ وتسلٍ أم إنشاد للقصائد في مدح وتمجيد الذات؟

هل يوجد تفسير جيد لأي شيء.. لأي شيء جيد؟

أيهما أقسى إزعاجاً وتعذيباً لنا: أن نعطى الوفاء الوافر الجميل وكل الصداقة والحب بكل صيغهما ومعانيهما وتفاسيرهما الجميلة الجيدة لنظل مهدّدين كل الأوقات بسحب ذلك منا، بل ليكون محتوماً سحبه منا بأقسى الأساليب أو بأخفها أو بها كلها ولنظل عالمين بذلك منتظرين له كل الأوقات أم ألا نعطى شيئاً من ذلك.. أم ألا نكون جائعين ومحتاجين إلى ذلك لئلا نفجع بسلبه المحتوم منا؟ هل يمكن أن يوجد أي جواب مريح لأي سؤال صعب؟

هل من الأفضل أو الأنفع أن نملك فردوس الأنبياء وأن نسكنه إذا كان محتوماً أن يسحب منا ونسحب منه أو يهدم فوقنا ونعاقب عليه بعد أخذه منا أم ألا يكون لنا شيء من ذلك حتى ولا بالرواية أو الحديث عنه؟

لو وقع الإله بين هذين الخيارين البائسين أي أن يكون موجوداً بلا ألوهية أو ربوبية لئلا يقاسي

منهما أي من الألوهية والربوبية.. من أخطائهما وخطاياهما وهمومهما وتكاليفهما والتزاماتهما ومسؤولياتهما وعذابهما ومواجهاتهما ومخاصماتهما وعداواتهما وحروبهما وهزائمهما والانفاق عليهما وعلى توظيف الحراسة عليهما والمطالبة بالاحترام والتقديس والقداسة لهما أو أن يكون أي الإله موجوداً فقط بلا أي شيء من أعباء وأخطار وفواجع وفضائح ومآسي هذه الألوهية والربوبية ليحيا ويقضي كل أوقاته مسترخياً هازلاً ضاحكاً شاغلاً منفقاً كل وجوده ووقته وفراغه بالنظر إلى وجهه وبعد أظافره وبالإمساك بلحيته وبصبغ شعرات رأسه البيضاء وبالتحديق في الشمس والنجوم والقمر والسحاب وبعدها وعدّ الذباب والحشرات المتحلقة المتراكضة المتسابقة حوله، وبالاستمتاع والتلهي بمشاهدة آلام وآثام وجنون وفضائح وقبائح هذا الوجود بإنسانه وحيوانه وحشراته..

بمشاهدته للإنسان ممارساً لقبائحه وفضائحه الجنسية..

ـ نعم، لو وقع الإله بين هذين الاختيارين أليس محتوماً حينئذٍ أن يأخذ بالاختيار الأخير بلا توقف للتشاور مع النفس؟ ولكن لقد جاء الإله محروماً من هذا الاختيار ومن كل اختيار.. ومع هذا فإنه لم يتعذب أو يشق بالالتزام بأي معنى من معاني الألوهية أو الربوبية. إنه لم يوجد متحلّل من كل الالتزامات بل وخارج عليها مثل الإله.!

❀ ❀ ❀

أيها الجندي المقاتل المناضل بكل أسلحة وأساليب النضال والقتال ليعيد إلى العروبة كل أمجادها وكرامتها وانتصاراتها الذاهبة أو التي لم تكن إلّا خطابة وروايات وأشعاراً.. لماذا جاءت رحلتكم إلى وطن ومجتمع قل أن ترى وتشاد فيه المساجد وتعلو فيه المآذن لتعوي وتصهل فوقه أصوات: اللّه أكبر.. اللّه أكبر لتتواضع وتخفت تحت هذه الأصوات أصوات كل الكائنات الأخرى..

لتذعر وتصاب بالصمم بل وبالخرس وبالوقار كل الكائنات المصوتة أمام هذه الأصوات بل لتتمنى أنها قد خلقت بلا آذان لئلا تتعذب وترهق بسماع هذه الأصوات.. أصوات: اللّه أكبر.. اللّه أكبر متفجرة من فوق هذه المآذن؟ إنها لأقسى عرض للمكبر والمكبر له. إنه أقبح سباب.. هل كانت رحلتكم هذه إلى هذا الوطن لكي تدعوا أهله إلى الدخول في ديننا.. في إسلامنا؟ حذار أيها الصديق، حذار من أن يكون ذلك هو غرضكم.. إن المنافسين لنا سوف يتكاثرون حينئذٍ في الفردوس الذي هو لنا وحدنا نحن أتباع دين محمد.. الذي هو لنا وحدنا نحن العرب بلا أي منافس أو مشارك..!

.. نعم، حذار من ذلك فإن الخطر سوف يكون عظيماً..

إن الفردوس.. فردوسنا نحن العرب سوف يزدحم حينئذٍ بل سوف يغرق بالمنافسين لنا الذين سوف يدخلون بلهفة ورغبة متوحشة في ديننا طمعاً في احتلال واغتصاب فردوسنا منا. لنفكر في هذا الخطر بعقول غير عربية..! ولا بدّ أن يكون في هؤلاء الداخلين في ديننا دهاء وذكاء ومكراً ليغتصبوا منا فردوسنا.

أن يكون فيهم من هم أقوى وأكثر مواهب حضارية وإبداعية وإنسانية منا كما كانوا كذلك في هذه الحياة الدنيا..

إنه لخطر كبير مخيف بل ومذل مهين مهدد لمكانتنا ومكاناتنا.. إن لكل المواجهات الأليمة الخطيرة نهاية إلّا هذه المواجهة إذا حدثت..!

إننا اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم ودائماً نناضل ونقاتل بكل الأسلحة وبغير الأسلحة وبما هو ضد الأسلحة لكي لا ينافسنا أو يشاركنا من نزعم ونعلن ونعتقد أنهم أبناء عمنا أي اليهود أو بنو إسرائيل - لكي لا يشاركونا أو ينافسونا في قطعة من هذه الأرض في هذه الحياة الفانية.. إذن كيف نتحول أو كيف تحولنا إلى دعاة لكل العالم لكي نضمهم في فردوسنا لينافسونا فيه بل ليغلبونا عليه بل ليزحمونا أو يطردونا أو ليستعمرونا؟

إن أقوى الذكاء وأضعف الذكاء ليفرضان علينا أن نتحول إلى دعاة وحراس بل إلى مقاتلين لمقاومة كل الآخرين الذين قد ينوون أو يفكرون أن يدخلوا في ديننا أو حتى يتحدثون عن ذلك لنردهم ونصدهم بكل القوة عن التنفيذ خوفاً من هذه النتيجة المحتومة الرهيبة وهي دخولهم واحتلالهم لفردوسنا ليصبحوا أهله أو الأقوياء المسيطرين فيه وعليه..!

إن علينا أن نوظف كل ما نملك من ماديات ومعنويات لنمنع حدوث ذلك..!

هل نريد أو نقبل أن نصنع أو أن تصنع إسرائيل في فردوسنا.. إسرائيل أخرى أضخم وأقوى وأكبر وأصعب جداً من أية إسرائيل.. من إسرائيل هذه التي عرفناها وجربناها وذقناها؟ قد نجد في إسرائيل فائدة بل فوائد مؤلمة..!

قد يكون إذلالها لكرامتنا في هذه الحياة تحذيراً لكرامتنا في الحياة الآتية الدائمة..!

هل هناك غباء أو بله يساوي غباء وبله من يرفضون بكل الجنون أن تنافسهم وتشاركهم هذه الإسرائيل في الحياة الفانية ثم يعملون بكل الحماس والرغبة والتصميم على أن ينافسهم ويشاركهم كل العالم في الحياة الباقية.. في الحياة التي لا خلاص منها ولا تغيير أو تبديل أو تعديل أو تصحيح فيها؟

ماذا لو أن سكان إسرائيل الذين جربنا وعرفنا قوة منافستهم أرادوا الدخول في ديننا ليدخلوا فردوسنا؟ هل يطاق تصور أخطار ذلك علينا؟ وقوانين المنافسة والمشاركة والمزاحمة في الفردوس وكذا أسبابها ووسائلها وأشواقها ومصادماتها وضرباتها لا بدّ أن تكون أقوى وأقسى وأفجع وأفتك وأذكى مما كانت في الحياة الأولى..

إذن لا بدّ أن تكون هزيمتنا في الفردوس أمام منافسينا ومزاحمينا ومشاركينا هزيمة يعجز كل الكلام عن وصفها في بؤسها وقسوتها وشمولها وإذلالها..!

كيف وما يحدث في الفردوس بلا نهاية أو تغيير أو تراجع؟

إننا نعد خائناً كل من أراد أو حاول أو قبل أو غفر أن يحول جزءاً من أرضنا ليكون ملكاً لغيرنا

فكيف بمن يحول أو يحاول أن يحول كل فردوسنا ملكاً للآخرين بإدخالهم في الإسلام أو بدعوتهم إلى الدخول فيه أو بإرادة أو قبول ذلك أو برضاه؟ فكيف بمن ينفقون أموالهم وأموال شعوبهم لتحقيق ذلك؟ إننا لنرى في فعل ذلك أعظم وأتقى أساليب الجهاد ومعانيه..!

.. إذن خائن لنا نحن العرب كل صيغ الخيانة وتفاسيرها وفظاعتها كل من قبل أو رضي أو أحب أن يدخل أحد في ديننا فكيف بمن يعمل ويناضل ليكون ذلك؟ لنعلن ذلك. لنعلنه بديمومة..!

ولهذه القضية تفسير أو جانب خطير على مستقبلنا في فردوسنا.. إنه خطير، خطير..! فكيف لم نفطن له حتى أغبياؤنا كيف لم يفطنوا له؟

ذلك أن من خططوا أو من سوف يخططون لفردوسنا حدوده واتساعه وطاقاته وإمكانياته وموارده الطبيعية واحتياجات من سوف يكونون سكانه لا بدّ أن يعجز خيالهم أي المخططين عن تصور ما سوف تفرز طاقات التناسل فينا من أعداد من بدايتنا إلى نهايتنا التي هل لها نهاية أو متى تكون نهايتها؟

.. من أعداد لا بدّ أن يصنعوا أقسى أزمة مكان وسكن وطعام وشراب وكساء ومضاجع وحركة ومواصلات وعلاقات وموارد في أي كون يتجمعون فيه فكيف يتسع لهم الفردوس الموعود به الذي تصوره وخططه خيال من قرأ ورأى الكون كله من ثقب مغارة.. من ثقب غار حراء في ليلة ماتت فيها النجوم والقمر وكل الرؤى والأضواء..؟!

لن يتسع خيال من خططوا الفردوس لكل ما سوف تقذفه أرحام قومنا.

.. إذن كيف يبحث عن المزيد من السكان لجمعهم في هذا الفردوس الذي لا بدّ أن يختنق ببعض ما سوف تدفعه وتصدره إليه عمليات التناسل فينا نحن العرب أصحابه؟

رهيب تصور ما سوف تنتجه عمليات التناسل فينا.!

إذن كم هي قاسية ورطة الفردوس حينما نجمع فيه؟

نعم، الفردوس لنا وحدنا نحن العرب لأنه أي الفردوس تصور وابتكار وتخطيط نبينا العربي وقرآننا العربي وديننا العربي وإلهنا العربي.. لأنه صناعتنا وبضاعتنا نحن العرب. إن غيرنا لن يستطيع تصوره فكيف يبتكره؟ إننا وحدنا المتخيلون والموجدون لما لن يكون. إنها عبقريتنا المتفردة.!

.. ومتصور هذا الفردوس ومخططه لا بدّ أن يكون قد وقع في غلطة تحولت إلى ورطة..!

لا بدّ أن يكون قد اعتقد أن عمليات تناسلنا لن تنتج إلّا قليلاً من الأعداد التي يستطيع أي فردوس وأي مكان أن يتسع لهم وأن يؤويهم وأن يسدد كل احتياجاتهم بلا أية أزمات أو مشاكل لأنه كان يعتقد أي مخطط الفردوس أن بقاءنا في هذه الحياة..حياة التناسل لن يطول.. لن يكون أطول من حياة إنسان طال عمره لأنه كان يعتقد أن هذه الحياة زائلة والقيامة آتية بكل السرعة. كان يتوقع وينتظر حدوث ذلك في كل لحظة.. في كل غفوة ويقظة.. كان يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح» يعني بذلك نهاية هذه الحياة في أية لحظة أي بقيام القيامة

وبالموت الفردي المتقطع.. إذن مشكلة ضيق الفردوس بنا نحن العرب أصحابه أي أصحاب الفردوس لم تكن شيئاً من حسابه أو توقعاته أي مخطط الفردوس.

إن جميع خبراء التخطيط لو تجمعوا قد يعجزون عن التخطيط الناجح للفردوس الذي سوف يكون سكناً ووطناً لكل من سوف تفرزه عمليات التوالد فينا في كل وجودنا.!

.. لهذا الخطأ الخطير في التخطيط.. في تخطيط الفردوس لا بدّ أن يكون أي الفردوس قد جاء لا يتسع ولا يكفي ولا يغني القليلين من أصحابه أي منا نحن العرب فكيف إذن يقبل أن تفتح كل أبوابه لكل الآخرين بدعوتهم إلى الدخول في ديننا الإسلام أو بقبول دخولهم فيه أو حتى بتركهم يدخلون فيه ليصبحوا أقوى وأقسى وأخلد الغزاة المنافسين المزاحمين المغتصبين القاهرين المذلين الغائظين لنا..

إنها قضية صعبة خطيرة فكيف لم نفطن إليها بل فكيف لم نهبها كل اهتماماتنا؟ كيف لم يسرق منا اهتمامنا بها كل اهتماماتنا القومية والوطنية والتاريخية بل والدينية؟

⊛ ⊛ ⊛

أيها الصديق المحارب للنجوم من فوق السحاب وللشموس من فوق النجوم، وللإله من فوق الشموس غضباً من الأرض التي ولدت الإنسان وصاغته كما جاء، وانتقاماً من الإله والسحاب والنجوم والشموس التي تركت الأرض تلد الإنسان وتصوغه كما صاغته وأسى على الإنسان العربي لأنه لن يقرأ ولا يقرأ ولأنه لو قرأ لما قرأ أو رأى أو سمع أو ساءل أو حاسب أو حاكم أو خاطب أو فهم أو ناصر أو قاوم ما قرأ بأي شيء من معانيه.!

.. نعم، وأسى على الإنسان العربي لأنه جاء إنساناً عربياً ولم يجيء إنساناً آخر أو مخلوطاً بإنسان آخر..

.. ليت الإنسان العربي قد جاء لا يكتب ولا يتكلم ولا يعلم ولا يجادل كما جاء أو بقدر ما جاء لا يقرأ ولا يفكر ولا يرى ولا يواجه بأي معنى من معاني القراءة أو التفكير أو الرؤية أو المواجهة..!

ما أقسى وأطول عذاب من يحدق في الإنسان العربي مطالباً أن يكون شيئاً أفضل.!

.. أجل، أيها الصديق المقاتل المناضل بكل أسلحة وأجهزة القتال والنضال العربية كنت أريد أن أقول لك أشياء كثيرة، كثيرة مما لا يقال في العالم العربي.. وهل يمكن أن يكون أي شيء مما يقال في العالم العربي أو في اللغة العربية قولاً؟ وهل حدث أن قال العرب شيئاً.. أن قالوا قولاً مهما ملؤوا الأسماع والأوراق أقوالاً.. مهما أرهقوا أو عذبوا أذني الإله بأقوالهم حتى لقد رأى واختار أن يصيب نفسه بالصمم فراراً ونجاة بنفسه من أن يسمع أي شيء مما يقولون موجهاً إليه أو إلى سواه.. هل يمكن أن يحدث أي خلاف في أن الإله مصاب بكل الصمم الذي لا علاج له؟ لقد جرب ذلك

وعرفه كل من خاطبوه بأية لغة من لغات المخاطبة. حتى لم يفكروا في الاستعانة بكل أطباء الصمم في العالم ليعالجوه من صممه ليأسهم من احتمال شفائه.!

.. إن جميع من يعجزون عن الاقتناع بأي شيء لن يستطيعوا مهما أرادوا أن يعجزوا عن الاقتناع بأن الإله مصاب بكل الصمم..!

وأيهما أقل هجاء له: أن يكون لا يسمع أو أن يكون يسمع ولا يستجيب؟

وهل أصيب بالصمم أم جاء وتكون وبدأ أصم؟ إن كان قد أصيب بذلك فلعله قد أصيب به لأنه سمع العرب يتكلمون، وإن كان قد ولد به فلعله ولد به لئلا يسمعهم يتكلمون أي يستفرغون ما يسمونه كلاماً..!

ليته يوجد من يصنع شكاً أو أملاً في أن الإله يسمع أو قد يصبح يسمع..!

ولكن ماذا يفيد أن يسمع؟ ألا يمكن أن يكون ذلك مخرباً مهلكاً؟

.. نعم، هل حدث أن قال العرب ما يحسب قولاً مهماً أرهبوا وأزعجوا كل الكائنات الناعبة النابحة والصاهلة والزائرة والثاغية والراغية والناعقة والناهقة بأصوات سورهم وآياتهم وقراءاتهم لقرآنهم ولتعاليمهم وأشعارهم ونبواتهم وعظاتهم ومفاخراتهم وتهديداتهم ومآذنهم وأذانهم وتسبيحاتهم وتكبيراتهم وتهليلاتهم وتضرعاتهم وابتهالاتهم وصراخ حجاجهم.. إن العربي لا يرى أن عبادته عبادة إلّا بقدر ما يكون صراخها فوق كل صراخ.!

.. إن من يسمع العرب يتعبدون بأصواتهم الصارخة كل هذا الصراخ فلا بدّ أن يعتقد أنهم يرون إلههم الذي يخاطبون ضعيف السمع جداً، أي إنهم يرونه يسمع ولكن بمقاساة وبطء وعجز.. إنهم يخفون اعتقادهم المجرب العملي بأنه لا يسمع..!

إن الإله لو كان يسمع لكان محتوماً أن يغضب ويفجع وأن يرى أن من الإهانة والتحقير له والاستهزاء به أن يخاطب بهذه الأصوات التي تخاطبه وتناديه بها العبادات والتعبدات العربية.. كأنها بصراخ صراخها تزجره وتعنفه وترهبه وتوقظه وليست تخاطبه أو تعبده أو تمجده أو تطالبه أو تتملقه.!

إذن لقد جاءت حظوظه وسعادته ورضاه عن نفسه أعظم لأنه جاء مصاباً بالصمم الشامل الدائم..!

إن الصوت العالي في مخاطبة من يسمع بكل قوة السمع قد يكون أسلوباً بذيئاً وقحاً من أساليب المقاتلة أو المخاصمة أو المشاتمة أو العدوانية أو هو حتماً كذلك..!

لهذا فعبادات العرب للإله هجاء له وليست تمجيداً..!

إن العرب إذن قد يكونون هم المسؤولين عن إصابة الإله بالصمم، عن إصابته لنفسه بذلك أو هم المسؤولون يقيناً عن ذلك..!

إذن قد يقال أو يجب أن يقال: إن العرب قد أحسنوا إلى الإله وأفادوه حين أصابوه بالصمم أو اضطروه إلى أن يصيب نفسه بذلك لأنهم حموه من سماع ما لا يطاق سماعه..!

هل يوجد إنقاذ للإله يساوي هذا الإنقاذ؟ إذن هل يمكن تصور إحسان أو عطاء مثل إحسان العرب إلى الإله وعطائهم له لأنهم أصابوه بالصمم؟

ولعلهم هم أيضاً الذين أصابوه بفقد الرؤية والتفكير والضمير والبسالة والشهامة والنشاط والحماس والاندهاش والتغير والتطور والتساؤل والمقاومة لما تجب مقاومته وبفقد كل الحواس والأحاسيس، أو هم الذين علموه فقد ذلك أو روضوه على نقده بمواجهته ومعاملته لهم..!

لهذا ألا يخشى على كل العالم أن يفقد كل ذلك كما فقده الإله لو أنه أي كل العالم تعامل مع العرب كما تعامل معهم الإله؟

ألا يصبح العرب خطراً على الحضارة العالمية بتعاملهم معها وتعاملها معهم؟

كيف يمكن أن يوجد أي اختلاف في أن الإله فاقد كل ذلك الفقد ولكن الاختلاف قد يكون في من الذي أو ما الذي جعله يصاب بهذا الفقد أو يفقد هذا الفقد؟

هل هم العرب حقاً؟ صعب القول أو الاعتقاد بأن الفاعل به وله ذلك غير العرب.. أليس العرب هم كل مخططي ومصوّري ومعلمي وصانعي أخلاقه وأوصافه وناحتي وصائغي ذاته؟ إن العرب لو وصفوا وصدق وصفهم بأنهم القوم الذين لم يكونوا خالقين أي خلق في كل تاريخهم لما وجد أي خلاف في أنهم أعظم الخالقين أو كل الخالقين للإله في أوصافه وأخلاقه وشهواته المعلمة..

إذن ما أعظم مجد العرب.. مجدنا نحن العرب.. وما أعظم وأكثر الحسنات والخدمات والعطايا التي وهبناها وقدمناها للإله.. وما أروع ما فعلناه من دفاع عنه ومن تجميل وتكريم له ومن ثناء على نقائصه وأخطائه وذنوبه وعيوبه ومن ستر على عوراته وتشوهاته ودماماته. ولكن هل يمكن أن يصبح أي ثناء على أي إله ثناء أم لا بدّ أن يتحول إلى أقسى الهجاء. إلى كل الهجاء؟

.. أجل، كنت أريد أن أقول وأقول مما لم يقله أي لسان عربي.. أي لسان نبي عربي أو لسان إله عربي..!

ولكن امتلاء مشاعري بهذه القضية.. قضية منافستنا في الفردوس المحتملة وخطورة ذلك علينا قد فرض عليّ الصمت كل الصمت مهما قلت وكتبت وهتفت وناديت وأقلقت وفجعت لأن كل من حولي صامت عن الكلام وعن الاستماع إلى الكلام وعن قراءة الكلام مهما علا صراخه على كل صراخ..!

.. كتبه الصامت أبداً لأنه لم يجد ولا يجد من يتكلم أو يكلم لكي يخرج من عذاب صمته بالتكلم معه وإليه..

لأن كل من ينتمون إلى لغته ويتعاملون بها ويقرؤون ويفسّرون بها آلهتهم إنما يتقاتلون ويتضاربون ويتشاتمون ويتناطحون ويتقابحون ويتعادون ويتباغضون بأحقادهم وسفاهاتهم وبلاداتهم وجهالاتهم وبآلهتهم وأديانهم وأنبيائهم وتاريخهم وقبائلهم وقبورهم وبكل فضائحهم.

ـ نعم، إنما يفعلون ذلك حين يحسب ويقال وحين يحسبون ويقولون: إنهم يتكلمون.. ما أقل وأصعب الكلام وأسهل وأكثر النطق..!

ما أقسى أن تكون متكلماً بلا متكلمين وبلا متخاطبين ومتحاورين مع كلامك فكيف تكون قسوة عذابك حين تكون بين متكلمين ضد الكلام.. حين تكون محاصراً بينهم.. حين تكون متكلماً في مجتمع عربي؟ ما أقسى حظوظ النبي العربي لو جاء إلى قوم قد بلغوا طور من يتكلمون لهذا ما أعظم حظوظه..!

.. نعم، إن العرب قومي أقوياء وقادرون جداً على فعل كل الأشياء الرديئة وعاجزون جداً عن فعل أي شيء جيد.!

لقد استطاعوا أن يصنعوا أردأ الآلهة وعجزوا أن يصنعوا إنساناً جيداً.

لقد صعدوا إلى الإله ورأوه وعجزوا عن النزول إلى آبار النفط وعن رؤيتها.!

إذن فالعرب لا يبارون في قدرتهم كما لا يبارون في عجزهم..

لا يبارون في قدرتهم على كل ما ينبغي ويطلب العجز عنه وفي عجزهم عن كل ما تنبغي وتطلب القدرة عليه.!

إذن للعرب معجزتان: معجزة القدرة العاجزة ومعجزة العجز القادر..!

لقد كوّن قومي تكويناً خارجاً على كل قوانين التكوين والكينونات.!

إنه لو كان لكل هذا الوجود خالق واحد لوجب أن يكون لقومي خالق آخر مخالف في كل أوصافه وطاقاته وعبقرياته وشهواته وأخلاقه وعواطفه ونقائصه لخالق هذا الوجود. أي لوجب اعتقاد ذلك والإعلان عنه وتعليمه.!

وإنه لو كان لهذا الوجود آلهة خالقة متعددة بتعدد الوجود لكان ولجاء إله قومي وخالقهم مخالفاً كل المخالفة لكل الآلهة في كل صيغه ومعانيه أي في حسابات ورؤى وتفاسير كل منطق يرى ويفسر ويحاسب..!

احتلال الإله لعقولنا ولنفوسنا
أفدح أنواع الاحتلال

إلى من تشرع وتعلن وتشرف الحروب للظفر بصداقته إن كانت صداقته لا تعطى ولا تنال إلّا بالحروب.. بكل وسائل الحروب وأسلحتها.. إلى الساكن أبداً بكل الازدحام والتوقد والتوهج والاشتعال والتحريق في كل أحاسيسنا وأشواقنا الملتهبة المحترقة المحرقة..

.. ولكنه الغائب البعيد بكل الإصرار والديمومة والقسوة عن حواسنا المنتظرة المتطلعة المحدقة المؤملة المصلية المعذبة المستغيثة بكل آلهة اليمن وبكل ثوراته وثواره وعروشه وأذوائه وبلاقيسه ومواثيقه الوطنية. بكل ديمقراطياته وزعاماته المعلمة والقائدة لكل الديمقراطيات والزعامات والثورات والحضارات.. لقد أصبح أي الصديق الحبيب كالإله الجبار الضخم الذي يحتل كل الأحاسيس.. كل القلوب والعقول والضمائر والعواطف والأماني والأشواق والتطلع والتذكر والنبض ومشاعر الخوف والأمان دون أن تسعد به حاسة من الحواس.. الآذان أو العيون أو الشم أو الذوق أو اللمس أو المعاملة بأي أسلوب أو قدر من أساليبها أو مقاديرها أو لغاتها.. لقد أصبح مثل الإله الذي يحتل كل الأحاسيس بكل القسوة والجبروت والضخامة والإرهاب والإرهاق والاستعلاء بينما الحواس كلها محرومة منه متلهفة إليه مصلية له، هاتفة به. إن الوجود في القلب دون الوجود في العين أو اليد أو اللقاء أو المعاملة لهو أفدح وأظلم وأقسى وأخسر وجود بل وأكذب وجود. أنت موجود تحريقاً ولست موجوداً تبريداً، هل يغفر وجودك هذا أيها الموجود؟

.. من هذا الكائن الرهيب الفظيع الذي علمهما ودربهما أي علم ودرب الإله وهذا الصديق الحبيب أن يحتلا كل الأحاسيس ثم يهربا من كل الحواس ويقاطعاها ويتركاها حرائق ولهفات وأنات وآهات بلا عزاء أو دواء.. بلا طلعة أو لمسة أو همسة أو مناجاة؟

.. إن امتلاء الأحاسيس بالشيء أو بالكائن مع فراغ الحواس منه عذاب.. أقسى وأفظع عذاب..!

إنه ظمأ بلا ماء وجوع بلا طعام، ورؤية وتحديق بلا مرئي، وحب بلا محبوب، وانتظار وتطلّع بلا حضور أو حاضر، وعيون بلا حدقات، وألوهية بلا إله، وزواج بلا زوجة أو زوج.. إنه أعراس وزفاف بكل الاحتفالات والتكاليف والمظاهر والأناشيد والدوي ولكن بلا أي عروس، هل أقيمت كل احتفالات الزفاف والأعراس بلا أي عروس مثلما أقيمت للإله؟

.. إنه استعمار يصعب الخلاص منه ولا يجاهد أو يناضل أو يحاور أو يشكى للخلاص منه..!.

ما أقسى وأظلم أن تزرع في الكائن القلوب الخافقة النابضة المتعاملة مع الوجود الذي تحياه..!

.. إن وجود الإله في الأحاسيس وفي الاعتقاد والفكر والقلب والضمير واللسان دون أن يوجد في الحواس والحس والحياة لهو أقبح وأبشع أنواع الغزو والاحتلال الذي يؤذي ويذل ويشوه ويرهب ويرهق ويأخذ دون أن يعطي أو يجمل أو يسعد أو يفعل شيئاً مفيداً أو كريماً أو عظيماً..!

إذن كيف قبل أو استطاع أي إنسان أو كائن أن يكون مثل هذا الإله؟

هل خسر الإنسان بشيء أو على شيء مثل خسرانه بعقائده وعلى عقائده؟ هل ربح الإنسان أي ربح من أي عقيدة أو بأية عقيدة من عقائده؟

يا أصحاب كل العقائد.. اقرؤوا كل تاريخكم وكل حاضركم وانظروا ماذا فعلت وتفعل بكم عقائدكم دون أن تفعل لكم..!

.. إن الخسران والعذاب بالعقائد لا بدّ أن يكونا بقدر قوتها وصدقها والحماس لها.. فالعقائد تقبح وتفدح أفعالها ونتائجها وأخطارها وأضرارها بقدر ما تكون قوية وتقية وحماسية وصادقة مخلصة، ويجب ألا يكون هذا القول أو الرأي غريباً أو مستغرباً مهما بدا أو ظن أنه كذلك.. ويراد بالعقائد هنا عقائد الإيمان والأديان والاتباع الديني والمذهبي..

ليقرأ كل التاريخ وكل الحاضر الذي سوف يصبح تاريخاً لكي يعظم الاقتناع بأن العقائد أي هذه العقائد هي أبداً كذلك وأنها لن تكون غير ذلك..!

ليقرأ ذلك قراءة غير عربية، فالعربي لو قرأ لا يقرأ ليقرأ وإنما يقرأ أي لو قرأ لأنه لا يقرأ ولا يريد أو يستطيع أن يقرأ.. إن شروط القراءة قاسية وعظيمة ومزعجة، إنها أبداً أكبر من الإنسان العربي.! لهذا لا بدّ أن يقال بصدق وحسرة وانفجاع: إنه لم يوجد في كل التاريخ عربي قارىء واحد..!

.. قد يقال إنه لا يوجد ولم يوجد أكثر من قراءة الإنسان العربي لقرآنه ولا من يساويه في قراءته لقرآنه، ولكن هل حدث أن عربياً واحداً قد قرأ القرآن بشروط القراءة أو نياتها أو نتائجها أو بشيء من معانيها واهتماماتها وأخطارها؟ إن للقراءة أخطاراً أي القراءة بشروطها..! وكم هم قليلون أولئك الذين يقبلون ويقاسون أخطار هذه القراءة.! هل كان النبي العربي يفهم هذه الأخطار ويخافها حين أعلن عداوته للقراءة والكتابة ونهيه عنهما بل وتحريمه لهما؟

لنحاسب ونقرأ أنفسنا بصدق وجسارة لنصدق ذلك مفجوعين..!

.. حتى محمد.. الذي جاء بالقرآن أو الذي أنزل عليه القرآن أو الذي اتهم بذلك.. هل قرأ قرآنه هذه القراءة؟ ما أصعب وأعجب النتائج لو أن محمداً أو غيره قرأ هذا القرآن هذه القراءة..!

.. إن القراءة ليست إيماناً أو صلاة أو إنشاداً أو تثاؤباً أو استرخاء أو طلباً للثواب العاجل أو المؤجل، ولكنها محاسبة ومساءلة واختبار وتصادم ومعاناة واقتحام وارتحال.. ارتحال من الذات والتاريخ والوجود إلى وجود آخر..!

.. إنها أي القراءة معارك فكرية ونفسية وأخلاقية وتاريخية وإنسانية وحضارية بل وقومية.. إنها ليست تسابيح أو إذكاراً.

.. إن شروط القراءة وتعلم وتعليم شروطها قد تكون أصعب وأعظم وأنفع وأوجب من ابتكار الكتابة والقراءة ومن تعلمهما وتعليمهما، ما أقبح القراءة والكتابة بدون شروطهما، إنه لن يتفوق على قبحهما إلّا قبح وجود الآلهة بلا شروط الآلهة..!

.. كم هي خطيرة وضارة ومضللة ومفسدة وعقيمة أي القراءة وكذا الكتابة بدون شروطهما ونياتهما ومعانيهما ومعاناتهما.

.. إن الإنسان لأفضل وأتقى وأذكى بلا قراءة أو كتابة من الإنسان متلبساً متعاملاً بالكتابة والقراءة حين تكونان بدون معانيهما وشروطهما..!

وهل وجد أو يمكن أن يوجد من يلتزم بشروط ومعاني القراءة والكتابة كلها ودائماً حتى ولو لم يكن قارئاً أو كاتباً عربياً؟

ما أخسر وأبلد وأجهل المجتمعات التي تحشد وتطلق كل اهتمامها وهمومها ودعاياتها لكي تعلم أفرادها الكتابة والقراءة دون أن تفكر في تعليمهم كيف يقرؤون ويكتبون ولماذا يقرؤون ويكتبون بل ودون أن تعلم أن للقراءة والكتابة شروطاً صعبة وغالية ومجهولة بل ومرفوضة في كثير من المجتمعات أو في أكثرها، ولكن هل القراءة أو الكتابة بمعناها هذا تعلّم أم تكوّن وتولّد وتنبت؟

.. إنهما أي القراءة والكتابة بدون شروطهما ليستا خسراناً فقط بل وإفساد وتشويه وتعويق وتضليل وتسفيه وفضح وافتضاح وبذاءة وغرور وعدوان وتحطيم وتخدير.

.. إنهما إزالة للبكارة بلا زواج أو حب أو لقاء أو ولادة أو استتار.. بأساليب غير صحية أو علمية أو منطقية، بل بأساليب تشويهية تعويقية إعلانية تظاهرية بكل تكاليف واحتفالات ودفوف الزفاف والأعراس..!

هل عاقب أو ضلل أو خسر الإنسان نفسه وحياته بشيء مثلما عاقبهما وضلّلهما وخسرهما بالقراءة والكتابة بدون شروطهما؟ لقد كانتا وسوف تظلان أقسى وأفتك وأشمل وأدوم الوثنيات في حياة الإنسان أي القراءة والكتابة بدون شروطهما.

❀ ❀ ❀

.. ما أغلى وأغزر الدموع والدماء والآهات والأنات التي ذرفت وسفكت منفقة مبذرة ضائعة على العقائد وبسببها وتحت تأثيرها وتعاليمها وشعاراتها وأكاذيبها وإرهابها بلا أي عزاء أو ربح أو مواساة أو تخفيف أو أمل صادق أو نافع..!

ما أفظع وأضخم وأطول وأقبح العداوات والخصومات والملاعنات والانشقاقات والحروب التي عاقب وحارب بها الإنسان نفسه استجابة وطاعة لهذه العقائد ولأنبيائها ودعاتها ودجاليها بلا أي مساءلة أو محاسبة أو مراجعة أو قراءة أو رؤية للنفس أو لأي شيء..!

هل صنع للإنسان وفي الإنسان ورسخ فيه عداواته وخصوماته وبغضاءه وأحقاده وملاعناته مثلما فعل به ذلك آلهته وأديانه ونبواته وأنبياؤه؟ وهل عادى أو شوّه أو عوّق أو ضلّل أو أفسد ذكاء الإنسان ورؤاه وحماسه مثلما فعل به ذلك آلهته وأنبياؤه وأديانه ونبواته؟

وماذا عما استفرغته وما تستفرغه وما سوف تظل تستفرغه منابر ومحاريب وسطور هذه العقائد متناطحة متبارزة مصغراً محقراً رافضاً بعضها بعضاً.. مهدداً ضارباً بعضها بعضاً!

.. متباهياً متكبراً بعضها على بعض؟ ما أسوأها وأقبحها متناقضة متصادمة متشائمة متهماً معيراً بعضها بعضاً..!

.. إن هذه العقائد لم تكن ولن تكون إلّا مناجم ومصانع ومخازن للأسلحة المتقاتلة وللأحقاد والعداوات والخصومات والبذاءات والبغضاء..!

إنها لم تكن ولن تكون إلّا تشويهاً وتقبيحاً وتسفيهاً وتعذيباً وهجاء للعقول والقلوب والضمائر والأخلاق والرؤى واللغات وللمعانقات والمصافحات.. إنها خناجر وسموم وجراثيم ومتفجرات في الأيدي والوجوه المتصافحة المتعانقة.. إنها تسميم، تسميم لكل معاني الإنسان.!

إنها أي هذه العقائد أردأ وأقبح وأبلد وأخطر وأفجر وأكذب وأخدع ما ابتكر الإنسان لنفسه.! كيف لا تفعل المنظمات الدولية كل شيء لإنقاذ الإنسان منها. إن هذا الإنقاذ لأوجب الواجبات على كل العقول والقلوب والأخلاق.!

❀ ❀ ❀

إذن لا بدّ أن نطلب ونرجو صفحكم وغفرانكم لأن رؤيتنا وقراءتنا وتفاسيرنا لأهوال وطغيان وآثام هذه العقائد قد سحبتنا من التحاور معكم الذي بدأناه وفي نياتنا ألّا يصرفنا عنه أي صارف..!

إنه لا عذاب كعذاب من يضع هذا الكون داخل رؤيته وقلبه وفكره وضميره وتفاسيره ومساءلاته ومحاسباته واشتراطاته المنطقية والأخلاقية والنفسية والفنية بل والدينية..!

إنه لا عذاب ولا انفجاع ولا ترويع مثل عذاب أو انفجاع أو ترويع من يقرأ هذا الكون أو من فوقه بعقله أو قلبه أو ضميره أو أخلاقه أو تمنياته أو حساباته أو حتى بإيمانه وتديّنه وتقواه أو بأي شيء من معانيه.!

أيها الذباب تصدّق
على شعبي بشيء من بسالتك وصدقك

«أعترف أني قد عجزت أن أصمت عن التحدث إليك مهما قالت لي كل التجارب وكل ما يسمى بالوقار والكبرياء واحترام النفس: اصمت، اصمت. احترم قلمك ونفسك».

هذا الكتاب: «الكون يحاكم الإله».

كان المفروض المنتظر المتمنى بل الواجب أن تعلنه وتعلمه وتدعو إليه وتتنبأ وتبشّر به وتحوّله إلى نبوة ليكون إحدى نبواتها، آخر وخاتم نبواتها وأقوى نبواتها وكل نبواتها، وتعويضاً وتكفيراً عن كل نبواتها وتوبة من كل نبواتها كل العروبة.. كل تطلعات ونبوات وتقوى وإيمان وأشواق كل العروبة..

لكي تغطي به كل ألوهياتها ونبواتها واعتقاداتها وبلاهاتها وقراءاتها وصلواتها وفلسفاتها البدوية القبورية.. لكي تكفر به عن كل موتها الطويل الدائم الشامل.. موت العقل والفكر والقلب والضمير والرؤية والاحتجاج والتساؤل والتمرد والغضب والرفض فيها بكل معانيه وتفاسيره الإنسانية..

.. لتكفّر به عن كل قحطها الإنساني الرافضة للتعامل معه كل الأنهار والسحاب والينابيع والرذاذ بل والندى..!

أو كان الواجب في الاحتمال أو المستوى الآخر الأضعف أن تهاجمه أي هذا الكتاب ناقدة محاورة نافضة رافضة مبطلة هادمة لكل رؤاه وأفكاره وتفاسيره برؤى وأفكار وتفاسير أقوى وأذكى وأتقى وأصدق..

أو كان الواجب على الاحتمال والمستوى الأقل من الأقل أن تلعنه بكل حماس دينها وتديّنها وتقواها وأصالتها وعبقريتها في اللعن واللعنات وبكل طاقاتها وشهواتها الصراخية الإعلانية التعبدية أي في اللعن واللعنات..!

وهل للعرب عبقرية مثل أو غير عبقريتهم في اللعن وفي صياغة اللعنات؟ هل لهم تاريخ غير تاريخهم في اللعن وصياغة اللعنات؟

أليس أعظم وأشهر وأقوى ما في دينهم وكتابهم المقدس وشعرهم وأدبهم وفنونهم اللعن وصياغة اللعنات؟

أليس اللعن واللعنات هي كل أوصاف ومزايا وعبقريات وانتصارات وجيوش وأسلحة إلههم

ونبيّهم ودينهم ومحاريبهم ومنابرهم وتقواهم وحماساتهم ومبارزاتهم بل وصلواتهم؟ هل يصلون بلا لعنات لكل أحد ولكل شيء صحيح أو عظيم؟

إنهم يرون أن آذان إلههم ونبيّهم لا تطرب أو تسعد إلّا بالاستماع إلى أقبح وأحر اللعنات..!

.. هذه الرؤى والتفاسير والحسابات والتقديرات هي كل ما كان ينتظر ويحتمل ويتمنى ويتوقّع ويجب في هذه القضية مهما كانت أنواع ومستويات القبح والفحش والسخف والبلادة والنذالة والبذاءة والوقاحة في ذلك..!

أليست كل ممارسات العروبة خروجاً على كل الجمال والذكاء مهما كانت القضية؟

.. أما الصمت، الصمت هنا حتى عن كتابة أو قراءة أو ذكر اسمه.. اسم الكتاب وكاتبه..

.. أما الصمت عن ذلك حتى عن السب والتسفيه والاتهام والاستنكار والرفض والتحريض..

أما الصمت هذا جبناً أو نفاقاً أو خوفاً أو خبثاً أو بيعاً أو شراء أو لأسباب وحوافز أخرى غير نظيفة أو كريمة أي نفسية أخلاقية طبيعية ولادية وراثية عربية، عربية.. وما أكثر وأقوى هذه الأسباب والحوافز في النفوس والأخلاق العربية.! هل يستطيع أي كائن نظيف أن يحدق في النفوس والأخلاق العربية أو أن يقرأها!

.. أما الصمت هذا عن هذا الكتاب وكاتبه حذار من أن يقرأ أو يعرف أو يسمع به أو بكاتبه أو رغبة وشهوة في قتلهما أو إخفائهما وإخفاتهما..

أما هذا الصمت لئلا يعرف أو يقرأ أو يذكر الكتاب وكاتبه أو يسمع عنهما ولو بالشتم والاتهام والتحريض والتكفير استجابة للأسباب والحوافز الأصيلة العريقة في النفوس والأخلاق العربية ولا سيما نفوس وأخلاق حملة الأقلام والألواح والأفواه العربية.

.. ولا سيما معلمي النبوات والديانات العربية.

.. ولا سيما منزلي وحافظي ومفسري الآيات والسور العربية..!

نعم، أما هذا الصمت عن هذا الكاتب وعن كتابه مع تغليق كل الأبواب والنوافذ والطرق دونهما بكل هذه التفاسير والنيات والحوافز والأساليب التي لن توجد أو تحيا أو تتعامل بكل هذه المستويات إلّا في النفوس والأخلاق العربية ـ نعم، أما هذا الصمت فإنه هبوط لا تستطيع ولا تقبل كل تفاسير الهبوط أن تكون شيئاً من تفاسير هبوطه أو أن تكون شيئاً من هبوطه..!.. هل للهبوط حدود؟

أليس الإنسان العربي يرفض وينفي أن يكون للهبوط حدود؟

.. كم أنا حائر، حائر لأني حائر ولأنه يجب أن أكون حائراً.

.. من أخاطب؟ هل أعرف من أخاطب؟ هل أنا أخاطب؟ هل أطمح أو أطمع أو أرجو أن أجد من أخاطب؟

.. ما أقسى المخاطبة وأصعبها وأقلها إن كانت تشترط أن يوجد المخاطب؟

.. هل أنا أخاطب أم أحزن وأبكي وأصلي لحزني وبكائي؟

.. هل أعرف أو يعرف أحد الفرق بين الحزن والفرح.. بين البكاء والضحك.. بين الغناء والرثاء.. بين اللذة والألم.. بين الصلاة والرقص.. بين الأنين والهتاف.. بين الصفعات واللطمات والقبلات والمعانقات والمصافحات؟ هل يوجد هذا الفرق أو يوجد من يعرفه؟

أجل، من أخاطب في هذه اللحظات؟ أنا أحترق، أحترق احتياجاً وشوقاً إلى أن أجد من أخاطب. إني في هذه اللحظات أخاطب شعبي اليمني وحده.. أخاطب نفسي مهما تعدد من أخاطب.!

لماذا شعبي اليمني دون غيره؟ لماذا؟

سؤال صحيح ومعقول ولكنه يحتاج إلى تفسير.. ما أكثر التفاسير ولكن ما أقلها، أقلها. ومع هذا أجرؤ أن أقول: التفسير لذلك أنني لم أجد أنا غيره غير شعبي اليمني بتجاربي وظروفي ورؤاي وقراءاتي الخاصة له ومعه وفيه. لم أجد غيره. هل ذلك قوة في حظوظي أم ضعف فيها؟ لهذا لم أؤمل في غيره أو أنتظر من غيره.. لهذا لم أخاطب أو أحاول أن أخاطب غيره من الشعوب العربية في هذه القضية وفي قضايا أخرى..!

وأيضاً أخاطب شعبي اليمني وحده في هذه القضية لأن الشعب اليمني كل العروبة.. كل المصدرين للعروبة.. كل المعلمين والمفسرين والخلاقين والغزاة والفاتحين للعروبة هل أنا مخطىء في هذا؟ هل يجب أو أتمنى أن أكون مخطئاً فيه؟ إذن فالشعب اليمني مطالب بكل ما يطالب به العرب ومحاسب بكل أخطائهم وخطاياهم أو لأن الشعب اليمني هو كل المتهمين بكل ذلك.. كل المتهمين بأنه هو كل العروبة وكل المصدرين والمعلمين والمفسرين والخلاقين للعروبة ولخصائصها.. لكل مواجهات العروبة لإسرائيل.. لإسرائيل ولكل المفسرين والمشخصين والمداوين لمواجهات العروبة لإسرائيل من شعراء وعلماء وأدباء وحكماء وأنبياء وزعماء عرب، عرب.. المواجهون لإسرائيل والمفسرون للمواجهة عرب. إذن ما أردأ المواجهة والتفاسير.

إن لي مطلباً هنا، مطلباً صغيراً وسهلاً في كل حساباتكم وفي كل الحسابات ولكنه كبير جداً في حسابات أخرى وفي حساباتي أنا..

هذا المطلب الصغير الكبير.. السهل الصعب اليسير العسير.

هذا المطلب هو، هو...

أن تذيعوا وتنشروا بكل الأصوات والقراءات والتعليقات والتفاسير هذه الأنة.. هذه الآهة.. هذه التحية.. هذه الصلاة التي لا تستطيع صلوات كل الأنبياء أن تكون شيئاً من صدقها وصفائها وتقواها..

أليست كل الآهات والأنات المفجوعة أتقى وأصفى من صلاة الأنبياء الراكعة الساجدة؟

أن تذيعوها وتنشروها على كل أجهزة الإذاعة والنشر والإعلام والحوار والتوصيل وفيها أي هذه الآهة.. الأنة.. التحية.. أي هذه الصلاة التي لم تصل للآلهة. إن إذاعتها ونشرها ومحاورتها في هذه الأجهزة بكل الحرارة والحماس والاهتمام بل والانفجاع الصادق.

ـ نعم، إن ذلك قد يكون شيئاً من التعويض والتكفير والاعتذار عن شيء من القبح والفحش والبلادة والجهالة والكذب والنفاق والوثنية والتعبّد لكل الأوثان المغطية المذلة لكل التاريخ العربي بل الكاتبة المملية الصائغة لكل التاريخ العربي.!

إن طلبي هذا ضئيل وقليل وسهل ومتواضع ولكنه في حسابات المطالب به وفي احتياجه إليه كبير وعظيم ومريح..!

فهل يرفض الاستجابة له شعراء وحكماء وأدباء وفقهاء وأنبياء وزعماء الشعب الذي ولد وحضن وربّى وعلّم وصاغ وخلق وصدّر كل العروبة وعلّمها كيف تفسد وتذل وتخيف أخلاق وذكاء المتحضرين وكيف تشوّه وتقبّح حضاراتهم بالتعامل بها وبادعائها..!؟

هل يرفضون الاستجابة لذلك ضعفاً أو هواناً أو نفاقاً أو جهلاً أو بغضاً أو حقداً أو حسداً أو غيرة أو إهمالاً أو كسلاً أو خمولاً أو موتاً أو تديّناً أو إيماناً أو خوفاً على إلههم البائس المختبىء من الهزيمة والإذلال، أو حماية لمجدهم القلمي الكلامي الأدبي من المنافسة غير المريحة؟

.. إني أرفض هذا الرفض.. أرفض كل احتمالاته وتفاسيره..!

إني أرفض وأتعذب، أتعذب كل العذاب وأقسى العذاب ألا أجد في عالمي العربي.. في شعبي العربي في كل تجاربي، تجاربي اللاهثة عليه وفيه ومعه وبه.. ألا أجد فيه أي قدر من المعاني والتفاسير والمواقف التي لا يستطيع أي مجتمع أو كائن أن يفقدها كلها مهما صمم وحاول وأراد أن يفقدها..

هل استطاع أي شعب أو كائن أن يفقد كل الشجاعة والصدق والإخلاص والصفاء والإنصاف والحب والصداقة والصراحة.. كما استطاع شعبي كل ذلك بكل السهولة والديمومة والإجماع بل وبكل المباهاة والإعجاب بالنفس؟

هل يستطيع ذلك أي شعب مهما أراده؟

إن شعبي إذا فعل أو لو فعل شيئاً من هذه القيم فإنه لم يفعله إلّا لأنه لم يستطع أن يفعل النقيض أو لأنه لم يجد الربح أو الثمن في النقيض أو لأنه اضطر إلى ذلك اضطراراً تحت حوافز وأسباب وتفاسير مناقضة، مناقضة..

إنه لا يفعل ما يجب أو يحمد أو ينبغي فعله بل ما يشتهي أو يريد أو يربح من فعله.

إنه إذا صدق أو أحب أو صادق أو عدل أو مدح أو تواضع أو تهذّب أو توقّر أو حتى آمن وتديّن ومجّد إلهه أو نبيّه أو تاريخه أو وطنه أو شعبه أو مزايا الآخرين فلن يعني أو يكون التفسير ما

يقوله العنوان. إن علاقاته النفسية والأخلاقية والفكرية بالأشياء لا تتغير مهما تغيرت وتبدّلت علاقاته الجسدية أو الإعلانية أو الرسمية بها.!

.. إني في هذه اللحظات بل وفي كل اللحظات أخاطب وأناجي مناجاة ومخاطبة لو سمعهما أو لمسه شيء من سعيرهما وحرائقهما الإله لاحترق، احترق مع أن جسده وقلبه وضميره وفكره وأخلاقه وأحاسيسه وذاته محصنة ومحروسة بكل معاني الخمول والجمود والذهول والموت بل ومعقمة ضد الرؤية واليقظة والحركة والتذكر.. مخزونة مبردة بكل ما في الكون من برودة وثلوج.. محكومة بالغيبة والغيبوبة بلا صحوة أو حضور..!

.. إنها مناجاة ومخاطبة لو خوطبت ونوجيت بهما أصغر وأهون وأبلد الحشرات بشيء من لغتها ومنطقها وأخلاقها.. لو نوجيت أو خوطبت بهما أصغر وأذل وأضعف وأخمل الحشرات وما هو أقل من الحشرات لكان أقل ما يمكن أن تفعله مستجيبة ملبية أن تتحول إلى ركوع وسجود وتضرّع وتوبة واستغفار وإلى استجابة فيها كل هذه التفاسير.. إلى استجابة مؤمنة متدينة لمن خاطبها وناجاها..!

.. كم أرفض أن يعجز شعبي العربي عن رفض ما لا تعجز كل الحشرات عن رفضه..

ما ترفض كل الحشرات العجز عن رفضه..

.. كم أرفض ويجب أن أرفض أن يعجز شعبي عما لم تعجز عنه كل الحشرات..

أن يذل ويهون ويموت شعبي خوفاً وحذراً أن يقترب مما لم تخف الحشرات من اقتحامه بل من الموت والانتحار باقتحامه..!

هل وجد من يتفوق على شعبي مواطناً ومساكناً ومعايشاً للحشرات؟ إذن كيف لم يفطن إلى اقتحامها لأقسى وأقوى الأخطار بكل البسالة والجرأة والتحدي لكي يقول صارخاً مفجوعاً: لماذا أنا وحدي أقل من كل شيء في بسالتي حتى من أضعف الحشرات..

.. ويلي، ويلي من نفسي ومن قومي. ويلي، ويلي كم أخجل وأتعذب بنفسي وقومي ومن نفسي وقومي كم أخجل وأتعذب لهما ومن أجلهما..!

كم أخجل وأفجع وأراع وأتعذب حين أرى وأجد الذباب يهاجم بكل البسالة والمخاطرة والكبرياء والزئير والطنين إعلاناً عن النفس.. بكل اليقظة والذكاء والحرارة - حين أراه وأجده يهاجم وينازل ويقتحم كل مواقع وأماكن وطرق الخطر.. الخطر المحتوم ثم أجد وأرى وأعرف وأجرّب شعبي يمارس ويعيش ويتقبل ويرضى بل ويعبد ويقدس ويمجد كل الجبن والاستسلام والهوان خوفاً من أقل وأضعف وأبعد احتمالات الخطر.. أصغر الخطر..

إنك يا شعبي تفاخر بكل الأساليب ووسائل التعبير بقسوة غيرتك ومنافستك للمتفوقين..

إذن أين ذهبت غيرتك ومنافستك مقارناً جبنك وضعفك ببسالة وجرأة وقوة الذباب.. وبيقظته وحرارته.. محاسباً استسلامك وهوانك وهربك بكبرياء وإباء واقتحام الذباب.. مواجهاً بطاعتك

وصمتك الذليل المتعبد لعصيان الذباب ولطنينه المتحدى المبارز المنازل؟ ألم تخف أن يتحول الإله من اختياره وتفضيله لك إلى اختيار وتفضيل للذباب مقارناً لك به؟

كم أرجو يا شعبي العزيز الحبيب الأصيل.. كم أرجو ألا يخفى عليك: لماذا خصصتك بهذه الحرب السلمية القلمية التي لن يقع فيها أي قتيل أو جريح أو مشوّه أو مهدد بشيء من ذلك.. بهذه الحرب التي أقول والتي يجب أن يقال عنها:

ليت كل الحروب حتى الحروب التي حاربها وحارب بها الآلهة والأنبياء والملائكة والقديسون وحاربتها وحاربت بها أو باسمها الأديان والأخلاق والسور والآيات والتوراة والإنجيل.

ـ نعم، ليت كل الحروب التي كانت والكائنة والتي سوف تكون والتي قد تكون أو لن تكون ـ ليتها جاءت كلها وتجيء كلها كهذه الحرب التي خصصتك بها يا شعبي.. إنها حرب الحب والأمل والطموح والمطالبة بتخطي الضعف.. إنها حرب الإحياء والتجميل والتقوية لا حرب القتل والتشويه والإضعاف..

لقد خصصتك بهذه الحرب المقاومة والرافضة لكل حرب يا شعبي اليمني لأنك أنت كل الشعوب العربية ولادة وعطاء وتصديراً وصياغة وقراءة وتفسيراً وتبديداً وتشتيتاً..!

بل ولأنك أنت يا شعبي اليمني كل الديانة العربية والنبوة العربية.. كل من آواهما ورباهما وغذاهما ونصرهما ونشرهما وصاغهما وعلمهما وفترهما وصدّرهما وفرضهما وغزا وفتح ونهب واسترق واستعبد بهما.. هل يمكن ألا تكون عارفاً لذلك يا شعبي العزيز الأصيل؟

ألست تعرف أن قوم محمد قد طردوا محمداً وطردوا معه إلهه ودينه وكل معانيه وأخلاقه وأحلامه وأحقاده وبغضائه ولعناته وجاهلياته..

وطردوا معه جحيمه وفردوسه بغلمانه وجواريه ومحظياته وبكؤوسه الملأى الفارغة..

وطردوا معه كل ما يقاسي العرب اليوم ودائماً من جهالات وعصبيات وأهوال باسمه.. طردوا كل ذلك ليموت، يموت وكان محتوماً له هذا الموت، الموت. لقد كان طردهم له شيئاً من التكفير عن ولادتهم له، إنه تكفير كان يجب أن يتم بأشمل الصيغ..

ولكنك أنت يا شعبي اليمني.. أنت، أنت قد حميت هذا الموت من الموت، قد منعت هذا التكفير أن يتم.!

بأن استقبلته وحميته ونصرته وأعززته وشهرته وأعلنته وصدرته إلى كل العالم بل وفرضته على كل العالم. إنك بهذا يا شعبي اليمني قد حرمت قوم محمد من أن يعتذروا عن إساءتهم إلى العالم بولادتهم لمحمد بالخلاص بالخلاص منه. هل تصورت يا شعبي ضخامة ذنوبك في هذه القضية؟ لكي تتصور بشاعة ذلك حدّق في ما حدث وما يحدث وما سوف يحدث من جهل وتعصّب وبغضاء وأحقاد وعداوات وانقسامات بسبب هذا الذي طرده قومه فذهبت أنت تؤويه وتحميه وتنصره وتفرضه على العالم.!

.. إذن أليس محتوماً ومعقولاً ومقبولاً ومغفوراً يا شعبي اليمني العزيز الأصيل أن تكون مطالباً

بكل ما تطالب به الشعوب العربية، وأن تكون محاسباً محاكماً بكل الأخطاء والخطايا والنقائص العربية وأن تكون أنت الفاعل لكل الذنوب والفضائح والقبائح العربية، بل وأن تكون المداوي الشافي من كل ما تشكو منه الشعوب العربية ومن كل ما يشكى من الشعوب العربية ومن كل ما تتهم وتفضح وتحتقر به الشعوب العربية أي المحسوب كذلك والمطالب بكل ذلك؟ إذن ما أعظم وأثقل أثقالك يا شعبي المتهم البريء الظالم لأنه المظلوم.

.. الشعب اليمني هو الذي فرض على العرب وعلى شعوب أخرى نبوة وديانة وشريعة وقرآن محمد لتقاسي كل ما قاست وكل ما تقاسي وكل ما سوف تظل تقاسي بسبب هذا الفرض عليها.!

إذن هل يوجد أو يتصور مذنب ذنوباً عالمية كونية مثلك يا شعبي اليمني العزيز الرفيق الرقيق الرحيم؟

ما أقسى وأصعب الموقف هنا..

إنك إما أن تظل متحملاً لخطيئتك هذه التي عاقبت وشوهت وضلّلت وأفسدت بها شعوباً عديدة بل كل الشعوب بشتى الأساليب والتفاسير المتفاوتة، ولا تزال وقد تظل طويلاً ودائماً تفعل ذلك..

وإما أن تحاول الخلاص من هذه الخطيئة..

ولكن كيف يمكن أو يستطاع هذا أو هذا؟

ماذا لو تصور الإله حرج هذا الموقف أي وكان إلهاً غير عربي؟

هل يمكن التصور أو يستطاع التصور حينئذٍ لما لا بدّ أن يحدث. لما لا بدّ أن يعاقب به نفسه وأن يعتذر به عن نفسه أي الإله؟

ولكن هل كان يمكن أن يوجد أو يبقى أي شيء أو أن يجيء أي شيء كما جاء لو كانت الآلهة تقاسي شيئاً من التصور السائل المسائل المحاسب المعاقب المكفّر المعتذر؟

إن من أفجع وأقبح الأشياء أن تكون الآلهة غير قادرة على أن تجرب الغضب أو الاستنكار أو الاحتجاج أو الرفض أو حتى التساؤل الفكري أو النفسي أو الفني أو العلمي أو الأخلاقي.!

إن من أفجع الفواجع ألا يكون داخل أو خارج هذا الكون محاسب أو محاكم أو مصحح أو مصلح.!

كتبه من لم تقرأ أو تعرف الآلهة نفسها إلّا باستماعها إليه قارئاً مفسراً لها عليها لو قرأته أو سمعته أو استمعت إليه..

وهل فعلت أو تفعل ذلك؟

ما أقسى وأفجع قراءة الآلهة والقراءة لها وتفسيرها والتفسير لها. إنه لا أفجع أو أقسى من ذلك إلّا محاولة تعليمها القراءة أو الكتابة أو الرؤية أو التفكير..

تعالوا نقرأ الله تعالوا نقرأ الكونا

لماذا هذه السمره ... قسوتم كل ذي القسوه
أتدبير، أتدبير ... أم الكبر أم الزحمه
لقد قالت لنا الدنيا ... لقد قالت لنا الفكره
لقد دكت أمانينا ... لقد غصت بنا الحسره
أيا هذا، أيا هذا ... خف الذُّه وخف بطشه
لقد كنا بكم يوماً ... نداوي الآه والأنَّه
لقد كنتم لنا يوماً ... سراجاً يقهر الظلمه
سنشكوكم إلى رب ... بلا حكمه بلا رحمه
بلا قلب بلا عقل ... بلا سمع بلا رؤيه
بلا ماضٍ.. بلا آتٍ ... بلا حول.. بلا قوه
سنشكوكم إلى رب ... بلا نخوه، بلا يقظه
وهل يجدي بأن نشكو ... لهذا الرب..؟ واحسره
سنشكوكم.. سنشكوكم ... إلى النار.. إلى الجنه
سنشكوكم.. سنشكوكم ... إلى القرآن والسنَّه
سنشكوكم.. سنشكوكم ... لأنا فاقدو السلطه
لأنا فاقدو الإغراء ... والإغواء والقدره
وهل يجدي بأن نشكو ... بأن نبكي بلا رهبه
إذا لم نصنع الرهبه ... إذا لم نصنع الرغبه
لقد تاهت بنا الخطوه ... لقد زاغت بنا الرؤيه
لقد جفت مغانينا ... لقد شاخت بنا الهمه
لقد طالت بنا الآهه ... لقد طالت بنا الأنَّه
لقد قالوا لنا كونوا ... هنا قلنا وما الخطه
لقد قالوا لنا موتوا ... هنا قلنا وما الفكره
لقد قالوا لنا أضلوا ... هنا قلنا وما الحكمه
لقد قالوا لنا سيروا ... هنا قلنا وما الوجهه
لقد قالت لنا الدنيا ... هنا قلنا وما القصه

هنا قالت بلا قصه   بلا فكره بلا خطه
وهل ترضى بي القصه   أو الخطه أو الفكره
لقد شاهت بي الفكره   كذا الخطه كذا الرؤيه
لقد قالت أي الدنيا   تعالوا نفتح الصفحه
تعالوا نقرأ السيره   تعالوا نعرف الورطه
لقد قالت لنا الآيه   تعالوا نقرأ السوره
تعالوا نقرأ السنّه   بكل الحزم والجرأه
لتدروا كم هو التزوير   والتضليل والغفله
لتدروا كم هو التشويه   والتحطيم والنكبه
لتدروا أنكم كنتم   بلا مجد بلا صحوه
بلا عقل بلا وعي   بلا رؤية بلا وثبه
بلا دين بلا كفر   بلا نار بلا جنه
تعالوا نقرأ السنّه   لكيما نعرف الفريه
تعالوا نقرأ الكون   لكيما نرفض القصه
تعالوا نقرأ السوره   لكيما نغلق الصفحه
تعالوا نشرح الآيه   لكيما نغفر الرده
وكم أخشى وكم أخشى   فراقاً يخنق الفرحه
فهب عطفاً وهب رقه   وفارق نية الفرقه
وكن حباً وكن رباً   نبيلاً يقبل الدعوه
رحيماً يرحم الأنّه   ذكياً يفهم الغلطه
سميعاً يسمع الهمسه   شريفاً يمقت الخدعه
تعالوا نقرأ الكون   تعالوا نقرأ الورطه
تعالوا نقرأ السنّه   تعالوا نعلن الثوره
تعالوا نعلن الثوره   على النار.. على الجنه
على الدنيا.. على الأخرى   على الراضين بالصفقه
على من علموا الركعه   على من علموا السجده
لرب ترفض الأخلاق   ترفض الأفكار فهمه
لرب تلعن الأفكار   تلعن الأخلاق وصفه
لرب يزرع التشويه   بوجه الطفل والطفله
لرب يطلق الآهات   بقلب الشيخ والشيخه
لرب يعشق العاهات   والأنّات بالإنصات والرؤيه
لرب يعشق الآلام   يعشق الآلام.. يا فحشه

لرب يخلق الشيطان — يفسد الإنسان.. يا سخفه
لرب يلعن الكفّار — يزرع الكفران.. يا جهله
لرب يوجب الإيمان — ويشا الكفران.. يا ويحه
لرب كامل الرحمه — كامل الحكمة والقدره
لهذا ينشر النقصان — يعشق النقصان بالفطره
لهذا يصنع الويلات — يصنع الأهوال بالجمله
لرب أقسى ما يخشى — زوال الآه والأنّه
زوال الحقد والبغضا — شيوع الحب والبهجه
لننظر كل ما يأتي — لكيما يرضي ذي الرغبه
فهل في الكون من قبح — كهذا الرب في قبحه

ماذا يساوي حرف «لا» عند قومي؟

إن حرف (لا) عند قومي هو كل المجد والقوة والتفوق والانتصار والبسالة والإبداع والعطاء والتقوى والإيمان والدين. إنه كل التاريخ.. كل التوحيد الذي يطالب به ويفرضه ويعلمه إله وخالق وصاحب هذا الكون وكل كون ويجزي عليه بكل طاقاته واهتماماته وشهامته ونخوته..!

إن حرف لا وحرف إلّا هما كل عبقريات وحضارات ومبتكرات وعظمة قومي.!

أليسوا أي قومي يقولون: لا إله إلّا اللّه ولا مجد ولا قوة ولا طاعة ولا حب ولا ذكاء ولا إرادة إلّا للّه لكي يروا أنفسهم ولكي يكونوا ويحسبوا كل المؤمنين الموحدين الأتقياء العقلاء الأصفياء المنتصرين القاهرين المعلمين القائدين لكل العالم ولكل عالم ولكل شيء مع أنه لا أحد له كل الآلهة وأقبح وأوقح وأجهل وأنذل الآلهة مثل قومي.

ومع أن الإله الذي يقول له وعنه قومي: لا إله إلّا هو، لا إله إلّا أنت لا وجود له مؤثر أو محسوب في أي سلوك أو أسلوب أو نية أو معنى من سلوك أو أساليب أو نيات أو أخلاق أو معاني قومي..!

إنه لا وجود لإله قومي ولن يكون له أي وجود إلّا في أصواتهم..!

إن كل أمجاد وانتصارات وقدرات وحضارات وتقوى وإيمان ومزايا قومي في أن يقولوا ويعلنوا ويعتقدوا ويصرخوا: لا إله إلّا اللّه.. لا إله لنا أو لأي شيء أو لأي أحد إلّا أنت حين تكون لهم أي لقومي كل الآلهة أي أقبح وأجهل وأفجع وأنذل الآلهة..!

وحين يقولون ويعلنون معتقدين إلّا أنت يا إلهنا، يا كل الآلهة حين تكون له في حياة ونيات قومي كل الأنداد والشركاء المنافسين له المتفوقين عليه بل الهازمين المطاردين الطاردين لكل معانيه وحقوقه بل لكل وجوده من حياة قومي..!

إنه لا يوجد مطرود من كل حياة قومي مثل إلههم الذي لا يوجد مثله منطوقاً به ومتحدثاً عنه..!

إن ابتكار الإنسان العربي لكلمة لا إله إلّا اللّه وتعامله بها لهما أقسى تفسير وتكذيب له ولهما أصدق وأقوى وأذكى تفسير وتعبير عنه..!

إنه لا شيء يفسّر ويفضح قومي مثل: «لا»، و«إلّا».. مثل كلمة لا إله إلّا اللّه..

مثل هذه الكلمة التي تعني كل شيء عند قومي دون أن تعني أو تصنع أي شيء في حياتهم أو في أية حياة.. بل أو في أي شيء..!

لــك ألــف مــعــبــود مــطــاع أمــره دون الإلــه وتــدعــي الــتــوحــيــدا..!

⊛ ⊛ ⊛

إن كلمة لا إله سالبة ونافية هي كل الإيجاب والإثبات وإن كلمة إلّا اللّه موجبة ومثبتة هي كل السلب والنفي في تفكير واعتقاد وتفاسير وحسابات وحضارات ورؤى وتقوى وإيمان قومي..!

إنهما كل الإثبات لما يراد نفيه وكل النفي لما يراد إثباته أي لا إله إلّا اللّه..!

إن كل نفي ورفض قومي لكل الأوثان والوثنيات أن يقولوا: لا إله إلّا اللّه، وإن كل انتصاراتهم وأمجادهم وعبقرياتهم وحضاراتهم وتقواهم وإيمانهم وتفوّقهم في كل شيء على كل العالم أن يصرخوا، ويصرخوا دائماً وبكل الأصوات:

لا نصر ولا مجد ولا تفوق ولا تقوى ولا دين ولا إيمان ولا نبوة ولا نظافة ولا طهارة ولا ذكاء ولا حضارة ولا تقدم ولا صعود إلى الشمس أو القمر أو النجوم أو السحاب أو إلى سدرة المنتهى ولا إسراء ولا معراج.

ـ نعم، لا شيء من ذلك إلّا لنا نحن العرب بخيولنا وإبلنا وأغنامنا وبراقنا وصهيلنا وزئيرنا بقرآننا وأحاديثنا ومحاريبنا ومنابرنا.. بإلهنا ونبينا وتراثنا وتاريخنا وقصائد شعرائنا المتوجة بها كعبتنا.. إنه لا مكرم مطاع بالأفواه مهان معصي بالسلوك والنيات مثل إله قومي..!

إن كل تفاسير قومي لا تساوي إلّا كلمة: لا إله إلّا اللّه، وإن كلمة لا إله إلّا اللّه لا تساوي إلّا كل ما يساويه كل تاريخ قومي.. لقد جعل قومي لحرف: لا ولحرف: إلّا تاريخاً يقرؤه ويتعلمه ويباهي به ويصلي له كل تاريخهم.!

إن فجيعتي بقومي ولقومي تساوي إرادتي لهم..

إذن كم تساوي فواجعي؟ إذن هل يمكن تصور ألوان وأنواع وأساليب وضخامة وديمومة عذابي؟ ما أقسى أن نريد بكل الحرارة والحب والصدق والشوق والديمومة ثم أن نفقد بكل الشمول واليأس والترويع والإحباط..!

ما أقسى أن نفقد ما نريده بعقولنا وأخلاقنا محاسباً بقسوة فقدنا لما نريده بشهواتنا واحتياجاتنا..!

.. ما أقسى أن نفقد ما نريده لقومنا محاسباً بقسوة فقدنا لما نريده لأنفسنا..!

ما أقسى ألا يكون هذا هو الحقيقة في معاناتنا ومعاملاتنا وانفعالاتنا الفكرية والأخلاقية والإنسانية بل ما أردأ ذلك وأقبحه..!

إن كل تفاسير قومي في أن يؤمنوا بكلمة: لا إله إلّا اللّه وأن يهتفوا بها.. إذن هل يستطيع كل الرثاء أن يكفي رثاء لهم لو رثوا به؟

الزحف العربي الجديد إلى المقابر.. لماذا؟

تحول عرب اليوم بأسلوب فيه كل آلام كل الصدمات الأليمة المفاجئة بل غير المفاجئة مهما فاجأت.

تحولوا إلى ضجيج وأصوات مزعجة لكل ما في الطبيعة والوجود والعالم من إزعاج ومزعجات، منادية بالزحف إلى المقابر ليستخرجوا منها.. من هذه المقابر كل عضلات وقدرات وانتصارات وأسلحة وقسوة وفظاظة وأحقاد وبغضاء وفحش وقبح وبداوة وجهالة وعداوة وعدوانية إلههم ونبيهم ودينهم وقرآنهم وكل تاريخهم..

ليحاربوا ويقهروا ويحكموا ويذلوا ويقودوا ويعلموا كل العالم بل ليصبحوا كل أنبيائه ومعلميه ومنقذيه ومحضريه ومؤدبيه ومسعديه وقائديه إلى الفردوس المسكون بكل الازدحام بالحوريات والغلمان والخمور وبكل ما لا يستطاع التعبير عنه أو الجرأة على الحديث عنه.. ليكونوا كل ذلك بهذا الزحف إلى المقابر..!

إن زحف العرب إلى المقابر هو أقوى وأشهر وأعنف زحوفهم..!

هل لهذا الزحف العربي إلى القبور أي لهذه الرجعة الدينية العربية الفاجعة المخربة المعوقة الحزينة من تفاسير وأسباب..!؟

إنه لا بدّ أن يقال إن لكل شيء تفاسير وأسباباً وإن كان مستحيلاً أن يكون للتفاسير والأسباب أي تفاسير أو أسباب..!

فظيع إن كل التفاسير والأسباب لن تكون لها أية أسباب أو تفاسير..!

فظيع ألا يكون للمنطق أي منطق أو للسبب أي سبب.!

إنه محكوم علي أن أبحث عن أسباب وتفاسير عودة قومي العرب إلى المقابر التاريخية أي إلى مقابر الإله والنبي والدين والقرآن والتاريخ ليجدوا فيها كل ما لم يستطيعوا أن يجدوه في طاقاتهم أو عقولهم أو قلوبهم أو عواطفهم أو أخلاقهم أو مواهبهم أو أشواقهم أو تمنياتهم..!

.. ليجدوا في القبور كل الحياة التي لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يصنعوا منها شيئاً.. لتصبح أي القبور كل عضلاتهم وعبقرياتهم وانتصاراتهم وأخلاقهم وعقولهم وقلوبهم..!

ولأنه محكوم عليّ بأن أجد تفاسير وأسباباً لما لا يمكن أن تكون له تفاسير أو أسباب فلا بدّ أن أقول: إن لهذه الرجعة العربية القبورية أي الدينية أسباباً وتفاسير. منها:

أولاً:

العربي عاجز اتكالي يريد أن يجد كل من يفعل عنه وله كل شيء مستطاع أو غير مستطاع.. إنه دائماً يبحث عن ذاته ووجوده في خارج ذاته ووجوده..

وقد وجد كل ذلك في قبوره في نبش قبوره.. قبور إلهه ونبيّه وقرآنه ودينه وفقهائه وخلفائه الراشدين وغير الراشدين..!

والدين الإسلامي بكل قرآنه وأحاديثه وطقوسه ومعانيه وتفاسيره يدعو بكل الصراحة إلى الاتكالية والاتكال بل ويمجّدهما ويفرضهما ويصعد بهما إلى أعلى سموات ودرجات الإيمان والتقوى ويحكم بالزندقة على كل من لم يؤمن ويلتزم بهما بكل العنف والضعف والسخف..!

إن الخروج على الاتكال والاتكالية خروج على الإسلام في كل تفاسير المسلم لإسلامه وإيمانه..!

والإنسان العربي في كل تاريخه لم يحتج إلى الاتكالية مثل احتياجه إليها في زمنه هذا لضخامة المواجهات التي فرض عليه مواجهتها دون أن يريد أو يدري أو يختار أو يستطيع المواجهة أو المفارقة والهرب..!

إنها ورطة.. أقسى وأشمل وأدوم ورطة..

وقد وجد الخروج منها بالرجوع إلى المقابر.. بالدخول في المقابر..

ثانياً:

لقد وجد الإنسان العربي نفسه أمام هذه التحديات الحضارية مهزوماً مقهوراً موهوباً كل وجوده الجديد، فاقداً كل ما يمكن أن يفاخر أو يباهي أو ينافس أو يتحدى به أو يهبه للآخرين أو يمن به عليهم أو يأخذوه أو يتعلموه منه وعنه أو ما يجعله يجرؤ على أن يقول: أنا مكتشف أو مخترع أو فاعل أو صانع كذا أو المشارك فيه أو حتى الفاهم له أو المتعامل معه وبه كما يقبل وينبغي وينتظر..!

إذن ماذا يفعل لكي يجد ويكون كل ما يفقد ويتمنى.. لكي يعتقد ويعلن أنه هو الأعظم والأقوى والأعلم، بل وأنه هو الواهب والمبدع والخالق والمعلم لكل الحضارات والعلوم والآداب والفنون والأخلاق ولكل مزايا الإنسان العظيمة النظيفة التقية المنقذة وأن السير وراءه هو كل الطرق إلى كل المجد والسعادة وإلى الحياة المشرقة الصافية الصاعدة، بل وأن جميع المتفوقين في كل شيء أو في أي شيء إنما تفوقوا لأنهم تعلموا منه ومن إلهه ودينه ونبيه وتراثه وتاريخه ومن آبائه وفقهائه وخلفائه بل ومن غزواته وسبيه واسترقاقه للنساء والغلمان؟

وهنا رأى أن ما يجب أن يفعله ليكون كل ذلك شيء يسير سهل موجود يستطيعه بلا أية معاناة علمية أو فكرية أو عقلية أو عضلية أو أخلاقية أو نفسية.. بلا أية موهبة أو تفوق أو نضال أو تخطيط.. بلا أية مزية بل وضد كل مزية..!

هذا الشيء هو أن يعود إلى جلابيب الدين وعباءاته وعلمائه وبراقعه ولحاه وعقوباته وإلى سيوفه وسكاكينه ورماحه وعداواته وبغضائه وكبريائه وإذلاله وإرهابه وتحطيمه لكل نبض إنساني حر صادق ولكل موهبة فكرية أو علمية أو فنية أو شعرية أو إبداعية..!

هو أن يعادي ويلعن ويبغض كل شيء وكل أحد باسم إلهه ونبيه ودينه.!

إذن ليعد، ليعد وليزعج ويرهب الدنيا وكل ما فيها من تقدم وحضارات وحريات وثقافات وآداب ومعارف وفنون بصراخ العودة، العودة إلى القبور.. القبور..!

إنه الكائن الذي لا مجد ولا قوة ولا حياة له إلّا بعودته إلى المقابر..

ثالثاً:

يوجد في المجتمعات العربية في كل الأوقات وتحت كل الظروف أفراد مصابون بالطموح إلى أن يصبحوا سادة وقادة ومتسلطين ومعلمين بل أن يصبحوا سلاطين وخلفاء وأنبياء آمرين مسيطرين مطاعين متبوعين هاتفة لهم وبهم كل الأسواق والمنابر والمحاريب.. وقد يكون هؤلاء الأفراد صغاراً، صغاراً ومصابين بهذا الطموح..

وبقدر ما يوجد هؤلاء الأفراد في المجتمعات العربية توجد فيها كل الجماهير المستعدة والمستجيبة بكل الحماس والجنون والافتضاح بل والانتحار لكل أنواع الخداع والانخداع بل الباحثة عن ذلك والمعلمة الخالقة له.. التي لا تستطيع أن تقبل أو تفهم أو ترضى الحياة أو أي شيء إلّا بذلك أي إلّا بأن تكون مخدوعة منخدعة والدة ومستوردة لكل الخادعين ولأردئهم وأقبحهم وأكثرهم افتضاحاً وجهلاً وتزويراً..!

إن انخداعها يعظم بقدر ما يعظم قبح وافتضاح الخديعة والخادع..!

وقد وجد هؤلاء الباحثون عن التسلّط والسلطان وعن مجد الأسواق أن أقوى وأنجح وأسهل الوسائل لبلوغهم ما يريدون ويحاولون أن يتحولوا إلى دعاة للدين.. للدين الذي يفسرونه بأنه قد أعطى ولا بدّ أن يعطي ويظل يعطي كل من استمسكوا به وكل من سوف يستمسكون به كل عضلات الإله وقدراته وانتصاراته وأمجاده وعلمه وحكمته وحبه ورضاه وتفوقه وفردوسه وغناه ليصبحوا أي من استمسكوا ويستمسكون بالدين كل سادة العالم وحكامه وقادته ومعلميه ومنقذيه وصانعيه كما فعل بهم ولهم في تلك الفترة أو الفترات..!

بل من ادعوه وأعلنوه وإن لم يستمسكوا به سلوكاً وصدقاً..!

وحيث يوجد المستعدون والمستجيبون للخديعة والتزوير والكذب فلا بدّ أن يوجد الخادعون والمزورون والكاذبون.. إن المفعول بهم هنا هم الفاعلون بالفاعلين بهم.!

إنه لو لم يوجد من يصدقون أو يتقبلون الكذب والخديعة والتزوير والخرافة لما وجد الكذابون والمزورون والمخادعون والبائعون لأسخف الخرافات بأغلى الأثمان وأفدحها..!

حتى الشيطان إنه لم يأت متطفلاً أو مقتحماً أو متوسلاً أو معتدياً وإنما جاء مستجيباً لإلحاح الدعوات الموجهة إليه ليجيء..!

رابعاً:

الإنسان العربي عنيف وعريق وأصيل في أنانيته وذاتيته، وعنيف عريق أصيل في إفرازه واستفراغه وتصديره وتوجيهه وإطلاقه للبغضاء والعداوة والسباب والاتهام والإهانة والتحقير لكل أحد ولكل شيء لكل أحد غير نفسه ولكل جنس وقوم غير جنسه وقومه، ولكل دين واعتقاد وأخلاق غير دينه وعقائده وأخلاقه، ولكل تاريخ وتراث غير تاريخه وتراثه، ولكل بطولات وانتصارات وغزوات وفتوح غير بطولاته وانتصاراته وغزواته وفتوحه، ولكل احتلال واستعمار وسبي ونهب واسترقاق غير احتلاله واستعماره وسبيه ونهبه واسترقاقه، بل ولكل ألوهية ووثنية غير ألوهياته ووثنياته.. إن البغضاء والحقد والسباب عند الإنسان العربي غذاء وعزاء ومجد وقوة وانتصار وغريزة وطبيعة وسعادة بل وحياة.!

إن عقله وقلبه وضميره ودينه ولسانه وكل معنى وتعبير من معانيه وتعبيراته ليتغذى ويتعزى ويتعبد ويسعد بذلك.. بأن يفعل ويؤدي ذلك بكل الأساليب وأقبح وأبشع وأفضح الأساليب.. إنه لو لم يجد أعداء يفعل بهم ذلك لفعله بنفسه..! والدين الإسلامي يبيح ويشرّع له ذلك بل يحرّضه ويوجبه عليه ويلقنه ويعلمه إياه ويحوله له إلى طقوس وتقاليد وعبادات وفرائض تؤدى بكل التقوى والجهر والفخر والعزة..

إن نشوته بالسباب والبغض والحقد والمعاداة أعمق وأصدق من نشوته بالصلاة وبكل أنواع التعبّد إن كان لذلك نشوة..!

إذن كيف لا تسارع المجتمعات العربية إلى الاستجابة بكل اللهفة والجنون والافتضاح لكل دعوة إسلامية مشحونة بكل التعصّب والإرهاب والفحش والبغض والحقد والعداوة لكل شيء ولكل أحد.. لكل محبة وسلام وصفاء وتفكير وحرية وأخوة؟ إنه عطاء بلا حساب لهذه الرذائل والموبقات..!

⊛ ⊛ ⊛

هذه بعض الأسباب التي قد يفسر بها الزحف العربي الجديد إلى مقابر الآلهة والأنبياء والأديان التي تجمعت في قبر إله واحد ونبي واحد ودين واحد أي الإله والنبي والدين العربي الإسلامي الواحد أي في قبره..!

وقد يضاف إلى هذه الأسباب أنه لا مثيل للإنسان العربي في احتياجه إلى الأوهام وإيمانه بها وبحثه عنها وفي أشواقه إليها وطاعته لها وتلازمه معها ولا سيما أقبحها وأفظعها.. والإسلام يهب ويعلم كل الأوهام.. أغباها وأبعدها عن كل ما يقبل أو يفهم أو يعقل بل أو يتصور..

يهبها ويعلمها بلا حساب بكل الصيغ والأساليب والتفاسير والتعاليم.. إنه يحمي العقل والتفكير

من أن يكونا مخاطبين أو مسؤولين بل أو مفترضين، يحمي الفهم من أن يكون مطلوباً أو عاملاً أو موجوداً.. إنه أي الإسلام يعفي أهله من تكاليف ومتاعب العقل والتفكير والفهم والمساءلة والمحاسبة..!

إنه لا يوجد مجامل ومرض لضعف الإنسان ولفحشه وقبحه وعدوانيته ورداءته مثل الدين الإسلامي المعروض في الأسواق المكتوب على الأوراق..!

هل الإنسان العربي بل الإنسان في كل جنسياته وقومياته بل الكائن في كل كينوناته وانتماءاته.

- هل هو يبحث عن الأفضل والأنبل والأعقل أم عن الأسهل والأيسر والأكثر عطاء للراحة والاسترخاء والرضا عن النفس بل وعن كل شيء؟ إنها لقضية مثيرة وكبيرة وذات تفاسير ورؤى حارة وحادة.

ولكن هل عرضت أو قرئت أو فسرت أو حوسبت أو سوئلت بأي قدر من الاهتمام الذي تستحقه؟

ولعلها لم تتصادم أو تتعامل أو تتحاور مع أي فكر..!

هل الذين آمنوا بالإله أو بالآلهة أو بالأنبياء أو بالأديان أو بالإله أو النبي أو الدين العربي.

- هل كانوا يبحثون عن الأفضل الأنبل الأعقل أم كانوا يبحثون عن الأسهل الأيسر الأكثر عطاء للراحة والاسترخاء والرضا عن كل شيء لا يستطيعون ولا يجدون غيره؟.. عن كل شيء يريدونه ويفعلونه؟

هل كانوا في ذلك بل وفي كل شيء مستجيبين لاقتناعهم ورؤاهم وأخلاقهم أم لإرادتهم وضعفهم واسترخائهم وهربهم وهوانهم وتبلدهم؟

هل كان شعارهم لن نؤمن حتى نعرف أم كان لن نعرف لأننا لن نؤمن لو عرفنا.. لا نريد أن نعرف لأننا نريد أن نؤمن؟

ماذا كان محتوماً أن يحدث أو أن يكون قد حدث في عالمنا العربي أو في كل العالم أو في كل الكون وفي كل كون لو لم يكن يفعل أو يراد أو يقبل أو يرضى إلّا الأفضل الأعقل الأنبل الأذكى الأتقى الأقوى.

وليس الأسهل الأيسر الأبلد الأجهل الأكثر عطاء للراحة والاستسلام والكسل والرضا والاقتناع بما يراد ويريح الاقتناع به؟

حتى الإله أو الآلهة هل تريد وتفعل الأفضل الأعقل الأنبل الأتقى الأنفع أم المناقض لذلك؟ هل هي تفعل وتطلب ما تريد أم ما يعقل ويقبل ويرضى ويفترض وينبغي وما يراد ويطلب وينتظر منها؟ هل كان يمكن أن يكون قد جاء شيء في هذا الكون كما جاء لو كانت الآلهة تفعل الأفضل الأنبل الأعقل؟

.. ماذا كان يمكن أن يوجد أو أن يبقى للإنسان من آلهته أو أنبيائه أو أديانه أو عقائده أو

معابده أو محاريبه ومنابره أو كعباته أو مزاراته أو مقدساته لو كان لا يقبل أو يعتقد أو يريد أو يختار أو يحترم أو يفعل إلّا الأعقل الأنبل الأفضل الأنفع الأتقى الأذكى بعد المحاسبة الصادقة بالعقل والقلب والرؤية والتجربة والتقوى والأخلاق؟ هل يقبل الإنسان أن يرى شيئاً من وجوه آلهته أو إلهه لو كان لا يرى أو ينظر إلّا بشيء من المحاسبة أو المحاكمة أو المساءلة أو الاشتراط بالعقل أو الأخلاق أو بشيء من البحث عن الجمال أو النبل أو الوقار أو الذكاء؟

إذن هل الناس يسارعون بكل الحماس والتعصب والجنون إلى الإيمان بالآلهة والأنبياء والأديان وبسائر المعتقدات لأنهم عقلاء فضلاء نبلاء أذكياء أتقياء أقوياء أم لأنهم عاجزون مسترخون مستسلمون هاربون من أنفسهم.. من مواجهتها ومن التعامل والتحاور والتساؤل والتفاهم معها ومن محاسبتها وقراءتها ورؤيتها؟

ماذا لو وجد هذا السؤال وماذا يمكن أن يكون جوابه؟ كيف لم يوجد؟ إنه الهرب من الفهم والرؤية..!

❀ ❀ ❀

ليت العقل لم يوجد إن كان قد وجد ليكون مهزوماً ذليلاً ضائعاً أمام كل أعدائه ومناقضيه ومذليه ومستعبديه.. وهل وجد إلّا ليكون كل ذلك بكل صيغ وتفاسير الافتضاح؟

وليته إذ وجد ليكون هو القائد والمعلم والهادي بل والإله لكل أحد ولكل شيء أو لنفسه فقط أي إن لم يكن كل ذلك لكل أحد ولكل شيء..!

ليت العقل إذ جاء جاء شجاعاً صادقاً وفياً مخلصاً لنفسه وإلّا ليته لم يجيء..!

ولكن هل وجد مهان مقود مسخر معلم محكوم مطيع بكل الإذلال لكل ما يناقضه ويهينه ويشتمه ويحقره ويشوهه مثل العقل؟

لقد جاء أي العقل أعظم وأقوى وأذكى وأفضل شيء ليكون كل النقيض لكل ذلك..!

كل الرثاء والعزاء لك أيها العقل يا أشهر مقهور مهان..

.. يا أشهر مسخر لإذلال وقهر نفسه ولفضح وظائفه..

ما أقبح وأفجع أن يكون أعظم وأقوى وأذكى شيء في الإنسان أي عقله هو أضعف وأجبن وأغبى وأردأ وأكذب وأذل شيء فيه بل وأضل شيء فيه..!

إن الإنسان لن يقبح أو يتعذب كل قبحه وعذابه لو لم يصب بعقله هذا الذي هذه الأوصاف بعض أوصافه..!

.. بعقله هذا الذي ابتكر وصنع كل الأسلحة وأفتك الأسلحة وابتكر وصنع له كل هذه الآلهة والأنبياء والأديان والمعتقدات والانتماءات والانقسامات والتعاليم والمذاهب والأوطان والقوميات، ثم علمه وأمره أن يختلف ويتعادى ويتخاصم ويتلاعن ويتقاتل بكل الجنون والسفه والدوام والخراب

والتخريب والقسوة والوحشية بهذه الأسلحة التي وضعها في يديه تحت شعارات الدفاع عن هذه الآلهة والأنبياء والأديان والمعتقدات والانتماءات والانقسامات والتعاليم والمذاهب والوطنيات والقوميات التي ابتكرها وصنعها له وعلمه الإيمان بها والتعصب لها ليوقع بنفسه وبكل شيء كل هذا الموت والدمار والذعر والجنون الدائم.. كل هذا الجنون الذي لم يصنعه ويعلمه ويهب القدرة على تنفيذه إلّا هذا العقل.. هل علم أقصى درجات الجنون وعلم تنفيذها غير العقل؟

أليس العقل قد حول الإنسان والإله إلى أكبر مجنونين في هذا الوجود بما يفعلان؟

هل كان يمكن أن يبتكر ويصنع الإنسان هذا أو هذا أي الأسلحة القتالية التدميرية أو أسبابها أو كان يمكن أن يتخاصم ويتعادى ويتبارز ويتقاتل بهذه أو هذه لولا عقله هذا؟! إن العقل هو المبتكر الصانع لكل السلاح ولكل أسباب ومنطق وظروف التعامل بالسلاح..!

كفى العقل آثاماً وقبحاً أنه لولاه لما وجد إبليس ولا الجحيم.. ففي أحد التفسيرين أنه أي العقل هو الذي تصورهما وابتكرهما وهدد بهما تخيلاً وإرهاباً ورهبة وغباء وكذباً ولأسباب أخرى..!

أما التفسير الآخر فيقول: إنهما أي إبليس والجحيم قد وجدا أو أوجدا ليكونا عقاباً وابتلاءً وامتحاناً وزجراً لمن أصيبوا بالعقل أي للبشر..!

إذن لولا العقل لما وجد الأبالسة والشياطين ولا أهوال الجحيم بأي تفسير من التفاسير ولا لأي سبب..!

إذن كم تساوي شرور العقل وآثامه وسيئاته إذا كان الشيطان والجحيم هنا إحدى سيئاته وآثامه وشروره؟

هل عرفت أيها العقل هذا أي إن الجحيم والشيطان إحدى عطاياك؟

والمفروض أن تعرف أيها العقل أن هذا الهجوم عليك ليس هجوماً من غيرك عليك بل هو هجوم منك على نفسك، فإن كان ذنباً فهو أحد ذنوبك..!

❀ ❀ ❀

وبكل التفاسير والرؤى والصدق أيهما أحق بأن يوصف بالعقل والعاقل: الكائن الذي تخلق فيه ما يسمى بالعقل ليفعل به وبكل شيء ما فعله عقل الإنسان بالإنسان وبغيره، وما فعله عقل الإله بنفسه وبغيره وبكل أحد وبكل شيء من أهوال وعذاب وبشاعات وعبث وشرور وأخطاء وخطايا لا يستطيع أي شيء إحصاءها، أم الكائن الذي جاء بريئاً مما يدعى بالعقل ليكون بريئاً براءة مطلقة دائمة بل معصوماً عصمة ذاتية أبدية من أن يفعل أو يريد أن يفعل أو يستطيع أن يفعل شيئاً مما فعله ويفعله الإنسان بنفسه وبغيره أو مما فعله وسوف يظل يفعله أبداً الإله بنفسه وبكل أحد وكل شيء؟

هل يستطيع أو يقبل الإله أن يفعل كل ما فعل أو حتى شيئاً مما فعل لو كان بلا عقل أو لو كان بعقل خارج على عقله وعلى كل عقل؟

كيف لم يوجد من سأل أو يسأل هذا السؤال الذي يجب ألا يختلف الجواب عنه أو فيه أو عليه؟

أليس المصابون بالعقل أي بما يدعى بالعقل هم الفاعلين لكل ما هو خروج على كل عقل ولكل ما هو تحقير لكل عقل كالبشر وكالآلهة وأعوان وموظفي الآلهة؟ هل يوجد خارجون على العقل مثل الموصوفين بأنهم كل العقل والعقلاء..؟

هل يمكن أن يفعل أي كائن بريء من العقل أي شيء من هذه الأخطاء والخطايا والفظاعات والحماقات المغرقة والمغطية لكل هذا الوجود التي يفعلها الإله والإنسان العاقلان أي لأنهما عاقلان؟. هل يوجد في هذا الوجود فاعلون لأفظع وأشنع وأقبح الإجرام والجرائم غير أو مثل الموصوفين بالعقل والعقلاء أي الإله والإنسان؟ إذن أليس الإله والإنسان هما أخطر مجنونين في هذا الوجود لأنهما العاقلان فيه؟

والمنتظر ألا يسخر أو يتعجب من هذا من لم يرزقوا الإيمان لأن المراد أن يكون المخاطبون به هم الذين رزقوا أعلى وأعنف درجات الإيمان..!

ولكن هل المؤمن يخاطب أو يقبل أو يجدي أن يخاطب أو لا يعادي ويقاتل ويلعن من يخاطبه ويراه كل أعدائه ومضلليه أي وكل مريدي ومدبري تضليله لأن المخاطبة لا تكون إلّا للعقل بالعقل؟ إنه لا يحذر العقل ويقاطعه مثل المؤمن القوي الإيمان خوفاً على إيمانه..!

أليس المؤمن كائناً قد ختم وطبع وأغلق على عقله بل وطارد وقاتل وقتل عقله بعد أن رآه واعتقده وأعلنه كل أعدائه، كل خادعيه ولصوصه وأبالسته وقائديه إلى الجحيم وإلى كل الشرور والغوايات والآثام؟

إن أي مؤمن لا يفعل بعقله ويرؤاه كل ذلك لن يظل مؤمناً ولن يقبل أن يكون مؤمناً..!

حتى الإله إنه لو لم يفعل بعقله ورؤاه كل ذلك فلن يؤمن أو يظل مؤمناً بنفسه.. لا بوجوده ولا بأية فضيلة أو قيمة أو مزية أو نفع أو شهامة أو كرامة أو مصلحة له أو لأي كائن آخر في أن يوجد كما وجد أو كيفما وجد ويوجد..!

ولهذا فإنه لم يوجد مخاصم محارب مفسد للعقل غير الإله والإنسان أو مثلهما، ولهذا أيضاً جاء العقل كل خصوم العقل أو أعنف خصومه بالترويض والإذلال والتطويع.!

إنه لا شقاق مثل الشقاق بين الإيمان والعقل أي الذي لم يتحول إلى أشهر خائن لنفسه وخارج عليها بعد استسلامه لكل ما يناقضه..!

ارحموا الإله.. انقذوه.. برئوه..
نداء استغاثة إلى كل العالم

ظل البشر أفراداً وجماعات ونظماً ومذاهب وعقائد وأدياناً في كل أطوار وجودهم ـ ظلوا ولا يزالون وسوف يظلون يعلمون الرحمة والاحترام ويشرّعونهما ويضعون لهما وفيهما التعاليم والعظات بل والأديان ويمجّدون بل ويقدسون الالتزام بهما ومقاساتهما بالقلب والفكر والضمير وبكل العواطف والنيات والتفاسير ويرونهما ويجعلونهما أعظم الفروق أو من أعظم الفروق بين الإنسانية والحيوانية وبين التقدم والتخلف والنبل والنذالة والحضارية والهمجية والتقوى والفسوق، ولا يرون أو يعلنون مثل فقدهما فقداً لكل المعاني الشريفة الكريمة العظيمة..!

حتى أن البشر ليرون ويعلمون أن أعظم وأتقى وأشرف وأنفع وأوسع صفات إلههم أو آلهتهم صفة الرحمة والاحترام لمن ولما يستحق ذلك..!

وموقفهم هذا من الرحمة والاحترام بدءاً وتفسيراً راجع إلى أنهم هم محتاجون إلى ذلك مهما كانوا.. محتاجون من حيث التصور العام المطلق ومن حيث الرؤية العامة المطلقة لكل الظروف والحالات إلى أن يعاملوا بهما أي بالرحمة والاحترام، حتى أن أكثر الطغاة طغياناً وقسوة ووحشية لا يستطيع أن ينكر أو يرفض الرحمة والاحترام أو الالتزام بهما من حيث العموم والإطلاق مهما جاء تفسيره ورؤيته وتطبيقه لهما وتعامله بهما..!

حتى أن أشرس الطغاة الفراعين الذين يمارسون بكل النشوة والفظاظة والكبرياء كل الوحشيات والتحقير والإذلال لكل شيء ولكل أحد بكل الأساليب والتفاسير لا بدّ أن يزعموا ويعلنوا أنهم إنما يفعلون ذلك تحقيقاً للرحمة والاحترام وبحثاً ودفاعاً عنهما وإيماناً بهما ومقاومة لأعدائهما..

ومن أقوى الدلالات على عمق إيمان الإنسان بالاحتياج إليهما.. إلى الرحمة والاحترام وإيمانه بأنه لا إنسان بدونهما أن ذهب يزعم أن كل ما يريد ويدبر ويفعل إلهه أو آلهته من قسوة ووحشيات وتشويه وتعذيب وقتل وإسقام وتجويع وتعجيز وإذلال وإرهاب وتشريد وإرمال وإيتام وفضح وأخطاء وخطايا وإيقاع كل ذلك وكل شيء مؤلم ومحزن ومهين وفاضح ومعوق بكل شيء وبكل أحد إما واقعاً أو متوقعاً أو منتظراً محتوماً مجتمعاً أو مجزأ.

ـ نعم، أن ذهب يزعم أن كل ذلك ليس إلّا أعظم وأقوى وأتقى وأشمل صيغ ومعاني الرحمة والحنان والحب والاحترام والتكريم والإعزاز والعطاء لمن فعل ويفعل بهم كل ذلك بكل الجهر والإصرار والرغبة والشهوة والنشوة المتفوقة على كل مستويات وأطوار وتفاسير الجنون.. إنه ليزعم أن

كل من لم يعتقد أن التشويه والتعذيب اللذين يوقعهما الإله هما كل الرحمة والمحبة والاحترام فهو زنديق..!

.. بل لقد حوّل زعمه هذا عن جرائم إلهه أو آلهته.. حوّله إلى نبوات وأديان وشرائع وتعاليم وكتب منزّلة مقدسة تفسر وتعلم ويتعبد بها ويكفر ويعادى ويقاتل ويقتل كل من لم يؤمن بها كل الإيمان والالتزام وكل من لم يرها كل العقل والرحمة والحكمة وكل الممكن والمستطاع بل وكل الجمال.. هل جاءت الأديان والنبوات أو أنزلت الكتب المقدسة إلّا من أجل ذلك.. من أجل تقديس الإله والحديث عن رحمته كلما قتل أو ضرب أو لطم أو شوّه أو أمرض أو أغرق أو أهان؟

ولكن هؤلاء البشر الذين خلقوا وجاؤوا أو ولدوا وعاشوا ويعيشون وذهبوا ويذهبون وماتوا ويموتون بالرحمة والاحترام ومن أجلهما وإليهما وبكل تفاسيرهما وصيغهما وأشواقهما وبالشوق إليهما كما يقولون وكما يقول المدافعون عنهم.

ـ نعم، ولكن هؤلاء البشر الواهبين للرحمة والاحترام والمطالبين بهما المريدين لهما قد برئوا وتبرؤوا من كل مشاعر وأخلاق وتقوى الرحمة والاحترام والتوقير في رؤيتهم وتفاسيرهم وفهمهم وتصورهم ومعاملتهم للإله.. لكل إله أعلنوه واعتقدوه وعاملوه وخاطبوه. لقد أوقعوا به كل فنون وصيغ ومعاني ولغات القسوة الموجودة والممكنة بل وغير الموجودة وغير الممكنة كما سبّوه وحقّروه وظلوا ولا يزالون وسوف يظلون يسبونه ويحقرونه بكل ما تستطيع كل اللغات أن تسميه وتفسره بأبشع وأفظع وأردأ السباب والتحقير بل وبكل ما عجزت كل اللغات عن أن تجد مثلهما سباباً وتحقيراً لتفوقهما على كل مستويات ولغات السباب والتحقير..!. حتى الأنبياء لقد تصوروا وشيّدوا الجحيم بكل أهواله الجنونية لمخالفيهم وخصومهم لأنهم كل الرحمة والحب..!

.. أما القسوة التي أنزلوها وينزلونها به أي بالإله المبرأة من كل نبضة رحمة أو إشفاق أو حنان أو معاتبة للنفس فهي اعتقادهم وإعلانهم بكل الجهر والمباهاة والديمومة والتعبّد أنه أي الإله أزلاً وأبداً بلا خلاص أو إنقاذ وبلا محاولة لذلك يرى ويسمع ويواجه ويساكن ويعايش ويعاشر ويعامل ويقرأ ويفسر كل هذا الوجود بكل ذاته ومعانيه وحواسه وأحاسيسه وأوقاته.

ـ كل هذا الوجود. كل آلامه وأحزانه وعاهاته وتشوهاته وأنّاته وآهاته وفضائحه وقبائحه وأوحاله وقاذوراته وفسوقه وزندقاته ولعناته وفحشه وعبثه وأخطائه وخطاياه وطغاته وفراعينه وأبالسته وشياطينه وكل ما يفجع ويروع ويعذب ويهين العقل والقلب والأخلاق والكرامة والتقوى.

ـ هي اعتقادهم وإعلانهم أي المؤمنين منهم أنه أي الإله مسجون ومحاصر أزلاً وأبداً بكل ذاته وصفاته ووجوده داخل هذا الوجود بكل آفاته هذه وغيرها وغيرها بلا أي بديل آخر وبلا إنقاذ أو فرار أو تخفيف أو تعويض أو استراحة أو استغاثة أو إغاثة..!

ثم اعتقادهم وإعلانهم أنه يصرخ أبداً مرسلاً الرسل والأنبياء ومنزلاً الكتب والأديان طالباً وراجياً أن ينال أو يعطى شيئاً من النصر على أعدائه المنتصرين عليه أبداً أو التخفيف من فداحة وديمومة هزائمه أو قدراً من التكافؤ والتعادل بينه وبين خصومه ومنافسيه ومطارديه ومحاربيه المذلين القاهرين له

أبداً في كل الميادين والمعارك والمبارزات والتحديات بكل صيغ وتفاسير التفوق الساحق الماحق حتى في المحاورات والمحاجات..!

إنهم يرونه أبداً كائناً متملقاً مستجدياً متضرعاً بكل أساليب المسكنة والتذلل مؤملاً أن يوهب شيئاً من الانتصار أو من التغطية على شيء من هزائمه الشاملة الدائمة.. إن أي كائن لم يذل ويقهر ويتعذب وتتحطم كل أسلحته في يديه حين مواجهته لعدو من أعدائه مثلما ذلّ وقهر وتعذب الإله وتحطمت كل أسلحته وهزمت كل قواه وجيوشه في مواجهته لعدوه إبليس أو الشيطان أي في رؤيتهم وتفاسيرهم له وتعاليمهم عنه.. إنهم كلما تحدثوا عن انتصار الأبالسة عليه شعروا بضخامة مجده وتمجيدهم له..!

وإنهم ليعتقدون ويعلنون أنه أي الإله تحت ضغوط حسراته التي أوقعتها به هزائمه وعذابه سوف يصنع حياة أخرى يصنع فيها جحيماً يعجز كل خيال عن تصور عذابه، وفردوساً يعجز كل خيال عن تصور أو تقبل ما فيه من تفاهة وبله وافتضاح وقبح وعار وسقوط ليخلد أكثر الناس أو كل الناس إلّا القليل، القليل في الأول وليخلد الأقلين في الثاني ليظل أبداً مواجهاً وحارساً لهؤلاء وهؤلاء بكل الحسرة والغيظ والشماتة واليأس والحرمان والاستمتاع القبيح النذل الفاجع القاتل السخيف البليد المصاب بكل بشاعات الشذوذ.. بكل شذوذ الشذوذ.. ليظل أبداً ينظر ويستمع إلى هؤلاء وإلى هؤلاء بلا فراق أو إنقاذ ولو بالموت، ولو بالعمى والصمم، ولو بتدمير فردوسه وجحيمه اللذين أرادهما وصنعهما تحت نوبة أصابته لا يمكن فهمها أو تفسيرها أو غفرانها.. دون أن يشارك هؤلاء في عذابهم أو هؤلاء في تفاهاتهم إلّا في الحسرات والنظرات والآهات والإنصات الحزين الذليل..!

.. ومن أقسى ما وصلوا إليه في قسوتهم على الإله وفي عصمتهم من كل عاطفة لرحمته وللرفق به والإشفاق عليه أنهم يحرمونه من كل الممارسات المشتهاة المعوضة والمخففة عن قبح وعذاب وتفاهة وعبث كون الموجود موجوداً وحياً. هل توجد ورطة أو غلطة أو قسوة مثل إيجاد الكائن ثم جعله حياً؟ فكيف بحياة كلها خسران وحرمان وهزائم وأحزان بلا أي تعويض؟

.. إنهم أي البشر أو المؤمنين يحرمونه ويحرمون عليه أن يستمتع أو يلتذ أو يسعد أو يفرح بأي شيء..

يحرمون عليه أن يأكل أو يشرب أو ينام أو يسترخي أو أن تكون له زوجة أو عشيقة أو صديقة أو أبناء أو أقارب أو أصدقاء أو زملاء أو معاشرون أو مجالسون أو محاورون مسلون أو نواب أو أن يتعاطى أي مهدىء أو منبه أو منوم أو مريح أو مفرح أو مقوٍ أو مداوٍ أو مسلٍ أو أية ألعاب أو سياحة أو إجازة أو أي شيء مما تحيا وتسعد وتتغذى وتقوى وتتجمل وتكبر به النفوس والعقول والأخلاق والعواطف والذوات بل والعضلات.. مما هو شيء من التعويض عن كون الموجود موجوداً وحياً. هل تكفي كل الأشياء تعويضاً وتكفيراً عن كون الموجود موجوداً وحياً؟

.. إنه الحرمان المطلق المغلق الذي لا خروج منه ولا علاج له الذي خصوا به هذا الكائن الذي سمّوه إلهاً.. خصوه به وحده دون أن تعاقبهم أو تعاتبهم أو حتى تحاورهم ضمائرهم أو عقولهم

أو أخلاقهم أو أي معنى من معانيهم أو أية موعظة من إيمانهم وتقواهم أو أن يحتج هو أو أن يفعل أي شيء غضباً وثأراً لنفسه وتعويضاً وعطاءً وعلاجاً لها من حرمانها البائس..!

إنهم لم يتساءلوا: إذن ماذا يكسب أو يستفيد من وجوده البائس الضائع ومن أدائه لأعماله ووظائفه والتزاماته الشاقة الفادحة الفاضحة المستحيلة المهينة التي لن يوجد من يستطيعها أو يقبلها أو يعقلها أو يغفرها أو يرضى حتى أن يقرأها أو ينشرها أو أن يسمع تفاسيرها أو إلى من يفسرونها.. إنه لو أمكن أن توجد لكل الأعمال والوظائف تفاسير لما أمكن أن يوجد لأي عمل أو وظيفة من أعمال الإله ووظائفه أي تفسير.!

إن كل منطق لو غفر لكل قاتل لما استطاع أن يغفر للإله القاتل مهما أراد الغفران له..!

.. هذه بعض ألوان وأنواع القسوة التي أوقعوها والتي لا يزالون وسوف يظلون يوقعونها بالإله دون أن يتعاملوا أو يتحاسبوا أو يتحاوروا بأي قدر من مشاعر الرحمة أو الرفق به أو من تأنيب الضمير أو من معاني الاحترام له..!

أما ما أوقعوا به من تحقير وتهوين وتلويث وسباب وإهانة فأكوان، أكوان من الأهوال، الأهوال..!

لقد قذفوه ورجموه.. قذفوا ورجموا كل وجوده، كل تاريخه وأخلاقه وعقله وقلبه وضميره وتخطيطه وتدبيره وإرادته ونياته وشهواته وعرشه وذاته وكل حواسه وأحاسيسه وماضيه ومستقبله بكل هذا الوجود. بكل ما فيه من حجارة وصخور وجبال وصحارى وبراكين وزلازل وقحط ومجاعات وموت وتشوهات وأوبئة وآلام وآثام وأوحال وأحقاد وحماقات وبلادات وجنون وحروب وسيوف ورماح وخناجر وسكاكين وخراب ولعنات وعداوات وجراثيم وحشرات وأخطاء وخطايا ومن كل ما يفجع ويقتل ويذل ويروع كل العيون والآذان والعقول والأخلاق والإيمان والتقوى والحواس والأحاسيس والضمائر والقلوب..

لوثوه، لوثوه.. لوثوا كل ذاته وكل معانيه بكل ذلك..!

لقد بصقوا كل ذلك عليه وجعلوه كله بصاقه وغذاءه وشرابه وعطره وسكره وفخره وغناءه ورقصه وحبه وفرحه ومجده وصلواته وعباداته ومسلاته وملهاته وهمومه واهتماماته. إنه حينما يشوه وجهاً بريئاً جميلاً إنما يغازل ويراقص ويلاعب ويمجد نفسه وقدراته وعبقرياته.

.. جعلوه كل إرادته وقدراته وعبقرياته وشهواته وعلومه ومنطقه وحكمته ورؤيته وقراءته وذكائه وتصوره وتطلعه وطموحه وأبعد خطواته وأشواطه وتحديقاته وحساباته وإلهاماته وهباته ونخواته..

.. جعلوه كل ذلك وكذلك تصميماً وتنفيذاً وإصراراً وتعليماً ودعاية وديناً وتعبداً..

إذن هل يستطيع أي كلام بل أو كل الكلام أن يكون شيئاً من التعبير عما في ذلك من التحقير والتعيير والسباب والإهانة للإله المسكين المظلوم الملقى والمستفرغ عليه كل هذا دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه حتى ولا بالكلام أو بالصراخ أو البكاء أو الأنين أو بالتمني..

.. إنه لا يوجد في كل العاجزين عن أن يدافعوا عن أنفسهم بأي أسلوب من أساليب الدفاع

عن النفس مثل الإله. إنه الكائن الذي يلقي عليه كل أحد كل غبائه وسخفه وعفنه دون أن يقول شيئاً.!

.. إن كل التحقير والتعيير والسباب والاتهام والهجاء الذي تعامل ويتعامل به البشر بل وغير البشر لن يساوي شيئاً مما ألقي ويلقى واستفرغ ويستفرغ دائماً من ذلك على ذات الإله المستسلم أبداً لكل ما يرجم به ويقذف عليه ويقذف به دون أن يجد مدافعاً أو حتى رائياً.. إنها لتشبه المؤامرة العالمية الشريرة على هذا الكائن الفريد في عجزه.!

كيف أمكن ألا يعرف ذلك كل أحد مهما كانت عالمية الغباء والتغابي؟ أجل، إن الغباء والتغابي عالميان أبديان..!

إن أي كائن مهما كان قبحه ووقاحته وجرأته على الكذب وقول الفحش لن يجرؤ على اتهام أحد مهما كان فساد ووحشية وجهالة وعدوانية هذا الأحد بواحدة من هذه البشاعات المالئة لهذا الوجود والملقاة كلها بلا أية رحمة على رأس هذا الإله الذي تآمر واتفق وأجمع كل البشر على أن يلقوا فوق رأسه كل بشاعات وقبح وآثام وآلام وبلادات وعار كل هذا الوجود وعلى ألا يحاولوا حمايته أو تبرئته أو الاعتذار إليه. إنهم إما هؤلاء أو هؤلاء.!

قد يقال إنه لا تحقير ولا اعتداء ولا ظلم ولا قسوة على أحد أو لأحد في هذه القضية لأنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد هذا الأحد ليكون ممكناً إيقاع شيء من ذلك به..

إن الموجود هنا هو اسم الإله وليس الإله نفسه. ومحاربة وسب واتهام وتحقير الأسماء التي لا مسميات لها هل يمكن أن تعني شيئاً أو تؤذي أحداً أو أن يحاسب أو يؤاخذ الفاعل لذلك؟

إنه رأي قد يقال ويسمع وقد يقبل أو يخفف من الذنب..!

.. لكن أليس من يسب أو يحقر أو يتهم اسماً ليس له مسمى معتقداً أن له مسمى وأنه إنما يعني المسمى يعدّ مذنباً ومعتدياً بنياته وعقله وأخلاقه وفي كل حساباته، كما أن من ضرب شبحاً أو أطلق السلاح عليه مريداً قتله ومعتقداً أنه قد ضرب أو قتل إنساناً أو كائناً آخر حقيقياً يعد فاعلاً لذلك بمعانيه فهو آثم المعاني. ومعنى هذا أنه مستعد أن يفعل آثامه هذه.. أن يفعل الآثام واقعاً وليس معنى ونية وإرادة فقط؟

إن المعتدي بشتائمه على اسم بلا مسمى معتقداً أنه يوجد من يشتم يعد مذنباً ومعتدياً وشاتماً بكل تفاسيره..

إن من سرق أوراق عملة زائفة ظاناً أنها صحيحة يعد سارقاً.!

.. والقضية هنا مختلفة عن كل القضايا. إنها قضية بلا مثيل ولن يكون لها مثيل.. إنها تقول: هذا الكائن لن يمكن أن يكون بريئاً إلّا ببراءته من وجوده.. من أن يكون موجوداً.

إنه أي هذا الكائن أي الإله أما أن يكون مجرماً ومخطئاً وضالاً كل الجرائم والأخطاء والضلالات الموجودة والتي قد توجد والتي لا بدّ أن توجد وأما ألا يكون موجوداً.. إنه لا يوجد ولن يوجد حل أو تفسير آخر..

إنها إذن قضية بلا مثيل أو شبيه كما أن صاحبها بلا مثيل أو شبيه في أي وصف من أوصافه لخروجها على كل ممكن أو معقول..

.. لهذا أصبح محتوماً أن يكون المؤمن متهماً للإله بكل الجرائم والفضائح والدمامات والتشوهات والتشويهات والأخطاء والفواحش والضلالات والزندقات وبكل الشرور والآلام والحماقات والمظالم الكائنة والتي سوف تكون، أي بالإرادة والتخطيط والمعرفة السابقة بل وبالفعل والشهوة، بل أصبح محتوماً أن يمدحه ويمجده ويتعبد له ويتقرب إليه ويشتري رضاه وفردوسه باتهامه له بكل ذلك..!

لقد سقط أي المؤمن في أقسى وأعصى ورطة بلا خلاص.. إنه لن يستطيع أن ينفيه أي ينفي الإله ليكون بريئاً ومبرأ من كل ذلك ثم لا يريد ولا يقبل أن يكون متهماً له أي اتهام مسيء، بل ثم يكون مصراً على أن يمجده ويقدسه كل التمجيد والتقديس، وواصفاً له بكل أوصاف الجمال والكمال اللذين لم يوجدا ولا يمكن أن يوجدا..!

لقد كان مستحيلاً الجمع بين هذا وهذا أي بين الإيمان بوجود الإله وبين تبرئته من أية نقيصة أو جريمة أو خطأ أو عبث أو حماقة أو بلادة أو جهالة..!

إذن ما الحل؟ لقد جاء الحل فاجعاً مؤلماً مهيناً. لقد رأى أن يصيب نفسه أي المؤمن أو أصابها دون أن يرى بكل البلادة والتبلّد والعمى والغفلة، لقد حول كل حواسه وأحاسيسه وأخلاقه وعقله وكل تعبيراته ومعانيه إلى أجهزة تزوير لكي يستطيع أن يؤمن ويعلن أن كل ما في هذا الوجود من جرائم وفحش وقبح وضلال وظلام وظلم وجنون وعبث وعدوان وسخف وبلادات وحماقات وتفاهات وسيئات هي كل النقيض وأقوى النقيض لكل ذلك لكي يتحول إلى ممجّد مادح مقدس عابد مرضٍ سار مسعد للإله بإيمانه وإعلانه بأنه المريد المدبر المخطط العاشق الفاعل لكل ذلك بدل أن يكون هاجياً ساباً معيراً محقراً متهماً له حين جعله وأعلنه المريد والمدبر والفاعل لكل ذلك ولكل شيء بكل الإعجاب والمباهاة والرضا عن الذات وعن عبقرياتها المصممة والخالقة والصائغة المخرجة لجرثومة الوباء وللحشرة وللعاهة والتشوه في الوجه الجميل البريء بكل هذا الإتقان والقوة والديمومة والإصرار وبأقوى مشاعر الامتنان المطالب بكل الشكر على ذلك للمريد المخطط المصيب بذلك وبما هو أكثر قبحاً ووحشية ونذالة وخبثاً ولؤماً من كل ذلك. إن جرائم كل المجرمين وحماقات كل الحمقى وأخطاء وخطايا كل الخاطئين والمخطئين لن تكون شيئاً محاسبة بجرائم وحماقات وأخطاء وخطايا من زعم وأعلن المخطط والموجد لكل هذا الوجود..!

❀ ❀ ❀

العجب كل العجب، والأسى كل الأسى، بل الفجيعة كل الفجيعة أن البشر في كل تاريخهم الطويل الأليم الحزين الفاجع الضائع، المتحرك الساكن، الذكي الغبي، القارىء الكاتب الأمي، المؤمن الكافر، المدني البدوي، الإنساني الهمجي.. وفي كل أطوارهم الحضارية..

ـ نعم، كل العجب والأسى والفجيعة أن البشر في كل حالاتهم وأطوارهم المتعاقبة المتحاربة المتصادمة، المنتصرة المنهزمة، الصاعدة الهابطة، المتناقضة بكل القسوة والإيلام والبؤس لم يفعلوا أي شيء لعلاج هذه القضية أو لتصحيحها بل إنهم لم يفطنوا إليها أو يروها أو يقرؤوها أو حتى يتحدثوا عنها..

.. لم يفعلوا أو يحاولوا أو يفكروا أن يفعلوا أي شيء لإنقاذ هذا الكائن الضائع الغائب الصامت الساكن العاجز المجهول أبداً المسمى إلهاً.

ـ لإنقاذه من رميه وقذفه ورجمه وشتمه واتهامه وتلويثه وتشويهه ومن الاستفراغ والبصق عليه وعلى كل معانيه وأخلاقه بكل ما في هذا الوجود وكل وجود من أوحال وقاذورات وآلام وآثام وعاهات وتشوهات وأخطاء وخطايا ونقائص وتفاهات وزلازل وبراكين وصخور وأحجار وبصاق واستفراغ وأحزان ودموع وأنات وآهات ولعنات وبغير ذلك وبأكثر وأقبح من كل ذلك مما في هذا الوجود وفي كل وجود.. لإنقاذه من أن يكون المريد المدبر المخطط العاشق الفاعل لكل ما يكره ويرفض وينكر ويشتم ويحتقر ويعاب ويعاقب عليه..!

أليس هذا الكائن المسمى إلهاً يرمى ويقذف ويرجم ويشتم ويتهم ويلوث ويشوه ويبصق ويستفرغ عليه بكل ذلك وبغير ذلك من القبائح والفضائح بلا مدافع أو راحم أو راثٍ أو باكٍ أو مواسٍ أو معزٍ أو مستنكر؟

مأساة هذا الكائن أن مادحيه ومعظميه هم كل ذاميه ومحقريه وشاتميه..!

.. مأساة هذا الكائن.. الإله مأساة يضيق ويشقى ويتشوه بها هذا الكون وكل كون أي في الرؤية التي رآه بها المؤمنون به..!

وأيضاً لم يفعلوا أي البشر أي شيء لإنقاذ كل من فعلوا به كل ذلك ورأوه وأعلنوه كل ذلك زاعمين أنهم يعبدونه ويكرمونه ويضخمونه ويرضونه ويشترون عرشه وسماءه وفردوسه وحورياته وغلمانه بأن يفعلوا به ويروه ويعلنوه كل ذلك..

.. بأن يعلقوه فوق كل المشانق ويلقوا به فوق كل المزابل..!

.. لم يفعلوا أي شيء لإنقاذ وتصحيح عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم وتصوراتهم ورؤاهم وإيمانهم وتقواهم وتدينهم من هذا السقوط والوحشية والتحقير والسباب والعدوان على هذا الكائن البريء الذي لا يستطيع أن يصحح أو يجمل أو يبرىء نفسه أو يدافع عنها لا بالسلاح ولا بالحوار والمنطق ولا بإظهار ذاته لترى بريئة ونظيفة من كل الأوحال والتشوهات والدمامات المغطاة بها الملقاة فوقها.. إن من لا وجود له لا حدود لتحمله لما يلقى عليه ويتهم به.!

أليس غريباً جداً أن غير الموجود يتحمل ما لا يستطيع أن يتحمله الموجود؟

.. ومن مآسي هذا الكائن أي الإله أن أقوى وأصدق الناس إيماناً به وولاء له أو تظاهراً بذلك هم أكثر الناس وأقواهم هجاء وسباً وتحقيراً وتشويهاً واتهاماً له بكل ما يرفض كل الناس حتى أفجرهم

وأفسدهم وأهونهم وأجهلهم وأغباهم وأطغاهم أن يكون متهماً بشيء منه. إن أي نبي ليقاتل لو وصف بالأوصاف التي جاء ليجعلها أشرف أوصاف إلهه.!

هل يقبل أي كائن مهماً كان قبحه وفحشه وخسته ونذالته وجهله وافتضاحه وخبثه وهمجيته أن يكون هو رب ومعلم وإله ومربي وقائد الحشرات أو الجراثيم أو الموت أو الأوبئة أو الشيخوخة أو التعجيز أو التعويق أو التجويع أو العاهات أو التشويهات والتشوهات أو الجنون والبلاهات أو الزلازل أو البراكين أو الصحارى الجائعة الظمأى أو الطغاة والفراعنة أو الفاسدين المفسدين المخربين أو الأنذال والأوغاد أو الأشرار أو السفهاء أو الخبثاء أو كل البدايات والنهايات لكل أحد وكل شيء؟

- نعم، هل يقبل أي كائن مهما كان انحطاطه وشروره أن يكون ذلك بل أو أن يتهم به؟

إن كل الأنبياء والأولياء والقديسين والشهداء ليفضلون الموت قتلاً أو اختناقاً أو بأية نية أو غرض أو أسلوب آخر إن كان البديل أن يوصفوا ويحيوا أوصاف الإله..

إراداته وتدبيراته ومشيئاته وشهواته ونشواته وخبطاته وضرباته وألعابه الصائغة المخرجة لكل هذا الوجود ولكل ما فيه ومن فيه كما جاء ويجيء وأن يقاسوا كل حرمانه..!

ولكنهم أي الأنبياء والأولياء وكل المؤمنين الصالحين الأتقياء يلقون ويبصقون كل ذلك فوق رأس الإله بكل مشاعر ونيات وحوافز الإيمان والتدين والتقوى والرضا والحب والعشق والتقديس، ويرون من لم يفعلوا ذلك ويؤمنوا به ويعلنوه بل ويتعبدوا به ليسوا إلّا زنادقة يستحقون أقسى الحساب والعقاب..!

هل يقبل أي نبي أو مؤمن تقي أو حتى فاسق أن يكون هو مشوه هذا الوجه أو فاقيء هاتين العينين أو مصيباً لهاتين اليدين وهاتين الرجلين بالشلل أو لهذا الكائن أو لهذا الإنسان بالعجز التام أو بالدمامة التامة أو بالهوان والحقارة الشاملين الدائمين أو بكل العته والجنون والضلالة والغواية والفساد، أو أن يكون هو مريد ومخطط وخالق كل الطغاة والفراعنة واللصوص والقتلة والمجرمين والفاسدين والخبثاء وكل الحشرات والجراثيم والأوبئة.. أو أن يكون هو مدبر ومفجر كل البراكين والزلازل والأعاصير وكل الفواجع والكوارث لاعباً متسلياً أو مخموراً غائباً عن الوعي أو شامتاً مستمتعاً برؤية وصنع العذاب والمعذبين..

أو أن يكون هو مريد وصانع كل اليتم والترمل والدموع والأنات والآهات والصرخات وكل أنواع الويلات.. أو أنه هو مريد ومقدر وفارض ابتكار وبناء وصنع المقابر والأكفان..؟

حتماً، إنه لا يقبل أن يكون أي شيء من ذلك أو أن يتهم بشيء منه ولكنه يعتقد أنه يهب إلهه كل التمجيد والتعظيم والحب والسعادة والعبادة والفرح والرضا حين يؤمن ويعلن أن إلهه كل ذلك ومريد وفاعل كل ذلك وكل السعيد الفرح حين يعايش ويواجه ويساكن ويرى ويسمع كل ذلك، بل ويحكم عليه بالسجن الكوني الأبدي داخل ذلك.!

أليس الإله مسجوناً بكل معانيه سجناً أبدياً داخل هذا الكون أي في عقيدة المؤمن؟

إذن هل يمكن أن توجد قضية تحتاج إلى الإنقاذ العالمي الكوني مثل هذه القضية؟

إنه إنقاذ لعقول كل العالم ولأخلاقه وعواطفه وتصوراته ولإيمانه وتقواه وتفكيره ولكل صيغ ومعاني تاريخه وحياته، وأيضاً إنقاذ لهذا الكائن المقذوف المرجوم بكل ذلك والملقى المحمول عليه كل ذلك دون أن يستطيع الحضور أو الظهور ليحتج أو يشكو أو يطلب البراءة والإنقاذ من الظلم الذي أوقعه به كل العالم والذي لا يساويه كل ما في العالم وما في كل عالم من أنواع وألوان الظلم..!

المؤمن بالإله مجنون جنوناً لا يستطاع تشخيصه أو علاجه وإلّا كيف يؤمن ويعقل أنه يعبد ويكرم إلهه حين يراه ويعلنه هو المريد المخطط الخالق لكل الفحش والقبح والجنون في هذا العالم وفي كل عالم؟

❁ ❁ ❁

والآن في هذه الفترة من التاريخ التي لم يأت مثلها في قوتها وضعفها أو في سعادتها وشقائها أو في تقاربها وتباعدها أو في تحالفها وتخاصمها أو في علمها وجهلها أو في ذكائها وغبائها أو في حضارتها وبداوتها، أو في أمنها وخوفها أي أو في مشاعرها بالأمن ومشاعرها بالخوف والخطر أو في رخائها وعسرها أو في جمالها وقبحها أو في إيمانها وكفرها أو في تقواها وفسوقها أو في سخائها وبخلها أي محاسباً الشيء بنقيضه... أي مقارناً أدناها بأعلاها..

في هذه الفترة التاريخية التي ماتت فيها هناك كل الآلهة بلا تشييع أو احتفال أو عزاء أو أسى أو أمل أو رغبة في أن تبعث بل وبلا خوف أن تبعث وتحيا لأنها لن تفعل. هذا هناك، هناك.

أما هنا أي عندنا أي نحن أي في هذه الفترة التاريخية الصعبة المتناقضة كل التناقض وأقسى التناقض فإننا نريد بكل أساليب ومعاني الإرادة أن يهزم ويطارد ويطرد ويموت كل شيء وكل أحد وكل عقل وفكر وخلق ورؤية وعاطفة وكل سلوك جيد وذكي وكل معنى جيد وذكي بل وكل تدين صحيح صادق نظيف عاقل حر، وكل إبداع وتفوق وكل محاولة للانتقال من الأمس إلى اليوم الذي يحياه الآخرون أو إلى الغد الذي يقفز إليه الآخرون.

- نعم، إننا نريد ونعمل بكل طاقاتنا الضالة الضائعة على أن يهزم ويذل ويطرد بل ويقاتل ويقتل كل هذا وكل شيء ليكون كل النصر والمجد والقوة والحياة والبقاء للإله لكي يكون كل المسبوبين والمحقرين والمعيرين والمحاسبين المعاقبين الملوثين المقذوفين المرجومين المشوهين المتهمين بكل ما يفجع ويصدم ويشتم ويهين ويعذب كل العقول والقلوب والرؤى والأخلاق والضمائر والمحاسبات والمساءلات في هذا الوجود وفي كل وجود..!

إن كل سب وتحقير وتعيير وقذف ورجم وتلويث وبغض وإذلال وإهانة وتهوين وهجاء واتهام وتصغير وتشويه لهذا الوجود ولكل من فيه وما فيه ولأي شيء منه لن يكون معنياً أو مقصوداً أو مراداً به إلّا المسمى المزعوم المعلن إله ورب وخالق هذا الوجود وكل وجود أو لن يكون مصيباً إلّا إياه أو مستحقاً له إلّا هو أو يجب ألا يكون إلّا كذلك أو لن يستطيع أن يرى أو يفهم أو يعتقد أو يقول

المنطق أو الأخلاق أو الصدق أو الرؤية أو أي حوار أو مساءلة أو ذكاء أو غباء غير ذلك.

إن من جرح أو قتل أو أهان أو حقر أو عير حشرة أو جرثومة أو وباء أو وحشاً أو حيواناً أو إنساناً أو أي كائن لعاهة أو بلادة أو تشوه أو عجز أو نقص أو تفاهة أو مهانة أو فجور أو فساد أو عدوان فيه أو لأية عيوب فيه جسدية أو معنوية فلن يكون فاعلاً أو موقعاً شيئاً من ذلك إلّا بمن يراه ويعلنه هو وحده المريد المدبر الخالق لهذا الكون ولكل شيء أي موقعاً فاعلاً ذلك بإرادته وتدبيره وتخطيطه وبعلمه وعقله وحكمته ورحمته وشهواته وأخلاقه ورؤاه وأهوائه وممارساته..!

إن من قال هذه الذبابة دميمة أو ذميمة أو ملوثة أو وقحة أو يجب قتلها بمبيد الحشرات فلن يعني بقوله هذا غير مصممها وفاعلها ومرسلها ومطلقها أي في كل التفاسير والرؤى والمحاسبات مهما جهل القائل ذلك. مهما كان جهله به..

إنه أقبح وأوقح عدو مهين شاتم لإلهه مهما جهل ذلك.. مهما جهل ما لا يستطاع جهله. إنه لا جهل مثل جهل من جهل ذلك.. من جهل أن عيوب وذنوب المخلوق هي ذنوب وعيوب للخالق وفيه..!

.. إن القضية هنا صعبة. إنها بلا مثيل وإنها لا علاج لها. إنها تقول بل تحتم وتقضي: إنه بقدر ما ينتصر ويقوى ويحيا ويوجد الإله يضعف ويهزم ويذل ويفقد الإنسان بكل معانيه الجيدة المنتظرة المتفوقة المبدعة، وإنه بقدر ما ينتصر ويقوى ويحيا ويوجد الإنسان المتفوق يصاب الإله وكل معانيه بالنقيض، بنقيض ذلك.. إنه لمحتوم أن يتحول صعود ومجد أحدهما إلى هوان وهبوط للآخر..!

نعم، إن هذين النوعين من البشر يتواجهان في هذه الفترة التاريخية أو إنهما يوجدان بلا مواجهة لأن المواجهة تحتاج إلى شيء من التكافؤ وهذا الشيء من التكافؤ مفقود وهل يمكن أن يوجد؟ إن المسافة الفاصلة بين طرفي الشيء أو بين أعلاه وأدناه تعظم بقدر ما يعظم الشيء ويتفوق في نوعه..!

❀ ❀ ❀

نعم، في هذه الفترة التاريخية التي لا تتذكر ذاكرة التاريخ مثلها في التباعد والتفاوت بين طرفيها أو نوعيها أو حديها أو شوطيها صعوداً وهبوطاً، تقدماً وتخلفاً، قوة وضعفاً، علماً وجهلاً، سعادة وبؤساً، غنى وفقراً.

.. في هذه الفترة التاريخية التي لم تر عيون الشموس ولا عيون النجوم بل ولا عيون الآلهة مثلها أي لو كانت عيون الآلهة ترى أو تستطيع أو يمكن أن ترى.

.. في هذه الفترة الكونية العالمية التي لم يكن مثلها في جميع الفترات الكونية العالمية التي عرفناها أو قرأناها أو قرأنا عنها أو حتى تصورناها أو تصورتها ألوهياتنا أو نبواتنا. وهل الألوهيات والنبوات تتصور؟ هل تقبل حينئذٍ أن تكون؟ ليت الألوهيات والنبوات تتصور أو تتألم أي لكي لا تجيء.. هذه الفترة التي لم يكن مثلها في أية صيغة أو معنى أو مستوى أو تفسير أو رؤية أو حساب من صيغها أو معانيها أو مستوياتها أو تفاسيرها أو رؤاها أو حساباتها أو همومها أو مسراتها... التي لم

يستطع أحد من آلهتنا أو أنبيائنا أو شعرائنا أو منجمينا أو كهاننا أن يتخيل أو يتمنى صورة من صورها أو يلقي في أمانينا ولو كاذباً خادعاً شيئاً منها.. من قفزاتها..

.. في هذه الفترة التي لم تستطع كل لغات وتصورات وتوقعات كل التاريخ بل وكل عيون التاريخ أن تتحدث عنها أو أن تراها أو أن تستطيع أن تراها بل أو أن تتمنى أو تريد أو تتوقع أن تراها..

.. في هذه الفترة الكونية التي أرهبت وأضعفت أضواؤها أضواء الشموس وأنزل صعودها الآلهة من فوق سمواتها وعروشها، بينما جعل هبوطها وظلّامها صغار الحشرات تقاسي من الكبرياء محاسبة هبوطها وظلامها بهبوطها وظلامها أي بهبوط وظلام هذه الفترة التاريخية الكونية أي الجانب الآخر منها لأنه بقدر ما يعظم صعود الجزء الأعلى من الشيء يتعاظم هبوط الجزء الأسفل أو الأدنى منه أو يبدو ويرى ويحسب كذلك.. كأن كل الأشياء محكومة بقانون ذاتي لم يوضع وإنما جاء أو تكون يقضي بأن يكون هناك دائماً نقيضان أو ضدان أو نوعان أو طرفان أو خصمان يتضاءل أحدهما بقدر ما يتعاظم الآخر كما يتضاءل الإله بقدر تعاظم الإنسان ويتضاءل الإنسان بقدر تعاظم الإله. هل حدث في التاريخ أن يتعاظم الإله والإنسان معاً في زمان ومكان واحد؟

.. ويعظم التفاوت والتباعد بين طرفي الشيء.. بين أعلاه وأدناه بقدر تفوق طوره أو نوعه ولهذا يكون هذا التفاوت والتباعد في الإنسان أقوى مما يكونان في الحيوان، ويكونان في أعلى الحيوانات أقوى مما يكونان في أدناها كما يكونان في الصقور أقوى مما يكونان في الغربان كما يكونان في الحيوانات أقوى وأعظم مما يكونان في الحشرات، كما يكونان في الشعوب الخلّاقة أقهر وأبهر مما يكونان في الشعوب المخلوقة.. إنه لا تفاوت أو تباعد مثل التفاوت والتباعد بين آحاد الشعوب العظيمة المبدعة الواهبة للحياة كل مزاياها..!

.. في هذه الفترة التي هذه الأوصاف بعض أوصافها.. هذه الفترة التي لم تبق للسماء ولا لسكانها ولا لشموسها أو نجومها أي مجد أو رهبة أو سر لا يمكن اقتحامه واكتشافه وتعريته وتفسيره وتصغير شأنه بعرضه ومعرفته والتحكم فيه..!

لقد أسقطت هذه الفترة كل الأسرار التي يعجز ويرهب اقتحامها..!

.. في هذه الفترة ألا يصحو العالم من غفلته الطويلة الأليمة ليفعل شيئاً في هذه القضية لإنقاذ وتبرئة هذا الكائن الذي سماه ويسميه إلهاً مما أوقع ولا يزال يوقع به في هذا التاريخ البائس الطويل، الطويل من كل ألوان وصيغ وتفاسير التحقير والتشويه والسباب والظلم والعدوان والقسوة..

باتهامه وإعلانه واعتقاده وحده المريد والمخطط والفاعل لكل ما كان ولكل ما هو كائن ولكل ما سوف يكون، والراضي المعجب الفرح السعيد به بل والعاشق المحب له بكل الجنون، والمادح لنفسه والمطالب لها بكل المديح.. المطالب لكل البشر بل ولكل أحد وكل شيء في هذا الكون وفي كل كون بأن يتحولوا إلى شعراء أذلّاء أخشاء ليصوغوا كل حياتهم وكل شيء قصائد امتداح وتعبّد وتملّق وتغزّل بلا حدود أو مقاييس أو ضوابط في هوانها وجهلها وبلاداتها شكراً له على ذلك على أنه

المتهم بلا شريك بأنه المريد العاشق المحب المصمم الفاعل المساكن المعايش المعاشر الرائي المواجه المصافح المعانق المبارك المضاحك المغازل الراعي لكل ما في هذا الوجود وكل وجود من آثام وآلام وإجرام وفضائح وقبائح وحماقات وبذاءات وسفاهات وعداوات وجهالات ودمامات وأبالسة وفراعنة وزنادقة وأوبئة وزلازل وبراكين وأعاصير وفيضانات ومجاعات وقحط وموت ومقابر ومآتم وهوان وخبث وضياع، ومن أنبياء وزعماء وقادة يوقدون ويخلدون الحروب والأحقاد والعداوات، ومن كل ما يصدم ويفجع ويجرح ويذل ويخجل ويفضح ويعذب كل عقل وقلب وخلق وحب وعدل ورؤية ورحمة وكرامة ونزاهة ونخوة وشرف وأمل وتوقع. إنه لا يوجد وجه أو قفا يصفع أو يلطم بكل المهينات والفاجعات مثل أو غير وجه وقفا هذا المتهم..!

.. إنه ليس في الإمكان أن يعرف أو يتصور أو يستطيع أو يفعل أو حتى يتمنى أي هذا الكائن المسمى والمعلن والمبايع إلهاً ما هو أحكم أو أرحم أو أقوى أو أذكى أو أعقل أو أجمل أو أنبل أو أعدل أو أشرف أو أكرم أو أنفع أو أنظف أو أصح مما أراد وخطط واستطاع وفعل.. مما كان ويكون وسوف يكون إذ ليس في الإمكان أبدع مما كان وإلّا لكان محتوماً أن يريد ويختار ويفعل هذا الأبدع..!

.. ليس في الإمكان أن يتصور أو يقبل أو يعقل أو يرضى أو يحب أو يريد أن تكون القملة أو النملة أو الذبابة أو الجرثومة المرضية أو العاهة أو الآفة أو التشوّه في الوجه الجميل البريء أو الخطيئة أو النذالة أو الدنيا أو الحياة أفضل أو أجمل أو أصح أو أذكى أو أصغر أو أكبر مما كانت أو غير ما كانت أو ألّا تكون لأن ما حدث ويحدث هو كل الكمال المستطاع. إنه لا يستطيع ولا يريد أن يفعل غير ما فعل أو أفضل أو أعظم مما فعل، كما أن ذاته وأخلاقه لا يمكن أن تجيء غير ما جاءت أو أعظم مما جاءت..!

نعم، ألا يصحو العالم ليكفر عن خطيئته المتفوقة على كل الخطايا مجتمعة ودائمة.. لينقذ ويبرىء هذا الكائن المحروم من كل الملذات والمسرات والمفرحات والطيبات المصدود المردود أمام كل الأبواب الواقف أمامها الداق لها بكل التضرعات والتوسلات.. الغريق المغرق في كل الأحزان والمحزنات والمهانات والمهينات والفاجعات.. المتهم الموصوف المفسر بكل الفواحش والآثام والموبقات أي مريداً عاشقاً مخططاً مديراً فاعلاً حامياً لها.

المحكوم عليه والحاكم على نفسه بأن يكون أبداً مفجوعاً محزوناً مصدوماً مهزوماً جائعاً ظامئاً راشياً متملقاً متضرعاً مرفوضاً مخدوعاً مكذوباً مغضباً مغيظاً، محترماً ممدوحاً معبوداً بالكلمات والهتافات والدعوات والنبوات، محقراً مذموماً مشتوماً مطروداً مكفوراً مهزوءاً به بالنيات والشهوات والمعاملات وفي كل الاتجاهات والمبارزات والمسابقات والمساومات. في كل الأسواق والنوادي والحواضر والبوادي.. في كل المدن والقرى..!

.. المحروم الحارم لنفسه من كل ما صنع وزرع وأنتج وأعطى وأطعم وخلق وحوّل إلى شهوات ولذات وإغراء وإغواء واستمتاع بالإرادة والتدبير والتخطيط والنضال والمعاناة بعقله وقلبه

وعواطفه بل وعضلاته ليكون لكل من سواه مقسماً تقسيماً خارجاً على كل العقل والعدل والحكمة والوقار..!

.. المحروم من كل إنتاجاته وإبداعه.. إنتاج وإبداع كل طاقاته المادية والمعنوية.. الجائع كل الجوع بكل معانيه وكينوناته وشهواته..!

.. الواهب كل الممارسات السعيدة الفرحة النشوى التي حرم وحرم نفسه منها.. حرمت وحرم منها كل أعضائه مع رؤى ومواجهات حواسه وأحاسيسه كل الأوقات لممارسات الآخرين لها بكل لغات وأساليب الإغراء والإغواء والتحريض..!؟

.. المشاهد بكل آلام الغيرة وحساسية الحرمان دون أن يشارك..!

ما أقسى أن ترى وتواجه كل الحواس والأحاسيس كل الممارسات اللذيذة المغوية المغرية المثيرة كل الأوقات ثم تحرم الأعضاء منها حرماناً شاملاً أبدياً كما هو حادث أبداً لهذا الكائن الذي نطالب له بالإنقاذ والتبرئة من نفسه.. من وجوده.. من اتهامه بالوجود.. من الحكم عليه بأنه موجود ليقاسي كل هذه الأهوال من العذاب والحرمان والقسوة والعدوان عليه والسب والهجاء والتحقير والظلم والاتهام له ومن البصق والاستفراغ لكل ما في هذا الوجود وكل وجود من أوحال وقاذورات وآثام وفحش ودمامات وعار ونقائص وحشرات وجرائم ومجرمين عليه.. على ذاته وأخلاقه وعقله وقلبه وضميره ووجهه وعينيه وعلى كل حواسه وأحاسيسه ومعانيه والتفاتاته واتجاهاته ويقظته الأليمة الدائمة الفاجعة الخاسرة الشقية.. يقظته التي هي أكثر وأعمق نوماً بل موتاً من كل نوم وموت.. التي ليس فيها من معاني اليقظة إلّا بلادة المواجهة وقبحها. إنه لا مستيقظ بلا أي يقظة غير هذا الكائن..!

.. عامل يعمل وينتج كل شيء ليقدمه إلى خصومه وأعدائه ومحاربيه وللخارجين المتمردين عليه وأيضاً ليقدمه إلى سابيه ومحقريه وللموقعين به كل الأذى والإذلال والإهانات والضربات ليسعدوا ويستمتعوا به دون أن يسعد أو يستمتع أو ينتفع هو بأي شيء من ذلك بأي أسلوب أو معنى من أساليب ومعاني السعادة أو الاستمتاع أو الانتفاع.. لا يأكل أو يلبس أو ينتفع أو يسعد أو يفرح أو يلعب بأي شيء مما صنع أو نسج أو زرع أو ربى أو رعى..!

وهل وجد هذا العامل البائس الذي لا يستطاع وصف شذوذه؟ إنه الكائن الذي يطالب العالم بأن يفعل أي شيء بل كل شيء لإنقاذه من نفسه وأيضاً لإنقاذ المؤمنين به المتهمين له بالوجود الموجدين له الحاكمين عليه بالوجود ليكون هو وحده الحامل والباصق والمستفرغ والمحمولة المبصوقة المستفرغة عليه كل أوزار وآفات وعاهات ومستنكرات وتشوهات وغوايات وفحش وقبح وجهل وغباء وجنون وفسوق وزندقات كل ما كان وكل ما سوف يكون.. لإنقاذ عقولهم وقلوبهم وعواطفهم وأخلاقهم وتصوراتهم وإيمانهم وتقواهم وكل تعبيراتهم من ذلك..!

هل يوجد أو يتصور إنقاذ أفضل أو أعقل أو أنبل أو أنفع أو أوجب من هذا الإنقاذ أو يساويه في أي معنى من معانيه؟ أليس إنقاذ الظالم المعتدي البليد الجاهل الأحمق من أن يكون أو يظل كذلك هو أعظم وأتقى وأقوى وأنفع إنقاذ؟

.. لقد غاب عن العالم كل عقله وصوابه وحكمته ورحمته ونخوته ورؤيته ويقظته وكل معانيه الجيدة طويلاً، طويلاً حين وهب اهتمامه أو شيئاً من اهتمامه ولو كلاماً وشعارات وجمعيات للرفق بكل الكائنات حتى بالحيوانات ولحمايتها وإنقاذها من الظلم لها ومن بعض ما تقاسي ثم غفل نهائياً عن أن يفعل بل حتى عن أن يقول أي شيء لإنقاذ الإله من إيمان المؤمنين به أو لإنقاذ المؤمنين به من إيمانهم..!

إن كل الظلم والعدوان المنفذين والمتصورين بل وغير المنفذين والمتصورين لأنهما أكبر من التنفيذ والتصور لا يساويان شيئاً من الظلم والعدوان الموقعين بمن زعم وأعلن واعتقد رباً وإلهاً وخالقاً ومريداً ومخططاً ومنظماً وراعياً حامياً لكل شيء، وحاملاً لكل شيء ومحمولاً عليه كل شيء، ومحاكماً محاسباً بكل شيء، ومسؤولاً راضياً عن كل شيء، وموصوفاً بكل شيء، ومحكوماً عليه بأن يعايش ويساكن ويعاشر ويعامل ويحاور ويرى ويقرأ ويفسر ويفهم كل شيء، وأن يكون كل شيء هو كل مجده وفخره واهتمامه وعبقرياته وعزائه وذكائه..!

كل طعامه وشرابه ودوائه واستمتاعه وأعراسه وممارساته المادية والمعنوية، الروحية والعقلية..!

حتى الذبابة والقملة والبرغوث إنها إحدى موائده النفسية والأخلاقية الشهية. ماذا يعني ويعني بكل شيء؟ إن كل اللغات والترجمات والتعبيرات لتعجز وتخجل وترهب وترفض أن تكون شيئاً من اللغة أو الترجمة أو التعبير عن قبح وفحش وعار ونذالة وبذاءة وخسة وهوان وبلادة وجهالة وفسوق وضلال كل شيء جماده وحيوانه وإنسانه وحشراته بدايات ونهايات، صيغاً وتفاسير، حوافز وأهدافاً، تخطيطاً وعشوائية..!

آه، كل شيء مجمعاً أو مفرقاً. ما أقسى أن نفكر فيه أو أن نتصوره أو أن نفكر في المسؤول عنه، عن كل شيء أو أن نتصوره؟ هل وجد أو يوجد أو يمكن أن يوجد مسؤول أو المسؤول عن كل شيء؟

هل يمكن أن يوجد أو أن يتصور من يقبل أو يستطيع أن يكون هذا المسؤول مهما كانت خسته ونذالته وجهالته وضلالته ووقاحته وقباحته ودناءته ورداءته بل وقذارته.. أن يكون مريده ومخططه وخالقه.. أن يكون هو المسؤول بكل معاني وتفاسير المسؤولية عن وظائف أعضاء الكائنات الحية حيوانية وحشرية وإنسانية، عن استفراغاتها الجوفية، عن أساليب ومكان وظروف ولغات ونتائج وهوان وبذاءات وفضائح هذا الاستفراغ، وعن أعضائها الأخرى الجنسية وغير الجنسية بكل وظائفها وممارساتها الرهيبة القبح والفحش والفضح والإذلال والاستعباد والتحقير والتعيير والتعذيب؟

إن الإنسان ليهرب كل الهرب عن كل العيون والآذان حين ممارسته لهذه الاستفراغات والاختزانات لضخامة قبحها فما بال عيني الإله وأذنيه؟ كيف قبل أن تتخلق فيه أذنان أو عينان؟

كيف وجد من يقول إن هذه الاختزانات والاستفراغات أي اختزانات واستفراغات أمعاء وأحشاء وذوات الكائنات الحية بالأساليب التي بها تحدث.

- كيف وجد من يقول إنها مجد وسرور لرب وخالق هذا الوجود. إنها إحدى فنونه الجمالية

العبقرية الاستعراضية؟ كيف وجد من يقول إن الإله يسعد ويستمتع بمشاهدتها أو يطيق ذلك؟

كيف أمكن أن يقول ذلك الأنبياء والأتقياء وتقوله الكتب المقدسة؟ وهل قالوه؟ لقد قالوه حين قالوا وأعلنوا أنه أي صاحب ومخطط ومنظم هذا الوجود خالق ومريد ومدبر لكل شيء ولكل ما حدث ويحدث وراضٍ عنه معجب به أي بما فعل وعنه حتى باختزانات واستفراغات الأمعاء والأحشاء والأعضاء التناسلية وكل الأعضاء الأخرى البذيئة؟

وماذا تقول أذناه وعيناه أي مالك هذا الوجود حين تريان وتسمعان وتعايشان وتساكنان هذه الاختزانات والاستفراغات تطلقها بطون وأعضاء هذه الكائنات الحية وخازنة مخزنة لها؟ كيف وجد من يقول إن لإله هذا الكون أذناً أو عيناً ترى أو تسمع كل شيء حتى هذه الاختزانات والاستفراغات؟

وماذا يقول هو حين ترى وتسمع أذناه وعيناه ذلك؟

هل يحمد عينيه وأذنيه حينئذٍ أم يلعنهما؟ هل يشكر ذاته لأنها خلقت له عينين وأذنين، لأنها تخلقت فيها ولها عينان وأذنان أم يعاقبها على ذلك ويكرهها لذلك؟

هل يمكن أن يوجد من يستطيع أن يفهم هذا الكائن المسمى إلهاً؟

هل يوجد من يستطيع أن يتحمل فهمه لو استطاع أن يفهمه؟

لقد رفض كل المؤمنين بل وغير المؤمنين فهمه ومحاولة فهمه لأن فهمه لا يطاق ولا يغفر أو يقبل كما لا يستطاع. لقد ناضل الإنسان ولا يزال وسوف يظل يناضل لئلا يفهم الإله أو يحاول فهمه.!

إن ذات الكائن الحي الناطق المتحرك مخزن ومصنع ومنجم من الفضائح والقبائح والقذارات والآفات والعار والاستفراغات المخزية، بل ومن الأخطار والفظائع والاحتمالات البائسة الحزينة المهينة.!

.. العجب كل العجب..! كيف غابت أو نامت أو ماتت أو ظلت أو تبلدت أو قست وفسقت عقول ورؤى وقلوب وضمائر وأخلاق ومحاسبات ومعاملات الكثيرين من المفكرين والفلاسفة والعباقرة والشعراء والمؤمنين المتدينين الأتقياء أمام هذه القضية وفي التعامل معها وبها؟ كيف أمكن أن يحدث ذلك؟ إذن ما المستحيل؟ إذن لا مستحيل على غباء العقل الإنساني مهما كان صعود ذكائه..!

كيف أمكن أن يتقبلوا هذا الظلم أو يسكتوا عنه بل ويشاركوا فيه.. في هذا الظلم لهذا الكائن بالإيمان به هذا الإيمان، وفي هذا الظلم للمؤمنين به.. في هذا الظلم لعقولهم وقلوبهم وضمائرهم ورؤاهم وتفاسيرهم وأخلاقهم ولكل صيغ وتبضات وخطوات حياتهم؟ هل معنى هذا أن الذكاء مهما اخترق كل حدود وسدود هذا الكون لن يستطيع أن يكون حامياً من أغبى الغباء؟

.. كيف لم يتحولوا إلى جيش إنقاذ لينقذوا من الظلم لهذا المظلوم ومن الظلم لهؤلاء الظالمين المظلومين؟

هل يحدث ما لم يحدث وما يجب أن يحدث؟ هل يحدث؟

❁ ❁ ❁

هل البشر يبحثون عن الغباء ويتعلمونه أم يصابون به ويتخلق فيهم تخلقاً أم هم هذا وهذا؟ هل الغباء اضطراراً أم احتياج أو هو هذا وهذا؟ هل هو ربح أم خسران؟ هل هم يستعملون الذكاء للذكاء أم للغباء أي ليكونوا أغبياء أم ليكونوا أذكياء أم ليكونوا حيناً كذا وحيناً كذا؟ هل يستطيع الإنسان أن يقبل وجوده وحياته وممارساته وكينوناته واحتياجاته ويرضى عن ذلك بلا غباء وبلا عجز عن الرؤية والفهم إلّا إذا كان يستطيع أن يحيا بلا نوم.. بلا نوم جسدي وعقلي وقلبي وعاطفي وأخلاقي.. بلا نوم نفسي وديني وإنساني.. بلا كذب في النية أو في السلوك أو في التعبير أو في الحافز أو في الهدف أو في المنطق أو في التفسير أو في العرض والصيغة؟ أليس الغباء هو كل طاقات وقضايا الذكاء؟ هل يستطيع الذكاء أن يحيا أو يعمل أو يتعامل ما لم يهبط إلى أدنى مستويات الغباء؟ أليس الذكاء هو كل الغباء جاء في تفاسير وتعبيرات وصيغ أخرى؟

أليس أذكى الأذكياء هم أكثر الكائنات احتياجاً إلى أغبى الغباء ليصبحوا أغبى الأغبياء أي أذكى الأذكياء؟

لهذا جاء الإنسان أكثر من كل الكائنات الأخرى المعروفة احتياجاً إلى الغباء وعملاً وتعاملاً به وتعليماً وتمجيداً له، حتى لقد حول كل أنواع الغباء ومستوياته إلى آلهة وأنبياء وأديان وعبادات وكتب مقدسة. أليست هذه كلها إحدى عطايا الغباء؟

ولهذا أيضاً جاء الإله أقوى وأقسى وأردأ من الإنسان ومن كل أحد وكل شيء غباء وتعليماً وتشريعاً وترويجاً وتنفيذاً ومدحاً للغباء وإلزاماً وإعجاباً به ورضا عنه وإثابة عليه ومعاقبة للخارجين عليه وللمحرومين منه والرافضين له لو وجدوا.. وبأوصافه وأخلاقه ومستويات ذكائه هذه أراد وعشق وخطط وخلق هذا الوجود كله بكل قبحه وفحشه وسخفه وضلاله وغبائه وهوانه وعاره وفسوقه وكآبته وسيئاته ومآسيه وبكل شروره معتقداً ومعلناً أنه كل الجمال والكمال والحكمة والرحمة والمحبة والعبقرية والذكاء والعقل وكل الممكن والمستطاع..!

هل يمكن أو يقبل أن يقال إن الإله يستطيع أن يخلق أي شيء أفضل مما خلقه ثم لا يخلقه هذا الخلق الأفضل؟ لماذا لا يفعل هذا الأفضل إن كان يستطيعه.. إن كان يستطيع أن يخلق الذبابة أفضل مما خلقها هل من جواب؟

إنه لن يمكن أن يقال إن رب وصاحب هذا الكون قد صاغ كونه هذا بكل ذكائه أو بأي قدر من ذكائه أو من أي ذكاء وإنما الذي يمكن أن يقال: لقد كان خالق هذا الكون محتاجاً إلى كل الغباء وإلى أردأ الغباء لكي يستطيع ويقبل أن يخلقه كما خلقه كما جاء.. لقد حشد كل الغباء واستعان بكل الغباء لكي يخلقه كما خلقه، ولكي يعجب به ويرضى عنه ويستوي فوقه بكل الغرور والكبرياء..!

.. إنه لدفاع نبيل رحيم حكيم عن الإله أن يقال: إنه أي الإله قد خطط وأراد وأخرج هذا الكون بكل غبائه بلا أي قدر من ذكائه.. أما القول أو الاعتقاد بأنه قد فعل ذلك بكل ذكائه أو بشيء من ذكائه فإنه كل الهجاء والتحقير له..!

كيف أمكن أن يجهل ذلك أحد حتى ولو كان هذا الأحد عربياً، عربياً في رؤيته وتفكيره وحماسه وفي كل معانيه؟ لقد استعان الإله بكل طاقات وفنون وأنواع الغباء لصياغة كل ما فعل ليجيء كما جاء دون أن يستعين بشيء من طاقات الذكاء أو فنونه أو أخلاقه. وصعب جداً فهم الأسباب التي جعلته يفعل ذلك بقدر ما يصعب فهم أسباب وجوده وقبوله لوجوده..!

إنه لا بدّ من هذا التفسير إذا كان محتوماً اتهام هذا الكائن المزعوم المعلن إلهاً بأنه هو الفاعل لهذا الوجود..!

إذن لا براءة لهذا الكائن من كل التهم والاتهامات المدمرة المخزية إلّا ببراءته من ذاته..!

هل وجد أو يمكن أن يوجد ما يبرىء وينفي ويحمي من كل الذنوب والعيوب والمخاوف والمخاطر والنقائص والاتهامات الأليمة المهينة الفاضحة المعاقبة ومن كل الشرور والآلام مثل البراءة من الذات أو غير البراءة من الذي أي من وجود الذات؟

إن وجود الشيء أو الكائن الحي ليس مزية أو عبقرية فيه وليس عطاء أو تمجيداً أو حباً له ولكنه ورطة وتوريط وعبث. إن أي موجود لن يربح من وجوده وإنما يحاول التداوي من هموم ومشاكل وحاجات وجوده..!

.. نعم، إن اللّه لا يستطيع أن يخلق أو يخرج أو ينزل أو يفجر أو يصوغ الحشرة أو الجرثومة أو الآفة أو العاهة أو التشوّه أو العجز أو المرض أو الوباء أو القحط أو المجاعة أو الصحراء أو الفيضان أو الزلزال أو البركان أو المعتوه أو المجنون أو البليد أو الزنديق أو المصاب أو المجرم أو أي شيء ليجيء في أية صيغة أخرى غير الصيغة التي بها جاء، كما لا يستطيع ألا يفعل ذلك أي أن يكف عن فعله أو عن إرادة وشهوة فعله له أي ألا يفعل أي شيء مما فعله..!

ولماذا لا يستطيع لا هذا ولا هذا أي ألا يفعل ما فعل بصيغة أخرى أجمل أو أعظم أو أذكى أو أتقى أو ألا يفعله بأية صيغة؟ إن القول بأنه لا يستطيع لا هذا ولا هذا ليصنع الحيرة والغضب.. كل الحيرة والغضب. الإله لا يستطيع.. كيف. كيف؟

.. إنه لا يستطيع ذلك ولا شيئاً منه لأنه لا بدّ أن يفعل كل الكمال، وكل ما يفعله هو كل الكمال. إذن لن يستطيع ألا يفعل ما فعل ولا أن يفعله بأية صيغة أخرى، إذ ليس في الإمكان أبدع مما كان، فلو كان في الإمكان أبدع مما كان لكان محتوماً أن يفعله ولو كان الأبدع ألا يفعل ما فعل لما فعله..!

هل يستطيع أي مؤمن أن يشك ويخالف في شيء من هذا؟

.. إن كل التفاسير المحتومة لهذه القضية تقول: إن اللّه عاجز عن ألا يفعل أي شيء فعله كما هو عاجز عن أن يفعل أي شيء فعله في زمان أو مكان أو أسلوب أو صيغة غير الزمان والمكان والأسلوب والصيغة التي أو الذي به أو بها فعله. هل يوجد أو يمكن أن يوجد من يقول ذلك أو يصدقه؟

ولكن هل يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً أو يحسب مؤمناً ما لم يقل هذا بل ما لم يصدقه ويعلمه ويعلنه؟ فظيع، فظيع هذا بل كل شيء فظيع..

كيف؟ إن جميع المؤمنين بالإله يقولونه ويعتقدونه ويعلنونه بل ويرون من لا يقولونه ويعتقدونه ويعلنونه زنادقة يجب الخلاص منهم، أو يجب على كل المؤمنين بالإله أن يقولوه ويعتقدوه ويعلنوه وإلّا أصبحت كل رؤاهم وتفاسيرهم للإله فاسدة جاهلة خائنة كاذبة آثمة متناقضة..!

أليس كل مؤمن يؤمن بأن اللّه يصنع كل الكمال، وأن كل ما يصنعه هو كل الكمال في كل رؤى وحسابات وتفاسير العقل والقلب والفن والجمال والأخلاق وفي إرادة وتحقيق الأهداف والمنافع والمزايا المطلوبة والمنتظرة؟ إنه يؤمن بأنه لا يوجد ولن يوجد كمال لم يفعله اللّه، وأن كل ما فعله لا يمكن أن يفعل أكمل منه لا في صيغته ولا في زمانه أو مكانه أو أسلوبه. إنه يفعل كل الكمال وكل ما لم يفعله لن يكون شيئاً من الجمال أو الكمال.!

أليست كل التفاسير لهذا أن المؤمن يؤمن بأن اللّه لا يستطيع ألا يفعل أي شيء فعله حتى الذبابة والقملة والعاهة حتى أقبح وأردأ وأفسد وأنذل وأفسق الأشياء، كما أنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء فعله بأية صيغة أخرى غير الصيغة التي فعله بها وإلّا لكان خارجاً على الكمال؟ إن على كل مؤمن أن يسجد لكل ما خلق لأنه كل جمال اللّه وكماله..!

إنه لو لم يفجر أو يطلق هذا الزلزال أو البركان في الوقت والمكان اللذين فجرهما وأطلقهما فيه وكذا هذا الوباء أو لو لم يأت الخراب والدمار والخسران والقتلى والجرحى كما جاء وجاؤوا بفعل هذا الزلزال أو البركان أو الوباء لكان أي الإله خارجاً على الكمال.. خارجاً على جمال الآلهة وحكمتها ورحمتها وعبقريتها وذكائها وعلى أخلاقها..!

لأنه لم يفعل ذلك ولا شيئاً منه إلّا خضوعاً لهذه المعاني والأوصاف الجميلة.. أليس فعله لهذه الآفات والكوارث يفرض على المؤمن الإيمان بأنها وبأن فعله لها هما كل الجمال والكمال والحب والرحمة والحكمة؟

❀ ❀ ❀

قد يكون من أقسى ضربات التحقير والسباب للإله الاعتقاد والإعلان والتعليم بأنه أي الإله يطالب كل شيء وكل أحد ويفرض عليه بأن يلقي بكل ذاته وكل معانيه تحت التراب ركوعاً وسجوداً وشكراً وامتداحاً وتعبّداً له دائماً، دائماً دون أن يبقي لنفسه أو في نفسه.. لعقله أو لقلبه أو لضميره أو لأخلاقه أو حتى للغته وتعبيره شيئاً من الكرامة أو الاحترام أو الإباء أو الذكاء أو الشجاعة أو حتى من النظافة..!

يا لها من ضربة لكرامة ووقار وذكاء الساجد والمسجود له الراكع والمركوع له..!

بل إنه ليوعد بأشد العقاب وكل العقاب لكل من لم يهبوه كل ذلك بكل الهوان والتضرّع والمسكنة وبكل التهوين والتحقير والتصغير لأنفسهم ولكل معانيهم بكل الأساليب والصيغ. إنه لا شيء

يفجع ويخجل ويصنع كل التعجب والترويع مثل الخصائص التي ركبت منها نفس الإله وأخلاقه ورغباته.!

لقد حوله حبه لأن يمدح ويعبد بل لأن يكون له كل المديح والعبادة ومطالبته بذلك ـ حوّلاه إلى راشٍ ومرتشٍ.. إلى أن يرشو كل من يريد منهم أن يمدحوه ويعبدوه لكي يزيدوه من ذلك، وإلى أن يطلب منهم أن يرشوه مديحاً وتعبّداً وتذلّلاً وسقوطاً لكي يجزيهم على رشوتهم له..!

إنه لا يوجد راشٍ بكل التذلل وضخامة الرشوة المقررة مثل الإله..!

لقد حوله شوقه إلى أن يوهب كل المديح والعبادة ورغبته فيهما إلى أن يصبح مرابياً متعاملاً بالربا الذي حرمه ولعنه وأوعد المتعاملين به كل العقاب.. مسكين وبائس هو هذا الإله. لقد حوله حبه المجنون للمديح والعبادة إلى أكبر مراب..!

إنه يعلن كما يقول المؤمنون به أنه سوف يجزي على العمل الصالح له بأضعافه، بأضعاف مضاعفة. والامتداح والتعبد له هما قمة الأعمال الصالحة التي يطالب بها..

لقد حولته أشواقه المجنونة إلى أن يمدح ويعبد إلى أكبر متعامل بالربا والرشوة.. إنه الإله الإله الذي جاءت به وصاغته النبوة العربية.!

هل يمكن أن يوجد أعجب من الإله الذي يؤلفه ويفسره النبي العربي؟

.. كائن يفسر ويعلن عنه بأن كل أشواقه واحتياجاته وإراداته واهتماماته ومطالبه ووظائفه وحوافزه وأهدافه ولذاته وأفراحه وكرامته وكبريائه وغذائه وعزائه ودوائه في أن يوهب كل المدائح والعبادات والصلوات بكل الهوان والتذلل والتضرع والسقوط..

.. وكل شقائه وعذابه وهوانه وأحزانه وعقابه وبؤسه وغضبه في ألا يوهب كل ذلك..!

هل يمكن أن يوجد أو يتصور مسبوب محقر مثل هذا الكائن؟

إن الرغبة في المديح لنقيصة ذميمة يحاول أن يتبرأ ويستتر منها جميع العقلاء والمحترمين لأنفسهم فكيف بالمطالبين به أي بالمديح ثم كيف بالجازين عليه وبالمعاقبين لمن لم يهبوهم إياه ثم كيف بمن يحولون ذلك أي امتداحهم والتعبّد لهم إلى نبوات وأديان وشرائع وعقائد وتعاليم ومعلمين وإلى فردوس وجحيم يخلد في أحدهما المادحون وفي الآخر الرافضون والناسون له والمشغولون عنه والمقصرون فيه والمستحيون منه والمتأثمون من أن يتحولوا إلى شاتمين لمن يمدحهم بمدحهم له وبالإعلان عنه بأنه يريد المديح ويرضاه ويطالب به ويجازي عليه ويعاقب على تركه؟

إنه لا يوجد من يطالب بأن يمدح مهما رغب في ذلك. إذن كيف جاء الإله؟

.. زعيمان أو حاكمان أو رئيسان أو ملكان أحدهما ذكي ومتوقر ومحترم لنفسه وعظيم وكبير في كل معانيه وأخلاقه والآخر نقيض ذلك أيهما سوف يرغب ويحاول ويحرض ويجازي ويعاقب ويجن ليحول وليتحول كل مجتمعه إلى مداحين كذابين منافقين ساقين أذلاء.. ليحولهم ويتحولوا إلى أشلاء وأكوام ملقاة ومطروحة ومنطرحة على بابه وترابه لتمدح وتنشد وتهتف وتصلي وتتعبد وتلعن كل

الكون إذا لم يتحول مثلها إلى مدائح وأناشيد وهتاف وصلوات وعبادات لمن هي ملقاة وملقية بنفسها على بابه وترابه مثلما كان يفعل شعراء العرب على تراب وأبواب سلاطينهم وخلفائهم وأئمتهم ومثلما يفعلون اليوم على أبواب وتراب رؤسائهم وثوارهم؟ هل يمكن أن يوجد أي خلاف على من سوف يكون هذا الافتضاح والعار من الزعيمين أو الحاكمين أو الملكين أو الرئيسين أو السلطانين أو الإمامين؟.. ثم أي هذين النموذجين سيختاره المؤمن نموذجاً لإلهه وهو لن يجد نموذجاً ثالثاً أو آخر ليهرب إليه بإلهه؟ وقد يكون الواقع الدائم أن المؤمن أبداً يختار لإلهه شر وأردأ النماذج التي يعرفها أو يتصورها. ولعل السبب أنه لا يجد غير ذلك.!

.. اسمعوا أو اقرؤوا أو انظروا ثم افهموا أو حاولوا أن تفهموا أي بعد أن تفكروا ثم تقبلوا أو ارفضوا.. وهل يمكن أن تتقبلوا بعد أن تفكروا وتفهموا؟

أليس التقبل محكوماً عليه دائماً ومشترطاً فيه دائماً أن يكون قبل التفكير والفهم وبدون الفهم والتفكير؟

هل تستطيعون أن تفعلوا ذلك ثم تستطيعون أن تتقبلوا إلهكم أو وجودكم أو أي شيء بكل التفاسير أو بأي تفسير أو بلا أي تفسير؟

هل يطاق أو يقبل فهم أي شيء أو التفكير في أي شيء محاسباً ومحاكماً ببداياته ونهاياته أو بأهدافه أو حوافزه أو بمعانيه أو بأخلاقه أو تفاسيره أو بأي شيء من ذلك؟ هل يطاق أي شيء ما لم يكن محروساً من المحاسبة والتفاسير؟ هل أطاقت الحشرة والإله وجودهما إلّا بهذه الحراسة؟..

.. هل وجد أو يمكن أن يوجد من فكروا وفهموا ثم احترموا أو رضوا شيئاً من آلهتهم أو أنبيائهم أو من أنفسهم ووجودهم أو من أي شيء أو تقبلوه تقبل منطق أو إعجاب؟ حتى الإله.. نعم، حتى الإله هل قبل أو رضي نفسه أو وجوده أو أي شيء بعد أن فكر وفهم إلّا بقدر ما قبلت ورضيت القملة أو الفأرة أو النملة أو أية حشرة أو آفة أو عاهة نفسها ووجودها وكل ممارساتها بعد أن فكرت وفهمت واقتنعت بقيمة وشرف ومنطق وكرامة وعبقرية وجودها وبقائها بالصيغة التي بها وجدت وبقيت والتي بها تحيا وتعيش وتموت والتي بها تمارس ممارساتها؟!

وهل خلق هذه من خلقها إلّا بالمنطق والتفسير اللذين بهما قبلت وجودها؟

.. أيهم سيكون أقوى رفضاً لوجوده: الإله أم الإنسان أم الحشرة أم الجماد لو أنهم رأوا وعرفوا وقرؤوا وفسروا وجودهم قبل وجودهم وكانوا مخيرين قبولاً ورفضاً؟

قاسٍ بل آثم ظالم من فرض على أي موجود وجوده قبل وجوده بكل معانيه وتفاسيره ونتائجه وممارساته ومجاعاته واحتياجاته ونهاياته ومواجهاته فكيف بمن فرض ذلك على الإله أي بإيمانه به؟ إن كل الظلم أو المشكلة أو الورطة أو العدوان الذي هو كل العدوان والذي لن يمكن أن يحدث أي عدوان لولاه أن أي موجود لن يستطيع أن يرى أو يعرف أو يقرأ أو يتصور أو يختار وجوده لا قبل وجوده ولا بعد وجوده وإنما يتحول إلى عبد ذليل مطيع لوجوده بكل الصيغ والأساليب المهينة الفاضحة الفاجعة المتقلبة، مفسراً له أي لوجوده بكل التفاسير الذكية الأخلاقية العبقرية التقية الكونية

التي لا يمكن تصور ما هو أفضل أو أنبل أو أعظم أو أنفع أو أكرم منها أو مثلها، بل وواصفاً لوجوده بأنه إرادة وتخطيط وشوق وفن ومجد وذكاء وعبقرية ومهارة وطاقة وسرور وكرم وكرامة وكبرياء وفخر وصياغة وإخراج أعظم إله..!

إذن أليس كل إيجاد هو أقسى استعباد وكل الاستعباد؟

ومن فرض عليه وجوده قبل وجوده فقد فرضت عليه بلا أي تدبير أو تفكير أو اختيار أو منطق أو رؤية أو عقل أو حساب أو تقوى أو إيمان ـ فقد فرضت عليه كل رؤاه وعقله وطاقاته وممارساته وتفاسيره وتفكيره وكل آلهته وأنبيائه وأديانه وانتماءاته وأهوائه وكل أكوانه وكينوناته، بل وفرضت عليه صحته ومرضه وضعفه وموته وكل تشوهاته وعاهاته وأحقاده وعداواته ومخاصماته وبغضائه وأحزانه وهوانه وعاره وفضائحه وبؤسه ومخاوفه وبلاداته وجهالاته.

ـ أي فقد فرض عليه كل ذلك قبل أن يوجد..!

لهذا فإن من يحب ويرضى ويمدح ويصادق ويقتنع ويؤمن ويعجب ويسر ويدافع ويصر على البقاء مهما كان البقاء وشرفه ونفعه وقيمته ويصر على ما يصر عليه.

ـ نعم، لهذا فإن من يفعل ذلك أو شيئاً منه لا يفعله لأنه معقول أو مقبول أو مرضي أن يفعله ولا لأنه فكر فيه وحاسبه وفهمه فاقتنع بأن يفعله ولا لأن من المجد أو الشرف أو الكرامة أو النبل أو النفع أو البطولة أو الشهامة أو التقوى أن يفعله ولا لأنه يستحق أن يفعله ولا لأن الآلهة أو الشموس أو النجوم أو البحار أو الأنهار لا بدّ أن تموت أو تهرب أو تجف أو تظلم إن لم يفعله وإنما يفعله لأنه قد فرض عليه قبل أن يوجد أن يفعله.. لأنه قد جاء في صيغة من لا بدّ أن يفعله.. وإنما يفعله كما تفعل الجمادات والنباتات والحشرات وخلايا وغدد وأعضاء الأجسام الحية ما تفعله.. إن الكائن يفكر ويريد ويفهم ويرضى بالمنطق الذي به تفكر وتريد وتفهم وترضى أعضاء جسده.

.. حتى الآلهة.. إنها لا تفعل ما تفعله بالمنطق أو بالتدبير أو بالحساب أو بالأخلاق أو بحثاً عن المصلحة أو المنفعة أو الفائدة أو بحثاً عن الجمال أو الكمال أو اللذة أو السعادة أو حتى بالحرية وإنما تفعل ما تفعل لأنه قد فرض عليها أن تفعل ما تفعله قبل أن توجد.. إنه لا يوجد أبعد عن التفكير والتدبير والمنطق والأخلاق والمحاسبة لما تفعل مثل الآلهة..!

حتى الحرية أي ما يرى ويعلن حرية ليست حرية.. لا حرية في ممارسة الحرية.. فالذي يمارس شيئاً ليس حراً حين يمارسه في ألا يمارسه، كما أنه ليس حراً حين لا يمارسه في أن يمارسه. فممارسة الحرية ليست حرية.. كما أن المريد والمفكر والمحب والعاشق والخائف ليس حراً في ألا يكون كذلك حين يكونه ولا حراً في أن يكونه حين لا يكونه.

إن الكائن ليس حراً في حريته مهما بدا وزعم حراً كما أن النهر ليس حراً في جريانه مهما رأته العيون حراً..!

هل من يكون ويجيء ويمرض ويموت ويجوع ويتخلق من هذه السلالة أو من أخرى ذكياً أو

غبياً، سوياً أو مشوهاً، قوياً أو ضعيفاً، جميلاً أو دميماً، صغيراً أو كبيراً، في هذا الكوكب والزمان أو في كوكب وزمان آخرين ـ هل هو حر في ألا يكون ويجيء كما كان وكما جاء؟

إن هذا هو كل التفاسير لكل صيغ الحرية وتفاسيرها.. أو هل الإله حر في أن يكون إلهاً أو في ألا يكون إلهاً مستعبداً وخاضعاً وذليلاً وعبداً لكل تفاسير ومعاني الألوهية؟ آه. أليست الألوهية هي كل صيغ ومعاني العبودية؟ هل الإله حر في أن يكون أو لا يكون في هذه الصيغة أو في أية صيغة؟

.. هل يمكن أن يوجد أو يتصور مستعبد خاضع ذليل عبد لكل شهواته ورغباته وأنانياته ونزواته وخطيئاته وأخطائه وبداواته وحماقاته وغلطاته وكبريائه ولكل رؤاه وتفاسيره واستجاباته لنفسه مثل الإله.. مثل كل إله؟ لو كان حراً أليس محتوماً أن يجيء أفضل مما جاء وغير ما جاء؟

.. إذن هل يمكن أن يوجد أو يتصور إله عبد مستعبد مثل الإله.. عبد مستعبد لنفسه ولوجوده ولمن خلقهم ليعبدوه؟

أو هل يمكن أن يوجد أو يتصور عبد مستعبد لوجوده مثل الإله.. لوجوده الذي لن يقبل أي موجود مهما كانت تعاسة ومهانة وقبح وجوده أن يكون مثل وجوده أي مثل وجود الإله.. الإله الذي لا يعرف لا هو ولا أحد ولا من يعبدونه لماذا جاء إلهاً وماذا يربح أو يستفيد هو أو غيره من ذلك؟ إن الإله المطالب بأن تكون له كل العبوديات هو أقسى وأغبى العبيد عبودية. ما أعجب وأقبح هذا. إنه عبد لذاته ووجوده وشهواته ولكل شيء..!

.. إنه لا أحد يستحق كل الرثاء والعزاء والأسى والبكاء من أجله مثل الإله لخسران وقبح وبؤس وتفاهة وبلادة وتعاسة وضياع وجوده بل ولعبوديته حتى لمن خلقهم ليعبدوه.!

هل توجد عبودية مثل عبودية الإله لمن أرادهم له عبيداً؟

.. إنها لقضية كان المفروض ألا تخفى على أحد وألّا يجهلها أحد.. ولكن هكذا تجيء الأشياء دائماً على غير ما ينبغي وينتظر أن تجيء عليه.!.. هل حدث أن جاء شيء ليس مشحوناً بالذنوب والعيوب والنقائص والآلام أو ليس محاصراً بالمخاطر والمخاوف؟

.. هل الإنسان الذي صعد وهبط فوق القمر وفي أحشاء القمر مذلاً فاضحاً متحدياً مطارداً لإله القمر محتاج إلى أن يتعلم ويعلم ما لا يحتاج إلى تعلم وتعليم بل ثم يعجز عن تعلمه وتعليمه أي عن فهمه.

.. هل هناك قوة غيبية آلهة شريرة أو حاسدة لئيمة تصر على أن تعاقب وتشوه ذكاء الإنسان وعبقرياته بأن تصب وترسخ فيه كل طاقات وأصناف البلادات والبلاهات والعمى الشامل الدائم عن رؤية ما يفقأ ويشتم ويفجع ويعذب كل العيون.. كل العيون البصرية والعقلية والفؤادية والنفسية والأخلاقية والفنية حتى ليفعل كل ذلك بالعيون الأمية، حتى بالعيون الأمية.. قد يقال هنا: إلّا عيون الآلهة وعيون أعوانها ومساعديها ومستشاريها وعيون متعلمي الرؤية منها أي من الآلهة.!

من صانع العيون؟ هل يوجد خبث مثل خبث صانعها حينما صنعها لتمنعه من الرؤية بل لتكون أعظم مزيف للرؤية؟ هل وجد مزيف للرؤية مثل العيون؟

.. نعم، هل يمكن أن يكون أي شيء أو أي كائن حراً في وجوده أو صيغته أو سلالته أو ذاته أو في ممارساته واحتياجاته وشهواته أو نياته وانتماءاته وعواطفه وأفكاره وأخلاقه وعلاقاته ومواجهاته وطاقاته وفي كل كينوناته ـ أي حراً في أن يقبلها كلها أو بعضها أو يرفضها كلها أو بعضها أو أن يغيرها كلها أو بعضها أو يستبدل بها كلها أو بعضها، ثم يقبل أن يجيء كما جاء أو أن يكون شيئاً مما كان كما كان، أو أن يكون حراً في فنائه في قبوله أو في رفضه لفنائه؟

أليس محتوماً أن يرفض ذلك الإله والإنسان وأعظم كائن وكل كائن رفضاً قد يكون أكثر رفضاً وغضباً وتصميماً واستقباحاً من رفض الحشرات وأدنى وأردأ الكائنات لذلك، بل لا بدّ أن يكون كذلك؟

إن أي موجود مهما بدت وأعلنت واعتقدت ضخامة وعظمة وجوده لن يقبل وجوده أو لن يقبله كما وجد وجاء لو لم يفرض عليه فرضاً.. لو رآه وقرأه وفسره وفهمه وجربه قبل أن يفرض عليه.. لهذا فإنه لم يوجد ولن يوجد أي وجود أو موجود إلّا بأقسى وأطغى وأغبى وأظلم أساليب الفرض وبكل أساليب الفرض..

لهذا فإن الموجد البادىء أو الأول لو وجد لن يكون منعماً أو متفضلاً أو واهباً أو شهماً أو نبيلاً أو مستحقاً لأي شيء من الشكر أو الحمد أو العبادة بل لن يكون إلّا ظالماً معتدياً عابثاً جاهلاً خابطاً يستحق كل المحاسبة والمعاقبة..!

والإيجاد الذي يستحق الشكر والحمد هو الإيجاد الذي ينقذ ويعالج ويحمي مما كان قد وجد.. إن أي كائن عاقل أو غير عاقل لن يفعل أي شيء أو يريد أو يقبل أو يطلب فعل أي إيجاد أي شيء إلّا من أجل شيء قد وجد.. قد فرض عليه وجوده فأصبح محكوماً عليه بالتداوي وبمحاولة وطلب التداوي من صيغ وأساليب ومعاني وجوده كلها بكل الديمومة والشمول والمقاساة..!

.. وقد تقول الحقيقة إنه لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد أي إيجاد لأي موجود، وإنما توجد صياغات وتطورات وتغيرات وتفاعلات وتحركات في الموجود. وهذا كل ما يحدث مهما قالت الرؤى والتفاسير والتعاليم غير ذلك..!

إنه توالد وولادة وتوليد لا إيجاد..!

إن أحداً لم يرَ أو يعرف أي إيجاد من غير موجود حتى الإله نفسه لم ير أو يعرف ذلك.. إن ها هنا قضيتين كبيرتين كان المفروض ألا تخفيا على أحد وألا تحتاجا إلى تفسير أو توكيد..

الأولى أنه لم يوجد ولا يوجد ولا يمكن أن يوجد أي إيجاد لأي شيء بالمعنى اللغوي الشائع أو المعنى الديني أو التعليمي التاريخي أو المعنى المفسر به عمل الآلهة أو الإله الواحد.. وكل ما

يحدث ويرى ويعلم ليس إلّا صياغة وتأليفاً وتجميعاً وتكويناً وتنظيماً للشيء الموجود أو تكوناً وكينونات وتفاعلات وتحركات وتعاملات مع ذاته ومع الوجود الآخر..

نعم، حتى الإله نفسه لم يرَ أو يعرف أو يفعل هذا الإيجاد. ولنقرأ ما يحدث.

... القضية الثانية أو الحقيقة الثانية أن كل ما يفعله ويبدعه أو يحاوله الإنسان أو أي كائن آخر ليس إلّا مقاومة للوجود.. لما وجد.. لوجوده هو أو لوجود آخر متعامل مع وجوده.. إلّا مقاومة لذنوبه وعيوبه ونقائصه ولآلامه ومجاعاته ومشاكله ولأخطائه وتشويهاته وعاهاته وورطاته. أي وجوده.!

إن كل ما يفعله الموجود لن يكون إلّا إصلاحاً وتصحيحاً لعيوب وذنوب وأخطاء وجوده.. إن الكائن أي كائن لا يربح ولن يربح من وجوده أي ربح وكل ما يحسبه ويحسب ربحاً ليس إلّا تخلّصاً أو محاولة للتخلص من قبح وشرور وهوان وجوده الذي لم يصنعه أو يرضه أو يستشر فيه..!. هل يربح من يوجد ليجوع فيأكل أو يحرم، وليمرض فيعالج ويشفى أو لا يعالج أو لا يشفى، وليظلم فيرفع عنه الظلم أو لا يرفع، وليخاف فيؤمن أو لا يؤمن ولا يأمن؟ هل في ذلك أي ربح؟

.. ولعل أقسى وأشهر النماذج لذلك هو وجود الإله.. فوجود الإله كل إله وأي إله هو أضخم وجود بل هو كل وجود. فهل يربح الإله من وجوده أي ربح؟ إنه بكل التفاسير والحسابات كل الخسران وأبشع الخسران له أي للإله بل ولكل شيء ولكل أحد أي وجود الإله. إنه لن يوجد أي شيء لولا وجود الإله كما يقول المؤمنون إذن لن يخسر أحد بوجوده لأنه لن يوجد..!

.. ولعل الربح الفريد للإله من وجوده الذي هو كل الخسران له ولكل شيء ولكل أحد.

ـ لعل هذا الربح الوحيد هو أن يجد أي الإله بعض الضعفاء الجهلاء الجبناء المنافقين المسمين مؤمنين وصالحين وأتقياء يهبونه ركوعهم وسجودهم وصلاتهم ودعاءهم ومدائحهم وكل ما في حناجرهم من صراخ وهتاف وكذب وبلادات رغبة ورهبة وملقاً وخداعاً ومتاجرة..

ـ أن يجد هؤلاء ليكونوا أو ليحسبهم تعويضاً وتخفيفاً عما يقاسيه كل أوقاته وفي كل حالاته من كفر وزندقة ورفض ونبذ ومطاردة وإهانة وإذلال وهزائم، هزائم في كل حروبه ومواجهاته ومخاصماته ومحاوراته..

ومن دمامات وقبائح وفضائح وتفاهات ومسيئات وعاهات تغرق فيها كل معانيه وتفاسيره ورؤاه ووجوده وجماله المزعوم المزعوم.. وجماله الذي أراد وأحب وصمم وخلق وصاغ كل الدمامات والعاهات والتشوهات والحشرات والطغاة والمجانين والمجرمين والسفهاء. ما أقبح هذا التعويض وأرخصه.!

.. إنه لا أحد يلقى مما يفجع ويذل ويهزم ويشتم ويحقر ويغيظ ويسوء ويجلب كل الخسران مثلما يلقى الإله..!

أسفي عليك ولك أيها الإله.. كل أسفي عليك ولك أيها الإله..!

.. لقد ظلّ البشر في كل أطوار وجودهم ولا يزالون وسوف يظلون هم وأمثالهم إن كان لهم

أمثال يرون ويجدون ويعلمون استمرار ولادة وتوليد الشيء وتخلقه وخلقه من الشيء الذي قد وجد..

ولكنهم لم يروا أو يجدوا ولن يروا أو يجدوا لا هم ولا غيرهم أي شيء يولد أو يتولد، يخلق أو يتخلق ليكون من لا شيء. من الفراغ.. من العدم.. من عضلات أو مشيئة أي إله.. إن الكلمة ليست هي البدء ولا غيرها لأنه لا بدء، لا يوجد ولم يوجد بدء.. هل الكون.. الوجود كان معدوماً فوجد، فوجد من الفراغ.. من العدم.. من عباءات الآلهة وجلابيبها.. من أحزان وبكاء الآلهة أو من ضحكاتها ومسراتها..؟ هل الكون كان معدوماً؟ من قال هذا؟ إذن هل الإله كل إله لم يكن موجوداً في لحظة من الزمن ثم وجد من الفراغ.. من لا شيء، من العدم، من لا منطق لا معقول.. لا مقبول؟ أليس القانون الذي وجد به الكون وكل موجود ووجود هو القانون الذي وجد به الإله إن كان قد وجد؟

آه ولكن ما المنطق.. ما المعقول.. ما المقبول الذي نتحدث عنه؟ هل عرف ذلك أو هل يمكن أن يعرف؟

وما المعرفة؟ هل عرفت؟ هل يمكن أن تعرف؟

هل المعرفة معرفة أم هرب من المعرفة أم عجز عن المعرفة أم رفض للمعرفة؟ إننا قد نعلم بل إننا نعلم حتماً ولكن هل نعرف؟ إن المعرفة شيء غير العلم. ولعل من يعلمون لن يكونوا أفضل من يعرفون.!

ما أقسى وأدوم حيرة وعذاب وشكوك من يصرون على أن يعرفوا وعلى أن يعرفوا ما عرفوه بالتلقين والتقليد والممارسة والمواجهة أو بالإرث والاستمرار أو بالكسل عن المساءلة والمحاورة والمحاسبة أو بالخوف من الاقتحام والتغيير أو بالعجز عن ذلك لا بالمعرفة ولم يعرفوه بالمعرفة..!

أليست المعرفة بلا معرفة هي أقوى المعارف وأكثرها انتشاراً ورسوخاً؟

.. كذلك ما أقسى وأدوم حيرة وعذاب وتراجع من يصرون على ألا يعملوا أو يتعاملوا أو يمارسوا أو يصدقوا أو يقبلوا أو ينصروا أو يمدحوا إلّا إذا عرفوا وبما عرفوا وكما عرفوا وكما تقول لهم معرفتهم..!

وهل وجد هؤلاء أو أحد منهم وهل يمكن أن يوجدوا أو يوجد أحد منهم؟

إننا لم نر أو نعرف أو نجد أن وجوداً وجد من لا وجود.. هل رأينا الإله أو رآه أحد أي أحد من ملاك أو نبي يوجد أو يحدث شيئاً من لا شيء؟ وكل ما رأيناه وعرفناه نحن المؤمنين أن الإله يصوغ ويولد ولكنه لا يوجد أو يلد، ولكنه لا يخلق.

.. إذن أليس المنطق يحتم علينا أن يجيء منطقنا وتفكيرنا ليقولا إن هذا الوجود أي هذا الكون وكل وجود وكون لم يوجد من فراغ.. لم يكن مفقوداً ثم وجد.. لم يخلقه أي خالق كما لا يمكن أن يزيله أو يعدمه أي مزيل أو معدم من خارجه؟

إنه لا إيجاد أو وجود من لا وجود أي من فراغ..

.. إذن لن يمكن أن يتهم أي إله أو أي كائن بهذه الجريمة الصانعة لكل الجرائم أي جريمة إيجاد هذا الوجود أو أي وجود.. إذن فلتفرج وتسعد وتهنأ بهذه البراءة التي لن يستطاع نقضها أو التراجع عنها أيها الإله الغريق أبداً بكل التهم والاتهامات المحاصرة لكل وجودك ومعانيك وأخلاقك وآفاقك ورؤاك وتفاسيرك وتاريخك الذي كتبته ونحتته وصاغته واستفرغته وقرأته وأقرأته كل حشرات وعاهات وتشوهات ودمامات وبلادات وجهالات وآلام وآثام هذا الوجود..!.. أليست كل هذه الآفات والعاهات والتشوهات والحشرات وكل الدمامات والموبقات إنما هي بعض استفراغات ذاتك وآلامك أيها الإله البائس الكئيب.

❀ ❀ ❀

إن ها هنا قصة لعلها أغرب قصة. قصة يصعب فهمها.. يصعب فهم أسبابها وأسباب الاقتناع بها. ما هذه القصة؟ هذا الكائن الذي لم يعرف مثله معقداً ومعقداً المسمى إنساناً.. منذ وجد أي منذ وجد في صيغة إنسان أو تخلق في صيغة إنسان.. منذ تخلق كذلك من وجود سابق متنقلاً في صيغ وجودية لا يمكن تعدادها أو تصورها كلها..

.. منذ وجد هذا الوجود.. ومتى وجد هذا الوجود أي في صيغة إنسان؟ إنه سؤال لن يجد جواباً.. إنه سؤال يغرق في ظلمات وأحقاب الزمان وفي مقابره وكهوفه..!

إنه لم يوجد في ذلك الزمان مؤرخ أو شاهد ليقول لنا متى كان ذلك.!

منذ وجد هذا الوجود لم يجد أو ير أو يعرف أو حتى ينتظر أو يتوقع وجود شيء بل أو إيجاد شيء من العدم بل كان كل ما رآه وعرفه ووجده وتوقعه وانتظره بل وفعله وحاول أن يفعله هو ولادة الشيء أو توليده، خلقه أو تخلقه، كينونته أو تكوينه من وجود موجود.. من وجد قد وجد من وجود آخر بتسلسل وتعاقب لا بداية له وأيضاً لا نهاية له أي بمعنى العدم.. إن القول بالبداية كالقول بالنهاية كلاهما تحديد للرؤية التي هي غير محدودة.!

حتى الإله إنه لم يره أو يجده أو يعرفه أو ينتظره أو يتوقعه موجداً أي شيء من العدم. لهذا لا يطلب منه شيئاً من ذلك.. لا يطلب أو يرجو أو ينتظر منه مولوداً بلا والدة أو زرعاً بلا أرض أو رياً بلا ماء أو مطراً بلا سحاب أو سحاباً بلا سماء وأرض أو وجوداً إنسانياً لم يتطور أو يتحول أو يتولد أو يولد من وجود آخر سابق أو حتى وجود إله أو ألوهية دون أن تسبق أو يسبق بوجود كائن مثل الإنسان أو غيره، أي بدون وجود كائن إنسان أو غيره قد تطور إلى طور من يستطيع بل طور من يفرض عليه طور تكونه وتكوينه أن يتصور أو يعتقد أو يجد أو يرى أو يتقبل وجود كائن أو إله مدبر ومخطط ومريد وعاشق وفاعل وصائغ هذا الوجود وكل وجود.. إن وجود الإله أو تصوره ليس إلّا طوراً من أطوار وجود الإنسان.!

إنه أي الإنسان في كل أطوار وجوده الإنساني لم ير أو يجد أو يعرف أو ينتظر أي كائن

غيره.. أي إله أو أي كائن آخر غير الإنسان يخلق أو يوجد أو يصوغ أو يؤلف أو يطور أي شيء أو أي وجود من الكون الموجود أو من أي شيء قد وجد.

ـ أي يفعل ذلك بتدبير وتخطيط ونظام وحساب..!

إن فاعل ذلك هو الإنسان وحده. هو طور الإنسان فقط..!

لقد رأى وعرف ووجد واقتنع بالتجارب والرؤى الدائمة بل الأزلية الأبدية أن كل ما يحدث ويقع ويتخلق ويتولد ويتغير في هذا الوجود ومنه وفي كل وجود ومن كل وجود محكوم بالفوضى والآلية الذاتية العشوائية الدائمة أي حين يحاسبها أو لو حاسبها هو أو غيره بأي منطق أو حساب أو نظام أو أخلاق أو مصلحة أو منفعة أو رؤية أو إرادة أو مسؤولية يريدها هو أو غيره ويعرفها ويقتنع بها ويعمل لها ويتعامل ويتحاور ويتخاصم ويتعادى أو يتصالح ويتقارب ويتحاب ويتسالم بها ولها ومن أجلها.. إنه لم يرَ أو يجد غير عمليات بصق واستفراغ وإفراز وولادة بلا أي حساب أو تخطيط أو فهم..!

إنه لا يرى أو يجد أو يعرف أي شيء من ذلك فعل أو تخطيط أو إرادة أو منطق أو أخلاق أو جمال أو فن أو حكمة أو رحمة أو عبقرية أو شاعرية أي إله أو أي حكيم أو عاقل أو مسؤول. إنه لم يرَ أو يجد أو يعرف وإنه لن يرى أو يجد أو يعرف إلّا ما هو خروج على كل ذلك.!

ولهذا فإن كل نضاله أي نضال الإنسان المادي والمعنوي موجه ضد هذا الوجود وضد ما يقع فيه ويقع منه ليجعله شيئاً ملائماً ونافعاً ومعقولاً مقبولاً صحيحاً سوياً يستطاع التعامل به ومعه وتستطاع معايشته ومساكنته والحياة فيه وبه. أليس كل نضال الإنسان نضالاً ضد الوجود بالصيغ التي جاء بها؟

.. هل يمكن أن يراه أو يجده أو يعتقده فعل وإرادة ومنطق وأخلاق وتصميم وعشق أعظم إله ثم يفعل به ما فعل وما يفعل؟

لو كان يراه أي يرى الوجود أي وجود إرادة وتدبير وصنع وإخراج وعطاء أعظم إله لما جاز أن يفعل أو يغير أو يحدث أي شيء فيه بل ولا أن يريد ذلك أو يتمناه أي الإنسان، بل لوجب أن يعبده ويقدسه أي هذا الوجود وكل ما يقع منه وفيه..!

أليس تغيير أو تصحيح أي شيء في هذا الكون خروجاً على فاعله؟

.. أليس بعض المعاني لهذا أنه أي الإنسان لا يؤمن بأن أي شيء أي وجود يمكن أن يوجد، أن يخلق أو يتخلق من العدم، من لا شيء موجود.. لا يؤمن بأن أية قوة كبرى أو صغرى قد فعلت ذلك أو أنها قد تستطيع فعله فتفعله؟

وأيضاً أليس من معاني ذلك أن الإنسان لا يؤمن بأن ما يقع ويحدث في الكون والوجود الموجود من أطوار وتطورات وتطوير وتغير وتغيير وصيغ وتوالد وتوليد وتفاعل وكينونات جديدة متجددة ـ لا يؤمن بأن شيئاً من ذلك يحدث بتدبير وتخطيط وإرادة وفعل وقوة عظمى أو صغرى من خارج الكون أو من داخله؟

إنه لا يوجد في الكون الذي نعرفه غير الإنسان من يفعل بإرادة وتدبير وحساب ولكنها إرادة وتدبير وحسابات جاء محكوماً عليه بها بالأسلوب والمنطق اللذين حكما عليه بوجوده.!

.. أجل، إنه لا يؤمن هذا الإيمان وإن كان لم يفطن ولا يفطن ولن يفطن إلى ذلك لأنه لا يرى أو يقرأ أو يفسر أو يحاسب أو يحاور أو يسائل نفسه فكيف يحاكمها إذن كيف يعرفها؟

وإنما يؤمن وإن لم ينطق بذلك بأن جميع ما يحدث في هذا الوجود وفي كل وجود ليس إلّا خبطات وخطوات وضربات وتفجرات وتفاعلات ذاتية آلية اضطرارية عشوائية لا منطق ولا تدبير ولا إرادة ولا خيار ولا حساب فيها أو لها من داخلها أو من خارجها. إنه لم يوجد في كل أطوار وجوده ما يجعله يصدق أنه وجد أو قد يوجد من يقول للشيء كن فيكون. إنها مقولة يسخر منها كل شيء..!

.. وهنا يأتي السؤال الكبير الصعب جداً ليقول:

إذن كيف جاء الأنبياء والمعلمون والدعاة والكهان وجميع المزورين والمخادعين والمتهمين في كل أخلاقهم ومعانيهم ومواهبهم وفي علاقاتهم مع أنفسهم ومع تعاليمهم ودعواتهم ودعاويهم ومع آلهتهم وأنبيائهم ومع كل شيء.

ـ نعم، إذن كيف جاء هؤلاء بكل الظهور والضجيج والإعلانية والكبرياء ليعلموا الإنسان بل ليفرضوا عليه الإيمان الصارخ المعادي المقاتل البذيء الوقح المغرور المرهب المستبد الطاغي المطارد الطارد لكل القيم الإنسانية.. العقلية والأخلاقية والعلمية والإنسانية والنفسية وهكذا الإيمان أبداً ليعلموه ويفرضوا عليه الإيمان بأن كل هذا الوجود وكل وجود إنما خلق من العدم.. من الفراغ المطلق.. إنما خلق وجاء بكلمة واحدة.. بكلمة «كن، كن، كن وجوداً موجوداً، كن هذا الوجود وكل وجود آخر.. كن سامعاً وفاهماً ومستجيباً مطيعاً فاعلاً منفعلاً قبل أن توجد وقبل أن تكون لك أذنان تسمع بهما أو عقل تفهم به أو ذات تستجيب بها أو وجود تخاطب به».

.. ليعلموه ويفرضوا عليه، على الإنسان الإيمان بأن كلمة «كن، كن» قد وجهت إلى الكون وخوطب بها فسمعها ففهمها فاستجاب لها قبل أن يوجد..!؟ فظيع هذا.. أيخاطب غير الموجود ليؤمر فيسمع ويستجيب؟ من قال هذا؟ أوجد من قاله؟

.. أليس الخلق من العدم.. من الفراغ يعني حتماً أن شيئاً غير موجود قد خوطب، قد قيل له كن فسمع وفهم واستجاب ـ يعني حتماً أن كائناً عاقلاً وليس مصاباً بكل الجنون قد صرخ قائلاً يا غير موجود، يا من لا يسمع ولا يفهم لأنه غير موجود تعال، تعال وكن في هذه الصيغة دون كل الصيغ الأخرى فسمع وفهم واستجاب ثم أصبح بعد وجوده لا يسمع ولا يفهم ولا يستجيب أي هذا الكون الذي لا يسمع ولا يفهم ولا يستجيب.. الذي هو بلا حواس ولا أحاسيس يعامل بها ويتعامل بها.. كائن خوطب وطلب منه الحضور قبل أن يوجد فسمع وفهم واستجاب وبعد أن وجد أصبح لا يسمع ولا يفهم ولا يستجيب..!

.. كيف أمكن أن يجهل أي جاهل أن إيجاد المعدوم يعني حتماً التوجه إلى العدم لمخاطبته

ومطالبته ليسمع ويفهم ويطيع ويستجيب؟ كيف أمكن أن يقبل أو يعقل بل أو يتصور ذلك أحد؟ هل يوجد متهم بأقسى وأفجع التهم مثل من قال ذلك أو قبله أو فهمه وعقله أو قال إنه فعله ويفعله فكيف إذاً مدح نفسه بذلك بقوله وبفعله له؟ كائن يصنع ويوجد كل شيء بكلمة «كن» إذن كيف أمكن ورضي أن يوجد أو يبقى في هذا الكون أي شيء رديء أو أليم؟

.. هل وجد هذا الكائن أي القائل الفاعل لذلك؟ انكروا وجوده، اخفوه، استروا عليه، على بشاعة فضائحه وبلاهاته ومخازيه..!

نعم، القول والاعتقاد بالإيجاد من العدم، من الفراغ ماذا يعني؟ هل يستطاع التعبير عن قبح ما يعني ذلك؟ هل استطاع أو يمكن أن يستطيع كل عباقرة البشر أن يوجدوا أي شيء من العدم؟ أليس هذا العجز يعني أنه ليس في الإمكان حدوث ذلك أو فعله؟

ثم كيف جاؤوا أي هؤلاء المعلمون الخبثاء أو الجهلاء أو الخبثاء الجهلاء بل الذين أصبحوا معلمين ومشرعين وقادة للجهل والخبث والضلال - كيف جاؤوا إلى الإنسان ليعلموه أن يؤمن بل ليفرضوا عليه أن يؤمن بأن كل ما يحدث في هذا الوجود بعد أن أوجد وكل ما يحدث منه. كل أخطائه وخطاياه وتصادماته وتناقضاته وتشوهاته وعاهاته ودماماته وسفاهاته وبلاداته وظلاماته وظلماته وعوراته وخبطاته وعشوائياته وأنّاته وآهاته وكل آلامه وأمراضه وهوانه وعاره ومجاعاته وزلازله وبراكينه وأعاصيره وطوفانه وكل ما يفجع ويفضح ويرهب ويعجز ويحزن ويقتل ويحير ويصدم ويهزم ويهين كل العقول والرؤى والتفاسير والحسابات والأخلاق والعواطف الإنسانية الحية المؤمنة المحاسبة - ليؤمن بأن كل ذلك وكل الآفات والشرور والنقائص والحماقات الأخرى ليست عمل الكون أو الوجود، ليست تفاعلاته أو عملياته أو تجاذباته أو تصادماته أو تناقضاته أو تولداته أو تراكماته أو منافساته أو مصارعاته أو تنفساته أو استفراغاته أو بصقاته أو مناطحاته أو ملاكماته أو مبارزاته أو تحركاته الآلية الذاتية الاضطرارية التي لم يردها أو يخططها أو يفهمها أو يحسبها أو يحاسبها أو يرضها أو يفعلها أي منطق أو تفكير أو حساب أو خلق أو قدرة مطلقة أو محدودة داخلية أو خارجية. شيطانية أو ملائكية مع أن كل العقول الذكية والغبية، وكل العيون الرائية والعمياء، وكل الأخلاق الحماسية والمسترخية المتبلدة، وكل الحسابات والمحاسبات الصادقة العليمة والكاذبة الجاهلة، وكل القراءات الأمية والمنهجية لم تجد أو تر ولن تجد أو ترى في هذا الوجود أية علامة أو إشارة أو خدعة تقنعها أو تخدعها أو تجعلها تقاسي شيئاً من الشك تدل ولو بكل الضعف والاهتزاز والارتياب على أن أي شيء في هذا الوجود قد كان أو يكون، حدث أو يحدث بما يمكن أن يكون أو يسمى ولو بأضعف الاحتمالات تدبيراً أو تخطيطاً أو إرادة أو حساباً أو محاسبة أو عقلاً أو جمالاً أو فناً أو التزاماً بالمصلحة أو المنفعة أو العدل أو الرحمة أو الحكمة، أو بحثاً عن ذلك، بل مع أن كل ذلك نقيض وتحدٍ لكل ذلك بكل القسوة والصراخ والوقاحة، مع أن كل كائن وأي كائن لم يرَ أو يجد ذلك ولن يراه أو يجده مهما أراد وحاول أن يكون مخدوعاً بل كل المخدوع لكي يستطيع أن يراه أو يجده بل لم يرَ أو يجد إلّا المناقض لكل ذلك كل المناقضة وأقساها، بل جاؤوا أي هؤلاء المعلمون ليجعلوه

أي الإنسان يؤمن بكل الجهر والإعلانية والرضا والإعجاب والفرح والتعبّد والتقديس بأن كل ما يحدث في هذا الكون وفي كل كون وكل ما يحدث منه إنما يحدث بأمر وتدبير وتخطيط وإرادة وسعادة وفنون وعناية وإتقان وترتيب وتنظيم وتوقيت وتوزيع أعظم وأقوى وأذكى وأتقى وأرحم وأحكم وأعدل إله.. ليجعلوه يؤمن بأن كل ذلك وكل شيء إنما حدث ويحدث بكلمة: كن، كن بل ليفرضوا عليه ذلك..

.. إن جميع الشرور والآلام والآثام والأخطاء والقبح والآفات والنقائص التي تتخلق وتتوالد وتتفاعل وتتفجر في هذا الكون وفي كل كون ذاتياً آلياً اضطرارياً وكذلك ما هو وما يحسب ويرى نقيضاً لذلك، أي لهذه الشرور.

- إن جميع ذلك كما يقول هؤلاء المعلمون أي المجهلون أي المعلمون للجهل - وهل يعلم هؤلاء غير الجهل أو هل يعلم الجهل غير هؤلاء المعلمين؟ أليس معلمونا ومعلمو كل الشعوب أو أكثر الشعوب أي معلمونا ومعلموهم السماويون أو الروحانيون أو الدينيون أو التاريخيون أو القوميون هم أخطر وأجهل المعلمين؟

- نعم، إن جميع ذلك كما يقول هؤلاء المعلمون إنما يحدث بالأمر له، بكلمة «كن» يسمعها ويفهمها فيكون مستجيباً مطيعاً لها..

إن كل شيء يحدث هكذا: أيها التشوه، أيتها العاهة، أيها القبح، أيها النقص، أيها الخطأ التكويني كن في هذا الوجه دون ذلك الوجه الآخر، في هذا الوقت دون الأوقات الأخرى... أيها السل، أيها السرطان، أيها الشلل، أيها العجز والضعف، أيتها الأمراض الأخرى، كل الأمراض الأخرى كوني في هذه الأجسام دون الأخرى، كوني بهذا الشكل، بهذه القسوة والقوة والاتساع والرسوخ والديمومة والاستعصاء على كل علاج أو كوني أخف وأهون من ذلك أو بغير ذلك..

أيها الزلازل، أيتها البراكين والأعاصير والقحط والمجاعات والأخطار يا كل الفواجع والآلام والأهوال والكوارث كوني هنا أو هناك أو هنالك، في هذا الزمان والمكان أو في زمان ومكان آخرين، بهذه الصيغة والعنف أو بصيغة وعنف أكثر وأطول أو أقل وأقصر فتسمع قبل أن توجد وتفهم وتقبل وتطيع..!

وكذلك كل المناقضات والأضداد لهذه القوارع والفواجع إنما تكون وتحدث بالأمر لها بأن تكون بكلمة: «كوني، كوني» ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

إن الخالق والصانع والمغير لكل شيء كلمة واحدة هي: كن، كن..!

أجل، لقد جاء هؤلاء المعلمون ليعلموا البشر بل والآلهة الإيمان بل ليفرضوا على البشر وأيضاً على الآلهة الإيمان بأن كل الوجود إنما أوجده من العدم موجد من خارجه، وبأن كل ما يحدث في الوجود الذي أوجد من لا شيء وكل ما يحدث منه إنما يفعله فاعل خارجي يفعله بكل التدبير والحكمة والرحمة والاتقان والعبقرية والإعجاز والإبداع.. إن كل شيء إنما جاء ويجيء من خارجه وجوداً وتغيراً وتطوراً. كيف أمكن فهم ذلك أو حتى تصوره؟ أين ذهبت العقول؟

.. لقد جاء هؤلاء المعلمون لإفساد وإخماد وتضليل الرؤى والمواهب والطاقات الإنسانية، جاؤوا ليعلموا أن كل موجوداً إنما أوجده موجد من العدم، وأن كل ما يحدث ويقع من هذا الموجود الذي أوجد من العدم أو يحدث ويقع فيه إنما يحدثه ويوقعه كائن خارجي لتكون النتيجة المنطقية المحتومة وجود كائن مطلق، مطلق في كل كينوناته وتفاسيره وقدراته، ليتحول هذا الكائن إلى إله ضخم مخيف مستبد عدواني أناني شرير عابد لذاته بلا حدود أو مقاييس، لا تشبعه كل عبادات ومدائح وتقديس وذل وتذلل ونفاق كل العابدين المادحين المقدسين الذالين المتذللين المنافقين.. لا يخضع أو يعرف أو يحترم أو يلتزم أي منطق أو أخلاق أو آداب أو قانون أو دين أو تشريع أو تقاليد أو أي معنى جيد أو مفروض أو مطلوب أو منتظر أو مرجو منه ومن كل أحد ومن كل شيء..

.. يخرج ويطلق ويوزع يديه وعضلاته وكل أسلحته وجنوده وأبالسته في كل الآفاق والاتجاهات.. في كل السموات والأراضي والميادين والبيوت والكهوف والحقول والصحارى بل وفي كل المعابد والمضاجع والأماكن الأدق والأكثر حياء وإحساساً وتخفياً، بل وفي الأعضاء التي يخجل ويراع ويتوارى من الحديث عنها من زرعت فيهم فكيف بمن أرادها وخططها وفعلها وزرعها؟

يفعل كل ذلك بلا أي قدر من الاستحياء أو من الشعور بالذنب أو بضخامة الوقاحة والبذاءة والسفاهة والعدوانية.. نعم، يفعل ذلك بلا أي رؤية أو محاسبة أو تقدير أو نظام أو قانون أو تساؤل أو مساءلة ليقتل ويجرح ويقطع ويشوه ويعذب ويخيف ويفقر ويجيع ويذل ويقعد ويضعف ويشيخ ويطرد ويطارد ويهزم ويفسد ويهدم ويخرب.

.. ليفعل كل ذلك وكل شيء بلا أية قوة معاقبة أو محاكمة أو مانعة أو حتى لائمة معاتبة زاجرة أو حتى ناصحة واعظة..!

الفاعل لهذا الوجود ولكل أخطائه وخطاياه يفعل كل ذلك حراً، حراً. فظيع، فظيع..!

.. أجل، لقد جاءت نتيجة تعاليم وتعليم هؤلاء المعلمين الإيمان أو الظهور والتظاهر بالإيمان بهذا الكائن أو الإله الذي هذه الأوصاف هي بعض أوصافه أو شيء من أوصافه. لقد حولوا هذا الكائن، هذا الإله وحولوا الإيمان به إلى أقسى وأشمل وأدوم إرهاب لكل معاني الإنسان وأخلاقه وسلوكه وتطلعاته ولكل نشاطه النفسي..!

لكل طاقاته ورؤاه العقلية والأخلاقية والإنسانية والحضارية..!

.. لقد أفسدوا وأذلّوا وشوّهوا كل رؤاه وتفكيره وإيمانه وعقائده وأخلاقه ومعاملاته وعلاقاته بعضه مع بعض ومع نفسه ومع كل شيء كما فعلوا ذلك بتجاربه. لقد أفسدوا تديّنه وتقواه..!

.. لقد جعلوه يرى نقيض ما يرى ويفهم ويعقل ويقبل ويصدق ويمدح ويمجد ويعبد ما لا يستحق شيئاً من ذلك، بل ما يجب أن يفعل به وله أقسى النقيض لذلك.. لقد جعلوه يهجو بأسلوب ونيات المديح والتمجيد.. لقد جعلوه يوقع بنفسه ما لم يكن محتملاً أن يوقعه بها لولاهم..!

لهذا لن يحسب ظالماً أو مخطئاً من فسر هؤلاء المعلمين بأنهم أقسى وأشهر أو من أقسى

وأشهر أعداء الإنسان أي الفاعلين فعل الأعداء وإن لم يكونوا أو يحسبوا أو يعلنوا أعداء.. أي الأنبياء وكل من جاؤوا ليكونوا معلمين لتعاليم الأنبياء ومفسرين لهم..!

وإن لم يريدوا أن يكونوا أعداء أو يعرفوا أنهم أخطر الأعداء. إن العدو الذي لا يحسب عدواً هو أخطر الأعداء..!

أليس الذين يجيئون ليفسدوا ويخمدوا ويضللوا ويضعفوا ويرهبوا ويذلوا كل أنواع الإرهاب والإذلال عقولنا ورؤانا وتصوّراتنا وعواطفنا وأخلاقنا وعلاقاتنا بعضنا ببعض ويحرقونا ويغرقونا ويشحنونا بالعداوات والخصومات والبغضاء والبلادات والجهالات والخرافات بل بالموت.. بالحروب، الحروب بالحروب الساخنة والباردة.. الواقعة والمتوقعة المهددة.

- أجل، أليس هؤلاء هم أخطر وأشمل وأبشع وأدوم وأوقح الأعداء حتى ولو جاؤوا في أزياء أنبياء وخلفاء وأئمة ومعلمين ومنقذين وقادة وزعماء وسلاطين ومحررين وأبطال؟

بل هل وجد أو يمكن أن يوجد من فعل ويفعل وسوف يظل يفعل بنا كل ذلك غير هؤلاء المنقذين الأبطال؟ ماذا لو لم يأت إلينا هؤلاء الأبطال المنقذون؟ ألسنا حينئذٍ أفضل حظوظاً وأسعد وجوداً؟

.. كيف استطاع هؤلاء المعلمون أن يخدعوا الإنسان هذه الخديعة الفظيعة الرهيبة بكل هذه الديمومة والشمول وقد كان المفروض ألا يستطيعوا خداع أحد بها لأن كل شيء يصرخ في وجهها يقول لها أنت كاذبة، كاذبة وكذلك في وجوه مبتكريها ومروّجيها وفي وجوه المتعاملين والمصدقين لها وبها..!

إن كل شيء يصرخ في وجه وأذني كل شيء قائلاً: إنه الخداع، الخداع..!

لقد ساكن وعايش وعامل وجرب الإنسان هذا الوجود وقرأه وفسره وتعذب به أحقاباً، أحقاباً واصطلى وشقى بكوارثه وفظائعه وبكل أخطائه أي هذا الوجود وخطاياه بكل معانيه أي الإنسان بوجوده وجسده وعقله وقلبه وأخلاقه وعواطفه وآماله ورؤاه وبكل شيء فيه حتى إيمانه وتدينه لقد فجعا وروعا وتعذبا بما رأيا وفهما وواجها من هذا الوجود وفيه. لقد كان كل المحتمل والمعقول والمقبول ألّا يفجع بهذا الوجود وبفاعله إن وجد مثل الإيمان والتدين مثل المؤمن بمخطط ومريد وخالق هذا الوجود أي لو وجد..

.. لقد أصبح عاجزاً كل العجز عن أن يفهم أو يفسر أو يقبل أو يغفر أو يتحمل ما يرى ويواجه ويجد ويعاني في هذا الكون ومنه. إنه لا يستطيع أن يفسر ذلك ولا شيئاً منه تفسيراً منطقياً أو أخلاقياً أو دينياً أو فدائياً أو نفعياً أو أي تفسير..!

لقد صار محاصراً ومحكوماً عليه بأقسى تفاسير وحالات الاحتياج إلى الإنقاذ.. إنقاذ وجوده وحياته وعقله وأخلاقه وضميره ومشاعره وتفكيره ورؤاه وكل تطلعاته واتجاهاته.. إلى إنقاذ كل ذلك فيه مما يرى ويواجه ويجد ويقاسي ويفجع ويصدم ويفضح أبداً، أبداً بلا أي تغير أو تخفيف أو

توقف.. بلا أي مدافع أو حامٍ أو مداوٍ أو زاجر أو حتى منكر أو صانع لأي أمل في الإنقاذ أو التغيير أو التخفيف من كوارث وضربات وحماقات وجهالات وبلادات وعشوائيات هذا الكون الذي يواجهه ويشقى به كل معاني وصيغ الشقاء بكل وجوده المادي والمعنوي وحده بلا مماثل له في هذا الشقاء وهذه المواجهة..

.. ومن هذه الظروف وتحت هذه الظروف تخلق وتسلل هؤلاء المعلمون ليعالجوا آلامه وأهواله بتضليل وإفساد عقله وتفكيره وضميره ورؤاه وأخلاقه وكل معانيه بل وبتخدير وتحطيم قدراته المادية والمعنوية.. ليعوقوا ويضللوا كل تحديقاته وتحليقاته. ليعطلوا أجنحته الجسدية والمعنوية.. ليضيفوا إلى كوارثه الكونية والتكوينية الذاتية الإنسانية كوارثه التعليمية التلقينية الإملائية التضليلية ليكون أي الإنسان ملتقى وهدفاً لكل الكوارث والعذاب والتعذيب والترويع والتفجيع. وقد كان هذا الملتقى وهذا الهدف بلا منافس مشارك مهما ظن أو اعتقد أو قال غير ذلك بل نقيض ذلك تحت كل أجهزة التضليل والإغراء والخداع ومهما قيل له غير ونقيض ذلك..!

إنه لا مرجوم بكل أسلحة ومعاني الرجم مثل الإنسان أو غير الإنسان، أن الطور الإنساني هو الطور المتجمعة فيه كل أجهزة التعذيب والتهديد..!

.. إنه لو كان في هذا الوجود أو له آلهة لكان واجباً أو محتوماً أو مقبولاً أو معقولاً أو على أقل التفاسير محتملاً أن يقال إن جميع هذه الآلهة قد تجمعت وتآمرت وتعاونت بكل الوقاحة والنذالة والسفاهة وشراسة العدوانية لكي تستطيع أن توقع بالإنسان شيئاً مما يقاسي ويواجه ويعايش ويكون لا كل ذلك لأن كل ذلك لن يستطاع، لن يستطاع.!

إن عذاب الإنسان بكل معانيه لا تستطيع كل الآلهة أن تخططه وتفعله مهما تآمرت!

.. إن من أقسى وأفظع ما أوقع بالإنسان أن جعل يرى ويعتقد ويعلن أن وجوده وحياته هما أسعد وأفضل وأذكى وأتقى وأنبل وجود وحياة مع أنهما كل النقيض لكل ذلك. إنه لا يعرف وجود وحياة يتنافسان وجود وحياة الإنسان في ما فيهما من قبح وشقاء وبلادة وفجور وخروج على كل المعاني الجميلة الحميدة..!

.. إن مزاياه وخصائصه المتفوقة لن تتكافأ أو تتساوى مع رذائله ونقائصه وعيوبه وذنوبه فكيف بفواجعه وآلامه؟ فعبقرياته وإبداعاته وتحليقاته وأفراحه وانتصاراته وسعادته وذكاؤه واكتشافاته وصداقاته ومحباته ومصافحاته ومعانقاته ومحالفاته وسلامه وتسليماته وامتداحاته ومؤتمراته وقراباته وكل أساليب وآفاق وفنون حياته.

- نعم، إن كل ذلك وغيره من مزايا الإنسان الكثيرة العظيمة لن تستطيع أن تتكافأ أو تتساوى مع نقائص وأضداد ذلك الشاملة الفاجعة الرهيبة المحتومة الواقعة المقاساة دائماً أو المنتظرة دائماً المحتوم وقوعها..!

إنه معايش أبداً لأقسى المآسي أو متوقع لها..!

هل يستطيع أي شيء فيه سعيد أو لذيذ أو حميد أو جميل أو عظيم أو عزيز أن يتكافأ أو

يتساوى مع نقيضه الذي لا بدّ أن يقاسيه أو أنه يقاسيه.. مع ما لا بدّ أن يقاسي أو أنه يقاسي من النقيض الحزين أو الأليم أو الذميم أو الدميم أو الحقير أو الذليل أو من كل ذلك في وقت واحد ودائماً؟

إنه لا يستطيع أن يعيش ولا لحظة واحدة خارج الواقع أو المتوقع الرهيب..!.

.. حتى إيمانه وتقواه هل يستطيعان أن يتكافآ أو يتساويا مع كفره وفسوقه؟ وهل يستطيع تذكره للإله وشوقه إليه أن يتكافآ أو يتساويا مع تذكره لقبائحه وفضائحه وشوقه إليها؟

حتى طهارته ونظافته ووضوؤه واغتساله وتنظيف أسنانه بالمسواك وبالمنظفات الجديدة الحضارية الأخرى هل تستطيع أن تتكافأ أو تتساوى مع قاذوراته وتلوّثاته النفسية أو العقلية أو الأخلاقية أو العاطفية أو الدينية أو حتى مع تلوثاته وقاذوراته المادية والجسدية والبيتية والبيئية والأرضية والكونية والموتية والقبرية؟

هل تستطيع ضخامة كل ما بنى أن تتكافأ مع مهانة وقبح أسوار وأحجار مقابره؟

.. هل يستطيع أي شيء وكل شيء مسعد ومريح ومفرح وممجد وممز له أن يتكافأ أو يتساوى مع صدماته وفواجعه وفضائحه وهزائمه ومهاناته ومذلاته وأحزانه ومخاوفه وتوقعاته الرهيبة الكئيبة العقلية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية والقومية والإنسانية بل والدينية والغيبية والتخيلية؟ هل تستطيع صلاته الراكعة الساجدة لإلهه أن تتكافأ أو تتساوى مع ركوعه وسجوده وصلواته الدائمة الخانعة لشهوات وأوثان وجوده وحياته وأوامر وأخلاق وطغيان مجتمعاته وطغاته؟

كيف أمكن أن يتخيل جحيم الأنبياء بكل أهواله ليكون عقاباً له ليخلد فيه أبد الآباد؟ هل التخيل إلّا أحد تفاسير المتخيل الأليمة أو السعيدة؟

الإنسان يتخيل الجحيم ليخلد في عذابه. فظيع، فظيع جداً، جداً..

.. أليس في هذا أقوى التدليل وكل التدليل على ضخامة ما يختزن ويقاسي في نفسه وفكره وحياته ووجوده وتوقعاته وتصوراته وتجاربه ورؤاه وهمومه من أهوال العذاب ومن الرغبة في صنع وإيقاع العذاب والتعذيب بالآخرين لأنه يقاسي ذلك؟ ما أفظع قبح ووحشية العذاب الذي تقاسيه وتتمناه للآخرين ويسعدها أن يقاسيه الآخرون تلك النفس التي استطاعت أن تتصور الجحيم المعروفة أوصافه ليكون سكناً للبشر ولو لبعضهم.. إن النفس التي تخيلت الجحيم عقاباً لأي كائن لن تكون إلّا شراً من كل جحيم..!

أليس تصور هذا الجحيم النبوي المحمدي وتشريعه عقاباً وتقبله عقاباً يعني أحد تفسيرين وقد يعني التفسيرين معاً..!

أحد التفسيرين أن المتصور لهذا الجحيم المشرّع له عقاباً والقابل ليكون كذلك يقاسي في نفسه وحياته عذاباً تعجز كل تصورات وتخيلات من لا يقاسونه بكل القسوة والفظاظة عن تصوره وتخيله بل عن تصور وتخيل شيء منه..؟

من أوقع بنفس النبي محمد كل هذا العذاب الذي صوّر له هذا الجحيم؟

.. وثاني التفسيرين أن المتصور المشرع القابل لهذا الجحيم النبوي المحمدي عقاباً والراضي به والمعلن له كذلك أي عقاباً يملك من القسوة والوحشية ومن الحقد والبغضاء ومن الشهوة لإيقاع كل العذاب وأقسى العذاب المستطاع بل وغير المستطاع ـ يملك من ذلك ما لا تستطيع كل الوحوش وكل القساة والحاقدين والمبغضين والمتوحشين أن يملكوا أو أن يستطيعوا أن يملكوا أي شيء أو أي قدر من ذلك. ما أقسى تفاسير هذا الجحيم لنفسية النبي محمد.!

نفس تخلق فيها هذا الجحيم تصوراً وتمنياً واستفرغته تعليماً ووعيداً وتهديداً..! هل وجدت هذه النفس؟ هل وجدت؟

هل وجدت مؤامرة كونية لفضح هذا النبي العربي هي التي جعلته يتصور هذا الجحيم؟

.. كيف أمكن أن يتصور أو يقبل أو يعلن أي كائن مهما كانت وحشياته وحماقاته وبلاداته وجهالاته أن الإله أو أي كائن قد يعاقب ويعذب بهذا الجحيم الذي شرح وأعلن وعلم أوصافه النبي العربي، بل أو قد يصنعه أو يتصوره أو يتحدث عنه؟ يا كل العالم تعال، تعال لتقرأ وتفسر النفس العربية التي ولدت وتخلقت فيها نفس هذا النبي العربي..!

والذين آمنوا بهذا الجحيم العربي عقاباً لأي إنسان أو لأي كائن ليخلد فيه أو ليمر عليه مروراً أو ليراه رؤية واحدة هل يحتمل ألا يكونوا قد فقدوا كل عقولهم وأخلاقهم ورؤاهم وعواطفهم وكل معانيهم الجيدة؟ بل هل يمكن ألا يكون قد خلقوا بدون أي قدر من هذه الأوصاف والمعاني التي يوجد الحديث عنها والتمجيد والتعليم لها دائماً ولكن ما أقل أن توجد.. إن الكلام لم يكن في أي يوم دليلاً على الواقع إذا لم يدل عليه شيء آخر..!

وسحب أو قتل أو إفساد هذه المعاني من الإنسان وفي الإنسان هو أحد وظائف وأهداف هؤلاء المعلمين.

إن المعلم لا يعلم ليهدي أو ينقذ ولكن لينتصر أو ينتشر أو يربح أو ليستفرغ نفسه.. ولكن الأخطر والأفجع أن هؤلاء المؤمنين بهذا الجحيم وبكل ما قاله لهم معلموهم لا تسحب أو تقتل أو تضلل أو تفسد فيهم معانيهم هذه أي عقولهم وأخلاقهم ورؤاهم وعواطفهم ومشاعرهم وإيمانهم وتقواهم وكل معانيهم الجيدة المعلمة المطلوبة المقررة المفسرة.. إن هذا الشيء سهل ويسير ويمكن تحمله وتقبله محاسباً بالتفسير الآخر الذي قد يكون هو التفسير الأليم الفاجع المحتوم الذي يقول أو الذي لا بدّ أن يقول إن هؤلاء لا يفقدون معانيهم ومزاياهم ولا تقتل أو تفسد أو تضلل فيهم هذه المعاني والمزايا ولكنها تقوي وتعلم وتحرض لكي تقاوم وتطارد وتقاتل وتهزم وظائفها المزعومة المعلمة المعلنة المقررة المفسرة.. لتكون النقيض الشامل الشرس الوقح لنفسها.. إنهم لا يصبحون بلا مزايا فقط بل يصبحون أعداء ومقاومين مناقضين محاربين لكل المزايا فيهم وفي الآخرين..!

إن المطلوب منهم ليس أن يصبحوا عاجزين عن الرؤية وعن الفهم وعن الصدق وعن المساءلة والمحاورة والمحاسبة والبسالة العقلية والنفسية والاعتقادية والإنسانية والأخلاقية بل المطلوب منهم حينئذٍ أن يكونوا أعداء وخصوماً ومقاومين مقاتلين مطاردين لذلك أي لهذه المزايا سواء أكانت أي

هذه المزايا فيهم أو في الآخرين.. في الملائكة أو في الأبالسة، في الأعداء أو في الأصدقاء..!

وما أكثر ما تحقق هذا المطلوب. إن المعلمين الذين علموا ذلك وأرادوا تحققه وتحقيقه لمنتصرون، لهم أعظم المنتصرين..!

إن جميع الانتصارات لهي شيء من انتصاراتهم وأحد التفاسير لانتصاراتهم.. إنه لم ينتصر على الإنسان بلا أية مقاومة مثلما انتصر عليه معلموه هؤلاء.!

نعم، هل وجد أو يمكن أن يوجد منتصرون مثل المعلمين الذين جاؤوا ليفسدوا ويخدروا ويضللوا ويسرقوا ويقتلوا ويخمدوا ويعوقوا ويثبطوا ويصيبوا بالبلادة والجهالة والسفاهة والهوان والعقم والجبن والعجز عقل الإنسان ورؤاه وإيمانه وعقائده وكل تصوراته وأخلاقه وعلاقاته مع نفسه ومع الحياة والكون ومع كل شيء وكل أحد حتى مع من آمن به إلهاً أو آلهة؟ نعم، هل وجد منتصرون بلا أية مزية أو سبب من مزايا أو من أسباب الانتصار مثل هؤلاء المعلمين الجاهلين؟

.. والذين أعلنوا وعلموا وأقنعوا وكذلك الذين قبلوا وصدقوا وآمنوا أن الإله هو الذي أراد وصمم وخطط وصاغ وخلق هذا الجحيم ليكون عقاباً وعذاباً وسكناً خالداً للإنسان الذي هو مريده ومريد له والذي هو مخططه وخالقه وصائغه ليجيء ويكون ويفعل كما جاء وكان وفعل، كما شاء وخطط رافضاً بإرادته ومشيئته وحساباته وقراراته وتدبيراته وبحكمته وشهامته ونخوته وتفضّله وبكل قوته وأجهزته أن يكون شيئاً آخر، شيئاً أفضل.. أن يكون عابداً مطيعاً مرضياً له، رافضاً مقاوماً أن يكون أقوى المؤمنين الأتقياء إيماناً وتقوى ليكون ناجياً من أهوال هذا الجحيم النبوي العربي بل متآمراً بكل الخبث واللؤم والخداع مستعملاً كل الأساليب والوسائل والحيل والمكائد والمصائد ليمنعه ويصده ويغريه عن أن يكون كذلك عن أن يكون مطيعاً عابداً له مستحقاً لثوابه ورضاه لا لغضبه وعقابه وانتقامه ولأهوال جحيمه هذا الذي لم يشتم أحد بشيء مثلما شتم به النبي العربي نفسه.

ـ نعم، هؤلاء الذين عرضوا الإله هذا العرض وفسروه هذا التفسير، وكذلك الذين آمنوا به معروضاً ومفسراً هذا العرض وهذا التفسير كيف كانوا يرون هذا الإله ويفهمونه ويفسرونه ويتصورونه؟ كيف استطاعوا أن يجدوا أو يتصوروا نموذجاً لأي كائن كهذا النموذج الفظيع البائس الكئيب الذي ابتكروه أو الذي استفرغوه وبصقوه ليلقوا بالإله فيه. بهذا الإله الذي لم يجد ولا يجد قانوناً أو ديناً أو نظاماً أو حرساً أو جيشاً أو شعباً أو قضاء أو عدلاً أو ذكاءً أو نبلاً أو رائياً أو غيوراً أو صديقاً أو خصماً أو عدواً شهماً يبرئه أو ينقذه أو يصححه أو يدافع عنه ولو بالكلام، ولو بالكلام ولو بالرثاء والبكاء؟ كيف ينتظر من هذا الكائن أي الإله أي إنقاذ أو إنصاف أو عون أو أي فعل جيد مطلوب أو واجب وهو لم يفعل شيئاً من ذلك لنفسه. لإنقاذ نفسه أو لمساعدتها أو لتبرئتها؟

.. كيف سبّوه وحقّروه وشوّهوه بكل صيغ ولغات وطاقات ومعاني السب والتحقير والتشويه أي هذا الإله كل هذه الأحقاب من الزمن دون أن ينفجر هذا الكون رثاء وغضباً من أجله وغيرة عليه.. دون أن يصرخ هذا الكون.. شموسه ونجومه وأقماره وبحاره وأنهاره وصحاريه وحقوله قائلة: أنتم كاذبون مزورون مخطئون ضالون.. دون أن تضرب شموسه ونجومه وأقماره وبحاره وحقوله وصحاريه

عن الطلوع والمجيء احتجاجاً ورفضاً وغيظاً واستنكاراً، استنكاراً، بل ودون أن يثور هو محطماً كل شيء.. كل الوجود غضباً وانتقاماً وثأراً لنفسه؟

.. أجل، لقد كانت قمة المأساة أو حضيضها أو بداية المأساة أو نهايتها، أو أقصى وأقوى شراسة المأساة وانتصاراتها المذلة الفاجعة هي أن استطاع بكل السهولة واليسر هؤلاء المعلمون الذين تقول أو يجب أن تقول كل الافتراضات والتفاسير المصابة بأي قدر من الذكاء أو الرؤية أو المحاسبة: إنهم لن يستطيعوا أي شيء مهما سهل وهان فكيف استطاعوا ما استطاعوه في هذه القضية؟

ـ نعم، إن استطاعوا أن يسحبوا من الإنسان كل معانيه المفكرة العاقلة الرائية المحاسبة المحاكمة المحاورة المسائلة القابلة الرافضة المعجبة المستنكرة المقاومة المحاربة وأن يخدروها ويخمدوها ويفسدوها ويقتلوها؟

ـ وليس هذا فقط بل إن استطاعوا أن يستبدلوا نقيض هذه المزايا بها أي ليس بأن يعجز عن أن يكون ما يجب ويطلب وينتظر أن يكون أو أن يرفض أن يكون بل أن يقاوم ذلك بكل الأساليب..!

ـ نعم، إن استطاع هؤلاء المعلمون الفاضحون المفتضحون أن يفعلوا بالإنسان كل ذلك لكي يستطيع أن يقبل ويقتنع ويصدق ويؤمن بل ويعلن ويفخر بأن كائناً ضخماً تعجز كل التفاسير والرؤى والتصورات بل وتهاب أن ترى أو تتصور أو تفهم أو تفسر ضخامته أو تحدق فيها أو أن تقرأها أو تحاورها أو تسائلها أو أن تقول لها ما يجب وينبغي أن يقال لها..

ـ نعم، بأن كائناً ضخماً، ضخماً.. بأن هذا الكائن الضخم الذي تعجز وتهاب وترفض أن تكون كل الضخامات المجنونة شيئاً من ضخامته المجنونة هو الذي أراد وخطط وصمم وأوجد كل هذا الوجود وكل وجود وموجود من صميم وأعماق وأخلاق وتفاسير كل معاني العدم..

وبأن هذا الكائن الضخم المتجمعة فيه كل صيغ ومستويات ومعاني كل الجمال والكمال هو الذي يريد ويعشق ويدبر ويخطط ويفعل بكل عبقرياته وأخلاقياته كل ما يحدث من هذا الوجود وكل ما يحدث فيه من موت وخراب وذنوب وفساد وضلال وطغيان وزندقات وحروب ومظالم ومجاعات وعاهات وتشوهات وقبائح وفضائح وعار وهموم وآلام وبلادات وجهالات ونقائص وفحش وسخف وعبث وضياع..

ومن كل ما لن يقبله أو يغفره أي منطق أو عقل أو حساب أو رؤية أو كرامة أو شهامة أو نظافة أو عدالة أو جمال أو تدبير أو تخطيط أو خلق أو فن.. من كل ما لن يوجد من يقبل أن يكون مريده أو مخططه أو فاعله أو مشاركاً فيه أو متهماً به.. كيف لم يعرف كل أحد أنه إذا كان فوق هذا الكون إله يخططه ويريده ويخلقه فإن كل عمل نعمله أو نريد أن نعمله لن يكون بكل التفاسير إلّا تصحيحاً ورفضاً ومقاومة ومطاردة لأخطاء وخطايا ونقائص هذا الإله؟

.. ومرة أخرى بكل الذهول والانفجاع والعجز عن الفهم بل وبكل الرثاء لكل من يريد أن يفهم ويصر على أن يفهم ـ بكل ذلك أسأل: كيف أمكن أن يؤمن الإنسان بذلك.. بما لقّنه هؤلاء المعلمون في هذه القضية؟

لقد عجز في كل أحقاب وجوده أن يرى أو يجد أو يعرف شيئاً يخلق أو يتخلق أو يجيء من لا شيء. لقد أمل وانتظر ودعا ورجا إلهه أو آلهته لكي توجد شيئاً أو أشياء من العدم لأنه محتاج أبداً إلى هذا الإيجاد أو الوجود من الفراغ فعجز عن أن يجد شيئاً من ذلك وعجزت أو رفضت أو أصيبت بالصمم عن أن تسمع وتستجيب أي آلهته أو أنها أي آلهته لم تصب بأي قدر من الاستحياء أو الحرج أو من النخوة أو الرحمة أو الشهامة لكي تكون سامعة مستجيبة ولو بأسلوب الغلطة النادرة..!

إنها لمزية للإله أنه لم يغلط ولا مرة واحدة لأنه لا يغلط إلّا من يوجد ويفعل.!

.. كذلك لقد تعذب وافتضح وهان وسخف ورذل وشقي أي الإنسان طويلاً، طويلاً ودائماً، دائماً وبلا حدود من كثرة دعائه وتضرعه وركوعه وسجوده وصلاته وتملّقه وانتظاره لإلهه أو لآلهته طالباً وراجياً بكل البكاء والمسكنة لها ومنها أن تتدخل وتنشط وتتحمس وتنهض وتمد يديها وعضلاتها بكل قوتها ورحمتها وحكمتها وكرامتها لكي تغير هذا الكون أو أي شيء منه لتصححه وتصلحه وتصوغه أو شيئاً منه صياغة يقبلها أو يرضاها أو يفهمها أو يعقلها أو يتعامل أو يتحاور أو يتلاءم أو يتعايش أو يتفاهم أو يتناجى معها أو يسعد أو يعجب بها العقل أو النظام أو القوانين أو الأخلاق أو المصلحة أو المنفعة أو الحكمة أو الرحمة أو العدل أو الفنون أو الجمال أو حتى الإيمان والتديّن والتعاليم والعقائد أو أي شيء جيد عظيم..!

لكي تحول أي الآلهة هذا الكون من كون همجي غوغائي عشوائي جاهلي فوضوي آلي بلا ضابط أو حساب أو ميزان أو تخطيط أو تدبير أو مسؤولية إلى كون حضاري علمي عقلي أخلاقي حسابي التزامي إنساني لا يطلق يديه وعضلاته في كل الظلمة بلا أية رؤية أو خطة أو فكرة أو إرادة. بلا أي قصد أو نية أو همة وفي كل الاتجاهات.. ليضرب ويقتل ويشوه ويجرح ويخرب ويدمر ويحرق ويغرق ويخيف ويهزم ويذل ويفعل كل المآسي والكوارث والضياع والهموم والجنون والعار والافتضاح بالمنطق والأسلوب والتقوى والنيات والأخلاق والرؤية والرحمة التي يفعل بها النقيض إذا فعله أو لو فعله أي بلا استحقاق أو فقد للاستحقاق في الحالتين.!

ليفعل كل ذلك غير مفرق بين هذا وهذا.. بين من يستحق ومن لا يستحق أو من يستحق النقيض.. غير عارف الفرق ولا باحث أو سائل عن الفرق بين من يستحقون ومن لا يستحقون أو من يستحقون النقيض.. غير مبالٍ بهذه الفروق أو بمعرفتها أو بمحاولة معرفتها.. غير آسف أو نادم على جهله بذلك..!

.. ليصنع وينفذ كل ذلك بلا أية متعة أو شهوة أو رغبة، وبلا اشمئزاز أو ندم أو حرج أو كره أو غثيان أو أية مقاساة من أي نوع من أنواع المقاساة المادية أو المعنوية.!

يفعل دون أن ينوي أو يريد أن يفعل ويكف عن الفعل دون أن ينوي أو يقصد أن يكف.! يحيي ويعطي حين يجب أن يميت ويمنع ويميت ويمنع حين يجب أن يعطي ويحيي..!

واحسرتاه واأسفاه.. واخيبتاه..! ما أقسى ذلك.. أقساه..! لقد دعا ورجا وانتظر الإنسان طويلاً، طويلاً، ودائماً، دائماً بكل الهوان والتذلل والمسكنة والمحبة والأمل والدموع.. نعم، دعا ورجا وانتظر

من قيل له إنه ربه لكي يتدخل أي تدخل ويفعل أي شيء في هذا الكون سلباً أو إيجاباً بتدبير وتخطيط وحساب وإرادة لكي يجد أي دليل على أنه يوجد خارج هذا الكون أي كائن يفعل بالقصد والتخطيط والتدبير والحساب والنظام وبإرادة الثواب والعقاب على حسب الاستحقاق وبنيات التحريض على فعل الخير والزجر عن فعل الشر بل ولكي يحمي هذا الكائن من كل الشرور والأخطاء والخطايا والمظالم ويعين على فعل نقيضها بل ويفعل نقيضها. ما أشد حاجة من يعيش في هذا الكون القبيح الأحمق إلى هذا الحامي.. وما أفظع ألا يوجد هذا الحامي ولا أي حامٍ في هذا الكون ومنه..!

.. لكي يعرف ويؤمن أي الإنسان أن هذا الكون وكل كون محكوم ومقود ومسير ومراقب محاسب محاكم بقوة مطلقة في قدرتها وحكمتها ورحمتها وعدالتها ويقظتها وحماستها وشهامتها ونخوتها وكرامتها واستجابتها وسرعتها وغيرتها وفي كل أفعالها وتحركاتها وهجماتها ومقاومتها وضرباتها بكل التدبير والتخطيط وبأذكى التدبير والتخطيط والاتقان والعدل والفروسية..!. ما أفظع ألا يوجد ذلك.!

ـ نعم، لكي يعرف ويؤمن ويقتنع بذلك ليصبح مطمئناً مستقراً راضياً مقتنعاً بأنه لا يحدث أي في هذا الكون إلّا ما يجب وينبغي أن يحدث التزاماً بالقوانين والشرائع والتعاليم والأخلاق المنطقية العادلة التي قبل أن تطبق على الإنسان ويلتزم بها الإنسان يجب أن تطبق على الإله والكون وأن يلتزم بها الإله والكون..! لقد كان صعباً ورهيباً ومفزعاً مقلقاً مخيفاً بلا حدود أن يجد الإنسان نفسه وحيداً بلا أي حامٍ أو مساعد وبلا أية قوة أخرى عادلة عاقلة قادرة حكيمة حاكمة تفعل ما يجب فعله ـ نعم، أن يجد نفسه وحده يعايش ويساكن ويواجه ويعامل ويصارع ويخاصم ويفسر ويحاور جثة هذا الكون..

الإنسان وحده أمام جبروت وطغيان وحماقات وجهالات وجنون هذا الوجود. هل يوجد مثل هذا توريطاً وتعذيباً؟ أجل، لقد كان الإنسان حريصاً ومحتاجاً ومولعاً بكل الاحتراق والحماس واللهفة والديمومة أن يجد هذا الكائن أو هذا الإله الذي علم ولقّن بل وفرض عليه الإيمان به..!. لقد كان تعليماً وتلقيناً وفرضاً لما لن يصبح قضية تحاسب أو تفسر أو تفهم.!

ولكن كل رؤاه وتجاربه ومعاملاته ومشاهداته وحياته ووجوده ومقاساته وتفاسيره وكل كينوناته وكينونات كل شيء ظلّت تصدم وتفجع وتكذب وتهزم كل آماله وإيمانه وتطلعاته وصلواته واعتقاداته وكل تعاليمه ومصاحفه وتوراته وأناجيله وكل مقدساته وملقناته ومحفوظاته قائلة: كلا، كلا.. ضلال، ضياع، خداع، عبث عبث.. تضليل، تضليل دفع فيه وله أغلى الأثمان وأفدحها وأقبحها وأغباها. إن أحداً لم تخب وتكذب وتصدم آماله وتطلعاته وعلاقاته مثلما خابت وكذبت وصدمت آمال الإنسان وتطلعاته وعلاقاته بالإله..!

.. إنه لا شيء سوى كون ضخم، ضخم الجثة، جثة ضخمة بلا أي شيء من العقل أو التفكير أو الأخلاق أو النظام أو الغرض أو الهدف أو القيمة.. بلا أي معنى مفهوم أو معقول أو مقبول أو يمكن أن يكون له أي تفسير أو غرض أو هدف.. كون ضخامته هي كل الضخامة وأكبر من كل

تصورات وتفاسير وحدود الضخامة بلا قائد أو حاكم أو محاكم أو منظم أو معلم أو موجه أو مفسر أو مؤدب أو معاقب كيف تطاق معايشته أو مساكنته أو فهمه أو التعامل معه بشيء من الثقة؟

.. إنه كون أو وجود آلي ذاتي اضطراري عشوائي أمي. لا يدري ولا يسأل لماذا جاء ومتى ولماذا جاء كما جاء إن كان قد جاء ولا متى يذهب وكيف يذهب ولماذا يذهب وأين يذهب إن كان محتوماً أن يذهب وهل من الخير والأفضل أن يذهب أو أن يبقى.. كون لا حدود لضخامته وبداته بلا أي تدبير أو تفكير أو تخطيط أو تنظيم أو إرادة أو هدف أو غاية أو خلق أو حتى رؤية.!

.. كون أو وجود هو كل أعداء نفسه.. يحارب ويخاصم ويشوّه ويقتل ويمرض ويفقر ويجيع ويناقض ويفسد ويدمر ويزلزل ويهين ويعوق ويصادم ويفجر ويهزم ويحرق ويضلل ويلعن ويهجو نفسه ويوقع بها كل الشرور والآثام والأخطاء والخطايا التي وجدت والتي سوف توجد دون أن يدري أو يريد أو يستطيع ألا يفعل ذلك أو أن يفعله بأي أسلوب آخر أو أن يرحم أو يشفق أو يخجل أو يتوقر في فعله..!

.. وسوف يظل يفعل كل ذلك وغير ذلك بنفسه أبداً، أبداً بلا أي إنقاذ أو تغيير في الأسلوب أو في النية أو في المنطق إذ لا منطق هنا ولا نيات، كون بكل هذا الاتساع والضخامة يعمل بل يضرب ويخبط بكل قدرته بلا أي قدر من العقل أو المنطق أو الحساب أو حتى التساؤل..!

.. والعجب كل العجب إن استطاع الإنسان أن يضل كل هذا الضلال المعجز في نوعه وديمومته وقوته.

ـ إن استطاع التصديق والإيمان بأن هذا الوجود وكل وجود قد أراده ودبره وخططه وأوجده من العدم كائن من خارجه أي الإله، وأيضاً إن استطاع التصديق والإيمان بأن كل ما يحدث في هذا الوجود ومنه إنما يحدثه أعظم كائن أي الإله بكل التدبير والتخطيط والحكمة والرحمة والاتقان والجودة والإعجاز وبكل الإرادة والمشيئة والمحبة والفخر والمباهاة والإعجاب والرضا والفرح والتحدي.. التحدي.. التحدي..!

لقد جاء ضلال الإنسان في هذه القضية ضلالاً معجزاً ومتحدياً لكل ضلال أي في ضخامة شذوذه وغبائه وجرأته على التحدي لكل ما يناقضه ويبطله ويكذبه ويسخر منه وكل شيء يفعل به كل ذلك أي يبطله ويناقضه ويكذبه ويسخر منه..!

وهو أيضاً معجز لكل الضلال في ضخامة خسرانه والخسران به ومنه، لقد خرج الإنسان بكل وجوده.. بكل عقله ورؤاه ومواجهاته وتجاربه وبكل معانيه ـ خرج بكل ذلك من وجوده ومن هذا الوجود ومن كل وجود لكي يستطيع أن يؤمن هذا الإيمان..!

لقد صلب ورجم وجلد وطارد وعاقب وأذلّ كل معانيه لكي يؤمن هذا الإيمان..!

إن أي شيء لم يعاقب أو يهن أو يشوه نفسه أو يخرج عليها مثلما عاقب وأهان وشوّه الإنسان نفسه وخرج عليها ومنها بإيمانه هذا الإيمان..!

لقد ظلّ الإنسان ولا يزال وسوف يظل يصد ويهدد ويقاتل ويزجر كل رؤاه وتساؤلاته وأفكاره

وأخلاقه ومحاسباته لكي يستطيع أن يظل مؤمناً هذا الإيمان. لقد ظلّ وسوف يظل مضطراً إلى هذا الصد والتهديد والزجر والمقاومة والمقاتلة لمعانيه هذه ولكل معانيه الصادقة المتعاملة مع وجودها ومع وجود هذا الوجود لكي يستطيع أن يظل مؤمناً إيمانه هذا..!

لقد جاء غباء وضلال الإنسان في هذه القضية متفوقاً على غباء وضلال هذا الكون مع أن الكون هو الذي زرع ورعى ورسخ وخلد في الإنسان غباءه وضلاله وعلمه إياهما واضطراره إليهما وكذا فعل به وله كل معانيه كما فعل وصنع به وله وجوده وذاته وكل كينوناته وصيغه..!

وهكذا جاء المخلوق وفياً لخالقه إذ تخلق والتزم بكل أخلاقه ومعانيه بل جاء المخلوق متفوقاً على خالقه في كل ذلك.!

لقد خلق هذا الكون الإنسان بالأساليب والنيات والعبقريات والشهامة والبحث عن الجمال والكمال التي بها خلق الحشرات والجراثيم المرضية والعاهات والتشوهات والزلازل والبراكين والأوبئة والمجاعات وكل ما يفجع ويصدم ويغيظ ويثير كل الذعر والغثيان والاشمئزاز والغضب والاكتئاب العقلي والنفسي والفني والإبداعي والأخلاقي..!

هل عرف أو درس أو فسر هذا النوع من الاكتئاب أي اكتئاب العقل والفن والإبداع والأخلاق؟

لو كان لهذا الكون إله وكان قد تخلق فيه شيء من الغضب والاحتجاج والرفض أو من هذا الاكتئاب النبيل أي الاكتئاب العقلي والنفسي والإبداعي والأخلاقي فهل كان يمكن حينئذٍ أن يوجد هذا الوجود أو أي شيء منه أو أن يوجده كما أوجده؟ ما أقبح وأخسر وأنذل كائناً كل تفاسير وأخلاق وعقل هذا الكون هي كل تفاسيره وأخلاقه وعقله وكل قبحه هو كل جماله..!

لا.. لم تكن الكلمة في البدء ولا البدء..

عجيب وفظيع هذا القول الذي قال ويقول:

«في البدء كانت الكلمة». من قائل هذا؟ بائس هو..!

إذا كانت الكلمة هي البدء وفي البدء أي قبل كل شيء وموجدة لكل شيء فمن الذي قالها أي الكلمة وقد افترضت قبل كل شيء.. قبل أن يوجد أي قائل يقولها أو يقول أي شيء غيرها؟ أليس محتوماً أن تكون الكلمة.. كل كلمة مسبوقة بغيرها ومسبوقة بقائلها؟ كيف يخفى ذلك على أحد؟ كيف وجد من قال ذلك أو من فهمه أو من صدقه؟ ولكن أليس التعجب من أي شيء في هذا الوجود هو الذي يجب أن يصنع كل العجب..؟

.. أيها العقل، أيها المنطق اغفرا لمن خلقوكما أو نطقوكما أو لمن تخلقتما فيهم أو لمن خلقتماهم أو لمن نسبتما إليهم أو نسبوا إليكما. إنهم يستحقون الغفران لأنهم يستحقون كل الرثاء..!

لا، لا تغفرا بل حاسبا وعاقبا من أهانوكما وشوهوكما وأفسدوكما وأوقعوا بكما كل الاتهامات الفظيعة.. ولكن أيها العقل، أيها المنطق ألستما مخلوقين محكومين مسخرين مستعبدين ولستما خالقين أو حاكمين أو قائدين أو حتى معلمين أو قاضيين أو حكمين فكيف إذن تريدان أو تستطيعان أن تحاسبا أو تعاقبا؟ صعب القول بأنكما ظالمان أو بأنكما مظلومان.. إنها لأقسى مشكلة بل إنها لكل المشكلة..

إنه لا يوجد بدء لكي تكون الكلمة أو غير الكلمة هي البدء أو هو البدء. إن البدء المطلق مستحيل في قوانين الكينونة والوجود والإيجاد والخلق والتخلق.. إن البدء المطلق يعني وجود الشيء من لا شيء وبلا موجد. وهل يمكن هذا ولو تصوراً؟

إن القول بالبدء من لا شيء مثل القول بفناء ما لم يوجد أو بضعفه أو بمرضه. إنه مثل الحكم على من لم يوجد ولن يوجد بأي حكم؟ وهل حدث أن حكم على من لم يوجد أو وصف؟ لقد حدث..!

إن «الكلمة» طور متطور بعيد جداً عن البدء لو كان يوجد بدء.. إنها في كينونتها وتكونها وفي وظائفها وتفاسيرها أعلى مستويات التطور.. إنها طور التدبير والتفكير والمحاسبة والإبداع المخطط المحسوب الفعّال المفسر..

فالكلمة ليست ألفاظاً أو نطقاً بل ليست لغات فقط ولكنها هذه المعاني. فالذين لم يبلغوا طور التفكير والتدبير والتخطيط والمحاسبة والإبداع المفسر لم يبلغوا طور الكلمة مهما بلغوا طور النطق

واللغات بل مهما بلغوا طور من يتعبدون ويصلون وينزلون ويحفظون ويفسرون ويقرؤون الكتب المقدسة ويخاطبون الآلهة معها، بل مهما حسبوا وأعلنوا آلهة. والإنسان فيما يعرف حتى اليوم هو وحده الذي بلغ طور الكلمة ما أطول المسافة بين طور الكلمة وطور النطق بالكلمة...!

ولعل الصحيح أنه بعض الإنسان وليس كل الإنسان أي الذي صعد إلى طور الكلمة.

إنه لا يوجد في الكون الذي نعرفه من بلغ طور الكلمة غير الإنسان أي بعض الإنسان.. كم هي طويلة وعظيمة الفروق بين الإنسان الذي بلغ طور الكلمة والإنسان الذي بلغ طور النطق بالكلمة..!

.. حتى الإله أي لو وجد هذا الإله الذي أوجد هذا الكون ونام فوقه أو في أوحاله ـ نعم، حتى هذا الإله هو بعيد كثيراً عن بلوغ طور الكلمة لأن كل ما حدث ويحدث في كونه بل وفي حياته وممارساته لحياته بعيد كل البعد عن أي شيء من التفكير والتدبير والحساب والتخطيط والمنطق والنظام والمحاسبة بل هو كل النقيض لكل ذلك.. إن الزلازل والبراكين والأعاصير والأوبئة ليست كلمة ولم تكن أو تحدث بالكلمة ومثلها الإله.. إن محدثها لم يكن ولن يكون متعاملاً بالكلمة أو فاهماً أو متعلماً لها.!

.. إنه لم يوجد أبعد عن طور الكلمة وعن منطقها وأخلاقها وتفاسيرها مثل الإله.. مثل كل إله وقد ينافسه في ذلك الإنسان العربي.!

.. أجل، لقد كان في البدء الكلمة أو كانت الكلمة في البدء أو كانت هي البدء إذا كان المعني بالبدء بدء حضارة الإنسان وبدء إنجازاته الإبداعية ولم يكن يعني بالبدء بدء الكون أو بدء الأشياء من العدم أو من الفراغ أو البدء الذي يكون بكلمة: «كن» «كن» موجهة إلى لا شيء فيكون كل شيء.. كل ما يريده قائل «كن»..!

نعم، إذا كان هذا هو المراد بالبدء وكان المراد بالكلمة الصاعدة إلى طور التفكير والتدبير والتخطيط والرؤية المقتحمة المتخطية لكل الحدود والسدود والحواجز..

وكان المراد بالكلمة الكلمة الصاعدة إلى طور الأفعال والابتكارات الإبداعية ولم يكن المراد الكلمة الجميلة الشاعرة الفصيحة البليغة المعجزة في بلاغتها وفصاحتها المتحدية في إعجاز فصاحتها وبلاغتها ولا الكلمة التي تقول للشيء كن فيكون كما يفهم قومي العرب معاني الكلمة.. هل أهين أي شيء مثل القول بأن الأشياء تحدث بأن يقال لها كوني فتكون؟

هل يمكن أن يكون قد بلغ طور الكلمة من يعتقدون ويعلنون بكل المباهاة والغرور أن كل معجزاتهم أو أعظم وأخلد معجزاتهم هي الكلمة المقروءة المحفوظة المكتوبة المتغنى المصلى بها المتحدى ببلاغتها وفصاحتها كل العالم بل كل الكون، ولا يعنون بالكلمة الكلمة الصاعدة إلى أعلى أطوار التفكير والتدبير والتخطيط والتنظيم والتطوير والتغيير والإبداع؟

.. إن الكلمة هي أبداً تعبير عن مستوى الطور التكويني الذي بلغه قائلها ولكنها لم تصنع ولن تصنع هذا الطور أو المستوى..

.ولكي نفهم هذا الذي لا يحتاج فهمه إلى أية معاناة علينا أن ننظر إلى القوم الذين يملكون كتاباً مؤلفاً من كلمات أو مما زعم كلمات ويرون ويعلنون بكل الألسنة والأجهزة أن كتابهم هذا بكلماته هذه قاهر ومذل بإعجازه للإنس والجان بل ولكل الكون في كل زمان ومكان.

ـ نعم، لننظر إلى هؤلاء القوم لنرى ونسأل هل استطاع هذا الكتاب بكل أساليب استهلاكه وقيادته وتعليمه وإغرائه وإغوائه ونِدائه وإرهابه وادعاءاته ومزاعمه وتمجيده لهم وبكل افتتانهم وافتضاحهم بمذلة وقسوة إيمانهم به وطاعتهم وتعبّدهم له ـ أجل، هل استطاع أن يصعد بهم إلى طور الكلمة التي سبقت تفاسيرها؟

ـ هل يمكن تصور فاضحين لكل معانيهم وتفاسيرهم ومستوياتهم العقلية والفكرية والفنية والنفسية والتصورية والحضارية بل والإنسانية والمستقبلية مثل من يعتقدون ويؤمنون ويزعمون أنها توجد كلمة تقول للشيء.. لكل شيء ولأي شيء «كن» فيكون وأنه يوجد فوق هذا الكون كائن يملك هذه الكلمة امتلاكاً مطلقاً وشاملاً دائماً وأنه يتعامل بها أبداً، وأنه لا يحدث ولم يحدث ولن يحدث أي شيء في هذا الكون أو في أي كون إلّا بإطلاق هذه الكلمة عليه، كذلك لا يزول أو يموت أو يدمر أي شيء كان موجوداً إلّا بإطلاقها عليه؟! هل وجد حقاً من يقولون أو يعتقدون ذلك؟

قوم يعتقدون ذلك كيف يمكن أن يكون لهم منطق أو تدبير أو حساب أو تخطيط أو تفكير أو إبداع أو كيف يحتاجون إلى ذلك أو يثقون بأي شيء يرونه ويعملونه أو لا يرونه ولا يعملونه؟

قوم يؤمنون هذا الإيمان كيف يطمئنون إلى أن الكلمة «كن» لن تزيل في أية لحظة السرر والأرائك والأرض التي ينامون ويجلسون ويمشون فوقها؟

❀ ❀ ❀

.. كل شيء بل وكل ما ليس شيئاً مسددة إليه كل الأوقات ومن كل الجهات والاتجاهات بكل الأساليب والتوقعات والاحتمالات.. مسددة إليه كلمة «كن» الفتاكة الخالقة المحيية البانية لكل شيء ولكل ما ليس شيئاً والمشوهة القاتلة الهادمة المزيلة لكل شيء ولكل ما ليس شيئاً.. مسددة إليه لتفعل به وله كل الاحتمالات وكل ما يحدث له وبه وفيه وكل ما ينتظر ويتوقع..

.. مجتمع يعيش في كون تحكمه هذه الكلمة «كن» وقائلها..هذا المجتمع كيف يمكن بل كيف يجوز أن تتخلق فيه طاقات التفكير أو التدبير أو التخطيط أو الضبط أو المحاسبة أو الإبداع أو النشاط أو الحماس أو الاقتحام بأي نوع أو أسلوب من أنواع وأساليب ذلك؟

بل كيف يمكن أو حتى يجوز أن يفكر في شيء من ذلك أو يهتم أو يأخذ به أو يشعر بالاحتياج إلى أي شيء من ذلك؟

إن مثل هذا المجتمع لن يفعل شيئاً من ذلك بأسلوب قوي وجيد وصحيح مهما حاول أن يفعل ذلك ناسياً أو متناسياً لإيمانه بكلمة «كن»..!

ولن يكون إيمانه هذا هو المانع له من ذلك ولكن إيمانه هذا لا بدّ أن يكون تفسيراً لمستوياته الذاتية التكوينية التي يكون بها أو لا يكون.. يكون بها قوياً مبدعاً أو عاجزاً ضعيفاً متخلفاً..!

إن عقائد الإنسان وكذا آلهته لا تصنع أو تقتل أو تقوى أو تضعف طاقاته أو مواهبه العقلية أو الإبداعية أو النفسية أو الأخلاقية ولكنها قد تعلن عنها وتفسرها. فالعقائد وكذلك الآلهة هي أبداً مصنوعة مصوغة لا صانعة ولا صائغة..!

والفاجع في هذه القضية أن الأعجزين عن فعل الأشياء الجيدة والعظيمة هم الأقدرون على صناعة وصياغة الآلهة والأديان والعقائد الطاغية القاهرة المذلة القوية في إذلالها وقهرها.

.. لهذا فإن إيمان الضعيف الطاقات والمواهب والأخلاق والذكاء والحماس ـ فإن إيمانه بأقوى وأذكى وأتقى وأجمل وأعظم الآلهة أو الأديان أو المعتقدات أو المذاهب أو الكتب المقدسة لن يصنع منه أي إيمانه هذا أي شيء جيد أو ذكي أو قوي أو جميل..

إنه لن يصوغ تكوينه الذاتي أية صياغة أخرى لا أفضل ولا أردأ..

كما أن القوي في معانيه أي في تكوينه أو تكونه الذاتي لن يضعف ذلك فيه فقده للإيمان بهذا الإله أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الكتاب المقدس المحسوب أو المزعوم كل التفوق كما لن يضعف ذلك فيه إيمانه بأضعف الآلهة أو الأديان أو العقائد أو المذاهب أو الكتب المقدسة أي لو أمكن أن يؤمن بذلك.. بهذا الأضعف.!

بل المفروض أن المؤمن يضعف بقدر ما يقوى إلهه ودينه وعقائده وإيمانه بها.!

.. فالمؤمنون بكلمة: «كن فيكون» لم يكن إيمانهم هذا هو الذي صنع ضعفهم وتخلفهم الشامل الفاجع ولكنه أعلن عنه ودلّ عليه. إن كل أنواع التخلف والضعف لا بدّ أن تكون مجتمعة في المؤمنين بكلمة «كن».

.. والفروق بين كل الكائنات ومنها البشر ليست فروقاً في الآلهة أو العقائد أو الأديان أو المذاهب وإنما هي فروق في الطاقات والمواهب التي صنعتها وحتمتها الفروق في الكينونات الذاتية التكوينية.. حتى الآلهة والأديان والعقائد والطقوس والشرائع التعبدية.. إنها ليست إلّا أطوار كينونات بشرية أو ليست إلّا تعبيراً عن أطوار هذه الكينونات البشرية..!

فلو كان البشر في طور أعلى أو طور أدنى من الطور الذي هم فيه لما وجدت الآلهة ولا العقائد ولا الأديان ولا العبادات أي لما اخترعوها أو لجاءت في صيغ ومستويات وأحجام أخرى.. إن الإله هو إحدى صيغ المؤمن به.. إحدى صيغه العقلية والنفسية والأخلاقية والتصورية والتطورية..!

.. إن تكلم اللغات أو تخلقها أو ابتكارها أو ولادتها أحد أطوار كينونات الإنسان الذاتية ومثل ذلك اختراعه وتصوره وصياغته للآلهة والأديان والعقائد والعبادات والحياة الثانية بثوابها وعقابها

وفردوسها وجحيمها.. فهذه وهذه لا وجود لها في ذاتها وإنما وجودها في ذات الإنسان..

فطور الإنسان صنع اللغات والآلهة والأديان والعقائد وأنواع الطقوس التعبدية والحضارات والابتكارات التي لا حدود ولا نهاية لها..

أما أطوار الكائنات الحية الأخرى فصنعت الثغاء والرغاء والنعيب والنقيق والتغريد والصهيل والزئير والنهيق والنباح وغير ذلك..

وكلا الفريقين يعبر عن طوره لا عن أوامر أو شرائع قادمة إليه من وراء هذا الكون أو من فوقه..!

إنه لم يوجد من علم الإنسان آلهته وأديانه وعقائده وعباداته إلّا بقدر ما وجد من علم الكائنات الأخرى غناءها وعواءها وكل أصواتها..!

لقد تعلّم الإنسان كل اعتقاداته وغيبياته وأوهامه وصلواته كما تعلم أحقاده وعداواته وبغضاءه وأنانياته بلا معلم بل بطور كينونته كما تعلمت الحيوانات والطيور تعبيراتها..

.. إن المنطق أو القانون أو التفسير أو الهدف أو المعنى أو الجمال أو الذكاء أو الصدق أو الحب الذي تحول به الإنسان إلى كائن متدين متعبد معتقد منزل حافظ قارىء للكتب المقدسة.. مؤمن بالآلهة داعٍ مخاطب مناجٍ لها هاتف بها خائف راجٍ منتظر منها معاد محارب شاتم مبغض باسمها وبدعوى الاحترام والإرضاء والإفراح لها والدفاع عنها صانع لها أي للآلهة الجحيم والفردوس لترشو بهما ترغيباً وإرهاباً هو المنطق أو القانون أو التفسير أو الهدف أو المعنى أو الجمال أو الذكاء أو الصدق أو الحب الذي تحولت به الكائنات الأخرى إلى ثاغية وراغية وناعبة ونابحة وصاهلة وزائرة وناعقة ومغردة ومفترسة وأيضاً إلى صامتة كل الصمت..! إنها فروق في أطوار الكينونة الذاتية تحولت إلى فروق في التعبير عن هذه الفروق التكوينية الكينونية..!

إن ما في صلاة وصيام وحج وتعبّد وإيمان الإنسان من تقوى أو من تفاسير ومعاني التقوى لن يكون أكثر أو أفضل مما في نباح أو نعيب أو زئير أو صهيل أو افتراس الكائنات النابحة الناعبة الزائرة الصاهلة المفترسة من ذلك أي من التقوى أو من تفاسيرها ومعانيها لأن كلا الفريقين إنما يعبر عن طور كينونته لا عن تقواه أو فسوقه.. لا عن صفائه أو خبثه، لا عن حبه أو بغضه، لا عن نذالته أو نبله.. لا عن أنانيته أو إيثاره..!

إن سجود الإنسان للإله لا يحمل من معاني التقوى أو الجمال أو الحب أكثر مما يحمل من ذلك افتراس الحيوان المفترس لفريسته..!

إن كليهما ينطق بلغته ويستجيب ويخضع ويتعبد لكينونته..!

إن أصوات المؤذن والحاج والمصلي والداعي المتملق لإلهه ليست إلّا لغات طور كينونة كذلك أصوات الناعق والناعب والناهق والنابح..!

لن يكون الإله سعيداً أو جميلاً أو معبوداً أو مطاعاً بهذا إلّا بقدر ما يكون كذلك بذاك.

.. إن الكلمة أي ما يحسب ويزعم ويسمى كلمة كلمتان.. وكم هي عظيمة وبعيدة المسافات والفروق بين الكلمتين.. كلمة تنزل من السماء وتحفظ وتقرأ وتكتب ويصلى ويغنى ويتعبد ويفاخر ويباهى ويتحدى ويعجز بها كل العالم ويعوض ويستغنى بها عن كل مجد وقوة وإبداع وحضارة وطاقة بشرية بل وعن فكر وتفكير وعلم وعقل وابتكار إنساني مثلما فعل القرآن الذي هو كلمات كما يزعم أي مثلما رؤي وحسب وزعم واعتقد وأعلن أي القرآن.. أليس أصحاب هذا القرآن عاجزين عن كل شيء عظيم وجميل ونافع وتقي ومع هذا يزعمون ويعلنون أنهم هم كل قادة وهداة ومعلمي كل العالم وأنهم كل التحدي والإعجاز لكل العالم وكل التفوق والمتفوقين عليه أي بقرآنهم هذا الذي هو كلمات أي المزعوم والمعتقد والمعلن بأنه صعد إلى طور الكلمات بل إلى طور المعجز لكل الكلمات ولكل المتكلمين أي بكلماته؟ ولا بدّ هنا من الاعتذار إلى الكلمات والكلام لحسبان وإعلان القرآن كلمات وكلاماً.. أليس في هذا إهانة وإذلال وتحقير لمجد الكلمات والكلام أي في إعلان وحسبان واعتقاد وزعم القرآن العربي كلاماً وكلمات.؟ فظيع، فظيع هذا أي هذا الإعلان والحسبان والاعتقاد والزعم عن القرآن..!

نعم، أليس أصحاب هذا القرآن يزعمون ويعتقدون أنهم بدينهم وقرآنهم هذا هم كل قادة وهداة كل العالم إلى النجاح والنجاة والتقدم والقوة والمعرفة وإلى كل الخير والجمال والسعادة؟

.. هذه هي إحدى الكلمتين. وأكرر أنه لا بدّ من الاعتذار إلى الكلام والكلمات لتسمية ولزعم واعتقاد قرآننا ولكل ما نقوله أو لأي شيء مما نقوله كلاماً وكلمات..!

إن صعودنا إلى طور الكلام صعب مثل صعود النابحات والناعقات إلى طور اللغات..!

.. وأما الكلمة الأخرى فهي الكلمة المفكرة المدبرة المخططة المحاسبة المسائلة الفاعلة المبدعة العظيمة المتواضعة المرهقة المعذبة بالتزاماتها الكثيرة العظيمة.. إن هذه الكلمة هي كل الحضارات بكل إبداعاتها وأنواعها وتفاسيرها وتاريخها ومعانيها..!

فأية الكلمتين نحن.. أصحاب أيهما نحن؟

ليتنا نكون ونستطيع أن نكون الكلمة الثانية أو من أصحاب الكلمة الثانية مهما رفض وغضب وقاوم ديننا وقرآننا وإلهنا وأخلاقنا ومواهبنا وعجزنا وكسلنا وتقوانا وكل تراثنا وتاريخنا أن نكون ذلك أو شيئاً منه..!

أليس كل هذا يأبى أن نكون ما يجب وينبغي أن نكونه؟

.. ما أقبح وأفظع أن تكون الأمة المعجزة لكل العالم بالكلمة والمتحدية لكل العالم بالكلمة.. بالقرآن ـ أن تكون هذه الأمة هي أبعد العالم عن معاني الكلمة.. أعجز العالم عن أن تكون شيئاً من معانيها المدبرة المفكرة المخططة المحاسبة الذكية العاقلة الرائية الفاعلة المبدعة وليست الناطقة الصارخة ضد معانيها.. لتكون رفضاً ومقاومة ومطاردة بل وسباباً لمعانيها هذه..!

إن كل طاقاتنا ومواهبنا الكلامية نفي وتعيير وقتل وهجاء للكلمة بكل معانيها وتفاسيرها الحضارية والإنسانية والإبداعية بل والأخلاقية والدينية.!

⊛ ⊛ ⊛

إن أي قوم لم يهجوا أو يفضحوا أو يحقروا ويسبوا أنفسهم مثلما فعل قومي بأنفسهم حينما اعتقدوا وأعلنوا تحديهم وإعجازهم لكل العالم بل لكل الكون بكلمات.. ببلاغة وفصاحة هذه الكلمات.. ببلاغتها وفصاحتها اللفظية والتركيبية والتأليفية والنطقية والنظمية لا بعلمها أو إبداعها أي بكلمات القرآن متلوة ومسموعة ومغناة ومصروخاً مصلى بها وسارقة للأوقات والطاقات لحفظها وتفسيرها وتعليمها وللإعجاب والمباهاة بها وللحديث عن إعجازها وأسرارها وإصرارها على أن الإيمان بها وحفظها وتلاوتها والعجز عن فهمها بل والتعبد بالعجز عن فهمها هو كل الفهم والعقل والعلم والتفوق والنجاة والحياة وكل الانتصار على كل ما يطلب وينبغي الانتصار عليه..!

بل لقد حول قومي قراءة وحفظ هذه الكلمات بلا أي فهم أو محاولة فهم لها أو رغبة في فهمها ـ حولوا ذلك إلى أعلى وأتقى أساليب العبادة والتعبد وإلى أقوى أساليب الاستيلاء على محبة ورضا واهتمام وإعجاب الجالس بكل الغرور والكبرياء فوق كل هذا الوجود، لأن هذه الكلمات أي القرآن هي أعظم وأخلد وأنفع ما استطاع قوله وأراد قوله.. لأنه يرى أنه لا شيء يعرض ويفسر جماله وعبقريته وتفوقه مثل هذه الكلمات أي القرآن.. لهذا فإنه لم يتحد كل العالم بشيء إلّا به أي بالقرآن ولم يحرم على نفسه الكلام إلّا بعد أن تكلمه لأنه قد استفرغ فيه كل طاقاته وعبقرياته..!



الكلمة الأخيرة بل الأولى

كيف استطاع أي كائن مهما كانت بلادة ودمامة ووحشية وهمجية وفسوق عقله وفكره ورؤيته وأخلاقه وقلبه وضميره ونفسه وتقواه وكل معانيه أن يعتقد ويرى أو أن يلقن ويقال له فيصدق أن كائناً مطلق القدرة والإرادة والحرية قد خطط وصاغ هذا الوجود بكل آثامه وآلامه وعيوبه ونقائصه وتشوهاته وأخطائه وخطاياه وفضائحه وعاره وأوحاله وعداواته وخصوماته وزندقاته وحروبه ومظالمه وكل فحشه وقبحه ثم جلس فوقه أو أمامه متفرجاً متسلياً متلهياً مغنياً شامتاً متلذذاً سعيداً يرى ويسمع ويشاهد ويواجه دون أن يحرك أو يخاطب أو يحرض شيئاً من عضلاته أو عقله أو قلبه أو أخلاقه أو عواطفه ليصحح أو يصلح أو يغير أو يحمي أو يمنع أو يزجر أو يعالج أو يضرب أو يفعل أي شيء أو حتى يحزن ويبكي أو يخجل أو يقاسي من ضخامة الذنوب والعار أو حتى يهرب من وجوده أو يحاول الهرب؟

نعم، كيف أمكن ذلك؟ كيف أمكن؟

هل يستطيع جنون كل المجانين بل وكل الجنون المتصور والممكن والمستحيل أن ينافس جنون البشر في هذه القضية؟

هل أنهكت عبقريات وإنجازات الإنسان العقلية عقله فهوى إلى هذا الجنون؟ هل هناك علاقات حب مجنون بين العبقرية والجنون.. بين الصعود والهبوط؟

هل يمكن تصور بشاعة تساوي هذه البشاعة في أي معنى أو تفسير من معانيها أو تفاسيرها؟

أليست كل البشاعات لا بدّ أن تهزم وتصغر وتهون أمام هذه البشاعة بل وتغفر وتنسى؟

أليست كل البشاعات بكل صيغها ومعانيها هي ولادة واستفراغ هذه البشاعة.. هي شيئاً من الإعلان والتعبير عنها؟

.. نعم، فاعل كل هذا الكون.. فاعله بكل أهواله وعبثه وحماقاته وبلاداته وجهالاته ونذالاته وويلاته وقباحاته وفضائحه وجرائمه وعاره وهمومه..

فاعله بكل آثام وآلام ومهانات ودمامات وشقاء وأحزان وورطات كل كائناته.. كل حيواناته وحشراته وبشره..

ـ نعم، فاعله ومريده ومدبره وراضيه ومعايشه ومساكنه ومضاجعه بكل أوصافه هذه يظل أبداً، أبداً.. يظل كل عمره الطويل المديد الحزين العقيم البائس ـ يظل، يظل بلا حساب للزمن أو لأي شيء..

وهل للزمن وجود أو معنى في حساب وحياة فاعل ومخطط هذا الوجود؟

ـ نعم، يظل، يظل أبداً، أبداً بلا أية نهاية أو تغيير مستلقياً على ظهره أو منبطحاً على بطنه بلا أية مقاساة أو محاسبة عقلية أو قلبية أو أخلاقية أو حتى انفعالية نفسية أو دينية..

.. نعم، يظل كذلك في غيبوبة دائمة شاملة أو يظل كذلك متسلياً متفرجاً فرحاً مرحاً كل الفرح والمرح بكل هذا الكون وبكل ما يحدث فيه من أهوال، أهوال لا تستطيع كل التفاسير أن تفسره، ولا كل العقول أن تعقله، ولا كل الطاقات أن تطيقه، ولا كل الأخلاق أن تتحمله أو تغفره، ولا كل العيون أن تراه أو أن ترى شيئاً منه، ولا كل القدرات الحسابية أن تحسبه، ولا كل الأخطاء والخطايا أن تنافس شيئاً من أخطائه وخطاياه..

دون أن يفعل أي فاعل وصاحب هذا الوجود أو يحاول أن يفعل أي شيء رفضاً أو غضباً أو استنكاراً أو تغييراً أو تبديلاً أو تصحيحاً أو تخفيفاً أو اعتذاراً أو توبة أو محاولة لشيء من ذلك..

.. دون أن يتحرك أو ينبض أو يتفجر أو يحترق أو يصرخ أي شيء من طاقات جسمه أو من معاني معانيه انفجاعاً وذعراً واستقباحاً واستبشاعاً ورفضاً وكرهاً وتأثماً ومعاقبة للنفس.

.. دون أن يحطم كل المرايا التي أمامه والتي قد تكون خوفاً من أن يرى فيها وجهه أو ذاته أو شيئاً من وجهه أو ذاته..

دون أن يدمر ويزيل كل شيء لئلا يراه أو يجده أو يتهم بأن يراه أو يجده أو يعرفه أو بأنه موجده أو مريده ومخططه أو حتى معايشه أو مساكنه أو مواجهه..!

كيف أمكن أن توجد هذه الأسطورة أو أن يوجد صائغها؟

هل يمكن أن يوجد من يقبل أن يكون هو هذه الأسطورة مهما تنافس وتسابق كل المتنافسين والمتسابقين على التقرب إلى هذا المتهم باتهامه بها؟

وكم يستحق أن يذم ويتهم ويشتم ويعاب من يملك بعض القدرة على أن يصحح بعض كينونات هذا الكون ثم لا يفعل فكيف بمن يملك كل القدرة على تصحيح هذه الكينونات الكونية التي هو وحده مدبرها ومريدها وفاعلها ثم لا يفعل ولا يريد أن يفعل ولا ينتظر أن يفعل شيئاً من هذا التصحيح؟

ويل لكائن جاء معايشاً لهذا الوجود ومحكوماً عليه حكماً ذاتياً تكوينياً بأن يكون ويظل أبداً أمام كل شيء محدقاً رائياً سائلاً متسائلاً محاسباً محاكماً مصراً على أن يفهم ويقتنع قبل أن يقبل ويؤمن ويلتزم.

ويل لعقل يعيش في غير زمانه ومكانه ولقلب يخفق بين قلوب خامدة..

ويل لمن يرى بكل معانيه كل ما تراه عيناه. وهل وجد هذا الرائي؟

ويل لفكر يرفض هو أن يكون كاذباً أو جباناً ويرفضون بل ويعاقبون هم أن يكون صادقاً أو شجاعاً..

ويل لعربي ترفض أو لا تستطيع جبهته وقامته السجود والانحناء لكل الأوثان والوثنيات العربية..

أليس كل شيء في التاريخ العربي حتى أقبح الأشياء وأردؤها حتى الثورات العربية حتى الثوار العرب وحتى المتنبي وأمثاله من صناع العار العربي قد تحول إلى أوثان ووثنيات.. إلى أقسى الأوثان والوثنيات..

أليست كل الأوثان والوثنيات قد تجمعت في التاريخ.. العربي.. العربي.. والعربي الإسلامي؟

إن الإنسان المثل الذي يجب أن يكون هو زنديق العقل.. قديس النفس والأخلاق.. هو العاصي المتمرد المحارب بتفكيره.. المؤمن التقي الورع بسلوكه ونياته.. وليس العكس.

فهل تلد الأحشاء أو الأصلاب أو المواهب العربية هذا الإنسان المثل؟

هل تلده تقوى الإنسان العربي أو يلده تدينه أو إيمانه أو قرآنه أو كعبته؟

أو يلده أنبياؤه أو أتقياؤه أو فقهاؤه أو شعراؤه أو خلفاؤه الراشدون أو غير الراشدين؟

هل يلده عدنانه أو قحطانه أو الفاقد لأنسابه وانتسابه؟

ويل لكائن جاء معايشاً لهذا الوجود ومحكوماً عليه حكماً ذاتياً تكوينياً بأن يكون ويظل أبداً أمام كل شيء محدقاً رائياً سائلاً متسائلاً محاسباً محاكماً مصراً على أن يفهم ويقتنع قبل أن يقبل ويؤمن ويلتزم .

ويل لعقل يعيش في غير زمانه ومكانه ولقلب يخفق بين قلوب خامدة . .

ويل لمن يرى بكل معانيه كل ما تراه عيناه . وهل وجد هذا الرائي؟

ويل لفكر يرفض هو أن يكون كاذباً أو جباناً ويرفضون بل ويعاقبون هم أن يكون صادقاً أو شجاعاً . .

ويل لعربي ترفض أو لا تستطيع جبهته وقامته السجود والانحناء لكل الأوثان والوثنيات العربية . .

أليس كل شيء في التاريخ العربي حتى أقبح الأشياء وأردؤها حتى الثورات العربية حتى الثوار العرب وحتى المتنبي وأمثاله من صناع العار العربي قد تحول إلى أوثان ووثنيات . . إلى أقسى الأوثان والوثنيات . .

أليست كل الأوثان والوثنيات قد تجمعت في التاريخ . . العربي . . العربي . . والعربي الإسلامي؟

إن الإنسان المثل الذي يجب أن يكون هو زنديق العقل . . قديس النفس والأخلاق . . هو العاصي المتمرد المحارب بتفكيره . . المؤمن التقي الورع بسلوكه ونياته . . وليس العكس .

فهل تلد الأحشاء أو الأصلاب أو الواهب العربية هذا الانسان المثل؟

هل تلده تقوى الإنسان العربي أو يلده تدينه أو إيمانه أو قرآنه أو كعبته؟

أو يلده أنبياؤه أو اتقياؤه أو فقهاؤه أو شعراؤه أو خلفاؤه الراشدون أو غير الراشدين؟ هل يلده عدنانه أو قحطانه أو الفاقد لأنسابه وانتسابه؟

ISBN 978-9953-507-35-4

